الموسم

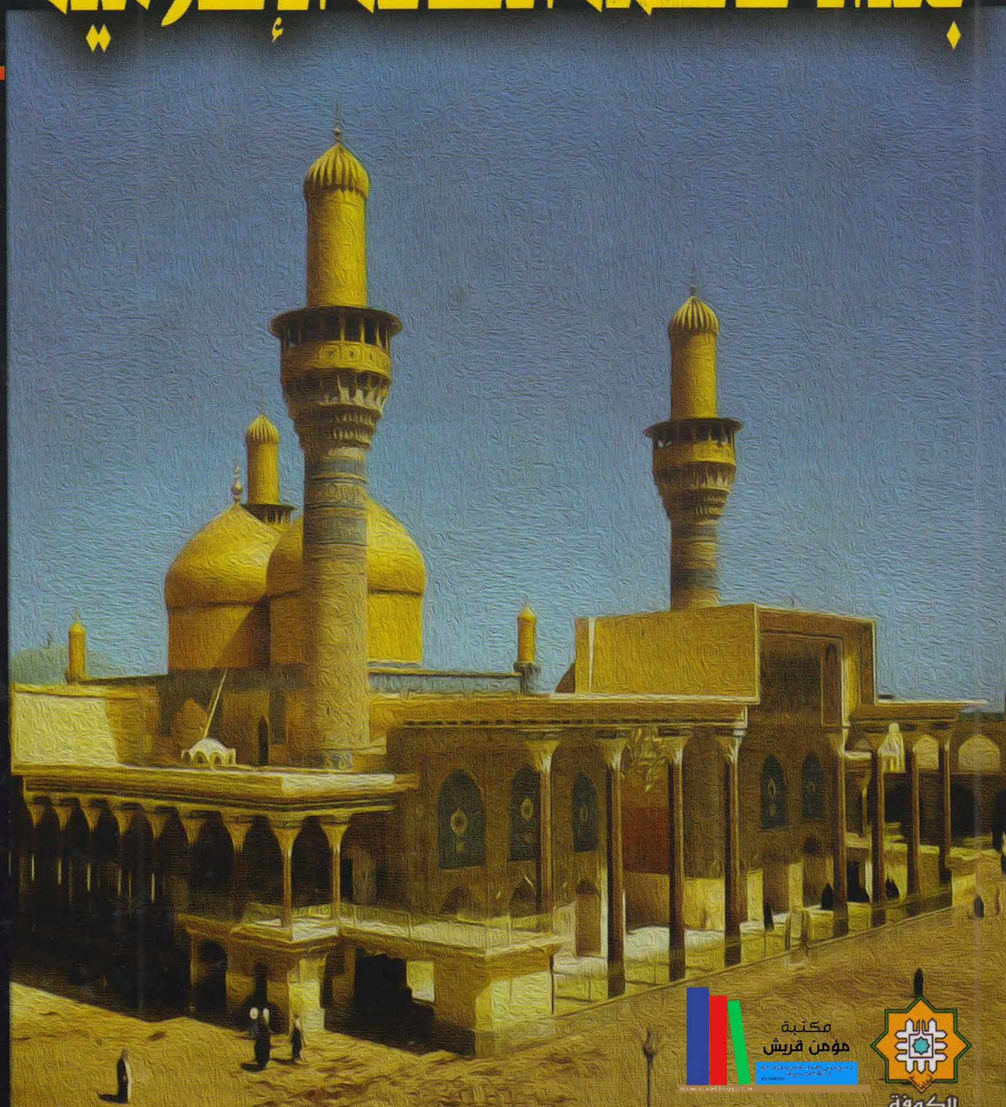
موسوعة فصلية تعنى بالآثار والتراث تصدر في هولندا
السنة السادسة والعشرون / 2014م - الجزء -103

صاحبها ورئيس تحريرها
محمد سعيد الطريحي

بغداد عاصمة الثقافة الإسلامية

٢٠١٣
بغداد
عاصمة الثقافة العربية

بغداد
3



مكتبة
مؤمن قريش

الكوفة
Kufa Academy

بغداد مدينة الحضارة
وعاصمة الثقافة والعمران

جمعه ودققه

محمّد سعيد الطريحي

المجمع العلمي الفاطمي

صدر بمناسبة احتفالات بغداد عاصمة الثقافة العربية

بغداد

عاصمة الثقافة العربية

أَعايَنْتَ في طُولٍ مِنَ الأَرْضِ والعَرْضِ ... كَبَغْدادَ دارًا إِنَّها جَنَّةُ الأَرْضِ

صَفا العَيْشُ في بَغْدادَ واخْضَرَّ عُودُهُ ... وَعَيْشُ سِواها غَيْرُ صافٍ ولا غَضِّ

تَطُولُ بِها الأَعْمارُ إِنَّ غِذاءَها ... مَرِيءٌ وَبَعْضُ الأَرْضِ أَمْرَأُ مِنْ بَعْضِ

«عمارة بن عقيل اليربوعي»

الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academy

أكاديمية الكوفة
هولندا

المراسلات

KUFAACADEMY P.O.Box: 1113
3260 AC Oud-beijerland - The Netherlands
e-mail: saltouraihi@yahoo.com
www.almawsem.org

بسم الله الرحمن الرحيم

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت

المكتبة الملكية - لاهاي ISSN 13842772

الموسم

لصاحبها محمد سعيد الطريحي

[illegible]

[illegible]

أول الموسم

وما أدراك ما بغداد؟

تمضي الدهور واسمك باق يا بغداد، فيا لله كم أغرى مجدك الغزاة والطغاة، لكنك صمدت وصبرت، وبقي اسمك خالداً كما كان أوّل مرة حين خلقتِ مع فجر التاريخ وشيدت بذلك مجداً لا يفنى وازدهاراً لا يَبْلى.

على طرف منك شيَّدَ المنصور مدينته المدورة فاستطالت الأحلام، وتنامت الرؤى، واستنارت أركانك بمصابيح الهداية وفيوض الحكمة وإشعاعات النور. أيّتها الجميلة الساحرة سلبتِ عقولنا.. أيّ ملاك حباك كل هذا الطهر والنقاء والعزيمة، يا سراج البركات:

ما زلت أنزل في ودادك منزلاً ... تتحيَّر الألباب دون نزوله

بغداد.. وما أدراك ما بغداد..

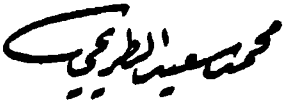
بغداد حاضرة الدنيا، وملتقى الثقافات التي وهبت العالَم كثيراً من طاقاتها الفكرية والتي انصبّت فيها كل روافد الفكر العتيق حيث التقت فيها الثقافة الهندية - الفارسية بالثقافة اليونانية - الرومانية وامتزجت كلها في الثقافة العربية - الإسلامية فاكتنزت فيها ذخائر العلوم والفنون من الشرق والغرب، فساهمت بنصيبها الوافر في إغناء التاريخ الإنساني بحصيل ناضج من كشوفها الجديدة في حقول الطب والفلك والهندسة والرياضيات والفلسفة وسائر العلوم الزمنية الأخرى فأصبحت في القرن التاسع الميلادي كعبة يحجُّ إليها الباحثون والعلماء ينهلون من حياضها ويستنيرون بضوئها قبل أن تُعرف باريس واكسفورد.

هذه هي بغداد التي يشرفنا أن نصدر عنها بعض الأجزاء من (موسوعة الموسم) فإن تكن الأيام قد قعدت بها فستبقى بغداد كما عهدناها، فبغداد اليوم تنهض من جديد لتشيّد الصروح، وترفع ألوية العلم والتنوير.

وتراث بغداد عصيٌّ على الفناء لأن وراءه حضارة رائعة وتراثاً ضخماً من الأدب الرفيع، ورصيداً من العلم تنبئ عنه آلاف الشواهد التي خلفها على مدارج الزمن، وما هذه المشاركة المتواضعة التي حررها نخبة من المحققين والدارسين إلاّ نقطة من بحر إرثها العظيم، ليبقى ذكرها للأحقاب، ولغير العراقيين ليتوسعوا في معرفة حضارتها الغاربة، وليكون حافزاً للجيلة المعاصرين من أبناء العراق الغيارى على ان يتأسوا بتأريخها ويشحذوا الهمم للسير على خطى الأجداد اعتزازاً بماضيهم وتثمين ما يوازي فائدتهم منه.

فسلام عليك وشوق إليك يا بغداد.

هولنده



شـــربنا مـــاء دجلـــة خـــير مـــاء وزرنـــا أشـــرف الـــشجر النخـــيلا

نـداء مـن أجـل العـراق

✍ الأمير الحسن بن طلال

تدور في ذهن كل منّا هذه الأيام مشاغل أمتنا العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج، وأحوال أمتنا الإسلامية الموزعة في كل أركان الأرض. وأسباب المشاغل مختلفة، ولكنها متشابهة في سلبيتها، للأسف الشديد. وكل المفاهيم التي نحاول أن ننظّر من خلالها لما يدور حولنا من أحداث، غير كاف لبناء سرد ناظم للأسباب، على الرغم من أنني أشدد على جانب التفاؤل دوماً في محاولة تفسيرها، بالسعي لمعرفة جوهر المشكلات وكنه التحديات اليوم.

واليوم عندما أكتب، أو أوجه نداء من أجل العراق، فأنا أدرك حجم الحساسية التي قد تتولد من صيحة عاقلة في ظل الظروف المشحونة بالعواطف، وما يمكن أن تذهب إليه التكهنات حول الأسباب والدواعي، لكن العزاء في أنني دائماً أكتب عن العراق وغير العراق من بلاد وطننا العربي الكبير، وكثيراً ما أوجه النداءات للأشقاء العرب للتضامن أمام التحديات التي تواجههم، والتعاون في صد التعديات التي تجابههم. وعليه، فليقرأ الناس صيحتي اليوم على هذا الأساس الراتب من الانشغال المصيري بقضايا الهمّ العام لأمتنا العربية.

نعم، تحدثنا وكتبنا ونبهنا ووجهنا النداءات وحذرنا كثيراً من أن وحدة العراق ينبغي أن تكون خطاً أحمر، وأن ممسكات الوحدة الوطنية العراقية خط أحمر، وها نحن نعيد الحديث نفسه، ليس حباً في التكرار ولكن تأكيداً على نهجنا المعروف في فهم الأمور وتحليلها، حيث كنا ندرك أن الوضع المثالي الذي يتمتع به العراق قد تؤثر عليه الحادثات، وكأن هناك مؤامرة كبرى خفية تخطط للإيقاع بنا جميعاً كأمة ممتدة في نزاع شامل تحت مسوغات واهية، تلك المؤامرة التي تبدو ظاهرة للعيان في بلادنا القريبة والبعيدة، وتتبدى في بعض ما تعانيه شعوبنا من مصاعب لا تخفى على عين كل محب لعروبته.

ونعم، إن ما يمر به العراق الآن من ظروف صعبة وتحديات جمة، يجعلنا نصر على أن نرفع صوت العقل والحكمة، وألا نجعل الضيق الذي نستشعره جراءها، ومهما كانت درجته، يقودنا إلى اختيارات خطأ لا تحمد عقباها، فما زال لدينا متسع من الوقت، وما زلنا نتأمل الخير في الجميع ومن الجميع ولأجل الجميع، اللهم إلا من لا نحسب أنهم من أبناء العراق، ممن ارتبطت مصالحهم بأجندات الخارج والعابثين بأمن العراق الوطني واستقراره

الاجتماعي، ولا أظن أن من ينتمي للعراق بحق سيكون من بين هؤلاء، أو مؤيداً لمؤامرتهم على وطنه.

لقد كان العراقيون منذ فجر التاريخ أسرة واحدة وما زالوا، وسيبقون ـ بإذن الله ـ يتنادون إلى تعزيز وحدتهم أكثر كلما أطلت بوجهها التحديات، ويتكاتفون في الأزمات، ويتآزرون في لحظات الخطر. ولأن العراقيين، بفئاتهم المختلفة وتنوعهم الغني وتعددهم الفريد، لا وجود لهم كعراقيين إلا بهذا الوطن، العراق، الذي ينبغي أن يحافظوا عليه بتضامنهم ووحدتهم، مثلما حافظ عليه آباؤهم وأجدادهم بالمهج والأرواح والعمل الجاد، آملين أمناً واستقراراً في الحاضر، ورقياً وازدهاراً في المستقبل.

وهذا لا يعني أنهم كانوا فوق البشر، ولا القصد منه أنهم منزهون عن الخطأ، ولكن لأنهم كانوا، طوال تاريخهم المديد والمجيد، يمتلكون القدرة على تجاوز المعضلات التي تعترض سبيلهم بحصانة المشترك بينهم وضمانات الانتماء، ويتكاتفون أكثر بما يجمع بينهم، باعتبارهم كشعب عراقي شركاء بالتساوي والعدل في ما يصيبهم من ضُر وفي ما يحصلونه من خير.

وما يجري اليوم في المشهد السياسي العراقي، رغم ما يكتنفه من صعوبات، ينبغي أن يعطي فسحة للأمل، وفرصة للإصلاح، ودفعة لتخطي التحديات، إذا ما استمرت حكمة العقلاء، أو تحكم أهل الحل والعقد بمفاصل الحل، من خلال رؤية موضوعية وتصور مشترك، لتصويب منهاج الحوار الوطني الموضوعي، وترتيب طرائق النقاش العام العقلاني، وتعديل ما يعوج من مسارات المعالجات، وتقويم ما ينحرف من اتجاهات الفعل الجماعي القاصد بتمامه مصالح الوطن العراق وخير المواطن العراقي.

إن أحد أهم الخطوات الإصلاحية المطلوبة من عقلاء العراق هو المحاولة المستمرة لإنقاذ مفهوم المواطنة العراقية من أي أضرار يمكن أن تلحق به، فالمبادئ التي تأسس عليها العراق ينبغي أن تظل راسخة رسوخ الإيمان بها والتمسك بأهدابها وأهدافها، خاصة طريقة العراقيين في التفكير كشعب واحد موحد، وكيف يجعلون كلمتهم مشتركة في العملية السياسية، مما يمكنهم من تجاوز أزمات السياسة والاقتصاد والاجتماع، التي تطل برأسها بين الفينة والأخرى.

يجب أن تتوافر لدى كل الأطراف كل الخيارات العقلانية ذات الصلة بمصلحة العراق، والإجراءات العملية الخاصة بعملية الإصلاح التي يطالب بها الناس، والتي بدورها لديها ما تفعله مع السعي لتحقيق الغايات الجماعية لهذا الإصلاح. ولا يوجد أحد يجادل ضد الأولوية القصوى لهذا الإصلاح والسعي لتحقيق غاياته، إذ إن كل من يفعل ذلك فهو آثم بحق

الوطن، ومصالح المواطن، ويزداد الإثم إذا كانت الشهادة على عملية الإصلاح، التي تحدد مستقبل البلاد وتقرر مصير العباد، مجروحة السند أو منقوصة العدد.

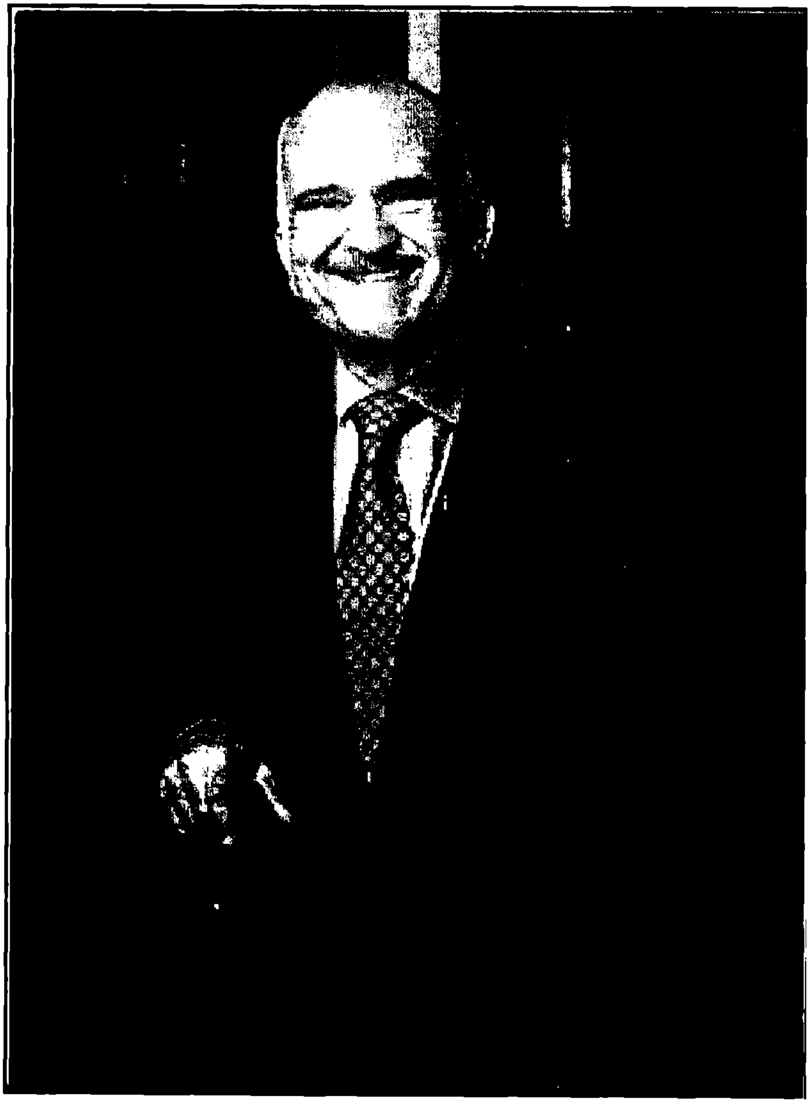
وإذا كان كل المطالبات بالإصلاح على حق، سيكون الساكت عنها كالناطق بالباطل. فلماذا يسيء بعض العراقيين تفهم البعض الآخر؟ ألا يدركون أنه قد تعب في بناء هذا العراق الوطن الآباء والأجداد، فهل يعقل أن يضيعه الأحفاد؟ وهل يدركون ويتداركون واقعهم ويقدرون حجم خسارتهم، لا سمح الله، إن ساروا على نهج غير الذي وضعوه؟

وهذه الأسئلة الحرجة ينبغي أن لا تُنسي الجميع الدور الذي بُذل ولا يزال يُبذل من العقلاء والحكماء لإيجاد الحلول التي يتوافق عليها العراقيون للخروج بوطنهم من كل معاناة يكابدها، أو تحديات يواجهها، أو التعاون على تطلعات خيرة يسعى لتحقيقها، أو مراقٍ عليا ينهض لبلوغها، ولا يزال هذا الدور معقد الآمال، ومحط الرجاء، الذي نسأل الله ألاّ يخيب الجميع.

فالجميع مطالبون بضرورة أخذ الحيطة والحذر في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها العراق والمنطقة، وعدم السماح للمصطادين في الماء العكر من تحقيق أهدافهم وزرع الفتن بين أبناء الوطن الواحد، وذلك بالتمسك بالثوابت العراقية الوطنية، التي تشكل استمرارية وجود العراقيين المشترك، ووضعها نصب أعينهم، والعمل بما يؤكد ولاءهم لها، والتزام قيم الحوار، الذي لا بد أن يأخذ الشكل الصحيح، الذي يفضي للنتائج الصحيحة.

لهذا، فإن كل أهل العراق بحاجة للحكمة والعقلانية وليس للمشاعر والعواطف الطارئة، وهم بحاجة لضبط النفس والتكاتف والتآلف ووحدة الصف، وقطعاً ليس للانفعالات الملتهبة ودعوات التفرق والتشرذم. وفي الوقت نفسه، عليهم الاستعداد الدائم لطوارئ الأيام ومحدثاتها، فما حدث في السنوات الماضية هو امتحان عسير لهم جميعاً، وطريق جديد يعيدون به اكتشاف قدرتهم في التعامل مع الأزمات، وثباتهم على الاهتزازات التي يمر بها العراق، مثلما تمر بها أقطارنا العربية الأخرى.

إنني أوجه دعوة صادقة، وصيحة حرَّة، إلى أهلي في العراق جميعاً ألا يقعوا في أتون الفتنة، التي من السهل جداً إشعالها ولكن من الصعب إطفاؤها مهما عملوا، لأنه عندما تكون النفوس مشحونة والعقول مغيبة، قد يصعب على الجميع إيجاد المخرج. ولأنه إذا لم يعقل العراقيون واقعهم، ويجمعوا أمرهم، ويوحدوا صفوفهم، ويتعقلوا في خياراتهم، ويبذلوا كل الجهود المخلصة من أجل المصلحة العامة، سينجرفون إلى ما لا تحمد عقباه. لذا، نأمل أن تكون السماحة الاجتماعية مقصدهم، والحكمة مدخلهم، والعقلانية ديدنهم، مع البصيرة الثاقبة، وكل التجرد والموضوعية.



إلى صديقي الأستاذ الدكتور محمد سعيد الطريحي مع
أطيب الأماني وخالص التقدير

٢٠٠٤

بغداد

يَا شِرَاعاً وَرَاءَ دِجْلَةَ

✍ أحمد شوقي

غناها بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول الموسيقار عبد الوهاب بمناسبة زيارته لبغداد في سنة ١٩٣١.

يَا شِرَاعاً وَرَاءَ دِجْلَةَ يجري ... في دموعي تجنبَتكَ العَوادي

سِر على الماء كالمسيحِ رُويداً ... واجْرِ في اليمِّ كالشعاع الهادي

وأتِ قاعاً كرفرَفِ الخلدِ طيباً ... أو كَفِرْدَوْسِهِ بشاشةَ وادي

قِفْ، تمهَّلْ، وخُذ أماناً لقلبي ... من عيونِ المَها وراءَ السَّوادِ

والنُّواسِيُّ والنَّدامَى أَمِنهم ... سامرٌ يملأُ الدُّجى أو نادِ؟

خَطَرَتْ فوقه المِهارةُ تعدو ... في غُبارِ الآباء والأجدادِ

أُمَّةٌ تُنشِئُ الحياةَ، وتَبني ... كبِناءِ الأبُوَّةِ الأمجادِ

تحتَ تاجٍ من القرابة والمُلْـ ... ـكِ على فَرْقِ أَرْيحيٍّ جوادِ

ملك الشطِّ، والفراتيْنِ، والبطحـ ... ـاءِ، أعظِمْ بِفيْصَلٍ والبلادِ

❖ ❖ ❖

فهرس

ديوان بغداد (مجموعة القصائد التي أنشدت في مهرجان بغداد الشعري الذهبي)

❖ ❖ ❖

بغـــداد فـي الـتـاريـخ

✍ بلند الحيدري

لا أعتقد أن ثمة مدينة في التاريخ نال من اسمها التحريف والتحوير واختلاف اللغات التي جاءت على ذكرها، ما نال من اسم "بغداد" حتى كاد أن يكون لها ما ينيف على عشرين اسماً. فهي بغداد وبغذاد، وبغداذ، وبغدان، وبغدين، ومغذان، ومغدان، وبغدام، ومغدام، وبهداد، والزوراء، ومدينة السلام، ودار السلام، وقبة الإسلام، وحاضرة العباسيين، ودار الخلافة، ودار الإمارة، وأم العراق إلى غير ذلك من التسميات، إلا أن ما صح لها واشتهرت به هو ما أجازه أبو الحسن الكسائي - توفي عام ٨٠٥م - لها بتسميتها "بغداد" على الأصل، فاحكم بناء لفظها بدالين مهملتين.

وتبعاً لذلك اتسعت لها مظان في كتب التاريخ والسير والجغرافية، تذهب مذاهب شتى في تعليل اسم "بغداد" واستصدار الروايات والأباطيل عنها وافتعال أحداث لتبريره، انطلاقاً من استقراءات لغوية ساذجة تقوم غالبيتها على الرأي القائل بأنها مركبة من جزءين، ولكل جزء منها معنى في هذا التفسير أو ذاك كالقول بأنها مركبة من كلمتين "باغ" و"داد" اللتين تشيران إلى بستان "لدادويه"، وهي عند آخر "بغ داد" أي هدية الشيطان، ويحملها غير هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء، بعيداً إلى أن تكون مشتقة عن اللغة الصينية، حيث كانت بغداد في تلك الأيام مشهورة بكونها سوقاً يؤمه الكثيرون من تجار الصين، وكان اسم ملك الصين يومذاك، "بغ"، فإذا ما انتهوا من بيع تجارتهم، وقفلوا عائدين إلى بلادهم قالوا: بغ داد، إشارة إلى ما حققوا من أرباح وأموال في رحلتهم هذه وأنها من فضل الملك "بغ".

ويرى المكين جرجس، الملقب بابن العميد - ١٢٠٥، ١٢٧٣ - أن اسم بغداد مشتق من اسم كاهن معروف كان يقطن في ذات المنطقة، وأنه المسؤول عن إدارة شؤون الكنيسة القائمة هناك... وهي "الزوراء" لأنها شيدت عند منعطف من منعطفات نهر دجلة بينما لا يرى آخرون هذا الرأي، فالتسمية عندهم وردت بأثر من إزوار القبلة في جامع المنصور، الذي قام بتشييد المدينة التي توسطها جامعه وقصره... وهي مدينة السلام لأنها أقيمت على نهر دجلة الذي كان يكنى بوادي السلام.

وتكاد الحجة أن تنهض برأي لنخبة من الباحثين العراقيين كالمطران إغناطيوس في كتابه "رحلة إلى الهند" ومثله المؤرخ يعقوب سركيس ومثله يوسف غنيمة الذين أجمعوا على القول الذي حمله عنهما يوسف غنيمة، ومفاده "أن اسم بغداد آرمي، مبنى ومعنى وهو مؤلف من كلمتين

ب، المقتضبة من كلمة بيت عندهم، وكثيراً ما تقع في أوائل أسماء المدن مثل بعقوبة وباطنايا وباعشيقا وباغدرا وباجرمي وغيرها، واللفظة الثانية هي لدادا بمعنى غنم أو ضان.

أقول: تكاد، لكثرة ما نجد من التصاق حرف "الباء" بعدد من أسماء المدن في غير قطر من الأقطار العربية لولا ما وقع إلينا من التنقيبات الأثرية التي قام السير هنري روبنسون في منتصف القرن التاسع عشر، وتأكيده من خلال عدد من الرقم، على وجود مدينة غائرة في القدم، مشيدة بآجر بابلي، وفي ذات الموضع الذي شيدت فيه بغداد الخليفة، المنصور وأن اسمها قريب من اسم بغداد، وأن قطع الآجر التي عثر عليها فيها كانت مختومة باسم "نبو خذ نصر" وببعض ألقابه، وهو ما يؤكده البحاثة رزوق عيسى في مقال نشرته له مجلة "لغة العرب" للأب انستاس الكرملي - ١٨٦٦ - ١٩٤٧ - يقول في الصفحة ٣٨٧ من تجميعها الجديد: "أن اسم بغداد قديم إذ ورد في تاريخ الآشوريين قبل المسيح بألف وتسعين سنة، فقد جاء في التواريخ المسمارية الخط، المكتوبة على الآجر: أن الملك آشور بلكلا رتق ما فتقه أبوه، فأخذ بغداد واكتسح بابل واضطر الملك مردوك إلى أن يطلب الصلح، وقد وجد العلماء في نفس مدينة بغداد آجراً كثيراً، مكتوباً عليه بغداد وبعض الوقائع التي جرت فيها، وعليه فإن القول إن اللفظة فارسية أو آرمية أو غير ذلك هو من باب التكلم على أساس غير ثابت وأما معناها في اللغة الآشورية فلم يهتد إليه العلماء".

البحر والبر والجبل:

وما كانت بغداد الخليفة أبي جعفر، عبدالله بن محمد المنصور - الخليفة العباسي الثاني ولد عام ٧١٤ وتوفى عام ٧٧٥، وحكم ما بين ٧٥٤ و ٧٧٥/ وإليه ينسب بناء بغداد - بمنجاة من مثل تلك التأويلات والشائعات التي تعاورتها العامة، والتي وصلت ظنتها الساذجة حتى إلى الطبري - محمد بن جرير توفى في بغداد عام ١٩٠٣م - إذ زعم أن تشييد المنصور لمدينة بغداد قد جاء تلبية لنبوءة شاعت وذاعت عن بعض كتب الرهبان القديمة تتحدث فيها عن قيام مدينة عظيمة في يوم ما على نهر الصراة ودجلة ويقوم بإنشائها رجل يدعى "مقلاص"، وأن الخليفة أبا جعفر المنصور ما كاد يسمع بتلك النبوءة حتى عقد العزم على تشييدها لأن "أمي كانت تلقبني في صغري مقلاصاً" نسبة إلى اسم لص اشتهر بسرقاته وغزواته، وأنه - أي المنصور - يوم أن كان صبياً سولت له نفسه أن يسرق غزلاً باعه لتسديد تكاليف وليمة أعدها لبعض معارفه وأصدقائه.

ويتراخى الزمن، وهمة المؤرخين كثيراً، فلم يختلف إلينا إلا النزر اليسير عن أخبار بغداد ما بين توغل خالد بن الوليد فيها عام ٦٣٤م (١٣هـ)، وبين قيام أبي جعفر المنصور بتشييدها عام ٧٦٢م، وأن تلك النتف من الأخبار المتفرقة تشير إلى أنها كانت موقعاً لبعض الأديرة التي أقامها رهبان نساطرة، وأن الملمين بشؤون تلك المنطقة هم الذين أشاروا على

المنصور بإقامة مدينته فيها، على ما يروي الجغرافي العربي شمس الدين المقدسي - توفى عام ٩٩٠م -، وأنهم برروا ذلك لهم بقولهم: إنك إذ "تنزل في بغداد تصير بين أربعة طساسيج، - جمع طسوج، أي ناحية - طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا. واللذان في الشرق نهر بوق وكلواذي. فأنت تكون بين نخل وقرب ماء، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة. تجيئك الميرة من الغرب وفي الفرات تجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها حتى تصل الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وأمد والجزيرة والموصل في دجلة، وأنت بين الأنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل عدوك، وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا واحتاج إلى العبور، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البحر والبر والجبل".

وما أن اقتنع بما أشاروا به عليه حتى انتبذ لمدينته بقعة من الأرض تمتد ما بين الكاظمية والكرخ - منطقتان من مناطق بغداد المتجاورة - على مساحة اختلف في تحديدها بدقة، فإن نحن اعتمدنا الأرقام والقياسات التي أوردها بعضهم لطولها وعرضها وقعنا إلى شكل محرف للدائرة، وإن نحن أخذنا أنفسنا بمقاسات غير هؤلاء لمدينة بغداد وقعنا إلى خارطة لها، كاملة الاستدارة ولكن بنسب دون ما يفترض أن تكون عليها، وتتناقض مع التقديرات المسافية التي اوردت لجدران الأسوار الثلاثة وعرض الشوارع الداخلية والخارجية حيث أمر المنصور "... بأن يكون عرض الشارع خمسين ذراعاً، والدرب ستة عشر ذراعاً، ولكل سكة ودرب اسم لقائد مشهور يسكن فيه، أو رجل نبيه، أو أهل البلد الذي ينزلونه" كما يقول الدكتور عبد الجبار الجومرد في كتابه "المنصور: داهية العرب".... ولو أضفنا إلى ذلك المسافات ما بين الأسوار الثلاثة، وما بين الأبواب، ثم سماكة السور الكبير وعلوه وحجم الآجرات المستخدمة للبناء لقطعنا جازمين بأن المدينة كانت أكبر مما زعموا وأوردوا من تقديرات.

ولعلنا إن اعتمدنا ما نصت عليه غالبية المصادر التاريخية عن أن أبا جعفر المنصور قد اثر أن يتلمس عياناً سعة المساحة لمدينته وهي مثبتة بوضوح على الأرض فأمر بتحديدها بخط دائري من الرماد، وأن ينثر عليه حب القطن المبلل بالنفط وتوقد فيه النار ليكون له أن يتبين من فوق هضبة يرتقيها، حدود مدينته، ولعلنا لو قدرنا قدرة العين المجردة على الإحاطة بالمنظر، وارتفاع الهضبة ولا بد أن يكون قليلاً نسبة لطبيعة المنطقة، مضافاً إلى ذلك المدة التي تم تشييد المدينة فيها وهي أربع سنوات ونيف، وعدد الصناع الذين انتدبوا للقيام بالعمل وهم قرابة ألف عامل وصانع، ثم نوعية المواد المستخدمة للبناء. لكان لنا أن نفترض أن ما جاء

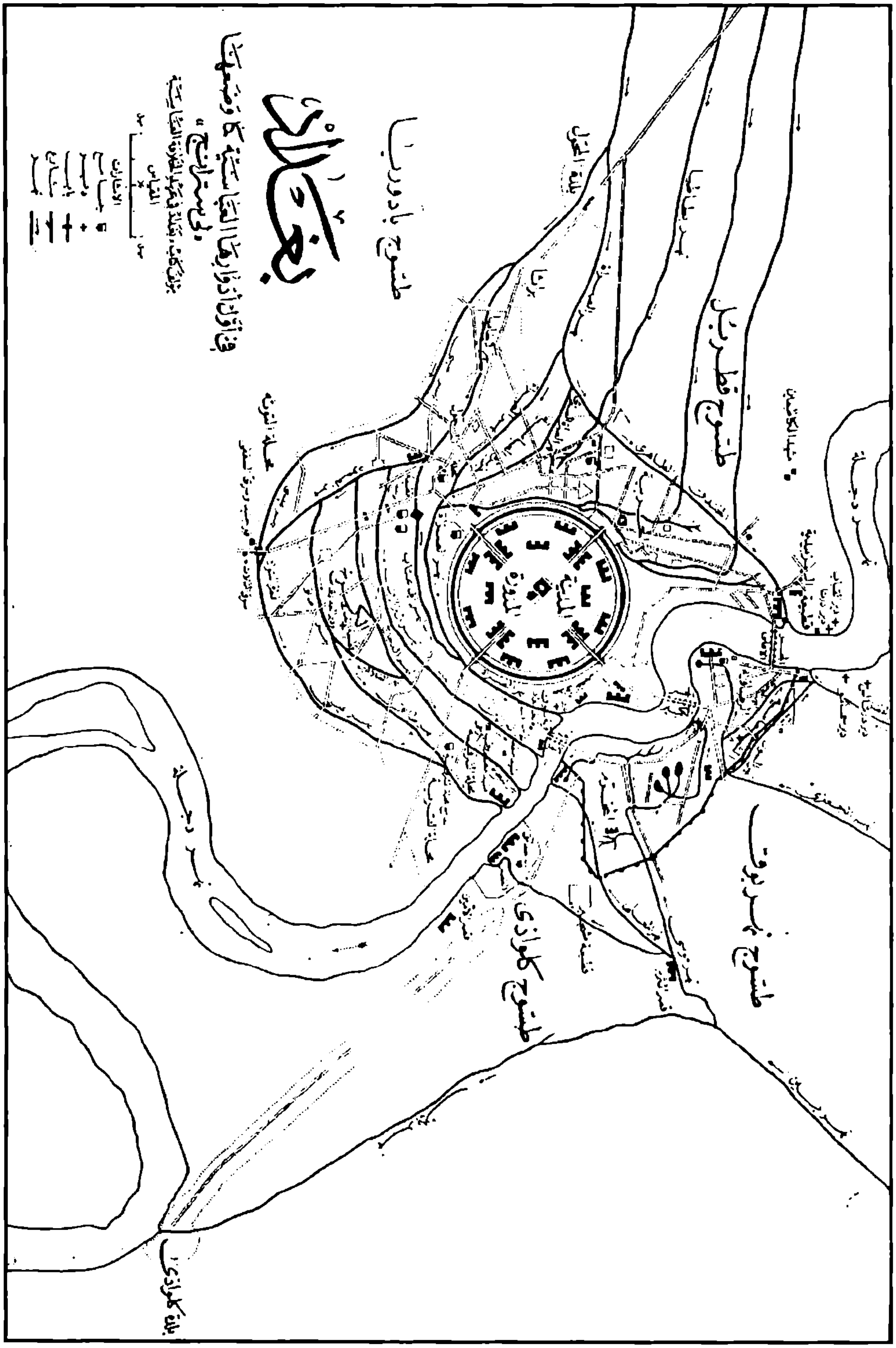
في كتاب "جي. لسترانج" من استقصاءات وتقديرات للمسافات أقرب للدقة بعد أن ناقش ما أورده الآخرون في كتابه "بغداد في عهد الخلافة العباسية" حيث يقول: "فتبين لنا من ذلك أن مقدار طول قطر الدائرة الخارجية حول الخندق، من باب إلى باب، نحو ثلاثة آلاف ومائتي ياردة، وكانت في وسط المدينة رحبة مدورة واسعة لم يشيد في بعض جنباتها، بادئ ذي بدء غير القصور والجامع. إلا أنها على توالي الأيام أخذت تزدحم بالأبنية نظير بقية أقسام بغداد، فكانت مساحتها نحو ألفي ياردة طولاً في مثلها عرضاً...

وقد قام بوضع اللبنة الأولى، الخليفة المنصور بيده وهو يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" ثم أردف: "ابنوا على بركة الله"، وأقر لها اسماً تعرف به وهو "مدينة السلام" الذي اعتمد رسمياً في المراسلات الحكومية، كما سكت به النقود، غير أن اسم بغداد بقي هو الاسم الشائع على الألسنة.

وقد أقيم للمدينة في أول الأمر سوران هما السور الخارجي والسور الكبير، ثم ألحق بهما سور ثالث يقوم حاجزاً للقصر والجامع اللذين توسطا المدينة، فتألفت من مجموع تلك الأسوار الثلاثة دوائر تحيط بمركز المدينة حيث الجامع والقصر الذي عرف باسم قصر باب الذهب لأن بابه بالفعل كان مرصعاً بالذهب، وقد أقيمت في السور الكبير أربعة أبواب ترتفع على كل منها قبة عالية وبين الواحدة والأخرى من تلك القباب، ثمانية وعشرون برجاً، بينما اعتلت القصر قبة في غاية الفخامة هي القبة الخضراء التي انتصب على ذروتها تمثال من البرونز الأصفر لفارس بكامل عدته، يدور على نفسه بأثر من مجرى الرياح وقد أمسك برمحه الذي يشير به إلى اتجاهاتها.

تخطيط المدينة:

ويستلخص "جي لسترانج" في كتابه الآنف الذكر، في آراء من أرخوا لمدينة بغداد في هذه الفترة بأن الخليفة "المنصور أول من ابتكر في تخطيط المدينة الإسلامية هذا النوع من الأسوار المحيطة بالرحبة المركزية، وكان من رأيه أن المدور من حيث قسم كان مستوياً، لا يزيد على هذا ولا هذا على هذا، فيكون السلطان على بعد واحد من الجميع" وذلك رغبة في إبراز وتأكيد روح العدل والمساواة بين الرعية كما توحي بها خطوط الدائرة واستداراتها وحسب خصوصية كل فئة من الفئات التي يتعامل معها.. ولعله بسبب من ذلك، انتدب، أو أجبر الإمام أبا حنيفة النعمان ابن ثابت على أن يكون واحداً من أربعة مراقبين آخرين عهدت إليهم مهمة مراقبة سير العمل في إنشاء مدينة بغداد والتكفل بشؤون وأمور البنائين والمساحين والحرفيين الذين استقدموا من كل حدب وصوب ليتفاضلوا بإبراز مهاراتهم في هذه المدينة المتميزة بكونها أحد الإنجازات الرائعة في تاريخ المعمار الإسلامي، رغم قصر الفترة الزمنية


بغداد
في أول أدوارها العباسية كما وضعها
«لي سترانج»
المقياس
الاشارات
جامع
دير
باب
شارع
نهر
طسوج بادوريا
طسوج قطربل
طسوج نهر بوق
طسوج كلواذى
المدينة المدورة
نهر دجلة
نهر دجلة
بلدة كلواذى
بلدة المحول
مشهد الكاظمين

التي شيدت بها، ورغم أنه كان بالإمكان أن ينجز العمل فيها بأقل من تلك لو لم تشغل الخليفة أبا جعفر المشاكل الجانبية والفتن الداخلية التي اضطرته إلى أن يرجئ بسببها مواصلة العمل في بنائها غير مرة.

ويوم أن استوت على قدميها، أمر بشق قناتين لها تتكفلان، بإيصال المياه إليها، عبر مجار من الخشب الساج، يرفد الأولى منهما نهر دجلة ويرفد الثانية نهر الفرات وكان أن أوصل بين القناتين عدداً من القنوات المعقودة بالآجر تقوم بتوزيع الماء على جهات المدينة المختلفة.

أما أبواب الأسوار فقد تم إعدادها وإقامتها بحيث يكون لإحداها أن تنفتح على مثيلتها في السور المقابل لتؤدى بالتالي إلى شبكة من الطرق الرئيسية، توصل ما بين مركز المدينة والخارج، وقد أطلق على كل باب من تلك الأبواب اسم يعرف به ويحدد توجهه والسبل المؤدية إليها، وهي:

أولاً: باب البصرة

ويقع في القسم الجنوبي الشرقي، ومرماه إلى حيث الأرباض المنتشرة على شاطئ دجلة ومصب فروع نهر عيسى.

ثانياً: باب الكوفة

وموقعه في الجهة الجنوبية الغربية، ويسير بنا الطريق المتصل به جنوباً نحو الحج، وأن كلا من بابي البصرة والكوفة يشرفان على نهر دجلة ويتصلان بالجسر الكبير، ومنه إلى حيث هاتان المدينتان اللتان طالما تقاسمتا أبرز النشاطات الحضارية العربية.

ثالثاً: باب الشام

ويقع في الشمال الغربي ومنه يتفرع فرعان، يتجه أحدهما يساراً في الطريق إلى الأنبار والثاني يتجه يميناً إلى حيث المدن القائمة على ضفة دجلة الغربية شمال مدينة بغداد.

رابعاً: باب خراسان

ويدعي المؤرخ المشهور علي بن الحسين المسعودي - توفى عام ٩٥٦م - بأنه كان يطلق عليه قديماً، أ يوم تشييده، اسم "باب الدولة" أو "باب الإقبال" وأنه يؤدي إلى نهر دجلة، ولعل سبب تسميته بباب الدولة أو باب الإقبال يعود إلى أن الخليفة المنصور كان يقضي في الغرفة المقامة عليه أكثر ساعات نهاره، مترصداً المقبلين عليه والوافدين لعرض شؤونهم وشتى قضاياهم وشكاواهم.

ويصنف المؤرخون مصادر تلك الأبواب التي أقيمت في الأسوار بمصدرين رئيسيين، فمنها ما أمر بصنعها الخليفة نفسه طبقاً لما تستوجبه طبيعة الأسوار، ومنها ما يعود بها الزمن إلى أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٠٣م، وأنها كانت من بعض أبواب مدينة

واسط، وهي تتمايز بشدة ضخامتها وثقل أوزانها بحيث لا يمكن أن تفتح أو تغلق إلا بتعاون رهط من الرجال الأشداء، وأن الواحد منها، كما يصفه أحمد بن واضح اليعقوبي - توفي عام ٨٩٧م - يتسع لدخول فارس منه وقد رفع رايته عالياً، أو رامح وقد شهر رمحه الطويل، دون أن يكون أي منهما بحاجة إلى إمالة علمه أو إحناء رمحه، وهو قول يتجانس ويناسب ما وصل إلينا من علم بمتانة الأسوار، التي يقف بينها السور الكبير كالمتراس، مزهواً بشموخه الذي يبلغ تسعين قدماً، وأن سماكة عرضه في القسم العلوي منه تحد إلى مسافة اثنتي عشرة ياردة ونصف الياردة، وأن تلك الأسوار كانت تحيط برحاب المدينة من كل جوانبها، وبطرقها الجانبية والفرعية، التي أظلتها من ا لشمس، صفوف من الطوق ذات الأشكال المتناظرة، تتوزع بينها أسواق المدينة التي سرعان ما أمر الخليفة بإجلائها عن مكانها داخل الأسوار وإقامتها في بعض مناطق الكرخ حفظاً على نظافة المدينة ودفعاً لضوضاء الأسواق.

وقد أسهبت كتب التاريخ لتلك الفترة في وصف قصر الخليفة، وجامعه، باعتبارهما أبرز معالم مدينة بغداد المنصور، من حيث جمالها وضخامتها وما أفرد لها من فسحة تحيط بهما وقد أخليت من الأبنية باستثناء مركزين للحرس والشرطة، ثم يليها وتدور معها كما يقول اليعقوبي



مرقد الإمام أبو حنيفة النعمان.

"منازل أولاد المنصور الأصاغر، ومن يقرب من خدمته من عبيده، وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل، وديوان الخراج وديوان الخاتم، وديوان الجند، وديوان الحوائج، وديوان الأحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات"، وكان المسجد الذي شيد على يد القاضي الحجاج بن أورطه ـ توفى عام ٧٦٢م ـ ملاصقاً للقصر، ويرى بعض الدارسين بأن سبب انحراف المسجد عن القبلة قد جاء نتيجة لهذا الالتصاق بالقصر وتمشياً مع تشييده على موازاته.

وتقدر مساحة المسجد بما يساوي ربع مساحة القصر، ثم ازدادت اتساعاً تبعاً لتزايد عدد المصلين فيه، وقد جدد بشكل جذري على عهد الخليفة المعتضد ـ ولد عام ٨٥٧م وتوفى عام ٩٠٢م ـ وزين سقفه بالأهلة المذهبة وتوزعت جدرانه طاقات مرصعة بقطع الفسيفساء الخضر المحاطة بألواح من الخشب الساج، ويقدر الطبري في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" ما أنفق "... على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأبوابها" بحوالى ثمانية عشر مليون دينار من الذهب أي ما يعادل تسعة ملايين دينار من العملة العراقية الحالية.

وعلى مستوى ما كان لحكم الخليفة المنصور أن يستتب ويتوطد كانت مدينة بغداد تتسع خارج أسوارها الثلاثة، فتعمر الأرباض الرحبة المصاقبة لها بالأبنية والاسواق، وكان الربض العظيم الممتد من باب الكوفة الذي يعرف باسم "الكرخ" حيث خص له بأن يكون ملتقى للتجار يتبادلون فيه بضائعهم ويتجرون ويساومون عليها بعد أن أصدر الخليفة المنصور أوامره بمنع البيع والشراء داخل أسوار المدينة، ويزعم بعض الدارسين بأن اسم "الكرخ" قد أخذ من اسم إحدى القرى التي كانت مقامة في ذات الموقع قبل الإسلام.

وقام غرب المدينة ربض "باب المحول" وكان في شمال باب محلة الحربية، وإن اسم هذه المحلة ينتسب إلى اسم قائد من قواد أبي جعفر المنصور، عرف باسم "حرب"، كانت قواته تعسكر في تلك المنطقة.. وتقع خلفها مقابر قريش من الجهة الشمالية، وعلى مقربة منها محلة "باب التبن" وفيها يقوم مشهد الإمام موسى بن جعفر الذي أحاطت به مدينة الكاظمية الشاخصة إلى يومنا هذا.

ويروي اليعقوبي في كتاب البلدان، ما صار لمدينة بغداد من مكانة مرموقة وجمال أخاذ قائلاً: "إن أبا جعفر وزع عند الانتهاء من بناء المدينة القطائع خارج أسوارها، وفي الجانب الشرقي من نهر دجلة، على خاصته ورجال دولته وكبار القادة، فعمرت بالأشجار والبساتين وأجريت المياه فيها، وبنيت القصور ثم أصبحت فيما بعد رقعة خضراء ذات جمال وبهاء وأخذت المباني تنتشر فيها حتى بدت بقصورها وضواحيها من أعظم مدن العالم في ذلك العهد".

وقد امتدت حركة العمران والبناء إلى الجانب الشرقي فعرف بعسكر المهدي نسبة إلى الخليفة المهدي بن منصور ٧٤٤ ـ ٧٨٥م الذي شيد فيه قصره وأنشأ على مقربة منه المسجد الجامع.

ثم كان أن اتسع أكثر فأكثر الجانب الشرقي من بغداد حيث قامت فيه ثلاث محلات هي:

- محلة الرصافة المطلة على نهر دجلة، وفيها مشهد الإمام أبي حنيفة "٦٩٩ ـ ٧٦٧م" الذي أحاطت به منطقة الأعظمية العامرة إلى يومنا هذا.
- محلة الشماسية وتقع فوق محلة الرصافة على نهر دجلة.
- محلة المخرم وتقع تحت محلة الرصافة.

ويحيط بمجموع تلك المحلات سور نصف دائري، مبتدئاً من الجهة الشمالية لمحلة الشماسية، ومنتهياً من الجهة السفلى من محلة المحزم وعلى محاذاة للنهر، ولم يبق في هذا السور ما يدل عليه عياناً، ففي الفترة الزمنية التي امتدت طوال خمسة قرون للخلافة العباسية، شهدت بغداد تغيرات كثيرة أصابت خططها وأرباضها بسبب من اتساعها من ناحية وبسبب ما أصاب بعض أقسامها الأخرى من خراب نتيجة الحروب الداخلية التي اتقدت اثر وفاة الخليفة هارون الرشيد من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة ما كان من أثر عليها بسبب انتقال مركز خلافة المعتصم "٧٩٥ ـ ٨٤٢م" من بغداد إلى سامراء، ودفعها إلى المركز الثاني.

إلا أن عودة مركز الخلافة إليها ثانية بعد قرابة خمسين عاماً أعاد إليها الشيء الكثير من رونقها السابق.



وجه من بغداد.

عمارة بغداد و معالمها

✍ بشير فرنسيس

موضعها:

لما بويع أبو جعفر المنصور العباسي بالخلافة، وجد أمامه مسائل كثيرة تتطلب الحل والتحقيق لتوطيد أركان الدولة الجديدة.

وكان من جملة تلك القضايا البحث عن عاصمة تقوم في موضع طيب يتوسط أقاليمها ويشرف على أطرافها ويتصل بسهولة بكل جزء من أجزائها.

فخرج المنصور بنفسه مع خاصته يرتاد موضعاً حسناً للعاصمة فتنقل من مكان إلى مكان متبعاً ضفاف دجلة حتى بلغ به المطاف إلى موضع بغداد في جانبها الغربي فاستحسنه وأمر بالبناء.

لقد كتب الجغرافيون المسلمون كثيراً في المزايا العديدة الحميدة لموضع بغداد. ويروي أحدهم (المقدسي) مثلاً أن الخليفة انتصح بما أشار به عليه أهل ذلك الموضع الذين خبروه في الحر والبرد وأثنوا عليه ويذكر أنهم قالوا له: ... تنزل في بغداد فإنك تصير بين أربعة طساسيج، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي. فاللذان في الغربي قطر بل وبادرويا واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى. فأنت تكون بين نخل وقرب الماء. فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً. وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من المغرب وفي الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان. وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة. وتجيئك المرة من أرمينية وما اتصل بها حتى تصل إلى الزاب. وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة في دجلة. وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك الا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك. وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور. وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله. وأنت قريب من البر والبحر والجبل.

اسمها:

ثم أن المنصور بدأ في ربيع سنة ١٤٥ للهجرة - ٧٦٢م وأثناء فيضان دجلة ببناء مدينته المدورة التي اختار لها البقعة الممتدة بين الكاظمية ومحلة الكرخ. وتقوم معامل السكك الحديد الحالية في السلجية (الشالجية) قسم من بقاياها وحيث كان ينتشر في أطرافها قرى آهلة وديارات عامرة، وتتخللها البساتين والرياض الزاهرة. وأمر أن تسمى "مدينة السلام". إلا

أن هذا الاسم اقتصر استعماله على المراسلات الحكومية وبه كانت تضرب النقود العباسية. أما الناس فجروا على استعمال اسم "بغداد" القديم وظل هذا الاسم هو الغالب على مدينة المنصور وإلى يومنا هذا. فلقد ورد في الكتابات المسمارية التي ترجع إلى العصرين البابلي والآشوري اسم بصورة "بغدادو" وبغدادي، وبكدادو، وتقرا خدادو أيضاً. وبعض هذه الكتابات جاء من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. ويتبين منها أن مدينة قرب بغداد الحالية وإقليماً أيضاً كانا يعرفان بمثل هذا الاسم حينذاك، فالاسم الحالي انحدر إلينا من هذا الاسم القديم. مع ذلك فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن أصل اسم بغداد فارسي وهو ما كان قد ذهب إليه بلدانيو العرب أيضاً نقلاً عمن سبقهم، فقالوا إن اسمها مركب من كلمتين فارسيتين "بغ داد" ومعناهما عطية الإله. وأرجعه بعضهم إلى أصل أرامي مركب من "ب" المقتضبة من كلمة "بيت وكداد" أي "الغنم" ومعنى ذلك بيت الغنم.

تأسيسها:

أحضر الخليفة المنصور المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمه الأرضين فمثل لهم صفتها التي في نفسه. ثم احضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم من بلاد الشام والموصل وفارس وبابل وجعل أربعة مراقبين على هؤلاء كان أحدهم الإمام أبا حنيفة النعمان بن ثابت مؤسس المذهب الحنفي المعروف وقد كان ينظر في أمر تسلم الآجر.

وصف المدينة المدورة:

ثم اختطها وجعلها مدورة. وذكر أن المنصور لما عزم على بنائها أحب أن ينظر إليها عياناً، فأمر أن تخط بالرماد وأن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصب عليه النفط، فنظر إليها والنار تشتعل. ففهمها وعرف رسمها. وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم. وأقيم لها في أول الأمر سوران. ثم أقام حول مركز المدينة سورا ثالثاً داخلاً فتألف من مجموع الأسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد هو جامعه وقصره المعروف بقصر الذهب. وجعل في كل سور أربعة أبواب بين باب وباب ميل واحد. وعلى كل باب قبة عالية وبين كل قبتين ٢٨ برجاً. وفوق القصر القبة الشهيرة المعروفة بالقبة الخضراء في أعلاها فارس بيده رمح يتجه إلى حيث يتجه الريح. وقد تم بناؤها وجميع مرافقها في سنة ١٤٩هـ ثم أمر المنصور بإجراء الماء إليها من قناتين إحداهما من نهر دجيل الآخذ من نهر دجلة والثانية من نهر كرخايا الآخذ من نهر عيسى الآخذ من الفرات. وكان أكثر ماء بغداد في هذا الجانب من الفرات لأنه أعلى مستوى من دجلة كما كان ماء دجلة في تلك الأزمان قليلاً لكثرة ما كان يسحبه منه

القاطول الكسروي والنهروان وكان القاطول يأخذ ماءه من دجلة فوق سامراء ثم يتصل بالنهروان عند بعقوبا الذي ينتهي إلى دجلة قرب الكوت. وكان يسقي الأرضين شرقي بغداد. وكانت المياه تجري في مدينة المنصور في مجار من خشب الساج. وقني معقودة. وقد فعل كل ذلك لئلا تدخل دواب السقائين المدينة فتلوثها.

أبواب المدينة المدورة:

وكانت أبواب المدينة الأربعة هي:

١ ـ باب البصرة في الجنوب الشرقي وهو يفضي إلى الأرباض الممتدة على ضفة دجلة حيث تصب فروع نهر عيسى.

٢ ـ باب الكوفة في الجنوب الغربي ويخرج منه طريق الحج المار جنوباً.

٣ ـ باب الشام في الشمال الغربي حيث يتفرع الطريق يساراً إلى الأنبار على الفرات ويميناً إلى المدن الواقعة على ضفة دجلة الغربية شمال بغداد.

٤ ـ باب خراسان المؤدي إلى الجسر الكبير على دجلة لمن أراد عبور النهر. وكان يفضي إلى بغداد الشرقية فطريق خراسان الذي يصل العاصمة بأقاليم الدولة الشرقية. ولم يبق من هذا السور أثر اليوم ولكن من المحتمل أن بعض الكثبان والمرتفعات التي تلاحظ حول موضع المدينة المدورة تشير إليه.

محلاتها:

ولقد نشأت مع الأيام أرباض واسعة حول المدينة المدورة. ولم يمض وقت طويل حتى اندمجت في نطاق المدينة نفسها. وكان الربض العظيم الممتد من باب الكوفة إلى خارج الأسوار يعرف بالكرخ وكانت الكرخ محلة التجار لأن المنصور حرم البيع والشراء داخل أسوار مدينته. وقد أخذت هذه المحلة اسمها من قرية كانت هناك قبل الإسلام. وقام غرب المدينة ربض باب المحول وكان في شمال باب الشام محلة الحربية سميت بذلك نسبة إلى قائد من قواد المنصور يقال له حرب كان معسكره هناك. ووراءها مقابر قريش في الشمال يجاورها محلة باب التبن وعندها يقع مشهد الإمام موسى بن جعفر، قامت حوله بلدة الكاظمية العامرة اليوم نشأت خارج باب البصرة محلة باب البصرة ويتاخمها محلة الشرقية.

وامتد العمران إلى الجانب الشرقي فعرف بعسكر المهدي أولاً لأن المهدي بن المنصوربنى قصره وأنشأ المسجد الجامع هناك، ثم اتسعت بغداد الشرقية وقامت فيها ثلاث محطات: محلة الرصافة قرب رأس الجسر وعندها مشهد الإمام أبي حنيفة نشأت حوله بلدة الأعظمية العامرة إلى وقتنا.

ومحلة الشماسية فوقها على النهر ومحلة المخرم تحتها وأحيطت كلها بسور نصف دائري يبدأ من ضفة النهر فوق الشماسية وينتهي بالنهر أيضاً تحت المخرم. ونستطيع القول إن هذه المحلات كانت تمتد من موضع باب المعظم إلى ما يعرف بالصليخ في الوقت الحاضر ولم يبق من هذا السور أيضاً أثر في يومنا. وكان يخترق بغداد الشرقية أول طريق خراسان الذي يعبر الجسر الكبير من باب خراسان في مدينة المنصور، ثم يخرج من باب خراسان في بغداد الشرقية حتى يبلغ أقاصي أقاليم الدولة في الشرق.

اتساعها:

وفي غضون القرون الخمسة التي عاشت فيها الخلافة العباسية تغيرت خطط بغداد وأراضيها تغيراً كبيراً لاتساع المدينة من جهة وخراب بعض أقسامها من جهة أخرى، فإن الحروب الداخلية التي نشبت بعد وفاة هارون الرشيد قد أوقعت الدمار والخراب في المدينة المدورة. وقل شأن بغداد وانحطت مكانتها لما نقل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد مقام الخلافة في سنة ٢٢١هـ ـ ٨٣٦م إلى سامراء وأقام في هذه العاصمة الجديدة سبعة من الخلفاء من بعده. ولما عاد كرسي الخلافة إلى بغداد بعد نحو من خمسين سنة كانت بغداد الشرقية قد خلفت مجد المدينة المدورة بما استجد فيها من القصور الكثيرة التي شيدها الخلفاء والأمراء والوزراء. وأقام الخلفاء في الجانب الشرقي خلال القرون الأربعة التالية حتى الغزو المغولي، فازداد الجانب الغربي بذلك خراباً على خراب.

وقد ابتنى الخلفاء في أواخر العصر العباسي قصورهم في جنوب محلة المخرم وما عتم أن نشأ حول هذه القصور أرباض جديدة. ولم يمض عليها غير وقت قصير حتى أحيطت هي أيضاً بسور عظيم نصف دائري. وكان سور بغداد الشرقية الجديد يضم قسماً من محلة المخرم العتيقة ويبدأ من ضفة النهر تحتها. وقد شرع في بناء السور الخليفة المستظهر بالله في سنة ٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥م وأكمله المسترشد بالله سنة ٥١٧هـ ـ ١١١٠م ثم رم غير مرة إلا أنه في سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م لم يقو على صد هجوم المغول فانتهى الأمر بسقوط الخلافة العباسية.

ومن آثار بغداد الشرقية القائمة في يومنا المدرسة المستنصرية المطلة على دجلة عند الجسر ومأذنة جامع الخلفاء المعروفة بمنارة سوق الغزل المحاذية لشارع الجمهورية الجديد والبناية المسماة القصر العباسي لصق القلعة.

أبواب سور بغداد الشرقية:

وظل معظم هذا السور قائماً مع أبوابه إلى عهد قريب، فقد كان يكتنف المدينة من أعلاها مبتدئاً من النهر عند القلعة فباب المعظم (وكان يسمى في ا لقديم باب سوق السلطان)

فالباب الوسطاني (وهو باب الظفرية) فباب الطلسم فالباب الوسطاني (وهو باب الحلبة) فالباب الشرقي في الجنوب(وهو باب البصلية أو باب كلواذى لأنه يفضي إلى طسوج وبلدة كلواذي وهي تسمى اليوم الكرادة الشرقية) حتى يتصل بالنهر ثانية. وقد اندثر هذا السور على عهد الوالي مدحت باشا. ثم زالت البقية منه مع أبوابه بعد ذلك ولم ينته إلينا منه غير باب واحد في جهته الشمالية الشرقية هو الباب الوسطاني الذي رممته مديرية الآثار العامة واتخذت منه متحفاً للأسلحة القديمة في سنة ١٩٣٩ حين خروجه من بغداد وكانوا قد استعملوه مخزناً للسلاح والذخيرة. وباب المعظم هدم في أوائل الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى. كما هدم الباب الشرقي قبل أكثر من عشرين سنة.

لقد زالت معالم هذا السور زوالاً تاماً، ولم يبق منه على ما بيناه سوى باب واحد هو (الباب الوسطاني) أي باب الظفرية قديماً أما بغداد نفسها فقد اتسعت عمارتها في السنوات الأخيرة بعدما أصابها من تقلص وقلة سكان في القرون الستة الماضية. فامتدت خارج حدودها القديمة مسافات بعيدة. فاتصلت البنايات من جهة باب المعظم في الجانب الشرقي حتى بلغت الأعظمية فالصليخ، أي أنها شملت ما كان يعرف قديماً بمحلات المخرم والرصافة والشماسية وسوق العطش. ومن الجنوب اتصلت من الباب الشرقي حتى الزوية والسبعة قصور وامتدت شرقاً إلى بغداد الجديدة، أي أنها شملت ما كان يعرف قديماً بطسوج كلواذى وجزءاً من طسوج نهر بوق. أما في الجانب الغربي، وقد كان إلى سنوات قليلة يقتصر على ما كان يعرف بالكرخ، فقد امتد العمران فيه إلى الكاظمية شمالاً وكرادة مريم والدورة جنوباً والحارثية والمأمون غرباً، أي شملت ما كان يعرف قديماً بمدينة المنصور المدورة وما حولها من محال وقسماً من طسوجي بادوريا وقطربل. فأصبح طول بغداد اليوم من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها أكثر من عشرين كيلو متراً ومثلها من شرقيها إلى حدها الغربي. فلم تبلغ في عصر من عصورها ما بلغته اليوم من سعة وعمران.

آثارها الشاخصة:

تحولت بغداد بعد الغزو المغولي من عاصمة دولة عظيمة إلى مدينة إقليمية. ومع ذلك فلا الحروب والحصارات التي أحاقت ببغداد، ولا تخريبها تخريباً عظيماً في الحصار المغولي واحتلال المغول لها، ولا ما أعقب ذلك من غزوات ومعارك سواء أكان ذلك في العهدين الجلائري والتركماني أو الحكمين الصفوي والعثماني حين كانت تتناوب بغداد في خلالها الأيدي المتنازعة وتتحكم فيها القوى الطامعة، ولا ما أصابها في هذه العصور المظلمة من كوارث وأوبئة أو حرائق وفيضانات، قد كان لها تأثيرها الخطيرعلى سيادة بغداد وبقائها عاصمة للعراق، ومركزاً قل أن يجاريه مركز آخر في البلدان العربية من النواحي السياسية والعسكرية والعقلية والاقتصادية.

وفي الواقع أن تضافر كوارث الطبيعة وتخريب الإنسان على بغداد خلال تلك الأزمان قد قضى على أبنيتها، وذهب بجمالها وأزال آثارها وطمس معالمها وأضاع خططها ولم يسلم من تلك القصور الشاهقة والمباني الفخمة والمساجد الجامعة والمدارس الحافلة إلا قليل من الآثار العباسية والمباني التي شيدت بعد العهد العباسي. من ذلك: المدرسة المستنصرية والبناية المعروفة بالقصر العباسي. وعدد من المآذن والأضرحة. وباب الظفرية في سور بغداد المعروف الباب الوسطاني.

على أن هذا الذي سلم من أبنيتها كان نهباً مقسماً بين الإهمال والأطماع، مما زاد في تصدع جوانبه وتشويه بنيانه وضياع بعض أقسامه. ولكن ما بقي من أجزائه خير دليل على ما وصلت إليه الريازة في ذلك العصر الزاهر من رقي، وعلى بلوغ أبناء العراق شأواً عالياً في الفن والعمارة والصناعة ولا سيما في الزخرفة والنقش وما إلى ذلك. وما إن تسلمت الأيدي الوطنية إدارة شؤون الآثار بعد زوال الانتداب البريطاني عن العراق في أوائل العقد الثالث من هذا القرن، حتى بادرت إلى بذل ما في وسعها من جهد ونشاط لإنقاذ البقية الباقية من مآثرها والمحافظة على ما سلم من معالم رقيها الفني والعمراني. فوضعت لها خطة تسير على نهجها في ترميم المباني المتصدعة وأحياء المهجور منهاج وإخراجها للأنظار بثوب قشيب ومظهر قريب من حالتها الأولى.

ومن أهم تلك الأبنية التي عني بصيانتها: القصر العباسي في قلعة بغداد والباب الوسطاني القريب من ضريح الشيخ عمر السهروردي والمدرسة المستنصرية على دجلة الشرقية جنوب جسر المأمون. لقد كانت هذه الأبنية التاريخية قبل أن تعمل فيها يد التنظيف والترميم قد أخذ منها الدمار كل مأخذ بسبب الإهمال الشنيع طوال القرون فإلى ما أصابها من تخريب بفعل العوامل الطبيعية فإنها لم تنج من يد الإنسان المدمرة فقد قلعت بعض جدرانها وأحدثت جدران غيرها. وسدت مداخل وأبواب ونوافذ وفتحت أخرى بدلاً منها. فإن هذه المباني قد استخدمت في الأدوار المتأخرة لأغراض حكومية مختلفة. فكانت مهمة إنقاذها على هذا، شاقة صعبة، وتطلب العمل جهداً كبيراً وصبراً عظيماً.

القصر العباسي والمدرسة المستنصرية:

بدأت مديرية الآثار العامة بأعمال الصيانة في القصر العباسي في سنة ١٩٣٥، وفي الباب الوسطاني في سنة ١٩٣٨، وفي المدرسة المستنصرية عام ١٩٤٦، ويرقى زمن هذه المباني إلى أواخر عهد الدولة العباسية. فالقصر العباسي والباب الوسطاني من أبنية المائة السادسة من عهد الخليفة الناصر لدين الله. أما المدرسة المستنصرية فمن أبنية الثلث الأول من المائة السابعة فقد شرع الخليفة المستنصر ببنائها في سنة ٦٢٥ هـ - ١٢٢٧م وتكاملت في سنة ٦٣١هـ - ١٢٣٣م.

لقد شيدت هذه المباني بالآجر المحكم التشكيل والجص وسقوف غرفها وحجراتها وأروقتها معقودة بهما كذلك.

وتشترك المدرسة المستنصرية والقصر العباسي بوجود إيوان أو أكثر واسع الفتحة وعلوه يعادل علو طابقي البنايتين يزين معظم أجزائه زخارف جميلة التكوين رائعة المظهر. إن الزخارف التي تزين هاتين البنايتين، لا يمكن وصفها بالكلمات لدقة أشكالها وانسجام تنسيقها وبداعة تركيبها وترتيبها. وكلها مصنوعة من الآجر. ومثل هذه الزخارف توجد في عقادات الأروقة والأواوين وأركانها وأقواسها وفوق أبواب غرفها وحجراتها. ويتكون نظام هذه الزخارف من تلاصق قطع عديدة من الأجر، مختلفة الأشكال والحجوم. كل قطعة منها منقوشة نقشاً دقيقاً على غرار حفر النقوش في المعدن أو الخشب. وهذه القطع المتنوعة شكلاً وحجماً وقشاً مركبة تركيباً دقيقاً متداخلاً متعاشقاً فتؤلف من مجموعها منظراً رائعاً أخاذاً، إنه كحديقة غناء متنوعة الأزهار والورود قد تحلت بها الجدران. وتتألف نقوش هذه الزخارف من أنواع منها الهندسة ومنها الزهرية. وبينها المنقوش على سطح مستو أو على سطح مقعر قليلاً أو محدب قليلاً، وبينها البارز وبينها الواطئ.

ويتشابه القصر العباسي والمدرسة المستنصرية كذلك بتخطيط بنايتهما وهو يتألف من صحن مستطيل أو مربع في الوسط تحف به الأواوين والغرف والحجرات المفتوحة أبوابها على الصحن وأمامها أروقة متصلة البناء وذلك في طابقي القصر العباسي وفي الطابق الأعلى للمدرسة المستنصرية وفي كل من البنايتين بقايا مسجد في الضلع القبلية. ومما تحلت به المدرسة المستنصرية خاصة الكتابات التذكارية الجميلة التي تزوق بعضها زينة نباتية. ومن هذه الكتابات ما هو في وجه جبهتها المطلة على دجلة، وهي مكتوبة بخط الثلث الكبير الجميل معظمها جدد في زمن السلطان العثماني عبد العزيز خان في سنة ١٢٨٢هـ . ١٨٦٥م وبعضها الآخر يحتوي على اسم مؤسسها، وقوام هذه الكتابات قطع الآجر المهندم وضعت كل قطعة لصق أختها وقد يتكون الحرف الواحد من قطعتين أو أكثر من الآجر أعلى سطحاً من قطع الأرضية المزخرفة.

لقد أصاب القصر العباسي في أيام الحكم العثماني تشويه كبير، وضاع منه ضلعان وهما الشمالية الغربية والجنوبية الغربية. إلا أن إيوانه ومدخله وحجراته بقيت قائمة لحسن الحظ رغم ما أصاب زخارفها من تشويه وتكسر. فبذلت مديرية الآثار العامة مجهوداً عظيماً في إعادته إلى حالته الأولى، فتجلت نفائسه الزخرفية واتضحت معالمه الأصلية. فاتخذته متحفاً لقسم من الآثار الإسلامية وعلى الأخص الحجرية منها كالمحاريب ومداخل المصليات والقطع التي تزينها مختلف النقوش والكتابات. أما المستنصرية فلم تسلم من الاعتداء لما دخل المغول بغداد. ثم أعيد إليها شيء من سابق عهدها وأوقافها. وفي العهد العثماني اتخذت مخزناً للسلع

ودائرة للكمارك والملاحة حتى وفقت دائرة الآثار العامة إلى إنقاذها ورمها وإصلاحها وإحياء شيء من مركزها العلمي باتخاذ بعض حجراتها صفوفاً لتدريس طلبة معهد الآثار والحضارة.

الباب الوسطاني:

أما الباب الوسطاني فقد كان قبل تسلم مديرية الآثار العامة له مهجوراً مهملاً وسط أكداس من الأنقاض والقاذورات فمال إلى التصدع والخراب وبعد أن رم وصلح اتخذ متحفاً للسلاح.

منارة سوق الغزل:

ومن الآثار الباقية عدد من الأضرحة والمآذن منها: المنارة المعروفة بمنارة سوق الغزل. وتقوم هذه المنارة الشاهقة الضخمة حيث كان جامع القصر الذي بناه الخليفة المكتفي بالله العباسي في أواخرا المائة الثالثة للهجرة في شرقي دار الخلافة في الجانب الشرقي ولم يبق من بنيان هذا الجامع شيء. أما المنارة القائمة فإنها من أبنية العهد الأليخاني وتم تشييدها سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م في ولاية علاء الدين عطا ملك الجويني على عهد أباقا بن هولاكو. وقد عنيت مديرية الآثار العامة بها فأصلحت ما خرب منها وأزرت قاعدتها ورمت المتصدع منها. وصارت بعد خراب جامعها بين دور حقيرة ومواضع قدرة إلا أن فتح شارع الجمهورية أبرز روعتها وأظهرها بمحاذاة رصيفه.

قبر الست زبيدة:

والضريح المعروف بقبر الست زبيدة في الجانب الغربي تعلوه قبة شاهقة تقوم على ثماني أضلاع وهي على الطراز المعروف بالطراز السلجوقي، ظاهرها على هيئة ثمرة الصنوبر إن هذا الضريح المنسوب إلى زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد التي دفنت في مقابر قريش أي في الكاظمية يعود إلى الواقع إلى السيدة زمرد خاتون التركية زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله ابتنته لنفسها على عهد ابنها الخليفة الناصر لدين الله. وكان بناؤه قبل سنة ٥٩٩هـ - ١٢٠٢م التي هي سنة وفاتها.

جامع الخفافين (الحظائر):

وكذلك منارة الجامع المعروف اليوم بجامع الخفافين. وكان في الأصل يعرف بمسجد الحظائر أو مسجد زمرد خاتون. وقد كانت أنشأته زمرد خاتون صاحبة الضريح المذكور آنفاً سنة ٥٩٩هـ - ١٢٠٢م ولم يبق من الجامع القديم غير هذه المنارة. وهي أقدم المنائر في بغداد عهداً.

جامع الشيخ معروف الكرخي:

ومن المنائر القديمة الباقية، المنارة القائمة في جامع الشيخ معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠هـ - ٨١٥م حيث توجد تربته. وفي باطن أحد إيوانات حوضها كتب "بنيت سنة ٦١٢هـ - ١٢١٥م" على عهد الخليفة الناصر لدين الله. وتزين هذه المنارة الجميلة مقرنصات زخرفية كثيرة في حوضها. وهذا الجامع في بغداد الغربية.

جامع قمرية:

ومنارة مسجد قمرية التي في الجانب الغربي أيضاً. ومع أن هذه المنارة قليلة الزخرفة وخالية من الفنون العمارية إلا أنها مهمة من الناحية الخططية. فإن أول من بنى هذا المسجد الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م على ضفة دجلة وأنفق عليه مبلغاً ضخماً، إلا أن ماء دجلة أضر به فسقط. ثم جدد بناؤه في عهد الحكم العثماني على ما نراه عليه اليوم.

تربة الشيخ عمر السهروردي:

ومن الأضرحة المشهورة في بغداد: تربة الشيخ عمر السهروردي وتقوم عند مقبرة الشيخ عمرقرب الباب الوسطاني (متحف السلاح) بنيت التربة في سنة وفاة الشيخ عمر سنة ٦٣٢هـ - ١٢٣٤م وعقدت فوقها قبة على الطراز السلجوقي وهي على غرار القبة التي فوق ضريح زمرد خاتون وفي باب التربة كتابة جاء فيها أن الوزير غياث الدين بن رشيد الدين قد جدد عمارة الضريح في سنة ٧٣٥هـ - ١٣٣٤م.

المدرسة المرجانية (جامع مرجان):

ومن الآثار القيمة باب المدرسة المرجانية المعروفة اليوم بجامع مرجان القائم في وسط بغداد بشارع الرشيد بني هذه المدرسة ومسجدها أمين الدين مرجان الأولجايتي مملوك بنت السلطان ارغون أخت السلطان أرغون أخت السلطان أولجايتو. وتم بناؤها في أيام حكم أويس بن الشيخ حسن الجلائري سنة ٧٥٨هـ - ١٣٥٦م. وقد نقض هذا الجامع قبل بضع سنين وأنشئ في موضعه مسجد حديث الطراز، ولم يبق من بنائه الأصلي غير المدخل والمنارة وذلك بسبب الاستقامة التي اقتضاها وضع شارع الرشيد. وتزين هذا الباب من وجهيه الداخل والخارج وحول أركانه زخارف جميلة وأنطقة من الكتابات الفائقة الروعة وحسن الخط المنقوشة في الآجر. وفي مجملها شبيهة بزخارف القصر العباسي والمستنصرية. وقد جاء في الكتابة على باب المدرسة "أنشأت هذه المدرسة المباركة من فواضل صدقات... أنار الله برهانها في دولة ولدها النويان الأعظم السعيد الشيخ حسن نويان".

خان مرجان (دار الآثار العربية):

ومن أوقاف هذه المدرسة، خان مرجان. وهذا الخان يقوم اليوم بين شارع السموأل وسوق البزازين قرب شارع الرشيد. وهو خان فخم البناء فريد الطراز. انشأه أمين الدين مرجان سنة ٧٦٠هـ - ١٣٥٨م. ثم أخذت دائرة الأوقاف في العهد الأخيرتؤجره للتجار فاتخذوه مخزناً للسلع فآل إلى الخراب. إلا أن مديرية الآثار العامة بذلت مجهوداً كبيراً على ترميمه وإصلاحه ثم اتخذته داراً للآثار العربية.

المشهد الكاظمي:

ومن المراقد المشهورة في بغداد وأطرافها: مرقد الإمام موسى الكاظم وقد سمي أولاً قبر موسى ثم "المشهد الكاظمي" نسبة إلى لقب الإمام. وهو قائم في موضع مقابر قريش ودفن فيه أيضاً الإمام التاسع الإمام محمد الجواد التقي. ثم نشأت حوله بلدة نسبت إلى اسم المشهد فسميت الكاظمية وهي معروفة به اليوم.

جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني:

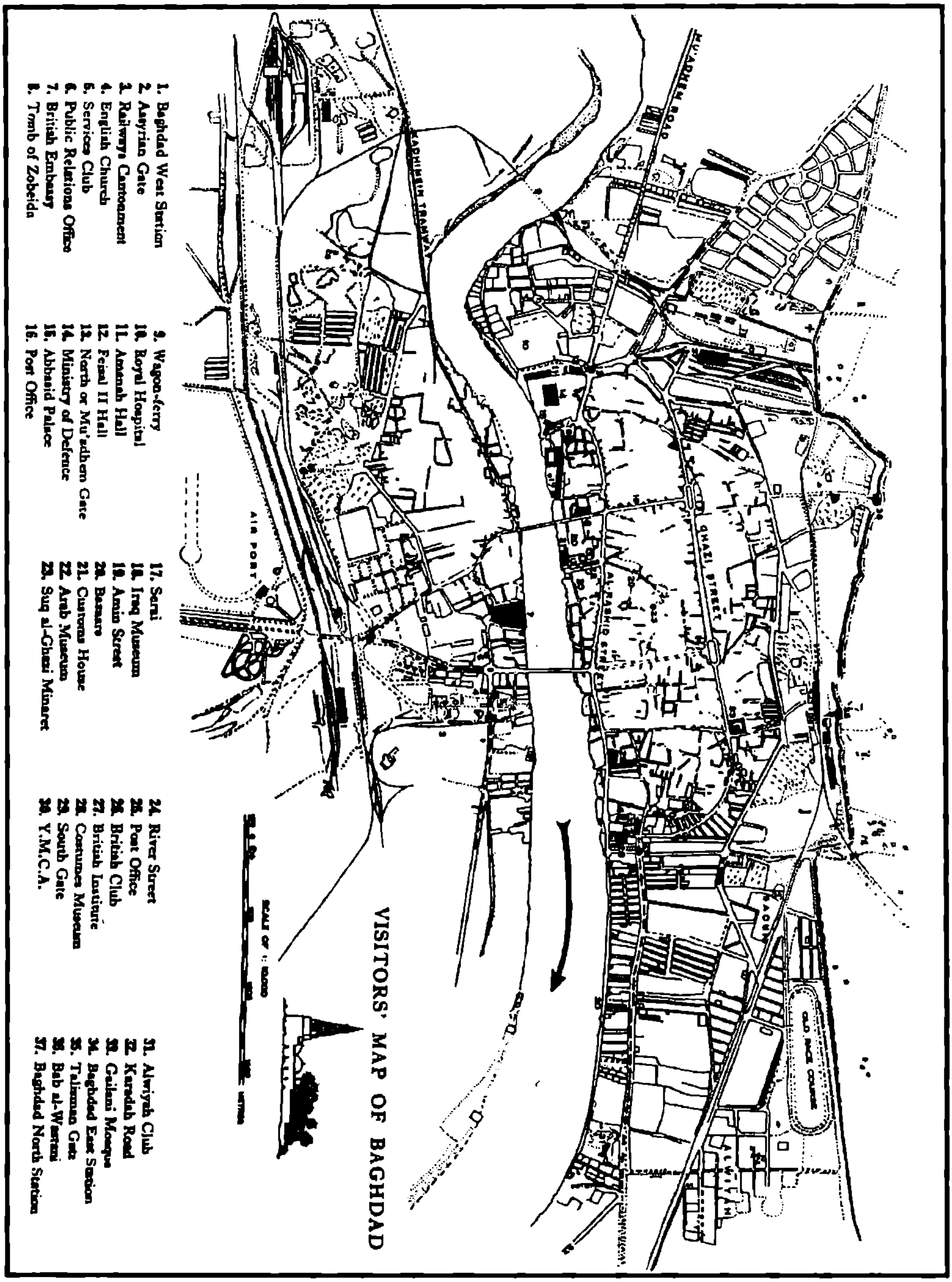
ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وهو يقوم في المحلة المعروفة اليوم بباب الشيخ وكانت تسمى قديماً بمحلة باب الحلبة. وهذا المرقد كان في الأصل مدرسة ابتناها الفقيه الحنبلي أبو سعيد المبارك بن علي المخرمي المتوفى سنة ٥١٣ هـ - ١١١٩م ثم جددها ووسعها تلميذه الشيخ عبد القادر المذكور المتوفى سنة ٥٦١هـ - ١١٦٥م ودفن فيها وشيد السلطان سليمان القانوني قبة عظيمة فوق قبره.

وفي زمن الوالي سنان باشا في أواخر المائة العاشرة للهجرة بدئ ببناء جامع بجوار مرقد الشيخ.

جامع الإمام أبي حنيفة:

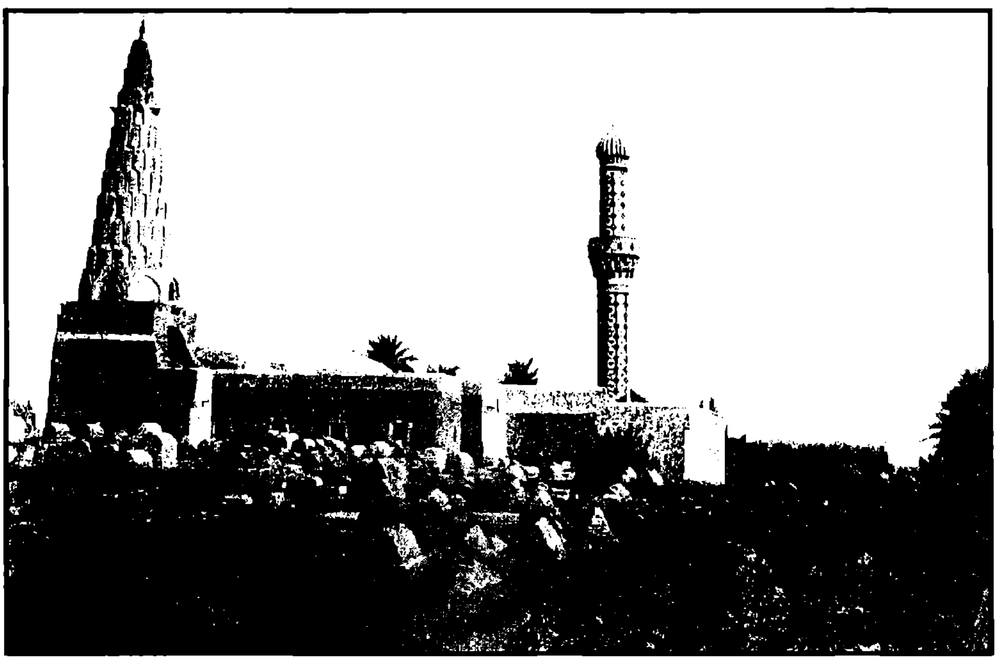
وجامع الإمام أبي حنيفة يقوم عند ضريح الإمام المذكور الذي دفن في مقابر الخيزران سنة ١٥٠هـ - ٧٦٧م. ثم نشأت حول الضريح بلدة صغيرة عرفت بمحلة أبي حنيفة. وحين جدده شرف الملك أبو سعيد الخوارزمي على عهد السلطان الب أرسلان السلجوقي في سنة ٤٥٩هـ - ١٠٦٦م وبنى عليه قبة كبيرة عرف بمشهد أبي حنيفة. وبني بجواره أيضاً مدرسة للحنفية. ثم أصاب هذا البناء الهدم والتغيير مراراً وجدد عمارته السلاطين والولاة العثمانيون. وكان آخر تجديد لهذا الجامع ومرافقه في السنوات الأخيرة.

❖ ❖ ❖

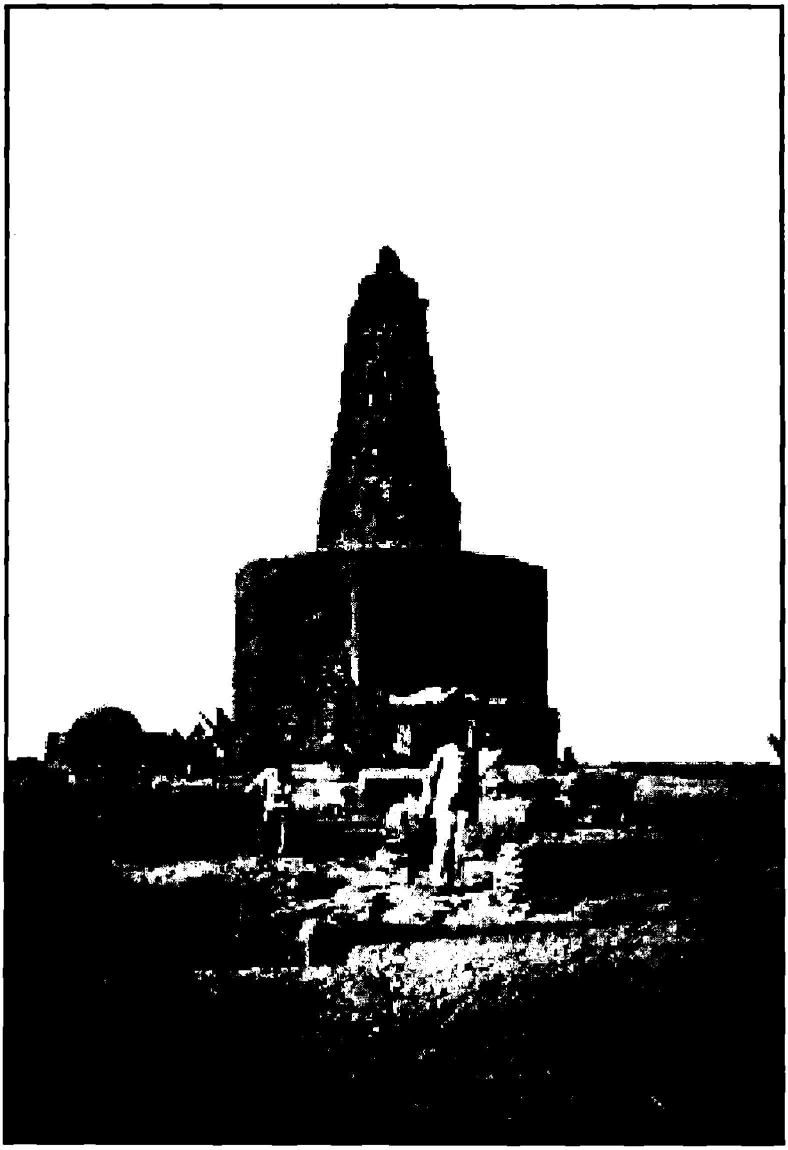

VISITORS' MAP OF BAGHDAD
MU'ADHEM ROAD
KADHIMAIN TRAMWAY
GHAZI STREET
AL RASHID STREET
AIR PORT
OLD RACE COURSE
ALWIYAH
1. Baghdad West Station
2. Assyrian Gate
3. Railways Cantonment
4. English Church
5. Services Club
6. Public Relations Office
7. British Embassy
8. Tomb of Zobeida
9. Wagon-ferry
10. Royal Hospital
11. Amanah Hall
12. Feisal II Hall
13. North or Mu'adhem Gate
14. Ministry of Defence
15. Abbasid Palace
16. Post Office
17. Sarai
18. Iraq Museum
19. Amin Street
20. Bazaars
21. Customs House
22. Arab Museum
23. Suq al-Ghazl Minaret
24. River Street
25. Post Office
26. British Club
27. British Institute
28. Costumes Museum
29. South Gate
30. Y.M.C.A.
31. Alwiyah Club
32. Karradah Road
33. Gailani Mosque
34. Baghdad East Station
35. Talisman Gate
36. Bab al-Wastani
37. Baghdad North Station



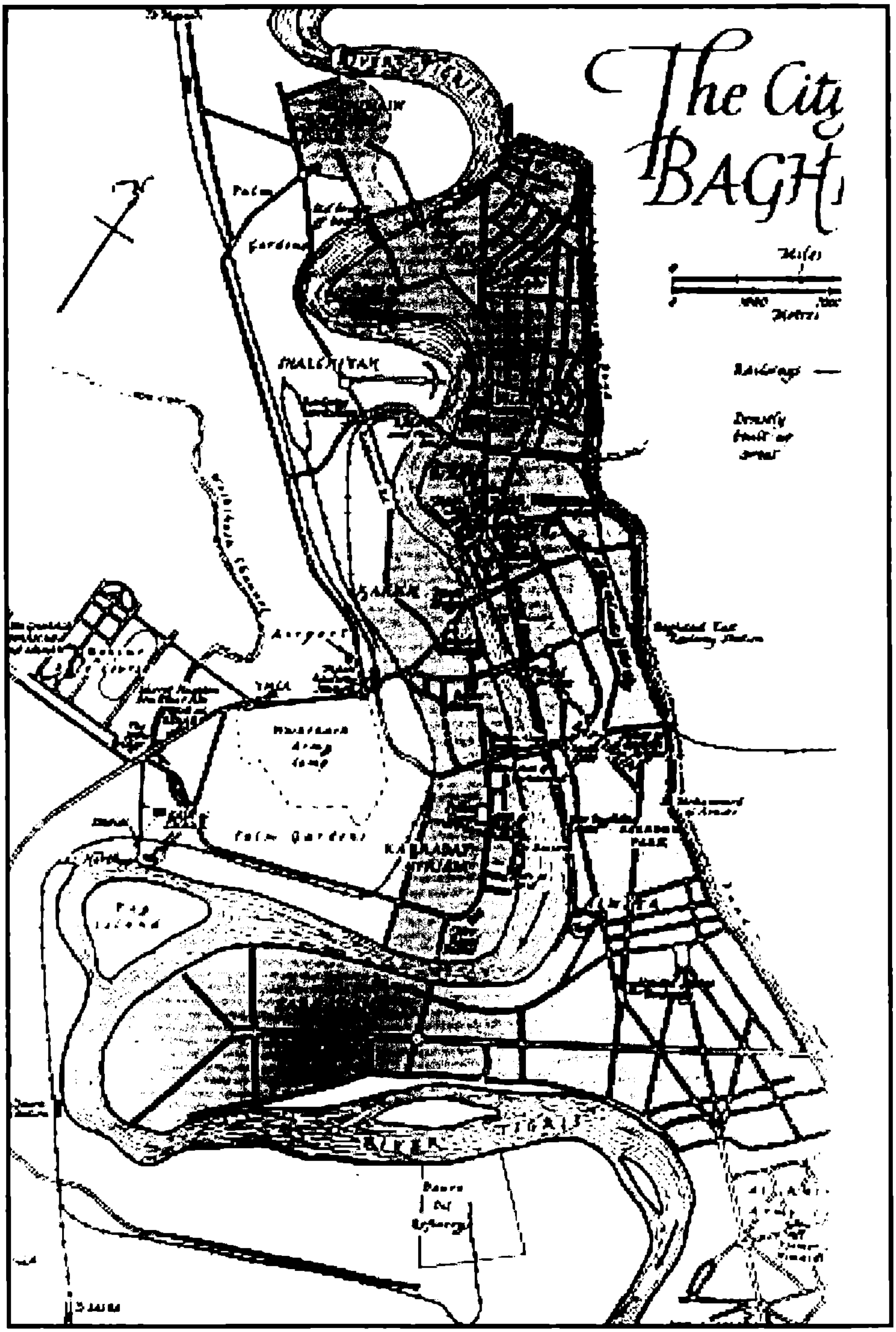
مرقد الصوفي معروف الكرخي.



مرقد الشيخ عمر السهروردي – بغداد.



قبر زمرد خاتون.


The City
BAGH
SHALCHIYAH
Palm Gardens
KARRADAT MIRIAM
Baghdad East Railway Station
Fig Island
RIVER TIGRIS

خارطة بغداد.

مدينـة المنصـور وجـامعـهـا

✍ الدكتور مصطفى جواد
✍ والدكتور أحمد سوسه

١ ـ مساحة المدينة:

المساحات والمسافات وتقديرها أو تحريرها من أعسر ما يكابده المؤرخون والخططيون والجغرافيون الباحثون في الحضارة الإسلامية عموماً، والحضارة العربية خصوصاً، ذلك لأن أكثر المساحات كانت تعين وتحدد بالروايات المعزوة إلى رواة لم يباشروا القياس بل نقلوا ما حكاه الناس، ولعل المسافات بين المدن والقرى كانت أدنى إلى الصواب من المساحات، لأن الأسفار أمور عملية مستدامة، فيسهل على المسافر أن يقدر صائب التقدير أو يحرر اضبط التحرير ما يقطعون من المسافات بين البلدان والأصقاع والأقطار.

ومما أعسر تعيين المساحات أيضاً اختلاف مقاييس الأطوال فالقصبة والباع والذراع السوداء والذراع الهاشمية وهي مقاييس الفرسخ والميل والبريد، قد اختلف في تقديرها كما اختلفت هي في أطوالها، وبقيت منذ عصور مجالاً للاجتهاد في التقدير، لأن القصبة والذراع بأنواعها قد ترك القياس بهما، واستبدل بها أذرع أخرى، كذراع بغداد وذراع حلب ثم تحول القياس في أيامنا الأخيرة إلى الياردات والمترات والكيلومترات والأميال الأوروبية والبوصات والسنتمترات.

ولم تقتصر القياسات الطولية عند القدامى على ما ذكرناه، فغلوة السهم، أي أبعد مرمى له، وشوط الفرس الجيد، والقامة كما ذكروها في تقدير طول ما بني من سور بغداد على عهد المستظهر بالله العباسي كانت عند السلف من المقاييس المألوفة، مع أنها عرضة للزيادة والنقصان والحدس والتخمين، والخرص والتظنين.

ثم إن المدن في تاريخ الحضارة العربية مختلف في تعريفها فالحصون الكبيرة سميت مدناً لاشتمالها على جميع مرافق الحياة، والمحلات الكبيرة سميت مدناً أيضاً كما كانت في "طيسفون" التي سماها العرب "المدائن" لاستقلال محلاتها بعضها عن بعض ووساعتها، والبلدان الكبيرة سميت مدناً. فلذلك كان من الصعوبة بمكان على المؤرخ البلداني والجغرافي أن يفهم فحوى كلمة "مدينة" حينما يوصف بها موضع من المواضع، أو موقع من المواقع، وكذلك الأمر في "مدينة السلام" التي هي مدينة المنصور، فالقارئ يظن

أول وهلة أنها من المدن الفسيحة الكبيرة، مع أنها كانت حصناً عظيماً هيأ فيه المنصور جميع مرافق الحياة ووسائل الدفاع، وجمع بين الاستعداد للسلم والاستعداد للحرب، ولذلك ترك المواضع القريبة من السورين العظيمين لمدينته خالية من البناء ليمكنه فيها الحرب والجلاد، والدفاع والقراع، فهي مدينة المنصور وأعظم ما أمكن العباسيين بناؤه من الحصون بعد أن بنوا حصنين عظيمين هما "مدينة الهاشمية" قرب الكوفة و"هاشمية الأنبار" قرب الأنبار ثم تركوهما بالتدريج.

وبناءً على ما قدمنا نقول لا غرو إن اختلف المؤرخون في تعيين مساحة مدينة المنصور وأبعادها، وأن التفاوت الكبير بين الرواية والأخرى ليجعل التحقيق في شأنها صعباً وعسيراً. فقد ذكر اليعقوبي وهو أقرب المؤرخين زماناً من عهد إنشاء المدينة أن المسافة بين كل باب من المدينة إلى الباب الآخر الذي يليه من خارج الخندق خمسة آلاف ذراع[١] بالذراع السوداء[٢]، والمقصود بهذا تحقيقاً هو المسافة التي تدور حول الخندق من الباب الواحد إلى الآخر، أي على طول محيط المدينة، وبهذا يكون طول دائرة المدينة بين الأبواب الأربعة باعتداد شكل المدينة دائرة كاملة (٢٠,٠٠٠) ذراع سوداء، وإذا حسبنا الذراع السوداء مساوية (٤٩,٥) من السنتيمترات كان طول المحيط بالأمتار (٩٩٠٠) متر - أي زهاء عشرة كيلومترات - وطول قطر المدينة، أي المسافة بين كل بابين متقابلين (٦٣٥٦) ذراعاً أو (٣١٥١,٥) من المترات، وتكون المساحة بحسب هذه الأبعاد (٣١,٥١٤,٠٠٠) ذراع مربعة، أي (٧,٨٠١,٢٠٠) متر مربع وهي تساوي (٣١٢٠) مشارة[٣].

وقد ذكر الخطيب البغدادي[٤] في كتابه "تاريخ بغداد" نقلاً عن رباح البناء وكان ممن تولى إنشاء سور المدينة، قال: "وكان بين كل باب من أبواب المدينة إلى باب الآخر ميل"[٥]، ونقل ياقوت في معجمه الرواية نفسها[٦]، وأورد مؤلف كتاب "مختصر مناقب بغداد"[٧] الرواية بعينها نقلاً عن اسحق الأزدي بقوله: "ذكر اسحق الأزدي أن رباحاً البناء

---

(١) البلدان طبعة النجف، ص ٧.

(٢) اختلفت الآراء في مقدار ذلك الجنس من الذراع فقد توصل العلامة نلينو بعد تحقيق دقيق إلى أنه يساوي (٤٩٢,٣) ملليمتراً (علم الفلك ص ٢٨٨)، وقد اعتبره كريزويل (٥١٨) ملليمتراً ولغرض تحقيقنا اتخذنا الرقم ٤٩٥ ملليمتراً لطول الذراع السوداء.

(٣) تساوي المشارة (٢٥٠٠) متر مربع.

(٤) المجلد الأول (طبعة مصر) ص ٦٩.

(٥) يساوي الميل العربي حسب تحقيق نلينو (١٩٧٣,٣) متراً (علم الفلك ص ٢٨٨) ويعتبر مساوياً (٤٠٠٠) ذراع سوداء.

(٦) معجم البلدان الجزء الأول (الطبعة الأوروبية) ص ٦٨٣.

(٧) طبعة بغداد، ص٩.

حدثه وكان ممن يتولى بناء سور مدينة المنصور قال: "من كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر ميل، وفي كل ساف مائة ألف لبنة واثنتان وستون لبنة". ولما كان هذا الوصف يتناول البحث عن السور خاصة وكان رباح ممن تولى بناء سور المدينة استخلصنا من كل ذلك أن المسافة التي ذكرها بين كل باب وآخر يليه قد قصد بها المسافة بين باب وآخر على طول السور، على النحو الذي أوضحه اليعقوبي في نص قوله، وقد سبقت الإشارة إليه. وإذا أخذنا بهذه الأبعاد وحسبنا الميل العربي مساوياً (٤٠٠٠) ذراع سوداء كان طول المحيط (١٦٠٠٠) ذراع أي (٧٨٩٣) متراً (زهاء ثمانية كيلومترات) وطول قطر المدينة (٥٠٩٣) ذراعاً أي (٢٥١٢) متراً، وتكون المساحة بحسب هذه الأبعاد (٢٠،٣٦٨،٠٠٠) ذراع مربعة، أي (٤،٩٥٦،٧٥٤) متراً مربعاً وهي تساوي (١٩٨٣) مشارة.

وفي التاريخ روايات أخرى كثيرة في سعة المدينة ومساحتها لا يصح الأخذ بها للتفاوت الكبير بين الواحدة والأخرى، ولغموض بعضها. فقد ذكر الخطيب البغدادي أيضاً في كتابه "تاريخ بغداد"[1] نقلاً عن أحمد ابن البربري أن مساحة مدينة المنصور تبلغ ثلاثين ومائة جريب، وأن خنادقها وسورها ثلاثون جريبا، ونقل ذلك ابن الجوزي أيضاً[2] فقال: أن مساحة المدينة مائة جريب وثلاثون جريبا، ولما كان الجريب القديم يساوي (٣٦٠٠) ذراع مربعة[3] كانت المساحة الداخلية (٤٦٨،٠٠٠) ذراع مربعة بقطر (٧٧٢) ذراعاً، أما المساحة الكلية البالغة (١٦٠) جريبا فتساوي (٥٧٦،٠٠٠) ذراع مربعة بقطر (٧٥٦) ذراعاً، وبذلك يكون عرض الخندق (٤٢) ذراعاً. ثم يذكر الخطيب عن بدر غلام المعتضد "أن أمير المؤمنين المعتضد قال: انظروا كم هي مدينة أبي جعفر؟... فنظرنا فإذا هي ميلان مكسران في ميلين". وهنا تستوقفنا علامات استفهام: ما المقصود بميلين في ميلين؟ فهل يقصد بذلك ميلين طولاً وميلين عرضاً؟ والجواب عن ذلك هو أنه من غير شك لم يقصد ذلك، لأن المدينة لم تكن مربعة. ثم ماذا يقصد بالمكسر سوى الضرب؟... فهذا غامض أيضاً.

ثم يذكر الخطيب نقلاً عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق أن "خط المدينة ميل في ميل". ونسترجع أن المقصود بذلك هو أن المسافة بين كل باب وآخر يليه على طول خط المدينة الخارجي هو ميل، وهذا يتفق مع قول رباح البناء الذي مر فيما تقدم. وقد ذكر

---

(١) المجلد الأول (طبعة مصر) ص ٦٩.

(٢) مختصر مناقب بغداد (طبعة بغداد) ص ٩.

(٣) يساوي الجريب (٦٠) في (٦٠) ذراعاً أي (٣٦٠٠) ذراع مربعة (زهاء ١٠٠٠ متر مربع) وهو غير الجريب المستعمل حالياً في بساتين البصرة ويساوي قرابة (٤٠٠٠) متر مربع.

الخطيب أيضاً نقلاً عن محمد بن خلف وكيع أن المنصور جعل الطول من باب خراسان إلى باب الكوفة ثمانمائة ذراع، ومن باب الشام إلى باب البصرة ستمائة ذراع، وهذا الخبر يدل على أن الأبواب لم تكن في نهايات القطرين المتعامدين لدائرة مدينة المنصور. وفي الوقت نفسه يذكر نقلاً عن وكيع أن مدينة المنصور قطرها من باب خراسان إلى باب الكوفة ألفا ذراع ومائتا ذراع ومن باب البصرة إلى باب الشام ألفا ذراع ومائتا ذراع، وهذا الخبر يؤيد التناظر بين الأبواب. ومن هنا يتبين اختلاف الرواة في تقدير المساحات والمسافات وصعوبة التحقيق على الباحث في شأنها.

وقد اتخذ كي لي سترانج الأبعاد التي أوردها اليعقوبي، أي أنه حسب المسافة بين باب وآخر يليه من الخارج خمسة آلاف ذراع سوداء وبذلك يكون طول المحيط (٢٠,٠٠٠) ذراع وطول قطر المدينة (٦٣٥٦) ذراعاً أي (٣١٥١,٥) من الأمتار في حين أن هرزفلد وكريزويل اتخذا الأبعاد التي أوردها الخطيب وابن الجوزي نقلاً عن رباح البناء على اعتبار أنه يمثل أقدم المصادر مضافاً إلى أنه تولى بناء السور الكبير للمدينة، وقد فسرا رواية رباح التي تفيد أن المسافة بين كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر الذي يليه ميل بأن هذه المسافة هي من خارج المدينة وبذلك حسبا طول محيط المدينة (١٦٠٠٠) ذراع، وبذلك يكون قطرها عند السور الكبير (٥٠٩٣) ذراعاً أو (٢٥١٢) متراً وقد أضافا (١٩٠) ذراعاً إلى ذلك باعتبار عرض الخندق على أحد جانبي القطر يساوي ٩٥ ذراعاً.

ونميل إلى تأييد كريزويل وهرزفلد فيما ذهبا إليه، لأن رواية رباح تعد أوثق الروايات على اعتبار أن رباحا تولى بنفسه بناء السور، وليس من شك في أن الأبعاد التي يذكرها بين باب وآخر يليه هي على طول السور نفسه أي على طول المحيط الذي يمثله السور الكبير، ثم نجد أن رواية رباح هذه أوردها كل من الخطيب وابن الجوزي وياقوت. لذلك نعتبر قطر المدينة (٥٢٨٣) ذراعاً أي (٢٦١٥) متراً ويكون طول محيط المدينة بحسب هذه الأبعاد (١٦٥٩٧) ذراعاً أي (٨١٣٢) متراً والمساحة (٢١,٩١٦,٣٣٨) ذراعاً مربعة أي (٥,٣١٣٤,٢٦٢) متراً مربعاً وهي (٢١٢٦) مشارة (انظر مرتسم مدينة المنصور المدورة).

٢ - جامع المنصور:

ومن المباحث التي لا تزال تعالج بأقلام الخططيين ومن جرى مجراهم من المؤرخين الجغرافيين مبحث "جامع المنصور" في مدينة السلام التي قدمنا الكلام على مساحتها، فأخبار هذا الجامع - الذي كان مصلى للناس جامعاً، وموضعاً لتدريس العلوم الإسلامية، وحلقات المناظرات ومجالس الحديث النبوي ومحلاً للاستملاء لتسجيل الأخبار والآثار -

قليلة جداً من حيث بيان العمران، والكشف عن حقائق البنيان ووصف المرافق والمداخل والمخارج، وما يتصل به من الأبنية الخاصة بقصر المنصور المعروف بقصر باب الذهب.

وقد جرت العادة في إنشاء المدن الإسلامية أن يكون المسجد الجامع بلصق دار الإمارة، كما هو معروف في الكوفة والبصرة وغيرهما، وأيدت البحوث الآثارية والكشوف الأرضية ذلك بما كشف عنه من آثار دار الإمارة بالكوفة، والسبب في ذلك أن الجامع كان مجتمع الشعب في كل مدينة إسلامية، ففيه كانوا يصلون ويتداولون الآراء ويتلقون الأنباء وتصدر إليهم الأحكام والأوامر والنواهي من العامل أي الوالي، فكان الجامع أقرب ملتقى للأمير الحاكم مع رعيته، وأقدس موضع لإعلان مظاهر الإسلام، وتطبيق الأحكام، وخاصة القضاء بين الناس، فضلاً عن سهولة دخول الأمير في الجامع من مدخل بين العمارتين لأداء صلاة الجمعة. فلذلك لم يكن غريباً عن المألوف أن يبني المنصور جامع مدينته بلصق قصره ليجمع فيه أهل بغداد المسلمون من سكان الجانب الغربي منها تجميعاً عاماً، ومنهم سكان مدينته المعروفة بمدينة المنصور الذين كانوا أقرب الناس مساكن إلى هذا الجامع.

ومع أن عمارة الجامع كانت غير معقدة بالنسبة إلى دار الإمارة أو القصر كما هو الحال في قصر المنصور، فقد تهمنا معرفة مساحته وموضعه من ملاصقته القصر وما فيه من أروقة المصلين ومحراب لإمامهم وأساطين الأروقة ومساحات الأروقة وعددها ومتوضآت المصلين ومقصورة للخليفة ومعرفة غير ذلك مما جرت العادة بإنشائه داخل الجامع من صفف تحفظ المصلين من المطر شتاء، ومن الشمس صيفاً في أثناء التوضؤ والتطهر، وكان في طائفة من الجوامع سقايات يشرب منها المصلون كسقاية الراضي بالله داخل جامع المنصور، لأن الماء المشروب قد يختلف عن ماء الوضوء من حيث من حيث مدة الاختزان وطريقة الحفظ والإجراء، والجدة والقدم.

إننا لم نجد من الأخبار ما يشبع التحقيق في شأن هذا الجامع على النحو الذي سردناه من مقتضيات تاريخ العمران وتاريخ الهندسة العمارية، ولذلك بقي المجال مفتوحاً للبحث في الكتب غير المطبوعة والاستنتاج ولاجتهاد في الرأي، والتخمين والاسترجاع، ولم نجد بعد من الكتب الخطية التاريخية ما يزيح العلة علة الإبهام، ويشفي الغلة غلة القطع في الأحكام، فليس لدينا من الكتب القديمة التي فصلت أخبارها تاريخ هذا الجامع بعض التفصيل إلا كتاب البلدان لابن واضح وتاريخ الطبري وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في مقدمته، وفيما يرد فيه استطراداً من إشارات إلى أحوال الجامع وما جرى فيه، وإيماءات إلى توابعه ومرافقه، وكذلك مختصر مناقب بغداد الذي كان أصله لأبي

الفرج ابن الجوزي وقد ظهر في ذكر إنشاء الجامع كأنه نسخة ثانية من تاريخ الخطيب، فقد نقل ابن الجوزي فيه ما ورد في تاريخ الخطيب، ولعله فعل ذلك في تاريخه المنتظم إلا أننا لم نقف على الجزء الذي يتناول تاريخ إنشاء مدينة المنصور وقصر المنصور وجامعه حتى اليوم.

وقد حاول تحقيق موضع جامع المنصور ثلاثة مستشرقين باحثين معروفين ووضعوا له مخططات وهم: كي لي سترنج، وهرزفلد، وكريزويل وكل منهم خالف غيره في مخططه الذي وضعه للجامع وفي مراحل تطوره. وقد لاحظنا من دراستنا لهذا الموضوع أن فيه نقاطاً مهمة جديرة بالبحث وتدقيق النظر، ونحن نستهدف بكلامنا هذا بحث هذه النقاط، ومن أجل الإيضاح ننقل مخططات الباحثين الثلاثة المذكورين في أعلاه لتسهيل الرجوع إليها، وتتبع تعليقنا وملاحظاتنا على كل منها، ووضعنا أيضاً مخططاً جديداً يمثل خطة البناء الأصلي أي تصميمه، والتغييرات التي أدخلت عليه، سائرين في ضوء مدونات المؤرخين في هذا الباب.

لقد مر على الجامع عدة أدوار من حيث تطور عمارته ندرجها فيها يأتي إيضاحاً لكل منها:

الدور الأول - وهو الدور الذي تم فيه إنشاء الجامع الأصلي لما أنشئت مدينة المنصور، وقد أنجز ذلك سنة ١٤٩هـ (٧٦٦م)، فلذلك كان أول جامع بني ببغداد، وقد تم إجماع المؤرخين واتفاق الباحثين على أنه كان ملاصقاً لقصر باب الذهب، وعلى أنه كان مربعاً، وأن طول الضلع الواحدة من المربع كان مائتي ذراع. وكان القصر الملاصق للجامع مربعاً أيضاً، وطول الضلع الواحدة منه (٤٠٠) ذراع، وكانت هذه عادة مألوفة حينذاك في إنشاء الأبنية. وقد عد كريزويل الذراع مساوية (٠,٥١٨) من المليمترات وبذلك تكون ضلع مربع الجامع مساوية (١٠٣,٦٠) من المترات فتكون مساحة الجامع (١٠٧٣٣) متراً مربعاً أي زهاء أربع مشارات. وقد ذكر أن محراب الجامع كان منحرفاً عن القبلة قليلاً ويحتاج إلى أن يحرف إلى جهة باب البصرة قليلاً، وسبب ذلك أن الجامع شيد بعد مباشرة بناء القصر، ولما جعل وضعه مناسباً لوضع القصر أصبح محرابه منحرفاً عن القبلة. وقد ذكر أيضاً الجامع بني باللبن، وأن التنبيه على أنه بني باللبن والطين يعني أن القصر بني بالآجر أو بالآجر واللبن في الأقل. وكان سقف الجامع من خشب الساج حسب قول ابن رسته وهو أقوى الخشب المعروف أيامئذ وأغلاه ثمناً، وكان قائماً على أساطين من الخشب، لكل أسطوانة منها تاج مدور مصنوع من قطعة خشب واحدة موضوعة فوق أعلى الاسطوانة. وكانت الاسطوانة مؤلفة من قطعتين (معقبتين) بالعقب والغراء وضبات

الحديد إلا خمساً أو ستاً عند المنارة فإن في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الأساطين[١].

وهنا تتوارد على الذهن عدة أسئلة لم تتطرق المدونات التاريخية إليها وهي:

"أين كان موقع الجامع من ملاصقته القصر؟ أفكان في الجهة الشمالية الشرقية، قبالة باب خراسان، أم كان في الجنوب الشرقي مقابل باب البصرة؟ أم كان في الجهة الجنوبية الغربية مقابل باب الكوفة؟ ثم أين كان موقع الجامع من جدار القصر الملاصق له؟ أفكان في ا لوسط أم على امتداد أحدى أضلاع بناء القصر؟ ثم أين كان موقع المحراب من الجامع وأين كان موقع المنارة من الجامع، فقد ورد ذكرها استطراداً غير مرة دون تعيين موقعها؟

وفيما يختص بالإجابة عن السؤال الأول فقد رسم هرزفلد الجامع في مخططه لمدينة المنصور في الطرف الجنوبي الغربي مقابل باب الكوفة (انظر مخططه للمدينة المدورة)، أما كي لي سترنج فقد رسمه في الطرف الجنوبي الشرقي أي مقابل باب البصرة (انظر مخططه لمدينة المنصور المدورة)، وأما كريزويل فلم يوافق أحداً منهما فيما ذهب إليه، فرسم الجامع ملاصقاً لجدار القصر مقابل باب خراسان، وهذا هو الصحيح في نظرنا، وذلك بالاعتماد على ما وصل إلينا من الروايات التي تؤيد ذلك الرأي، فقد نقل الخطيب عن بعضهم أن القاضي أبا تمام الزينبي كان يصلي في أيام الجمع على باب داره الراكبة لدجلة بباب خراسان، والصفوف مادة من جامع المنصور إلى ذلك المكان، والصلاة قائمة بمكبرين ينقلون التكبير عند الركوع والسجود والنهوض والقعود[٢]. وقال ابن الجوزي أيضاً معيداً قول الخطيب ومضيفاً إليه: "وكان القاضي أبو تمام الزينبي[٣] يصلي في أيام الجمع على باب داره الراكبة لدجلة بباب خراسان والصفوف مادة من المسجد إلى ذلك المكان والصلاة قائمة بمكبرين ينقلون التكبير عند الركوع والسجود، وعلى أبواب المقصورة بوابون بثياب سود يمنعون من دخول أحد إليها إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود، وكان ذلك رسماً في سائر مقاصيد الجوامع، وقد بطل حتى صار لا يلبسه إلا الخطيب والمؤذنون[٤]، وذكر الخطيب أيضاً" نقلاً عن أبي الحسين محمد بن الحسن بن محفوظ من رجال القرن الرابع أنه قال: "كنت أمضي مع والدي إلى المسجد الجامع بمدينة

---

(١) تاريخ بغداد. للخطيب البغدادي، (١:١٠٧).

(٢) نفس المصدر، (١: ٤٧ - ٤٩).

(٣) ورد في الأصل "الزبيبي" وهو خطأ.

(٤) مختصر المناقب، ص ٢٢.

المنصور لصلاة الجمعة فربما وصلنا إلى باب خراسان في دجلة وقد ضاق الوقت وقامت الصلاة وامتدت الصفوف إلى الشاطئ فنصعد ونفرش إلى السميرية ونصلي"[١]. وقال ابن الجوزي أيضاً: "كانت الجمعة كالعيد في هذه الجوامع خصوصاً في جامع المدينة، فإنه كان قديم لا يسع الناس... وكان الناس يمتدون فيه إلى دجلة".

ومما يؤيد أيضاً أن الجامع كان مقابل باب خراسان الإشارة إلى أن الرشيد حين جدد بناء الجامع في الدور الثاني من أدواره كتب اسمه وتاريخ البناء على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان أي مقابل باب خراسان (انظر ما يأتي). كل ذلك يؤيد ما ذهب إليه كريزويل في هذا الصدد.

أما ما يتعلق بموقع الجامع من ملاصقته جدار القصر فقد اتفق معظم الباحثين قبلنا على أن الجامع كان في أوساط ضلع بناية القصر بحيث يفضل مائة ذراع من كل جانب من جانبي الضلع، وقد رسمه هرزفلد على هذا الشكل في مخططه وقد أيده كريزويل في ذلك (انظر مخطط هرزفلد). أما نحن فنرجح أنه كان ملاصقاً لجدار القصر بامتداد الضلع الشمالية لبناية القصر، وهي الضلع التي تتجه من الغرب نحو باب خراسان، وذلك من الزاوية القائمة بين ضلعي بناية القصر المربعة من الخارج، وهذا أقرب إلى المنطق من الناحية الهندسية فامتداد جدار الجامع باستقامة واحدة مع جدار القصر فيه من الترابط والتماسك بين البنايتين ما لا يخفى على العارف بالهندسة العمارية. ومما يؤيد رأينا هذا أن الجامع على النحو الذي أوضحناه سهل على المعتضد عملية ضم مساحة إضافية من القصر إلى الجامع حيث مكنه من فتح باب رئيس من الخارج لدخول وخروج المصلين إلى القسم المضاف من القصر كما سيأتي من بحثنا في ذلك في الدور الثالث من أدوار بناية الجامع.

وأما مواقع المحراب والمنبر والمقصورة من الجامع فليس من شك في أنها كانت ملاصقة للجدار المشترك الذي بين الجامع والقصر نحو وجهة القبلة، كما أن المصلى الكبير المسقف بأساطينه الثمانين كان بلصق الجدار أيضاً ومنه تمتد الأروقة على طول الجدران الثلاثة الخارجية للجامع. ويلاحظ أن هرزفلد رسم المصلى المذكور والمحراب والمنبر والمقصورة في الطرف المقابل الخارجي، أي في موضع المدخل الرئيس للجامع ورسم أيضاً الأساطين التي يعتمد عليها سقف المصلى الكبير في ذلك الطرف أيضاً وجعل رواقين يمتدان على طرفي الجامع ويتصلان بالجدار الملاصق للقصر، وقد صحح ذلك كريزويل في مخططه بأن ثبت

---

(١) تاريخ بغداد، (١: ٤٨ - ٤٩).

المصلى الكبير والمحراب والمنبر والمقصورة بلصق الجدار المشترك بين القصر والجامع، وجعل المداخل الرئيسة للجامع من أطرافه الخارجية الثلاثة، وأن ذلك هو الصحيح في نظرنا، ومن المرجح أنه كان منفذ خاص من القصر إلى الجامع في الجدار المشترك بين القصر والجامع نعني في أحد جانبي المحراب والمقصورة وكان يدخل الخليفة منه إلى الجامع ليصلي فيه.

وكان للجامع منارة للأذان ذكرت استطراداً فقد ذكر الخطيب البغدادي أن أبا عبدالله بن دوست المحدث الفقيه المالكي المتوفى سنة ٤٠٧هـ دفن حذاء منارة مسجد جامع المدينة[١]، وقد ورد ذكر المنارة أيضاً في مدونات أخرى عدا هذا البيان. ويلاحظ أن هرزفلد ثبت موضعها في الزاوية الجنوبية بين جدار الجامع وجدار القصر من الخارج (انظر مخططه للجامع) هذا في حين أن كريزويل لم يثبت المنارة في مخططه وذلك مما يدل على أنه كان متردداً في تعيين موقعها لفقدان كل نص صريح يوضح ذلك.

على أننا نرجح أن المنارة كانت في الركن المقابل لذاك من الضلع نفسها أي مقابل الموقع الذي عينه هرزفلد (انظر المخطط الذي وضعناه للجامع) وذلك لوجود رواية تشير بالتأكيد إلى أن المنارة كانت في أقرب مكان من باب الشام، وهذا هو المكان الذي يتفق مع هذه الرواية، ومضمون الرواية هو أنه وقع حريق في سوق النجارين بباب الشام سنة ٣٠٣هـ فاحترقت السوق بأهلها ووقعت شرارات في منارة جامع المنصور فاحترقت[٢]. وقد يصح الاستناد إلى هذه الرواية أيضاً في تقبل فكرة كون الضلع الشمالية من جدار الجامع تمتد بامتداد جدار القصر وهو الذي استرجحناه في مخططنا للجامع وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

هذا وقد أشرنا آنفاً إلى الدور الثاني من تطور بناية الجامع، أي الدور الذي أعاد فيه هارون الرشيد بناء الجامع وقد بناه بالآجر والجص، فقد قال الخطيب إن الجامع "لم يزل على حاله إلى وقت هارون الرشيد فأمر هارون بنقضه وإعادة بنائه بالآجر والجص ففعل ذلك وكتب عليه اسم الرشيد وذكر أمره ببنائه وتسمية البناء والنجار وتاريخ ذلك وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان إلى وقتنا هذا"[٣]. وقد تم ذلك قبل سنة ١٩٣هـ (٨٠٨ ـ ٨٠٩م). ويستدل مما تقدم أن الجامع كان مقابل باب خراسان، وقد شاهده الخطيب عندما ألف تأريخه سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) وصار هذا الجامع يعرف بالصحن العتيق وبالمسجد الأول لتمييزه عن القسم المضاف إليه فيما بعد.

---

(١) نفس المصدر، (٥: ١٢٥).

(٢) المنتظم، (٦: ١٣٠).

(٣) تاريخ بغداد، (١: ١٠٨).

ثم أضيفت إلى الجامع في دوره الثالث (الذي حدد تاريخه بسنة ٢٦٦ هـ وقيل سنة ٢٦١) الدار المجاورة له المعروفة بدار القطان فذكر الخطيب نقلاً عن إبراهيم بن مخلد وعلي الخطبي "أن الصلاة كانت في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان، وكانت قديماً ديواناً للمنصور فأمر مفلح التركي ببنائها على يد صاحبه القطان فنسبت إليه، وجعلت مصلى للناس وذلك في سنة ستين أو إحدى وستين ومائتين"[١]. وقد نقل الرواية نفسها ابن الجوزي بقوله: "ثم زيد (في الجامع) دار القطان وكانت قديماً ديواناً للمنصور تولى عمارتها قطان كان غلام مفلح التركي فنسبت إليه، وذلك في سنة ستين (أو إحدى وستين) ومائتين". وكان ذلك في عهد المعتمد على الله عندما كان في سامراء، وهنا يستوقفنا سؤال هو: "أين كانت دار القطان؟" نحن لا نشك في أنها كانت داخل القصر يدل على ذلك أنها كانت ديواناً للخليفة من ضمن مرافق القصر، والأرجح عندنا أنها كانت في الزاوية الشمالية الغربية التي بين الجامع والقصر بالقرب من منارة الجامع (انظر مخططنا للجامع) وأنه كان لهذه الدار باب يدخل منه الخليفة إلى الجامع ليصلي فيه، ثم بعد أن أضيفت الدار إلى الجامع وسع الباب ليدخل المصلون إليها من داخل الجامع، وقد سمي بباب المشبك، فقد ورد ما يشير إلى ذلك في مجالس العلماء للزجاجي فقال ما هذا نصه: "قال أحمد بن يحيى (ثعلب) كتب إلى يعقوب بن السكيت من سر من رأى يسألني عن أشياء أسأل ابن الأعرابي عنها فصرت إليه في يوم الجمعة بعد الصلاة إلى حلقته في المسجد في الجانب الغربي، وكان يصلي عند باب المشبك مما يلي المنارة، فكان أول شيء سألته عنه... إلخ". ونستخلص مما تقدم أن باب المشبك السالف الذكر هو نفس باب القطان، وأن المارة كانت في جواره في الزاوية التي بين القصر والجامع من الخارج. ويلاحظ أن الباحثين المحققين في موضوع الجامع وتطور بنايته قد أهملوا تثبيت موقع دار القطان في مخططاتهم، ولعل سبب هذا الإهمال يرجع إلى حيرتهم في أمرها من حيث موقعها من القصر والجامع.

ثم جاء عهد المعتضد فزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت[٢]. وهذا يعني أنها سميت "المسقطات البدرية" بعد أن أضافها بدر إلى الجامع، فلما أضافها نسبها الناس إليه على عادتهم في مثل هذا الأمر.

وهنا نجد نصاً واضحاً على أن المسقطات البدرية هذه استقطعت من قصر المنصور وأضيفت إلى الجامع. ومن المستغرب أن هرزفلد ثبت هذه الإضافة في المدخل الأمامي

---

(١) نفس الصدر، (١: ١٠٨).

(٢) مختصر المناقب، ص ٢١.

للجامع من الخارج (انظر مخططه للجامع) في حين أنها اقتطعت من القصر كما جاء في الزاوية. أما كريزويل فلم يثبتها في مخططه، وهو يستغرب تثبيتها على النحو الذي ثبتها فيه هرزفلد في مخططه.

إننا لم نعثر على أية إشارة إلى المسقطات في كتب التاريخ المعروفة، أما موقعها من القصر فنرجح أنها كانت مقابل دار القطان داخل القصر وفتح مدخل إليها من الجامع في جدار القصر بالملاصق للجامع. ويلاحظ أن كريزويل وهرزفلد قد اعتدا دار القطان والمسقطات البدرية موضعاً واحداً، يدل على ذلك أن ما يسميه هرزفلد في مخططه البدرية يطلق عليه كريزويل تسمية دار القطان، وقد أهمل هرزفلد تثبيت موقع دار القطان وسمى الإضافة التي ثبتها في مخططه خارج الجامع باسم البدرية.

والظاهر أن الإضافتين المستقطعتين من القصر (دار القطان والمسقطات البدرية) في ضمهما إلى الجامع لم تكونا كافيتين في سعة المصلين فقرر المعتضد سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣ - ٨٩٤م) اقتطاع مساحة أكبر من القصر وضمها إلى الجامع، ويرجح أن دار القطان والمسقطات البدرية كانتا من ضمن الزيادة الثالثة هذه التي تمثل أهم توسع أدخل على الجامع، فقد زاد المعتضد فيه من داخل القصر مسجداً على مثال المسجد العتيق (المسجد الأول) في مقداره أو نحوه، وفتح في صدر المسجد العتيق بينه وبين القصر في الجدار المشترك بين الجامع والقصر سبعة عشر طاقاً منها إلى الصحن ثلاثة عشر وإلى الأروقة أربعة (طاقان من كل جانب) وأمر بتجديد المنبر والمحراب والمقصورة وتجميلها ونقلها إلى المسجد الجديد وصار يعرف المسجد الجديد بالصحن الأول لتمييزه عن الصحن العتيق. ولما كان عرض الجامع (٢٠٠) ذراع فقد اعتد هرزفلد عرض الفتحة والطاق تسع أذرع وعرض الدعامة ذراعين وقدر عرض الجدار الخارجي والبدنات[1] بسبع أذرع ونصف ذراع وقد أيده في ذلك كريزويل. ودونك ما ذكره الخطيب نقلاً عن ابراهيم بن مخلد واسماعيل بن علي قال: "وأخبر أمير المؤمنين المعتضد بالله بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام في مدينة المنصور، وأن الناس يضطرهم الضيق إلى أن يصلوا في المواضع التي لا تجوز في مثلها الصلاة فأمر بالزيادة فيه من قصر أمير المؤمنين المنصور، فبني مسجد على مثال المسجد الأول في مقداره أو نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل به فاتسع به الناس وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيه في سنة ٢٨٠هـ"[2]. وقال

---

(١) البدنة هي البناء الذي يسند به الجدار من الخارج وتشاهد مثل هذه البدنات في حائط جامع الكوفة وجامع سامراء وحصن الأخيضر التي لا تزال آثارها قائمة.

(٢) تاريخ بغداد، (١:١٠٨).

أبو الفرج ابن الجوزي في حوادث سنة ٢٨٠هـ: "في هذه السنة زاد المعتضد في جامع المنصور دار المنصور وفتح بينهما سبعة عشر طاقاً، وحول المنبر والمحراب والمقصورة إلى المسجد الجديد، وتولى ذلك يوسف بن يعقوب القاضي فبلغت النفقة عشرين ألف دينار"[1].

ويلاحظ أن كريزويل خطط المسجد الجديد المقتطع من القصر على نمط المسجد العتيق وحول المحراب والمنبر والمقصورة إلى المسجد الجديد بلصق الحائط المشترك مع مرافق القصر من الداخل، وقد جعل المسجد الجديد أصغر حجماً بقليل من المسجد العتيق كما أنه جعل للمسجد الجديد مصلى مسقفاً يستند إلى أساطين ورواقين جانبيين يستندان إلى أساطين أيضاً على النحو الذي خطط فيه الصحن العتيق، كما أنه جعل للمسجد الجديد سوراً من أطرافه الداخلية الثلاثة مع بدنات مسندة على النحو الذي خطط فيه سور المسجد العتيق وجعل في المسجد الجديد مدخلين متقابلين من داخل القصر، أما هرزفلد فجعل للمسجد الجديد ثلاثة أروقة تستند إلى صفين من الأساطين تمتد على الأطراف الثلاثة الداخلية، وحول المنبر والمحراب المقصورة إلى البدرية، وقد اعتدها هي ودار القطان موضعاً واحداً كما أومأنا إليه آنفاً، وقد جعل موضعها ملاصقاً للمسجد العتيق من الخارج كما جعل للمسجد الجديد مثلما فعل كريزويل سوراً من أطرافه الداخلية الثلاثة مع بدنات مسندة على النحو الذي خطط فيه سور المسجد العتيق، وجعل للمسجد الجديد مداخل ثلاثة في وسط الأطراف الداخلية الثلاثة داخل القصر. ويتفق هرزفلد مع كريزويل في جعل المسجد الجديد أصغر مساحة بقليل من المسجد العتيق.

وإذا دققنا في الموضوع من الناحية العملية المنطقية نجد أن ما ذهب إليه كل من هرزفلد وكريزويل من أن المسجد الجديد مقتطع من وسط القصر وأنهما في الوقت ذاته يثبتان سوراً ذا بدنات مسندة في أطرافه الداخلية الثلاثة ومداخل مماثلة للمسجد العتيق لا يخلو من تناقض لأن المسجد الجديد إذا كان قد اقتطع من وسط القصر كما يريان هما لا يكون له سور وبدنات وفتحات خارجية. أما نحن فنرى أن المسجد اقتطع من القصر في الزاوية الشمالية الغربية للقصر بحيث أصبحت الضلع الشمالية الغربية للمسجد تمتد على طول الخط الذي يسير مع سور القصر الخارجي، وبذلك يكون السور ذو البدنات مقتصراً على هذه الضلع فقط، هذا مما يجعل إحداث مدخل رئيس للمسجد الجديد من

---

(١) المنتظم (٥: ١٤٣).

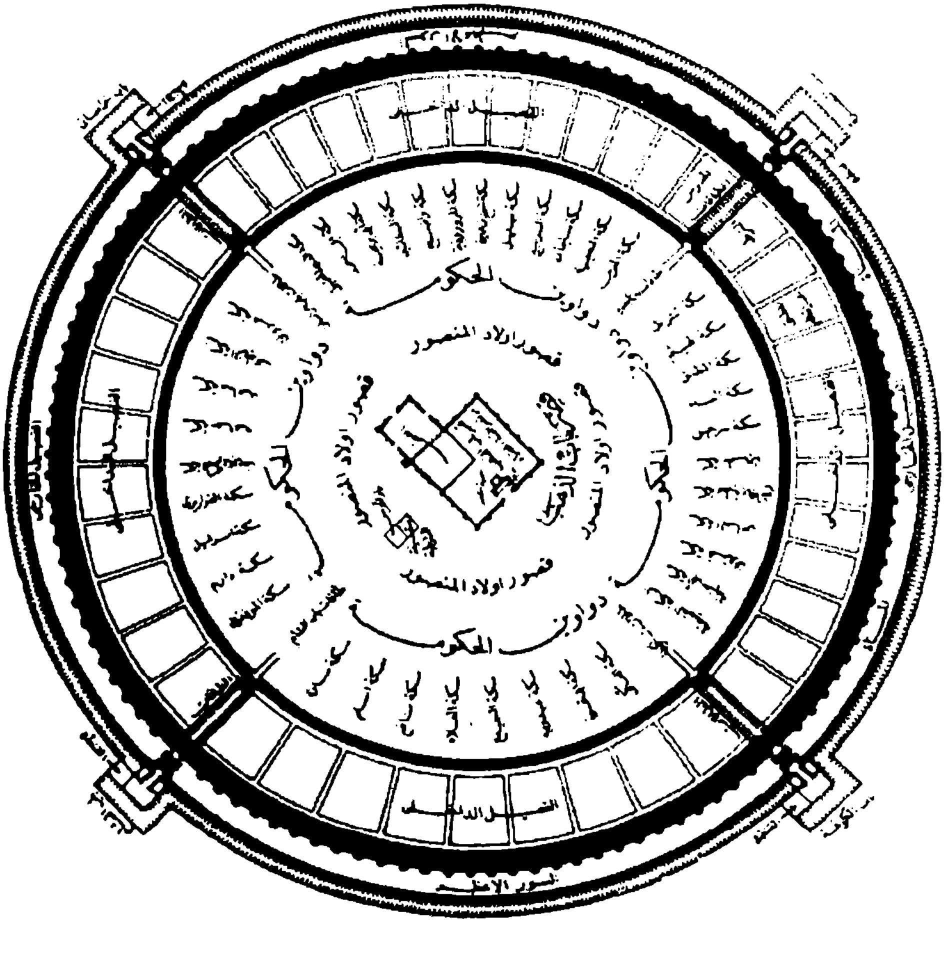
الخارج في الضلع المذكورة ممكناً، ولما كان المسجد الجديد على مثال المسجد الأول في مقداره أو نحوه على حسب قول المؤرخين كان بسعة مساحته هذه يستوجب أن يكون له مدخل رئيس من الخارج ليتسنى للمصلين أن يدخلوا إليه أو يخرجوا منه بغير مضايقة ولا ازدحام، لذلك لا يمكن أن يكون قد اقتطع من وسط القصر. أما الضلعان الملاصقتان للقصر من الداخل فتتألفان من جدار بسيط حاجز يفصل المسجد الجديد عن مرافق القصر الداخلية والأرجح أنه كان مدخل من القصر إلى المسجد الجديد في إحدى الضلعين المذكورتين. (أنظر مخططنا للجامع).

ويلاحظ أن الأستاذ الفاضل ناجي معروف أخذ في مقاله في جزء أيلول سنة ١٩٦٦ من مجلة الأقلام بمخططي هرزفلد وكريزويل من حيث جعل محيط المسجد الجديد في أضلعه الثلاث داخل القصر على شكل سور ذي بدنات مسندة، كما يلاحظ أنه جعل المسجد الجديد مقتصراً على مصلى قوامه أساطين وأوصله بمصلى المسجد العتيق مباشرة دون أروقة أو ساحة وبذلك أصبحت مساحته قرابة ثلث مساحة المسجد العتيق وهذا لا يتفق مع النص الذي يشير إلى أن المسجد الجديد الذي اقتطع من القصر كان "على مثال المسجد الأول في مقداره أو نحوه".

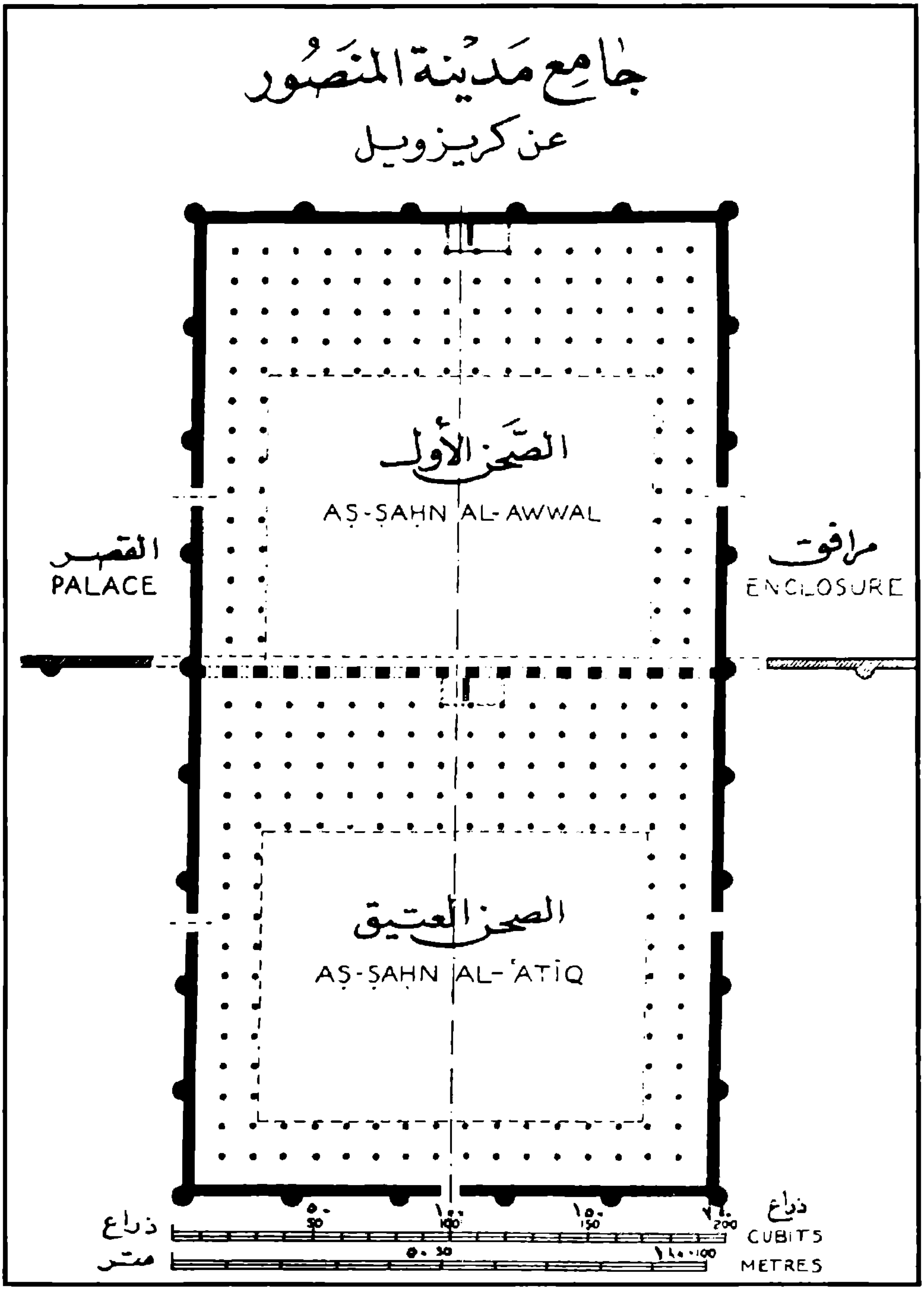
ومما يذكر أن الجامع غرق في سنة ٦٥٣هـ والظاهر أنه سلم من الخراب في أثناء حصار المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وكان قائماً حين زار ابن بطوطة بغداد في سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) على أن معالمه اختفت ولم يبق له أثر بعد ذلك العصر أو نهاية القرن الثامن للهجرة فلم تذكره التواريخ التي نعرفها بعد تلك النهاية.

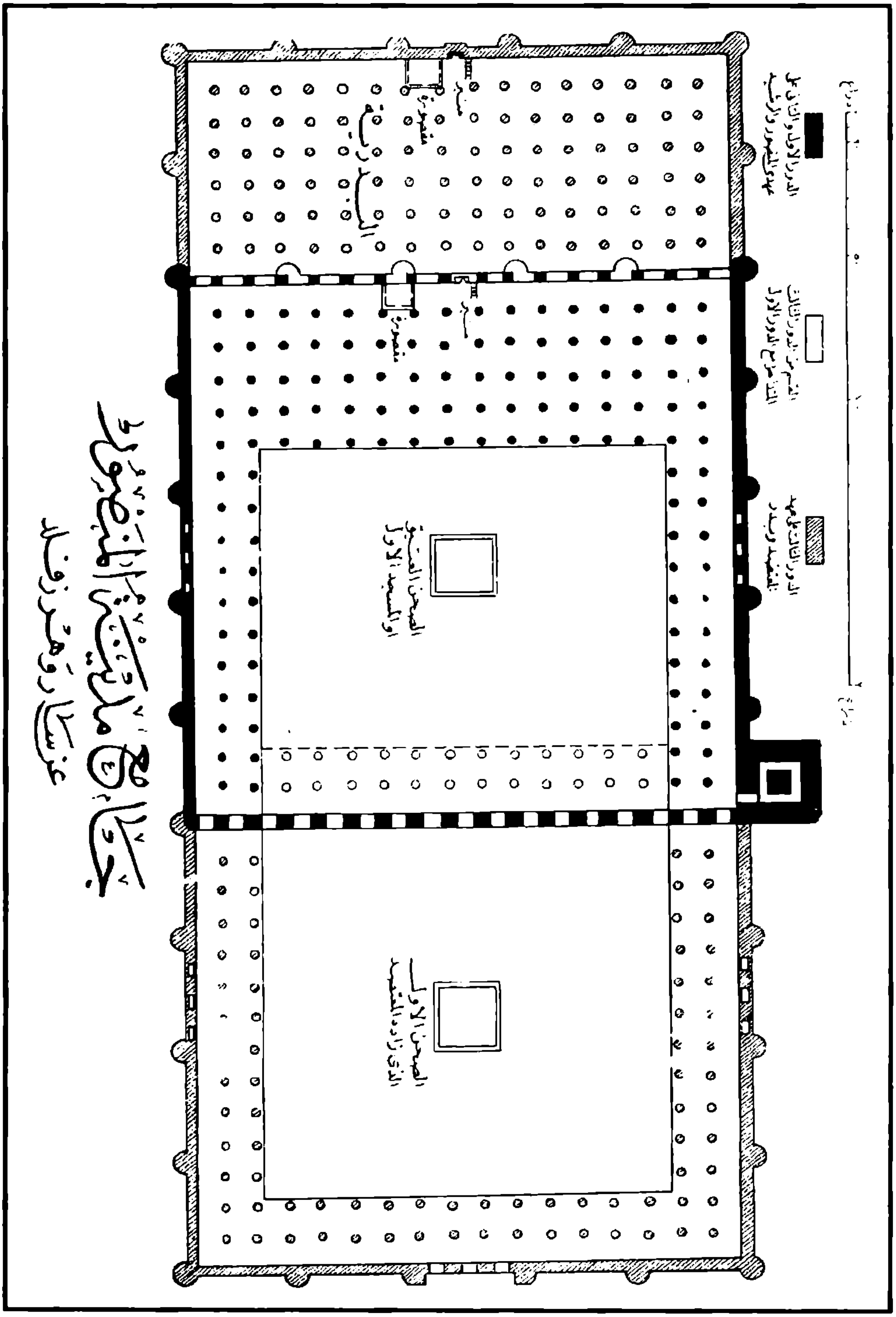
وقد ظن بعضهم أن المحراب الذي كان في جامع المنصور قد نقل في القرن السابع عشر الميلادي إلى أحد جوامع بغداد الشرقية المعروف بجامع الخاصكي الذي شيده والي بغداد محمد باشا الخاصكي في سنة ١٠٦٩هـ (١٦٥٨م) مع أن جامع المنصور كان داثراً في القرن السابع عشر للميلاد، والمحراب هذا مع ذلك هو من أبدع آثار الفن العماري، وهو مؤلف من قطعة عظيمة من الرخام متقنة الصنع والنحت وقد جاء وصفه في مؤلفات كثيرة، وحاول جماعة من المستشرقين ابتياعه في عهد الأتراك فلم يفلحوا، وجرت محاولات أخرى لانتزاعه من هذا الجامع ووضعه في أحد المتاحف الغربية، ولكن هذه المحاولات كانت بغير جدوى، والمحراب محفوظ اليوم في المتحف العراقي ببغداد فيمكن كل تائق إلى مشاهدته أن يشاهده هناك ففيه روعة النحت وجمال الفن وحكاية التاريخ.

❖ ❖ ❖



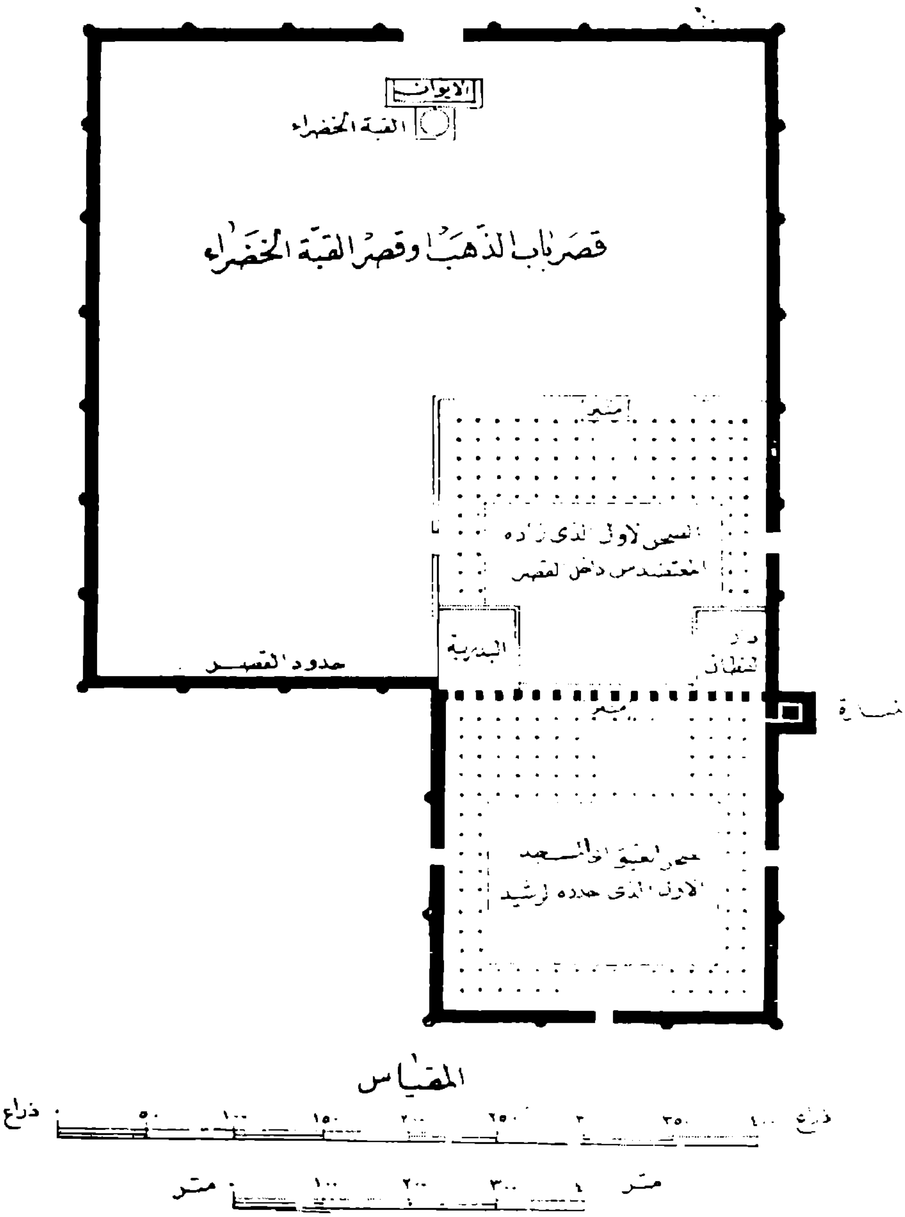
بغداد المدورة.


جامع مدينة المنصور
عن كريزويل
الصحن الأول
AS-SAHN AL-AWWAL
القصر
PALACE
مرافق
ENCLOSURE
الصحن العتيق
AS-SAHN AL-'ATIQ
ذراع
متر
CUBITS
METRES
50
100
150
200



مخطط لجامع المنصور ومراحل تطور بنائه

تحقيق للدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة



بغداد
عين العراق

هي عين العراق.. ومجمع الرافدين.. ومعدن الظرائف واللطائف.

كان ابن العميد إذا طرأ عليه أحد منتحلي العلوم والآداب وأراد امتحانه سأله عن بغداد.

هذه صورة بغداد المدينة التي شهدت عدداً من الحضارات العريقة، والأحداث الجسيمة.. كما شهدت فترات من الازدهار العلمي والفكري حيناً، وفترات من التدهور والاضمحلال نتيجة الغزو، والاحتلال من مغول وتركمان وفرس وأتراك، أحياناً أخرى.

فقد ارتبط تاريخها في ذهن البعض بحكايات ألف ليلة وليلة وأحداثها الغريبة المشحونة بالطرائف والظرائف والعجائب، كما ارتبط في أذهان البعض الآخر بالنهضة العلمية والفكرية والفنية من خلال علمائها، ومفكريها، وشعرائها، فهي مدينة جمعت بين عطاء النفس ومعطيات العقل.

والزائر لمدينة بغداد يجد نفسه مشدوداً بين معالمها التاريخية الدينية المتمثلة في الجوامع والمساجد، وآثارها الحضارية العلمية الشاخصة، ثم تعاقب السنين المصحوبة بالأحداث الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية.

وحين نراجع تاريخ هذه المدينة، نجد أنفسنا أمام مدينة متألقة، تقف في شموخ بعراقتها ومعطياتها الحضارية.

هذه رحلة سريعة في تاريخ مدينة بغداد، وبين معالمها الشاخصة والمندثرة من خلال الصورة... والكلمة.

قصة نشأتها:

من المعروف أن أبا جعفر المنصور هو الذي أنشأ مدينة بغداد، حيث شرع في عمارتها عام ١٤٥هـ، ونزلها عام ١٤٩هـ (٧٦٢م)، وهذا يعني أن بناءها استغرق أربعة أعوام، وأن عمرها أكثر من اثني عشر قرناً.

وتروي كتب التاريخ أن المنصور، رغم شهرته بالبخل - أنفق على عمارة بغداد ثمانية عشر ألف دينار ذهباً بعملة ذلك العصر. وأنه أحضر الصناع وأصحاب المهن من الشام، والموصل والجبل والكوفة وواسط، كما أمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه

والأمانة والمعرفة بالهندسة، وكان ممن حضر الحجاج بن أرطأة، والإمام أبو حنيفة، كما وضع بيده حجر الأساس وقال: "بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" ثم استطرد قائلاً: "ابنوا على بركة الله"... ويروى أنه اشترك في بنائها نحو مئة ألف عامل.

ويورد المؤرخون بسبب بناء المنصور لبغداد، كما يوردون لاختيار مواقعها، قصة تشير إلى أن المنصور خرج ذات يوم في نفر من رجاله من شواطئ الفرات، بل من عاصمته الهاشمية يريد ساحل دجلة الغربي بحثاً عن منطقة لعاصمة جديدة تليق بملكه. وتجول في هذه المنطقة التي تكثر فيها القرى والبساتين، واختار موضعاً لها عند شواطئ دجلة بعد استشارة خاصته والمهندسين وأهل المعرفة بالعمارة. ويروي المقدسي، الجغرافي العربي المشهور، أن المنصور قبل نصيحة سكان المنطقة في اختيار الموضع لوقوعه وسطاً فقالوا: وأنت يا أمير المؤمنين على نهر الصراة تجيئك الميرة من الغرب، ومن الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها حتى تصل إلى نهر الزاب، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من الروم والجزيرة والموصل في دجلة، وأنت بين أنهار لا يصل إليها عدوك إلا على جسر أو قنطرة، وأنت قريب من البر والبحر والجبل.

لهذا جاءت بغداد مدينة مدورة.

شيد حول المدينة "المدورة" عند تأسيسها سوران، ثم شيد سور ثالث في داخلها، فأصبحت الأسوار ثلاثة، وعلى شكل دوائر مركزها الجامع والقصر المعروف بـ"قصر الذهب"، وجعل في كل سور أربعة أبواب، يبعد الواحد عن الآخر ميلاً واحداً، وعلى كل باب قبة عالية، وبين كل قبتين ٢٨ برجاً، وفوق القصر القبة الشهيرة المعروفة بـ"القبة الخضراء" يشاهد في أعلاها فارس يحمل بيده رمحاً يتجه أنى تتجه الريح.

وتذكر المصادر التاريخية أن لكل باب من أبواب السورين الخارجيين بابين، باب دون باب. وكان على من يريد الوصول إلى الرحبة الداخلية الواقعة في وسط المدينة، وفيها قصر الذهب والجامع الكبير، أن يمر بخمسة أبواب. وشيدت من اللبن الكبير الحجم جداً، وكان السور الداخلي أعلى السورين الخارجيين وأكثرها سمكاً. وتذكر بعض الروايات أن ارتفاعه كان ٩٠ قدماً، وعرض قاعدته ١٠٥ أقدام.

وكانت أهم معالم المدينة المدورة "الجامع الكبير" و"قصر باب الذهب" و"قصر الخلد" والأبواب الحديدية.

وقد أمر المنصور بإجراء الماء إليه من قناتين إحداهما تستمد ماءها من نهر دجيل، وهذا يستمد ماءه من دجلة، والثانية من كرخايا، وهذا يستمد ماءه من نهر عيسى الآخذ من

نهر الفرات. وكان أكثر ماء بغداد يأتي من نهر الفرات، لأن مستوى قاع النهر أعلى من مستوى نهر دجلة حتى يومنا هذا، وكانت مياه نهر دجلة يومذاك قليلة لكثرة ما كان يسحبه منه نهر القاطول الكسروي والنهروان. وهما نهران يجريان بموازاة نهردجلة شرقاً. فيأخذ القاطول ماءه من دجلة في موقع يقع شمالي بغداد، ثم يتصل بالنهروان عند مدينة بعقوبة، حيث ينتهي إلى نهر دجلة قرب مدينة الكوت، حيث يستفاد منه في سقي الأراضي الواقعة شرقي بغداد. وقد أمر المنصور أن تجري المياه في المدينة المدورة في مجار من خشب الساج وفي قنى معقودة خشية دخول دواب السقايين المدينة فتلوثها.

كان في الموضع الذي اختاره المنصور قرية فارسية على ضفة دجلة الغربية، وفوق نهر الصراة تسمى بغداد يجتمع فيها التجار الفرس في رأس كل شهر، وتقام بها سوق عظيمة. وظلت على هذه الحالة إلى أواخر الحكم الساساني للعراق إلى أن فتحها جيش خالد بن الوليد في عهد الخليفة أبي بكر الصديق واستولى عليها سنة ١٢هـ.

وأظهرت التنقيبات الآثارية أن موضع القرية يعود إلى العصر البابلي والآشوري، حيث عثر على واجهة كبيرة مبنية بالآجر البابلي ومختومة باسم نبوخذ نصر وألقابه. كما عثر من قبل على كشوف جغرافية آشورية تروي قصة القرية نفسها.

قصر الذهب:

تبلغ مساحة هذا القصر ٢٠٠ ياردة في مثلها، وفي وسطه قبة خضراء اللون، وفي أسفلها مجلس مساحته ثلاثون قدماً في مثلها، ويرتفع عن الأرض ثلاثون قدماً، وفي صدر المجلس إيوان على الطراز الفارسي.

قصر الخلد:

بعد سنوات قليلة من بناء المدينة المدورة شرع المنصور ببناء قصر الخلد على ضفة نهر دجلة، وخارج باب خراسان، وقد ظل قصر باب الذهب المقر الرسمي للمنصور ولمن جاء بعده من الخلفاء، كما أقام الخليفة هارون الرشيد في قصر الخلد طوال حياته، غير أن الخليفة الأمين هجر القصر واتخذ من قصر باب الذهب بلاطاً له، وحينما بدأ الصراع بين الأمين والمأمون على الخلافة، وزحفت على بغداد جيوش المأمون الخراسانية، انسحب الأمين إلى داخل القصر. فضربت جيوشه حصاراً شديداً على المدينة المدورة أسفر عن تدمير كثير من معالمها الشامخة يومذاك، ولكن القبة الخضراء ظلت قائمة أكثر من قرن، وبعد مصرع الخليفة الأمين هجر القصر، وفي سنة ٣٢٩هـ، سقطت القبة فجأة، عقب تعرضها لصاعقة ألهبت فيها النيران.

الجامع الكبير:

أما الجامع الكبير، فقد جعله المنصور ملاصقاً لقصر باب الذهب، وكانت قبلته على غير صواب. وقدرت مساحته بربع مساحة القصر. وكان أول جامع شيد في بغداد. وظل على حالته مدة نصف قرن تقريباً. وفي عهد الخليفة هارون الرشيد أمر بهدمه وإعادة بنائه بالآجر والجص. ونقش عليه اسمه وأسماء البنائين المعماريين وتاريخ البناء وهو عام ١٩٢هـ، وأجرى خلفاء بني العباس توسيعات أخرى، وكانت تقام فيه صلاة الجمعة طوال القرون الخمسة من الحكم العباسي في بغداد. والظاهر أن الجامع سلم من الخراب الذي تعرضت له بغداد خلال الغزو المغولي بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وحينما زار الرحالة المغربي ابن بطوطة بغداد في سنة ٧٢٧ وجده قائماً.

جسور بغداد:

كانت جسور بغداد معقودة فو ق سفن وتؤلف حلقة اتصال بين ضفتي النهر الشرقية والغربية لهذه المدينة الكبيرة، حيث يكون معدل عرض النهر أكثر من ٢٥٠ ياردة. والجسور تكون مقامة عادة فوق السفن بينما القناطر تكون مشيدة بالحجارة. والأولى يسهل تحويلها أو نقلها في مجرى النهر.

وكانت في بغداد حتى منتصف القرن الخامس للهجرة ثلاثة جسور من هذا النوع وهي الأعلى، والكبير، والأسفل، ولم تتغير مواقعها، ومنذ تشييد الجسر الكبير كان ممراً للطريق الشرقية الكبيرة الآتية من جانب خراسان في مدينة المنصور المدورة والمؤدية إلى باب خراسان في سور المحلات الشمالية الثلاث.

أما الجسر الثاني أو الأعلى فيقطع دجلة تحت الفرخة العليا مباشرة إلى محلة الشمالية ويتصل من الجانب الغربي بالطريق التي تترك المدينة المدورة عند باب الشام مخترقة محلة الحربية وكان عند النهاية الشرقية من الجسر الأعلى باب الجسر الذي ورد ذكره مراراً في أثناء الحصارين الأولين لبغداد في عهد الأمين سنة ١٩٨هـ، وفي عهد المستعين سنة ٢٥١هـ. ويقال إن الجسر قد أحرق وكان يتألف يومذاك من عشرين زورقاً. وشيد بعد منتصف القرن الرابع (العاشرة الميلادي) قصر بني بويه العظيم في الشماسية على الضفة التي تتصل بالجسر الأعلى مباشرة.

أما الجسر الثالث أو الأسفل والذي يسميه المسعودي بالجسر الجديد، فعلى ما جاء في تاريخ بغداد للخطيب: أن المنصور أمر بعقده في الأصل حينما شيد قصر الخلد سنة ١٥٧هـ، وكان ممتداً قرب باب الشعير مع الجانب الغربي أو عند الطرف الأسفل من حدائق الخلد إلى محلة المحزم داخل باب سوق الثلاثاء.

وعدا هذه الجسور الثلاثة التي شيدت في الدور الأول لبناء بغداد، أقام الخليفة الأمين جسراً رابعاً مؤقتاً يقطع النهر تحت الجسر الأسفل بمسافة بعيدة، وكان يعرف بجسر "الزندورد" وربما كان يؤدي إلى القصر الذي شيده الأمين لنفسه قرب دير زندورد في الموضع الذي صار فيه بعدئذ باب كلواذى في بغداد الشرقية الحديثة.

والظاهر أن الجسور الثلاثة حافظت على مواقعها الأولى حتى منتصف القرن الرابع للهجرة وإلى بدء السيادة البويهية، وتذكر كتب البلدان، أن بعد هذا العصر بفترة قصيرة رفع الجسر الأعلى. وبخراب محلة الرصافة أهمل الجسر الأعلى الذي كان يربط محلة الحربية بالشماسية. ويذكر الخطيب في تاريخه سنة ٤٥٠هـ، أنه كان هناك جسران فقط وهما الجسر الكبير في باب الطاق في طريق خراسان والجسر الأسفل بمشرعة القطانين ثم عطل هذا الجسر ولم يبق في بغداد سوى جسر واحد وهو الجسر الكبير إلى سنة ٤٤٨هـ.

أبواب المدينة المدورة:

كانت أبواب مدينة بغداد... أو المدينة المدورة أربعة هي:

- باب البصرة، ويقع في الجنوب الشرقي، ويفضي إلى الأرباض الممتدة على ضفة نهر دجلة حيث تصب فروع نهر عيسى.
- باب الكوفة، يقع في الجنوب الغربي ويخرج منه طريق الحج المار جنوباً.
- باب الشام، ويقع في الشمال الغربي، حيث يتفرع الطريق إلى فرعين فرع يسير إلى مدينة الأنبار على الفرات وفرع يسير يميناً باتجاه المدن الواقعة على ضفاف دجلة الواقعة شمالي بغداد.
- باب خراسان، المؤدي إلى الجسر الكبير على نهر دجلة، حيث يعبر الناس إلى الضفة الشرقية، ومنه إلى طريق خراسان، الذي يصل بغداد بأقاليم الخلافة الشرقية.

أسماء بغداد:

عرفت المدينة بعدد من الأسماء أشهرها "بغداد" وهناك عدة تفسيرات لهذه التسمية... وفي بغداد عدة لغات منها: بغداد... بغدان - مغداذ - مغداد .. مغدان... تذكر وتؤنث في كل اللغات، كما سميت "مدينة المنصور" و"مدينة السلام".

بغداد.. في التاريخ:

يمكن تقسيم تاريخ بغداد منذ تأسيسها على يد المنصور إلى سقوطها وتدميرها على يد الجيش المغولي بقيادة هولاكو في سنة ٦٥٦هـ، إلى ثلاثة أدوار كبرى هي:

❖ **الأول**: دور الخلفاء العظام منذ قيام البيت العباسي سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م)، إلى وفاة المأمون في سنة ٢١٨هـ، وهذا عصر بغداد الذهبي بل أزهى عصور التاريخ الإسلامي. وفيه كان الخلفاء علماء وحكاماً ومحاربين أشداء.. مدوا دعائم ملكهم بتفقد الرعية وبمطاردة أعداء الدولة أينما كانوا.

في هذا الدور وضع حجر الأساس للمدينة المنورة بأسوارها وأبراجها، وقصورها، وجومعها، وأبوابها الحديدية الأربعة، باب البصرة والكوفة والشام وخراسان، وفيه أيضاً امتدت إلى الجانب الشرقي، وشيدت فيها الأرباض والمساجد والقصور الفخمة والمدارس الدينية العظيمة، والمكتبات والأسواق، وازدهرت المدينة وطبقت شهرتها الآفاق، بحيث فاقت في عمارتها وجمالها ومكانتها كثيراً من مدن العالم الإسلامي. وتوسعت في الجانب الشرقي وهو الرصافة أيام الخليفة المهدي وهارون الرشيد، وقامت محلات فيها واسواق أهمها محلة الرصافة والشماسية والمحزم، وانتقلت معظم دواوين الدولة إلى الجانب الشرقي في عهد الوزراء البرامكة الذين شيدوا قصورهم فيه.

وتوقفت حركة العمران بعد وفاة هارون الرشيد، وهو في طوس بإيران، من جراء الصراع الذي نشب بين الأخوين الأمين والمأمون، وأدى إلى قيام حرب أهلية قضت على كثير من معالم المديهنة في الجانبين الغربي (الكرخ) والشرقي (الرصافة)، وأسفر عن مصرع الأمين وقطع رأسه، وبدأت بغداد تعصف فيها الفتن والانقسامات، ويتنافس ويتصارع أبناء البيت العباسي على الخلافة وتدور عليهم الدائرة.

ولكن ما إن عاد الخليفة المأمون إلى بغداد حتى شرع بإعادة الحياة الطبيعية للعاصمة المنكوبة وإعادة بناء ما تهدم من معالمها.. ونعمت بغداد بفترة من الاستقرار والازدهار والنهضة العلمية لم يشهد مثلها تاريخ العراق.

❖ **الثاني**: دور سيطرة الحرس والجيش التركي على الخلافة والخلفاء. وينتهي هذا الدور في سنة ٣٣٤هـ، حينما دخل الأمير معز الدولة البويهي بغداد.

وفي هذا الدور، أي بوفاة المأمون في مدينة طرسوس وبمايعة أخيه المعتصم بالخلافة كثرت تعديات الجيش التركي على سكان العاصمة، وانقلب الناس على المعتصم، وتدهورت حالة الأمن، واضطر الخليفة إلى مغادرة بغداد والانتقال شمالاً حيث شيد مدينة سامراء لتكون معسكراً لجنوده، ومعظمهم من الأتراك والأكراد وأقليات أخرى، وعاصمة لملكه.

وحلت سامراء محل بغداد لمدة ٥٨ سنة كانت خلالها تحت حكم الجيش التركي، أما الخلفاء فلا حول لهم ولا قوة، وكانت الدسائس والمؤامرات تحاك ضد الخلفاء الذين انقطعت علاقاتهم ببغداد إلا في فترات قصيرة.

وحدث أن هرب الخليفة المستعين من سامراء إلى بغداد تخلصاً من سيطرة الجنود الأتراك، فتعقبه جيش ابن عمه الخليفة المعتز، وحوصرت بغداد حصاراً دام سنة تقريباً، وهو الحصار الثاني بعد الحصار الذي ضربه جيش المأمون. وشن الجيش التركي هجوماً كاسحاً انتهى بأسر المستعين وبمصرعه وبإحداث أضرار بالغة بالمدينة.

❖ **الثالث:** دور السيطرة الفارسية إبان حكم آل بويه جنوب وغرب إيران وامتداد سيطرتهم إلى العراق.

وفي هذا الدور، وبعودة الخليفة المعتضد إلى بغداد في سنة ٢٧٠هـ، استرجعت دار السلام مكانتها وشرعت في إصلاح قصورها ومرافقها العامة، وفي الجانب الشرقي شيدت قصور جديدة وصارت نواة الحياة السكنية الحديثة، وأحيطت بسور، وقد وصفها اليعقوبي وابن رشد وابن سرابيون في مؤلفاتهم، ودام هذا العهد أكثر من قرن كان الأمراء البويهيون هم الحكام الحقيقيون والحماة الرسميون للخلفاء العباسيين، ومنذ سنة ٣٣٤هـ، أصبح من تقاليدهم بعد أن أحكموا سيطرتهم على فارس وإيران الغربية، أن يقيم كبير هذا البيت المالك في بغداد ليكون إلى جانب الخليفة وعلى اتصال بشؤون البلاد.

وشيد أمراء آل بويه قصورهم في بغداد الشرقية، وأقاموا المباني الجميلة وشيد عضد الدولة البيمارستان في بغداد الغربية في موضع خرائب قصر الخلد. واكتسب هذا المركز الطبي شهرة عالمية في جميع الأقطار الإسلامية لمدة ثلاثة قرون، وعرف باسم البيمارستان العضدي.

وذكر الأصطخري في كتابه الذي دونه في سنة ٣٤٠هـ، أسماء ثلاثة جوامع كبيرة كان الناس في زمنه يرتادونها للصلاة وهي جامع الرصافة وجامع قصر الخليفة في بغداد الشرقية والجامع القديم في مدينة المنصور في بغداد الغربية، وأضاف ابن حوقل في ٣٣٧هـ، جامعاً رابعاً كان يستعمل في أيامه للصلاة، وهو جامع براثا على طريق بلدة (المحول).

وقيل إن بغداد الغربية (الكرخ) كانت أكثر المحلات ازدحاماً بالسكان، وكانت فيها دكاكين التجار الذين يعيشون في ربض الياسرية، وذكر الأصطخري أن نهر عيسى كان صالحاً للملاحة وسير السفن الصغيرة فيه من الفرات إلى دجلة، وأن هذا الجانب من بغداد كانت فيه شبكة من القنوات تخترق المحلات غير الصالحة للملاحة مثل نهر الصراة.

وأشار المقدسي (٣٧٥هـ)، في كتابه إلى الخراب الذي حل في هذه المدينة العظيمة واستدرك قائلاً بمقدور الإنسان أن يشاهد في هذا الجانب معظم الأسواق والدور التي نجت من الخراج العام، وأضاف أن أكثر المحلات التي حافظت على وضعها ما كان واقعاً منها حول باب الطاق.

وتوفي عضد الدولة في بغداد سنة ٣٧٢هـ(٩٨٢م)، ودفن في مدينة النجف، وبعد وفاته ضعفت سيطرة البويهين على بغداد، وزحف السلطان السلجوقي طغرلبك من إيران على بغداد، وأعلن نفسه حاكماً عليها.

❖❖ **الرابع:** دور السيادة التركمانية إبان حكم السلاجقة، الذي بدأ بدخول طغرلبك في سنة ٤٤٧ وانتهى في ٥٥٢هـ، بوفاة السلطان سنجر. ويمتاز بالأعمال التي أنجزها كل من ألب ارسلان وملكشاه، ولم يتخذ السلاطين السلاجقة بغداد مقراً لهم بل أنابوا عنهم أمراء لحكم البلاد وجعلوا القصور البويهية دار السلطنة مقراً دائماً، ويعد كتاب تاريخ بغداد للخطيب الذي دونه في سنة ٤٥٠هـ، أفضل المراجع لمعرفة ما طرأ على بغداد من تدمير وتوسع في الرقعة، وفيه وصف كامل لزيارة سفير الروم إلى بغداد في سنة ٣٠٥هـ، ووصف آخر لقصور الخلفاء أيام المقتدر، وفي خلافته توسعت بغداد الشرقية، ويروي الخطيب خلال إقامته في بغداد أنها في هذا العهد توسعت وكان فيها ست جوامع كبيرة تستعمل جميعها للصلاة في يوم الجمعة.

في عهد الخليفة المنصور الراشد سنة ٥٣٠هـ، تعرضت بغداد لحصار ثالث حينما قام جيش السلطان مسعود السلجوقي تساعده قوات من واسط وصلت بطريق النهر وشدد حصاره على المدينة المنكوبة مدة شهرين، ومن جراء المصائب والنكبات التي تعرض إليها سكان المدينة، ثاروا ضد الخليفة، وخربت محلات المدينة الغربية ونهب الحريم الطاهري، فهرب الخليفة إلى الموصل، وفيها أرغم على التنازل عن الخلافة، وبويع بعده عمه محمد التقي، وعاد السلطان مسعود إلى الشرق.

تعرضت بغداد إلى حصار رابع في أيام محمد التقي، حينما توترت العلاقات بين الخليفة والسلطان السلجوقي الجديد، فزحف على العراق عن طريق خراسان بينما تحركت قطعات أخرى من الموصل وأطبقت على المدينة، وتحركت إمدادات للخليفة من الحلة والكوفة والبصرة، ودافع سكان بغداد دفاعاً مجيداً عن مدينتهم، فاضطر السلطان محمد السلجوقي إلى العودة إلى همدان، وأمر قطعاته القادمة من الموصل بالتراجع، ولما سمع سكان بغداد بانسحاب الجيش السلجوقي، خرجوا إلى الشوارع واقتحموا القصر السلجوقي ونهبوه وأشعلوا فيه النيران. وقد دون وقائع هذا الحصار عماد الدين الأصفهاني المؤرخ المعاصر بدقة وإسهاب.

ولم يبق للخفاء العباسيين سياسي بعد هذا الدور، وانصرفوا لبناء القصور وترميم ما تهدم منها، ثم جاء الإعصار المغولي بقيادة هولاكو في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، في زمن الخليفة الناصر في سنة ٥٨١هـ، ترك لنا ابن جبير الرحالة العربي الأندلسي وصفاً جيداً لمدينة بغداد

وهو في طريق عودته من مكة المكرمة، وكان قد حط رحاله في الريض الكائن في بغداد الغربية (المعروف بالقرية) قبالة المدرسة النظامية التي أسسها نظام الدين وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، فقال: إن معظم أقسامها كانت خراباً ولكنه ذكر في الوقت نفسه بعض المحلات التي لم تكن مأهولة بالسكان تماماً مثل محلة الحربية المجاورة لمحلة العتابية المشهورة بصنع المنسوجات الحريرية والقطنية. وقد شاهد قبر معروف الكرخي في ربض باب البصرة وضريح الإمام موسى الكاظم في المقبرة الشمالية الكبيرة والمعروفة بالكاظمية اليوم، وقد أحصى ابن جبير أحد عشر جامعاً تتخذ لصلاة الجمعة في جميع نواحي بغداد، وكان عدد الحمامات يفوق الحصر وكلها جميلة.

إن السفر العظيم الذي وضعه ياقوت الحموي في أواخر عهد الناصر، يعد مرجعاً جغرافياً فريداً، فقد وصف بغداد وصفاً شاملاً، لأنه نشأ فيها وتعلم، وكان عارفاً بأحوالها، وذكر أن قصر الخليفة كان في الجانب الشرقي ويشغل ثلث مساحة المدينة، وأن حولها شبكة من الأسواق والدروب تمتد إلى سور المدينة، وأشار إلى الرصافة وجامعها ومقبرتها التي ضمت قبور الخلفاء وقبر الإمام أبي حنيفة.

لم يشيد الخلفاء في بغداد قبل الفتح المغولي سوى المدرسة المستنصرية، فقد شيدها المستنصر، ولا تزال بناية المدرسة ظاهرة إلى اليوم.

❖ **الخامس:** دور الاضمحلال والسقوط حين هب الإعصار المغولي على بغداد في سنة ٦٥٦هـ، فدمرها ونهبها وسفك دماء سكانها، وقتل المستعصم آخر خلفاء بني العباس.

اكتسحت جيوش هولاكو الجرارة مناطق إيران الغربية ودمرتها تدميراً، ثم واصلت زحفها غرباً مارة بحلوان ومتجهة إلى شواطئ دجلة. وفي نقطة تقع إلى الشمال من (تكريت) عبرت أرتال من الجيش المغولي كالجراد نهر دجلة واندفعت جنوباً بحركة التفاف هدفها تطويق بغداد الغربية ومحاصرتها واحتلالها، وبدأ الحصار في منتصف شهر محرم (كانون الثاني/ يناير) سنة ١٢٥٨م، الموافق ٦٥٦ هجرية.

وبعد حصار دام خمسين يوماً، شن هولاكو هجوماً كبيراً على المدينة الشرقية أسفر عن سقوطها وأسر المستعصم وأفراد عائلته واعتقلوا في المعسكر المغولي. ودخل هولاكو المدينة واتخذ محلة المأمونية مقراً لقيادته. وأعقب هذا الهجوم الكاسح نهب بغداد الذي استمر أربعين يوماً، فقتل من سكانها خلق كثير، واندلعت النار في كل جانب، والتهمت جامع الخليفة مشهد الإمام موسى الكاظم، ومعظم شوارع المدينة، وقتل الخليفة المستعصم وأبنائه، وأعادت القوات المغولية تنظيم صفوفها ثم انطلقت لتحقيق فتوحات أخرى.

وصف أحد المؤرخين بعد نصف قرن من سقوط بغداد، الأهوال والمذابح التي شهدتها المدينة في سنة ٧٠٠هـ، خلال هذا الاحتلال، وكذلك الخراب الذي تركته الجيوش البويهية والتركمانية والمغولية فقال:

"لم يبق في الجانب الغربي إلا محال متفرقة أعمرها جانب الكرخ. أما في الجانب الشرقي فقد امتد الخراب من محلة الشماسية إلى المحزم، وأعيد بناء ما تبقى من سور المدينة، ثم جاء المغول فخرجوا أكثرها وقتلوا جميع سكانها، ولم يبق على قيد الحياة إلا آحاد كالأموات، وتدفق بعدئذ عليها الناس من الأطراف المجاورة فسكنوها، أما أهلها فقد أبيدوا، وأما معالمها فقد اندثرت، وهي اليوم غير ما كانت عليه بالأمس، وأهلها غير ما عهدناهم. والحكم لله تعالى".

لقد زال بهاء بغداد ولم تعد عاصمة لتلك الخلافة التي طبقت شهرتها الآفاق وتعاقب عليها الفاتحون والطامعون يدمرون ويذبحون ويحرقون الحرث والنسل، الفاتحون من الأيلخانيين والجلائريين وتيمورلنك، وخلال هذه الفترات أجريت بعض الترميمات وضمدت بعض الجروح، ولكن الكارثة كانت أكبر من هذا كله.

وفي سنة ١٥٠٨م، استولت على بغداد وأطرافها جيوش الشاه اسماعيل الصفوي وطردت الإمارات التركمانية الحاكمة ثم زحفت على العراق جيوش السلطان سليمان القانوني الكبير وطردت الجيش الصفوي، واحتلتها في سنة ١٥٣٤م، ثم استعادها الشاه عباس الكبير الصفوي سنة ١٦٣٨م، ثم هزم جيوشه السلطان مراد الرابع العثماني، وجرت فيها مذابح تقشعر لها الأبدان. ومنذ هذا التاريخ سيطر العثمانيون على بغداد والعراق وأصبحت بغداد مقر ولاتها.

هذا ما كان من تاريخ مدينة بغداد القديمة، وهي الفترات التي شهدت تألقها وتدهورها.

محلات بغداد:

❖ **الكاظمية**: كانت تعرف بمقابر قريش منذ أن أسس الخليفة المنصور المدينة المنورة وتقع على مقربة من شاطئ دجلة الغربي.

❖ **العطيفية**: منسوبة إلى مالكها الأول "عطيفة" من أهل الكاظمية وهي المحلة الممتدة على شاطئ دجلة الغربي أولها مما يقابل مشهد المنطقة ومنتهاها في الشمال وكانت في موضعها على دجلة خاصة دار القرار الفخمة وهي السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد وفي شمالها قصر الخلد وفي موضعه أو قربه أنشئ البيمارستان العضدي نسبة إلى عضد الدولة البويهي من القرن الرابع للهجرة.

❖ **الجعيفر**: منسوبة إلى بعض الأفخاذ العربية المعروفين بالجعافرة وهي آخر محلة الكرخ القديمة وأكبر محلة بالجانب الغربي وكانت مسورة ولسورها أبواب. وكان في

مشرعة الكرخ مشهد منسوب إلى عون ومعين قيل إنهما من العلويين، وقد رآه الرحالة ابن جبير حين دخل بغداد في سنة ٥٨٠هـ.

❖ **السوق الجديد:** تلي محلة الجعيفر من الجنوب. وكانت تعرف بمحلة قصر عيسى، وعيسى هذا هو أحد أعمام الخليفة المنصور، أقطعه المنصور قطيعة على الشاطئ وبنى قصراً إلى الجنوب منها وكان الوضع يعرف قديماً بقصر سابور وهو سابور الثاني الفارسي الساساني.

وأصلح الأمير عيسى نهراً دارساً كان مصبه في دجلة عند قصره ومأخذه من الفرات، وقد عرف بنهر عيسى، وكان يعرف أيام الساسانيين بنهر الرفيل وتقدير مصبه شمالي جامع قمريه.

❖ **محلة الدوريين واللخامة والمشاهدة:** كانت تعرف أيام العباسيين باسم محلة "قطفتا" وهو اسم رامي في موضعها قرية عتيقة.

❖ **محلة الشيخ صندل:** وكانت تعرف أيام العباسيين بمحلة العقبة وصندل هذا هو عماد الدين صندل ابن عبد الله الحبشي من مماليك الخليفة حتى أواخر القرن السادس عشر فاستأذن الخليفة الناصر لدين الله في الاعتزال عن الخدمة لعجزه والانقطاع لعبادة الله مع أفراد من الصوفية اختارهم في زاوية له اتخذها في محلة العقبة المذكورة، وهي التي اتخذت مسجداً أخيراً عرف بجامع الشيخ ضدل.

❖ **باب السيف وعلاوي الحلة والشواكة:** كانت هذه المحلات تعرف بمحلة "القرية" بالتصغير وكانت "قرية" أخرى أيضاً بهذا الاسم في الجانب الشرقي، وكان في القرية الغربية موضع على دجلة يعرف بقصر بني المأمون ويتصل بمحلة قصر عيىسى في الجنوب.

❖ **محلة الكريمات:** نسبة إلى الكريمات من العرب الذين سكنوا هذا الموضع، وكانت أيام بني العباس تعرف برقة ابن دحروج، وكان فيها بساتين ومزارع وتتصل بمحلة العالمية وكرادة مريم وكانت هذه تسق بنهر عيسى من فرعه الكبير.

❖ **الصليخ:** وكانت تعرف بالشماسية. وكان للشماسية رقة ينبت فيها القصب والأدغال ويخرج إليها الرماة للصيد، ويعرف أعلاها بباب الشماسية حيث شيد معز الدولة البويهي قصره المعروف "بالقوراء" ذات المسناة الطويلة سنة ٣٥٠هـ، أقام فيه عملاً بنصيحة الأطباء بعد أن اعتل لطيب هواء الموقع وجماله.

معالم بغداد القديمة الشاخصة:

حلت ببغداد محن وكوارث دمرت كثيراً من معالمها، فالغزو المغولي، وما ترك وراءه من دمار ودماء، والحروب التي دارت للسيطرة على بغداد عاصمة العالم الإسلامي في العهدين الجلائري والتركماني والحكمين الصفوي والعثماني، وما خلفت هذه كلها من الخراب

والفقر والأوبئة والفيضانات والحرائق التي داهمتها وما أسفرت عنه من تقلص في عدد السكان وحرق للأراضي الزراعية كل هذه الكوارث والمحن التي استمرت تفتك فيها خلال السبعة قرون الأخيرة من الحكم الأجنبي تركت بغداد أثراً بعد عين. فلا جوامعها ولا مساجدها غاصة بالمصلين ولا مدارسها ومكتباتها عامرة بالعلماء والمتعلمين ولا قصورها وعماراتها ضاحكة بالأمراء والسكان الآمنين وتركت العراق تتلاعب بمقدراته الأهواء والأطماع وتصول فيه الفوضى وتجول وكادت بغداد تلفظ أنفاسها إلى الأبد وتصبح مدينة خربة كما كانت بابل ونينوى لولا عناية الباري عز وجل، فقد دبت فيها الحياة بعد الحرب العالمية الأولى، وانتعشت بعد الحرب العالمية الثانية، وعادت بغداد إلى حظيرة العواصم العربية لتجدد تاريخهخا وتصنع أحداثها من أجل العروبة والإسلام.

ومع ذلك ظلت في بغداد معالم قليلة خاصة وشاحبة تروي للعرب وللمسلمين قصتها الحزينة وآلامها المريرة وجمالها الأسطوري الذائل وسحرها الرائع الذي تتحدث به كتب التاريخ وقصائد الشعراء وحتى هذه المعالم الشاحبة لم تسلم من يد العابثين ولكن الأيدي الأمينة عكفت منذ نصف قرن على ترميمها وصيانتها وإلباسها ثوباً جديداً ليعيد لها حياتها وجمالها.

ومن أهم الأبنية الشاخصة التي امتدت لها يد الصيانة والتنظيف والترميم والتحديد القصر العباسي والباب الوسطاني وتربة الشيخ عمر السهروردي، والمدرسة المستنصرية على نهر دجلة، ومنارة سوق الغزل، وجامع الخفافين، وجامع الشيخ معروف الكرخي، وجامع قمرية، والمدرسة المرجانية، (جامع مرجان)، وخان مرجان، وهو من وقف المدرسة وأصبح دار الآثار العربية والمشهد الكاظمي في مقابر قريش وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وجامع الإمام الأعظم وتفصيل ذلك كما يلي:

١ - القصر العباسي

يعود تاريخ القصر العباسي، وكذلك الباب الوسطاني، إلى أوائل القرن السادس للهجرة في عهد الخليفة الناصر لدين الله، استخدم في بنائه الآجر والجص وأروقته وغرفه معقودة بهما أيضاً، ويحتوي على إيران عال أو أكثر، فسيح وتعلوه فتحة واسعة مزينة بزخارف جميلة دقيقة الصنع، رائعة الجمال، بديعة التكوين في التركيب والتنسيق والترتيب، وتظهر هذه الزخارف في أروقة الغرف والأواوين وفوق الغرف والحجرات، ويتكون هذا النظام الدقيق من الزخارف بتلاصق الأجر بعض إلى بعض، وبتركيب متداخل دقيق وبأشكال وحجوم مختلفة، وكل قطعة منقوشة نقشاً دقيقاً، كأنه حفر أو نقش في الخشب أو المعدن وبأنواع هندسية وزهرية، وعلى سطوح مستوية أو بارزة أو مقعرة أو محدبة قليلاً.

وفي العهد العثماني تعرض القصر العباسي إلى تشويه كبير وأنهار جداره الشمال الغربي والجنوبي الغربي. بيد أن مدخله وإيوانه وحجراته وزخارفه ظلت قائمة نوعاً ما، وقد أعيد بنائها وزخرفتها من قبل مديرية الآثار العامة، وجعلته متحفاً لقسم من الآثار الإسلامية ولا سيما الحجرية منها كالمحاريب والقطع المزخرفة.

٢ ـ المدرسة المستنصرية:

شرع الخليفة المستنصر ببنائها في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧م)، وانتهى منها في سنة ٦٣١هـ، واستخدم في البناء الآجر المحكم والجص. ويلاحظ أن هندستها وزخارفها وحجراتها وأواوينها جاءت على غرار القصر العباسي. ويتألف البناء عادة من صحن مستطيل أو مربع في وسط البناية تطل عليه الأواوين والحجرات والغرف، وأمامها أروقة متصلة البناء في الطابق الأعلى ويلاحظ وجود آثار لبقاء مسجد في كل من البنايتين وتزين واجهة المدرسة المستنصرية المطلة على نهر دجلة كتابات جميلة محفورة بخط الثلث الكبير جدد معظمها في عهد السلطان العثماني عبد العزيز خان في سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م)، وكانت هذه المدرسة أول جامعة إسلامية، وهي اليوم مؤلفة من كليات ودراسات تخصصية مختلفة، وسكن لطلبة العلم.

أسواق بغداد القديمة:

تشتهر بغداد بأسواقها القديمة التي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا. وأغلبها مشيد بالأجر والجص ومسقوفة ومتداخلة وضيقة، ومن هذه الأسواق:

- سوق البزازين: حيث تباع الأقمشة الحريرية والقطنية المستوردة.
- سوق القزازين: حيث تباع الأقمشة المنسوجة من الحرير والقز المصنوعة في بغداد وتباع بها كذلك الحزم (الهميان) والحيص (جمع حياصة) وهي حزم خاصة بالصبيان.
- سوق السراجين: حيث كانت تصنع سروج الخيل والصناديق المصنوعة من جلود الغنم الخاصة بالمسافرين.
- سوق الغزل: الذي كانت تباع فيه أنواع الغزول القطنية بنسيج الأقمشة ومنها العباءة، وفي هذا السوق كانت تباع أيضاً الأواني النحاسية وأنواع الطيور والحمام الزاجل والقماري والصنادل والبط والقط والدجاج وماشية أخرى كالخراف والماعز والغزلان والقرود والأرانب وأنواع العطور، لا سيما ماء القداح المستخرج من الزهر الأبيض في أشجار البرتقال.
- سوق الصفارين، الخاص بصنع وبيع الأواني النحاسية من قدور وأباريق وطشوت وغيرها، ولا تباع ولا تعرض فيها غير الأواني النحاسية.

- ❖ سوق الهرج: الكائن خلف "المدرسة المستنصرية" حيث لا تسمع غير الصياح من الباعة وكانت تباع به الأسلحة النارية والجارحة.
- ❖ أما سوق الصاغة المعروف بـ"خان جغان" ويسمى سوق دانيال، فتنتشر بدكاكينه صاغة الذهب والفضة، والداخل إلى هذا السوق بجده غاصاً بنساء بغداد، هذه تشتري "الخلخال" وتلك "الملاوي"، وأخرى تضع أقراطاً بأذنيها، أو خاتماً، وتباع أنواع المواد العطارية والسكر والصابون والشاي والهيل والحبوب والأرز في سوق الشورجة، وكان يعرف قديماً بسوق العطارين. وشبيه بهذا السوق سوق الميدان الواقع قرب جامع الأحمدية وفيه تباع أنواع اللحوم والخضروات والأقمشة وفيه مخازن كبيرة للأرز والحنطة (القمح) والشعير، وفي زاوية من هذا السوق سوق الهرج حيث تباع فيه المصنوعات الخشبية المستعملة من أثاث وغيرها.

ومن أسواق بغداد الشهيرة القائمة حتى يومنا هذا سوق السراي المجاور لسراي الحكومة وسائر الدوائر الأخرى، وتباع فيه الكتب العلمية والأدبية والمدرسية وأنواع القرطاسية، وأقدم بائعي الكتب ملا خضر وملا نعمان الأعظمي صاحب "المكتبة العربية" المؤسسة سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م)، ومحمود حلمي صاحب "المكتبة العصرية" وقاسم الرجب صاحب "مكتبة المثنى" وهاتان المكتبتان قائمتان اليوم في شارع المتنبي.

وتقع جميع هذه الأسواق في الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة)، وهو الجانب الذي تقع فيه دوائر الحكومة والمدارس ودور الولاة والسراة من العثمانيين والبغداديين، وهو الجانب العامر من بغداد منذ سقوط الدولة العباسية، أما الجانب الغربي (الكرخ)، حيث شيد المنصور "المدينة المدورة" فقد انطمست معالمه.

وفي الجانب الغربي (الكرخ) من نهر دجلة نشأت أسواق قليلة، لكنها لم تكن عامرة كأسواق الرصافة أبرزها:

- ❖ سوق الشواكة وسوق حمادة والعجيمي:
- ❖ السوق الجديد: وهو اسم لمحلة في جانب الكرخ كان يسكنها بعض الأدباء والشعراء، بل كانت ملتقى أدبياً، وكانت تباع بهذا السوق أنواع الأخشاب القادمة من الموصل عن طريق النهر، ومن الأدباء والشعراء المعروفين الذين كانوا يرتادون هذا السوق الشاعر عبد الباقي العمري، وعبد الغفار الأخرس، وعبدالله الخياط.

أشهر المقاهي في بغداد:

اشتهرت بغداد بمقاهيها المنتشرة في كل مكان بحيث أصبحت نوادر اجتماعية يلتقي فيها الأدباء والشعراء والتجار والموظفون والعمال من ذوي المهن والهوايات المتقاربة، وتتم فيها أحياناً الصفقات التجارية ويلعبون النرد (الطاولة) والدومينو والمنقلة وهي لعبة خاصة بالبغداديين يومذاك.

وفي بعض المقاهي لا سيما ليلاً يحضر عازف الرباب يشنف رواد المقهى بأنغامه الشجية وبغنائه المعروف بـ"العتابة والنايل" وهو غناء عراقي أصيل، كما يحضر "القصاصون"، وكانت للقصاص مكانة مرموقة حيث يمتع الرواد بالقصص والأساطير، ويتلو عليهم الأمثال والأقوال والشعر أحياناً، ومن أشهر قصاصي بغداد يومذاك ملا إبراهيم الموصلي (توفي ١٣٠٨هـ)، وخلفه ملا خضر وهو من مواليد الموصل أيضاً، توفى أيام الوالي جمال باشا سنة ١٩١٢م.

ومن المقاهي التي اشتهرت في بغداد "مقهى سبع" و"مقهى وهب" ومقهى "عزاوي"، وكلها في محلة الميدان قرب باب المعظم، وعلى بضعة أمتار من دوائر الحكومة، واختص مقهى عزاوي بعرض الألاعيب (أي القرة قوز) خلال شهر رمضان، ويتحول ليلاً إلى تياترو أي "مسرح شعبي" بتعبير أهل بغداد، ومن المقاهي الشهيرة المقهى المعروف باسم "مقهى القراء خانة" الواقع قرب باب المعظم أو (عثمانلي قرنخانة سي)، وكان أول مقهى نظم تنظيماً حديثاً في بغداد من حيث تقديم الشاي، وتنظيم المقاعد وشرب القهوة، ومن حيث قراءة الجرائد التي تصدر صباحاً في بغداد، بالإضافة إلى الجرائد التركية الواردة من استانبول عاصمة الخلافة، وكان صاحب هذا المقهى رجل إيراني الجنسية يحسن اللغات التركية والفارسية والفرنسية، وأصبح اسمه المعروف "مسيو" لكثرة ما كان يخاطب زبائنه باللغة الفرنسية.

ومن المقاهي الأخرى "مقهى المميز"، قرب المدرسة المستنصرية وفي ليالي رمضان يغني فيه مطرب المقام العراقي المعروف أحمد زيدان، و"مقهى العنبار" حيث كان معظم رواده من التجار، بحيث يعتبر غرفة تجارة وبورصة، ومقهى "التبانة"، حيث كانت تقدم فيه ليلاً بعض التمثيليات الهزلية وتقام صباحاً حفلات نطاح الكباش وعراك الديكة وعند بدء المباريات يعلو هتاف المتفرجين للفائزين.

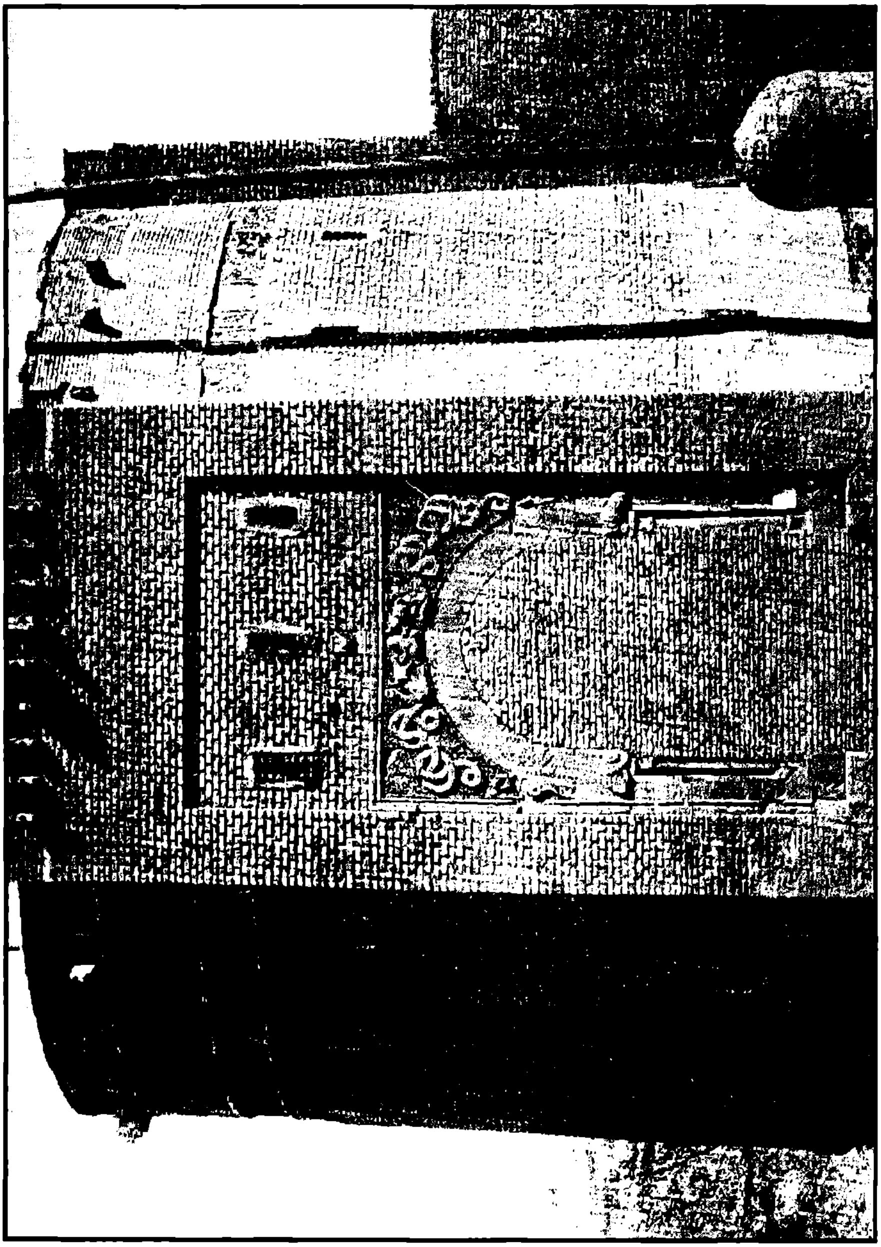
ثم ماذا؟

إن الحديث عن مدينة تاريخية كبغداد شهدت عدة حضارات وعانت أهوالاً من الأحداث والنكبات لهو حديث لا ينتهي.. وقد حظي تاريخها بعدد من المراجع والمصادر التي تشكل جانباً هاماً من مكتبة قيمة.

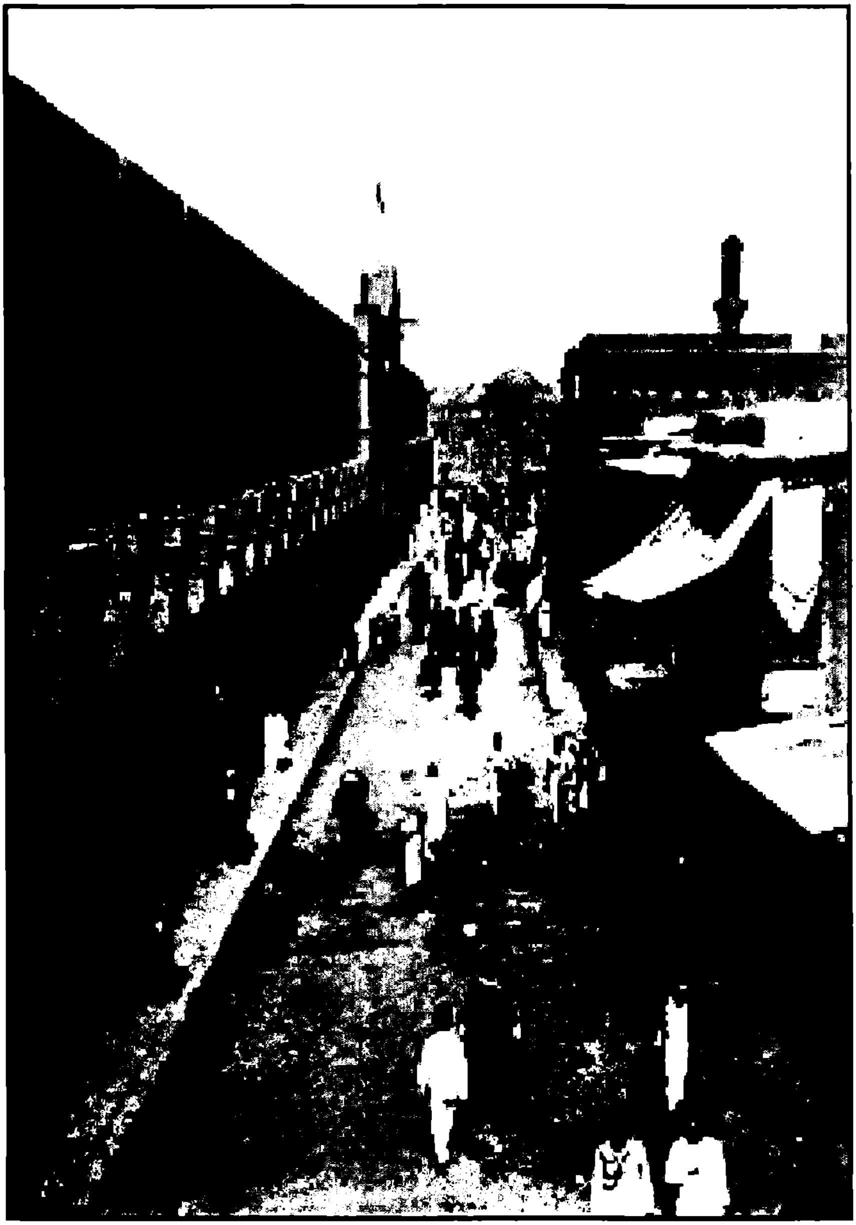
وما أوردناه مجرد صور سريعة لجوانب من تاريخها ورحلة قصيرة في خضم بحر تاريخها المتحرك الذي لم ينضب.

هذه بغداد المدينة التي حافظت على ملامح وقسمات تاريخها العريق مع ما تحفل به اليوم من تطور في مختلف ميادين الحياة.

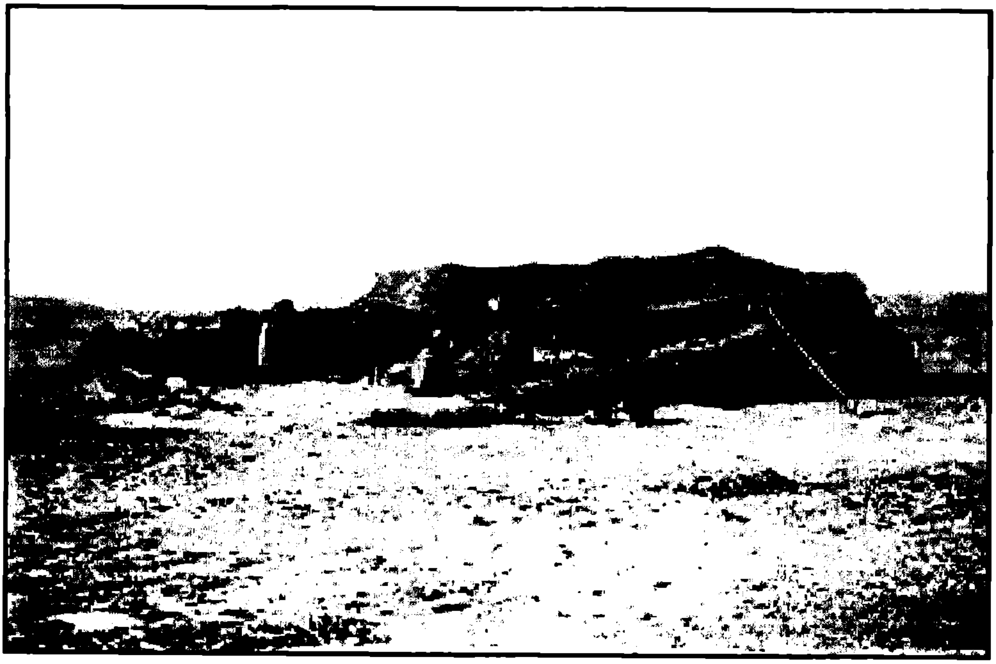
❖ ❖ ❖



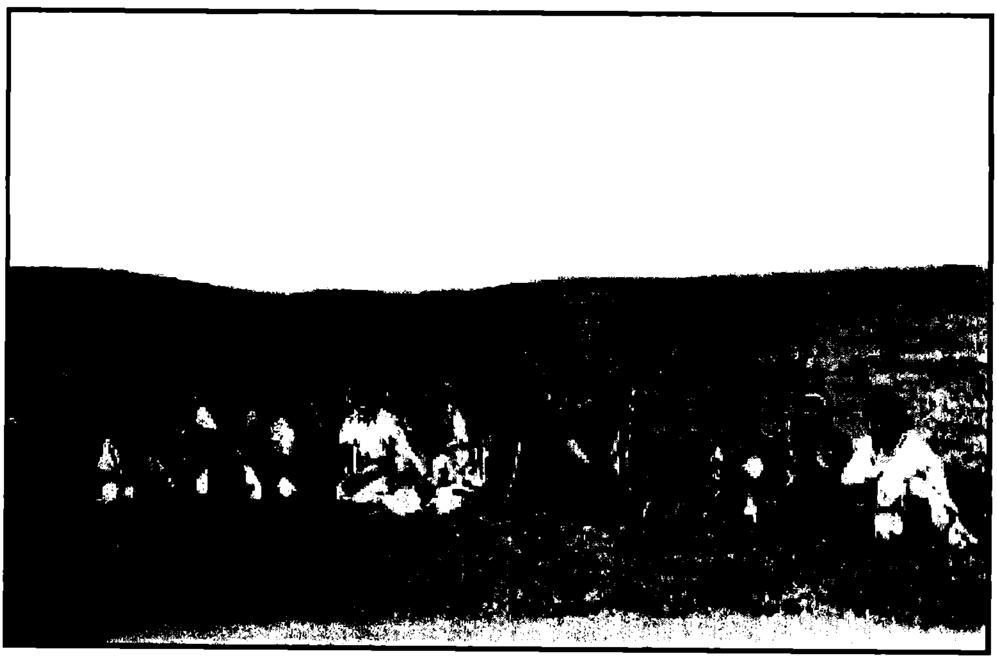
باب الطلسم – بغداد.



شارع في بغداد.



جمع من البدو في أطراف بغداد.



مجموعة من البدو على تخوم بغداد.

محـلات بغـداد الحديثـة
وما يقابلها من المحلات القديمة

✍ فؤاد جميل، ومصطفى جواد

لما كان ابتداء عمران العباسيين لمنطقة بغداد في الجانب الغربي من دجلة رأينا أن نبدأ بذكر المشهور من محالها وما يتصل بها من مرافق العمران والحضارة والتمدن، كالمساجد والجوامع والمدارس والمارستانات والربط والزوايا والسقايات والمشاهد والمقابر والأنهار والقني والجسور، على حسب الإمكان وعلى وفق ما تيسره المراجع الخططية القديمة لبغداد، ونحن بتطبيقنا الحديث على القديم والجديد على العتيق لا نعني الانطباق التام فذلك مستحيل لأن التقسيم القديم مخالف للتقسيم البلدي الحديث. فتقول:

الكاظمية

كانت تعرف بمقابر قريش منذ الأيام التي أنشئت فيها مدينة المنصور، تلك المدينة المدورة التي عرفت بمدينة السلام غالباً وبدار السلام قليلاً، وكانت في مواضع قصور الجلبية وبساتينهم مما يقرب من شاطئ دجلة الغربي، بين الكاظمية الحالية ومشهد المنطقة الذي عرف أيضاً قديماً بمشهد العتيقة وليس له غير هذين الاسمين، وكان في قرية عتيقة معروفة قبل إنشاء مدينة المنصور وهي سونايا وهو اسم آرامي ككثير من أسماء القرى والمدن بالعراق. والسبب في تسمية ذلك الموضع بمقابر قريش أن أبا جعفر المنصور اتخذه مقبرة للقرشيين وأتباعهم وقد دفن فيه ابنه جعفر الأكبر سنة "١٥٠هـ" ومشى هو خلف جنازته من مدينته إلى مدفنه هناك وذلك يدل على قرب مقابر قريش من مدينة السلام. ثم دفن فيها من المشهورين قاضي قضاة الدولة العباسية "أبو يوسف يعقوب الأنصاري الحنفي" - رضي الله عنه - سنة ١٨٢ وقبره اليوم ظاهر في مسجد حسن العمران ثم دفن فيها الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق - عليهما السلام - سنة ١٨٣، وإلى لقبه نسبت البلدة فقيل "الكاظمية" ودفنت فيها السيدة زبيدة.

العطيفية

منسوبة إلى مالكها الأول "عطيفة" من أهل الكاظمية، وهي المحلة الممتدة على شاطئ دجلة الغربي أولها مما يقابل مشهد المنطقة ومنتهاها في الشمال، وكانت في موضعها على دجلة خاصة دار القرار الفخمة وهي دار السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد وفي شمالها قصر الخلد الذي أنشأه المنصور على دجلة خارج مدينته، وفي موضعه أو قربه أنشئ المارستان

العضدي نسبة إلى عضد الدولة البويهي في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة وبنيت حوله الدور وأنشئ له شارع عرف بشارع المارستان، وكان جسر مدينة السلام الأوسط فوق المارستان المذكور، وكان رأس الجسر الشرقي في شاطئ محلة هيبة خاتون قرب دار المعلمين الابتدائية التي أنشئت باسم جامعة آل البيت.

الجعيفر

منسوبة إلى بعض أفخاذ القبائل العربية المعروفين بالجعافرة ثم جرى عليها الأفراد والأمانة بحسب لغة العوام، وهي آخر محلة الكرخ القديمة، وكانت مشرعتها تسمى مشرعة الكرخ، والموضع القريب من دجلة منها كان يسمى "الرملة" لظهور الرمل فيها، كما نظن. وكانت محلة الكرخ أكبر محلة بالجانب الغربي، وكانت مسورة ولسورها أبواب وحراس كما لسائر المحلات البغدادية منذ القرن الرابع للهجرة حتى زوالها وخرابها بكثرة الفتن المذهبية واضطراب حبل الأمن في العصور الأخيرة.

وكان في مشرعة الكرخ مشهد منسوب إلى عون ومعين ادعى أنهما من العلويين وقد رآه ابن جبير الرحالة حين دخوله بغداد سنة ٥٨٠هـ. وعلى شاطئ دجلة هناك كانت تربة السيدة سلجوقي خاتون بنت قليج أرسلان السلجوقي زوج الخليفة الناصر لدين الله العباسي ورباطه إلى جانب تربتها وكان في التربة خزانة كتب جليلة وقفها عليها زوجها الخليفة المذكورة وقد ذكرها غير واحد من الرحالين والواردين بغداد من الأقطار الأخرى ومنهم كمال الدين عمر ابن العديم الحلبي الحنفي القاضي الأديب ونقل منها فوائد لكتابه "تاريخ حلب" الخاص بالناس لا بالحوادث.

وقد جرفت دجلة قبل زهاء أكثر من مائة سنة جميع هذه الآثار وابتلعت أرضها فدخلت في عقيقها، وصار ذلك الشاطئ جرفاً سريع التهور حتى اليوم.

السوق الجديد

تسمية ظاهرة وهي تلي محلة الجعيفر من الجنوب، وكانت تعرف بمحلة قصر عيسى، وهو الأمير عيسى بن علي أحد أعمام المنصور، وقد أقطعه المنصور هذا الشاطئ وما يليه فبني قصراً في جنوبي قطيعته وامتدت قطيعته إلى قريب من جنوبي الكرخ، وكان موضع قصره على التقريب قرب مدرسة الكرخ الثانوية وكان الموضع يعرف قديماً بقصر سابور وهو سابور الثاني الفارسي الساساني، وقد سكن الناس بعد ذلك حول القصر وعمروا دوراً في القطيعة فسميت المحلة "محلة قصر عيسى". وأصلح الأمير عيسى نهراً عتيقاً كان مصبه في دجلة عند قصره ومأخذه من الفرات وقد عرف بنهر عيسى، وكان يعرف أيام الساسانيين بنهر الرفيل

وتقدير مصبه شمالي جامع قمرية أو جنوبي مدرسة الكرخ الثانوية المذكورة آنفاً. وكان قرب أرض المدرسة رأس الجسر العباسي الأسفل ورأسه الشرقي عند أرض المحاكم المدنية.

وجامع قمرية منسوب إلى موضع على شاطئ دجلة هناك يعرف بقمرية وقد أنشأه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦ وجدد غير مرة، إلا منارته القصيرة العتيقة فإنها من بنيانه الأول في العصر العباسي المذكور.

محلة الدوريين والفحامة والمشاهدة

ارض قديمةكانت تعرف أيام العباسيين ومن جاء بعدهم باسم ارامي هو (قطفتا) وكانت في موضعها قرية عتيقة كثيرة الثمار دانية القطوف، وقد جاء في الأخبار أن الإمام علياً (ع) مرّ بها في أثناء تعقيبه الخوارج أو في أثناء سيره من المدائن إلى صفين على طريق الأنبار وخرج إليه أهلوها يشكون عامله فأجابهم بما هو مسطور في التاريخ وكانت قطفتا من المحلات الكبيرة وفي غربيها مقبرة باب الدير وهو دير كليليشوع وهي المقبرة التي دفن فيها الشيخ الزاهد معروف الكرخي سنة ٢٠٠ هـ على أظهر الأقوال ولا يزال قبره مرعياً مزوراً وله مقبرة واسعة، لا يراها الرائي ألا تذكر قول أبي العلاء المعري:

خفف الوطء ما اظن اديم الأر ض إلا من هذه الأجساد

وفي آخر مقبرته من الغرب تربة السيدة "زمرد خاتون" زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله ووالدة الخليفة الناصر لدين الله وهي تربة عتيقة البنيان ذات قبة شامخة مخروطية الشكل من طراز العصر السلجوقي، وقد ظن بعض المتأخرين أن تربتها للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد المقدم ذكرها وقد أشرنا إلى أن قبرها كان في مقابر قريش عند التربة الكاظمية، وذلك وهم من الأوهام الشائعة، وكانت هذه السيدة الشافعية التقية قد أنشأت تربتها في حياتها وبنت إلى جانبها رباطاً للصوفية وأنشأت مدرسة لطلاب المذهب الشافعي، ووضعت في التربة خزانة كتب فضلاً عن خزانة الرباط وخزانة المدرسة، كما هو مألوف في هذه المنشآت الخيرية الثقافية الدينية.

محلة الشيخ صندل

وكانت تعرف أيام العباسيين بمحلة العقبة ولعلها كانت مرتفعة فسميت بذلك، وهي المحلة التي ولد فيها ابن الرومي الشاعر الكبير المعروف، والشيخ صندل المضافة هي إليه لم يكن شيخاً بالمصطلح المعروف عند المسلمين، وإنما ظهرت له هذه التسمية في العصور المتأخرة، وهو عماد الدين صندل بن عبدالله الحبشي المقتفوي كان من مماليك الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي مجدد مجد الدولة العباسية وقد جعله قائداً من قواده ثم تولى الحكم في منطقة واسط ثم صار أستاذ دار الخلافة على عهد الخليفة المستضيء بأمر الله

وبقي في خدمة الدولة العباسية حتى أواخر القرن السادس فاستأذن الخليفة الناصر لدين الله في الاعتزال عن الخدمة لعجزه والانقطاع لعبادة الله مع أفراد من الصوفية اختارهم في زاوية له اتخذها في محلة العقبة المذكورة، وهي التي اتخذت أخيراً مسجداً عرف بجامع الشيخ صندل ولما مات دفن في الزاوية ولعل قبره لا يزال قائماً، فالزاوية ملكه ولا يجوز شرعاً تعفية قبره.

محلة الشيخ بشار

نسبة إلى الشيخ ابن بشار الزاهد من أهل القرن الرابع للهجرة، وكانت تعرف بالنجمي، ولعل الأصل "البستان النجمي"، وهو متصل بمحله قصر عيسى المقدم ذكرها، وبالقرب منه المربعة المعروفة بمربعة القطانين وهي ملتقى أربعة طرق وكذلك كل مربعة، وفي أحد المساكن أو إحدى الزوايا قرب هذه المربعة نزل ابن جبير الرحالة في أثناء دخوله بغداد وإقامته فيها أياماً، على ما ذكر هو في رحلته، وليست هي المربعة الحلاية التي بالجانب الشرقي من بغداد كما ذكر المحقق الراحل يعقوب نعوم سركيس في بعض مقالاته وكتبه. وكان تربة ابن بشار في وسط هذه المحلة بالقرب من دجلة ولما فتح الشارع الممتد من رأس الجسر العتيق إلى محلة الجعيفر أصابت الاستقامة قبره فنقل رفاته إلى مقبرة الشيخ معروف.

باب السيف وعلاوي الحلة والشواكة

كانت هذه المحلات تعرف بمحلة القرية "بالتصغير" وكان ببغداد قرية أخرى بالتصغير أيضاً وكانت في الجانب الشرقي، وسيأتي ذكرها في محلاته، وتتميز إحداهما من الأخرى بالقرينة كأن يقال "عبر فلان من الجانب الشرقي إلى مشرعة القرية "فعلم أنها القرية االغربية على التحقيق. وكأن يقال "كان فلان يسكن القرية من الحال المتصلة بدار الخلافة" فيعلم أنها القرية الشرقية لأن دار الخلافة العباسية المتأخرة كانت بالجانب الشرقي. وكان في القرية الغربية موضع على دجلة أيضاً يعرف بقصر بني المأمون ويتصل بمحلة قصر عيسى من الجنوب، وفي قصر بني المأمون دفن الخليفة المستضيء بأمر الله وغيره، وهناك على شاطئ دجلة أنشأ فخر الدولة الحسن بن المطلب أحد أبناء الوزراء ومن أعيان بغداد جامعاً عرف بجامع فخر الدولة، وقد أثرت فيه مياه دجلة وصدعته وقد زال بأحد أسباب الزوال أو بأكثر منه. وفي باب السيف خان للحبوب فيه قبر كتب عليه بعض المتطفلين على الخطط أنه قبر الإمام أبي الحسن الأشعري - رح - لأنه دفن فيه شرعة الروايا، وهي مشرعة الدواب التي تحمل الماء إلى داخل المحلات، ومشرعة الروايا في التعيين الخططي كانت فوق مشرعة الكرخ الذي ذكرنا أنها كانت في أعلى محلة الجعيفر، وكانت أيضاً مشرعة للروايا التي تحمل الماء من دجلة إلى مدينة المنصور ولعلها كانت قرب باب خراسان وهو الباب الشرقي من أبواب

المدينة الأربعة فتكون المشرعة قبالة محلة الكسرة أو محلة هيبت خاتون من الجانب الشرقي، وبذلك يستحيل أن يكون هذا القبر قبر الأشعري.

محلة الكريمات

نسبة إلى الكريمات من العرب الذين سكنوا هذا الموضع بعد أن لم يكن مسكوناً وكانت أيام بني العباس رقة تعرف برقة ابن دحروج والرقة هي الأرض التي يطفح إليها الماء في أيام الفيضان وكان في الرقة بساتين ومزارع كما ورد في الأخبار، وتتصل محلة الكريمات بالصالحية وكرادة مريم وكانت كل هذه المواضع والمزارع والبساتين من مقاطعة "بادوريا" الكبيرة التي كانت تسقى بنهر عيسى من فرعه الكبير الذي يمتد إلى جنوب بغداد الشرقي إلى ما يلي الجسر المعلق الحالي والدورة وكان فيها قرى منها النخاسية نسبة إلى بعض النخاسين والحارثية نسبة إلى رجل من الأعيان اسمه الحارث، وكان هناك للنصارى النسطوريين دير يعرف بدير الثعالب وهذا من تسمية العامة للدير المذكور.

الصالحية

كانت من مزارع مقاطعة بادوريا وبساتينها، وهي منسوبة إلى رجل من المعاصرين الملاكين اسمه صالح، ولا صلة لها بالصالحية التي كانت قرب مدينة المنصور، المنسوبة إلى صالح المسكين من الأمراء العباسيين أهل بيت الخلافة، فالمسافة بينهما هي مسافة ما بين المنطقة ومحلة الكريمات اليوم، فتشابه الأسماء لا يدل على الاتحاد في الزمان والمكان، وقد مضى شيء من ذلك عند كلامنا على القرية الشرقية والقرية الغربية من محال بغداد القديمة.

الصليخ

كانت تعرف بالشماسية وأعلاها يعرف بباب الشماسية، بالنسبة للداخل في الجانب الشرقي من بغداد من الشمال، وكان للشماسية رقة ينبت فيها القصب والأدغال، ويخرج إليها رماة البندق يصطادون فيها الطيور، وبباب الشماسية على دجلة ابتنى معز الدولة البويهي داره القوراء الفخمة ذات المسناة الطويلة سنة "٣٥٠" وذلك لأنه كان عليلاً فنصح له الأطباء بالابتناء في ذلك الموضع لطيب الهواء وجمال المنظر.

وفي شرق الشماسية كانت دار الروم وهي محلة أسكن فيها أسرى الروم فنسبت إليهم، وكان فيها قديماً ديارات للنصارى النسطوريين منها "دير روماتس" وللأرمن الذين نقلهم المهدي أسرى من بلادهم "دير سمالو" وكان فيها بيعة للنسطوريين، وهي كنيسة النصارى التي يصلون فيها صلاتهم ويتعبدون ويقربون القرابين.

أعلى الأعظمية

كان يعرف بسوق خضير (تصغير خضر) وكان من أعظم المباني وموضعه من أشهر المنازه البغدادية، ولما كثر السكان هناك صار سوق خضير محلة وعرفت بالخضيريين نسبة إليه، ولها أخبار في التاريخ كسائر محال بغداد، والأعظمية، منسوبة إلى نعت الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (رض) عند الأتراك فقد سموه الإمام المعظم ثم "الإمام الأعظم".

مركز الأعظمية

كان مقبرة من المقابر غير الإسلامية في أيام الدولة الساسانية وقبل إنشاء المنصور مدينته بالجانب الغربي، ولما توفى الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت وذلك سنة "١٥٠" دفن فيها وتغلب المسلمون عليها، ثم دفنت فيها السيدة الخيزران زوجة المهدي ووالدة الرشيد والهادي، فسمّاها الناس "مقبرة الخيزران" على حسب عادة الناس في تقديم أرباب الدنيا على أهل الآخرة، وقد نشأت حول تربة الإمام محلة كبيرة يسكنها أتباع مذهبه واتصلت بمحلة باب الطاق التي هي في جنوب التربة ولذلك يطلق أحياناً على هذه المحلة اسم "باب الطاق" للمجاورة، وكان لها اتصال بالرصافة من الجنوب أيضاً، فلما سورت المحلتان، تميزت أحداهما عن الأخرى بالسور والمذهب فقد كان سكان الرصافة من الحنابلة. وكانت الشماسية ودار الروم ومحلة الرصافة تسقى من فرع من فروع نهر الخالص العتيق.

الرصافة

هي القسم الشرقي من بغداد العتيقة التي عمرها المنصور وأسكنها الناس، والظاهر أنه سماها باسم رصافة هشام بن عبدالملك الأموي وقد عاصره المنصور وربما شاهد رصافته في بر الشام، وقد أنشأ المنصور الرصافة لإقامة ابنه المهدي مع جيشه بعد إنشائه مدينته "مدينة السلام" ولذلك سميت أحياناً "العسكر" وكذلك سميت سامرا بعد أن عمرها المعتصم، إلا أن الرصافة هذا الاسم هو الذي غلب عليها وشاع وذاع، وهي اليوم داخلة في محلة هيبت خاتون وقد ذهب اسمها القديم، وأما تسمية الناس الجانب الشرقي من بغداد الحالية بالرصافة فهو خطأ مبين، لأن الرصافة كما قلنا تدخل أرضها في محلة هيبت خاتون الحالية وقد سورت وجدد سورها بالآجر الخليفة المستنصر بالله، وذلك لأن مقبرة العباسيين والعباسيات كانت فيها منذ أواسط القرن الرابع للهجرة، وترك العباسيون وأتباعهم الدفن في مقابر قريش: مقبرتهم الأصلية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة. وصارت مقبرة خاصة بالشيعة الإمامية وجماعة من الشافعية.

محلة الكسرة

سميت بالكسرة لانكسار شاطئ دجلة هناك في بعض الفيضانات، وهذه المحلة وما يليها من الجنوب، كانت بستاناً عظيماً حاوياً لأنواع الأشجار ومختلف الأنوار والأزهار يعرف بالزاهر أي البستان الزاهر وكانت في آخره من الجنوب "دار المملكة البويهية" من محلة المخرم الممتدة على دجلة أيضاً حتى سوق الميدان قبل أن تسور بغداد الشرقية بالسور الآتي ذكره في الربع الأول من القرن السادس للهجرة، وكانت تجرى فيه احتفالات رائعة في عصر بني بويه.

الصرافية

منسوبة إلى مالكها أحد الصرافين وكانت تعرف قديماً بمحلة المخرم، المذكورة آنفاً، وهو المخرم بن يزيد، قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أقطعه هذه الأرض على دجلة، وكان للمعتصم فيها قصر أيام إقامته ببغداد وقد أنشئت في دار الوزارة أيام وزارة علي بن محمد الفرات وأنشأت والدة المقتدر فيه مسجداً على شاطئ دجلة، ثم أنشأ البويهيون أفخم العمارات فيها كالقصرالعضدي، وقد ساق إليها نهراً من أحد فروع الخالص، ولما انقرضت الدولة البويهية بالعراق سنة ٤٤٧ ووقع احتلال السلجوقيين، استولوا على دار مملكتهم ووسعوها من نحو الجنوب وأنشأ السلطان ملكشاه جامعاً بالقرب منها وهو الجامع الذي صار، إلى كونه مصلى، وجامعاً، مدرسة لطلاب المذهب الحنفي.

ولما طلب الملك طغرل الثالث السلجوقي ابن ارسلان شاه بن طغرل الثاني بن محمد بن ملكشاه السلجوقي إلى الخليفة الناصر لدين الله أن يعيد خطبة السلاجقة بالعراق ويهيئ دار المملكة أو السلطنة التي لهم بالمخرم أمر الناصر بنقضها ما عدا جامع ملكشاه وأعاد الرسول بغير جواب ثم أمر الملك خوارزمشاه تكش بمحاربة طغرل فحاربه وقتله قرب الري وبعث برأسه إلى الناصر لدين الله ببغداد فعلق بباب النوبي من أبواب دار الخلافة وهو الباب الرسمي ثم حفظ في خزانة السلاح بدار الخلافة العباسية مع رؤوس الذين خرجوا على الخلافة ثم احترق مع غيره لما احترقت خزانة السلاح سنة ٦٠١هـ.

ولا تزال أرض المخرم أي الصرافية من الجسر الحديد إلى مستشفى الشعب جصية التربة، وذلك يدل على كونها معمورة قديماً ثم خربت وأخذ آجرها وغيره من الحضرة القديمة أي المواد الإنشائية.

أم رابعة

يقع هذا الموضع وهذا المدفن في شرقي الأعظمية وكان قديماً يوصف بأنه خارج الرصافة، وأم رابعة المدفونة هناك هي السيدة عصمة الدين شاهلبني الأيوبية من حفيدات

الملك الناصر صلاح الدين يوسف الكبير ابن أيوب، تزوجها الأمير أحمد بن المستعصم بالله ولي عهد الخلافة العباسية، ثم قتله هولاكو صبراً سنة ٦٥٦ عند استيلائه على بغداد، بعد أن ولدت له بنتاً اسمها رابعة وبعد احتلال المغول لبغداد وتوليهم علاء الدين عطا ملك الجويني على العراق، صارت أم رابعة عصمة الدين شاهلبني زوجاً لعلاء الدين الجويني بالعقد الشرعي فأنشأت مدرسة للمذاهب السنية الأربعة قرب مشهد عبيد الله العلوي وهو هذا الموضع الذي دفنت فيه بعد وفاتها، واشتهر قبل ذلك بقبر النذور بين الناس، وكان مزاراً مشهوراً وهو الذي ذكره الشاعر الكبيرصفي الدين الحلي بعد إيقاعه وجماعة من أخواله بأحد السادة الحليين من خصومهم هناك في قوله:

وسائل العرب والأتراك ما فعلت   في ارض "قبر عبيد الله" ايدينا

وكانت والدة الناصر لدين الله زمرد خاتون قد بنت هناك رباطاً للصوفية في أواخر القرن السادس للهجرة، فأنشأت عصمة الدين المذكورة في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة مدرستها المذكورة آنفاً ولما توفيت دفنت هناك فاشتهر الموضع بأم رابعة، على عادة الناس في تقديم أهل الدنيا على أهل الآخرة، كما أشرنا إليه في الكلام على مقبرة الخيزران، ثم توفيت بعدها ابنتها رابعة ودفنت هناك، وكان شرف الدين هارون الجويني صاحب ديوان العراق بعد عمه علاء الدين قد تزوجها في أيام ولاية عمه وكتب كتاب العقد الأديب المنشئ الكبير بها الدين علي بن عيسى الأربلي مؤلف (كشف الغمة في معرفة الأئمة).

محلة راغبة خاتون

كانت تعرف في أيام العباسيين الأول بسوق السلاح، واسم سوق السلاح يفسر نفسه بكونه موضعاً تباع في الأسلحة إذ ذاك، ولم يكن عمر سوق السلاح في تاريخ الخطط البغدادية القديمة طويلاً، فقد زال ذكره بعد قرنين من اشتهاره وذلك يدل على تقلص العمران وزوال البنيان، خصوصاً بعد الفتن أي الحروب الداخلية كما تسمى اليوم ولعل انقطاع الماء عن هذه البقاع كان من اسباب زوالها وسوء مآلها. ونحن بقولنا إن محلة راغبة خاتون كانت تعرف بسوق السلاح لا نعني أن جميع المحلة الحالية كانت تستغرقها السوق المذكورة، فإن التطبيق الدقيق غير ممكن البتة بعد أن زال السوق درست آثاره قبل زهاء ألف سنة.

الأيلوازية "العيواضية"

هي القسم الجنوبي من محلة المخرم القديمة، وكانت فيها المقبرة السهلية ولعلها منسوبة إلى الحسن بن سهل وزير المأمون وصاحب السيرة الحافلة، وقد نسب إليه القصر الذي هو أصل دار الخلافة الشرقية التي كانت تعرف بالقصر الحسنى بعد أن كان القصر المأموني، وكانت

في المقبرة تربة خديجة بنت الحسن بن سهل الملقبة ببوران زوجة المأمون، كما جاء في ترجمتها من وفيات الأعيان لابن خلكان، وقد اتخذ قسم من الأيلوازية مقبرة للشهداء الأتراك، ولعل هذه المقبرة كان أصلها المقبرة السهلية المذكورة، وأنشئ هناك دار للسجن ودور فاخرة امتدت إلى شاطئ دجلة والمستشفى الجمهوري المعروف قديماً بمستشفى المجيدية، وقد سعت دجلة الشاطئ بكثرة الرمال التي نقلتها إليه بجريانها وتحيفها لجانب الجعيفر.

قلعة بغداد

أنشئت هذه القلعة في أواسط القرن التاسع للهجرة على عهد التركمان القراقوينلية الذين ابتدأ حكمهم للعراق في الربع الأول من القرن التاسع المذكور بعد إسقاطهم الدولة الجلايرية بالعراق. والمألوف في القلاع أن تُبنى خارج المدن وعلى جبل أو هضبة لتكون آخر معقل للمقاومة إلا أن هذه القلعة أنشئت بخلاف المألوف في الإنشاءات الحربية الدفاعية وكذلك قلعة دمشق، فهي على التحقيق حصن من الحصون، وقد أنشئت في جنوب محلة المخرم العتيقة إلا أن السور الذي أنشأه الخليفة المسترشد بالله في الربيع الأول من القرن السادس، أي قبل إنشاء القلعة بثلاثة قرون، فصل أرضها عن المخرم فصارت تلك الأرض داخل السور، واستمرت القلعة في الوجود على اختلاف العصور إلى السنين الأخيرة فقد اتخذت وزارة الدفاع ولشؤونها العسكرية الأخرى.

القصر العباسي

هو الدار الفخمة البناء الرائعة الريازة القائم أكثرها في جنوبي القلعة أي وزارة الدفاع، وفيها إيوان بديع الزخارف الآجرية يدل على أنه من إنشاء خليفة أو سلطان، وقد أثبت التحقيق أن هذا القصر البديع الذي سمته مديرية الآثار "القصر العباسي" وسمي قبل ذلك بقصر المأمون خطأ باقتراح بعض من لا علم له بالتاريخ ولا بالخطط، هو دار المسناة التي أمر بإنشائها الخليفة الناصر لدين الله في أوائل سني خلافته الطويلة، وأمر بأن ينقل إليها ألوف كتب وذلك يدل على أنها كانت "شبه دار علم" وإنما أضيفت إلى "المسناة" لأنه كان في موضعها دار لأحد أمراء السلجوقيين يعرف بالأمير تتر، وكان للدار مسناة تتصل بمسناة السور المذكور آنفاً، فلما أنشئت هذه الدار قيل لها دار المسناة، وكان فوقها درب يتجه من داخل بغداد إلى شاطئ دجلة، بينها وبين السور يعرف بدرب الملاحين، لأنهم كانوا يستفيدون من موضع الشاطئ الخالي بين السور وهذه الدار.

وقد اتخذت هذه الدار مسكناً في أيام الغرق الحادث سنة "٦٤٠" ثم اتخذت رباطاً في عصر المغول في نهاية القرن السابع، وكانت الفروق بين الدار والرباط والمدرسة في العمارة

الإسلامية القديمة ضئيلة جداً، فدار الوزير ابن جهير على شاطئ دجلة الشرقي من بغداد اشترتها السيدة بنفشا حظية الخليفة المستضيء بأمر الله واتخذتها مدرسة للحنابلة، ودار أحد الأمراء بالمأمونية اتخذتها السيدة زمرد خاتون وعلافت برباط المأمونية.

سوق الميدان

كانت تعرف بسوق السلطان وهي مضافة إلى لقب طغرليك السلجوقي. فإنه دخل من هذه الجهة في بغداد، ولما بنى السور بعد دخوله بغداد بعشرات سنين سمي باب السور الأعلى، وهو الأولى أيضاً، "باب السلطان" وهو الباب الذي عرف في الأيام الأخيرة من الحكم العثماني الزائل بباب المعظم إضافة إلى بلدة المعظم التي هي الأعظمية، لأن الخروج من ذلك الباب كان يؤدي السائر إليها، وكان قرب سور هذا الباب شارع يعرف بالشارع الأعظم وكان طويلاً في الزمن القديم، يبدأ من جنوبي شارع الميدان المجاور لمحلة الرصافة من الشرق ويمتد إلى بغداد الشرقية، فلما بنى السور المذكور قطع هذا الشارع وكان يستمر داخل بغداد فيقطع الصابونجية والقسم الشرقي من العاقولية ويشق محلة قنبر علي ويمتد امتداد سوق حنون حتى يصل إلى محلة قاضي الحاجات في نفس الاتجاه ويسير في طريق عقد القشل والصدرية إلى باب الشيخ عبد القادر (رض). وكان في آخر الشارع الأعظم من الشمال الغربي فيما يسمى اليوم الصابونجية موضع يعرف بخان زياد، وفيه أنشأ شرف الدين إقبال الشرابي الأسود أحد مماليك العباسيين الأمراء مدرسة للشافعية وهي التي عرفت بالمدرسة الشرفية نسبة إلى لقبه "شرف الدين" ولعلها كانت في موضع الجامع المعروف بالجامع المرادي في الميدان، لأن هذه المدرسة وصفت بأنها كانت في الشارع الأعظم قرب سوق الخيل مقابل درب الملاحين الذي ذكرناه في الكلام على القصر العباسي، وقد زالت فلا أثر لها البتة والآثار الزائلة يستحيل تحديد موضعها تحديداً مضبوطاً كما هو معروف فيلجأ في أمرها إلى التقدير والتقريب. وفي سوق السلطان المذكور أنشأ الناصر لدين اله مسجداً كبيراً والظاهر أنه كان بموضع جامع السراي.

محلة الطوب

نسبت إلى مدفع من المدافع التي كانت على تعبية "تابية" ترابية كانت فيها وكان المدافعون يضعون المدافع على تلك الروابي والتوابي لترمي قنابلها على العدو المهاجم من فوق السور، وكان بين السور المحال أساسه لهذه المحلة من الشمال ومساكن الناس مسافة خالية معلومة مقررة في أصول الدفاع فلما هدم السور أيام مدحت باشا والي بغداد في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة بنى الناس دوراً في ذلك الموضع الخالي وسمي الكل محلة الطوب وكان جنوبي محلة الطوب متصلاً أيام العباسيين بمحلة تعرف بقراح ظفر والقراح عند أهل بغداد هو البستان وكانوا

يبتون فيه الدور، إلا أنه يبقى محافظاً على اسم "القراح" كما يقال اليوم "بستان الخس" ولم يبق فيه بستان ولا خس، وكانت عدة محلات من شرقي بغداد تعرف باسم "قراح فلان".

محلة قمر الدين والفضل والسيد عبدالله

هذه المحلات كانت مقبرة واسعة تعرف بمقبرة باب أبرز وسميت أيضاً "يبرز" وهو أحد مداخل شرقي بغداد وهذا الاسم يدل على أنه أعجمي وأنه كان معروفاً قبل أن ينشئ المنصور مدينته، والغالب على المدفونين في هذه المقبرة كونهم على المذهب الشافعي، وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان، بأنها واقعة في شمال الجانب الشرقي وأنها طويلة، وفيها دفن الفقيه الكبير أبو اسحاق ابراهيم الشيرازي مدرس المدرسة النظامية، وبالقرب من قبره أنشئت المدرسة التاجية للشافعية وهي منسوبة إلى تاج الملك أحد وزراء السلجوقيين في أواخر القرن الخامس للهجرة، وقمر الدين الذي نسبت إليه المحلة أظهر أمره أنه قمر الدين شحنة بغداد على عهد الناصر لدين الله وخدم الظاهر والمستنصر وتوفى في آخر خلافته ودفن بمقبرة باب أبرز الجديدة على ما ذكر كابن الفوطي في كتابه "تلخيص معجم الألقاب" في الملقبين بقمر الدين. وله قبر في بعض الدور ولعل أهل الدار استولوا عليه في هذه الأيام وأزالوه. وأما الفضل فهو أما محمد بن الفضل الوزير الذي كان والده يهودياً وأسلم واستوزره الأيلخانيون ثم قتل ونشأ ابنه مسلماً شافعياً وأنشأ جامعاً كبيراً لعله جامع الفضل المعروف اليوم وأما الفضل العالم الفاضل فقد ذكر ابن ا لنجار أنه كان عالماً واعظاً كبيرا ودفن في مقبرة باب أبرز والقول الأول أرجح لأن الناس سموا هذا الجامع "جامع الفضل" ولأن التاريخ ذكر أن الوزير محمد بن الفضل أنشأ ببغداد جامعاً ولا صلة لمحلة الفضل بالفضل ابن الربيع حاجب هارون الرشيد فلم يكن هذا الموضع مسكوناً في عصره. والظاهر أن الشارع الأعظم المذكور سابقاً كان يمر في مقبرة باب أبرز بجوار هذا الجامع فيتركه إلى يمينه على مسافة مئات من الأمتار.

وأما السيد عبدالله فقد ذكر في أخبار بغداد باعتبار أنه علوي تقي مدفون في مقبرة باب أبرز وكان من الناس من يدفنون موتاهم لدى قبره لشرفه وتقاه المشهورين عندهم. ولا صلة للسيد عبدالله بقبر عبيد الله العلوي المقدم ذكره، كما ظن بعض من لا علم له بالخطط.

الحيدرخانة

نسبة إلى حيدر أحد الأعيان في العصور التركية وسوقها كان يعرف بسوق الثلاثاء وهو من الأسواق القديمة المعروفة قبل إنشاء المنصور لمدينة السلام، ولم يتضح لنا من المعلومات الخططية الاسم الذي كانت تسمي به الحيدرخانة أيام العباسيين ما عدا سوقها الذي ذكرناه وكان متصلاً بسوق السلطان اتصالاً تاماً، ولعل درب الحيدرخانة كان يعرف

بدرب حبيب فهذا الدرب مذكور في الأخبار والتواريخ وليس له محل سوي محلة الحيدرخانة لأن جميع المواضع والدروب قد حددت وعينت، على التقريب، أو على التحقيق، وفي الحيدرخانة جامعان أو باحلري مسجدان الأول شارع إلى السوق وهو المعروف بجامع الحيدرخانة وكان جامعاً عتيقاً فوسعه وجدده الوالي داود باشا في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة وقد كشفت مديرية الآثار القديمة مرمرة تؤيد ذلك.

سوق الحيدرخانة

ذكرنا آنفاً أنه كان يعرف بسوق الثلاثاء وكان يمتد إلى الجنوب فيمر بما يعرف قديماً بدرب فراشة وحديثاً بمحلة الدشتي وما يعرف حديثاًبباب الآغا وإلى سوق البزازين الكبير الممتد نحو الغرب وشاطئ دجلة حتى يتصل بسوق المستنصرية متجهاً مع الشاطئ نحو الشمال، ولذلك ذكر ابن بطوطة في رحلته أن المدرسة المستنصرية في آخر سوق الثلاثاء وأن هذه السوق مقسمة لأرباب الصناعات والحرف والبضائع كل صنف في جزء منه. ولم يبق من هذا الضرب من التصنيف في هذه السوق إلا سوق البزازين وسوق الصفارين إن كان سوقاً في ذلك العصر ولم يكن درباً من الدروب.

محلة العاقولية

منسوبة إلى العاقولي الفقيه جمال الله عبد الله المتوفى سنة ٧٢٨هـ المدفون في داره فيها ولا تزال تربته قائمة وكانت تعرف بدرب الخبازين، وهذا يدل على أن الخبازين كانوا يبيعون خبزهم في رأس درب العاقولية، وقد بقي الخبازون هناك إلى العصور الأخيرة جداً، وكان في آخر درب الخبازين مقبرة تضاف إليه فيقال "مقبرة درب الخبازين" وفيها أنشئ في العصور التركية الأخيرة جامع الخاتون الذي نقض في هذه الأيام، ودار المعلمين الابتدائية التي اتخذت سنين دار معلمات. وبعد أن شقت أمانة العاصمة الشارع المعروف بشارع الجمهورية صار الجامع والمدرسة شارعين إليه. وقد استولى الناس على أكثر قبور تلك المقبرة وابتنوها مساكن لهم كما فعل غيرهم بأكثر مقابر بغداد الداخلية وسيأتي ذكرها في موضعها، فمقبرة باب أبرز الطويلة العريضة لم يبق فيها قبر لم يدخل في مساحة دار من الدور ما عدا التي اتخذ فوقها درب أو شارع فقد دخلت في الدرب أو الشارع، والمألوف في الأرض المتخذة للسكنى بعد أن كانت مقبرة أن تكون مرتفعة عن مستوى الأرضين الأخرى كمحلة الكرد، مثلاً، والصدرية.

محلة الإمام طه وباب الآغا

ذكرنا أن القسم الشرقي من باب الآغا كان يسمى "درب فراشة" وهو أحد المشهورين، أضيف إليه الدرب وبه سميت المحلة وكان موضع الإمام طه تابعاً لهذه المحلة وفيها أنشأ حاكم

العراق أيام السلطان محمود غازان ابن الملك أرغون ابن الملك أباقا ابن الملك هولاكو الأيلخاني وهو إمام الدين يحيى البكريمدرسة للشافعية وكان ذلك في آخر القرن السابع للهجرة، وقد عرفت باسم "المدرسة الإمامية" نسبة إلى لقبه، إمام الدين، وقد يوقف على كتب مخطوطة مكتوب عليها أنها "وقف على المدرسة الإمامية" فهي المرادة بذلك لا نسبة أخرى.

ومحلة باب الآغا من جهة الغرب أعني غربي شارع الرشيد، الذي اشتقه الأتراك العثمانيون في آخر سني حكمهم بالعراق وسمي جادة خليل باشا ثم سمي في أيام حكم العراقيين بشارع الرشيد، كانت تسمى محلة سوق الثلاثاء، وهي السوق التي ذكرناها آنفاً، وكان فيها على دجلة "دار مؤنس" وهو الأمير مؤنس المظفر مقدم الجيوش العباسية على عهد المقتدر وصاحب الفتنة التي أدت إلى قتل المقتدر في الربع الأول من القرن الرابع للهجرة، وإذ كانت على دجلة دل ذلك على أنه امتلكها بإذن من الخليفة، لأن للنهر حريماً جعله الإسلام مجالاً لاستفادة المسلمين عامة، ولا يخصص هذا الحق في بعض أجزائه إلا تفويض أو تمليك من ولي أمر المسلمين وهو الخليفة، ولذلك نرى أكثر المدارس وكثيراً من الربط أنشئت في حريم النهر لأنها كانت خالية من العمارة لا يجري عليها تملك الناس كسائر الأرضين، وكانت دار مؤنس واسعة جداً تمتد من جوار دار الخلافة الآتي ذكرها "وتقع في جنوبي الدار" إلى الشمال قرب رأس الجسر العتيق، وفيها أنشئت المدرسة النظامية للشافعية في أواسط القرن الخامس للهجرة أنشأها نظام الملك الطوسي أيام كان وزيراً للسلطان ألب أرسلان السلجوقي ثم وزر لابنه السلطان ملكشاه. وتقدير موضع المدرسة النظامية في سوق الخفافين وهو أسواق قصيرة متجاورة كان الخفافون أي صانعو "اليمنيات" يخلقون الأخفاف ويصنعونها فيها ثم تغيرت الأحوال وبطل استعمال الاخفاف وتغيرت حرف تلك الأسواق. وكان يقابل المدرسة النظامية من شاطئ دجلة "رباط شيخ الشيوخ" النيسابوري ومشيخة الشيوخ رتبةأحدثها الخليفة القائم بأمر الله لشيخ الشافعية وصوفيهم الأكبر النيسابوري المذكور وهذا يدل على اتجاه الدولة العباسية إلى مذهب الإمام الشافعي منذ عهد القائم بأمر الله. وقد أنشئ هذا الرباط في أواسط القرن الخامس للهجرة أيضاً كالمدرسة النظامية وفي أرضه اليوم الخان المعروف بخان الباجه جي وما يجاوره من المباني، وكانت تجاوره من الجنوب مدرسة أخرى للشافعية تعرف بالمدرسة البهائية والظاهر أنها منسوبة إلى منشئها، وإضافة الألقاب إلى الملك كانت شائعة في ذلك كنظام الملك منشئ النظامية وتاج الملك مؤسس التاجية، وعلى هذا يمكن أن يكون مؤسس هذه المدرسة "بهاء الدين" إلا أن المؤسف في تاريخها اننا لم نعثر على حقيقة سيرته ولقبه.

ولا صحة لما ذكره بعض المؤرخين من أن المدرسة النظامية كانت في محلة باب الآغا، وإنما كانت فيها المدرسة الإمامية كما ذكرنا.

المدرسة المستنصرية

تعد من دار مؤنس المظفر في سوق الثلاثاء، وذلك أن مونسا لما قتله القاهر بالله العباسي عادت داره إلى ملكية الدولة العباسية، ووجد الناس فيها مرفقاً فقد أنشأوا فيها مشرعة تسمى مشرعة المزملات، أي الأحباب التي تملأ ماء وتغطي لتبريد مياهها ولعلها كانت للسقائين الذين يحملون الماء إلى الأسواق، وكان عندها اصطبلات لم يكشف التاريخ عن حقيقتها، وفي مشرعة المزملات أنشأت السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله، المقدم ذكرها، مسجدها الذي عرف بعد ذلك بمسجد الحظائر لأن حظائر الخشب والحطب كان أكثرها في سوق الثلاثاء هناك قرب النظامية والمسجد المذكور، ولم يبق من عمارة هذا المسجد العتيقة إلا المنارة، فهي أقدم منارة عباسية قائمة في بغداد لأن منشئة المسجد أعني زمرد خاتون توفيت سنة ٥٩٩.

وفي هذه المشرعة أيضاً أنشئت المدرسة المستنصرية الفخمة التي ذكر شمس الدين الذهبي أنها أعظم المدارس الإسلامية - يعني الزمن القديم - وقد بدئ بوضع أسسها سنة ٦٢٥هـ وتمت عمارتها مع عمارة دار للقرآن الكريم بلصقها من الشمال سنة "٦٣٠هـ" وافتتحت سنة ٦٣١ وأمر هذه المدرسة الفخمة مشهور وتاريخها منشور، وكان بينها وبين مسجد الحظائر دار أسكنها بعضا لخلفاء العباسيين بعض الأمراء النازحين من دمشق اللائذين به ثم عادت بعد وفاته إلى ملكية الدولة فسكنها الأمير سنقرجا أحد مماليك الدولة العباسية ممن ولي الولايات الكبيرة، على عهد الناصر لدين الله والظاهر بأمر الله والمستنصر بالله وقد سكنها قبل سقوط الدولة العباسية الأمير مجاهد الدين أيبك الشركسي المستنصري من قواد الجيوش العباسية على عهد المستنصر بالله وأحد كبار أمراء الجيش على عهد ابنه المستعصم بالله وقد قتله هولاكو صبرا بعد أن صار مقم الجيوش العباسية في أواخر عهد المستعصم بالله المذكور، قتل على أثر دحر جيش المغول للجيش العباسي سنة ٦٥٦ ووقوعه أسيرا في أيدي المغول.

ودار القرآن الكريم التي أنشأها المستنصر بالله بلصق المستنصرية من الشمال، كما ذكرنا، لم يبق منها إلا إيوانها المزخرف البديع، وكان داود باشا المقدم ذكره في الكلام على الحيدرخانة قد اتخذ في وسطها طريقاً إلى الجسر وأخذ القسم الشمالي منها فبناه جامعاً عرف بالجامع الآصفي وعند الأتراك بالآصفية - على حسب لغتهم - نسبة إلى لقبه الذي ادعاه وهو "آصف الزمان والوزير داود باشا". ولا يزال قائماً على أحسن حال بعد ترميمه وصيانته.

وفي سوق الثلاثاء أنشأ علي بن محمد العلوي الزيدي الزاهد مسجده الكبير، وخزانة كتبه التي شارك في إثرائها المملوك صبيح وصديقه عمر بن علي العليمي وياقوت الحموي الرومي

والظاهر لنا أن مسجد الزيدي كان بموضع جامع القبلانية قرب المستنصرية وأن القبر الذي فيه هو قبر العلوي الزيدي الزاهد المذكور.

محلة السراي

السراي هو العمارة التي تضم اليوم مديرية الشرطة العامة ووزارة التربية وتتصل بسوق تعرف بسوق السراي لانتهائها إلى السراي من الجهة الشمالية، والسراي اسم تركي يعني دار الإمارة والظاهر أن الموضع الذي تقوم عليه وزارة التربية الملحق بالسراي كان داراً لولاة بغداد منذ العصور التركية العثمانية الوسطى وبقي كذلك إلى العصور المتأخرة، فاتخذته الحكومة العربية دائرة من دوائرها، تارة للخارجية وتارة للداخلية وأخيراً لوزارة التربية، كما ذكرنا. وبإزاء السراي جامع عرف بجامع السراي، وقد ذكرنا في الكلام على سوق الميدان أنه من الراجح كون الجامع بني على أنقاض المسجد الكبير الذي أمر بإنشائه الخليفة الناصر في سوق السلطان. وقد اشتهر في بعض الكتب المتأخرة أن فيه قبراً يظن أنه قبر الناصر لدين الله مع أن المؤرخين أجمعوا على أن قبر الناصر كان في المقابر العباسية بالرصافة قرب مقبرة الإمام أبي حنيفة من الجنوب كما تقدم من الكلام، ولعل بعضهم عثر على كتابة تشير إلى إنشاء الناصر للمسجد وذكر فيه اسمه فاستنتج أن القبر هو قبر الناصر، وهماً وظناً لا تحقيقاً.

وفي ساحة السراي قبر على يسار الداخل في وزارة التربية لا يعرف صاحبه على التحقيق، ويتنازعه في علم الخطط رجلان أحدهما سعد الدولة الكوهرائيني شحنة بغداد في قسم من سني السلاجقة في أواخر القرن الخامس، فقد ذكر ابن الجوزي ما يحتمل معه أنه دفن هناك والآخر مجاهد الدين بهروز أحد مماليك السلاجقة الأمراء، وقد حكم بالعراق وتكريت وبغداد سنين طويلة وتوفي سنة ٥٤٠هـ وأنشأ رباطين للصوفية أحدهما عام للصوفية وتقدير موضعه بحسب علم الخطط في موضع ما سمي في أواخر العهد العثماني وأوائل الحكم العربي بقهوة الشط وهي الآن تستغل لارتفاق تجاري، والرباط الثاني أنشأه للصوفية الخدم ويراد بالخادم وجمعه الخدم في ذلك العصر المملوك الخصي لا مطلق الخادم، ولذلك كان يوصف مجاهد الدين بالخادم، أنشأه بأعلى الجانب الشرقي من بغداد وسمي رباط الخدم ولما توفي مجاهد الدين بهروز دفن في الدار المثمنة المجاورة للرباط.

القشلة والمحاكم المدنية

اسم تركي يعني "ثكنه" الجنود، وقد أنشأها مدحت باشا وقيل إن اختطاطها ورسمها من وضع من كان والياً قبله فنفذ ذلك ونقل أكثر آجرها من سور بغداد المقدم ذكره

استطراداً، الآتي ذكره مكرراً وأنشأ أيضاً ما يسمى بالمحاكم المدنية اليوم والمتحفة العسكرية الملاصقة للقصر العباسي في وزارة الدفاع من الجنوب. وكانت أرض القشلة وما فوقها مرافق خيرية، فإن صح استرجاع كون القبر الذي بجانب وزارة التربية قبر مجاهد الدين بهروز يكون رباط الخدم قد دخل في مساحة السراي، وكانت في أرض القشلة مدرسة تعرف بمدرسة الموفقية للحنفية بناها موفق الخادم باسم السيدة الخاتون السلجوقية زوج الخليفة المستظهر بالله، ولا شك أنه كان في أرض القشلة مرافق ثقافية أو دينية أخرى، يصعب علينا بيانها لقلة المراجع التاريخية، إلا أن الذي لا نشك فيه أن أرض المحاكم المدنية كانت مدرسة ورباطاً يعرف برباط سعادة وهو عز الدين سعادة الرسائلي مملوك الخليفة المستظهر بالله، والظاهر أنه جعل المدرسة للحنفية والرباط للشافعية كما دلت عليه الأخبار. ومن الراجح أن الجسر الذي ذكرنا رأسه الغربي في جهة المربعة كان رأسه الشرقي وكرسيه عند شريعة المحاكم المذكورة وهو الجسر الذي أنشئ في عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي.

شارع المتنبي

تدل دلائل خططية على أن شارع المتنبي كان يعرف بدرب زاخي وهو اسم آرامي سرياني وله شبيه اليوم في "زاخو" اسم البلدة العراقية في شمال العراق ولعل له صلة بزكي العربية، وقد اشتهر في هذا الدرب "رباط أرجوان" وهي السيدة ارجوان الأرمنية المسلمة والدة الخليفية المقتدى بأمر الله العباسي، وله أخبار كأكثر الربط البغدادية، إلا أن ميزته التاريخية هي كونه أول رباط تقفه سيدة من السيدات الصالحات ومن نساء البلاط العباسي، باعتبار أن البلاط كناية عن دار الخلافة، في مصطلح عصرنا، ولعله في موضع الأكمك خانة.

محلة جديد حسن باشا

تسمية تركية معناها محلة حسن باشا الجديدة، وكانت تعرف في أيام العباسيين بدرب منيرة، وقد ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان، ويفيد ذكره له أنه كان متصلاً بمحلة سوق السلطان، ونحن في تحديدنا هذه المواضع الجديدة لا نعني انطباقها التام على حدودها البلدية العصرية، فذلك مستحيل وإنما نريد معظم المحلة وغالب أرضها، كما أشرنا إليه من قبل.

شارع الجسر العتيق

كان يعرف بدرب دينار وهو دينار بن عبدالله أحد قواد المأمون ويعرف الموضع بدار دينار، ولم يكن الجسر العتيق في هذا الموضع أيام العباسيين، وأن أول ذكر لهذا الجسر كان في أيام الأتراك العثمانيين وقد ذكره مصطفى الصديقي الدمشقي في رحلته إلى

العراق سنة ١١٣٩هـ وذكر ما يفيد أن دار القرآن المستنصرية المقدم ذكرها أصبحت تكية للطائفة المولوية الصوفية التركية، أي رباطا، وذكر أن القبر الذي فيها هو قبر الحارث المحاسبي الصوفي وذلك من أوهام القائلين في المراقد بغير علم ولا رواية صحيحة، فهذا الموضع كان من مرافق دار الأمير مؤنس المذكورة آنفاً في الكلام على باب الآغا، ولا يصح البتة أنه قبر محمد بن يعقوب الكليني الفقيه الإمامي الكبير، فقد أجمع المؤرخون على أنه دفن في مقابر باب الكوفة من أبواب مدينة المنصور والكل كان في الجانب الغربي من بغداد، ولم يصح كذلك أنه قبر الخليفة المستنصر بالله لأنه دفن بإجماع المؤرخين الذاكرين لمدفنه في مقابر العباسيين بمحلة الرصافة، والظاهر أنه قبر عز الدين حسن المالكي قاضي القضاة بالعراق في أوائل القرن الثامن للهجرة. ذكر ذلك ابن الفوطي في ترجمته في كتاب تلخيص معجم الألقاب.

وكان في درب دينار بيعة للنصارى النساطرة تعرف ببيعة سوق الثلاثاء وهي بيعة قديمة كانت قائمة قبل إنشاء المنصور مدينته مدينة السلام، وقد زالت بتوالي العصور وتعاقب الحكام والدهور.

سوق الكبابجية

هو النهاية الممتدة إلى قرب شاطئ دجلة من سوق البزازين التي هي أحد أجزاء سوق الثلاثاء المذكور آنفاً وكانت هذه السوق تعرف بسوق العطر أيام العباسيين وكان فيها دار أمين الدولة هبة الله بن التلميذ الطبيب الأديب صاحب الأخبار المستفيضة والأنباء الحافلة بالآداب والنوادر والأشعار، وكانت مجاورة للمدرسة النظامية وقريبة من باب الغربة الذي هو الباب الأول الأعلى من أبواب دار الخلافة العباسية في أواخر عصورها، وفي هذه السوق أنشئت في أيام الجلايرين في القرن الثامن وللهجرة المدرسة الوفائية المنسوبة إلى إحدى النساء الكبيرات في ذلك العصر، ولعلها كانت في موضع جامع الكبابجية فقد كان في مصلاه ريازة فائقة تماثل ريازة القرن الثامن للهجرة كريازة المدرسة المرجانية الآتي ذكرها. وكان قرب سوق العطر ودار الخلافة دكاكين المخلطين وهم الذين يبيعون المخلط من العطور وغيرها وكانوا من اليهود.

شارع المستنصر

وكان يعرف بدرب النهر أي نهر دجلة، وكان أكبر شارع في دار الخلافة العباسية الأخيرة، ودار الخلافة هذه كانت على جانبي الشارع ممتدة إلى بستان دار الخلافة ومناظرها حتى تربة السيد السلطان علي القائمة اليوم وكانت فيها قصور الخلافة على دجلة ودور كثير من الأمراء المقربين والحاشية مع الدواوين ومخازن الخلافة ومرافقها الأخرى وعجائب

مبانيها، حتى دار الوزارة كانت على عهد المقتدر في محلة المخرم ثم جعلت في دار الخلافة مع الدواوين الأخرى كديوان المخزن وهو دائرة التجهيزات والواردات العامة للخلافة وكخزانة السلاح للجيش، وكان فيها قصر التاج للمكتفي الذي أنشأ أوائله الوزير جعفر البرمكي ثم جعله للمأمون ليستوفي ما أنفق عليه، وقد جرت عليه ترميمات عدة وإصابة عن حريق وهو الذي عرف بالقصر الحسنى نسبة إلى الحسن بن سهل إلا أن اسم التاج لم يترك وكان فيها قصر الفردوس الذي بناه الخليفة المعتضد بالله والدار المثمنة العتيقة والدار المثمنة الجديدة التي أنشأها المرشد بالله ودخلها هولاكو الطاغية لما احتل بغداد وأسقط الدولة العباسية وفتك بالعباسيين وأتباعهم وأعوانهم، وكان لدار الخلافة سوران سور داخل يحف بما يختص بالخلفاء العباسيين وسور خارجي يعرف بسور الحريم يحف بالمحلات المجاورة لدار الخلافة العباسية التي تطلب الأمن والاستقرار بذلك الجوار، وكان للسورين أبواب، أما أبواب السور الخارجي فالأول الأعلى باب الغربة وهو الذي مر ذكره في الكلام على سوق العطر وإنما سمي باب الغربة لأن غربة كان تقائمة عند بابه وهو باب شارع المستنصر الحالي ويأتي بعده من الشرق "باب سوق التمر" ويعرف أيضاً بالباب القائمي، ويليه على خط نصف دائرة "باب البدرية" وأصله باب أحد مماليك الخلفاء العباسيين وكان يعرف قبل ذلك بباب الخاصة، فلما شاع عليه اسم باب بدر سمي بباب الخاصة الباب الخارجي الذي يطل على البراح في محلة الحاج فتحي الحالية قرب المربعة الحديثة، ثم يأتي بعد باب بدر "باب النوبي" وهو الباب الرسمي للخلافة العباسية في أواخر عصورها وكانت له عتبة من مرمر يقبلها الرسل والملوك عند وفودهم على الخليفة إيذاناً بالاحترام والأعظام، ثم باب العامة وباب الفتح وهو باب أحدثه المسترشد بالله تفاؤلاً منه بالغلبة على الأعداء والفتح ثم باب البستان وهو أحد بساتين دار الخلافة ثم باب المراتب وهو آخر الأبواب، قريب من دجلة، وكان منذ أواسط القرن الخامس للهجرة ملاذاً للائذين بدار الخلافة وملجأ للخائفين، ومراداً للشاكين، أيام كان أمر الخليفة ونفذو كلمته لا تجاوزان دار الخلافة.

محلة رأس الساقية

هي الساقية التي كانت توصل الماء من دجلة استقاء إلى تربة الشيخ الزاهد الكبير عبد القادر الجيلي، وكانت هذه المحلات تسمى أيام العباسيين "باب الازج" والأزَج في اللغة بناء معقود طويل كأنه إيوان مستطيل، ولا بد من أنه كان هناك أزج عتيق نسبت إليه الباب، وذكر السمعاني في الآزجي من كتابه الأنساب أن باب الأزج كانت محلة كثيرة الإرخاء في قديم الزمان وهذا يعني أن فرعاً من فروع نهر بين كان يسقيها وينحدر إلى

دجلة انحداراً شديداً لأن شدة الجرية هي التي تحرك الرحى. وباب الشيخ وإن كانت من باب الأزج القديمة فقد سميت باسم خاص بها هو محلة "باب الحلبة" نسبة إلى الحلبة التي كان الخلفاء العباسيون يقيمونها ويخرج الناس إليها من هذه الناحية فأضيف الباب إليها. وبباب الحلبة تربة الشيخ عبد القادر الجيلي المذكور، وكانت في الأصل مدرسة لشيخه المملوك المخرمي الفقيه المدرس الشاهد، وقد توفى الشيخ - رح - سنة "٥٦١" هـ قال عز الدين بن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث تلك السنة، وفيها في ربيع الآخر توفى الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي المقيم ببغداد، ومولده سنة سبعين وأربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلي المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد". وقد دفن في المدرسة ووسعت تربته فاستوعبت المدرسة وصار رباطه زاوية يأوي إليها الفقراء وأنشئت في هذه الأيام بجوار تربته دار كتب نفيسة. وفي محلة باب الأزج أنشأ أبو الحسن علي بن محمد الدريني الأبري مدرسة ورباطا للشافعية على شاطئ دجلة وكان من مقربي الخليفة المقتفي لأمر الله ومعتمديه.

محلة العوينة

قيل لها العوينة لأن فيها أرضاً منخفضة ينبط منها الماء كالعيون إلا أنها غير جارية، وهذا يؤيد التسمية القديمة - أعني الريان - لأن العوينة كانت تسمى الريان وهو المرتوي، وكان مركزه بستاناً لحامد بن العباس وزير المقتدر، ود وهبه للمقتدر بالله لجماله بعد أن فرشه باللبود الخراسانية، ثم امتدت العمارة السكنية إليه فصار محلة من المحلات الشرقية، وكانت لانخفاضها معرضة للغرق إذا غرقت بغداد كما حدث سنة "٥٥٤هـ". قال عز الدين بن الأثير في حوادثها من كامله: "وفي هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرق القورج فوق بغداد وأقبل المد إلى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور وفتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والأجمة والمختارة والمقتدية ودرب القيار وخرابة ابن جردة (والريان) وقراح القاضي وبعض القطيعة - يعني قطيعة العجم الآتي ذكرها - وبعض المأمونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت، وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقي الماء الذي داخل السور يدب في المحال التي لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما هي تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين".

محلة السنك

السنك كلمة تركية معناها الذباب وتعني محلة الذبان ولا شك في أنها كانت كثيرة الذبان حين سميت بذلك الاسم وكان قسم منها تابعاً لمحلة باب الأزج والقسم الأكبر الجنوبي يسمى باب البصلية والظاهر أنها كانت مزرعة للبصل في العصر العباسي الأول ويسمى باب السور الجنوبي باب البصلية ويعرف أيضاً بباب كلواذا إضافة إلى قرية كلواذا البابلية القديمة وكانت قرب الكرادة الشرقية وقد خربت بانقطاع الماء عنها منذ عدة قرون ثم أنشئت بالقرب منها الكرادة وهم العرب الزراع الذين يسقون مزارعهم وبساتينهم بالكرود التي تجذبها الحيوانات ثم زالت الكرود بشيوع المكائن كما هو معلوم.

يعد قسم منها من باب الحلبة أي باب الشيخ وكانت معظمها يسمى قطيعة العجم وإذا ذكرت مع مواضع الجانب الشرقي اكتفى في تسميتها "بالقطيعة" كما نقلنا خبر الغرق في شرقي بغداد من كامل ابن الأثير وأن الغرق أصاب "بعض القطيعة". واضيفت هذه المقبرة إلى الغزالي لأن فيها قبراً منسوباً إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الفقيه المتصوف المتوفى سنة "٥٠٥" مع أنه دفن في بلده طوس بإجماع المؤرخين، ولم نعرف متى ظهرت هذه التسمية؟ وكان بالقطيعة رباط لعمر الغزال وهو قريب من الغزالي إلا أنه دفن في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل وكان ببغداد مسبط للغزالي ذكره الفيومي صاحب المصباح المنير في مادة "غزل" من مصباحه أيام قدم بغداد سنة ٧٠١هـ ولكن المؤرخين لم يذكروه ولا ذكروا وفاته ولا مدفنه.

محلة عقد القشل والهيتاويين والدهانة

كانت المحلة المأمونية بطولها وسعتها تستوعب هذه المحلات وأكثر منها وإنما سميت المأمونية نسبة إلى الخليفة عبدالله المأمون بن هارون الرشيد وذلك أن قصر جعفر البرمكي الذي هو أول بناء في أرض دار الخلافة الشرقية. وسمي القصر الحسني كما مر آنفاً، جعله جعفر للمأمون ولما دخل المأمون بغداد ظافراً سنة ٢٠٤ سكنه مدة، وأسكن أصحابه وفريقاً من جنده في الجهة الشرقية منه فسميت "المأمونية" ثم اتسعت بالسكان، والعمران فصارت من أكبر محلات بغداد الشرقية إن لم تكن كبراها، وقد نقلنا آنفاً خبر غرق بعضها سنة ٥٥٤هـ وكان فيها رباط السيدة زمرد خاتون والدة الناصر لدين الله العباسي، قال ابن الأثير المؤرخ في حوادث سنة ٥٨٠هـ من كامله "في هذه السنة فتح الرباط الذي بنته أم الخليفة لزمرد خاتون! بالمأمونية" ولكن سبط ابن الجوزي ذكر في تاريخه مرآة الزمان أنه فتح سنة ٥٧٧هـ والفرق في السنين عظيم. وكان في آخر المأمونية منظرة بناها بعض الخلفاء العباسيين لاستعراض الجيوش وتعرف بمنظرة المأمونية، وهي غير منظرة باب الأزج.

محلة سراج الدين والصدرية

هو سراج الدين عمر بن علي القزويني الشافعي المحدث المقرئ، كان رجلاً ديناً خيراً مقرئاً قارئاً للقرآن الكريم وهو الذي ذكره ابن بطوطة الرحالة وذكر سماعه عليه الحديث في جامع الخليفة الذي هو جامع سوق الغزل، وهو الذي فتح طريق الحج للعراقيين حين جرى اختلاف بين أمراء مكة والأمراء الجلايرين بالعراق لقتل هؤلاء أحد الأمراء الأشراف بالعراق، كما ذكر ابن عتبة في كتاب "عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب". وقد توفي عمر القزويني هذا سنة "٧٥٠هـ" ودفن في مقبرة الزرادين قرب المنظرة، أي منظرة المأمونية المذكورة، ومسجد سراج الدين ومحلة الصدرية أنشأ في محل مقبرة الزرادين المذكورة وهم الذين يبيعون الزرديات من الدروع، وهي من الأسلحة المهمة.

جامع سوق الغزل

هو جامع معروف كان يسمى جامع القصر مضافاً إلى قصر التاج بدار الخلافة العباسية على دجلة وقد قدمنا ذكره، وسمي أيضاً جامع الخليفة وقد ذكرناه آنفاً في الكلام على محلة سراج الدين ثم سمي جامع الخلفاء في العصور العثمانية ثم جامع سوق الغزل أخيراً، لأن الغزالات كن يبعن غزلهن في هذا السوق كما هو ظاهر من التسمية، وقد اختصره الوالي سليمان باشا في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة وجدده مصغراً في جانب من أرضه العتيقة وكان جامع الدولة العباسية وفيه تجرى احتفالات خاصة وصلوات خاصة فضلاً عن صلاة الجمعة وصلاة التراويح، وكان له رحبة واسعة من الجهة الشمالية، وتباع اليوم في سوقه الطيور وغيرها، وكانت الطيور تباع بالقرب منه أيام العباسيين أيضاً، قال ابن الأثير المؤرخ في حوادث سنة ٥٥٨هـ من الكامل: "وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد: احترق سوق الطيوريين والدور التي تليه مقابلة إلى سوق الصفر الجديد والخان الذي في الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها". ومن هذا الخبر يعلم قرب سوق الطيورين من رحبة جامع القصر، وكانت الرحبة معرض التجارات النفيسة والأشياء العجيبة والألعاب البهلوانية والاجتماعات الشعبية والإعلانات الدولية وغيرها من الأمور الاجتماعية، وكانت تكون بعد الصلاة وانتشار المصلين، وأكثر العجائب والغرائب كانت تعرض يوم الجمعة لأنه يوم التجميع في الصلاة والاجتماع.

محلة تحت التكية ومحلة التوراة

كانت تسمى "المقتدية" لأنها سكنت على عهد الخليفة المقتدى بأمر الله، وكانت من أرقى المحلات وقد ذكرناها آنفاً في خبر الغرق الذي أصاب شرقي بغداد سنة "٥٥٤هـ" وذكرت

بين محلة المختارة ومحلة درب القيار، ولعلها متجاورة أو متقاربة، وكان في المقتدية دار قوراء مشهورة لشرف الدين معد العلوي الموسوي من كبار أعيان دولة الناصر لدين الله العباسي وأربابها، وكان ضيوف الخلافة الكبراء ينزلون فيها في آخر عصور الدولة العباسية كما جاء في كتاب الحوادث المسمى خطأ "الحوادث الجامعة". وعلى وصف المؤرخين تكون محلة المختارة بين محلة العاقولية والفضل ودكان شناوة والحيدرخانة وتحديدها كما ذكرنا آنفاً مستحيل لاختلاف مساحات المحال القديمة عن مساحات المحال الحديثة.

سوق حنون والتوراة أيضاً

إن الوصف الذي ذكره ياقوت الحموي في مادة "قراح" من معجمه للبلدان يدل على أن محلة سوق حنون وقسماً من محلة التوراة استوعبا موضع المحلة المسماة "قراح ابن رزين" وقد ذكر قراح بن رزين في حوادث التاريخ المتأخرة من العصور العباسية كثيراً، ونحن قدمنا ذكر هذه المحلة في خبر غرق بغداد سنة ٥٥٤ نقلاً من كامل ابن الأثير لغرق بعضها بفيضان دجلة المذكور، ولما كان ياقوت قد قاس طول المحلة بشوط فرس جيد، قدرنا أن محلة قراح ابن رزين تنتهي بمحلة قنبر علي الحالية، ويجيء بعدها محلة خرابة ابن جردة الوارد ذكرها في خبر الغرق آنفاً ومحلة قراح أبي الشحم وقراح القاضي، وقد ذكرا معها الجوبة، ولا تزال معروفة، إلا أن قراح أبي الشحم وقراح القاضي قد تغيرت أسماؤها إلى أسماء جديدة كعزات طويلات والفضوة: فضوة قره شعبان والعزة، وكانت حربة ابن جردة من محال اليهود ولم يزل اليهود إلى أيام هجرتهم الأخيرة من بغداد يسكنون تلك المواضع حتى محلة التوراة وسوق حنون وقد ذكر التاريخ أنه كان لليهود في خرابة ابن جردة "بئر تطهر" وهي المعروفة عندهم بالطبيلة.

محلة الشيخ عمر

كانت تعرف باسم الظفرية، نسبة إلى ظفر أحد خدم الخلفاء العباسيين، ولعل القراح الذي عرف بقراح ظفر وقد قدمنا ذكره كان منسوباً إليه أيضاً، وكانت محلة الظفرية تجاور قسماً من سور بغداد الشمالي الشرقي بحيث لما توفى الشيخ الصوفي الزاهد عمر السهروردي سنة ٦٣٢ قال بعض المؤرخين دفن على جادة سور الظفرية، وبهذا يتعين موضعها لبقاء تربة الشيخ عمر حتى اليوم معمورة مزورة على مقربة من الباب الوسطاني المعروف قديماً بباب الظفرية نسبة إلى المحلة المذكورة.

محلة المعدان

وهي المحلة المتصلة بمحلة الفضل من الشمال وكانت تسمى "الأجمة" والظاهر أنها سميت كذلك لنبات القصب في أرضها ولا يزال القصب ينبت خارجها مما يلي هري الحبوب

"السايلو"، وقد قدمنا خبر غرقها سنة ٥٥٤ نقلاً من كامل ابن الأثير ونصه "فغرق قراح ظفر - يعني محلة السور - والأجمة - والمختارة"، وكان قرب الأجمة موضع قصر الثريا الذي أنشأه المعتضد بالله خارج بغداد العتيقة كما يفهم من ديوان الأبيوردي الشاعر المشهور المتوفى سنة ٥٠٧هـ، وكان بينه وبين دار الخلافة في شارع المستنصر طريق أزجي أي معقود قيل إن حرم قصره كن يسرن فيه للوصول إلى الثريا والتنزه فيه، وكان في الثريا حير للوحوش أي حديقة للحيوانات، وقد أخرب الحير في أيام اضطراب الخلافة على عهد المقتدر بالله.

محلة الططران وأبي دودو

يستفاد مما ذكره ياقوت الحموي في مادة "قراح" من معجم البلدان أن محلة الططران وأبي دودو كانت تستوعب محلة "اللوزية" من محلات بغداد في عصر العباسيين ومن بعدهم، إلى أن تغيرت بغداد وغيرت أسماء محالها، والططران تفخيم "تتران" جمع "تتر" التركية بمعنى "البريدي" والظاهر أنها كانت مساكن للبريديين الذين كان الأتراك العثمانيون يكلون إليهم أمر البريد، ويدل على ذلك أن أكثر سكان المحلتين كانوا إلى وقت قريب من التركمان، واللوزية نسبة إلى اللوز ولكننا لم نعرف السبب في إطلاقها على هذه المحلة، سوى أن نظن أن اللوز كان يباع فيها بكثرة، أو أنها نسبت إلى رجل بياع للوز، ويؤيده أنه كان في جنوبها تل يعرف بتل الزبيبية وهي التي تبيع الزبيب المعروف، فهل كانت هناك أسواق للفواكه المجففة والنقول كانت سبباً في هذه التسميات؟ أنه أمر داخل في حدود الإمكان، ومألوف جداً كسوق الطيوريين المقدم ذكره آنفاً وسوق الغزل وغيرها. والظاهر أن الأسماء بقيت تطلق على تلك المواضع بعد أن زالت أسباب تسمياتها، وهذا معروف مألوف أيضاً.

سوق السراي

وهي السوق الممتدة بين القشلة وشارع الجسر العتيق، وكانت تسمى أيام العباسيين بسوق المدرسة وهي المدرسة التتشية نسبة إلى الأمير خمارتكين التتشي مملوك السلطان تتش بن السلطان ألب ارسلان وكان من أرباب المبرات وفاعلي الخيرات، حنفي المذهب كسادته السلاطين السلاجقة، وقد أنشأ مدرسة للحنفية على شاطئ دجلة فنسبت إلى سيده السلطان "تتش" السلجوقي لأن العبد وأمواله لسيده شرعاً، وفي موضعها اليوم "جامع الوزير" في سوق السراي وهو مطل على دجلة، وأنشأ هذا الرجل الخير مارستاناً لعلاج المرضى الفقراء بباب الأزج، ذكر ذلك ياقوت الحموي في مادة "تتش" من معجمه للبلدان، ولم يذكر "النظامية" في مادتها من المعجم بل ورد ذكرها استطراداً فيه وذلك أمر عجيب.

وسوق المدرسة يتصل من الشمال بسوق العميد ومن الجنوب بسوق المدرسة المستنصرية وهذه تتصل بسوق المدرسة النظامية، وقد ذكرنا أن السوقين الأخرتين كانتا من أسواق سوق الثلاثاء الطويلة الحفيلة بأنواع البضائع والصنائع والحرف.

سور بغداد الشرقية

تقدم ذكره، غير مرة، وكان يمتد من شمالي وزارة الدفاع من شاطئ دجلة إلى شاطئها في الجنوب عند رأس شارع أبي نواس على شكل نصف دائرة، وقد بدئ بإقامته في عهد الخليفة المستظهر بالله في أواخر القرن الخامس للهجرة ولكنه أهمل ثم بعثت الضرورة ابنه الخليفة المسترشد بالله على إنشائه في أوائل عهده في الخلافة وجعل له أبواباً أربعة اصطلح الناس على تسمية الباب الشمالي المعروف بباب المعظم اليوم وكان في أرضه باسم "باب السلطان" وهو السلطان طغرل بك السلجوقي لدخوله بغداد من تلك الجهة ولإقامته بحذاء الأرض التي أنشئ فيها الباب والسور بعد دخول طغرل بك بغداد بإحدى وسبعين سنة، وسموا الباب الثاني بين الشمال والشرق باب الظفرية وقد مر ذكره وأكثره قائم قرب تربة الشيخ عمر السهروردي ولا نعلم بالتحقيق أهذا البناء القائم من إنشاء المسترشد أم من إنشاء الناصر لدين الله؟ لأن الناصر جدد سور بغداد في أواخر القرن السادس للهجرة، كما جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي، ولأن السور شعث منذ أيام المسترشد وبعده مرات. ويعرف هذا الباب عند الناس منذ عصور خلت بالباب الوسطاني وقد ذكرنا ذلك قبلاً، وقد اتخذته مديرية الآثار متحفة للأسلحة العتيقة، والباب الثالث هو باب الحلبة وعرف بباب الطلسم لوجود صورة رجل بالآجر جالس على أعلى بابه وقد سحر ثعابين كبيرين من يمين وشمال، فظن الناس أن ذلك طلسم، وقد نسفه الأتراك ليلة تخليهم عن بغداد للإنكليز في ١١ آذار سنة ١٩١٧ وكان فيه بارود وعتاد حربي آخر، والباب الرابع هو باب البصلية وقد مر ذكره استطراداً في الملحق، وكان باقياً إلى أيام أمانة أرشد العمري لبغداد ثم أمر بهدمه وإدخال أرضه في الطريق العام فتكون أرضه اليوم في ساحة التحرير، وقد اتخذه الإنكليز في احتلالهم بغداد كنيسة لجنودهم باسم كنيسة القديس جورج. ولم يبق من السور الأصلي إلا بدنات قليلات من جهة مستشفى المجيدية. أما هدمه فقد بدأ في أيام الوالي مدحت باشا، فإن مدحت بنى بآجره القشلة والمحاكم المدنية وغيرهما، كما ذكرنا آنفاً، والسبب في إزالته تقدم صناعة المدفعية التي لا تقاومها الأسوار مهما بلغت من المتانة والاستحكام والصيانة.

كرادة مريم

الكرادة جمع الكراد وهو ذو الكرد ويجمع على كرود: نوع من السواقي لاستقاء الماء للمزارع والبساتين بظرف يغلب عليه أن يكون عنق بعير، والعنق بالفارسية "كرد" كما قال العارف بها، ومريم التي أضيف إليها هي إحدى النساء الصالحات وهي مدفونة هناك، وهذه المنطقة كانت تسمي أيام العباسيين ودهراً بعدهم "بادوريا" بطولها وعرضها وكان يسقيها نهر عيسى، قال ياقوت في معجم البلدان: "بادوريا بالواو والراء وياء وألف: طسوج من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد وهو اليوم محسوب من كورة نهر عيسى بن علي منها النخاسية والحارثية ونهر أرما، وفي طرفه بنيت بعض بغداد. منه القرية والنجمي والرقة. قالوا: كل ما كان من شرقي الصراة فهو بادوريا، وما كان في غربيها فهو قطربل. قال أبو العباس أحمد بن موسى بن الفرات: من استقل من الكتاب ببادوريا استقل بديوان الخراج ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة وذاك لأن معاملاتها مختلفة وقصبتها الحضرة . يعني بغداد . والمعاملة فيها مع الأمراء والوزراء والقواد والكتاب والأشراف ووجوه الناس، فإذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه الطبقات صلح للأمور الكبار".

وهي غير "بادرايا" التي قال فيها ياقوت أيضاً "بادريا ياء بين ألفين طسوج بالنهروان وهي بليدة بقرب باكسايا بين البندينجين ونواحي واسط منها يكون التمر القسب اليابس الغاية في الجودة واليبس...". قلنا: تعرف اليوم بالاختصار التطوري "بدرة" وهي من لواء ديالى وبقي تمرها يعرف بلفظ "بدراية". ومن الناس من لا يتميز بين بادوريا وبادرايا، والفرق ظاهر جداً ظهوراً جغرافياً ظهوراً لفظياً.

والحارثية المذكورة في صفة بادوريا لا تزال معروفة وقد اتخذت منازل ودوراً وقصوراً. والبندنجين الوارد ذكرها في "بادرايا" هي "مندلي" الحالية من لواء ديالى وقد أصابها الاختصار التطوري أيضاً.

الكرادة الشرقية

هي الكرادة الواقعة في الجانب الشرقي من جنوبي بغداد الشرقي، وكان فيها كرود لسقي المزارع والبساتين في مقاطعتها، وكانت من طسوج كلواذا أي مقاطعة كلواذا، قال ياقوت: "كلواذا... طسوج قرب بغداد، هي في الجانب الشرقي من طسوجها وبالجانب الغربي من نهر بوق" وقال ابن عبد المؤمن البغدادي في مراصد الاطلاع معقباً عليه "وهي قرى لها نهر

من القاطول عامرة". قال ذلك سنة ٧٣٩هـ "وعني بالقاطول قاطول القناية الذي كان بين نهر العظيم ونهر ديالى" قال ياقوت "القناية بكسر أوله وتشديد ثانية وبعد الألف ياء مثناة من تحت: نهر في سواد العراق من نواحي الراذانين عليه عدة قرى" وقال ابن عبد المؤمن في المراصد "هو مسيل عميق كالوادي بين القاطول وتامرا قرب بعقوبا" وهذا يعني أنه يصل القاطول بتامرا الذي هو أعلى نهر ديالى، ويبتدئ من المصنعة فصاعداً والمصنعة هي السدة عند القدامى، وسمي أيضاً "مصلحة" على ما جاء في مادة "نهروان" من المراصد. قال مؤلفه: "وهو نهر يأخذ من تامرا، وقد كان على فوهته من تامرا مصلحة ذات أبواب تسد عند قلة الماء وتفتح عند زيادته، ترد الماء عليه، ومدنه وقراه باقية إلى الآن، ليس فيها أحد لانقطاع الماء عنها بسبب خراب المصلحة التي كانت ترد الماء عليه حتى لم يبق لها أثر". قلنا: وأول من خرق المصلحة هو أمير الأمراء ابن رائق سنة ٣٢٦ كما جاء في الأوراق في أخبار المتقي "ص ١٠٥". وقال ابن عبد المؤمن: "وقد كانت المصلحة بنيت مات في أيام معز الدولة حتى بنيت آخر مرة، وأهمل [بناؤها] بعد ذلك حتى لم يبق له أثر".

وكان في هذه المنطقة "دير الزندورد" والزندرود كلمة فارسية معناها النهر الحي، ويراد به شدة الجرية، قال الشابستي، ونقله من كتابه ياقوت الحموي في معجم البلدان: "دير الزندرور". قال الشابشتي: هو في الجانب الشرقي من بغداد، وحدها من باب الأزج إلى الشفيعي، وأرضها كلها فواكه وأترج وأعناب وهي من أجود الأعناب التي تعصر ببغداد وفيها يقول أبو نواس:

فسقى من كروم الزندورد ضحى ... ماء العناقيد في ظل العناقيد

ونقل ابن فضل الله العمري من كتاب الشابشتي أيضاً ما هذا نصه "حكى عبد الواحد بن طرخان قال خرجت إلى دير الزندرود في بعض أعياده متطرباً ومتنزهاً ومعنا جحظة (البرمكي) في جماعة من إخواني، فنزلنا موضعاً حسناً، ووافقنا هناك جماعة من ظراف بغداد، لجميعهم معشوقات حسان الوجوه، والغناء، فأقمنا به أياماً في أطيب عيش وقال جحظة فيه شعراً ذكر الدير وطيب الوقت ومن كان معنا وغني فيه لحناً حسناً...

والشفيعي الوارد ذكره في وصف موضع الدير كان أحد البساتين المشهورة هناك وله ذكر كثير في التواريخ. والظاهر أنه منسوب إلى رجل اسمه شفيع كما نسب النجمي بالجانب الغربي إلى رجل اسمه نجم. ■

أسماء محلات بغداد قبل قرن أو أكثر

Identification des Anciens quartiers de Baghdâd

✍ عبد الحميد عبادة

وقع في يدي الجزء التاسع من السنة الرابعة من مجلة (لغة العرب) الغراء الصادر في آذار سنة ١٩٢٧ فرأيت فيه مقالاً للكاتب رزوق عيسى ذكر فيه أن السيد محيي الدين فيضي الكيلاني أبلغه أن محلة "السنك" كانت تسمى قبل هذا بمحلة "الشط" ورجا ممن له وقوف على خلاف ما ذكره أن يفيده على صفحات هذه المجلة ولا سيما من يكون في يده صك "مثبت" فيه اسم هذه المحلة.

ولما كنت ممن له بعض الوقوف على قسم من محلات بغداد قبل قرن أو أكثر ولديه بعض الوثائق التي يعتمد عليها أحببت أن أسطر ما لدي من المعلومات على صفحات هذه المجلة الغراء تنويراً للرأي العام وتلبية لدعوة الكاتب المشار إليه.

كنت طالعت في سنة ١٩١٦م جميع السجلات المحفوظة في خزائن المحكمة الشرعية ببغداد. فوقفت على أسماء محلات كثيرة قديمة تغيرت مع الزمن وكانت معروفة بأعلامها القديمة قبل قرن أو أكثر فنسختها وقابلتها بأسمائها الحاضرة وإليك البيان:

١ - محلة الشط

كان فيها ملك للنواب "إقبال الدولة" وفي جملته بعد ذلك دار القنصلية البريطانية الكبرى وهي اليوم مقر جيش للإنكليز وتعرف تلك المحلة اليوم بمحلة (السنك) فبيان السيد محيي الدين النقيب في هذا الصدد صحيح نظراً إلى ما في سجلات المحكمة المشار إليها.

٢ - سبع أبكار

الأبكار جمع بكرة والبكرة هي المحالة الكبيرة التي يستقى بها الماء من البئر وسبب تسمية هذه المحلة بها أنه كان فيها بستان صغير مجاور لمسجد الحاج نعمان الباجه جي وكان فيه بئر عليها سبع بكرات وفي سنة ١٢٦١هـ باع الحاج عبد الرحمن أفندي ابن الحاج محمد جلبي الباجه جي ربع البئر المذكور المحدودة بالمسجد المذكور وببستان الحاج سليم الباجه جي إلى "يوسف عزرا بحر" بألف قران[1] سكة محمد شاه ولا أثر اليوم من ذلك البستان وبئره في ذلك الموضع إذ لا يرى فيه الآن إلا دور عامرة من أحسن عمارات بغداد.

---

(١) القران بكسر القاف من نقود ديار فارس إلى عهدنا هذا. وكان يسمى في الأول "صاحب قران" ثم حذف اللفظ الأول. ويساوي القران عشر التومان. واليوم يساوي أربع آنات في بغداد. (ل.ع).

٣ ـ عمارة لنج

كانت هذه العمارة وما يجاورها خاناً كبيراً وفي ٢٨ من شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٢هـ اشتراه أوانيس المقدسي من قنصل إنكلترا بأربعة آلاف قران سكة محمد شاه ثم اشترته منه شركة اصطيفان لنج وقبيل الحرب بنته كما يرى اليوم.

٤ ـ محلة حمام الراعي

رأيت في وقفية الحاج إسماعيل جلبي شطي زاده المؤرخة في ١٥ رجب سنة ١٢١٥هـ أنه وقف ثلث غلة الأرض البسيطة الواقعة في محلة حمام الراعي على كذا وكذا. ومحلة حمام الراعي هي "محلة الدباغخانة". أما الأرض الموقوفة المذكورة فواقعة قبالة قصور الخضيريين المطلة على دجلة. وقد ذهب شيء منه غير قليل في الشارع العام أثناء خرقه.

٥ ـ محلة الزهري

الزهري مدفون في العرصة الملاصقة لمسجد "أسطه عباس الجراح" المحاذي لمخفر السنك فمحلة الزهري هي من جملة محلة السنك.

٦ ـ محلة البيجارية

البيجارية بجيم فارسية مثلثة فلفظة فارسية عربت وجمعت جمعاً عربياً ومعناها "محلة المعدمين أو الفقراء وهي محلة الفقراء وفيها حمام يعرف (بحمام حمد) وذلك في سنة ١٢٦٢ ولم أتمكن من تعيينها وكنت أظنها محلة "المجارية" (أي المكارين) فصحفت ولدي التحقيق لم تكن محلة المجارية.

٧ ـ محلة شريعة الغالبية

هي شريعة الميدان أو شريعة الطلومبة أو الطرنبة. كما يقال، ويجاورها اليوم النادي العسكري الواقع أمامه رباط أبي النجيب السهروردي. والغالبية عشيرة يسكن بعض أبنائها زقاقاً من أزقة محلة الفضل بجوار الزقاق المعروف بزقاق المعدان.

٨ ـ محلة كاتب الغربية

كانت زقاقاً من أزقة محلة رأس القرية. وفي هذا الزقاق اليوم دير راهبات التقدمة.

٩ ـ محلة سعدي كاشان

كانت أيضاً من أزقة رأس القرية.

١٠ ـ محلة شفتالي

كان في هذه المحلة دار للحاج أحمد آغا وكان فيها دائرة البرق والبريد في الدور العثماني وقد أخذ نحو نصفها فأضيف إلى الشارع العام المعروف اليوم بشارع الاطفائية وهو

من متممات محلة "جديد حسن باشا" وشفتالو كلمة فارسية معناها "الخوخ" أو ضرب منه وقد سماه السلف الشفتالوج أو الشفتالود.

١١ - محلة القوشجية

سميت باسم قوشجي زاده ابراهيم آغا ابن محمد آغا وتعرف حتى اليوم بهذا الاسم وهي واقعة خلف "جامع حمام المالح من جهة باب الشرقي والكلمة تركية يراد بها هنا "مربي البازي".

١٢ - محلة تلال شاه قولي

ورأيتها مكتوبة هكذا "شاهقولي هي الآن الزقاق الواقع خلف المطبخ العسكري سابقاً ومحل الاطفائية حالاً وفيها دار بالية دفن فيها "قلنج اصلان" والمحلة معروفة الآن (بمحلة جديد حسن باشا) وهو المجدد الثاني لجامع السراي وذلك سنة ١٢٠٠هـ.

١٣ - محلة طاق صلال[١]

هي محلة الحيدرخانة الآن ولا طاق اليوم فيها البتة ولعله كان سابقاً.

١٤ - محلة التمارة[٢]

هي محلة الشورجة الآن وسميت بذلك لبيع التمور في أسواقها لأن التمار كجبار بائع التمر.

١٥ - محلة الحطابين

وتسمى "اطه اغاج" والكلمة تركية أي جزيرة الحطب فيها دار آل المزراقجي هي من أزقة رأس القرية وهي اليوم قسم من محلة الكنائس.

١٦ - محلة النقاشين

لم أتمكن من تعيينها ولعلها "محلة صبابيغ الآل".

١٧ - محلة درزي صالح

هي الزقاق غير النافذ الذي فيه جامع المصرف وكان سابقاً يعرف بمحلة "درزي صالح" أي "صالح الخياط" ولما أنشأ أحمد أفندي المصرف جامعه في سنة ١٢٢٣هـ عرف من ذلك الحين بزقاق المصرف وتركت تسميته الأولى.

١٨ - كموش حلقه محله سى

أي محلة الحلقة الفضية وهي التي عرفت بعد ذلك بمحلة خضر بك وهذه المحلة من متممات محلة قنبر علي ولما أنشأ خضر بك وأخوته جامعهم فيها سنة ١١٩٩هـ عرفت المحلة باسم منشئ الجامع خضر بك.

---

(١) صلال كسحاب.

(٢) بتشديد الميم.

١٩ - محلة الطوبجية

كان جامع منورة[1] خاتون زوج سليمان باشا ووالدة صالح بك وصادق بك قبل سنة ١٢٧٠هـ ثكنة للجنود المدفعية ولما انتقلت الجنود المذكورة إلى محل آخر أنشأت الخاتون المشار إليها في محلها هذا الجامع ومع هذا فإن المحلة حتى اليوم تعرف بالاسمين وعلى بعض جدرانها اسمها الأول مكتوب في لوح بصورة "طوبجيلر محله سى" وهذه المحلة محادة لمحلة العاقولية التي فيها دور الألوسيين.

٢٠ - محلة خرطوم الفيل

هي محلة باب الآغا.

٢١ - قرانلق قبوسى

أي باب الظلمة والكلمتان تركيتان وهذا الباب هو المعروف بالباب الشرقي.

٢٢ - باب سفيد

أي الباب الأبيض والكلمة فارسية وتركية وهو الباب المعروف اليوم بالباب الوسطاني من أبواب السور الزائل.

فهذه المحلات كلها في الجانب الشرقي من بغداد "جانب الرصافة".

أما ما وقفت عليه من المحلات الواقعة في الجانب الغربي منها وهو جانب الكرخ فهي:

١- محلة الزركشي

هي محلة الكريمات اليوم ولما بنى كاظم باشا قصره المعروف ضم قبر الزركشي مع قبور أخر إلى غرف قصره فتركت التسمية بمحلة الزركشي والزركشي من العلماء ويسمونه "الزركجي".

٢ - محلة الباغي والجديد

محلة تعرف بهذين الاسمين واقعة بجانب محلة علاوي الحلة وتعرف اليوم بمحلة الدوريين وسميت "الباغي" نسبة إلى ما باتصالها من كثرة البساتين العديدة التي تنتهي إلى الصحراء إذ الباغ هو البستان بالتركية.

٣ - محلة التلاعية

تعرف اليوم بمحلة الفلاحات.

٤ - محلة القوناق

قوناق تركية أي المنزل فيها مسجد محمد أمين بن فهد ولما فتحت جادة القداد (الترام) عرفت المحلة باسم سوق حمادة.

---

(١) منورة بتشديد الواو المفتوحة.

٥ - محلة مركب الحمير

كان فيها دار إسماعيل أفندي الراوي وتعرف اليوم بمحلة "سوق الجديد".

٦ - قهوة غزيلة

واقعة في منتهى محلة علاوي الحلة وقريبة من بستان الأرضر وملي وهي من أوقاف جامع المصرف والخراب مستول عليها يوم طرأ على أملاك بغداد من التجدد والعمران.

٧ - قهوة المفاليس

في محلة علاوي الحلة.

٨ - محلة الدليم

متصلة بمحلة علاوي الحلة.

٩ - محلة الياس

وتعرف اليوم بمحلة خضر الياس وفيها الجامع الذي يقال عنه إنه بني على مسناة قصر الخلد خلف باب خراسان ويقول النصارى إن في تلك المحلة كانت كنيسة باسم الخضر الياس.

١٠ - محلة الدهامش

ويقول بعضهم الدهامشة ابدلت بمحلة التكارتة.

١١ - محلة القيارة

من أزقة محلة السيف.

١٢ - محلة المعاضدة

كأنها مصدر عاضد هي زقاق في محلة "سوق الجديد" (كذا بحذف الـ من "سوق").

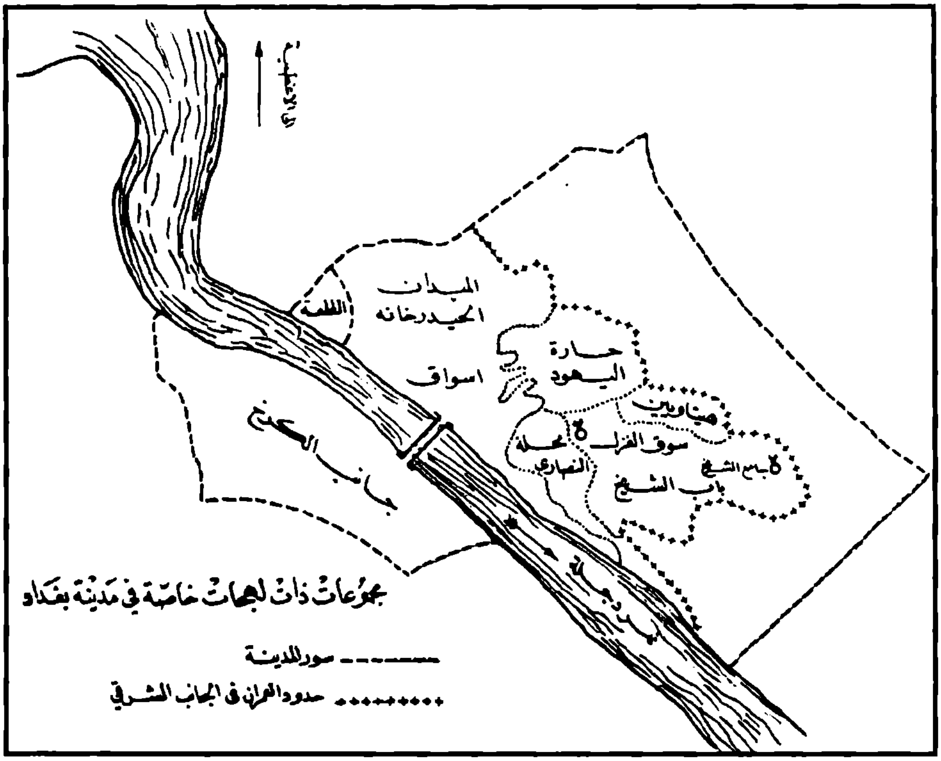
١٣ - محلة البهادرية

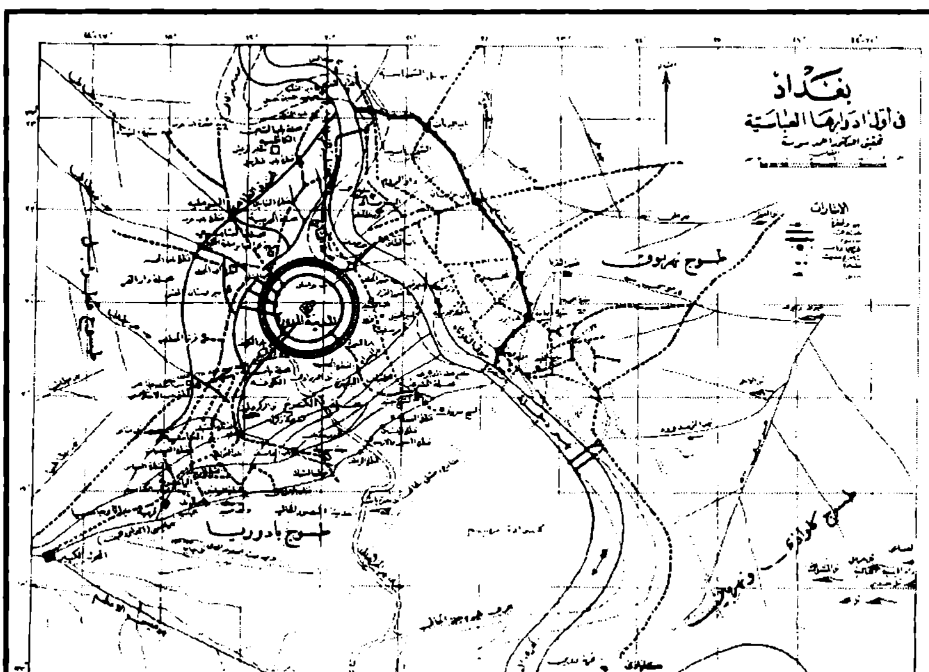
عشيرة تسكن في محلة الجعيفر.

١٤ - محلة الدده

زقاق من أزقة محلة الجعيفر.

هذه المحلات كانت تعرف في الدورين الفارسي والعثماني أما أسماء المحلات في الدور العباسي فسأوافي القراء عنها بمقال ثان أذكر فيه تلك الأسماء العباسية بما يقابلها من المحلات الحاضرة. هذا وأرجو ممن له وقوف على خلاف ما ذكرته أن ينشره على صفحات جرائد بلادنا أو مجلاتنا لتظهر الحقيقة وتحصل الفائدة المطلوبة من هذا البحث. (لغة العرب ج٢ س ٣). ■


المبدان
الحيدرخانه
حارة اليهود
اسواق
سوق الغزل
محلة النصارى
جامع الشيخ
باب الشيخ
جانب الكرخ
نهر دجلة
مجموعات ذات لهجات خاصة في مدينة بغداد
سور المدينة
حدود الغزل في الجانب الشرقي


بغداد
في أول أدوارها العباسية
طسوج نهربوق
طسوج بادوريا



مساجد بغداد ومشاهدها

✍ مصطفى جواد

بغداد مدينة السلام والإسلام، وعاصمة أبي جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد، والمعتضد بالله والمسترشد بالله والمقتفي لأمر الله، والناصر لدين الله والمستنصر بالله، من أعاظم الخلفاء العباسيين، وذات المناظر التي صورت لملك الروم إعجاباً بها، ولم يتبق من آثارها الواغلة في القدم شيء.

فمدينة المنصور المدورة، وقصر باب الذهب وجامع المنصور والقبة الخضراء والسور وما أحاط به من الدور، عفى عليها الدهر ودرسها.

وقصر الخلد وقصر القرار وقصر المهدي وجامع المهدي بالرصافة جهلت مواضعها بعد أن كانت أثراً بعد عين.

ذلك لأ، الحضرة - أعني المواد الإنشائية - التي بنيت بها بغداد العباسية كانت من الآجر أي اللبن المطبوخ وهو الطوب عند المصريين، والطابوق عند العراقيين العصريين وهو تصحيف "الطابق" على وزن هاجر وصاحب وهو الآجر الكبار كالطاباق، على ما جاء في القاموس المحيط ولأن بغداد رطبة الأرض تتلف رطوبتها المواد البنائية المصنوعة كالآجر واللبن، بله ما أصابه من نوازل الفرق مراراً وتكرراً بفيضان ماء دجلة، الذي كان على توالي العصور يهدم الدور والقصور وغيرهما مما هو معروف، فضلاً عما عراها من التخريب والنقض والهدم السياسي المجرم الذي يصفه علي بن بسام العبرتي في هجوه الوزير ابن مقلة الكاتب بقوله:

بجنبك داران مهدومتا ... ن ودارك ثالثة تهدم

فليت السلامة للمنصفين ... تدوم فكيف لمن يظلم؟!

وما أجمل ما ذكره ياقوت الحموي مملوك عسكر الحموي، ثم البغدادي، في مادة "سياث" من معجمه للبلدان، قال "سياث.. كانت بليدة الظاهر معرة النعمان وهي القديمة.. اجتاز بها القاضي عبد الباقي المعري والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر:[1]

(١) ذكر كمال الدين بن العديم الحلبي القاضي الأديب المؤرخ أن الأبيات لأبي الهيثم عبد الواحد بن عبيد أخي أبي العلاء المعري، في كتابه "الإنصاف والتحري" على ما نقل في كتاب أخبار أبي العلاء "ص ٩٤".

ممررتُ برسم في سياث فراعني به زجلُ الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها، شلت يمينك، خلها لمعتبر أو زائر او مسائل
منازل قومٍ حدثتنا حديثهم ولم أرَ أحلى من حديث المنازل

وما أروع ما رواه الطبري في تاريخه قال: "قال موسى بن داود المهندس، قال لي المأمون.. يا موسى إذا بنيت لي بناء فاجعله ما يعجز عن هدمه ليبقى طلله ورسمه".

وما أعجب ما ذكره أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب في هذا الباب، فقد حكى أن متظلماً من أهل أصبهان تظلم إلى يحيى بن خالد البرمكي من عامله فيها، قال له: إنه ظلمني وأساء معاملتي وأخذ ما لا يجب له مني وهدم شريفي. فقال يحيى: قد عرفت جميع ما تظلمت خلا قولك (هدم شريفي) ففسر لي ذلك. فقال له المتظلم: "أنا من أبناء رجل بنى القصر المهدوم، وكان ينسب إليه، وكان الرائي إذا رأى القصر وجلالته، وعلم أني من أبناء الباني، عرف بذلك قديم نعمتي وجلالة أولي". فاستحسن ذلك منه وقال لابنيه الفضل وجعفر: لا شيء أبقى ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً. فاتخذ جعفراً قصراً.

قال عمر بن فرج: انصرفت مع عمرو بن مسعدة يوماً من الشماسية والمأمون بها في زلال لعمرو بن مسعدة، فلما صرنا بإزاء قصر البرمكي قال عمرو يا ابا حفص، سرت أنا وجعفر يوماً كسيرنا هذا، فلما نظر إلى البناء - يعني قصره قال لي: يا أبا الفضل إني لأعلم أنه ليس من بناء مثلي ولكن قلت، إن بقي لي فهو قصر جعفر - يعني نفسه - وإن شره السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر، ويبقى اسمه وذكره، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده احسان فيترحم علينا.

ولم يكن اتخاذ العباسيين الآجر مادة للبناء بدعاء في الحضارة العمرانية، فقد فعل ذلك قبلهم السومرين والآكديون والبابليون والفرس على اختلاف سلالاتهم الملوكية، ولا سيما الساسانيين، وقصرهم الأبيض وإيوانهم بالمدائن بنيا بالآجر وكذلك شاذرواناتهم، إلا ما قرب من جبل فإنهم كانوا يتخذون بناءهم فيه من الحجر، وإلا ما كان قريباً من الأرض المصخرة أعني التي كثر فيها الصخر. ولما كانت سامرا يابسة الأرض جافتها خالية من الرطوبة بقي فيها من آثارهم خرائب الجوسق الخاقاني المعروف بدار الخليفة، والمسجد الجامع ذي المنارة العجيبة المعروفة بالملوية، وجامع المتوكل المعروف بجامع أبي دلف ومنارته، والمعشوق قصر المعتمد على الله وغير ذلك.

ولم يبق ببغداد أثر لبنيان المنصور، ولا لبنيان المهدي، ولا لعمران المأمون وعمران من جاء بعدهم من الخلفاء، حتى المسترشد بالله "٥١٢ - ٥٢٩هـ" فقد يظن أن باب الظفرية أحد أبواب السور لبغداد الشرقية، وهو المتخذ اليوم متحفة للأسلحة المعتيقة المعروف عند العامة بالباب الوسطاني ورسمياً بمتحف الأسلحة القديمة، قد يظن انه من أبنية هذا الخليفة الهمام، غير أن ما ذكره ابن كثير الدمشقي في تاريخه "البداية والنهاية" من أن الخليفة الناصر لدين الله العباسي "٥٧٥ - ٦٠٠هـ" جدد سور بغداد تجديداً عاماً قبل سنة ٦٠٠هـ يوهن هذا الظن. وهذا التجديد العام لا يعني تجديد بناء باب الحلبة الذي أمر به الناصر لدين الله سنة ٦١٨هـ، وقد نسفه الأتراك العثمانيون بالبارود الذي كان مخزوناً فيه، وكان ذلك ليلة اليوم الحادي عشر من فبراير، (شباط)، سنة ١٩١٧ وهي ليلة تركهم بغداد واحتلال الإنكليز لها عنوة وقسراً.

والمباني العباسية الباقية حتى هذه الأيام هي دار المسناة الناصرية التي أنشأها الناصر لدين الله العباسي "٥٧٥ - ٦٢٢هـ" في أوائل خلافته وجعلها شبه "دار علم" بدلالة ما نقله إليها من الكتب، على ما ذكر القفطي في أخبار الحكماء، وهي المعروفة رسمياً بالقصر العباسي، ومنارة مسجد الحظائر المعروف اليوم بجامع الخفافين وقد أمرت بإنشائه السيدة زمرد خاتون بنت عبدالله التركية زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله ووالدة الخليفة الناصر لدين الله، وقد توفيت سنة ٥٩٩هـ، وتربتها ذات القبة المخروطية التي هي من الطراز السلجوقي، وتعرف اليوم عند العامة بقبر الست زبيدة، مع أن زبيدة دفنت في مقابر قريش كما جاء في كامل ابن الأثير المؤرخ الشهير، وأن زبيدة بنت السلطان بركيارق السلجوقي قد دفنت في همدان، كما ورد في كتاب المنتظم لابن الحوزي، وزبيدة بنت نظام الملك دفنت في دار الخلافة العباسية، بشرقي بغداد، وزبيدة بنت الخليفة المقتفى لم يصرح أحد بدفنها هناك لأنها عباسية وقد جرت العادة في عصور العباسيين الأخيرة منذ القرن الرابع بأن يدفنوا في مقبرتهم بمحلة الرصافة المجاورة لمقبرة الإمام أبي حنيفة النعمان، رضي الله عنه.

ومما بقي من المباني العتيقة المدرسة المستنصرية العظيمة، وقد بنيت بين سنة ٦٢٥هـ وسنة ٦٣٠هـ، وافتتحت سنة ٦٣١هـ.

ومنارة مسجد الجنائز المجاور لتربة الشيخ العارف بالله الزاهد العابد أبي فيروز معروف الكرخي المتوفى في آخر القرن الثاني للهجرة، أنشأها الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦١٢هـ وتاريخ إنشائها مذكور في آجر حوضها، أي موقف المؤذن منها. وسنة إنشائها هي سنة وفاة

ولي عهد الخلافة العباسية "أبي الحسن علي بن الناصر لدين الله" الملك المعظم، الذي يقول في رثائه كمال الدين علي بن النبيه الشاعر المصري صاحب "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا" و"أماناً أيها القمر المطل":

الناس للموت كخيل الطراد	**فالسابق السابق منها الجواد**
والله لا يدعو إلى داره	**إلا من استصلح من ذي العباد**
والموت نقاد على كفه	**جواهر يختار منها الجياد**
والمرءُ كالظل ولا بد أن	**يزول ذاك الظل بعد امتداد**
لا تصلح الأرواح إلا إذا	**سرى إلى الأجساد هذا الفساد**
أرغمت يا موت أنوف القنا	**ودست أعناق السيوف الحداد**
كيف تخرمت علياً وما	**أنجده كل طويل النجاد؟!**
نجل أمير المؤمنين الذي	**من خوفه يرعد قلب الجماد**
مصيبة أذكت قلوب الورى	**كأنما في كل قلب زناد**
نازلة جلت فمن أجلها	**سن بنو العباس لبس السواد**

ومن الأبنية العتيقة منارة جامع القصر وهو القصر الذي أنشأه المكتفي بالله العباسي في أواخر القرن الثالث للهجرة، وقد عرف بقصر التاج، وسمي الجامع أيضاً "جامع الخليفة"، وعرف في أوائل حكم الأتراك العثمانيين بجامع الخلفاء، ويعرف عند العامة بجامع سوق الغزل، ومنارته التي أشرت إليها أنشئت على عهد الملك أبغا ويقال أيضاً "أباقا" بن هولاكو بن تولي بن جنكيزخان، وولاية علاء الدين عطا ملك الجويني الشافعي، وله الفضل في ذلك. وكان بناؤها سنة ٦٧٨هـ، وقد رممتها مديرية الآثار القديمة العامة، وشرعت مديرية الأوقاف العامة، ثم وزارتها في إنشاء مسجد حولها، فإن أرض الجامع العتيق كانت قد وزعت دوراً صغيرة في أيام ولاية سليمان باشا المملوك "١١٩٤ ـ ١٢١٧هـ" إلا قطعة منها ابتناها الباشا المذكور مسجداً، ولعلها وزع منها قبل ولاية هذا الوالي.

ومنها المدرسة المرجانية، أسسها وشيدها أمين الدين مرجان عبدالله بن عبد الرحمن أحد مماليك المغول، وكان مسلماً، كتب لها وقفية بالآجر في جدران مصلاها وعلى حيطان مرافقها الأخرى. وترقى من العبودية إلى الإمارة، وصار والي بغداد وما جاورها من البلاد على عهد النويان أويس بن الشيخ حسن الكبير مؤسس الدولة الجلايرية بالعراق، والتاريخ المكتوب بالآجر في أعلى بابها ذي المنارة يفيد أنها بنيت سنة "٧٦٠هـ".

ومنها خان مرجان، ويعرف بالاصطلاح الحضاري القديم باسم "تيم" مرجان، والتيم هو خان التجار باللغة الفارسية الخراسانية، أنشأه مرجان للارتفاق بغلته في إدارة شؤون المدرسة، كما يقول العصريون، والإنفاق عليها وعلى دار الشفاء - أي المستشفى - التي أنشأها على دجلة لمرضى الفقراء وجعل للسمك الذي يعيش بالقرب من مسناتها والطير التي تسبح بدجلة على مقربة منها، حصة من الوقف، وذلك بإطعامها يومياً وبذر الحب لها.

ومنها تربة الشيخ العارف بالله، شيخ الإسلام في عصره، شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد البكري الشافعي السهروردي، صاحب الطريقة السهروردية ومؤلف كتاب "عوارف المعارف" في التصوف وغيره من الكتب الدينية، وقبة التربة مخروطية الشكل، وهي من الطراز السلجوقي الذي أشرنا إليه في ذكرنا بعض سيرة السيدة زمرد خاتون، والدة الناصر الدين الله آنفاً. قال مؤلف كتاب الحوادث الذي نشرناه باسم "الحوادث الجامعة" وهما:

"وفيها - يعني سنة ٦٣٢ - توفى الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبدالله السهروردي الصوفي الواعظ، ولد بسهرورد ونشأ بها وقدم بغداد واستوطنها.. وتولى عدة ربط للصوفية، منها رباط الزوزني، ورباط المأمونية، وبنى له الخليفة الناصر لدين الله رباطاً بالمرزبانية على نهر عيسى، وبنى إلى جنبه داراً واسعة وحماماً وبستاناً يسكنها بأهله، ونفذه الخليفة رسولاً إلى عدة جهات، وكان الملوك الذين يرد عليهم يبالغون في إكرامه وتعظيمه واحترامه، اعتقاداً فيه وتبركاً. ودفن في الوردية في تربة عملت له هناك على جادة سور الظفرية. ومات عن "اثنتين وتسعين سنة.." وقد جدد تربته غياث الدين محمد بن فضل الله الوزير سنة ٧٣٥هـ، والعادة في تجديد الترب أن يحافظ على أشكالها الأصلية.

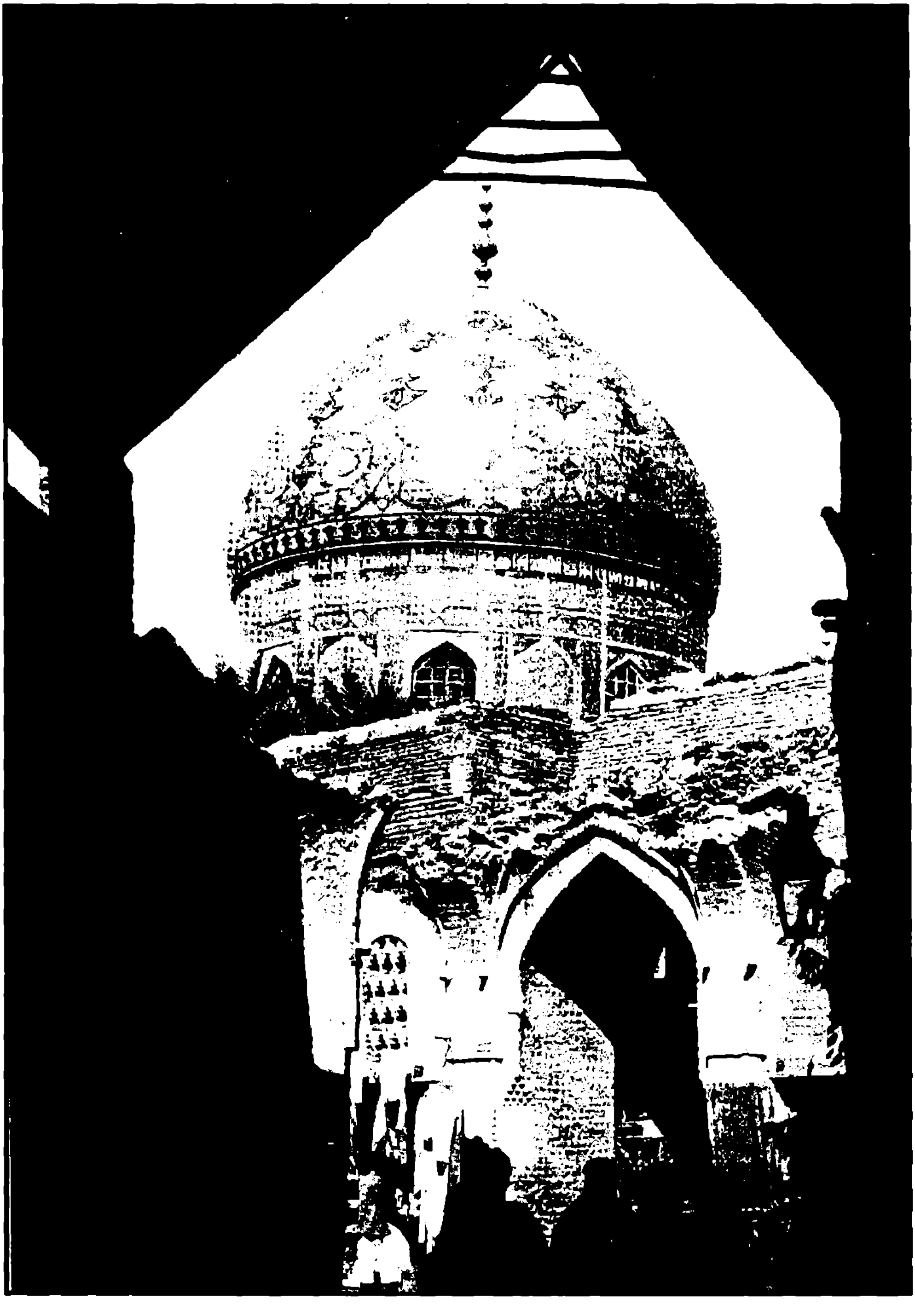
ودونك من مساجد بغداد ومساجدها مشهد الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت هكذا سمى تربته المؤرخون. وأول من بنى له تربة وملبناً أي صندوقاً ضريحياً شرف الملك أبو سعد مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان السلجوقي، وذلك سنة ٤٥٩هـ. وذكر السيد محمود شكري الألوسي العالم المشهور في كتابه "تاريخ مساجد بغداد وآثارها" أنه في سنة ١٢٨٨هـ تداعت أرجاؤه فأمرت والدة السلطان عبد العزيز بتجديده وتوسيعه، فهدم عند ذلك ما كان من الأبنية من قبل إلا القبة والمئذنة وبنى على أحسن وضع وألطفه وأتقنه، وعقدت قبة مصلاه على عمد من الرخام الأبيض، وأحدث في جهتين من المصلى رواق واسع معقود على سوار من

الرخام، ووسع فناء المسجد، وذكر مهذب الكتاب الأستاذ محمد بهجة الأثري أن ذلك البناء قد تم سنة ١٢٩٣هـ مع جلوس السلطان عبد الحميد الثاني.

ومشهد الإمام الشهيد موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق (ع) وهو من إنشاء الشاه اسماعيل الطوى الصفوي وقد كتب في الجانب الأيمن والأيسر من رواق باب المزار وهو الباب الشمالي ما هذا نصه "أمر بإنشاء هذه العمارة الشريفة سلطان سلاطين العالم، ظل الله على بني آدم، ناصر دين جده الأحمدي، رافع أعلام الطريق المحمدي، أبو المظفر شاه اسماعيل بن شاه حيدر بن جنيد، الصفوي الموسوي، خلد الله لإعلاء الدين المتين ألوية ملكه وسلطانه، وأيد لهدم أهل الضلال قواعد حجته وبرهانه، وحرر ذلك في سادس شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٦".

أما جامع الحيدرخانة فهو من الجوامع التي بنيت في أيام الحكم العثماني للعراق و لا تزال قبته الكبيرة الرائعة المزخرفة بالآجر الملون. وكذلك المنارة المقامة إلى جانب الرواق، والسوق التي فيها الجامع تسمى اليوم "سوق الحيدرخانة" وهذه السوق كانت تعرف قديماً بسوق الثلاثاء قبل إنشاء المنصورمدينته المعروفة بمدينة السلام، وبعده، ذكره السيد محمود شكري الآلوسي باسمه العصري في كتابه تاريخ مساجد بغداد وآثارها - ص ٣٢ - وذكر أنه من أتقن جوامع بغداد صنعة وإحكاماً، وأن داود باشا والي أيالة بغداد "١١٣٢ - ١١٤٧هـ" اختطه وأنشأه.. وكان الفراغ من عمارته سنة ١٢٤٢هـ، ونفهم من كلام الآلوسي أنه كان ضيق المساحة فوسعها، ولعله المسجد العباسي الذي أنشأه الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٧٣هـ: "وأنشأ أمير المؤمنين مسجداً كبيراً في السوق عند عقد الحديد وتقدم بعمارته فعمر عمارة فائقة وكسي... وتقدم إلي فصليت فيه بالناس التراويح ليلة وكان الزحام كثيراً فدخل على قلوب أهل المذهب (كذا) ما شاء الله من النعم، لكونه أضيف إلى الحنابلة، وقد كان يرجف به لغيرهم".

❖ ❖ ❖



جامع الأحمدية.

مسجد المنطقة وبراثا

✍ مصطفى جواد

قرأت في الصحف قبل مدة خبر عزم جماعة من المحسنين على تعمير جامع سموه (جامع براثا) فتبادر إلى ذهني القاصر أنهم أرادوا بجامع براثا المسجد القائم اليوم بين بغداد والكاظمية المعروف بمسجد المنطقة أو جامع المنطقة.

إن الناس يسمونه [جامع المنطقة] قديماً وحديثاً، نقل ذلك الاسم الأبناء عن الآباء والآباء عن الأجداد فكيف صار جامع المنطقة جامع براثا؟

بيان ذلك أن بعض علمائنا الفضلاء - تغمدهم الله بعفوه وشملهم برحمته - ممن عاشوا قبل قرن واحد او أكثر، أحب أن يتفقد قبور أعيان الشيعة الإمامية، ومزاراتهم ومشاهدهم ومعابدهم فحمله حسن النية وكرم الطوية وسلامة القلب، أن يوزع أسماء الأعيان من الإمامية وأسماء الشريف من مزاراتهم، على قبور مجهولة الأصحاب ومعابد منقطعة الأسباب. وهكذا كانت نتيجة عمل غير مستند إلى التحقيق والتدقيق فيجب على العاقل المنصف لنفسه وللحق أن يقف عند حدود علمه ولا يتكلف ما يجهل.

ومن تلكم الفلطات البغيضة التي نقاسيها اليوم ونرزح تحت ضررها، تسمية جامع المنطقة بجامع براثا، والواجب الديني التاريخي يدعونا إلى القول: إن جامع المنطقة هو جامع المنطقة وجامع براثا هو جامع براثا، كل منهما مخالف للآخر. فالأول - أعني جامع المنطقة - في شرقي مدينة المنصور المدورة المعروفة بمدينة السلام، العافية الزائلة، وجامع براثا كان في جنوبي مدينة المنصور الغربي قرب مجرى الخرالحالي، وقد قال علماء البلدان أنه كان في جهة القبلة من الكرخ وكلاهما كان من المقامات المقدسة عند الشيعة.

أما جامع المنطقة فقد كان يسمى "مشهد المنطقة" منذ أكثر من سبعمائة سنة، وكان يسمى من قبل "مسجد العتيقة" وكانت العتيقة تسمى "سونايا" قبل ذلك.

وسونايا قرية كانت في هذا الموضع - موضع المنطقة - يسكنها الأنباط - أي الكلدانيون - وكانت من أجمل القرى بمزارعها وبساتينها وفواكهها وهذا العنب الأسود الذي ينضج قبل سائر الأعناب أصله منها وعرف قديماً بالعنب السوداني.

ولما بنى بنو العباس مدينتهم المدورة بين أرض المنطقة وأرض الكاظمية صارت قرية سونايا من القرى الداخلية في المحلات المحيطة بالمدينة المنورة وامتدت العمارة إليها وأنشئ هناك سوق عظيمة ولما كانت أقدم زماناً من مدينة المنصور سموها العتيقة إشارة إلى عتقها، قدم زمانها.

وكان الشيعة يروون في أخبارهم، أن الإمام علياً المرتضى عليه السلام صلى أو اعقل وصلى في موضع من مواضع سونايا هذه عند قدومه هذه الديار لحرب الخوارج العصاة الجهال أو لغير ذلك من حركاته الحربية الأخرى سنة ٣٨هـ وجماعة من الرواة قالوا إن صلاته كانت في أرض جامع براثا قرب مجرى نهر الخر لا في موضع المنطقة واختلاف الروايتين حملهم على عمر مسجدين في الموضعين المذكورين مع تباعد أحدهما عن الآخر كما قلنا آنفاً.

وقد ذكر أبو بكر الخطيب الموضوعين في تاريخه على حسب اختلاف الروايتين. قال "وفي سوق العتيقة - يعني المنطقة - مسجد تغشاه الشيعة وتزوره وتعظمه وتزعم أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) صلى في ذلك الموضع ولم أر أحداً من أهل العلم يثبت أن علياً دخل بغداد ولا روي لنا شيء غير ما أخبرنا القاضي ابو عبدالله الحسين بن علي الصيمري قال: أنبأنا أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، قال: أنبأنا القاضي أبو بكر محمد بن عمر الجعابي الحافظ - وذكر بغداد - فقال: "يقال إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب اجتاز ببغداد إلى النهروان راجعاً منه وأنه صلى في مواضع منها فإن صح ذلك فقد دخلها من كان معه من الصحابة". يعني مثل أبي الطفيل عامر بن واثلة وأبي مسعود عقبة بن عمرو.

"قال الخطيب: حدثني أبو الفضل عيسى بن أحمد بن عثمان الهمذاني قال: سمعت أبو الحسن بن زرقويه يقول: كنت يوماً عند أبي بكر بن الجعابي فجاءه قوم من الشيعة فسلموا عليه ورفعوا إليه صرة فيها دراهم ثم قالوا له: "أيها القاضي إنك قد جمعت أسماء محدثي بغداد، وذكرت من قدم إليها وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد وردها، فنسألك أن تذكره في كتابك". فقال: نعم. يا غلام هات الكتاب. فجيء به، فكتب فيه وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقال إنه قدمها" قال ابن رزقويه فلما انصرف القوم قلت له: أيها القاضي، أهذا الذي ألحقته في الكتاب من ذكره؟ فقال هؤلاء الذين رأيتهم أو كما قال، وابن زرقويه كان متحانفاً عن الحقيقة بهواه.

قال الشيخ أبو بكر الخطيب: والمحفوظ أن علياً سلك طريق المدائن - يعني سلمان باك - في ذهابه إلى النهروان وفي رجوعه والله أعلم[١].

والعجب من أبي بكر الخطيب كيف أقدم على هذا القول فإن الشيعة قالوا إن أمير المؤمنين دخل بغداد ولم يوجبوا أن يكون داخلها في تعقيبه أهل النهروان وإن كان دخوله إياها في قصده أهل النهروان هو القول الراجح.

فالخطيب نفسه روى في الجزء الأول من تاريخه بسنده إلى ابن الطفيل عامر بن واثلة. قال: سمعت علياً عليه السلام يقول بمسكن - يعني أرض بلد والسميكة لا أغسل رأسي بغسل حتى آتي البصرة فأحرقها ثم أسوق الناس بعصاي إلى مصر، فاتيت أبا مسعود عقبة بن عمرو البدري فأخبرته فقال: إن علياً مورد الأمور مواردها ولا تحسنون أن تصدروها، علي لا يغسل رأسه بغسل ولا يأتي البصرة ولا يحرقها ولا يسوق الناس بعصاه إلى مصر، علي رجل أصلع رأسه مثل الطست، إنما حوله مثل الشعرات أو قال زغيبات[٢].

والذي يصل إلى مسكن وهي أرض بلد والسميكة كيف يستبعد عليه أن يدخل بغداد؟ فالخطيب كان في غفلة عما روى، وسهو عما حوى، ولقد جاء في الأخبار، أن أمير المؤمنين اجتاز ببادوريا -وهي مزارع الجانب الغربي من بغداد حتى مقابل الجادرية، فخرج إليه أهل قرية منها تسمى قطفتا - وهي محلة الشيخ معروف وما حولها من الحصانة وغيرها، فشكوا إليه كثرة الخراج على قريتهم، وأن خراجهم مخالف لسائر خراج العراق، فقال لهم: رب جحش صغير خير من حمار كبير، إنكم تبيعون ثماركم بضعف ما يبيعها به غيركم من أهل السواد[٣].

روي ذلك في كتاب الإمامة المنسوب إلى البغدادي. والذي يمر بأرض الشيخ معروف كيف يستغرب مروره بأرض المنطقة ثم أن أمير المؤمنين لما خرج إلى ىصفين مر بالمدائن ولا يبعد مروره بعدها ببغداد. وروى الطبري في أخبار الخوارج أن سعد بن مسعود الثقفي عامل الإمام علي (ع) على المدائن أراد أن يقطع على الخوارج طريقهم ولكنهم جعلوا طريقهم على بغداد وأدركهم سعد بن مسعود بالكرخ في خمسمائة فارس عند المساء وجرت مناوشة بينهم ثم عبر الخوارج دجلة ليلاً وقصدوا النهروان جنوبي بعقوبا، وروى

(١) تاريخ الخطيب البغدادي، ج ١ ص ٩٠.

(٢) تاريخ الخطيب، ج ١ ص ١٩٨ - ٩.

(٣) كتاب الإمامة المنسوب إلى المسعودي، ص ١١٦.

الطبري أيضاً أن أمير المؤمنين تحرك بجيشه من الأنبار صامداً إلى الخوارج[١] والأنبار كانت فوق الفلوجة ومن الأنبار جاء الإمام إلى بغداد فعبر دجلة وأدرك الخوارج بين بعقوبا والنهروان، والظاهر أن سعد بن مسعود الثقفي لما أدرك الخوارج بالكرخ وناوشهم القتال قتل جماعة من أصحابه، ودفنوا في غربي أرض الكاظمية، في موضع عرف في أيام بني العباس، بمقابر الشهداء وقد اشتبه أمرهم على ابن الجوزي في تاريخه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: لم أزل أسمع العامة، تذكر أن مقابر الشهداء، قبور جماعة من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كانوا شهدوا قتل الخوارج بالنهروان، وارتثوا في الوقعة ـ أي أصابتهم جراحات ثقيلة، ثم لما رجعوا أدركهم الموت في ذلك الموضع فدفنهم علي (ع) هناك. وقيل إن فيهم من له صحبة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم. قال ابن الجوزي "ولا نعرف لهذا الذي يقال لهذه المقبرة أصلاً، وقد كان حمزة بن محمد بن طاهر ـ وكان من أهل الفهم وله قدم في العلم ـ ينكر ما قد استمر عند العامة، من ذلك ويقول: لا أصل له"[٢] والذي يظهر لي أنهم قتلوا بقيادة سعد بن مسعود كما ذكرت من قبل.

أما جامع المنطقة فقد قال فيه ابن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩هـ في كتابه مراصد الاطلاع ص ٢٢٩: "سونايا قرية قديمة كانت ببغداد، ينسب إليها العنب الأسود، الذي يتقدم ويبكر على سائر العنب، ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة؛ وصارت محلة من محالها وهي العتيقة، وبها مسجد لعلي بن أبي طالب يعرف بمشهد المنطقة".

وذكر هو أيضاً جامع براثا في كتابه المذكور وإفاداته جامع للشيعة آخر.

إن جامع براثا قد كان قرب مجرى الخر وزالت آثاره قبل عصور.

❖ ❖ ❖

---

(١) تاريخ الطبري في حوادث سنة ٣٧ ج ٦، ص ٤٢ ـ ٣ و ٤٧.

(٢) المنتظم ج١، ص ٩٨ ـ ٩.

جامع الحيدرخانة
عمارته وموضعه

✍ أسامة ناصر النقشبندي

جامع الحيدرخانة من الجوامع الكبيرة في بغداد يقع في منطقة الحيدرخانة "وإليها نسب اسمه"[(١)] ويطل على شارع الرشيد بواجهة واسعة تتوسطها الباب الرئيسة للجامع وعلى شمالها باب أخرى.

شيد هذا الجامع داود باشا آخر الولاة المماليك الذين حكموا بغداد من سنة ١١٦٣ - ١٢٤٦هـ (١٧٤٩ - ١٨٣٠م)[(٢)] والذي تحدر من أسرة مسيحية فقيرة كانت تسكن جورجيا، وكان اسم داود باشا في صغر سنه دوايت (Davit أي داود باللغة الجورجية)[(٣)] وقيل (اسكندر كولت)[(٤)].

ولي داود باشا على بغداد سنة ١٢٣٢هـ - (١٨١٦م) واستمر إلى سنة ١٢٤٦م (١٨٣٠م) حيث نصب بعده علي رضا باشا على ولايتها وأرسل داود باشا إلى الأستانة وقضى علي رضا على ما تبقى في بغداد من المماليك. وعين داود باشا بعد ذلك على ولاية البوسنة ثم أنقره وفي سنة ١٢٦٢عأ)١٨٤٥م ولي على مشيخة الحرم النبوي[(٥)] الشريف حتى وفاته.

وصف الجامع:

يتكون جامع الحيدرخانة من بناء مربع يشتمل على ساحة واسعة وحرم للصلاة (مخطط - ١) تعلوه قبة كبيرة تكتنفها قبتان أصغر منها. بنيت هذه القباب من الخارج بالقرميد الملون وحليت رقبة القبة الكبيرة بحزام كتبت عليه سورة الليل "والليل إذا يغشى..." وآية الكرسي "الله لا إله إلا هو الحي القيوم..."[(٦)] وسورة الشمس "والشمس وضحاها..." وعن

---

(١) لعل حيدرا المنسوبة إليه المحلة هو حيدر جلبي الشاهبندر من معاصري محمد باشا الخاصكي الذي ولي بغداد سنة ١٠٦٧هـ - ١٦٥٦م. د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة. دليل خارطة بغداد ص ٢٣٦.

(٢) سليمان فائق - تأريخ المماليك (الكولة مند) في بغداد ص ٨٥. بغداد ١٩٦١.

(٣) د. يوسف عز الدين - داود باشا ونهاية حكم المماليك في العراق ص ٦١. بغداد ١٩٦٧.

(٤) عماد عبد السلام رؤوف. فهرس مخطوطات جامع سيد سلطان علي. (ورد اسم اسكندر كولت داود باشا في نهاية مخطوط ناقص الأول محفوظ في خزانة جامع سيد سلطان علي).

(٥) محمود شكري الآلوسي - مساجد بغداد وآثارها ص ٣٦. بغداد ١٣٤٦هـ.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

يمين هذه القباب ارتفعت منارة الجامع التي سبق أن سقطت وأعيد بناؤها على الأسس القديمة سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) وأمام مدخل المصلى الشتوي رواق معقود تعلوه خمسة قباب صغيرة ولهذا الرواق مدخل كبير مقابل باب الحرم وإلى جانبيه أربعة مداخل اصغر منه والمدخل الكبير ذو قوس مدبب يتصل من الخارج بقوس مدبب آخر أعلى منه وتصل بين القوسين الأعلى والأسفل دلايات ومقرنصات تتوسطها آية قرآنية وكتابة تؤرخ بناء الجامع. ويحيط بالحافة العليا للبناء شريط من الزخارف الهندسية الحصيرية على شكل معينات متكررة وقد ظهر هذا الشريط على جميع الجدران الخارجية للجامع.

كما يشتمل الجامع على مصلى صيفي مرتفع قليلاً عن ساحة الجامع يتوسطه محراب عمل من القرميد الملون وإلى جانبيه حنيات ذات أقواس مدببة وكتابات بالخط الكوفي المربع. وقد أزيل المحراب وواجهة المصلى الصيفي في التغييرات الأخيرة.

بلطت أرضية الجامع عند تشييده بالمرمر وجلبت له أعمدة من الرخام من الأقطار الأخرى[1] استخدمت في بناء مداخل الأروقة وأبواب الحرم، كما عمل له منبر من الرخام يعد تحفة فنية رائعة زين بزخارف نباتية بارزة أجادت في حفرها ونقشها يد فنان ماهر ومقابل المصلى الشتوي والصيفي شيدت غرف استعملت من قبل القائمين على الجامع ومدرسة سميت بالمدرسة الداودية أو مدرسة داود باشا حليت واجهاتها بحنيات مدببة وزخارف من القرميد الملون. وللجامع ثلاثة أبواب بابان على الضلع الجنوبي وباب على الضلع الغربي منه وقد حلت واجهات الأبواب بزخارف وكتابات وجدت أجزاء منها وأدخلت عليها بعض الإضافات في فترات لاحقة من بناء الجامع.

تاريخ بناء الجامع والنصوص الكتابية:[2]

تم الفراغ من بناء الجامع سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) كما تنص على ذلك الكتابات التي ثبتت في أماكن متعددة منه. ففوق مدخل المصلى الشتوي حفرت كتابة على الرخام تؤرخ بناء الجامع نصها:

"أنشأ وعمر هذا الجامع الشريف في أيام خلافة خليفة الرحمن السلطان محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان دام ملكه الوزير المعظم والدستور المكرم كوكب فلك السعود أبو الفتوحات داود دام ظله وإقباله في سنة ١٢٤٢ل).

(١) محمود شكري الآلوسي. مساجد بغداد ص ٢٢. بغداد ١٣٤٦.

(٢) أشرت إلى النصوص الكتابية عندما تناولت تاريخ بناء الجامع والتعميرات التي أجريت عليه في فترات لاحقة.

وفوق مدخل الرواق في نهاية الدلايات كتابة نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. وقد عمر هذا الجامع الشريف والمعبد الساطع المنيف فاتحة الملوك والوزراء التي عقمت بمثله الأمهات والآباء الفائز بالحكمتين العلية والعملية الحائز للرئاستين الدينية والدنيوية القهرمان الأعظم والخليفة المعظم كوكب فلك السعود أبو الفتوحات الوزير داود أعلا الله كعبه وأباد حسوده وأبقى لنا ظله وعدله إنه عليه قدير".

وفوق الباب التي تتوسط الضلع الجنوبي للجامع أبيات أرخت سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) نصها:

إذا افتخر الباني بتشييد ما بنى	فداود أولى أن يكون له الفخر
بنى جامعاً كل المحاسن جامعاً	مزاياه جلت أن يحيط بها الحصر
على الدهر يخشى من قويم بناءه	إذا ما المباني ثل أركانها الدهر
فسيح مصلاه رحيب فناؤه	منيف الذرا ينحط من دونه النسر
كأن دوي النحل في عرصاته	دوي المصلين الذين لهم ذكر
وخص بروحانية دون غيره	لذلك مهما جئته انشرح الصدر
فلا ضيم منشيه ولا فل حبله	ولا ناله ضد ولا مسه الضر
ولا زال من وافاه يدعو مؤرخاً	(لداود عن تشييد جامعه الأجر)

١٢٤٢هـ

إلا أنه يظهر أن النقوش والكتابات لم تكتمل في سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) واستمر العمل بها إلى سنة ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م) يتضح ذلك من الكتابات التي دونت في أماكن متعددة من الجامع والتي أرخت سنة ١٢٤٣ هـ فقد كتبت على الشريط الأعلى لجدار القبة الداخلي بخط الثلث وبلون أزرق على أرضية بيضاء آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم...) وقد كررت هذه الآية ثلاث مرات على نفس الشريط إلا أن الخطاط أخطأ في كتابة التأريخ في المرة الثانية حيث كتب (سنة ١٤٣٣) بدلاً من (سنة ١٢٤٣) فقدم رقم (٤) على رقم (٢) وفي المرة الثالثة لم يكمل الآية وأنهى الكتابة في (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما). أما الشريط الذي يقع أسفل منه فقد كتبت عليه بخط الثلث وبلون أبيض على أرضية زرقاء سورة الليل (والليل إذا يغشى...) وفي آخرها كتب (في سنة ١٢٤٣ حسن النقاش) وفوق محراب المصلى الشتوي كتابة نصها: (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً صدق الله العظيم ١٢٤٣هـ)[1] كما أن الأبيات التي دونت فوق الباب التي تقع في الضلع الغربي للجامع أرخت في سنة ١٢٤٣هـ ونصها:

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٨.

ذا من بيوت بإذن الله قد رفعت للذاكرين بتسبيح وتحميد
على تقى الله بالإخلاص أسسه ذو العلم والحلم والإنصاف والجود
داود من قد حكى فينا خلافته نص الكتاب بلا شك وترديد
فقام فيها بأمر الله منتدباً لها بأصوب اتقان وتسديد
وظل يستبق الخيرات محتسباً مذ كان عنها سواه ثاني الجيد
فكم بنى جامعاً للعاكفين وكم للعلم شيد مغنى اي تشيد
لكي ينال بدنياه الثناء وفي عقباه يلقي الرضا من خير معبود
فقل لذي الصنع اقصر يا مؤرخه (كفى بذا جامعاً من صنع داود)

١٢٤٣هـ

وفوق هذه الأبيات واجهة منقوشة بالقرميد الملون يتوسطها مربع كتبت في وسطه كلمة "محمد" كررت مرتين بصورة معكوسة وأحيطت بكلمة "علي" كررت ثماني مرات وامتدت نهاياتها وتشابكت لتشكل نجمة ذات ثمانية رؤوس، وفي الركنين العلويين من هذا المربع كتبت كلمة (الله) بالخط الكوفي المربع أيضاً.

ويتضح من هذه النصوص جميعاً أن بناء الجامع تم في سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) وكملت الكتابات والنقوش المختلفة سنة ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م) على يد خطاط ماهر يدعى حسن النقاش وقد ظهر اسمه على شريط القبة الداخلي وعلى الكتابة الموجودة فوق طاق مدخل الرواق المطل على فسحة الجامع التي سيأتي ذكرها والتي جددت سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م) ولم يبق من الكتابة الأصلية سوى (حا حسن ١٢٤٢).

التعميرات:

بعد فترة من بناء الجامع جرت عليه تعميرات واستحداثات ثبتت تواريخها في أماكن متعددة من الجامع فقد سقطت منارته التي شيدها داود باشا وتصدعت أركانه ويمكن تحديد هذه ا لتعميرات بفترتين.

التعمير الأول:

جرى أول تعمير للجامع سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م) تناول الواجهة الإمامية المطلة على فسحة الجامع والباب الجنوبية الشرقية وواجهة المصلى الصيفي. نستدل ذلك من الكتابات التي أضيفت على هذه الأجزاء والتي أرخت سنة ١٣١١هـ. فعلى الواجهة المطلة على فسحة الجامع دعاء كتب بخط الثلث وبلون أصفر على أرضية زرقاء نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وفي

نهاية هذا الدعاء كتب (تجدد ١٣١١هـ) وتحتها (حا حسن ١٢٤٢) والتأريخ الأخير من بقايا الكتابة التي كانت موجودة قبل هذا التعمير.

أما الباب الجنوبية الشرقية فقد دونت عليها أبيات أرخت سنة ١٣١١هـ رفعت وجددت في التعميرات الأخيرة التي قام بها ديوان الأوقاف والتي بدأت سنة ١٩٦٥م ونصها:

قد كان داود بنا جامعاً	يذكر فيه اسم الإله المجيد
أسس بالتقوى وكم قد حوى	من شامخ سام وركن مشيد
لكنه من بعد ما قد حكى	في سمط جيد الدهر عقد فريد
أقوت لطول العهد أركانه	حتى لقد قارب من أن يبيد
فبينما وهو على حاله	يشكو ولا يلقى له من معيد
إذ عمه لطف مليك الورى	فكان من نعمته في مزيد
سعى إلى الله بتجديده	لا خاب مسعاه بيوم الوعيد
وقد عفت أرخت (أركانه	أعادها الخاقان عبدالحميد)

١٣١١هـ

كما تجدد في هذه الفترة مصلى الجامع الصيفي وكتب فوق محرابه (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)[1] وفي وسط تجويف المحراب طرة كتب داخلها (تجدد المحراب ١٣١١) وعلى جانبي المحراب كتابة بالخط الكوفي المربع نصها: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) (مخطط رقم - ٣) وعلى يمين المصلى الصيفي عند باب الجامع مربع عليه كتابة تساقطت بعض أجزائها منها (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وتحتها (الراسم عبد الجبار ١٣١١)[2].

بدأ هذا التعمير سنة ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م واستمر إلى سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) وتناول إعادة بناء منارة الجامع الحالية وواجهته المطلة على شارع الرشيد وبعض الأجزاء المتصدعة من الجامع كما أضيفت واجهات فوق أبواب الجامع الثلاثة. فعلى الباب الجنوبية الشرقية أضيف شريط كتب عليه (قال الله تعالى جل شأنه وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحد جدد ١٣٤٢هـ)[3] وفوق هذا الشريط قوس مفصص زين بالقرميد الملون في وسطه مربع كتبت عليه كلمة (الله).

أما الباب الجنوبية التي تتوسط واجهة الجامع المطلة على شارع الرشيد فقد أضيفت فوقها واجهة مربعة حليت بزخارف من القرميد الملون دون عليها شريطان من

---

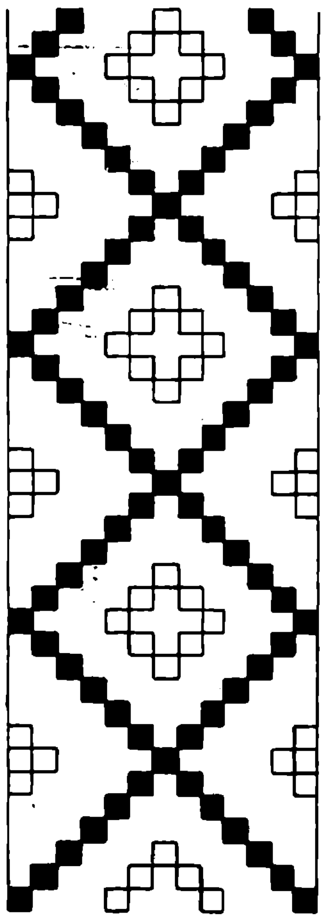
(١) سورة النساء، الآية ١٠٣.

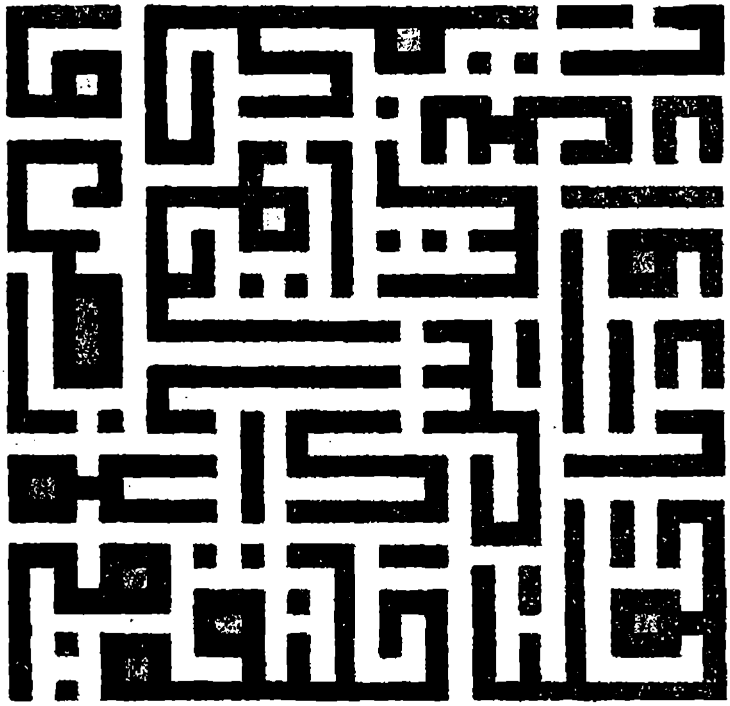
(٢) هو الخطاط عبد الجبار الشيخلي البغدادي وجدت له عدة كتابات على العمائر الإسلامية في بغداد.

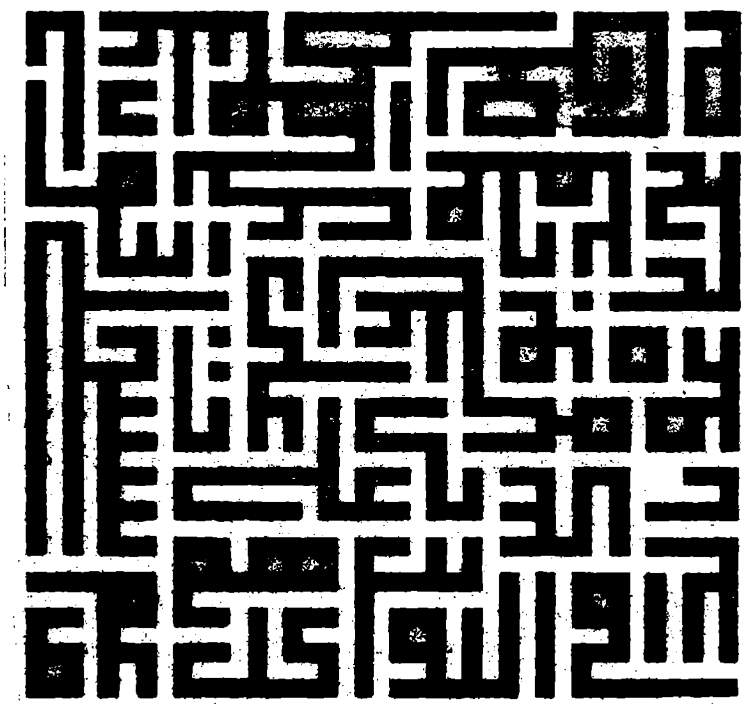
(٣) سورة الجن، الآية ١٨.



جامع الحيدرخانة.







الكتابة في الضلع الأعلى والأسفل كتبها الخطاط صابر[1] سنة ١٣٤١هـ كتب على الضلع الأعلى:

ذا جـــــامع قـــــد تـــــشيد	**فيـــــه الملائـــــك تـــــسجد**
داود قـــــد نـــــال أجـــــراً	**مـــــع الثـــــواب المخلـــــد**

١٣٤١ صابر

وقد كتبت كلمة (محمد) بين البيتين وكررت بصورة متقابلة ومتداخلة وتحت جانبي هذا الضلع مربعان كتبت في كل منهما كلمة (محمد) وكلمة (علي) كررت كل منهما مرتين.

أما الضلع الأسفل فقد كتبت عليه الآية القرآنية القرآنية (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)[2] وكتب في نهاية الآية تأريخ ١٣٤٠هـ باللون الأسود. وتتوسط هذه الواجهة طرة مزخرفة في داخلها مربع كتب بالخط الكوفي المربع (لا إله إلا الله محمد رسول الله) لقد سقطت هذه الواجهة وزالت معالمها. (شكل رقم - ٦).

كما وأضيف فوق الباب الغربية للجامع قوس مفصص من القرميد في وسطه مربع كتب عليه بالخط الكوفي المربع (سبحان ربي العظيم وبحمده) وعن يمينه كتبت كلمة (يا سلام) وعن يساره (يا مؤمن).

وخلال هذه التعميرات بنيت منارة الجامع الحالية على الأسس القديمة للمنارة التي شيدت عند بناء داود باشا للجامع. وقد ورد خبر تشييدها في جريدة العراق التي كانت تصدر ببغداد بعددها المرقم ٥٣ الصادر في ٢ آب ١٩٢٠م ونصه: (في شهر مايس ٩٢٠ كمل بناء منارة جامع الحيدرخانة من قبل الأستاذ الحاج عبودي على الأساس السابق الذي كشفته هيئة متشكلة من معمارية ذوي خبرة لأنه في غاية المتانة). وقد حليت المنارة بزخارف وكتابات من القرميد. فعلى بدن المنارة دونت كتابات بالخط الكوفي المربع منها (ولا إله إلا الله) (الله أكبر) و(محمد رسول الله) إلا أن النقاش لم يراع ضبط كتابة الكلمات بصورة صحيحة فكتب كلمة (الله) بدلاً من (إله) وحذف حرف اللام في رسول ودمج حرف الألف مع حرف الكاف في أكبر (شكل رقم - ٧) ويظهر من ذلك أن النقاش قصد الغرض الزخرفي من استعماله للكتابة وكذلك نرى هذا الغرض واضحاً في الكتابة الكوفية التي دونت على البدن الأعلى للمنارة وهي (محمد رسول الله) حيث حذفت اللام في رسول.

---

(١) هو الخطاط الحاج محمد علي الفضلي المعروف بصابر البغدادي المتوفى سنة ١٩٤٢م.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٨.

وتحت مقرنصات حوض المنارة شريط كتابي بالخط الكوفي ذي النهايات المزخرفة نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)[1] وعلى حوض المنارة رسمت كواكب مثمنة الرؤوس عددها (١٦) كوكبة كتبت في كل واحدة كلمة (الله) وكلمة (محمد) وفوق البدن الأعلى للمنارة شريط كتابي بالخط الكوفي المربع نصه (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)[2].

أما قاعدة المنارة فقد بنيت واجهتها بثلاثة أضلاع وحليت بزخارف هندسية حصيرية وفي أعلى ضلعها الشمالي مستطيل كتبت عليه كلمة (محمد) بالخط الكوفي المربع كررت ست مرات وعلى الجهة اليمنى مربع كتب عليه بالخط الكوفي المربع أيضاً (ناد علياً مظهر العجائب تجده عوناً لك في النواب كل هم وغم سينجلي بنبوئتك يا محمد وبولايتك يا علي يا علي يا علي يا علي). وقد أزيلت الكتابة الأخيرة في تعميرات سابقة.

تحقيق موضع الجامع:

لم يرد أي نص مما سبق ذكره من النصوص الكتابية التي دونت في أماكن متعددة من الجامع ما يشير إلى وجود جامع أو مسجد كان مشيداً على أرض جامع الحيدرخانة قبل قيام داود باشا ببنائه سنة ١٢٤٢هـ. غير أن الكتابة التي أرخت بناء الجامع والتي حفرت على الرخام فوق باب المصلى الشتوي تنص على كلمتي (أنشأ وعمر...) تجعلنا نحتمل أن يكون بناء جامع الحيدرخانة في أيام داود باشا تعميراً لجامع قديم وإنشاء لجامع جديد لأن ورود كلمة عمر إلى جانب كلمة أنشأ إنما أريد منه إعطاء معنيين معنى التعمير ومعنى الإنشاء. فالتعمير يعني الحياة والديمومة.. قيل.. يَعْمرُ ويعمِر كلاهما يعني عاش وبقي زماناً طويلاً[3] أما الإنشاء فيعني الابتداء فقيل أنشأ الله الخلق أي ابتدأ خلقهم وقيل أنشأ السحاب يمطر أي بدأ وأنشأ داراً بدأ بناءها[4].

وإذا ما رجعنا إلى تخطيط بغداد لوجدنا أن موضع جامع الحيدرخانة يوافق الجامع الذي بنته بنفشة بنت عبدالله الرومية المتوفاة سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م) حضية المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي فقد ورد في كتاب نساء الخلفاء لتاج الدين أبي طالب بن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) أن بنفشة بنت مسجداً كبيراً بسوق الخبازين قريباً من العقد الجديد وأكد هذه الرواية المؤرخ أبو الفرج بن الجوزي في حوادث سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) حيث قال (أنشأ أمير المؤمنين مسجداً كبيراً في السوق عند عقد الجديد وتقدم بعمارته فعمر عمارة

(١) سورة الفتح، الآية ١.

(٢) سورة الإخلاص.

(٣) ابن منظور ـ لسان العرب، ج١، ص ١٧٠. بيروت ١٩٥٥.

(٤) ابن منظور ـ لسان العرب، ج٤، ص ٦٠٢.

فائقة وكسي..)[١] وقد أوضح المرحوم الدكتور مصطفى جواد عند تحقيقه لكتاب نساء الخلفاء عندما جاء على هذه الرواية حيث قال (الظاهر أن سوق الخبازين كان مجاوراً لدرب الخبازين الوارد ذكره في منتخب المختار من ذيل تأريخ ابن النجار (ص ٧٤) ويعرف اليوم بدرب العاقولية شرقي بغداد ويعرف اليوم بسوق الحيدرخانة ولعل المسجد المذكور هو أصل مسجد الحيدرخانة في السوق المذكور)[٢].

وقد عثر أثناء التعميرات الأخيرة على رخامة بيضاء في الزاوية الشرقية كتبت عليها ستة أبيات من الشعر تدون تأريخ بناء مسجد من قبل شخص يدعى حسن سنة ١٢٠٧هـ ونصها:

قد نال أجراً حسن المجتبى	**من ربه لما بنى مسجداً**
ارغمت أنف المدعي ملكه	**وانجز الله لك الموعدا**
دنيا وأخرى فزت في نعمة	**ورحمة تستر فيها غدا**
لله قد بورك من جامع	**به التقى والدين قد شيدا**
إن لله المصلى تمت به	**وفيه كل الناس نالت هذا**
يا حسن لله قد ارخو	**أسسته على التقى المسجدا**

١٢٠٧هـ

ولم نعثر على أثر في المراجع التأريخية ولا بين المساجد الشاخصة في بغداد اليوم على مسجد شيد سنة ١٢٠٧هـ من قبل شخص يدعى حسن، وأغلب الظن أن موضعه هو نفس موضع جامع الحيدرخانة ويناسب موضع جامع بنفشة وأن جامعها هدم وترك وأصبح خرائب ومدافن ولم تستغل أرضه للبناء باعتبارها أرضاً لمسجد رغم أنها تقع في منطقة مزدحمة بالأسواق ودور السكن إلا أن شخصاً حاول استغلالها وادعى ملكيتها فجاء المدعو حسن المذكور اسمه على الرخامة وفوت عليه الفرصة فبنى على تلك الأرض مسجداً صغيراً نستنتج هذا مما ورد في البيت الثاني من القصيدة وهو:

أرغمت انف المدعي ملكه	**وأنجز الله لك الموعدا**

لو ربطنا بين ما ذكر في الروايات التأريخية وما أورده المرحوم الدكتور مصطفى جواد، ووجود الرخامة المار ذكرها بكل محتوياتها وورود كلمتي التعمير والإنشاء لأمكننا القول بأن موضع الجامع الذي بناه داود باشا يوافق جامع بنفشة وأن الأخير أصل لجامع الحيدرخانة[٣].

---

(١) ابن الجوزي ـ المنتظم ج١٠، ص ٢٧٢ طبعة حيدر آباد ١٣٥٩هـ.

(٢) ابن الساعي: نساء الخلفاء (المسمى أمهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء) ص ١١٣ طبعة مصر.

(٣) مجلة سومر ٢٩ (١٩٧٣) ص ٢٤٥ ـ ٢٥٢.

جامع سوق الغزل
أو جامع الخلفاء



✍ عباس العزاوي

جاوبتني الديار وهي سكوت — إن بعضاً من السكوت كلام

إن الجوامع والمساجد من خير ما خدم الأمة في عبادتها، وتحسين سلوكها، وتوليد ثقافتها والاتصال بمجتمعاتها وهذه قديمة وكثيرة جداً. ومنهم من بالغ في عددها في بغداد خاصة. وترددت أسماؤها وتداولت في كتب التاريخ بكثرة وبقدر دوامها وبقائها عامرة تزايدت منافعها، وتكاثرت فوائدها لما قامت به من خدمات دينية وثقافية. والحق أنها مجتمع إسلامي عظيم في ملماته وما أصابته من حوائج ومدلهمات يهرع الناس إليها، وينظرون مصالحهم المهمة فيها، وهي من خير المجتمعات. وقد اندثرت وزالت معالم أكثر الجوامع، أو تغيرت فلم يعد يعرف مكانها، أو أنها انقلبت إلى مؤسسات خيرية أخرى، وعاد بعضها يحمل اسماً جديداً. وكنا نود أن نحتفظ باسمه القديم، فإنه خير ذكرى.

ومما بقي من الجوامع القديمة في الجانب الشرقي من بغداد في يسار دجلة (جامع الخلفاء) ويرجع إلى العهد العباسي الأول، عاش أكثر من ألف سنة، إلا أنه اعتراه من نوائب الزمن ما اعتراه فعاد أطلالاً بالية. ولم يبق منه إلا جامع صغير فيه مدرسة، وله منارة قديمة تعرف بـ(منارة سوق الغزل) وأن الجامع المذكور يقال له (جامع الخليفة) أو (جامع سوق الغزل). أو (جامع الخلفاء)، فلم يقطع في أصل اسمه لما انتاب بغداد من حوادث فلم تتعين عندنا خطط بغداد بحالة لا تدع ريباً من جراء ما كان من مواطن معروفة على شاطئ دجلة أو في مقسم المياه، ومواطن الشوارع، وفي مجاري الأنهار أو الأبواب، والمحلات الموجودة لكثرة ما أصابها من تغيرات فكل هذه لم تعين المواطن بوضوح، ولا عرف محل قصر المأمون ولا جامع القصر، ولا المسجد الجامع (جامع الرصافة) وهو جامع الخليفة المهدي فلا يلام الباحث والنصوص محدودة، ولا شك أنه يعذر صاحب الرأي في إبداء رأيه. إن إهمال هذا الجامع مدة دعا إلى وجوه التسمية، ولم يعد يعرف تاريخ إنشائه، أو اسمه الأصلي، ومن ثم سمي بالتسميات المذكورة، وأن معرفته بـ(جامع الخلفاء) لا تتجاوز ثلاثمائة سنة تقريباً، وأول ما وصل إلينا خبر ذلك كان في رحلة (أوليا جلبي). وذكره بعده مرتضى آل نظمي صاحب (كلشن خلفا) في تاريخ بغداد، وفي جامع الأنوار في مناقب الأبرار وهما باللغة التركية.

وإن تسميته بـ(جامع سوق الغزل) ترجع إلى (عهد الجلايرية) أيام السلطان أويس، فإن مربيته (دايته) تسمى مخدوم شاه، وتقلب بـ(ايكجي) ولهذه السيدة الفاضلة مدرسة عظيمة في هذا الجامع وكذلك دار شفاء على جانب دجلة، والملحوظ أن (سوق الأيكجية) هو سوق الغزل وملكت فيه العمارات. و(الأيكجية) كلمة تركية تعني أصحاب المغازل وتطلق توسعاً على أصحاب المغازل والغزل، فغلبت عليه هذه التسمية إلا أننا لا نجزم بصحة التسمية من طريق اللفظ. والمرء لا يسعه إلا أن ينبهر من سعة الجامع وبعد المنارة عنه.

إن اختلاف الآراء دعا أن يوضح عنها، ويبسط القول فيها.

١ ـ القول بأنه جامع المستنصر:

المستنصر بالله هذا خليفة مشهور. وأن جامعه صح أن يقال إنه (جامع الخليفة). فالإضافة إليه صحيحة سواء كانت نسبة اختصاص أو ملك.

قال نيبور:

"وقد قام المستنصر... بتشييد جامع كان آية في الفن والجمال، وذلك في المحلة المعروفة بـ(محلة سوق الغزل) ولكنه لم يبق منه سوى منارته وواجهة سوره الذي يحتوي على مدخلين اتخذ أحدهما قهوة قذرة حقيرة. وقد شاهدت على هذا الباب كتابة تشير إلى باني هذا الجامع وهذا نصها:

أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الل تعالى معالم الإسلام بهمته العالية، وأزهى دعائم الإيمان بإيالته وذلك في سنة ٦٣٣هـ[1] ـ ١٢٣٦م".

وعلق على هذا النص المستشرق الفرنسي المعروف الأستاذ (لويس ماسنيون) المتوفى في ٦ تشرين الثاني سنة ١٩٦٢ مشتبهاً من أن الجامع للخليفة المستنصر بالله. وله الحق. وذلك لأن المؤرخين لم يتعرضوا لذكر جامع له في هذا التاريخ. وغاية ما يقال إنه ـ على فرض الصحة ـ عمر الباب، أو أعاد قسماً من العمارة، فلا تقوم حجة للقول بأنه جامعة ولا لمن عول عليه يشكل له دليلاً. لأن اسم هذا الجامع (جامع الخليفة) معروف قبل هذا وذكره ابن جبير في رحلته.

---

(١) رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر ص ٣٢ ترجمها عن الألمانية الدكتور محمود حسين الأمين ـ راجعها وعلق عليها ووضع فهارسها الأستاذ سالم الألوسي. طبع القسم الأول منها سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م بمطبعة شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ببغداد من مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد. والملحوظ أن صاحب الرحلة قدم بغداد في خريف سنة ١٧٦٥م. وبقي فيها حتى ٣ آذار سنة ١٧٦٦م. هذا مع العلم بأن أمر الخليفة بعمله لا يدل على إنشائه مجدداً.

هـذا. ولـو أغفلنـا الحقيقـة، والتفتنـا إلى الترميمـات أو الـتعميرات لوقعنـا بأخطـاء عظيمـة لا تغتفـر. إذ مـن المحتمـل أنـه نالـه الخـراب، أو تضعـضع بنـاؤه فعمـره الخليفـة المستنصر بالله فلا يصح أن يسمى بجامعه. بل إن هذا لا يفقده اسمه الأصلي مما يستدعي التحري عنه... وقد ضاعت ـ وللأسف ـ أسماء جوامع كثيرة وصارت تدعى بأسماء من عمرها بعض العمارة وأهمل الاسم الأول وأصبحت جملة من جوامعنا لا يعرف بانيها الأصلي أو واقفها الحقيقي. وأمثلة ذلك كثيرة. ولكن هذا الجامع لم يحصل فيه تبدل، وتجديد بحيث ينسى اسمه الأصلي كما أننا لم نجد أيضاً نصاً صريحاً يجعلنا نقطع بأنه من مؤسسات هذا الخليفة.

ومن تعميرات هذا الخليفة لهذا الجامع ما جاء ذكره في الكتاب المسمى بالحوادث الجامعة قال في حوادث سنة ٦٣٥ هـ ـ ١٢٣٨م:

"وفي آخر شعبان انتهى من عمارة باب جامع القصر مما يلي الرحبة وفتح، وفتحت المزملة التي عملت بالجامع المذكور أيضاً"[١] أ هـ.

٢ ـ القول بأنه (جامع الرصافة) أي (جامع الخليفة المهدي):

جاء في كتاب الأنساب للسمعاني:

(الرصافة محلة ببغداد عند باب الطاق وبها الجامع الحسن الكبير للمهدي) فهنا عين بصورة قطعية أن الرصافة عند باب الطاق وبها جامع الخليفة المهدي وهو بعيد عن جامع الخلفاء.

وفي كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس:

المهدي هو الذي بنى جامع الرصافة وتربته بها[٢]. فهل تصح نسبته إليه عند الإطلاق؟

هذا لا قائل به وهو محل نظر. فالجامع مندرس، ولم يبق له أثر.

جاء في كتاب تاريخ مساجد بغداد وآثارها تأليف المرحوم الأستاذ محمود شكري الألوسي المتوفى ببغداد في ٤ شوال ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م وتهذيب الأستاذ محمد بهجة الأثري ما نصه:

"بناه الإمام محمد المهدي في أوائل خلافته وذلك سنة ١٥٩هـ في رصافة بغداد في الجانب الشرقي منها"[٣].

---

(١) الحوادث الجامعة ـ مطبعة الفرات بغداد سنة ١٣٥١هـ.

(٢) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس تأليف ابن دحية الكلبي طبع بمطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م بتحقيقي ومقدمتي ص ٣٢.

(٣) تاريخ مساجد بغداد وآثارها طبع بمطبعة دار السلام بغداد سنة ١٣٤٦هـ ص ٣٩.

وقد علق الأستاذ يعقوب سركيس (المتوفى في ٢٤ كانون الأول سنة ١٩٥٩م) أن نسبة هذا الجامع إلى الخليفة المهدي لا ذكر لها في مخطوطة المرحوم الأستاذ محمود شكري الألوسي وعده من زيادة الأستاذ محمد بهجة الأثري وهذه التفاتة حسنة من الأستاذ يعقوب سركيس يشكر عليها، وتنبيه مفيد للحقيقة والتاريخ[١].

وقد راجعت خزانة مخطوطات المتحف العراقي ببغداد واطلعت على المخطوطتين المرقمتين (١٠٦٤ و ١١٢٠) وهما من كتب الأستاذ الأب أنستاس ماري الكرملي المتوفى ببغداد ٧ كانون الثاني ١٩٤٧م فوجدت صحة ما ذهب إليه الأستاذ يعقوب سركيس. وهاتان المخطوطتان باسم (مساجد دار السلام بغداد) وهو القسم الثالث من كتابه (أخبار بغداد وما جاورها من البلاد) للسيد الأستاذ محمود شكري الألوسي. تم تأليفه في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢١ هـ فالمهذب بالإضافة إلى الزيادة المغلوطة المنوه بها فقد تصرف في (عنوان الكتاب) وكان الأجدر به أن يقتصر على تسميته (مساجد دار السلام بغداد) ولا يخلو الكتاب المطبوع من زيادات غير صحيحة أضيفت ونسبت إلى المؤلف أشرنا إليها في حينها جاء في المحافظة على (نص الكتاب).

٣ . القول بأنه جامع القصر:

هذا الجامع معروف أيضاً وهو قديم متصل بالقصر الحسني. أعني دار الخلافة ولكن نفي الأقوال بأنه جامع المستنصر، أو جامع الرصافة أي جامع المهدي لا يجعلنا نقطع بأنه [جامع القصر] بل هذا يحتاج إلى أدلة تعين أنه هو المقصود بـ(جامع الخليفة) و(جامع سوق الغزل).

وذلك أن الخليفة المأمون أراد أن يبني بـ(بوران) واسمها (خديجة) بنت الوزير الحسن بن سهل. وكان أمهرها ألف ألف دينار[٢]، فقال أبوها للمأمون يا أمير المؤمنين اجعل مهرها أن تبني بها عندنا بقرية (فم الصلح) فأجابه إلى ذلك وبقي هناك نحو أربعين يوماً وعاد إلى بغداد

---

(١) مجلة لغة العرب لسنة ١٩٢٨ ج٦ ص ١٧٧ وفيها تفصيل، وأعاد الأستاذ يعقوب سركيس نشر مقاله هذا في كتابه (مباحث عراقية - القسم الأول ص ١٥٨ طبع ببغداد سنة ١٩٤٨م وفي هذا القسم بحث في منارة سوق الغزل أيضاً من ١٣٢ وما بعدها.

(٢) تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من أهل الزمان المعروف بتاريخ ابن أبي عذيبة ج٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٨ مخطوط في خزانتي للعلامة المؤرخ الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المقدسي المعروف بـ(ابن أبي عذيبة) توفي يوم الجمعة ١٥ ربيع الآخر سنة ٨٥٦هـ - ١٤٥٢م ودفن في باب الرحمة وترجمة المؤلف في كتابنا التعريف بالمؤرخين ج١ ص ٢٣٦ وما بعدها. والنبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص ٤٨ وتاريخ العمراني في خزانتي نسختان منه أحداهما صحيحة ومتقنة. وفي هذه المراجع تفصيل لما قام به الخليفة المأمون من بذل وبذخ لمهرجان الزفاف.

في شوال سنة ٢١٠هـ - ٨٢٥م وبوران بصحبته فنزل القصر الحسني الذي بناه له الوزير الحسن ابن سهل بالجانب الشرقي والذي اشتهرباسم بانيه. انتقل إليه من الجانب الغربي وصار دار خلافة واستمر الخلفاء فيه من بعده.

وعاد جامع القصر مسجداً جامعاً يصلي فيه الناس، وتقام فيه صلاة الجمعة كما تقام في جامع المنصور، وجامع المهدي (جامع الرصافة) فتعين جامع القصر وأنه من القصر الحسني دار الخلافة. وهو جامع الخليفة أو جامع الخلفاء وجامع سوق الغزل وتؤيده أدلة كثيرة منها أنه في المحلة المأمونية، وهي المحلة التي يقيم فيها المأمون في القصر الحسني دار الخلافة، وأن ماء نهر المعلى يأتي إليه وإلى القصر الحسني. قال الخطيب البغدادي: كانت دار الخلافة على شاطئ دجلة، تحت نهر المعلى، وأن القصر الحسني صار دار خلافة في شوال سنة ٢١٠ نزلها الخلفاء بعده.

وأن الخليفة المعتضد من حين ولي الخلافة أضاف إلى الدار ما جاورها ووسعها وكبرها. وعمل عليها سوراً جمعها به وحصنها. وأمر ببناء مطامير في القصر، رسمها هو للصناع، فبنيت بناء لم ير مثله على غاية ما يكون من الأحكام والضيق، وجعلها محابس للأعداء.

وكان الناس يصلون الجمعة في الدار وليس هناك رسم لمسجد، وإنما يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة، ويخرجون عند انقضائها. فلما استخلف المكتفي بالله في سنة ٢٨٩هـ ترك القصر، وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد بناها، وأمر أن يجعل موضعها مسجداً جامعاً في داره يصلي فيه الناس، فعمل ذلك وصار الناس يبكرون إلى المسجد الجامع في الدار يوم الجمعة فلا يمنعون من دخوله ويقيمون فيه إلى آخر النهار. وحصل ذلك رسماً باقياً إلى الآن[1].. إلى أيام الخطيب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠م.

وسمي هذا الجامع بـ(جامع الخليفة) وهذه التسمية قديمة ذكرها الرحالة ابن جبير في رحلته عندما جاء إلى بغداد في صفر سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٤م كما ذكرها ابن بطوطة في رحلته[2].

والملحوظ أن (اوليا جلبي) سماه في رحلته (جامع الخلفاء)[3].

---

(١) تاريخ الخطيب البغدادي ج١ ص ٩٩ و١٠٩.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٠٧ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٨م ورحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ج١ ص ١٣٥ مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٧هـ.

(٣) رحلة أوليا جلبي ج٤ ص ٤١٩ وأوليا جلبي أصله من استنبول ولد سنة ١٠٢٠هـ - ١٦١١م وهو محمد ظلي الدرويش بن قرة أحمد ابن قرة مصطفى وكان والده (مذهبا) للسلطان. ومن أجداده أحمد يسوي الشاعر التركي المعروف ويتصل نسبه إلى كرميان. ورحلته معروفة وتعد من أجل الرحلات - طبعت في عشرة مجلدات باللغة التركية ويتعلق المجلد الرابع بالعراق واختصرها فيض الله بلبل مصاحب السلطان في مجلد واحد. ورد اوليا جلبي بغداد يوم مولد الرسول ١٢ ربيع الأول سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦م.

وجاء في رحلة المنشئ البغدادي سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢٢م ما نصه:

"وفي وسط المدينة - بغداد - جامع الخلفاء والآن منارته في سوق الغزل ولا توجد منارة أعلى منها"[١].

وأن ارتفاع هذه المنارة خمسة وثلاثون متراً[٢] وإلى الآن يسمى هذا الجامع بـ(جامع الخلفاء) وبـ(جامع سوق الغزل) لمجاورته لهذا السوق.

وجاء في (سياحتنامه، حدود) ما ترجمته:

"ومن جوامع بغداد جامع الخلفاء الكائن في المحل المسمى بـ(سوق الغزل)"[٣].

التعميرات على هذا الجامع:

أشرنا إلى التعميرات التي جرت في العهد العباسي وعند سقوط بغداد على يد هولاكو في صفر سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م كان قد احترق هذا الجامع وفي عهد المغول والعهود التالية له جرت التعميرات الآتية:

١ - جاء في الكتاب المسمى (الحوادث الجامعة):

"وفي سنة ٦٧٠هـ - ١٢٧٢م أمر علاء الدين صاحب الديوان[٤] بتجديد عمارة منارة جامع الخليفة وكان صدر الوقوف يومئذ شهاب الدين (علي بن عبدالله) وشرع في ذلك (وانتجزت منارته) في آخر شعبان ثم سقطت في شهر رمضان بعد فراغ الناس من صلاة التراويح ولم يتأذ أحد ممن كان هناك"[٥].

٢ - وجاء في حوادث (سنة ٦٧٨ هـ - ١٢٧٩م):

تم تجديد عمارة منارة جامع الخليفة[٦]. جاء هذا التاريخ واضحاً من الكتابة على حزام المنارة القريب من حوضها فإن المئات وهي ٦٠٠ واضحة وكذا الآحاد وهي ٨ وجاء في الكتاب المسمى الحوادث الجامعة ما يعين أن ذلك كان سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م وأن اسم الوالي (عطا

---

(١) رحلة المنشئ البغدادي للسيد محمد ابن السيد أحمد الحسني. نقلتها عن الفارسية إلى العربية وطبعت ببغداد سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م مصدرة بمقدمتي وتحقيقي.

(٢) مجلة سومر ج ١٠، ص ٢٦٩ سنة ١٩٥٤.

(٣) سياحتنامه حدود مخطوطة خزائنية باللغة التركية في خزانتي ص ٧٠.

(٤) هو علاء الدين عطا ملك الجويني وزير بغداد ولد سنة ٦٢٣هـ - ١٢٣٥م وتوفي في ٤ ذي الحجة سنة ٦٨١هـ - ١٢٨٣م وكانت مدة وزارته ٢١ سنة وتفصيل ترجمته في المجلد الأول من تاريخ العراق بين احتلالين في صفحات عديدة والتعريف بالمؤرخين ج١ ص ١٠٢ - ١١٤.

(٥) الحوادث الجامعة ص ٣٧١.

(٦) الحوادث الجامعة ص ٤٠٨ وقد صورت مديرية الآثار العامة ببغداد هذه المنارة حيث تتجلى الكتابة واضحة.

ملك) قد ذكر في الكتابة في حزام المنارة من تحت الحوض مما لا يدع ريباً في تعميره المنارة إلا أن عمارتها وريازتها من بقايا العهود العباسية فلا تزال الصنعة والاتقان الهندسي والريازة معروفة بل دامت إلى عهد المغول. وما تلاه..

ذلك ما جعل يظنون أنها من العهد العباسي لأن الصناعة لم تنقرض وجاءت منارة ذي الكفل (ع) على غرارها حيث يحكى أن الذي شيدها كان تلميذ المعمار الذي شيد منارة جامع الخليفة ولما أتم بناءها دعا أستاذه. ولما صعد إليها كان في نيته أن يطرح تلميذه منها حنقاً وحسداً فرآه قد نزل من السلم الآخر المشيد في داخلها مما لم يستطع أن يتحمله فرمى بنفسه فمات. وكان ذلك أيام (خدا بنده) وهذه القصة متاقلة وإن الكتابة في حزام المنارة تعين أنها من بناء (خدا بنده) والتعاقب في البناء مشهود.

ولو أمكن أن نقرأ الكتابة على ما تحت الحوض والحزام من الكوفي المضلع لكان الأمر قد أوضح في منارة ذي الكفل ومنارة سوق الغزل ولعل الاستدلال يسوقنا إلى معرفة قسم من المكتوب فيزيل الخفاء أكثر.

٣ ـ ومن التعميرات:

بناء مدرسة في هذا الجامع بنتها (مخدوم شاه) داية السلطان أويس كما تقدم.

وقد احتاج المغول إلى معمارين من بغداد وإلى مهندسين لبناء مدينة (سلطانية) كما أن الأمير تيمور عندما دهم بغداد أخذ المعمارين والصناع لعمارات تقام في سمرقند كما أخذ الفنانين من بلاط السلطان أحمد الجلايري[١].

٤ ـ تعميرات الوزير سليمان باشا الكبير:

قال الأستاذ عبد الحميد عبادة:

"إن التعميرات لهذا الجامع بدأت أيام سليمان باشا الكبير وكان هناك ميلان كبيران شامخان فهدمهما وبنى بأنقاضهما الجامع الموجود اليوم، وتم سنة ١٢٢٤هـ ـ ١٨٠٩م[٢] وقد صرف على بنائه في المرة الأولى ٣٣٧٠٦ قروش صحيحة[٣]. وفي المرة الثانية صرف ٩٠٦٤ قرشاً صحيحاً، فالمجموع ٤٢٧٧٠ قرشاً، والتعمير ثبت وصحح بصورة رسمية"[٤].

---

(١) تاريخ الغياثي المخطوط في خزانتي ص ١٨٣.

(٢) أي في زمن سليمان باشا الصغير.

(٣) تاريخ النقود العراقية. طبع ببغداد سنة ١٩٥٨ ص ١٤٦ ـ ١٤٨ وفيه تفصيل عن القرش.

(٤) العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع تأليف الأستاذ عبد الحميد بن بكر صدقي ابن الحاج إسماعيل عبادة. ج١ ص ١٥٥ ـ ١٥٨ وفيه تفصيل. وفي خزانتي مخطوطة المؤلف بخط يده.

وما جاء في هامش ص ٣٩ للأستاذ محمد بهجة الأثري من (تاريخ مساجد بغداد واثارها) تأليف المرحوم الأستاذ السيد محمود شكري الألوسي. من أن سليمان باشا والي بغداد بنى مسجداً صغيراً بقرب المنارة بأنقاض الميلين سنة ١١٩٣هـ - ١٧٧٩م فهذا غير صحيح لأن سليمان باشا الكبير لم يتول وزارة بغداد إلا في أوائل شهر رمضان سنة ١١٩٤هـ - ١٧٨٠م[1] ولم يكن آنئذ في بغداد. وإنما كان في البصرة في السنة التي ذكرها الأستاذ. وما ذكره الأستاذ عبد الحميد عبادة هو الجدير بالأخذ.

وما جاء في ص ٤٠ من الكتاب المذكور عمر فيها أبو سعيد سليمان باشا والي بغداد في سنة ١١٩٣هـ لا ذكر لهذا التاريخ في المخطوطتين المنوه بهما سابقاً وإنما هو زيادة من الأستاذ الأثري على نص المؤلف.

وقال الأستاذ عبد الحميد عبادة:

إن هذا الجامع باق على ما أنشأه المرحوم سليمان باشا تقام فيه الجمع والأعياد وكان يدرس فيه الشيخ عبدالله أفندي الوسواسي الموصلي[2] القارئ.. قرأت عليه حفص وشعبة في هذا الجامع[3]... وبقي هذا الجامع على وضعه بعيداً عن المنارة.

وهذا صحيح وكنت قرأت عليه بعض علوم الجادة في أوائل التحصيل سنة ١٩٠٦م وكان يدرس في هذا الجامع منذ سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٧م. وهو من علماء الإجازة وكان متقناً للقراءات السبع خاصة وبعد وفاته خلفه في التدريس ابنه الأستاذ محمد.

٥ - وشيد السيد صبغة الله الحيدري الثاني مفتي الشافعية ببغداد سقاية له9ذا الجامع سنة ١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م وتوفي في ١٦ ربيع الأول سنة ١٧٧٩هـ - ١٨٦٢م وهو والد السيد ابراهيم فصيح الحيدري المتوفى ١٥ صفر سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م. وهذه السقاية قد اندثرت فلم أر حاجة للتوغل في الإيضاح عنها.

ما قاله الشعراء في هذا الجامع؟

إن وضع الجامع ومنارته، أثار شعور بعض شعرائنا الأفاضل فذكروا ما اعتراهم من أشجان وما أصابهم من جزع فأبدوا هذا الشعور:

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين وفيه بحث موسع عن سليمان باشا الكبير وسليمان باشا الصغير ج٦، ص ٨٤ - ١٤٩ و ١٨٢ - ٢٠٥.

(٢) ولد سنة ١٢٥٧ رومية بالموصل وتوفي ببغداد في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي وتفصيل ترجمته في لب الألباب المطبوع سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٣م بمطبعة المعارف ببغداد للشيخ صالح السهروردي المتوفى ببغداد في كانون الثاني سنة ١٩٥٧م.

(٣) العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع.

١ـ عبد القادر العبادي[١] المعروف بـ(شنون) المتوفى في أواخر شوال سنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩١٠م قال قصيدته التالية: •

عـــج بالرصـــافة وابـــك الخـــالي[٢] وقـــف بجامعهـــا إن كنـــت ذا بـــال
وانظـــر بعينيـــك في أطـــراف ســـاحته هـــلا تجـــد اثـــراً مـــن شـــامخ عـــال[٣]
فـــذي منارتـــه في الجـــو شـــامخة كـــم أخـــبرت عنـــه في حـــال وفي قـــال
جميلـــة[٤] مـــا رأى الرائـــي كرفعتهـــا قامـــت علـــى ســـاق تبجيـــل وإجـــلال
غريبـــة الـــشكل لا زالـــت تخبرنـــا تغـــير الـــدهر مـــن حـــال إلى حـــال
قـــد عـــشعش الـــذل في أعلـــى دوائرهـــا مـــن بعـــد عزتهـــا في حـــال إقبـــال
تمنطقـــت باســـم بانيهـــا مفـــاخرة أمثالهـــا في زخـــاريف واشـــكال
أطـــال رفعتهـــا المهـــدي[٥] واظهرهـــا للنـــاس اعجوبـــة مـــن بعـــد أميـــال
كانـــت بجامعهـــا تزهـــو ففارقهـــا كرهـــاً بـــآراء فـــساق وجهـــال
لهفـــي علـــى قطـــره المـــأنوس إذ قـــسمت ربوعـــه بـــين كفـــار وضـــلال[٦]
كـــم قـــد وقفـــت (بـــه ابكيـــه)[٧] مـــن اســـف فـــانثني عنـــه ذاهـــم وبلبـــال
وهـــل يفيـــد بكـــاء بعـــدما اختلـــست طلولـــه كـــف جبـــار ومختـــال[٨]
يـــا لعنـــة الله حلـــي قـــبر غاصـــبه وغادريـــه بتعـــذيب وانكـــال[٩]

٢ ـ للمرحوم الأستاذ عبد الرحمن البناء المتوفى ببغداد سنة ١٩٥٥ قصيدة في هذه المنارة قبل إجراء التعمير عليها وكان يظنها من بناء الخليفة هارون الرشيد فآلمه المصاب الذي حل بها نقتطف منها:

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العراق من مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م ج ٢ ـ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ وفيه نماذج من شعره.

(٢) وردت في النسختين وابكي.

(٣) وردت في النسختين عالي.

(٤) وردت في نسخة المتحف مهيلة.

(٥) وردت كذا في النسختين ولم تكن من بناء الخليفة المهدي.

(٦) وردت في نسخة المتحف بالظاء.

(٧) وردت في النسختين (عليه أبكي) ولا يخفي اختلال الوزن.

(٨) وردت في نسخة المتحف (محتال) مصحفة.

(٩) نقلت هذه القصيدة عن مجموعة المرحوم الأستاذ السيد عبد الرزاق الهاشمي المتوفى ببغداد في ١٧ آب سنة ١٩٦٤ وقابلتها على النسخة المخطوطة في خزانة المتحف العراقي ببغداد برقم ١١٢٠ من كتاب مساجد دار السلام بغداد للمرحوم الأستاذ محمود شكري الآلوسي وردت ملحقة في آخره ص ١٥٩.

اماذنة الرشيد شمخت قدرا … وطاولت الجبال الشم فخرا
اماذنة الهدى عمرت دهرا … ولم يبرح بناؤك مشمخرا
عليك من البشاشة نور بشر … إذا ما الكون أصبح مكفهرا
رات أن الأعارب في خمود … يسومهمو العدى خسفا وقسرا
(تغيرت البلاد ومن عليها) … وانت مقيمة دهرا فدهرا
اساسك في بطون الأرض راس … وجسمك في الفضاء غدا معرى
فوضعك لا تبعثره الليالي … وإن لاقيت بردا ثم حرا
فكم قد لاطمتك يد العوادي … وكم عثرت بك الهوجاء عثرا
وخفاق النسيم له حفيف … لديك إذا النسيم عليك مرا
على التقوى بناؤك شيد حتى … يخلد بعده بانيك ذكرا
فيا ذكرى بني العباس أمسى … سميرك في المعالي طاق كسرى
فماذا قد دهاك وكنت قدما … عروسا بالهدى تختال فخرا
وكنت إلى التجلي نور قدس … فصرت إلى حمام الجو وكرا
وكنت إلى الأذان مثار وحي … عن الأذان قد زحزحت وقرا
وكنت الظل للعلما فأمسى … يباع الغزل تحتك ثم يشرى
يصورك الخيال لنا عجوزا … تخدد خدها بالدمع قهرا
اتى من أهلها خبر مسيء … فقلبها الأسى بطنا وظهرا
وقد وقفت بوسط الدار تبكي … على دار غدت بالبين قفرا
ولم يبق الزمان لها وزيرا … تشد به لدفع الضيم أزرا
فأسبلت الذوائب ثم صاحت … أنا الخنساء أبكي اليوم صخرا
لأهلي كان صدر الحكم لكن … ذوو الإعجاز حازوا منه صدرا
فيا زمن العدالة والمعالي … عليك تحية الأعراب تترى[1]

٣ - وكان الشاعر المعروف جميل أحمد الكاظمي أحد الشعراء الذين هزهم منظر منارة سوق الغزل في عظمتها وتاريخها العتيد، حيث وصفها وصفا مسهباً تضمن ما يجيش في خاطره من ذكريات في قفر ساحتها فيما مضى وذلك خلال سنة ١٩٥٠، وهذه نماذج من ملحمته التي بلغت ١٧٣ بيتاً:

منارة سوق الغزل في الحق والذكرى … وفيما ازدهى التاريخ اوحت لي الشعرا
تسامت علوا واستطال شموخها … على الدهر والإيمان يسندها قدرا
يغور بها من اسها عند قفرها … بناء بيمنى الحق انهضها بكرا
مزخرفة الأطواق تنبيك انها … تعالت بأحجار تباهي بها التبرا

(١) ذكرى استقلال العراق ج٢ ص ٣٦ - ٣٨ طبع بمطبعة الفرات سنة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م.

عليها من الفن الجميل دلائل تحقق أن الفن لم يحتمل نكرا
متى جئتها ألفيت صوت مؤذن يرن به الأيمان تبعثه الذكرى
صدى صادح بالحق والجمع تحتها سفوفاً تساموا بالصلاة له جهرا
كطيف خيال مر بالسمع إذ سرى إلى الملأ الأعلى (فسبحان من أسرى)
كأنك في العهد البعيد حيالها تشنف سمعا قد وعيت به الذكرا
تنفس عن صبح بأنفاس واهب أريج طيوب الحق ينفحنا عطرا
فما أطيب الإيمان في ساح جامع تفاوح عن قلب يصابحه طهرا
خلي من الأرجاس لا يعرف الهوى إليه سبيلا أو يميل به شطرا
تجرد عن ثوب المطامع روحه وما ناء بالاثم الذي يقصم الظهرا
وكان لدى ركن من الخمسة التي تقيه عذاب النار في عالم الأخرى
وأنت تسير اليوم في عرصاتها ومنك دموع العين خددت المجرى
هو الدهر لا ينفك يورثك الأسى تباعاً وما ألفيت عن فعله عذرا
فلا تأمنن إقباله فهو مدبر يصافي إذا والى وينهش ان هرا
عقور ومن عاداته الفتك في الورى إذا ما سطا بالناب أتبعه الظفرا
يريك ابتسامات التودد في اللقا وفي الغدر إن جافى تضيق به خبرا
وهب أنك المقدام تدفع شره فهل تعرف الآثار ما يدفع الشرا؟!!
ألم تره في جامع القوم عابثاً ولم يبق للأساس في سوحها أثرا
خلت واستحالت للمطامع موطنا واضحت وفيها الغزل مما ازدهت قفرا
وللطير أقفاص على جنباتها يباع ويشرى بين أربابه جهرا

ومنها:

وقد رمم الملك "الجويني" رفعة فنال به ما طاب من ربه الأجرا
يريك بأن الحق باق وللهوى عواصف تذري الطود في قصفها ذعرا!!
وكم ماد من أطرافها كل شامخ تعالى لعقبان الدهور ضحى وكرا
فما روت الأسفار مني ظامئا يظن معين الكتب في ورده نهرا
أسائل لا أدري ولست بجاهل بما تنطق الآثار أو تبرئ الوقرا؟
فتسمعني هما وللمجد عندها مفاهيم تصريح وما ملكت ثغرا
وأين الذي مني يصفي شوائبا بقايا شكوك النفس تطفو بها حيرى
ويكشف عما قد طوى الدهر عابثا والقى عليه ما دهاه له سترا
وما ذاك إلا شيخ تاريخ أمة بنت للعلى والمجد ما يكسب الفخرا
وأعني به "العباس من آل عزة" فما أهمل التاريخ يودعه سفرا

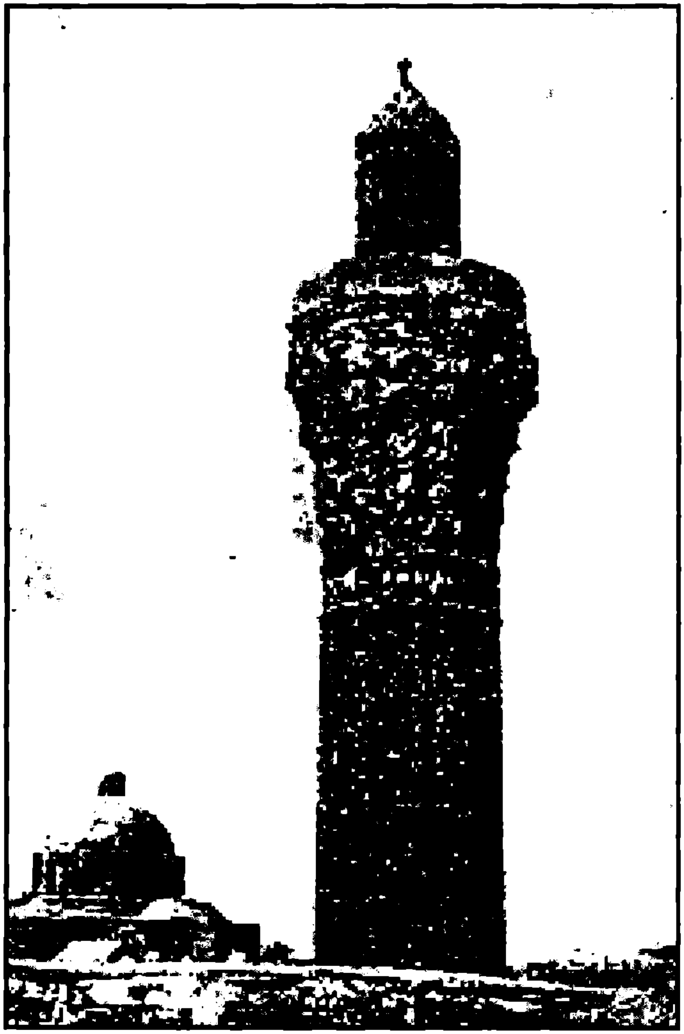
اخــو همـــة لم يثنــه شــغل شــاغل لتحقيــق مــا يبغيــه يــستنزل النــسرا
فكــم أتحــف الأجيــال صــاعدة بمــا طوتــه قــرون الــدهر فيمــا أتــى حــرا
فــلا المــال أغــراه ولا الجــاه مــن هــوى إذا مــا يــراع الحــق في طرســه أجــرى
وللغــير كــم جالــت هنــاك مــع الهــوى بميــدان كــذب القــول وانتحلــت عــذرا
ولم أر للتـــاريخ حـــرا مجـــردا ســواك وفي التحقيــق للحــق منجــرا
تقيــد بالأوضـــاع في كـــل حالـــة فللـــصيت مـــا ادى وللنفـــع مـــا درا
نـــرى نحـــن لـــيلا للحـــوادث حالكـــا علــى أن مــن وهــم يرينــا بهــا الفجــرا
يكذبـــه مـــن واقـــع الحـــال مـــشهد لعينيــك مــا أزرى ومــا ســود العــصرا
فتلقـــاه في ســـود الـــصحائف مـــشرقا كماالكــذب في فجــر مــن الليــل إذا تقــرا
تـــرى الباطـــل المـــذموم طـــي ســـجله فــلا طــاب تاريخــاً ومــن ســحته أثــرى
فحقـــق أخـــي عبـــاس للحـــق والعلـــى تجــد لــي في التكــريم قافيــة أخــرى
ســـتقرؤها الأجيـــال مـــن بعـــد فوتنـــا وتلــك بــسفر الــشعر أودعهــا طغــرا
وللفلـــك الـــدوار أحكـــام ناقـــد فلــم يلــق مــن آثــار مــا دونــوا درا
ومـــا نحـــن إلا الـــيم يقـــذف للـــورى مــن الــدر مــا بــاهى بــه البحــر والــبرا

٤ ـ كما جاشت شاعرية الأستاذ خضر الطائي فنظم قصيدة تعرض فيها لمنارة جامع الخلفاء حيث قال:

تلــك المــساجد عطلــت ومــشى البلــى فيهـــا، ولم تـــر مـــن ســـخي شـــائدا
نـــبني القـــصور ولا نبـــالي أن نـــرى يومـــاً بيـــوت الله صـــرن بوائـــدا
وراى (ســـراج الـــدين) مـــن إهمالنـــا شـــعبا يظـــل عـــن الكرامـــة قاعـــدا
و(لجـــامع الخلفـــاء) مـــاض مـــشرق أبقـــى (منارتـــه) عليـــه شـــاهدا
درجـــت عليـــه مـــن العـــداة نوائـــب لم تلـــق مـــن أحـــد بهـــن مـــساعدا
حـــرم أبـــيح وذمـــة عـــصفت بهـــا هـــوج المطـــامع أن تقـــيم معابـــدا
عمـــل أقـــام الله جـــل جلالـــه لقبولـــه في (المـــشعرين) قواعـــدا

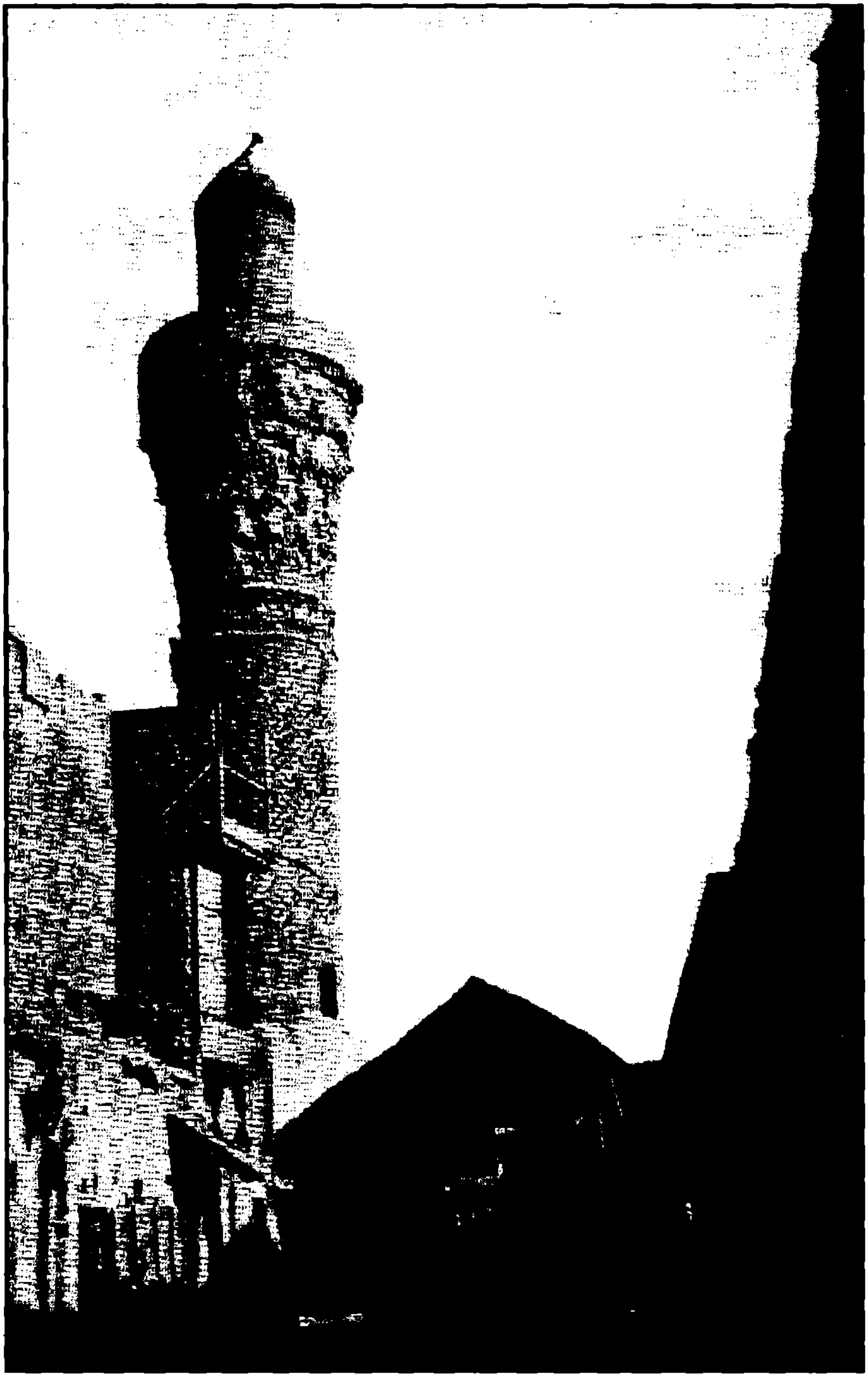
وقد جرت ترميمات على هذه المنارة بعد الحرب العالمية الأولى وتوالى إصلاحها بالشكل المعروف اليوم وقد دخل هذا الجامع في شارع الجمهورية ولم يبق منه سوى منارته فاستملكت الجوانب وعوض عن المأخوذ للشارع، فأضيفت إليه بعض المواطن المجاورة في أطراف المنارة لتتخذ جامعاً يحمل اسم جامع الخلفاء وقد شرع في بناء هذا الجامع ولم يتم بعد.

وإن النفوس تميل بشوق إلى معرفة أصل هذا الجامع، وما دار عليه من أطوار تاريخية أو تود الاطلاع على حياة هذا الجامع وعماراته إلى يومنا هذا وترغب أن يكمل بناؤه فتراه ماثلاً أمام الأعين. ■



منارة سوق الغزل

كما تبدو منذ قرن من الزمان.



منارة سوق الغزل.



منظر لجانب من بغداد - التقط من أعلى منارة سوق الغزل.

منارة جامع سوق الغزل

Le Minaret de Suq al-Ghazl

لم يكتب أحد عن منارة سوق الغزل قبل نحو ثلاثة قرون سوى الإفرنج، أما البغداديون أو غيرهم من العراقيين أو سواهم فلم يرصدوا لها نبذة ولا مقالاً بل لم يذكروه ذكرا.

ولما احتل البريطانيون بغداد، ذهب مهندسوهم إلى رؤية المئذنة وفحصوا ما حواليها، فخافوا سقوطها وإتلافها البيوت التي في جوارها إذا هوت فتدفن حينئذ أصحابها تحت الردم. فعزموا على هدمها حقنا لدماء الخلق، فأوعزت السلطة المحتلة إلى أحد الأدباء المشاهير أن يكتب مقالاً ينشر في جريدة العرب (في سنة١٩١٧) ليهيئ الأفكار لقبول هذا الخاطر الذي أقلق أرباب السلطة المحتلة. فذهب صاحب الجريدة المذكورة يومئذ إلى السر برسي كوكس وأفهمه أن لاخطر على هويها لأنها أصبحت كالصخرة الواحدة، وقد مضت عليها السنون وهي في تلك الحالة التي يظن أنها خطرة وليست بها. فلم يقنع الحاكم المذكور بما قيل له لأنه آلى على نفسه أن ينسفها بالبارود كما نسفت مدخنة «العباخانة» تلك المدخنة التاريخية التي بنيت في نحو سنة ١٨٦٩ وكانت آية في البناء والمتانة والجمال.

فلما رأى مدير الصحيفة المذكورة إن صاحب الزمام لايرجع عن عزمه. أسرع فأخبر بالأمر المرحوم السيد محمود شكري الآلوسي، ليذهب ويقنع برسي كوكس بأن يعدل عن تحقيق ما دار في خلده. فذهب الآلوسي مع مدير جريدة العرب - وهو صاحب هذا المقال - وحملا الحاكم على أن يترك هذه المسألة الآن إلى وقت آخر، إلم يرد أن يعدل عن رأيه. فقنع، وبعد سنتين كلف مهندس البلدية وهو المسيو شافانيس الفرنسي بأن يقوي كرسي المئذنة بما عنده من الوسائل ففعل. وهي اليوم قائمة على ساقها كما كانت سابقا وتضحك من كل من حاول أن ينظر اليها نظرة إلى شيخة متغضنة.

أما مسألة بانيها أو معيد بنائها فبقيت غامضة أشد الغموض. وكل من كتب عنها من الإفرنج منذ نيبهر إلى يومنا هذا. وكذلك قل عن كتبتنا في هذا العصر، فأنهم جميعهم لم يتفقوا في أقوالهم عن بانيها أو معيد بنائها. أما الآن وقد أخذ صديقنا المحقق البحاثة يعقوب نعوم سركيس ينشد عن صاحبها في كتب التاريخ، فلم يبق ريب في معرفة صاحب هذه

المئذنة التي هي زينة الحاضرة ومفخرتها على تعاقب الأيام، وها نحن أولاً نزف هذه العروس عروس الفكر إلى محبي التاريخ والتطلع إلى الحقائق الراهنة.

(لغة العرب)

في نحو وسط جانبنا الشرقي من بغداد في محلة سوق الغزل اليوم منارة منفردة لجامع قديم، تعرف باسم المحلة، كانت في رحبة من الأرض، مستطيلة قليلاً، تكسيرها نحو خمسمائة متر، وفي ثلاث من جهاتها أبواب لدور حقيرة. ثم منذ نحو ثلاث سنوات أحيطت الرحبة بجدار ارتفاعه نحو مترين ونصف. وفي هذه العرصة تباع الغنم صباح كل يوم، والمنارة في نحو وسط هذه الرحبة، وهي شاهقة البناء، تشرف على المدينة وأنحائها من علو لا يماثله علو عندنا [1] وهي كذيالك الشيخ الفرد النادر الذي شوهت وجهه تجعدات العتي، لكنه لا يزال منتصب القامة، متجلداً صابراً على حلو الأيام ومرها. وصبر المنارة على عوامل الطبيعة دليل باهر على تقدم فن الريازة في ذلك الزمن وعلى انتقاء الرزاة مواد البناء من أحسن أنواعها، وإتقانهم صنع الآجر وغير ذلك.

وبمقربة من المنارة في غربيها الجنوبي، على بضع عشرات من الأمتار، مسجد جامع بغير منارة، معروف على الألسنة بجامع سوق الغزل. وإذا استقصينا الخبر من الماضي، عن الجامع التاريخي القديم الذي بنيت له المنارة، أجابتنا صحائف الأخبار: أنه كان يسمى جامع الخلفاء قبل نيف وثلاثة قرون على أقل تقدير كما سيجيء. وبإيغالنا في تاريخه في ما قبل ذلك، نجد أنه كان يسمى في القرن السابع للهجرة وما قبله «جامع الخليفة» أو «جامع القصر».

جامع سوق الغزل غير جامع الرصافة

نشرت جريدة (العرب) البغدادية - في عددها الصادر في ١٤ أيلول سنة ١٩١٧ والمرقم ٣٨ - مقالة بغير توقيع عن جامع سوق الغزل، إنه جامع الرصافة، وإن المنارة التاريخية منارته وشتان بين قولها وبين الحقيقة. ثم نقلت مجلة مرآة العراق [2] تلك المقالة (١: ١٣٢٧هـ - ١٩١٩): ص من ٨ الى ٩ من عددها الثاني.

ومن الغريب أن كاتب المقالة بعد أن استشهد بابن الأثير عن بناء جامع الرصافة في سنة ١٥٩هـ (٧٧٥م) شهادةً لا علاقة لها بجامع الخليفة او القصر، أورد عن الرصافة وجامعها

---

(١) أعلى بناء في بغداد قبة كنيسة اللاتين إذ علوها ٣٢ متراً وهذه المنارة أعلى منها بثلاثة أمتار.

(٢) هي مجلة مصورة صدرت منها أعداد قليلة في البصرة، ثم احتجبت إلى هذا اليوم.

كلام معجم البلدان، وهو ما يؤيد أن محلة الرصافة على مقربة من مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة، وهو المرقد الذي لا يجهله أحد في بغداد، وموقعه في شمالها، يبعد عنها نحو ثلاثة كيلومترات في ما نسميه «الأعظمية» أو «المعظم» على اصطلاح آخر. وذهب أيضاً مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث[1] (ص١٢ح) إلى أن جامع سوق الغزل هو جامع الرصافة وأنه في محلة رأس القرية. والصحيح أنه اليوم في محلة سوق الغزل.

إن ما قاله الكاتبان لا يفوت الكثيرين، لكني رأيت الأجدر أن أنبه على ذلك، ولا سيما أن البحث عن جامع الرصافة وجامع الخليفة أو القصر متداخل بعضه ببعض أحياناً. ولهذا أورد شيئا مما كتب عن ذلك متبعاً اتساق الكلام غير ملاحظ لتواريخ تأليف الكتب، إذ غرضي البحث عن جامع الخليفة ومنارته وبنائها، بعد بياني أن كلاً من هذين الجامعين هو غير الآخر. قال ياقوت في معجم البلدان:

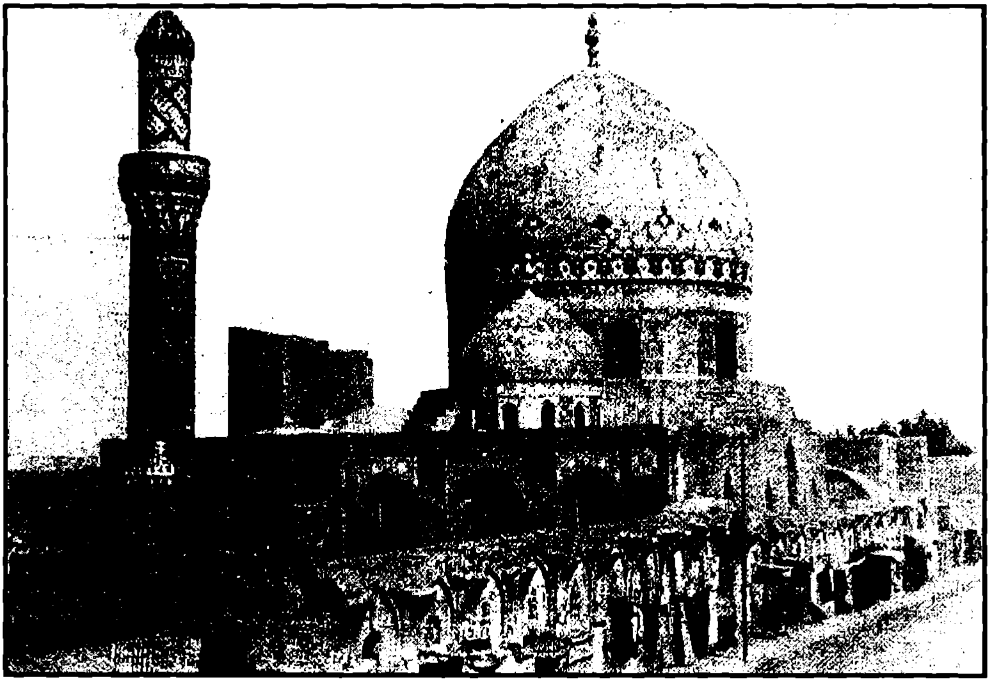
«رصافة بغداد بالجانب الشرقي. لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي، واستتم بناءها، أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي، وأن يبني له فيه دوراً، وجعلها معسكراً له، فالتحق بها الناس وعمروها، فصارت مقدار مدينة المنصور، وعمل المهدي بها جامعاً أكبر من جامع المنصور وأحسن، وخربت تلك النواحي كلها، ولم يبق إلا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس، وعليهم وقوف وفراشون برسم الخدمة، ولولا ذلك لخربت، وبلصقها محلة أبي حنيفة الإمام وبها قبره...»أهـ.

فلا أدري كيف تسنى لصاحب مقالة جريدة «العرب» والمرآة أن يوفق بين ما قرأه أن المهدي بنى جامعاً بالرصافة وبلصقه مقابر الخلفاء... وبلصقها محلة أبي حنيفة وبها قبره. وبين ما يراه بعينه أن جامع سوق الغزل يبعد عن مرقد أبي حنيفة ما يزيد عن ساعة للراجل.(لغة العرب ج١ س٦ (١٩٢٨) ص١- ٥

❖ ❖ ❖

---

(١) بقلم الأديب الفاضل علي ظريف الأعظمي، طبع في بغداد في سنة ١٩٢٦، (راجع لغة العرب ٤ : ٩٢).



مسجد الحيدرخانة.



مقهى في بغداد.

جامع قنبر علي

✍ عباس العزاوي

الجوامع في بغداد في الغالب قام بعمارتها أهل البر نساء ورجالاً، فنفعوا الناس في إقامة شعائر الإسلام ومراعاة العبادات والأمور الدينية الأخرى كما خدموا الثقافة والمعرفة.

وهذا الجامع كان أصله مرقدا وبه عرفت (محلة قبر علي) وكان بجواره مقبرة. ومن أقدم الوثائق التاريخية وقفية هذا الجامع الشريف التي وصلت إلينا وكانت في أيام دولة (آق قوينلو) وهي بتاريخ ١٤ جمادى الآخرة سنة ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م[1].

وغرضنا أن نوضح ما جرى على هذا الجامع، اما المرقد فالتشكيك في نسبته إلى قنبر مولى الإمام علي بن أبي طالب(رض) وارد وليس لدينا سند تاريخي موصول يؤكد أنه (مولى الإمام) ومن المحتمل أنه اتخذ مقاماً، فدفن فيه بعض الصلحاء أو مشاهير الرجال، فاشتهر بمقام قنبر علي، ثم شاع باسمه دون ذكر مقام. أما احتمال الموافقة بالاسم وأن التربة لرجل عرف بهذا الاسم فهذا أمر لا يدعمه دليل بل الشهرة الشائعة تنفيها والوقفية تؤيد خلافها، وتعين تاريخ بناء الجامع يوقف الموقوفات عليه. وجاءت صفحة كاشفة عما جاء في منطوياتها.

جاء في أعلى الوقفية: "تعلق نظري بما فيه وأنا الفقير إليه سبحانه وتعالى عارف مصطفى القاضي بمدينة بغداد المحروسة عفي عنه". وهذا نصها:

"الحمد لله الواقف على ضمائر عباده وأسرارهم، والمالك زمام أمرهم واختيارهم، وفق عباده لإسداء الخيرات وأمكنهم لإيصال المبرات، فتفقد أرباب الهمم بمعروفهم مال أولادهم والأحفاد، بوصول فيوض الرحمة الإلهية من نتيجة الصدقة الجارية على أرواح آبائهم والأجداد، فسبحان من ليس له في حكمه شريك ولا ضد، وليس له فيما أراده معقب ولا ند، سبقت عنايته الأزلية، فهدى من أراد، وأدركت بعضهم الشقاوة الأبدية فاعرض عن الصواب والسداد، لا إله إلا هو المنزه عن الكفو والأولاد، نحمده على ما أولانا من نعمه الجسام، ووفقنا للهداية إلى دين الإسلام، والصلاة والسلام على سيد الأنام، وبدر التمام، ومصباح الظلام وحبيب الملك العلام، الذي بشرت برسالته الأنبياء الكرام، واستبشرت لبعثته البررة الأصفياء العظام، سيدنا ونبينا وشفيع ذنوبنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الذي أرسله الله تعالى رحمة شاملة للأنام، وقرت به عيون المؤمنين من الخاص والعام. فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة باقية إلى يوم البعث والقيام.

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣. ص ١٩٣.

(وبعد) فمضمون ناطق هذا الكتاب، ومكنون صادق ذا الخطاب، المشتمل على الحكمة والآداب، لاحت آثار الصدق من سطوره، وفاحت مخايل اليقين من مزبوره، وأعرب مضمونه وأفصح مكنونه، عن ذكره أنه أقر جناب الصاحب الأعظم، المخدوم الأكرم، الوزير الأعدل الأحكم، جامع الكلمات القدسية والرياسات الإنسية، مربي العلماء، معين الفقراء مشير الملوك والسلاطين، الممنوح بمواهب الإله، بدر الملة والسعادة والدين، الخواجة أمين الدين لطف الله الخازن ابن المغفور له المبرور الخواجة شمس الدين بن محمد ابن الخواجة جلال الدين اسماعيل أعلى الله شأنه، إقراراً صحيحاً شرعياً، واشهد على نفسه طوعاً في صحة منه وجواز أمر أنه (وقف) وحبس وتصدق جميع ما هو له وملكه وبيده وتحت تصرفه إلى حين صدور هذا الوقف المبارك منه، وقد عرف بعض شهود هذا الكتاب صحة ذلك كله معرفة صحيحة شرية على مرقد حضرة قنبر أمير المؤمنين، وإمام المتقين، أسد الله الغالب، علي بن أبي طالب، المدفون بدار السلام بغداد جميع الأراضي والبسوط وأنهار وأهوار جميع القرية المعروفة بحد بوزجة من أعمال طريق خراسان ويحيط بجميع ذلك ويحويه ويشتمل عليه حدود أربعة الحد الأول إلى نهر البازي، والحد الثاني إلى أراضي قراح البغيل ويتم إلى أراضي قازانية، الحد الثالث إلى الشيخ (أبو جوان) والأراضي القازانية، الحد الرابع إلى شط جلولاء[1]، وفيه شرب ماء منه، ذلك كله بعامة حقوق منه ذلك كله وسائر حدوده وبسوطه، ومطارح غلاته، وأنهاره، وأهواره، وأقرحته وأجوبته، وشروبه ودروبه، وسواقيه ومساقيه، وعامره وغامره، وكل حق لما هو منه (وقفا صحيحاً) شرعياً وشرط الواقف المذكور أن حاصل الوقف المذكور أعلاه راجعاً ومصروفاً لتعمير قنبر أمير المؤمنين، ومن بعده لأجل معيشة الفقراء والمساكين شاردين وواردين، لا يباع ولا يوهب ولا يرهن ولا يورث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. وشرط الواقف المذكور أعلاه أن تكون التولية والنظارة إلى جناب زبدة الفقراء وعمدة الصلحاء بيرزاده خليقلي ابن بابا الحاج صالح بن محمد بن اسماعيل البيرزاده، ومن بعده على أرشد أولاده وأولاده أولاد أولاده أبداً ما تعاقبوا وتناسلوا، نسلاً بعد نسل، وعقباً بعد عقب. وشرط المولى الواقف المتصدق المذكور أن لا يؤجر هذا الوقف. وهذا الوقف لا يغير باختلاف الدهور، ولا يؤخذ منه بتجدد الأيام

(١) شط جلولاء هو نهر خراسان المعروف في لواء ديالى وكان يعرف بـ(لواء خراسان) حسب المصطلح الإداري. وكان يسمى (طريق خراسان) وإن كثرة الاستعمال جعلته يسمى خراسان أو كما يقول العوام (خريسان) وأطلق هذا الاسم على النهر لملازمته له أي أنه طريق خراسان فخفف إلى نهر خراسان وهو في الأصل (شط جلولاء) كما ورد في الوقفية. وهو معروف أيضاً لدى آل النقيب وورد ذكره في وقفية السيد الشيخ زين الدين بن شرف الدين القادري المتولى على أوقاف الحضرة القادرية المؤرخة ١٥ رجب سنة ٩٧٨هـ.

والعصور. ثم أخرج المولى الواقف المتصدق المذكور أعلاه هذا الوقف من تصرفه وتملكه وتصرف نوابه ووكلائه وسلمه إلى يد المتولي المذكور وأثبت عليه يد المتولي، وقرره في يده تقرير الأوقاف في يد المتولى. وقبل ذلك قبولاً صحيحاً شرعياً، وأقر المولى الواقف المتصدق الموما إليه أنه قد حكم وقضى بصحة ما صدر عنه من هذا الوقف قاض من قضاة الإسلام، وحاكم من حكام الأنام، جائز الأقضية والأحكام وأمضاه وارتضاه، وأشهد عليه جمعاً كثيراً، فمن بدل شرطاً من هذه الشروط ورسماً من هذه الرسوم، أو سعى في إبطال شيء منه لا قبل الله منه فرضاً ولا نفلاً، ولا حجاً ولا صلاة ولا صوماً ولا زكاة وأثكل الله نفسه، وقصم ظهره، وأعمى بصره، وأيتم ولده، وكان من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، تاريخ الوقف الصادر عن المولى الواقف المتصدق المذكور أعلاه عاشر شهر ربيع الأول من سنة ٨٨٥هـ وكتبه في غرة شهر رجب سنة ٨٩٤هـ وصلى الله على محمد وعلى آله أجمعين.

وجاء اعتراف الواقف بالوقفية بقوله: "بدين موجب است وبرضاي اين فقير است حرره العبد لطف الله بن شمس الدين محمد الخازن عفا الله عنه".

وشهدت على الواقف المذكور أعلاه بذلك في تاريخه وكتب العبد حافظ بن يوسف الشافعي الخطيب السهروردي عفا الله عنهما.

وشهدت على الوقف المذكور في تاريخه وكتب الفقير إلى الله الغني عبدالرزاق بن زين الدين الشافعي عفا الله عنهما.

وشهدت على الصاحب الأعظم الأمجد الأكرم بما وقف في هذا الكتاب وكتبه الفقير المحتاج إلى عفو الغني محمد بن شرف الدين يحيى بن ليث الحسيني النجفي أحسن الله إليه وغفر له ولولاديه وللمؤمنين.

وكذا أقول: العبد الفقير إلى الله تعالى الغني عضد الدين إبراهيم بن شرف الدين يحيى بن ليث الحسيني النجفي أحسن الله له عواقبه في الدارين.

بدين موجب صحيح است حرره العبد الفقير عناية الله بن لطف الله الخازن.

وشهد بما فيه:

العبد الفقير المحتاج إلى رحمة الله تعالى الحاج حسن بن صالح عفا الله عنه.

وشهد بذلك: حرره العبد الفقير علي بن محمد عفا الله عنهما.

الحال كما شرح أعلاه: حرره الفقير اسماعيل بن غضنفر.

كذا أقول: خواجه أحمد بن غضنفر عفا الله عنهما.

كذا أقول: أوستا محمد ابن اوستا حسن النجاري غفر الله له ولوالديه.

شهدت بإقرار الواقف المذكور: العبد الفقير إلى الله الغني محمد بن حمزة الحسيني عفا الله عنهما.

شهدت بذلك: الفقير الحقير رستم بن شرف الدين الدباغ عفا الله عنهما في الدارين.

كذا أقول: اوستا محمد ابن اوستا فولي الخياط عفا الله عنه.

كذا أقول: علي شاه ابن اوستا أحمد النعلبند عفا الله عنهما.

كذا أقول: قاسم بن يوسف الشاهنامه خانه غفر له.

وشهدت بما فيه: العبد الفقير اوستا حسن ابن اوستا محمد الخياط غفر له.

وشهدت بما فيه: العبد السيد محمد ابن السيد أحمد غفر الله له ولوالديه.

وشهد بما فيه: وأنا الفقير اوستا علاء الدين ابن اوستا محمد النقيب غفر له.

شهدت بما في أصله مكتوب وأنا الفقير عبد القادر ابن الحاج أيوب.

والظاهر أن التعليق في أعلى الوقفية كان من قاض عثماني وجاء في آخر الوقفية ذكر قضاة آخرين وهم:

١ - محمد بن محمد، قال:

حين طالعت ظاهر ما في هذا المنظور من المسطور، وهو اعلم ببواطن الأمور وجدتها مطابقة للشرع الشريف فأمضيتها وأنا الفقير محمد ابن محمد القاضي بمدينة بغداد المحمية.

٢ - عبد الله بن محمد، قال:

لما وجدت هذا الكتاب الشرعي الفحوى أجريت قلم القبول والارتضاء وأنا الفقير عبدالله بن محمد المولى بمدينة بغداد المحمية.

٣ - محمد بن علي، قال:

شهدت بما فيه جماعاً وحققته ممن شاهد ما فيه سماعاً وأنا الفقير محمد بن علي.

وجاء في آخرها: "دفتر جديد خاقاني يه قيد اولندى تحريرا في شهور سنة ١٠٠٣هـ".

ثم جاء: "جدد هذا السجل من صورة الأصل وذلك في شهور سنة ١٠٨١هـ".

وقد علمنا من هذه الوقفية أن الواقف من وزراء بغداد كما أوضحت بالتنويه عن ولديه قنبر علي وعناية الله وهما من الشهود.

وهنا لا نمض دون أن نقول: إننا لا نجد علاقة بين ابن الواقف واسم (قنبر علي)، وأما أن أحد ولاة الجلايرية اسمه (قنبر علي) فمشكوك فيه، ولا دليل لدينا أنه دفن في هذا الجامع وأنه مضت مدة كافية ليعتقد الناس فيه أنه قنبر مولى الإمام رضي الله عنه لمجرد المشابهة بالاسم، فيقع في ذلك وزير من وزراء بغداد في عهد دولة (آق قوينلو) بهذا التوهم بحيث يسمى أحد أولاده بـ(قنبر علي) وعلى غلاف شرح ديوان الحطيئة للسكري في خزانة

مخطوطات المتحف العراقي ببغداد أن في حمص قبر قنبر مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقبور أولاد جعفر. وفي هذا ما يدعنا أن نقف بين الشك والشهبة فلا نقطع بأنه المدفون ببغداد مع العلم أنه توفي قبل بنائها.

ومن الوثائق التي تؤيد منطوق هذه الوقفية:

١. رسالة مؤرخة في أوائل المحرم سنة ١٠٥١هـ باللغة التركية. عثرت عليها في استنبول ونقلتها في ١١ آب سنة ١٩٣٩م تبين الأولياء والأنبياء في العراق. فجاء فيها ذكر (قنبر علي) بلفظ (قنبر علينك عبد مملوكيدر) أي (قنبر عبد مملوك لعلي)[١].

٢. جاء ذكره في رسالة بأسماء الأولياء الكرام المدفونين في بغداد والأنحاء الأخرى من العراق. وليس في هذه تاريخ إلا أنها قديمة وترجع إلى حدود الألف أو بعده في القرن الحادي عشر. وهي مخطوطة في اللغة التركية في خزانتي.

٣. أولياء جلبي. جاء في رحلته أنه ذكره باسم (جامع قنبر علي)، وبين أن له منارة، وعد (قنبر علي) بين محلات بغداد المعروفة. وكان قد ورد بغداد في ١٢ شهر ربيع الأول سنة ١٠٦٦هـ - ١٦٥٦م[٢].

٤. ذكره السيد مرتضى ابن السيد علي البغدادي الأديب المؤرخ المعروف بـ(آل نظمي)[٣] المتوفى سنة ١١٣٦هـ ١٧٢٣م في كتابه (جامع الأنوار في مناقب الأبرار) منه مخطوطة في خزانتي باللغة التركية كما توجد نسخة منه في خزانة الأوقاف العامة ببغداد.

وفي خزائن استنبول نسخ عديدة منه في خزانة روان برقم ١٥٠١ التابعة لخزائن سراي طوبقو وفي خزانة حافظ أحمد كوبريلي برقم ٢٥٣، ونقله عن التركية. السيد عيسى صفاء الدين البندنيجي[٤] المتوفى في ١٧ رجب سنة ١٢٨٣هـ - ١٤ تشرين الثاني سنة ١٨٦٦م. بناء على طلب نقيب الأشراف السيد محمود ابن السيد زكريا من آل عبد الرزاق ابن الشيخ عبدالقادر الكيلاني وأن الأستاذ أبا الثناء محمود شهاب الدين الآلوسي الح عليه، ومثله السيد عبد الوهاب إمام الحنفية وخطيب الحضرة القادرية وعبد الرحمن إمام جامع الأعظمية أيام الوزير داود باشا

---

(١) وقنبر هو الذي أشار إليه الإمام علي بقوله:

لما رأيت الأمر أمراً منكرا
أججت ناري ودعوت قنبرا

والتفصيل في كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لابن دحية الكلبي المطبوع بمطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٤٦ بتحقيقي ومقدمتي ص ١٠٧.

(٢) رحلة اوليا جلبي ج ٤. ص ٤٢٠.

(٣) ترجمته في تاريخ علم الفلك في العراق ص ٢٥٧ و ٢٥٨ من مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨.

(٤) تاريخ الأدب العربي في العراق ج٢ ص ٥٨. من مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٢.

حيث أكد عليه هؤلاء الأفاضل في لزوم نقله فلم ير بداً من القيام بالأمر ورجع إلى مصادر عديدة أضافها إلى الكتاب وكان ذلك أيام الوزير علي رضا باشا اللاز واتمه في زمنه وفي حياة السيد محمود النقيب المتوفى سنة ١٢٥٨هـ - ١٨٤٢م. وسماه (تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما يليها من البلدان). وفي خزانتي مخطوطتان قديمتان من (تراجم الوجوه والأعيان) إحداهما مؤرخة في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٢٨٦، وثالثة بخط الأستاذ عبد الرزاق الحاج محمد الحاج فليح الخطاط المعروف أتمها في ٢٩ المحرم سنة ١٣٥٠هـ - في ٦٥٣ صفحة. وفي خزانة المتحف العراقي في بغداد نسخة منه كتبت بخط نافع بن عبد الرزاق في محلة المصرف ببغداد ونسخة أخرى انتهت كتابتها في آخر جمادى الثانية سنة ١٣٦٢هـ. وهي برقم ٢٦٥.

وسبق أن نقله أيضاً إلى العربية بلا تصرف الأستاذ السيد أحمد ابن السيد حامد من آل الفخري في الموصل. وفي خزانتي نسخة قديمة منه.

قال الأستاذ البندنيجي:

"ومنهم قنبر علي عليه الرحمة مولى علي رضي الله عنه، كان يلازمه في سفره وحضره، وكان الإمام رضي الله عنه شرفه باستخدامه في أكثر مهامه. ولما لم توجد مناقبه على التفصيل في كتب التاريخ ال مشهورة أكتفي بذكر اسمه عن ذكر مناقبه ووسمه ومدفنه باتفاق أهل العراق في بغداد في الموضع الذي يزار الآن.

(قلت) - القول للأستاذ البندنيجي - وعرف بمحلة قنبر علي ولكن أكثر الناس على أنه استشهد على يد الحجاج بن يوسف الثقفي ودفن في واسط[1].

وقال الأستاذ عبد الحميد عبادة:

"ولما آل هذا الجامع - إلى الخراب عمره الوالي سليمان باشا الكبير سنة ١٢٢٢هـ وصرف على تعميره ٢٤١٢٢ قرشاً صحيحاً وكان إمامه سنة ١٢٢٣هـ محمد بن أحمد. وهو جامع كبير تقام فيه الأوقات الخمسة والجمعة وفي العيدين وفيه قبور كثيرة للمتولين. وليس فيه من الكتابة على جدرانه ومن أوقافه أيضاً عرصة في سوق قنبر علي[2]...".

وقال الأستاذ السيد محمود شكري الآلوسي رحمه الله تعالى:

"جامع قنبر علي قريب من جامع آل جميل. وهو واسع يحتاج إلى ترميم"[3]. ■

---

(١) تراجم الوجوه والأعيان مخطوطة في خزانتي ومثله في كتاب العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع مخطوط في خزانتي بخط مؤلفه الأستاذ عبد الحميد عبادة ج١ ص ٨٠.

(٢) العقد اللامع ج١ ص ٨١ وفيه تفصيل.

(٣) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ١٣٩ (مطبعة دار السلام) سنة ١٣٤٦ هـ ولم يزد على ذلك.

الملامح الاجتماعيّة والسياسيّة لخراسان وبغداد في حكاية ألف ليلة وليلة

✍ **محمد عبد الرحمن يونس** (سورية)

مدخل:

تشكّل حكايات ألف ليلة وليلة من المدينة محوراً أساساً لوصفها وسردها، ومن خلال هذه الحكايات يقدّم الرواة مدنهم تقديماً جمالياً ومثيراً، وبمزيد من الاحترام والإكبار لتخطيط هذه المدن، ومظاهرها الخارجية والزخرفية وبساتينها المنظّمة وأسواقها التجارية ومعاملاتها، وقصورها الشامخة ولذة العيش فيها، وما يدور فيها من علاقات وتقاليد ودسائس ومؤامرات.

وتتعدد المدن والبلدان في ألف ليلة وليلة لتشمل معظم مدن العالم التي عرفها الرواة معرفة شخصيّة، عن طريق معايشتهم لها سكناً أو سفراً إليها، أو سماعاً عنها، أو قراءةً من خلال المصادر التاريخية التي تتحدّث عن أوصافها وأعرافها وقيمها وتشكيلاتها الجغرافية، ببحارها وجزرها، وقلاعها، وأسوارها، سواء أكانت مدناً عربية إسلامية أم فارسية أم أوربية، أم شرق آسيوية. فمن المدن والبلدان العربية يذكر الرواة صنعاء واليمن، والشام (دمشق)، وحلب، والقدس وعكّا وغزّة وعسقلان، والقاهرة ودمياط والإسكندرية وبلبيس، وبغداد والبصرة والكوفة والموصل، و يذكرون من مدن المغرب الأقصى فاس ومكناس وذلك في حكاية **«جودر ابن التاجر عمر وأخويه»**. ويذكرون بعض البلدان الأوروبية التي يسميها الرواة «بلاد الإفرنجة» بمدنها وأقاليمها، ويذكرون منها فرنسا والنمسا. وعندما يذكر الرواة بلاد الإفرنجة، فإنّهم يعمّمونها على كثير من المدن الأوروبية، من دون أن يذكروا اسماً لهذه المدن، وذلك في حكاية **«عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»**. ومن مدن تركيا يذكرون «القسطنطينية»، ويصلون إلى إيطاليا ليذكروا مدينة «جنوى» و«البندقية»، في حكاية **«عمر النعمان وولديه»**، ويعرّجون على بلاد السند والهند وعجائبها.

ومن البلدان الشرق آسيوية يذكرون الصين، وهناد[١]، وأحياناً تُطلق الصين على كل المدن الصينية التي يذكرها الرواة من دون تحديد اسم أية مدينة. ومن الحكايات التي تذكر الصين حكاية **«الأحدب وملك الصين»**، وحكاية **«الملك قمر الزمان والملكة بدور»**.

---

(١) ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثالث، ص ٢٠.

ومن البلدان المتاخمة للبلاد العربيّة الإسلاميّة، يذكر الرواة بلاد فارس «بلاد العجم»، ومن أهم الأقاليم الفارسية التي ترد في الحكايات إقليم «خراسان»، إذ يشير الراوي بهذا الإقليم إلى بلاد فارس كلها، وعندما يصل بقصصه إلى فضاءات فارسية بعيدة لا يعرف اسماً لها، فإنه يسمّيها بالمدينة الخضراء[٢]، والأرض البيضاء[٣].

ونلاحظ أنّ الرّواة عندما يذكرون المدن العربية الإسلامية، فإنهم يذكرونها مقرونة بأسماء خلفائها وحكّامها، إذ تُذكر بغداد مقرونةً باسم الخليفة هرون الرشيد: «وسافر بها إلى بغداد وكان ذلك في زمن هرون الرشيد».[٤]، وتُذكر مقرونةً أيضاً باسم ولده المأمون[٥]. وهناك إشاراتٌ طفيفة إلى محمد الأمين (ابن هرون الرشيد)، وذلك في «حكاية الحمال والبنات»: «ثمّ إنّ الخليفة أحضر ولده الأمين بين يديه»[٦].

وتُذكر البصرة مقرونة باسم سلطانها محمد سليمان الزيني[٧]. ويتزامن ورود الكوفة مقروناً باسم واليها الظالم - كما يرى أحد الرواة - الحجاج بن يوسف الثقفي[٨]، وذلك في حكاية «نعمة ونعم».

وتُذكر دمشق مقرونةً باسم الخلفاء الأمويين، كالخليفة عبد الملك بن مروان[٩].وفي حكاية أخرى يذكر أحد الرّواة أن ملك دمشق هو الملك عمر النعمان. يقول في حكاية «عمر النعمان وولديه»: «كان بمدينة دمشق، قبل خلافة عبد الملك بن مروان، ملك يقال له عمر النعمان، وكان من الجبابرة الكبار»[١٠].

ومن هنا يمكن القول إنّ راوي هذه الحكاية لا يعرف تماماً وبدّقة تاريخ الخلافة الأمويّة، وأسماء الخلفاء الذين تعاقبوا على الدولة الأمويّة، فلا يوجد بين الخلفاء الأمويين خليفة يُدعى «عمر النعمان». وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة السابق لعبد الملك بن مروان هو والده مروان بن الحكم (ت ٦٥ هـ/٦٨٥م)[١١]. ويبدو أن الرّاوي شكّل هذه

---

(٢) ألف ليلة وليلة، ٤١٠/١.

(٣) م ن، ٤١١/١.

(٤) م ن، ٢١٧/١.

(٥) م ن، ٧١/٣.

(٦) م ن، ٨٨/١.

(٧) م ن، ١٨٣/١.

(٨) م ن، ٣٢٥/٢.

(٩) م ن، ٣٢٨/٢.

(١٠) م ن، ٢٤٢/١.

(١١) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله: دول الإسلام، دون محقق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة ١٩٨٥ م، ص٣٩.

الشخصية من تخيّلاته ليتخلّص من الحرج الذي يصيبه، وهو يتحدّث عن مفاسد هذا الملك وجبروته، وانهماكه في نكاح النساء[١٢]، هو وولده شركان، وبالتالي عن المفاسد والملاهي التي رافقت حياة بعض خلفاء الدولة الأمويّة.

والغريب أنّ رواة ألف ليلة وليلة لا يحتفون بالجزيرة العربية، ولا بمدنها، على الرغم من مركزيتها الإسلامية، إلاّ أنّ أحد الرّواة يذكر الحجاز[١٣]، ومكّة وجدّة[١٤]. وتبقى فضاءات الجزيرة العربية فضاءات غير مركزيّة وغير مهمّة في ليالي ألف ليلة وليلة، إذ لا يتوقّف السرد عندها طويلا، ولا يسجّل ملامح حياة شعوبها، وإن ذُكِرت فإنها تُذكر لمجرد كونها طريقاً يمرّ فيه الأبطال من دون توقّف.

ولا نستطيع أن نعرف الأسباب الرئيسة لتجاهل مدن الجزيرة العربية، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ رواة ألف ليلة وليلة يحتقرون البادية والبدو كثيراً، ويرون أنّ البدو هم مجرمون وأشرار و لصوص وخاطفون وقطّاع طرق[١٥]. وأنّهم يشكّلون الخطر الأكبر على حضارة المدينة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها، وبالتالي فإنّهم أهملوا ذكر مدن الجزيرة العربية، باعتبار أنّ القسم الأكبر من أراضي هذه الجزيرة تحكمه علاقات وقيم بدويّة، و أراضيه صحراويّة تفتقر إلى روح المكان الحضاري، وعلاقاته، ودوره في تشكيل أحداث الحكايات، وبالتالي تفتقر إلى العلاقات المدينيّة سلوكاً وقيماً وعاداتٍ وأعرافاً، لكنّ أحد الرّواة يذكر فضاءً مهماً من فضاءات الجزيرة العربية، وهو فضاء الكعبة، باعتباره فضاءً مركزياً دينياً مقدّساً يؤمّه الزوّار من الدول الإسلامية كافة، وذلك في حكاية «**الحشاش مع حريم أحد الأكابر**»[١٦].

---

(١٢) ألف ليلة وليلة، ٢٤٣/٢.

(١٣) م ن، ٢٤٢/١ ؛ ١٤١/٤، ٤٤٥.

(١٤) م ن، ٢٨١/٤، ٧٩.

(١٥) يقول أحد الرواة واصفاً بدوياً مجرماً: "فأخرج البدويّ الجبّار من حزامه سكّيناً عريضةً لو نزلت على رقبة جمل لقطعتها من الوريد إلى الوريد، و أخذها في يده اليمنى و تقدّم إلى أخي المسكين و قطع بها شفتيه". لم ن، ١٨٠/١].

- ويصف راوٍ آخر أحد البدو بأنّه قليل العقل و جلف يابس الرأس و مجنون. لم ن، ٢٩٤/١].
- وها هو أحد الرواة يدفع بدوياً ليصف نفسه: "اعلموا أنّي رجل بدويّ أقف في الطريق لأخطف الصغار و البنات الأبكار و أبيعهم للتجار (...) وأغراني الشيطان (...) فاتفقت على جمع أوباش العرب من البدو، لأجل نهب الأموال و قطع الطريق على التجار". لم ن، ١٢١/٢].
- وها هو التاجر شمس الدين يُحذّر ولده علاء الدين من البدو قطّاع الطرق قائلاً: "ولكن يا ولدي أخاف عليك من غابة في طريقك تُسمّى غابة الأسد، و وادٍ هناك يقال له وادي الكلاب، فإنّهما تروح فيهما الأرواح بغير سماح. فقال له: لماذا يا والدي؟ فقال: من بدوي قاطع الطريق يُقال له عجلان". لم ن، ٣٥٥/٢].

إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدين البدو.

(١٦) م ن، ٤٢١/٢.

إنّ هذه المدن الآنف ذكرها، هي من أهم المدن المتشكّلة جغرافيّاً على خارطة العالم المعروفة قديماً وحديثاً، والتي عايشها رواة ألف ليلة وليلة، أو سمعوا عنها، أو قرأوا عنها في المصادر التاريخية. ونظراً لأنّ هذه المدن كثيرة جداً ومعروفة، وقد احتلّت مكانةً متميّزةً مرموقةً في عصور التاريخ و لا تزال، فإني سأكتفي بعرض وصفٍ لبلاد خراسان، ولمدينة بغداد العراقية لأنها أهم المدن العربيّة الإسلاميّة التي ذكرتها الليالي، منطلقاً من نصّ الليالي نفسه، ومعتمداً أحياناً بعض الأدبيات التاريخيّة التي ذكرت هذه المدينة وأرّخت لها.

١ - خراسان

آ - لمحة تاريخية عن خراسان:

تشكّل بلاد خراسان التي يذكرها رواة ألف ليلة وليلة مجموعة أقاليم شاسعة، تضمّ مدناً عديدة تقع «أول حدودها ممّا يلي العراق أزاذْوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزْنة وسجستان وكرمان»(١٧).

ودخلت خراسان تحت جناح الدولة الإسلاميّة بعد أن سار جيشان عربيان نحوها في وقت واحد، «ففي سنة ٢٩ هـ/٦٤٩ م سارت قوّة من الكوفة بقيادة واليها سعد بن العاص متّخذة طريق همذان والريّ قاصدة جرجان وخراسان كما خرجت في الوقت نفسه قوّة من البصرة بقيادة أميرها عبد الله بن عامر (...) وعلى يد هذين القائدين تم الاستيلاء على نيسابور وسرخس وطوس وهراة ومرو (...) ولمّا وليَ زياد بن أبي سفيان البصرة قسم خراسان إلى أربعة أرباع سمّي كل منها باسم المدينة الرئيسة فيه وهي نيسابور وبلخ ومرو وهراة»(١٨).

وتذكر المصادر القديمة أنّ أهل خراسان كانوا في إسلامهم أنقياء السريرة، بعيدين عن الفساد، فعندما أراد محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس توجيه دعاته إلى أمصار الدولة البعيدة، قال لهم: «عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجَلَد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسّمها الأهواء ولم تتوزّعها النِّحل ولم يقدم عليهم فساد»(١٩).

---

(١٧) ياقوت، الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٩٧٩ م/ ١٣٩٩ هـ، الجزء الثاني، ص٣٥٠.

(١٨) زيادة، د.نقولا: مشرقيّات في صلات التجارة والفكر، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت/لندن، الطبعة الأولى أيلول/سبتمبر، ١٩٩٨م، ص ١٩٣.

(١٩) ياقوت، الحموي: معجم البلدان، ٢٥٢/٢.

ويصف أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة[٢٠] (ت ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م) أهل خراسان بأنهم أنصار الدولة ويلحّ على ذكائهم. أمّا ابن الفقيه[٢١] (أحمد بن محمد بن إسحق بن إبراهيم الهمذاني (ت ٣٤٠ هـ/٩٥١ م) فإنّه يجعل خراسان حامية الحقّ ودين الله.

ولخراسان أهمّية علمية ومعرفية كبيرة عبر التاريخ، فالخراسانيون هم فرسان العلم وساداته وأعيانه[٢٢] ويرى المقدسي[٢٣] (محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، ت ٣٨٠ هـ/٩٤٧م) أنّ مدن خراسان: مرو ونيسابور وبلخ وبخارى وسمرقند، كانت عبر تاريخها منابر للثقافة والأخلاق.

وقد أسهم الخراسانيون إلى حد كبير في القضاء على الدولة الأمويّة، لأنّ الدّعوة العباسيّة اتّخذت من خراسان مسرحاً لها، وحضّت الخراسانيين على الأمويين، واتّهمت الأمويين بالخروج عن طريق الحقّ والعدل التي أوصى بها الإسلام، وأشارت إلى تفريق الأمويين بين المسلمين عرباً وموالي، وإلى إحسانهم للعرب وإساءتهم للموالي، وقالت بأنّ الأمويين اعتدوا على أصحاب الحقّ الشرعيّ في الخلافة، وهذه الأمور لاقت قبولاً لدى الخراسانيين، فما كان منهم إلا ان أعدّوا العدّة، ونظّموا الجيوش، وقادوا الحملات ضد الأمويين[٢٤].

وشهدت خراسان، عبر تاريخها، ثراءً واسعاً ورفاهيةً في العيش، فهي بلاد الحجارة الكريمة كالفيروز واللازورد، والسَبَج (الخرز الأسود)، والياقوت، والخزف الأبيض المصنوع من مادة سهلة المعالجة إلى حدّ جعلها تنافس الزجاج[٢٥]. وهي بلاد المعادن، كالملح والنحاس والحديد والذهب[٢٦].

وقد شكّلت خراسان في التاريخ محطّةً تجاريةً مهمّةً، كانت تعجّ بالمسافرين والقوافل، وأكثر مدن خراسان التي كانت تعجّ بهؤلاء، هي مدينة نيسابور في أقصى الشمال باعتبارها عقدة طرق خراسان الكبرى[٢٧].

---

(٢٠) عن/ ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر - الأعمال والأيام، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩٥ م، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص٩٦.

(٢١) عن/ م ن، ص ١٩٧.

(٢٢) ياقوت، الحموي: معجم البلدان، ٢/ ٢٥٣.

(٢٣) عن/ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية - الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص٤٦٩.

(٢٤) زيادة، د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢٥) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص٣٠١.

(٢٦) م ن، ص ٣٢٢.

(٢٧) ميكيل، أندريه: جغرافيّة دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٣٤٥.

وقد وعى الشعراء قديماً أهميّة خراسان، فها هو أحدهم يقول فيها:

والنــاس فــارس والإقلــيم بابــل والــ ... إســلام مكّــة والــدنيا خراســان[٢٨]

ويذكر رواة ألف ليلة وليلة - بالإضافة إلى بلاد خراسان - أهمّ مدينة من مدنها، وهي مدينة سمرقند. وسمرقند هي من مدن الإقليم الرابع من أقاليم بلاد خراسان الشاسعة[٢٩]، وهي تقع «في بلاد ما وراء النهر حسب التعابير التاريخية، وهي اليوم ثاني مدن جمهورية أوزبكستان (...) وكانت من المدن الإسلامية الهامّة في الجناح الشرقي لديار الإسلام. وكانت سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ عهد السامانيين[٣٠] إلى عهد التيموريين[٣١]. وقد أطلق عليها الرّحالة العرب اسم «الياقوتة» الراقدة على ضفاف نهر زارافشان. وهي المنافسة التاريخية لبخارى، وهي العاصمة الرّائدة التي أعدّها تيمور لنك لتحتلّ الصدارة في عهده»[٣٢].

ويصفها ياقوت الحموي[٣٣] (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م) قائلاً: «إنّ سمرقند من بناء الاسكندر. واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخاً. وفيها بساتين ومزارع وأرحاء. ولها اثنا عشر باباً، من الباب إلى الباب فرسخ. وعلى أعلى السور آزاج[٣٤] وأبرجة للحرب. والأبواب الاثنا عشر من حديد. وبين كل بابين منزل للنوّاب». ويذكر أنّها تُروى من ماء نهرٍ يجري في وسطها،

---

(٢٨) عن/معجم البلدان، ٢/٣٥٣.

(٢٩) م ن، ٣/٢٤٧.

(٣٠) السامانيّون: سلالة حكمت ما وراء النهر وبخارى وسمرقند (٢٦١ – ٣٩٠هـ/٨٧٤ – ٩٩٩ م). أسسها سامان خُداه وأصبح حفدته الأربعة عمالاً للمأمون العباسي على سمرقند وفرغانة وهراة وشاش. اشتهر بينهم نصر الثاني ونوح الأول.

ازدهرت الحضارة في عهدهم فنبغ فيهم الفردوسي والرازي وابن سينا. قضى عليهم الغزنيّون.

العلايلي، عبد الله، وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة، ٥ نيسان، ١٩٨٠ م، ص ٣٤٦.

(٣١) التيموريّون: هم بنو تيمور لنك، وفي الخصوص أمراء أسرته الذين تولّوا الحكم في بلاد إيران وآسيا الوسطى في القرن الخامس عشر الميلادي. انقسمت دولتهم إلى فرعين رئيسيين: ميرانشاه في الغرب وشاهرخ في الشرق (خراسان وما وراء النهر).

- م ن، ص ٢٠٠.

(٣٢) حلاّق، د.حسان: مدن وشعوب إسلامية، دار الراتب الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، آذار/مارس، ١٩٩٢م، الجزء الرابع، ص ٢٤٥.

(٣٣) معجم البلدان، ٣/٢٤٧.

(٣٤) الآزاج: مفردها الأزَج، وهو البيت الذي يبنى طولا.

- معلوف، لويس: المنجد في اللغة، مادة: ازج، ص ٩.

وعلى هذا النهر تقع البساتين الكثيرة «وليس من سكّة ولا دار إلاّ وبها ماءٌ جارٍ إلاّ القليل. وقلّما تخلو دار من بستان حتى إنّك إذا صعدت قهندزها[٣٥] لا ترى أبنية المدينة لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار»[٣٦]. وتضمّ هذه المدينة عدة مدن فرعيّة أخرى، ومن أهمّها: كرمانية ودبوسيّة وأشروسنة والشاش ونخشب وبناكث[٣٧].

ويذكر المؤرّخون هذه المدينة بالثناء عليها، ويبرزون الوجه الجماليّ لطبيعتها وسكانها، فابن حوقل[٣٨] (محمد بن حوقل البغدادي الموصلّي، ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)، أثنى على جنانها. «واعتبرها بستان متعة». وقال آخرون عنها: «ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن (...) من سمرقند»[٣٩].

أمّا الاصطخري[٤٠] (إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م)، فقد وصف أهلها قائلا: «وأهلها يرجعون إلى جمال بارع ورزانة. وهم من الإفراط في إظهار المروّة وتكلّف القيام على أنفسهم ما يزيدون على سائر بلاد خراسان، حتى يجحف ذلك بأموالهم».

ويذكر ياقوت الحموي[٤١] أن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ/٧١٢ م) ذكر مدينة بخراسان خلف نهر جيحون، تُعرف بسمرقند، وسمّاها المحفوظة، تأسيسا على حديث لرسول الله (ص). وتبدو هذه المدينة، من خلال حديث رسول الله عنها، جنّة أرضيّة، مشكّلة وفقاً لأحلام المسلمين، وتخيّلاتهم الأسطورية. يقول أنس بن مالك ناقلا ما قاله رسول الله (ص) عن مدينة سمرقند:

«أخبرني حبيبي رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أنّ مدينة بخراسان خلف النهر تُدعى المحفوظة (...) و خلف المدينة روضة من رياض الجنّة، وخارج المدينة ماء حلوٌ عذبٌ من شرب منه شرب من ماء الجنّة ومن اغتسل فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وخارج المدينة على ثلاثة فراسخ ملائكةٌ يطوفون يحرسون رساتيقها ويدعون الله بالذكر لهم، وخلف هؤلاء الملائكة وادٍ فيه حيّات وحيّة تخرج على صفة الآدميّين تنادي يا رحمن الدنيا و رحيم الآخرة ارحم هذه المدينة المحفوظة، ومن تعبّد فيها ليلة تقبّل الله منه عبادة سبعين سنة، ومن صام

(٣٥) القهندز: القلعة.

(٣٦) معجم البدان، ٢٤٨/٣.

(٣٧) م ن، ٢٤٨/٣.

(٣٨) عن/ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، تتمة القسم الثاني والثالث، ص٥٢٨.

(٣٩) معجم البلدان، ٢٤٨/٣.

(٤٠) عن/زيادة، د. نقولا: مشرقيّات في صلات التجارة والفكر، ص ٢٠٤.

(٤١) معجم البلدان، ٢٤٩/٣.

فيها يوماً فكأنّما صام الدهر، ومن أطعم فيها مسكيناً لا يدخل منزله فقرٌ أبداً، ومن مات في هذه المدينة فكأنّما مات في السماء السابعة ويُحْشَر يوم القيامة مع الملائكة في الجنّة».

ب ـ خراسان وبعض مدنها في ألف ليلة وليلة:

تبتدئ حكايات ألف ليلة وليلة من مدينة «سمرقند العجم»، وهي إحدى مدن بلاد خُراسان الشاسعة. ويحكم هذه المدينة ملك من ملوك ساسان، وتصفه مقدّمة الليالي بأنه فارس وبطل، وأنه «ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد، اسمه الملك شهريار (...) وكان ملك سمرقند العجم»[٤٢].

وفي هذه المدينة يكتشف شاه زمان الأخ الأصغر لشهريار، أن زوجة أخيه شهريار ـ لا يذكر الرّاوي اسماً لها ـ تقيم حفلاً عربيديّاً جنسيّاً، أبطاله مجموعة من عبيد قصر أخيه وجواريه، ويقوم هؤلاء العبيد والجواري مع سيدتهم زوجة شهريار، وعبدها مسعود، بممارسة فعل الجنس، وبشكل جماعي، يقول الرّاوي[٤٣]: «فنظر [شاه زمان] وإذا باب القصر قد فتح وخرج منه عشرون جاريةً وعشرون عبداً، وامرأة أخيه تمشي بينهم، وهي في غاية الحسن والجمال حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم وجلسوا مع بعضهم بعضاً. وإذا بامرأة الملك تقول: يا مسعود، فجاءها عبدٌ أسود فعانقها وعانقته وواقعها. وكذلك فعل باقي العبيد بالجواري، ولم يزالوا حتى ولّى النهار». عندها ينقل شاه زمان ما شاهده إلى أخيه شهريار، فيوهم شهريار أهل بيته وعبيده وجواريه بأنّه مسافر، ثم يختفي متنكّرا وراء نافذة مطلّة على بستانه، مراقباً ما تفعله زوجته وعبيده وجواريه من انتهاكات جنسية لحرمة قصره، ويكتشف أنّ كلّ ما قاله أخوه شاه زمان صحيح، فيطير عقله[٤٤]، ويقرر أن يسافر مبتعدا عن سمرقند، وبصحبته أخوه شاه زمان، الذي كان هو الآخر مسافراً من قصره، قاصداً أخاه شهريار، وعند «نصف الليل تذكّر حاجةً نسيها في قصره، فرجع ودخل قصره فوجد زوجته راقدةً في فراشه معانقةً عبداً أسود من العبيد، فاسودّت الدنيا في وجهه، وسلّ سيفه وضرب الاثنين فقتلهما في الفراش»[٤٥].

ويقرر شهريار وشاه زمان أن يرتحلا عن مدينتهما سمرقند[٤٦]، لينظرا في أقاليم الأرض، ما إذا كان جرى لأحد من الناس مثلما جرى لهما، وبالمصادفة يعاينان فجور امرأة،

(٤٢) ألف ليلة وليلة، ١٢/١.
(٤٣) م ن، ١٣/١ ـ ١٤.
(٤٤) م ن، ١٤/١.
(٤٥) م ن، ١٣/١.
(٤٦) م ن، ١٤/١.

كان قد خطفها عفريت، وسجنها في صندوق، وأقفله بسبعة أقفال، ومع ذلك فقد تمرّدت عليه، وضاجعت خمسمائة وسبعين رجلاً، انتقاماً منه، وأخذت خواتمهم، عندها تتكشف لهما الحقيقة واضحةً، على لسان الصبيّة المخطوفة، التي تؤكّد أنّ المرأة إذا ما أرادت الخيانة، فإنّه لا يردعها أي رادعٍ، مهما كان قوياً. تقول المرأة: «إنّ هذا العفريت قد اختطفني ليلة عرسي ثم إنّه وضعني في علبة وجعل العلبة داخل الصندوق ورمى على الصندوق سبعة اقفال وجعلني في قاع البحر العجاج المتلاطم بالأمواج. ولم يعلم أنّ المرأة منّا إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء»[٤٧].

وعند ذلك يرجع شهريار إلى مدينته سمرقند - مع أخيه شاه زمان - محبطاً ويائساً، ومليئاً بالقناعة التي تؤكّد أنّ النساء جميعهن ماكراتٌ لا وفاء لهنّ، فيقرر أن يقتل زوجته، ويتزوّج كلّ يوم امرأةً جميلةً من نساء مدينته، ثم يقتلها في الليلة نفسها، حتى لا تستطيع خيانته مع أي رجل آخر: «ثم انصرفا من ساعتهما عنها [أي المرأة التي خطفها العفريت]، ورجعا إلى مدينة الملك شهريار ودخلا قصره، ثم إنّه رمى عنق زوجته وكذلك أعناق الجواري والعبيد وصار الملك شهريار كلّما يأخذ بنتاً بكراً يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها»[٤٨]. وعند ذلك تهرب أبكار سمرقند من دمويّة شهريار، فتقرر شهرزاد، ابنة وزيره - لا يذكر الرّاوي اسماً لهذا الوزير - أن تذهب إلى شهريار راضية الزواج به، وعندما يتزوّجها تطلب أختها دنيازاد منها أن تحكي حكايةً، فتستأذن الملك شهريار فيسمح لها بذلك[٤٩]، فتبدأ شهرزاد بقصّ حكاياتها، ثم تقطعها في ذروة حبكتها، عندما يدركها الصباح، وحتى يتمكن من متابعة حكاياتها، يضطّر لأن يؤجّل قتلها.

وبين الحكاية والحكاية، تبدو شهرزاد راويةً متميّزةً تفوق نساء زمانها معرفةً وأدباً وتاريخاً وقصّاً سحريّاً، لا يمكن مقاومة إغراءات جمالياته، وفضاءاته العامرة بكل ما هو مثير. وتنتهي الحكايات في المدينة نفسها (سمرقند) وقد عاد إلى شهريار وعيه وثقته بالمرأة التي يمكن أن تكون أمّاً فاضلةً، وزوجةً مخلصةً. وما بين الليلة الأولى والأخيرة، يشكّل السرد لوحات جذّابةً لمدن واقعيّة وتخيّليّة، إذ تُستحضَر المدن الكثيرة التي سمع الرّواة عنها، أو عايشوها، أو تخيّلوها، أو قرأوا عنها في المصادر.

وسمرقند، أو خراسان، كما سيسمّيها الرّواة في ما بعد، انطلاقاً من تسمية الجزء بالكلّ الذي ينتمي إليه، وباعتبار أن سمرقند (الجزء)، أهم مدن هذا الكلّ «خراسان»،

---

(٤٧) ألف ليلة وليلة، ١٥/١.

(٤٨) م ن، ١٥/١.

(٤٩) م ن، ١٦/١.

فإنّها لن تغيب بعد الحكاية الأولى، بل ستبقى ناميةً مع نمو السرد، وإن كانت ستغيب في بعض الحكايات، فإنّها ستُستحضَر، بشكل قصديٍ أو غير قصديٍ، في حكايات أخرى، لأنّ الرّاوية الرئيسيّة «شهرزاد» تظلُّ في حالة حنينٍ إلى مدينتها، وإن سافر أبطالها إلى دمشق أو بغداد أو القاهرة، فإنّها تجعلهم يمرّون ثانية بخراسان، أو يتذكّرونها، أو يشيرون إليها بنوع من التبجيل والاحترام.

إنّ خراسان تظلّ حلماً جميلاً يصبو إليه الرّواة والأبطال، فهي أول خيط من خيوط السرد، وهي آخر هذه الخيوط، وهي تتموضع على مسار هذا السرد مختفيةً تارةً، ومتداخلةً مع مدن أخرى كثيرة، تارةً أخرى. وفي آخر حكايات ألف ليلة وليلة، تنعم سمرقند وسكانها بملذّات الحياة، بعد أن تكون شهرزاد قد روّضت الوحش المفترس في ذاكرة شهريار التاريخيّة المطعونة بخيانة نساء مدينته، وأعادت إليه ثقته بهاته النساء، من خلال حكاياتها الطويلة الموغلة بعيداً في أعماق الحضارات الإنسانية التي تعاقبت وتزامنت مع حضارة شهريار، وتحديداً حضارته الساسانيّة. وعندما يقرر شهريار أن يعفو عن شهرزاد، يكون بذلك، قد أعتق سمرقند العجم، من سطوته الدمويّة، وأعطى لسكانها الأمان والطمأنينة. يقول الرّاوي[٥٠]: «وشاع السرور في سراية الملك حتى انتشر في المدينة. وكانت ليلة لا تعدّ من الأعمار ولونها أبيض من وجه النهار، وأصبح الملك مسروراً وبالخير مغموراً، فأرسل إلى جميع العسكر فحضروا وخلع على وزيره أبي شهرزاد خلعة سنية جليلة وقال له: سترك الله حيث زوّجتني ابنتك الكريمة التي كانت سبباً لتوبتي عن قتل بنات الناس».

ونظراً لأهميّة خراسان الكبيرة في رؤية بعض رواة الليالي، المؤدلجين إسلامياً، الطامحين إلى اتساع رقعة الدولة الأمويّة، فإنّه يجب أن تكون تابعة إلى ملك أمويّ مسلم، وهو الملك عمر النعمان[٥١].

إنّ ليالي ألف ليلة وليلة تُظهر بعض ملوك خراسان في مظهر يتناسب مع صورة هذه البلاد التاريخيّة المسلمة كما وردت في المصادر، ففي حكاية **«التاجر حسن مع الملك محمد ابن سبائك»**، يؤكّد الرّاوي أنّ الملك الخراساني محمد بن سبائك كان يتحلّى بصفات العدل والشجاعة والكرم، وكان مؤمناً برسالةِ الإسلام، ومدافعاً عنها. يقول الرّاوي[٥٢]: «كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ملك من ملوك العجم اسمه محمد بن سبائك، وكان يحكم على بلاد خراسان، وكان في كل عام يغزو بلاد الكفار

(٥٠) ألف ليلة وليلة، ٤/٤٤٧.

(٥١) م ن، ١/٢٩٢.

(٥٢) م ن، ٤/١٧٨.

في الهند والسند والصين، والبلاد التي وراء النهر وغير ذلك من العجم وغيرها، وكان ملكاً عادلاً شجاعاً كريماً جواداً».

وخراسان في حكايات الليالي مركزٌ تجاريّ مهمّ، والتجار فيها أثرياء جداً: «حُكي أنّه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، تاجرٌ من التجار في بلاد خراسان اسمه مجد الدين، وله مال كثير وعبيد ومماليك وغلمان»[٥٣].

إنّ بعض أبطال الحكايات لا يرضون بديلاً من خراسان، على الرغم مما تعطيه لهم المدن التي يصلون إليها، ففي حكاية «**علي شار وزمرد الجارية**»، وعندما يختطف برسوم النصراني زمرد الجارية، نجد أنّ الرّاوي يخلّصها منه، ويوصلها إلى مدينة بعيدة، لا يذكر الرّاوي اسماً لها، إلاّ أنّها «طيبةٌ أمينةٌ بالخير مكينةٌ»[٥٤]. وعندما يشاهدها فرسان المدينة يعيّنونها ملكاً عليهم، وفق عاداتهم التي تعيّن أول شخص قادم إلى مدينتهم ملكاً عليها، في حال وفاة ملكهم[٥٥]. وتصبح زمرد ملكة على المدينة متوّجة بالمجد والسلطة، لكنّ الرّاوي يصرّ على إرجاعها إلى خراسان بلاد زوجها علي شار، وفاءً من هذه المرأة لهذه البلاد الجميلة، ولزوجها القاطن في هذه البلاد. فكما تبدأ رحلة الليالي من سمرقند العجم (إحدى مدن خراسان)، وتنتهي بها، فإنّ رحلة علي شار الطويلة صوب بلدان العالم تبدأ من خراسان، وتنتهي هي الأخرى بخراسان، يقول الرّاوي: «ولم تزل مسافرة [أي زمرّد زوجة علي شار] إلى أن وصلت إلى بلد علي شار، ودخل [علي شار] منزله وأعطى وتصدّق ووهب، ورُزِق منها الأولاد وعاشا في أحسن المسرّات إلى أن أتاهما هادم اللذّات ومفرّق الجماعات»[٥٦].

إنّ خراسان في بعض الحكايات محطّة، يعبر بها أبطال القصة الرئيسيّون صوب أهدافهم. وهم مضطرّون لأن يمرّوا بهذه البلاد المركزيّة قبل أن يصلوا إلى أهدافهم، ففي حكاية «**بلوقيا وجانشاه**»، التي تضمّنتها حكاية «**الحكيم دانيال وولده حاسب كريم وملكة الحيّات**»، نجد أن الرّاوي يجبر الملك «جانشاه» على المرور أولاً بـ «خراسان»، قبل أن يصل إلى هدفه الأخير، وهو لقاء محبوبته في قلعة « جوهر تكني»: «بلغني أيها الملك السعيد أنّ جانشاه مازال مسافراً حتى وصل إلى بلاد خرسان»[٥٧]، وكأنّ بلوغ الأهداف

---

(٥٣) م ن، ٢٣/٣. (حكاية علي شار وزمرد الجارية).

(٥٤) ألف ليلة وليلة، ٤٢/٣.

(٥٥) م ن، ٤٢/٣.

(٥٦) م ن، ٥٧/٣.

(٥٧) م ن، ٣٦٥/٣.

الكبيرة في حياة الشخوص الرئيسيّة لا يتحقّق إلا بالمرور بالبلاد المركز. على أنّ خراسان لن تظلّ فضاءً مركزياً في الليالي جميعها، لأنّها ستفسح المجال لمدن أخرى لأن تكون مركزاً، وبخاصة في الحكايات التي تتزامن مع الدولتين: الأمويّة والعباسيّة، وسنجد أن بغداد والقاهرة، وأحياناً دمشق، تصبح مدناً مركزيّة في حركة الوحدات السردية، وانتقال الشخوص، وتشكّل الأحداث.

ونظراً لأهمّية خراسان باعتبارها أولى حلقات السرد، وأوّل الفضاءات المكانيّة التي تتحرك فيها الشخوص، ونظراً لأهمّيتها العلمية والمعرفيّة عبر التاريخ، فقد رأى رواة ألف ليلة وليلة، أنّ الملوك مهما كانوا عظماء وأقوياء بجيوشهم الجرّارة، فإنّ هذه العظمة لا تكتمل إلاّ بالعلاقة مع خراسان المركزيّة. فالملك طيغموس في حكاية « **بلوقيا وجانشاه**»، هو ملك مليءٌ بالعظمة والأبّهة لأنّه «كان يحكم على بلاد كابل وعلى بني شهلان، وهم عشرة آلاف بهلوان، كلّ بهلوان منهم يحكم على مائة مدينة ومائة قلعة بأسوارها، وكان يحكم على سبعة سلاطين ويُحمَل له المال من المشرق إلى المغرب، وكان عادلاً في حكمه. وقد أعطاه الله تعالى كلّ هذا ومنّ عليه بذلك الملك العظيم»[٥٨]، لكنّ عظمة هذا الملك في حياته ومماته، لن تكتمل إلاّ بولد ذكر «ليخلفه في ملكه بعد موته»[٥٩].

وهذا الولد لن يكون إلاّ بعد زواج الملك طيغموس من بنت ملك خراسان، كما يقرّر الرّاوي الذي يستدعي المنجّمين ليؤكّدوا أهمية خراسان، وأهميّة نسائها.

يقول الرّاوي: «فاتّفق أنّه طلب العلماء والمنجّمين والحكماء وأرباب المعرفة والتقويم يوماً من الأيام، وقال لهم: انظروا طالعي وهل يرزقني الله في عمري ولداً ذكراً فيخلفني في ملكي، ففتح المنجّمون الكتب وحسبوا طالعه وناظره من الكواكب، ثم قالوا له: اعلم أيّها الملك أنك تُرزق ولداً ذكراً ولا يكون ذلك الولد إلاّ من بنت ملك خراسان»[٦٠].

إنّ الانتماء إلى خراسان والزواج بإحدى نسائها - وبخاصة ابنة ملكها - يعني بالنسبة للملك طيغموس، زيادة في السطوة والمنفعة، لأنّها تشكّل مركزاً استراتيجياً وحضارياً مرموقاً في إيديولوجيا راوي الحكاية، وبالزواج بإحدى أميرات هذا المركز الحضاري المعرفي، فإنّ قيمة الشخصية ومكانتها تزداد بين قومها، والأقوام المجاورة لها.

---

(٥٨) ألف ليلة وليلة، ٣٢١/٢.

(٥٩) م ن، ٣٢١/٢.

(٦٠) م ن، ٣٢١/٢.

ويشير الرّاوي في حكاية أخرى إلى أنّ نساء إحدى مدن أقاليم خراسان، وهي مدينة بخارى[٦١] التي تقع في الإقليم الرابع من أقاليم[٦٢] خراسان، من أجمل النساء وأكثرهنّ خلقاً وديناً. يقول[٦٣] «ويُحكى أنّه كان بمدينة بخارى رجل سقّاء يحمل الماء إلى دار صانع(...) وكان لذلك الصانع زوجة في غاية الحسن والجمال والبهاء والكمال، موصوفة بالديانة والحفظ والصيانة».

وفي بعض المواضع لا يشير الرّواة إلى اسم خراسان تحديداً، بل تصبح خراسان عندهم هي بلاد العجم، ويبدو أنّ هذه التسمية مقبولة، إذا أخذنا بتحديدات ياقوت الحموي،[٦٤] إذ يرى أنّ خراسان تشتمل «على أمّهات من البلاد مثل نيسابور وهراة ومَرْو (...) وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس».

وإذا أخذنا بخارطة ياقوت الحموي[٦٥] التي ترى أنّ أرض فارس كانت «قديماً قبل الإسلام ما بين نهر بلخ إلى منطقة أذربيجان وأرمينية الفارسيّة إلى الفرات»، فإنّه يمكن أن نقول إنّ نهر مدينة بلخ، المدينة التي تنتمي إلى بلاد خراسان، هو أحد حدود الدولة الفارسيّة، ومن هنا فلا عجب أن تمتدّ خراسان في الليالي، لتشمل فارس «بلاد العجم»، باعتبار فارس متاخمة لخراسان، هذا إذا أخذنا بمنطق رواة الليالي ورغبتهم في أن تتوسّع البلدان والمدن التي يعجبون بها، ويتعاطفون مع أبطالها لتطوي مدناً أخرى تحت جناحها.

ولا يبدو رواة ألف ليلة وليلة عارفين تمام المعرفة بخارطة العالم الجغرافيّة، ومدنه ومواقعها الصحيحة، فهم قد قرأوا ما بين أيديهم من أخبار المدن وعلاقاتها، أو سمعوا ما نقله الرّحالة من أخبار المدن وعجائبها، وشكّلوا من هذه الأخبار سرد حكاياتهم، ووضعوا على خارطة السرد هذه المدن التي قرأوا أو سمعوا عنها، أو تخيّلوها في ما بعد، ولا يعني أنّهم كانوا عارفين تماماً بالمواقع الصحيحة المتوضعة على خارطة العالم الجغرافيّة، فـ «كلّما بَعُد

---

(٦١) تشغل بخارى واحة واسعة في ما وراء النهر. وهي مدينة إيرانية قديمة كان التجار الصينيون يسمونها " بو - هو ". وقد كانت على طريق الحرير البري. وكانت بخارى مركزاً بوذياً كبيراً، وبعد الفتح العربي أصبحت واحداً من المراكز العلمية الكبرى في المشرق الإسلامي. ومن علمائها الكبار البخاري أحد كبار جامعي الحديث (صحيح البخاري)وكانت بخارى عاصمة السامانيين.وقد عمل السامانيون على تزيين المدينة بالأبنية الجميلة وعلى تنشيط التجارة. وكان بلاطهم يرعى أهل العلم والأدب.

- زيادة، د.نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص ٢٢٣- ٢٢٤.

(٦٢) معجم البلدان، ٣٥٢/١.

(٦٣) ألف ليلة وليلة، ١٥٨/٣.

(٦٤) معجم البلدان، ٣٥٠/٢.

(٦٥) م ن، ٢٢٧/٤.

الوطن عن النفوذ الإسلامي وجدنا عدم التحديد والغموض والتعميم في ذكر البلدان. والمدن تصبح خيالاً وأسماءً مخترعة. فكل أجزاء الهند ومدنها عند القاص الهند ليس غير والصين كذلك. فإذا بعدنا شرقاً كانت جزائر الخالدات وجزائر الكافور وجزيرة واق الواق وإذا بعدنا غرباً عن صعيد مصر فبلاد المغرب ثم مدينة النحاس ومدينة فاس ومكناس»[٦٦].

وتبقى المدن الواقعيّة نفسها، التي عرفها رواة الليالي، مزيجاً من التخيّل والواقع، إذ يضفي هؤلاء الرّواة على ملوكها أبّهةً وعظمةً أسطوريةً، وهذه العظمة هي في الأساس تؤكّد عظمة المدينة أو البلاد وعراقتها، فلا يمكن مثلاً أن تكون بلاد العجم المتاخمة لبلاد خراسان العظيمة .والتي تبدو أنّها امتداد لبلاد خراسان في مخيّلة الرّاوي أو جزء منها - محكومة إلاّ بملك قوي، محاط بكلّ أنواع الهيبة والعظمة. يقول الرّاوي عن ملك العجم: «وكان يُقال له الملك كرزدان ملك العجم، وقد ملك الأقاليم السبعة وكان في خدمته مائة سلطان يجلسون على كراسي من الذّهب الأحمر، وعشرة آلاف بهلوان كلّ بهلوان تحت يده مائة نائب، ومائة جلاّد وبأيديهم السيوف»[٦٧].

وهنا لا يمكننا أن نضع تصوّراً جغرافياً دقيقاً لهذه الأقاليم السبعة التي يحكمها الملك كرزدان، إلاّ إذا اعتبرنا أنّ هذا الملك هو ملك ملوك الدنيا، وأنّ هذه الأقاليم السبعة التي يحكمها هذا الملك هي الدنيا بأسرها. ولأنّ الرّاوي يريد أن يعظّم ملك « العجم»، إلى درجة لا يصل إليها أي ملك آخر، فقد أضفى عليه هالة أسطورية، وأحاطه بالمنعة والقوة التي لا تقهر، وجعله حاكماً على الأقاليم السبعة. وبالعودة إلى تحديدات ياقوت الحموي لمعالم الكرة الأرضيّة، نرى أنّ هذه الأقاليم السبعة، هي كل المدن المأهولة على سطح الأرض، فالأرض كما يراها ياقوت الحموي[٦٨] «ثلاثة أرباعها مغمورة بالماء، والربع الباقي مكشوف، والمعمورة هي المسكون من هذا الرّبع المكشوف ثلثه وثلث عُشْره، والباقي خراب وهذا المقدار من الرّبع المسكون مساحته ثلاثة وثلاثون ألف ألف ومئة وخمسون ألف ميل، وهذا العمران هو ما بين خط الاستواء إلى القطب الشمالي، وينقسم إلى سبعة أقاليم». ولا نستغرب أن تكون بلاد العجم في الليالي، هي نفسها سمرقند العجم، وأنّ الملك كرزدان، ملك العجم هو الصورة النديّة الأخرى للملك شهريار ملك سمرقند العجم، وما الاختلافات في التسمية إلاّ محاولة من الرّواة لتشكيل أحداثٍ جديدةٍ، تشمل مدناً وفضاءات متشعبة ونامية.

---

(٦٦) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٦٦ م، ص ٢٦٤.

(٦٧) ألف ليلة وليلة، ٣٨٦/٣.

(٦٨) معجم البلدان، ٢٥/١.



بغداد - بريشة الفنان جميل حمودي.

ونظراً لعظمة البلاد المركزيّة «خراسان» في ذاكرة الرّواة، فقد نقلوها معهم إلى أبعد فضاءات المدن الأسطورية والتخيّليّة، وتخيّلوا أنّ سكان أبعد مدينة وُجدت في الأرض يعرفون خراسان، وقد سمعوا عن عظمة ملوكها وتعميرهم الأرض، وسيادتهم عليها. ويذكر الرّاوي أن الأمير موسى بن نصير، عندما وصل إلى مدينة النحاس الأسطوريّة، لجلب قماقمها السليمانيّة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق، قرأ على أحد الألواح المنصوبة قرب المدينة: «ألم تعلم أن الدنيا دار بوار؟ ما لأحد فيها قرار، وأنت ناظر إليها ومكبٌّ عليها؟ أين الملوك الذين عمّروا العراق وملكوا الآفاق؟ أين من عمّروا أصفهان وبلاد خراسان؟»[٦٩].

إنّ ما أعطى خراسان هذه الأهمّية في نصوص الليالي، كونها البلاد التي تشتمل على مدينة الملك شهريار والملكة شهرزاد، وكونها مركزاً تنتقل منه الوحدات السردية إلى أصقاع العالم، ثم تعود إليه، فخيوط القصة تبتدئ من قصر شهريار، ثم تبتعد بعيداً، لتتشابك، ثم تُفكّ في قصر شهريار، وعبر المساحة السرديّة التي تُروى فيها الحكاية، نجد أن كثيراً من قسمات ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها وسلاطينها، ونزعاتهم صوب القتل، ونكاح النساء، متجسّدة في حياة شهريار، وسلوكه اليومي.

٢ - بغداد:

آ - لمحة تاريخية عن بغداد:

بغداد هي «أمُّ الدنيا وسيّدة البلاد»[٧٠]، و «كانت فيما مضى قصبة العباسيين الزّاهرة وعاصمة العالم الإسلامي (...) ويخترقها نهر دجلة، وهي على خط عرض٣٩° ١٩َ شمالاً وخط طول ٤٤° ٤٤َ شرقي كرينوتش»[٧١]. وعندما أراد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[٧٢] بناءها لجأ إلى المنجّمين لكي يرشدوه إلى تعيين الوقت الملائم لبنائها[٧٣].

---

(٦٩) ألف ليله وليلة، ٣٩/٤.

(٧٠) معجم البلدان، ٤٥٦/١.

(٧١) شترك، م Streck. M: "بغداد" في: "بغداد"، كتب دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٤ م، ص ١١.

(٧٢) أبو جعفر المنصور: (عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، ٩٥ - ١٥٨ هـ/٧١٤ - ٧٧٥ م): ثاني خلفاء بني العبّاس وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب.كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدّماً في الفلسفة والفلك، محبّاً للعلماء. ولد في الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفّاح سنة ١٣٦ هـ.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط/فبراير ١٩٩٧، الجزء الرابع، ص١١٧.

(٧٣) نادر، د. ألبير نصري: في شرح كتاب " أبو نصر الفارابي – كتاب الجمع بين رأيي الحكمين "، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، د. ت، ص ٦٣.

وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ المنصور: «استشار دهقان بغداد، وكانت قرية (...) فقال: الذي أراه يا أمير المؤمنين أن تنزل في نفس بغداد، فإنك تصير بين أربعة طساسيج[٧٤]: طسوجان في الجانب الغربي، وطسوجان في الجانب الشرقي، فاللذان في الغربي قَطْرُبُّل وبادوريا، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى، فإنّ تأخّرت عمارة طَسُوج منها كان الآخر عامراً وأنت يا أمير المؤمنين على الصّراة ودجلة، تجيئك بالميرة (...) فأعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء»[٧٥].

هذا وقد شرع المنصور في بنائها سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٣ م، ونزل إليها سنة ١٤٩ هـ/٧٦٦م[٧٦]. وقد بُنيت هذه المدينة التاريخيّة المهمّة، لتكون عاصمةً رئيسةً للدولة العباسيّة، ومركزاً حضارياً سياسياً مهمّاً، وقد أخذت في تخطيطها المعماري: «شكل دائرة يتوسّطها قصر الخليفة والجامع، وتحيط به قصور القادة ورجال الدولة. وكان لها سور وأربعة أبواب وهي: باب خراسان، وباب الكوفة، وباب الشام، وباب البصرة»[٧٧].

إنّ انفتاح بغداد على بلدان العالم التي حددها دهقان بغداد، كما ورد في معجم البلدان، جعل منها مدينةً حضاريّةً قابلةً لأن تتفاعل مع حضارات المدن المحيطة بها، وبالتالي لأن تكون مركزاً علمياً ومعرفياً في تاريخ العواصم العربيّة الإسلاميّة في العهد العباسي. وقد خُططت بغداد «لتكون عاصمة عهد إسلامي جديد، ولذا كانت فيها مؤسسات للخلافة إضافة إلى مؤسسات خاصة بالمدينة (...) فبغداد العاصمة، كانت مقرّ المؤسسة السياسيّة الأولى، الخلافة، مع تأكيد جديد على دورها الإسلامي، وفيها كان الإمام ـ الخليفة، الحامي، وأحياناً الدّاعي إلى آراء دينية سياسيّة (المهدي والزندقة، المأمون والاعتزال، المتوكّل والسنّة)»[٧٨].

وبالإضافة إلى كون بغداد مركزاً سياسياً مهمّاً في تاريخ الدولة العباسيّة، فقد رُوعي في بنائها أن تصدّ هجمات المغيرين، لأنّ أهل الكوفة كانوا يفسدون جند أبي جعفر المنصور «فبلغه ذلك من فعلهم، فانتقل عنهم يرتاد موضعاً»[٧٩]. ومن هنا كان تخطيطها يعتمد على تحصينها تحصيناً متيناً، بحيث يجعلها تصمد أمام هجمات المعتدين، وقد ساعد تخطيطها الدائري على ذلك، هذا التخطيط الذي:

---

(٧٤) طساسيج: مفردها طَسُوج: ناحية.

(٧٥) معجم البلدان، ٤٥٨/١.

(٧٦) معجم البلدان، ٤٥٧/١.

(٧٧) حلاق، د. حسان: مدن وشعوب إسلامية، ١٦٦/١.

(٧٨) الدوري، د. عبد العزيز: "المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية – نظرة تاريخية إلى بغداد"، مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية، بيروت، السنة السابعة والعشرون، ١٩٧٨ م/١٩٧٩ م، ص ١٢.

(٧٩) معجم البلدان، ٤٥٧/١.

«أوفى بالغرض الحربي بإعطاء رؤية متكاملة وواضحة للجند المدافعين عن أسوار المدينة عمّا لو كانت المدينة مستطيلة أو مربّعة، كما أنّ هذا التخطيط المستدير حقّق غرضاً اقتصادياً من ناحية التوفير في تكاليف البناء. فمحيط قطعة الأرض على شكل دائرة أقلّ من محيط المربّع المساوي لها في المساحة بمقدار ١١,٢٧٪. ولا شكّ أنّ التوفير في تكاليف الإنشاء أمر مرغوب فيه، ويدعم الموقف الحربي بصورة غير مباشرة، بالإضافة إلى أنّ الاقتصاد شرط من الشروط الأساسيّة التي يجب توافرها في العمارة بمعناها الصحيح [٨٠].

وقد كلّف هذا التخطيط المعماري لمدينة بغداد خزانة الدولة، في عهد المنصور، ثمانية عشر ألف ألف دينار، وفي رواية الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي، ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٢ م)، أنّ الخليفة المنصور أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق، حتى غاية انتهائه من بنائها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألف درهم[٨١].

إنّ بغداد أهمّ و« أشهر مدن الشرق، ومركز حضارة عالمية حتى سقوطها عام ١٢٥٨م، على يد هولاكو المغولي. [وهي] وقرطبة في الأندلس، كانتا مهد الحضارة الشرقية.»[٨٢]. ومع اتساع رقعة الدولة الإسلاميّة في العهد العبّاسي، وانفتاحها المعرفي والحضاري على حضارات العالم الأخرى، وتعقُّد الهيكليّة التنظيميّة والسياسيّة في الدولة العباسيّة، وحاجة الدولة إلى مؤسسات إدارية جديدة، ستتسع بغداد في عهد الخليفة هرون الرشيد (٧٨ - ٨٠٩ م)، وعهد ولده المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م)، لتصبح« تجمعاً كثيفاً يمتدّ على حوالي تسعة أو عشرة كلم. وذلك يعني أنّها أصبحت أهمّ مدن الشرق وأكبر مدينة في العالم، وقيل إنّ بيزنطيّة تمنّت بعض عزّها والطرق البريّة والبحريّة تتلاقى فيها، مما جعلها صرّة العالم، يصبّ فيها الغنى المادي والروحي من مختلف الأقطار. وقد ظلّت مركز العالم الإسلامي طوال خمسة قرون»[٨٣].

أخذت بغداد عبر تاريخها أسماءً عديدةً فهي «مدينة السلام»، أو «دار السلام»[٨٤].
ويبدو أنّها سمّيت بدار السلام تيمناً بالنصّ القرآني الكريم، فدار السلام في النصّ القرآني

---

(٨٠) عثمان، د. محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، "سلسلة عالم المعرفة"، العدد ١٢٨، ذو الحجة ١٤٠٨ هـ/آب (اغسطس،) ١٩٨٨ م، ص ١٤١.

(٨١) معجم البلدان، ٤٥٩/١.

(٨٢) الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م، ص ٤٠ – ٤١.

(٨٣) م ن، ص ٤٣. وأخذ الخازن عن:
Lombard, Maurice: L 'eslam dans sa première grandeur (x1e – x11 1e s.)' Flammarion, paris 1971, pp. 127-129.

(٨٤) شترك،م: Streck. M : "بغداد" في: "بغداد"، دائرة المعارف الاسلامية، ص ١٢.

نعني الجنّة[٨٥]. وقد وردت «دار السلام» في الآية الكريمة: ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[٨٦]. ووردت أيضاً في الآية: ﴿لهم دار السلام عند ربّهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون ﴾[٨٧]. وفيما بعد حدّد المسلمون جنان الأرض بأربعة مواضع وهي: الأبلّة[٨٨] وغوطة دمشق ووادي بقران ببلاد فارس وبغداد[٨٩].

ويروي ياقوت الحموي[٩٠] عن موسى بن عبد الحميد النسائي، أنّه قال: «كنت جالساً عند عبد العزيز بن أبي روّاد فأتاه رجل فقال له: من أين أنت ؟ فقال له: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد فإنّ بغ صنم وداد أعطى، ولكن قل مدينة السلام، فإنّ الله هو السلام والمدن كلّها له». ويطلق ياقوت الحموي[٩١] على بغداد الأسماء الآتية: بغداد وبغدان، وبغداذ، و مغداذ، ومغداد، ومغدان، ومدينة السلام، والزوراء.

وتنتسب بغداد في بعض التسميات، إلى منشئها أبي جعفر المنصور، فتسمّى بـ«المنصوريّة»[٩٢]. وقيل سمّيت بالزوراء قديماً، لأنّ قبلتها غير مستقيمة، إذا يحتاج المصلّي في مسجدها الجامع ؛ إلى أن ينحرف إلى جهة اليسار قليلاً حتى يقابل الكعبة[٩٣].

لقد اختار المنصور لبغداد موقعاً استراتيجياً مهمّاً، راعى فيه أن تكون محصّنة ضد هجمات الأعداء، يساعدها في ذلك موقعها الطبيعي الجغرافي، حيث نهرا دجلة والفرات، يشكّلان ما يماثل الخنادق الطبيعية التي تحمي المدينة، ويسهمان أيضاً في نقل الزاد والمؤونة والبضاعة التي تأتي إلى بغداد من ثغور المدن الأخرى، بالإضافة إلى توسّطها مجموعة من المدن الكبيرة والمهمّة التي شكّلت حواضر الدولة الإسلاميّة. ويبين ابن طباطبا[٩٤] أهمّية موقع بغداد قائلاً:

---

(٨٥) الكاشاني، المولى محسن الفيض: تفسير الصافي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، الجزء الثاني، ص ٣٩٩.

(٨٦) سورة يونس، آية ٢٥.

(٨٧) سورة الأنعام، آية ١٢٧.

(٨٨) الأبُلّة: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي اقدم من البصرة وكانت مدينة تابعة لكسرى وفيها مسالح وقائد من قبل كسرى.
- معجم البلدان، ٧٧/١.

(٨٩) شترك، م: "بغداد" في: "بغداد"، دائرة المعارف الإسلامية، ص ١٣.

(٩٠) معجم البلدان، ٤٥٦/١.

(٩١) م ن، ٤٥٦/١.

(٩٢) شترك، م: م س، ١٣.

(٩٣) ابن طباطبا، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دون محقق، دار صادر، بيروت، د. ت، ص ١٦٣.

(٩٤) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١٦٢.

«ونبّهه [أي نبّه المنصور] بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال: يا أمير المؤمنين تكون على الصّراة بين دجلة مع الفرات فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثمّ إنّ الميرة تأتيك في دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر والهند والصين والبصرة، وفي الفرات من الرّقة والشأم، وتجيئك الميرة أيضاً من خراسان وبلاد العجم في شطّ تامرا. وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل عدوّك إليك إلاّ على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر أو أخربت القنطرة لم يصل إليك عدوّك. وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد. وأنت قريبٌ من البرّ والبحر والجبل».

ويبدو أنّ هذا الموقع الجغرافي المهمّ لمدينة بغداد، يحقق الشروط التي يجب أن تتوافر في بناء المدن، حتى لا يصيبها الخراب لاحقاً، كما حددها ابن خلدون(٩٥) في مقدّمته إذ يجب أن تُبنى المدن في رأيه:

«إمّا على هضبة متوعّرة مِّن الجبل، وإمّا باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلاّ بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها. وممّا يُراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض؛ فإنّ الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفّنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها (...) وأمّا جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور. منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرّة، فإنّ وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية (...) وممّا يُراعى أيضاً المزارع؛ فإنّ الزروع هي الأقوات؛ فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتّخاذه وأقرب في تحصيله».

ويبدو أنّ موقع بغداد كان يحقق جميع هذه الشروط التي وضعها ابن خلدون، فهي قريبة من مناهل الماء، وهواؤها نقيّ، وتربتها صالحة لإنبات الزروع(٩٦)، ومن هنا فقد امتلأت بغداد بالبساتين في العهد العباسي، كما تصوّرها ألف ليلة وليلة.

لقد غدت بغداد من أهمّ الحواضر الإسلاميّة، بل والعالميّة في العصر العباسي، وتبوّأت مكانة الصدارة في العلم والثقافة والنشاط التجاري والاجتماعي في العالم(٩٧). وزادت غنىً

(٩٥) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، "مقدمة ابن خلدون" تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثالثة، شهر محرم ١٤٠١ هـ، الجزء الثاني، ص ٨٥١ ـ ٨٥٢ ـ ٨٥٣.

(٩٦) لمزيد من الاطلاع، ينظر: معجم البلدان، ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٩٧) الموسوي، مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربية الإسلامية، وزارة الثقافة والإعلام/ دار الرشيد، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م، ص ١٢٩.

وثراءً في عهد الخليفة هرون الرشيد، وبلغ العمران المديني فيها، أوج ازدهاره، وازدحمت شوارعها وأزقّتها بالناس، حتى قيل إنّهم بلغوا ما يزيد على مليون نسمة[٩٨].

ب - بغداد في ألف ليلة وليلة:

تُعدّ مدينة بغداد درّة مدن ألف ليلة وليلة، فهي أهم فضاء مكاني مركزي في هذه المدن، إذ يوليها الرّواة أهميّة خاصة، ويتوقف السرد في فضاءاتها وأزقّتها وقصورها طويلاً، ليعرّج على بنيات المكان والزمان، وتحديداً إبّان الخلافة العباسيّة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م - ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، وحياة خلفائها، إذ تحتفي الحكايات بالخليفة هرون الرشيد، وزوجته زبيدة، وولديه الأمين والمأمون، وقاضيه أبي يوسف ووزيره جعفر البرمكي، وأخته دنيا البرمكيّة، وندمائه ومسامريه كأبي نواس، والخليع الدمشقي.

لقد كانت بغداد في التاريخ مركزاً للعالم الإسلامي، وقد احتضنت العلماء والمتكلّمين والفقهاء العرب والمسلمين من غير العرب، وانفتحت على حضارات العالم الآخر، وبخاصّة الحضارة الفارسيّة لتحتضن كثيراً من علمائها ومعارفها، وكانت «مدينة زاخرة بكلّ العلوم والفنون (...) وما لبثت أن ازدهرت واحتوت على كلّ أسباب الترف والنعيم. وبعد مدة قصيرة من بنائها، كانت عروس الأقطار الإسلاميّة والأوروبيّة، فلم تكن على وجه الأرض أزهر منها».[٩٩] ولأنّها كانت كلّ ذلك فقد شكّل فضاؤها - بعلاقاته وعاداته وثقافاته وأخبار نسائه ورجاله - حقلاً مرجعياً مهمّاً، استمدّت الحكايات منه كثيراً من أبنيتها الفكريّة والمعرفيّة، وحوادثها التاريخيّة. ففي بغداد ألف ليلة وليلة، بالإضافة إلى أخبار الخليفة هرون الرشيد وحاشيته، أخبار العشق والغزل، والشخوص التي تسجّل ذكرياتها مع النساء والجواري، بجرأة معرفية في قضايا الجسد والجنس، يحسدها عليها أكبر الروائيين والقاصين المعاصرين، الذين عُرفوا بجرأتهم في الحديث عن خبايا الجسد. ومن حكايات العشق والجنس التي جسّدتها الليالي: «حكاية الحمّال والبنات»[١٠٠]، وحكاية «التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب جارية الخليفة هرون الرشيد»، [١٠١] وحكاية «علي بن بكار وشمس النهار»، [١٠٢] وحكاية «علاء الدين أبي الشامات»، [١٠٣] وحكاية «هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري»، [١٠٤] وحكاية « هرون الرشيد مع جعفر

---

(٩٨) م ن، ص ١٣٩.

(٩٩) أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال، العدد الثالث، ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م، ص ٦٣ - ٦٤.

(١٠٠) ألف ليلة وليلة ٤٦/١.

(١٠١) م ن، ٢١٧/١.

(١٠٢) م ن، ١٨٣/٢.

(١٠٣) م ن، ٣٤٧/٢.

(١٠٤) م ن، ٤٢٥/٢.

والجارية والإمام أبي يوسف»[(١٠٥)]، وحكاية « الجواري المختلفة الألوان»[(١٠٦)]، وغيرها من الحكايات الأخرى التي تأخذ مسا حات جدُّ واسعة من فضاء السرد وامتداداته من بغداد وإليها، كحكاية «علي الزيبق مع دليلة المحتالة»[(١٠٧)]، وحكاية «حسن الصائغ البصري»[(١٠٨)].

ومن خلال تعاطف أحد الرّواة مع مدينة بغداد، ومحبّته لها، فإنّه ينسى المدينة التي تكون فضاءً لحكايته في بداية سردها، ثمّ ينتقل إلى بغداد. ففي حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، نجد أنّ الرّاوي ينقل الملك عمر النعمان من دمشق إلى بغداد من دون مسوّغ يذكر، وانتقال هذا الملك لا يخدم معمار الحكاية وبناءها، ولا منطق الحكي، أو الوحدات السردية في تشكيلها للأحداث، بل هو انتقال إيديولوجي، يعبّر عن رغبة الرّاوي في أن تكون بغداد هي المدينة المركز والأهمّ من دمشق، وبالتالي يعبّر عن وعي الرّاوي المؤدلج ضد الدولة الأمويّة، وفي أن تصبح بغداد هي العاصمة المركزيّة بدلاً من دمشق الأمويّة التي لا يتعاطف معها هذا الرّاوي. فبغداد في ألف ليلة وليلة « موطن الخلفاء والسلطان والسياسة قد احتلت هذا المركز (الأهمّ) في الأذهان، وأصبحت كلّ مدينة لا تجد من نفسها قوة التأثير التي تتمتع بها بغداد».[(١٠٩)]

لقد كانت دمشق مقرّاً لإقامة الملك عمر النعمان وحاشيته، باعتباره ملكاً أمويّاً، وعندما يرتحل السرد بأولاد عمر النعمان صوب العالم، فإنّهم لا يعودون إلى دمشق، بل إلى بغداد، بعد أن يكون الرّاوي نقل أباهم إليها، وكأنّ دمشق الأمويّة، التي بدأ نجمها يأفل، أو التي يتمنّى الرّاوي أن يسرع في الأفول، لا تليق بملك عظيم الشأن استطاع أن يقهر «الأكاسرة والقياصرة»[(١١٠)]، بل لا تليق به إلاّ بغداد العباسيّة العريقة. أو لا يليق بزمان انتصاره على الملوك إلاّ الزمن العباسي[(١١١)].

---

(١٠٥) ألف ليلة وليلة، ٤٤٥/٢.

(١٠٦) م ن، ٧١/٣.

(١٠٧) م ن، ١١١/٤.

(١٠٨) م ن، ٢٤٥/٤.

(١٠٩) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، ص ٢٦٣.

(١١٠) ألف ليلة وليلة، ٢٩٢/١.

(١١١) الزمن الذي انتشر فيه العرب في الشرق والغرب فاتحين، الزمن الذي تحوّلت فيه لغة العرب إلى لغة عالمية في الدين والسياسة والعلم والحضارة، والذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى قمّة أمجادها في السلم والحرب والفكر والفن، وقدّمت للعالم رؤياها الخاصّة في كل جوانب الحياة، وتوطّدت سلطتها ما بين قلب أسيا في التيبت حتى أمواج المحيط الأطلسي، وورثت مهام الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية معاً.

- نبيل، مصطفى: "بغداد العباسية . رحلة في المكان والزمان"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت العدد ٢٤١، ديسمبر/ كانون الأول، ١٩٧٨، ص ٧٩.

يقول الرّاوي[١١٢]: «ثمّ إنّه أرسل [شركان بن عمر النعمان] جماعة من أصحابه إلى بغداد ليعلم والده عمر النعمان بقدومه»، مع العلم أنّ حركة الوحدات السردية لم تنقل سابقاً عمر النعمان من دمشق إلى بغداد، ولا يشير نمو الأحداث وحبكتها إلى ضرورة هذا الانتقال لا من قريب ولا من بعيد. وبدلاً من أن يعود الوزير دندان إلى دمشق، حيث مقرّ الملك ضوء المكان بن الملك عمر النعمان، فإنّ الرّاوي ينقله إلى بغداد: «ثم سار حتى أشرف على بغداد».[١١٣] وبعد أن كان هذا الرّاوي قد جعل عمر النعمان صاحب دمشق، فإنّه أسرع وجعله صاحب بغداد وخراسان[١١٤]. ويبدو أنّ «ممّا يزيد تشويق الحكاية ويضاعف مصداقيتها أن تقع أحداثها في مدينة كبيرة كبغداد، حتى وإن كان الرّاوي من خارج بغداد وعليه أن يأتي إليها. إنّ وقوع الأحداث في بغداد يجعلها أقرب إلى (...) وجدان المتلقي سواء كان ذلك الخليفة أو المتلقّي العام الذي لبغداد حضور خاص في مخياله».[١١٥]

إنّ بغداد في ألف ليلة وليلة جنّة جميلة من جنان الدنيا، ببساتينها، وحدائقها الجميلة: «قال الرّيس هذه بغداد (...) وقد ولّى عنها الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهرت أشجارها وجرت أنهارها».[١١٦] وبغداد لا تضاهيها مدينة في سائر البلدان، ففيها لذّة العيش ورفاهيته، وفيها الناس الطيّبون. يقول حسن البصري لمحبوبته منار السنا: «وأسافر إلى بلدي وأكون أنا وأنت في مدينة بغداد، واشتري لك الجواري والعبيد ولي والدة من أطيب الناس تكون في خدمتك وليس هناك بلاد أحسن من بلادنا. وكل ما فيها أحسن ممّا في غيرها من سائر البلاد، وأهلها ناس طيبون».[١١٧] ومن يأت إلى بغداد فإنّه سيجد مسكناً طيّباً، ولن يفكّر بالرّجوع إلى بلاده، فاليمانيّ في حكايته مع جواريه الست، يرتحل من اليمن إلى بغداد، ويستقرّ فيها، حيث يطيب له مسكنها[١١٨]. فهواء بغداد في الليالي معتدل،

---

(١١٢) ألف ليلة وليلة، ١/ ٢٧٠.

(١١٣) م ن، ٢/ ٨١.

(١١٤) م ن، ١/ ٢٩٣.

(١١٥) باقادر، د. أبو بكر: "العالم نصّ، النصّ عالم: حكاية جراب الكردي نموذجا"، علامات في النقد "كتاب دوري"، نادي جدّة الأدبي، جدّة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر ١٤١٨ هـ/يونيه ١٩٩٧ م، ص ٨٩.

(١١٦) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٩٩.

(١١٧) م ن، ٤/ ٢٨٢.

(١١٨) م ن، ٣/ ٧١.

ونسيمها رائق ورائحته ذكيّة، وبساتينها عظيمة مليئة بالطيور الجميلة «من قماري وهزار وشحارير وبلبل وفاخت وكروان».[١١٩] وهي مدينة النّعم والخيرات، ورجالها من أهل النعم والأموال الكثيرة[١٢٠].

إنّ فضاء بغداد في الليالي فضاء أليف محبب للنفس، وقادر على إزالة الهموم، وتبديد الأرق والقلق، فلقد كان الخليفة هرون الرشيد يبدد وحشته وقلقه، بالخروج من فضاء قصره، إلى شوارع بغداد الأليفة، و«حُكي أنّ الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي (...) وقال: إنّ صدري ضيق ومرادي في هذه الليلة أن أتفرّج في شوارع بغداد وأنظر في مصالح العباد».[١٢١]

لقد كانت بغداد في الليالي مدينة جميلة آسرة، تشرح الصدر، وكان الغريب القادم إليها يجد ملاذاً لغربته، وسكناً لروحه. يقول علي الزيبق المصري لنفسه عندما يفترسه وحش الغربة، ويضيق صدره: «قم شقّ بغداد ينشرح صدرك».[١٢٢] وسينشرح في ما بعد صدر علي الزيبق المصري، لأنّ بغداد ستعطيه كل شيء: المال والجاه والاقتراب من الخليفة هرون الرشيد، وأربع نساء من أجمل نساء بغداد: زينب النصّابة بنت دليلة المحتالة، وقمر بنت عزرا اليهودي، وبنت السقطي وجاريتها الجميلة[١٢٣]. وستهبه قصراً جميلاً، وقاعة بأربعة لواوين، [١٢٤] وأربعين مخدعاً لصبيانه الشطّار، كلّفت الدولة عشرة آلاف دينار[١٢٥].

إنّ صورة بغداد في ألف ليلة وليلة هي الصورة التاريخيّة التي تحدّثت عنها الأدبيّات التاريخيّة الكلاسيكيّة، وعندما نقرأ بغداد في الليالي، فإنّنا نقرؤها في هذه الأدبيات بملامحها وعلاقاتها وأخبارها نفسها. وإن كانت الليالي قد أعطتها عظمة سحرية تخيّليّة فاقت حدّ الواقع، فإنّ هذه العظمة تستقي كثيراً من ملامحها، من الواقع الحقيقي لمدينة بغداد، فهواء بغداد في المصادر التاريخيّة أفضل من كل هواء وماؤها

(١١٩) م ن، ٣٩٦/٢.

(١٢٠) م ن، ٤٣٥/٤.

(١٢١) ألف ليلة وليلة، ٤٢٥/٢.

(١٢٢) م ن، ١٧٤/٤.

(١٢٣) م ن، ١٧٧/٤.

(١٢٤) اللِّيْوان: الإيوان، وهو المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان (فارسيه).

- المنجد في اللغة، مادة: لين. ص ٧٤٣.

(١٢٥) ألف ليلة وليلة، ١٧٧/٤

أعذب من كل ماء، ونسيمها أرقّ من كلّ نسيم لأنّها في الإقليم الاعتداليّ بمنزلة المركز من الدائرة[١٢٦].

إنّ أهمية بغداد واتّساعها وانفتاحها على حضارات العالم، في تاريخ الخلافة العباسيّة، وتوظيفها في حكايات ألف ليلة وليلة بهذا البعد المعرفي المستفيد من هذه الحضارات، يجعل من الحكايات حقلاً مرجعياً ومعرفياً لمعالم هذه الحضارات. ولأنّ فضاء بغداد أهمّ فضاء مكاني بالنسبة لكثير من الرّواة، فإنّهم يأتون إلى هذا الفضاء ليشكّلوا الحكايات، ومعالم حضارات المدن الأخرى فيها، وليسردوها في قصور هذا الفضاء ومنازله. وكثيرة هي الحكايات التي يرتحل فيها السرد إلى مدينة بغداد، فأبو الحسن الخليع الدمشقي، يسرد ما شاهده من عشق نساء زمانه لرجال هذا الزّمان، أمام هرون الرشيد[١٢٧]. وعلي بن بكّار يرتحل من خراسان إلى بغداد ليقيم علاقة غراميّة مع جارية هرون الرشيد شمس النهار[١٢٨]. والأمراء الصعاليك الثلاثة يرتحلون إلى بغداد، ليسردوا قصص تشردهم أمام الخليفة الرشيد، وفي دار البنات الثلاث ببغداد[١٢٩].

وتمثل حكايات السندباد البحري أهمّ الارتحالات السردية، من المدن البعيدة إلى بغداد. ومن الملاحظ أنّ معظم الحكايات البغدادية، أو الحكايات المرتحلة إلى بغداد لا تسرد أحداثها الواقعية أو الأسطورية الشيّقة، إلا بحضور السلطة السياسيّة، التي يمثّلها الخليفة هرون الرشيد وولده المأمون. وعموماً يتزامن سرد الحكايات أمام الرشيد مع وجود الوزير جعفر البرمكي، ومسرور السيّاف، وأحياناً النديم أبي نواس، ومن هذه الحكايات: حكاية «محمد علي بن علي الجوهري مع الخليفة هرون الرشيد»،[١٣٠] وحكاية «هرون الرشيد مع الصياد»[١٣١]،

---

(١٢٦) معجم البلدان، ٤٦١/١.

هذا وقد مدح بعض الشعراء طبيعة بغداد الجميلة، وصفاء الحياة فيها فعلى سبيل المثال يقول الشاعر طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن مادحاً بغداد:

هي البلدة الحسناء، خُصّت لأهلها	بأشياء لم يُجمعن مذ كنّ في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحّة،	وماء له طعم ألذّ من الخمر
ودِجلَتها شطّان قد نُظما لنا	بتاج إلى تاج، وقصر إلى قصر
ثراها كمسك، والمياه كفضّة،	وحصباؤها مثل اليواقيت والدرّ.

- عن/معجم البلدان، ٤٦٣/١.

(١٢٧) ألف ليلة وليلة، ١٦٣/٢.

(١٢٨) م ن، ١٨٣/٢.

(١٢٩) م ن، ٥٥/١، ٦٠، ٧٢.

(١٣٠) م ن، ٤٢٥/٤.

(١٣١) م ن، ٨٨/١.

وحكاية «علاء الدين أبي الشامات»[١٣٢]، وحكاية «بدور بنت محمد علي بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني»[١٣٣].

إنّ بغداد كما تصوّرها الليالي مدينة مفتوحة أمام كل الناس، أكانوا عرباً أم عجماً أم من جنسيات أخرى. يسافر الناس منها وإليها، يأتيها بهرام المجوسيّ كما في حكاية «حسن الصائغ البصري»، ويأتيها علي بن بكّار، وعلاء الدين أبو الشامات، ويسافر منها السندباد، وتأتيها الجواري من اليمن، ومن أصقاع الأرض، وهي قبلة الناس من المدن الأخرى[١٣٤]. ففي بغداد العباسيّة امتزجت الأجناس البشريّة التي أتت إليها من الأمم المختلفة، وذلك «على أثر الفتوح الأمويّة، فكان منها العنصر البربري الوارد من بلاد المغرب، والعنصر الفارسي الوارد من بلاد فارس، والعنصر العربي الوافد من جزيرة العرب، واليمنيّون الآتون من اليمن، والنبطيون والروم الذين كانت تسوقهم الحرب بين المسلمين والبيزنطيين وغيرهم من العناصر والأجناس الأخرى».[١٣٥]

وبغداد من أهمّ المراكز التجارية المنتشرة في مدن ألف ليلة وليلة المترامية الأطراف، فهي قبلة للتجار من المدن الأخرى، نظراً لازدهار الحركة التجارية، وسهولة التعامل في البيع والشراء، فالناس في بغداد يعيشون وضعاً اقتصادياً متميّزاً ومزدهراً. وتجار بغداد يتضامنون مع أبناء تجار المدن الإسلاميّة المنكوبين، الذين يأتون بغداد، ويثقون بهم، ففي حكاية «علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد»، ينتقل علي المصري من مصر، بعد أن صرف كلّ أموال والده، وعندما يصل إلى بغداد يدّعي أمام تجارها، أنّ لصوصاً هجموا عليه، عندما سبق قافلته. يقول علي المصري[١٣٦]: «أنا رجل من مدينة مصر ومعي تجارة و بغال وأحمال وعبيد وغلمان فسبقتهم لكي أنظر لي محلاً أحطّ فيه تجارتي، فلمّا سبقتهم وأنا راكب على بغلتي قابلني جماعة من قطاع الطرق». وعندما يستمع بوابو بغداد إلى قصته، يسارعون إلى إكرامه قائلين: « مرحباً بك فبت عندنا إلى الصباح، ثم ننظر لك محلاً يليق بك».

---

(١٣٢) م ن، ٢/٢٤٧.

(١٣٣) م ن، ٣/٥٨.

(١٣٤) مع ملاحظة أنّ بعض أبطال الليالي يستبدلون مدنهم الأصليّة بمدينة بغداد المركزيّة، ويستقرّون ويموتون فيها، فعلاء الدين أبو الشامات - وعلى الرغم من ثرائه في مصر، باعتبار والده شاه بندر التجار - يترك مصر، ويرتحل إلى بغداد ويموت فيها، وحسن الصائغ البصري يترك البصرة ليعيش في بغداد و يموت فيها، وعلي الزيبق المصري يغادر مصر ويرتحل إلى بغداد ليظلّ فيها إلى آخر حياته.

(١٣٥) أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، ص ٧٢.

(١٣٦) ألف ليلة وليلة، ٣/٢١٣.

ومن بغداد تذهب القوافل التجارية ميمّمة صوب مدن بعيدة من العالم لتشتري وتبيع، ويسمّيها الرّاوي بمدن اليهود[١٣٧]. وفي بغداد تربو أموال التجارة، وتتضاعف أرباحها، ولذا فهي محطّ أنظار التجار. يقول أحد أولاد التجار، في حكاية «علاء الدين أبي الشامات»: «ثم أخذت متجراً من الشام وسافرت إلى بغداد وبعته فربحت المثل مثلين، ولم أزل أتّجر حتى صار رأس مالي نحو عشرة آلاف دينار»[١٣٨]. وهاهو علاء الدين أبو الشامات بالرّغم من ثراء والده الفاحش، يطلب من والدته أن تتوسط له عند أبيه ليسمح له بالسفر إلى بغداد، حيث الأرباح، والثراء: «فقالت له: إلى أيّ البلاد تسافر؟ فقال لها: إلى مدينة بغداد، فإنّ الإنسان يكسب فيها المثل مثلين»[١٣٩]. ومن لا يذهب تاجراً إلى بغداد، فإنّه لا يصبح رجلا، ولا خبيراً في كسب الدراهم، وليس فخر التجار إلا بالسفر لأجل أن يكسبوا الدّراهم[١٤٠]. ويقرّر ذلك علاء الدين أبو الشامات، ويصمم على السفر إلى بغداد: «لا بدّ لي من السفر إلى بغداد. بمتجر وإلا خلعت ثيابي ولبست ثياب الدراويش وطلعت سائحاً في البلاد».[١٤١]

لقد كانت بغداد مركزاً حضارياً فاعلاً في تنشيط حركة التجارة وازدهارها في الدولة العباسيّة، إذا أصبحت في هذه الدولة: « المركز الرئيس للصناعة والتجارة المحلّية والدوليّة. وأُنشِئت [في هذه الدولة] شبكة من الطرقات في البرّ والبحر رَبطت المدن المهمّة في بلاد الخلافة بالعالم الخارجي، ففي الشرق وصل التجار المسلمون إلى الصين، وفي الشمال اخترقوا بقوافلهم بلاد الروسيّة، وفي الغرب لم يتوقّفوا إلاّ على شواطئ المحيط الأطلسي. وأعظم ما جذب العرب إلى الصين كان الحرير، و« وطريق الحرير العظيمة» قادتهم خلال بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وخلال التركستان».[١٤٢]

ولقد وعى سكان مدن ألف ليلة وليلة أهمّية بغداد التجاريّة، ودورة رأس المال السريعة فيها، فقرّروا أن يرتحلوا ببضائعهم إليها. ففي حكاية «التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب»، وعندما يموت أيوب والد غانم، يترك له أموالاً كثيرة، فيقرر غانم الارتحال بها إلى بغداد لتثمينها، إذ يأخذ «مائة حمل من القزّ والديباج ولوافح المسك (...) وسافر بها إلى بغداد

---

(١٣٧) م ن، ٣٥٥/٣.

(١٣٨) م ن، ٣٥٤/٢.

(١٣٩) م ن، ٣٥٥/٢.

(١٤٠) م ن، ٣٥٤/٢.

(١٤١) ألف ليلة وليلة، ٣٥٥/٢.

(١٤٢) حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار/مارس، ١٩٨٣م، ص ١٨٥.

- وكان ذلك في زمن هرون الرشيد -»[١٤٣]. وهنالك في بغداد يتلقّاه أبناء كاره بالإكرام والترحيب إذ تتضاعف أمواله. يقول الراوي[١٤٤]: «ونزل بها [غانم بن أيوب] إلى سوق التجار فلاقوه وسلّموا عليه وأكرموه وتلقّوه بالترحيب وأنزلوه على دكان شيخ السوق وباع التفاصيل فربح في كل دينار دينارين».

إنّ بغداد في الليالي حلم الطامعين بالثروة، ولذّة العيش[١٤٥]، ولذا فإنّ القوافل التجاريّة تسافر من مصر إليها[١٤٦]. وها هو علي الزيبق المصري يسافر مع هذه القوافل، بعد أن سمع عن ثراء الشطّار - رفاق مهنته -، وبعد أن أخبره سيّده «أحمد الدنف»، أنّ بغداد يمكن أن تعطي الطامحين إلى السلطة والثروة كلّ ما يريدونه، فلقد أعطت أحمد الدنف، أحد الشطّار المصريين القادمين إلى بغداد وظيفة مقدّم بغداد في ديوان الخليفة هرون الرشيد، بعد أن أظهر براعته في النصب والاحتيال. يقول أحمد الدنف:[١٤٧] «وبعد فالسّلام من المقدّم أحمد الدنف إلى أكبر أولاده علي الزيبق المصري والذي نعلمك به أنّي (...) أصبحت مقدّم مدينة بغداد في ديوان الخليفة ومكتوب على درك البرّ، فإن كنت ترعى الذي بيني وبينك فأتِ عندي لعلك تلعب منصفاً في بغداد يقرّبك من خدمة الخليفة».

ولقد عرفت هذه المدينة بطراً وثراءً، لم تعرفه أيّة مدينة أخرى في العهد العباسي، ولا الأموي، إذ عايش الناس رفاهية ولذّة في حياتهم، بفضل الأموال الكثيرة المتدفّقة على الدولة من الضرائب الكثيرة، إذ «كان الملوك المستقلّون يرسلون الأموال الوافرة إلى الخليفة في بغداد اتّقاءً لسطوته، وابتغاءً لمرضاته. فكان الطولونيون، مثلاً، يدفعون في القرن التاسع [الميلادي] ٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة لخليفة بغداد الذي كانت ميزانيته تتكون حتى أواخر القرن التاسع من دنانير الغرب ودراهم الشرق»[١٤٨].

وأمام زيادة الثروة فيها، يبدو من الطبيعي أن يقصدها طالبو الأموال، والباحثون عن حلّ لمشاكل عوزهم وفقرهم. فها هو أحد البدو في حكاية «عمر النعمان وولديه»، يعجز عن

---

(١٤٣) ألف ليلة وليلة، ٢١٧/١.

(١٤٤) م ن، ٢١٧/١.

(١٤٥) وبغداد في التاريخ هي "المدوحة في الورى، التي يحلم بها كل حاذق وكل قلب".

- ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر – الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٣٨٧.

(١٤٦) ألف ليلة وليلة، ١٤٣/٤.

(١٤٧) ألف ليلة وليلة، ١٣٤/٤.

(١٤٨) الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص ٨٧

وأخذ الخازن عن:

Lombard, Maurice: L'Islam dans sa premie're grandeur (X1e – X11Ie s.), P. 116.

الزواج بابنة عمّه، بعد أن اشترط عمّه «عليه من الصداق ما لا يُطاق»[١٤٩]، فيقرّر أمام عجزه عن دفع مهرها أن يذهب إلى بغداد الثريّة، ليجلب المال، ويتزوجها. يقول البدوي للأمير (كان ما كان)، عندما يسأله هذا الأخير عن وجهة سيره: « اقصد بغداد بلدك وأقيم بها حتى يرزقني الله بالصداق»[١٥٠].

وبغداد كريمة - في أوج ازدهارها المالي - لا تضنّ بخيراتها على أصحاب المهن المتدنيّة. ومن يقصدها منهم، لا بدّ أن يجد مأمناً من ذلّ الحاجة والفقر. فهاهو أحد الجزّارين يصبح غنيّاً فيها، ففي حكاية «الأحدب وملك الصين»، يقول المزيّن لملك الصين، عن أخيه الجزّار: « فإنّه كان جزّاراً ببغداد يبيع اللحم ويربّي الخرفان، وكان الكبار وأصحاب الأموال يقصدونه ويشترون منه اللحم، فاكتسب من ذلك مالاً عظيماً»[١٥١].

وتشير الليالي إلى أنّ بغداد كانت تُكرم السقّائين الغرباء الوافدين إليها، ويبدو أنّ هذه المهنة كانت منتشرة في المدينة العربيّة الإسلاميّة في العهدين الأمويّ والعباسيّ، إذ اكتظّت المدينة الإسلاميّة بأناس محترفين يكتسبون من وراء إسقاء المارّة بالأسواق، وهؤلاء كانوا يسقون الناس بالكيزان والرّوايا والقِرَب والدلاء[١٥٢]. ونقرأ في حكاية «علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة»، أنّ سقّاء مصرياً قدم إلى بغداد، وهناك وجد عطفاً واحتراماً كبيرين، من شيخ السقّائين ببغداد. يقول السقّاء: « ثم سألت عن شيخ السقّائين ببغداد فدلّوني عليه، فدخلت وقرأت الفاتحة (...) فأخلى لي دكاناً وأعطاني قربة وعدة»[١٥٣] وعندما يتعرّف هذا السقّاء إلى مقدّم بغداد أحمد الدنف، يكرمه هو وأصحابه، ويغدقون عليه، حتى يصبح دخله ألف دينار: «وقال [أحمد الدنف] يا سقّاء من أين أنت؟ فقلت له من مصر، فقال حيّا الله مصر وأهلها. وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة، فحكيت له قصتي وأفهمته أنّي مديون وهربان من الدين والعيلة. فقال مرحباً بك فأعطاني خمسة دنانير، وقال لأتباعه اقصدوا وجه الله وأحسنوا إليه فأعطاني كلّ واحد ديناراً (...) فصرت أتردّد عليهم وصار يأتيني الخير من الناس، ثم بعد أيام أحصيت الذي اكتسبته منهم فوجدته ألف دينار»[١٥٤].

---

(١٤٩) ألف ليلة وليلة، ٩٤/٢.

(١٥٠) م ن، ٩٤/٢.

(١٥١) م ن، ١٦٨/١.

(١٥٢) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: " الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية "، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، ١٩٨٠ م، ص ١١٧.

(١٥٣) ألف ليلة وليلة، ١٤١/٤.

(١٥٤) م ن، ١٤١/٤ – ١٤٢.

ويمكننا أن نتخيّل رقعة الدولة العربيّة الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة، فضاءً مفتوحاً، يجد المرء نفسه داخل هذا الفضاء قادراً على التنقّل بسهولة، حيث لا رقابة ولا حدود ولا جمارك، وحيث العرب والمسلمون متآلفون في سما بينهم، وقادرون على تبديد الشعور بالمأساة لدى الغرباء القادمين إلى مدنهم، فالعربيّ من مصر يجد نفسه بين أهله وأصدقائه إذا زار بغداد[١٥٥]، والعربيّ الواعظ من بغداد إذا جاء إلى حماة، يجد أنّه مشمول بالرّعاية والاحترام، إذ يكثر الوافدون إلى منزله من الفقهاء وذوي المعارف والآداب[١٥٦]، كما في حكاية «سيدة المشايخ ببغداد وقدومها إلى حماة». إلاّ أنّه ومن الملاحظ، وفي البنية العامة لحكايات ألف ليلة وليلة، أنّ الأشخاص المسافرين إلى مدن غيرهم، سواء أكانت عربية أم إسلاميّة، أم أجنبيّة، أم تخيّليّة، يرجعون إلى أوطانهم، مهما بعدت بهم المسافات والأزمنة. نستثني من ذلك بعض المسافرين إلى بغداد. وكأنّ تراب الوطن لا يعادله أي تراب آخر. ويجسّد الرّاوي رغبة الأفراد المسافرين، بالعودة إلى بلدانهم، على لسان أحد شخوص الحكايات، إذ يرى أنّ إقامة الغريب في بلاد الآخرين خواءٌ مدمّر للأحلام والمنى:

كبنيان القصور على الرياح **إقامات الغريب بكلّ أرض**
لقد عزم الغريب على الرواح[١٥٧]. **يهبُّ الرّيح تنهدم المباني**

لقد كانت بغداد أكثر مدن ألف ليلة وليلة التي يرتحل السرد منها وإليها، باعتبارها «مدينة أمينة»[١٥٨]. ولأنّها «دار السلام»[١٥٩]، فإنّ الفرد يستطيع أن يعيش فيها بأمان وسلام، ويستطيع أن يحافظ على أمواله من شرّ الطامعين فيها، في المدن الأخرى، فحسن الصائغ البصري بعد أن يصبح غنيّاً في البصرة، تخاف عليه أمّه، وتقترح عليه الذهاب إلى بغداد: «قالت يا ولدي: نحن بهذا المال لا نقدر أن نعيش في هذه المدينة، وأنت تعرف أنّنا أناس فقراء(...) فقم بنا نسافر إلى مدينة بغداد دار السلام»[١٦٠]. وقد سافر حسن الصائغ البصري إلى بغداد لأنّها أكثر ازدهاراً وثراءً من البصرة، ففي بغداد طبقة ثريّة جداً، لن تستغرب إلى أي مدى وصل إليه ثراؤه، لأنّ ثراءه سيبدو عادياً ومألوفاً في بغداد المتخمة بالثراء الفاحش.

وإذا كان الأشخاص الفقراء والأغنياء يقصدون بغداد طلباً لمزيد من الثراء وتثمين الأموال، والمحافظة عليها، فإنّ الملوك الجبابرة وذويهم يذهبون إلى بغداد طلباً للصلح والأمان.

---

(١٥٥) كما يظهر في حكايتي: علاء الدين أبي الشامات، وعلي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد.
(١٥٦) ألف ليلة وليلة، ١٩٦/٢.
(١٥٧) ألف ليلة وليلة، ١٣٢/٤.
(١٥٨) م ن، ١٩٩/١.
(١٥٩) م ن، ٤١٥/٢ ؛ ٤/ ٣٦٨.
(١٦٠) م ن، ٢٩٠/٤.

فهاهي العجوز شواهي ذات الدواهي، أم الملك حردوب (ملك الروم)، تذهب إلى بغداد، لأنّها «تريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان»[١٦١].

وأهل بغداد، كما يراهم أحد رواة ألف ليلة وليلة، أهل وفاء وأمانة، ويؤدّون الأمانة إلى أهلها، وهم معروفون بهذه الأمانة في الأقاليم المجاورة، فهاهو أحد الرجال الخراسانيين (لا يذكر الرّاوي اسماً له)، يأتي من خراسان إلى بغداد ليضع أمواله أمانة عند أبي حسّان الزيادي. يقول الزيادي:[١٦٢] «دخل عليّ غلام فقال لي: إنّ بالباب رجلاً يطلب الدخول عليك. فقلت ائذن له، فدخل فإذا هو رجل خراساني، فسلّم عليّ فرددت عليه السلام. ثمّ قال لي: هل أنت أبو حسّان الزيادي؟ قلت: نعم وما حاجتك؟ قال: إنّي رجل غريب وأريد الحجّ ومعي جملة من المال وأنّه قد أثقلني حمله وأريد أن أدع عندك هذه العشرة الآلاف درهم إلى أن أقضي حجّي وأرجع».

وتصل أخبار بغداد وأخبار الحياة الآمنة فيها إلى الصين، كما يذكر الرّاوي في حكاية «الأحدب وملك الصين»، فالرّجل الأعرج يرفض الجلوس بحضور المزيّن البغدادي - ابن مدينته - في إحدى الدور، لأنّ المزيّن البغدادي كان السبب في كسر رجله. وعندما يؤكّد الرّاوي الخيّاط لملك الصين أنّ الرّجل الأعرج رفض الجلوس مع المزيّن، لأنّه ما أحسّ نحوه بالأمان، تساءل ملك الصين مدهوشاً: «كيف يكون هذا الشاب من بغداد ويتشوش خاطره من هذا المزيّن؟»[١٦٣]. وكأنّ على سكان بغداد، ألاّ يشعروا بالقلق والخوف، طالما أنجبتهم بغداد التي وصلت أخبارها إلى الصين، على أنّها مدينة آمنة وهادئة[١٦٤].

إنّ بغداد في الليالي فضاءٌ حالم بالنسبة للشخوص، فهي محطّة للمتعة والمسرّات،[١٦٥] والمآكل اللذيذة، والأخبار العجيبة التي تفوق الأساطير. إنّها ميناء اللّذات بامتياز، ولا يفوقها ميناء آخر في هذا المنحى، في مدن ألف ليلة وليلة جميعها. ولأنّها هذا الميناء اللذائذي، فقد كانت حلماً لأحد البدو، الذي قصدها خصيصاً من البادية، لأجل أن يأكل الزلابية التي لم

---

(١٦١) م ن، ٢/٩٥.

(١٦٢) م ن، ٣/١٢٥.

(١٦٣) ألف ليلة وليلة، ١/١٥١.

(١٦٤) ومن الطبيعي ان يسمع ملك الصين ببغداد وأخبارها، ويعرف جزءاً من تركيبتها السياسية والاجتماعية، ولاسيما أنّه كان للعرب جالية كبيرة في مدينة كانتون في الصين. وقد نُظّم فيها ديوان البحر، وكان يُخطب فيها للخليفة العباسي. وإمبراطور الصين يستقبل تجار المسلمين بالحفاوة والتكريم".

- الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص ٩٥.

(١٦٥) وقد وصف أحدهم بغداد وصفاً لا يبتعد كثيراً عن خصائصها الجمالية في ألف ليلة وليلة، إذ قال: "بغداد جنّة الأرض ومدينة السلام وقبّة الإسلام ومجمع الرافدين وغرّة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيّبات ومعدن الظرائف واللطائف".

- عن/معجم البلدان، ١/٤٦١.

يذقها طوال حياته، في مجتمعه البدوي: «فقال البدوي لا بدّ من دخولي بغداد وآكل فيها زلابية بعسل. وكان عمره ما رآها ولا دخل بغداد»[١٦٦].

وبغداد قبلة الجواري الجميلات اللواتي يُبعنَ في أسواق رقيقها، هاته الجواري اللواتي لا تستطيع الشخصيّات مقاومة جمالهنّ، وتكاد تقتل أنفسها، إذا ما خرجن من حقل امتلاكها. يقول أحد الشخوص بعد أن فقد جاريته الجميلة: «كدت أن أقتل روحي فتذكّرت الآخرة والنار فخرجت من بيتي هارباً إلى بعض الأصدقاء (...) وقال: اقبل رأيي واخرج في هذه الساعة من بغداد (...) إلى أن يشتغل قلبك عن حبّها وتسلو عنها»[١٦٧]. وهاهو أحد سادة البصرة الأثرياء، ترك البصرة، ويمّم صوب بغداد، لأجل أن يسمع الغناء، ويشتري الجواري، ويزداد ثراءً بالاقتراب من خليفتها هرون الرشيد. يقول: «أنا رجل قد وسّع الله عليّ وإنّما وردتُ بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقي من أمير المؤمنين»[١٦٨]. مع ملاحظة أنّ هذا الرّجل السيّد هو «هاشمي من أهل البصرة، وكان ذلك الرّجل أديباً ظريفاً كريم النفس فاشتراها [جارية من بغداد] بألف وخمسمائة دينار»[١٦٩].

ويبدو أنّ فضاء البصرة بكلّ اتّساعه، وعلى الرّغم من أنّه أعطى الرّجل الهاشمي السيادة والمال، لم يكن كافياً لكبح جموح نزعة التوق والحنين إلى فضاء جماليّ آخر هو فضاء بغداد، بأصوات نسائه الجميلات، وأموال خليفته هرون الرشيد التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

لقد كانت بغداد العباسيّة قبلة المغنين والمغنّيات ومحبّي الموسيقى، وقد «انتشر الغناء في العصر العباسي انتشاراً كبيراً حتى أصبح يُعدّ من حاجات الناس الضرورية، فظهر المغنّون والمغنّيات في المحالّ العامة، وفي الشوارع، وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء والفقراء ولم يتحرّج بعض الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغنّي بها»[١٧٠]. ولقد احتفت حكايات ألف ليلة وليلة بهاته المغنّيات، احتفاءً واضحاً، وتحدّثت عن بعض آلاتهن الموسيقية، وإشاعتهنّ فضاء اللّذة والمتعة في القصور والدور التي يغنين فيها[١٧١].

---

(١٦٦) ألف ليلة وليلة، ١٣١/٤

(١٦٧) م ن، ٤٣٧/٤.

(١٦٨) ألف ليلة وليلة، ٤٣٩/٤.

(١٦٩) م ن، ٤٣٦/٤.

(١٧٠) سرور د. محمد جمال الدين: "الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي"، مجلة العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت العدد ٥٧، أغسطس/آب، ١٩٦٣ م، ص ٣٢.

(١٧١) تحتفي بعض حكايات الليالي:حكاية هرون الرشيد ومحمد بن علي الجواهري، وحكاية علاء الدين أبي الشامات، وحكاية حمّال بغداد والبنات، وغيرها، احتفاء كبيرا بالنساء المغنيات والعاشقات.

وبالإضافة إلى مركزيّة بغداد الاقتصاديّة والتجاريّة والترفيهيّة في الليالي، فإنّها ذات مركزيّة سياسيّة، وهي مركز للسلطة الدينية في آن، لأنّها عاصمة للدولة الإسلاميّة ومركزٌ للخلافة، إنّها «قصر الخلافة»[١٧٢]، ومدينتها، وهي بالتالي تهيمن سياسيّاً وسلطويّاً على المدن الأخرى، سواء أكانت قريبة منها، أم بعيدة عنها. ولأنّها «حرم الخليفة»[١٧٣] العباسيّ، فإنّ لها منعتها، وحصانتها السياسيّة، والأوامر الصادرة من خليفتها إلى المراكز والأقاليم الأخرى، لها قوّتها التنفيذية، بحيث لا يستطيع أي والٍ، مهما كان عظيم الشأن، أن يرفض أوامر الخليفة. ولقد قامت حضارة بغداد العباسيّة على احتضان الأمصار المجاورة لها[١٧٤]، والهيمنة عليها، والتفاعل مع هذه الأمصار ثقافيّاً وحضاريّاً، وعلاقات إنسانيّة واقتصاديّة. فقرارات الخليفة هرون الرشيد في الليالي صارمة، ولا يستطيع الولاة إلاّ أن يخرّوا لها ساجدين، فها هو المتولّي على البصرة محمد الزبيدي، عندما يتلقّى خطاباً من هرون الرشيد، يسرع إلى إكرام حامله: «ودخل [الرّسول] على الأمير محمد الزبيدي، ففرح به و أكرمه غاية الإكرام، ثمّ قرأ عليه بطاقة أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال سمعاً وطاعة»[١٧٥]. وهاهو الخليفة الرشيد يوجّه خطاباً إلى واليه بالبصرة، السلطان محمد بن سليمان الزيني، فما كان من الوالي السلطان إلاّ أن قبّل الخطاب هيبةً من الرشيد وتعظيماً لرسوله: « ثم أخرج [علي نور الدين] الورقة وأعطاه إيّاها، فلمّا رأى [السلطان محمد بن سليمان الزيني] عنوان الكتاب بخطّ أمير المؤمنين قام واقفاً على قدميه وقبّلها ثلاث مرات، وقال السمع والطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين»[١٧٦].

لقد كانت سلطة بغداد العباسيّة ـ تاريخيّاً ـ مستمدّة من الله، باعتبار أنّ حكّامها هم خلفاء الله وأئمته في أرضه، وقد سنّ داود بن علي[١٧٧] سياسة هذه السلطة، منذ أن بويع لأبي العبّاس عبد الله بن محمد السفّاح سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م، إذ صعد داود منبر الكوفة، وقال:

---

(١٧٢) ألف ليلة وليلة، ٤/ ٢٣٠.

(١٧٣) م ن، ٤/ ٢٩٠.

(١٧٤) جعيط، د. هشام: الكوفة – نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م، ص ٤٤٧.

(١٧٥) ألف ليلة وليلة، ٣/ ٨.

(١٧٦) م ن، ١/ ٢١٢.

(١٧٧) داود بن علي: (داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ٨١ – ١٣٣ هـ/ ٧٠٠ – ٧٥٠ م): أمير من بني هاشم، وهو عمّ السفاح العباسي. كان خطيبا فصيحا، من كبار القائمين بالثورة على بني أميّة. ولمّا ظهر العباسيّون ولاّه السفاح إمارة الكوفة، ثم عزله عنها وولاّه إمارة المدينة ومكّة واليمن واليمامة والطائف، فانصرف إلى الحجاز، وأقام في المدينة، فعاجلته منيّته.

- الزركلي، خير الدين: الإعلام، ٢/ ٣٣٣

«يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلّى عليه وسلم إلاّ علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم - يعني أبا العبّاس السفّاح -»[١٧٨].

وهاهو الخليفة أبو جعفر المنصور، الذي استلم مقاليد السلطة سنة ١٣٦ هـ/٧٥٤ م، يرسّخ قدسية السلطة العباسيّة، مؤكّدا أنّه ظلّ الله على أرضه، وسلطانه على عباده. يقول في خطبة له: « أيّها النّاس إنّما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه فارغبوا إلى الله وسلوه أن يوفّقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم»[١٧٩].

ومن داخل البنية المعرفيّة لرواة ألف ليلة وليلة، التي تعي سطوة هذه السلطة في التاريخ، نجد أنّ راوي إحدى حكايات الليالي، يجعل من هذه السلطة ظاهرة شمولية، لا لتكون سلطة شمولية على الأرض بسكانها، بل لتكون سلطة على عالم الجن والعفاريت أيضاً. فها هو الخليفة هرون الرشيد في حكاية «الحمّال والبنات»، يجلب الجنيّة التي سحرت الأختين الكبيرتين من خلف جبل قاف، وحينما تشاهده هذه الجنيّة تدين له بالطّاعة، باعتباره خليفة الله: «وإذا بالجنيّة قد حضرت وكانت مسلمة، فقالت: السّلام عليك يا خليفة الله، فقال وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.»[١٨٠]. وعند ذلك أمرها الخليفة الرشيد بتخليص الأختين الكبيرتين من حال المسوخيّة «الحالة الكلبيّة» إلى حال «الصورة البشريّة»[١٨١].

إنّ من يخرق بعض محرّمات سلطة بغداد المركزيّة - حتى ولو كان هذا الخرق ناتجاً عن عدم معرفة بهوية هذه السلطة - أو من يقترب من حظاياها اللواتي تقذفهنّ المقادير إليه بالمصادفة، لا بدّ من أن ينال عقاباً قاسياً، يُشَهّر به بين أفراد مدينته. فالتّاجر غانم بن أيوب يعشق قوت القلوب، حَظِيّة الخليفة هرون الرشيد، من دون أن يعلم أنّ الماثلة أمامه، تعود ملكيتها إلى قصر الخلافة، عندها يستنفر هرون الرشيد أحقاده على غانم بن أيوب، من دون أن يعرف الأسباب الجوهريّة التي جعلت الحظيّة قوت القلوب تعشق هذا الرّجل الكريم الذي أنقذها من الموت. يقول الرّاوي[١٨٢]: «فقال له الخليفة بغيظ: أنزل يا جعفر [البرمكي]

---

(١٧٨) المسعودي، علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ/١٩٩١ م الجزء الثالث، ص ٢٦٢.

(١٧٩) عن/نبيل، مصطفى: "بغداد العباسيّة – رحلة في المكان والزمان"، ص ٩٠.

(١٨٠) ألف ليلة وليلة، ١/ ٨٧.

(١٨١) م ن، ١/ ٨٨.

(١٨٢) م ن، ١/ ٢٣٤.

واسأل عن بيت غانم بن أيوب واهجموا على داره وائتوني بجاريتي قوت القلوب، ولا بدّ أن أعذّبه». وبناء على أوامر الخليفة يهجم الوزير والوالي والظّلمة[١٨٣] - كما تسمّيهم شهرزاد - ويحيطون بدار غانم بن أيوب، وينهبون كلّ ما فيها، ويحملون قوت القلوب، وكلّ ما تحتويه دار غانم بن أيوب من مجوهرات وأموال[١٨٤].

ومن غضب عليه أحد خلفاء بغداد العباسيّة في الليالي، فإنّ مصيره النفي والاغتراب الأبدي، إلى أن يأتي هازم اللّذات، ويأخذ هذا الخليفة. فالخليفة المنتصر بالله[١٨٥] في حكاية «مزيّن بغداد» الدّاخلة في حكاية «الأحدب وملك الصين»، يستمع إلى المزيّن، وهو يحكي له قصص أخوته الستة، وعندما لا تعجبه هذه الحكايات يقرر أن ينفي المزيّن نفياً أبدياً خارج بغداد. يقول المزيّن[١٨٦]: «فلمّا سمع أمير المؤمنين قصتي (...) قال: اخرج من هذه المدينة، واسكن غيرها، ثم نفاني من بغداد، فلم أزل سائراً في البلاد حتى طفت الأقاليم إلى أن سمعت بموته وخلافة غيره، فرجعت إلى المدينة». ويبدو مستحيلاً أن يفكّر هذا المزيّن بالعودة إلى بغداد ثانية، ولا سيما إذا عرفنا أنّ هذا الخليفة، كما تصوّره المصادر التاريخيّة، كان ذا سطوة مطلقة، و«فاتكاً سفّاكاً للدم». ومن شدّة بطشه فقد قتل أباه جعفر المتوكّل[١٨٧].

ومن ترضى عنه بغداد السياسيّة والمركز في الليالي، فإنّها تعطيه كلّ شيء، وتتوّجه أميراً مكللاً بالإمارة والقصور والبساتين، وتنتقم له من أعدائه شرّ انتقام. فالخليفة هرون الرشيد في حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، يُعجب بكرم علي نور الدين وشهامته، فيشرح له هذا الأخير ظلم وزير البصرة - المعين بن ساوي - وسلطانها محمد بن سليمان الزيني، ومطاردتهما له، عندها يقرر الرشيد أن يقتل الوزير المعين بن ساوي، انتقاماً لعلي نور الدين بن خاقان، ويسلّمه ولاية البصرة. لكنّ علي نور الدين لا يستطيع أن يفارق بغداد الجميلة، فيرفض حكم البصرة، على أن يبقيه الخليفة بجواره ببغداد: «فعند ذلك قال الخليفة لعلي بن خاقان تمنّ عليّ، فقال له يا سيدي أنا مالي حاجة بملك البصرة وما أريد إلاّ مشاهدة وجه

(١٨٣) م ن، ١/ ٢٣٤.

(١٨٤) م ن، ١/ ٢٣٥.

(١٨٥) المنتصر بالله: (محمد بن جعفر(المتوكّل على الله) بن المعتصم، ٢٢٣ - ٢٤٨ - هـ/٨٣٨ - ٨٦٢م): من خلفاء الدولة العباسيّة وُلد في سامرّاء، وبويع بالخلافة بعد أن قتل أباه (سنة ٢٤٧ هـ) وفي أيامه قويت سلطة الغلمان فحرّضوه على خلع أخويه المعتزّ والمؤيّد (وكانا وليي عهده) فخلعهما. قيل: مات مسموما بمبضع طبيب. ووفاته بسامرّاء. ومدة خلافته ستة اشهر وأيام.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٦/ ٧٠.

(١٨٦) ألف ليلة وليلة، ١/ ١٨٠.

(١٨٧) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ٢٣٩.

حضرتك، فقال الخليفة حبّاً وكرامة»[١٨٨]. وبطبيعة الحال ستكافئ سلطة بغداد علي نور الدين بن خاقان، بكلّ ما يحلم به، طالما هو لا يريد إلاّ الولاء المطلق لرأس هذه السلطة، ستعطيه المرأة الجميلة التي يحبّها، والأموال والقصور:

«ثمّ إنّ الخليفة دعا الجارية فحضرت بين يديه فأنعم عليهما وأعطاهما قصراً من قصور بغداد ورتّب لهما مرتّبات، وجعله من ندمائه. وما زال مقيماً عنده إلى أن أدركه الممات»[١٨٩].

إنّ هذا الإعجاب ببغداد في الليالي، ورفض أعلى المناصب لأجل البقاء فيها، والولاء لسلطتها، يذكّرنا تاريخيّاً برفض محمد بن رائق[١٩٠] لولاية الشام، إذ «لمّا انتدب (...) لولاية الشام لم يذهب إليها، واستخلف ابنه الحسن، وقال: ركوبي في الطيّار في دجلة وصياح الملاّحين، أحبّ إليّ من ملك الشام كله»[١٩١].

ولا تبدو صورة الرشيد في ليالي بغداد المركزيّة، وهو يهب قصوراً ومرتّبات للذين يُظهرون له ولاء الطاعة، بعيدة في الوهم والتخيّل اللذين كانا المعينين لرواة ألف ليلة وليلة، بل يمكن أن يكون لها خلفيّة مرجعيّة، تاريخيّة وواقعيّة، إذ تروي المصادر أنّ الرشيد وهب لطبيبه جبرئيل بن بختيشوع[١٩٢] المال الكثير الذي يكفي لشراء ضياع غلّتها الآلاف من الدراهم، عندما عالجه من مرض شديد ألمّ به:

«فلمّا بَرَأ من علّته، [أي هرون الرشيد]، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل صاحب الحرس عن غلّته في كلّ سنة، فعرّفه أنّها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلّته، فعرّفه أنّها خمسمائة ألف درهم. ثم قال: يا جبريل: كم غلتك؟

فقلت: خمسون ألف درهم.

---

(١٨٨) ألف ليلة وليلة، ٢١٦/١.

(١٨٩) م ن، ٢١٦/١.

(١٩٠) محمد بن رائق: (... ـ ٣٣٠ هـ/ ... ـ ٩٤٢ م): أمير من الدهاة الشجعان، له شعر وأدب. كان أبوه من مماليك الخليفة العباسيّ محمد المعتضد بالله، وولّي محمد شرطة بغداد للخليفة العباسي المقتدر بالله بن المعتضد سنة٣١٧ هـ، ثمّ إمارة واسط والبصرة وولاه الخليفة الراضي بالله بن المقتدر إمرة الأمراء والخراج ببغداد سنة ٣٢٤ هـ.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ١٢٣/٦.

(١٩١) عن/الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص ٨٩.

(١٩٢) جبرئيل بن يختيشوع: (جبرئيل بن يختيشوع بن جرجس، ... ـ ٢١٣هـ/ ... ـ ٨٢٨ م): طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله يقال إنّ منزلته مازالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبرئيل فإني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القوّاد يقصدونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الأمين، فلما ولّي المأمون سجنه ثم أطلقه واعاده إلى مكانته عند أبيه الرشيد، فلم يزل إلى أن توفي ودفـن في دير "مار جرجس" بالمدائن.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٢ /١١١.



بغداد للفنان العراقي جميل حمودي.

فقال: ما أنصفناك، حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني ويحجبوني عن الناس، على ما هي عليه، وتكون غلتك ما ذكرت. وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم.

فقلت: يا سيّدي ما لي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تَهَبُ لي ما أشتري به ضِياعاً غلّتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدّم بمعاونتي على ابتياعها، فابتعت بهباته، وجَعَالاته[١٩٣]، ضياعاً غلّتها ألف ألف درهم ».[١٩٤]

إنّ بغداد المركزيّة في الليالي ذات سلطة وهيبة ذائعة الصيت، تصل إلى مدن تخيّليّة، لا يعرف الرّاوي اسماً لها، وتحدد هذه الهيبة بمدة خلافة هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/٧٨٦ ـ ٨٠٩ م)، وما عُرِف عنه من سطوة وبطش وأُبّهة، ومكانة بين الخلفاء، لا تعادلها مكانة أي خليفة آخر. ففي حكاية «السندباد البحري»، وتحديداً في سفرته السادسة، نجد أنّ ملك المدينة التي يصلها السندباد، يرسل «هديّة عظيمة إلى الخليفة هرون الرشيد بمدينة بغداد»[١٩٥]. وعندما يسأله الرشيد عن هذه المدينة يجيب السندباد: « يا أمير المؤمنين والله لا أعرف للمدينة التي هي منها اسماً ولا طريقاً»[١٩٦]. وكأنّ الرّاوي يريد أن يشير إلى أنّ ملك هذه المدينة البعيدة جداً، قد سمع عن سطوة بغداد العباسيّة وعظمتها، وإزاء هذه السطوة رغب هذا الملك في كسب ودّ الرشيد ورضاه، فأرسل له هديّة عظيمة.

وبالإضافة إلى مركزيّة بغداد العباسيّة في الليالي، فإنّها شهدت حركة علميّة نشيطة، في العلم والفنون والآداب، والفقه والشريعة والطب. ويشير بعض رواة ألف ليلة وليلة إلى كثير من مكوّنات ثقافة بغداد، وفضاءاتها المعرفيّة. ففي حكاية «الحمّال والبنات»، التي تدور أحداثها في عصر هرون الرشيد، تطلب البنت الصغرى من ابن ملك المدينة الممسوخة حجارة سوداء، أن يذهب معها إلى بغداد، باعتبار بغداد موطناً للعلماء: «قلت له أيّها الشّابّ هل لك أن تروح معي إلى مدينة بغداد، وتنظر إلى العلماء وإلى الفقهاء فتزداد علماً وفقهاً»[١٩٧].

وتبدي شخصيّات حكايات بغداد معرفة متطوّرة بعلوم الفلك، حتى ولو كانت هذه الشخصيّات من الطبقات الاجتماعيّة المهمّشة. فها هو مزيّن بغداد يأخذ اصطرلاباً[١٩٨]،

(١٩٣) جَعَالاته: أي ما خصصه له من عطاء. المنجد في اللغة، مادة: جعل، ص ٩٣.

(١٩٤) التنوخيّ، أبو علي المُحَسّن بن علي: الفرج بعد الشدة، اختار النصوص وقدّم لها د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٥، السفر الثاني، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(١٩٥) ألف ليلة وليلة، ١٣/٤.

(١٩٦) ألف ليلة وليلة، ١٣/٤.

(١٩٧) م ن، ٨٠/١.

(١٩٨) الأسطرلاب: آلة رصد قديمة لقياس مواقع الكواكب وساعات الليل والنهار وحلّ شتى القضايا الفلكية.

- المنجد في اللغة، مادة: اسط، ص١٠.

مكوّناً من سبع صفائح ويوجّهه إلى أشعة الشمس، ليؤكّد أنّ طالع يوم الجمعة، وفق ما تقتضيه العمليات الحسابيّة هو كوكب المريخ، وبميل[١٩٩] قدره ثماني درجات وست دقائق[٢٠٠].

وتشير حكاية «تودّد الجارية»، إلى أنّ بغداد في الليالي تربّعت قمم المعرفة في مختلف انواع المعارف والعلوم، بشخص إحدى بناتها من الجواري، وهي « تودد »، فعندما تحضر «تودد» الجارية بين يدي الخليفة الرشيد، تؤكّد له أنّها قادرة على بزّ كلّ علماء بغداد، فيحضر لها العلماء، وتبدأ هي بمناظرتهم في جميع علوم عصرها، وتتفوّق عليهم في معرفة هذه العلوم. ويُظهر السارد في الحكاية معارف عصره العلميّة التي تمتدّ إلى جميع الحقول المعرفيّة التي عرفتها حضارة بغداد العباسيّة، والحضارات قبلها، أو التي تزامنت معها: في الفقه والتفسير[٢٠١]، ودلالات اللغة[٢٠٢]، والعلوم الدينية، وقراءات القرآن السبع، وإعراب اياته[٢٠٣]، وعلوم الفلسفة[٢٠٤]، والمنطق والأخلاق والحكمة والعلوم المجرّدة، كالرّياضيات والهندسة والفلك[٢٠٥]، والتنجيم والكواكب والأبراج[٢٠٦]. وقد شهدت مصادر التاريخ على معرفة في علم الفلك في العصر العباسي، فقد «كان الفلكيّون المسلمون قادرين على إيجاد مواقع الكواكب في مداراتها الخاصّة بسهولة نسبيّة، فقد استطاعوا الانتقال إلى تحليل وتطوير النظريات المتعلّقة بالكواكب السيّارة التي وصلت إليهم من العصور القديمة»[٢٠٧].

وفي الحكاية السابقة تُظهر الجارية «تودد» معرفة كبيرة بعلوم الصحّة النفسيّة والجنسيّة[٢٠٨]، فهي على سبيل المثال، من خلال معرفتها بعلم الجنس، تبدو كأنّها طبيب

---

(١٩٩) الميْل: الزاوية الحادثة بين سطح الاستواء السماوي والمستقيم الواصل بين الأرض والكواكب.
- المنجد في اللغة، مادة: ميل، ص ٧٨٢.

(٢٠٠) ألف ليلة وليلة، ١ /١٥٣.

(٢٠١) م ن، ٢٣٣/٢.

(٢٠٢) م ن، ٢٤٠/٢.

(٢٠٣) ألف ليلة وليلة، ٢٤٥/٢.

(٢٠٤) م ن، ٢٦٤/٢.

(٢٠٥) م ن، ٢٥٨/٢.

(٢٠٦) م ن، ٢٥٧/٢ – ٢٥٨ – ٢٥٩.

(٢٠٧) فيرنيه، جون ؛ Vernet, Jaun: "الرياضيات والفلك والبصريات" في كتاب: "تراث الإسلام"، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. إحسان صدقي العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني عشر، الطبعة الثانية، رمضان ١٤٠٨ هـ/مايو ١٩٨٨ م الجزء الثاني، ص ٣٢٢.

(٢٠٨) ألف ليلة وليلة، ٢٥٥/٢.

نفسي وجنسي، يدرك بمعرفة علميّة متطوّرة أثر الجنس على السلوك الفرديّ والجمعيّ وفوائده ومضارّه، وأفضل الأوقات لممارسته[٢٠٩]. وهي من خلال هذه المعرفة، التي تظهرها المناظرة مع علماء الجنس في بغداد، تنقل معارف شخوص عصرها حول هذه الظاهرة، وبعض معارف الأئمّة وآرائهم فيها[٢١٠]. وتتغلّب بمهارة على «النّظّام»[٢١١]، شيخ الرؤية العقليّة[٢١٢]، باعتباره ممثّلا لفئة المعتزلة التي رفعت شعار العقل أولاً، وتتغلّب على أمهر لاعبي الشطرنج والنرد في بغداد العباسيّة[٢١٣]. ومن هنا فإنّ الأبعاد المعرفيّة التي يحمّلها السارد لهذه الجارية هي الكلُّ الحضاريّ والمعرفيّ للحضارة الإنسانيّة بعامّة، وللحضارة العربيّة بخاصّة، والتي أخذت من الحضارة الإنسانيّة، وأعطتها في آن، وذلك في مرحلة ازدهار الخلافة العباسيّة. ومعرفة «تودد» الجارية هي خلاصة « تجارب الشعوب المختلفة والأزمان المتعاقبة، مطعّمة بآمال النفس الإنسانيّة وآلامها»[٢١٤].

إنّ هذه التجربة المعرفيّة والشموليّة لكلّ ما هو معروف، ومتداول، في الحضارة العباسيّة، من قيم وعادات ومعارف علميّة ونظريّة وأدبيّة، ناتج عن تبادل التّأثير والتأثّر بين حضارات البلدان وثقافاتها التي ذكرتها شهرزاد، فهي فارسيّة وهنديّة مرّة، وصينيّة مرّة أخرى، وأوروبيّة أيضاً، إضافة إلى الأفق المعرفيّ العلمي الذي عرفته الحضارة العربيّة في العصور الجاهليّة والإسلاميّة (عصر النبيّ والخلفاء الراشدين)، والأمويّة والعباسيّة، وقد بلغ هذا الأفق أوج ازدهاره في عصر الخليفة العباسيّ المأمون بن هرون الرشيد. ويحدد جرونيباوم[٢١٥] معارف الحضارات التي أسهمت في تشكيل حكايات ألف ليلة وليلة قائلاً:

---

(٢٠٩) ألف ليلة وليلة، ٢٥٦/٣.

(٢١٠) م ن، ٢٥٥/٣.

(٢١١) م ن، ٢٦٨/٣.

(٢١٢) النّظّام: (إبراهيم بن سيّار، .... - ٢٣١ هـ/.... - ٨٤٥ م): متكلّم معتزلي. نشأ في البصرة وأقام في بغداد حيث توفي. منطقي وشاعر. ترك أثراً كبيراً في تاريخ الفكر الإسلامي. معلّم الجاحظ. عارض آراء الفقهاء. وإليه تنسب النّظّامية من فرق المعتزلة.

- المنجد في الأعلام، ص ٧١٠.

(٢١٣) ألف ليلة وليلة، ٢٦٩/٣.

(٢١٤) الملاّح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١ م، ص٤٤.

(٢١٥) عن/خورشيد، فاروق: "الليالي والحضارة الإسلامية - مناقشة ورؤية "، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع ١٩٩٤م، ص١٦. ولم يذكر خورشيد اسم المرجع الذي اقتبس منه.

«اجتمعت عناصر هنديّة وفارسيّة ويهوديّة ويونانيّة وبابليّة ومصريّة فضلاً عن عناصر عربيّة أصيلة فأصبحت كلاً واحداً على أيدي أساتذة مجهولين يرجع إليهم الفضل في تلك الجزالة الهائلة التي ينطوي عليها مجموع (ألف ليلة وليلة)، وراحت اللغة العربيّة من حيث الظاهر والروح الإسلاميّ من حيث الداخل، توحّد هذه الخطوط المتعددة، وتتولّى حبكها في بساط فاتنٍ، يخطف الأبصار. وإنّ ألف ليلة في تأليفها بين كلّ ما هو مختلف وكلّ ما هو متفاوت، لأشبه الأشياء بمثال مصغّر للحضارة الإسلاميّة بوجه الإجمال.»، ويبقى الوعي المعرفيّ والعلميّ الحضاريّ في ألف ليلة وليلة « نتيجة للفكر الإنسانيّ من خلال عدّة قرون اندمجت مع بعضها بأزمان مختلفة»[٢١٦].

وتشير ألف ليلة وليلة إلى أنّ من بين المعارف العلميّة التي شهدتها بغداد العباسيّة، وتفوّقت على غيرها من أقاليم الدولة العباسيّة ومدنها، معرفة طبّ العيون، ففي حكاية «هرون الرشيد مع الرجل الذي يطلب دواءً لعينه»، وبينما كان الرشيد خارجاً صوب الصحراء، شاهد شيخاً طاعناً مسافراً على حماره، فطلب الرشيد من جعفر البرمكي أن يسأله عن حاله: «فقال له جعفر: من أين جئت؟ فقال: من البصرة.

فقال جعفر: وإلى أين سيرك؟ فقال: إلى بغداد.

قال: ماذا تصنع فيها؟ قال: ألتمس دواءً لعيني»[٢١٧].

وتشير الدراسات التاريخيّة إلى ازدهار طبّ العيون في بغداد، وعلى أيدي العرب، نظراً لنشوء أمراضه في بلادهم الحارّة، ففي عهد الخليفة هرون الرشيد وضع يوحنّا بن ماسويه (ت ٢٤٢ هـ/٨٢٧ م)، أو يوحنّا الدّمشقي بتسميّات أخرى، أو Maior - Mesue، عند الإفرنجة، وهو من السريان النساطرة، أول كتاب عربيّ منظّم في علم رمد العين، وسمّاه بـ «دغل العين»، وهذا الكتاب من أفضل ما وُضِع في طبّ العيون، ويقول ماكس مايرهوف عن هذا الكتاب[٢١٨]: «إنّه أقدم الكتب التي وُضِعت في طبّ العيون في مختلف اللغات القديمة». وقد عيّن الخليفة الرشيد مؤلف هذا الكتاب (يوحنا بن ماسويه) رئيساً لدار الحكمة، بعد أن كان مدرّساً للطبّ في مدرسة جنديسابور، ومعالجاً للمرضى في بيمارستانها (مشفاها)[٢١٩]. وبلغ طبّ العيون في بغداد كماله بكتاب حقّقه حنين بن إسحاق (ت ٢٦٣ هـ/٨٧٧ م)،

(٢١٦) الملاّح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، ص ٤٨.

(٢١٧) ألف ليلة وليلة، ٢/١٦٠ - ١٦١.

(٢١٨) الطويل، د. توفيق: في تراثنا العربي الإسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد السابع والثمانون، جمادى الآخرة، ١٤٠٥ هـ/مارس (آذار) ١٩٨٥ م، ص ١٠٣.

(٢١٩) نادر، د. البير نصري: في " الفارابي، أبو نصر: كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين "، ص ٤٩ — ٥٠.

بعنوان: «العشر مقالات في العين» لمؤلّفه جالينوس الحكيم، وقد زوّده مؤلّفه برسوم شائقة للغاية، وهي أول رسوم عُرفت في تشريح العين، ثم هي أدقّ من كثير من مثيلاتها في الكتب الأوربيّة في القرون الوسطى[٢٢٠].

إنّ ساردي حكايات ألف ليلة وليلة، يقدّمون بغداد الليالي، على أنّها انعكاس لبغداد التاريخ في كثير من خلفيّاتها ومكوّناتها المعرفيّة والاجتماعيّة. وطالما أنّ راوي الحكاية السابقة عايش حضارة بغداد، أو قرأ كثيراً عن ماضيها العلميّ، فطبيعي أن يوجّه بطله من البصرة «الإقليم» إلى بغداد «المركز»، ليعالج عينيه، في ظلّ فيء هذه الحضارة المزدهرة.

إنّ بغداد في ألف ليلة وليلة تمثّل مركزاً دينيّاً وفقهيّاً، يتخرّج فيه الفقهاء والواعظون - وقد أتقنوا ما تعلّموه خير إتقان - باعتبارها تاريخيّاً تمثل مركزاً عظيماً للثقافة وموئلاً للمذهبين الحنفيّ والحنبليّ[٢٢١]. وها هو أحد الرّواة يصف الواعظة، سيّدة المشايخ، ببغداد قائلاً: «ما رأيت في النساء أذكى وأحسن فطنة وأغور علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً، من امرأة واعظة من أهل بغداد، يقال لها سيّدة المشايخ»[٢٢٢].على أنّ سيّدة المشايخ في بغداد، ليست هي الوحيدة في علمها ووعظها وفطنتها، بل هي - تاريخيّاً - نموذج أنثويّ متعدد، في فضاء الحياة العلميّة ببغداد، وهذا النموذج استطاع أن يُحصّل كثيراً من معارف عصره المختلفة، مثله مثل الرجال، وربما يفوقهم، فعلى سبيل المثال يتجلّى هذا النموذج في سيّدة من بغداد، تسمّى خديجة بنت موسى الواعظة، وكانت هذه صالحة فاضلة، كتب عنها الخطيب البغداديّ «مؤلف تاريخ بغداد»، وفي فاطمة بنت الحسين بن فضلويه، التي كانت واعظة، تجتمع إليها الزّاهدات، في رباط خصّصته للوعظ، وفي الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم، التي كانت ذات سلطة وإقدام، وترجمة وكلام، في طريقة الحريريّة[٢٢٣].

ولم تكن بغداد في الليالي هي الصّورة المشرقة دائماً في فضاء النصوص الحكائيّة، لأنّها في أحيان كثيرة تنزاح عن هذه الصورة الجماليّة والمعرفيّة، لتصبح فضاءً للفقر، وليفتقد البسطاء والمهمّشون فيها إلى أدنى مستويات العيش الكريم. فعلى

---

(٢٢٠) الطويل، د. توفيق: في تراثنا العربي الإسلامي، ص ١٠٣.

(٢٢١) الدوري، د. عبد العزيز: " بغداد "، في: " بغداد "، دائرة المعارف الإسلامية، ص ١٢.

(٢٢٢) ألف ليلة وليلة، ١٩٦/٣.

(٢٢٣) العلوي، هادي: فصول عن المرأة، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص ٦٨.

- وأخذ العلوي عن/ابن كثير، عبد الله: البداية والنهاية. دون أن يذكر دار النشر والمدينة و تاريخ الطبعة ورقم الصفحة.

سبيل المثال بقدر ما كانت بغداد فضاءً للمتعة، ولذّة العيش، بالنسبة للسندباد البحريّ، فإنها بالنسبة للسندباد الحمّال، كانت فضاءً للبؤس والفاجع والاغتراب، فضاءً لا يستطيع فيه السندباد الحمّال أن يحصل حتى على أبسط متطلبات حياته، وهي لقمة العيش، مع ملاحظة أنّ هذا السندباد الحمّال، كان في خلافة هرون الرشيد، حيث أبّهة العيش، والثراء الفاحش، الذي لم يصل إلى مثله ثراء، وذلك من خلال صيرورة الدولة الإسلاميّة وتعاقبها. تقول الحكاية: «كان في زمن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يُقال له السندباد الحمّال. وكان رجلاً فقير الحال يحمل تجارته على راسه. فاتّفق أنّه حمل في يوم من الأيام حمولة ثقيلة، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ فتعب من تلك الحمولة وعرق واشتدّ عليه الحرّ»[٢٢٤]. وتستمرّ الحكاية إلى أن يجلس بجوار قصر السندباد البحريّ، وهناك تتجلّى له المفارقة الحادة، بينه وبين السندباد البحريّ، فالسندباد البحري «في غاية النّعمة وهو متلذذ بالرّوائح اللطيفة والمآكل اللذيذة، والمشارب الفاخرة في سائر الصفات... [والسندباد البرّي] في غاية التعب والذلّ»[٢٢٥].

وتتجسّد المفارقة أيضاً في حكاية «الحمّال والبنات» في زمن هرون الرشيد أيضاً، فالحمّال لا يملك شيئاً، بينما البنات يرفلن بكلّ ما لذّ وطاب، من دار فسيحة ومأكل ومشرب.تصف الوحدة السردية الآتية، ما تشتريه خادمة البنات، وتطلب من الحمّال أن يحمله إلى دار البنات: « وقالت له [للجزّار] اقطع عشرة أرطال لحماً، فقطع لها، ولفّت اللحم في ورق موز ووضعته في القفص، وقالت له: احمل يا حمّال، فحمل وتبعها. ثمّ وقفت على النقليّ وأخذت من سائر النقل (...) ووقفت على دكان الحلواني واشترت طبقاً وملأته من جميع ما عنده من مشبّك وقطائف (...) ثمّ وقفت على العطّار واشترت منه ماء ورد وماء زهر وأخذت قدراً من السكر (...) وحصى لبان وعنبراً ومسكاً»[٢٢٦]. وعندما يصل الحمّال إلى دار البنات، يجدها داراً فاخرة ترفل بالطنافس والذّهب الأحمر[٢٢٧]، ويستغرب مدهوشاً من هذا الثراء. ومن دائرة فقره، ورغبته في أن يستكشف عالم أثرياء بغداد، يرفض أن يخرج من منزل الفتيات، إلاّ بعد أن يعاين حقيقة ما يجري في هذا الفضاء الباذخ[٢٢٨]. فبغداد في الليالي لم تكن ذلك الفضاء الآسر

(٢٢٤) ألف ليلة وليلة، ٣٩٦/٣.

(٢٢٥) م ن، ٣٩٧/٣

(٢٢٦) ألف ليلة وليلة، ٤٦/١ – ٤٧.

(٢٢٧) م ن، ١ /٤٧.

(٢٢٨) م ن، ٤٧/١.

المخمليّ لكلّ الشخوص، بل إنّها أعطت التجّار ورجال السلطة كلّ ما يشاؤون. وحرمت الفقراء الذين عاشوا غصّة ومرارة وفقراً مدقعاً، من أبسط الأشياء[٢٢٩].

وتُظهر حكايات ألف ليلة وليلة في غير حكاية، الوجه السلبي لبغداد العباسيّة المزدهرة، فهي فضاء للقتل والسطو والنّهب، والناس فيها غير أمناء على أموالهم وممتلكاتهم، نتيجة لكثرة اللصوص. ففي حكاية «علي بن بكّار وشمس النهار»، نجد إشارة واضحة إلى فضاءات اللصوص وأعمالهم. يقول التاجر أبو الحسن[٢٣٠] «إنّ هذا المكان [مكان ببغداد] غير آمن ونخشى على أنفسنا من التلف في هذا المكان بسبب اللصوص وأولاد الحرام». وهاهو أحد الجيران يخبر جاره الجواهرجي كيف أنّ اللصوص سطوا على داره: «فقال له: إنّ اللصوص الذين جاءوا جيراننا بالأمس وقتلوا فلاناً، وأخذوا ماله قد رأوك بالأمس وأنت تنقل حوائجك إلى دارك الثّانية فجاءوا إليها ليلاً وأخذوا ما عندك وقتلوا ضيوفك»[٢٣١].

ولا يكتفي اللصوص بسرقة أموال التّجار فحسب، بل يجترئون على السلطة السياسيّة نفسها، وعلى أكثر الفضاءات حصانة وسطوة في هذه السلطة، وهو فضاء قصر الخليفة هرون الرشيد، إذ يقومون بقتل أفراد ينتمون إلى هذا القصر، وإلى من يحمي هذا القصر، وهو فضاء دار صاحب الشرطة. تقول الحكاية السابقة: «إنّ الذين دخلوا دارك وأخذوا متاعك قد قتلوا أحسن جماعة من دار الخليفة، وقتلوا جماعة من دارصاحب الشرطة»[٢٣٢].

إنّ نساء بغداد من الحرائر والجواري، ورجالها من القادة والتّجار والعبيد - وبمختلف تبايناتهم الطبقيّة - يصبحون ملوك الحيلة والنّصب في بعض الحكايات، فهم يتقنون أحدث

---

(٢٢٩) ويبدو أنّ بغداد في بعض مراحلها التاريخية حرمت هؤلاء الفقراء من كل شيء، إذ ينقل الشاعر أبو العتاهية (ت ٢١٠ هـ/ ٨٢٦ م)، الذي عاصر خلافة محمد المهدي بن المنصور والهادي بن المهدي وهرون الرشيد، بعض هموم البسطاء والمهمّشين من رعية بغداد، وحرمانهم ومعاناتهم، وما تفرضه طبيعة الحياة من غلاء للأسعار. يقول:

من مبلغ عني الإما ... م نصائحاً متتاليه
انّي ارى الأسعار، اس ... عار الرعية، غاليه
وارى المكاسب نَزْرَة، ... وارى الضرورة فاشيه
من يُرْتَجى لدفاع كر ... ب مُلِمّة، هي، ماهيه
مَنْ للبطون الجائعا ... ت، وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائق لا فُقِدْ ... ت، و لا عدمت العافيّة
القيت اخباراً إلي ... ك من الرّعيّة شافيه.

- أبو العتاهيّة، اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان: ديوان أبي العتاهية، دار صادر للطباعة و النشر/دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص ٤٨٧.

(٢٣٠) ألف ليلة وليلة، ١٩٠/٢.

(٢٣١) ألف ليلة وليلة، ٢٠٤/٢.

(٢٣٢) م ن، ٢٠٥/١.

فنون الاحتيال، وأكثرها مهارة وتعقيداً، وتشابكاً، بحيث يستحيل على المحتال عليه أن يكشف كلّ خيوط الحيلة.وتشكّل حكاية «على الزيبق المصري ودليلة المحتالة»، أهمّ الحكايات التي تتجلّى الحيلة فيها، بأعلى تقنياتها، فهناك زينب النصّابة بنت دليلة المحتالة، وعلي الزيبق المصري وأحمد الدنف وحسن شومان، وكلّهم نصّابون محتالون. وهاهي زينب النصّابة تذكر لأمّها دليلة، الحيل التي حبكتها في يوم واحد: «أنا لعبت أربع مناصف على اربعة أشخاص، ابن التّاجر، وامرأة شاويش، وصبّاغ وحمّار، وجئت لك بجميع حوائجهم على حمار الحمّار»[٢٣٣]. وهاهي أمّها دليلة تكمل حيلة ابنتها، وتحتال على يهودي، وعلى والي بغداد، وعلى أحد مزيّني بغداد، وتأخذ الرّجال الذين احتالت عليهم ابنتها، بالإضافة إلى اليهودي والمزيّن إلى زوجة الوالي نفسه لتحتال عليها أيضاً، إذ تدّعي أمامها أنّ هؤلاء الرجال مماليك، ويريد الوالي شراءهم، وأنّها مكلّفة بإيصالهم إلى دار زوجها الوالي، وقبض ثمن مبيعهم.وعندما سمعت زوج الوالي ادّعاءها وثقت بكلامها، وأعطتها ألف دينار، فرجعت دليلة إلى ابنتها زينب لتقول لها[٢٣٤]: «يا بنتي لعبت منصفاً وأخذت ألف دينار من زوجة الوالي وبعت الخمسة رجال لها، وهم الحمّار واليهودي والصبّاغ والمزيّن وابن التّاجر وجعلتهم مماليك».

ويبدو أنّ بغداد تتفوّق على مصر في الحيلة والشطارة في مواضع قليلة، فإذا كان علي الزيبق المصري، يظنّ أنّه زعيم للمحتالين والشطّار في مصر، وأنّه يستطيع أن يتفوّق بسهولة على كلّ محتالي بغداد، فإنّ سيّده أحمد الدنف في بغداد، ينبهّه إلى تركيبة بغداد الاجتماعيّة والسياسيّة، ويدعوه إلى التريّث لثلاثة أيام، حتى يفهم بنية الاحتيال في بغداد، يقول له: «يا ولدي لا تحسب أنّ بغداد مثل مصر. هذه بغداد محلّ الخلافة وفيها شطّار كثيرون ونبتت فيها الشطارة كما ينبت البقل في الأرض»[٢٣٥].

لقد عُرِف قسم من الشطّار في الدولة العباسيّة، في عهدي الخليفتين محمد المهدي بن المنصور (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م)، وهرون الرشيد بن المهدي، بأنّهم أفّاقون ومتشردون، وعاطلون ومشاغبون ومكدّون (محتالون وشحّاذون)، ومقامرون ومخمورون، وفسّاق ولصوص، ومشبوهون، وهذا القسم لا يقيم وزناً لعرف أو عادة أو تقليد أو شريعة[٢٣٦]، ويطلق الطبري[٢٣٧]

---

(٢٣٣) م ن، ١٢١/٤.

(٢٣٤) م ن، ١٢٩/٤.

(٢٣٥) ألف ليلة وليلة، ١٤٧/٤.

(٢٣٦) عبد المولى، د. محمد أحمد: العيّارون والشطّار البغاددة في التاريخ العبّاسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الطبعة الثانية، د. ت، ص ٤١.

(٢٣٧) تاريخ الأمم والملوك، (تاريخ الطبري)، ٤٦٧/٨ – ٤٦٨.

على هذا القسم من الشطّار تسميات عديدة، مستمدّة من قاموسه التاريخيّ، ومن قاموس شعراء عصره فهم السِّفْلة والغوغاء، والرعاع، والأوباش الطّغام من الأنام، وأهل الشرّ والشَّغْب والزّعارة، وأهل السجون الذين لا مأوى لهم سوى الحمّامات والمساجد، وهم في نظره يزرعون الفساد في طرق المسلمين، فقد «ضاقت بهم طرق المسلمين. حتى إنّ الرجل [منهم] ليستقبل المرأة في زحمة الناس فيلتثّان قبل التخلّص».

وتشير حكاية «علي شار وزمرد الجارية» إلى الوجه الفاسق واللصوصيّ والمغتصِب للشطّار في بغداد[٢٣٨]، فها هو الشاطر جوان الكردي، وبينما كان يتجوّل لسرقة المنازل، يشاهد فجأة (زمرد الجارية) هاربة من منزل مختطفها برسوم النصراني، فيحتال عليها ويخطفها، وعندما تسأله: من أنت؟ يجيب: «يا عاهرة أنا الشّاطر جوان الكردي من جماعة أحمد الدنف ونحن أربعون شاطراً وكلّهم في هذه الليلة يفسقون في رحمك من العشاء إلى الصباح»[٢٣٩]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن أحمد الدنف وجماعته في حكاية «علاء الدين أبي الشامات»، يمثّلون وجه السلطة السياسيّة في بغداد، في عهد هرون الرشيد. ولم يمارس الشطّار وحدهم، ولا النساء والجواري والقوّادات، الاحتيال في بغداد العباسيّة فحسب، بل مارسه كبار القوم، وممن يتربّعون عرش السلطة السياسيّة، كما تذكر حكاية «غانم بن أيوب وقوت القلوب»، فقد احتالت السيّدة زبيدة زوجة الخليفة هرون الرشيد على إحدى حظايا زوجها - قوت القلوب -[٢٤٠]. وقد مارس الرشيد فنون الاحتيال، أيضاً، فقد كان يحتال على زوجته السيدة زبيدة[٢٤١].

ومن الوجوه السلبيّة لبغداد مرآة الحضارة العباسيّة في حكايات ألف ليلة وليلة، انتشار المعاصي والفجور، وارتكاب المنكر بكل أشكاله. وقد تورّط نساء الليالي ورجالها، بطبقاتهم الاجتماعية، وعلى حدّ سواء، في ارتكاب المعاصي والفجور. فنقرأ في حكاية «الحمّال والبنات»، كيف أنّ بوّابة القصر، والبنات من طبقة التّجار، يعشن حياة عربيديّة متهتكة مع الغرباء الذين يدخلون منزلهنّ: «ثمّ أحضرت ما يحتاجون إليه، ثمّ قدّمت المُدام وجلست هي وأختها وجلس الحمّال بينهنّ وهو يظنّ نفسه أنّه في المنام. ولم يزل الحمّال معهنّ في عناق وتقبيل»[٢٤٢].

---

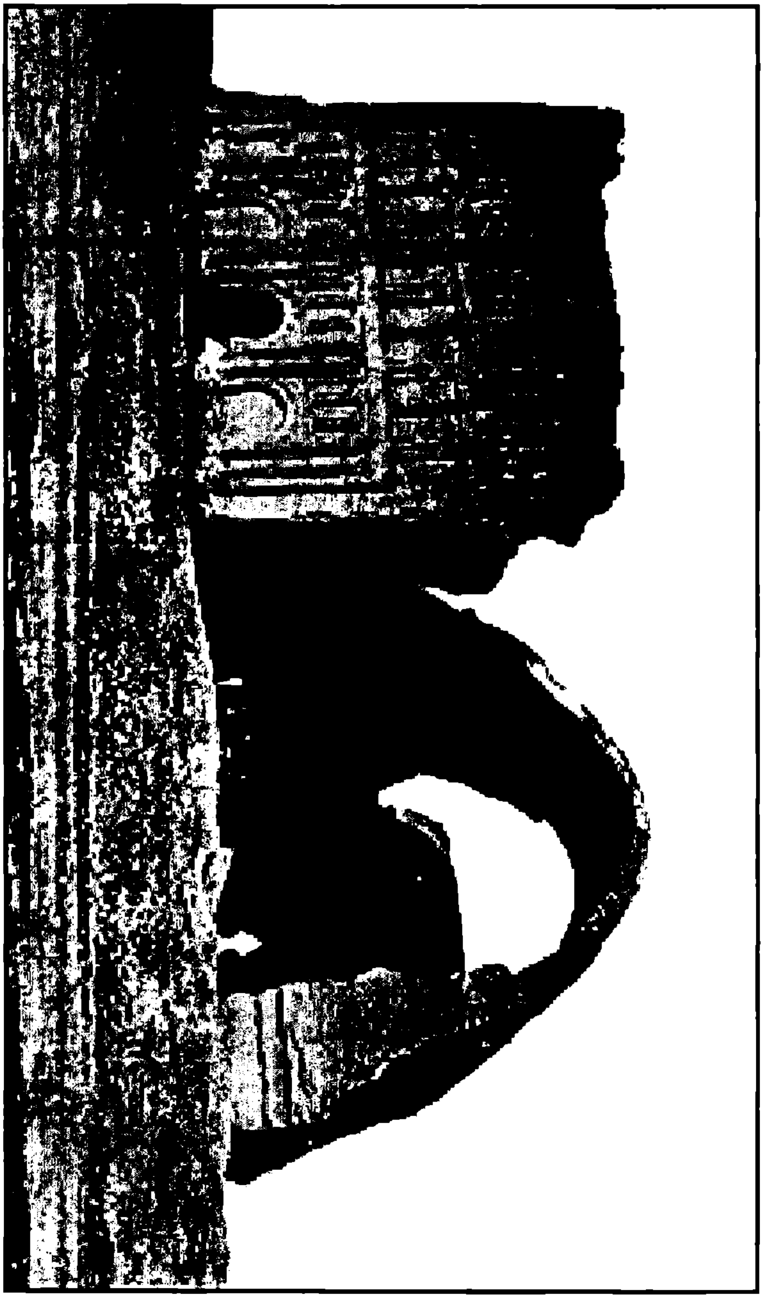
(٢٣٨) فضاء هذه الحكاية هو فضاء بلاد خراسان، وحتى يتعرّض الرّاوي إلى بعض مظاهر حياة الشطّار والمحتالين، فإنه ينقل أحداث الحكاية إلى بغداد المركز، وتحديدا في فترة خلافة هرون الرشيد، إذ يذكر شطّار تلك الفترة، الذين ترد أسماؤهم في الحكايات البغداديّة، وربما يكون السبب في ذلك، هو أن الشطّار والعيّارين، أول ما ظهروا، ظهروا بمدينة بغداد قبل أيّة مدينة إسلامية او عربية أخرى.

(٢٣٩) الف ليلة وليلة، ٤٠/٣.

(٢٤٠) ألف ليلة وليلة، ٢٢٩/١ — ٢٣٠.

(٢٤١) م ن، ١٥٦/٢.

(٢٤٢) م ن، ٤٩/١.



طاق كسرى - المدائن - قرب بغداد.

وقد انتشر الفجور والمعاصي في بغداد ألف ليلة وليلة، واستفحل في منازل الطبقة الثريّة. فهاهي الأميرة دنيا البرمكيّة، أخت الوزير جعفر البرمكي، تتحايل على التّاجر محمد ابن علي الجوهري، وتستدعيه إلى قصرها وتلاطفه، تمهيداً لإقامة طقوس الفعل الجنسي في منزلها: «وقالت [دنيا البرمكيّة]: يا نور عيني، هل كلّ من كان مليحاً مثلك لايرثي لمحبوبته؟ فقلت: ياسيّدتي الحسن كلّه فيك وهو من بعض معانيك. فقالت: ياجوهري اعلم أنّي أحبّك وما صدقت أنّي أجيء بك عندي.ثمّ إنّها مالت عليّ فقبّلتها وقبّلتني وإلى جهتها جذبتني وعلى صدرها رمتني. وعلمت من حالي أنّي أريد وصالها»[٢٤٣].

وربّما تكون هذه الصورة متخيّلة نتيجة لجموح خيال الرّاوي الشهواني الذي عاش مجتمعاً طبقيّاً استطاع الأغنياء فيه أن يحققوا كلّ شيء، بينما هو لم يستطع أن يكون فاعلاً، لا اقتصادياً ولا جنسياً، لكنّ هذه الصورة، في حقيقة الأمر، تعكس وضعاً اجتماعياً مغموساً بالملذّات والشهوة، شهدته بغداد العباسيّة، في أوج ازدهارها التاريخيّ والمعرفيّ، فقد مارس كبار القوم في بغداد المزدهرة تهتكاً وفجوراً وفساداً أسطورياً، إذ أخذت كؤوس الخلاعة والفسوق تدور داخل قصورهم[٢٤٤]. وقد أسهم في انتشار المعاصي ببغداد الليالي، هذا الكم الهائل من الجواري ذوات الجنسيّات المتعددة، والمختلفة الأشكال والألوان، والقادمات إلى بغداد بفعل نشاط تجارة الرّقيق.

وتشير حكاية «الحمّال والبنات» إلى أنّ محمد الأمين بن هرون الرشيد كان يعتدي جنسياً على الجواري في بغداد، ويأخذ أموالهنّ غصباً: «يا أمير المؤمنين أنا أدلّك على من فعل لهذه الصبيّة هذا الفعل وظلمها وأخذ مالها وهو أقرب الناس إليك (...) ثمّ قالت: يا أمير المؤمنين إنّ الذي ضرب الصبيّة ولدك الأمين، فإنّه كان يسمع بحسنها وجمالها»[٢٤٥].

وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ الخليفة محمد الأمين، كان أكثر خلفاء بغداد ارتكاباً للمعاصي، من حيث معاقرته للخمرة، وولعه بالغلمان فقد «كان يعيش للخمرة المسكرة يشربها أرطالاً وكأنّما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلاّ بشرابها متتابعاً، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه»[٢٤٦]. وقد كان ولعاً بالغلمان، إذ استقدمهم

---

(٢٤٣) م ن، ٢/٤٣٥ – ٤٣٦.

(٢٤٤) لاندور، روم: الاسلام والعرب، ص ٣٦.

(٢٤٥) الف ليلة وليلة، ٨٨/١.

(٢٤٦) ضيف، د. شوقي: العصر العباسي الأول، ص ٦٦.

وقرّبهم، وفضّلهم على الجواري، «ويُروى أنّ الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدّم الخصيان، وآثرهم، فشاعت قالة السوء فيه، ورأت أمّه زبيدة دَرْءاً لتلك القالَة أن تبعث إليه بعشرات من الجواري، ألبستهنّ لبس الرّجال، حتى ينصرف عن الخصيان»[٢٤٧].

ومن هنا، لا نستغرب، إزاء سلوك الأمين واستهتاره، أن يقول فيه نديمه أبو نواس[٢٤٨] هاجياً:

احمــــدوا الله كثيـــــراً   يــــا جميـــع المـــسلمينا
ثــم قولـــوا لا تملّـــوا   ربّنــــا ابـــق الأمينــــا
صيّـــر الخـــصيان حتـــى   جعـــل التـــصيير دينـــا
فاقتـــدى النـــاس جميعـــا   بأميــــــر المؤمنينـــــا

وقد أشار الموروث الشعري العربي، إلى تفشي المعاصي والكبائر ببغداد، معتبراً أنّ هذه المعاصي كانت فيما بعد سبباً من أسباب نكباتها، وزوال عزّها. يقول الشاعر العبّاسي ابو يعقوب الخريمي[٢٤٩] (ت ٢٠٥ هـ/٨٢١ م) بعد وقعة الحربيّة سنة ١٩٧هـ/٨١٣م، التي دارت بين الأمير و أخيه المأمون:

يــــا بـــؤس بغـــداد دار مملكـــة   دارت علـــى أهلـــها دوائرهـــا
امهلـــها الله ثـــم عاقبهــــا   لمـــا احاطـــت بهـــا كبائرهـــا

❖ ❖ ❖

كـم قـد رأينـا مـن المعاصـي ببغـداد   فهـــل ذو الجـــلال غافرهــــا!
حلّـــت ببغـــداد وهـــي آمنــــة   داهيـــة لـــم تكـــن تحاذرهـــا
طالعهـــا الـــسوء مـــن مَطَالِعِـــه   وادركـــت أهلَهـــا جرائرهـــا
رقّ بهـــا الـــدين واسْـتُخِفَ بـذي الـ   ـفـضل وعَـــزّ النُّـــساك فاجرُهـــا
وخطّـــم العبـــد أنـــف سيّـــده   بـــالرّغم واســـتُعْبِدت حرائرهـــا
وصـــار ربّ الجـــيران فاســـقَهم   وابتـــزّ أمـــر الـــدّروب ذاعرُهـــا

إذا كانت خراسان المحطّة الأولى في السرد كما ذُكر سابقاً، أو الخليّة الأولى في الف ليلة وليلة والتي تتوالد منها خلايا أخرى، وتتوزّع في جسد الحكايات، فإن بغداد هي اهمّ المحطّات المركزيّة التي ينطلق منها الأبطال، ثم يعودون إليها ثانية، وما إن يخرج

---

(٢٤٧) م ن، ص ٧٣.

(٢٤٨) ديوان أبي نواس، تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م، ص ٥٥٤.

(٢٤٩) عن/تاريخ الطبري، ٨ /٤٥٠ – ٤٥١.

هؤلاء الأبطال من بغداد حتى يتّقدوا شوقاً إلى ملذّاتها ونسائها ولعلّ شوق السندباد البحري وحنينه إليها يمثّل قمّة هذا الشوق فعندما يخرج منها سرعان ما يبدأ قلقه، ثم يزداد سأمه في الأماكن التي يصل إليها، ثم يتأجج حنينه إلى بغداد. يقول السندباد في سفرته الأولى: « وأنا كلّما أشقّ على جانب البحر أسأل التّجار والمسافرين والبحريين عن ناحية مدينة بغداد، لعلّ أحداً يخبرني عنها فأروح معه إليها وأعود إلى بلادي (...) وقد تحيّرت من ذلك وسئمت من طول الغربة»[٢٥٠].

يحنّ السندباد في سفرته الأولى إلى بغداد، ويملّ مدينة الملك المهرجان، على الرّغم من جمالها، وعلى الرّغم من مركزه الوظيفي المهمّ جداً في المدينة، إذ كان ملك المدينة قد عيّنه عاملاً على مينائها، وقرّبه وأكرمه: «ثمّ إنّه أحسن إليّ [ملك المدينة] وأكرمني وقرّبني إليه وصار يؤانسني بالكلام والملاطفة، وجعلني عنده عاملاً على ميناء البحر وكاتباً على كل مركب يعبر إلى البرّ»[٢٥١]. مع ملاحظة أن هذه الوظيفة المهمّة (عامل الميناء)، هي من المناصب المهمّة وصاحبها يحتلّ موقعاً متميّزاً في الدولة، لأنّه يمكن اعتباره من أعوان السلطة ورجالها، نظراً لسلطته على حركة التّجارة والمراكب التي تدخل الميناء وتخرج منه. والفئات التي يمكن اعتبارها ذات مواقع متميّزة في المدينة الإسلاميّة، وتتفوّق على غيرها من بقية الفئات هي: رجال السلطة، ورجال الدين، وفئة التّجار[٢٥٢].

إنّ خيوط الوحدات السردية في سفرات السندباد، تبتدئ من بغداد، ثم تمتد بعيداً إلى مدن أخرى، لتنتهي في بغداد. وهنا يمكننا أن نتخيّل بغداد مركز دائرة كبيرة، تدور حوله المدن التي يصل إليها السندباد، أو التي تتموضع حوله في كل سفرات السندباد.

ففي السفرة الأولى[٢٥٣]:

يسافر السندباد من بغداد (ص ٤٠٠) إلى ← البصرة (٤٠٠) ← مدينة الملك المهرجان (مدينة لا اسم لها)، (٤٠٤)← جزيرة كابل (إحدى جزر مدينة الملك المهرجان)، (٤٠٥) ← الرجوع إلى البصرة (٤٠٧) ← بغداد (٤٠٨).

---

(٢٥٠) ألف ليلة وليلة، ٣/٤٠٤.

(٢٥١) م ن، ٣/٤٠٤

(٢٥٢) زيادة، د. خالد: " الخسيس والنفيس في المدينة الإسلامية "، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، السنة الرابعة، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٨٢م، ص ١٦٠.

(٢٥٣) ألف ليلة وليلة ٣/من ص ٣٩٩ إلى ص ٤٠٨.وسيشار إلى رقم الصفحة داخل المتن بجوار أسماء المدن في كل سفرات السندباد وذلك للتخلص من كثرة الهوامش.

وفي السفرة الثانية[٢٥٤]:

يسافر السندباد من بغداد إلى البصرة ← عدة جزر لا يذكر السندباد اسماً لها (٤٠٩) ← جزيرة عظيمة (لا اسم لها)، (٤١٤) ← إلى مدن كثيرة (لا اسم لها)، (٤١٥) ← البصرة (٤١٥) ← بغداد (٤١٥).

في السفرة الثالثة [٢٥٥]:

من بغداد (١١٨)← البصرة (١١٨) ← جزيرة (لا اسم لها)، (١١٨) ← جبل القرود (١١٨) ← جزيرة (لا اسم لها)، (١٢١) ← جزيرة السلاهطة (١٢٥) ← بلاد ما وراء البحار (١٢٤) ← البصرة (١٢٥) ← بغداد (١٢٥).

وفي السفرة الرابعة[٢٥٦]:

من بغداد (٤٢٦) ← البصرة (٤٢٦) ← جزر كثيرة (لا اسم لها)، (٤٢٦) ← جزيرة (لا اسم لها) بعد أن كسرت سفينة السندباد (٤٢٧) ← مدينة عامرة بالأهل والمال (لا اسم لها)، (٤٢٩) ← جزر كثيرة (لا اسم لها)، (٤٣٦)← البصرة (٤٣٦) ← بغداد (٤٣٦).

وفي السفرة الخامسة[٢٥٧]:

من بغداد (٤٣٧) ← البصرة (٤٣٧) ← عدة جزر (لا اسم لها)، (٤٣٨) ← جزيرة خالية من السكان، وهي جزيرة طائر الرخ (٤٣٨) ← جزيرة (بعد أن كسرت سفينة السندباد)، (٤٣٩) ← مدينة القرود وهي في أقصى بلاد السودان (٤٤٣) ← عدة جزر في طريق العودة (م ٤/٥) ← البصرة (٥) ← بغداد (٥).

وفي السفرة السادسة(٢٥٨):

من بغداد (٦) ← البصرة (٦) ومن مدينة إلى مدينة، (لا أسماء لها)، (٦) ← جزيرة (محطّة نجاة بعد أن كسرت سفينة السندباد)، (٧) ← مدينة لا يعرف السندباد اسماً لها كما يقول (١١) ← البصرة (١٢) ← بغداد (١٣).

---

(٢٥٤) م ن، ٣/من ص ٤٠٨ إلى ص٤١٥.

(٢٥٥) نظرا لأن مدن هذه السفرة ناقصة في طبعة دار مكتبة الحياة، فإني استخدم طبعة أخرى، وهي: ألف ليلة وليلة، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت، المجلد الثالث، د. ت، من ص ١١٧ إلى ص ١٢٥.

(٢٥٦) ألف ليلة وليلة، طبعة دار مكتبة الحياة، ٣/من ص ٤٢٥ إلى ص ٤٣٧.

(٢٥٧) ألف ليلة وليلة، من ص ٤٣٧ من المجلد الثالث إلى ص٥ من المجلد الرابع.

(٢٥٨) م ن، ٤/من ص ٦ إلى ص ١٤.

وفي السفرة السابعة[٢٥٩]:

من بغداد (١٤) ⟵ البصرة (١٤) ⟵ إقليم الملوك في آخر بحار الدنيا (١٥) ⟵ جزيرة عظيمة (جزيرة أمان)، (١٦) ⟵ مدينة عظيمة (لا اسم لها)، (١٧) ⟵ البصرة (٢٣) ⟵ بغداد (٢٣). ومخطط الدائرة الآتي يوضّح تموضع المدن التي يصل إليها السندباد، حول مركز الدائرة بغداد:

من خلال المخطط السابق يمكن القول: إنّ كل رحلة سندبادية تشكّل دائرة[٢٦٠] وعلى محيط هذه الدائرة تتراصّ الأقاليم والجبال والجزائر والمدن، وأول مدينة مهمّة على هذا المحيط هي البصرة، وآخر مدينة عليه هي البصرة أيضاً، فهي مرفأ الأمان. وبعد أن يصل السندباد إلى ميناء البصرة، يدخل في المركز الأكثر أماناً، مدينة بغداد، مدينة الأماني الجميلة، حيث المآكل الطيّبة، والشراب واللّهو والطرب، والأصدقاء والجواري الجميلات.

يقول السندباد[٢٦١] في نهاية سفرته الثالثة: «إنّي لمّا عدت إلى مدينة بغداد اجتمعت على أصحابي وأحبابي وصرت في أعظم ما يكون من الهناء والسرور والرّاحة، ونسيت ما كنت فيه لكثرة الفوائد وغرقت في اللّهو والطرب ومجالسة الأحباب والأصحاب وأنا في ألذّ ما يكون من العيش».

ولم تكن بغداد في الليالي ملاذاً أو مدينة حميمة لأبنائها فحسب، بل كانت فضاءً آمناً لكثير من الشخوص الغرباء[٢٦٢]، الذين فضّلوها على بلدانهم، فمنار السنا، ابنة ملك الجان في واق الواق، ترفض مجد أبيها وهيبته وسطوته بين الجزائر الكثيرة، وتأتي لتعيش في

---

(٢٥٩) م ن، ٤/من ص ١٤ إلى ص ٢٣.

(٢٦٠) وتتشكّل الرحلة الدائرية حول المدينة المركز (بغداد) في غير حكاية، إذ تكون هذه المدينة نقطة انطلاق الشخوص والأبطال، ثم تصير فيما بعد نهاية مطافهم. ومن خلال انتقال الوحدات السردية يوزّع الرّواة المدن الأخرى، التي تتحدد وظيفتها في أن تكون محطّات استراحة، أو محطّات إغارة، أو محطّات تسكن فيها النساء الجميلات المحبوبات، اللواتي يشكّلن غاية الغايات، أو محطّات تكون سبباً في الثراء المالي. ومن هذه الحكايات: حكاية "حسن الصائغ البصري"، [٣٢١/٤، ٣٦٩]. وحكاية "علاء الدين أبي الشامات". [٣٨٤/٢، ٣٩٢، ٣٩٨، ٣٩٩].

(٢٦١) ألف ليلة وليلة، طبعة المكتبة الشعبية، ١٢٥/٣.

(٢٦٢) ومن هؤلاء الشخوص: علاء الدين أبو الشامات، والأميرة (حُسن مريم)، في حكاية "علاء الدين أبي الشامات". وأحمد الدنف، وعلي الزيبق المصري في حكاية "علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة"، وغيرهم.

بغداد مع زوجها حسن البصري، لأنّها عايشت جمال بغداد سابقاً، ولا تستطيع أن تفارقها. تقول[٢٦٣] معلنة شوقها إلى بغداد، مدينة زوجها:

وطـــرفي إلى أوطـــانكم متلفـــت	وقلـــبي علـــى أيـــامكم متلهـــف
وكـم ليلــة بتنــا علــى غــير ريبــة	محـــبين يهنينـــا الوفـــا والتلطّـــف

إنّ الخروج من بغداد هو خروج صوب المجهول، تكتنفه الحيرة والخوف والجوع، والنفي والضياع. يقول الرّاوي عن خروج الأمير كان ما كان: «فإنّه لمّا خرج من بغداد صار متحيّراً في أمره، ولم يدر إلى أين يتوجّه. ثمّ إنّه سافر في البرّ ثلاثة أيام وحده ولم ير راجلاً ولا فارساً. فطار رقاده وزاد سهاده وتفكّر أهله وبلاده، وصار يتقوّت من نبات الأرض ويشرب من انهارها»[٢٦٤]. وإنّ الدخول إلى بغداد يعني الأبّهة والعظمة، والأمان والنّعيم، وذهاب الذلّ الذي كان قد لحق الشخصيّة عندما فارقت بغداد. يقول الرّاوي عن رجوع «كان ما كان» إلى بغداد: «فأخرج [الملك ساسان] جميع العساكر ووجهاء بغداد لملاقاته. فخرج كلّ من في بغداد ولاقوه، ومشوا قدّامه إلى القصر (...) ثمّ أمر أن يحضروا لكان ما كان خلعة سنية وجملة من الخيل، وأفرد له في القصر أكبر الدور، وأقبل عليه العزّ والسرور، وأعطاه مالاً جزيلاً وأكرمه غاية الإكرام (...) ففرح كان ما كان بذلك وذهب عنه الذلّ والهوان»[٢٦٥].

وتذكر المصادر التاريخيّة، أنّ بغداد كانت قادرة على إعطاء الداخلين إليها ما يرغبون فيه، من رفاهية العيش ولذّاته، فقد وُجِد مكتوباً على بعد أميال قليلة منها، وعلى طريق مكّة:

أيـــا بغـــداد يـــا أســـفي عليـــك !	متـــى يُقـــضى الرجـــوع لنـــا إليـــك ؟
قنعنـــا ســـالمين بكـــل خـــير ؛	ويـــنعم عيـــشنا في جانبيـــك[٢٦٦]

إنّ شخوص ألف ليلة وليلة مندفعون للرجوع إلى مدنهم التي هاجروا منها، طوْعاً أو كرْهاً، وهم محكومون بحنين قوي إليها، إذ تدفعهم الحياة بقوة إلى مدنهم الأصلية، أو لنقل بتحديد أكثر يدفعهم السرد الحكائي للعودة، وذلك لرغبة السارد في فكّ عقدة الحكاية في المدينة الأصل، التي امتدّت منها خيوطها. إنّ فكّ عقدة الحكاية في المدينة المركز، هو في أحد وجوهه الإشاريّة استمرار لسطوة القصر المركزيّة، لأنّ الملك أو السلطان

---

(٢٦٣) ألف ليلة وليلة، طبعة دار مكتبة الحياة، ٢٤٣/٤. ومن الآن فصاعداً فإنّ كل الإشارات إلى أرقام الصفحات ستعود إلى طبعة دار مكتبة الحياة، وذلك في كل فصول هذه الدراسة.

(٢٦٤) ألف ليلة وليلة، ٩٠/٢.

(٢٦٥) م ن، ٩٨/٢.

(٢٦٦) معجم البلدان، ٤٦٢/١.

أو الخليفة المروي له، يعدّ على المستوى النفسي أنّ خروج الشخصيّات من المدينة المركز، وعدم عودتها إلى هذا المركز هو تمرّد على سطوة قصره، أو سطوة قصور المدن المركزيّة الأخرى، التي تلتقي في كثير من قسماتها وبنياتها الاجتماعيّة والسياسيّة مع قصوره في مدينته، ولأنّ الرّاوية الأولى شهرزاد وقفت طائعة ذليلة، وهي تروي الحكايات في قصر سيّدها شهريار، وكرّست فكرة القصر المركزيّ والمدينة المركزيّة والسلطة المركزيّة، والأبطال الذين لا يتجاوزون هذا المركز مهما كانوا عتاة، فإنّ الرّواة الآخرين كرّسوا فكرة المركز، حتى ولو كانوا أعداء له. ومن الحكايات التي تكرّس فكرة المركز حكاية «**الأحدب وملك الصين**»[٢٦٧]، إذ يبتدئ السرد من الصين وينتهي في الصين، وتكون حركة السرد قد خطّت مساراً دائرياً، تموضعت عليه البلدان والمدن الآتية: الصين (١٢٤/١)، مصر (١٢٨/١)، بغداد (١٣٠/١)، دمشق (١٤٤/١)، الموصل (١٥٠/١)، الصين (١٦٢/١). وإذا كان الرّاوي يسرد الحكايات المتشعّبة الداخلة في حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، أمام ملك الصين، فإنّه لا ينسى الاحتفاء ببغداد المركز، احتفاءً يفوق احتفاءه بالصين وملكها، إذ يستحضر بغداد الزّمان والذّكريات، والعيش الفاره، والحنين إلى نسائها الدافئات، لتسع مرات داخل الحكاية[٢٦٨].

هذه هي بعض ملامح مدينة بغداد كما ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، وهذه الملامح لا تختلف كثيراً عن ملامحها التاريخيّة والحضاريّة المزدهرة، كما ذكرتها المصادر والمراجع. فقد أُنشِئت هذه المدينة لتجسّد «الطموح إلى الجديد، ورمزية الجدّة، ومعنى الإمبراطورية وعزتها»[٢٦٩].

إنّ موقعها الجغرافي المتميّز، كما يشير أحمد بن إسحق بن واضح اليعقوبي[٢٧٠] (ت٢٩٢ هـ/٩٠٥ م) باعتبارها «مفترق طرق بين بحار الشرق وبحار الغرب، وبين بلدان العرب والعجم وبين دجلة والفرات»، جعلها في نصوص ألف ليلة وليلة، أهمّ فضاء مكاني في ارتحالات السرد، وحركة الأبطال، وتشكيل الأحداث. وقد حاولت أن أركّز على أهمّ ملامحها كما وردت في نصوص الليالي. ■

---

(٢٦٧) ألف ليلة وليلة، ١/من ص ١٢٤، إلى ص ١٧٧. وسيشار إلى أرقام الصفحات في المتن بجوار البلدان والمدن التي يذكرها السرد في حكاية "الأحدب وملك الصين".

(٢٦٨) وذلك في المجلد الأول، وفي الصفحات: ١٣٠، ١٣٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٤.

(٢٦٩) جعيط، د. هشام: الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، ص ٤٣٨.

(٢٧٠) عن/ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص ٣٨٣.



تاجر عربي من بغداد.

ابن زريق البغدادي في واحدته الفريدة

ابن زريق البغدادي أو محمد بن زريق البغدادي، شاعر عنقائي الوجود لامع الاسم، وهيهات أن يأتي باحث بترجمة لحياة هذا الشاعر تقطع دابر الشك في وجوده.

قالوا إن ابن زريق من شعراء بغداد المعدمين، هام بفتاة وأراد الزواج منها فحال فقره دون ذلك فسافر إلى المغرب ودخل الأندلس طالباً رفد ملكها ولكنه قضى نحبه دون أن يتحقق رجاؤه وقد وجدت عينيته الشهيرة تحت وسادته. هذا ما قاله الرواة ولكنها رواية فيها من القلق الشيء الكثير ومن الشك الشيء العظيم.

لقد أغفل المؤرخون ذكر هذا الشاعر ولم يشيروا إليه مطلقاً ولم يذكروا عنه شيئاً وهؤلاء هم الذين قام تأريخ الأدب العربي على مخلفاتهم وليس ثمة سبب يحدوا بالمؤرخين إلى إغفال ذكر شاعر له عصماء كهذه وقد ذكروا من لم يأت بغير أبيات لا تعد شيئاً إذا قيست بهذه القصيدة.

وهنا نسأل الرواة إذا كان ابن زريق ذهب إلى الأندلس طالباً رفد ملكها فأين المدح الذي أعده ثمناً لما طلب من مال فإن القصيدة خالية من مدح ونسألهم ثانية وسؤالنا هو أن كل من نسبت إليه قصيدة أو مقطوعة قد نسب إليه لا على وجه التحقيق شيء من الشعر عدا ابن زريق فهو الشاعر الذي نسبت له قصيدة طويلة عامرة ولم ينسب إليه بيت من الشعر سواها وهذا أمر يؤيد الشك أي تأييد ولدينا سؤال ثالث هو أن القصيدة المنسوبة لابن زريق من الشعر الذي لا يقوله إلا من كانت له في الشعر محاولات بل وجولات عديدة ومن الاستحالة بمكان أن ينظم شاعر قصيدة كقصيدة ابن زريق البغدادي هذه دون أن يكون قد عالج نظم الشعر زماناً.

إن إغفال المؤرخين عامة ذكر ان زريق ونسبة قصيدة واحدة من عيون الشعر العربي إليه وخلو القصيدة من المدح كل هذا يذهب بنا إلى إنكار وجود شاعر يسمى ابن زريق البغدادي. ولكن لدينا قصيدة بهذا الانتساب فهل نقول فيها سوى إنها نظم شاعر فحل أخفى اسمه لسبب ما وخلع عليها هذا الاسم المستعار؟ أو أنها نظم فقيه أو عالم كان يرى في الشعر سبة لدينه وعلمه فجعل من ابن زريق خالداً من الشعراء؟ والله أعلم.

واحدته:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ... قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

هذا البيت مطلع قصيدة ابن زريق ويليه ثمانية وثلاثون بيتاً من رفيع الشعر.

في هذه القصيدة غزل صادق العاطفة وفيها ألم ولوعة ظاهران وفيها شكوى مريرة، شكوى الزمان والحال، شكوى الحب والفقر والحرمان ومعاكسة الظروف. والقصيدة توحي بخبرة ناظمها وتجاريبه وفهمه للحياة والناس، كما أنها تشير إلى أن ناظمها طلب الرزق في غير مكان ونشد العيش ضارباً له في الآفاق.

ما آب من سفر إلا وازعجه ... رأى إلى سفر بالعزم يجمعه

وفي القصيدة مكنة لغوية وصناعة موفقة كثيراً كما فيها قلق في بعض القوافي سببته الصناعة اللفظية. وجملة القصيدة توحي بأنها من شعر العصر العباسي الرابع وربما الخامس.

قال ابن زريق:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ... قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حداً أضر به ... من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا ... عن عنفه فهو مضني القلب موجعه
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله ... فضيقت بخطوب البيت أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وازعجه ... رأى إلى سفر بالعزم يجمعه
كأنما هو من حل ومرتحل ... موكل بفضاء الله يذرعه
إذا الزمان أراه في الرحيل غنى ... ولو إلى السند أضحى وهو يزمعه
تأبى المطامع إلا أن تجشمه ... للرزق كداً وكم ممن يودعه
وما مجاهدة الإنسان توصله ... رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسم بين الخلق رزقهم ... لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه
لكنهم ملأوا حرصاً فلست ترى ... مسترزقاً وسوى الغايات يقنعه
والسعي في الرزق، والأرزاق قد قسمت ... بغي ألا أن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه ... يوماً ويمنعه من حيث يطمعه
استودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني ... صفوا الحياة وإني لا أودعه
وكم تشفع إني لا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته ... بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا ... شكر الإله فعنه الله ينزعه
اعتضت عن وجه خلي بعد فرقته ... كأساً أجرع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
إني لأقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن إذا هجع النوام بت له ... بلوعة منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا ... لا يطمئن له مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حظي وتمنعه
بالله يا منزل القصف الذي درست ... آثاره وعفت مذ غبت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ... أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغداك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيعه ... كما له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لأصبرن لدهر لا يمتعني ... به ولا بي في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري معقب فرجا ... وأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عل الليالي التي أضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن تنل أحداً منا منيته ... فما الذي بقضاء الله يصنعه

❖ ❖ ❖





فرسان من بغداد.

أهـوى العـراق

✍ بدوي الجبل (احمد سليمان الأحمد)

أهـوى العـراق وإن تكـن طاحـت بـسؤدده الطـوائح
وأحـب جنّـات العـراق وطيبهـا غـادٍ ورائـح
وعيـون آرام الفـرات علـى شـواطئه سـوارح
جرحـت قلـوب العاشـقين كـذاك تـصطاد الجـوارح

بين الشام والعراق

✍ عز الدين التنوخي(1)

ودّعـت غوطتنـا وذاك الـوادي شـوقاً لكـم يـا سـاكني بغـدادِ
ودّعـت جلـق جنـة الـدنيا إلى وادي الـسلام ومنبـت الأمجـاد
غـادرت قلـبي بالـشآم واعرقـت روحـي فيـا لمقـسّم بعبـاد
فرضـا وبـاقر(2) في العـراق كلاهمـا أخـذ الفـضائل عـن أبيـه جـواد
إنـي لبعـدهما حرمـت مـسرتي ومـن الأسـى قلقـت علـيّ وسـادي
ولبعـد سـاطع(3) لم يعـد مـاء الحمـى عـذباً، ولا اعيـاده أعيـادي
تـالله لا أنـسى الـشآم وسـعدها(4) والمغربـي وجمـع ذاك النـادي
وخليـل(5) قطّـع مهجـتي بفراقـه ويـل الفـراق وركبنـا والحـادي
وذكـي والكرمـي والجـبري لا ينفـك ذكـرهم حليـف فـؤادي
وأبـو نـزار(6) ذاك في صـيدائه قلـبي لـه ولهـا لعمـرك صـاد

---

(١) ❖ عز الدين علم الدين التنوخي أبو قيس (١٨٨٩- ١٩٦٩) ولد بدمشق، واصبح أحد أدبائها ومؤلفيها ومن أعيان طائفة الموحدين الدروز، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. شغل مديرا لمعارف جبل العرب فمفتشا للغة العربية في وزارة المعارف، ثم انتدب للتدريس في كلية الآداب بدمشق في ١٩٥٠/٣/٢٠ من كتبه المطبوعة: دروس في صناعة الإنشاء (طبع ببغداد) شعر الراعي النميري (بالاشتراك مع ناصر الحاني - العراقي ، دمشق ١٩٦٤.

(٢) الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ محمد باقر الشبيبي.

(٣) ساطع الحصري.

(٤) الطبيب عبد الرحمن الشهبندر سعد زغلول الشام والمغربي هو الشيخ عبد القادروبالنادي أريد المجمع العلمي بدمشق.

(٥) خليل مردم بك وذكي الخطيب وشاكر الكرمي وشفيق جبري.

(٦) وأبو مضر وعدنان أيضاً هو أحمد عارف الزين، صاحب مجلة العرفان .

اهـل الحفـاظ هـم أن اشـتجر القنـا وهـم علـى بـردى أهيـل ودادي
كيـف الـسلوُ عـن الـشآم ولـي بهـا قـيس ومعـن فلـذة الأكبـاد
فهمـا لقلـبي بهجـة لا تنقـضي وهمـا لعـيني روضـة المرتـاد
وإذا رجعـت إلى الحقيقـة عينهـا أيقنـت أنـي في خيـالي عـاد
لم انتقـل مـن جلـق إلا إلى بغـداد دار رشـيدنا والهـادي
لـي في الـشآم موالـد الآبـاء إذ لـي في العـراق مـدافن الأجـداد
فمـن العـراق أهـيم في تاريخهـا ومـن الـشآم أهـيم في اولادي
العـرب أكـرم أمـة بـالرغم مـن سـعي الوشـاة ومفـترى الأوغـاد
لـولاك يـا أرض الجزيـرة و الألى نزلـوك مـا فارقـت أمـس بـلادي

الليل في بغداد

✍ أنور العطار(*)

الليـل في بغـداد لا ينـام
سهران تصبى روحـه الأنغام
ويسـتبيه الوجـد والهيام
واللهـو والايناس والمدام
والشعـر والأوهـام والأحلام

أسـكبُ النـورَ يـا قمـرْ واغمُـر النهـرَ بالـصورْ
وأذعْ فرحـةَ الهـوى واشِـعْ لـذَّة الـسمر
وأتـركِ القلـبَ حالمـاً ناسـياً روعـةَ الغِيَـر
يجمَـعُ الـنفسَ كلَّهـا مِـنْ تَـشَهِّيهِ في النظـر
هاهنـا الليـل شـاعر مُلهَـمٌ خَيِّـرُ الفكَـر
مُـستطارٌ إذا انتـشى مُـستثارٌ إذا ادَّكَـر
مَـلْ افيائِـه الـسنا مِـلءُ أعطافِـهِ الـدُّرَر
في وشـاحٍ مُنَمْـنَمِ سـاحرٍ فتنـةِ البـصر
والنـسيمُ الـذي يُطَـوِّ فُ شـعرٌ لِمـنْ شَـعَر

(*) أنور بن سعيد بن أنيس العطار (١٢٦-١٣٩٢هـ/١٩٠٨-١٩٧٢م) دمشقي المولد والوفاة، أحد أساتذة الأدب العربي درّسه في بلده وفي سورية والحجاز ويعد من شعراء سورية المطبوعين، له عدة كتب ودواوين منها: ظلال الأيام (ديوان شعر) صدر عام ١٩٤٨، وكتاب الزاد (في الأدب والنصوص) وغيرها. له قصيدة في الحسين الشهيد نشرناها في مجموعتنا (أجراس كربلاء) بيروت ١٩٨٨ .

ونشيدٌ مُسلسلٌ ... في العَشيَّاتِ والبُكَر
ما أُحَيْلاهُ ساجياً ... ما أُحَيْلاهُ إن فتَر
طافَ بالأعينِ الرُقادُ ... وما شفَّني السهر
يَتصبَّاني النخيلُ ... ويُغريني النهَر
في ثناياهُ صورةٌ ... حُلْوةٌ كلُّها سِيَر
بأبي أنتَ مَوْرِداً ... ليسَ في ورْدِهِ كَدَر
يتشهَّاك خاطري ... وتسلى بكَ الذِّكَر
إن تثنَّيتَ فالندى ... أو تأوَّدْتَ فالطرَر
أو تَسللتَ صافياً ... فأخو الدَّلِّ والخفَر
مرَّ بي طَيْفُكَ الحبيبُ ... وكم طائف سَحَر
في أساريره فتونٌ ... وفي طَرْفِهِ حَوَر
المنى طَوْعُ أمره ... ما تمنَّى وما أمَر
والشَّذا منه عابِقْ ... فَاغِمُ العطر منتشر
فعلى الشمسِ عرشُهُ ... وعلى هامِها استقر
هو ريحانةُ العُلى ... فيه منَ عبْقَر اثر

❖ ❖ ❖

عُدتُ للغابر البعيدِ ... أناجي الذي غبر
اتأسى بما انطوى ... اتعزى بما استتر
هاهنا تخشع القلوب ... وتصبو وتنفطر
ها هُنا سيرة الزمان ... وعاها الذي ذكَر
ها هُنا الكونُ سابحٌ ... في خِضَمٍّ من العِبَر
أنت لي الحبُّ والمنى ... أنت لي القصدُ والوطر
ليس لي عنكَ مُبتغى ... ليس لي عنك مُصطبَر
أتناسى بك الأسى ... غَمَرَ النفسَ ما غمر
وا حنيني إلى الضفافِ ... تزاحَمْنَ بالشجر
وتسابقنَ بالرُّؤى ... وتساجلْنَ بالصور
وتلامسْنَ بالهوى ... وتهامسنَ بالسير
ورويْن الذي انقضى ... وأذعنَ الذي استتر

أنـــتَ يـــا نهــرُ عاشــقٌ مــن صـــباباتك القمـــر
مـــرَّ بالمـــاء صـــورةً فتنـــت كـــلَّ مَـــنْ نظـــر
وينـــابيع حُفَّـــلاً بـــاللآلى وبالـــدُّرَر
والنجـــومُ الـــتي تـــرِفُّ إطـــارٌ مـــنَ الزَّهـــر
وربيـــعٌ مـــن المنـــى وريـــاضٌ مـــن الثمـــر
يتـــوهَّجَن كـــاللظى يتراقـــصنَ كالـــشرر
فيـــك مـــا يمـــلأ النُهَـــى فيـــك مـــا يُبْهَـــرُ البـــشر
آيـــةٌ أنـــتَ للعُلَـــى رايـــةٌ أنـــتَ للظَّفَـــر
يَتَثَنَّـــى بـــكَ الزمـــان ويُزْهـــى بـــكَ العُـــصُر
ويُبـــاهِى بـــكَ الجـــلا لُ وينْـــدَى ويَزْدَهـــر
رُبَّ مـــاضٍ بَعَثْتَـــهُ مثلمـــا يُجْمِـــع النَّـــشَرْ
رَفَّ كـــالحُلم خاطفـــاً وتـــوارى ومـــا انتظـــرْ
لمْ يَنَـــلْ منـــكَ غـــابرٌ لَـــمْ يَعـــبْ حُـــسنكَ القِـــصَرْ
أنـــت كالحـــبِّ ســـاربْ انـــتَ كـــالعُمْر مختـــصرْ
أنـــتَ كـــونٌ مـــن الـــشُّمو س ســـنا ضَـــوْئها بَهَـــرْ

❖ ❖ ❖

بِـــتُ أستـــلهمُ الـــرُؤَى بِـــتُ أَسْـــتَقْرِئُ الـــذِّكَرْ
والهـــوى طـــائف يجـــد وكـــم يركـــب الغَـــررْ
لا يخـــاف الـــرَّدَى الرهيـــب ولا يعـــرفُ الحَـــذَرْ
مَـــرنَ الخـــوضَ والـــدُجى الِـــفَ الـــشَّدْوَ والـــسَّحَرْ
لـــيسَ تَثْنيـــهِ غَمْـــرَةٌ طـــالَ ذا العُمْـــرُ أو قَـــصُرْ
هـــو تِـــرْبُ المـــدَى الخفـــيِّ أخـــو الـــدَّهر والقَـــدَرْ
طـــاف بالغـــابر القَـــصِيِّ لياليـــه والنهُـــرْ
في تـــضاعيفه النَّعـــيمُ وفي طيِّـــهِ سَـــقَرْ
يـــا لـــه مـــن مُتَـــيَّم يعـــشق النـــأي والـــسفر

❖❖❖

أيهـــا الهـــاجر الـــذي عـــذَّب القلـــب مُـــذْ نَفَـــرْ
أنـــت وحـــيٌ أُحبُـــهُ وَرَدَ الفكـــرَ أو صَـــدَرْ

كلُّ ذَنْبٍ جنيته ... هو في الحب مغتفَر

لا تكلني إلى الأسى ... لا تكلني إلى الضجر

حسب روحي الذي مضى ... حسب قلبي الذي عبر

قمْ نُعدْ سكرةَ الهوى ... فالهوى كله سكَرْ

ونُحَوِّمْ على الخلود ... ودَاراَتِه الأُخَرْ

فهنا الكون عابق ... أرجُ زهره عَطِرْ

سامح الحِب إن هفا ... واعْفُ عنه إذا هَجَرْ

والهوى سلوة النفوس ... وبُحبُوحةُ العُمُرْ

كل من ذاقه استعا ... د صباه الذي غبرْ

وتروَّى من الحياة ... ومن روضها النضِر

لذة العيش في الصبا ... راحة البال في الصغر

كل أحلامه سناً ... كلُّ أطيافه غُررْ

وأراجيحُ طُفَّحٌ ... بالألاعيب والأكرْ

وأساطير عُكَّفٌ ... يتمرغن بالسُّررْ

نَذَر القلب أن يحنَّ ... ويا صدْق ما نَذَرْ

بعثَ الشعْر سَلسلاً ... كالينابيع تنفجر

أو كما يحفلُ الغمامُ ... وينهلُّ بالمطرْ

فإذا اهتاجَ فالحمامُ ... وإن حنَّ فالوترْ

فامرحي يا خواطري ... واغنمي الأنسَ إن حضرْ

وسَلي (دِجْلةَ) الرِّضا ... عن محبْ بها فكَرْ

خيرتي أنتِ في الدُّنا ... ليتها تصدق الخِيَرْ

وهواىَ الذي طغا ... والهوى طامعٌ أشِرْ

قد تفرَّدت بالجمالِ ... وبالمجدِ والخطرْ

حبذا منكِ رشفةٌ ... كلُّ منْ عبَّها سَكِرْ

خطرتْ فَامَّحى الأسى ... وبدَتْ فانجلى الكدرْ

ومشى الحبُّ بي إلى ... عالمٍ كله سَمَرْ

جُنَّ شوقي إلى الحِمى ... فهمى الدمع وانتثرْ

يا لَقلْبٍ مُوَلَّهٍ ... شفه الوجد فاستعرْ

ذِكريـــاتٌ هـــي الحيـــاةُ ومـــاضٍ هـــو العُمُـــرْ
مَـــن رعـــاه فقـــد وفـــى مَـــنْ قَـــلاهُ فقـــد كفـــرْ
لـــيس في شِـــرْعَةِ الهـــوى هـــائم إن نـــأى غَـــدَرْ
واخـــو الحُـــبِّ ثابـــتٌ لـــيس يلويـــه مُزْدَجَـــرْ
رُبمـــا عـــاش بـــالمُنى ربمـــا عـــاش بـــالفِكَرْ
هـــو ذا الـــزَوْرَقُ الحبيـــبُ علـــى مائِـــكِ انحَـــدَرْ
حمـــل الأنـــس والرِّضـــا والمـــسرَّاتِ والبُـــشرْ
واستفاضـــت لُحونـــه تغمـــر البـــدْوَ والحَـــضَرْ
هـــا هنـــا يَطـــربُ الثَّـــرى هـــا هنـــا يـــشعر الحجـــرْ
هـــا هنـــا تُـــسلس الطِّبـــاع وتـــستانس الفِطـــرْ
غَـــنِّني اطيـــب الغنـــاء ونـــاجِ الـــذي خَطـــرْ
فلقـــد يثمـــلُ الهـــوى ولقـــد يَـــسكَرُ الـــوَترْ

❖ ❖ ❖

إيـــه (بَغـــدادُ) هـــل يعـــودُ الجـــلالُ الـــذي انـــدثرْ
فـــأرى تاجـــكِ النَّـــضيرَ علـــى الكـــون يَنـــضفرْ
وارى الأرض كلـــــها وهـــي مهـــدٌ ومـــستقرْ
آيـــةٌ انـــتِ فَـــذَّةٌ كـــل مـــا فيـــكِ مُبتكـــرْ
مَـــنْ تلاهـــا فقـــد تـــلا مـــصحف المجـــدِ والـــسُّوَرْ
حَفِـــظَ الـــدَّهرُ ذِكرهـــا وروى للغَـــدِ الخَـــبرْ

بغداد

✍ الشاعر سليم الزركلي(1)

احقـــا تـــرى بغـــداد، أم انـــت حـــالم وبغـــداد، يـــا قلـــبي، الهـــوى والمعـــالم
معـــالم أمجـــاد، ودنيـــا حـــضارة أضـــاء بهـــا دهـــر العـــلا، والمحـــارم
تغنيـــت، والبيـــداء تفـــصل بيننـــا فهـــات، وأنـــت اليـــوم جـــذلان نـــاعم

---

(١) سليم بن كامل الزركلي الكردي الأصل، ولد ببعلبك سنة ١٩٠٣ ودرس في دمشق وعمل في التعليم حتى عام ١٩٦٢. وفي عام ١٩٤٢ عمل سكرتيراً لمجلس الوزراء السوري حتى آب ١٩٤٣ وتنقل في وظائف أخرى. منها إدارة الإذاعة السورية حين تأسيسها سنة ١٩٤٧، له ديوان شعر بعنوان (دنيا على الشام) طبع في بيروت ١٩٦٨.

أدرها كئوساً، بارك الله نفحها ... من الود، والأمشاج نشوى تناغم
فكم لك في أظلالها من مناعم ... وكم طاب في الذكرى هوى ومناعم
أناجيك، يا أم المدائن، والرؤى ... تهش، لها أرواحنا والمباسم
رؤى في طريق المجد تزهى روائعاً ... وخير جديد ما بنته العزائم
وأرجع للماضي. فأسجد خاشعاً ... وحق لماضيك الرقي والتمائم
زمان شدا بالشعر. في كل منبر ... أخو عبقر. والشعر بالمجد هائم
وغنى هزار الشعر في كل روضة ... وطرّبت الأفلاك فيها الحمائم
وطوف في سوح الفتوحات أعصر ... تساق إلى جناتهن الغمائم
ودنياك. يا بغداد. والدهر طيع ... تشيد وتبني، والحظوظ كرائم
أبغداد عرس في رحابك قائم ... وهذي بنات الفكر فيك نواظم
تحييك، والآمال خفق حروفها ... وتنشد للأزمات، والروح باسم
وترقب للفجر الأنيق مطالعاً ... بهن فصول للعلا، ومواسم
عسى يلتقي ماض وآت فتشتفي ... قلوب لها خلف الضلوع مآتم
تحيفها جور الحوادث، فانبرت ... تصارع أفواج الأذى، وتخاصم
وتستصرخ الدنيا: لعل فيالقاً ... تحس، فتشتاق الصيال صوارم
أضاعت على الأقصى، عهود كرامة ... وهيهات ان ينسى الأسى والمظالم
وللوجد في أحنائهن مجامر ... ومن لعميد أثقلته المغارم؟
نشدتك للود القديم، وللهوى ... وبين ضلوعي من هواك عوالم
أدغدغها، والفجر بعد ملثم ... وأوقظها والذكريات حوالم
ودجلة يسري. والنخيل مُهوّم ... وللسحر في أعطافهن نواسم
وفوق خدود النهر راقص شعلة ... خواطرها تحت العباب بواسم
وقلبي، في أشواقه، نضو صبوتي ... وهل تستريح الطير، وهي جوائم؟
تحية اعراق، وعطر أواصر ... أسقّيك يا بغداد، والوجد عارم
ففي بردى، والغوطتين مشاعر ... ترف، فما تقوى عليها السمائم
تحن لأيام خلت، من عهودها ... وأنّتْ نجاواها، وأنت الدعائم
وليس سبيل الحب هجر وفرقة ... وليس شعار الأكرمين سخائم

هبي للعلا دهراً يضوع أريجه تطيب به أجيالنا والعواصم
وخلّي الجوى يحرق كبود عواذل وتشرق بالغيظ الدفين نوائم
ونحن على حال من الود تستقي نوافحه أنجادنا والتهائم
فقد تعظم الأشياء. وهي صغائر وقد تصغر الأرزاء وهي عظائم
وما الحزم إلا أن نضمَّ شتاتنا فتسعد أوطان بنا ومشائم

تحية إلى بغداد

الدكتورة طلعت الرفاعي[1]

يا جامع الشمل شملي من يجمّعه ومن أنيني خلف البيد يسمعه
ابحرت واليم في صحو وفي الق وفي فمي نغم ينساب أروعه
يسير في خيلاء زورقي مرحاً وذائب الماس في رفق يرصعه
يلقى له الشفق المحموم اوشمة خمرية بسنا الياقوت تلفعه
امضى وفي خافقي حلم يهدهدني تدنى له الشمس زنديها وترضعه
وزمجر البحر بعد الصحو واضطرمت أمواجه فوق مجدافي تُصدّعه
رنوت لا مركبي أضحى له عضد ولا الأعاصير يشجيها تضرعه
وانكرتني وجوه طالما هتفت للحق في صرختي الدنيا ترجعه
وطوقتني حراب الغدر راعشة يا صانع الموت إني لست أصنعه
إني وإني على عهدي إذا اخترقت صدري السهام فجفني ليس تدمعه
وأن أساء اخي يبقى لديَّ أخي وموطني إن يضعني لا اضيعه

❖ ❖ ❖

مصيبتي أن لي نفساً سموت بها وناظراً لا يجافيه ترفعه
اديـن بالصدق أيا كان قائله واعبد الحق أنى كان موضعه
وكم اتيت طبيباً اشتكي كبدي فراح يمخر في يمناي مبضعه

---

(١) طلعت بنت مصطفى الرفاعي وُلِدَت بحمص ١٩٢٢ . دكتوراة في الاقتصاد والحقوق من جامعة باريس سنة ١٩٥٥، متزوجة من مصري وقد عملت شطراً من حياتها موظفة في جامعة الدول العربية بالقاهرة. من دواوينها المنشورة : مهرجان الشرق، وفتاة من القدس.

وللوفاء طريق ليس يجهله إلا الذي بات في الأدران مضجعه
يبقى الصفاء وتمضي السحب خائبة لا لن يضير اندفاع النهر ضفدعه
لن يبرح الطين يوماً في تسلقه من كان من حبر الحرباء برقعه
ماذا أقول عن الأيام في نوب جرعت من صابها ما لست أجرعه
غنيت للمجد للإلهام أغزله في معبدي للجمال البكر أبدعه
فكان حظي من الأيام أحلكها واتعس الصبح في الإشراق أشرعه
واللحن لن تعبر الأسماع نغمته إن لم يكن من معين القلب منبعه
لا تظلموا الشعر في ثوب وفي حلل ما جدَّة الثوب تجدي أو مرقعه
لكنها الروح قبل الجسم موعدها مع الخلود وما تبقيه يتبعه
بغداد يا كعبة الأحرار كم هدمت قلاعك الظلم لما سال مطمعه
تغضين حيناً لعل الغيم منحسر عن السهى أو لعل البرق يقشعه
ثم انفجار وزلزال بلا نذر يُروِّع الكون منه ما يروعه

❖ ❖ ❖

بغداد كم ضربة للبغي قاتلة سددتها يوم لا يجدي تشفعه
ما مس صرحك غدار على زغل إلا وكان على كفيك مصرعه
بغداد والجرح في صدري يبرحني من يلمس الداء في صدري وينزعه
بغداد يا صرخة الثوار يطلقها من دير ياسين يوم الحشر مدفعه
يوم العروبة تغلي في الدماء لظى وللرصاص طعام ليس يشبعه
حتى يعود ضياء الحق مؤتلفاً ويرجع الوطن المسلوب أجمعه
بغداد يا نغم الأبطال محتدماً راح الجهاد على النجوى يوقّعه
هنا دياري.. هنا أهلي.. هنا وطني من هاهنا الفجر يهدي الركب مطلعه
هنا النجيع الذي روى التراب سنا لماَّ تدفق نور الحق يدلعه
أحنو على الأرض صدري لا يفارقها حتى تعانقها من بعد أضلعه

❖ ❖ ❖

(المعلّقة... بغداد)

محمد حسين محمد كاظم الطريحي

سمعتُ أحد الأصدقاء يهجو بغدادا وينكرها فجاشت القصيدة... بغداد المعلقة....

مـنْ أيـنَ لـي بغـداد....؟ وهـي قريبـةٌ *** منّـي وادعـوها الهـوى فتُبَعـدِ
(بغـدادُ) أيَّتـُها الـتي قُبـَلُ الهـوى *** فـيها تـسيلُ جراحُهـا مـنْ منشِدِ
ذبحـوكِ في عـزِّ الـضحى ولطالمـا *** ذبَحـوا الحقيقـةَ فديـةً لمعربـدِ
فقتلـوكِ باسمـكِ وهـو صِنْوُ كرامـةٍ *** ثـمَّ اسـتَذلوا فيـكِ ديـنَ (محمـدِ)
صـدقَ النواسـي أمـسِ قـال شتـيمةً *** لاعُـرْبَ إلاّ البـدو في دنيـا الغـدِ
هـذا الغـدُ نحيـاهُ نحـنُ بذلـةٍ *** وإباؤنـا المهـدورُ بيـعَ لأدْرَدِ
عَظُـمَ الـبلاءُ وضـاقتِ الـدُّنيا بـِنا *** وبنـو عمومتِنـا تـروحُ وتغتـدي
نستـصرخُ الأعـرابَ مـا مـنْ سـامعٍ *** وجـعَ الـشَّريدِ سـوى الـشَّريدِ المُجهَـدِ

❖ ❖ ❖

(بغـدادُ) أيتهـا المليكـةُ مـا جـرى *** فيـكِ سـوى كيـدٍ وعـوذَةِ حُـسَّدِ
احفـادُ جنكيـزٍ اتـوكِ ليـُدركوا *** ثـأراً عَـصِيا مثـلَ سـيفٍ مغمـدِ
وبكـى عليـكِ الأمـسِ في جبروتـهِ *** مـا لم تجـدهُ عيـونُ كـلِّ مُـسهَّدِ
فـإذا تراثـُكِ وهـو علـقٌ يُجـتلى *** قـدْ صـارَ نَهـبا بـينَ كفَّـيْ مُفـسِدِ
وعِـصابةٌ للـشَّرِ الـفَّ شَـملَها *** حـزبُ الحـروبِ كثُـرْنَ دون تعـددِ
ملـكوا العـراقَ سهولَـهُ وجبالَـهُ *** وبغَـوا علينـا باضـطهادٍ مـُزبدِ
فـإذا الفـضيلةُ فيـكَ غـيرُ فـضيلةٍ *** وإذا التمـرُّدُ فيـكَ غـيرُ تمـرُّدِ
بـاعوا كـرامَتَهم واوْفـَوا كيـلَها *** في قتـلِ زيـنِ العابـدينَ بمـسجدِ
حتـى اسـتباحوا الخـيرَ في اعمارِنـا *** وطَغـوا عِـتِـيّا في انتقـاصِ الـسؤددِ
شُـذاذُ باديـةٍ، حفـاةُ مكـارمٍ *** وطرائـدُ الحَـسَبِ الوضـيعِ الأوهـدِ
هـانحنُ تُـسْلمنا المـروةُ مـنهمُ *** مـنْ فـاجرٍ وغـدٍ لآخـرَ اوغـدِ
قـد هـالَهم انَّ الإبـاءَ بأنفـُسٍ *** بـاقٍ بقـاءَ الـرُّوحِ لـيس بمغتـدي
فغـدا العـراقُ شَـمالَهُ وجنوبَـهُ *** مرعـى لأوبـاشِ العـدوِّ المعتـدي
كـادوا علينـا كـلَّ كيـدٍ وانثنـوا *** فـَرِحينَ انَّهـمُ عبيـدُ المعتـدي؟
قـد علـَّموا النـاسَ المذلـةَ وارتـضَوا *** في انْ يطـاطي المـسلمونَ لمُلحـِدِ

قـُمْ يـا (محمـَّدُ) كـي تقـوم َقيامـةٌ (اللهُ أكبـــرُ فـوق َكيـدِ المعتـدي)

❖ ❖ ❖

يبَـسـَتْ حمـيتهم، وماتـتْ غـيْرةٌ فـإذا هـُمُ عُمْـي الذبُّـابِ علـى اليـدِ
يتهـالكونَ علـى خـرابِ بيوتـِنا ويكابـرونَ بمـلكِ مَجـدٍ امْجـدِ
قـد حـشَّدوا حتـى الهـواء لحرْبِـنا وقـد اسـتحالَ نقـاؤه كالإثمـدِ
هـُمْ قتـَلوا.. هـُمْ دمـَّروا.. هـُمْ شـرَّدوا.. هـُمْ ذبـَّحوا.. متفاعـلنْ لمْ يرقـدِ
لم يحفظـوا للهِ فينـا ذمـَّةً وشَـهامةً فتأنَّقـوا بتـشددِ
شـَربوا كـؤوسَ الـذلِّ حتـى اتـْرِعوا ولـسانُ سيِّدِهـِم يـصيحُ ألا ازددِ؟؟

❖ ❖ ❖

(جنكيـزُ) ماشَبـِعتْ أظـافرُه دمـا منـَّا فعـادَ حفيـدهُ الخـسُّ الـرَدي
هـذا ابـنُ فعلـةَ إنْ سـألتَ فلـن تجدْ فحـلاً سـينكرُ أصـلَها وكـأنْ قـدِ
أكـرمْ بهـا فخـرَ الخنـا المتحـشِّدِ واضـربْ بهـا ماشـئتَ مـنْ مَـثلٍ ردي
سُمـِّيتَ (صـداماً) لتـصدمَ أمـَّةً وصَدمـتَها في عـزِّها المتوطـدِ
يـا ابـنَ الـسبايا مـاتزالُ سبيَّـةً مـعـوَّجةَ الانـساب لمـَّا تهتـدي
فالجاهليـةُ فيـكَ عـادتْ حـُرَّةً غينـاءَ تـزهـرُ برعمـاً لم يُحـْصَدِ
هـا قـدْ جُعلـتَ علـى العـراقِ وأهلـهِ لتـسوقـَهم سـوْقَ الـبعيرِ الأجـردِ
وتـسومـَهُم خـسفاً بكـلِّ رزيـَّةٍ وتحـُفـَّهم كيـداً بقلـبٍ اسـوَدِ

❖ ❖ ❖

مِـنْ منجزاتـِكَ، وهـيَ جـِدُّ كـثيرةٌ إنـَّا نعـيشُ بغربـةٍ وتـشَرُّدِ
يـا هـادراً دمـَنا ومُنْغـِصَ عيـشِنا ومُدَمـِّراً احلامـَنا بتعمـُّدِ
يـا رائعـاً بـالخزي تـِهْ تـِهْ شـامخاً بالعـار واهنـأ في عـديِّ المُقْعـَدِ
يـا عالمـاً بالجهـلِ نعمـتْ همَّـةٌ نكـراءَ انـتَ سميّهـا فتـزوَّدِ
يـا أيُهـا الـوحشُ الحبيـبُ لقلبـهِ قطـعُ الرِّقـابِ ورؤيـةُ الجـرحِ النَّـدي
يـا خيبـةً كتـبَ الـشهيدُ سـطورَها بدمائـهِ فاستُنْفِـرَتْ بتمـدُّدِ
أمطـِرْ علينـا سـاخراً بـسحائبٍ مـنْ مكرماتـِكَ وهـي ديدَنـُكَ الـشَّدي
وامـتصَّ منـَّا مـا تبقـَّى مـنْ دمٍ وكرامـةٍ وافخـَرْ بقتـلِ الهُجـَّدِ
يـا طيـِّبَ القلـبِ الـرَّحيمِ بـشعبهِ في قتلـه مـن دونِ نـزفٍ تَـضهَّدِ
يـا أيُهـا النكـدُ الـذي لا تنتهـي أيـامـُه إلاَّنهايـةَ خُـرَّدِ

النَّاسُ تفخرُ بالكرامِ تسودُها ... مِنْ طيبِ اصلٍ واحترامِ مسوَّدِ
إلاّ العراقُ فمنْ زمانٍ قدْ مضى ... يختالُ فيهِ الانكدُ ابنُ الانكدِ
يستنُّ فيهِ كلَّ يومٍ سنَّةً ... شوهاءَ مثلَ البومِ لمّا تُحمَدِ
ويُشرِّعُ الدستورَ فيهِ لأمنهِ ... وأمانهِ .. لا للفتى المتشرِّدِ
امهندِساً أوجاعَنا متفنناً ... فيها سلِمْتَ مذِلَّ كلِّ مُهنَّدِ
فتقطِّعُ الآذانَ تخلقُ بدعةً ... ليستْ بذي دينٍ ولا ذي أيدِ
وتعذِّبُ الأحياءَ قبلَ مماتِهم ... إنَّ الزنيمَ على الأذى بمعوَّدِ
وتفجِّعُ الأبناءَ في آبائهم ... وتُقتِّلُ الأطفالَ قبلَ المولدِ
وتهتِّكُ الحرماتِ ضاقتْ عنْ يدٍ ... وتُقطِّعُ الأرحامَ عنْ ذاتِ اليدِ

❖ ❖ ❖

يا ثاقبَ الراي السَّديدِ بطيشهِ ... زدْ في عذابِ المتعبينَ وجَوِّدِ
واخترْ لهم شتَّى المصائبِ حُفَّلاً ... بالطارئاتِ تُصيبُهُمُ بالأكبُدِ
حاصرْتَهم فوقَ الحصارِ برزْقِهِمْ ... وشدَدْتَ ازْرَهُمُ بفتكٍ فاحصُدِ
ماتَ الشَّبابُ الطيِّبونَ وفاتَهم ... أنْ يُبْصروكَ على الثَّرى بمُمَدَّدِ
ماتوا بحسرتِهم وتسخَرُ منهمُ ... تبّاً لكم موتوا بغيرِ تنهُّدِ
واشدُدْ خناقكَ لايَرُعْكَ صُراخُهم ... وارمِ السَّماءَ بنظرةِ المتمرِّدِ
لوجازَ بعثُهمُ لهالَهُمُ رؤىً ... ما ينظرونَ عليكَ نُعمى المجتدي
جرعتَهُمْ غُصَصاً لو انَّكَ ذقتَها ... لحييتَ مفزوعاً بعيشٍ انكدِ
مثلتَ أدوارَ الطُّغاةِ ففُقْتَها ... فيما سواكَ رآهُ عيبَ مُقلِّدِ
عُدْ بي إلى الحَجَّاجِ واسألهُ دماً ... سيفِرُّ خوفاً منكَ خوفَ الهُدْهُدِ
لمْ يعرفْ التاريخُ مثلكَ ظالماً ... في قتلِ أهليهِ وقتلِ الهُجَّدِ

❖ ❖ ❖

شرِّدْ بنا شرقاً وغرباً واكتشفْ ... طرقَ اللجوءِ وللخيانةِ جَسِّدِ
لتضيعَ أجيالُ العراقِ بغربةٍ ... موعودةٍ بسرابِ يومٍ اسعدِ
يا حاقراً مُثُلاً تبنَّاها الهدى ... شُعلاً تُفتِّحُ كلَّ بابٍ موصَدِ

❖ ❖ ❖

ارواحُنا تخشى على أرواحِنا ... من فتنةٍ تطغى بقولِ الهمَّدِ
ونخافُ منْ أنفاسِنا ونعدُّها ... عدَّ البخيلِ لمالهِ والعَسجَدِ

ونحاسبُ الكلماتِ نحصي صوتَها   كي لا تشيرَ إلى حقيرِ المقصدِ
هذا عراقُك يا(ابنَ آوى) فانتبه ؟؟؟   هذا عراقُك يادعيَّ المَحْتدِ؟؟؟؟
فأبٌ تنكَّرَ منْ بنيهِ لانَّهم   لم يعبدوكَ خسئتَ منْ مستعْبدِ
وأخٌ جفاهُ أخاه خيفةَ جارِه   منْ انْ يكونَ عليهما في مرصدِ
وابنٌ تشامَخ بالعقوقِ وامّهُ   تدعو صباحَ مساءَ ياولدي اهتدي
وفتىً تمنَّى لم يكنْ لهُ إخوةٌ   كي لايروحوا ضحيةَ المتَجنِّدِ
حتى الصحافةُ لم تعدْ بصحافةٍ   بل نبتةٌ تنمو كشوكِ الفَرْقدِ
والماجداتُ صنيعُ نقْصِك لم تزلْ   تفتنُّ في دربِ الغوايةِ فاحمدي؟؟
هذا نتاجُ مبادئٍ ثوريةٍ   من طيبِ غرسكَ، وهي اصلُك فارعدِ
ضاعتْ مقاييس الكرام وحكمت   فينا مقاييسُ الخنا والقُرَّدِ

❖ ❖ ❖

يا مُبدعَ الفتنِ الغلاظِ يصوغُها   مِحَناً لكلِّ بني العراقِ بموعدِ
يا بائعَ التابوتِ أهلَ قتيلهِ   ومحرِّماً فيه البكا... بتَشددِ
يا مفزعَ الموتى بنبشِ قبورِهم   اذ لم ينادُوا أمسِ باسمكَ سيِّدي
يا متعبَ الزَّقومِ حارَ بوصفهِ   أهلُ الجحيمِ ولالاذى بموطدِ
يا أيُّها الفطنُ اللبيبُ بظلمهِ   هلَّلْ على ذبحِ العراقِ وزغردِ

❖ ❖ ❖

آمنتُ بالشيطانِ انكَ حلفهُ   فكلاكما منْ عنصرٍ مرٍّ صدي
يا نازعَ الضحكاتِ منْ أفواهنا   ومحيلَ أوجهنا مقابرَ خُدَّدِ
ومحيلَ أجواءَ السماء مدافِناً   من بعدِ ماكانتْ ربيعَ تخضُّدِ
ومحيلَ أرضَ الرافدينِ مدافناً   من بعدِ ماكانتْ جنانَ توجُّدِ
يا مبدلَ الافراحِ أحزاناً لنا   ومعيدنا فيها لنصرٍ مُخَضَدِ
يا موعداً للموتِ لستَ كمثلهِ   في قبضِ أرواحٍ وعزٍّ تهدَّدِ
ولو استطعت لكنتَ فيه بلا غدِ   ثرُّ الفجاجةِ تمتري منْ موردِ
لكنَّه (الله) اصطفاهُ مليكهُ   فحذارِ منه ياوليدَ القُوَّدِ
تبني القصورَ على قصورِ جسومِنا   وتصيحُ ذا شعبي فهلْ منْ مُنجدِ؟

❖ ❖ ❖

يؤذيكَ انَّ الشمسَ تَشرقُ فوقنا   وتودُّ لو عِشنا الظلامَ السَّرمدي

ابا النقائصِ والغرورِ تماثلا   فيما تراهُ في ضلالكَ يبتدي
لله دركَ من اصيلٍ شامخٍ   فذُّ المروؤةِ في استلابِ المُجْهدِ
جرّبتَ فينا كلَّ حقدٍ ماتعٍ   ريأنَ من بينِ الدسائسِ مُرعدِ
فالله كفرٌ والتدينُ سُبةٌ   وجهادُنا لله عارٌ... معربدِ
ابتِ الرذيلةُ أن ترى لكَ غيرها   كفؤا فنعمَ غريمها بكَ تقتدي
يا معدنَ الشرِّ الذي أعلامهُ   قد نُكِّسَت إلآمنَ الذلِّ الصَدي !!!؟
يا لصَّ بغدادَ الكبير تحيةً   لكَ من عراقييكَ عندَ المولدِ
ضاعَ العراقُ على يديك فمرحباً   بالجوع والأحزانِ فارقصْ وانشدِ

❖ ❖ ❖

يا سيئَ الصيتِ الذي لا تنتهي   أمجادُه في ذبحِ كلِّ موحدِ
نسي العراقيونَ فرطَ عذابهمْ   إنَّ الحقيقةَ لاتقالُ لأعبدِ!
طال انتظارُ الناسِ يومَ خلاصهم   حتى لقد شكّوا بانكَ مقتدي
مدُنٌ تهدّمُها وتبني فوقَها   ما قدْ هدَمتَ من العلى والسؤددِ
فملأتنا رُعباً وعزَّ مذلةٍ   الجأتنا فيه إلى غلِّ اليدِ
صارَ العراقُ بلا عراقٍ وامّحى   وجهٌ لبغدادَ الجميلةِ فاوئدِ
قصُرتْ عباءاتُ العراقِ وطأطأتْ   أمُّ المروءةِ وانحنتْ بتنهُّدِ
وهوتْ يشاميغُ الرجالِ وفارقتْ   ضبطَ العقالِ فيا لذلِّ المشهدِ
وبكى الفراتُ على الفراتِ مناديا   امواجَ دجلةَ أن تثورَ بمُزبدِ
والهورُ صُلِّبَ كالمسيحِ وحُرِّقتْ   اشجارُه وبيوتهُ بتعمدِ
فسمْ كما شئتَ العراقَ ــ مواليا ــ   وأعاجماً، من بربرٍ، أو زُييدِ
(تركْ) بني اسدٍ و(لندنْ) شمّراً   وانسبْ قريشاً للرعاةِ الهُنّدِ
والعنْ تميماً كي تذلَّ رقابها   والحقْ عبادةَ في شرادمِ هوّدِ
عرِّقْ الاشغَ (تيمرٍ) وانسبهمُ   (لربيعةٍ) أمِّ العطاءِ الاجودِ
واجعلْ سباياكَ العتاةَ افاضلاً   للطيبين، وسادةً للسيدِ
فيمَ تغيّرُها وتعلمُ أنها   زادُ الكرامِ وفخرُ كلِّ مُسوَّدِ
لن تستطيعَ وحقِّ ربكَ محوَها   واللهُ يحفظُها برغمكَ فابعدِ

❖ ❖ ❖

يا جاعلاً أرضَ العراقِ سبيةً   وكنوزُها نهباً لكلِّ مزغردِ

منْ جاهلٍ نسيَ اسمه ببلادهِ … منْ فرطِ جوعٍ واكتنازِ تشرُّدِ
حتى أتى بغدادَ أصبحَ شاعراً … فيها بعيدِكَ يومِ ذكرى المولدِ
وحثالةُ الادباءِ جاؤوا ركعاً … وجثوا أمامكَ سُجَّداً بالمربَدِ
جمَّعتَهُمْ منْ كلِّ حدْبٍ غُفَّلاً … ليقولوا فيكَ مقالةَ المُتفرِّدِ
فمنافقٌ سمّاكَ فارسَ أمةٍ … لينالَ أوسمةَ العراقِ فمَجِّدِ
أو كاتبٌ صَلِفٌ طريدُ كرامةٍ … لحنَ النفاقِ بحرفهِ لم يجمدِ
ومجاهدٌ أهداكَ أحلى قينةٍ … ليعودَ موفورَ الجناحِ ويغتدي
أوزاعقٌ كالبوم يرتجفُ الصَّدى … لسماعهِ سمّوهُ بسم (المعبدِ)
وإمامُ مئذنةٍ يكبِّرُ داعياً … للمالِ انْ يبقيكَ عزَّ السؤددِ
أوعسكريٌ خانَ أمسِ عروبةً … وأتاكَ في حللِ الصَّلاحِ بموعدِ
غبرُ العقولِ أتوكَ إذ فُرِشَتْ لهم … أهدابُنا سكناً برغمِ تصفُّدِ
مدحوكَ شُعثاً لاتبينُ وجوهُهم … فوسَمتهمْ شرفاً وصَكَّ زبرْجَدِ
وبريقُ مالِ النفطِ ينْعِشُ أعيناً … جفَّ الحياءُ بها لفرطِ تغدُّدِ
فازوا برؤيتكَ التي قالوا بها: … هذا ابن (فاطمة) الشريفِ و(أحمدِ)
رفعوكَ فوقَ الحقِّ حتى إنَّهم … سمَّوكَ حامي الدِّين يا ابنَ الأعجدِ!!
وهبوكَ أسماءَ الإلهِ جميعها … غفرانكَ اللَّهُمَّ منْ مستعبدِ
فاجزلْ لهم جمَّ العطاءِ فإنهم … أركانُ عرشكَ فاستبدَّ وبدِّدْ
لقطوكَ منْ سَقْطِ المتاعِ وابدعوا … في لصقِ نسلكَ في ربيعةَ أو عدي
متشبهاً بالفاضلينَ وقاتلاً … منْ ينتمي نسباً لآلِ (محمَّدِ)
لو كانَ في حرفِ النداء بقيةٌ … مما يقالُ لما تركتكَ فاسجدِ

❖ ❖ ❖

ارِّخْ لايامِ العراقِ كما تشا … واعدْ كتابتَها بعقلِ مُعربدِ
وابنِ المساجدَ للعبادةِ واقتنصْ … فيها الشبابَ المؤمنينَ وأوعدِ
زنْدِقْ رجالَ الدينِ وانبشْ هازئاً … أوجاعَهم، وابطشْ بهم بتقصُّدِ
واتلُ الكتابَ محرَّفاً آياتهِ … وارو الحديثَ بلاحديثِ مُسْنَدِ
وشبابُ بغدادٍ بئيسٌ فجرُهم … حيرى تفتِّشُ في بقايا الموقدِ
وزِّعْ له الانواطَ ثمَّ تولَّه … بالقتلِ والسُّمِّ النقيعِ وهدِّدْ
افرغتَ منْ أرضِ العراقِ رجالَهُ … لتفوزَ وحدكَ بالسعادةِ فارغدِ

مـن مبلـغ عـني (العـراق) وشعبـه ... عـذر (العـراق) مـن الأخـس الأبعـد
ممـن تجبـر فاسـتطال ببغيـه ... إنـا بـراء مـن البغـي الاوهـد
ومـن اسـتباح عقيـدة وعروبـة ... وأعـاد ظلمـاً للمغـول بموعـد
ممـن تمنـى انْ نمـوت جميعنـا ... ليظـل يزهـو بالدمـاء ويعتـدي
قتـل الطفولـة في (الشمال) ولم يـزل ... يقـتص مـن طفـل (الجنـوب) الأغيـد
فلانـتم منـا الصميم وطالـما ... كنـا وكنـتم في ضـمير اوحـد
فحـذار مـن فـتن تـؤجج نارهـا ... ريـح الخيانـة في رمـاد الموقـد
إنـا وانـتم في مـصاب واحـد ... ممـا نعـاني مـن هـلوك اصْنخد

❖ ❖ ❖

وقوافـل الـشهداء يحـدو ركبهـا ... (حـسن الـشهيد) فتـى الإبـاء الأصـيد[1]
(حـسنٌ) فتـى المجـد التليـد رجولـة ... تـصغي لـه الـدنيا نـشيد تمـرد
(حسنٌ) الـذي لطـف الربيـع قـد ارتمـى ... في بـح صـوتك يـاعراق الا اخلـدي
وشـتمت صـداما فكانـت صـرخة ... في حـين غـيرك لاذ بالـصمت الـردي
وقـف الزمـان وانـت مـن اوقفتـه ... ومـشى فـراح بنـور وجهـك يهتـدي
وثبـتَّ نجمـاً في سمـاء قلوبنـا ... بـاق تفيـض بطولـة بتـجرد
وفيـت نفـسك حقـها فتجـردت ... إذ كنـت مغـوار (العـراق) الأصـيد
لاهـمَّ عفـوك في الـشهيد وصـحبه ... ممـن قـضوا نحبـاً بغـير تـشهد
هـم أنبـل الـدنيا وانبـل مـن مـشى ... في العـالمين لكـل عـزم تحـشد
كوفـان رقـرق نهرهـا في سلـسل ... عـذب وانـت قـضيت في يـبس صـدي!!!
حـسن مـشت عـشر وخمس وانتهـت ... مـن بعـدها الاعـوام قبـل الموعـد
هـا انـت فديـت العـراق ففديـت ... ارض وشـعب فاسـتجد وجـدد
والخـانعون الجـبن خـير صفاتـهم ... يـسعون فينـا للنميمـة والـدد
يستكثروا غـضب الحلـيم وفـيهم ... لعنـات قابيـل تتـابع كالغـد
يتلـذذون بـسبي شـعب كامـل ... ويذبحـه مـن اجـل شـهوة اوغـد
ويـسوغون لكـل ذنـب آيـة ... حاشـى فمـا وضـع الكتـاب لملحـد

(١) محمد حسن الطريحي اعتقل في الكوفة واستشهد في بغداد على يد جلاوزة النظام السابق، وطلب منا ٤٥ديناراً لاستلام جثته رحمه الله.

هذا يقولُ وذا يشيرُ لمتعبِ   انْ قد نعاكَ شهامةً فتهوَّدِ
أو آخرٌ ينهى ويأمرُ بالذي   ينهى بهِ وكأنَّه لم يوجَدِ
يتشككونَ...يبصبصونَ وليس مَن   شُغل لهم غير النفاقِ الأبلدِ
أولاء (ياحسنُ) هم مَن خرَّبوا   واليوم هم أهل التقى والسؤددِ

❖ ❖ ❖

ومعارضون تَحضَّنوا أوجاعَهم   حضنَ الرَّضيع لامِّه بتوددِ
خافوا عليها انْ تضيعَ بمغريا   تِ المالِ شعَّ بريقه منْ أمردِ
فاستوقفوا زمنَ الشَّبابِ لغايةٍ   عليا وقالوا للمشيبِ تزوَّدِ
تركوا رخيَّ العيشِ ثم تخيَّروا   تعبَ الحياةِ ... بعزةٍ وتمرُّدِ
أكلتهمُ الايامُ في وثباتها   وهمُ همُ أهلٌ لكلِّ مشردِ
رحماءُ في السَّراءِ حتى أنَّهم   ليُرَوْنَ في الضَّراءِ شمسَ الفرقدِ
لم يضعُفوا صبراً ولم يهنوا يدا   وقفوا أمامَ الموتِ رغمَ المُفسدِ
ثبتوا لريبِ الدَّهر لم يتضعضعوا   وتمكَّنوا منه بكلِّ تشددِ
فعلوا الذي قالوا وكمْ من قائلٍ   واللؤمُ تحتَ لسانه كالمِبرَدِ
وتقاسموا الآلامَ تَحطب عمرهم   وتفتتُ منْ أضلاعهم بتوردِ
شوسٌ اذا ازدحمتْ بهم طُرُقُ العلى   صُعرُ الخدودِ على الاذلِّ الأحقدِ
تمشي السنونث سريعة وجباهُهم   صوبَ السماءِ برفعةٍ وتجددِ
صمدوا بمشتجرِ القنا واستبشروا   بالنصرِ احراراً بعيشٍ ارغدِ
وتمنَّعوا بالكبرياءِ يغذُّهم   وطنُ الحضاراتِ الذي لم يجحدِ
مُستشزِروا نَظرٍ اذا عاينتَهم   شَمخَ العراقُ على الدهورِ فمَجَّدِ

❖ ❖ ❖

اينَ العراقُ واينَ منْ ضرباتهِ   ما كانَ في تلك العهودِ الشُرَّدِ
حبلى لياليهِ بليلٍ غامضٍ   لا يدري ماذا سوفَ ينبي في غدِ
ودماءُ حربينِ تصيحُ بدجلةٍ   يا ثأرُ عدْ واطلُع بعزمٍ وانجُدِ
للهِ يا وطناً وليس كمثلهِ   في الارضِ من وطنٍ احبُّ وافتدي
وعشائرُ الوطن العزيز جريحة   من بعدِ ما كانت منارَ تجلُّدِ
ايامَ ضاري والرميثةَ شُهَّدٌ   ما كانَ في (نجفٍ) فقفْ وتفقَّدِ

وسَلِ الجراحَ تفجرتْ في بصرةٍ ... زحفاً تُجبك (دهوك) يا أرض اصمدي
والكربلاءاتُ استفاقتْ مرةً ... اخرى بنا بوركتَ من متعهدِ
والموصلُ الحدباءُ تندب (كوفةً) ... مما تلاقي منْ عذابٍ اسودِ
وجبالُ حمرينٍ تضجُ حزينةً ... مما تراهُ في حلبجةَ من ردي
اينَ الشهامةُ (يا دليم) واينَ منْ ... عزماتكمْ عزمُ الفتي (محمدّ)
هذا الذي دمُهُ تنزّى عن دمٍ ... غالٍ ينـاديكم بكلِّ تـوددِ
هذا الدمُ المظلومُ يصرخُ فيكمُ ... ثوروا على الطغيانِ دون تَرددِ
صِحْ بالجبورِ وحشّدَنَّ رجالَها ... في حمحماتِ الخيلِ منكم تبتدي
لا خيرَ في عُمرٍ يُعاشُ بذلةٍ ... لاخيرَ في يومٍ يُعاشُ بلاغدِ

❖ ❖ ❖

طُفْ بالعراقِ فلنْ تجدْ في اهلهِ ... الأهيا اكلَ ميتين بفدفدِ
ويرادُ منهم ان تدوسَ خيولهم ... خُشب الرقّابِ بثورةٍ لم تولدِ
ويرادُ منهم انْ تصانَ كرامةٌ ... والجوعُ يحصدُهم هشيمَ الأنكدِ
حتى لقد طالَ العذابُ فحالُنا ... من سيئٍ فيه لا سوءَ في غدِ
لم يبقَ إلا اللهُ جلَّ جلالُه: ... املاً يشعُ لفكِ غلٍّ مُصفّدِ
يا ربِّ ملجؤونا إليكَ فكنْ لنا ... عوناً علينا من قلوبٍ بُلّدِ
يا سامعَ الشكوى الا من رحمةٍ ... مما نكابدُ من صنيعِ الأعبدِ

❖ ❖ ❖

الحمدُ للنكباتِ تبطشُ بالفتى ... فيذيقهنَّ جلادة.... بتعمُّدِ
وطنّتُ نفسي للبلاءِ ولم أكنْ ... يوماً بذي أكذوبةٍ وترددِ
الموتُ لي إنْ لم اشدَّ عزيمةً ... وتمرداً من اجلِ مجدٍ في غدِ
وأصيح وابغداد حسبي ركعةً ... في الكاظمين تفيض عن قلب ندي
سنعودُ حتماً بعد طولِ تشرُّدٍ ... لعراقنا بيضَ الضمائرِ واليدِ
هذا مديحُكَ فاحتفلْ به وانشدِ ... بكَ بدؤهُ وختامُهُ لم ينفدِ

❖ ❖ ❖

بغداد

✍ عبد الحميد السماوي

ساد الوجود فساد كل متمم   فتكلمي إن شئت أن تتكلمي
وترنمي فعسى يجس بك الهوى   أوتار قلب الشاعر المترنم
فبروح يعرب عن مثار شعوره   بفم أمام الجور لم يتلعثم
قد أعجمت عنك اللغات وفي الهوى   لا يحسن الافصاح غير الاعجم
وجمت وكم من شاعر في جنبها   ختمت على فمه وكم من ملهم
خطت له في صدر كل صحيفة   من فوق سطر النور سطراً من دم
فقرأت منه كل سفر غامض   فمترجم منها وغير مترجم

❖ ❖ ❖

حم القضاء وهل تراني ناقضاً   ما أبرمته يد القضاء المبرم
كم رحت أبحث عن شؤون أسدلت   من دونها حجب الزمان المظلم
فلمستها في جنب قلب بائس   وسمعتها في أنة المتظلم
ورجعت لأصول ولا قول فهل   شدت بدي بالعدل أو سدت فمي

❖ ❖ ❖

ولطالما استهدفت منها جانباً   فجعلت أهداب الحوادث سلمي
ما في الوجوم عن الحقيقة من عنا   إن العناء خطاب من لم يفهم

❖ ❖ ❖

سرد الحوادث مشرئباً وارمها   عرضاً بسطوة فارس مستلئم
واضرب بطرفك حيث شئت فهل تجد   من مطرق للموت لم يتبسم
فعسى الذي جعل الحياة ولودة   أن يجعل الإخلاص غير معقم

❖ ❖ ❖

كم مدلج رصد السباح بطرفه   حتى إذا لاح الصباح له عمي
ومفوه كره الزمان حديثه   فأشاح عنه بوجهه المتجهم
ما راح يدغم لفظه إلا لكي   منا يفكك كل حرف مدغم
ومعظم في نفسه انجرفت به   الأهواء حتى عاد غير معظم
قد أرغمته على الرضوخ وأيما   حر على علاتها لم يرغم
ذهبت متاعبه سدى فكأنه   يقظ أهاب من النواة بنوم

❖ ❖ ❖

إن النفوس وإن توحد قصدها ... متعارضات في الفضاء المسدم
ليست سواسية فكم من وقع ... نقضت قوادمها وكم من حوم

❖ ❖ ❖

ولقد هممت بما يهم بمثله ... مثلي وعدت إليك غير مذمم
وصرخت في وجه الحوادث صرخة ... يندك منها كل صرح محكم
ارتاد حاضر البلاد ولم أكن ... قلب بأنوار الحقيقة مفعم
كالت لي الدنيا مواعيدا فما ... انطبقت يدي إلا على متوهم
رعناء ما كادت تصبح لواعظ ... حتى ضربنا عرسها بالمأتم
طفقت تجشمني المسير بها وقد ... حمل الزمان على سنامي منسمي

❖ ❖ ❖

إن ساءني عنت الطريق فطالما ... قدساء هوجاء العواصم مقدمي
ذهبت بواحدة تنوء وأقبلت ... من سوء طالعها تنوء بتوأم
طفحت على وجه الردى وتجردت ... لتقوم في صدر السنين القوم
لم تبق رائعة الخطوب لها سوى ... شاو بأظفار الزمان مخذم

❖ ❖ ❖

انت كما أن السليم ولم تكن ... وضعت يديها بين لحمي أرقم
ولقد وقفت أمامها متبرما ... لو كان يجديني هناك تبرمي
فوجدت دست الحكم أجوف فارغاً ... لا ابن الفرات به ولا ابن العلقمي
رامتك يا أم الحواظر صرخة ... تسمو إليك من السواد الأعظم
دوت بأقطار البلاد وجلجلت ... للرافدين بكل معنى مبهم
فاضت شوارعك الفسيحة بالثرى ... فاستنزفت قلب الشقي المعدم
وجرت رحابك بالأشعة فامتلت ... حتى النوافذ بالشعاع المظلم

❖ ❖ ❖

ولقد وجدت بكل صرح قائم ... أنقاض قلب من بنيك مهدم
وسمعت فيك بكل جوف أنة ... قطعت أواصر مجدك المتصرم

❖ ❖ ❖

كم رحت تسمعني الأغاني في الدجى ... صوت الضعيف وأنة المسترحم
صوت له ارتجف الفضا واهتز من ... نبراته سمع الزمان الأبكم
صوت الضعيف ولا أخالك هامساً ... إلا ليعلو صوت كل مهمهم

❖ ❖ ❖

لا نبتئس بالحادثات أو ابتئس ... فلربما مني الظلوم بأظلم
ما يطرب المظلوم من قيثارة ... صدحت بجنب الظالم المتأثم
دأبت على أنغامها حسراته ... فتشاءمت بالطارق المتشأم

❖ ❖ ❖

ولقد جهلتك إذ جهلت وطالما ... قد كنت أعلم منك ما لم تعلمي
ما كنت لما كنت حاضرة الألى ... حلم الزمان لهم بما لم تحلمي
إلا شعار سوابغ ونوابغ ... ومثار ذكرى سابق ومطهم
ولقد نسجت لك القوافي حلة ... موشية بالدم لا بالعندم
وفرشت قلبي دون جنبك واثقاً ... إني فرشت له حشاشة ضيغم
ووقفت فيك كما يكيفني القضا ... ما بين معوج وبين مقوم
فإذا انتصبت يميل هذا أكثري ... وإذا انحنيت يقيم هذا معظمي

❖ ❖ ❖

أتميمة النهرين قد جد القضا ... والدهر بين معوذ ومتمم
أودي فصيلك فاراميه فما عسي ... يجدي حنان الأم ما لم ترأم
لو كلما اقترفت يداك خطيئة ... كبرى يؤاخذ فيك غير المجرم

❖ ❖ ❖

نقي يديك من الخضاب فإنه ... قد راح يزعم عنك ما لم تزعم
أن الجميلة كيف كيفها الشقا ... لجميلة تبدو بغير موشم
خادعت فيك صبابتي فتناحرت ... شططاً علي مع الليالي لومي
ووهبت قلبي للجمال وطالما ... ملك الجمال فؤاد غير المغرم

❖ ❖ ❖

هل بين جسرك والرصافة تعبر ... الأملاك أم بين الحطيم وزمزم
ملئت شواطئ دجلة ورحابها ... وتبعثرت في الهيكل المتنظم
فتمر ضاحية كما شاء الضحى ... وتناط داجية مناط الأنجم

❖ ❖ ❖

لم أدر ما سر انحدارك بعدما ... دوى صدى الأجيال فيك الا اقدمي
أحجية بفم الزمان تعقدت ... وطلاسم رقمت بغير مطلسم
ما في كتاب الأرض من وحي السما ... إن السماء كتاب كل منجم
لم يبق من معناك سر غامض ... إلا فحصناه بألفي معجم

❖ ❖ ❖

شـقي بآفاق السعادة مطلعاً … إن الشقاء عليك غير محتم
مـاذا وقوفك في طريق لم يزل … بالركب يضرب معرقاً في مشأم
لا بد من إحدى اثنتين ففي الغد … الآتي ستنهزمين إن لم تهزمي
فالأفق إما وجه صبح مفعم … بشعاعه أو جنح ليل مسمم

❖ ❖ ❖

لا تحجمي إن الطريق معبد … ولربما ردم الطريق لتحجمي
سيري مع الأمم السعيدة وامسحي … بيناتها وجه الشعاع المعلم
إن وزعتك الحادثات فطالما … جمعت شظايا قلبك المتقسم
ولربما بلت أوامك قطرة … تنهل من ضرع السحاب المرزم
فتجشمي البيداء واعتسفي الدجى … إن الظلام مطية المتجشم

❖ ❖ ❖

لا تدفع الجلى سوى الجلى ولا … يخشى مناجات الكمي سوى الكمي
ستهابك الأهوال وحشاً ضارياً … عرك الأسنة لهذما في لهذم
لم يدر من قد ذاق من أرى الجنا … ما الشهد حتى ذاق طعم العلقم

❖ ❖ ❖

دار الرشيد وما أجلك نسبة … في سرها الأيام لم تتكتم
أو يحتفي الغربي فيك وما رأى … من وجهك الشرقي غير المبسم
فلها على شفتيك بسمة خائف … وعلى لسانك لهجة المستسلم
عضت على كلتا يديك ولم تزل … من قبل تبسم عن ثنايا الاهتم
واستدرجتك إلى الشقاء وما الذي … يرضي من العصفور أم القشعم
لا مرهف صاف في الفرند تهزه … في وجه قادتها ولا أنف نحمي
ولأن تكن قد قلمت أظفارنا … منها فظفر الدهر لم تتقلم
انى تجود لها البلاد بدرها … ورضيعها في حجرها لم يفطم

❖ ❖ ❖

دار الرشيد مضى الرشيد ولم يزل … ينمى له مجد البلاد وينتمي
وحمى الهواشم والهواشم ها هم … يتسنمون بك الذرى فتسنمي
قد هشموا لك صدر كل مدجج … ليروح صدر المجد غير مهشم
هلا نظرت إلى ملامح هذه الـ … ـدنيا الجديدة نظرة المتوسم
جاشت وما شقت سماك بمطلع … زاه ولا وسمت ثراك بميسم

فكــأن جنــب الأفــق غــير مكوكــب وكــأن وجــه الــروض غــير منمــنم
مــا فاتهـا القلــب الجــريء وإنمــا قــد فاتهــا القلــب الــذي لم يــرحم
عبثــاً تمنيهــا الثــواب وانهــا لتبيــع كلتــا الجنــتين بــدرهم
ونمــت فيهــا للخلــود ولم تــشأ لتعــيش خالــدة بغــير جهــنم

❖ ❖ ❖

دار الرشــيد ولا أصــارح قــائلاً دار الأعــاظم مــن ســرات الــديلم
إن راح يزعجــك الحــديث فربمــا قــد ألم المجــروح وضــع المــرهم
هرمــت وشــابت فيــك كــل فــضيلة والــدهر في ريعانــه لم يهــرم
لم يبــق مــن ربــع لــديك ولا حمــى فلمــن تمــنين العــوالم في حمــي
محجوجــة بلــسان عــدل صــامت مــأخوذة بوجــوب شــكر المــنعم
فعــلام رحــت أقــول بــاكرك الحيــا وإلى م أنــشد فيــك يــا دار اسـلمي
لا في الظعــون هــوادج منــا ولا في الظــاعنين ربيعــة بــن مكــدم

❖ ❖ ❖

أيهــا عبــاقرة (البيــان) وقــادة الــشعب المهــان إلى المقــام الأكــرم
مــن يمتطــي ظهــر الخطــوب ويرتمــي فيــه إلى حيــث المكــارم ترتمــي
هــل منجــد مــنكم يثــور لــشعبه فــيرد عاديــة الزمــان المــتهم
أو مــصلح يهــب الــبلاد شــعوره فيحــل عقــدة وضــعه المتــأزم
فــضت القيــود ولم تــزل مكتوفــة وســرت مهرولــة فلــم تتقــدم
قــد أدركــت عهــد البلــوغ ولم تــزل بــالرغم خاضــعة لأمــر القــيم
طافت على عهد المغول ولم نشرت بني غــسلت يــديها مــن دم المستعــصم
ســلجوق نــشر مؤمــل وطــوت بــني العبــاس طــي مــؤلم
أنــى بجــيش لهــا القــضاء بمالــك والــدهر يــسمعها رثــاء مــتمم

❖ ❖ ❖

ســدوا فراغــاً لا يــسد بغيركــم واملــوا خــلاء ســوارها بالمعــصم
فالــسيف تعــوزه الــيمين ومــا عــسى يجــدي المهنــد في يمــين الأجــذم
والــصرح لا يرســو علــى وجــه الفــضا العــادي ولا يمــسو إذا لم يــدعم
والــنفس مهمــا حلقــت آمالهــا واستعــصمت في حيــز مستعــصم
لا زال يعوزهــا الطمــوح بقــصدها فــالنفس عنــد القــصد مــا لم تــسأم

❖ ❖ ❖

بغداد

أنور العطار (سورية)

بغداد بالعابق المخضوضر النادي   ودي على رياحيني واورادي
والهميني حر القول خالصه   ونصري في ثنايا الحفل إنشادي
هبي لي الشعر انغاماً مسلسلة   تهدي إلى الصيد من صحبي واندادي
الساهرين على عقد قد انتثرت   حبابه بين أغوار وانجادي
تخطفته رباع الأرض واطرحت   نضيده صولة المستأسد العادي
جارت على سلكه نأيا وتفرقة   وروعته بتعذيب وابعاد
بني العراق مثال الحب من عقدوا   على هوى العرب أكباداً بأكباد
تمرسوا بالوفاء المحض واتشحوا   من الوداد بألطاف وابراد
يا نفحة الضاد هبي في أباطحنا   وزودينا العلى يا نفحة الضاد
غنى لها الدهر مزهواً بها فرحا   وضل مسترسلاً في ركبها الحادي
لأنت زاد الألى ازدان الزمان بهم   يا طيبه في اجتناء الحمد من زاد
واشرقي في سماء العرب وائتلقي   كالشمس في موكب بالنور وقاد
صوت العروبة دوى ملؤه أمل   يجيش كالسيل في رغو وازباد
يهيب بالقوم قد ألوى الزمان بهم   فأصبحوا نهبة للرائح الغادي
إن لم تثوروا على الباغين قد نكثوا   فلستموا في قراع الخطب احفادي
يا جيرة العرب صان الله عقدكم   وأسعدته الأماني اي إسعاد
يا نسمة من جنان الخلد طيبة   ونفحة من روابي الشام والوادي
يا دمعة الحب تهمي رقة وأسى   كالعامري بكى في سفح توباد
فكانت الشعر والأشواق دمعته   تصور الحب من خاف ومن باد
حيوا الأخلاء والآلاف قد رجعوا   ولم يكن طيفهم يوماً بمرتاد
نذراً علي وقد عادت سوانحهم   لأصدحن بناياتي واعوادي

❖ ❖ ❖

يا حسن دجلة مسكوباً بها بردى   غنى لها الكون مياداً بمياد
ويا سنا (بردى) بالشط منطلقا   ينساب في نغمات البلبل الشادي
نهران الفان ضم الحب شملهما   جلا عن الشعر في وصف وتعداد
يا رشفة منهما بالروح نسألها   تحي السقيم وتشفي غلة الصادي
في ظل بغداد طاف العرب وائتلفوا   وحققوا الوحدة الكبرى بميعاد
تمازجوا في اخاء رائع عجب   كما تمازج ارواح بأجساد
بغداد في الشام الحان مرتلة   تلذ والشام أنغام لبغداد

وفيصل العرب في الأعناق بيعته ... ظلت وصية آباء لأولاد
آمنت بالوطن المنضور جانبه ... آمنت بالعرب امجاداً بأمجاد
صاغوا من الخير دنيا لا قرار لها ... يقصها الدهر آباداً لآباد
طافوا على الأرض بالآيات بينة ... وأوسعوها بتبيان وإرشاد
هم المنار يسير السالكون به ... ويهتدون بنور المصلح الهادي
العرب في ثورة للمجد شاملة ... علياء من صنع أبطال وآساد
حراس وحدتنا الكبرى ومن سفكوا ... أرواحهم بورك المفدي والفادي
يا فرحة الملتقى اذكيتني طربا ... وهجت احلى المنى في أرض أجداد
تركت قلبي مغموراً بنشوته ... سكران تصبيه أفراحي وأعيادي

❖ ❖ ❖

بغداد

✍ ابراهيم الوائلي

بغداد إن طال الفراق وشفني ... ظمأ فحسب تعلتي ذكراك
أنا إن بعدت فلي خيال هائم ... عبر الفضاء يطوف في مغناك
وجوانح لم تحو في أعماقها ... ما يستجيب له الهوى إلاك
روح تهم على شواطئ دجلة ... وتحوم فوق جمالها الضحاك
وتعود يحملها الجوى خفاقة ... لتصيخ مني للنشيد الباكي

❖ ❖ ❖

بغداد أشتاق النسيم متى سرى ... حلو المهب معطرا بشذاك
وإذ أطل الفجر يمسح ناظري ... مترفقاً ابصرت فيه رؤاك
أو طاف ما بين الخمائل صادح ... احسست في شفتيه رجع صداك
بغداد ما أحلى المساء ودجلة ... تنساب كالنسمات بين رباك
في كل ضاحية فتون طافح ... ملء الفضاء يشيعه مرآك
وعلى الشواطئ من دجاك مناظر ... لم تتشح إلا بسحر دجاك
نشرت على الأفق الرحيب ظلالها ... ومشت خطاها تلتقي بخطاك
وتناثرت عن جانبيك مواكب ... تستقبل الأحلام في دنياك
فهنا مشاهد للجمال طليقة ... جلت روائعها عن الإدراك
وهناك سرب من مهاك وليت لي ... كبداً تذوب على خدود مهاك
أنا من سفكت على الصخور مآربي ... ونثرت آمالي على الأشواك
ومضيت كالطير الجريح مروعاً ... في القفر بين مخالب وشباك
أطوي الدجى يقظان ملء جوانحي ... حرق وفي ثغري صداها الحاكي

❖ ❖ ❖

بغداد ما أحلاك باسمة المنى … للسامر النشوان ما أحلاك
تلقاك بالمرح النفوس ولم تكن … لولا المباهج والمنى تلقاك
وعلى الضفاف الحالمات موائد … قد نضدتها في الدجى كفاك
رق النخيل لها وفاض مدامعا … كالفجر يلمع في متون فضاك
وحفا عليها الكرم يسفح لبه … فيها ويخضب بالدماء ثراك
فلكم خيال كالنسيم يروقه … الا يسامر غير شهب سماك
يختال في الأفق الرحيب محلقا … بجناح طير أو جناح ملاك

❖ ❖ ❖

بغداد يا طيف الهموم أن دجا … ليل ويا ألق الشعور الذاكي
كم في صباحك قد بعثت خواطري … شعرا ورحت ابثه لمساك
وكم احتوتني والليالي سمحة … لحظات صفو لم ترق لولاك
متع نهزت بها انتهازة عابر … وصحبتها ذكرى معي لأراك
وهبي نسيت من الصبا أحلامه … أفهين في الحب أن أنساك
أنا من يقيم على العهود ولم أجد … أولى بحفظ العهد غير هواك
مرت يداك على شغافي في خلسة … يوم الوداع وتمتمت شفتاك
ثم انثنيت مودعاً فإذا على … قلبي تطل مع الدجى سيماك
وتموج في شفتي نغمة حائر … يطوي الظلام مردداً نجواك

❖ ❖ ❖

بغداد والألم الدفين يهزني … فإذا شكوت فلست أول شاكي
لي مثل ما للشاعرين تعتب … لو تستجيب لعاتب أذناك
أتبيت دنياك الضحوك مدلة … وعلى مآسيها تبيت قراك
فتذكري الريف الحزين ومن به … والقاطنين صوامع النساك
الحاصدين من السهول رمالها … والنائمين على الطوى الفتاك
واللابسين من الشتاء عراءه … في حين طاب لسامر مشتاك
والزارعين ودون ما جهدوا به … رصد يبث لهم من الأشراك
ريف لو ادكرت حياتك أنها … ضيف عليه لساءها مجراك
يشقى ليحرس منك ليلاً باسما … ويعيش في غلس لكي يرعاك

❖ ❖ ❖

بغداد هذا اللحن نجوى شاعر … ما هاجه في الذكريات سواك
أنات قلب إن أثارك شجوها … أو لم يثرك فإنها ذكراك

❖ ❖ ❖

ليالي بغداد

✍ محمد محمود زيتون (مصر)

أين يا بغداد هاتيك الليالي
كالرؤى مرت سراعاً بالخيال
لم تعد بغداد عندي غير ذكرى
عصفت بالقلب لما جئت مصرا

❖ ❖ ❖

أين ايامك يا (عقد النصارى)
أين في الدهر لياليك العذارى
وأنا الهيمان ليلاً ونهارا
أقتفي ظل حبيبي أين سارا
أين يا بغداد هاتيك الليالي

❖ ❖ ❖

لست أنسى ليلة الشط الجميل
ههنا (دجلة) مذ ولى الأصيل
وضياء البدر كالتبر يسيل
وأرى الموج على الموج يميل
أين يا بغداد هاتيك الليالي

❖ ❖ ❖

لست أنسى زورقاً في النهر يجري
وحنين الناي في المجداف يسرى
تلك أحلام الصبا مرت بفكري
هل درى الملاح سرى؟.. لست أدري
أين يا بغداد هاتيك الليالي

❖ ❖ ❖

يا حبيبي عد بنا فالفجر لاح
والشذى الريان في الأرجاء فاح
وانتشى الأيك باطيار الصباح
هذه إحدى لياليه الملاح
أين يا بغداد هاتيك الليالي
كالرؤى مرت سراعاً بالخيال
لم تعد بغداد عندي غير ذكرى
عصفت بالقلب لما جئت مصرا

بغداد بين عهدين

علي الصغير

دار الخلافة والإسلام بغداد ... تحدثي وأعيدي ذكر من شادوا
قصي علينا فقد شاهدت أزمنة ... وشاهدت عهدك المحمود اباد
مرت على عهدك الأعوام مثقلة ... بالمصلحين لها حمل وميلاد
زهت حياتك أياماً محببة ... حتى كأن الليالي فيك أعياد
ما زال عصرك عصر العلم يبهرنا ... ففيه تنعش أرواح وأكباد
الزهو فيك قراناً منه مطرفه ... فكم تفوف أكمام وابراد
خمائل برياض العلم زاهرة ... وروضة ولها الآداب أوراد

❖ ❖ ❖

ردي إلينا عهود المصلحين علا ... وعددي حيث يحلو منك تعداد
وذكري هذه الأنباء ما صنعت ... في ساحة العز آباء وأجداد
قولي لمن خانهم في الدهر طالعهم ... ما هكذا تخلف الأجداد أحفاد
تذكروا أنكم ابناء من فتحوا ... هذي البلاد ومن في ظلها سادوا
ما عذر من ضيعوا في الدهر مجدهم ... وعن طريق معالي عزهم حادوا

❖ ❖ ❖

يا "ساحة الفتح" في بغداد معذرة ... فليس "عنترة" فينا و"شداد"
لا (طارق بن زياد) بات يحرسنا ... ولا (المثنى) لجيش الحق يقتاد
قوم هم دوخوا الدنيا بجحفلهم ... فكم هم جاهدوا عزاً وكم قادوا
جيش من الشرق بالإيمان مدرع ... له على الغرب اغوار وانجاد
زاروا به [الصين] والأمداد تتبعهم ... وجاوزوا [الصين] والأمداد يزداد
حيث الخلافة والإسلام يحرسها ... لدى الوغى من بني الأنصار اجناد
جنود حق أعز الله جانبهم ... لهم غطارفة الإسلام قواد
من كل من بات عند الروع يوقظها ... عزائما شبها للعزم ايقاد
وكل ميّاد عطف في شبيبته ... وانه في الوغى كالرمح مياد

❖ ❖ ❖

قل [للعراق] وقد طابت موارده ... [غصت بمائك وراد] ورواد
فما [الفراتان] يحلو اليوم طعمهما ... كأن مائهما في الشرق اثماد
يضيمني ان أرى ذا الشعب قد عبثت ... به فقدم اذناب واوغاد

قد فرقهم حزازات وضايقهم سيل أثارته أعداء وحساد
ومصلح رام بالإصلاح ينقذهم يوماً فصدته عذال ونقاد
لا الوعظ يردعهم عن غيهم أبداً وليس ينفعهم إذ ذاك ارشاد
يا ساسة قد أثاروا الحقد بينهم هل السياسة أضغان وأحقاد
من أجل أن قيل يا أقوامنا اتحدوا عدتم وجمعكم في الشعب آحاد
وكيف يرجى صلاح الشعب من فئة تزعموه وهم في الراي أضداد
ما أحوط الوطن العاني لوحدتكم فقد اضرته آحاد وأفراد
تدعون [للوحدة الكبرى] ويشغلكم عن [وحدة الشعب] من للشعب قد صادوا
من منقذ الشعب إن الشعب أرهقه تيار جهل له موج وازباد
تحرروا واستقلوا إنكم فئة قد قيدتها عن الأعمال أصفاد

❖ ❖ ❖

قل للصحافة والإسفاف أرهقها قد أوقر السمع إنشاء وإنشاد
ما هكذا تصلح الأوضاع في بلد جنت عليه زعامات وأسياد
أبا السباب يؤدي حق شعبكم حقاً لقد كدتموه مثلما كادوا
تورعاً واحتراساً يا صحافتنا اما عليك لعين الحق مرصاد
في ذمة الصحف يا بغداد ناشئة خفوا حلوما وهم في العين أطراد
حرية الصحف إصلاح إذا صلحت غاياتها إن مرأى الخب إفساد

❖ ❖ ❖

بغداد

✍ محمد جمال الهاشمي

تنورا مني الفؤاد والبصر مذ لاح لي منظر بغداد الأغر
وجاء في بريدها مستبشرا - وهو النسيم - حاملاً أذكى الخبر
تقودني لوصلها سيارة تحير في دقة صنعها الفكر
ضامية والماء ملؤ جوفها ريانة وقلبها يذكو شرر
يهرب من زئيرها وحش الفلا والطير من منظرها الرهيب فر
إن نظرت لم يخف عنها منظر أو صغرت لم يبق شي في الممر
لم يقدر الناظر لمح طرفها كالشمس لا يستطيع مرآها النظر
سارت تجوب البيد، لا منهوكة ولا اعتراها من مسيرها خور
حتى بدا منظر بغداد لها مزدهراً، والكون مسود الطرر

فخففت من سيرها مختالة … هل سكرت من حسنها كمن سكر
لاحت لنا زاهرة كأنها … بحر يموج اللطف والنور زخر
بالكهرباء قد زهت سمائها … وبالزهور وجه أرضها ازدهر

❖ ❖ ❖

طغى من الغرور نهر دجلة … وفاض بالأمواج تيها وانهمر
يرهب من ينظره بروعة … قد جمعت بين الجمال والخطر
يزبد بالأمواج مغتاظا وقد … أصبح صفوه مشوبا بالكدر
تجري به الفلك مروعة ومن … طغيانه جسم نواتيها اقشعر
من كهرباء شاطئاه في الدجى … وفي النهار من زهور وشجر
يوصلها جسر عليه ازدحمت … ملائك القصر وأرام الحجر
كم عبرت عليه من سيارة … تخطف في سرعة سيرها البصر
تقل ارام القصور لم تكن … تشبهها الأرام جيداً وحور
كأنها سلة ورد عبرت … أو قفص من الطيور قد عبر

❖ ❖ ❖

شوارع تزهر بالنور كما … بالشهب عالم السموات زهر
قد اكتست من الزهور حللا … مختلفات بالأريج والصور
تسري به الغيد سوافراً على … ثغورها تلوح بسمة الظفر
طاب لها فيها النعيم والهنا … وزال عنها كل هم وضجر
كم مجلس طاف به الكاس وكم … ناد به حج الغرام واعتمر
يعانق الصب حبيبه وقد … طاب له فيه الحوار والسمر
فلا رقيب يتقي منه ولا … من عاذل يصبح منه في حذر
حرية الرأي به مشاعة … لا قيد لا ارتقاب فيه لا خطر

❖ ❖ ❖

بغداد

✍ خضر عباس الجبوري

ودعت جسرك بين اليأس والأمل … وبي حنين إلى أيامك الأول
وما تركتك مشتاق إلى بدل … فليس لي عنك في دنياي من بدلي
وإنما هي اقدار تصرفنا … وتقتضينا لقاء الحادث الجلل
لم اقض منك لباناتي لأهجرها … ولم أرو الثرى من أدمع المقل

ففـي رصـافتك الغنـاء ملتمـسي ... وعنـد كرخـك اخبـاري فـلا تـسلي
فكـم تغنيـت عنـد الـشاطئين وكـم ... أرقـصت غيـدك بالتـشبيب والغـزل
وبـين جـنبي قلـب كـاد يـسكته ... هـذا الفـراق فـيردى بـي علـى عجـل
هـي الليـالي أرتـني أوج سـطوتها ... فبـت دهـري في حـل ومرتحـل

❖ ❖ ❖

بغـداد هـذا الهـوى كـم غـال مـن رجـل ... وكـم أضـاع صـواب الفـاتح البطـل
وكـم أضـل امـرءاً غـرت ضـلالته ... كـم عاقـل منـه أضحى وهـو في خبـل
فلـست أحـسب أن البعـد روعـني ... وحـدي أوانـك مـا روعـت بالمثـل
فقـد شـهدتك يـم الـبين عائمـة ... وخلـت شـاطئك المعمـور في وجـل
وشـيعتني مـي وهـي واجفـة ... لله مـي فكـم ريعـت علـى غفـل
واسـبلت جفنهـا تخفـي مـدامعها ... رحمـاك يـامي ردى الـدمع في المقـل
مـا بـال عينـك قـد رقـت محاجرهـا ... وبـات شـأنك شـأن الـشارب الثمـل
كـأن قلبـك لم يثبـت لحادثـة ... ولم يطـق قبـل ذي صـبراً علـى العلـل
رفقـاً بنفـسك وانـسي يـوم فرقتنـا ... وعـالجي الملـل القتـال بالأمـل

❖ ❖ ❖

بغداد.. الملتقى والأمل

✍ محمد التهامي (مصر)

قطـع الطريـق علـى مـن يتجـبر ... واقـام دونـك حـائلاً لا يعـبر
واشـتد يـا بغـداد في تفريقنـا ... فـإذا بقربـي مـن عيونـك أكثـر
وتمـددت رقطـاؤه في دربنـا ... وزعافهـا في كـل شـبر يقطـر
كـبرت بمـا تفـح الكبـار رداءهـا ... فتعثـرت في ثوبهـا وتعثـروا
ظنـوا الكـبيرة في الطريـق تردنـي ... لكـن مـا بـيني وبينـك أكـبر
جهـل العـداة جمـيعهم أن الـذي ... بـيني وبينـك فـوق مـا يتـصور
قـدر يـشد إليـك كـل خـواطري ... فأنـا امـام هـاك لا اتخـير
اقـسمت لـو رمـت البعـاد لردنـي ... قلـب يـصوم إذا أمـرت ويفطـر
وإذا تلـهى عـن وجـودك لحظـة ... قـضى طـوال حياتـه يـستغفر
وإذا انطـوت في البعـد عنـك نـوظري ... لـي مهجـة تـصغى وقلـب ينظـر
ليـت المكـابر فيـك ذاق عناقنـا ... ورأى حقيقتنـا المـضيئة تـسفر
ورأى كيـاني في كيانـك واحـداً ... وصـحيح واحـدنا محـال يكـسر
وإذا تحـدانا الحديـد فإنـه ... مهمـا مـشى لقلوبنـا يتكـسر؟

بغداد غطى الهول نور حياتنا ... واشتد حتى ضل فيه المبصر
وغدا وجود العرب في فم عاصف ... في الليل، يردعه الصباح المسفر
إن لم نشد الصبح فوق ديارنا ... فدع الشموس جميعها تتكور
إن قيل هذي الحرب قلت عرفتها ... وليسألوا العربي كيف تسعر
كانت هوايته وشغل حياته ... لومات في غير الوغى يتحسر
ويعد من أثر الجراح بجسمه ... وشما تدل به الرجال وتفخر
وتتم فرحته ويعذب لحنه ... في المهرجان إذا تلاقى العسكر
ويود تقبيل السيوف لأنها ... مثل الحبيبة في الظلام تنور
سيان في فمه رضاب حبيبه ... ودم العدا من سيفه يتقطر
قالوا تطول الحرب قلت الفتها ... سأطول في وهج اللقاء وتقصر

❖ ❖ ❖

قالوا هنا بغداد قلت حقيقة ... لكنها للقادسية معبر
قد غير التاريخ بعض وجوهها ... لكن في الأعماق يبقى الجوهر
فلها على خوض النضال شجاعة ... تتغير الدنيا ولا تتغير
ولها تقاليد الحروب وبعضها ... لا يستحق العيش من لا يثأر
وابن الوليد بها يعد جيوشه ... للشام فوق ذرا المهالك تعبر
تجتاح وادي الهول ثابتة الخطا ... والجن في جنباته تتحير
فالتيه في صدق المسير ممهد ... والنصر في صدق اللقاء مؤزر
هدى الصحائف لوبدت مطوية ... لا بد يوماً تستعاد وتنشر
لو غطت الأيام عزم رجالها ... فلدى انتفاضات الحوادث يظهر
فابن الوليد اليوم شد رحاله ... والشام - إن حث الخطاء - تتحرر
فالناس تقي الناس فوق ديارهم ... وحياتهم تاريخهم يتكرر

❖ ❖ ❖

بغداد بارقة العواصف أرعدت ... ومن العواصف منذر ومبشر
قدر على جيل البطوله ماله ... متقدم عنه ولا متأخر
هبت رياح الفتح فوق ربوعنا ... فإذا ليوث للوغى تستنصر
ومشى إلينا الموت لا متخير ... منا ولكننا الألى نتخير
نلقى إليه بكل أروع لو بدا ... تتضاءل الدنيا لديه وتصغر
يمش إلى الميدان وضاح الخطا ... وسواه إن حمى الوغى يتستر
وله مع الموت العتي حكاية ... تبقى بها أيامه تتندر

❖ ❖ ❖

أبغداد درة جد العرب

مختار محمد مختار (السودان)

أبغداد درة مجد العرب ... ومعقل عزهمو المؤتشب
وأبلغ آياتهم في الزمان ... وأخلد آثارهم في الحقب
سلمت فلا طرقتك الخطوب ... ولا فل غربك قرع النوب
ولا كدرتك صروف الليالي ... ولا ريع سرب بنيك النجب
ولا زال وجهك فخم السنا ... طليقاً وجادك صوب السحب
يفوف من حولك الرافدان ... ضحوك الربا والرياض القشب
تحية ذي شجن واجب ... حشاه يهيم بمجد العرب
يمحضهم حبه العبقري ... فما مان في حبه أو كذب
إذا طيف ذكر همو في الكرى ... تأوبه جنح ليل وثب
وحلق خلف الزمان السحيق ... وكشف أسجافه والحجب
وطاف به خاشعاً يجتلي ... مآثر يألقن مثل الشهب
وناضر أيامهم بالعراق ... ومصر وآثارهم في حلب
وبيض ليال لهم مشرقات ... بأهل النهى والندى والأدب
وبات على مثل جمر الغضا ... يكفكف من دمعه ما انسكب
ويطرق حسران في عالم ... تساوى به نبعه والغرب
من النيل هز إليك الجناح ... نقي الهوى يزدهيه الطرب
فهل واجد ما يبل الصدى ... ويشفي جوى قلبه المكتئب
يرى العز في هبوات الغبار ... وبين صدور القنا والقضب
وبين غيوم الدخان الكثيف ... وزمجرة المدفع الملتهب
وسيل الدم المائر المسيطر ... والمعرك الخشن المختصب
فما رد مظلمة مثلها ... وفل شبا الغاشم المغتصب
فلا عدل في الأرض اضحى بها ... ينال قصى المنى من غلب
وصار بها الحق ما يقتضي ... بحد الصوارم أو ينتهب
لقد هاضه ان يرى العرب هانوا ... واغضوا على الضيم دون السلب
تساورهم حية لا تنام ... من الرقش في أرضهم تضطرب
تكاد وقد هالها أمرهم ... تميز من غيظها والغضب
تراوغ غدرا وتخفي الردى ... لهم في أسرة ناب ذرب
فويل لهم إن أطاعوا الكرى ... ولم يتبعوا راسها بالذنب

بني العرب ما حلمكم والعدو … يطنب من دوركم عن كثب؟!
ويوعد بالغزو لا يرعوي … ويوشك من فوقكم ان يثب
وتلكم فلسطين مغلولة … تقاسي الأسى والضنى والسغب
تخونها الدهر بعد الشام … فمزق من شملها ما رأب
وبدد أبناءها في البلاد … لدى كل صوب بها أو حدب
ثلاثون عاماً من الاضطهاد … إذا نزلت سفح رضوى وجب
أرى الغرب يخدعكم بالسلام … ورونق باطله والكذب
أيصدق خالق صهيون فيكم … ومسعر نار الوغى والسبب؟
متى رد مستلب جائر … بغير مصادمة ما استلب
ليرث لفتنام تطفو على … خضم دم مزيد مصطخب!!
ويدرك أراملها والصغار … كزغب القطا دون ام وأب
فهل رق يوماً لهم قلبه … وحركه ما جنى وارتكب
فلا رأى إلا القتال المرير … فشر من الحرب موت الحرب!

❖ ❖ ❖

مرحبا يا عراق

✍ نزار قباني (سورية)

مرحبا يا عراق جئت أغنيك … وبعض من الغناء بكاء
مرحبا.. مرحبا.. أتعرف وجها … حفرته الأيام والأنواء
أكل الحب من حشاشة قلبي … والبقايا تقاسمتها النساء
كل أحبابي القدامى نسوني … لا نوار تجيب أو عفراء
فالشفاه المطيبات رماد … وخيام الهوى رماها الهواء
سكن الحزن كالعصافير قلبي … فالأسى خمرة وقلبي الإناء
انا جرح يمشي على قدميه … وخيولي قد هدها الإعياء
فجراح الحسين بعض جراحي … وبصدري من الأسى كربلاء
وأنا الحزن من زمان صديقي … وقليل في عصرنا الأصدقاء

❖ ❖ ❖

مرحبا يا عراق.. كيف العباءات … وكيف المها.. وكيف الظباء
مرحبا يا عراق.. هل نسيتني … بعد طول السنين سامراء
مرحبا.. يا جسور.. يا نخل.. يا نهر … واهلاً يا عشب.. يا افياء
كيف أحبابنا على ضفة النهر … وكيف البساط والندماء

كان عندي هنا.. أميرة حب ... ثم ضاعت أميرتي الحسناء
إنني السندباد مزقه البحر ... وعينا حبيبتي الميناء
مضغ الموج مركبي.. وجبيني ... ثقبته العواصف الهوجاء
إن في داخلي عصوراً من الحزن ... فهل لي إلى العراق التجاء
وأنا العاشق الكبير.. ولكن ... ليس تكفي دفاتري الزرقاء

❖ ❖ ❖

يا حزيران.. ما الذي فعل الشعر ... وماذا أعطى لنا الشعراء
الدواوين في يدينا طروح ... والتعابير كلها إفشاء
كل عام نأتي لسوق عكاظ ... وعلينا العمائم الخضراء
وتهز الرؤوس مثل ال دراويش ... وبالنار تكتوي سيناء
كل عام نأتي.. فهذا جرير ... يتغنى.. وهذه الخنساء
لم نزل.. لم نزل.. نمصمص قشراً ... وفلسطين خضبتها الدماء
سقطت في الوحول كل الفصاحات ... ومات الخليل.. والفراء
يا حزيران.. أنت أكبر منا ... وأب أنت.. ما له ابناء
لو ملكنا بقية من إباء ... لانتخينا.. لكننا جبناء
يا عصور المعلقات.. مللنا ... ومن الجسم قد يمل الرداء
نصف اشعارنا نقوش وماذا ... ينفع النقش حين يهوى البناء
المقامات لعبة.. والحريري ... حشيش.. والغول.. والعنقاء
ذبحتنا الفسيفساء عصورا ... والدمى والزخارف البلهاء
نرفض الشعر كيمياء وسحرا ... قتلتنا القصيدة الكيمياء
نرفض الشعر مسرحاً ملكياً ... من كراسيه يحرم البسطاء
نرفض الشعر أن يكون حصاناً ... يمتطيه الطغاة والأقوياء
نرفض الشعر عتمة ورموزا ... كيف نسطيع أن ترى الظلماء؟
نرفض الشعر ارنباً خشبياً ... لا طموح له ولا أهواء
نرفض العاطلين في قهوة الشعر ... دخان أيامهم.. وارتخاء
شعرنا اليوم يحفر الشمس حفرا ... بيديه.. فكل شيء مضاء
شعرنا اليوم هجمة اكتشاف ... لا خطوط كوفية.. وحداء
كل شعر معاصر.. ليس فيه ... غضب العصر.. نملة عرجاء
ما هو الشعر.. إن غدا بهلواناً ... يتسلى برقصه الخلفاء؟
ما هو الشعر.. حين يصبح فأراً ... كسرة الخبز، همه، والغذاء
وإذا أصبح المفكر بوقاً ... يستوى الفكر عندها الحذاء
يصلب الأنبياء.. من أجل رأى ... فلماذا لا يصلب الأدباء

الفدائي وحده.. يكتب الشعر   وكل الذي كتبنا هراء
إنه الكاتب الحقيقي للعصر   ونحن الحجاب والأجراء
عندما تبدأ البنادق بالعزف   تموت القصائد العصماء

❖ ❖ ❖

مالنا.. مالنا.. نلوم حزيران   وفي الإثم كلنا شركاء
من هم الأبرياء؟ نحن جميعاً   حاملو عاره.. ولا استثناء
عقلنا. فكرنا، هزال أغانينا   رؤانا. أقوالنا الجوفاء
نثرنا، شعرنا، جرائدنا الصفراء   والحبر.. والحروف الإماء
البطولات.. موقف مسرحي   ووجوه الممثلين طلاء
وفلسطين بينهم كمزاد   كل شار يزيد حين يشاء
وحدويون. والبلاد شظايا   كل جزء من لحمها أجزاء
قرشيون، لو رأتهم قريش   لاستجارت من رملها البيداء
لا يمين يجيرنا أو يسار   تحت حد السكين نحن سواء
لو قرأنا التاريخ ما ضاعت القدس   وضاعت من قبلها (الحمراء)
يا فلسطين.. لا تزالين عطشى   وعلى الزيت نامت الصحراء
العباءات، كلها من حرير   والليالي رخيصة حمراء
يا فلسطين.. لا تنادي عليهم   قد تساوى الأموات والأحياء
قتل النفط ما بهم من سجايا   ولقد يقتل الثرى الثراء
يا فلسطين، لا تنادي قريشاً   فقريش ماتت بها الخيلاء
لا تنادي الرجال من عبد شمس   لا تنادي.. لم يبق إلا النساء
ذروة الذل.. أن تموت المروءات   ويمشي إلى الوراء الوراء

❖ ❖ ❖

مر عامان.. والغزاة مقيمون   وتاريخ أمتي أشلاء
مر عامان.. والمسيح أسير   في يديهم. ومريم العذراء
مر عامان.. والمآذن تبكي   والنواقيس كلها خرساء
أيها الراكعون في معبد الحرف   كفانا الدوار والإغماء
مزقوا جبة الدراويش عنكم   واخلعوا الصوف.. أيها الأتقياء
اتركوا أولياءنا بسلام   أي أرض أعادها الأولياء

❖ ❖ ❖

في فمي يا عراق ماء كثير   كيف يشكو من كان في فيه ماء
زعموا أنني طعنت بلادي   وأنا الحب كله.. والوفاء

أيرودون أن أمص نزيفي ... لا جدار أنا ولا ببغاء
أنا حريتي.. فإن سرقوها ... تسقط الأرض كلها والسماء
ما احترفت النفاق يوماً، وشعري ... ما اشتراه الملوك والأمراء
كل حرف كتبته.. كان سيفاً ... عربياً.. يشع منه الضياء
وقليل من الكلام نقي ... وكثير من الكلام بغاء
كم أعاني مما كتبت عذابا ... ويعاني في شرقنا الشرفاء
وجع الحرف رائع.. أو تشكو ... للبساتين.. وردة حمراء
كل من قاتلوا بحرف شجاع ... ثم ماتوا.. فإنهم شهداء
لا تعاقب يا رب.. من رجموني ... واعف عنهم.. لأنهم جهلاء
إن حبي للأرض حب بصير ... وهواهم.. عواطف عمياء
إن أكن قد كويت لحم بلادي ... فمن الكي قد يجيء الشفاء

❖ ❖ ❖

من بحار الأسى. وليل اليتامى ... تطلع الآن زهرة بيضاء
من شحوب الخريف، من وجع الأرض ... تلوح السنابل الخضراء
ويطل الفداء شمساً علينا ... ما عسانا نكون لولا الفداء
من جراح المناضلين ولدنا ... ومن الجرح تولد الكبرياء
قبلهم. لم يكن هنالك قبل ... ابتداء التاريخ من يوم جاؤوا
هبطوا فوق أرضنا أنبياء ... بعد أن مات عندنا الأنبياء
انقذوا ماء وجهنا.. يوم لاحوا ... فأضاءت وجوهنا السوداء
منحونا إلى الحياة جوازاً ... لم تكن قبلهم.. لنا أسماء

❖ ❖ ❖

أصدقاء الحروف.. لا تعذلوني ... إن تفجرت.. أيها الأصدقاء
إنني أخزن الرعود بصدري ... مثلما يخزن الرعود الشتاء
أنا ما جئت كي أكون خطيباً ... فبلادي.. أضاعها الخطباء
إنني رافض زماني وعصري ... ومن الرفض.. تولد الأشياء
أصدقائي. حكيت ما ليس يحكى ... وشفيعي.. طفولتي والنقاء
إنني قادم إليكم.. وقلبي ... فوق كفي.. حمامة بيضاء
افهموني. فما أنا غير طفل ... فوق عينيه، يستحم المساء
أنا لا أعرف ازدواجية الفكر ... فنفسي بحيرة زرقاء
لبلادي شعري. ولست أبالي ... رفضته.. أم باركته السماء

❖ ❖ ❖

بغداد يا غاب الأسود ويا شرارات اللهيب

(صرخة الثأر)

✍ حسن عبدالله القرشي (السعودية)

هتف النذير فلا تغيبي   وترصدى لجج الخطوب
وتقحمي الغمرات وحـ   ـدك رغم يأس المستريب
وتوهجي كالجمر، وانـ   ـطلقي كطوفان غضوب
الخطب خطبك أنت لا   خطب الصديق أو الغريب
والجرح جرحك فالنزيـ   ـف الحر من وطني السليب
لا في ديار الغرب أو   في الشرق برؤ للندوب
والثأر ثأرك ضجت الـ   ـلأكفان للضيم المعيب
طمئ الثرى لدم من الـ   ـلأبطال هدار سكيب
واهتزت الصحراء رغـ   ـماً عن مدنسها الطروب
وتمردت شم المعا   قل من شمال أو جنوب
ثوري على القيد المهيـ   ـن وزلزلي حصن المريب
هبي لمنطلق الوغى   وبكل مقدام أهيب
يا أمتي يا مصنع الـ   ـلأمجاد يا فجر الغيوب
(عامان) والداء العضا   ل يؤج أوردة القلوب
(عامان) والداء العيا   ء يفح كالصل الرهيب
يسري كسم ناقع   ويغل أوتار الوجيب
(صهيون) فوق (القدس) يرـ   ـقص، فوق (جولان) المهيب
يحتل (سينا) عابثاً   بترابها العبق الخصيب
فوق (القناة) الهريز   أر راصداً كل الدروب
(عامان) والسهم المرا   ش، يحز في كل الجنوب
(عامان) والعشرون قبـ   ـل وفي النفوس صدى الشحوب
لا حاضري بهج ولا   دنياي ذات جنى وطيب
اغدو، أروح كأنني   شبح على ظل المغيب

وتصيح الآمي وتصـ … ـرخ في دمي نذر النعيب
أأنا هنا ابن الشمس … أين الشمس من حقلي الجديب؟
أأنا حفيد النابهيـ … ـن؟ أنا المرزا بالذنوب
إني غبار الأمس إنـ … ـي منه كالوهج الخلوب
إني هباء ضائع … أنا للشباب صدى مشيب!

❖ ❖ ❖

ومضيت أرفض حيرتي الـ … ـصماء أعصف بالهروب
أعلو على وخز الجرا … ح تشب من حمل وذيب
في كل يوم قصة … للعار تنكأ من ندوبي
حتى استفقت على النفيـ … ـر يضج في الوطن الحريب
ويمزق المأساة كالـ … إعصار في الليل الرهيب!
حييت يا زمر الفدا … ء وأبت بالمجد الخصيب
سيري ولا تعني لخصـ … ـم لا تليني أو تؤوبي
ولـ(تعصفي) ولـ(تصعقي) … متغطرساً جهم النيوب
قد جاز من خلل الخلا … ف فبددي خلف القريب
ضحك الصباح إليك مر … حى للصباح المستجيب
وتمزقت حجب الظلا … م وبش منسدل القطوب
وصحوت يأبى الله ان … تهني لمجترم كذوب
لن يترك العادون وحـ … ـدهمو على الدرب الرغيب
نوراء جحفلهم ليو … ث العرب تهفو للوثوب
لن تنثني حتى ترى … أعداءها صرعى شعوب
يا صرخة الأجيال دو … ي صوت (أحمدك) الحبيب
انساب حي على الكفا … ح مجلجلاً فإليه ثوبي
لا تحفلي السلم الخنو … ع وسعري لهب الحروب
فالحرب إن تلقح يفح … للسلم أي شذى عجيب
والحرب مورية الشكا … ئم إن وهي زند الشعوب
ما للعدو سوى السلا … ح إذا انتضته يد اللبيب

❖ ❖ ❖

(بغـــداد) يـــا غـــاب الأســـو ... د ويـــا شـــرارات اللـــهيب
(بغــداد) يـــا ســـاح الإبـــا ... ء لكـــل فـــداء غلـــوب
يحمـــى الـــدمار بروحـــه ... بنجيعـــه الزاكـــي الـــصبيب
مـــا هنـــت يومـــاً للدخيـــ ... ـــل ولا استكنت إلى الخطـوب
علـم الـشموخ علـى مـدى الـ ... ـــتاريخ، مـــصباح الأديـــب
مـــن عهـــد (هـــرون الرشيـــ ... ـيد) وعهـد (المعتـصم) المجيـب
(بغـــداد) كـــل الخـــود تـــصر ... خ في حمـــى (القـــدس) الحبيـــب
يـــدعون "معتـــصماً" يـــشل ... اليـــوم طارقـــة الكـــروب
ويحطـــم الأغـــلال تغـــ ... ـــرز في المعاصـــم والقلـــوب
فتقـــدمي فالنـــصر مـــ ... تهـــن لـــدى العـــزم الـــصليب
تلـــك الطلائـــع مـــن بنيـــ ... ـــك نفـــرن كالقـــدر المـــصيب
تـــصلى العـــدو جحيمهـــا ... وتهـــش لليـــوم العـــصيب،
يـــا أمـــة العـــرب اسـلمي ... وثـــبي إلى العليـــا واوبـــي
نحـــن الألى عركـــوا الـــشدا ... ئـــد دون يـــأس أو لغـــوب
نـــسجت عزائمنـــا المـــلا ... حـــم وانتـــشت بـــدم الحـــروب
(صـــهيون) لـــن تحيـــا وفي الـــ ... لأجمـــات زمجـــرة الـــشعوب
ســـيعود موطننـــا الأبـــي ... مطهـــراً خـــضل الطيـــوب!

❖ ❖ ❖

ذكريات العراق

✍ محمد مصطفى الماحي (مصر)

في اشـــتياق ولوعـــة وحنـــان ... عـــشت يـــا قلـــب دائـــم الخفقـــان
لم يكـــن مـــا شـــكوت نـــأي حبيـــب ... ذقـــت في حبـــه جـــوى الحرمـــان
إنمـــا كـــان لهفـــة وحنينـــاً ... لربـــوع مخـــضرة الأفنـــان
لربـــوع العـــراق في ذكريـــات ... مـــا ثـــلاث لخـــاطري وجنـــاني
مـــن ثلاثـــين حجـــة عـــشت صـــبا ... أتملـــى جمـــال هـــذي المغـــاني
كنـــت أحيـــا بهـــا ســـعيداً والقـــى ... كـــل مـــا اشـــتهي مـــن الإحـــسان
فـــترات مـــن ريـــق العمـــر كانـــت ... حاليـــات بفـــاتن الألـــوان

ومراء في زهرة العيش طافت ... كطواف الخيال للوسنان
ذكريات ويا لها ذكريات ... عابقات كالورد والريحان
يا لها حقبة من الدهر مرت ... زودتني بأروع الأشجان
طال فيها الفراق عن موطن الحسن ... ومثوى الجلال والعرفان
من يذق ماء دجلة العذب يوماً ... عاش يهفو إليه طول الزمان
فاهنأ اليوم يا فؤادي وانعم ... بلقاء ما كان في الحسبان
حققته للنفس دعوة شهم ... جمعتني بصفوة الخلان
وأعاد ت إلى ذكرى شباب ... وبديع من الرؤى والمعاني
وأرتنا معالماً ورياضاً ... هن في حسنهن صنو الجنان
فغنمنا الحياة في فرحة العمر ... ومجلى الربيع في نيسان
فثرى مصر والعراق سواء ... وكلا الرافدين نيل ثان
وحد الدين بيننا فنعمنا ... بظلال الإسلام والإيمان
ونمتنا عروبة ومواثيـ ... ـق تبدت وطيدة الأركان
فإذا رن في العراق رنين ... بات يأسى لوقعه الهرمان
واذا أن في دمشق حزين ... رددت صوته ربى لبنان
وإذا حن في الجزائر حر ... لأديب الضاه في السودان
وإذا ما دعا بصنعاء داع ... جاوبته الكماة في عمان
رحم وثقت عراها الليالي ... ورعتها عناية الرحمن
وثقتها أم اللغات وحسبي ... معجزات البيان في القرآن
وثقتها الآلام حين شقينا ... بضروب الأهوال والطغيان
ودعتنا إلى كفاح مرير ... فاستجبنا الدعاء دون توان
ورأى الناظرون عهداً تجلت ... فيه روح الفداء للأوطان

❖ ❖ ❖

كم شهيد علاه تاج فخار ... هو في الحق أرفع التيجان
باع دنياه بالشهادة صدقا ... فله بعد موته جنتان
إنه لم يمت وذكره فينا ... قبس من ضيائه الروحاني
مشعل النور في سواد الليالي ... باعث الروح في فؤاد الجبان
هو أحيا بموته كل نفس ... غرقت في مذلة وهوان

واشــاع الرجــاء في كــل قلــب وأنــار الطريــق للــشجعان
بــالقومي وصــيحة الحــق دوت فتهــاوت دعــائم البهتــان
بــالقومي لقــد دنــت ســاعة الثــأ ر، وحانــت نهايــة العــدوان
إن تكــن كبــوة تعــوق ســرانا فالــصباح المــنير لا ريــب دان
امــة العــرب امــة لا تــسامي أيــن منهــا صــنائع الــشيطان؟
ايــن منهــا مــن افــشوا الظلــم في الأر ض وداســو كرامــة الإنــسان؟
فــارفعوا رايــة الجهــاد إلى النــ اصــر، وشــدوا القــوى ليــوم الطعــان
لكــأني بالنــصر يطلــع كالفجــ ــر، ويزهــو بمــشرقات الأمــاني

❖ ❖ ❖

تحية العراق

✍ محمود الروساني (الأردن)

حــي العــراق عــراق المجــد والعظــم ومنــبر الحــق للتــاريخ والأمــم...
وحــي شــعباً كريمــاً ســيداً نقلــت عنــه الــشعوب معــاني الجــود والكــرم
وحــي جيــشاً شــديد البــأس نعرفــه طليعــة النــصر، مقــداماً، ولم يــضم،
واســتلهم الــوحي مــن بغــداد أغنيــة مــن طهــر دجلــة، نهــر الخــير والــنعم
وابعثــه حــراً نــصيح العــالمين بــه ويــوقظ الــصم مــن عــرب ومــن عجــم
كــي يــسمع الكــون فيــه أمــة جرحــت وضــاع منهــا تــراث جــل بالقــدم
وتــاه فيهــا رجــال الفكــر وانطلقــوا كــالطير يــرقص مــذبوحاً مــن الألم
ومجلــس الأمــن اضــحى دميــة وأذى يزيــف الحــق باســم الحــق بــالكلم

❖ ❖ ❖

حــي العــراق وخاطــب مــن منابرهــا دنيــا العروبــة والإســلام بــالنغم
وانظــم قريــضك للأيــام ملحمــة في مــوطن الــصيد حــصن الــسيف والقلــم
وانقــل فــديتك صــوت . القــدس . إن بــه صــوت الإلــه ينادينــا مــن (الحــرم)
هــذي اســتغاثتها كالرعــد داويــة أصــداؤها عنــه وادي النيــل والهــرم
وفي الــشام لهــا ترجيــع موجعــة وفي الجزائــر، في لبناننــا الــضرم،
وفي الجزيــرة، في الــسودان تــسمعه تلــك الملايــين كالأعــصار، كالــديم
في المغــرب الحــر منــه بعــض جلجلــة وتحــت كــل ســماء صــرخة الألم،

لو تستغيث فمن هود تدنسها ... ومن حثالة شعب ماكر نهم
هلا استفقنا وحسن الرأى يعوزنا ... أم هل ترانا نرد الخصم بالصنم
أم أن فرقتنا كانت لنا قدراً ... وعاش فيها غلاة القوم بالتخم،
ما ذنب أمتنا إن كان ساستها ... قد ضيعوها، فعدت أمة الرقم
أو ذنب رايتنا إن اصبحت مزقاً، ... تلهو بها الريح في الإشراق والغسم
وهي التي سكنت في الأفق فقد ... نسجت خيوطيا الحمر من أعراق مقتحم
وضاء منها سماء الشرق منذ خفقت ... تروى البطولات في تاريخنا الدسم
ها ارفعوا ورددوا العهد واجتمعوا ... في وحدة حرة البنيان والنظم
ومن يريد بها سوءاً يكون له ... شعب العروبة فيها خير محتكم
فالشعب أجدر بالتشريع من عدد ... من القضاة، بعرف الثائر الحكم،
من يزدري الشعب لا تحميه سلطته ... وهل سوى الشعب يحمي الحكم من قدم
عفواً أخي الحر فالتاريخ قد وحمت ... منه السطور وأغضى بالأسى العرم
والدهر يعلم أنا للزمان سنى ... وأننا شعلة شعت على القمم
وأن منا ميامين عمالقة..... ... كابن الوليد، ومأمون، ومعتصم
حطين فينا تباهت وازدهت مثلاً ... ولاح فيها صلاح الدين كالعلم
ماذا بنا اليوم، هل كلت سواعدنا، ... أم أنها وهنت من غدرة القزم
ماذا بنا، والحمى يدعو لنجدته، ... وأهلنا فيه كالأعصار، كالضرم
قد مزقتنا سياسات مدمرة ... وأحرقتنا بدرب مغلق عمم
وخدرتنا بأقوال منمقة... ... وما اعتبرنا، وديس الحق بالقدم
من أين للغرب إحساس يؤنبه ... وهل سوى الغرب يرمينا إلى الوخم
وهل يريد حلولا نستريح بها ... ونستعيد رحاب المهد والحرم...
ونسترد بها سيناء كاملة ... وكل جولان بالأوهام، بالقلم
هذي مؤامرة كبرى مدبرة ... تقضي علينا، وتأييد لمقتسم
بئست وصايتهم أو الغدر شيمتهم ... والحقد حافزهم والحر لم ينم
كل المشاريع باسم السلم نرفضها ... ونرفض السير في إذلال منهزم

❖ ❖ ❖

تراجم الأعلام
في دار السلام

تأليف

مُحمّد سعيد الطُّريحي

القسم الأول

الكوفة
Kufa Academy

بسم الله وحده

ومنه نستمد العزم و التوفيق

بين يدي مجموعة من تراجم أعلام بغداد ممن تميزوا بإبداعاتهم العلمية والأدبية والفنية أو ساهموا بأعمالهم الثقافية أو شاركوا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكنت قد دونتها منذ مدة طويلة، ونشر بعضها في الصحف او المجلات واذيع البعض الآخر في بعض الإذاعات خارج العراق، لكن هناك مئات المواد التي كتبتها في نفس الموضوع وكلها لا تزال مخطوطة وتحتاج إلى مزيد من الوقت لإخراجها على الوجه الذي أرتضيه، ونرجو أن نوفق إلى ذلك بعناية الله وتسديده.

وفي هذا القسم الأول تناولت عدداً من الشخصيات البغدادية أصالة أو اتخذت من بغداد موطناً، ورأيت من الواجب الإشارة إلى ما توصلت إليه من معلومات عن الصحف التي نشرت فيها عدد من هذه التراجم توثيقاً لها ولعل في ذلك فائدة لمن يطلع عليها في المستقبل. وفي ما يلي ثبتاً بما توصلت إليه من ذلك:

يونس بحري - جريدة الجسر - لاهاي ع ٣٠ - ١ يوليو ١٩٩٩ ص٧.

محمد باقر السهيل - جريدة بغداد - لندن - العدد ٥٠٤ - ٢٠٠٣/١/٢٤. وانظر جريدة المؤتمر ع (٣١٤) ٢٠٠٣/٨/٢ تحت عنوان (عقرقوف من أمجاد كوريكالزو إلى مضارب بني تميم) وموسوعة الديوان التي أصدرتها أكاديمية الكوفة - لاهاي - سنة ٢٠٠٠.

إبراهيم ادهم الزهاوي - جريدة بغداد - لندن - ع ٥٠٧ - ٢٠٠٣/٢/١٤.

شاؤول ساسون - جريدة المؤتمر - لندن ع ٣٢٨ الصادر في ٢٠٠٣/٢/٢١، وانظر أيضاً جريدة بلاد الرافدين الصادرة في أمستردام . العدد٧ من السنة ٢٠٠١/٢ ص ٦ - ٧ بحثنا الموسوم (يهود بغداد).

حازم سعيد - جريدة بغداد - لندن - ع ٥٠٩ - ٢٠٠٣/٢/٢٨.

عبد الأمير علاوي - جريدة بغداد - لندن - ع ٥١٠ - ٢٠٠٣/٣/٧.

حسين الشعرباف - جريدة بغداد - لندن - ٢٠٠٣/٣/٢٨.

طه الراوي - جريدة بغداد - لندن - ع ٥٠٥ - الصادر في ٢٠٠٣/١٢/٣١.

أديب الفكيكي - جريدة بغداد - لندن - ع ٥١٤ الصادر في ٢٠٠٣/٤/٤.

عاتكة وهبي الخزرجي - أذيع من براغ ودمشق.

محمد رؤوف الشيخلي - جريدة المؤتمر - لندن - ع ٣٣٥ الصادر في ٢٠٠٣/٢/٣٠.

حافظ جميل - جريدة المؤتمر - لندن - ع ٣٤٩ الصادر في ٢٠٠٣/٥/٩.

محمد سعيد الطريحي

السائح العراقي
يـونـس بحـري

- سيرته وزواجه في هولندا
- مؤلفات يونس بحري
- صفحة من مذكرات يونس بحري
- انقلاب ١٩٣٦
- التنفيذ
- الشعب يهلل ويكبر
- المد الشيوعي الأول
- ثورة بلا هدف
- مقتل الفريق بكر صدقي
- حصاد العاصفة
- من مغامرات يونس بحري بين الجد والفكاهة
- يونس بحري في آراء معاصريه
  - محمد مهدي الجواهري
  - جعفر الخليلي
  - فاضل الجمالي
  - مير بصري
  - شهادة عبد الرحمن بدوي عن يونس بحري
  - شهادة سعيد علي
  - شهادة عبد السلام العجيلي
  - شهادة راشد الكيلاني (سفير سوري سابق)
  - المقامة الباريسية، رسالة إلى الأستاذ يونس بحري وشلته في باريس
  - يونس بحري في مذكرات الأمير عادل ارسلان
  - شهادة وديع (فلسطين) عن يونس بحري
  - شهادة خالد عبد المنعم العاني
  - في مجلس الملك عبد العزيز آل سعود
  - شهادة معن عبد القادر آل زكريا
- بيان ليونس بحري
- الشباب اليهودي في بغداد
- بغداد – جريدة العقاب
- تكريم يونس بحري

السائح العراقي
يونس بحري

هو يونس صالح بحري الجبوري، ولد في الموصل سنة ١٩٠٣[1] وتدرج في مدارسها ودخل دار المعلمين سنة ١٩٢١ إلا أنه لم يكمل التحصيل فالتحق بوظيفة كتابية في وزارة المالية لكنه تركها عام ١٩٢٣ وتوجه في هذه السنة إلى خارج العراق سائحاً معتمداً على نفسه فجاب في الكثير من الدول الآسيوية والأوربية واشتغل فيها بمختلف المهن، وفي سنة ١٩٢٥ عاد إلى الوطن، إلا أن حنينه إلى الترحال شحذ همته على السفر مرة أخرى وبعزيمة أكبر وفي الخارج أصبح اسمه يشتهر كسائح عراقي فقابل بعض الملوك والزعماء وكان موضع تكريم وحفاوة من كثير في البلدان التي زارها.

في ١٩٢٩/٢/٢٩ التقى لأول مرة بفتاة هولندية في مدينة نيس بفرنسا، والحسناء الهولندية تنتمي لأسرة ارستقراطية وأمها بارونة ألمانية ثرية، ووقعت بينهما رابطة حميمة من الحب والغرام وكانت رغبته بالزواج منها عارمة جداً إلا أنها كانت عازمة على الاستقرار بينما كان صاحبنا في أوج جموحه وطموحه والسعي وراء ملاكماته الصحفية ومغامراته وشغفه بالسفر والتنقل، وقد استمرت العلاقات بينهما مدة طويلة وقد أفاد منها يونس بحري في تحقيق بعض المآرب المادية التي كان يسعى إليها.

تلك الحسناء الهولندية هي جولي فان دير فين (١٩٠٣- ١٩٩٧) julie van der veen .

في عام ١٩٣٠ ذهب إلى أندونيسيا واشترك مع الأديب الكويتي عبد العزيز الرشيد[2] بإصدار مجلة باسم (الكويت والعراقي) وقد صدر عددها الأول في جمادى الأولى ١٣٥٠. وهي مجلة دينية أدبية أخلاقية تاريخية مصورة. كما أصدر مجلة أخرى باسم (الحق والإسلام). وفي سنة ١٩٣١ عاد إلى العراق فأصدر جريدة (العقاب).

---

(١) هناك من يرى أن ولادته عام ١٩٠٠ أو ١٩٠٤ والذي يظهر لنا أن هذا التاريخ هو الأوفق وهو أيضاً ما رأيناه في نص التقرير الصادر من السفارة الهولندية ببغداد حول سيرة يونس بحري.

(٢) عبد العزيز بن أحمد الرشيد البداح الكويتي الحنبلي (١٣٠١- ١٣٥٧ هـ)(١٨٨٣ - ١٩٣٨) فاضل من الكتاب له اشتغال بالتاريخ من أهل الكويت. أصدر مجلة الكويت شهرية بضع سنين وتوفي في جاوه. له تاريخ الكويت (جزءان). أعلام الزركلي ١٥/٤.

وفي عهد هتلر خلال الحرب العالمية الثانية عمل مذيعاً في محطة برلين العربية بألمانيا وكان يبدأ بإذاعته بـ(حي العرب) وقد طبع ما أذاعه في هذه الإذاعة سنة ١٩٥٦ في بيروت تحت عنوان (هنا برلين) وعلى ما نُقل عنه فإنه عمل إماماً وخطيباً لأكثر من جامع في أوربا.

بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ اعتقل لفترة وجيزة ثم أطلق سراحه بوساطة رشيد مطلك ثم استدعاه عبد الكريم قاسم إلى مكتبة بوزارة الدفاع وأكرمه بمبلغ كبير من المال بحضور فاضل المهداوي ومحمد مهدي الجواهري ويونس الطائي إلا انه ظل معادياً لقاسم ويكيل له ابشع الصفات والنعوت، وبعد مقتل قاسم ١٩٦٣ تقرب إلى قائد الانقلاب عبد السلام عارف واصدر في تأييده كتاب (أغاريد ربيع) الذي طبع في بيروت تحت عنوان (ثورة ١٤ رمضان المبارك) وصبّ فيه جام حقده على عبد الكريم قاسم وأعوانه.

وكان لا يتوانى في كتاباته في تحقير من يعاديه كما كان مبالغاً إلى حد الإسراف في مديح من تربطه معه المصالح، وكانت علاقاته متغيرة مع الوسط السياسي ولارتباطاته المتعددة وسفراته المتكررة أبلغ الأثر في توجهاته المختلفة المشتتة فلم يرسي على قرار ثابت ولم يحقق ما تصبو إليه نفسه التواقة إلى منصب رفيع مع كثرة مواهبه وتعدد مزاياه وإلمامه بعدة لغات منها: التركية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية وهكذا فقد كان بحق شخصية مثيرة للجدل. توفي يونس بحري عام ١٩٧٩ (رحمه الله).

سيرته وزواجه في هولندا

هي الفنانة الهولندية جولي فان دير فين، ولدت في ١٩٠٣/٢/٨ من أسرة ثرية، وأمها من أرومة الأمراء الألمان، درست في الأكاديمية الملكية في (لاهاي) وكانت طالبة متفوقة كما يذكر زميلها (SierkSchröder)، ثم ذهبت إلى فرنسا ودرست على يد الفنان أندريه لهوته André Lhote وما زال أثر أستاذها هذا واضحاً على لوحاتها.

وحاولت الاستفادة من الفنان (Lêger) إلا انه لم يروق لها مواصلة الدراسة عنده، لكنها استفادت لدى وجودها في باريس فائدة كبيرة من مدرسة (grafisch atelier van Hayter) وقامت بعرض لوحاتها في باريس في ثلاث معارض أحرزت خلالها جائزة ذهبية.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية حاولت البقاء دون جدوى واضطرت إلى الرجوع إلى وطنها (هولندا) في شباط ١٩٤٦ فأصبحت من أعضاء الجمعية الفنية العريقة HaagseKunstkring بمدينة لاهاي.

وقد أحرزت لوحاتها على سمعة فنية طائلة في الوسط الفني الهولندي وكان عملها يذكرنا بأعمال الفنان (Leo Gestel) كما كانت أعمالها متداولة في أوساط متعددة من

الناس، وكانت تعتمد الألوان الفاتحة وتستخدم الزيت والألوان المائية وتهتم بالرسوم الطبيعية.أما آخر معارضها فقد كان عام ١٩٨٠ في قاعة HaagseKunstkring بالاشتراك مع ست من صديقاتها.

بعد ذلك أخذت قواها البدنية تضعف غير أنّ رغبتها في الرسم ومعاودة النشاط لم تفارقها حتى اليوم الأخير من حياتها الذي قضته في دار للعجزة، متمتعة بالخدمة الممتازة التي أسدتها لها الكاتبة الفرنسية NareisseVollenbroek وعن طريق هذه الصديقة الكريمة حصلنا على كثير من المعلومات المتعلقة بالمرحوم يونس والفنانة الراحلة جولي.

أخيراً لبت (جولي) نداء ربها في ١٢/١/١٩٩٧.

لقد أشرنا سابقاً أن علاقة جولي بالكاتب العراقي يونس بحري تمتد إلى عام ١٩٢٩، واستمرت علاقة الحب بينهما حتى إعلان الزواج بشكل رسمي في ٢٩/١٢/١٩٣٩ (وتجدون صورة الدعوة الموجهة بمناسبة إعلان زواجهما ضمن هذا الملف).

واستمرت العلاقة الزوجية بين الاثنين متقطعة قضت عليها طموحات السائح العراقي، فلم يُنجب ولداً ولم يعيشا معاً بصورة هادئة مستقرة مع استعداد (جولي) لذلك ولعل في المراسلات الكثيرة المتبادلة بينهما توضح أسرار تلك العلاقة بصورة أفضل (وقد أثبتنا بعض هذه الرسائل ضمن هذا الملف لمن يريد معرفة تفاصيل أوسع). وكانت آخر رسالة استلمتها جولي من يونس بحري مؤرخة في ٢٥/١١/١٩٤٩.

مؤلفات يونس بحري:

١ – أسرار ٢مايس١٩٤١، أو الحرب العراقية الإنكليزية. (بغداد ١٩٦٨)

٢ – تاريخ السودان. (القاهرة ١٩٣٧)

٣ –تونس. (بيروت ١٩٥٥)

٤ – ثورة ١٤ رمضان المبارك. (بيروت ١٩٦٣)

٥ – الجامعة الإسلامية. (باريس ١٩٤٨)

٦ –الجزائر. (بيروت ١٩٥٦)

٧ – الحرب مع إسرائيل وحلفائها. (بيروت ١٩٥٦)

٨ – دماء في المغرب العربي. (بيروت ١٩٥٥)

٩ – سبعة أشهر في سجون بغداد. (بيروت ١٩٦٠)

١٠ – صوت الشباب في سبيل فلسطين الدامية والبلاد العربية المضامة. (١٩٣٣)

١١ – العراق اليوم. (بيروت ١٩٣٦)

١٢ – العرب في أفريقيا. (بيروت)

١٢ - العرب في المهجر. (بيروت ١٩٦٤)

١٤ - ليالي باريس. (باريس ١٩٦٥)

١٥ -ليبيا. (بيروت ١٩٥٦)

١٦ - محاكمة المهداوي. (بيروت ١٩٦١)

١٧ -المغرب. (بيروت ١٩٥٦)

١٨ - موريتانيا الإسلامية. (بيروت ١٩٦١)

١٩ - هنا برلين: حيَّ العرب. (١ - ٨ بيروت ١٩٥٦)

٢٠ - هنا بغداد. (بغداد ١٩٣٨)

٢١ - وحدة أم اتّحاد ؟ ٣ سنوات تخلق أقداراً جديدة: سورية - العراق - اليمن - الجزائر - الجمهورية العربية المتحدة. (بيروت ١٩٦٣)

صفحة من مذكرات يونس بحري

انقلاب ١٩٣٦:

ما أن أطلت سنة ١٩٣٦م حتى كانت مساوئ الحكم في العراق الذروة.. وكانت الجماهير العراقية قد لمست لمس اليد خيانة حكامها وتخاذلهم، وتعفير جباههم على أعتاب المستعمرين.. ناهيك عن الضائقة الاقتصادية التي استحكمت واستفحل أمرها.. فضلاً عن الإرهاب وكم الأفواه وتعطيل الصحف ومنع الاجتماعات، وحرمان الشعب من أبسط الحقوق الإنسانية..

كنت في بغداد أصدر جريدتي العقاب اليومية المسائية، وكان مكتبي يعج مساء كل يوم بالأصدقاء من عراقيين ومن لاجئين عرب من مختلف الأقطار، وكان من جملة الأصدقاء الخلص الذين كانوا يزورونني الفريق بكر صدقي الذي نال شهرة فائقة بقمعه ثورة الآشوريين في عام ١٩٣٣م وكنت قد تعرفت عليه في الموصل وعملت بقيادته عندما كنت رئيساً لكتائب الشباب المتطوعين لمؤازرة الجيش العراقي. وكان العقيد محمد علي جواد قائد السلاح الجوي العراقي من زملائي في الدراسة ببغداد..

كنت معارضاً قوياً لسياسة نوري السعيد داخلياً وعلى الصعيد العربي والدولي، وفي كل يوم أهاجمه بمقالات نارية صاعقة سببت له المتاعب من الشعب ومن السفارة البريطانية.. ولكنه لم يقدر على التحرش بي لأنني كنت أملك ناصية الشوارع في الرصافة، وأهل الكرخ من جبور وسامرائيين كانوا من عشيرتي وأبناء عمومتي، فإذا ما أثرتهم لا يعتم أن يثور أهل العراق بأسرهم (١١) وكانت علاقتي منذ سنة ١٩٣٠م متينة بالدكتور غوبلز وزعيمه هتلر.. وكنت أذهب إلى برلين وميونخ في صيف كل عام للترويح عن النفس مصطحباً معي بعض

الأصدقاء.. وفي سنة ١٩٣٥م ذهبت إلى برلين صحبة الفريق بكر صدقي وعرفته على بعض قادة الجيش الألماني الذين أُعجبوا به كقائد عربي ملم إلماماً واسعاً بالاستراتيجية " التعبئة وسوق الجيش " الألمانية.. وكانت هذه الرحلة فرصة لتبادل الرأي في سياسة حكام العراق الإستعمارية.. فأقنعت المرحوم بكر صدقي بلزوم تدخل الجيش لتغيير الأوضاع في العراق، وإنقاذه من أيدي الساسة المحترفين أذناب الاستعمار..

وما أن عدنا إلى بغداد حتى شرعنا بالتمهيد للعمل الجبار المنتظر.. ورحنا نتحين الفرص السانحة، فلقد كان جعفر العسكري وزيراً للدفاع وهو فضلاً عن كونه صنواً لنوري فهو زوج أخت ابن السعيد.. أما رئيس أركان الجيش العراقي يومئذ فكان المشير طه الهاشمي شقيق رئيس وزراء العراق ياسين الهاشمي، وكان طه الهاشمي عيناً ساهرة للإنكليز في الجيش مكّنهم منه تمكيناً لا يمكن لأي بريطاني يخلص لتاج الإمبراطورية أن يوازيه في ذلك..

التنفيذ:

وفي ١/آب/١٩٣٦م غادر المشير طه الهاشمي بغداد إلى استامبو للقضاء عطلته الصيفية، وفي مساء ذلك اليوم التقيت صدفة بالفريق بكر صدقي في النادي العسكري وأخبرته بسفر طه الهاشمي، وذكرته بالوفاء بوعده فابتسم وقال: "صار" يعني موافق.. واتفقنا على الاجتماع في مكتب جميل الوادي المدير العام لمصلحة البريد والبرق والتلفون، وكان شقيقه شاكر الوادي زعيماً في الجيش العراقي، وتم الاتفاق في اليوم التالي على أن أعد أنا المناشير اللازمة لتوزع على الشعب ضد الإنكليز وأذنابهم من الحكام.. ويقوم سرب من الطائرات العراقية بقيادة آمر سلاح الطيران العقيد محمد جواد بقصف إرهاب على سراي مجلس الوزراء، ثم يدخل الفريق بكر صدقي على رأس الفرقة الأولى بغداد ليحتلها مع دوائر الحكومة ووزارة الدفاع.. وحددنا موعد الانقلاب يوم ١١آب ١٩٣٦.

وما آن أطل صباح ذلك اليوم الأغر، وبعد اكتمال وصول الموظفين والوزراء إلى مكاتبهم في السراي حتى كانت المناشير الداعية إلى الثورة توزع، ونادينا أرباب المتاجر والحوانيت إلى إغلاق حوانيتهم ومتاجرهم مخافة أن ينهبها الرعاع..

وفي تمام الساعة التاسعة كان سرب من الطائرات العراقية يُحلّق فوق سراي الحكومة ببغداد، وقام العقيد جواد بقصف الإرهاب، فتساقطت قنابله المدوية في باحة مجلس الوزراء.. وبعد ذلك بساعتين دخل الفريق بكر صدقي بغداد، بعد أن تم قتل جعفر العسكري وزير الدفاع على طريق بعقوبة – بغداد لأنه حاول إرجاع الجيش الزاحف عن دخول بغداد.. فقتله الرئيس (جمال جميل) وهو الذي قتل الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن سنة١٩٤٨.

الشعب يهلل ويكبر:

لقد هَلّلَ الشعب وكَبَّرَ للقائد المحرر، واعتبرنا انتفاضة الجيش والشعب هذه، بداية الخلاص من الاستعمار الإنكليزي وفاتحة التحرر من احتكار الوزارات وحصرها بالخونة والخوارج على إرادة الشعب وأمانيه.. وإنقاذ الشعب من الفوضى والجهل والضائقة والحرمان..

بدأ الانقلاب بداية حسنة عاقلة، فجمع بكر صدقي أعضاء وزارة ياسين الهاشمي ومن بينهم نوري ورشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية ورستم حيدر وعلي ممتاز الدفتري وغيرهم من الوزراء، وسلمهم جوازات سفرهم وحملهم على سيارة "باص" كبيرة نقلتهم إلى سوريا فلبنان..

وكلف الفريق بكر صدقي السيد حكمت سليمان بتأليف وزارة وطنية للعمل ضد الإنكليز وأعوانهم، فتألفت الوزارة وعيّن الزعيم الوطني جعفر أبو التمن رئيس الحزب الوطني وزيراً للمالية.

المد الشيوعي الأول:

كانت جريدة الأهالي التي أصدرها السيد كامل الجادرجي قد تبنت الانقلاب الجديد، وكان يرأس تحريرها رئيس الحزب الشيوعي " البلوشي" الأصل عبد القادر إسماعيل الذي صار في غفلة من الزمن نائباً عن بغداد في البرلمان.. فأخذ هذا الشيوعي يشن حملات واسعة قوية ضد القومية العربية.. ولم يتصدى له من أرباب الصحف العراقية إلا جريدة العقاب المسائية التي كنت أصدرها ببغداد بوصفي خطيب الثورة والناطق باسمها بأمر من الفريق بكر صدقي..

وبعد ١٤ يوماً مرت على ثورة الجيش والشعب ضد الظلم والعدوان جاءني صديقي عقيد الجو محمد علي جواد قائد القوات الجوية العراقية، وأخبرني بأن الفريق بكر صدقي قرر اعتقالي وإعدامي لأنني حاربت الشيوعيين وهاجمت عبد القادر إسماعيل رئيس الحزب الشيوعي في العراق.. وأعطاني ١٠٠ دينار وسيارة ونصحني بمغادرة العراق في تلك اللحظة.. فغادرت بغداد، وفي صباح اليوم التالي كنت في دمشق، ثم قصدت بيروت حيث بقيت فيها.

وفي بيروت أخذت أنباء العراق تصلنا تباعاً وهي تشير إلى الانحراف الذي أودى بمبادئ الثورة العراقية الأولى.. فلقد أكد القادمون من بغداد إن الفريق بكر صدقي صار عدوّاً لدوداً للقومية العربية وبأنه بالرغم عن جرأته وإقدامه كان عاجزاً عن قيادة الشعب العراقي قيادة سليمة.. عاجزاً عن فهم الحركة الوطنية التقدمية.. ولذلك أطلق للحزب الشيوعي في بغداد العنان لمحاربة الأماني العربية النابعة من العراق والتي كانت محط أنظار العرب في كل مكان.

لما تعرفت على بكر صدقي في الموصل سنة ١٩٣٣م عندما كان يقود الجيش العراقي لسحق ثورة الآشوريين أظهر لي الفريق بكر بأنه متشبع بالروح العربية.. ولكنه ما أن صار الحاكم بأمره في بغداد حتى أصبح عدواً لدوداً للقومية العربية.. الأمر الذي مكن الإنكليز أن ينفذوا من هذه الثغرة إلى تفكيك الحركة الوطنية وأضعافها، وبالتالي إلى القضاء على الثورة والانقلاب.

ثورة بلا هدف:

كنت أعتقد أن بكر صدقي عندما قام بثورته العسكرية الأولى في العراق كان قد وضع لها برنامجاً خاصاً للعمل داخل العراق وخارجه.. وخاصة بعد أن أو حيث له بفكرة الانقلاب قبل عام عندما كنا في برلين يوم أن عرّفته على بعض قادة الرأي والجيش الألمان.. وزوّجته من فتاة ألمانية من فيينا.. ولكنه لم يكن قد أعد للثورة أي منهج خاص، فارتجل حكماً فردياً وحصر السلطات كلها بيده.. ولعل الظاهرة الوحيدة التي تشفع له عند الوطنيين من أهل العراق والعرب، انه كان ضد الاستعمار على مختلف ألوانه.. وضد النفوذ البريطاني وسيطرته في وادي الرافدين سيطرة مروعة.. فمنع تدخل دوائر "الانتليجنس سرفيس" التجسس البريطانية من التدخل في شؤون العراق، وكان يرأسها الكولونيل ديكوري مساعد الكولونيل هولت المستشار الشرقي للسفارة البريطانية في بغداد..

ومع أن بكر صدقي كان يؤمن باستقلال العراق، إلا انه لم يتجاوب قط مع القضية العربية لعدم إيمانه بها.. بالرغم عن معرفته بأن جُل الذين ساهموا في تركيز دعائم الحركة العربية في العراق كانوا من إخواننا الأكراد وعلى رأسهم المجاهد الوطني سعيد الحاج ثابت الذي منحته مدينة غزة بفلسطين "بنوّتها" تقديراً لجهاده في سبيل فلسطين والقضايا العربية الكبرى.

وإزاء إهمال بكر صدقي الشعور العربي السائد في العراق، استقالت العناصر الوطنية من الوزراء بعد أن تخلت قيادة الثورة عن وعودها في الإصلاح.. وحصرت جُل همها في السعي لتقليص النفوذ البريطاني في العراق.

والذي لا يقبل الجدل أن بكر صدقي كان يريد إنشاء عراق مستقل لا يرتبط بالعروبة ارتباطاً وثيقاً، وجعل العراق نظيفاً من تأثير النفوذ البريطاني.. الأمر الذي أغضب بريطانيا عليه.. والذي زاد في غضب الإنكليز عليه هو مفاوضته ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشستية لمدّ الجيش العراقي بالأسلحة الحديثة الثقيلة والخفيفة والطائرات والمدافع المضادة للطائرات، فرصد في ميزانية وزارة الدفاع ٨ ملايين دينار لإنشاء مصانع للأسلحة في بغداد تعهدت له ألمانيا بإنشائها بوساطة الدكتور فريتز غروبا سفير ألمانيا ببغداد بشروط سهلة، ودعاه هتلر رسمياً لحضور مناورات الجيش الألماني.

مقتل الفريق بكر صدقي:

وإزاء هذه الأحداث كانت بريطانيا قد ألّبت أعوانها على بكر صدقي، وشنتها حرباً عواناً عليه. وفيما كان بكر صدقي وصديقه عقيد الجو محمد علي جواد قائد القوات الجوية العراقية في طريقهما إلى ألمانيا تلبية لدعوة أدولف هتلر حطت بهما الطائرة في مطار الموصل للتزود بالوقود، وكان بكر صدقي يحمل معه مسودات الاتفاق مع ألمانيا لتوقيعها في برلين.

وفي مطار الموصل تم لبريطانيا ما أرادت، فقتل بكر صدقي ورفيقه العقيد جواد.. وكان من الممكن أن يقف الجيش العراقي إلى جانبه يدافع عنه ويحبط المؤامرات ضده، ولكن خطأ بكر صدقي الأكبر كان يكمن في أنه تنكر لكل من يقول بالعروبة في قلب الجيش.. وأبعد عنه عدداً كبيراً من القادة العرب، وحولهم ضده ففقد معونتهم وتأييدهم وهو في أحرج الظروف..

ومن المعروف أن بريطانيا كانت تريد المحافظة على احتكارها للنفط في أي مكان في الأراضي العراقية، وكانت تسعى جاهدة لضم امتياز استثمار نفط البصرة المكتشف إلى هذا الاحتكار.. فلم يكن من بكر صدقي إلا أن أعلن بحركة تمثيلية عنيفة عزمه على تحرير العراق من سياسة بريطانيا النفطية، وطالب بتعديل شروط الامتياز القديم في نفط الموصل وكركوك وخانقين، ووضع امتياز نفط البصرة في مزايدة عالمية بصرف النظر عن جنسية الشركة المتقدمة إليه.. وبالفعل تقدمت شركات ألمانية وإيطالية بعروض مغرية جداً، وكان من المنتظر أن تفوز هذه الشركات بالامتياز لولا مقتل بكر صدقي الذي أفسد هذا المشروع في اللحظات الأخيرة..

حصاد العاصفة:

كلنا يعلم أن بريطانيا كانت تحرص إلى جانب حرصها على النفط، على حماية احتكارها لطرق التجارة البرية والبحرية والجوية في ثغور العراق وأنهره، حتى ان ممثل شركة "بيت لنج" البريطانية أعلن في مجلس العموم البريطاني إبان أزمة سكة حديد (برلين – بغداد – البصرة) عام ١٩١١م بأن شركته هذه لن تخرج من العراق إلا على أسنة الحراب..

ومع ذلك أخذ بكر صدقي يفاوض شركة يونانية بواسطة العقيد لازار رئيس استخبارات الجيش العراقي في ذلك الوقت لمنحها امتياز النقل البحري والنهري وتحطيم سياسة الاحتكار التي زاولتها شركة بيت لنج.. ولكن مقتل بكر صدقي أحبط هذه الصفقة المغرية وأطاح بحكومته..

كان مقتل الفريق بكر صدقي قد تمَّ على يد جندي في مطار الموصل يوم٢/٨/١٩٣٧.

من مغامرات يونس بحري بين الجد والفكاهة:

يقول يونس بحري:

«كنت في بومباي سنة /١٩٣٢م/ ضيفاً على السيد صلاح الدين سلجوقي قنصل أفغانستان فيها، فعرفني على السيد إبراهيم الجيلاني الذي كان يعتبر في ذلك العهد عميد العائلة الجيلانية في الهند. وتوثقت أواصر الصداقة بيننا، وأكثرت من زيارته، حتى لقد خيل للناس بأنني شقيقه أو ابن عمه.

ولما رأي الناس شدة احترامه لي وقيامه بقامته الفارعة لاستقبالي ومعانقتي وهو (السيد المقدس الأكبر)، راحوا يغدقون عليَّ الهدايا، نقوداً ولآلئ وسجاداً، كل على قدر استطاعته، حتى أن أحد تجار البقر من المسلمين أهداني بقرة حلوباً، حين علم بأنني أكثر من شرب الحليب يومياً!.

وجاء التاجر إلى الفندق الذي نزلت فيه وهو يسحب البقرة، والناس متجمعون حولها، هذا يهدد صارخاً محتجاً طالباً إطلاق سراح البقرة، وذاك يرد مدافعاً قائلاً: إن البقرة هي هدية لنقيب الأشراف الجيلاني يونس بحري!.

وتدخل البوليس وفتحوا تحقيقاً معي، فأكدت لهم أنني لم أطلب بقرة ولا علم لي بسبب هذا النزاع، فقال ضابط البوليس: ألا تدري أن البقر عند الهندوس مقدس، بل وأكثر قداسة من جناب جدك الجيلاني المحترم؟ فأجبت بأن هذه المعلومات لم أكن أعرفها من قبل. وها أنذا أرفع يدي بالدعاء فلقد تشابه البقر علينا! وأمرت المريد السخي تاجر البقر بإطلاق سراح البقرة المسكينة، وتعالى هتاف الهنادكة (أتباع نهرو) بحياة جدي (الجيلاني) قدس الله سره.

وذاع نبأ تحرير البقرة في جميع أنحاء الهند وتحدثت الصحف عن عملي الصالح وانهالت عليّ برقيات التهاني، وفيها برقية من البانديت نهرو، وبرقية من المهاتما غاندي الذي كان معتقلاً في سجن بونا في الهند.

وبعد يومين زارني مولانا أبو الكلام آزاد المسلم، ومن أكبر أقطاب حزب المؤتمر الهندي، واقترح عليَّ أن أزور المهاتما غاندي في سجنه بمدينة بونا.

وتمت الزيارة بالفعل، وكان غاندي يتناول طعامه المؤلف من التمر والحليب. وقبل أن أجلس أمام معبود الجماهير في الهند، رفع غاندي يده مشيراً إليّ، وقال: هذا تمر عراقي من البصرة أُرسل إليّ هدية، وأنا أحب التمر وهو قوتي اليومي، هلم شاركني وبارك لي تمر بلادكم، ووضعت يدي على التمر مباركاً وتمتمت قارئاً سورة الفاتحة، وما كدت أنتهي

حتى ربت غاندي على كتفي والبشر يطفح من وجهه وقال: أنتم معاشر القديسين من رجال الدين تشيعون ببركتكم الطمأنينة إلى النفوس، وقال غاندي: لقد قرأت سيرة جدك السيد عبد القادر الجيلاني فأعجبتني طريقته القادرية! كما أعجبتني أنت بإطلاقك سراح البقرة فضربت بذلك خير مثل للناس.

وزرت مدينة لاهور في الهند، فأقيمت الاحتفالات ونصبت السرادقات لاستقبال السيد المقدس يونس بحري فأنا لم أكذب ولم أزعم بأنني سيد مقدس أو نقيب الأشراف، فطالما أن القوم يصرون على تشريفي بهذا اللقب فليكن لهم ما أرادوا. وما حيلة المضطر إلاّ ركوبها.

وبعد أن ألقيت الخطب الترحيبية طلب إليّ الخروج من السرادق، ولما خرجت وجدت المئات من المرضى رجالاً واقفين وأيديهم مرفوعة إلى السماء وهم يرددون: «بركات بير صاحب»، يعني أنهم يطلبون البركة من السيد المقدس الذي هو أنا! فباركتهم متوكلاً على الله، وشاء القدر أن يبرئ عدداً من هؤلاء المرضى.. لا بسبب بركتي طبعاً، ولكن هذا الذي حصل، فازداد الإقبال عليّ وصرت لا أجد وقتاً للراحة والتمتع بحريتي الشخصية التي سلبوها مني وأنفي راغم. وامتلأت جيوبي بالمال وحقائبي بالهدايا والتحف النفيسة.

وانتقلت إلى كراتشي لأخذ أول باخرة تقلع إلى البصرة، ولكن الشهرة قاتلها الله كانت قد سبقتني إلى هذا الميناء الجميل. فما كدت أصل بالقطار إلاّ وجدت المحطة غاصة بعباد الله المؤمنين من مريدي جدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره.

وبسبب التزاحم والتنافس على لمس أذيالي للبركة، حصلت معركة صاخبة أدت إلى سقوط عدد غير قليل من الجرحى أصيبوا رجماً بالحجارة أم تراشقاً بالأكف. وفي اليوم التالي جاءني مدير البوليس ورجاني بأدب أن أغادر البلاد، فقلت له مازحاً: لا أستطيع ذلك؟.

فقال: لماذا؟

فأجبت: لضيق ذات اليد.

فقال: إنك ستسافر على نفقة الحكومة وبالدرجة الأولى! فشكرته، وشكرت حكومة الهند، وشكرت جدي عبد القادر الجيلاني على هذه البركات التي حصلت عليها بسبب انتسابي الخاطئ له.

وفي بغداد نحرت «بقرة» نذراً لبركة «جدي» ولا ريب أن غاندي لم يبلغه هذا النبأ وإلاّ كان يسحب حسن ظنه بالقديس يونس بحري.

يونس بحري في آراء معاصريه

محمد مهدي الجواهري:

قال في مذكراته خلال الحرب العالمية الثانية:

عند الغروب، وقبل ليلة من توجهي إلى بغداد، عرجت على نادي الموظفين في النجف وجلست استمع إلى المذياع، الذي كان يلتقط القسم العربي من محطة (برلين) وكان صوت المذيع يهدر، ولم يكن ذاك سوى المذيع الرهيب (يونس بحري) الذي استطاع أن يبسط سلطانه على القسم العربي في الإذاعة الألمانية.

الواقع، إني التقيت يونس بحري في مقري بالجريدة قبل ذلك بأمد بعيد، وفاجأني بجرأة نادرة حين استل من جيبه جواز سفر إلى ألمانيا النازية، كان قد هيأه له أنسباؤه في جانب الكرخ. وأذاع كل أسرار استحصال هذا الجواز، وهي أسرار خطيرة أودعني إياها هذا الرجل العجيب.

واستمتعت، في نادي الموظفين، وأنا بين صفوة من أترابي وزملائي، إلى صوته يخترق أسماعنا:

(يا أهل العراق، يا جيش العراق، لا تستسلموا ولا تهنوا، تذكروا ما خاطبكم به شاعركم الجواهري في ثورة العشرين) وراح ينشد:

لعلَّ الذي ولى من الدهر راجعُ	**فلا عيش إن لم تبق إلا المطامع**
جرى ثائراً ماءُ الفرات فما ونى	**عن العزم يوماً موجُهُ المتدافعُ**
حرامٌ عليكم وردُهُ ما تزاحمتْ	**على سفحه تلك الوحوشُ الكوارعُ**

كنت موزعاً بين إعجابي بأن تدّوي كلماتي في تلك الساعة، وبين مستسلم لواقع الأمر غير مكترث بعواقبه، واعني أن أكون في ذاك الظرف العصيب الجديد، وانتصار القوات البريطانية، مثيراً للجماهير ولكن على لسان مذياع نازي[1].

جعفر الخليلي:

قال خلال ترجمته للأستاذ محمد علي الطاهر:

وحين علم بخروج (يونس بحري) من الوظيفة التي كانت قد أسندت إليه في (أبي ظبي) وما بدأ يعاني من مرض ألزمه الفراش وهو في ديار الغربة (بأبي ظبي) وليس لديه ما يستعين به على القوت والعلاج، أبرق لرئيس اتحاد الإمارات العربية الشيخ زايد برقية ضافية يستلفت

---

(١) مذكرات الجواهري ١/٣٦٩ ـ ٣٧٠.

فيها أنظاره إلى (يونس بحري) ليهتم بأمره، ويعتبره من الضيوف الذين لا يجوز التغاضي عنهم في شريعة العرب والعروبة، وكان من نتيجة تلك البرقية الضافية التي تموج بالعاطفة وهياج الحمية أن عني الأمير بيونس بحري عناية جد كبيرة فتفقده وأدخله المستشفى، وبر به، وأغدق عليه أكثر مما كان ينتظر (الطاهر) بعد أن كانت حكومة إمارة الاتحاد قد أخرجته من الوظيفة التي كانت قد انتدبته لها بسبب إدمانه الخمر وانفلات زمام الوظيفة من بين يديه لسكره المتواصل[1].

فاضل الجمالي:

(أما يونس بحري فقد كان يكتب في عموده بصحيفة (العقاب) ضدي، لكنني زرته في مطعم كان له في باريس وأعطيته ألف فرنك غير انه أشاع أنني دفعت له مائة ألف فرنك المهم إننا في النهاية التقينا سوية في السجن بأبي غريب وكان يضحك ساخراً من الدنيا وما كنا فيه وهو يردد (وما قتلوه وما صلبوه ولكنه شبه لهم) بعد أن قيل أن الجنود أعدموني في حين أنهم أعدموا شخصياً آخر اعتقدوا انه فاضل الجمالي بعد اليوم الأول للثورة)[2]

مير بصري:

يونس بحري الجبوري المعروف في شبابه بـ (السائح العراقي) كاتب وصحافي ومذيع كثير المغامرات والأسفار، ولد في الموصل سنة ١٩٠٤ لأسرة كادحة رقيقة الحال. وانتمى إلى دار المعلمين الابتدائية في بغداد سنة ١٩٢١، لكنه لم يكمل دراسته والتحق بوظيفة كتابية في وزارة المالية.

وترك وظيفته سنة ١٩٢٣ ومضى إلى خارج العراق في سياحة معتمداً على نفسه وسائراً في معظم الأحيان على قدميه، فجاب أنحاء أوروبة وآسية واشتغل في مختلف المهن. وعاد إلى بغداد بعد سنتين، لكنه لم يلبث أن عاود السفر في السنة التالية في البلدان المختلفة فَسُجِنَ في باريس وزار تونس وليبيا وحضرموت وجاوة والهند والأفغان وإيران ورجع سنة ١٩٣٣، ناسجاً حول أسفاره قصصاً تمزج الحقيقة بالخيال. وأصدر في أثناء سياحته، على ما رواه، صحفاً منها (الكويت والعراق) و (الحق والإسلام).

أصدر في بغداد جريدة العقاب في تشرين الثاني ١٩٣٣، و(الميثاق) (١٩٣٤)، ففرض الأتاوة على التجار والموظفين. ثم سافر إلى المغرب العربي سنة ١٩٣٧ ومضى إلى باريس فكلفه

---

(١) هكذا عرفتهم ترجمة محمد علي الطاهر ص١٥٨.

(٢) جريدة الشرق الأوسط، لندن ١٩٩٧/٦/٢٥ (مقابله مع الجمالي).

السيد قدور بن غبريط بتعهد شؤون الجامع الذي أنشأه فيها سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف والمقهى والحمام الملحقين به.

ولما بدت سحب الحرب العالمية ذهب إلى برلين في نيسان ١٩٣٩ وأصبح مذيع محطتها العربية الداعية لهتلر والنازية، واشتهر بحماسته المثيرة وندائه اللاهب (هنا برلين، حي العرب) لكنه أخذ بالدس لمفتي فلسطين الحاج محمد أمين الحسيني تارة ولرشيد عالي الكيلاني الزعيم العراقي أخرى، فأبعد إلى بريسلاو مراراً. واندحرت ألمانية النازية فاستطاع أن يجد طريقة إلى عمان بعد أهوال شديدة. التجأ إلى الأمير عبد الله عاهل الأردن الذي طالما ندد به وشتمه من إذاعة برلين، لكن الأمير عفا عنه وأكرم وفادته بما عرف عنه من سماحة وطيبة نفس.

وأقام بعد ذلك في بيروت وأصدر كتباً مختلفة. ثم جاء إلى بغداد في تموز ١٩٥٨، فاعتقل عند قيام الثورة. وأطلق سراحه فعمل طباخاً في بعض المطاعم، ومنها الذي أنشأه عادل عوني عبد الله صاحب جريدة (الحوادث) المغلقة. وعاد إلى لبنان في آخر سنة ١٩٥٩ وتنقل بينه وبين إمارات الخليج العربي. وأدركه الحمام في بغداد في شهر نيسان ١٩٧٩.

تزوج يونس بحري زيجات عديدة في مختلف البلدان التي أقام فيها، لكنه كان يترك زوجاته وأولاده ويمضي ميمماً شطر بلد آخر لمغامرة جديدة وزواج جديد.

من مؤلفاته: العراق اليوم (بيروت ١٩٣٦) تاريخ السودان (القاهرة ١٩٣٧) هنا بغداد (١٩٣٨) الجامعة الإسلامية (باريس ١٩٤٨) تونس (بيروت ١٩٥٥) الجزائر (بيروت ١٩٥٦) الحرب مع إسرائيل وحليفاتها (بيروت ١٩٥٦) دماء في المغرب العربي (بيروت ١٩٥٥) ليبيا (بيروت ١٩٥٦) المغرب (بيروت ١٩٥٦) هنا برلين، حي العرب (٨ أجزاء بيروت ١٩٥٦) سبعة أشهر في سجون بغداد (بيروت ١٩٦٠) محاكمة المهداوي (بيروت ١٩٦١) موريتانيا الإسلامية (بيروت ١٩٦١) ثورة ١٤ رمضان المبارك (بيروت ١٩٦٣) ليالي باريس (باريس ١٩٦٥) أسرار ٢ مايس ١٩٤١ (بغداد ١٩٦٨) الخ.

عرفت يونس بحري شخصياً لأول مرة سنة ١٩٣٥ حين شرعنا بإصدار الدليل العراقي، فأخذ يكتب عنه في جريدته (العقاب) وصار يهدد بانتقاد المشروع والتنديد به فاستدعيناه ونفحناه بالمال وأعطيناه إعلانات عن الدليل فانقلب يؤيده ويستحسنه.

ثم رأيته في المفوضية العراقية في باريس سنة ١٩٣٧، وقد جاء يفاخر بأعماله في المشرق والمغرب ويطلب التوسط له في الحصول على وسام جوقة الشرف الفرنسي. وقال إنه ذهب إلى جاوة في الشرق الأقصى، (وكانت آنذاك مستعمرة هولندية ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية جمهورية أندونيسية المستقلة) وشد أزر بعض الأحزاب المحلية بالمطالبة بالاستقلال وأصدر جرائد عربية تنطق بلسان الشباب الأحرار. وقال إنه ذهب إلى الرباط وأسدى الخدمات

لسلطان مراكش محمد بن يوسف (الملك محمد الخامس عاهل المغرب فيما بعد) فمنحه وساماً... ورأيناه بعد ذلك في جامع باريس وشاهدناه يضرب على الطبلة وينقر على الدف في المقهى ليلاً ويقف في باب الحمام الملحق بالجامع نهاراً...

وسمعناه خلال الحرب يرغي ويزبد ويصرخ ويتوعد من إذاعة برلين العربية. ثم رأيناه في بغداد سنة ١٩٥٩ لابساً المئزر في مطبخ مطعم (بوران) الذي أنشأه صديقنا الصحفي عادل عوني عبد الله. وكان يونس بحري الذي عرفناه فيما مضى بديناً موفور الصحة قد رق بدنه واستدق وأصبح صورة كاريكاتورية لشخصه السابق. وكان ذلك آخر العهد به حتى قرأنا وفاته في بغداد أخيراً[١].

شهادة عبد الرحمن بدوي عن يونس بحري:

في مقهى ديبون في باريس، وفي أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٦م، تعرفت إلى شخصية فريدة ستصبح في السنوات التالية حتى سنة ١٩٥٤م معلماً بارزاً في إبان إقامتي في باريس كل عام، وأعني بها يونس بحري الصحفي والمذيع من برلين إبان الحرب العالمية الثانية، وصاحب المغامرات العريضة الطويلة في أرجاء العالم الإسلامي وأوروبا.

ولما عرفته آنذاك في سبتمبر ١٩٤٦، كان قد هرب من ألمانيا قبل انهيارها في أيار/مايو سنة ١٩٤٥م بصحبة المفتي الحاج أمين الحسيني وبعض من كانوا يعملون مع هذا الأخير في برلين، واعتقل في باريس لبعض الوقت هو وهذه الجماعة، ثم أفرج عنهم.

كان يونس بحري شخصية متعددة المواهب: فكان يحسن الكلام والقراءة - دون الكتابة الصحيحة - باللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والتركية، وكان ذا أسلوب جديد في اللغة العربية تكثر فيه التعبيرات القرآنية الكريمة، والمحسّنات البديعية، والملح الهزلية. سافر كثيراً حتى وصل إلى أندونيسيا، كما جاب معظم بلاد أوروبا. وكان يحرر في بغداد صحيفة تسمى (العقاب) فيها من الهزل بقدر ما فيها من الجد. وعرف كثيراً من السياسيين العرب: ملوكاً، ورؤساء وزراء، ووزراء، وزعماء.

ويبدو أنه كان على علاقة وثيقة مع الملك غازي بن فيصل، ملك العراق. وكان يزعم أنه كان مع الملك غازي في سيارته لما أن قُتل في حادث تصادم، وكان يقول إن الذي دبَّر هذا الحادث هو قنصل بريطانيا في الموصل، مما دفع بيونس بحري إلى قتله في سنة /١٩٣٩م/ انتقاماً لمصرع الملك غازي، وقد هرب بعد ذلك إلى تركيا، ومن ثم إلى ألمانيا، حيث انضم إلى رشيد عالي الكيلاني الذي كان قد لجأ إلى ألمانيا بعد انهيار حركته في أيار/مايو سنة ١٩٤١م.

---

(١) أعلام السياسة والأدب في العراق /٣٨٨ - ٣٨٩.

وأنا أذكر هذه الأخبار كلها نقلاً عن يونس بحري، وفي صيغة الشك، لأنه كان يتباهى بالكثير من الأفعال التي لم يصح منها شيء.

كذلك كان كثيراً ما يتحدث عن الصراع بيت الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، وبين رشيد عالي الكيلاني في برلين، ويذكر أنه انضم إلى رشيد عالي الكيلاني في هذا الصراع مما أغضب عليه الحاج أمين، فأدى ذلك بدوره إلى تنحيته عن الإذاعة العربية لبرلين في سنة /١٩٤٣م/، وكان هو المذيع الأول في هذه الإذاعة، وكانت لتعليقاته في هذه الإذاعة وتمجيداته لانتصارات الألمان في السنوات الثلاث الأولى من الحرب العالمية الثانية تأثير كبير في نفوس المستمعين في كل أنحاء العالم العربي، وكان الإقبال على سماعه شديداً جداً في تلك السنوات، حتى صارت هذه الإذاعة العربية من برلين أقوى إذاعة للدعاية في العالم العربي لصالح ألمانيا. فصوته بوصفه مذيعاً جهور عذب، وتعليقاته كلها نكات لاذعة مستمدة من الجناس اللفظي والآيات القرآنية الكريمة: فدف Duff كوبر، وزير الإعلام البريطاني، يصبح عنده: دفّ (طبلة) إنكلترا كوبر، ويتعمد الخطأ في ذكر أسماء الوزراء الإنكليز، فيقول عقب ذلك: عفواً، لكن البقر تشابه علينا.

ولما استقر به المقام في باريس سنة /١٩٤٦م/ فكّر في إصدار صحيفة في باريس بعنوان: (العرب)، وتحقق له ذلك ابتداء من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧م، فأصدر هذه الصحيفة في /١٦/ صفحة، وكان هو وحده تقريباً الذي يحررّها من أولها إلى آخرها، وكان يستخدمها خصوصاً للهجوم اللاذع على الشخصيات السياسية العربية: الملك عبد الله، ملك الأردن، عبد الرحمن عزام، أمين عام الجامعة العربية، الأمراء السعوديين، نوري السعيد، رياض الصلح، قادة الانقلابات في سورية، إلخ.. ربما في المقام الأول حمل هؤلاء على التبرع للصحيفة حتى تستمر في الظهور، وحتى يتعيش منها، وأسلوبه في هذه الصحيفة شبيه بأسلوبه في الإذاعة من برلين: الهجوم باستعمال التورية والجناس، فيكتب اسم عبد الرحمن عزام هكذا هزام (بسبب هزائم الجامعة العربية المتوالية)، ويقول عن أديب: سُئل الشيشكلي لماذا هو عاجز عن عمل شيء في قضية من القضايا فيجيب الشيشكلي: لأني شيء شكلي! وخصص عموداً بعنوان: (اسكت يا أزعر) يتحدث فيه عن التصريحات الطنانة للسياسيين العرب، وبخاصة عبد الرحمن عزام، فكانت الصحيفة من خفة الروح ولذع الهجوم وكثرة الفكاهات بحيث لا يمل المرء قراءتها من أولها إلى آخرها[1].

ولئلا تضيع ملامح وسمات هذه الشخصيات العجيبة من بين أيدينا، فإننا سنحدد وبأمانة تاريخية بداية الظهور الأول ليونس بحري على مسرح الأحداث..

---

(١) سيرة حياتي. د. عبد الرحمن بدوي، ج١، ص١٩٥ . ١٩٨، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.

حين تعرض ملك العراق إلى حادث سيارة أودى بحياته، صباح الرابع من شهر نيسان/أبريل العام /١٩٣٩م/. وكان الملك في طريقه من قصره المسمى بقصر الزهور، إلى قصر الضيافة الخارجية، الذي يبعد مسافة كيلو متر واحد عن قصر الزهور، من أجل إحضار قطعة غيار معينة لإذاعته اللاسلكية الخاصة به، وأنه كان يقود سيارته البويك الجديدة بنفسه، وبسبب السرعة الكبيرة للسيارة - حسب الرواية الرسمية - جنحت عن الطريق واصطدمت بعامود كهربائي[1].

ولم يصدق العراقيون هذه الرواية الضعيفة، واتهموا سلطات الانتداب البريطانية، بأنها تقف وراء هذا الحادث الإجرامي، وقيل آنذاك بأن سائق الملك الذي كان يجلس على المقعد الخلفي، وراء الملك مباشرة، هو الذي ضرب سيده بقضيب حديدي أودى بحياته.

وكان من بين الأشخاص الذين لم يصدقوا هذه الرواية الرسمية، صاحبنا يونس بحري، الذي قاد مظاهرة شعبية صاخبة، اقتحمت القنصلية البريطانية في الموصل، وقتلت القنصل البريطاني مونك ميسن، بيد أحد العمال الذي ضربه بفأس حادة على رأسه فقتل في الحال.

وأظهرت التحقيقات الأمنية، أن يونس بحري كان من المحرضين الأساسيين. ركب يونس بحري طائرة مدنية من مطار بغداد، ومعه كتاب توصية من السفير الألماني في بغداد (الهر فريتس غروبا)، ليظهر في برلين عاصمة الرايخ، قادماً من استنبول. وبعد مدة وجيزة رشحته وزارة الإعلام الألمانية ليكون رئيساً للقسم العربي في إذاعة برلين. وكانت ألمانيا النازية تطمح إلى تحسين صورتها أمام العرب، لاسيما وأن النازية متهمة بعدائها للأديان، وأن هتلر قد وضع العرب في الدرجة الـ /١٤/ في قائمة تصنيف شعوب الأرض.

ويقول يونس بحري في هذا الصدد:

«.. لقد كانت مهمتي عسيرة وشاقة للغاية وأنا أشرع بالعمل في إذاعة برلين. فلم تك ألمانيا قد أحرزت تلك الانتصارات الصاعقة في مختلف الميادين بالصورة التي دوخت العالم وأذهلت الدول ما كبر منها وما صغر.. كنت واثقاً أن الحرب ستقع. وقد اخترت قلب المحور برلين للتعاون مع ألمانيا في سبيل خدمة قضايا العرب.. فرحت أستنبط الوسائل المختلفة لجعل الإذاعة من برلين منبر إرشاد وتوجيه، وعاملاً فعالاً في شحذ همم العرب..

ورحت بعد أربعة أشهر من تأسيس إذاعة برلين العربية، أبحث عن تعبير أحيي به العرب، وانتهض به هممهم.. وفي ليلة مطيرة من سنة /١٩٣٩م/، كنت في منزل علي الصافي نتناول طعام العشاء، فقال لي: يا أخ بحري يجب أن تحيي العرب بعبارة متواضعة هي (حيّ العرب) على غرار (هايل هتلر)، فكلمة (هايل) معناها (حيّ).. وهكذا استعضنا عن كلمة

---

(١) للتوسع انظر كتاب فرسان العروبة مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ.

هتلر بالعرب.. فصار كل المتعاونين معنا من النازيين يحيونني بعبارة (هايل آراب) ظناً منهم بأن حيّ العرب معناها حيّ هتلر بالطريقة العربية.

وقد حرصت على ألاّ أذيع الأغاني المائعة التي تعود الجمهور العربي على سماعها من محطتي لندن وباريس.. فمنعت إذاعة أسطوانات محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأم كلثوم. وقد وردتني رسائل احتجاج من المستمعين العرب، فكنت أقول لهم: إذا كنتم تريدون سماح النواح والعويل ويا حبيبي ويا عيوني.. فاسمعوا (راديو) لندن وباريس، أما إذا كنتم تريدون سماع أناشيد الرجولة وإيقاظ الهمم وشحذ العزيمة فاستمعوا إلى الإذاعة العربية من برلين.

وأدى يونس بحري دوراً متميزاً في تحسين سمعة هتلر والنازيين لدى العرب والمسلمين، فقد كانت الدعاية اليهودية وغيرها من الدعايات المعادية لألمانيا الهتلرية تحاول جاهدة حمل العرب والمسلمين والنصارى على الاعتقاد بأن هتلر يكره الأديان السماوية، ولهذا اقترح على غوبلز وزير الدعاية الألماني أن يفتتح الإرسال اليومي بتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم، فوافق، وكانت النتيجة أن إذاعتنا غيرت رأي العالم العربي، والعالم الإسلامي في هتلر، وجعلته يعتقد أن هتلر - بمجرد قبوله إذاعة القرآن الكريم من إذاعته ببرلين - يحترم الدين الإسلامي، وبالتالي يحترم الدين المسيحي واليهودي.

وبعد هزيمة ألمانيا النازية، وانتحار هتلر، التقى نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي، يونس بحري للمرة الأولى بعد الحرب العالمية الثانية في باريس سنة /١٩٤٧م/ فراح السياسي المحنك يلوم يونس بحري، ويعاتبه بشدة، لاستمراره في نقد سياسته وتوجهاته الغربية إبان الحرب وقبلها، من إذاعة برلين، ثم قال له وهو يتهكم ضاحكاً وبيده سبحة أنيقة: أرأيت كيف كانت نهاية أصحابك الألمان؟ وكيف اخترت يا يونس الصفقة الخاسرة[1].

وصمت يونس بحري ولم يعلق على سمع من تقريع، لأنه كان يدين بالولاء أكثر من جهاز استخباراتي غربي، وهذا يفسر لنا عدم اعتقاله، أو تقديمه إلى المحاكمة مع مجرمي الحرب، وأنقذ رأسه اليانع من الحصاد الدموي.

شهادة سعيد علي:

إيماءة إلى يونس بحري في جانب من جوانب حياته مما علق بذهني من سيرته وسريرته فكان ذكرى، وإنما الذكرى مروءة تشمل بالرحمة ذلك الرجل البائس الشهير الذي كابد في حياته من قسوة الحياة عليه، مما جعله قطعة من الحسّ والألم فما خلصه من الألم إلا يوم قضى.

---

(١) مجلة العربي، العدد /٤٥٨/ يناير ١٩٩٧م، من مقال للكاتب خليل علي حيدر، بعنوان: صفحة مطوية من تاريخنا الإعلامي.

ولقد كنت يوم كنت بالنجف الأشرف أسمع به على أنه عراقي عجيب وغريب إلى أن قصدت كالمألوف، وكان ذلك قبل ثمان وعشرين سنة، مكتبة الشيخ محمد كاظم الكتبي في «قيصرية علي آغا» في سوق الحويش من النجف، وكان في المكتبة الكتبي والعلاّمة محمد صادق بحر العلوم، والشاعر الشيخ عبد الغني الخضري، والمحامي محمد رضا السيد سلمان، وما هي إلا دقائق حتى جاء الأستاذ علي الخاقاني صاحب كتاب (شعراء الغري) ومجلة (البيان) مصحوباً برجل طويل نحيل وأشيب أصهب، فسلم الخاقاني وهو يسألنا أتعرف هذا الأشيب النحيل؟ فنظرنا في وجهه فرأيت عينيه النافذتين الحائرتين، وما عرفنا كيف نقول. فقال الخاقاني كأنه يجيب عن سؤاله: إنه رئيس حزب التراخي يونس بحري! فعجبنا كيف اهتدى الخاقاني إلى يونس بحري وكيف أدرك بحري الخاقاني وكيف جاء يونس بحري النجف الأشرف ليكون في مجلسنا يقعد متربعاً كما نفعل، ويشرب الشاي كما نشرب، ويسوق من الطرائف والنوادر ما أضحك الجلوس، وإني لأذكر أن صاحب المكتبة الشيخ محمد كاظم الكتبي قد سأله عن حزب التراخي الذي يرأسه فقال يونس بحري: إنه لا مناص لي من البداية فأقول إنه قبل عقدين من السنين أنشأت بألمانيا جريدة عربية لقبتها بـ «جريدة التراخي» وفسرتها بأنها صوت حزب التراخي بالعراق وجعلت أرسل بها إلى مشاهير العراق كنوري السعيد، وتوفيق السويدي، وبهجة العطية، وأحمد مختار بابان، وفاضل الجمالي، والسيد محمد أبي طبيخ، والسيد محمد الصدر، وسعد صالح، وصالح جبر، وأرشد العمري، وغيرهم من الحاكمين في ذلك الزمان، وأدعوهم في صحائفها إلى الانضمام إلى حزب التراخي، فما دارت صيحتي دورتها حتى كانوا في حيص بيص، لا يعرفون إلا أن كلمة حزب التراخي هي وثوب عليهم وبطش بهم، وسعي إلى انقلاب واجتهاد في دينونة وحساب فيأمر نوري السعيد مدير الأمن العام بهجة العطية بالتحري والتفتيش، فيتراكم في مكتب العطية من أوراق العيون والآذان والجواسيس والمخبرين، ما كان تلاً من الحدس والتخمين، وما فسر هذا التل من الأوراق ولا وضّح شيئاً من أسرار الحزب وأهدافه، وبعد سنين قصدت بغداد - والكلام ما يزال ليونس بحري - لأزور الربوع فإذا بالشرطة يعتقلوني في المطار ويقودونني إلى بهجة العطية مكبلاً بالقيود الحديدية، وإذا بمدير الأمن العام بهجة العطية يسألني البوح والإفشاد، والاعتراف، لأن نوري السعيد الملقب بأبي صباح يريد أن يكتشف حقيقة حزب التراخي، فقلت له: لئن جمعتني نوري به فسوف أبوح له بكل أسرار الحزب، ولأن بهجة العطية كان يريد أن يحظى من نوري السعيد وأجلسني الأخير عن يساره، وهو يسألني بلهجة من أخذ بتلابيب الكابوس، وقد كنت كابوسه أن أفصل الكلام على حزب التراخي: ما مرماه، ومن هم أعضاؤه؟ فقلت له مستريحاً مطمئناً، لا تفصيل ولا برطيل حزب التراخي أعضاؤه من أمثالكم فمن تراخي عضوه دخل في حزب التراخي..

وما إن سمعنا هذا حتى أغرقنا في الضحك، وسأله الخاقاني عن مآل نوري السعيد بعد أن سمع عبارته النابية؟ فقال يونس بحري: إن نوري السعيد كاد يموت من الضحك.

شهادة عبد السلام العجيلي:

.. لم يكن يونس بحري آنذاك مجرد مذيع يقرأ النشرة التي تقدم إليه قراءة باهتة، بل كان خطيباً مصقعاً وداعية مثيراً ومعلقاً ساخراً. نحن الذين سمعنا صيحاته منطلقة من العلب المكعبة لراديوهات تلك الأيام، لازلنا نذكر، مبتسمين من سذاجة جماهيرنا آنذاك، نداءاته إلى العرب للثورة على مستعمريهم في كل مكان حين كان يصيح: أيها العرب اركبوا خيولكم وجرِّدوا سيوفكم! ولا صوته الشامت حين يصف انكلترا التي كانت الغواصات الألمانية تصطاد سفنها في جوانب المحيطات، بأنها بريطانيا سيدة قعر البحار. ولا زلنا نذكر استدراكه حين أخطأ، عن عفوية أو متعمداً، فلفظ اسم تشمبرلين مكان تشرشل، إذْ أسرع فقال: معذرة إن البقرة تشابه علينا! وكانت إحدى نكاته البليغة الشديدة الإيلام حين أعلن بأن وزارة الحرب الألمانية زادت ميزانية دفاعها ثمانية ماركات.. لماذا؟ لأن الإمارة العربية الفلانية انضمت أخيراً إلى الحلفاء، وأعلنت الحرب على الريخ الألماني.

لقد ارتبط اسمه قبل أن يلعلع صوته في برلين، بأحداث كثيرة، وحكايات غريبة، مثيرة تارة ومضحكة تارات. من تلك مثلاً حكايته في جامع باريس الذي بني في العشرينيات من هذا القرن، وكان يحوي، إلى جانب المسجد والسوق والحمامات العربية، مطعماً مغربياً وملهى ليلياً. كان يونس يؤذن للصلوات الخمس في مئذنة المسجد بصوته العريض، ويتولى الإمامة بالمصلين عند الحاجة، وفي الليل كان يرأس تخت الموسيقى في الملهى، فيعزف على العود، ويغني الأدوار التي كان يجيدها تمام الإجادة، ولا يتأخر عن المشاركة في الرقص الشرقي مقلداً أشهر العوالم في شارع عماد الدين في القاهرة، ويروون أن فيصل بن الحسين، ملك العراق، حين زار باريس في إحدى السنين، وصلّى الجمعة في مسجدها لاحظ أن خطيب الجمعة كان يلقي خطبته البليغة المؤثرة بلهجة عراقية بينة، وحين أثبت تحت عمامة الإمام الضخمة وجه يونس بحري لم يملك نفسه عن الضحك وهو يقول: هكذا جامع يحتاج إلى هكذا خطيب[1]!

ويتابع الدكتور الأديب عبد السلام العجيلي حديث الذكريات الطريفة عن يونس بحري قائلاً:

.. وإذا كان الجمع بين الغناء في الملهى والخطبة في المسجد الجامع هي وسيلة يونس بحري للعيش في مطلع عمره، فقد كانت له وسائله الأخرى للعيش في البلاد الأخرى، وسائل

(١) حفنة من الذكريات. د. عبد السلام العجيلي، ص١٨٤ - ١٨٦.

تتغير بتغير الزمان والمكان، مثال لها حكاية ما جرى له في إحدى جزر الملايو التي حطت به الرحال فيها خلال إحدى أسفاره الكثيرة، كان تلك الجزيرة آنذاك تحت الحكم الهولندي، قبل أن تستقل جزر الملايو ويصبح اسمها اندونيسيا، وهي جزيرة مشهورة بنهرها الكبير الذي يتجنب الناس السباحة فيه لكثرة تماسيحه وخطرها على كل من يغمس قدمه في مائه.

ووجد يونس نفسه ذات يوم في تلك الجزيرة خالي الوفاض، فتفتق ذهنه عن طريقة طريفة يملأ بها جيبه الخالي، أعلن في الجرائد الملحية أن السائح العراقي المشهور يونس بحري سيقطع ذلك النهر الخطر سباحة، متحدياً التماسيح الشرسة المفترسة، وأن على من يرغب في مشاهدة هذا التحدي أن يحضر إلى ضفة النهر في مكان معين، وفي اليوم الفلاني والساعة الفلانية، بشرط أن يدفع سلفاً ثمن تذكرة المشاهدة.

وسرى هذا النبأ سريان الهشيم في أنحاء الجزيرة، فتقاطر الناس متزاحمين على شراء التذاكر حتى تحصل منها مبلغ كبير. وقبل الموعد المضروب بيومين دسّ يونس بحري إلى الحاكم الهولندي في الجزيرة من يقول له بأن هناك أجنبياً مجنوناً يعتزم أن يقطع النهر المخيف سباحة على يديه، ملقياً نفسه بين فكوك التماسيح الفتاكة مما لا نجاة له فيه من الهلاك، وأن هذا الأجنبي من بلد تحكمه بريطانيا العظمى فلا يبعد أن يتسبب هلاكه بأزمة سياسية بين بريطانيا وهولندا!! عند هذا..... وزيادة في الاطمئنان أمر بأن يقف على باب الفندق الذي يقيم فيه ذلك الأجنبي المجنون حارسان مسلحان يحظران عليه الخروج إلى أن ينتهي الموعد المعلن عنه، وهكذا خرج يونس بحري من هذه العملية ببضع مئات من الجنيهات قبر بها إفلاسه، وبهالة نضالية أحاط بها نفسه حين ألقى على مراسلي الصحف الذي توافدوا عليه بياناً مطنطناً هاجم فيه السلطات الهولندية المستعمرة التي منعت السائح العراقي من تحقيق عزيمته في تحدي التماسيح الفاتكة، حرصاً من الاستعمار على إخماد أي مظهر من مظاهر البطولة الشرقية الإسلامية العربية[1].

شهادة راشد الكيلاني (سفير سوري سابق):

.. قال لي العقيد محمد صفا الملحق العسكري في سفارتنا في باريس، وكنت آنذاك ببعثة دراسية هناك لإجراء دورة أركان حرب جوية، وكان ذلك في عام ١٩٥١م، قال لي صفا: أود أن أعرفك على يونس بحري، فهو يعيش الآن في باريس عيشة باذخة، ولديه شقة جميلة في حي راق، ووصفه بأن رجل ذكي وحاذق، ولم أكن أعجب بهؤلاء الناس، الذين يعيشون على فتات موائد الدول الاستعمارية، أجبت صفا بأنني لا أوافقه على رأيه بيونس

---

(١) في كل واد عصا. عبد السلام العجيلي، ص١١٨ - ١١٩، دار الحوار - اللاذقية، ط١، ١٩٨٤.

بحري، ولكن لا بأس من التعرف على هذا المغامر، فقد كان يونس بحري طوال مدة الحرب العالمية الثانية يُسمع صوته من إذاعة برلين، معظم الأقطار العربية مشيداً بألمانيا، شاتماً الحلفاء.. وظهر بعد انتهاء الحرب أنه كان عميلاً للحلفاء يتجسس على الألمان، فنقله الحلفاء فوراً من برلين إلى انكلترا ثم اختار العيش في باريس، وجمعتني به المصادفة مرة أخرى في أبو ظبي عندما كنت سفيراً عام /١٩٧٢م/ وكان هو يعمل في إذاعته الناشئة، وكان متزوجاً من فتاة سورية من عائلة صوفان، عانت الكثير م العنت معه، فقد كان رغم كبر سنه مدمناً على الخمرة، ومريضاً مرض الشيخوخة وسيء الخلق، وتوفى هناك في نفس العام /١٩٧٢م/ نتيجة الإدمان[1].

المقامة الباريسية، رسالة إلى الأستاذ يونس بحري وشلته في باريس:

من عبد الله وابن أمته والذي خصَّه بنعمته، واجتباه بنعمته، واجتباه بأن جعلَ في الرقة داره، وفي أرفع حارة، وذرّ غبار الفلاة في عينه كحلاً، وسقاه من ماء الفرات طيباً ووحلا، وأقامه في دار الإسلام، خير مقام، في حماية الباشا عزام..

إلى إخواننا الذين تسابقوا إلى الإيمان، بالشيطان، فألقاهم الله في جهنّم باريس، أعواناً لإبليس، وحرّم عليهم ظهور العيس، بأن جعل مطيتهم (الرابيد) من القطار، وربما ركب أحدهم الطيارة فطار، وسلبهم نعمة مجالسة مشايخ العرب، ولذّة حك الجلد من الجرب، ذي النون يونس، الذي تاه بين ليبيا وتونس، وماضغ القات، أحمد بن عويدات، وأديب وجبار، وكلّ من في باريس من أهل النار، من راقصين على البيست أو جالسين على البار، تلتفت حول أعناقهم أذرعُ الغيد كأنها الأفاعي، ويخوضون في دنيا الوجودية خوض البهم في المراعي إذا جاعوا أكلوا الوتير واللانغوس، وإن عطشوا فحرامٌ عليهم شراب العرقسوس، وإنما شرابهم من المهل الذي اسمه شمبانيا، وجعةٌ مستوردة من ألمانيا، ومازتهم لا مكدوس اللفت ولا مخلل الخيار، وإنما روستو وكافيار، وقبلة من خد البخشوبحي مختار.. فيا بؤس هذا العيش من عيش، وإلى متى يا يونس هذه الصعلكة والطيش؟!..

إخواننا إن جاز منكم عنا السؤال، فنحن في أحسن حال.. صُمنا الشهر منذ طلوع الهلال، وفي كل ليلة نصلّي التراويح، ونغني التواشيح، وراء إمام همام، لحيتُه كلحية الأستاذ ناجي قبل الخلق ومشيته كمشية الدكتور بدوي في باب الخلق، ونحن ندعو لكم في أعقاب الصلوات، أحرَّ الدعوات، بأن يرزقكم ما رزقنا من فتّة بكباب، ولبناً رائباً يملأ الأكواب، وشراباً طهوراً من التمر هندي، وفاكهةً من اليوسف أفندي، أما

---

(١) مذكرات وأحداث، راشد الكيلاني، ص١٧٤ - ١٧٥، ط١، دمشق ١٩٩٧.

الموسيقى فنايلٌ على الربابة، أو صوت ميجانا وعتابا، وإن شئتم طنت لكم ذبابة، لحناً أطرب في سالف الآباد، أخانا الدكتور البدوي خليفة عنتر بن شداد، إذْ قال يصف سهرة في الكابولاد:

وخلا الذباب بها فليس ببارح	**غردا كفعل الشارب المترنم**
هزجا يحكُّ ذراعه بذراعه	**فعل المكب على الزناد الأجذمِ**
ولقد شربتُ من الزجاجة بعدما	**ركدَ الهواجر بالمشوف المعلم**
في الكابولاد وفي جواري غادةٌ	**من أهل إسوج عذبة المتبسّم**
عاطيتها كأس الطلا فتدللت	**لم تجفُ تلعابي ولم تستسلم**
رقيتها بالفلسفات لعلها	**تحنو على أنّات قلبي المغرم**
أتلو لها الأنسكلوبيديا كلَّها	**ومقالتي سارطون في ابن الهيثم**
حتى إذا لعب الغرام بعطفها	**وغدت مطاوعة بليتُ بأرقم**
بادي التصعلك في الفرات معوّدٍ	**أن يستبيح كل محرم**
فمضى يعانقها اللعين ولم أنلْ	**منها سوى إيماءة وتبسم**

أما بعد فيا جيرة السين، وساكني شارع فيفين، قد بلغتنا حملاتكم علينا، دون ما ذنب جنينا، طوراً تتآمرون علينا مع رياض، وتزعمون جهلنا بعلم الأمراض، وتارة تلقفون لنا التهم أفانين، وتزعمون أنا كنا في صحبتكم مجانين، أشهد أنا كنا مجانين في قربكم، لا من حبكم، وإنما بالجنون أعديتمونا، شربتم من كأسه وسقيتمونا. ومن ذا الذي يشرب منذ لك الدنّ، ولا يُجنّ؟ إن الدكتور البدوي قد انسطل، وأصابَ رأيه الخطل، لا من إدمان الفلسفة ولا من التحشيش، وإنما في سهراتكم في (البول ميش)، أما الدكتور البوري فقد هرب، خوفاً من عدواك يا شيخ العرب. ولعله اليوم في ليبيا، بعيداً عن ليالي الكتُبية، يحمد ربه أن أتاه النقل، وفيه بقية من عقل، تعينه على قادمات الأيام، والصلاة خلف جلالة الإمام.

نعم لقد رميناكم بهذه الفرقة، أناس في الرقة، وآخرون برقة، فاعلموا أنا ما أسفنا لبعدكم، ولا متنا كمداً بعدكم، وإنما شقّ علينا فراق (الدبونلاتان) وأصحاب لنا في (السان جرمان)، فبالله عليكم إن مررتم بالحي، حيث يلتقي التقي بالغيّ، فادخلوا الماركوزو، وقبلوا لنا وجنات الآنسة ميزو، وقولا لها يا حلوة الوجه والقوام، كتب إلينا فتىً من أهل الشام، يقول، وعمرك وعمر السامعين يطول:

عوجوا فيحوا لميزو دمنة الدار ... ماذا تحيّون من نؤيٍ واحجار
ومن قوالب حلوى في خزائنها ... ومن فناجين ملقاةٍ على البار
ميزو التي صمدت ما فلّ حدَّتها ... إغراءُ وهبي ولا إغواء جبّار
كم بتُّ في جنبات الحي أرسُمُها ... فهل تراها تسيغ اليوم اشعاري
لم ينسنا البعد يا ميزو احبتنا ... واربع اللهو في عرض البوليفار
وقهوة بحليب في كؤوسكم ... الذَّ من قهوةٍ في حان خمّار
لعلَّ من رزق (البحري) يرزقُنا ... بكمشةٍ من ذوات الألف دولار
كي نستعيد حكايات ليس يعرفُها ... في ضفة السين إلاّ بضع اشجار
سبحان من قسم الأرزاق انصبة ... ناسٌ لديكم وناسٌ في لظى النار

وفي الختام، سلام، على من فهم الكلام، وصلى على خير الأنام[1]..

يونس بحري في مذكرات الأمير عادل أرسلان[2]:

الأحد ٢٢ نيسان ١٩٣٤، أقيمت حفلة تكريم ليونس بحري صاحب جريدة العقاب في بستان الأورفه لي، دعا إليها المحامي جميل الأورفه لي، وألقى الشاعر جميل الزهاوي فيها قصيدة، وحضرها معتمد نجد أو ابن سعود إبراهيم بن معمر.. وقنصل مصر محمد سعيد بك وعُدّ عملهما هذا تحدياً للحكومة العراقية، التي كانت منعت مثل هذه الحفلة، ولكن الحكومة العراقية في واد، وما تفعله الحكومات في مثل هذا الموقف في واد آخر.

الأربعاء ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٥، في بغداد سوق للشائعات والأراجيف والقال والقيل لا نظير لها في مكان آخر.

يتناقل الناس ما يقال بلا تفكير ولا تحقيق.. حكاية المعلمة.. وهي أن فتاة سورية.. كانت مع صهرها وأختها في قاعة أوتيل مود في عيد رأس السنة، فطلب منها يونس بحري أن ترقص معه وهو في حالة السكر فاعتذرت، فأخذ يعربد ويعرّض بها، وفي اليوم التالي نشرت

---

(١) المقامات، د. عبد السلام العجيلي، ص٨٣. ٩٠، المطبعة الهاشمية، دمشق.

(٢) ولد الأمير عادل أرسلان في الشويفات العام ١٨٨٧م، فكان رابع ثلاثة أخوة: الأمير نسيب والأمير شكيب والأمير حسن ابناء الأمير حمود بن حسن ارسلان، وآل أرسلان هم أمراء بلاد الشوف وينتهي نسبهم إلى اللخميين. ومات الأمير عادل العام ١٩٥٤م، في بيروت.

عمل الأمير عادل كسكرتير خاص للملك فيصل أثناء دخوله إلى دمشق، ثم عمل في السلك الدبلوماسي السوري، شغل مناصب وزارية.

جريدة أن المعلمة كانت سكرانة.. وأنها من السُكر كادت تقع إلى الأرض وهي ترقص وحدها أمام الجمهور..

غارت الطيارات الألمانية أمس على لندن دامت /٢٣/ ساعة، عندما قرأت بعض أنبائها حزنت على تلك العاصمة، لكن عربي فلسطيني الذي نسفت داره بالديناميت وقتل أبوه أو أخوه أو ابنه ظلماً وعدواناً فهو لا يحزن على لندن لكنه يفرح لخرابها ودمارها، ويونس بحري هو في نظره. أي في نظر عرب فلسطين. رجل العصر[1].

❖ ❖ ❖

شهادة وديع (فلسطين) عن يونس بحري:

كنت وانا طالب جامعي من قراء مجلة "اللطائف المصورة" التي كان يصدرها اسكندر مكاريوس وكانت واسعة الانتشار بسبب الصور والمواد المشوقة التي كانت تنشرها وكنت الاحظ أن للمجلة مراسلاً عراقياً في سومطرة اسمه يونس بحري يوافيها ببعض الأخبار من الشرق الأقصى، وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ م بين دول المحور بزعامة أدولف هتلر من ناحية ودول الحلفاء بزعامة تشمبرلين ثم تشرشل من ناحية أخرى، صار الناس يتابعون الإذاعات الأجنبية ليقفوا على حقيقة الموقف الذي كانت البلاغات الرسمية تلونه ممالأه للطرف الذي تنطق باسمه وكان راديو برلين مصدرا مهما للاخبار التي كان يذيعها باللغة الانكليزية من يدعى "اللورد هاوهاو" وباللغة العربية يونس بحري الذي اتفق ان كان يزور ألمانيا عندما اندلعت نيران الحرب، فاختير مذيعاً في الإذاعة الألمانية.

وكان يونس بحري يبدأ نشرة الأخبار بقوله: "هنا برلين، حي العرب"، ثم يذيع نشرة الأخبار بلهجة خطابية وصوت مجلجل، مشيداً وبانتصارات ألمانيا الهتلرية، ساخرا من دول المحور وزعمائها، مؤكداً أن النصر هو نصيب هتلر وجنوده المظفرين، وكان يحرض العرب على الثورة على دول الحلفاء التي تستعمرهم (انجلترا وفرنسا وأيضاً ايطاليا) فكان الناس في كل العالم العربي يحرصون على الإصغاء إلى إذاعات يونس بحري على الرغم من عمليات التشويش المسلطة عليها. وعندما اصدر العقاد كتابه "هتلر في الميزان" وأدان فيه نظامه النازي وجميع الأنظمة الدكتاتورية، شن عليه يونس بحري حملة شرسة وتوعده بالمشنقة، ولهذا سارع العقاد إلى السفر جوا إلى السودان بمجرد أن وصل القائد الألماني روميل إلى العلمين

---

(١) مذكرات الأمير عادل أرسلان، ج١، الصفحات ٢١، ٧٥، ٢٢٠، تحقيق، د. يوسف إيبش، الدار التقدمية للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

مهدداً بالزحف على الإسكندرية والقاهرة ولم يسلم من لسان يونس بحري اللاذع زعيم أو كاتب اتخذ موقف الانحياز ضد هتلر ومحوره، وإذا كان المذيع الألماني باللغة الانجليزية قد تنكر تحت اسم اللورد هاوهاو، فان البحري كان يعلن اسمه صراحة، ويضيف اليه عبارة "عبو" – ولا اعرف معناها.

وانتهت الحرب بفوز الحلفاء، فنزح يونس بحري إلى باريس حيث اصدر جريدة عربية أسبوعية عنوانها "العرب" يحررها من الألف إلى الياء بأسلوبه الساخر وقلمه اللاذع الذي يتناول به الزعماء الذين لا يرضى عن تصرفاتهم. وهو الذي أطلق على عبد الرحمن عزام باشا أول أمين للجامعة العربية اسم "أبو الكلام" بسبب خطبه وتصريحاته العنترية، وكان يوافيني بجريدته على غير معرفة سابقة، كما كان يجاملني في كتاباته في حين كان يقسو في الحملة على المسؤولين حتى قلت له في رسالة: إنك تحرجني بكلامك الطيب، واستشهدت بقول للشاعر المهجري إلياس فرحات لا أتذكره.

لم التق بيونس بحري إلا مرة واحدة زار فيها القاهرة فاحتفى به المجاهد الفلسطيني محمد على الطاهر (أبو الحسن) والطبيب الدكتور الطيب ناصر الذي درس في ألمانيا أثناء الحرب وانضم هناك إلى العرب المجاهدين ومنهم سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر والدكتور مصطفى الوكيل عضو حزب مصر الفتاة، وكان حكمي عليه عن قرب انه "مهرج" أو "شرلطان" – كما يقول إخواننا الشوام. فهو منفلت اللسان، بوهيمي المسلك، إذا ضحك اسمع الحي كله، وإذا نصبت مائدة الطعام فتك بكل ما عليها. أما سخرياته فلم ينج منها زعيم أو كبير، فلا يدري سامعه هل هو هازل أو جاد، لأنه يخلط بين الأمرين، ويبدو ان السلطات الفرنسية لم تطق بقاءه في باريس، فأمرته بمغادرتها وإغلاق مجلته المثيرة للمشكلات، فتنقل في أنحاء العالم العربي وعاش فترة في الخليج حيث عين محرراً لجريدة "أبو ظبي نيوز" باللغة الانجليزية ومديراً لشعبة الترجمة في وزارة الإعلام والصحافة، ثم عاد إلى بغداد حيث توفى عام ١٩٧٩م عن نحو تسعين عاماً.

ولكي تكتمل صورة يونس بحري انقل ما رواه عنه صديقه الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي – وهو في اعتقادي أحق الناس بجائزة الرواية العربية – في كتاب له عنوانه "حفنة من الذكريات" إذ كان العجيلي هو واستاذ الفلسفة الدكتور عبد الرحمن بدوي من اقرب المخالطين ليونس بحري في باريس.

يقول العجيلي: "يونس هذا واحد من الشخصيات المغرقة في الطرافة أو العجيبة الأطوار.. لم يكن يونس بحري آنذاك مجرد مذيع يقرأ النشرة التي تقدم إليه قراءة باهتة، بل

كان خطيبا مصقعاً وداعية مثيراً ومعلقاً ساخراً. كان يصف إنجلترا التي كانت الغواصات الألمانية تصطاد سفنها في جوانب المحيطات بانها بريطانيا سيدة قعر البحار. ولازلنا نذكر استدراكه حين أخطأ، عن عفوية أو متعمداً، فلفظ اسم تشمبرلين مكان تشرشل، إذ أسرع فقال: معذرة، إن البقر تشابه علينا! وكانت أحدى نكاته البليغة الشديدة إيلاما حين أعلن بان وزارة الحرب الألمانية زادت ميزانية دفاعها ثمانية ماركات، لماذا؟ لأن الإمارة العربية الفلانية انضمت أخيراً إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على الرايخ الألماني".

واستشهد العجيلي بمقال للكاتب السودان محمد خير البدوي – ولعله قريب للأديب السوداني الدكتور أحمد محمد البدوي الذي وصفني في "هلال" اكتوبر الماضي بانني "شيخ العقاديين" وهو شرف لا أدعيه وتهمة لا ادفعها – حيث قال:

"بقيت في حياة البحرى أمنية واحدة لو رد إلى الحياة لدفع راضياً قانعاً نصف عمره من أجل تحقيقها. أمنيته أن يقف وراء ميكروفون إذاعة القدس المحررة منادياً: حي العرب، إيذانا بمولد الدولة العربية في فلسطين، ثم يتفرغ بعد ذلك البحث عن زوجاته الثمانين وأبنائه وبناته المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، ولا سبيل لإحصائهم، ولكن عددهم يتجاوز المائة قطعاً. ومات يونس بحري الأسطورة ولما تتحرر الأرض السليبة. لقد أمضى حياة مثيرة حافلة تفوق فيها زواجاً وتجوالاً على الرحالة العربي ابن بطوطة، إذ هيأت له وسائل النقل المعاصرة الطواف على أركان المعمورة، وخلف وراءه في كل بلد زاره زوجات ورهطاً من البنين والبنات.. ومن أشهر أبنائه الادميرال رعد يونس بحري قائد الأسطول الفليبيني والدكتور سعدي المحامي في باريس".

وأثبت العجيلي مذكرة وجهها واحد من أبناء يونس بحري إلى الحاكم العسكري العام في بغداد يحتج فيها باسم المقاومة الشعبية على إطلاق سراح والده؛ فهو مزواج ومغامر وعربيد ويستحق السجن إلى الأبد أو الموت!.

شهادة خالد عبد المنعم العاني:

يونس بحري.. إعلامي عراقي طواه النسيان، منذ عقود مضت، كان يمتلك قدرات شخصية متفردة، مع عشرينيات القرن الماضي تعرف إليه الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية، وكلفه بمهمة نشر الإسلام، في مناطق جنوبي شرق آسيا، لم يكن داعية إسلامية ولا متديناً بما فيه الكفاية، ولكنه كان خطيباً مفوهاً ينفذ إلى قلوب سامعيه في التو واللحظة، وهذا ما سهل عليه النجاح فيما كلف به، وكان حسن ظن الملك عبد العزيز.

عندما قفز أودلف هتلر إلى الرايخ الألماني، في بدايات الثلاثينيات وشغف به عرب المشرق أيما شغف وقتذاك آملين أن يكون منقذهم من الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي، شد المغامر يونس بحري الرحال إلى ألمانيا وهناك استطاع مقابلة الرجل الثاني في الرايخ الألماني (غوبلز) وزير داعية هتلر، وأقنعه بفكرة تأسيس إذاعة برلين العربية لتكون بمواجهة إذاعة B.B.c البريطانية، التي تصل إلى كل مستمعي المشرق العربية وابتدأ يونس بحري البث من برلين بعباراته الشهيرة التي أزعجت البريطانيين (حي العرب. هنا برلين) وأصبحت عبارة حي العرب لصيقة بيونس بحري.

لم يقف طموح يونس بحري عند هذا الحد بل طلب من غوبلز أن يوافق على أن يفتتح برامج إذاعة برلين بتلاوة من القرآن الكريم، إلا أن غوبلز تريث في ذلك ليقابل الفوهرر هتلر أولاً ويأخذ رأيه في الأمر فطلب بحري من غوبلز ترتيب لقاء له مع الفوهرر وتم اللقاء بالفعل واستطاع بحري إقناع هتلر بنجاعة بدء برامج الإذاعة بالقرآن الكريم وسوف يكون عاملاً يشد مستمعي عرب المشرق إليها والعزوف عن إذاعة الـ B.B.C التي كانت تخلو من القرآن الكريم، وبدأت إذاعة برلين بث برامجها الصباحية بأي من الذكر الحكيم، وما هي إلا أشهر قليلة حتى راحت الـ B.B.C تبدأ بثها الصباحي بتلاوة من القرآن الكريم.

يونس بحري قرّبه الرؤساء وأحبه الناس واقترن اسمه بهتلر شخصية خلاقة تنوعت مواهبها في الإذاعة والصحافة والتأليف والخيال، وظل الحقيقة يونس بحري ربما سمعنا عنه جميعاً لكننا عرفنا عنه النزر اليسير والمتفرق نعرف أنه عمل في إذاعة برلين وأخرج منها بقرار من الحاج أمين الحسيني بعد أن كان العامل الرئيسي في نجاحها وملك آذان المستمعين العرب في كل مكان وقد قرر الحسيني إخراجه لأنه لم يكن يلتزم بنصوص البيانات والتعليقات التي كان يعدها المكتب العربي في القدس فقد كان ينفعل ويضيف عبارات قاسية غير مكتوبة في النص، وكان يخص الوصي عبد الإله بالقسم الأكبر من شتائمه، وكذلك نوري السعيد والملك عبد الله في الأردن، .

يونس بحري من أبناء مدينة الموصل.. متى ولد وكيف نشأ؟! وسار في دروب الحياة واختط فيها نهجاً متفرداً وزار الأصقاع والأمصار ثم عاد إلى مسقط رأسه ليقضي ما تبقى من عمره في بيت أحد أقربائه الصحفي نزار محمد زكي الجبوري الذي عمل في وكالة الأنباء العراقية لفترة من الزمان وقد مات البحري في بغداد ودفن في مقبرة الغزالي في آذار (مارس).

ولد يونس صالح خلف الجبوري بحري في الموصل ونشأ في محلة الخضر، وهو من عشائر الجبور التي استقرت في ضواحي مدينة الموصل منذ حوالي الخمسة قرون، وتسمى

عشيرته الجوابنة، ويعود أصلها إلى قحطان، كان والده صالح آغا الجبوري يوزباشي في الجيش العثماني يقوم بتأمين البريد بين اسطنبول مركز الدولة العثمانية وولاية الموصل له إخوان صادق أفندي الجبوري والذي توفي عام ١٩٤٧ وكان قائم مقام لعدة أقضية في وسط وشمال العراق ومنها دلي عباس وشارنش والعاصي وكان يونس زوره في هذه المناطق زيارات طويلة تعلم خلالها العديد من اللهجات المحلية كما سيأتي ذكره لاحقا، والأخ الثالث طه الجبوري وكان معقباً في محاكم الموصل ويونس بحري طويل القامة أشقر عيناه زرقاوان وصوته عالي النبرة.

درس في مدارس الموصل وامتهن الصحافة في وقت مبكر وأصدر أول كتبه (العراق اليوم) عام ١٩٢٤ المحفوظ في مكتبة الأوقاف في الموصل وكان محرراً رئيسياً في صحيفة (العقاب) وهي صحيفة سياسية أدبية.

دخل معترك السياسة كمعلق صحفي إذاعي في بداية الثلاثينيات قبل وبعد تتويج الملك غازي الأول ملكاً على العراق حيث كان أحد أصدقائه المقربين لعدة أسباب، منها ميول الملك غازي السياسية التي تنسجم مع أفكار يونس وتتمثلان بمعاداتهما للسياسة البريطانية وانحيازهما إلى حكومة (الرايخ الثالث) أي حكومة (هتلر).

وكان يونس بحري أول مذيع قدم الملك غازي من إذاعة قصر الزهور التي أهداها بدوره إلى الملك غازي، وقصة هذه الإذاعة أن الملك غازي كان مصوناً غير مسؤول ولا يمكن للمندوب السامي التدخل في شؤونه الخاصة، كما لم يكن له سلطة رسمية على القصر الملكي باعتباره مندوباً سامياً والعراق تحت الوصاية البريطانية وهذا ما مكن يونس بحري أن يعبر بصوته – عن آراء الملك عبر هذه الإذاعة، أو استطاع الملك غازي أن يعبر عن آرائه من خلال هذه الإذاعة بصوت يونس بحري، وعند اغتيال الملك غازي كتب يونس قصة مقتله في إحدى الصحف وقام بنفسه بتوزيع نسخ الصحيفة على دراجة نارية موضحاً أن عبد الإله ونوري السعيد قد تآمرا مع الإنكليز واغتالوه وإذ ذاك أدرك خطورة وجوده في العراق فاتفق مع القنصل الألماني في بغداد الدكتور كوربا على الهرب إلى خارج العراق.. فوصلت إلى بغداد طائرة ألمانية تحمل وفداً صحافياً وعند هبوط الطائرة صعد إليها يونس باعتباره صحافياً لمقابلة الولد فعادت إلى التحليق متجهة إلى ألمانيا وهناك أصبح أحد أقرب المقربين للقيادة النازية وبالذات غوبلز ومنح رتبة عسكرية ألمانية بدرجة ماريشال وكان يحمل على كتفه الصليب المعقوف في الحفلات الرسمية التي يحضرها، وأسس الإذاعة العربية في برلين بإعلانها الذائع الصيت (هنا برلين. حي العرب) وخصصت هذه الإذاعة تعليقاتها الرئيسية لمهاجمة الحلفاء وتوعية الجماهير العربية للخطر الاستعماري المحدق بهم كأمة.

تزوج يونس بحري لأول مرة من امرأة موصلية اسمها مديحة من منطقة متفرعة من شارع النجفي في الموصل وأنجب منها ابنين وبنتاً.

البكر.. وهو الدكتور لؤي بحري، وهو أستاذ في جامعة الجزائر للعلوم السياسية، والثاني الدكتور سعدي يونس الفنان الأكاديمي المتخصص في الفنون المسرحية للمسرح الشعبي ويحمل ميولاً يسارية ويعمل في جامعة السوربون في فرنسا ودعي آخر مرة إلى مهرجان بابل حيث قدم مسرحية مثلها منفرداً وهي (المجنون).

والبنت هي الدكتورة منى بحري الأستاذة المتقاعدة من جامعة بغداد والمتخصصة بعلم النفس.

ويونس يتقن ست عشرة لغة عالمية أساسية قراءة وكتابة، عدا اللغات واللهجات المحلية العراقية، فيتقن مثلاً على المستوى العالمية اللغة السواحيلية، وقد وصل عدد زوجاته إلى أكثر من أربعين وكان يقول: لقد بدأت بشهريار الإيرانية وانتهيت بشهرزاد السورية ولا أدري إن كان قد شهريار قبل زوجته الموصلية مديحة أم بعدها (وقد كان رجلاً حقاً) ففي فترة من حياته يجد وقتاً ليقوم بعمل إضافي مراسلاً لإحدى الصحف الهندية وفي وقت آخر أصبح مفتياً في أندونيسيا ومرة كان أحد سكان الجزيرة المعروفين مصطحباً معه في منتهى الجمال منه أن يعقد قرانه عليها (فاستحيفها) يونس لأن الرجل كان مسناً وأفهمه أنه لا يجوز شرعاً عقد قرانه عليها، فصدقه الرجل لأنه ترك الفتاة، فتزوجها المفتي يونس وقد سمي بالبحري لأنه وصل إحدى جولاته كسائح في منتصف الثلاثينيات (طاف العالم أربع مرات إلى الساحل الذي ينطلق منه سباحو العالم لعبور بحر المانش).

يونس باسمه وبعلم بلاده العراق لدخول المسابقة قبل ساعات من بدئها دون تحضير سابق أو تدريب فعبر البحر محرزاً قصب وفائزاً بالمركز الأول مسجلاً سابقة لا مثيل فأطلق عليه اسم بحري، ومنح جواز سفر دبلوماسياً ألمانياً بهذا الاسم ولأول مرة.

توجه إلى العراق قبل ليلة واحدة من ثورة ١٤ تموز (يوليو) أي في ١٣ تموز أي قبل انبثاق الثورة بيوم واحد فأسل في طلبه السعيد، وكان هناك خلاف بين السعيد وعبد الناصر فطلب إليه السعيد أن يذيع مقالاته ضد عبد الناصر.. ففعل فاعتبر بعد الثورة أنصار نوري السعيد في حين أنه حارب الاستعمار والسياسة البر والوجود الأجنبي في العراق سنين طويلة، واعتقل بعد الثورة تقارب السبعة أشهر في سجن أبو غريب، وأطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة، وعدم وجود قضية أصلاً، وذلك بعد مقابلة حارة مع الزعيم عبد الكريم قاسم، وقد تعرف أثناء اعتقاله إلى رئيس السجن فقال له مرة: لماذا لا تقوم بانقلاب وتستولي على السجن فأجاب: كيف وأنا رئيس عرفاء؟. وكيف استطاع رئيس دولة افريقية القيام بثورة وحين سمع عبد

الكريم قاسم هذه المحادثة أرسل في طلبه وقال له: أتريد أن تفسد علي جنودي؟ وبعد إطلاق سراحه افتتح مطعماً في منطقة الكرادة ببغداد، وأخذ يرتاده كبار الشخصيات السياسية والفكرية والسفراء فكان أشبه بمنتدى وكان يونس يقوم بطبخ الأكلات المختلفة التي تعلمها أثناء سفراته.. ولم تحبذ أجهزة أمن عبد الكريم قاسم هذه المسألة فسمحوا له بالسفر بعد أن أخذ الزعيم عبد الكريم قاسم منه وعداً بعدم مهاجمة نظامه بعد مغادرته الأراضي العراقية وقد تم تخصيص راتب له بعد سفره على لبنان قدره مائة دينار يستلمه من السفارة العراقية في بيروت ولكنه لم يتوقف عن نشاطه فأصدر كتابه هذا الذي يشرح فيه وضعه في سجن أبي غريب والموقف العام في باب المعظم.

أصدر يونس بحري حوالي ستة عشر كتاباً منها (العراق اليوم) (الحرب العراقية البريطانية) وسلسلة (هنا برلين. حي العرب) حوالي عشرة أجزاء و(سبعة أشهر في سجون قاسم) ومن الصحف التي أصدرها كان صاحب ورئيس تحرير صحيفة (العرب) الصادرة في باريس أواخر الخمسينيات باللغة العربية كما أصدر صحيفة (أبو ظبي نيوز) باللغة الإنكليزية في (أبو ظبي) وأصدر مجلة (العراق والكويت) في أندونيسيا في منتصف الثلاثينيات.

كان من أبرز صعاليك العرب في هذا القرن، وكان ينتقل حاملاً في حقيبته الدبلوماسية أربعة أشياء: جواز سفر، قنينة عرق، فرشاة أسنان وأدوات الحلاقة. وقد شارك في التظاهرة التي تدلل على وطنية حقة، والتي تحولت إلى هجوم على القنصلية البريطانية قرب منطقة المحطة في مدينة الموصل حيث قتل القنصل البريطاني وكان من أبرز أصدقائه العالم المعروف محمد صديق الجليلي الذي كان يدعوه دائماً لمجالسته وكذلك عبد الجواد الطريحي وعبد الوهاب الخياط، وكان الأدباء في السنوات الأخيرة يدعونه ويجالسونه في الموصل مثل القاص نجمان ياسين، والقاص محمد عطاء الله، والشاعر سالم الحبا لم يكن يتحسر على شيء لأنه عاش حياته بكل تناصيلها، من التعبد والتصوف إلى الرقص واللهو والسكر بالإضافة إلى الرياضة والصحافة والإذاعة والتنقل بين الزوجات كما لو كانت يطوف بها.

وكان الحصول على المال من أيسر الأشياء بالنسبة له هذا مات وحيداً مفلساً في دار أحد معارفه في الباب الشرقي وأوردت نبأ وفاته وكالة رويتر للأنباء، وكالة الأنباء الفرنسية، الخبر في الصفحة الأولى لجريدة (النهار) اللبنانية، وكان والد تويني مؤسس جريدة النهار صديقاً حميماً له، وهو الذي عرفه سمير أيوب وزوجه إياها، والتي توفيت في حادثة سيارة بعد ثورة تموز (يوليو) بفترة قصيرة جداً، وكانت تزوده في السجن حيث تحضر له ليرات ذهبية حيث كانت بثلاثة دنانير إلا ربعاً يطلب من زوجته كلوس (تكة) سكاير (نوع كامل) Camel وحليب غير محلي.

ومن النوادر التي حدثت له في الموقف العام أنه والسويدي رئيس وزراء العراق السابق كانا في قاعة واحدة في السجن وكان كلاهما يكنى (بأبي لؤي) وفي يوم جاء ضابط السجن من أبو لؤي.. فخاف السويدي أن يرد عليه لأنه توقع أن يكون شر ولم يجب.. وأجابه يونس بحري وكانت المفاجأة أن أحضر مظروفاً يحوي مائة دينار فوقع بحري واستلمها وبعد جاءت رسالة إلى توفيق السويدي تقول: هل استلمت المائة دينار (ومن طريف حديثه قبل وفاته بفترة قصيرة أن جاءه أحد الزوار يتحدث بشكل بطولي عن مقدرته حيث خدع أحد أطراف الشرطة وهرب بعض المواد حين دخوله العراق من الحدود التركية..

مغادرة هذا الرجل قال بحري: ضحكنا على ذقون ملوك ورؤساء سنين طويلة وهذا يتفاخر بأنه خدع شرطياً ولم يكن يخاف من السجن لأنه لم يكن خائناً وقد سبق أن حكم ثلاث مرات بالإعدام خارج الوطن وداخله حيث أصدر نوري السعيد حكم الإعدام بحقه غيابياً..

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية حكمه الحلفاء أيضاً، وحكم مرة في إفريقيا أثناء الحرب أيضاً حيث أرسل مبعوثاً عن الحكومة الفرنسية لمفاوضته إحدى القبائل الحاكمة، وحين رأوا اسمه على الجواز johans bahri تصوروه عميلاً فرنسياً وحكموا عليه بالإعدام.. وحين سأله الضابط المسؤول عن رغبته قبل أن ينفذ فيه الحكم في اليوم التالي طلب قنينة ويسكي فقال له: كيف تطلب مشروباً وتستسيغ شربه وأنت مقبل على موت محتم؟ فأجابه: أنا مجنون حيث جئت هنا.. فلماذا لا أطلب المشروب؟ فضحك الضابط وجلب ما طلبه، وفي الهزيع الأخير من الليل جاءه لا ليقتاده إلى ساحة الإعدام بل ليهربه.

كانت علاقة يونس بأولاد واهية بسبب رحلاته الطويلة لأنه تركهم صغاراً فربتهم جدتهم لأمهم (مريم خانم) والتي كانت تملك في الثلاثينيات في مدينة الموصل مدرسة لتعليم الخياطة، وقد لحقت به (أي بيونس) أمهم (مديحة) إلى باريس وأصبحت تمتلك صالون حلاقة هناك.

في مجلس الملك عبد العزيز آل سعود:

كان يونس بحري في مجلس الملك الراحل عبد العزيز آل سعود حين جاء من يبشر الملك بمولوده الثالث والستين، نظر الأمير فيصل إلى يونس بحري وابتسم وكان الملك عبد العزيز لماحاً فلاحظ نظرة ولده وابتسامته فسأله عما عنده فقال الأمير فيصل:

- بلغ عدد أولاد يونس بحري أربعة وستين ولداً عدا الإناث.

فسأله الملك عبد العزيز:

- هل صحيح يا يونس أن عدد أولادك أربعة وستون؟

فرد يونس بحري قائلاً:

- الذكور منهم فقط يا طويل العمر

وهكذا انتهت حياة هذا الرحالة الكبير بعد أن طاف العالم والتقى كبار الرؤساء والملوك وشبع من الدنيا ومن فيها.. ليرحل بصمت بعد أن ملأ الدنيا ضجيجاً لفترة طويلة، ولنعش معه الآن، ولنقرأ مذكراته في سجن أبو غريب مع رجال العهد الملكي العراقي من رؤساء وزراء إلى وزراء إلى قادة الجيش العراقي.

وقد لا أغالي، إن قلت إن هذه المذكرات من حياة الأستاذ يونس في السجن تنطوي على معان عميقة وعبر بالغة يستطيع القارئ أن يعثر عليها، إذا ما أمعن النظر في قراءتها ولم يصرفه ما فيها من خفة روح، ونكتة ساخرة، عن إدراك مغازيها واستخلاص معانيها العميقة.

شهادة معن عبد القادر آل زكريا:

تلقيت دعوة كريمة من لدن الخطاط العراقي المبدع المعروف عالمياً الأستاذ يوسف ذنون للاستماع إلى محاضرته في أصول اللغة العربية ومدى علاقتها باللغة الآرامية القديمة. وأخذت دوري في تهنئته على محاضرته وإعلان اكتشافه الأصيل لخطوط كتابة قديمة من بقايا آثار مدينة (الحضر) عاصمة الدولة العربية غرب العراق قبل الإسلام. شكرني المحاضر على تهنئتي، ثم فاجأني بقوله أنه يحتفظ بهدية يهمني أمرها جلبها معه من الأردن الشقيق إثر آخر محاضرة ألقاها في عمان.

أما الهدية فكانت ثلاثة أعداد من جريدة (الرأي) الأردنية على وفق تواريخ متسلسلة تقع بين (١١/٢١ - ١٩٩٩/١٢/١٢). وتتضمن الإعداد لمحات من التاريخ المعاصر كتبها الأستاذ الدكتور سامي الصقار، وتتعلق جميعاً بتفاصيل حياة السائح العراقي يونس بحري وإذاعة برلين.

ولا بد لي في البداية من تثبيت حقيقة هي أن المبحوث عنه (يونس صالح الجبوري) كان من أصدقاء والدي المرحوم (عبد القادر بن الحاج مصطفى بن الحاج زكريا التاجر) ومن جيله في الوقت عينه ومن أسرة سكنت الموصل منذ الفتح الإسلامي سنة ١٦للهجرة. وإنني كاتب هذه الرسالة التقيت المذكور البحري في حفل خاص أقامته له جمعيةالاقتصاديين

العراقيين فرع الموصول في أمسية من ربيع سنة ١٩٧٥ احتفاء بعودته بعدغيبة طويلة إلى مدينة الموصل (الحدباء - أم الربيعين).

ويوم شارك والدي مع المؤرخ الموصلي المرحوم (عبد المنعم الغلامي) ونفر آخر في تأسيس جمعية الشباب العراقي في بغداد في منتصف العشرينيات وكان مقرها في محلة (سوق الصفافير) مركز بغداد القديمة، كان البحري يومها طالبا في دار المعلمين الابتدائية التي كان مديرها المربي المرحوم (ساطع الحصري). وكان البحري يقضي مبيته في إحدى غرف الجمعية ويوزع أنشطتها المكتوبة ونشراتها على دراجة هوائية. لكن لم يطل المقام بيونس فيدار المعلمين يومها، فتخاصم مع المدير (الحصري) وحرض الطلبة على الإضراب فصدر أمر من الادارة بفصله من الدار فتركها مغادراً إلى البصرة ومن ثم إلى باخرة كانت راسية في شط العرب سافرت إلى عبادان، ومن هناك إلى نيس في جنوب فرنسا وامتدت رحلته طوال سنتين ليصل إلى استراليا ويعود إلى بلده العراق سنة ١٩٢٤.

وكنت منذئذ أرافق والدي في جلساته الخاصة في الدواوين والمقاهي، فتعلقت باسم الرجل الأسطورة وأنا استمع بشغف وذهول إلى قصته يرويها والدي إلى أصدقائه، مرة بصيغة المعجب وأخرى بصيغة المتندر.. ! فتكونت عندي بمرور الزمن فكرة واسعة وملونة عن حياة السائح البحري إلى أن نضج الموضوع ليغدو مشروعاً كبيراً ابتدأته في فاتحة سنة ١٩٩٤. وقد لاقيت في سبيله كثير من الصعوبات، وواجهت لأجله شتى أنواع العراقيل حتى انتهت رحلتي مع قصة حياته في أواخر شهور سنة ١٩٩٩ بانجاز عمل كبير. وعندما قرأت مقالات الدكتور (الصقار) الدقيقة والرائعة، كنت من شدة الغبطة لا يسعني إلا أن احمل إليه كل باقات الحب والمودة واعدا إياه أن أكون ذلك القارئ (الباحث/الكاتب) الذي تمنى أن يتصدى لدراسة سيرة حياة يونس بحري. فقد كتبت ما يوازي ألف صفحة مخطوطة من البحث والتحليل والسرد مدعومة بعشرات الصور الشخصية، فضلا عن العديد من الوثائق وأغلفة مجلات وقصاصات صحف ومانشيتات من جريدة (العقاب) التي قرأت كل إصدارتها صفحة صفحة ودققت في ثناياها سطراً فسطراً، هي وشقيقتها جريدة (الميثاق) التي أصدرها البحري اثر تعطيل (العقاب) في منتصف الثلاثينات في بغداد. كذلك حصلت على بعض أعداد من مجلة (الكويت والعراقي) التي أصدرها في إندونيسيا برفقة العالم والمؤرخ الشيخ (عبد العزيز الرشيد) فضلاً عن الكتب التي أصدرها في فترات مختلفة من حياته والتي ناهزت العشرين مؤلفاً.

علما أن البحري قام بتوثيق حقبة مهمة من تاريخ رجالات كثر من أبناء العروبة في مشرقها ومغربها، سياسيين وأدباء، رجال قلم وأهل صحافة، كانوا قد تواجدوا على الأرض إبان فترة الحرب العظمى الثانية، فلم يجاره احد في الكتابة عن تلكم الأيام.

وما أرجوه من الإخوة والأصدقاء وكتاب التاريخ وأصحاب دور النشر، أن يلتفتوا إلى هذا المشروع النبيل الذي أعددناه بجهود سنين طوال، ويخص مرحلة خصبة من تاريخ نضال المنطقة على الصعد السياسية والقومية والثقافية والاجتماعية، فيحتضنوه ليرى النور فيكون مرجعا مهما وخلاصة سديدة ووثيقة رائعة لأولادنا وللأجيال القادمة، ولنظهر للعالم أن من بين أبناء الضاد من قد شرق وغرب وجابه الأهوال وعجائب الزمان في حقب سلطت فيها الأضواء على كثير ممن هم دون قامة البحري قابلية أو همة أو نشاطاً فخلقوا من قصصهم أساطير وملحمات!..

بيان ليونس بحري:

الشباب اليهودي في بغداد

يعطف على عرب فلسطين ويؤيد حقوقهم كاملة غير منقوصة هبطت على إدارة جريدة العقاب أمس لمناسبة يوم فلسطين في العراق البرقية التالية الحاملة تواقيع نخبة من المثقفين والوجوه والأدباء من اليهود في بغداد وهي تعبر عما يخالج أفئدتهم من روح العطف على فلسطين العربية المجاهدة وتأييد حقوق العرب أصحاب هذه الأراضي المقدسة.

بغداد -- جريدة العقاب

لمناسبة يوم فلسطين العربية الدامية في العراق نحيي نحن الشباب اليهودي العربي كافة، العاملين في سبيل القطر الشقيق لصيانة عروبته وحفظ حقوق أبنائه العرب كاملة غير منقوصة ونحن نؤيد بكل جوارحنا وعواطفنا الدفاع عن فلسطين وبقائها عربية عزيزة الجانب.

أنور شاؤول. الدكتور نور الله. الدكتور البيرت الياس. الدكتور شالوم. الدكتور البير حكيم. الدكتور ش. بصري. نيازي مراد. إبراهيم بيرص. سليم نسيم زلخة. داؤود مراد. عبودي نعيم. عبودي كرجي سليم. إبراهيم حاييم. ساسون مراد ساسون. كرجي شوع بيخور. فكتور زبيدة. يوسف شاؤول. سليمدرويش داؤود برخان.

العقاب ٢٩/ آب/١٩٣٨

تكريم يونس بحري:

الشاعر جميل صدقي الزهاوي

يراع صناديد الكتابة كالعضب … يدور عليه ما على الأرض من حرب
وان لأقلام عن الحق ذادة … لضربا كما للمشرفية من ضرب
ورب بلاد أخر الجهل أهلها … فقاسى بها الأحرار خطبا على خطب
وكم من بريء مبعد عن دياره … على غير ما جرم وفي غير ما ذنب
ولكن من في صدره قلب يونس … يدافع في اليوم العصبصب عن شعب
إذا أنا لم اشهد لقومي تقدما … قضيت من اليأس المبرح بي بحبي
خلقنا عليها امة عربية … نحاول طياً للمسافات بالوثب
نريد من الأيام مجداً مؤثلا … ولو كان ذاك المجد في مرتقى الشهب
خذوا المجد أما غيره إن لبسته … فليس سوى رسم بأيدي البلى نهب
يرى بعضهم في الكذب منه سياسة … وما كل شعب يطمئن إلى الكذب
لقد عاث في الحملان قبلا رعاتها … ويا رب راع كان شراً من الذئب
طويل على الأيام عتبي بموطني … ولكنما الأيام صم عن العتب
لقد نال من إخوانه الغر يونس … حفاء إلى أن قال مكتفياً حسبي
اذا كان عن عين المحبيه راحلا … فما هو ممن يرحلون عن القلب
رعى الله هذا الحفل بالعين انه … حوى دارة حول الحفي من الصحب
تحف به الأصحاب من كل جانب … كما حفت العين البصيرة بالهدب
عرفت له في الموقف الصعب قدرة … ويعرف قدر المرء في الموقف الصعب
وبين قلوب الناس اما تماثلت … مبادئهم يوما طريق من الحب
له ثروة موفورة من خصاله … وما أكثر الأوراق في الفنن الرطب
هو العضب يحمي حق شعب اضاعه … من الجبن افراد وامضى من العضب

فتى عربي النجر يصبيك خلقه … ومن أحسن الأخلاق في المرء ما يصبي
صريح لحزب الله في الأرض ينتمي … واكبر بحزب الله في الأرض من حزب
سيبقى نهار الناس ابيض مبصرا … وان حال دون الشمس سد من السحب
وللأرض أرواح وشمس مضيئة … فيا شمسها ذري ويا ريحها هبي
أراد فريق بالعظام تشبها … وأين الوطيء المطمئن من الهضب
عزيز على أهل العراق جميعهم … فراق أخيهم يونس الكاتب الندب
وددت لو انني كنت يوم رحيله … أسير على الضعف الذي بي مع الركب
اذا شئت فابعد عن ذويك واقترب … فإنك مرموق على البعد والقرب
ستلقى على كل البقاع حفاوة … وتنزل في كل البلاد على الرحب
وأما احتفال الشعب هذا فانه … لعمري احتفال فيك بالنفس للشعب
يريد أناس ان تطاطئ ساكنا … عن الحق حتى يدفن الحق في الترب
وما الحر إلا من يقول بجراة … ويمشي مع الأحداث جنبا إلى جنب
وان الحجا الوقاد في ذي زعامة … سراج يدل التائهين على الدرب
إذا هددوا بالنفي يونس أو نفوا … فلست ترى في وجهه اثر الرعب
فما صد عن نصر الحقيقة يونسا … وعيد ولا نحاه وعد عن الذب
إذا لم يحرر كاتب عن عقيدة … فليس لفتق في السياسة من راب
أقول لجيران لنا لا تبجحوا … فنحن سواء في المصيبة والكرب
بنو العرب في العصر الأخير لنفسهم … اشد عداء أو قلى من بني الغرب
واكبر خصم للعروبة ولدها … فيا أسفي في كل يوم على العرب
ولم يتولد بعد في العرب مصلح … ولكنه بين الترائب والصلب

في ١٥ نيسان سنة ١٩٣٤

صور ووثائق من حياة يونس بحري



من قصص الحب الغريبة

سياسي وكاتب له صلة بهتلر يتزوج من الفنانة الهولندية جولي فان ديرفين

قصة حب عراقية - هولندية عمرها «٧٠» عاما

المقال المنشور في هولندا في ١٩٩٩/٦/١.



من رسومات - جولي زوجة يونس بحري الهولندية.

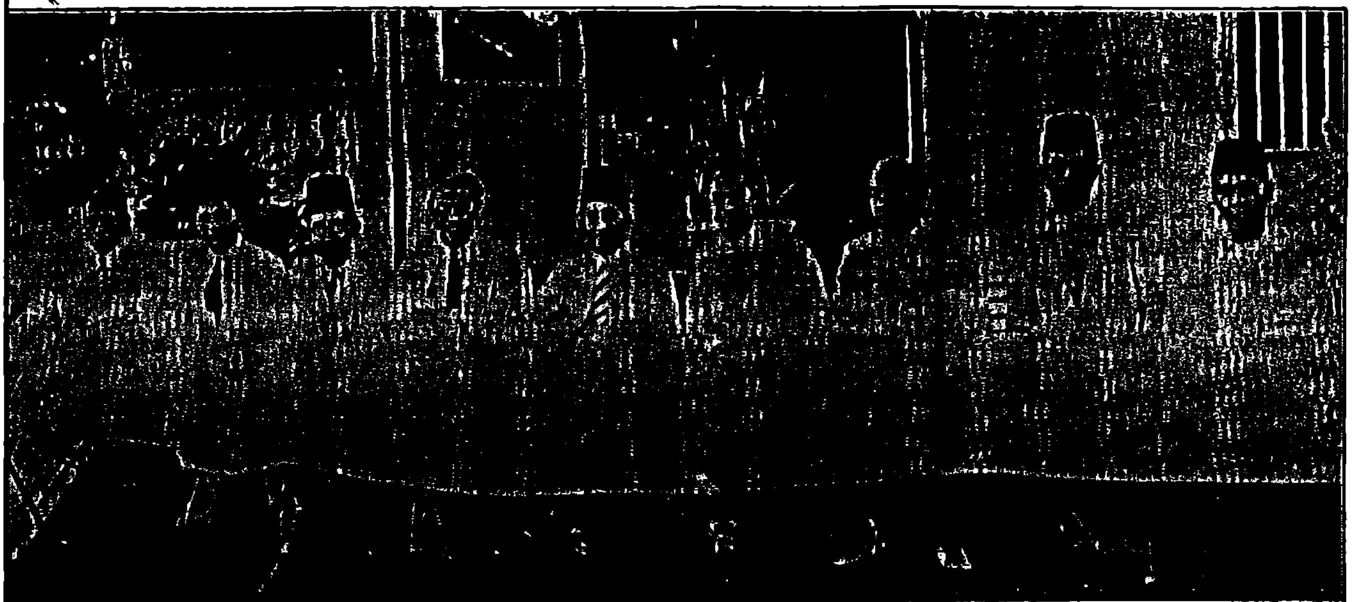






MR. A. M. ALSAGOFF'S AT HOME TO IRAKI JOURNALIST.

The Straits Budget 2/7/31.



The main table party at the At Home given by Mr. A. M. Alsagoff in honour of Mr. Eunos Aalbahhey, an Iraki journalist on a visit to Malaya. Mr. Aalbahhey, who represents about 50 newspapers in his own country and speaks twelve languages, has lately completed a tour of Europe. From left to right: Messrs. S. Nagalingam, Dr. S. Aljunied, Syed Ibrahim Alsagoff, Eunos Aalbahhey, A. M. Alsagoff, C. H. Da Silva, Dato Abdullah, Unku Mohammed Kahled and Haji Ambok Sooloh.
















Ihre Vermählung geben bekannt

Unis Al Bahrry Al Jabonry
Bagdad Irak

Julie Al Bahrry Al Jabonry
geb. van der Veen
Holland

Kurfürstendamm 50
Berlin W 15

29. Dez. 1939

العرب

AL-ARAB
Journal Arabe
36, Rue Vivienne, 36 - PARIS-2e

TÉL. : CEN. [illegible]
Adresse Télégraph. :
AL-ARAB, PARIS

DIRECTEUR : AL BAHRRY
C. C. P. PARIS [illegible]
R. C. PARIS [illegible]

PARIS, LE 25. 11. 1949

Dear Julie.

I'll be at the Gare du Nord at 18.10. on the 28th.
I believe you didn't receive my letter dated 10th. Nov. otherwise you would have known that I am leaving. at anyrate I am glad to see you and kiss you bye.

yours

Berlin, 13 November 1939

Darling,

I am so sorry to have upset you with my post card. I had to send it because I thought perhaps it reaches you quicker than a letter, but fortunatly you recieved it yourself. I'll never repeat it again. Are you going to fix up the affair of your flat from The Hague or you intend to go there, at any rate do what you think best. Glad to hear that you are getting fat as to myself I feel quite at ease while reducing but I don't like to loose great deal. Julie could you tell me approximatly when you intend to come, I would love to see you as soon possible, but you can take it easy and don't be nervous. I should like to have some coffee and soap if it possible. Well darling I'll take leave of you now, till so long.
Au revoir Yours allways With best wishes to Mama,

BAHRRY

[redacted]

Berlin, 3 December 1939

Dearest!

I am aufully sorry to hear that you did not have the visa, it is realy astonishing. At any rate I hope you 'll get soon. I was waiting at the station "Banhof Zoo" till late 6 o' clock, than the house made rang me up saying she recieved your wire. Realy, it was unpleasent evening, but I am sure we will meet soon, and forget all these nonsenses. What a pity I recieved from a friend a big branch of mimosa, and it was exactly what you loved, but I'll try to get some more for your arrival. Many thanks I recieved the tea and the tasty cheese, you are a darling. Listen Kiki! when you come, do stop at station "Zoo" just to make it easy to me to find you, because as I informed your train arrives at 4 and had to speak at half past five till ??????. So I'll have just time to take you home, and then you'll have an hour of time to fix yourself and take a rest till I come back at 7. But in case you don't find me at the station, please do go directly to the flat and you'll see my name at the list which hangs at the outside door of the building and please don't forget to wire your depart. I could not wire you. I hope to see you soon sweetheart.
Yours only,

BAHRRY

Compliments and good wishes to both Mama and Aunt Lyse
Please don't forget to bring some soap, and stockings size 11.
Au revoir love .

[redacted]

Hadieda Yemen, Arabia, 18-4-1931

Dear JULIE,

At last I arrived a place from which I can be in connection with you. I thank you very much for your kind wires and nice letter I recieved here just today, it is very nice of you to speak to me in that way, it gives me great hope of living, and searching for a best job. I 'll explain to you in the next letter all about the job of Hedjaz and the situation. Life is very hard dear Julie, you must understand, and do give reason to me for this affair, do not be angry please you'll have better future with me I hope, so excuse your sad Bahrry and think bit about him. You may write me to Aden poste restante, so we can talk to each other again. I am in a very bad situation not question of money, but of mind. the last loss I had is very heavy, you know, simply to think at over, makes me nervous. But from the next part I got you darling you'll give me life and love, and be in place of the beloved mother. Good-bye my only July darling and be sure that I am yours forever with good wishes to both Maman and tante Lyse, excuse me I don't know how to spell her name. I 'll protect you Julie dear, and no one can touch you or give you any harm??? My daer wife and love.I kiss you and love you my hope.

J BARRHY

[redacted]

datée du 2 Juillet 1937

Dearest,

With thanks I recieved your letter par avion and express. I send herewith some news of today about the situation in Irak. It is getting worst than one expect. Many of the center party of ours are arriving by geat members.... of ... as I heard are to go to North Africa to make propaganda against us. I'll be careful and see that I dont meet anyone of them, I hope there I'll not be any troubles, I'll let you know in time of anything happening please dont be nervous and let me do things in calm because these people are soldiers, and they dont make head or tail of polites I am leaving tomorrow Saturday to Tunis and dont write to me till I send you a word. My wound is not good at all and I have fever attack this morning it is paining like anything I wish you were next to me to take care of it, I need somebody to be with. Compliments to mama and my love to you

Bahrry

Lettre à Melle [illegible] 4 Place Adolphe Chérioux Paris 15e [illegible]

Rio de Janeiro, 24 Juillet 1937

Dearest,

Yesterday I arrived here after a very tiresome journey, and after many troubles may be ended now to start some new life and to settle down. In Tombouctou I couldn't stay thats why I left Africa to South America with intention to avoid new happenings and I don't go at once to the Argentine because I want do to know about the situation there and ?????? there are still some relation between my friends and our counter party. Realy I don't know what to do and how to start a new work. I believe there won't be much to do but at any rate I'll try my best. If you write me you can always address me Co poste restante Albahrry Poste Restante. Rio de Janeiro, Brazil. Compliments to mama with all love to you

BAHRRY

Lettre à Melle [illegible]

Rio de Janeiro, 6 Août 1937

Julie darling,

Many thanks for your kind letter, it helped me a lots to be calm. I don't feel well at all, my foot is still paining, and very often I am feverish. No work to be at hand in this godforsaken country even not in a restaurant as a garçon. Really it is very hard life, and I think you've had enough of all these things so I may go to the Jongles of the Amazone and live with Indians and forget this horrible life with its troubles and misery, to save you troubles and to be a forgotten man. I test no more the good of being alive truly it is very hard now and I believe those who live in the hart of the uncivilised world there would not worry. I am fed up with myself, what is the use of life when there is no body cares for me and tell me that I am beloved and stay next to the one I love. If you realy love you should'nt let me go away and you'd have asked to stay by your side and it would have been very easy to me to find work in Paris. Now here I am all alone, no friends nothing in my pockets nothing to worry about but you. But as I am helpless here the jongles of the Amazone will be the best place for me. Forgive me sweetheart and pray for me I love you more then ever. Good bye my only one.

ALBAHRRY
Poste restante Sao Paulo Brazil
God bless you

Lettre à Melle [illegible] Place Adolphe Chérioux Paris 15e [illegible]

Damas, 13 Août 1937

Dearest,

It was realy very good that I came to Beyrout to see my people, and know all about them and to talk to them to the last time. From now I am alone. I've no family and shall never recognize that I've relations. Un fillouw left me nothing at all and thanks God he did so because if he had to leave something to me, I would have been stupid to depend on his money and will do no work! I'll not come for the moment to France and I'll go tomorrow to some Far country to start work. you'll not hear from me before 6 months, if I'll fail this time you are not hear anything from me and you should try to be calm, I hope to do good this time. I hope you enjoy your time at the Riviera and you'll remember your unlucky man some time. Please forgive me I am not myself now but in the near future, I'll do good. Be calm, I'll be back to you within 6 months. I must find

money and decent work to make you happy.....Complimentsto mama and love from yours for ever

J BAHRRY

You should excuse me if I did'nt tell you where I am going, what is the use of your knowing! I don't want you to help me this time as I told you at Genova, so I'll try my luck alone, only pray for me, for both of us, love PERHAPS AU REVOIR

[redacted]

Berlin, 9 Juin 1939

Dear Julie,

I didn't recieve a reply to my first letter till now, I hope it reached you and you are enjoying the best of health. I am not at all well I am a bit ill and need somebody near to me to take care of me, because I've had a very bad time during the last 2 years. What do you think of coming to Berlin to discover things over; Really I need you teribly, I want to put an end to all what had happened, and start a new life. You understand of course, what I mean and I am sure you'll not refuse me this time. So if you approuve this till quickly, I need to have next to me. I want to look at you every morning, and coming every because I love you more than any time before. I've done many things, and tryed everything to have a regular revenu for your ????? for our happines together.
Yours for ever,

BAHRRY
Berlin 9
P.O.B 103

[redacted]

Berlin, 14 Juin 1939

Julie,

I recieved your last letter from Paris in which you told me that you were leaving for the Hague "tomorrow" and I was surprised to see that you misunderstood me, because I asked you to come to Berlin to be with me and fix up things clearly, and then you are to decide whether you stay with me or be back again to Paris. As to me, I can't come to Paris at all on account of my present situation, as I am, in the ministry of propaganda and I am not allowed by the German Govt to leave, otherwise I would love to come to Paris and see you, and talk to you although you have no guest room--------The journey to Berlin will not be troublesome to you, because I'll send a return ticket by air, so you can take the (avion) from The Hague and within 3 hours you are in Berlin, your room in my flat is ready darling. Realy Julie, I love my new work, and I am doing my best on it, I organised the Arabic Broadcasting in the Ministry of Propaganda and it became a great sensation in the whole Islamic and Arabic World, did you hear me talking? I do so every evening from half past five till 7 on 31 meter short wave and 19-29 too. I'll be waiting your reply, and I hope to see you in the best of health. With love to you and compliments and good wishes to mama.

Yours BAHRRY

Lettre à Melle J. van der Veen, 4 SQ Henri Delormel, Paris 14-eme

Berlin, 18 Juillet 1939

Darling.

I did recieve your kind and nice letter this morning after waiting days for it, and I am very sorry to hear that you have to keep a "regime" as your doctors order ... and you want enjoy the amazing Chinese food any longer, but I am sure, it is only for the time being, because when you come to Berlin you 'll be yourself again, and you 'll regain your health and strength, as we have many better doctors than those of France and they know how to put you in order and fix you up to good again. Realy I am quite lonely althoug I enjoy life and see many people and keep company with best of society men and women...but this is not enough as you know yourself, because the only person with whom I don't feel lonely is you, although you ignor this fact on purpose and you try to keep me out of your life, and as I notice from your letters this time that you end with these dreadful sentences ... ."with compliments or with best regards etc ....", no matter what you write I myself I shall write you the same words I use before, and will never do otherwise because I love you, and when you love once then it is very difficult to as you wish, or like because love is a commanding thing, you can never rule it, and when you think that you can do against its commandement, then it is not love, it is merely a sort of caprice comes and goes after having what a person needs out of it. I dont' like to carry on this subject, because I am certain that you know it as I do, but your "regards....and....compliments" both made me a little silly so you may excuse me once and for all!!! Sweetheart! I never knew that no one can send money out of the country unless I tried to send some money, and I think it is very wise thing for the safety of the Reich and my sallery is 1250 rm so I'll buy nice clothes, and a car a very good Mercedes Benz . and I'll do as you said, be very faithful to my job, and I'll be very loyal to Ministry whatever happens, because for the first time in my live I see a government that appreciate my work, and give one a chance to emprove it, and give them a surprising results. The heat in Berlin became unbearable this week, I am nearly fainted, but as I swem each morning, this helps me a lot to recover. I discovered more nice places to go and dine at . they give Turkish and Persian food, and they serve "Arak" a sort of oriental alkohol like English Gin, or Hollandish Bolls! I realy adore Berlin, and I am sure it is the best town I ever seen you know I am an "?????" on places and towns and countries. I am studiing German and English and Russian ???? in my spare time, and I am getting pretty good in my German lessons and I am working hard to emprove my English. Now tell me frankly when can you come to Berlin? Please don't make it more difficult in saying that you are ill and you can't travel etc. I wish you come and have a whole medical examination by the Berlin famous Doctors, and don't let those stupid Doctors of Paris spoil yours health for nothing. Well darling, it is time to go to sleep! Do you know what time it is now? 4 o' clock morning, because I came late home. I have had a long driving with some friends on the new German motorways, they are splended you can drive 120km, it is only one way driving no fear at all accidents. I am having more work at the Ministery now because Broadcasting once more in every evening, it is realy great work I am enjoying talking to the Arabic Nations as entended to talk to them since many years, and at last my dreams came true. Darling I want to say good bye, and till as long, with good wishes to mama

Love and thousand of kisses,

BAHRRY

Lettre à Melle Julia van der Veen, 4 SQ Henri Delormel, Paris 14-eme

Berlin 23 Juillet 1939

Dearest.

It is very nice of you to send a nice letter like that .I think you are yourself again. Of course I'll send the ticket, but you should tell me wich way you like better air or train, as to the price it is nearly the same so it is up to you to decide, and please let me know a week before and so I can

الدكتور
لؤي يونس بحري

- ولـد في ٢٤ مـارس ١٩٣٤ بمدينـة بغـداد ودرس في الإعداديـة المركزيـة ثـم حـاز علـى بكالوريوس في الحقوق من جامعة بغداد سنة ١٩٥٧، وحاز على الماجستير والدكتوراه من جامعة مونتبلر Montpellier في فرنسه (٦١ - ١٩٦٢ م)، وكانت أطروحته في الدكتوراه بعنوان (الكويت دراسة اجتماعية سياسية اقتصادية).
- وفي سنة ١٩٧٠ حاز على دبلوم من أكاديمية لاهاي للقانون الدولي.
- يجيد بالإضافة إلى العربية: الانجليزية، الفرنسية، الألمانية.
- زميل أبحاث، قسم التاريخ، جامعة كولوجني Cologne (ألمانيا).
- بروفسور زائر. جامعة قسطنطينية، وجامعة الجزائر. ١٩٧٢ /١٩٧٤.
- بروفسور مساعد: العلوم السياسية - جامعة بغداد ١٩٦٢ - ١٩٦٦.
- بروفسور مشارك. قسم العلوم السياسية جامعة بغداد ١٩٦٦ - ١٩٧٨.
- زميل زائر، فرع العلوم السياسية - جامعة ولاية أوهايو ١٩٧٧ - ١٩٧٨.
- بروفسور مشارك، قسم الإدارة العامة - كلية الفنون - جامعة الملك عبد العزيز، جده، السعودية ١٩٧٨ - ١٩٨٠.
- بروفسور مشارك، قسم التاريخ، كلية الفنون، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، ١٩٨٠ - ١٩٨٣.
- بروفسور مشارك. قسم العلوم السياسية. فرع العلوم السياسية، جامعة تينسي ١٩٧٨.
- عضو في الجمعيات التالية: الدراسات الدولية - العلوم السياسية الأمريكية - دراسات الشرق الأوسط - معهد الشرق الأوسط - وجمعية خريجي الجامعة العربية - الأمريكية.
- اختصاصاته التعليمية: التاريخ الحديث: الشرق الأوسط - أوربا - المنظمات الدولية - القانون الدولي - العلاقات الدولية - السياسة العربية الخليجية والتحول الاجتماعي - العلوم السياسية.

المؤلفات:

- الصراع الدولي بسبب جزيرة أبو موسى قبل الحرب العالمية الأولى، بغداد: وزارة الإعلام - ١٩٧١.

- التعاون الدولي والتنظيم في القرن التاسع عشر. بغداد، مطبعة أسعد: ١٩٦٤.
- السكك الحديد، بغداد "دراسة لتاريخ ودبلوماسية مسألة السكك الحديد بغداد (١٨٩٠ - ١٩١٤) بغداد المطبعة الأهلية ١٩٦٧.
- مفاهيم العلوم السياسية، طبعتان، بغداد، ١٩٦٦، ١٩٦٧.
- الحركة الوطنية في تونس من الوصاية على العرش حتى الاستقلال، بغداد وزارة الإعلام ١٩٦٥.

المقالات:

- "الانتخابات في قطر" نافذة حول الديمقراطية المفتوحة في الخليج. سياسة الشرق الأوسط، واشنطن، حزيران ١٩٩٩.
- المعارضة في البحرين، سياسة الشرق الأوسط، واشنطن، د. بي مايو ١٩٩٧.
- المرأة السعودية الجديدة، "التحديث في إطار العمل الإسلامي، مجلة الشرق الأوسط" واشنطن. د. سي. ١٩٨٢.
- دراسة مقارنة للمؤسسات السياسية في بريطانيا العظمى وألمانيا الغربية مجلة الاقتصاد والإدارة، جامعة الملك عبد العزيز، جدة: صيف ١٩٨٠.
- التخطيط وتنظيم العمالة المهاجرة من تطور دول البحر الأبيض المتوسط إلى الدول الأوربية الصناعية مراجعة - محلية القانون بغداد ١٩٧٨
- بعض التوقعات للسياسة الألمانية في عمان والسعودية - قبل الحرب العالمية الأولى، إشارات حول المؤتمر الدولي لتاريخ السعودية الشرقية، قطر ١٩٧٧.
- بعض التوقعات السوسيولوجية للمشاكل التصنيعية في الدول الإفريقية الجديدة، إشارات حول المؤتمر الرابع للمعهد الدولي للسوسيولوجيا، الجزائر ١٩٧٤.
- الدور العربي في إفريقيا الشرقية مراجعة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بغداد: ١٩٧٠.

مقالات في الموسوعات البريطانية:

- العراق، البحرين، كتاب بريتانياسا لسنة ١٩٩٩.
- العراق. البحرين، كتاب بريتانياسا سنة ١٩٩٨.
- العراق. البحرين، كتاب بريتانياسا سنة ١٩٩٧.
- العراق، كتاب بريتانياسا سنة ١٩٩٦
- تاريخ العراق "بيبي مار" بريتانيتا المجموعة العامة - شيكاغو - الينوي أمريكا ١٩٨٩.

- صدام حسين، نوري سعيد، عبد الكريم قاسم، فاضل عباس المهداوي، كلية قانون بغداد مقالات في انسيكلوبيديا الشرق الأوسط الحديث، نيويورك - معهد الشرق الأوسط - جامعة كولومبيا - ١٩٩٤.
- عبد الكريم قاسم، برنارد رايخ
- القادة السياسيون، الشرق الأوسط وشمال إفريقيا - مطبعة جرين وود ١٩٩٠
- العراق، مقالة في انيسكلوبيديا، ورلد مارك الدولية، نيويورك، مطبعة ورلد مارك ١٩٨٨.
- صدام حسين، مقالة في انسيكلوبيديا
- سيرة العالم، نيويورك، مالحجرورهيل

الأوراق:

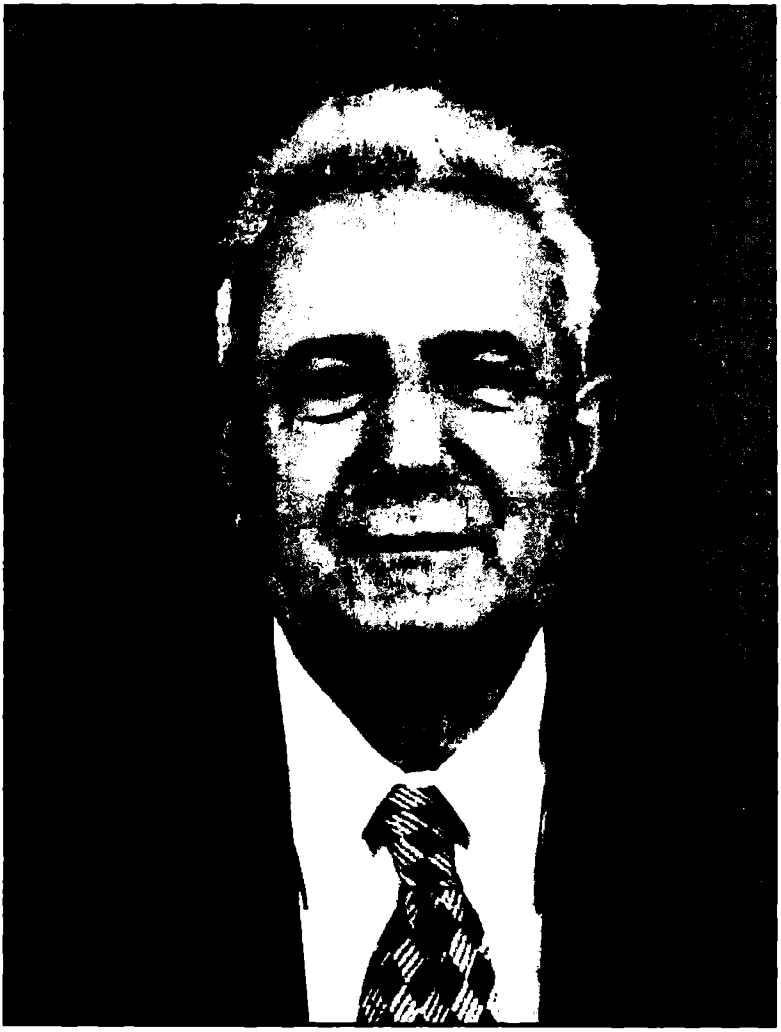
- "الديمقراطية في الخليج العربي" نموذج قطر والبحرين، ورقة مقدمة في اجتماع شتوك، لجمعية - شمال شرق للعلوم السياسية الدولية. فيلادلفيا، نوفمبر ١٢ - ١٩٩٩.
- المؤسسة الاجتماعية - الاقتصادية للمعارضة الشيعية في البحرين ورقة عمل مقدمة في الاجتماع الدوري لمؤسسة دراسات الشرق الأوسط. واشنطن، د. ي - نوفمبر ١٩٩٩.

" أخرى":

- الإدارة العامة المقارنة، كتاب نصوص، جدة - ١٩٨٣.
- المستشارة/ليل ميريل فوستر
- تطوير العالم - العراق " شيكاغو - مطبعة الأطفال - ١٩٩١.
- "مراجعة الكتب": فردريك اف. انسكوب
- "اكتشاف الكويت" - الشرق الأوسط.
- ماجد قدوري، وأدمون غريب: "الحرب في الخليج " مجلة الشرق الأوسط.
- آمي أيلون، مطبعة مجلة الشرق الأوسط العربية للدراسات الفلسطينية - صيف - ١٩٩٧.
- مالك فقي، الاكتشافات السائدة، النظام السياسي في سوريا والعراق - سياسة الشرق الأوسط، سبتمبر ١٩٩٧.
- لورا لوكيتز، العراق: بحث حول الهوية الوطنية لسياسة الشرق الأوسط. أكتوبر - ١٩٩٦.
- توم فيركمان، الأصول الاجتماعية للحرب الإيرانية - العراقية، سياسة الشرق الأوسط صيف ١٩٩٦.

- مايكل ابل: الصراع الفلسطيني في التاريخ الحديث، مجلة العراق للدراسات الفلسطينية، ربيع ١٩٩٦.
- جاد بارزيلاي، الاضطرابات في الخليج وجهة نظر حول الشرق الأوسط ديسمبر - ١٩٩٥.
- ديفيد ديكوس، ولكن هل هذا عادل؟ الانعكاسات في الأخلاق - حرب الخليج الأولى، مجلة الدراسات الفلسطينية ربيع ١٩٩٤.
- ديفيد اش، ميني، خطوط التحول في الرمال، حدود الكويت المضللة مع العراق، نشرة مؤسسة دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤.
- خلدون حسن، المجتمع والدولة في الخليج وشبه الجزيرة العربية. وجهات نظر مختلفة، مجلة الشرق الأوسط شتاء، ١٩٩٢.
- فكر الدين عربي/" ايران واضطرابات الديمقراطية " ١٩٤١ - ١٩٥٣
- سجلات الأكاديمية الأميركية.
- العلوم الاجتماعية والسياسية، نوفمبر ١٩٩٠.
- ريتشارد سندلر وجي اي بيتوسن
- التداخلات الحالية في الخليج العربي، المصالح العالمية والكونية، مجلة الشرق الأوسط، صيف ١٩٨٩.
- مارتن كرامر "الإسلام الجماعي" انتقاد المؤتمرات الإسلامية
- عمانويلسيفان، الإسلام الراديكالي اللاهوتية في القرون الوسطى والسياسات الحديثة - الأكاديمية الأمريكية، سبتمبر ١٩٨٧.
- شهبتايتيفث. بن غوريون والعرب الفلسطينيين، من السلام إلى الحرب والتواريخ "غريب في المنزل" اليهود والعرب في الضفة الغربية. الأكاديمية الأمريكية يوليو ١٩٨٦.
- ادوار وآزار - بزوغ دولة لبنان الجديدة الفانتازيا أم الواقعية - الأكاديمية الأمريكية - مارس/ ١٩٨٦.
- سيد أر اريوماند " ظلال الرب " والإمام الغائب وشيري لبيرناردو زالمي خليل زاد - حركة الرب " الجمهورية الإسلامية - الإيرانية " مجلة السياسة نيويورك - ديلافير، مارس ١٩٨٦.
- بول بوننفانت - شبه الجزيرة العربية هذا اليوم - المجلد /٢، مجلة الشرق الأوسط، خريف - ١٩٨٥.

- ستيفان بيليتير ـ الأكراد " إقليم غير مستقر في الخليج، مجلة الشرق الأوسط، شتاء ١٩٨٥.
- اتمار رابينوفيتش "حرب لبنان" ١٩٧٠ ـ ١٩٨٣ الأكاديمية الأمريكية/يوليو ـ ١٩٨٥.
- شارلز تريب ـ الأمن الإقليمي في الشرق الأوسط ـ الأكاديمية الأمريكية/يناير ١٩٨٥.
- الفين روبنشتين: اللعبة الكبرى التنافس في الخليج العربي وجنوب آسيا الأكاديمية الأمريكية.
- كريستيان موسى هيملس: العراق ـ الجناح الشرقي من العالم العربي.
- تقرير واشنطن المتعلق بشؤون الشرق الأوسط، ١٧ ديسمبر ١٩٨٤.
- سيمور غراي/ما وراء الستار ـ /غامرات طبيب أمريكي ـ المملكة العربية السعودية، مجلة الشرق الأوسط شتاء ـ ١٩٨٤.
- اليزابيث مونرو ـ أهمية بريطانيا في الشرق الأوسط (١٩١٤ ـ ١٩٧١) الأكاديمية الأمريكية/ سبتمبر ـ ١٩٨٢.
- "سليمان الغنام " رؤى أخرى حول السياسة التوسطية ـ لمحمود علي باشا (١٨١١ ـ ١٨٤٠) مراجعة ـ الفيصل/الرياض، ديسمبر /١٩٨١.
- وليد الخالدي "الصراع والعنف في لبنان" الأكاديمية الأمريكية، مايو ١٩٨١.
- افيس بيسن " وابن سعود ـ نشوء المملكة العربية السعودية ـ كريستيان موسى ارتباط المملكة.
- محمود علمان ـ العربية الموحدة: مجلة الشرق الأوسط/١٩٨١.
- ـ ملحم شاول، الأمن في الخليج العربي: مجلة الشرق الأوسط " ربيع ـ ١٩٨٠ "
- ـ محمد حسنين هيكل: الفينيق والمندوب " نشرة مؤسسة الشرق الأوسط/يوليو ١٩٨٠.
- نشرة مؤسسة دراسات الشرق الأوسط يوليو ـ ١٩٨٠.
- حنا بطاطو " الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق. الأكاديمية الأمريكية مارس ١٩٨٠.
- روبي غابي ـ الشيوعية والتحول في العراق ـ مجلة الشرق الأوسط شتاء ١٩٧٩.
- مايكل دولس، الموت الأسود في الشرق الأوسط، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت ـ خريف ١٩٧٨.
- صديق وسنافلي "البحرين ـ قطر والإمارات العربية"، مجلة العلوم الاجتماعية الكويت ١٩٧٥. ■



لؤي يونس بحري

معروف الرصافي

حين يكتب تاريخ الأدب العربي يحتلُّ الشاعر العراقي معروف الرصافي صفوف المتقدمين فيه فهو من رموز هذا الأدب وبُناته الكبار.. وكلما مرَّ (دجلة) متلألئاً بين ضفتيه، وهدأ الليل وكانت شعاعات القمر تسكب على دجلة الفضة المُذابة، طاف خيال (الرصافي) في تأملات الأدباء المحُدثين، فأحسوا كأن روحه رفّافة بينهم، وأن صداه يكمن حواليهم في الظل الظليل من أفواف النخيل، وهو يُنشد بلحن محزون قوله في حياته:

أنا ابن دجلةَ معروفٌ بها أدبي	وإن يك الماء منها ليس يرويني
قد كنتُ بلبلها الغرّيد أنشدها	أشجى الأناشيد في أشجن التلاحين

ولد الرصافي في بغداد سنة (١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م) من أب ينتمي إلى عشيرة الجبارين الكردية ويعمل جاندرمة برتبة (باش جاويش) في الجيش العثماني ويدعى عبد الغني بن عبد القادر بن محمود، أما أمه تدعى فطومة بنت جاسم بن الشيخ علي، وقد توفي والده وهو في بداية تحصيله الديني أما أمه فطومة فقد توفيت أثناء غيابه عن العراق خلال الحرب العالمية الأولى وكان الرصافي الابن الوحيد لأبويه.

درس في بغداد في المدرسة الرشدية ثم العسكرية ثم اختلف إلى الشيخ محمود شكري الآلوسي فأخذ عنه وهو الذي اعتنى به وشجعه على المثابرة في طلب العلم وهو الذي لقبه بالرصافي، وسرعان ما ظهرت موهبته الشعرية فأصبح ينظم الاراجيز والمقطوعات في مختلف الأغراض الشعرية وأعجب في بداية حياته الأدبية بالمتنبي والمعري ولإعجابه الشديد بالمتنبي قام باستنساخ ديوان المتنبي بخطه واستمر في نفس الوقت بإكمال دراساته في علوم العربية والعروض وكتب الفقه وأصوله والكلام والحساب، وعُيِّنَ معلماً أول مرة في مدرسة الرشدية قرب بغداد ثم تنقل في عدة مدارس أخرى وخلال فترة تدريسه كان ينشر شعره في الصحافة المصرية والسورية بالإضافة للصحف العراقية، ثم طمحت نفسه إلى زيارة الآستانة فذهب إليها وزار فلسطين وسورية ولبنان، وفي تركيا اتصل بكبار رجال الحكم واستطاع أن يكون نائباً في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) وهي درجة أعلى مراتب الوظائف وانتسب هناك إلى جمعية الاتحاد والترقي، كما انتسب إلى جمعية (الأخوة العثمانية) وهي منظمة ماسونية خاصة بأبناء العرب وكان يرأسها جاويد باشا وزير المالية العثماني وقد بلغ الرصافي درجة أستاذ في المحفل

الماسوني ثم قطع صلته بالماسونية. وعندما سقطت الدولة العثمانية عاد إلى العراق، لكنه لم ينل ما كان يطمح إليه من المناصب العالية وبعد مدة طويلة من وجوده في بغداد نجح بالفوز بالنيابة عن مدينة بغداد سنة ١٩٣٠ ثم أعيد انتخابه عن لواء الدليم ١٩٣٧، وانتخب للمرة الثالثة عن اللواء المذكور في السنة نفسها وكانت هذه التعيينات بتزكية من رؤوساء وزارات تلك العهود وهم: نوري السعيد وياسين الهاشمي وحكمت سليمان.

ومن الوظائف التي شغلها في بغداد تعيينه نائباً لرئيس الترجمة والتعريب، ثم أصدر جريدة الأمل اليومية وقد أصدرها سنة ١٩٢٣ فعاشت أقل من ثلاثة أشهر وعين مفتشاً في المعارف فمدرساً العربية فرئيساً للجنة الإصلاحات العلمية واستقال من الأعمال الحكومية سنة ١٩٢٨، وبعدها عين في مجلس النواب كما تقدم.

زيارة مصر:

في عام ١٩٣٧ زار مصر مع وفد عراقي من أجل توثيق العلاقات وتوطيدها والتقى هناك طه حسين، وقد أعجب به الرصافي وقال عنه "إنه أعلم أدباء مصر قاطبة ولكنه يُلام بأنه يماشي بعض رجال الدين والعالِمُ يجب أن يقول الحقيقة ولو أغضب الغير كائناً مَنْ كان".

علاقته برجال السياسة:

عرف الرصافي بإساءته لرجال السلطة في العراق، مع أن غالب هؤلاء كانوا يطلبون ودّه ويؤلمهم أن يكون محتاجاً، يقول الدكتور يوسف عزّ الدين "ولولا شذوذ الرصافي لما تأخروا عليه بالوظائف العالية، وقد حدثني السيد خيري الهنداوي أن للرصافي راتباً يتقاضاه، وكان هذا المبلغ يجيئه به رسول خاص، فكان يأخذ الراتب ولا يوّقع اعترافاً بالتسلم، ويطرد الرسول بعد أن يتسلم الراتب".

وأكبر من عاداه الرصافي ملك العراق (فيصل الأول) وكانت معاداته للبيت الهاشمي قديمة فقد هاجم أباه الملك الشريف حسين عام ١٩١٧ بقصيدة منها:

هي النفوس وإن لم تبلغ الحلما ... مطبوعة الطبع أن لؤماً وإن كرما

وبقي كرهه لفيصل بعد اختياره ملكاً، وحاول عبد المحسن السعدون الإصلاح بينهما لكنه أخفق في ذلك لذلك سلَّ عليه سيف الجهاد والتقريع ومن ذلك قوله فيه:

تبوأ العرش ملكاً لا بحسامه ... وما كان في يوم له الشعب ناخبا

ولكن بطيارات قوم تطايرت ... فكانت علينا من شواظٍ سحائبنا

وليس له من امرهِ غير انه ... يُعدِّد اياماً ويقبض راتبا

ومع هذا فقد حاول الملك إسترضاءه والتقاه لكن الرصافي لم يعتذر عما قاله وخرج الرصافي ولم يعد إليه ولما مات الملك رثاه بقصيدة خالية من الإجادة مطلعها:

ابـو غـازي ثـوى فـاقيم غـازي فقـدمنا التهـاني والتعـازي

ولم تصادف استحساناً ولا إقبالاً وتشاءم منها الكثيرون. مع أن الرصافي مدح الكثيرين من أصحاب المال والسياسة ومن هم أدنى من مليكه أخلاقاً وفهماً وأريحية، ولم يكن هجاؤه للملك موقفاً وطنياً فقد مدح هربرت صموئيل المندوب السامي اليهودي في فلسطين بقصيدة جعل لقاءه فيها مثل ليلة القدر:

فيا ليلة كادت وقد جلَّ قدرها تكون على عِلاَّتها ليلة القدر

ومدح نوري السعيد بشعره بل خلده بقصيدة رائعة حينما حصل (السعيد) على وسام الرافدين فقال:

تـه يـا وسـام الرافـدين بـصدر مَـن هـو في العُـلا للرافـدين وُسـام

ولما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ وقف الرصافي في مقدمة مؤيديها وهاجم الإنكليز وأعوانهم بقصيدة مطلعها:

اليـوم قـرَيّ يـا مـواطنُ اعينـا وتطرَّبـي بالحمـد منـك الألـسنا

ولعل مرد ذلك تعبيراً عن فرحه بزوال الحكم الملكي ولو إلى حين لأنه كان يكره رشيد عالي الكيلاني وقد نظم في هجائه أبياتاً مقذعة لم يضمها ديوانه وكان الكيلاني يبادل الرصافي العداء والكراهية وسبَّبَت القصيدة السابقة في تأييد ثورة الكيلاني خلافاً جديداً مع الوصي عبد الإله ومع خلافاته وشتائمه الكثيرة بحق ياسين الهاشمي وغيره فإنه لم يسجن ولم يهان بل كان الجميع يُقيلون عثراته ويعتذرون عنه، ومن الطريف أن الرصافي عاد إلى طبيعته فهجا نوري السعيد، فلم يكن من الأخير إلاّ أن يخصص له مبلغ أربعين ديناراً يدفعها إليه عن طريق محمود السنوي، وفي إحدى المرّات قال السعيد للسنوي: ألا يقول صاحبك فينا شعراً؟ فلما عرض الأمر على الرصافي قال: إن الشعر كالشهيق يأتي عفواً، ولا يمكن اصطناعه فلما سمع السعيد ذلك ردّ عليه:

أنا لا أريده يشهق بل أريد الله يأخذ عمره ويقطع نفسه.. واستمر على دفع المخصصات.
ومع اشتهار الرصافي بمعارضته للسلطة عَلَناً وتهكمه على الوزراء فقد كان موقفه العدائي لبعض الشخصيات مدار بحث في الصحف العراقية خاصة، ومن ذلك كراهيته للكاتب العراقي إبراهيم صالح شكر ومن تداعيات هذه القصة قيام هذا الكاتب باتهام الرصافي بكونه يماشي السلطة في كل زمان ومكان " فهو – أي الرصافي – تركي مع الترك وعربي

مع العرب وأجنبي مع الأجانب وأنه مدح الطغاة وأصحاب المال وتسوّل في شعره وإنه ينظم شعره في نهش الأعراض والاستجداء.. وهو لا يعرف شيئاً غير الشعر فكتابته ركيكة مفعمة بالأغلاط الشنيعة وأنه صفر في العلوم ولا يفقه في الأدب وتاريخه فهو يجهل العقاد والمازني وقد ذكر قصيدته الطائية التي ذم بها دعاة العرب وذكر قوله فيهم (وأشطب عليهم بنعلٍ إنهم غلط) وقال عنه أنه هاجي الأمة العربية وناهش عرضها، وذكر قصيدته الميمية قال (أنه غمس فيها يده بدماء الشهداء العرب وأوسعهم فاحش المقال).

وقد ردّ عليه الرصافي بقوله: "لم يجر بيني وبين هذا الرجل ما يدعو إلى هتك الأعراض وانتهاك الحرمات وخفر الذمم وترك الحياء إلى قول هراء، بل حتى أحسُّ أنه من المتملّقين إليّ، وكان يحترمني ويجلّني بنفسه وجريدته غير أنه اتصل أخيراً برجال اشتروه بمال فإذا هو مكشّر عن أنياب لؤمه في وجهي".

شاعريته وشخصيته:

ملئت شهرة الرصافي الآفاق وبلغت شاعريته أقاصي البلاد ومما حبّب الرصافي إلى أبناء جيله تناوله الأغراض الاجتماعية والسياسية بأسلوب واضح وبليغ وبعيد عن التكلف والاصطناع يقول عبد القادر المغربي في وصف شعره:

"والرصافي في مزيتي السهولة، ونمنمة الديباجة شبيهٌ بالبحتري، فالكلمات في أبياتهما مختارة منتقاة، وقد رتبت بحسب ترتيب المعنى، ففُصلت على قدره، فلا تقديم ولا تأخير ولا حشو ولا تعقيد ولا استعارات بعيدة ولا كنايات غامضة.. ـ وهو أيضاً ـ شاعر معان، وحكيم حجة وبرهان، فهو في كثير من مواقفه يستخرج المعاني الدقيقة، ويعبر عنها بألفاظ جزلة، وأسلوب فخم، ويضمن شعره الأمثال والحكم والتلاميح إلى قضايا العلم والفلسفة والتاريخ..."

وقال روفائيل بطي في وصفه "هو شاعر عظيم، دقيق الملاحظة، حسن الأداء، ناصع البيان، والرصافي عبقري بحق، وأعجبني بنوع خاص إجادته في الوصف والترسيم فهو كالمصور مع أناقة في التعبير، وحبذا لو خلت سجاياه من بعض الهنات نظير ضعف نفسه أو إرادته التي تجعله يتذبذب في حياته السياسية".

وفي تقييم شخصيته يقول الدكتور يوسف عز الدين:

"شغل الرصافي الناس وبخاصة المفكرين والساسة بتمرده وثورته وغرابة تصرفاته وتناقض أعماله والشذوذ الظاهر في أسلوب حياته فهو بين محبٍ شديد في الحب وعدو يتمنى القضاء عليه.



الشاعر معروف الرصافي

إنه فلتة فكرية ونبوغ عبقرية يصاحبها هبوط نفسي، وما كان يُقيم للناس وزْناً أو قيمة، يتمتع في ليله ما شاء له الوقت في مصاحبة الكأس والقمار والجنس، وفي الصباح يتحول إلى الهدوء والفكر والعلم والفضل وروائع الشعر".

شذوذ الرصافي (فسقه وفجوره):

يقول أحد أقرب الناس للرصافي وهو المرحوم مصطفى علي:

"إننا نحن حفظاء الرصافي نعرف أن له من الشذوذ ما لو رآه هو عند غيره لأخذ منه العجب مَأخذه، ولو أبصره من سواه لأنْكَره عليه كل الإنكار" وليس مصطفى علي الوحيد الذي لفت النظر إلى هذه الظاهرة في حياة الرصافي، فيروي عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المشهور وكان من أصدقاء الرصافي في اسطنبول يقول: إن الرصافي كان يعيش في دعة هناك وكانت زوجته تحظر عليه من الخروج يومياً مساء عدا يوم واحد في الأسبوع، وكان نظيف الملابس، يعيش عيشة الترف والكبراء، أما الرصافي في بغداد فقد زرته مرة – والكلام للثعالبي– فوجدت عنده ولداً قذراً – وهو منكوحه عبد – فقلت له: من هذا فقال (خادم البيت)، ولكن لما جلسنا للطعام، جلس معنا فانتهرته. فأجاب بوقاحة أنه جلس يتغذى. فتركته، وانقضى عليّ شهران وأنا لا أطأ عتبة بيت معروف. وهو شعر مني ذلك. فصار لا يرضى أن يأكل عندي ولكن كلما طبخت طبخة أعرف أن الرصافي يحبها، أرسلتُ إليه بمقدار منها. وقد رأيته في العشرين يوماً الأخيرة أنيساً لطيفاً وديعاً وقد تغيّرت أخلاقه. وكان ذلك آخر العهد به".

وتطرق الدكتور يوسف عز الدين إلى شذوذ الرصافي الجنسي واشتهاره بذلك وعزا لهذا السبب انكفاء بعض الناس كما أنه لم ينط به أي عمل حكومي مرموق حيث أن للعمل الحكومي صفات، منها المحافظة على الآداب العامة ولم يكن الرصافي يحافظ عليها. فكان يسكن بين العاهرات من غير أن يبالي.

ويروي الرصافي نفسه أنه أجّر داراً منها باباً على الكلّجيه (بيوت الدعارة) قال "فكانت المومسات القحاب يدخلن بيتي من الباب" ونجلس معاً وكنا نلعب بوكر وكنا نخرج لهن بعض (فيشات) وكان من يرغبها منا يذهب معها إلى محلها في الكلّجية من الباب ويقضي حاجته ويرجع وكنا نرقّص بعضهن بملابسهن أو عاريات " والكلّجيه هي المبغى العام الواقع في كوك نزر والذي أزالته الحكومة عام ١٩٥٤.

يقول سلمان الشيخ داود وكان أحد المتمردين على الرصافي "إن الرصافي حينما تلوح عليه الخسارة على مائدة القمار، يأخذ في مخاصمة اخوانه الذين يلعبون معه. ويكثر من

السبّ والضجيج وقد يمزق الورق، ولا تنتهي جلسة القمار إلاّ بخصومة له مع أعز أحبابه المقامرين، وفوق ذلك يلوط الفتيان المرد".

أما معاقرته للخمرة فقد كان ذلك منذ مقامه باسطنبول وقد تعلمها هناك بحكم المخالطة مع أصدقائه المدمنين في مدرسة علي أفندي وهو يفضل العرق على كافة أنواع المشروبات لأنه باعتقاده يعطل العقل الذي يعتبره سبب المشاكل كلها.

وكان نتيجة انكبابه على العادات الممقوتة من قبل المجتمع أن انزوى عن الناس، وعاش في وضع لا يُحسد عليه من الفقر والحرمان، وبقي كثير اللوم لمجتمعه وللسياسيين في عصره، وقال مرة: "لو كنتُ احترف – دق الدنبك – وهي أحقر مهنة بنظر الجمهور، لكنت أعيش خيراً من عيشتي الحالية التي أنا فيها".

ومع ذلك فلم يكن الرجل منسياً لهذا الحدّ فقد اعتنى بوضعه عدد من الأغنياء والسياسيين معاً لكنه لم يكن يتعامل مع الفرص التي تلوح له بما يناسب الحال، فقد كتب نوري ثابت في جريدته (حبزبور) مقالاً جاء فيه: "استدعاني احد الوزراء فقال نحن دفعنا مبالغ كبيرة لصحافيين جاؤوا إلى العراق ولكن الرصافي ابن الوطن البار مهجور في الفلوجه، فيجب أن نذهب إليه ونكلفه بقبول النيابة الشاغرة، وإذا أراد فليبق معارضاً في المجلس، وتفقد داره وقدم له مساعدة مالية ريثما تتم عملية الانتخاب، لأنه ليس من الأنصاف والمروءة ألا يكرم شاعرنا العظيم وابن الوطن البار القائل:

انا ابن دجلة معروفاً بها ادبي — وإن يك الماء منها ليس يرويني

قد كنتُ بلبلها الغرّيد انشدها — أشجى الأناشيد في اشجى التلاحين

واستأجر نوري ثابت سيارة وأخذ معه أبو حمد وحاتم الكرخي وسافروا إلى الفلوجه وعرض على الرصافي الأمر، فكان جوابه: "أما النيابة فأنا أقبلها، ولكني أرفض قبول التطفل على خزينة الدولة وأفضل الموت جوعاً على التطفل".

رأيه في الدين:

أثار الرصافي الشكوك في إيمانه عبر تصريحاته للصحافة أو كتاباته أو حتى شعره وأثار زوابع من الاتهامات ضده حتى اعتبروه كافراً وزنديقاً وملحداً، ومن شعره الذي أثار الطبقات الدينية حينها قوله:

لُقّنت في عصر الشباب حقائقاً — في الدين تقصر دونها الأفهام

ثم انقضى عصر الشباب وطيشه — فإذا الحقائق كلها أوهام

وفي العهد العثماني بعد نجاح الاتحادين في إعلان الدستور جمع عدداً من الشباب المتحمسين مثله للاتحاديين وبينهم بعض المسيحيين واليهود واقتحموا جامع الوزير المشهور ببغداد أثناء خطبة الجمعة وأنزلوا الخطيب من المنبر واعتلاه الرصافي ليقرأ منشورات اتحادية، وكاد الأمر أن ينقلب إلى فتنة عارمة لولا تعقّل بعض المسلمين، وبقي الرصافي منذ ذلك الحين على تحديه للقيم الدينية السائدة في المجتمع العراقي وكان يجاهر بآرائه تلك دونما خوف أو وَجَل، وقد كان من آرائه المعلنة:" إن الأمة إذا كانت متأخرة مادياً ومعنوياً، فهي أحوج ما يكون لانضباط الدين لأجل أن يكون الوازع فيها، ولكن الأمة إذا كانت متحضرة ومتركزة فيها الآداب والنظام والتشكيل الحكومي فيها دقيق فهي أقل حاجة إلى الدين لمثل هذه البيئة أيضاً ضروري لأنه لا يوجد في الكون شيء يقتل الإنسان مثل اليأس والدين يقضي على اليأس".

وكان يرى أن أصحاب المذهب السني والشيعي على ضلال لأنهم خرجوا وابتعدوا عن روح الإسلام، وأكثر تحامله كان على أصحاب المذهب الشيعي وقد ذمَّ الشيعة ذمًّاً شنيعاً وشبههم باليهود على طريقة السلفيين التكفيريين وقد تناولنا مجمل آرائه تلك في كتابنا(سوسولوجيا الصراع الطائفي).

وفي سنة ١٩٢٦ نشرت له جريدة (المنيران) الدمشقية مقالاً تحت عنوان (حقيقتي السلبية) قال فيه:

... إني اعتقدت أن الديانات هي من وضع الحكماء أهل الدهاء. وأنه لا يعتقد بالسماء ولا بجهنم ولا بالمفاخرة بالجدود ويرى للرجال فضلاً عن النساء.

وقد أحدثت المقالة ضجّة كبرى على الرجل في أندية المتعممين وكفروه وحرّضوا على قتله والتنكيل به وإلى هذه القضية أشار الرصافي بقوله:

رماني القوم بالإلحاد جهلاً ... وقالوا عنده شكٌ مريب

فمن ذا منكم قد شقَّ قلبي ... وهل كشفت لكم في الغيوب

فعند الله لي معكم وقوف ... إذا بلغت حناجرها القلوب

يقيني شر فريتكم يقيني ... بأن الله مطَّلع رقيب

وفي أكثر من مقطوعة هجا رجال الدين وهاجمهم كقوله:

ولا تتبقوا الذين قد استبدوا ... وراموا كيدنا وتخوّنونا

هم الأشرار باسم الدين قاموا ... فعاثوا في المواطن مفسدينا

وأخيراً فإن كتابه الموسوم (الشخصية المحمدية) كفيل بإظهار رأيه السلبي بالدين وما إليه.

خصومته مع الزهاوي:

تبارى الرصافي مع الزهاوي زمناً، وبلغ ذلك حدّ الخصومة الحادة بحيث انتشرت أنباءها إلى خارج العراق، وكانت العلاقات بينهما تهدا فترة وتثور فترة أخرى ولما قدم الزهاوي من مصر عام ١٩٢٤ أقام لفيف من الأدباء حفلة تكريمية للزهاوي أنشد فيه الرصافي قصيدة يُحييه فيها، وكان فيما يبدو راغباً في إنهاء قطيعته معه، ومما جاء فيها:

أرى بغداد من بعد اغبرار ... زهت بقدوم شاعرها (الزهاوي)

زهت بكبيرها أدباً وعلماً ... زهت بطبيب علّتها المداوي

فاهلاً بالحكيم وألف أهلا ... بمن لازال مُرشد كل غاو

إذا ما قال في بغداد شعراً ... رواه له بأقصى الأرض راو

وبعد برهة وجيزة من الزمن تجدد الخلاف بعد أن قام الزهاوي بنقد شعر الرصافي من جميع الوجوه عندما راح ينشر مقالات متسلسلة على صفحات جريدة (الفيحاء) الدمشقية سنة ١٩٢٥ فكان لهذا النقد أثره في الرصافي وأنصاره الذين انبروا للزهاوي ينقدون شعره، ويكيلون له الصاع صاعين.

وقد كتب روفائيل بطي في يومياته بتاريخ ٣٠ آب ١٩٢٥ معلقاً على هذه الخصومة "بين الرصافي والزهاوي مشادة في هذه الايام على أثر نشر الزهاوي في جريدة الفيحاء مقالات يذكر فيها أبياتاً للرصافي يقول أنه أخذها منه ومن غيره من الشعراء والعداء بين الاثنين قديم، يرجع إلى حسد الثاني للأول، لأن الرصافي أعلى منه لقباً وارسخ قدماً في الشعر وغيره من فنون الأدب. ويتوسل لذلك الرصافي بوسائل دنيئة. ومن أضحك ما جرى أن الزهاوي اشترط ا نظم قصيدة يتلوها في حفلة التكريم لعبد العزيز الثعالبي أن لا ينشد الرصافي شيئاً في الحفلة. ولما قام الرصافي ينشد بعد الزهاوي، نهض الزهاوي وترك المكان، فضحك الجميع ضحكة طويلة".

وبالرغم من هذه الخصومة بين الشاعرين فإنه كان لكل منهما ميدانه: الرصافي بوصفه، والزهاوي: بفلسفته. وحين مات الزهاوي وقف الرصافي على قبره وأنشد مؤنباً:

ايها الفيلسوف قد عشتَ مضنىً ... مثل ميت وصرتَ بالموت حيّا

ما حياة العظيم إلا خلود ... بعد موت يكون للجسم طيا

سوف أبكي عليك شجواً وإني ... كنتُ أبكيك في الحياة شجيا

بين الرصافي والجواهري:

بدأت العلاقة بين الشاعرين الكبيرين عام ١٩٢٣ حينما كتب الجواهري - وهو إذ ذاك في العشرين من عمره - قصيدة إلى الرصافي يدافع فيها عنه حينما تعرض الأخير إلى حملة التكفير وفي أواخر العشرينات بعد أن أصبح الجواهري موظفاً في البلاط الملكي كثر تردده على الرصافي حيث كان يسلمه هبات الملك فيصل بين وقت لآخر وفي مذكراته دافع الجواهري عن الرصافي واعتبر إقامته في محلة (الصابونجيه) التي كانت عبارة عن مجمع لبنات الهوى (مفارقة شخصية تحدث للملهمين والأفذاذ من شبيهي الرصافي في عالم الشعر والفن) ويتحدث عن العلاقة المتوترة بين الملك والشاعر الرصافي قائلاً: (كانت محافل بغداد وشبابها وكهولها، بين من يحفظ وقليل منهم يستنكر شتم الرصافي، ظالماً الملك فيصل، إذ هو يقول، عام ١٩٢٧ أبان طغيان دجلة فيقول الرصافي هاجياً:

ليت شعري أبلاطٌ أم مَلاطُ — أم مليكٌ بالمخانيثِ يُحاط

غضبَ اللهُ على ساكنه — فتداعى ساقطاً ذاكَ البلاطُ

ويتابع الجواهري معلقاً على البيتين: (لم يكن بين حاشية الملك فيصل قليلة العدد، إلاّ واحد من كل خمسة ممن يستحق قول الرصافي، وممن ينطبق عليه، ولا أظن، بأيّ وجه من الوجوه أن الملك فيصل لم يسمع بهذين البيتين القاسيين..).

لكن ما آلم الملك أن يقول الرصافي فيه:

وليس له من أمره غيرَ انه — يَعَددُ اياماً ويقبضُ راتباً

وكان الملك أن عاتبه بقوله:

(يا أستاذ الرصافي، أأنا الذي يعدد أياماً ويقبض راتباً ؟ وأنا مثقل بالمشاكل والتحديات، وبهموم أمة بأسرها؟) ومع كل ما فعله الرصافي يأمر الملك بمكافأته ويكتب ذلك في قصاصة صغيرة يسلمها الجواهري إلى الرصافي، وبعد ذلك يقول الجواهري (ابتدأت من هنا ولأول مرة علاقة ودّ وإخلاص وأمانة بيني وبين الرصافي وبعد مدة غير طويلة كنت أزوره في مجلسه الخاص بمقهى (عارف آغا) في شارع الحيدرخانه، ويحدثني بأسلوبه الرصين الهادئ، غير المهتز، وبلهجة أقرب إلى الفصحى.. ولا أتذكر أني تطفّلت على مجالس الرصافي في مقهاه المفضّل ولا في داره في (الصابونجية) أكثر من مرة أو مرتين وذلك طيلة عشر سنوات من اللقاء الأول في المقهى وحتى سنة ١٩٤٠.

أعني حتى تاريخ اهتزاز الرصافي وهو آنذاك في الفلّوجه، بقصيدتي (أجب أيها القلب) حيث كتب الرصافي للجواهري قصيدة يبايعه لقيادة الشعر.

وفي عام ١٩٤٤ كتب الجواهري في جريدته كلمة كمقدمة لقصيدته في الرصافي جاء فيها: "في عزلة موحشة وهو يدلفُ إلى الثمانين موقرة بأثقال الاحساسات المرهفة، يقضي أيامه الأخيرة في غمرة النسيان والتجاهل والعقوق في البلد الذي ناغاه وناجاه وأثار في جنباته شعاباً مظلمة" ومما جاء فيها:

تمرست بالأولى فكنت المغامرا ... وفكّرتَ بالأخرى فكنتَ المُجاهرا
وفضّلتَ عيشاً بين تلك وهذه ... به كنت - بل لولاه ما كنتَ - شاعرا
وأني إذ أهدي إليك تحيتي ... اهزُّ بكَ الجبلَ العقوقَ المعاصرا
أهزُّ بك الجيلَ الذي لا تهزُّهُ ... نوابغه حتى تزور المقابرا

فأجابه الرصافي بقصيدة، فيها من الإحساس بالمسؤولية بقدر ما فيها من التواضع الجم وكان مطلعها:

بك اليومَ لا بي أصبح الشعر زاهراً ... فقد كنتُ قبل اليوم مثلَكَ شاعرا

وفي عام ١٩٥١ وفي الذكرى الخامسة لوفاة الرصافي أنشد الجواهري قصيدته في رثائه من إذاعة بغداد كما نشرها في عدد خاص من جريدته ومما جاء فيها:

لاقيتَ ربّكَ بالضّميرِ ... وانَرْتَ داجيةَ القُبُور
واشعت في الأبد البهيـ ... ـم طلاقةَ الأبد المنير
لله درُّك من جريءٍ ... دونَ فكرتهِ جهير
انكرتَ ان (الدين) لم ... يبرحْ مليّاً بالقشور
يُجترُّ من (احكام) بئـ ... ـرٍ لُوّثَتْ بدمِ البعير
يلهو به من ليس يعر ... ف ما (البجير) من (العجير)
(الله) عندك كان رمز ... سعادة الجمع الفقير
والفسق في شُربِ الدما ... ء وليس في شرب الخمور

وفي عام ١٩٥٩ أقام اتحاد الأدباء الذي يرأسه الجواهري احتفالاً بذكرى الرصافي، أنشد فيه قصيدته في الرصافي وضمنها أفكاره في الموت وموقع الرصافي فيه، جاء في مطلعها:

لُغزُ الحياة وحيرةُ الألبابِ ... ان يستحيل الفكرُ محضَ تُرابِ
من منكم رُغمَ الحياةِ وعبئها ... لم يحتسبْ للموت ألفَ حسابِ ؟

ليتَ السماءَ الأرضُ ليت مدارَها فرطانِ، فرطُ جوىً، وفرطُ عذاب
ذئب ترصّدني وفوق نيوبهِ دمُ اخوتي واقاربي وصحابي
للعبقري مكانُ شهاب يا زمرة الشعراء شقَّ نفوسَهم

من عاداته ومزاياه:

كان الرصافي طويل القامة نامي الأعضاء، ومن عاداته أنه كان يأخذ حماماً حارّاً في كل يوم، وكان عنده (كَيزر) و(بانيو) وذلك من جراء الحكّة التي لازمته أواخر عمره، وكان يدّخن ويشرب سكاير (أم الزبانة) داخل علب، وكان يشرب القهوة بكثرة وتقدم إلى زواره بكثرة، وكان عصبي المزاج يتأثر بسرعة ويسب ويشتم ولا بد لمن يعاشره الابتعاد عما يثيره وفيما عدا ذلك فالرجل في غاية الرقة وحسن المعاشرة وخفة الروح ومحبة الصديق. وكان يرغب في سماع الموسيقى وأعجب بصوت أم كلثوم خاصة حتى أنشد فيها قصيدة مطلعها:

أم كلثوم في فنون الأغاني امة وحدها بهذا الزمان

وكان يميل إلى سماع المقامات والموشحات الأندلسية ومن أغاني العرب كان يرغب في الاستماع إلى الاغاني التونسية.

ومع أنه نشأ وتربى في وسط شعبي بغدادي صميم فكان يتحدث بلهجة أقرب إلى الفصحى، كما كان يتكلم في اللسانين التركي والفارسي بطلاقة، وقد ترجم عدة كتب من التركية إلى العربية، وأعجب بالشاعر الفارسي الشهير (سعدي الشيرازي).

وعلى صعيد صحته فالمعروف أنه أصيب بداء (الإفرنج) وقد شُفي منه عام ١٩٣٩ وفي نفس السنة أُصيب بالقرحة الليفية فخضع لعملية طبية وشفي منها لكن اشتدت عليه الحكّة فأشار عليه الأطباء بترك شرب العرق، وكان الرز هو طعامه الرئيسي بالإضافة للمحلبي والتمر والخبز والحليب والفاكهة.

ومن مزاياه كرمه بل تبذيره إن حصلت لديه الأموال وأكثر ما كان ينفقه على متعته وعلى الفقراء والأطفال وعلى كل من يصادفه من المحتاجين وكان في كل حالاته آيساً من الدنيا فسعادة الدنيا وشقاؤها لديه سيان.

زواجه:

في مذكراته المروية عنه أنه تزوج في اسطنبول بسيدة اسطنبولية تدعى فاطمة وكان ذلك بتوسط صديقه عبد الله الأزميري صاحب مجلة (العرب) حيث كان يسكن معه في منزل واحد قبل زواجه، وكانت تقوم بخدمتهما امرأة خادمة وكانا يقتسمان المصروف،

وذات ليلة جاء الرصافي سكراناً فتحرّش بالخادمة وفي هذه الأثناء دخل زميله عبيد الله وسمع صياح الخادمة وعند ذلك حثّ الرصافي على الزواج واتصل الإزميري بأقاربه فخطبوا له سيدة من الآستانة، ويصف الرصافي زواجه كالتالي:

"أسعدتني وأراحتني وقلبت سواد حياتي بياضاً وأنا مدين لها بتلك السعادة الوقتية التي رأيتها في حياتي.. ولما تزوجت تبدّل حالي من العسر إلى اليسر، وكانت زوجتي فاطمة نحيفة للغاية ولهذا كانت أحوالها الصحية لا تساعدها على الولادة، فإنها حملت مرة واحدة وأجهضت ابناً وأشار الطبيب عليها بعد ذلك بعدم الحمل.. وبقيت في معاشرتها والسكن معها في بيت واحد المدة التي قضيتها في الآستانة وحتى تركي الآستانة بعد الهدنة".

وهناك رواية ينقلها قاسم الخطاط ورفقائه في كتاب (معروف الرصافي شاعر العربية الكبير) بأن الرصافي تزوّج ثيّباً من إزمير اسمها (بلقيس) وأنه بعث بكتاب طلاقها من بغداد سنة ١٩٢٥ لعجزه عن القيام بنفقات دار عائلية عليه أن يهيئها فيما لو جاء بامرأته من اسطنبول، مع الأستانة ولقاء زوجه، وفي هذا يقول:

قد عاقني الاملاق عن سفري إلى ... من طال معتلجاً إليه حنيني
وانا المشوقُ ولستُ ممن شاقهم ... بقر العذيب ولامها يبرين
لكن قلبي لا يزال بشوقه ... ظبي اقام بدار قسطنطين

الزي:

ارتدى الرصافي منذ أيام دراسته الدينية ببغداد البُزّة الدينية المتعارف عليها في بغداد وهي عبارة عن العمامة البيضاء (القلويّه) والجبة والزبون، وحافظ على هذا اللباس حين عاش في الآستانة ولما طُورد هناك بسبب الزي الديني هذا ارتدى السترة والبنطلون والطربوش ولم يَعُد للعمامة أبداً.

وبعد رجوعه إلى بغداد بقي على زيه إلى أن استبد به اليأس من التوظيف الذي يطمح إليه فغادر بغداد مؤثراً الابتعاد عنها وسكن في الفلوجة وهناك اختار اللباس العربي وهو الدشداشة وفوقها السترة والعقال والكوفية، والعباءة، وبقي على هذا الزي بقية حياته، ويظهر أنه استأنس للزي العربي وإلى هذا أشار في قوله من قصيدة:

ولستُ أريد ثوباً اتحمياً ... ولا من زي أرباب الثراء
ولكن بزة البدوي ابغي ... فمن ثوب عليّ ومن عباء
ومن كفيّة صحبت عقالاً ... يكون الراس منها في غطاء
فذا زي ينمُّ به رجوعي ... إلى عيش بسيط ذي هناء

وممن وصف لباسه أثناء إقامته في الفلوجة صديقه خالد حافظ قال: "كان الأستاذ في مجلسه يلبس الدشداشة ويضع فوق رأسه العرقجين، وكان يرتدي دشداشة شكل الدكلة التي يلبسها أهل الخليج فإذا خرج من البيت ارتدى فوق الدشداشة سترة وفوقها العباءة، وفي رأسه العقال وحمل في يده عصا".

آثاره:

صدر للرصافي آثار عديدة وفي مقدمتها ديوانه الذي طبع للمرة الأولى في بيروت سنة ١٩١٠ مع مقدمة للشيخ محي الدين الخياط وتكرر طبعها في بيروت نفسها وفي بغداد والقاهرة وأفضل جميع تلك الطبعات هي الطبعة التي أصدرها ببغداد راوية الرصافي مصطفى علي في خمسة أجزاء ضخمة صدر الجزء الأول منها سنة ١٩٧٢.

وهذه قائمة بعناوين كتبه ومنها ما هو مطبوع أو مخطوط:

الشخصية المحمدية (كتاب ضخم نُشر أخيراً ضمن منشورات دار الجمل في كولون ألمانيا)، خواطر ونوادر، الآلة والأداة، دفع المراق في لغة اهل العراق، المسلمون في هذا العصر، رواية الرؤيا، قانون حق التأليف، المساواة بين المرأة والرجل، العقل في الدين الإسلامي، الأناشيد المدرسية، تمائم التعليم والتربية، دفع الهجنة في ارتضاخ اللكنة، نفح الطيب في الخطابة والخطيب، محاضرات في الأدب العربي، الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه، رسائل التعليقات، وعلى باب سجن أبي علاء المعري، وغير ذلك.

ومما كتب عنه: الرصافي في أعوامه الأخيرة، لنعمان ماهر الكنعاني وسعيد البدري، و(ذكرى الرصافي) و(رسائل الرصافي) لعبد الحميد الرشودي، و(أدب الرصافي) لمصطفى علي و(معروف الرصافي) لبدوي أحمد طبانه. وأخيراً كتاب (الرصافي يروي سيرة حياته) للدكتور يوسف عز الدين وهو من أهم الكتب وأوثقها في تاريخ حياة الرصافي.

وفاته ووصيته:

كنا قد ذكرنا هجرة الرصافي إلى الفلوجة وقد كان ذلك سنة ١٩٣٣ واستمرت إلى سنة ١٩٤١ حيث عاد إلى بغداد بعد الحرب، وسكن الأعظمية وفيها توفي صباح الجمعة السادس عشر من آذار سنة ١٩٤٥.

وكان قد ترك وصية كتبها أواخر شباط أو آذار من سنة ١٩٤٤ ومما ورد فيها:

أراهم يهيجون عليَّ العوام باسم الدين، ولا أظنهم يتركونني حتى يعدمونني الحياة، وليس لي من ألتجئ إليه سوى الله، وكفى بالله حافظاً وحسيباً..

لا أملك سوى فراشي الذي أنام فيه، وثيابي التي ألبسها. وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذي في مسكني ليس لي، بل هو مال أهله الذين يساكونني وكل من اعتدى عليّ في حياتي فهو

في حلّ مني، وإن كان هناك من اعتديت عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عني، وإلا قضى بيني وبينه الله الذي هو أحكم الحاكمين. (أُدفن في أي مقبرة كانت، على أن يكون قبري في طرف منها، وأن يكون في أرضٍ مظلومة وهي التي لم تحفر قبلاً ثم أوصى بخادمه عبد بن صالح خيراً وأن تباع كتبه المخطوطة ويدفع المال الحاصل من بيعها على بنات خادمه المذكور.

وكانت وفاة الرصافي بتلك الحالة المأساوية مدعاة لأسف عارفي فضله ومن أصدق المشاعر لهجة ما رثاه به أحمد حسن الزيات بكلمة جاء فيها: (لفظ معروف الرصافي الأخيرة في حجرة مظلمة مقرورة لا يلطف جهومتها نور ولا نار، ولا يخفف من وحشتها خليط ولا جار، ولم تقع عينه الشاخصة، وهو في نزاع الروح، إلاّ على ورقة هنا وكتاب هناك، أو على خادمه الأمين يتماسك لحظة ويتهالك أخرى، والدنيا التي صحبها الشاعر سبعين عاماً يدل على جمالها العيون ويُغري بمتاعها الأفئدة ولم تجد عليه ساعة الوداع بيد رقيقة تغمض عينه ولا بعين حبيبة تذرف دمعة عليه).

ورثاه كثيرون أطالوا في ذلك أو أجملوا ومنهم عبد الكريم الدجيلي النجفي. ومما جاء في قصيدته:

هدأت وقرّت بعد طول نضال ... وهوت وكانت ذلة المتعالي

و خبت وقد قدحت زماناً ألم تكن ... بلواه إلاّ قلة برجال

نفس تأجج ثورة فكأنها ... مطوية منه على زلزال

و تكاد تخترق العباب لفرط ما ... فيها وفيها ثورة الرئبال

لو قامت الدنيا أمام يقينه ... وتألبت وتحشدت لنزال

نرجسيته:

تناول الدكتور يوسف عز الدين شذوذ الرصافي في عدد من مقالاته حول الرصافي وأكد على مثليته وشذوذه الجنسي خاصة وهو ما أشرنا له من قبل، أما الدكتور صفاء خلوصي الأستاذ بجامعة اكسفورد فقد أكد على نرجسية الرصافي وازدواج شخصيته وتحدث عن النرجسية التي تميز بها الرصافي معداً عنها بداء عشق الذات داء أكثر Narcissism النرجسية شيوعاً مما نتصور نجده بين مختلف صنوف البشر إلا أنه يظهر بوضوح بين النساء والشعراء ولست أقصد هنا أن كل امرأة مصابة بالنرجسية حتماً ولا كل شاعر قد سيطر عليه هذا الداء بل إن ما أعنيه هنا أن الشعراء والجنس الناعم أكثر عرضة للإصابة من غيرهما ولقد أصيب به عظماء من طراز شيلي وبايرن وغوته وروسو وبشار والبحتري وأبو نواس.. إلخ.

قال واصل لفظة النرجسية أو العبهرية مشتق من اسم شاب جميل هو ابن اله النهر سيفيسز Sephissus وجنية البحر ليروبي Lirop وقد رأى ذات مرة شبحه منعكساً في بركة

ماء فهام به عشقاً وظن أنه جنية البحر لتلك البقعة وانتهت محاولاته العقيمة للتقرب من هذه الصورة الجميلة المنعكسة في الماء باليأس والقنوط..

والموت! وقد عطفت عليه الآله بعد موته فحولته إلى زهرة تحمل اسمه إلى سومنا هذا وتستعمل لفظة (النرجسية) في التحليل النفسي بمعنى الميل إلى عبادة الذات والاستغراق الكلي في الكمال الشخصي للمصاب به والاسم في الأصل Nsrkissos وهو لفظ إغريقي.

والنرجس أو العهبر ـ كما تسميه العرب ـ زهر عطري جميل ويميل المصابون بالنرجسية إلى الشذوذ والتحليل الخلقي أحياناً، ويمكننا على هذا الأساس أن نفسر الشيء الكثير من أطوار بشار بن برد مثلاً مما حمل على محمل الشعوبية على أساس الإصابة بهذا المرض.

لا ينكر أن الرصافي كان جميل الصورة في صباه وشبابه وليس بعيداً أنه أعجب بهذه الصورة وأغرم بها ودفعه غرامه النرجسي بذاته إلى الغرام بأبناء جنسه فالانحراف الجنسي جاء كمستلزم من مستلزمات نرجسية الرصافي.

وقد غالى الرصافي كثيراً بعزة نفسه وإبائه فكأنه كان يتصور ذاته محاطة بسياج من القدسية الإلهية وقد روى بعض معاصريه أن سبب تركه التدريس في دار المعلمين العالية أن أحد طلابه انتقده على محاضراته في آداب اللغة العربية وقال عنها: إنها ليست أكثر من مقالات صحفية عابرة فكان ذلك مدعاة إلى الانقطاع عن التدريس في الكلية وبالتالي إلى استقالته..!.

طائفية الرصافي:

وقد تعزز الإحساس بطائفية الرصافي عبر الكتاب الذي أصدره نجدة فتحي صفوة بعنوان (معروف الرصافي ـ سلسلة الأعمال) ضمن منشورات رياض الريس للكتب والنشر (لندن) تضمن الكتاب ـ الكتيب (ص١١٠ من القطع المتوسط، مقدمة نجدة فتحي صفوة ٦٠ صفحة، وبقي ٥٠ صفحة ولو استثنينا مصورات خط الرصافي في داخلها مع الفراغات وموضوعات جعلها المحقق بآخره من قبيل مؤلفات الرصافي ما كتب عنه وغيرها لأصبح حجم الكتاب (الكتيب) ٢٥ صفحة من الحجم الصغير ويمكن إنزاله على صفحة واحدة من صفحات جريدة بالحجم المتعارف عليه فالمحقق بفعله هذا جعل للكتاب = الكتيب اسماً طناناً رناناً معروف وتحت اسم يجلب الانتباه (الأعمال المجهولة) وليتها بقيت في زاوية الإهمال لأن ريحها النتنة ظهرت من بين سطورها، والأفكار التي يدعو فيها الرصافي الطائفي للفتنة نحن اليوم في غنى عنها، ومع أن المحقق قد أغرانا في مقدمته بقراءتها حيث قال: (جاءت هذه الخواطر حرة طليقة لم يرم وراءها إلى غاية خاصة، كتبت بأسلوب مشوق وطريف فيه تركيز عميق وفيه تحد وآثاره وهي تفتح آفاق جديدة

للتفكير ص٩ أما عن شذوذ الرصافي الجنسي وعن منكوحه الغلام الذي كان يرافقه صباح مساء وأوصى له بالإرث من بعده كما قال الدكتور يوسف عز الدين وغيره ممن أرخ للرصافي فإن المحقق الأمين جداً يمر على ذلك وكذلك على حي القحاب الذي آثر الرصافي على سكناه فيه فيقول هذا المحقق الأمين جداً، نجدة فتحي صفوة ما يلي: كان له خادم يدعى عبد صالح يرعاه ويخدمه، وقد تناقل الناس في بغداد أنباء عن مجونه، والبيت الذي يسكنه في حي سيء السمعة ص ٩ ومع ذلك كله فإن المحقق يضيف عن الرصافي بأنه كان مؤمناً بالله ورسوله غيوراً على إسلامه وكان يميل إلى السلفية متأثراً بأستاذه الألوسي ص ٥٣.

لقد كنا نتوقع أن نرى شيئاً مجهولاً أو جديداً في هذا الكتيب البائس لاسيما أنه صدر تحت اسم شاعر تردد صداه الشعري كثيراً في القرن الماضي لكنه - مع الأسف - كشف عن طائفية مقيتة استنبطها الرصافي، فكانت إحدى الوجوه المتعددة لشخصية المزدوجة وشذوذه لا عن أبناء جنسه فحسب، بل عن أبناء وطنه أيضاً، وفيما يلي مواضع من هذيان الرصافي الطائفي المسموم:

١ - المقال الموسوم (إله بني إسرائيل) مكرّس لإثبات موافقته الشيعة لليهود في صلاتهم على التربة الحسينية ص٧٥ - ٧٦ وإن التربة الحسينية بمثابة تراب (أورشليم) لأن اليهود يحملون ترابها كي يعبدون ربهم عليها، وإن هذه التربة يقول (تذكرنا بالعهد الجاهلي يوم كان أحدهم يعمد إلى حجر فيأخذه ليعبده ثم إذا رأى أسن منه آخذه وترك الأول ص٧٦).

٢ - يَدَّعي جاهلاً إن الشيعة هم من زادوا في الآذان بعد الحيصلتين (حي على خير العمل) وأن لأبناء فارس يداً في هذه الزيادة!، وإن المقصود من هذه الزيادة إيقاع المخالفة بين المسلمين (ص٨٤).

٣ - في مقاله (مقتل الحسين والفتن الإسلامية) ص ٩٢ - ٩٦ قال: إن الفتنة التي لا تنام هي فتنة يوم كربلاء.. إن هذه البدعة المنكرة لم تزل باقية مستمرة في العراق على وجه أوسع وأشنع، ويقول (أخزاه الله):

فلو رأيت صدور القوم حاسرة — وكلهم قام بالكفين ملتدما
لقلت قول بريء من جهالتهم — هذا لعمري بكاء أضحك الأمما

٤ - وبدافع من جهله وعصبيته فإن الرصافي يُبَرّئ الشمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقاص من قتل الحسين (عليه السلام) ويجعل الحر بن يزيد الرياحي القاتل الحقيقي للحسن (عليه السلام) ويصفه بـ(الرجل الأفين الضعيف العقل والإيمان ص٩٦) ويقول الرصافي بعد ذلك: إن الشيعة قد جعلوا له قبراً يعبدونه كما يعبدون قبر الحسين فسبحان من جعل الضلال هدى في نظر الشيعة ص٩٦).

٥ - ووصف المسرح الحسيني الشهير في تمثيل واقعة الطف بأنه (همجي) ص٩٢ واستشهد مستحسناً أبيات في هجاء الشيعة للأخرس البغدادي قالها ممالأة لأسياده من الطائفيين العثمانيين في زمانه:

قتلوا الحسين بكل عام مرة ... وتمثلوا بعداوة وتصوروا

ويلاه من تلك الفضيحة إنها ... تطوى وفي أيدي الروافض تنشر[1]

وبالرغم من إلحاد وكفر الرصافي واستهزائه بالأديان كما يتضح ذلك في قوله:

ولست من الذين يرون خيراً ... بإبقاء الحقيقة في الخفاء

ولا ممن يرى الأديان قامت ... بوحي منزل للأنبياء

ولكن هنّ وضع وابتداع ... من العقلاء أرباب الدهاء

ولست من الألى وهموا وقالوا ... بأن الروح تعرج للسماء

لأن الأرض تسبح في فضاء ... وما تلك السماء سوى الفضاء

وكما هو جلي ممن يستقري كتابه (الشخصية المحمدية) والشواهد على جحوده ودهريته أكثر من أن تحصى وهذا شأنه، لكنه مع كل ذلك بقي متمسكاً بطائفية مقيتة وهي السلفية الغالية التي تأثر بها من أستاذه الألوسي، وبقيت راسخة في ذهنه وعقله الباطني، إذ كان شديد النكير على الشيعة يملأ الحقد الأسود قلبه ولسانه ومن مداليل ذلك قصيدته التي تناول فيها الغزو المغولي لبغداد عام ٦٥٦هـ حيث اعتبر الشيعة سبباً في ذلك:

جرت فتنة من شيعة الكرخ جلحت ... على شيعة في الكرخ بالقتل والنهب

فقامت لدى ابن العلقمي ضغائن ... تحجرن من تحت النياط على القلب

فأضمر للمستعصم الغدر وانطوى ... على الحقد مدفوعاً إلى الغش والكذب

وخادعه في الأمر وهو وزيره ... مواربة إذ كان مستضعف الأرب

وقد أكثر المؤرخين في تناول مثل تلك الحوادث وأشبعوها بحثاً نفياً أو إثباتاً كما هو شأن الاختلافات في سائر الوقائع التاريخية، ولكن ما بال الرصافي يقحم نفسه لاستعداء طائفة كبرى من مواطنيه لولا حقده الدفين الذي تربى عليه منذ نشأته الأولى.

---

(١) هذان البيتان نسبهما الرصافي للأخرس، ولم يوجدا في ديوانه بل هناك في ديوان الأخرس قصائد في مدح آل البيت وأئمتهم، والأخرس البغدادي هو القائل:

وإني لشيعي لآل محمد ... وإن ارغمت اناف قومي وعذلي

واشهد ان الله لا رب غيره ... وان ولى الله بين الورى علي

أترى كان الأخرس مزدوج الشخصية كحال خلفه الرصافي.. الله ورسوله أعلم.





محمد فاضل الجمالي
(١٩٠٣ - ١٩٩٧م)

ولد محمد فاضل الجمالي في مدينة الكاظمية عام ١٩٠٣ في عائلة من نسل (بني شيبة الحمد) وهم فرع من قبيلة (قريش) في مكة المكرمة. وقد هاجرت العائلة من الحجاز إلى العراق قبل حوالي ثلاثة قرون وحصلت على (فرمان) - إرادة سلطانية - من الخليفة العثماني في اسطنبول، صادر في محرم الحرام ١٢٠٢ هـ (١٦١١م)، ما يزال في حوزة العائلة، يعهد إليها فيه خدمة ضريح الإمام (أبو يوسف) أحد أئمة الحنفية المدفون قرب مرقد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد وهما من سلالة علي بن أبي طالب ومن أئمة الشيعة الاثني عشرية. وبعد دراسته علوم الدين واللغة العربية في مدرسة الإمام الخالصي، التحق بدار المعلمين الابتدائية في بغداد.

- أوفد في بعثة علمية للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت وتخرج منها عام ١٩٢٧، مارس التعليم في دار المعلمين الابتدائية ببغداد ثم سافر بمنحة دراسية للدراسة إلى الولايات المتحدة حيث حصل على الدكتوراه في علوم التربية من جامعة كولومبيا بنيويورك سنة ١٩٣٢.
- عين عام ١٩٣٢ مرشداً عاماً في وزارة المعارف العراقية، ثم مديراً عاماً لها وبعد ذلك مفتشاً عاماً في ذات الوزارة.
- وفي عام ١٩٤٣ نقلت خدماته إلى وزارة الخارجية حيث عين مديراً عاماً، وانضم إلى الوفد العراقي إلى مؤتمر سان فرنسيسكو عام ١٩٤٥ حيث وقع على ميثاق تأسيس الأمم المتحدة باسم العراق.
- تولى وزارة الخارجية ثماني مرات في وزارات مختلفة، وانتخب نائباً في مجلس النواب، كما تولى رئاسة المجلس مرتين.
- تولى رئاسة الحكومة مرتين (في عام ١٩٥٣ و١٩٤٥)، في عهد الملك فيصل الثاني، كما ترأس الوفد العراقي إلى المؤتمر الآسيوي الأفريقي في باندونغ عام ١٩٥٥.

- اعتقل عام ١٩٥٨ بعد ثورة تموز (يوليو)، وحكم عليه بالإعدام و٥٥ عاماً من السجن، وتدخل عدد من رؤساء الدول والحكومات في العالم من أجل إنقاذ حياته، وتمكن الملك الراحل محمد الخامس من تخفيف حكم الإعدام إلى السجن تمهيداً للإعفاء عنه بعد تدخل مع الزعيم عبد الكريم قاسم.
- أفرج عنه عام ١٩٦١ بعد ثلاث سنوات من السجن وتوجه إلى جنيف، ومن هناك دعاه الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة إلى تونس حيث أقام فيها وعمل أستاذاً في جامعتها حتى وفاته.
- توفي في تونس يوم السبت المصادف ٢٤ أيار (مايو) ١٩٩٧، حيث تم دفنه هناك حسب وصيته، مخلفاً زوجته السيدة (سارة) وأولاد الثلاث، ليث، أسامة، عباس.
- من أهم مؤلفات الدكتور محمد فاضل الجمالي:

١ ـ العراق الجديد: مشكلة تعليم العشائر البدوية فيه (أطروحة للدكتوراه باللغة الإنكليزية)، (١٩٣٤).

٢ ـ مذكرة في مستقبل التربية والتعليم في العراق (١٩٤٤).

٣ ـ الخطر الصهيوني (١٩٤٥).

٤ ـ حقيقة الإسلام: دعوة إلى الإسلام ـ رسائل من والد في السجن إلى ولده (١٩٦٣).

٥ ـ العراق الحديث: آراء ومطالعات في شؤونه المصيرية (١٩٦٩).

٦ ـ الفلسفة التربوية في القرآن (طبعة ثانية ١٩٨٠).

٧ ـ صفحات من تاريخنا المعاصر (١٩٩٣).

٨ ـ مأساة الخليج والهيمنة الغربية الجديدة (١٩٩٢).

٩ ـ فلتشرق الشمس من جديد على الأمة العربية (١٩٩٦).

١٠ ـ الأمة العربية إلى أين؟ (١٩٩٧).

❖ ❖ ❖



الدكتور محمد فاضل الجمالي



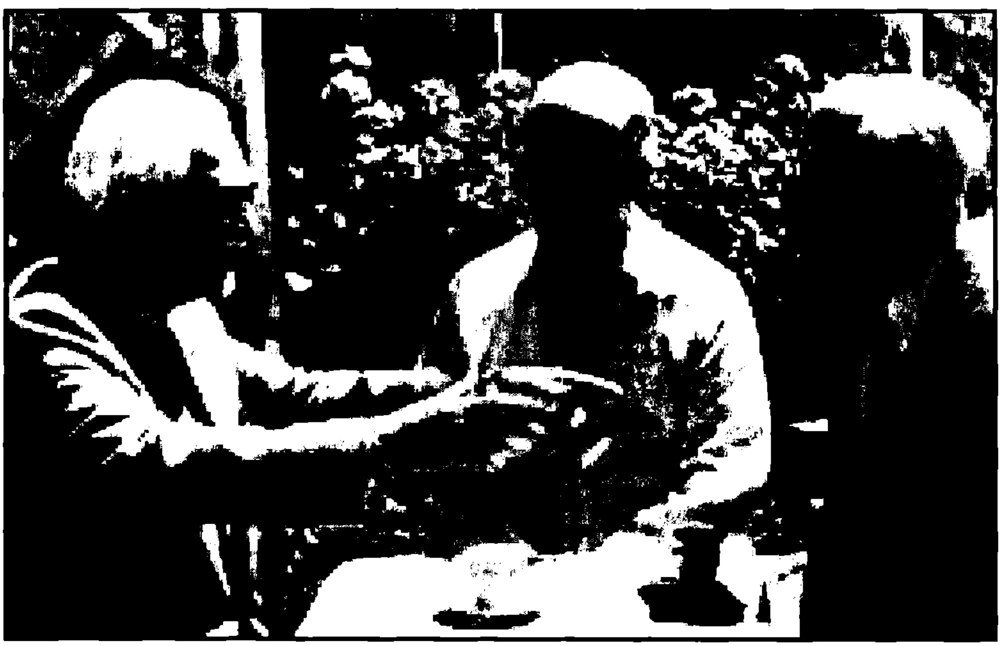
هاشم المدامغه، رشدي الجلبي، عبد الكريم الأزري، عبد الهادي الجلبي، الدكتور الجمالي،
عبد الرسول الخالصي. الدكتور صالح البصام، في دار جواد الجلبي، انكلتره ١٩٨٤.



الدكتور فاضل الجمالي في حديث مع السر ظفر الله خان مندوب الباكستان.



عصام الأزري، أسامة الجمالي، صالح الجلبي، الدكتور الجمالي، عبد الغني الدلي،
أمير رحمة الله، عبد الكريم الأزري، الدكتور صالح البصام،
في دار عبد الكريم الأزري - لندن ١٩٩٦.



الدكتور الجمالي مع السفير البريطاني مكنزي والسيد آلان ثورنهيل
في مقر حركة التسلح الخلقي - سويسرا ١٩٨٨.



والدة الدكتور فاضل الجمالي
العلوية خديجة



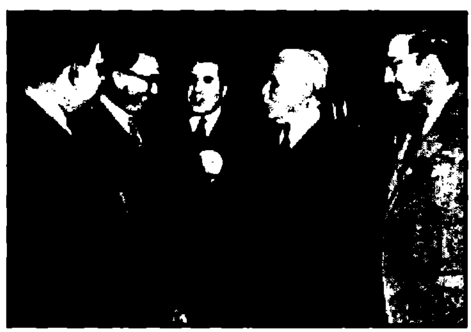
والد الدكتور الجمالي
الشيخ عباس الجمالي



الدكتور الجمالي مع الرئيس أيزنهاور
في القصر الأبيض - ١٩٥٤



الدكتور الجمالي وعقيلته السيدة سارة بوويل
الجمالي مع ولديهما أسامة وعباس



الدكتور فاصل الجمالي
في حديث مع فارس الخوري مندوب سوريا
والسيد عدنان الباجه جي - العراق -
والسيد فريد زين الدين - سوريا



أعضاء وزارة الدكتور محمد فاضل الجمالي
عند تأليفها يوم ١٧ أيلول ١٩٥٣
في البلاط الملكي
بغـداد.



أكرم زعيتر، فريد زين الدين، عبد الكريم الأزري، الدكتور فاضل الجمالي في مزرعة (أبو هاون) قضاء الشطرة/الناصرية.



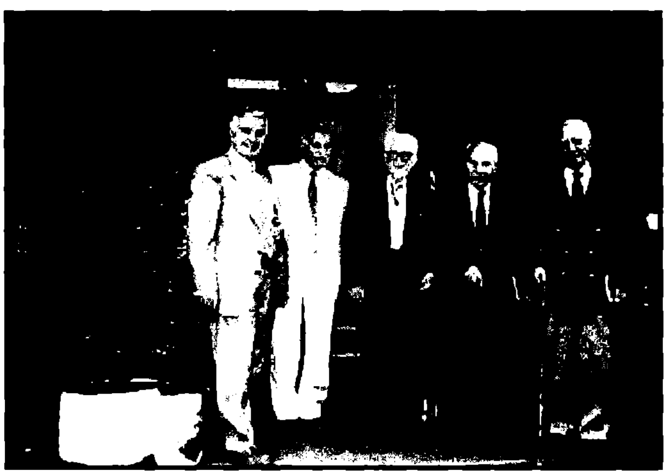
الدكتور الجمالي مع الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود والسيد نوري السعيد في اجتماع الأمم المتحدة ـ نيويورك ١٩٤٧.



عبد المجيد محمود، فريد زين الدين، أكرم زعيتر، الدكتور الجمالي، عبد الكريم الأزري، السيد عبد المهدي من وزراء العهد الملكي في مزرعته (أبو هاون) قضاء الشطرة/ الناصرية.



صورة في العام ١٩٤٨ تجمع عبد المهدي المنتفكي واكرم زعيتر وعبد الكريم الأزري وفاضل الجمالي وفريد زين الدين وعبد المجيد محمود.



فاضل الجمالي وعلى جانبيه عبد الكريم الأزري وعبد الغني الدلي.



الجمالي مع العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني.



الجمالي مع المرجع آية الله العظمى السيد محمد البغدادي والسيد كاظم البغدادي.

ويرى في الصورة المحامي محمد علي كمونة.

محمد باقر السهيل

تُعدُّ قبيلة تميم من أكبر قواعد العرب (كما وصفها ابن حَزْم)، وتنتشر فروعها في وسط الجزيرة العربية فهي تكوّن العنصر الأساسي في جنوبي نجد ، ولها في العراق وجود قوي منذ العصر الجاهلي وقد استمر حتى يومنا هذا، وجدها الأكبر هو تميم بن مُر بن أدّ بن طانجة، ويتصل النسب بعد ذلك إلى الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ونظراً لسعة الأراضي التي تتواجد فيها ومعوقات الحدود السياسية للدول فقد اختفى تنظيمها القبلي فظهرت تسميات كثيرة جداً للبطون والأفخاذ والحمائل المرتبطة بها، فبعضها يعود لأسماء الجدود الأقوياء منهم، والقسم الآخر لاسم الأرض التي يتواجدون فيها.

وأسرة (آل السهيل) التميمية العراقية، كما هو حالها منذ قرون هي أسرة الزعامة لتميم العراق، ويعود نسبها إلى الشيخ سهيل (الأول) بن عبيد بن سبهان الذي اتخذ من (عقرقوف) محلاً لإقامته مع الآلاف من أبناء تميم، وقد استمرت الزعامة في ولده نجم فحفيده الشيخ سهيل (الثاني) الذي انجب عدة أولاد أبرزهم المشائخ: حسن، وحسين، ومحمد باقر، وعلي، وكان لهؤلاء مكانتهم المرموقة خلال القرن العشرين، وخاصة في العهد الملكي إذ برزت زعامة الشيخ حسن السهيل، الذي اختير نائباً غير مرة، واشتهرت مضارب عشيرته في أطراف الكاظمية باستضافة مجموعة من قادة العالم وشخصياته أبرزهم: الجنرال مونتغمري، والجنرال ويفل، والرئيس التركي الأسبق جلال بايار، والأمير ادلوف غوستاف ولي العهد السويدي، والرئيس السورى الأسبق فوزي القوتلي، والرئيس اللبناني الأسبق بشارة الخوري، والشاعر الهندي طاغور وغيرهم، هذا بالإضافة إلى تردد ملوك العراق وحاشيتهم ووزرائهم على تلك المضارب، وقد تعاقبت تلك الزيارات على عهد الشيخ حسن السهيل والشيخ محمد باقر السهيل بالتنسيق مع أخويهم الشيخ علي (والد الشهيد طالب السهيل) والشيخ حسين.

وبينما تفرغ الشيخ حسن لمهماته السياسية وصلاته الوثيقة وخاصة برموز العهد الملكي فقد التزم محمد باقر بالمهام الداخلية للقبيلة ومن بينها حلّ المنازعات والتحكيم بين القبائل، واشتهر صيتهما معاً وعُرفا بالاتزان الكامل والتنسيق في كافة المواقف الصعبة التي مرت بها قبيلتهما.

وحين توفي الشيخ حسن (في كانون الأول ١٩٥٧) تفرد محمد باقر بالزعامة التامة.

والشيخ محمد باقر هو الولد الثالث للشيخ سهيل النجم التميمي، ولد في عقرقوف سنة (١٣٢١هـ - ١٨٩٨م) ودرس على الكتاتيب في بغداد وحاز على الثقافة العصرية بالإضافة إلى ثقافته البدوية الأصيلة الواسعة، وتوجه منذ شبابه للإلمام بشؤون الزراعة وتربية الخيل والمواشي لتنمية موارده الخاصة والظهور باستقلاليته أمام إخوته ومع مرور الزمن ظهرت قابليته للتحكيم أمام القبائل، ومن مواقفه المعروفة حلّه لإحدى النزاعات المستعصية بين قبيلتي العزة والعبيد.

وكان بالإضافة إلى معرفته بالقضاء العشائري وأحكامه، خبيراً بأنساب العرب، كثير الحفظ لقصص العرب الماضين وحوادثهم وأخبارهم، مستشهداً بأشعارهم، وراوياً لحوادث البدو التي شهدها أو سمع بها كما كان نفسه ناظماً للقصيد البدوي الذي كان يحشوه بالألفاظ المتينة والأخيلة البديعة التي تستجلب الإعجاب لدى رواد مضيفه الكبير بعقرقوف والذي كان لا يبارحه إلا نادراً، وفيه كان يستقبل ضيوفه الذين كانوا ضيوفاً للدولة ذاتها فبعض كبار الضيوف كانوا يستأنسون بالركون إلى مضارب تميم رغبة في الاطلاع على أحوال البادية والتمتع بأجوائها الواسعة وممارسة الصيد والقنص، وجاء ذكر تلك المضارب في عدة كتب أجنبية ومنها كتاب الباحث البريطاني Somerset de chair وصورت المضارب سينمائياً ضمن فلم (طريق الحرير) الذي أخرجه Himlar وأنتج في أمريكا سنة ١٩٣٩.

ومن الكتاب العرب الذين زاروا تلك المضارب وأشاروا إليها في مؤلفاتهم: محمد علي الحوماني، وأحمد حسن الزيات، والدكتور زكي مبارك وغيرهم.

ومن بين الزيارات التي حظي بها مضيف آل السهيل، زيارة الوفد السعودي الذي قدم إلى بغداد بمهمة ترسيم الحدود مع العراق، وكان برئاسة الفريق عبد الرحمن آل الشيخ التميمي والذي أبلغ الشيخ محمد باقر بتحيات الملك فيصل، وعبر عن مشاعر بني تميم في نجد والحجاز اتجاه إخوانهم في العراق وعن فرحتهم بنيرانهم الموقدة وديارهم العامرة. وعند قيام الاتحاد العربي الهاشمي بين العراق والأردن عام ١٩٥٨ أقام محمد باقر مأدبة كبرى لجميع أعضاء الوفد وكان من بين أعضائه الفريق حابس المجالي رئيس أركان الجيش الأردني،

الذي أبى أن يأكل قبل أن يأكل الجميع أسوة بآل السهيل باعتباره تميمياً وآل المجالي تميميون يرجعون إلى جدهم الأكبر رميزان التميمي.

ومع أن محمد باقر لم يدخل معترك السياسة إلاّ أن صداقته لرشيد عالي الكيلاني جعلته يقف في صفّه لدى اندلاع ثورة مايس ١٩٤١ وتعبيراً عن شعوره القومي المتآزر مع الحركة فقد قاد مجموعة من أبناء عشيرته ضمن قوات الدفاع الوطني.

وبعد قيام ثورة ١٩٥٨ صودرت أراضيه باعتباره أحد كبار الإقطاعيين كما صُنِّف أيّامئذ، لكنه مع ذلك حافظ على مكانته الاجتماعية وتماسك رجال قبيلته معه وبقي على علاقة جيدة مع الزعيم عبد الكريم قاسم والذي كان يبادله الاحترام وكان يناديه بكلمة (خالي) لكون والدة الزعيم قاسم من عشيرة السواكن التميمية وهي نفس الفرع الذي ينتمي إليه المرحوم صادق البصام وزير العدل في العهد الملكي، وبعد اغتيال الزعيم قاسم اعتقل الشيخ باقر لفترة وجيزة ثم أطلق سراحه.

تزوج وأنجب من نساء عديدات، ومن أولاده: خميس وقمندار ومانع، وعبد العزيز، ومحسن، وحامد، وسهيل، وحازم.

وقد توفاه الله في تموز ١٩٧٥ وصلى على جثمانه الإمام محمد باقر الصدر ودفن في النجف الأشرف وخلفه في الرئاسة ولده الشيخ خميس السهيل المولود بعقرقوف سنة ١٩٢٥ وما زال محافظاً على تقاليد أسرته العريقة، وموضعاً للفخر لبني تميم ويمثله في خارج العراق شقيقه الشيخ حازم التميمي الذي جمع بين الثقافتين الجامعية والعشائرية وكسب ودّ الناس بأدبه وكرمه واتزانه وعلاقاته الواسعة بكافة الطبقات شأنه في ذلك شأن إخوانه الدكتور سهيل السهيل العضو السابق في القيادة القومية السورية، وعبد العزيز السهيل الحقوقي المخضرم.

لقد مضى الشيخ محمد باقر السهيل وخلّف له الذكرى الطيبة، وكما كان شأنه في المروءة كبير، فإن سائر قبائل العراق الأصيلة ما تزال كسابق عهدها إباءٌ وشمم، وجودٌ وكرم، وأنوف حمية، ونفوس أبية وما أصابها من ضيم سيزول، فسيوف الحق ملّت إغمادها، ومصابيح المضايف استبدلت زيتها ترقباً لفجرِ آت وغدٍ واعد بعراق جديد.

❖ ❖ ❖



الشيخ محمد باقر السهيل.



الشيخ محمد باقر السهيل مع نجله الأستاذ حازم.



الأمير عبد الإله في زيارة لمضارب بني تميم في ٩ اذار عام ١٩٥٥.



الأمير عبد الإله يتوسط الشيخين حسن وعلي آل السهيل.



صاحب الموسم والشيخ خميس محمد باقر السهيل.



رئيس جمهورية لبنان بشارة الخوري في زيارة لحي تميم عام ١٩٥٤.



عدد من السياسيين و الوجهاء
في حديقة منزل حسن السهيل.



الزعيم المصري حمد الباسل (١٨٧١-١٩٤٠)
والشيخ عجيل الياور خلال وجودهم في ضيافة آل السهيل.



حسين الشعرباف

في بغداد كما في غيرها من حواضر العراق المهمة، اتخذت مجموعة من الأسر العريقة في بيوتاتها مجالس دورية لتداول الأدب والشعر وتبادل قضايا التراث والتاريخ والسياسة، ومن بين بيوتات بغداد التي اشتهرت بمجالسها: آل الكيلاني، والسويدي، والواعظ، والشادي، والجميل، والحيدري، والشواف، والآلوسي... الخ، وأول من أرخ لهذه المجالس المرحوم إبراهيم الدروبي (١٨٩٤ - ١٩٥٩) ومن بعده يونس إبراهيم السامرائي، وفاتهما أن يذكرا مجلس آل الشعر باف مع أنهما عاصراه، وما زال ينعقد حتى يوم الناس هذا في دار السلام، ويُعد في طليعة تلك المجالس الكريمة الرائدة، آخذاً من أهمية ما تُلي فيه من الخطب وغرر النثر والمنادمات الأدبية وما أُنشد فيه من الشعر العالي، والنوادر الظريفة ومن حيث الأهمية العلمية والأدبية للأعلام الذين توافدوا على هذا الديوان العامر طيلة قرن من الزمان.

ديوان الشعر باف:

وصاحبه الحاج حسين بن علي بن حسين بن الأسطة علي بن مرتضى بن مهدي الشعر باف، من أسرة تنتمي إلى قبيلة زبيد توطنت في محلة الدهّانة ببغداد، وهي من الأسر التجارية العاملة في النسيج وصناعة الأقمشة ولهذا عرف جدها بالأسطة علي، وخلفه في المهنة حسين الأول، وبعد وفاته حل ابنه علي المولود ١٨٣٠ بمحل والده ثم نزح من بغداد إلى ديار المنتفك مستوطناً سوق الشيوخ ليكون على مقربة من محال تجارته التي امتدت بين البصرة وحي واسط.

بناء الشطرة:

في إحدى سفرات علي الشعر باف إلى الشطرة الحالية والتي أُسست عام ١٢٩١هـ - ١٨٣٢م أي بعد تأسيسها بسبع سنوات راقه مناخها وأعجبه موقعها وشاهد فيها رفقاء له من البغداديين، ولرغبة أولئك الأصحاب ولإلحاح وكلائه حطّ رحاله فيها، فازدهرت الشطرة واتسعت تجارتها بنزوحه إليها ويقول الشرقي في تاريخها "فصفصف فيها المعمر الكبير الفقيد علي الشعر باف الحوانيت والدور ومسجداً وحماماً وخانات وأسياف ومقاهٍ وعَقَدَ رواقاً كبيراً يُعرف بسوق الشعر باف ومحلة تسمى بشارع الشعر باف" ويقول الشيخ باقر الشبيبي:

"وهاجر إليها جماعة من أنحاء شتى كان في طليعتهم الملاّك المشهور علي الشعر باف فإنّه أحدث فيها أسواقاً وبنايات كثيرة وأنشأ فيها حماماً ودوراً وخانات ومسجداً فصار قدوة لغيره من المعمرين فكثرت أسواقها".

حسين الشعر باف:

في عام ١٩٠٣ توفي علي الشعر باف وخلفه ولده الحاج حسن الشعر باف المولود ببغداد سنة ١٨٨٨ وكان والده قد اصطحبه إلى الشطرة فنشأ بها بعد أن أصبحت مدينة عامرة مزدهرة. وقام حسين الشعر باف محل والده وأبقى ديوانه مفتوحاً لرواد العلم والأدب والفضيلة منذ ذلك التاريخ وأصبح منتدى للقصاد ومريدي هذا البيت ودار استضافة للزائرين الغرباء. وفي عام ١٩١٤ لبى نداء الجهاد الذي أعلنه السيد محمد سعيد الحبوبي واشترك معه في الحملة العسكرية ضد الإنجليز وجهز المعوزين من مجاهدي منطقته (الغرّاف). واستمر في موقفه ضد الاحتلال خلال الأحداث التي سبقت ثورة العشرين متأثرا بحزب الحرس وبمقررات مؤتمر كربلاء فساهم مع عدد من رفاقه (السيد عبد المهدي السيد حسن، وعلي الشرقي، ومحمد الحاج حسن، وأحمد اطيمس بالإضافة إلى أخيه رشيد الشعر باف) بتأسيس فرع الجامعة الإسلامية لمنطقة الغراف على أن يكون الفرع متصلا بحزب الحرس لتشابه الحزب والجامعة في الوسائل والغاية، وبمساعيهم انضم إليهم خيون العبيد وموحان الخير الله وإبراهيم اليوسف، ومحمد الشلال، وغيرهم. وبعداندلاع الثورة وانسحاب الإنكليز من الغراف انتخب في اجتماع عام عقد في دار السيد حسن السيد ناصر مع ثلاثة من رفاقه الوطنيين وهم (السيد هادي السيد مهدي والسيد عبد المهدي ومحمد الحاج حسن) لمساعدة حاكمها خيون العبيد لإدارة المنطقة، وعند فشل الثورة وتشكيل الحكم الوطني وتلبية لدعم المناوئين لهذا الحكم المعتقدين بأنّه استعمار مقنّع انزوى مكتفياً بتسهيل مصالح مواطنيه لدى السلطات المحلية.

العودة إلى بغداد:

في عام ١٩٥٥ ترك الحاج حسين الشعر باف الشطرة عائداً إلى مسقط رأسه بغداد متخذا الكرادة الشرقية مسكناً له ومجلساً لرفقة الوفاء والعلم والأدب، وهكذا انتقل مجلسه إلى بغداد وزاول نشاطه الأدبي والاجتماعي ومما قيل يومها تهنئة بهذه العودة وتأسيس الدار، أبيات للدكتور جواد أحمد علوش يقول فيها:

ولكنني أحببتُ داراً مشيدة ... تسامى بها مجد وطال بها فخر
تعالت على رغم الزمان بأهلها ... بأخلاقهم فالكل منهم فتىً حرّ
شغفت بتلك الدار حُبّاً وربها ... وما هو إلاّ سيّد دونه حجر
(أبو صائب) رمز لكل عظيمة ... ولم يجر في مجراه زيد ولا عمرو

أعلام في مجلس الشعر باف:

حظي المجلس بحضور شخصيات علمية وأدبية مشهورة في العراق وكان من المترددين عليه في الشطرة شيخ الأدب الشيخ جواد الشبيبي وولديه الرضا والباقر وعلي الشرقي، والسيد محمد حسين الكيشوان وإبراهيم الكرباسي وقاسم حرج الوائلي وعبد الوهاب الصافي ومحمد علي اليعقوبي ومحمد أبو التمن ومحمود الحبوبي وأحمد المظفر وبالإضافة إلى هؤلاء اختلف عليه في بغداد الدكتور عبد الجليل الطاهر والدكتور علي جواد الطاهر وسعيد الطاهر وأخوه حميد وحسين علوش وعلي الصغير وصادق الأطرقجي وصادق البغدادي وعدنان الأمين وخلف محمود ومهدي السيد خلف ومكي السيد جاسم وعبد الخالق الحلي وطالب الحاج فليح والدكتور جواد العبادي وحسين الشاكري وراضي مهدي السعيد وصادق القاموسي وعبد الغني عبد اللطيف وصالح الأسدي وعبد الحميد الياسري وعبد الرزاق الربيعي وعبد الغني الحبوبي وعبد الله الياسري وعبد الرحيم الرحماني وعبد الحسين نصر الله وعبد الوهاب كمونه وكاظم معله ومحمد كردس ومحمد صالح الضايف ومحمد حسين الصغير ومحمد الأشبال ومحمد العقابي ومحمود المظفر ومحمد كاظم الطريحي ومصطفى جمال الدين وهادي الخفاجي وموسى الموسوي وشاكر الأعسم ومحمد حسن كشكول وعبد الله الصراف وصالح الشماع وعبد المنعم العجيل وفالح محمود شكر وعلي الحيدري ومهدي الشامي والدكتور عبد الواحد كرم الوتار وعبد الحسيم الحيدري، وللدكتور محمد حسين الصغير قصيدة يحيي فيها الشعر باف ويذكر أكثر حضّار ندوته ومطلعها:

أبا صائب فيما استجدّ لك الشكر وحسبك فخراً أن يواكبك الفخر

وبعد أن يذكر غالبية الأعضاء يقول:

فإن كنت قد أغفلت منهم جماعة فعند كرام الناس يلتمس العذر

في موكب الشعر:

أكثر الشعراء في ذكر الندوة وما كان يدور فيها من المسامرات والحوارات ومن ذلك قول هادي محي الخفاجي:

دعاه إليه (الشعر باف) تهزه إلى الفضل سباقاً جنوب وشمأل
ففي دارة للشعر ركن محرّم وفي بيته للجود ربع محلل

وفي ليلة ١٥ رمضان سنة ١٣٨٥ هـ زار صالح الجعفري مجلس الشعر باف فيعجبه المجلس فيحييه بقصيدة مطلعها:

أقمها عند بيت الشعر باف فبيت الشعر ذاك بلا خلاف

ويحييه السيد موسى الموسوي:

اقمناهــــا ببيـــت الــــشعر بــــاف ... لـــتروى حيــث نبـــع الفـــضل صـــافِ

ويرد فيها السيد عبد الغني الحبوبي فيقول:

هـــزار الـــروض هـــزّ القلـــب لحـــن ... لـــــه ارواحنـــــا ابــــداً تحـــنُّ

وفي يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ يحضر المجلس الشاعر محمد مهدي الجواهري فيحييه الشاعر محمود الحبوبي في المجلس نفسه بأبيات منها:

يــا نــدوة شمخــت عــزّاً بكــل أبــي ... تبهــب علـــى نـــدوات الـــشعر والأدب

تيهـــي لمـــا ســوف يتلـــو مـــن روائعـــه ... (أبـــو فـــرات) فتـــشكوه ابنـــة العنـــب

وفاة الشعر باف:

وبعد مرض عضال انتقل الحاج حسين الشعر باف إلى رحمة ربه في ١٥ تموز ١٩٨٣ وقيل فيه هذا اليوم الحزين على رواد مجلسه:

اجـــل جنـــة الفـــردوس فيهـــا ســـعادة ... ويُمـــن ومـــا فيهـــا شـــقاء ولا قـــسر

(ابـــو صـــائب) رضـــوانها الـــشهم حولـــه ... بنـــوه الأبـــاة الـــصيد وهـــو لهـــم ذُخـــر

وقد خلّف رحمه الله الذوات التالية: علي صائب ١٩٢١، فائق ١٩٢٤، أحمد ١٩٢٨، سليم ١٩٣٠، بهجة ١٩٣٢، الدكتور حكمت ١٩٣٧، ولا يزال المجلس بعد رحيله مفتوحاً لمريديه يقوم أولاده بمراسم الضيافة والسهر على خدمة الأعلام الذين ما زالوا يتوافدون على المجلس، والدكتور حكمت الشعر باف القائم اليوم بواجبات المجلس أحد أعلام الطب العراقي، وممن عمل مدرساً في كلية طب نيويورك ومن الحاصلين على شهادة زميل الكلية الملكية للأطباء في كندا سنة ١٩٧٢ ثم على شهادة البورد الأمريكي في الطب الباطني ومنح لقب أستاذ في الطب وأصبح رئيساً للوحدة الباطنية الثالثة في المستشفى التعليمي منذ عام ١٩٧٩ وساهم في أعمال جمعية أطباء الصدر والقلب وله بحوث كثيرة في حقل اختصاصه كما لم ينس اهتماماته الأدبية والشعرية، وهذا ما يكبره فيه أصحابه من رواد مجلس آل الشعر باف الذي مضى على تأسيسه قرن كامل، وفي مطلع العام الجديد يقول الشاعر محمد الأشبال في تحيته:

عـــــام جديـــــد علينـــــا ... بـــــه المـــــسرات تـــــترى

يـــــنحطّ في ثغـــــر نـــــادي ... (آل الـــشعر بـــــاف) ذكـــــرى

ذكـــــرى يعـــــم شـــــذاها ... (بغـــــداد) كوخـــــاً وقـــــصرا

لأنـــــــه نبـــــــع قـــــــوم ... تفـــــيض مجـــــداً وفخـــــرا

وإن دار (حـــــــــسيم) ... بالحمـــــد اجـــــدى واحـــــرى

دار (الـــشعر بـــــاف) تبقـــــى ... أم الـــــدواوين طُـــــرا



شـــاؤول ســـاســـون

هو ابن آخر حاخامات العراق ورئيس الطائفة اليهودية العراقية ساسون خضوري (١٨٨٦ ـ ١٩٧١)، من مثقفي بغداد وأعلامها ، ولد ببغداد ونشأ فيها ودرس في مدارسها.

شـاؤول نـاجي حاخـام ساسـون خـضوري، ولـد ببغـداد في ١٩٠٨/٣/٣٠ ودرس في المعهـد الـديني المـدراش، ثـم دخـل إلى مدرسـة الأليـانس، وكـان مـن أقرانـه يومئـذ غـازي الداغـستاني ودرويش الحيـدري وإبـراهيم الجيبجـي وغيرهـم، ثـم انتسب إلى الجامعة الأمريكيـة ببيروت، وكـان ضـمن كوكبـة مـن الطلبـة النبهـاء أمثـال: فاضـل الجمـالي، ويوسف زينل، وجعفر خياط، وممتاز عارف، ونسيم سوسـه، ونعيم سـودائي، وعـزرا قـرعين، وأنـور ختينـه، وعبـد المجيـد محمـود، وخليـل كنّـه، ويعقـوب وذن، وصـباح نـوري الـسعيد، وناظم الحيدري.

لقاء مع نوري السعيد:

وخلال فترة دراسته بلبنان جاء رئيس الوزراء ـ حينذاك ـ السيد نوري السعيد مع زوجته إلى مصيف برمانا فوجَّه دعوة لجميع الطلاب العراقيين إلى تناول الشاي في الفندق الذي كان يقيم فيه، وكـان بـين الطـلاب ولـده صـباح، وحـين اجتمـع الطـلاب قـام رئيس الـوزراء بتوجيـه الأسئلة لكل طالب ليتعرف عليه، ولما جاء دور ـ شاؤول ـ وعرفه قال له: لماذا لا تصير حاخاماً مثل أبيك ؟ فصارحه برغبته في أن يكون مهندساً !

العودة إلى بغداد:

وهكذا استمر في دراسته حتى أنهى المرحلة قبل الأخيرة بتفوق، لكن ظروف العائلة أجبرته على العودة إلى بغداد، والوقوف إلى جانب والـده الـذي تعرض حينهـا إلى أزمـة خطيرة سـببها لـه بعـض الحاخـامين المنافـسين لـه، فـآثر الفتـى الوفـاء والإخـلاص لبيتـه وردّ كيـد الحاقدين على أبيه، وتلاشت بعدئذ رغبته في إكمال الصف الأخير وقرر الدخول في معترك العمل الحر الذي طبع به بقية حياته.

اعماله الإدارية:

فرشح نفسه للعمل في مزرعة الرستمية وكان لا بد لمن يقدم على هذه الوظيفة أن يشترك في المنافسة لإحرازها وفي اليوم المعين ذهب إلى وزارة الزراعة وعرض قابلياته على الموظفين ففاز بالعمل مع شخص آخر من جملة ثلاثمائة شخص رشح نفسه للعمل فيها.

عمل بعدها موظفاً بالمزرعة المذكورة لست سنوات، ثم عُيّن محاسباً في مزرعة بكره جو في السليمانية لمدة خمس سنوات، انتقل بعدها إلى بغداد محاسباً في مديرية الزراعة العامة، وعند تأسيس وزارة الزراعة عُين فيها مديراً للإدارة والأمور المالية من آذار سنة ١٩٥١ حيث استقال من الوظيفة بعد أن بدأت الحكومة بطرد جميع موظفيها من اليهود، وفي نفس اليوم الذي استقال فيه عيّنه السيد محمد الدامرجي مديراً في شركته وبقي يعمل فيها حتى الأيام الأولى لانقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨.

اعتقاله في قصر النهاية:

في الساعة الثالثة من فجر الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٦٨ داهم منزله ستة من مجرمي المخابرات المدججين بالسلاح واقتادوه إلى قصر النهاية ووجهوا إليه تهمة التجسس ومورست ضده مختلف أنواع التعذيب الجسدي والنفسي وممن أشرف على تعذيبه السيء الصيت ناظم كَزار، ثم حُشر مع أكثر من خمسة وثمانين معتقلاً في غرفة واحدة، وكان من بينهم الحاج عبد الحسين جيتا كوكل، والبير نونو، وتشارلس جوربيش، وناجي ساعاتي، وعزرا ناجي زلخة، وداود حسقيل باروخ، وكمال إبراهيم، والمحامي عبد الهادي البجاري، والدكتور عبد الرحمن البزاز، وعبد المحسن جار الله، والبير حبيب توماس، وزكي انداوس زكي زيتو، والدكتور داود كبّاي وغيرهم، وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٩ أعدمت اللطة الحاج حسين جيتا كوكل ومعه عدداً من المسلمين واليهود والمسيحيين بتهمة التجسس.

بقي (شاؤول ناجي) في (القصر المشؤوم) لمدة سنة كاملة لقي فيها أشد الويلات والعذابات، وقد وصف بصورة إجمالية تلك المعاملة القاسية والذكريات المّرة في كتاب صدر له بالعربية والإنجليزية بعنوان: (في جحيم صدام حسين In the hell of Saddam Husayn) وسنختار منه بعض اللقطات الخاصة ببعض الشخصيات العراقية التي صادفها في المعتقل.

إبراهيم الأنصاري:

الذي كان رئيساً لأركان الجيش العراقي في تموز ١٩٦٨ ثم سرعان ما اعتقل بتهمة المؤامرة على الثورة!، قضى معه شاؤول عدة أسابيع في غرفة واحدة وحين دخل عليه لأول مرّة نظر إلى رجليه وهي مدماة وذات جروح غائرة، ومما يتذكره انه كان نائماً مرة فأوقظه الأنصاري وهو يقول له: (بالله العظيم لم أفكرّ في الموضوع ولو في الحلم) فاستفسر منه عن معنى كلامه فقال: (إنني اعتقلت بتهمة إنقلاب وهو أمر لم أفكر فيه مطلقاً) وكان يتسليان في الغرفة بلعب النرد (الطاولي) الذي صنعه إبراهيم فيصل الأنصاري من حشو الصحون ويقضيان بعض الوقت بهذه اللعبة.

مدح الحاج سري:

واتصل في معتقله بالسيد مدحت الحاج سري ورجاله الأخير إن حصل إفراج له أن يتصل بالسيد محمد المخزومي وهو مهندس معماري مشهور وأن يقول له أن اعترافه بالتجسس جاء بعد التهديد الذي وجهه إليه أحد الضباط بجلب زوجته إلى قصر النهاية والاعتداء عليها إن لم يصرّح بما يريدون منه وهو التجسس، ومع ذلك فقد أُعدم رغم تلبية طلب الضابط واعترافه بالتجسس.

عبد الرحمن البزاز:

وكان الدكتور البزاز في الزنزانة المقابلة لزنزانته، وقد رأى ذات يوم أن زبانية القصر قاموا بإخراج البزاز وعلّقوه على باب الزنزانة وفي تلك اللحظة طلب بإلحاح الذهاب إلى المرافق وفي طريقه إليها شاهد الكثير من الشخصيات المحترمة من الوزراء والمدراء والأدباء والتجار وشيوخ العشائر وطلاب الجامعات والضباط وهم معلقون على الأبواب ويصف لنا تلك اللحظة بموله: (شعرت كأنني أسير وسط مسلخ كبير غير أن المعلقين على الأبواب من يساري ويميني ليسوا من المواشي المسلوخة بل أجساد لأفراد من البشر).

وشاهد البزاز مرة أخرى وقد عُلق على باب الزنزانة أيضاً وعصبوا عينيه وكووا حلقه بشعلة من عود الثقاب.

طاهر يحى:

ولم يكن تعذيب السيد طاهر يحى بأقل من تعذيب البزاز وهو رئيس وزراء سابق، فقد شاهده وقد شدّوا حول عنقه حبلاً وأرغموه على أن يزحف على الأربع كالحيوان! وهكذا فقد تعرض لأسوأ معاملة، وعُذب أبشع تعذيب.


الحاخام ساسون خضوري آخر حاخامات العراق.

إحالته إلى المحكمة:

وقُبيل فترة وجيزة من تبرئته أخبره أحد الضباط بإحالته إلى المحكمة العسكرية وبعد يومين من ذلك جاء الضابط نفسه وأخرجه من الزنزانة وأدخله إلى السيارة التي كان فيها كل من عبد الرحمن البزاز والضابط الكبير عباس على غالب والبيرنونو، وفي المحكمة وُضعوا في غرفة وتكلم أحد الضباط مع البزاز لكي يوقع وكالة بتوكيل المحامي حسين جميل عنه أما عباس علي غالب وألبير نونو فرفضا توكيل محام، وقام شاؤول بتوقيع وكالة لمحام أرسله والده الحاخام خضوري فحوكم الجميع وكان رئيس المحكمة علي هادي وتوت وكان كل شيء معد سلفاً لنتيجة المحاكمة، وكما كان متوقعاً في نهاية المحاكمة أخذ عضو المحكمة يتلو قرارات الحكم التي نصّت على تبرئة عبد الرحمن البزاز وعباس علي غالب وشاؤول حاخام ساسون كما ونصت على الحكم بالإعدام على البير نونو.

إطلاق سراحه:

ما كاد يبين صُبح العاشر من تشرين الثاني ١٩٦٩ حتى أُطلق سراح شاؤول ناجي وعاد إلى داره وعائلته، لكن أشباح قصر النهاية بقيت تطارده فأجواء الرعب التي عاشها فيه لم تفارق مخيلته ففكّر في الهجرة ـ حينئذ ـ ولكن أنّى له أن ينطق بها أمام والده الصامد المتشبّث بجذوره في بلاد الرافدين، ويشاء القدر أن يخترم الموت والده في ٢٤ حزيران ١٩٧١ وعندها وجد الفرصة مؤاتية للسفر فغادر الوطن مُجبراً وحط رحاله في لندن حيث وبقي مكافحاً الغربة حتى وافاه الاجل المحتوم وهو في أواخر العقد العاشر من عمره وترك ذكراً طيبا بين أصدقائه ومحبيه.

❖ ❖ ❖





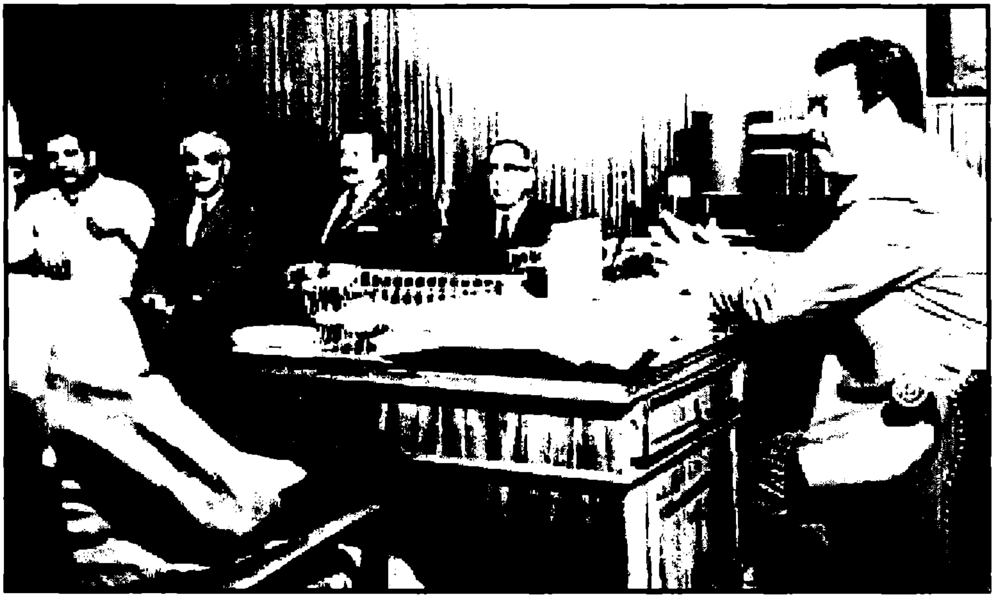
شاؤول ساسون مع صاحب الموسم.



شاؤول ساسون في مراسيم جنازة والده.



جموع من المعزين حضروا دفن الحاخام ساسون خضوري ببغداد ١٩٧١.



شفيق الكمالي وزير الاعلام العراقي ١٩٧١/٦/٢

يقدم تعازيه بوفاة الحاخام ساسون

ويظهر نجله أبو زهير والسيد داود نسيم خلاصجي و السيد ناجي.



جمهرة من المعزين بوفاة الحاخام ساسون في بغداد.

طــه الـــراوي

علم من أعلام الأدب في العراق وأحد أبرز أساتذة اللغة العربية وآدابها وهو السيد طه بن السيد صالح الفضيل المولود في عنه ١٨٩٠، وقد نذر نفسه لتلقي العلوم الشرعية منذ نعومة أظفاره، وما إن بلغ العاشرة حتى ذهب الجدري بعينه اليمنى ولكن هذا الحادث زاده إصراراً على تلقي العلوم فقد انتقل عام ١٩٠٥ إلى بغداد ملتحقاً بمدرسة خضر الياس في جانب الكرخ وفي سنة ١٩١٠ انتسب لكلية الإمام الأعظم التي أسسها جمال باشا السفّاح، وكان يختلف خلال تلك الفترة للدراسة خارج الكلية لدى عدد من أساتذة بغداد كالشيخ سعيد النقشبندي، ومحمود شكري الآلوسي، ويحيى الوتري، ومحمد سعيد الراوي، وسعيد الدوري، ويوسف العطاء وفي سنة ١٩١٧ انخرط في دورة المعلمين الابتدائية، وبعد تخرجه منها عمل مديراً لمدرسة الكرم الابتدائية في ١٠ أكتوبر ١٩١٧ ثم مدرساً للعربية في دار المعلمين ومدرسة الهندسة والمأمورين، ونقل بعدها إلى وظيفة - مدير المطبوعات في ١٩٢٦/٨/٢ وفي ١٩٢٨/٥/٢٧ أسندت إليه وظيفة سكرتير مجلس الأعيان، وكان بالإضافة إلى هذه الوظيفة يدرّس علوم التفسير والبلاغة في جامعة آل البيت، وفي كانون الثاني ١٩٣٣ انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وفي ١٩ أيلول ١٩٣٧ عين مديراً عاماً للمعارف وفي ١٣ مارس ١٩٣٩ عين أستاذاً لتدريس الآداب العربية والتفسير في دار المعلمين العالية فمكث في هذا المنصب حتى وفاته في ٢١ تشرين الأول سنة ١٩٤٦ ببغداد ودُفن في مقبرة معروف الكرخي إلى جوار صهره عبد اللطيف الفلاحي.

وكان خلال فترة تدريسه في دار المعلمين العالية قد مثّل العراق في مكتب التعاون الثقافي بين مصر والعراق وسافر إلى مصر لهذا الغرض سنة ١٩٤٣، كما مثّل العراق مع الشاعر الجواهري والدكتور محمد مهدي البصير في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٤، وكان عضواً في أكثر اللجان التي تألفت في وزارة المعارف ومديرية الأوقاف العامة.

صفاته ومآثره:

عرف المرحوم الراوي خلال وظائفه المتعددة بنزاهته التامة فكان لا يحابي ولا يُؤثر قريباً على غريب، ولا يحيد عن الحق ولا يستغل وظيفته لمآرب شخصية.. وفي مجال عمله التربوي حاول الإصلاح وبث روح الثقافة الحقيقية، وكان عوناً وملاذاً لجميع رجال التربية والتعليم، وفي وصفه قال الأستاذ أحمد أمين: إنه حاد الذكاء، مرن العقل، لا يقدس القديم لقدمه، ولا يرفض الجديد لجدّته بل يحكّم عقله في أناة وصبر، فإذا رأى الرأي فإنما يراه عن عقيدة، وعن تكشّف للحق وقد فقده الشرق كله فقد كان موضع ثقة العلماء وتقديرهم وصداقتهم".

وأطنب الأستاذ عبد الوهاب عزام الأمين العام الأسبق للجامعة العربية في ذكر شمائله ومزاياه ومما قاله فيه "ما يجلس أحد إلى الأستاذ طه إلاّ استفاد من فلسفته، ووالله ما ذكرته في مجلس من معارفه إلاّ اجتمعت القلوب على حُبّه والألسن على مدحه وما ذكرته عند من يعرفه في مصر والشام بله العراق إلا كان الجواب ثناءً عليه وإعجاباً بعلمه وأدبه وإكباراً لخلقه". وقال الشيخ محمد رضا الشبيبي أنه "كان خزانة سيّارة مفعمة بفنون الأدب القديم واللغة والتاريخ".

اهتمامه بالعربية وعلومها:

وقد عُرف عنه حماسه وإخلاصه للغة العربية مع الإحاطة والاستيعاب لعلومها وآدابها وله آراء صالحة حول تيسيرها ونمائها وردّ على دعاة العامية في عصره وزيّف آراء القائلين بهجر الفصحى واستخدام اللهجة المحكية المتداولة وأظهر في عدد من المقالات عجز هذه الأخيرة عن أن تكون أداة للتفاهم بين أبناء العرب واعتبرها أداة لتقطيع أوصال العرب وقطع الصلة بينهم وبين تراث أجدادهم، وفي رأيه أن خير أداة للتفاهم بين العرب على اختلاف ديارهم فيما أسماه (باللغة الوسطى) التي تشارك العامية بفقد الإعراب والاعتماد على التسكين في أواخر الكلم والتي هي أداة للتخاطب بين العلماء والأدباء في حلقات التدريس، وبالإمكان الرجوع لتفاصيل رأيه هذا وسواه من الآراء في كتابه "نظرات في اللغة والنحو" المطبوع في بيروت سنة ١٩٦٢.

مؤلفاته:

وله عدا هذا من الكتب المطبوعة كتاب: أبو العلاء المعري في بغداد، وكتاب بغداد مدينة السلام، وكتاب تاريخ علوم اللغة العربية.

أما المخطوطة فمنها: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، وكتاب الأخلاق (وهي مجموعة محاضراته في كلية الشرطة)، وكتاب في التراجم والسير، وكتاب في تفسير لبعض آيات القرآن الكريم، بالإضافة إلى عدد من المقالات السياسية والاجتماعية والأدبية.

الراوي شاعراً:

وكان قد بدأ محاولاته الشعرية بمساجلات مع رفيق صباه الأستاذ منير القاضي ثم أخذ ينظم الأناشيد الوطنية لطلاب المدارس، كما نظم القصائد الحماسية ومن بينها قصيدته في الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب سنة ١٩١١ وفيها يقول:

فنحن قوم إذا ما استغضبوا غضبوا ... لكنهم يكرهون الظلم إن ظلموا
فالعدل شيمتنا والبأس عادتنا ... والدين مرشدنا والحلم والشيم

ومن شعره:

يبكي الشباب أناسٌ كان دابهم ... أن يرتعوا في رياض اللهو واللعب
أما شبابي فقد أبليتُ جدّته ... بين المحابر والأوراق والكتب

وكان آخر نظمه قوله:

تذكرت إخوان الصفاء فعادني نجيٌّ من الأحزان ضاقَ به صدري
تذكرتهم والليل حولي فحمةٌ فكاد بأنفاسي يحول إلى جمرِ

مجلسه:

ومن عادته أن يستقبل ضيوفه مساء السبت من كل أسبوع، وقد وصف مجلسه إبراهيم الدروبي في كتابه "البغداديون - أخبارهم ومجالسهم" قال: "وكان له مجلس عامر يرتاده العلماء والأدباء والكبراء تُبحث فيه المشاكل والطرائف الأدبية وتُسمع فيه أخبار السالفين وتُقَصُّ أنباء الراحلين فهو أشبه بمجمع علمي أو منتدى أدبي أو محفل سياسي". وفي هذا المجلس قال الدكتور جميل سعيد:

ايحلو مساء السبت من بعد مجلس به تجمع الآداب والفضل والبرّ
به ضمُ من بغداد كل سميدع رقيق حواشي الحلم في نفسه كبر
وتذكره بغداد ما طال عمرها وتذكره الدنيا ويذكره الدهر

مراسلاته:

وكان مما تركه من آثار مجموعة من الرسائل وغالبها لا يخلو من طابع العلم أو نفحة الأدب وطرائفه ومن ذلك مراسلاته المتبادلة بينه وبين الرصافي وقد نشرها ولد الأستاذ حارث الراوي ضمن كتابه الذي خلّد فيه ذكرى والده الراحل، ثم أعاد نشرها الأستاذ الرشودي في كتابه رسائل الرصافي، والحق أن الرصافي كان يحترم الراوي احتراماً خاصاً ويجلّه إجلالاً كبيراً ويعبر عن هذه المودة التي يكنها للراوي بما يلي: "إنني لا أجد في هؤلاء الناس من أخاطبه غيركم فأنتم علالتي في الحياة الحرة وسلواي من الرجال" وفي رسالة أخرى بعثها الرصافي للراوي وقد بدأها بهذين البيتين:

بأيّ سلام أم بأيّ تحية إليك أزين اليوم بدء خطابي
فإنك اهلٌ للتحيات كلها وما انا فيما ادّعي بمحاب

ومن الأعلام الذين راسلوه وراسلهم: عبد الوهاب عزام ومحمد كرد علي ومحمد حسن الزيات وعبد القادر المغربي وأحمد أمين والأب انستاس الكرملي، ومنهم الدكتور زكي مبارك الذي كانت تربطه به صداقة حميمة منذ كان ببغداد، ولما نُعي إليه الراوي كتب فيه قصيدة طويلة منها هذه الأبيات التي يتذكر فيها ما كان يزهو به مجلس الراوي في بغداد:

لا تسألوني عن طه ومنزله والكرخ دار له من بعد بغداد
يهفو الضيوف إلى ساحات منزله ليسمعوا صوت ذاك الباغم الشادي
اين الطعام وقد فاضت أطايبه وصوت روح بنور العلم وقّاد

(طه) أجبني أجب هل مت؟ هل ذهبت؟ تلك الخصال إلى آباد آباد؟





ضباط من بغداد المعروف منهم إبراهيم الغزالي.



أديـــب الفـكـيـكـي..

بمزيد من الحزن تلقينا نبأ وفاة الطبيب النطاسي العراقي البارز الدكتور أديب الفكيكي، الذي كان واحداً من أهم المخططين الصحيين، والمتخصصين في التدرن والأمراض الصدرية، كما كان باحثاً مرموقاً أصدر الكثير من الكتب والأبحاث، ومن الممارسين للعمل السياسي الوطني. وبمناسبة مرور أربعين يوماً على رحيله هذا استعراض لحياة الفقيد الفكيكي رحمه الله.

ولد في الكرخ من بغداد عام ١٩٣٤ لأسرة عريقة ينتهي نسبها إلى بني شيبان بن بكر بم وائل نزح أجداده من أطراف الكوت فنزلوا في الوردية عند (الحلة) منذ قرنين ونصف ووالده أحد أشهر أعلام العراق في القرن العشرين المرحوم توفيق الفكيكي الفقيه والقانوني الضليع والباحث في معظم المعارف الإسلامية.

درس في الأعظمية ودخل كلية العلوم عام ٥٢ ـ ١٩٥٣ في دورتها الرابعة، وبعد دراسة ثلاث سنوات تركها والتحق بكلية الطب في جامعة استنبول فقُبل في الصف الثاني بموجب تعادل الشهادات، ونال شهادة الدكتوراه في الطب عام ١٩٦٠، وخلال أدائه الخدمة العسكرية عمل في مستشفى الأمراض الصدرية العسكرية كطبيب عسكري، فمكث فيه سنة كاملة ومن تلك الأيام نمت لدية الرغبة في أن يكون مختصاً في الأمراض الصدرية، وبعد ذلك التحق بمعهد الأشعة في بغداد للتدريب على التشخيص الشعاعي عام ١٩٦٢ وتتلمذ فيه على يد الدكتور شوكت محمود، وصاحب زيني، وعن هذه الفترة يقول الفكيكي:"كننت أسمع مع أستاذي الدكتور صاحب زيني أن الدكتور شوكت محمود رجل عالم في الأشعة ولكنه لا يعلّم المتدربين ويعتبرنا جيل ترف، فصممت على أن أتدرب عنده مهما كلّفني ذلك، ووقفت على باب غرفته في صباح أحد الأيام أنتظره، حتى إذا وصل سلمت عليه وقدمت له نفسي كطبيب كتدرب أود الاستفادة من خبرته، وحين عرف اسمي وعرف والدي استبشر بهذه المعرفة ورغب في زيارة الوالد الذي كان يشكو يومها من نوبة قلبية، فما كان منه إلا أن ترك الغرفة وصحبني بسيارته وأصرّ على زيارة والدي، ثم عدنا إلى المعهد وبدأ بتدريبي، ويشهد الله أنه قد رفع من مستواي كثيراً جداً".

بعد أحداث ١٩٦٣:

مع بدايات ١٩٦٣ عمل في وزارة الصحة واعتمدته الوزارة كأحد المخططين الصحيين والمتابعين لبرامجها وشغل وظيفة مدير الإرشاد والتثقيف الصحي، ومعاوناً للصحة القروية وكُلِّف بإعداد وتنفيذ العيادات الشعبية من خلال (منظمة العمل الشعبي) ولما قامت أحداث تشرين ١٩٦٣ اعتقل وفصل من الوظيفة، ثم أعيد إلى معهد الأشعة عام ١٩٦٥ لينهي تدريبه واجتياز الامتحان وبعد أن قام بذلك رجا من الدكتور شوكت محمود الذي كان مديراً للمعهد أن يكتب للوزارة لإبقائه طبيباً في المعهد فكتب بذلك لكن السلطات الأمنية كانت له بالمرصاد وكان جواب الوزارة: توجيه عقوبة إلفات نظر أستاذه شوكت ونقله إدارياً إلى مدينة العمارة فالتحق بالعمارة مكرهاً وتحت رقابة مديرية أمن العمارة وقد بقي فيها ولم يغادرها إلا بعد أحداث ١٧ تموز ١٩٦٨.

مزيد من الخبرة خارج العراق:

في عام ١٩٦٩ أنيطت به مسؤولية صحة محافظة القادسية وفي عام ١٩٧٠ تولى مديرية معهد مكافحة التدرن والأمراض الصدرية، وفي كانون الأول ١٩٧٢ توجه إلى إنكلترا لنيل درجة الاختصاص في التدرن والأمراض الصدرية من جامعة ويلز وقد حصل عليها وعاد مباشرة لاستلام المعهد من جديد عام ١٩٧٦ عندما كلف مرة ثانية ليكون رئيساً للمؤسسة العامة للتأمين الصحي والصحة الريفية مما أتاح له فرصة تنفيذ خطة مكافحة التدرن حتى مفاصلها الدقيقة بحكم موقعه التخطيطي والتنفيذي واكتسبَ خبرة أخرى بعد الاختصاص وبعد التحاقه بدورة لمدة خمسة أشهر في اليابان في مجال السيطرة على التدرن عام ١٩٧٥، وبدورة ثانية على التخطيط الصحي لمدة أربعة أشهر في جامعة جون هويكنز عام ١٩٧٨. وبعد أن خدم خمس سنوات في المؤسسة العامة للتأمين الصحي والصحة الريفية عاد بمحض إرادته في نهاية غام ١٩٨٠ إلى معهد مكافحة التدرن.

منجزات رائدة:

قام أديب الفكيكي بجهود ملموسة في الحقل الصحي في العراق فهو أول من نفذ الرعاية الصحية الأولية بكل تفاصيلها في المراكز الصحية في الأقضية والنواحي، وأول من نسق العمل والنشاطات بين الدوائر الوقائية وبين خدمات الرعاية الصحية الأولية وله مساهمة لا تنكر في تنفيذ العيادات الشعبية في العراق ١٩٦٣، ونقل عمليات كشف

حالات التدرن وتداويها ومتابعتها في عموم القطر بطريقة جماعية عبر شبكة المراكز الصحية المنتشرة في العراق، واعتبرها من ضمن واجبات الرعاية الصحية الأولية منذ عام ١٩٧٢، وسعى إلى جعل التلقيح بلقاح البي سي جي إلزامياً لكافة الأطفال منذ عام ١٩٧٣ وهو أول من سعى إلى تشكيل اللجنة الوطنية لمكافحة التدرن وأول من سعى إلى تصنيع مادة الريفادين وتعميم استعماله في معالجة التدرن على صعيد العراق كافة عام ١٩٧٧.وقام بإدخال الميكروسكوبات المشعة وفتح مختبرات لزرع القشع في أغلب المحافظات منها السليمانية والموصل وكربلاء والبصرة وسعى إلى إبدال معهد مكافحة التدرن إلى معهد مكافحة التدرن والأمراض الصدرية تمشياً مع التطور الطبي، كما سهل سفر العديد من الأطباء للاختصاص خارج العراق وإيفاد البعض منهم لحضور المؤتمرات العالمية وسعى ضمن صلاحياته إلى تشييد مستوصفات صدرية في حديثة، وتلعفر، والحويجة، والحي، وعلي العربي، وبإرشاده تم إنشاء مستشفيات لمكافحة التدرن في الانبار والناصرية والموصل، وفي ١٩٨٠ اختارته دولة اليمن لدراسة مشكلة التدرن في اليمن فقام بواجبه وقدم تقريراً بذلك لمجلس وزراء الصحة العرب، وبهمته وهمة المخلصين من زملائه الأطباء والموظفين الصحيين انخفضت مشكلة التدرن في العراق التي بدأت مكافحتها منذ عام ١٩٤٤ حين أسست جمعية مكافحة التدرن والتي كانت أولى ثمراتها إنشاء مستشفى الأمير عبد الإله الذي افتتح في آب ١٩٥١ بـ٢٣٠ سريراً وبإدارة المرحوم الدكتور محمد حسن سلمان، وهذا المستشفى أبدل اسمه إلى (مستشفى التويثة للأمراض الصدرية) بعد ثورة تموز ١٩٥٨.

مع أستاه الدملوجي:

في جميع كتابات الفكيكي إشادة بأساتذته ووفائه لهم ومن ذلك احترامه لكفاءة الدكتور كرجي ربيع وفراسته التشخيصية في أمراض المناطق الحارة ومن بين أساتذته الذين أشاد بهم المرحوم الدكتور سالم الدملوجي وقد وصفه بأستاذه الجليل القدير فقال: "كان لنا نحن أطباء الأمراض الصدرية بمثابة القدوة الحسنة والمعلم الحريص ويعود إليه الفضل في دفع جمعية مكافحة التدرن العراقية إلى مستويات علمية متقدمة وكان موضع اعتزازنا وفخرنا، قضى ٤٧ سنة في الدراسة والبحث والتأليف وهو أول من فتح لي باب التفاعل مع الاتحاد الدولي لمكافحة التدرن وعرفني على أساتذته وعلمائه وفي ١٩٧٥ شاركنا معاً في اجتماع الاتحاد الدولي المنعقد بباريس وقد وقف بنفسه ليقدمني أمام أكثر من ستين وفداً من وفود

دول العالم وشدّ على يدي وقال: تكلم باسم العراق فأنتَ لست بأقل منهم علماً فقوى عزيمتي وضاعف الثقة بنفسي".

في المحافل الصحية العالمية:

وإلى جانب كون الفكيكي رئيساً لجمعية مكافحة التدرن والأمراض الصدرية العراقية، فقد اختير عضواً فخرياً في جمعية مكافحة التدرن والأمراض الصدرية اليابانية، نائباً لرئيس الاتحاد الإقليمي لمكافحة التدرن والأمراض الصدرية لمنطقة الشرق الأوسط، وعضو هيئة تحرير مجلة الاتحاد الإقليمي العلمية وعضواً في الاتحاد الدولي الصادرة في باريس وعضو اللجنة العلمية للأمراض الصدرية الدولي وعضواً في الجمعية الطبية العراقية، وعضواً في جمعية أطباء الصدر والقلب وكان رئيساً لتحرير المجلة الطبية العراقية الصادرة عن نقابة الأطباء العراقيين خلال الأعوام ٨٦ ـ ١٩٨٨ ورئيس تحرير مجلة الصحة والحياة.

كتبه وأبحاثه:

١. الوقاية من التدرن. طبع ١٩٧٤.
٢. عمليات مكافحة التدرن في العراق والمشاكل التي تعترضها. طبع ١٩٧٦.
٣. مؤشرات في واقع الخدمات الصحية في العراق. طبع ١٩٧٨.
٤. التدخين (بحث استقصائي عن وبائية التدخين بين معلمي محافظة بغداد) طبع ١٩٧٥.
٥. الصبّارون: يبحث في شؤون المعاقين وأنواع العوق.
٦ مكافحة التدرن اليوم وغداً (ترجمة).
٧. الصحة والسلام، طبع ١٩٨٧.

وبالإضافة إلى كتابه تاريخ أعلام الطب له مقالات منشورة أغلبها في مجال اختصاصه وقد نشرها في المجلات العلمية العراقية والصحف المحلية.

❖ ❖ ❖



عاتكة وهبي الخزرجي

طالعينا بنيّرات العشي يتألقن في سموط الروي
في بيان كأنه وشي أستاذ لوشي الشريف والبحتري
هزّ نفسي منه مناجاتك الله بفيض من سحرك العبقري
كالتحاميد في صلاة بتول والتحاميد في ابتهال نبيّ
يا ابنة الخزرجي أخلصتِ للشعر فوافاك يا ابنة الخزرجي

أحبائي المستمعين: هذه أبيات نظمها الشاعر المصري عزيز أباظة يُحيّ مَن نحنُ في حضرتها اليوم عبر برنامج (شخصيات عراقية) وعي شخصية متميزة برز اسمها خلال القرن العشرين في القمة من شواعر العراق إنها الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي النغم المشبوب في دنيا الشعر والجمال والفتنة والأحلام.. هذه الراهبة في محراب الفكر صلّت شعراً ضاء لألاؤه دنيا الأدب بما اعتمر عليه شعرها من ابتهالات الحب والوجد في الله ولله.

ولدت عاتكة ببغداد ليلة الجمعة الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ حسبما ذكر والدها على مذكرة له ودعا لها بقوله: "جعلها الله خادمة له ولحبيبه محمد (ص)" وختم دعاءه بهذه الحكمة "ولد الشيب يتيم" والتي صدقتها الأيام كما تقول عاتكة "إذ لم تمضِ على ولادتي غير شهور ستة حتى اختاره الله إلى جواره وقُضي عليَّ أن أنشأ يتيمة بلا أب".

وكان والدها وهبي الأمين الخزرجي عقيداً في الجيش التركي وحارب في الحرب العالمية الأولى إلى جانب العثمانيين، ولما تأسست المملكة العراقية عُيِّن وهبي بك متصرفاً للموصل سنة ١٩٢١ فمتصرفاً للواء ديالى.

دخلت عاتكة مدرسة الحيدرية للبنات واجتازتها بتفوق وكذاك الحال في المرحلتين المتوسطة والثانوية ثم انتسبت لدار المعلمين العالية وأحرزت الليسانس بشرف متخصصة بدراسة الأدب العربي وقد باشرت بتدريسه فور تخرجها في ثانوية الأعظمية للبنات، وفي سنة ١٩٥٠ انتقلت إلى باريس لإكمال دراستها العالية واختصت بأحد كبار المستشرقين الفرنسيين هو البروفسور بلاشير وبعد مُضي سنوات ست أحرزت دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون بدرجة الامتياز وقد حققت ديوان العباس بن الأحنف وطبعته بمطبعة دار الكتب بالقاهرة ودرست حياته وشعره مُفَصَّلين في رسالة كتبتها بالفرنسية، ثم ترجمت بعض فصولها ونشرتها في مجلة "الأستاذ" البغدادية و"العربي" الكويتية و"الرسالة" المصرية، وأذاعت جانباً منها في إذاعة بغداد، وكانت قد

هامت حباً بابن الأحنف واستلهمت أنفاسه وتأثرت بأسلوبه وطبعها بطابعه في الحب والخيال المجنح، وإن اختلفت بحبها عن حبه، وابن الأحنف هذا هو حامل لواء الحب في صدر الدولة العباسية، وما تميز به شعرها المسحة الصوفية والتغني بالحب الإلهي الذي لازم معظم أشعارها الغزلية، ومن ذلك قولها في قصيدة عنوانها "هو الحب":

شُغِلنا بكُم عن كلِّ شيء وأنتمُ — "كأن لم يكن بيني وبيْنكم وصلُ"
فدىً لكُمُ بعضي وكُلّي وإنني — بكُم ليس لي بَعدٌ وما كانَ لي قَبْلُ
اراني بِكم بُلّغتُ سُؤلي فحبذا — حياتِيَ إذْ انتم لها ذلكَ السُؤلُ
وعيناكَ قالَ اللهُ كُونا فكانَتَا — فلم يبقَ لا لُبٌ لدنيا ولا عقلُ
وعيناك سِحرٌ في فؤادي ولا رُقىً — وعيناك سهمٌ في حشاي ولا نَبْلُ
وصوتُك في روحي صداه وخاطري — ولفظُك عندي دون لفظِ الورى يحلو
ووجهُك أنَّى لاح يممتُ ناظري — فما بيننا حَدٌ ولا دوننا سُبْلُ
أحِبُكَ كي أفنى بحبِك فالهوى — بدايَتُه سُقمٌ وغايَتُه قتلُ
وموتي بكم فيه الحياة وإنني — جميعي لكم بعضٌ وبعضكُمُ الكُلُ
جرى حُبكُم مجرى دمي في مفاصلي — فأصبح لي عن كل شُغلٍ بكم شُغلُ

كتبت عاتكة مسرحية شعرية عن مجنون ليلى وهي في السادسة عشرة من عمرها، وكتبت رسالة عن الآنسة مي زيادة، كما نشرت مجموعة من المقالات الأدبية والقصص وكثير من نتاجها النثري ما يزال مخطوطاً لكنها وُفّقت لطبع عدد من دواوينها الشعرية التي تلقّفها هواة الشعر في الوطن العربي وكان لها صدى واسع في الأوساط الأدبية وانتزعت بذلك شهادات قيّمة لكبار الأدباء العرب الذين أعجبوا بشعرها أيما إعجاب، وفي هذا الشأن خاطبها أحد شعراء مصر "إن الشاعرية مركوزة في طبعك وإنك الشاعرة من فرعك لقدمك، ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت من فرعك الذي يتوج فيما يتوج بالشباب والجمال إلى قدمك التي تحمل فيما تحمل النبوغ والكمال".

استمدت عاتكة الخزرجي موارد أدبها من الشعر العربي الأصيل قديمه وحديثه، وإن أساتذتها فيها كثر أولهم البحتري، وهي معجبة أشدّ الإعجاب بالشريف الرضيّ وأحمد شوقي، وقد مارست النقد الأدبي والقصة القصيرة وعلى الرغم من اطلاعها الواسع على الآداب الغربية، لم تخرج على نظام القصيدة العربي القديم، واتسم شعرها بعاطفة مشبوبة، وأداة مكتملة لأساليب العربية، وعمق المعرفة لضوابط الفصاحة، تؤثر الإيجاز، تسعفها قريحة ثرّة وشاعرية مؤاتية، وذكاء يتوّجه علم، يكاد شعرها أن يكون من فيض الخاطر، ولكن فيه اكتمال الرؤية واستيفاء القصد، لا يكلفها نظم القصيدة مهما طالت إلاّ أقصر الوقت بالنسبة إلى ما نعرفه عند الشعراء الكبار.

وبرغم هذه الخصلة فإن شعرها لا تنقصه صفة التأمل والتجويد، يسعفه ذوق نما بنمو الثقافة، ومناجاة الله هو أندى الشعر إلى نفسها والغزل العفُ على مذهب أهل العشق الإلهي يشغل جملة كبيرة من شعرها وهذا الذي يُرضي عاطفتها بل كان هذا ما طُبعت عليه في حياتها حتى

ليروى أنها عندما كانت تزور (القاهرة) وكثيراً ما كانت تزورها فإنها كانت تفضّل الإقامة في دَيْر وتمتنع عن النزول في محل أكثر ترفاً، ومن شعرها الذي ينحى هذا المنحى:

يـا حبـيبي يمـضي الزمـان ونَمْـضي — وهوانـا لم يَمْحُـه قَـطُّ مَـاحِ
سـوف نبقـى رغـم البلـى يـا حبـيبي — فالبقـاءُ البقـاء لـلأرواح
اسـقني اسـقني، فقـد تظمـأ الـرو — حُ، ويُـضنى الخَـواءُ في الأقـداح
انـت معنـى معنـاي: معنـى وجـودي — انـت رُوحـي، وانـت رَوْحـي وراحـي

ومن الملفت للنظر أن عاتكة الخزرجي حافظت على النظم بالشعر العمودي ولم تتأثر بموجة الشعر الحر التي رافقتها في العراق خلال الأربعينات، وقد شاركتها في هذا التوجه معاصراتها الشاعرات العراقيات: أم نزار الملائكة، ورباب الكاظمي، ومقبولة الحلي، وأميرة نور الدين داود.

ودواوينها المنشورة هي على التوالي: ديوان أنفاس السحر المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٦٣، وديوان لألاء القمر المطبوع في القاهرة سنة ١٩٦٤، وديوان أفواف الزهر المطبوع بالكويت سنة ١٩٦٥. وممن أعجب بشعرها الكاتب الشهير أحمد حسن الزيات الذي وصف أسلوبها الشعري بأنه نسق مطّرد من الفكر والخيال والعاطفة يصقله طبع وذوق وبقومه دري واطّلاع فلا تجد في أكثر الشعر النسوي من قلق أو نبوّ في غرض، ولقد وقاها كل ذلك تنشئة عربية قوية ودراسة أدبية عميقة ومرانة فنية طويلة..فهي تتصرف في المضمون الشعري تصرّف الفنان المتطور الحر الذي يواكب ركب الحضارة ويتعمق أسرار الطبيعة ويتقصى أطراف المجتمع.

وقال الدكتور صفاء خلوصي: "إن عاتكة بدأت حياتها فتاة حييّة لم تكن لتتغلب على خجلها إلاّ حين كانت تلقي خطاباً أو تتلو بعض أشعارها، وكانت تضع الحجاب حتى في ساعات الدرس، لكنها سرعان ما تبدلت حالها ورأى العراق فيها امرأة حرَّة ثائرة".

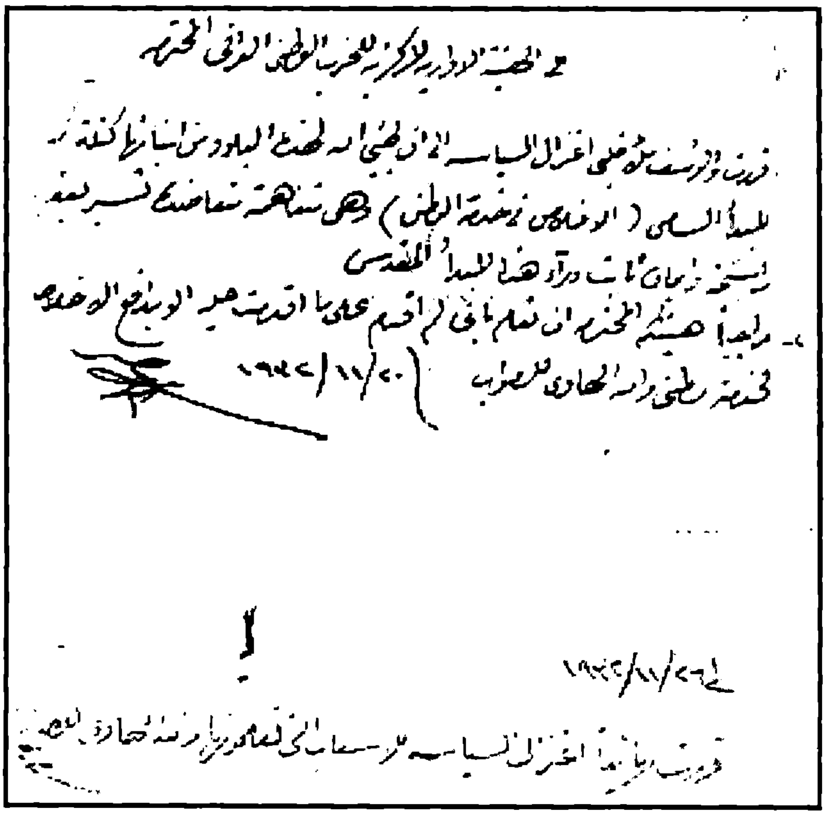
ووصف شعرها مير بصري بقوله: "إن شعر الخزرجية الحزين الرقيق ليشبه في أمواجه المتضاربة ونغماته الساجية شعر مارسليتديبورد فالمور Marceline DesbardesValmore".

أمضت عاتكة الخزرجي فترة طويلة في تدريس الأدب العربي بكلية التربية وكلية الآداب بجامعة بغداد، وعاشت الفترة السوداء من العهد البائد بكل مرارتها وأحداثها المأساوية حتى وافاها الحِمام في اسكتلندة في تشرين الثاني سنة ١٩٩٧ ونفدت وصيتها بنقل جثمانها الطاهر إلى العراق ليعانق ثرى بغداد حيث هامت ببغداد حُبّاً وعشقاً، أو ليست هي القائلة:

بغـدادُ يومُـك في الجهـاد ملاحـمٌ — غُـررٌ بهـا تترنَّـمُ الآبـاءُ
هيهـات يمحوهـا الزمـانُ مواقفـاً — ضَـجَّت لهـا في تُربهـا الأجـداد
شـهداؤك الأبـرار أحيـاء علـى — قَـسماتِهم نـورُ الهـدى وقّـاد
يتباشـرون مجلجلـين هتـافَهم: — عـاش العـراق ومـات الاسْـتبداد
بوركـتِ يـا بغـداد مـن بَلَـدٍ بـه — تُفـدى النفـوس، وتُبتنـى الأمجـادُ



الحاج جعفر أبو التمن زعيم الحركة الوطنية ببغداد في الثلاثينيات من القرن العشرين.



الى الهيئة الإدارية للمركز العام للحزب الوطني العراقي المحترمة

قررت وبرغبة شخصية اعتزال السياسة [illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible] المقدس

راجياً [illegible]

[illegible] ٢٠/١١/١٩٤٢

في ٢٦/١١/١٩٤٢

[illegible]

استقالة و اعتزال الزعيم أبو التمن من العمل السياسي.

محمد رؤوف الشيخلي



مؤرخ ومهندس ومحارب قديم، قاتل الإنجليز فأسر في الهند وبورما ومصر، هو أحد المحاربين العراقيين القدماء ومن المشتغلين بعلوم التاريخ والهندسة في القرن الماضي، درس في بغداد واستنبول وأصبح ضابطاً في الجيش العثماني وقاتل الإنجليز بعد دخولهم البصرة عام ١٩١٤ فأُسر في معركة كوت الزين ونقل إلى الهند ومنها إلى بورما ثم إلى مصر وعاش في الأسر حوالي أربع سنوات ونصف، وبعد الإفراج عنه عمل في التجارة الحرة، ثم اشتغل مهندساً في أمانة العاصمة ببغداد وتنقّل خلال عمله إلى كردستان وأقام في السليمانية حتى تقاعده سنة ١٩٣٨ وبعد ذلك اختار البصرة سكناً وافتتح فيها المكتبة الأدبية وقضى بقية عمره مشتغلاً في الكتابة والتأليف.

وفي هذه السطور صفحات من سيرة هذا النابه العراقي الذي خدم وطنه وساهم في الحركة العمرانية والثقافية في القرن الماضي.

نشأته ودراسته:

ولد السيد محمد رؤوف الشيخلي ببغداد سنة ١٢٩٩هـ وتربى في حجر والده السيد محمد طه الشيخلي الذي كان أستاذاً لمعمل نسيج الأرز الحريرية، وفي سنة ١٣٠٥هـ باشر دراسته الأولية لدى الكتاتيب وكان أستاذه الأول ابن عمه السيد حسين بن علي مال الله الحافظ الإمام في جامع الحاج فتحي، وفي سنة ١٣١٠هـ دخل المدرسة الرشدية العسكرية وهي مدرسة عسكرية صرفة مديرها ومأمورو الإدارة والانضباط فيها والمعلمون من الضباط وبعد تخرجه دخل المدرسة الإعدادية العسكرية وبعد إكمال السنة الثالثة اختار السفر إلى استنبول لإكمال دراسته العسكرية وكان معه عدد من شباب بغداد ومنهم رشيد الخوجه وإسماعيل حقي وفي استنبول انتسب للمدرسة الحربية (المؤسسة زمن السلطان عبد المجيد ١٨٤٧م) وتخرج منها برتبة ملازم ثان سنة ١٣١٩.

العودة إلى بغداد ووظائفه:

وصل بغداد في أوائل تشرين الأول ١٣١٩هـ، وعين ملازم ثان للسرية الرابعة من الفوج الحادي عشر (النشانجي - الرماة) وكان هذا الفوج في الإحساء، فغادر إلى هناك واستلم وظيفته كعضو في مجلس الفوج الثالث وهيئة الإنشاءات العسكرية، وبعد مدة في هيئة ديوان

الحرب (مجلس الوزراء العسكري) وفي شعبة الأملاك السنية (أملاك عبد الحميد الخاصة) وبعد سنة من إقامته في الإحساء رفع إلى رتبة ملازم أول وانتهى عمله هناك فغادر الإحساء إلى البحرين ومنها إلى البصرة، وعُين ضابطاً في الفوج المرابط بالناصرية وبعد أربعة أشهر انتقل مع الفوج إلى البصرة، ثن أعيد تعيينه في الإحساء للمرة الثانية في ٣ كانون الأول ١٩٠٦ وفي هذه المرة أقام فيها ثلاث سنوات ونصف عاصر فيها القائد يوسف باشا ومن بعده حقي بك وفي نهاية تلك الأيام جاء القائد والوالي ناظم باشا إلى بغداد وأمر بجمع الجيش العثماني في بغداد وأبقى جيشاً واحداً في كل من الإحساء والبصرة والعمارة والناصرية، وبعد رجوع الشيخلي إلى بغداد تسلم أمراً بعمله الجديد في قلعة سكر والحي وذلك في ١٥ رمضان ١٣٣٠هـ، ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى أعلن النفير العام (السفر بلك) في ٢٦ آب ١٩١٤.

مشاركته في الحرب العظمى:

وفي نيسان ١٩١٤ تأهبت الجيوش العثمانية للحرب فغادر الحي مع الفوج الذي يعمل فيه إلى الكوت فالعمارة، وكان عمله مع بقية الضباط تهيئة الجنود للحرب حتى بلغ عددهم أكثر من ٨٠٠ جندياً ضمن موقع عمله وكذلك تهيئة المؤونة الغذائية من رؤوس الماشية والطحين والأرز والدهن والصابون..الخ.

وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩١٤ ركب مع الجنود الباخرة المسماة (بصرة) وذهبوا جميعاً إلى البصرة فرست الباخرة عند مرسى شركة لنج للبواخر النهرية وفي تلك الأيام سقطت الفاو بيد الإنجليز واحتلوا السنية والدواسر، وقد اشتبك مع جنوده في ثلاث معارك هي المكرية، وسيحان، وكوت الزين، وفي المعركة الأخيرة أسره الإنجليز في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٤.

الشيخلي أسيراً:

نقل الشيخلي مع سائر الأسرى الذين معه إلى المحمرة ومنها إلى بومباي وقد وصلوها في ٩ كانون الأول ١٩١٤ وكان ضمن الأسرى قائد منطقة البصرة وواليها الميرلاي (الوعيم) صبحي بك ومن الضباط ٣٨ ضابطاً وجنوداً عددهم ٩٨٩ أكثرهم كان ممن أسر في منطقة القرنة. ثم قرر الإنجليز نفيهم إلى بورما فنُقلوا إلى عاصمتها رانجون وبعدها إلى معتقل (تتيمو) فبقوا هنالك سنة كاملة ثم أعيدوا إلى الهند في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٥ واعتُقلوا في (سمربور) وبقوا فيها حدود سنة واحدة وحينذاك قام الإنجليز بتسفير بعض الضباط والجنود للالتحاق بالشريف حسين بعد ما ضمنوا تخليهم عن العثمانيين لكن الشيخلي مع أكثر الضباط العراقيين معه امتنعوا من ذلك لخوفهم من غدر الإنجليز، وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩١٦ نقلوا إلى بومباي ومنها بحراً إلى رابغ ثم إلى السويس ثم إلى سيدي بشر حيث مكثوا في هذا المنفى المصري سنتين ونصف من ٢٩ كانون الأول ١٩١٦ لغاية ٢٨ شباط ١٩١٩ وأفرج عن الشيخلي

وجماعته بعد هذا التاريخ ومجموع ما مكثه في الأسر أربع سنوات وأربعة أشهر وواحد وعشرون يوماً من ١٧ تشرين الثاني ١٩١٤ إلى ٨ نيسان ١٩١٩.

تفرغه للأعمال المدنية:

بعد الإفراج عنه وعودته إلى وطنه ترك الشيخلي عمله العسكري تماماً، ولا نعرف بالضبط سبب إحجامه عن ذلك العمل الذي شغف به حباً مع بدء شبابه وقضى غضارة أيامه في سبيله دارساً ومناضلاً ومنفياً مع أن عدداً من رفاق السلاح بالأمس معه عادوا للعمل ضمن تشكيلات الحكم الوطني بعد عام ١٩٢١ وتسنموا أرفع المناصب في الدولة، إلا أنه فضل العمل الحر ومارس التجارة ثم عين مهندساً في دائرة الأوقاف، وبعدها عمل ملاحظاً overeer في بلدية البصرة لمدة عشر سنوات من ١٩٢١/١٢/١ إلى ١٩٣١/١١/٣٠ استقال بعدها وذهب إلى بغداد فسكن في دار والده بمحلة باب الشيخ - طريق فضوة عرب وبعد سبعة أشهر وُظّف مهندساً في وزارة الأشغال وبُعث إلى قرية شينكل - بارزان سنة ١٩٣٢ لإنشاء مخفر هناك، وبعد إكماله عمل في أمانة العاصمة ببغداد سنتين ونصف بوظيفة معاون مهندس أشرف خلالها على فتح شارع الملك غازي من الباب الشرقي إلى باب الشيخ كمرحلة أولى ابتداءً من ١٦ كانون الثاني إلى ٢١ تموز ١٩٣٥ وكان ذلك أيام أمين العاصمة ارشد العمري وحين حل محله صبحي الدفتري طلب إحالته إلى التقاعد، وبعد ذلك عُين على ملاك وزارة الأشغال من ١٦ آب ١٩٣٥ لغاية ٢٢ حزيران ١٩٣٧ أشرف خلالها على بناء مستشفى حلبجة ودائرة البريد وإسطبل ملحق بسراي الحكومة وقدم طلب التقاعد فمنح دفتر التقاعد بمتابعة ولده الأكبر أحمد، محسوباً على لواء السليمانية سنة ١٩٣٨، وعند ذلك رجع إلى بغداد، فلم يهنأ له العيش بها وآثر مدينة البصرة عليها وهكذا سكن البصرة، وافتتح بها مكتبة في سوق السيف اتخذ له اسم (المكتبة الأدبية) وكرس بقية حياته للتأليف حتى وافاه أجله المحتوم يوم الجمعة ١٩٦٥/١١/٥ ووري ثراه بمقبرة الحسن البصري بالزبير.

مذكراته:

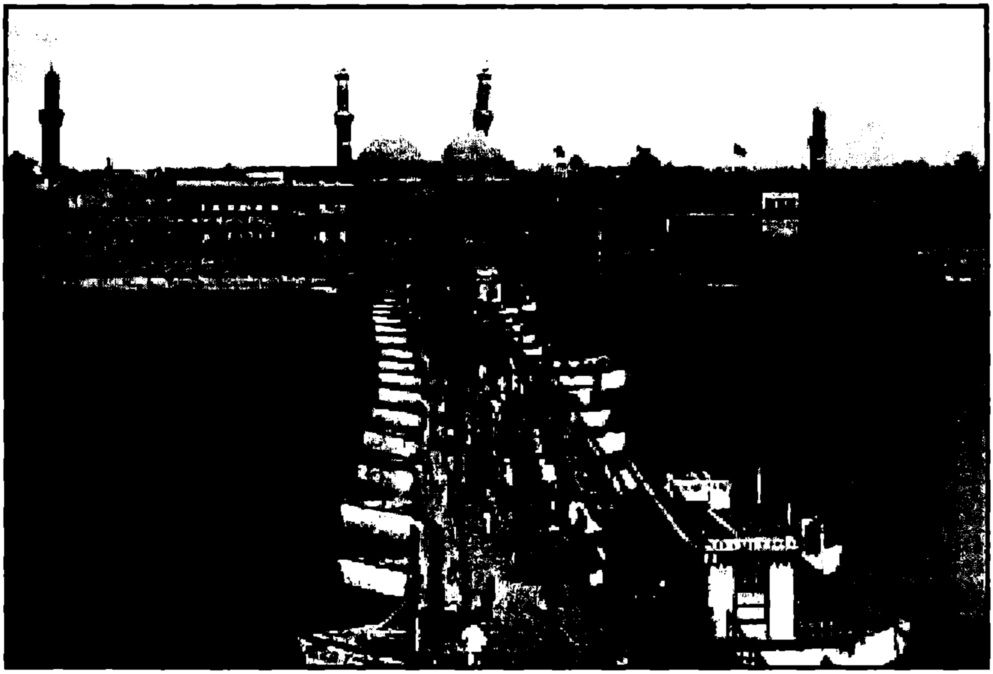
تعد مذكراته من أهم آثاره التي تركها وتقع في ٤٤٦ صفحة احتوت على خمسة أقسام هي:

١ - حياته المدرسية إلى حد التخرج برتبة ملازم ثان ١٣٢١هـ والوصول بغداد.

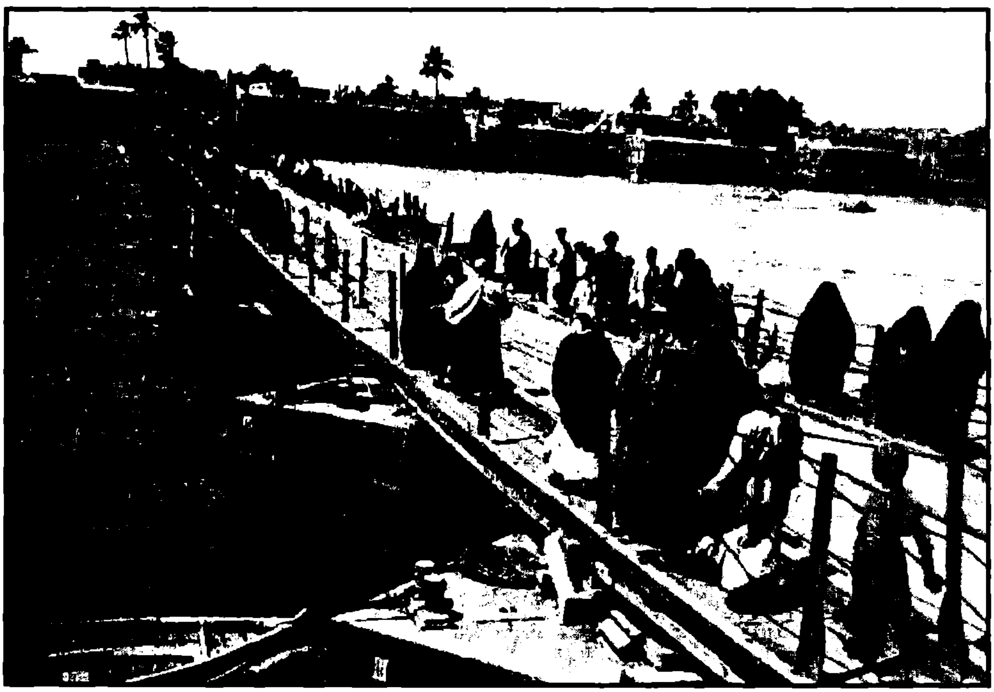
٢ - حياته العسكرية منذ دخوله الطوابير (الأفواج) النظامية إلى حدّ التغير العام وإعلان الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء.

٣ - حياته الحربية وفيها مقاتلته في جبهة الحرب إلى حين أسره.

٤ - حياته في المنفى والأسر. ■



الجسر القديم - بغداد.



جسر على دجلة – بغداد.



حافظ جميل

أحد أكبر شعراء العراق في القرن العشرين، تخرج في بيت علم وفضل من أجلّ بيوتات بغداد، درس في لبنان، وتقلد في بغداد عدداً من المناصب الإدارية والتعليمية حتى اعتزاله وتفرغه للشعر وحده، فأجاد فيه وطار صيته في العراق وخارجه.

نشأته:

هو أبو سمير حافظ بن عبد الجليل بن أحمد بن عبد الرزاق آل جميل، ولد في محلة قنبر علي بقضاء الرصافة في بغداد سنة ١٩٠٨ ونشأ في بيت والده الفقيه الشيخ عبد الجليل الجميل، وتتلمذ عليه وكان الوالد راغباً في أن ينصرف ولده حافظ للدين وحده لكنه اختط لنفسه طريق الشعر وبه عرف طيلة عمره، قرأ الفتى حافظ على أبيه بعض العلوم الدينية ثم عكف على دراسة العربية وآدابها واستهواه القريض حتى طاع له نظمه في سن مبكرة وعرض بعض منظوماته على الشاعرين الزهاوي والرصافي ولقي منهما الدعم والتأييد، وبعد إتمامه الثانوية التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٢٥ ودرس التاريخ الطبيعي بكلية العلوم وتخرج منها سنة ١٩٢٩، وخلال الفترة التي قضاها في بيروت صقل موهبته الشعرية مع نفر من أقرانه في الدراسة أصبحوا فيما بعد معه ضمن مشاهير الشعراء والأدباء أمثال: إبراهيم طوقان ووجيه البارودي وعمر فروخ، وفي خارج الجامعة تعرف على محمد علي الحوماني، ولشارة الخوري وغيرهم.

وظائفه:

وبعد عودته إلى بغداد عُين مدرساً في الثانوية المركزية في ١ ديسمبر ١٩٢٩ ثم عمل في دار المعلمين الابتدائية وفي ٢٨ديسمبر ١٩٣١ نقل إلى ثانوية البصرة عقاباً له بعد نشره قصيدة تندد بالسلطة الحاكمة ومن الغريب في هذه الواقعة أن طلبت السلطة منه الامتناع عن نظم الشعر مقابل استمراره في الوظيفة، فاستجاب لهم مدة تقرب من اثني عشر عاماً.

وكان يحاضر أيضاً بمدرسة الهندسة، وفي الحضرة القادرية، وفي ١١ أكتوبر ١٩٣٢ نقل من التعليم إلى وظيفة كاتب ضريبة دخل بغداد واستمر في عمله حتى أصبح معاوناً لمدير البرق والبريد العام في ٢٦ أبريل ١٩٥٢ ثم أحيل على التقاعد بوظيفة مفتش عام في البريد في ١٩٦٣/٧/٨ عن خدمة حكومية مدتها ٣٣ عاماً وقد منحته رئاسة الجمهورية اللبنانية وسام الأرز عام ١٩٧٢.

شاعريته:

عده عبد الرزاق محي الدين من فحول شعراء العربية وأنه برز على كثير من معاصريه - وإن لم يك على جلِّ معاصريه - شاعراً متيناً، على غضاضة في العود، ورقة في الشباب حتى جولاته المتأخرة شيخاً متقدماً.

أما شاعرنا نفسه فقد أوجز بعض الملامح عن تجربته الشعرية نختصرها فيما يلي:

قال: "كنت أستوحي جميع قصائدي مما يختلج في صدري من نزعات وجدانية، ومما تمليه عليّ أحاسيسي وشعوري وكنت لا أستجيب إلا لداعي ضميري ووجداني، وكنت أحسُّ أن المجتمع الذي أعيش فيه زاخر بالمعائب والمثالب، وأنه أضيق من أن يتسع لأفكار شاب طموح مثلي لم يتعود بعد حياة التزلف والمداجاة، وكنت لا أكترث بأن أثير سخط الناس عليّ جميعاً بسبب فكرة أتبناها.. نظمت في أكثر المواضيع المألوفة يومئذ فكنت صريحاً.. متحرراً من كل قيد يفرضه عليَّ المجتمع.. ولم أكترث لنقد الناقدين.. كنت أحارب فساد الأخلاق وكنت حرباً على كل قوي مستبد.. طليقاً من كل قيد يحدُّ من نشاطي، استهوتني أساليب أبي نؤاس وابن الرومي ومن ثم شوقي، واستحوذت عليَّ طرقهم الشعرية فأثرت في أسلوبي الشعري إلى حد بعيد".

وممن أثنى على شاعريته الأستاذ منير القاضي الذي أشار إلى جزالة نظمه وتعمقه في استنباط المعاني الدقيقة التي تصور في الأذهان صوراً قد يعجز عن تصويرها الرسام الماهر كما قال وأضاف: "حافظ منذ نعومة أظفاره ذوّاقة للشعر، عرافة بالنقد، كثير المطالعة لدواوين مشاهير الشعراء وأنه لم يمدح في شعره مدح تزلف، ولم يرثِ أحداً إلا من يستحق الرثاء من الأدباء". وعن أسلوبه الشعري قال الدكتور بدوي طبانه "إن شاعرنا لم تبهره دعوات الخروج على المأثور من أوزان الشعر ونظام القوافي، وأنه استطاع أن يضمن هذه القوالب ما شاء من العواطف والأحاسيس التي يتدفق تيارها في شعره ولم تستطع تلك القوالب أن تحد من القدرة على سماحة الأداء مع الحفاظ على رصانة الشعر وقوة أسره وجزالة أسلوبه"، وأشار مير بصري إلى أنه كان ينقد القصيدة التي ينظمها نقداً قاسياً ويزن كلماتها وأبياتها بميزان الدر والذهب.

بغداداياته:

شارك حافظ جميل في كثير من المهرجانات الأدبية في العراق وخارجه، ومن ذلك مشاركته في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في الكويت عام ١٩٥٩، ومساهمته المتميزة في مهرجان الشعر الخامس ببغداد عام ١٩٦٥ وألقى في الأخير إحدى غرره الشعرية عن مدينته

بغداد، وكان فيها لسان العراق الناطق للترحيب بوفود الشعراء العرب التي قدمت على مدينة السلام، ونختار منها هذه الأبيات الجميلة:

أضياف بغداد هذا وجه بغداد

ما حبَّر الدهر تأريخاً كأسطرها

في كل صدر كتاب من روائعها

صحائف من بطولات وأمجاد

في بوح خلد ولا في سفر آباد

يُتلى وفي كل ثغر حلو إنشاد

وجاء في قصيدته المخصصة للاحتفال بألفية بغداد والفيلسوف الكندي:

كفى سؤدداً أن يستهلَّ بكِ العهد

طلعت على الدنيا ويا خير مطلع

وحسبك يا بغداد ما رسم الخُلْدُ

بشائره العلياء والمُلك والسعد

وقال:

لغيرك يا بغداد لم يهف جانحي

ولا طاب لي من غير دجلة مرتع

إذا حلَّ بي ضيم فعفتك مُكْرهاً

ولا شاقني في غير ظلك أن أشدو

ولا لذَّ لي من غير شاطئها الورد

رجعت وأدهى الضيم ما ضامني البعد

أخلاقه وصفاته:

وصفه الخاقاني بأنه قوي في النقد، قدير على إيجاد الثغرة لمن تحدّثه نفسه بالزهو من أخدانه الشعراء، قال: وتعجبني صراحته المؤدبة، ونكاته المستملحة وإيقافه المتطفلين والثرثارين ممن يتمشدقون بالشهادات الورقية، والألقاب الضخمة. وأشار بدوي طبانه إلى تواضعه وانزوائه عن المجتمعات وما كان يتصف به الترفع والإباء قال "وهو الرجل العف في منطقه، الحيّي في نظرته، السمح في طبعه، ولكن بين جنبيه قلباً يُؤرقه، وحباً لأمته، وغيرة على المثل التي يعشقها دفعته إلى تلك الثورة العارمة على الظلم والطغيان".

خمرياته:

عرف حافظ جميل بشاعر الخمرة لكثرة ما نظمه فيها وولعه بها ولعاً عجيباً وهو القائل في ذلك:

أنا بالكاس اعبد الله لا عن
افينجو من راح ينهى عن الخمر
نشوتي إن شربت نشوة روح
مبتغى جنة وخوف عذاب
إذا عقّ ربه من عقاب
تبصر الله رغم كل حجاب

ومع استغراقه في تجربة الخمر لكنه وبسبب خلفيته الدينية فإنه كان يرى فيها معصية:

ما اقتربت من أجلي ساعة
ويلي من الحشر وأهواله
يا دعوة التائب لا تقنطي
إلا تخيلت عقوباتي
إن نشرت سود صحيفاتي
فالله ادرى بالسريرات

ومع غلبة الخمريات على شعره فإن معاصره حارث طه الراوي يرى فيها شيئاً آخر فهو يقول "وما زال الذين يرون دراسة سيرة حافظ وشعره بحاجة إلى التسليم بحقيقة عرفتها ألا وهي أنه شاعر الألم وليس كما اشتهر بشاعر الخمرة".

من وطنياته:

ومما نظمه قسم كبير من القصائد الوطنية وكلها تحث على التمسك بالوحدة الوطنية كما في قوله:

ولم العداء يعوذ من عربيهم
شعبان عاشا ما وهت صلتاهما
ولم الخلاف وكلُّهم متمسك
هل موقفُ السُنيِّ من شِيعيِّهم
ولم الشقاق وهم تتمةُ بعضهم
بيت النبوة قُدست (زهراؤه)

كرديهم وكلاهما أَخَوان؟
من ظن أنهما سيختلفان؟
بالله والإسلام والفرقان؟
إلا كما تتشابكُ الكَفَّان
ولكل قلبٍ نابضٍ عرقان
والحيدر الكرار والحسنان

ومما كان يقلقه الفرقة التي كانت ضاربة أطنانها بين بعض الفئات:

كيف يرجو شعب تمزقه الفرقة
نصراً على العدا مكفولا؟

ولكثرة ما مرّ بالشعب العراقي من المآسي والويلات فهو يندب حظ وطنه فيقول:

وأسوء حظك يا عراق
ايظلُّ يغمرك الدجى
أين المفر من العراق
اغافل عما يمرُّ؟
أم بعده فجر يطرُّ
واهله أين المفر؟

مع المرأة:

أما المرأة فهي لدى حافظ جميل موحية للشعر له، وحافزته عليه، زاملها طالباً في مقاعد الدراسة الجامعية فشغفها كائناً شاعرياً، وشغفته كوناً شعرياً، وظلّت إلى جانب الخمرة التي عشقها مثار شعره ومؤججة عاطفته لا يبرحها في يقظة وعي ولا في غفوة خيال، ومن شعره الذي استعاد به صورة من صور الهوى الغابر، قوله:

هل عرف الناس وهل آنسوا
راحاً إذا جالت بأرواحنا
لفّت ذراعينا على ضمَّةٍ
إذا ارتوت من ريقةٍ ريقةٌ
أو تعبت من شمةٍ شمةٌ
او ثملت من قبلةٍ قبلةٌ
واضرمت أنفاسنا جذوة
وارتعشت أوصالنا نشوة

راحاً من الحبّ كراحينا؟

صبّحن في سُكر ومسّينا

كأنها تلحم شطرينا

اظمأها حرّ عناقينا

أنعشها طول اشتياقينا

حامت فحطّت فوق ثغرينا

تحرق إذ تحرق خدّينا

نحسها بين ضلوعينا

لقد ملأ حافظ جميل شعره حُبّاً للمرأة وتَغنّى بجمالها ولم تفارقه تلك الصورة المشرقة لمن أحب حتى لمن تقدم بها العمر:

ولولا رأسك المبيضّ شيباً

ألا يا قلب كم لك في التصابي

وكل شهية في الحبّ تخبو

لخالَكِ في شبابك من رآكا

ألم تتعب ألم يتعب هواكا

بعذب الوصل إلاّ مشتهاكا

ومن غزلياته المشهورة قصيدته الموسومة "بريد القبل" التي جاء في مطلعها:

حَيِّ بما يحلو لديك وسَلّمي

حَسبُ الحبيبة لحظها إن سلّمت

أعيا بصمتك ناظراك فأفصحا

حسبُ التحايا والتناجي بيننا

بالعين إمّا شئت أو بالمبسم

وشفاهها إن أومأت لمسلّم

عما بقلبك من جوىً متضرم

قُبلٌ تطاير كالفراش الحُوَّم

وفي المجال الاجتماعي:

نظم حافظ جميل عدداً من القصائد التي يصور فيها المجتمع العراقي بأتراحه أو أفراحه، كما رصد الظواهر السلبية التي يعاني منها مجتمعه، ومن ذلك قوله في قصيدته "أصنام المال":

مَنْ زيَّف الناس أخلاقاً وإيماناً
حلاوة المال لم تترع لذي ورع
تشقى الألوف لتبني مجد طاغتِه
لم بحزم البدو من جوع بطونهم
وصيّر الراهب الزمّيت شيطانا
ديناً ولا لرقيق القلب وجدانا
يزهو على جبروت الله طغيانا
إلاّ ليصبح كرش الشيخ ملآنا

آثاره:

١ - الجميليات: ديوان شعر صغير، ٤٤ صفحة نشره وهو يومئذ تلميذ في المدرسة الثانوية وقد قدم له منير القاضي وتنبأ لحافظ بأنه سيكون من أكبر شعراء العراق .مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٢٣.

٢ - نبض الوجدان، ديوان شعر ثان، ٣٠٧ص، قدم له بدوي طبانه ورأى فيه الصورة المثلى لشاعرية حافظ، بعد تمرسه بالفن الشعري وتنوع تجاربه، ومما قاله "وأنت واجد في نبض الوجدان ما شئت من حماسة الشباب، وطغيان عاطفة الوطنية التي تسلك حافظاً في الطبقة الأولى من شعرائها..". مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٧.

٣ - اللهب المقفى (شعر)٢٠٠ ص، قدم له منير القاضي، وصدر في بغداد عن وزارة الثقافة والإرشاد، دار الجمهورية ١٩٦٦.

٤ - أحلام الدوالي (شعر) ٣٤٦ ص، مطبعة الأديب، بغداد ١٩٧٢.

٥ - أريج الخمائل (شعر) ٦٩ ص، منشورات وزارة الإعلام، قدم له عبد الرزاق محي الدين، بغداد ١٩٧٧.

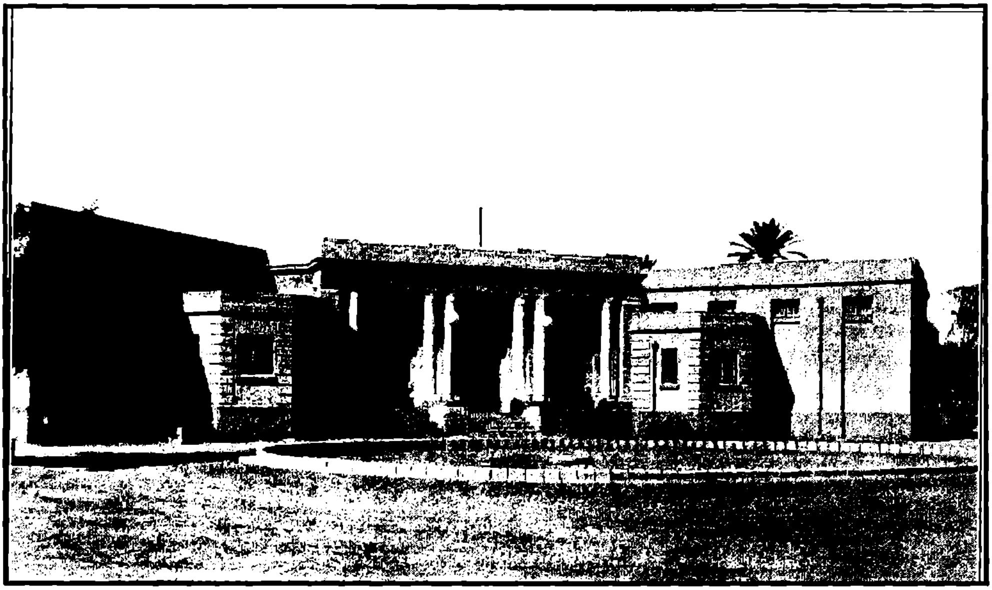
٦ - عرفت ثلاثة آلاف مجنون، تأليف فكتور آرسمول، ترجمة عن الإنكليزية بمعاونة الدكتور فائق شاكر، ١٥٣ص، مطبعة التفيض الأهلية، بغداد ١٩٤٤.

٧ - بحوث في الأدب والاجتماع، نشرت متفرقة في عدد من الصحف العراقية والعربية.

٨ - رسالة في القرآن الكريم، مجموعة محاضرات ألقاها في دار المعلمين الابتدائية ببغداد سنة (١٩٣١ مخطوطة).

وفاته:

توفي الشاعر حافظ جميل ببغداد في اليوم الرابع من مايو (أيار) سنة ١٩٨٤ ودفن بمقبرة الشيخ معروف الكرخي في كرخ بغداد، رحمه الله. ■



المستشفى الملكي – بغداد ١٩٢٨.



بغداد - المدرسة الطبية.

عبد الأمير علاوي

الألمعية التي افتقدها العراق

كنت قد التقيت الدكتور عبد الأمير علاوي قُبيل وفاته بنحو عقد من السنين .ومع قصر المدة التي التقيته فيها فقد تركت كلماته في نفسي انطباعاً رائعاً أحاطه عندي بهالة من الإجلال والعظمة.. وكم تأسفت يومها أن يكون هذا العالم الكبير بعيداً عن أرض الرافدين مرتع صباه ومربع أسرته وعشيرته ومرّت بنا الأيام سراعاً فافتقدناه وافتقده العراق وخسرته الإنسانية فوا لهفي على تلك الألمعية النادرة..

البدايات:

ولد عبد الأمير بن الحاج عباس من بيت بغدادي عريق (آل علاوي) الذي يرجع بنسبه إلى قبيلة (ربيعة)، بمحلة (السويدان) الكائنة في منطقة (صبابيغ الآل) ببغداد سنة ١٩١٢، ويرجع من جهة أمه إلى أسرة السادة العلوية الموسوية الذين نبغ فيهم غير واحد من الفقهاء والأدباء أحدهم جده لأمه.

درس أولاً لدى الكتاتيب فتعلم القراءة والكتابة وختم القرآن الكريم ثم التحق بالمدرسة الجعفرية سنة ١٩١٩ ومن أساتذته في تلك المرحلة الابتدائية كاظم شكارة، وجواد الزنجاني، وصادق الملائكة والخطاط داود أفندي، وعبد الستار الشيخلي (والد عبد الكريم) وسامي خوندة وعلي البازركان وغيرهم، وفي هذه المدرسة عاش أجواء الثورة العراقية ١٩٢٠ واستمع في صغره لخطباء الثورة وشعرائها على منبر مدرسته وكان منهم الشيخ مهدي البصير، ومحمد الباقر الحلي الحسني، كما شهد زيارة الملك فيصل للمدرسة سنة ١٩٢١، وقد تابع دراسته الثانوية في نفس المدرسة ثم في الثانوية المركزية وقد حظي فيها مع زملائه آنذاك بنخبة من الأساتذة منهم: علي مظلوم، ومحمد علي مصطفى، ومحمد بهجة الأثري، وصديق الخوجة، ومن المدرّسين الشاميين: جلال زريق، ودرويش المقدادي، وعز الدين علم الدين، وعاصر في تلك الثانوية تظاهرات عام ١٩٢٥ تأييداً لضم الموصل إلى العراق ومن الأناشيد التي بقيت عالقة في ذاكرته منذ تلك الأيام هذه الأبيات:

لست يا موصل إلاّ

انتِ منه خير جزء

دعماً والمجد انتِ

دار عز وكرامه

خاب من رام انقسامه

فيه بَلْ أقوى دعامه

وساهم في تظاهرات الاحتجاج ضد زيارة السير ألفريد موند إلى بغداد كما شارك مع الطلبة في التشييع المهيب للزعيم الوطني الشيخ ضاري الزوبعي.

وبالإضافة إلى هذا النشاط العام فقد خصص أوقات فراغه للقراءة في المكتبة العامة المجاورة للثانوية وكان ميّالاً يومها لمطالعة الآداب الإنكليزية والروسية والفرنسية، كما كان يحرص على زيارة مجلس النواب فيمن يزوره من عامة الناس للاستماع إلى خطب الساسة والنواب.

في الكلية الطبية:

في سنة ١٩٢٨ أكمل الدراسة الثانوية بتفوق فقد كان الثاني على العراق، وكانت رغبته منذ ذلك الحين أن يكون طبيباً، وكان والده يرغب بإيفاده إلى استنبول لدراسة الطب على حسابه الخاص لكن تفوقه أتاح له الخيار بين رغبتين فإما أن يلتحق ببعثة وزارة المعارف واختيار الموضوع الذي يرغب فيه للدراسة في بريطانيا، وإمّا البقاء في بغداد والدراسة في الكلية الطبية التي أسست سنة ١٩٢٧ واختار دخول هذه الكلية بتشجيع من والده وأخيه الكبير، وهكذا انغمس كلياً في دراسته مستفيداً من وجود عدد من الأساتذة الأجلاّء يومذاك وفيهم عدد من أمهر الأطباء الإنجليز الذين جاءوا إلى العراق مع الحملة البريطانية ومنهم الدكتور سندرسن، ودومان، ودنلوب، وسبنسر ومن العراقيين أمثال: صائب شوكت، وهاشم الوتري، وشوكة الزهاوي، وجلال عزاوي، وآكوب جوبانيان وخليل خدد.

يقول علاوي عن تلك الأيام "كانت الحياة في الكلية الطبية ممتعة للغاية والعلاقات ممتازة بين جميع الطلاب وكانت جميع الدروس باللغة الإنجليزية إلاّ مادة للطب العدلي التي كُنّا ندرسها سوية مع طلاب كلية الحقوق على يد الدكتور حنّا خياط، ومادة الصحة العامة التي يُدرّسها صائب شوكت، ولم ينس عميد الكلية الدكتور سندرسن أن يشيع الروح الرياضية فكانت هناك فرقة لكرة القدم وساحات ومباريات تنس وكرة السلّة

وفعاليات رياضية أخرى" وبهذا الجو من الدراسة والنشاط أكمل دراسة الطب بعد مضي خمس سنوات فنال عام ١٩٣٣ شهادة الدكتوراة في الطب من جامعة آل البيت (الكلية الطبية الملكية العراقية).

الدراسة في بريطانيا:

كان واحداً من الثلاثة الأوائل مع زميليه محمد حسن سلمان، وألبرت حكيم فعملوا كأطباء في وزارة الصحة وبعد أشهر أوفدوا إلى بريطانيا، وكان ذلك في أكتوبر ١٩٣٣ فغادر الثلاثة براً إلى دمشق ومنها إلى بيروت، وبعدها ركبوا البحر إلى باريس ومنها إلى لندن، وصادف أن كان معهم في أول رحلتهم الملك علي بن الشريف حسين وقد سعدوا بصحبتهم له على متن الباخرة.

وفي لندن التقى بأخيه جعفر علاوي الذي سبقه للدراسة هناك، ثم انتسب إلى مستشفى GT.gnema وكليته الطبية وكان فيها أصغر الأطباء سِنّاً وبعد قضاء سنة ونصف في التدريب والدراسة تقدم للامتحان للحصول على دبلوم الاختصاص في أمراض الأطفال فنجح بتفوق كما نجح زميلاه الآخران كل حسب اختصاصه ثم حزموا حقائبهم ورجعوا سوية إلى أرض الوطن مروراً بباريس ثم مرسيليا ثم بيروت على ظهر الباخرة (مارييت باشا) ثم اجتياز الصحراء ثانية إلى مدينة السلام.

العمل في بغداد:

وفي بغداد عمل طبيباً في المستشفى الملكي وقد كافح خلال تلك الفترة مع زميله الدكتور عبد الله قصير في سبيل تأسيس شعبة لطب الأطفال وقد أسساها فعلاً وقاوما بشدة العادات المتخلفة السائدة عن الطب يومذاك، كما افتتح له عيادة خاصة، وبعد عامين من تأسيس شعبة الأطفال في المستشفى الملكي انتقلا إلى بناية جمعية حماية الأطفال في باب المعظم وتمكنا لأول مرة من إدخال بعض الأطفال لمعالجتهم في الردهات مع أمهاتهم، وكانت هذه التجربة فريدة في تاريخ العراق لكن عمله ذلك لم يخلُ من الصعوبات والعراقيل حتى أنه جرى نقله إلى مراكز أخرى لا علاقة لها باختصاصه كطبابة الشرطة وطبابة المستوصفات النائية وأخيراً كطبيب عادي في مستشفى العمارة لكنه استطاع العودة إلى عمله في بغداد بعد مضي عدة أشهر.

نقطة تحول:

في سنة ١٩٣٨ وعلى إثر الغزو النازي هرب عدد كبير من الأطباء اليهود خوفاً من الاضطهاد وكان نصيب العراق منهم عدد من علماء الطب كان من بينهم البروفسور ليدر

وهو أستاذ شهير وله شهرة عالمية وكان يتبوأ منصب أستاذ طب الأطفال في جامعة فيينا، وقد عُين أستاذاً في الكلية الطبية ببغداد وعين عبد الأمير علاوي مساعداً له فلازمه ملازمة أكيدة واستفاد كثيراً من خبرته الطبية، يقول الدكتور علاوي عن تلك الفترة".. وكان ما تعلمته خلال الأربع سنوات قبل انتحاره مأسوفاً عليه في عام ١٩٤٢ يفوق كل ما تعلمته ولن أنسى فضله ما حُييت".

في الإدارة والتدريس:

وفي سنة ١٩٤٧ تسلم إدارة مستشفى الأطفال كما عُهد إليه رئاسة دائرة الأطفال في الكلية الطبية بدرجة أستاذ مشارك، ثم ترقى في مسلكه العلمي حتى صدرت الإرادة الملكية بتعيينه أستاذاً في الكلية الطبية عام ١٩٥٢. وعن منهجه في التدريس كتب يقول: "كانت علاقتي مع الطلاب منذ البداية علاقة متميزة عمادها الاحترام المتبادل، ولم يكن التدريب مقتصراً على الشؤون العلمية فقط والممارسات التطبيقية وإنما كان يَشْمَل الأمور والأحوال كلها.. وكنت أحترم آراء الطلبة وأشجعهم على معارضتي حتى في الشؤون العلمية والطبية فإذا اختلفنا رجعنا إلى الكتب سوية، وإن كنت أنا مخطئاً لم أخجل من الاعتراف بخطأي أمامهم وإن كنت مصيباً زاد ذلك في مكانتي عندهم".

مؤتمرات ونشاط حافل:

وفي عام ١٩٤٨ ترأس الوفد العراقي لحلقة الدراسات الاجتماعية في بيروت، وفي السنة التالية ترأس نفس الحلقة التي عُقدت في القاهرة، وبلغ نشاطه الطبي والعلمي والسياسي والاجتماعي أوجه في تلك الأيام ببغداد، وفي مقدمة أعماله الكبيرة كونه الطبيب الشخصي للعائلة المالكة منذ أواسط الأربعينيات كما كان الطبيب الخاص لمئات العوائل العراقية الأخرى، وكان يقضي نشاطه طوال الوقت منذ الصباح الباكر حتى منتصف الليل أحياناً بين التدريس والتدريب ومعالجة المرضى في المستشفيات وزيارة مراكز جمعية حماية الأطفال ومعالجة المرضى في العيادة الخاصة. وقد تمضي أيام دون أن يرى أولاده وما كان ذلك ليتم دون مواكبة زوجته الفاضلة أم غازي لمسيرته، وتشجيعها إياه للمضي قدماً في واجباته الإنسانية والوطنية، ومن جانبها تحملت مسؤولية البيت والأولاد بكل أناة وصبر وكان المرحوم علاوي قد أشاد غير مرة بدورها في مساندته.

مهنته كوزير:

في آب ١٩٥٣ عرض عليه الدكتور محمد فاضل الجمالي منصب وزارة الصحة وتعيّن فعلاً في ١٥ آب ولم تطل به الأيام في الوزارة هذه حيث قدم استقالته منها قبل مرور ستة أشهر

لعدم حصوله على عضوية البرلمان حسب أحكام الدستور، وبعد استقالة الدكتور الجمالي الأولى وإعادة تكليفه بتشكيل الوزارة عاد إلى منصبه فصدرت الإرادة الملكية ثانية قرار تعيينه أستاذاً في الكلية الطبية ولم تدم الوزارة الجمالية الثانية طويلاً فاستقال وكلف ارشد العمري بتشكيل الوزارة فاستُدعي علاوي إلى قصر الرحاب لغرض الاشتراك في وزارة العمري لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب! وبعد إجراء الانتخابات للمجلس المحلي الجديد استقالت وزارة العمري وكُلّف نوري السعيد بتشكيل وزارة جديدة، وحينذاك انتخب عبد الأمير علاوي نائباً لقضاء الرفاعي في المجلس الجديد المذكور وفي نفس الوقت الذي عيّنه نوري السعيد وزيراً ضمن تشكيلته الوزارية التي عُدّلت عام ١٩٥٥ فعرض عليه مجدداً دخول وزارته بعد التعديل فقبل العرض واستمر وزيراً للصحة حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عدا فترة وجيزة تولى فيها وزارة المواصلات خلال وزارة عبد الوهاب مرجان.

منجزاته:

تمكن خلال عمله في الوزارات التي تولاّها تحقيق الكثير من المنجزات الرائدة في خدمة الشعب والوطن، نوجزها فيما يلي:

١ - تشريع قانون التدرج الطبي الذي لا يزال معمولاً به حتى الآن فقد وجد أن الدراسة في الكلية لا تهيئ وحدها الطبيب للقيام بواجباته المهنية والاجتماعية والإنسانية فلا بد من التدريب العملي في المستشفيات التعليمية والخدمة في القرى والأرياف للتعرف على الوطن وأبنائه ومشاكلهم والاستجابة لمطاليبهم.

٢ - هو الذي قرر فتح كلية طب جديدة في الموصل وذلك عام ١٩٥٧ وعهد بإدارتها للدكتور محمود الجليلي وأصبحت بعد سنوات قليلة منافسة لكلية الطب ببغداد، كما كان يحضّر لافتتاح كلية طب ثالثة في البصرة وقد افتتحت فعلاً بعد الثورة.

٣ - عدّل قانون الصيدلة وأصدر نظاماً جديداً لتسعير الأدوية فقضى بذلك على فوضى الأسعار وبالرغم من معارضة وكلاء وتجار الأدوية فقد نجح مسعاه نجاحاً كاملاً.
كما أصبح من المستحيل على أي مواطن أن يحصل على دواء مخدر أو سام دون وصفة طبية.

٤ - كان أول من فكر في تقليل وفيّات الأطفال وبعد دراسة مستفيضة لهذا الموضوع بالتعاون مع اليونيسيف (منظمة الصحة العالمية) واستشارة الشركات المهمة حصل على موافقة سريعة من مجلس الإعمار بتخصيص مبلغ ٢ مليون دينار وهو مبلغ ضخم

آنذاك وباشر بتهيئة ما يلزم لإنجاز مشروع الحليب المعقم واختيرت منطقة (أبي غريب) محلاً للمشروع وتم إنجازه بعد سنتين ولم يترك الوزارة إلا وكان الإنتاج والتوزيع كاملاً.

٥ - بذل جهوداً ممتازة في سبيل القضاء التام على مرض الملاريا الذي كان يفتك بعشرات الألوف من العراقيين سنوياً بالإضافة إلى القضاء على الأمراض الأخرى كالجدري والبلهارسيا وأصبح العراق بفضل جهوده متفوقاً في هذا المضمار الصحي على كافة الأقطار المجاورة في منطقة الشرق الأوسط.

٦ - ساهم مع عمادة الكلية الطبية بإنجاز مشروع مدينة الطب بالتعاون مع مجلس الإعمار وعهد إلى إحدى الشركات الأمريكية بإنجازه.

هذا بالإضافة إلى نشاطات أخرى من شأنها ازدياد النهضة الصحية في القطر يمكن الرجوع إلى سجلات الوزارة والصحافة العراقية يومها لرصدها وتسجيلها، أما بحوثه الطبية فالمطبوع منها كتابه (دليل الطفل) الذي ألفه بمشاركة زميله الدكتور عبد الله قيصر وأقرت وزارة المعارف تدريسه في مدارس البنات الثانوية، ولديه العديد من المقالات المنشورة في المجلات الطبية العالمية ومجلة كلية الطب العراقية.

آراؤه السياسية:

كان يميل إلى الاستقلالية في آرائه السياسية، لكنه مؤمن بالاتجاهات القومية، وكان أحد المؤسسين لنادي المثنى وعضواً في الهيئة الإدارية منذ سنة ١٩٣٨ حتى إغلاقه.

أخلاقه ومزاياه:

كان يحث كثيراً على الإخلاص والمثابرة في العمل ويحرص على المحافظة على شرف المهنة وأسرارها واحترام أسرار المرضى والاحترام المتبادل مع زملائه والمتابعة المستمرة للتطورات التكنولوجية في عالم الطب ومتابعة الأبحاث الجديدة فيه أولاً بأول، وصفه صديقه الأستاذ عبد الغني الدلي وكان قد عمل معه زميلاً في وزارة الدكتور الجمالي وتكونت بينهما صداقة ومودة "لقد وجدت الدكتور علاوي أخاً كريماً، ووطنياً مخلصاً، مؤمناً بدينه وأمته، يتميز بطبع هادئ وذهن متّقد، وعقل راجح، دمثاً متواضعاً متزناً في إبداء الرأي والحكم على الأمور، مما حبّبَه عند العراقيين على اختلاف مشاربهم، ما عاش (أبو غازي)

من أجل نفسه أو أهله فحسب، ولا من أجل فئة من الفئات أو حزب من الأحزاب، بل عاش عراقياً مخلصاً لوطنه ووحدة أبنائه"؟

ابيات إخوانية:

ومما كتبه إليّ الأستاذ الدلي أن المرحوم علاوي اتصل به في أحد الأيام من عام ١٩٨٧ وشكى له من آلام المفاصل وفقرات الظهر التي تؤلمه، قال الدلي: وما كدت أضع سماعة الهاتف حتى خالجتني مشاعر وذكريات عن هذا الإنسان المخلص لإخوانه ووطنه ومهنته، فأوحت لي تلك الصور الجميلة عنه هذه الأبيات التي أرسلتها إليه بعد ذلك، وكانت محل ترحيبه واعتزازه:

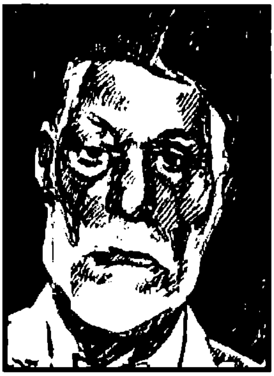
(ابا غازي) عهدتك المعياً ... فكم انقذت طفلاً من وباءِ
وكم واسيت امّاً في شقاها ... وانت اليوم تشكو من عظام
فيا لهفي عليك ولهف قومي ... هماماً لا تكلُّ ولا تبالي
ومن مرضٍ ومن داءٍ عُضال ... وكم جنّبتها سهر الليالي
واوصال تظلُّ بلا وصال ... على أيامك الغرّ الخوالي

الأيام الأخيرة:

ما إن حصلت ثورة تموز حتى أصبح خارج الخدمة فلازم داره وفُرضت عليه الإقامة الإجبارية وانقطع عن ممارسة الطب وتدريسه وفي أيلول ١٩٥٨ اقترح عليه صديقه الدكتور إحسان بن علي باشا غرامه جي الأستاذ بجامعة أنقرة ـ وكان في زيارة لوالد زوجته ببغداد السيد حكمة سليمان رئيس الوزراء العراقي الأسبق ـ أن يكون أستاذاً اطب الأطفال في جامعة أنقرة، لكنه اعتذر عن قبول العرض مفضلاً خدمة الآلاف من العراقيين، وبعد تخفيف الرقابة عليه استطاع أن ينتقل إلى لندن في أوائل الستينات فعمل لمدة عامين في معهد صحة الطفل التابع لجامعة لندن وعرضت عليه الجامعة الاستمرار في العمل مع منحه درجة علمية رفيعة لكنه آثر العودة إلى الوطن وبقي يمارس مهنته في العراق بفترات متباعدة اقتضتها الظروف السياسية الخانقة حتى غادر الوطن نهائياً سنة ١٩٨٠ وأقام مع عائلته في لندن حتى وفاته يوم السبت ١٦ ربيع الأول ١٤١٩هـ الموافق ١١/٧/١٩٩٨ فافتقده العراق والأمة العربية كواحد من أهم الشخصيات البارزة في المجال الطبي خلال القرن العشرين، رحمه الله، سائلينه تعالى أن يأسو جراح هذا الوطن بفقده. ■



عبد الأمير علاوي



إبراهيم أدهم الزهاوي

هو أحد أعلام آل الزهاوي، الأسرة العلمية المنتسبة للقبيلة البابانية الكردية، عكف منذ صغره على دراسة العلوم الشرعية، ومال إلى التصوف، ثم اشتهر بتعاطي القريض حتى عُدَّ ضمن شعراء المبرزين في عصره.

إنه إبراهيم أدهم بن الحاج محمد صالح (المتوفى ١٩١٩م) بن العلامة محمد فيضي الزهاوي (١٧٩٣ ـ ١٨٩٠)، وعمه الشاعر الشهير جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦).

نشأته وحياته العامة:

ولد بمحلة البارودية ببغداد في ١٠ شوال ١٣٢١هـ ـ ١٩٢٠م. وفي حدود السادسة من عمره ألحقه أبوه بكتّاب ليتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وحين اشتد ساعده توسع في الدراسة الدينية على بعض المعلمين الفقهاء ثم اختلف على بعض علماء بغداد فأخذ منهم بعض العلوم كالشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد (المتوفى) ١٩٥٣ وابن عمه الشيخ أمجد الزهاوي ثم انصرف لحفظ ديوان المتنبي ومال إلى الأدب والشعر ميلاً تاماً مع محافظته على مسلك التصوف على طريقة والده ورعاً وزهداً حتى أنه حج إلى بيت الله الحرام في أواخر العقد الثاني من عمره، وفي سنة ١٩٢٦ انتسب إلى جامعة آل البيت وتخرج منها سنة ١٩٣٠، وكان توّاقاً للعمل في وظيفة حكومية لكن الأبواب أوصدت في وجهه، وسبب له ذلك هزة عنيفة في نفسيته وهو الشاعر مرهف الحس حتى أنه طفق يجول في أزقة بغداد حاملاً بيده طبقاً به شيء من الكرزات بحجة امتهانه لهذا العمل الذي لا يناسب مؤهلاته وسمعة عائلته وكان هدفه من ذلك إظهار سخطه على الحكومة والمجتمع معاً... وحين استمر به الحال دون نتيجة تذكر خلع بزّته الدينية واتجه للعمل الحر حتى عام ١٩٤٤ حيث قُبل موظفاً في المعهد الباثولوجي التابع لوزارة الشؤون الاجتماعية بصحبة أخيه عبد الرزاق الزهاوي والذي سبقه في العمل بهذه الوظيفة، وَبَعد عام تقريباً انصرف إلى كتُب السحر والشعوذة مما أدى إلى إصابته بمرض عصبي لازمه إلى أيامه الأخيرة لكنه استطاع مواصلة العمل في وظيفته حتى إحالته إلى المعاش سنة ١٩٥٨.

ديوانه:

المعروف عنه أنه لم يعن بجمع شعره في ديوان، وقيل أنه جمعه فعلاً وسمّاه (النفثات) وفي ساعة من ساعات ضيقه رماه في النار، وقد عني الدكتور عبد الله الجبوري بجمع بقية شعره في حياته، قال في مقال نشره بمجلة المكتبة العدد (٥ سنة ١٩٥٢ ص٣٤ ـ ٣٥) "بعد أن علمت بحرق هذا الشعر الذي قلما يجود بمثله الزمن عزمت على جمعه من شتيت المجاميع والمظان والصحف والمجلات بما فيها المجاميع الخطية فاستوى لديّ ديوان كبير. وكنت أرجع إلى المرحوم الفقيد في كل إشكال يعتور سبيلي أثناء عملية الجمع التي استغرقت مني ثلاثة أعوام ثم عرضته عليه". وفي عام ١٩٦٩ صدر الديوان في القاهرة ضمن إصدارات الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر على نفقة وزارة الثقافة المصرية، وتضمن ٢٧٥ صفحة من القطع الكبير وفي أوله مقدمة للدكتور شوقي ضيف الذي راجع الكتاب قبل طبعه.

القيمة الفنية لشعره:

تضمن ديوانه المطبوع ثلاثة موضوعات أساسية هي الإسلام والسياسة والعروبة ومن رأي شوقي ضيف أن إبراهيم أدهم كان يحمل في صدره معيناً غدقاً للشعر وأنه كان ذلولاً له يطاوعه، غير أنه لم يكن يترك نفسه على سجيتها فقد أخذ بمعارضة القدماء وأكثر من تلك المعارضة واتسع بها ..كما حاكاهم في معانيهم وعباراتهم وألفاظهم وكأنه كان يرى في الشعر القديم مثله الأعلى فمضى يتأثر بقوالبه ومعانيه، وفي كثير من شعره نثرية طاغية كما تسوده نزعة تقديرية يظهر منها أنه كان بالرغم من قوة اللفظ ومتانته، لا يتريث في صنع شعره فبدا الضعف في كثير من عباراته، ومع إقرار الدكتور الجبوري محقق الديوان وجامعه بوجود أثر الكد والتعمل في شعر إبراهيم أدهم فإنه يرى شعره آخذاً بمجامع القلوب مستولياً على الألباب والنفوس محتوياً على الديباجة الجزلة، واللفظ الفخم، والقوة في البيان، والروعة في التعبير.

طقوس شعرية:

ولعله من الطريف أن ننقل ما أثبته محقق الديوان من طريقة الشاعر في النظم، فقد كان الشاعر يستثير قريحته أولاً، ويتخذ ركناً قصياً من أركان البيت أو المقهى أو المكان الذي يركن إليه في تلك الساعة ثم يشرع بتدخين (النارجيلة) ويأخذ بالانحناء السريع والهمهمة والنفث العميق فيسجل القصيدة بكاملها في لوح فكره، ثم يأخذ بتنقيحها، وقد

يستعين بالمعاجم توخياً للدقة في إثبات بعض الألفاظ، ثم يدونها على الورق لغرض إذاعتها على الناس وكان لا ينشد شعره بنفسه بل يكلف أحد خلصائه بذلك.

آثار أخرى:

وبالإضافة إلى ديوانه صدر للشاعر كتاب (أبطال اللانهاية) وهي جملة من الخواطر الفلسفية، طبع بنفقة مكتبة المثنى ببغداد، في مطبعة السعادة في القاهرة سنة ١٩٤٧ وتضمن (٤٧) صفحة. هذا بالإضافة إلى مشاركته الأستاذ عبد الستار القرغولي في طبع ديوان نعمان ثابت عبد اللطيف (المقتول سنة ١٩٣٧) وأسمياه (شقائق النعمان) طبع ١٩٣٨ في ١٤٤ ص.

بالإضافة إلى طبعهما كتاب (الجندية في الدولة العباسية) لصديقهما المذكور (عبد اللطيف) بغداد ١٩٣٨.

وللشاعر عدا ذلك جملة من المقالات منشورة في حياته تتناول مواضيع نقدية وأدبية وسياسية وفلسفية متنوعة جمعها الدكتور الجبوري وعلى حد علمي أنها لم تطبع حتى اليوم.

مخالفته لعمه الزهاوي:

لما عُرف عنه التزامه وتعلقه بالدين وافتخاره بأمجاد الإسلام فقد كان يُؤذيه ما يسمعه من لغط المجتمع حول أفكار عمه جميل صدقي الزهاوي وخاصة بعد أن أصدر الأخير كتابه "المجمل مما أرى" سنة ١٩٢٤ فكتب ضده عدة مقالات في صحيفة البدائع البغدادية، هذا بالإضافة إلى نظمه عدة قصائد أو مقطوعات من الشعر تتناول عمه بالتوهين وقلة الإدراك في النظريات العلمية والفلسفية وفي ذلك يقول:

أنترك (احمداً) ونصدُّ عنه ... لقول (جُميِّلٍ) ذي الترهات

ورده عليه في قصيدته التي مطلعها:

يا من له الكون عنا ... فسار سيراً حسنا

وفي الأخرى التي يخاطب عمه بقوله:

يا خسر شيخ خاب حتـ ... ـى في اختيار الكلم

فظلَّ يهذي مثلما ... تهذي ذوات الهرم

يخال فيه مقدماً ... يفضي إلى التقدم

أفضى به إلى انتهاك ... كبريات الحرم

فاقبع ببيت مظلم ... واعضض بنان الندم

وإن أبيت دعوتي ... فسر إلى جهنم

ويظهر أنه تعرض للوم الناس بسبب تعريضه بعمه الشاعر الفيلسوف وكان جوابه لهم:

يقولون (الجميل) أبرعم وأنت بجنبه فظ غليظ

فقلت للائمي في القول دعني فإن صنيعه مما يغيظ

غير أن إبراهيم أدهم ما إن بلغه نعي عمه حتى استنفر مفزوعاً من عظم الحادثة على قلبه فرثاه بقصيدة عنوانها (مصرع الشاعر) ومما جاء فيها:

خلا من الأسد الضرغامة الأجم وقرّ في غمده الصمصامة الخذم

في ذمة الله من كانت لامته موفورة عنده الأقدار والحرم

من كان مثل (جميل) لا تضيق به مراحم الله فهو العفو والكرم

وفاته:

وافاه الأجل المحتوم ببغداد يوم الأربعاء ١٣ - ١٩٦٢/٨/١٦ ربيع الأول ١٣٨٢هـ ودفن بمقبرة الغرباء في باب المعظم، ورثاه جملة من الشعراء منهم شقيقه عبد الرزاق بقصيدة مطلعها:

لا يخدعنك ضحّاك من الأمل إن الليالي إلى منئاك لم تصل

ونشر الدكتور الجبوري جملة من مراثي الشعراء فيه بآخر ديوان الشاعر ومن بين ما أثبته قصيدة له أولها:

الشعر يندب أوحد الشعراء ويُفيض دمعاً دافه بدماء

وقصائد أخرى للشاعر كمال نصرت والشيخ جلال الحنفي والأستاذ خضر الطائي.

رحم الله إبراهيم أدهم فكم تحمل من هموم الحياة وأشجانها لكن ذلك لم يثنه عن أداء واجبه الأدبي تجاه الشعب والوطن وقد أدى ما عليه بكل وفاء وإخلاص، ولئن تخطفته المنون فإنه في عين الله.

فسقى الله ضريحاً حلّه وحباه نِعم الخلد مثبيا

❖ ❖ ❖

حـــازم سـعيـد أحـمــد

حياته ونشأته:

ولد في الموصل سنة ١٩٢٤م - ١٣٤٢هـ لأسرة تنتمي لقبيلة الشهوان التغلبية، وقد نشأ بين أحضانها وأنهى الدراسة الثانوية بالموصل وتخرج من كلية الحقوق العراقية ١٩٤٨ فمارس المحاماة ثم عين كاتباً أول ومحققاً عدلياً وأصبح بعدها سكرتيراً لمجلس القضاء ثم حاكماً في محكمة العمل العليا، ورئيساً للهيئة القضائية الثانية وساهم في تأسيس محكمة العمل العليا ومحاكم العمل في المحافظات الأخرى وخلال تسلمه منصب القضاء لمدة تزيد على خمسة عشر عاماً تميزت قراراته بالدقة وسلامة التطبيق والبحث في العلل والأسباب لكل قضية عالجها وخلال رئاسته لمحكمة العمل العليا قام بطبع المجلد الأول وهيأ الثاني من قرارات محكمة العمل العليا وعلى الإجمال فقد ساهم مساهمة فعالة في التكييف القانوني لأحكام قوانين العمل والضمان الاجتماعي للعمال وأفسح المجال لإيجاد سوابق قضائية تعتبر مصدراً هاماً من مصادر قضاء العمل.

وكان بالإضافة إلى موضوعية قضائه وسعة معارفه الفقهية شاعراً مطبوعاً وقد ورث هذا الفن من خاله الذي كان شاعراً وخطاطاً بارعاً أيضاً فتأثر بعمه المذكور وبدأ بقرض الشعر في الخامسة عشرة من عمره وكلما كبر كبرت معه موهبته الشعرية ولدى دخوله كلية دار المعلمين العالية في بغداد سنة ١٩٤٤ بدأ اسمه بالبروز في الأوساط الأدبية وخلال تلك الفترة أسس مع عدد من خلانه جماعة أدبية اسمها (إخوان عبقر) حظيت بتشجيع عميد الدار يومذاك الدكتور متى عقراوي أول رئيس لجامعة بغداد والأساتذة العراقيين والمصريين.

ومن أكثر الشعراء الذين تأثر بهم المتنبي وأبي تمام وابن الرومي من القدماء ومن المحدثين أعجبه شعر الرصافي والجواهري.

في حضرة الرصافي:

روى زميله الأستاذ محمود العبطة أنه اصطحبه وشقيقه الشاعر صديق سعيد إلى بيت الشاعر معروف الرصافي في الأعظمية، فقرأ له حازم سعيد ما يحفظ من شعره ومن ذلك قصيدته المعنونة (احتضار شاعر) ومطلعها:

ينـــام علـــى راحتيـــك القـــدر فيمنـــاك خـــير ويـــسراك شـــر

يقول العبطة "وشاهدت الشاعر الشيخ ينغمر في جو الشعر المعطر، ويميل برأسه والشاعر الشاب يمضي في الإنشاد وبعدها قرأ قصيدة أخرى والرصافي يستعيد بعض الأبيات ويستحسنها ثم التفت لحازم قائلاً: هذا شعر لا يناسب سنك وفيه لمحة من التصوف، ثم أبدى الرصافي تفاؤله في مستقبل الشاعر".

شاعريته:

يعد شعره في طبقة هلال ناجي ونعمان ماهر الكنعاني وعدنان الراوي وغيرهم من أصحاب الاتجاه الشعري المحافظ وقد هيأ له اطلاعه الواسع على الشعر العباسي أن يقول الشعر دون تكلف ودون عناء، ووصفه الدكتور زهير غازي زاهد بالقوة في الصياغة والتركيب والقدرة على تطويع اللغة إلى ما شاء من الأغراض والفنون، وأشار إلى مقدرته الواسعة في الشعر الفكاهي واستخدامه للسخرية من الأوضاع الاجتماعية أو السياسية ومن قصائده الممتلئة بالتراكيب الرصينة ذات الطاقة اللغوية العالية قصيدته "أبي" التي يقول فيها:

سموت ولليل المؤوب فضلة ... تستر في ظلمائها الفلوات
وللفجر حثّ يرعب الشهب وقعه ... فهن بأدنى فيضه غرقات
إلى حيث يسندني ترابك مهجتي ... وتستوطن (الحدباء) منك رفات
أردّ إلى العين المحيّر دمعها ... وامسك ما تهتاجه الحسرات
وما ذاك ضنّاً بالدموع وإنما ... امرّ البكا أن تمسك العبرات

وله كثير من القصائد عالج فيها قضايا قضائية ولكثرتها لقبه البعض برائد الشعر القضائي في العراق.

مسرحية كلكامش:

تعد (ملحمة كلكامش) العراقية من شوامخ الأدب العالمي، وقد عمل على تعريبها الأستاذ طه باقر وعمل الأستاذ عبد الحق فاضل على ترجمتها منغمة شعراً ثم تقدم الأستاذ حازم سعيد وجعلها مسرحية شعرية نابضة بالحياة والنشوة الذهنية وقام بنظمها عام ١٩٥٩ ونشرت في ستة أعداد متسلسلة من مجلة الكتاب التي يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين. ومما جاء فيها قوله:

نبت الإنسان في الشرّ
عجباً للشر لم يظفر
اتخذ الإنسان حصناً
فإذا ما همّ بالخير
هرع الشرّ إليه
وغارت قدماه
بمخلوق سواه

وخديناً لهواه
فؤاد ونواه
وعن الخير ثناه

نتاجات أخرى:

أصدر ديوان الموسوم (صوت من الحياة) في بغداد عام ١٩٦٨ وقد كتب مقدمته الدكتور بدوي طبانه، وأثنى على الشاعر بالغ الثناء، وكانت تربطه به وشائج حميمة من الود الصادق وحين مات حازم رثاه بقصيدة جسد فيها محبته لهذا الشاعر الرقيق ومما ورد في قصيدته:

كيف شيعت يا عراق أديباً ... عبقرياً وشاعراً فنّانا
تاج صحبي (أبو إياد) حبيبي ... كيف ولّى قبل الوداع وبانا
كيف فارقت يا عراق حبيباً ... قد زكت نفسه وعفّ لسانا
يرسل الشعر كالبلابل شدواً ... ليس نظماً يقول بل الحانا
وارتقى ذروة القضاء عليماً ... يمحق الظلم يكشف البهتانا

ولحازم سعيد مخطوطات شعرية أخرى منها ديوان شعر بعنوان (حطم الأصنام).

صفاته ومآثره:

وُصف بسماحة النفس وسعة الأفق، والفكر الحر، والغيرة على الدين والحرص على مآثر قومه وتراثهم وبكل ما يقوي المشاعر الإنسانية والروابط الأخوية، قال فيه زميله المدون القانوني خالص عزمي "وهو حجة دامغة في جدية النقاش، أو دعابة مرحة في أنس الليالي.. لا يغضب من رأي متطرف ولا يهزأ بقول عفوي، وكنت كلما التقيته وجدت فيه تلك الثقة بالنفس والترفع بلا تصنع والعفة التي تشفّ عن كرم الذات والخلق الرضي الذي يتفجر تواضعا وإباء". وقال روكسالعزيزي مخاطباً روحه "كنت إنساناً عجياً في حيائك، فإذا دكرت فضائلك شعرت باستحياء وذاك من نوادر الأخلاق".

من شعره:

جاء في قصيدته (الليل):

يا لياليك يا حياة الغريب ... قضي الأمر فاخلدي أو فغيبي
أنت إيماضة الشروق وروحي ... بين كفيك من معاني الغروب
دائباً يقتل المشاعر بالأوهام ... والعمر دائباً في نضوب
انظر الليل والكواكب في ... الليل وأشباح عمرك المذهوب
يا مقادير هيئي للضحايا ... قدراً يزدري بكل الخطوب
واهتفي بالرياح أن تلهم ... الجسم وتذري رفاته في الدروب

وفاته:

كان المرحوم حازم قد نشر في أواخر أيامه في مجلة الكتاب، قصة حبّ لم تكتمل بتوقيع المقنع التغلبي قال فيها "أير خفيةٍ في الظلام تمتد لتدفع بي إلى هاوية العدم" وبعدها بفترة وجيزة تعرض لحادثة في اصطدام مروّع أودى بحياته، وإلى هذه القضية أشار زميله المدون القانوني عبد الصاحب المختار بقوله:

شيح على أيدي الظلام خفية وكأنها وهم طواه سرار
عدم سرى منها إليك وذقته فتحقق الأسرار والأخبار
في قصة لَمّا تمّ نشرتها وحدا إليك لنشرها إنذار

كان ذلك مساء يوم ١٩٧٦/٦/٢١ فنقل إلى مستشفى مدينة الطب وهو مصاب في رأسه إصابة قاتلة وتوفي صبيحة الخميس ١٩٧٦/٦/٢٤ عن اثنين وخمسين سنة ففجع بموته العراق واجتمع في أربعينه يوم ١٩٧٦/٨/١٢ جمع كبير من الأدباء والعلماء لنعيه وذكر محاسنه، وكان في مقدمة الداعين إليه بالإضافة إلى أسرته الكريمة الأستاذ هلال ناجي وقد رثاه يومها بقصيدة يتيمة مطلعها:

سميري قد حم الرحيل فودًعا وحق لقلبي بعده إن تصدعا

وممن شهد لوقفة الوفاء في ذكراه أيضاً السادة: برهان الدين العبوشي وحارث طه الراوي وخضر عباس الصالحي، وعبد الزهراء الصغير، وعبد المطلب حامد الراوي، ورشيد العبيدي، وسامي مكي العاني، وبهيجة باقر الحسني، وبشير الخالدي، وشفيق القيماقجي وعادل البياتي وحسين عبد الحافظ.

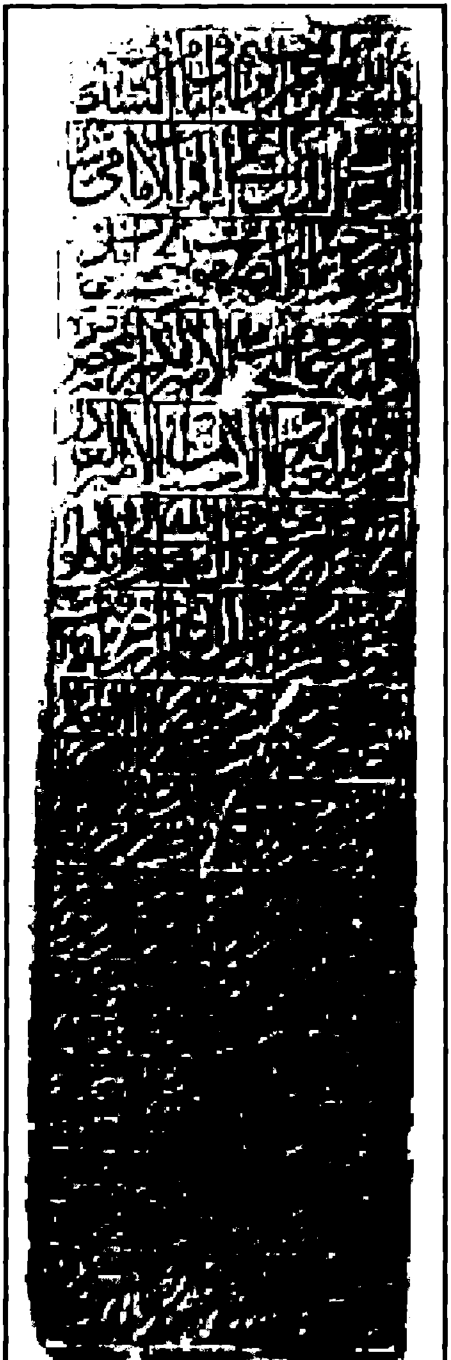
رحم الله حازم سعيد فقد كان من أعلام العراق الفقهاء الشعراء، وهو مصداق لما وصفه الشاعر النجفي هادي محي خفاجي بقوله:

الحاكم العدل ما حارت يراعته
وشاعر عاش فيه الشعر اغنية
كأن اخلاقه زهر الربى أنَفاً
من (تغلب) غاية في الطيب نبعته
(ام الربيعين) أن تذكر فضائلهم

في الحكم حيث تحار العين والأذن
فانساب يهتزّ منه العود والفنن
إن كان في الناس في أخلاقهم دمن
والأصل إن طاب طاب الفرع والغصن
يوماً ففي (حلب) الشهباء مختزن



منظر من أسواق بغداد القديمة.



نص كتابي - خان مرجان على لوحة من الرخام مؤرخ ٩٢١هـ - ١٥١٥م.

نص كتابي
من خان مرجان
في بغداد من العهد الصفوي

رقم المتحف : ٢٦٣٠٢ م ع

القياس : ٧٩×٢٣سم

٤٥ - لوحة من الرخام الأسود تمثل أمراً صدر في أيام السلطان إسماعيل الصفوي سنة ٩٢١هـ حول رسوم بيع الأقمشة وجدت في خان مرجان ولا زالت معروضة فيه[١] في غرفة ٢٣ وقد دون عليها بخط الثلث ما نصه:

١ - بسم الله الرحمن الرحيم في أيام حضرة السلطان.

٢ - الولي الدال على المذهب الإمامي شاه.

٣ - إسماعيل بن حيدر الصفوي الحسيني أيدت

٤ - دولته ووقف عاليجناب الأمير الكبير المخصوص

٥ - من الله بالعناية والإحسان الأمير العادل.

٦ - قنغراز بن سلطان على قول الله تعالى ولا تأكلوا.

٧ - أموالكم بينكم بالباطل[٢] واعلم أن عواقب

٨ - الظلم ذميمة وموارده وخيمة فصدر أمره العالي.

٩ - بان لا يؤخذ من دلالى الابريسم وغيره من الأقمشة.

١٠ - شيء بعلة الضمان ومطامع الديوان وأن لا يؤخذ.

١١ - من جند حاكم بغداد وغلمانه وأرباب ديوانه شيء.

١٢ - بعلة التمغا ومن غير ذلك أو شيئاً منه فعليه لعنة.

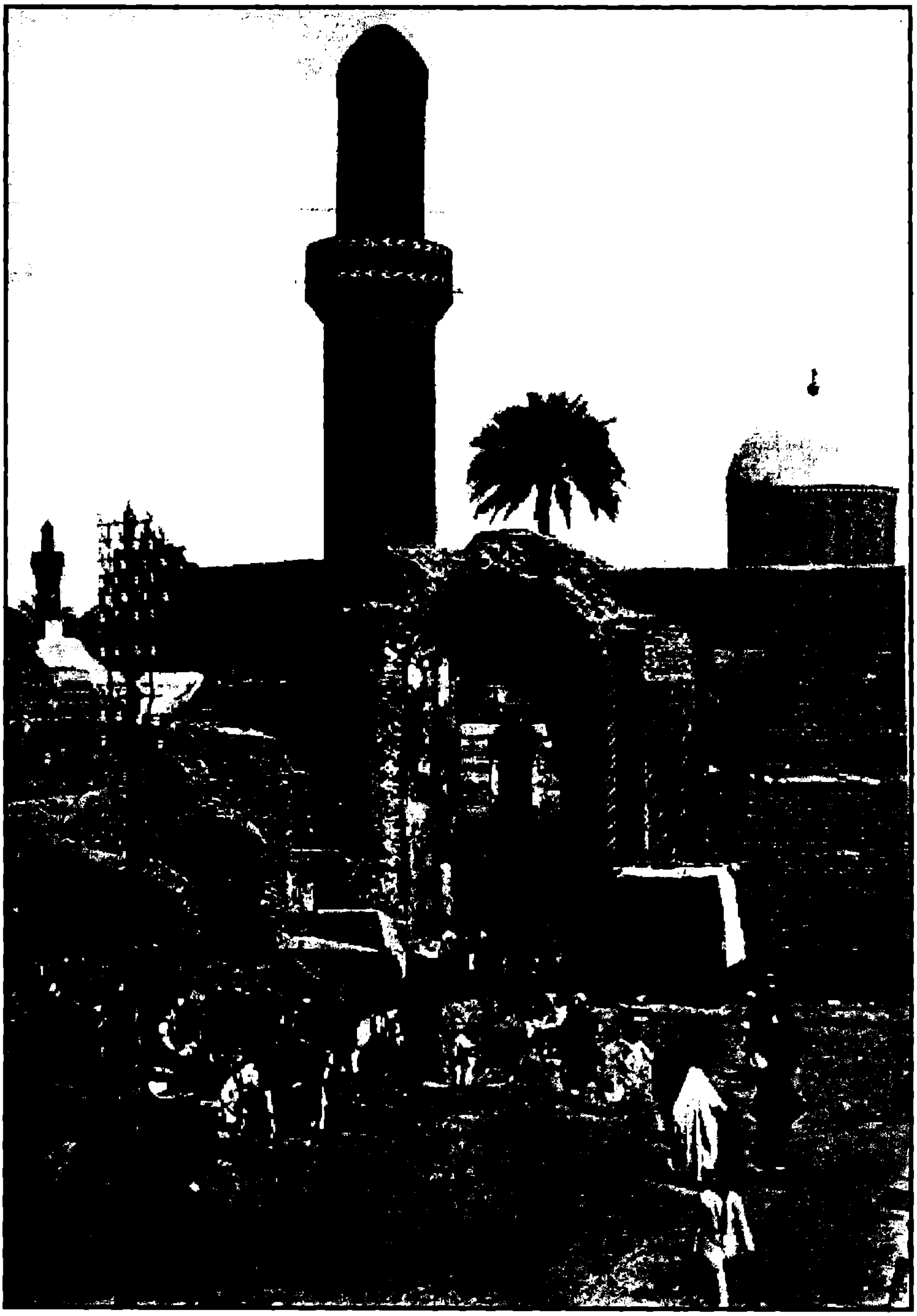
١٣ - الله والملائكة والناس أجمعين وكتب في

١٤ - ذي الحجة سنة ٩٢١ والحمد لله وحده.

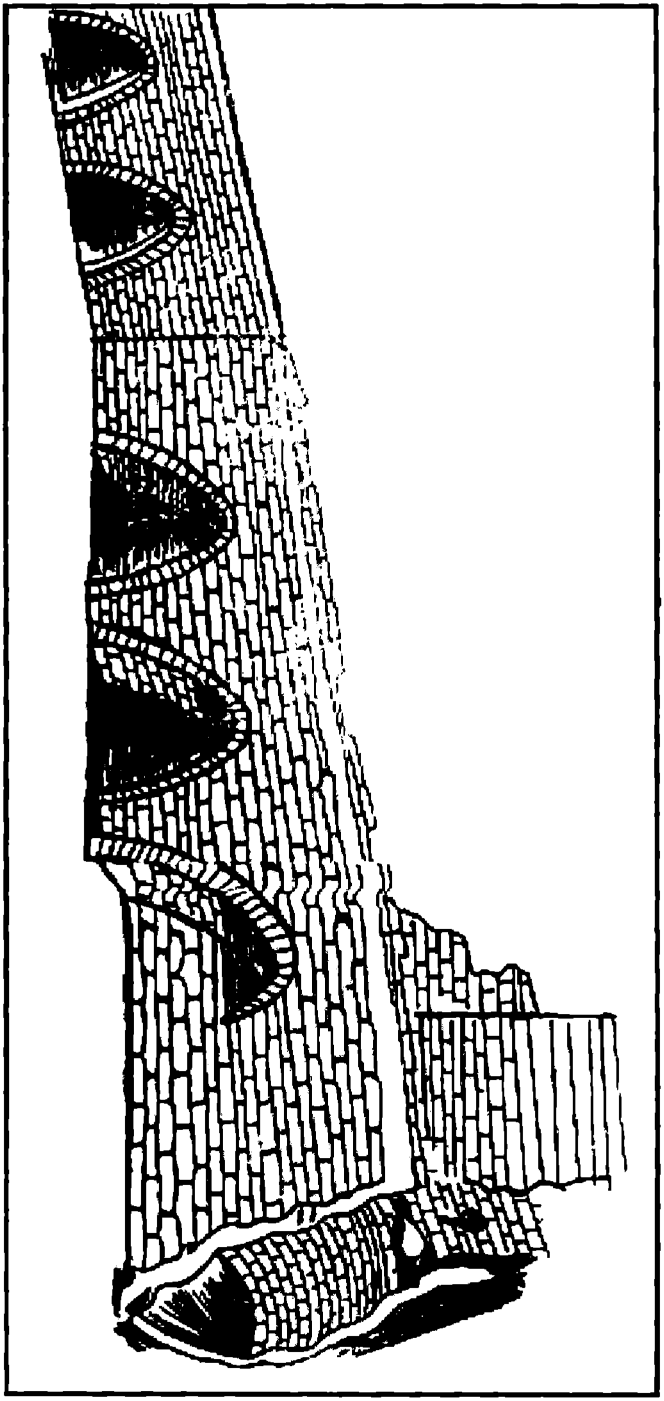
---

(١) خان مرجان ويقع بالقرب من المدرسة المرجانية مقابل مصرف الرافدين بناه أمين الدين مرجان بن عبدالرحمن الأوليجايتو سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٨.



مسجد مرجان.



مخطط سقاية الكيلاني

سـقـايا بـغـداد

عطا الحديثي

مقدمة تاريخية:

أسس أبو جعفر المنصور بغداد - مدينة السلام - في الجانب الغربي من نهر دجلة إلى الجنوب من الكاظمية الحالية سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢م بين قرى سريانية ورياض زاهرة وديارات للنساطرة، وقد بناها على شكل قلعة مدورة تحيط بها أسوار ضخمة مدعومة بأبراج، فكانت تتألف استحكاماتها من خندق عميق قد أجرى فيه الماء من نهر كرخايا[١] يدور حول المدينة تقوم على جوانبه مسناة محكمة بنيت بالآجر والصاروج ترتفع عالياً يلاصقها[٢] سور ويسميه الخطيب البغدادي السور الأول[٣] ويلي المسناة فصل خال من الدور والأبنية عرضه مائة ذراع[٤] خمسون متر تقريباً، ثم يلي الفصيل سور المدينة الرئييس، أقيمت عليه الشرفات المدورة وله عدة أبراج فقد روى اليعقوبي أنه كان فيه أبرجة عظام وعليه شرفات[٥] عرض أساس هذا السور ٩٠ ذراعاً وارتفاعه ستون ذراعاً، يليه فصيل ثاني آخر وفيه الدروب والسكك ودور المقربين إلى الخليفة وهذا ينتهي بسور ثالث يفصل الرحبة التي يتوسطها قصر الذهب والجامع عن منطقة الأسوار، وهذه الأسوار تؤلف دوائر ذات مركز واحد هو قصر باب الذهب أو قصر القبة الخضراء.

وكانت المدينة تحصر بأربعة أبواب وكان كل مدخل يماثل المدخل الآخر في تصميمه ويروي الخطيب البغدادي إذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة وإذا جاء من المغرب دخل من باب الشام وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة وإذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان[٦]، وكان على كل باب من أبواب المدينة التي في السور الأعظم قبة معقودة[٧] وكان الداخل إلى المدينة من أحد أبوابها عليه أن يعبر الخندق أولاً ثم يمر بخمسة أبواب اثنان في السور الخارجي وبابان في السور

(١) البلدان - أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ص ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ص ٢ مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣١، ج ١، ص ٧٤.

(٤) البلدان، اليعقوبي ص ٢٣٩، ذكر الخطيب أن عرضه ٦٠ ذراع ص ٥٤.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٦) الخطيب ج١، ص ٧٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٧٢.

الأعظم وباب في السور الداخلي، وكان عدد الأبراج بين كل باب وآخر ٢٨ برجاً إلا بين باب البصرة وباب الكوفة فتزيد واحداً[١]، أما سعة المدينة فقد اختلف المؤرخون فيها.

تأسيس الجانب الشرقي:

ومما دعا المنصور إلى إنشاء هذا الجانب أنه كان يرى ضرورة جعل مقر ولي عهده وجيشه الخراساني مفصولاً على مقر الخلافة ليكون مستعداً إذا اقتضت الحاجة لقمع كل نزاع قد ينشب بين هذا الجيش وبين جنوده العرب في حاميات مدينته المدورة.

وقد بدأت العمارة فيها سنة ١٥١هـ (٧٦٨م) وانتهت سنة ١٥٧هـ (٧٧٣م)[٢].

أنهار مدينة بغداد:

كان الماء يرد إلى مدينة المنصور المدورة من نهرين رئيسين أحدهما يتفرع من الفرات ويدعى نهر عيسى والثاني من دجلة ويدعى الدجيل وكان نهر عيسى يأخذ ماءه عند نقطة تقع شمال الفلوجة الحالية في الجانب الأيسر لنهر الفرات حتى يصل إلى بلدة المحول في جنوب غرب المنصور يتشعب فرعان الأول استمرار للمجرى الرئيس ويصب في جنوب مدينة بغداد والثاني وهو الذي يمون مدينة بغداد ويدعى نهر عيسى "الفرع" وأنشأت عليه عشرة قناطر ويصب في دجلة أسفل من قصر عيسى[٣][✤] ونهر آخر يدعى الصراة ويأخذ ماءه من فوق المحول ويصب في دجلة عند قصر الخلد، ومن الأنهار المهمة نهر يعرف باسم كرخايا ذكر عنه سهراب أنه يتفرع من نهر عيسى أسفل المحول الكبير بشيء قليل[٤] وكان هذا يمون مدينة المنصور المدورة بالمياه.

أما النهر الذي كان يأخذ من نهر دجلة، أي نهر الدجيل فكان يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة بالقرب من أطلال اصطبلات ويتفرع إلى فرعين ويعرف الفرع الذي ينتهي إلى مدينة بغداد ويمونها بالماء باسم نهر بطاطيا[٥].

أما الجانب الشرقي فقد كان يمون من نهرين الأول نهر موسى يأخذ ماءه من نهر بين ويتخل المدينة في عدة فروع والثاني يحمل ماءه من نهر الخالص يدعى نهر الفضل والفرع الذي يدخل المدينة ويتفرع فيها يدعى نهر المهدي[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٣) سهراب - عجائب الأقاليم السبعة - تحقيق هانس فون فريك ص ٢٣، طبع فينا ١٩٣٩.

(✤) حدد المكان بجوار مسجد قمرية دليل خارطة بغداد ص ٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٢، الخطيب ج١ ص ١١٢.

(٥) سهراب، المصدر نفسه، ص ١٣٤، الخطيب ج١، ص ١١٣.

(٦) الخطيب، ج١، ص ١١٥.

كانت هذه الأنهار والسواقي تجري في قنوات في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها[١]، وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت وهذه الأنهار والسواقي التي تتخرق المحال والدروب أكثرها مكشوفة. قال الخطيب: وهذه الأنهار كلها كانت مكشوفة إلا التي تمر منها في الحربية فإنها كانت تجري في قنوات الأرض وأوائلها مكشوفة[٢]. وقسم منها كان يدخل المدينة المدورة في مجار من خشب الساج[٣] فكان أهل بغداد يشربون ماء دجلة والفرات.

مما تقدم يظهر لنا أن لبغداد نوعين من الأنهار الأول هو لغرض الشرب فقط وهي التي تجري في قنوات تحت الأرض أو في قنوات من خشب الساج والنوع الثاني يستخدم بالإضافة إلى الشرب أو الأغراض الأخرى للسقي وللمواصلات وللرحى لطحن الحبوب.

كانت تمون مدينة بغداد بالماء كما رأينا قنوات مكشوفة أو قنوات تحت الأرض معقودة بالاجر والصاروج وهذا أسلوب كان متبعاً قبل بناء مدينة المنصور المدورة. ففي منطقة المدائن (سلمان باك)، تم العثور على قناة معقودة مبنية بالآجر والصاروج تعود إلى الفترة الساسانية لنقل المياه من نهر دجلة إلى العاصمة الساسانية "طيسفون" تمتد إلى مسافة ٣٢م باتجاه ايوان كسرى وتنفذ من تحت السور القديم تحت الأرض، قياس طابوقها ٣٠×٣٠سم طول القسم المعقود منها ٧,٦٠م سعة فتحتها ٦٥سم[٤]. وكان الناس يتزودون بالماء مباشرة من الأنهر والجداول التي تخترق مدينة بغداد. وهذا هو الأسلوب الذي كان منبعاً في التزود بالماء في بداية العصور العباسية، غير أن هذه الطريقة في التزود لم تستمر حيث في العصور العباسية المتأخرة أخذت الآلة (الدواليب) تقوم بنقل الماء من نهر دجلة مباشرة وتنقله إلى المحلات والدروب بواسطة سواقي مبنية بالآجر والصاروج، وصارت هناك محلات معينة لها تعرف بالسقايات. وكثر عددها في العصور العباسية المتأخرة حتى أن المؤرخ ياسين بن خيرالله العمري ذكر في كتابه الدر المكنون أن عدد مزملات السبيل وهي السقايات بلغ ١٠٢٥ سقاية[♣]. ومن هذه السقايات المهمة سقاية الراضي التي أنشأها الخليفة الراضي بالله (٣٢٢هـ - ٣٢٩هـ/٩٣٤ - ٩٤٠م) في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة ليشرب منها المصلون وقد وردت أخبارها في سنة ٥٦٩[٥]. وسقاية

---

(١) الخطيب، ج١، ص ١١٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) طه الراوي: بغداد مدينة السلام ص ١١٨.

(٤) اضبارة مديرية الآثار العامة.

(♣) ذكرها الأب انستاس ماري الكرملي في مجلة المشرق م١١ ص ٣٩٧.

(٥) دليل خارطة بغداد، المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً ص ٥٩ مصطفى جواد، أحمد سوسة.

علاء الدين الجويني عند المدرسة المستنصرية إذ قام علاء الدين الجويني سنة ٦٦٨هـ بعمل دولاب تحت مسناة المستنصرية يقبض الماء من دجلة ويرمي إلى مزملتها ثم يجري تحت الأرض إلى بركة عملت في صحن المدرسة ثم يخرج منها إلى مزملة عملت تجاه إيوان الساعات خارج المدرسة[١]، وكذلك سقاية دار الخلافة فقد ذكر لنا ابن الساعي "أن الإمام المستضيء (٥٦٦هـ - ٥٧٥هـ/١١٧٠م - ١١٨٠م) بنى داراً مجاورة لباب الغربة الشريف على شاطئ دجلة فجاءت عالية البناء واسعة الفناء تشتمل على مقاصير وحجرات ومناظر ومتنزهات ويجاور هذه الدار أربعة دواليب تستقي الماء من دجلة إلى دار الخلافة المعظمة كل واحد منها أعلى من الآخر فيأخذ الأول من دجلة والثاني من الأول والثالث من الثاني والرابع من الثالث[٢].

وفي العصر العثماني كانت هناك طريقتان لنقل مياه الشرب، الأولى بسيطة وهي عبارة عن إنشاء أحواض خاصة تملأ بالماء يومياً بواسطة سقائين بأجر معلوم، والطريقة الثانية وهي اكثر تعقيداً وتعتمد على إنشاء قنوات محكمة مبنية بالآجر والصاروج قائمة على أكتاف ذات عقود وتمتد مع نهر دجلة مباشرة حيث يرفع إليها الماء بواسطة دواليب ثم تقطع الدروب والمحلات وربما تتفرع منها عدة قنوات إلى محلات نائية حيث تنشأ هناك سقاية - سبيل خانة - تستخدم للشرب أو للوضوء وللأغراض الأخرى.

ذكر لنا أولياء جلبي في رحلته الذي كان قد قدم بغداد مرتين الأولى سنة ١٠٥٨هـ والثانية في سنة ١٠٦٦هـ أن السقايات عددها مائة وماؤها ينقله السقائون من نهر دجلة[٣]. أما السيد محمود شكري الآلوسي في كتابه أخبار بغداد وما جاورها من البلاد "إن في بغداد عشرين سقاية وهي المحال التي فيها الماء المسيل على أبناء السبيل[٤]...

أما السيد عبد الحميد عباده في مخطوطته العقد اللامع بآثار بغداد فقد بحث في سبعة عشر سقاية[٥].

ومهما يكن فإن هناك سقايتين ظلتا قائمتين إلى الاحتلال البريطاني وكانت لهما أهمية بالغة لدى أهالي بغداد وسأقتصر بحثي عنهما دون غيرهما وهما:

---

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، كما ل الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن (الفوطي) ص ٣٦٥، المدرسة المستنصرية تأليف ناجي معروف ص ٣٤، ١٩٣٥.

(٢) نساء الخلفاء المسمى "جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء" تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب المعروف بابن الساعي ص ١١٣، تحقيق الدكتور مصطفى جواد.

(٣) رحلة أولياء جلبي ج٤، ص ٤٢٠.

(٤) محمود شكري الألوسي: أخبار بغداد وما جاورها من البلاد ص ١١٨. مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي رقم ٦٢٨٧.

(٥) عبد الحميد أفندي بن بكر صدقي أفندي بن الحاج إسماعيل عبادة، العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع (من مخطوطات مكتبة المتحف العراقي رقم ٩٠٤٩).

١ - سقاية السهروردي:

أنشأ هذه السقاية الوالي حسين باشا السلحدار سنة ١٠٨٤هـ[١] الذي ولي ولاية بغداد من ١٠٨٢هـ - ١٠٨٥هـ.

جاء في كتاب "كلشن خلفاء" بالتركية لنظمي زاده مرتضى أفندي المتوفى في العقد الرابع من القرن الثاني عشر للهجرة من أخبار السلحدار حسين باشا "إن مرقد الشيخ شهاب الدين السهروردي هو من الأماكن التي يتبرك بها وقد أمسى هذا الموضع قليل الماء قريباً من اليبس خالياً من العمارة مما سبب عدم اجتماع الناس فيه لهذا فإن حسين باشا السلحدار أمر ببناء بئر عميقة من دجلة فجلبت المياه إلى المرقد"[٢].

في حين ذكر السيد محمود شكري الألوسي في كتابه - تاريخ مساجد بغداد "سقاية جامع الشيخ عمر السهروردي "يجري إليه الماء من دجلة بقناة ولعل اسماعيل باشا هو الذي أنشأها يوم رمم الجامع. في حين أنها كانت قبل عهد هذا الباشا بقرنين من الزمان وعن مدى اهتمام السلحدار بهذه القناة أنشأ سوقاً عند باب المستنصرية وأوقفه عليها وكانت تأخذ الماء من نهر دجلة عن طريق ناعورة موجودة عند شاطئ دجلة في منطقة الميدان القريبة الآن من القصر العباسي في قناة مبنية بالآجر والصاروج وترتفع على أكتاف وتجتاز المنطقة من شريعة الميدان حتى تروي المنطقة الشمالية من بغداد فمحلة الصابونجية فمحلة الفضل ثم تمتد باستقامة إلى غرب جامع الفضل ثم تتجه في فضاء قاحل خال من العمران إلى جامع السهروردي.

ويشاهد قسم من هذه القناة في خارطة بغداد "فلكس جونس وكولنكود" اللذان خططاها في سنة ١٨٥٢ م وملحقة بكتاب مجموعة تقارير جونس المذكور المرفوعة إلى حكومته وهذا القسم من القناة يمتد من منتهى العمران متصلاً به إلى جامع السهروردي ولكنها لا ترينا سير هذه القناة إلى منتهى العمران في دجلة .

لقد بلغ عدد السقايات التي تأخذ مياهها من تلك القناة ثلاث الأولى في الميدان عند مدخل شارع الرشيد أنشأها دفتردار بغداد آنذاك شوكت بك سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م[٣]. والثانية في الفضل عند الجلالي أما الثالثة فعند خان لاوند وكان قد أنشأها سري باشا سنة ١٣٠٥ هـ على أنقاض خان لاوند.

---

(١) العقد اللامع - عبد الحميد ص ٧٦.

(٢) كلشن خلفا ، نظمي أفندي زاده، الورقة ١٠١ (طبع الأستانة) نحو سنة ١١٤٠هـ.

(٣) مجلة لغة العرب ١٩١٢ ج٢ ص ٣٩ - ٤٠.

٢ - سقاية عبد القادر الكيلاني:

أنشأ هذه السقاية السلطان مراد الرابع عند تجديده لجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٧م[١]. تقوم هذه السقاية على شاطئ دجلة عند متحف الأزياء حالياً في جوار قبر ابن الجوزي "بستان اكريبوز" وتمتد حتى تصل إلى جامع الكيلاني فتقطع محلة السنك والمحال التي تليها بصورة مستقيمة تقريباً حتى تنتهي عند الكيلاني فسميت المحلة باسم رأس الساقية وما زالت بهذا الاسم فتمون محلة الكيلاني والمحال التي تمر بها بالماء وعرفت هذه السقاية عند أهالي بغداد "المزملة البرانية" وذلك لوقوعها خارج أسواء جامع الكيلاني.

ومن السواح أو الرحالة الذين وصفوا هذه القناة هو الرحالة الدانماركي كارستن نيبور الذي زار العراق سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٦م عند وصفه التكية القادرية "... أن لهذه التكية التي تقع على مسافة بعيدة من دجلة مجرة خاصاً يجلب لها الماء من النهر"[٢].

كما أشار إليها فيلكس جونس فذكر أن لجامع الشيخ الكيلاني قناة تحمل الماء إليه من نهر دجلة[٣]. على أنه لم يشر إليها في خريطته غير أنه رسم الدرب الذي تسير فيها لساقية "أنظر كما ذكر عقد محلة رأس الساقية.

ذكر لنا الآلوسي أن علي رضا باشا والي بغداد أنشأ سقاية أخرى لجامع الكيلاني وكانت غزيرة الماء كثيرة الإرواء وأجرى إليها جدولاً من نهر دجلة. غير أننا لا نعرف لجامع الكيلاني سقاية أخرى سوى ساقية واحدة وهي التي بناها السلطان مراد الرابع. ولعل تعميرها وتحسينها من قبل الوالي علي رضا جعل الآلوسي ينسب إنشاءها إليه مستنداً إلى الأبيات المدونة على رخامتها. غير أن البيت الخامس يؤيد تجديدها وليس إنشائها ومن المناسب أن نذكر الأبيات:

لله ساقية قد شاد مبناها ... والي العراقين أقصاها وأدناها
أعني علي رضا بل حيدري وغى ... سميه لجميع الناس مولاها
من ماء دجلة أجرى سلسبيل ندى ... يروي العطاش من الرمضاء أصفاها
وانساب جدولها في صحن دائرة ... فطب المجرة يحكي عن مزاياها
انعم بها كعبة للائذين بها ... لقد صفا زمزم الجدوى ومرواها
تطوعا واحتساباً من فواضله ... تجددت وسمت أركان علياها

---

(١) كلشن خلفا، نظمي زاده أفندي، الورقة ٧٩ طبع الاستانة نحو سنة ١١٤٠هـ.

(٢) رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة الدكتور محمود الأمين، ص ٢٤.

(٣) Commander James Felix Jones, I.N. Steam-Trip to the North of Baghdad p. 327.

فيـــا لهـــا نيـــة لله خالـــصة تفـتـر عــن شــنب الحــسنى ثناياهــا
صــح القبـول جــرى فـوراً فارخــه[1] (تجــري فينبــوع بــسم الله مجراهــا)

١٢٤٧

الوصف العماري:

إن للسقاية المذكورة بقايا شاخصة يمكن أن نقسمها إلى:

١ - البئر تقوم عند شاطئ دجلة بئر بيضوية الشكل مبنية بالآجر والصاروج قطرها ٣×٥م سمك جدارها ٨٥ سم سمك الآجر ١٠سم وطوله ٣٦سم تتصل من أسفلها قناة مبنية بالآجر والصاروج أيضاً تؤدي إلى نهر دجلة لحمل المياه إلى البئر.

٢ - الساقية - يتصل بها من الأعلى جدار يرتفع عالياً وهو مبني من الآجر والصاروج يلتف مع الجانب الشرقي من فوهة البئر ويأخذ نفس الشكل ليكون هذا الجدار حوضاً لتجميع المياه المرفوعة من البئر لتنساب في ساقية مبنية بالآجر والجص ارتفاعها ٢,٣٥ تمتد لمسافة ١٢م وتتجه إلى الشرق باتجاه جامع الكيلاني وهي تحوي على عقود سعة العقدة ١,٨٥م وسمك جدار العقد ١,٥٥م والمسافة بين الأقواس ٩٠ سم عند بدء التقوس.

وقد تم فرش المجرى نفسه بطبقة من القير سمكها حوالى ٧ سم خشية تسرب الماء أو ضياعه أثناء جريانه.

يظهر في الجانب الشرقي من هذه القناة ثلاثة أقواس عند اتصالها بالبئر، واثنان منهما حولا إلى مخزنين. أما الجانب الغربي فتظهر منه ثلاثة أقواس والباقية أصبحت ضمن دار عبد الرحمن النقيب.

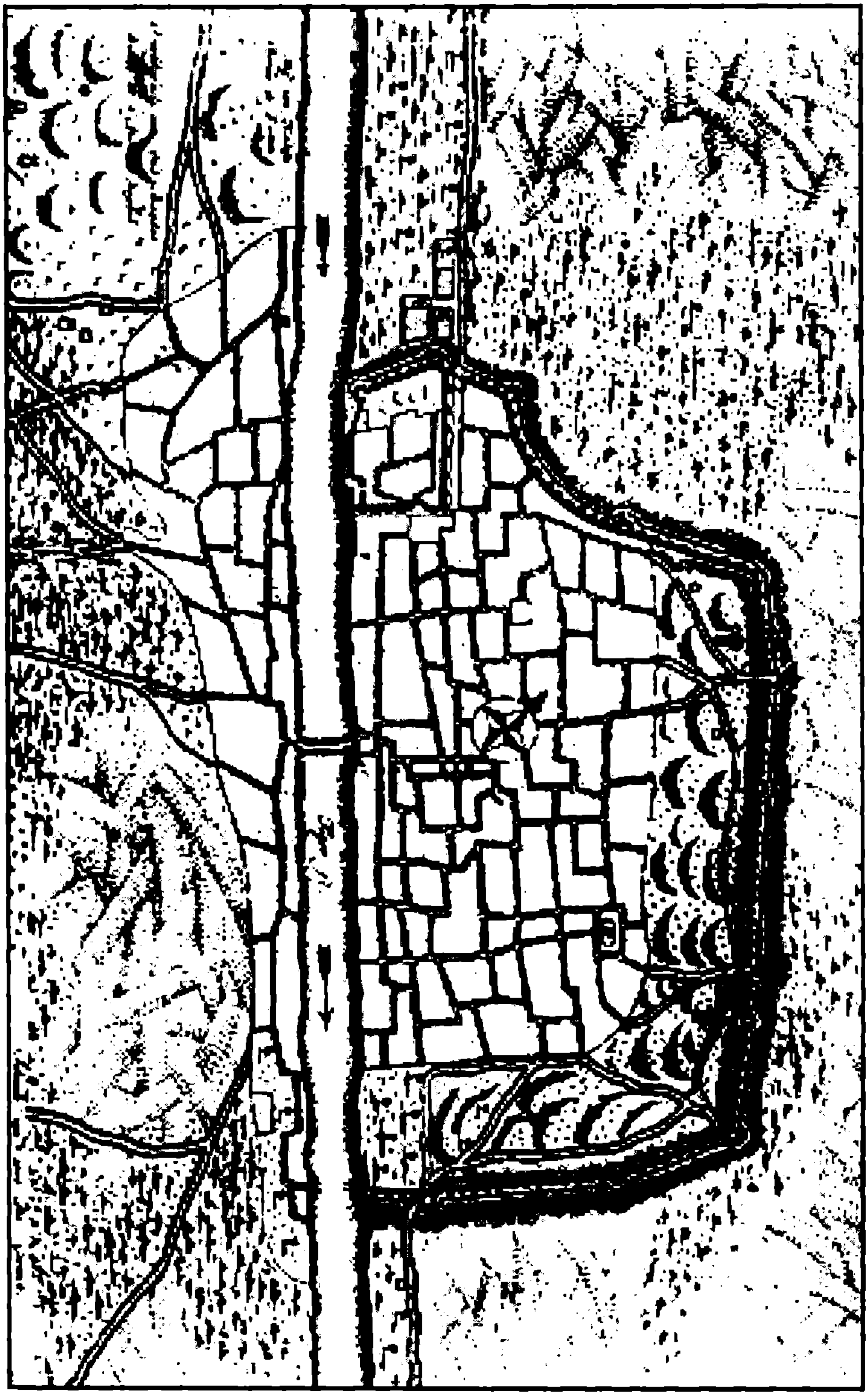
وقد بقت الساقية على وضعها مرتفعة تقطع المحلات والدروب معترضة بطبقاتها الطرق إلى أن قام عبد الرحمن النقيب في بداية القرن العشرين برفعها مع طبقاتها وجعلها تمتد تحت الأرض. وبذلك قضي على آخر سقاية وقناتها وتم رفعها كلية في عهد الوالي خليل باشا سنة ١٣٣٤ - ١٩١٥م عند فتح شارع الرشيد وتأسيس إسالة الماء الحديثة[2].

❖ ❖ ❖

---

(١) محمود شكري الآلوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ١١١. بغداد (١٣٤٦هـ).

(٢) سومر ٢٩ (١٩٧٣) ص ١٩٧ - ٢٠٣.



خارطة بغداد في القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) من الترجمة الفرنسية لرحلة نيبور.

بغداد في رحلة نيبور
KARSTEN NIEBUHR[*]

✍ ترجمة مصطفى جواد

مدينة بغداد من أعمال الخالص، في خط العرض ٣٣.٢٠ وهي قائمة على الضفة الشرقية من نهر دجلة وفيها مقر الباشا الكبير وحولها سور من الآجر من جهة البر، وقسم كبير منها في داخل السور خلو من البناية والزراعة، غير أن القسم المسكون منها كثير العمارة وخصوصاً النواحي الشاطئية وناحية السراي أي ناحية قصر الباشا فهناك تقوم أكثر الأسواق والدكاكين وتمتد أكثر الطرق.

إن بغداد كثيرة السكان بالنسبة إلى مدن الشرق الأخرى التي تكثر فيها البساتين، وطرقها ضيقة جداً، والأسواق الكبيرة فيها معقودة السقوف كلها، ويرى الإنسان فيها كما يرى في القاهرة طرقاً وأزقة تسد أفواهها في كل ليلة، وعامة المنازل والمساكن شاهقة مبنية بالآجر مطلة على الطرق، ليس لها من الشبابيك إلا القليل، ومنها ما ليس له شيء منها البتة، وذلك على غرار طراز العمارة الإسلامية المألوفة، ولهذا لا يظهر منظرها من الخارج، وفي داخلها، كجاري العادة، صحن صغير مربع تشرف عليه أكثر الغرف وخصوصاً الغرف الجميلة. إن طراز العمارة هذا عند الشرقيين، على ما بان لي، هو السبب الأقوى في شكواهم من الحر بالصيف، فإن الشمس حينما تتكبد السماء[1] تكون هذه الصحون المربعة الصغيرة المحفوفة بالجدران العالية كأنها أفران ذات حرارة لا تطاق، وذلك لخلوها من الهواء خلواً تاماً، ولهذا السبب يكون لكل عمارة متميزة بعض التميز سرداب أي قسم في منخفض من الدار، معقود في أعلاه، وفيه مروحة "بادكير" على شكل مدخنة، فوهتها العليا واسعة من جهة الشمال، فالريح في بغداد تهب في العادة، كما في القاهرة وجزيرة خارك[2] في فصل الحر أي القيظ، من الجهة الشمالية، ولا يسقط الثلج كثيراً ببغداد كما يحدث في بلادنا غير أننا رأينا في أول شباط صقيعاً ثخنه نصف إصبع، والناس يسمون هذا الوقت بوقت البرد القارس، ويزعم ناس أن عشرين إنساناً قد جمدوا في هذه الليالي ويؤكدون زعمهم، ولا

(*) كارستن نيبور karsten Niebuhr سائح ألماني من أصل دانماركي ولد في لودينكورث Ludingworthe سنة ١٧٣٣م وتوفي في ميلدورف Maldorf سنة ١٨١٥، كان من أوائل المستكشفين في جزيرة العرب وأقطار عربية أخرى.

(١) تكبدت الشمس السماء: صارت في كبيدائها أي وسطها.

(٢) خارك جزيرة في خليج البصرة.

يستبعد ذلك، ونحن نعلم أن فقراء هذه البلاد يمشون عريانيين، على التقريب، ومنهم من ينامون في الطرق فلا مأوى لهم. "ص ٢٤".

ولكي أطلع القارئ حق الإطلاع على حال بغداد ووساعتها وضعت لها لوحاً تخطيطياً فلها من جهة البر ثلاثة أبواب: باب المعظم المرموز إليه بالرقم (١) وقد أخذ هذا الاسم من أبي حنيفة، فإن أهل السنة يسمونه "الأعظم" أي الاشرف، وتربته على مسافة نصف ساعة من ذلك الباب، والباب الثاني هو الباب الوسطاني، وقد رمز إليه بالرقم (٢) ومعنى الوسطاني: الوسط وهو على مقربة من البرج الأعظم، والثالث باب الطلسم وكان يؤدي إلى داخل المدينة ولكن السلطان مراداً [الرابع] كان قد انتزع بغداد من العجم، ودخل فيها من ذلك الباب ثم أمر بسده وردمه بالآجر، وبقي مردوماً إلى اليوم[١]، والرابع هو (قارولغ قابي) المرموز إليه بالرقم(٤). وعند الجسر باب يسمونه "باب الجسر"[٢] ومعناه باب الجسر، وقد رمز إليه في اللوح التخطيطي بالرقم ٥، وعلى كل من البدنات العشر "البروج" التي في سور المدينة ستة مدافع أو سبعة إلا أن نصف عددها ليس لها متكآت، وتلك البدنات صغيرة جداً بالنسبة إلى عدد المدافع، وليس على باب "قارولغ قابي" وباب الطلسم والباب الوسطاني مدافع، وربما كان السبب أن أحمد باشا أقام مضربتين مندفعيتين "بطاريتين" في الموضع المرموز إليه بالرقم (٦) وبين هذه البروج الضخمة بروج صغيرة أخرى، لا يمكن الدفاع عنها إلا بالأسلحة النارية الخفيفة. وفي السور نفسه من الداخل عقود كثيرة ذوات طبقتين إحداهما فوق الأخرى، وعليه مدافع هاونية لحفظ الخندق بسلاح ناري، إلا أن السور ركيك جداً والخندق جاف، وليس في خارج السور من بنايات تحصينية "استحكامات"، ولذلك يستطيع العدو الأوروبي أن يستولي بسهولة على هذه المدينة[٣]، مع أنها مشهورة بحصانتها ومناعتها، فإن نادر شاه حاصرها غير مرة فلم يبلغ من حصارها غرضاً ولا استولى عليها.

---

(١) نسخت كتابة منقوشة عليه بتفصيل، يعلم بها أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد أنجز هذا البنيان سنة ٦١٨ الهجرية أي سنة ١٢٢١م وذلك مما يدل على قدم بغداد وهذه الكتابة هي:

بسم الله الرحمن الرحيم، وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. أمر بعمارته سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة [على] كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق أجمعين، صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين ولا زالت دعوة المدعي (كذا) على أتباع الحق منازله (كذا منارا) والخلائق لها أتباعاً وأنصاراً، وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأبصاراً، وافق الفراغ منه سنة ثمان عشرة وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين".

(٢) كتب السائح الاسم بلفظه العربي بالحروف اللاتينية فلذلك جاءت ترجمته مطابقة لاسمه العربي "المترجم".

(٣) الحظ هذه النظرة العدوانية الخبيثة من هذا السائح. الذي ادعى أنه ساح لجمع المعارف البلدانية. "المترجم".

وفي الركن الغربي من بغداد قلعة صغيرة تسمى "ايج قلعة" أي القلعة الداخلة، وقد اتخذت في هذه الأيام "دار صناعة" ومخزناً للبارود، ولا تفيد شيئاً آخر غير ذلك، ولا يسكن فيها إلا الجنود الينكجرية. وفي أوروبة لا يرخص للغريب بسهولة في أن يدخل مثل هذا الحصن، وقد حاولت أن أدخلها فدخلتها، ولم يعرض لي في الدخول والخروج إلا بعض الاستيقاف، كالذي لقيته في دخولي من أبواب بغداد، فإن فيها رجالاً من الينكجرية المذكورين يحفظونها، والسبب في تلك السهولة أن الجنود الأتراك يتساهلون في الخدمة، ما وسعهم التساهل كما أنهم لا يحيون أحداً بالسلاح، وليس من الواجب عليهم أن يتعرفوا حال من يدخل ومن يخرج، وإذا ساءت حالة الجو فإنهم يبقون في مراكزهم، فإذا اعتدلت حالة الجو وقفوا لدى الباب يتعاطون إلا دخان بالتوتون في سبل أو يلعبون النرد "الطاولي"، واختصر ذلك بجملة واحدة فأقول: إنهم لا يهتمون بشيء أبداً، ما داموا لابثين في مراكزهم مستعدين لما يطرأ من شغب في الطريق.

والسراي أي قصر الباشا بإزاء القلعة على شاطئ دجلة، قرب موضع الرقم (٧) من اللوح التخطيطي وهو وسيع جداً وفيه مرافق كثيرة أكثرها رديء البنيان متشعث الأركان.

والمدرسة المستنصرية التي نوه بها المؤلفون العرب في آثارهم كثيراً، موضعها بقرب الرقم (٨) من اللوح، وهذه المدرسة ليست مقصورة على العلماء اليوم، وقد اتخذ مطبخ هذا المقر المجمعي العلمي القديم داراً للمكس، "الكمرك"، ومعظم البناية جعل خاناً للقوافل يعرف بآت ميداني، وأكثر مبانيها متداع للخراب، وعلى طول البناية من جهة النهر كتابة طويلة يفهم منها أن الخليفة المستنصر بناها سنة (٦٣٠هـ = ١٢٢٢) وإذ كان الناس العابرون للجسر متوافرين لم يكن انتساخي للكتابة متسنياً لي دون اجتذاب انتباه الناس إلي، فلذلك، وكلت نسخها إلى ملا من الملائين، وقد قابلت ما نسخه بالأصل ونقلته تحت هذه الصفحة[١].

وقد بنى المستنصر أيضاً بعد ثلاث سنوات من ذلك جامعاً عظيماً في محلة سوق الغزل، وقد رمز إلى موضعه في اللوح بالرقم ٩ إلا أنه لم يبق منه إلا المنارة والجدران الخارجة مع مدخلين عجيبين عند قهوة رديئة وفوق الباب يرى الرائي "٢٤٢" كتابة هذا نصها "أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الله تعالى معالم

---

(١) هو "قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتسمى المدرسة العظمى دولة العز وأسعد الخلائق المحجة البيضاء عبدالله وخليفته في أرضه الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين أمتع الله المسلمين بإعزاز سلطانه وأيد دولته بطول حياته وذلك سنة ستمائة وثلاثين (كذا)"، ولا شك في أن مختصر الكتابة جاء مصحفاً ومحرفاً ومضطرباً.

الإسلام بهمته العلية، وأزهى (كذا وأرسى) دعائم الإيمان باياالته [الرضية] وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة"(١).

إن المدرسة التي هي اليوم عظمى المدارس ببغداد قد أسسها للحنفية والشافعية سنة ٧٥٨هـ رجل اسمه مرجان، أن مرجان هذا بنى أيضاً جامعاً كبيراً (كذا) وعمارات أخرى للأمة، وذلك يدل على أنه كان يعلم علم الكيمياء، أي صناعة الذهب، وقد حكم مرجان والياً ببغداد عدة سنوات في غيبة سيده فليس من المستبعد أن يظن فيه غنى استطاع معه وبه أن ينشئ هذه المؤسسات الخيرية.

والكتابة المنقولة في الأسفل(٢) وقد وكلت نسخها إلى ملا من الملالي مكتوبة على المدرسة المذكورة، ولم أستطع مقابلتها بالأصل، لأني رأيت شباناً وصبياناً عند المدرسة فخشيت أن يسوءهم صنعي(٣)، ورأيت كتابة طويلة جداً باللغة التركية على خان أي "منزل قيروان" يسميه الناس "خان جغال" وقد أنشأه سنة ٩٩٩هـ أي سنة ١٥٩٠ م سنان باشا على عهد السلطان مراد [الثالث] وتحت الكتابة التركية سطران باللغة العربية وقد نسختهما في أسفل الصفحة(٤).

---

(١) الجامع الذي ذكره الرحالة هو جامع القصر الذي عرف بجامع الخليفة ثم بجامع الخلفاء ثم بجامع سوق الغزل الذي أصبح اليوم مطلاً بمنارته الفخمة على شارع الجمهورية بعناية مديرية الأوقاف العامة، وقد أنشأ هذا الجامع الخليفة المكتفي في أواخر القرن الثالث للهجرة، وبقي إلى وقعة هولاكو سنة ٦٥٦هـ فأصابته النار، وأقيمت هذه المنارة الحالية في عهد الملك أباقا بن هولاكو وولاية علاء الدين عطا ملك الجويني على بغداد والعراق سنة ٦٧٨هـ، فلم يكن المستنصر بالله منشئه وإنما بنى فيه ما ذكره مؤلف كتاب الحوادث بقوله في حوادث سنة ٦٣٥: "وفي آخر شعبان انتهى من عمارة باب جامع القصر مما يلي الرحبة وفتح وفتحت المزملة التي عملت بالجامع المذكور أيضاً" (ص ١٠٣).

(٢) "بسم الله الرحمن الرحيم، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. أوقف هذه المدرسة الشريفة على طلاب العلم على الإمام الأعظم محمد بن ادريس الشافعي المطلبي والإمام الأقدم نعمان بن ثابت الكوفي، هذه وقفت المدرسة دار الشفاء المولى الأمير الصاحب الأعظم ملك أعاظم الأمراء في العالم مشير السلاطين مرشد الخواقين مشيد قواعد الخيرات، باني مباني المبرات المفتقر إلى مغفرة الملك المنان مرجان بن عبدالله بن عبد الرحمن السلطاني الأولجاتي تقبل الله منه في الدارين طاعاته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلم وذلك سنة ٧٥٨".

(٣) كثير مما ورد في هذا المنقول عديم الصحة والأمانة، فراجع نص ما بقي من الكتابة في كتاب دليل خارطة بغداد "ص ٢٢٠".

(٤) هما "عمر هذا الخان وما فيه من البنيان في أيام دولة السلطان بن السلطان: السلطان مراد خان، خلد الله ملكه وسلطانه، وأفاض على كافة العالمين عدله وإحسانه سنة ٩٩٩". قلت: كان هذا الخان داراً ملحقة بالمدرسة النظامية مجاورة لها من الشمال، وتعرف بدار نظام الملك ثم أنشئت خاناً وبقي الخان إلى أيامنا هذه، ويعرف بخان جغان ثم اشتراه آل دانيال اليهود وغيرهم وجعلوه قبل عدة سنين أسواقاً للبزازين والجوهريين ولا يزال كذلك، ولا أعلم مصير الكتابة التركية والكتابة العربية الرائعة ذات الخط الجميل، ومديرية الآثار العامة يومئذ هي المسؤولة عن ذلك وأمثاله، وكذلك القول في الكتابة الأيلخانية العربية التي كانت على جدار جامع حسين باشا بالحيدرخانة.

وفي بغداد تكيات أي ربط لمختلف الطرائق الصوفية "الدراويشية" وهي القادرية والبكتاشية والمولوية والرفاعية والنقشبندية والقلندرية والشاكرجية "الشاكان". إن تكية الشاكان لها فندق للفقراء الهنود الذين يقدمون هذا القطر حجاجاً، وأن مؤسس الطريقة القادرية عبد القادر، وكان شيخاً مشهوراً من صقع جيلان، وقد ولد سنة (٥٦٠هـ)(١) وبلغ عمره، كما قيل، تسعين سنة، إنه مدفون ببغداد، وقد رمز إلى قبره في اللوح التخطيطي بالرقم (١٠) وهو تحت قبة عظيمة جداً، ولتكيته واردات مالية وقفية تقوت أكثر من ثلاث مئة إنسان، ولأكثرهم فيها حجر وغرف يسكنونها بالمجان، إن هذه التكية بعيدة عن النهر، ولها كرد(٢) يساق ماؤه إليها من دجلة في ساقية، وبينما كنت أتأمل بعجب قبة القبر والمسجد العظيمة، عظمة هي دون فخامة "قصر العيني" الذي هو إحدى التكيات على النيل قرب القاهرة، جاءني درويش فدعاني بأدب بالغ إلى دخول بيته في التكية، فحدثني هو وآخرون من الدراويش بمنقبة وكرامة للشيخ عبد القادر، شيخه العظيم قالوا:

"كان الشيخ عبد القادر ذات يوم يعظ على منبره، والناس متوافرون في مجلس وعظه، فسكت فجأة وأخذ أحد زوجي قبقابيه من إحدى رجليه، بإحدى يديه فرمى به إلى الجدار (والقبقاب حذاء من خشب صورته في اب من اللوح الثاني من كتابي في وصف البلاد العربية) فغاب القبقاب، وبعد دقائق رمى بفرد قبقابه الآخر فغاب كالأول، ولم يعلم الحاضرون لمجلسه سبب فعله، ولا ما صار إليه قبقاب الشيخ، وبعد انتظار غير طويل علموا أن السبب هو أن تجاراً كانوا قد قصدوا بغداد من أحد الأقطار للاتجار فيها، وزيارة الشيخ عبد القادر، فقطع عليهم اللصوص العرب الطريق وسلبوهم ما معهم، وفي حالهم المحزنة أخذوا يصلون ويدعون ويستغيثون بقوة الشيخ الكبير عبد القادر، فأصاب القبقاب (الذي رماه بحضور الحاضرين من آلاف مجلسه) رأس كبير من اللصوص المذكورين فظنوا في بادئ الأمر أن فرد القبقاب هو لأحد المسافرين، فآذوه وقسوا عليه، غير أنهم لم يلبثوا أن رأوا فرد قبقاب آخر يصيب رأس لص آخر منهم، فاعتقدوا أن في الأمر فعل ولي من أولياء الله، التزم أن يحمي المسافرين، فأطلقوا المسافرين جميعاً بأموالهم، وتركوهم يتمون سفرهم بأمان وسلام، وبعد أربعة أسابيع وصل التجار المذكورون إلى بغداد حاملين معهم فردي القبقاب ثم سلموها إلى الشيخ عبد القادر، وشكروا له غوثة إياهم، وأذاعوا بين الناس تلك الكرامة التي حدثت من أجلهم.

---

(١) الصحيح أنه ولد سنة ٤٩١هـ وتوفى سنة ٥٦١ كما في فوات الوفيات وغيره. "المترجم".

(٢) الكرد مأخوذة من الفارسية بمعنى العنق، والظاهر أن أصله جلد لعنق حيوان يستقى به على حيوان على طريقة الإدلاء والإسقاء.

إن عرض دجلة في هذه المدينة بين (٦٠٠) قدم و"٦٢٠" قدماً، وعليها جسر ركيك من الزوارق وعدة زوارقه أربعة وثلاثون زورقاً صغاراً، مربوطاً بعضها إلى بعض بثلاث سلاسل متينة، وحينما يعتدل الجو ويقل هيجان النهر يكون الجسر عميم الفائدة سهل العبور، فإذا خالفت الريح جرية النهر يكون العبور خطراً وأن يفض النهر فجأة ولم يحلوا سلسلة الجسر من ضفة النهر فإنها تتقطع، وليس تقطعها بغير الممكن، فقد رأيناه يحدث في كانون الثاني سنة ١٧٦٦م (١١٨٠هـ) حين هبت ريح عاتية من الجنوب الشرقي، وفي أول هذا الشهر "٢٤٤" كان الوقت طيباً فقد نزل فيه الثلج على الجبال التي يجري ماؤها إلى نهر دجلة، فزاد ذلك في مائه زيادة عظيمة في منتصف الشهر المذكور، وتكسرت سلاسل الجسر فجرف التيار الزوارق والتجار، وغرق في تلك الحادثة شيء من الماشية، أما الذين كانوا على الجسر فرموا بأنفسهم إلى الزوارق فسلمت بذلك أرواحهم، واستمرت زيادة النهر متعاظمة بعد ذلك أياماً حتى طفحت المياه من مجراها، وأغرقت في الأيام ١٩، ٢٠، ٢١ من الشهر أرباض بغداد، ثم إن المياه أخذت في الهبوط منذ اليوم العشرين ولم يطفح النهر بعد ذلك كثيراً، حتى شهر مارس "مارت" فإن مياهه زادت مرة ثانية بالموصل ثم ببغداد بسبب الثلوج الساقطة على الجبال.

إن الفرق بين أعلى مستوى لماء دجلة وأخفض مستوى له هو، على ما يقال، عشرون قدماً، ولم أستطع أن أذكر النواحي الغربية لبغداد إلا على نحو تقريبي فإنها منخفضة جداً، وكانت في أيام كوني ببغداد قد غرقت جمعاء، فهي رطبة كثيرة اللثق[(١)]، وفي هذه الجهة كثير من البساتين غير أنها قليلة السكان بالنسبة إلى الأقسام المسكونة الأخرى من المدينة، وأن طرفها الشمالي كان مشيداً من غير شك على بقعة من بغداد العتيقة[(٢)]، وكانت تمتد، بلا ريب، من هناك إلى مشهد موسى بن جعفر، ففي هذه الأرض جميعها آثار بنايات ومساجد وقبور مسلمين مشاهير ماتوا في هذه المدينة.

ويشاهد في اللوح التخطيطي في رمز ١١ من اللوح XLLX تكية أي رباط للدراويش وهي عمارة عتيقة شاهقة وفوق مدخلها كتابة أصابها كثير من البلى والتلف، ولم يمكن أحداً قراءتها ونصها في أسفل هذه الصفحة[(٣)] والذي بنى هذه التكية هو الملك قلج ارسلان بن

---

(١) اللثق ها هنا الماء والطين المختلطان كالوحل.

(٢) لم يكن أعلى غربي بغداد أيام نيبور وفي عصرنا جزءاً من بغداد العتيقة لأنها كانت قريبة من مقابر قريش أي الكاظمية.

(٣) هو "الملك العادل قليج أرصلان بن الملك مسعود بن العدل (كذا) قليج ارصلان من طائفة سلجوق وذلك في سنة أربع وثمانين وخمسمائة" "المؤلف".

قلت: هذا القول أعني نسبة بناء الرباط إلى الملك قليج ارصلان السلجوقي من أوهام المؤلف، والصحيح أن الرباط من إنشاء الخليفة العظيم الناصر لدين الله العباسي "٥٧٥ ـ ٦٢٢" أقامه باسم زوجه سلجوقي خاتون بنت الملك قليج ارسلان المذكور المشهورة بالأخلاطية المتوفاة سنة ٥٨٤ أي السنة التي أرخ بها البناء وقد فصلنا الكلام عليه في مجلة سومر "مج ١٠ ص ٢٣٤ سنة ١٩٥٤" ويعرف برباط الأخلاطية أو الخلاطية أو رباط الرملة، "المترجم".

الملك مسعود من غير شك وكان ذلك سنة ٥٨٤ = ١١٨٨ وفي أعالي هذه البناية كما تدور آيات من القرآن مكتوبة بخط كوفي كبير الحروف على الآجر وقد أصاب أكثرها تلف بمرور الزمن المبيد، تلف لا يورث العجب فليس من المعقول أن تبقى سالمة أشياء فخارية بعد ستمائة سنة، إلا أن رغبتي في وقف القارئ على حال هذه الكتابة والزخرفة والتزايين المتداخلة فيها حملتني على نقش أولها الذي هو أقل بلى من غيره[١] في اللوح XLIII قرب E، وهذه الحروف كثيرة الاتصال بالتي على اللوح X في كتابي "صفة بلاد العرب" وقد كنت نسختها باليمن، وبهذا نستدل على أن العرب بذلوا مجهودهم في تزيين خطهم في القرن الذي ازدهرت فيه العلوم بينهم، ولو استمروا على هذا الطراز من الخط لزاد تعب العلماء الأوروبيين العصريين زيادة فاحشة في قراءة الكتب والكتابات العربية. والكتابة المنقوشة على غطاء إناء من الفخار الذي عثر عليه بالقرب من طاق كسرى (وقد صورت في رحلة سمويل ايف Somuel Eves) هي من هذا النوع بالتحقيق، وقد ذكروا للسائح المذكور أن تلك الكتابة هي بالخط الفارسي القديم أي الخط الفرثي.

وبقرب الموضع المرموز إليه بالرقم ١٢ من اللوح التخطيطي[٢] ميل عتيق صغير دفنت تحته زبيدة زوج هارون الرشيد وهي امرأة مشهورة في تاريخ العرب وكانت وفاتها سنة ٢١٦هـ = ٨٣١م وفي ١١٣١هـ = ١٧١٨م دفن حسن باشا زوجه عائشة بنت مصطفى باشا إلى جانب زبيدة[٣] ووضع على قبرها رخامة كبيرة كتبت عليها الكتابة المذكورة في أسفل هذه الصفحة[٤]، وأصلح الباشا المذكور التربة ورمها وبنى عدة مساكن للفقراء

---

(١) ونصه بحروف العرب المستعملة الآن "بسم الله الرحمن الرحيم، والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين" "المؤلف".

(٢) الميل باصطلاح أهل بغداد القبة المخروطية الشكل وتكون في الغالب لترب الأئمة والأولياء. "المترجم".

(٣) نسبة هذه التربة القائمة إلى اليوم في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في غربي بغداد إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من ا لأوهام الشائعة بين العوام منذ عصور، ولعل ما كتبه حسن باشا على قبر زوجه عائشة كان من أسباب إشاعته وتثبيته بين الناس، والصحيح أن زبيدة دفنت بمقابر قريش أي الكاظمية الحالية، وقد ذكر عز الدين بن الأثير في تاريخه احتراق قبرها وقبر ابنها الأمين سنة ٤٤٣ بسبب فتنة مذهبية.

أما التربة القائمة المذكورة آنفاً فهي تربة السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله وزوج الخليفة المستضيء بامر الله، ذكر ذلك ابن الأثير وابن الدبيثي وسبط ابن الجوزي والصفدي ومؤلف الحوادث وغيرهم في تواريخهم، والظاهر أن اسم زمرد قريئ مصحافاً إلى زبيدة ففي كلا الاسمين زي ودال. "المترجم".

(٤) الكتابة هي "إلى روحها الفاتحة. هذا قبر المرحومة المغفورة (كذا) الموفقة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر بن منصور الدوانيقي وزوجة هارون الرشيد من خلفاء بني العباس، توفيت سنة مائتين وست عشر. إلى روحها الفاتحة. هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة الساعية إلى الأفعال المرضية، والأعمال اللاتي تستجلب المرضاة الإلهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا وصاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والرضوان، وزوجة الدستور المكرم والوزير الأفخم والي بغداد دار السلام أبو الخيرات (كذا) حسن باشا يسر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء، وتوفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومائة وألف". "المؤلف".

السائحين[١]، وبالقرب من هذه التربة في الموضع المرموز بالرقم ١٣ قبر رجل يسمى "بهلول دانه" وكان من ذوي القربى[٢] لهارون الرشيد ومسخرة له، وله كتاب برأسه مملوء من نوادره وحكاياته يتحدث بها العلماء الفقراء في القهوات بالليل، وقد سمي في الكتابة المكتوبة على قبره بعد وفاته بزمن طويل وذلك في سنة ٥٠١هـ "٢٤٦" بسلطان الفقراء الروحي وهي الكتابة المعلقة تحت هذه الصفحة[٣] وفي الأخبار المأثورة عنه ما يدل على أنه كان يصحو أحياناً ويتفصى من حالة الجذب. ولا أذكر من أخباره المأثورة إلا هذه الحكاية:

"تراهن في زمانه رجلان على أن يعبر أحدهما نهر دجلة سباحة ويدفع له الآخر مبلغاً من النقد، فاستطاع الرجل العبور سالماً، وكانت أمه قد أوقدت ناراً في الضفة الأخرى من النهر ليتدفأ بها في أثناء عبوره ثم يلبس ملابسه، فأحدث فعل الأم نزاعاً بينهما، وذلك أن المغلوب في الرهان ادعى على صاحبه الإخلال بشروط المراهنة لاستعانته بأمه في التدفؤ، فترافعا إلى القاضي فلم يحكم لذلك الذي عبر النهر باستحقاق المبلغ المعين بينهما، وبلغ ذلك "بهلول دانه" فغاظه وأمضه فوضع في رأس نخلة سامقة في بستان الخليفة برمة فيها لحم وأوقد تحتها ناراً، فلما رأى الخليفة ذلك ضحك منه، فقال له "بهلول دانه": إن كانت هذه النار لا تنضج هذا اللحم الذي في البرمة فكيف يستطيع عابر النهر وهو في النهر أن يتدفأ بالنار الموقدة على الضفة؟ فاستعلم الخليفة الأمر فأعلمه به بهلول دانه، فاستدعى الخصمين وأمر المراهن الملتزم أن يؤدي إلى مراهنه المبلغ الذي اتفقا عليه.

وبالقرب من قبر "بهلول دانه" نحو الرقم ١٤ من اللوح بنيان صغير متداع إلى الخراب في داخله قبر رجل اسمه "يوشع" يزوره اليهود دائماً، وفي هذه الناحية القاحلة غير المزروعة الآن مسجد صغير[٤] ذو منارة صغيرة، وفيه قبر زاهد مشهور جداً اسمه معروف الكرخي أبو طاهر.

---

(١) الظاهر لنا أن الباشا رم المساكن والبيوت فقد كان قرب تربة زمرد خاتون مدرستها المعروفة بمدرسة الأصحاب ورباطها المعروف برباط زمرد خاتون.

(٢) ليس له قرابة مع هارون الرشيد "المترجم".

(٣) هذا قبر سلطان المجذوبين والنفس المطمئنة (كذا) سنة خمسمائة وواحد).

(٤) هي منارة المسجد المعروف في خطط بغداد بمسجد الجنائز قال ابن الجوزي في وفاة أبي غالب محمد بن الحسن الماوردي المحدث الوراق المتوفى سنة ٥٢٥: "ودفن على باب مسجد الجنائز بقرب قبر معروف الكرخي على الطريق". "المنتظم ١٠: ٢٣". "المترجم.

إن المنارة بنيت سنة ٦١٢هـ = ١٢١٥م كما ورد في كتابة منقوشة عليها، والمسلمون يذكرون أن معروفاً الكرخي ولد من أبوين نصرانيين ولكنه لم يقل قط "باسم الآب والابن والروح القدس" وإنما كان يقول مكان ذلك "بسم الله الرحمن الرحيم وقيل إن والدته حبسته لذلك في سرداب مظلم أربعين يوماً، لم تعطه فيها شيئاً سوى الخبز والماء، ولما انصرمت الأربعون يوماً رأت حول ابنها نوراً عجيباً، ووجدت أيضاً كل الطعام الذي كانت تتركه له في أيام السجن، فظنت أمه أن ابنها قد مسه شيء من الجن، فطردته من الدار فقصد إلى الإمام موسى بن جعفر فأسلم على يديه وصار عالماً كبيراً ثم دعا أهله إلى الإسلام فأسلموا على ما وردت به الأخبار.

وبين تربة زبيدة وتربة الشيخ معروف الكرخي ميدان يجتمع فيه كبراء بغداد مرة في كل أسبوع، يترمون[١] وينتضلون[٢] للتمرن على الرمي وقد كان مرتضى باشا السلاحدار (أي حامل السيف) أقام هناك أسطوانتين صغيرتين عليهما كتابة بالتركية "٢٤٧" لتعيين مدى غلوة[٣] السهم، الذي رمى به هناك، وبالقرب من الأسطوانتين الصغيرتين قبتان عتيقتان بعض العتاقة، فإن صح أن الباشا المذكور كان قد رمى بسهم من إحدى الاسطوانتين إلى الأخرى، فقد كان خارق القوة لأن المسافة بينهما ستمائة خطوة مضاعفة أي زهاء ألفي قدم وسبعمائة قدم، ولما كان مرتضى باشا أحد بواشية[٤] بغداد كان قادراً على أن يزيد في تباعد الأسطوانتين.

لم أستطع أن أعلم عدة النيكجرية الذين ببغداد بالتحقيق، فمن الناس من يقول إنهم عشرة آلاف ومنهم من يقول إنهم عشرون ألفاً، ولعل العدة الأولى هي من مجندي السلطان، ومن عداهم من أهل البلاد من أغواء كبار وناس صغار حتى الحمال الصغير اكتتبوا أسماءهم في فرق الينكجرية اما لنيل "الميزات" الكبيرة التي لهذه الفرق، وأما للتفادي من أذاهم واستهزائهم، فبذلك يكونون في حمايتهم أن تعدى عليهم أحد، وفرق

---

(١) قال الجوهري في الصحاح: "يقال: خرج يترمى أي يرمي في الأغراض وأصول الشجر". "المترجم".

(٢) وقال الجوهري أيضاً في الصحاح: "انتضل القوم وتناضلوا: رموا للسبق". "المترجم".

(٣) هي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه وسيذكر المؤلف أن مرتضى باشا ولي ولايته بغداد من سنة ١٠٦١هـ إلى ١٠٦٥. "المترجم".

(٤) البواشية هو جمع التكسير الصحيح لباشا التركية وأما جمع الباشا على باشوات فهو غلط من وجهين أحدهما أن الألف ينبغي أن تقلب ياء بناء على القاعدة الصرفية في جمع الاسم المقصور، والآخر أن الباشوات جمع مؤنث وأهل الرتبة ذكور لا إناث. "المترجم".

الجيش على اختلافها سلطانيها وباشيها لها قلانس مختلفة تميزهم بأشكالها، وأما ملابسهم فالكل له أن يختار الزي الذي يفضله على غيره وفي الأصقاع والأقطار الأخرى لا يسمع الإنسان اسم اللاوند ولا اسم البراتلي، وإنما يسمى فرسان باشا باسم "دلي" ومشاته باسم "تفنكجي" و"وسكمن"، وإذا احتاج الباشا إلى جنود أكثر من ذكرنا ليحارب العرب أو الكرد فإنه يعاقد جماعة من الأمراء على أن يجند كل منهم طائفة من الرجال تحت علمه ويسمون هذه الفرق "سردن كجدي" ويكتبون فيها كل من يتطوع ويتجند، ويسوقونهم على الفور إلى محاربة العدو من غير تدريب كاف ولا تمرين واف، مع أنهم يجب عليهم استعمال السلاح الذي يسلحون به، إلا أنهم بعد شهرين، والحرب لا تدوم هناك طويلاً، يسرحون من الخدمة إن لم يستعفوا هم أنفسهم قبل ذلك.

وفي هذه الأيام جندوا عشرة بيارق، في كل بيرق أربعون رجلاً ليبعثوهم إلى البصرة لمحاربة قبيلة كعب، وعما قليل ستضطرم الحرب اضطراماً هائلاً، وأن خادمي اكتتب نفسه في المتطوعين "السردن كجدي" ليحافظ على النقود التي أعطيتها إياه "٢٦٧" نفقة لرجوعه، فاستخدمت مكانه مارونياً حلبياً.

وإذا كان كثيراً ما يستدعيه البيرقدار إلى حضرته سألته هل تمرن الجنود المتطوعون على الخدمة العسكرية؟ فقال لي: إن آمرهم باركهم بقراءة الفاتحة (كما يقال عندنا: أبونا) وكلمهم في عدة السفر وأهبته الضروريتين وأعطاهم النفقة اللازمة لذلك، وحثهم على أن يكونوا شجعاء مؤدبين مهذبين. ثم فارقوه.

وإذا احتاج الباشا إلى الجند يستطيع أن يحشد أيضاً ستة وثلاثين ألفاً من أصقاع البصرة والحسكة وماردين وكردستان، والأعراب الرحل في ايالته، ولكنه لا يستطيع أن يدخل منهم في الحرب أكثر من عشرة آلاف رجل، فالآخرون يضرون في الحرب أكثر مما ينفعون.

"انتهى كلام الرحالة على بغداد"[1].

❖ ❖ ❖

---

(١) مجلة سومر ٢٠ (١٩٦٤).

مشاهدات وليم بيري فوك أول سائح أمريكي يزور العراق سنة ١٨٧٤

✍ تعريب عبود الشالجي المحامي

السيد وليم بيري فوك أول سائح أميركي زار العراق، فقد غادر أميركا في أول سنة ١٨٧٤ قاصداً مصر ببعثة استكشافية اختارها الخديوي في مصر برئاسة الدكتور جيرارد رولفس للبحث عن الواحات في صحراء مصر الغربية، وجاء إلى مصر فوجد أن البعثة قد سبقته بأشهر، وعرض عليه السيد فينيس، وهو شاب انكليزي من "بيت لنج" تعارف معه على ظهر الباخرة التي أقلتهما إلى مصر، أن يسافر معه إلى بغداد، فسافرا معاً إلى بيت المقدس، ثم عادا فعبرا قناة السويس ونزلا في جدة ثم في عدن، فمسقط فبوشهر حتى وصلا البصرة، ثم بارحاها إلى بغداد وأقام هذا السائح الأميركي في بغداد ردحاً من الزمن قام خلاله بزيارة كربلاء وأطلال بابل والمسيب، ولقي من والي بغداد رديف باشا (خلف مدحت باشا) عناية تامة، وبعث معه بأحد مرافقيه، فزار المؤسسات العامة في بغداد، كما زار الكنائس، ولكي يطلع على الحياة الاعتيادية، كان يلبس الطربوش ويسير منفرداً في الشوارع والأسواق، وقد وصف جميع ما شاهده وصفاً دقيقاً تغلب عليه مسحة من الفكاهة واللطف، ويحدثنا هذا السائح أنه وجد في بغداد إنكليزياً يهوى التصوير الفتغرافي فاصطحبه إلى عدة مواضع في بغداد وصورها، فأضاف إلى وصفه الدقيق صوراً جميلة لجامع مرجان وسور بغداد وإيوان كسرى (بجناحيه، إذ أن جناحه الأيسر كان قائماً في ذلك الحين)، فجاء كتابه في وصف هذه المرحلة، من أنفس ما كتبه السائحون، وقد سماه "عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة" وتم طبعه في لندن منذ خمس وثمانين سنة (١٨٧٥م)(١) وقد عنينا بنقله إلى العربية، وها أننا ننشر فيما يأتي فصلين من فصول هذا الكتاب، هما الفصل التاسع عشر الذي وصف فيه باشا بغداد (رديف باشا) وتصرفه في أزمة الفيضان، وكيفية مواجهة الباشا في مقر عمله الرسمي، والفصل الخامس والعشرون الذي وصف فيه المؤسسات العامة التي زارها في بغداد.

---

(١) Fogg (Wm. Perry), Arabistan: or the Land of "The Arabian Nights", being Travels Through Egypt, Arabia, and Persia, to Bagdad. (London, 1875, p.350).

الفصل التاسع عشر: باشا بغداد

حاكم مطلق على منطقة واسعة - الفيضان يهدد - الباشا يستعد للطوارئ - تجمع كافة السكان - التوصية التي أحملها من كبير الوزراء - الطربوش في بغداد لا يلبسه إلا الأتراك - القصر - الحرس في كل مكان - المواجهة - وصف رديف باشا - أحاديث مجاملة - رفضت حرسا من الجنود - الرشوة والفساد بين الموظفين - حكايات لا تصدق - (الشرق الأقصى) مثل (الغرب الأقصى) - الخيانة هي الاستثناء وليست الأصل - الكنائس المسيحية في بغداد - المطران الأرمني - ينكي دنيا كلمة عربية - عائلة يهودية - غنى اليهود سبب حمايتهم - ملك (اود) السابق، أغنى رجل في بغداد.

إن بابا بغداد هو حاكم ولاية تبلغ ثلاثة أضعاف ولاية نيويورك، وتشتمل على سكان يبلغ عددهم المليونين، وهو حاكم مطلق مستبد، لا يخضع إلا لسيده سلطان تركيا، وله القيادة لجيش كبير مستقر في بغداد، وفي المدن الكبيرة الأخرى التابعة لما يسمى (بالباشوية) ويحده من الشرق إيران ومن الجنوب الخليج، وفي غير مرة وجد الرجال الطامعون الذين تبوأوا هذا المنصب أنهم بعيدون عن القسطنطينية، فاتهموا بالعمل على إعلان أنفسهم حكاماً مستقلين، كما وقع من قبل محمد علي، باشا مصر. والحاكم الحالي هو رديف باشا وقد أشغال هذا المنصب منذ سنة واحدة تقريباً، وهو قائد نجح أخيرا في المعارك التي خاضها الجيش التركي ضد قبائل اليمن الثائرة وأنه رجل يتمتع بمقدرة وحيوية لا جدال فيهما، ولما كان معروفاً بأنه من خصوم النفوذ الأجنبي، ومشاريع الأجانب في ولايته، لذلك لم يكن على ألفة مع المقيمين الأجانب ولا مع رجالهم الرسميين.

وعندما كنت هنا في بغداد، سنحت له الفرصة، لإظهار قوته، كحاكم مستبد، وقد عمل بأعصاب قوية ومقدرة تستدعي المديح، فقبل اسبوعين طغى نهر دجلة وظل ثائراً مدة شهرين، وبلغ فيضانه درجة لم يبلغها منذ عشر سنين، وأصبحت بغداد مهددة بالغرق، وانكسر سد من السداد يبعد عشرة أميال شمالي بغداد فتدفقت منه المياه، واكتسحت ما أمامها بقوة لا تقاوم، فأضرت بالحبوب المزروعة أعظم الضرر، وفي يوم واحد صيرت السهل الفسيح المحيط بالبلدة بحيرة هائلة واصبحت بغداد جزيرة، ليس فيها من أسباب المواصلات، سوى الزوارق، وقد حال دون دخول الماء إلى بغداد سد عريض محيط بسور البلد، وهو في كثير من المحلات مخرب يفتقر إلى الإصلاح، وقد سبب هذا الفيضان جزعاً عظيماً، مماثلاً للفيضان الذي وقع في سنة ١٨٣١ - سنة الطاعون - حيث دمر الفيضان سبعة آلاف بيت سقطت جميعها في يوم واحد.

وكانت هناك ضرورة لازمة، لعمل سريع، لذلك أصدر الباشا أمراً بإغلاق جميع الأسواق والدكاكين، وأوجب على كافة الذكور من السكان (باستثناء الأجانب) أن يعملوا أربعة أيام في إصلاح السداد، وأرسل نصفهم للعمل شمال النهر، وظل الباقون يعملون تحت إشراف الرجال الرسميين لإصلاح السداد المحيطة بالمدينة، وقد ركبت صبيحة يوم في هذا الاتجاه وكان المنظر بديعاً جداً، هناك عدة آلاف من الرجال، منهمكون في العمل، وكان الباشا نفسه في ذلك الموقع، محاطاً بحاشيته لابسي الملابس المزينة، يشرف على العمليات، وكانت هذه التدابير الحيوية سبباً في إنقاذ البلد، فإن الكسرة التي في شمال النهر سدت، وأخذ الماء في الانخفاض تدريجياً، ولكن من المؤكد أن كثيراً من الأمراض سوف تعقب هذا الفيضان، إلى أن تتبخر مياه البحيرة خارج البلدة تحت حرارة الشمس الكاوية.

وقبل أن أغادر القاهرة، بناء على اقتراح من السيد(بيردسلي) القنصل العام للحكومة الأميركية في القاهرة، الذي أخبرني بأنه ليس هناك أحد من الرجال الأميركيين الرسميين وزراء مفوضين أو قناصل في البلاد التي أزمعت أن أزورها، ولذلك استصحبت معي كتاباً للتعريف تفضل به علي السيد (جون. م. فرانسيس) السفير الأميركي السابق في اليونان، إلى الوزير المفوض للحكومة الأميركية في القسطنطينية وفيه رجاء بأن يكتب لي توصية إلى باشا بغداد لمعونتي فيما إذا احتجت إلى السفرات التي أرغب في القيام بها إلى بابل والأماكن الأخرى التي توجب الزيارة في بلاد ما بين النهرين، وعندما جئت إلى بغداد، وجدت في انتظاري ظرفاً عظيم الحجم مع مذكرة لطيفة جداً من السيد (بوكر) وفرماناً من الحكومة التركية، وكان الفرمان موجهاً إلى باشا بغداد. ومكتوباً بالتركية، على رقعة كبيرة من الورق الرسمي السميك، وترجمته إلى الإنكليزية كما يأتي:

"إلى رديف باشا، الحاكم العام في بغداد

"يا صاحب المعالي

"إن حامل هذه الرسالة، مواطن أميركي، ذو وجاهة، وهو يرغب في الوصول إلى بغداد لزيارة ما حولها، وقد رجتني المفوضية الأميركية أن أكتب لمقامكم السامي توصية بشأنه. إن أسفار الأجانب، يقتضي أن تحاط دائماً بالحماية، وبالرعاية الخاصة، وأرجوك أن تعامل السائح المذكور بجزيل الاحترام عند وصوله إلى بغداد وأن تقدم له كل التسهيلات الممكنة،

بالنسبة إلى الظروف، وأن تؤمن له كافة أسبب الراحة خلال مدة بقائه، وأن تبسط عليه حمايتك وضيافتك.

"وأنا يا سيدي... إلخ... إلخ.

ختم الصدر الأعظم

وزارة الخارجية

القسطنطينية في ١٩ شباط ١٢٨٩[١]

وبعد وصولي بأسبوع، وأنا مسلح بهذا المستمسك العظيم الحجم، ومحاط بقواسين اثنين عن المقيمية في ملابس مبرقشة، تأهبت، لزيارتي الرسمية للباشا.

ورفضت ركوب فرس عرضت علي، لأن الشوارع الضيقة والأسواق، يسير فيها الماشي براحة أكثر، وإن كان الركوب يزيد في وجاهته وسرت على قدمي، مواصلاً إلى السراي، أو القصر، يرافقني رفيقاي المسلحان، اللذان يسهلان لي المرور خلال الطرق المزدحمة بخشونة لم أر لها مناسبة أو ضرورة، ولكن هذين الرجلين الرسميين، ظلا يتبختران زهواً، من دون أن يبديا أي اهتمام بملاحظاتي وإشاراتي، ومن دون اهتمام بالناس الذين كانوا يتزاحمون عليهما بالمناكب في طريقهما، وكنت على سبيل المجاملة للرجل الرسمي الذي ذهبت لزيارته، لبست طربوشي التركي، وهو أحمر اللون، تتزل منه (بسكولة) سوداء، كما يرتديه السياح في مصر وسورية، وفي مصر يلبس الطربوش (الفيس) كل الضباط والجنود، من الخديديو إلى صبي الطبال. ومن المقرر كأصول للإتيكيت أن لا يخلع الطربوش على مائدة العشاء، أو في المرقص أو الأوبرا، حتى في حضور الرجال الرسميين ذوي الدرجة العالية، بل حتى في الجامع، وحتى السلطان شاهدته خارجاً من قصره على ضفاف البوسفور، متوجهاً إلى الجامع وكان لابساً الطربوش، وهو مماثل تماماً للطربوش الذي يلبسه أحقر رعاياه، وفي بغداد يعتبر الطربوش دليلاً على أن لابسه تركي، ونادراً ما يلبسه الأجانب اللهم إلا إذا كان الأجنبي مرتبطاً بالحكومة، بطريقة من الطرق، وعندما كنت ألبس الطربوش وأسير في شوارع بغداد، كنت في بعض الأحيان ألاحظ تجهماً في وجه أحد العرب إذا نظر إلي، خلافاً لما كان من أمري حين أرتدي البرنيطة الهندية المريحة، فيحسب من يراني أنني أنكليزي.

لم يكن بناء القصر فخماً، إلا أن موقعه على شاطئ النهر بديع، وتلاصقه الثكنات (القشلة) ودار الصناعة، وقد بينت قبل سنوات قليلة، بناها باشا سابق بناء واسعاً فخماً على الطراز الحديث في الهندسة المعمارية.

---

(١) ١٢٨٩ هو التاريخ الهجري.

ويقيم الباشا في السراي طول نهاره لتمشية الأعمال، أما مسكنه الخاص فهو قصر أنيق يبعد ميلين شمالاً على النهر، وهو محاط بالحدائق.

وبعد أن اجتزت الباب الخارجي للسراي ماراً بالحرس، والساحة الخارجية، وقد أبصرت فيها عدداً من الخيل وعليها سروجها وأعنتها بيد السياس، ومررت بحراس آخرين، دخلنا إلى ساحة واسعة ممتلئة بمجموعات من العساكر، ومحاطة ببناء مستطيل ذي طابقين، وله طارمات تواجه الساحة، ويشغل هذا البناء الضباط والكتاب، فبعثت بطاقتي مع التوصية بيد أحد القواسين وطلبت مقابلة صاحب المعالي، وعاد إلي القواس سريعاً، مصحوباً بضابط تركي شاب جميل الصورة هو أحد مرافقي الباشا، فأدخلني إلى حجرة وجدت فيها كثيراً من الضباط ينتظرون وكان باب الغرفة محروساً بعساكر يحملون البنادق وقد ثبتت عليها الحراب، ثم أدخلت إلى غرفة الباشا، وهي غرفة واسعة، مؤثثة أثاثاً نفيساً، مطلة على النهر، وقد رصت على جوانبها دواوين عريضة مغطاة بأغطية من الحرير، والستائر على الأبواب والنوافذ من القماش الغالي النفيس، وكان الباشا جالساً في أقصى الغرفة، قرب منضدة عريضة، عليها أدوات الكتابة وأكوام من الأوراق، وعندما تقدمت مجتازاً الغرفة الطويلة، نهض الباشا ليستقبلني، (الشكل - ٢) وصافحني وأشار إلي بلطف كي أجلس إلى جانبه، وهو رجل عظيم الجثة، طويل القامة عبل البدن، ويبلغ من العمر خمساً وأربعين سنة مستدير الوجه، قد خالط لحيته الشيب، وله عيون ذات نظرات حادة نافذة، وكان جميع ملبوسه أوروبياً ما عدا الطربوش ولم أرَ في ملبوسه ما يدل على رتبته إطلاقاً وملامح وجهه تدل على الحيوية وعلى الجدية التامة، أما أخلاقه فرقيقة ولطيفة، وكان هناك ضباط عديدون واقفون قريباً منا، ولكن أحداً لم يجلس سوى الباشا وأنا.

ولما كان الباشا لا يتكلم غير التركية والعربية. فإن المستر "ستانو" وهو شرقي في خدمة الحكومة، أنيطت به الترجمة، وكانت محاورتنا لا بد أن تجري ببطء ولكن الأسئلة والأجوبة كانت تترجم فوراً، وشعرت بارتياح كامل، فقد سألني الباشا عن الطريق الذي قطعته للوصول إلى العراق، وإلى متى أنا راغب في البقاء هنا، إلى آخر الأسئلة، وقد ظهرت عليه آثار السرور عندما أجبته بأني ارتحت في بغداد وسررت فيها أكثر من سروري في القاهرة والقسطنطينية ووجدت الفرصة سانحة، فأثنيت على مقدرته وحيويته في التدابير التي اتخذها ضد الفيضان، وبعد أن تناول كتاب التوصية الذي وصفني بأني سائح مع اسباغه علي كثيراً من صفات التقريظ، وجه إلي أسئلة كثيرة عن البلدان التي زرتها، وظهر لي أنه قد علم بوضوح أن أميركا وانكلترا بلدان منفصلان لا علاقة لأحدهما بالآخر. وقد تلطف فأمر بأن تقدم لي كافة التسهيلات لرؤية مدينة بغداد، وقال لي، بما أنك أنت الأميركي

الوحيد، الذي زار بغداد، فإني أرجو أن تخلف فيك انطباعاً جيداً، وعندما أشرت إلى خطتي في زيارة خرائب بابل، أمر أن يرافقني جماعة من الجنود مع رسائل إلى الحكام في جميع البلدان الواقعة على الطريق، وتقبلت مع الشكر جميع التسهيلات مع الرسائل، ولكني ذكرت أن جماعة الجنود لا ضرورة لهم، فإن البلاد تحت حكمه النافذ لا يلاقي السائح فيها إلا السلامة في كل مكان.

وفي الوقت نفسه، أحضر الخادم، القهوة، والشربت، على صينية من الفضة، مع (جبق) ذي جذع من الياسمين.

واستمرت زيارتي للباشا، ساعة كاملة، وعندما نهضت لأخرج، عاد فصافحني، وكرر عروضه في سبيل عمل أي شيء في مقدوره ليجعل زيارتي إلى بغداد سارة.

وقد خرجت وأنا أحمل في نفسي أطيب انطباع عن مجاملة باشا تركي وحسن أخلاقه، وفي اليوم الثاني، أحضر المستر ستانو مستنداً محرراً بالتركية يشابه في المظهر ذلك الذي أعطيته من قبل، موجهاً إلى الحكام والضباط الآخرين على طول الطريق إلى الحلة وإلى بابل، يأمرهم بأن يعنوا أشد العناية بالسائح الأميركي، أما كيف أن هذا الفرمان - الذي لا أزال أحتفظ به تذكاراً - قد خلص حياتي في موقف من أخطر المواقف، فهذا ما سأذكره بعد.

إن السائح في الشرق، يسمع أحياناً أخباراً مبالغاً فيها، عن ارتشاء الرجال الرسميين وتفسخهم بحيث يتناولون الرشوة من أكبر شخص فيهم إلى أصغرهم، فالبضائع الأجنبية تدخل دون دفع رسم كمركي، والمقاولات أو التعهدات مع الحكومة يقع فيها الاحتيال والخداع، إلى آخر ما هناك.

وسمعت عن أحد باشوات بغداد، إنه أعطى جنوده رواتبهم صابوناً وتتنا (تبغا) واحتسبه عليهم بأسعار عالية، بحيث اضطر هؤلاء المساكين إلى بيعه في السوق، بنصف ما احتسب عليهم، وهناك قصة سبق أن سمعتها، وهي أن حاكماً إيرانياً في بوشهر دفع إلى رجاله متأخر رواتبهم (آجراً) وهي نوع من (المال الصامت) غير قابل للتداول، ولكنها سهلة الاستخراج من مدينة نصف مبانيها خرائب.

إن حكام المقاطعات البعيدة، عن دار السلطة مع صعوبة المواصلات معرضين للإغراء من دون أن يخشوا جماعات المحققين، ومع ذلك أعتقد أن خراب الذمة هو الاستثناء وليس الأصل.

إن الموظفين المرتشين ليسوا مقصورين على الشرق، فإن الضدين قد اجتمعا في هذا الموضوع، فالشرق الأقصى، والغرب الأقصى، متشابهان، فالباشوات مثل أعضاء الكونغرس، في بعض الأحيان ينالون الغنى خلال مدة توظيفهم، والأتراك لا يجدون عاراً في

قبض أتعاب، وكذلك أعضاء الكونغرس، وليس من العدل أن نتهم جميع الرجال الرسميين في القارة الأخرى بهذه التهمة.

ومن يكثر الاحتراز من المحتالين، قد يهمل الرجل الشريف إذا لاقاه وكان مع حسن حظي أن واجهت كثيراً من الرجال الشرفاء من مختلف الجنسيات، في شتى بقاع العالم، فأصبحت أنظر إلى الطبيعة البشرية بمنظار لطيف، بعكس الحال فيما لو كان الذين شاهدتهم رجالاً محتالين أو أشراراً.

في صباح كل يوم أحد، تجري الخدمة الكنائسية الإنكليزية، يقوم بها الكولونيل هربرت في المقيمية ولا يتجاوز عدد المصلين العشرين، وهم جميع السكان البروتستانت في بغداد تقريباً، وقد زرت مختلف الكنائس المسيحية في بغداد بعد ظهر يوم من أيام الآحاد، وكان في صحبتي الدكتور كولوفيل الذي يقيم هنا منذ مدة طويلة، ويتكلم العربية والفارسية، كما يتكلم بها الوطنيون ولا تجد في الشرق أحداً من الغرباء ذا تأثير مثل الأطباء، فإن الطبيب يلاقي بالاحترام في خان التاجر الغنى وفي خباء البدوي الشيخ.

وقد دخلنا أول الأمر، إلى كنيسة اللاتين (الكاثوليك) ولها ملحق متصل بها، اتخذ مدرسة للأولاد ويدخل إليها من باب مثقل بالحديد مبنى في حائط، ثم تمر في ممر ضيق إلى ساحة حيث بناية الكنيسة والمدرسة، والقسيسون فرنسيون، ورعيتهم تتكون من عدد قليل من المقيمين في بغداد من البلدان الكاثوليكية في أوروبا، وقسم من هؤلاء قد تزوجوا بنساء بغداديات.

والكنيسة حسنة الترتيب نظيفة فيها البهرجة والتزويق الاعتيادي على المذبح، وهناك عدة تصاوير على الحيطان، ليس بينها ما يستحق الذكر إلا صورة تمثل العذراء والطفل وقد كان القسس عظيمي الفخر بها.

ثم ذهبنا، منها، إلى كنيسة الكلدان، وكنيسة الأرمن، وهما فرقتان مختلفتان، وكنيسة الأرمن الأرثوذكس، تشمل عدداً من أقدم العائلات المسيحية وأغناها.

والكنائس الأخرى لهذا العنصر القديم تعترف برئاسة (البابا) الروحية، ويدخل معهم تحت سلطته قسم كبير من السكان الكلدان والقبط[1]، وهذه الكنيسة واسعة أنيقة، وبجانبها مسكن المطران، حيث زرناه أنا والدكتور (سي) صديقه الخاص، فاستقبلنا باحترام عظيم، والمطران رجل جميل الصورة، ذو لحية طويلة سوداء، ووجه أبيض لامع رقيق، وأخلاقه حسنة جداً، وكان مرتدياً رداء أرجواني اللون من الحرير، وطاقية وحذاء من نفس اللون، وكان قد زار روما قبل خمس سنوات وقت انعقاد المجمع المسكوني، وهناك انخرط في سلك الكرادلة وهو

---

(١) ليس في العراق أقباط (المترجم).

رئيس كافة الكنائس العائدة لملته في البلاد العربية، وقد قدمت لنا السكاير والقهوة العربية اتباعاً للتقاليد السائدة وقام الطبيب بوظيفة المترجم، وكانت بيننا محاورة ذات أهمية، فقد قدمني الطبيب بصفتي أميركياً، فأبدى المطران رغبته الشديدة في زيارة أميركا، ولكن الذي يمنعه خوفه من عواصف الأطلنطيك وخلال المحاورة كنت ألاحظ أن كلمة (ينكي دنيا) تتكرر، وعلمت أن هذه الكلمة هي الكلمة العربية الخاصة التي تعني (الدنيا الجديدة).

وبعد ما تركنا المطران المسيحي، ذهبنا إلى دار شخص من أغنياء اليهود، وتعارفت مع كافة أفراد العائلة، من الجد إلى أصغر الأولاد، وصافحتهم واحداً واحداً، وقد كانوا على جانب من الرقة حسن الضيافة، وكانت السيدات جميلات الصورة، والشبان ذوي هندام وذوي أدب، وكانت إحدى السيدات قد عبثت بوجهها (علامة التمر) وهي ندبة تشبه التمرة في شكلها وسعتها، وهذه الندبة ناتجة من دمل[1] يتعرض كل شخص في هذه البلاد للإصابة بها خلال مدة حياته، ولا بد لكل أوروبي يبقى هنا مدة طويلة، أن يصاب بهذه المصيبة. وعندما تكون الإصابة في الوجه، فإن الندبة المتخلفة فيه من سوء حظ صاحبها.

يبلغ عدد السكان اليهود في بغداد، العشرين ألف نسمة ومنهم، - كما هم في كل مكان - الصرافون، والدلالون، والمستخدمون الموثوق بهم من قبل كافة الطبقات في تبادل النقود في البلد، وغناهم العظيم، الذي كان في السابق مبعث الإغراء على سرقتهم واضطهادهم، ولكنه الآن يدعو إلى احترامهم حتى من قبل الأتراك والمسلمين المتعصبين.

ملك أود

وآخر زيارة لنا كانت إلى ملك (اود) السابق، ويسمى هنا (النواب) وهو عظيم الغنى، وإلى جانب ثرائه الوفير، فإنه يقبض راتباً تقاعدياً مقداره ٦٠,٠٠٠ دولار في السنة من الحكومة البريطانية، واسمه (أكبر الدولة)[2] ويخاطب رسمياً بصاحب بلقب (صاحب السمو الملكي)، وقصره وأراضيه تقع على نهر دجلة وهي جميلة جداً، وهو - لحسن حظه - قد تنازل عن عظمته الملوكية وعن قصوره في (لكناو) إلى الإنكليز، قبل اشتعال ثورة السيبوي[3] وهو منذ ذلك الوقت يقيم هنا متمتعاً بحماية الرعوية البريطانية، وقد قدم لنا النواب القهوة، والشربت والناركيلة وهو يحسن الإنكليزية، وقد ساح في جميع أوروبا واستقبلته ملكة انكلترا استقبالاً لائقاً بمركزه السابق، وهو شيخ كبير، يبلغ الخامسة والستين من عمره، ولكنه لا يزال قوياً نشيطاً، وهو يملك الأخلاق الكريمة اللائقة بسيد مهذب.

(١) هي "حبة بغداد". ويسميها العراقيون "الأخت" (المترجم).
(٢) السيبوي، هم الهنود الذين يعملون في الجيش الإنكليزي (المترجم).
(٣) الصحيح (اقبال الدولة) (المترجم).

الفصل الخامس والعشرون: زيارة للمؤسسات العامة

خرجت من عند الباشا - مواجهة تبعث على السرور - اقتراح موجه إلى الجنرال غرانت - قطار وادي الفرات - دعوة لزيارة المؤسسات العامة - زورق الباشا - الترسانة ومحل الآلات - البواخر الجديدة - قصة سردها سائح - المستشفى العسكري - تركي كامل الصفات - القصر - خيول جميلة - مدرسة الصناعة - مدحت باشا - حاكم عاقل شريف - ليست قضية معنويات وإنما قمت بما هو خير منها - تحيات لأميركا - دائرة الطباعة - إنشاء جسر معلق - فرصة للمهندسين الأميركيين - القشلة - أمل مستقبل لبغداد الحديثة.

بعد بضعة أيام من رجوعي من بابل، طلبت مواجهة الباشا، لأقدم له الشكر على رعايته وعنايته، ولأستأذن منه بالسفر عائداً إلى أوروبا، فاستقبلني، كما استقبلني أولاً، بلطف زائد، ولما حدثته عن بعض ما صادفت في سفرتي للبحث في الآثار، بعد أن استبعدت منها أية إشارة إلى البيرة الإنكليزية والفرار في ضوء القمر، أعرب لي عن أمله، بأن أعود ثانية في العام المقبل لاستكمال بحوثي واكتشافاتي، وقال إن الحجر الصحي الآن قد اتسع وأحاط بالمدينة، على بعد ثلاثة أميال من السور، وقد أذيعت الأوامر بإطلاق النار على كل من يحاول عبور الخط، وهو يحسب أن ازدياد درجة الحرارة سوف يوقف انتشار الطاعون، على خلاف الكوليرا فإن ارتفاع درجة الحرارة يزيد في انتشارها.

وقال إنه يؤمل أن يبعث المستر كرانت موظفاً دبلوماسياً، أو ممثلاً قنصلياً عنه في بغداد ولكني ذكرته كيف أن عدداً من الأميركيين وصلوا إلى البلاد العربية في الحكومة التركية، كما أنه لا علاقات تجارية في الوقت الحاضر بين الولايات المتحدة وبين هذه البلاد العربية، ففتح خارطة وأشار فيها إلى خط سكة حديد وادي الفرات، التي ابتدأ العمل فيها، من ميناء الإسكندرونة على البحر المتوسط إلى حلب، ومنها إلى نقطة على الفرات تبعد ٨٠٠ ميل عن بغداد. وعند إكمال هذا الخط سوف يبلغ طوله ١٥٠ ميلاً تقريباً، وسيفتح طريقاً جديداً بالقطار وبالنهر من "ما بين النهرين" إلى خليج فارس، ومنه إلى الهند. وأشار الباشا من خلال نافذة مفتوحة في ديوانه إلى معمل صنع وإصلاح المكائن الحكومي الواقع على الجهة الثانية من دجلة مقابل ديوانه، حيث يجري الآن بناء مركبين حديديين للملاحة في أعالي الفرات، وسألني عما إذا كنت أرغب في زيارة هذا المحل، ودار الصناعة البحرية (الترسانة)، والمستشفى العسكري والقصر، وبقية المباني العامة فأجبت بأنني سأكون سعيداً جداً، وعندما ودعته خارجاً، صحبني إلى الباب، وهو تشريف خصني به، وأمر مرافقه الخاص وهو الضابط التركي الشاب الذي لاقيته من قبل، أن يصحبني في دورتي هذه بوسيلة النقل

الخاصة به، إن هذه العناية، لم أكن أتوقعها، وهي بلا شك ناتجة عن رسائل التوصية بي التي وصلت من القسطنطينية، فقد كانت تلك الرسائل باعثة على عظيم الابتهاد، لا من جهة اسباغها ثوب الاحترام علي، ولكن لأنها أتاحت لي الفرصة كي أرى كل شيء يهم الغريب أن يراه، ولأحصل على جميع المعلومات التي أبحث عنها فيما يتعلق بهذه البلاد، وبأهلها، وأوضاعهم.

وكان زورق الباشا الخاص، راسياً على شاطئ دجلة في مقدمة القصر، وكان بديع المنظر، مجهزاً بثمانية ملاحين يجذفون فيه، وكانت مقاعده ذات الوسائد مظللة من الشمس بخيمة حمراء قد نقش فيها "النجمة والهلال".

ورافقنا المستر "ستانو" بصفة مرتجم، وقد عبرنا النهر أولاً، لزيارة دار الصناعة البحرية (الترسانة)، ومحل صنع وإصلاح المكائن ومحل المسبك، فوجدنا هناك ستين رجلاً يعملون تحت رئاسة مهندس انكليزي، وجميع المكائن مجلوبة من أوروبا، ولكن العمال جميعهم وطنيون، ويبدو عليهم أنهم أذكياء ومهذبون، وقد أراني الملاحظ، قسماً من أعمالهم، فلم أجد على قلة خبرتي في ذلك فرقاً بينها وبين القطع المصنوعة في أوروبا، وقد فحصت بمزيد التدقيق المركبين الحديديين اللذين أشار إليهما الباشا، وقد صنعا في (كلايد) وأرسلا قطعاً، ويجري الآن ضم القطع إلى بعضهما والمركبان الآن جاهزان للحركة، ويبلغ طول الواحد منهما مائة وعشرة أقدام، وهما مسطحاً القعر، ومصفحان بصفائح الفولاذ، ومجهزان بمكائن قوية، والمتوقع أن لا يغطس منهما في الماء سوى قدم واحدة والمقصود استعمالها في أعالي الفرات، حيث يكون الماء في موسم الجفاف ضحلا سريع التيار.

ولكوني أميركياً، فالمفروض إني أعرف، ولو قليلاً عن الملاحة النهرية، وقد أظهر الإنكليزي والتركي استغرابهما ودهشتهما عندما قلت لهما بأننا نملك بواخر نهرية في أميركا، تستطيع السير في كل مكان مهما كان عمق الماء ضحلاً، وكنت متحفظاً في إيضاحي كي لا ينقل حديثي من بعدي على أنه "حكاية سائح".

ثم صعد بنا القارب مسافة قصيرة في النهر شمالاً، إلى حيث المستشفى العسكري[1]، وبنايته واسعة ولطيفة، وهناك تم التعارف بيني وبين الجراح المقيم، فدار بي في الردهات، حيث يلقى العناية مائة وثمانون مريضاً، كلهم جنود، وعلى درجات مختلفة من النقاهة، وقد لاحظت أن سقوف الغرف عالية، والتهوية فيها جيدة، والملابس

(١) صار يعرف فيما بعد بمستشفى الكرخ، وقد هدم مؤخراً (المترجم).

نظيفة، وكانت جميع الترتيبات فيه مماثلة لأي مستشفى أوروبي من نوعه، كما شاهدت الصيدلية والحمامات، ثم أخذت إلى مكتب الرئيس، قدمت لي القهوة والسكاير والشربت، وكان الطبيب الجراح يتقن الفرنسية جيداً، وقد دهشت كثيراً عندما أخبرني بأنه تركي، درس وتثقف في الأستانة.

وبعد أن استأذنت من الجراح المهذب المثقف، أخذني مرافقي إلى قصر الباشا[1]، وهو على الشاطئ الشرقي من أعلى النهر، خارج سور المدينة، فوجدت (فيللا) حديثة أنيقة محاطة بحديقة منسقة تنسيقاً أنيقاً على الطراز الأوروبي، وقد بنيت قبل أربع سنوات كي ينزل فيها شاه إيران بمناسبة زيارته بغداد، وهي الآن خالية من السكان، ولكنها قد هيئت لسكنى عائلة الباشا (حرمه) المتوقع قدومهم من القسطنطينية، وجدت الغرف مفروشة بترف عظيم، بلا ملاحظة لتكاليف الصرف، فالثريات الفخمة من الكريستال والأثاث الفرنسية والتحف، والزوالي الإيرانية الناعمة، والستائر الحريرية، يخيل لمن يرى ذلك كله أن هذا القصر معد لسكنى الخليفة هارون الرشيد، في أيام بغداد الزاهية، وفي الحديقة أبصرت أبدع خيمة شاهدتها في حياتي، فقد كانت من الحرير تتعاقب فيها خطوط زرقاء وقرمزية واحداً بعد الآخر، وقد ارتفع في قمتها علم الباشا، وشاهدت في الاصطبل عشرات من الخيل العربية الأصيلة، وقد أخرجت منها عدة أفراس لكي نتفحصها، وإني وإن لم أكن من هواة الخيل، ولكني أعتقد أن الباشا لو تفضل علي، وطلب مني أن أختار واحدة من هذه الحيوانات البديعة، اللينة العريكة، الذكية، الرشيقة في كل حركة من حركاتها، فإني سوف أكون شديد الامتنان من هذه الهدية، مقدراً لها حق قدرها.

وقد كان من حسن حظي، إن حرم الباشا، لم يصلن إلى بغداد بعد، إذ لو كن هناك لكان الدخول إلى البناية وإلى الحديقة محرماً على كل أحد من الرجال.

وعندما خرجنا من باب القصر، وقف الحرس لنا بالتحية رافعين أسلحتهم، وعدنا إلى القارب حيث ذهبنا إلى مؤسسة كانت أكثر أهمية بالنسبة إلي من جميع الأماكن التي زرتها، وهي "مدرسة الصناعة"[2] للأولاد الأيتام، وكان المدير بوجهه البشوش ولحيته البيضاء، يظهر أنه أصلح شخص لهذه الوظيفة وقد استقبلنا بترحيب مفرط ودار بنا في داخل المدرسة، حيث وجدنا ٨٠ غلاماً من العاشرة إلى الخامسة عشرة، يرتدون ملابس

---

(١) هو الآن دار التمريض في المستشفى الجمهوري. (المترجم).

(٢) هي الآن دار المحكمة العسكرية العليا الخاصة. (المترجم).

رمادية أنيقة، وكانت تبدو عليهم علائم الذكاء والنباهة بحيث يفتخر بهم وطنهم، وكان قسم منهم يعملون على مناسج يدوية فيخرجون نسيجاً من الحرير والقطن، وآخرون يخيطون ثياباً، بينما كان أثنى عشر منهم ينضدون الحروف في بناية مجاورة، وقد أروني قسماً من مصنوعاتهم، وقد كانت بالطبع مصنوعات حسنة جداً باعتبار أن صناعها لا يزالون صغاراً.

وفي أحد الصفوف، كان التلاميذ يأخذون درساً في مبادئ الهندسة من معلم كان من قبل تلميذاً في نفس المدرسة وكان المعلم يستخدم السبورة في رسم الأشكال، وشاهدنا غرفة الطعام وأماكن النوم، والمستشفى، حيث شاهدنا فيه الأردية النظيفة البيض، ولكننا لم نشاهد فيه نزيلا. وكانت زيارتنا غير متوقعة، وقد أبصرنا كل شيء وهو يسير في مجراه الاعتيادي، وقد سألت المدير، كيف يستطيع أن يجعل النظام مسيطراً في المدرسة؟ أجاب أنه من النادر أن يضطر إلى إيقاع عقوبة الضرب بأحد من التلاميذ، ولكن "الأولاد لا بد أن يكونوا أولاداً" في كل مكان في العالم، وأخذني إلى غرفة، حيث أبصرت صبياً صغيراً واسع العينين قد عوقب لمخالفته النظام بأن أوقف على برميل في وسط الغرفة.

إن هذه المؤسسة الخيرية، وكذلك المستشفى الذي زرته من قبل، تم تأسيسها من قبل مدحت باشا، سلف الحاكم الحالي، وبغداد مدينة لذلك الحاكم الذكي المثقف، بجميع المؤسسات النافعة والمشاريع العامة التي يمكن أن تفتخر بها، فقد أنشأ خط الترامواي إلى الكاظمية، على طول ستة أميال بمحاذاة النهر، وأسس خاناً عظيماً للزوار، وشجع الملاحة النهرية في دجلة والفرات وبنى الثكنات العسكرية، وهي أبدع مباني هذه المدينة، وكان محبوباً جداً سواء من الوطنيين أم من الأجانب المقيمين في العراق، ولكن الحكومة التركية استاءت من صرفه الأموال بدلاً من أن يبعث بها إلى الأستانة، وربما أصابها الفزع من ازدياد محبته في قلوب الأهالي، فصدر الأمر بعزله وأبعد مشيعاً بأحزان رعاياه لعزله وتمنياتهم الطيبة له، وقد كان فقيراً، حتى أنه اقترض أجور سفره عند مغادرته بغداد، وهذه الحقيقة الأخيرة دليل قاطع على عفته واستقامته، لا يحتاج معها إلى أي دليل آخر، لأن المتوقع من كل (باشا) أن يعود غنياً، وقد وجدت صور لمدحت باشا معلقة على الحائط في غرفة مدير المدرسة، حيث جلسنا وتناولت القهوة وما إليها من توابع الضيافة، فالتفت إليها أرمقها بكل احترام وتبجيل.

وقبل أن نغادر المدرسة، اجتمع الطلاب في غرفة واسعة، وقدمني المدير إليهم، بأنني أول أميركي يزور هذه المؤسسة، وتمنيت لو أنني كنت أستطيع الكلام بالعربية أو بالتركية

لأتحدث إلى هؤلاء الصبيان عن بلادي، ولما كنت في شك فيما إذا كان أساتذة المدرسة يحملون فكرة واضحة عن أميركا فلا بد أن هؤلاء الصبيان الواقفين أمامي يحملون فكرة أقل وضوحاً مما يعلمه مدرسوهم عن بلادنا، وعن مؤسساتها، وعن تاريخها، بل لعلهم كانوا لا يعرفون عنها، إلا بمقدار ما يعرف طالب أميركي عن قبائل الهوتنتوت، ولم أكن لأهتم بأن ألقي فيهم خطاباً، أو أعطيهم درساً في الجغرافية لولا أن هناك حوادث لا تقع في حياة الإنسان إلا مرة واحدة، بأن يلاقي صبياناً أذكياء لامعين مثل هؤلاء ولكن لم يسمع واحد منهم عن واشنطن، وعن بلطته الصغيرة، أو عن فرنكلين وهو يمضغ رغيفه سائراً في شوارع فيلادلفية، يا لها من فرصة طيبة ضاعت، ولكن خطر ببالي أن هدية من الذهب (ليرة) كجائزة للمتفوق من الأولاد في الامتحان المقبل، ربما كانت مقبولة، بل ربما كان مفعولها خيراً من "قصص أخلاقية".

ولم يكن تظاهراً أو تصنعاً من المدير عندما قال إنه أخذته الدهشة لما صنعت، وقبل الهدية بالنيابة عن الصبيان، مع مزيد الشكر والثناء، ورفع يده بالليرة، وأوضح الأمر للصبيان، وكان المنظر الذي أعقب ذلك، لا يمكن أن أنساه، فقد نهض الصبيان جميعاً واقفين، وهتفوا بحياة أميركا ثلاثاً، هتافاً رن صداه في أرجاء البناية (الشكل - ٤) وقد سررت بهذا الهتاف أكثر مما لو كان صادراً من الجنود الأتراك وإذا كان لهذه القصة الصغيرة فائدة أو نفع، فإني أرفعها بكل احترام للذوات الذين يقومون بزيارة مؤسسات مماثلة لهذه في داخل بلادنا.

ويجوار مدرسة الصناعة تقع إدارة مطبعة الحكومة، وقد زرناها بعد زيارتنا المدرسة، ولم يكن يدور في خلدي، إن مؤسسة مثل هذه، توجد في بغداد، فقد وجدت هنا مطبعة ميكانيكية تعمل بالبخار، وفي وسعها طبع ٢٥٠٠ ورقة في الساعة، وهناك مطابع عديدة، وماكنة للقص ولصنع الظروف، وكان تنضيد الحروف والأعمال البسيطة يقوم بها صبيان من طلاب مدرسة الصناعة، وكل شيء هنا نظيف موضوع في محله، ويظهر أنها تدار إدارة دقيقة تامة، وشاهدت أنهم قد أنجزوا طبع جريدة أسبوعية، طبع وجه منها بالتركية، والوجه الآخر بالعربية[1]، وبجانب طبع هذه الجريدة الرسمية، التي يظهر أن وجهة نظرها السياسية ليست جمهورية ولا ديمقراطية، فإن هذه المطبعة تطبع كل ما تحتاجه حكومة الباشا من أوراق ومطبوعات.

---

(١) هذه هي جريدة "الزوراء" التي كانت تصدر في بغداد. ومنها أعداد ومجلدات متفرقة في بعض الخزائن العامة والخاصة، ولا يقوم منها مجموعة كاملة (المترجم).

وعندما كنا نعبر النهر أشار إلي المستر "ستانو" أن من جملة مشاريع الباشا الحالي في بغداد، بناء جسر معلق عبر دجلة، إذ أنهم مضطرون في كل سنة إلى أن يقطعوا الجسور العائمة على دجلة مدة شهرين أو ثلاثة، خشية أن يأخذها تيار الماء السريع، وقد أدهشته عندما أخبرته بأن أكثر الأماكن جسوراً هي أميركا، وأن فيها أطول جسر معلق في العالم، فرجاني ملحاً إني عند رجوعي إلى أميركا أجعل حكومة الباشا على اتصال بالمخابرة مع إحدى الشركات الهندسية المعروفة وهو شعور طيب تجاه بلادنا، ولا شك في أن صنع ذلك من قبلهم فيه كشف عن مقدرة أميركا وعلمها.

وبعد ذلك زرنا الثكنات[١]، وهي بناء ضخم جميل، يلاصق السراي، يستوعب عدة آلاف من الجنود وكان المخبز[٢] الذي يجهزهم واسع المساحة ومجهز بالآلات، وكان منظره بآلاته جديداً بالنسبة إلي، والخبز في هذه البلاد يعتبر القوت اليومي الضروري لجميع الطبقات، أكثر من البلاد الغربية.

وعند انتهائنا من دورتنا التفتيشية، ودعت مرافقي المهذب، ولدي خير انطباع عن الحضارة في بغداد، مما لم يكن يدور في خلدي، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إنه لا أمل في مستقبل زاهر لأناس عندهم مستشفى، وملجأ أيتام، ودار طباعة، وهم يديرونها إدارة كاملة وبكل انتظام. ومن ذا الذي كان يتوقع هذه لثقافة وهذه المدنية في مدينة ارتبطت في أذهان الأوروبيين والأميركان مع العظمة البربرية التي كانت للخلفاء في عصر "ألف ليلة وليلة".

❖ ❖ ❖

بغــــداد إن قلوبنـــــا ونفوســـــنا ... رهــن لــديك فــلا تخــافي واســلمي
مهمــا اســتطال عليــك جــد عــاثر ... فــالله جــارك مــن عثــار مــؤلم
فثقـــي بـــأن الله بـــالغ امـــره ... والله خــير حافظـــاً مـــن معـــزم

❖ ❖ ❖

---

(١) القشلة وتشمل الآن على ديوان وزارة المالية والمديريات التابعة لها (المترجم).

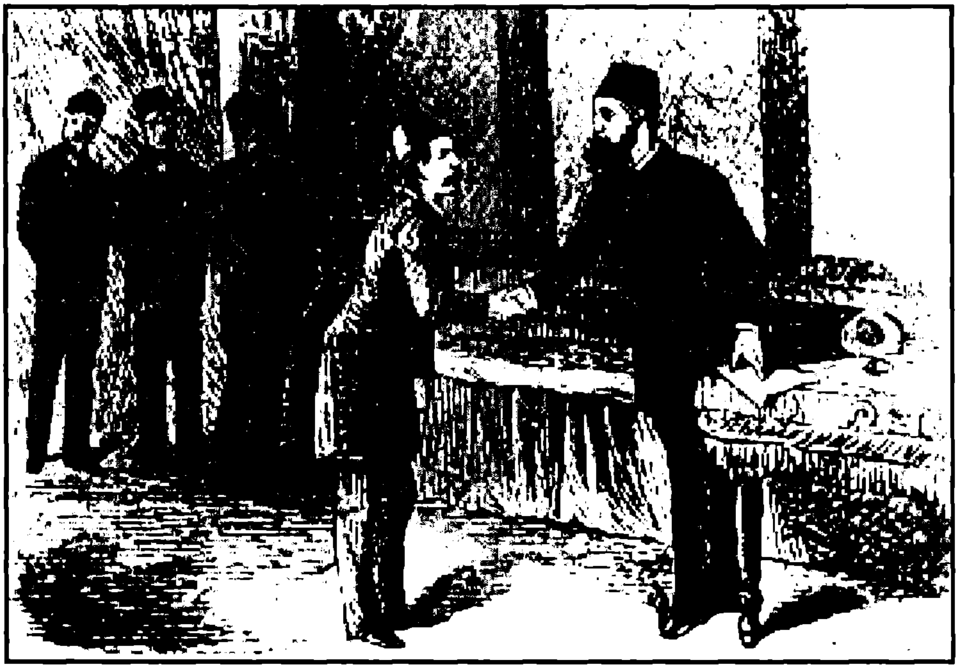
(٢) موضع المخبز العسكري الحالي المعروف بـ"الأكمكخانة" في شارع المتنبي (المترجم).



وليم بيري فوك (بالطربوش التركي).



معاقبة أحد الأطفال من الطلاب بإيقافه فوق برميل.



باشا بغداد يستقبل وليم بيري فوك.



الهتاف ثلاثاً بحياة أمريكا أمام وليم بيري فوك.

عبد الرحمن حلمي ومخطوطته في تاريخ بغداد في القرن التاسع عشر

✍ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

المؤلف:

وضع هذا الكتاب، في منتصف القرن التاسع عشر، مؤرخ بغدادي ينتمي إلى الأسرة العباسية السهروردية المشهورة في الدور وبغداد بكثرة من خرجته من العلماء والمؤلفين، وهو الشيخ أبي الخير عبد الرحمن حلمي بن الشيخ محمد عبد المحسن ابن الشيخ محمد صالح بن محيي الدين بن مصطفى بن عبدالقادر بن محمد بن كمال الدين بن أحمد سيف الدين العباسي نسباً والسهروردي طريقة وشهرة.

وليس من العسير أن ندرك ما لبيئة المؤلف وثقافة أسرته من أثر على اهتماماته العلمية، واتجاهاته في مجال الكتابة والتأليف، فأبوه محمد عبد المحسن كان مدرساً وقاضياً ومؤلفاً لعدد من الكتب أحدها في تاريخ بغداد، سماه "تاريخ حوادث بغداد الجديدة"[(١)] وجده محمد صالح، كان ـ هو أيضاً ـ مدرساً وقاضياً، له كتاب في الموضوع نفسه، بل أن جده الأعلى، الشيخ أحمد سيف الدين كانت له "مع الولاة مواقف مشهورة ومناظرات معلومة كان يقيد عليهم الأوابد، ويجمع لهم من أعمالهم الشوارد، وقد استقصى عنهم ذلك"[(٢)] فيكون هو قد ورث اهتمامه بتاريخ بغداد عن آبائه وأجداده، إذ كان تسجيل حوادث هذه المدينة قد غدا تقليداً سرياً محضاً يكمل فيه كل واحد ما انتهى عنده سلفه، وربما استفاد مما كتبه آباؤه في كتابه هو، فتتداخل الكتب لتؤلف شريطاً تاريخياً واحداً، متسق الأحداث، متعاقب العهود. وإذا كانت مؤلفات أجداده الأسرة قد فقدت، فإن في مؤلفات عبد الرحمن حلمي وأبيه محمد عبد المحسن: ما يؤكد صحة هذا الاستدلال إلى حد بعيد.

ومعلوماتنا عن سيرة مؤرخنا العباسي محدودة، استقينا أغلبها من خلال ما كتبه هو ما تاريخه، وإن لم نهمل ما أورده حفيده من شذرات قليلة عن حياته، في كتابه الذي عنونه "أعمال الأجداد في محلات ومعاهد وآثار.. بغداد"[(٣)] وحدد فيها تاريخ وفاته.

---

(١) المخطوط ص ٦٤ وله ترجمة في آخر كتابه "نجاة الناس بكلمة الإخلاص" كتبها حفيده محمد صالح بن سليم (بغداد ١٣٤٥هـ).

(٢) المخطوط ص ٨٢.

(٣) نسخة بخط مؤلفها، لدى كاتب البحث، ج٢ ص ٥٠٨.

وخلاصة ما توصلنا إليه، في هذا الصدد، أنه ولد سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وأنه الثالث في تسلسل الولادات في أسرته، التي تتألف من ستة من الذكور، وابنتين اثنتين[١] وقد عاش في بيت أسرته في محلة فراشة إحدى محلات بغداد الشرقية القديمة"[٢]، ونال تعليماً جيداً بحسب مستوى عصره، إذ تتلمذ على أيدي علماء بارزين في مدينته، ذكر منهم الشيخ محمد أمين بن علي السويدي (المتوفى سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م) وهو من المهتمين بالتاريخ والأنساب، وقد ألف فيهما، وأشار هو إلى أنه أجازه "بكل العلوم"[٣]. ومنهم أيضاً الشيخ يحيى المزوري العمادي (المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) ونال منه الإجازة "بجميع العلوم العقلية والنقلية" وذلك سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م[٤]، ونظراً لعلاقات أسرته الوثيقة بالعديد من علماء عصره، فمن المؤكد أنه نال إجازات عديدة منهم، ولكنه لم يصرح بأسمائهم جميعاً.

وتزوج من فتاة تدعى (خديجة) فأنجب منها ولداً سماه محمد أمين سيكون هو أيضاً مؤرخاً[٥]، وبنتين، هما فاطمة وآمنة، وشاء القدر أن تتعرض أسرته إلى نكبة داهمة، فقد توفى معظم أخوته بالطاعون الذي أصاب العراق سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، ولم يسلم منه غير أخاه عبد القادر، ثم فشا المرض في زوجته، وابنته آمنه، فتوفيتا، مما اضطره - بإلحاح من والده - إلى مغادرة بغداد، التي أصابها الغرق أيضاً، قاصداً بلدة (الدور)[٦] موطن أسرته الأول، ليقيم فيها برهة من الزمن ريثما تتجلى الغمة عن بغداد، وبعد مدة عاد إليها، وأقام في محلة باب الآغا، وتزوج للمرة الثانية من ابنة أحد الضباط الكبار في الجيش[٧]، وأنجب ولدين هما عبد المحسن ومحمد سليم، وقد عرف كل منهما بالعلم والتأليف. وتوليا المناصب،

---

(١) هم محمد أسعد (ولد ١٢١٠هـ /١٧٩٥م) وعبد القادر (ولد ١٢١١هـ/١٧٩٦م) ومحمد صالح (ولد؟) وعبد الغني (ولد ١٢٢٥هـ /١٨١٠م) وعبد العزيز (ولد ١٢٢٧هـ/١٨١٢م) وحبيبة (ولدت ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) وعائشة (ولدت ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م).

(٢) محلة قديمة، وردت الإشارة إليها أول مرة في حوادث سنة ٧٠٠ هـ وكانت تقرب من محلة قنبر علي. ويعد عقد سوق الشورجة من عقودها.

(٣) المخطوط الورقة ٤٧.

(٤) المخطوط الورقة ٤٦.

(٥) ولد سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م وتولى مناصب علمية وشرعية مهمة، وأصبح عضواً في محكمة استئناف بغداد، وله كتاب (تاريخ بغداد) ذيل به تاريخ جده الشيخ محمد صالح العباسي. وتوفي سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، والغريب أن محمد صالح السهروردي، نقل عن جده محمد عبد المحسن، وهو والد عبد الرحمن حلمي، أن (محمد أمين) هذا توفى في الطاعون أيضاً (آثار الأجداد الورقة ٧٦٠).

(٦) عرفت هذه المحلة بباب الآغا نسبة إلى من نزلها وهو محمد آغا وأحمد آغا الشابندريين وحيث أن أحمد المذكور توظف في الكمرك أعطى هذا اللقب (محمد صالح السهروردي: لب الألباب ٢/ ٣٧٠).

(٧) ويدعى (جبه خانه جي باشي عبود آغا) ويظهر أنه كان مسؤولاً عن مخازن العناد في قلعة بغداد.

الدينية، وكانت لأولهما "مجاميع فيما وقع في بغداد من النوادر التاريخية، وفي تاريخ العوائل المشهورة، مع عزوهم إلى أصلهم وسبب مجيئهم بغداد"[١] وهو من الكتب التي لم تصلنا، وإن كان مما يلفت النظر تشابه موضوعه مع موضوع كتاب أبيه الذي نحن بصدد دراسته الآن.

ومعلوماتنا عن الوظائف التي تولاها عبد الرحمن، قبل وفاة أبيه سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م غير كافية، ولكننا نعلم أنه تولى ـ بعدها ـ الإشراف على أوقاف جامع الشيخ عمر السهروردي، الذي تتولى الأسرة رعايته منذ قرون، كما تولى وظائف الإمامة والخطابة والتدريس فيه. وشغل، من الوظائف الحكومية، منصب مدير الأعشار في ولاية نامق باشا الأولى (١٢٦٧ ـ ١٢٦٨هـ/١٨٥٠ ـ ١٨٥١م) وصار عضواً في مجلس إدارة ولاية بغداد، هذا بينما شغل أخوه عبد القادر سائر وظائف أبيه الأخرى، وأثرت عنه أعمال مهمة في نطاق تعمير جامع الشيخ عمر السهروردي وتطوير مرافقه[٢].

وتولى، في الوقت نفسه، الإشراف على أوقاف أخرى، منها وقف السيدة خديجة زوجة محمد الرواف للبساتين التي في جهة الباب الشرقي على أعمال البر والخير[٣].

وترجم له السيد عبد الحميد عبادة في كتابه "العقد اللامع في آثار بغداد والمساجد والجوامع" فقال "كان متواضعاً ورعاً مشغولاً بالطاعة الربانية، وبتدريس العلوم بتلك المدرسة (يريد مدرسة الشيخ عمر السهروردي) وكانت تهرع إليه الطلبة من كل فج وجانب.. وكان معتمداً لدى الولاة والوزراء"[٤].

ومن ناحية أخرى كان عبد الرحمن حلمي شخصية اجتماعية تربطها بأبناء مدينته وأسرهم روابط وصلات عميقة، وقد أشار هو، في ترجمته لعدد من معاصريه، إلى ما يربط بهم من صلات، فقال مثلاً عن السيد حسين رفه إنه "أجل أصدقائنا"[٥]، ووصف خليل أفندي بأنه "من أحبابنا المقربين لدينا، وهو من سكنة محلتنا ولنا معه صداقة تامة، لا ينفك عن

---

(١) لب الألباب ٢/٢٧٢.

(٢) ذكر الشيخ محمد صالح السهروردي منها:

١ ـ بناء الطارمة القبلية.

٢ ـ الطاق المطل على ال صحراء، وقد أرخ الشاعر عبد الباقي العمري هذا التعبير، في قصيدة له، مثبته على الرخام في جدار المدرسة الملحقة بالجامع، ومنها بيت التاريخ:

فارفع الكف داعياً يا مؤرخ   شاد عبد الرحمن قصراً منيفا

١٢٨٧هـ (١٨٧٠م).

(٣) المخطوط ٨ وقد تحولت هذه البساتين إلى محلة كبيرة في الثلاثينات عرفت بمحلة الرواف.

(٤) المخطوط العقد اللامع، مخطوط، الورقة ٣٢.

(٥) المخطوط ٤.

مجالستنا"[١]، وأشار إلى الحاج رسول أفندي بقوله "هو من أكثر جماعة الدولة حباً إلينا وأكثرهم زيارة وتردداً على مجلسنا"[٢]، ووصف السيد أحمد الدركزلي بأنه "من أحبابنا وملازمينا مع جماعة أخرى كالأخ عبد القادر باشا وأنيس أفندي وحسيب باشا[٣] والي بغداد ونحن مع الجميع في حبور"[٤]، وغير ذلك من العبارات التي يفهم منها طبيعة علاقاته الاجتماعية والثقافية بمعاصريه، وهي علاقات مكنته، إلى جانب عوامل أخرى، من ممارسة نفوذ غير عادي في الحياة العامة لمدينته، ولا أدل على ذلك من أنه توسط لمحمد سعيد أفندي نقيب الأشراف ببغداد لدى واليها رشيد باشا (١٢٦٨ . ١٢٧٣هـ/ ١٨٥١ . ١٨٥٦م) أيام كان الأخير في الأستانة، وذلك "في قضاء مصالحه . أي مصالح محمد سعيد . بخصوص بعض أوقاف الحضرة" فما كان منه إلا أن استجاب[٥]. ووصف مجلسه في الحديقة التي أنشأها في جامع عمر السهروردي، بأنها "كانت مجلس الوزراء والأصفياء من العلماء"[٦]، وقال عبد الحميد عباده "وكان معتمداً لدى الولاة والوزراء"[٧].

وكانت وفاته . رحمه الله . في ٢٢ رمضان سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، ودفن في رواق جامع السهروردي، عن يمين جداره القبلي[٨] وأرخ وفاته الشاعر أحمد عزت العمري، بقوله:

إن عبد الرحمن ذات شريف	**وقد تحلى بخدمة المعبود**
صرف العمر في صلاة وصوم	**وقضى نحبه عقيب السجود**
فرحت بقدومه الحور حتى	**قابلت روحه بند وعود**
ولسان الحال قد قال أرخ	**(جاء عبد الرحمن دار الخلود)**

الكتاب:

ليست ثمة معلومات عن مؤلفات عبد الرحمن حلمي وآثاره العلمية وقد أشار عباده إلى أن "له مؤلفات ذهبت بالغرق" والكتاب الوحيد الذي وصلنا، هو هذا الذي نحن بصدده الآن[٩]،

---

(١) المخطوط ٥١.

(٢) المخطوط ٨٦.

(٣) لم نعرف والياً ببغداد بهذا الاسم.

(٤) المخطوط ٨٦.

(٥) المخطوط ٨٥.

(٦) أعمال الأجداد ٥٠٨.

(٧) العقد اللامع ٣٣.

(٨) كان على قبره قفص من الخشب، ثم أزيل، وسوى بالأرض، وطبق مع سائر القبور التي في ساحة الجامع.

(٩) تقع هذه النسخة في ٨٩ صفحة، في كل منها نحو ١٦ سطر، وكان السيد مصطفى صفاء الدين بن محمد صالح بن محمد سليم (والأخير هو أخو المؤلف) قد أهدانيها صيف سنة ١٩٨٣ فله مني كل شكر وثناء.

وليس للكتاب عنوان، وربما كان له، لكنه ضاع بسقوط الورقة الأولى منه، فإننا وجدناه يبتدئ بخطبه المؤلف رأساً، ولولا أن المؤلف ذكر اسمه في خطبته لما توصلنا إليه هو أيضاً.

ويتضح مما ذكره أنه لم يؤلف كتابه هذا استجابة لطلب أحد - كما هو التقليد السائد غالباً في عصره - وإنما ألفه لدواعي ثقافية خاصة به، وهي رغبته في أن يدون ما رآه في عصره من العلماء والفضلاء. فقال "فقد ظهر في هذا البلد كثير من أهل العلم والفضل وبرز فيه رجال لهم أخبار من محاسن الأخبار وكياسة واستبصار وودت أن أذكر في هذه العجالة من رايته منهم في عصري وقد شاهدته وكنت منه على اتصال في مصري"[1].

وهكذا فإنه شرط في كتابه أن لا يذكر فيه إلا من يعرفهم من معاصريه بصفة شخصية، وربما كان هو السبب وراء إغفاله الكلام على أسر بغدادية، وردت أسماء بعض رجالها في كتابه عرضاً، وللسبب نفسه، فإنه لم يشر إلى أية مصادر استقى منها مادته العلمية، باستثناء كتاب أبيه الشيخ محمد عبد المحسن الذي أرخ فيه ما وقع في بغداد في أعقاب انتهاء حكم وإليها داود باشا، وفي حكم خلفه علي رضا باشا اللاظ، فقال واصفاً منهجه في التأليف "وأذكر لأدنى مناسبة ما حرره يراع ساكن الجنان والمتفيء بظل عرش الرحمن.. سيدي المعظم ووالدي المفخم.."[2] وفي الواقع فإنه اقتبس فقرات، بل صفحات بكاملها، من كلام أبيه، استفاد منها في إيراد التفاصيل الخاصة بما أصاب بعض الأسر البغدادية في عهد علي رضا باشا اللاظ، وبخاصة تلك التي كانت محسوبة على سابقه، داود باشا، من اضطهاد وتنكيل، ويظهر أنه أورد تلك المعلومات، بهدف العظة والعبرة، إذ قال إنه ذكرها "ليطلع العاقل على ما مر على هذا البلد من مخاطر وغمة من سوء مناظر فيزيده عقلاً واعتباراً"[3] هذا مع أن منهج أبيه وغايته من تأليفه يختلفان تماماً عما ألزم به نفسه، فما كتبه محمد عبد المحسن كان في أصله رسائل مفصلة أرسلها إلى داود باشا بعد أن عُزل عن ولاية بغداد، وصف فيها ما جرى لأتباعه، وأهل بغداد، من نكبات بشرية وطبيعية في عهد علي رضا باشا، ولذا فإنه استخدم، في طول رسائله تلك، ضمير المخاطب، والغريب أن مؤرخنا عبد الرحمن حلمي أبقى بعض تلك الضمائر في اقتباساته، ونظنه فعل ذلك عن غير قصد، لأن الكتاب لم يخرج عن مسودته الأولى، وفيه من الشطب والتعديل ما دل على أن مؤلفه لم يكن قد فرغ منه ليخرجه إلى البياض.

وعلى أية حال، فإن الكتاب جاء جم الفوائد، كثير التفاصيل، وبخاصة ما يتعلق منه بالتاريخ الاجتماعي لمدينة بغداد في القرن التاسع عشر، كما أنه ضم أيضاً معلومات مهمة عن

---

(١) المخطوط ص ٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المخطوط ص ٢.

خطط بغداد وعشائرها والأحدث السياسية التي جرت في عهده، وفي عهد أبيه المذكور. وسنأتي - فيما يلي - إلى تحليل جوانبه المختلفة.

الجانب الاجتماعي:

يمكننا أن نعد مخطوطة السهروردي هذه أقدم قائمة، وأكثرها تفصيلاً عن الأسر البغدادية في القرون المتأخرة، فليس ثمة ما يضاهي معلوماتها سعة ودقة، إذ تكلم فيها على (٦٦) أسرة، تعد - فيما يظهر - أبرز أسر المدينة وأكثرها شهرة، وهي:

١ - بيت أحمد شكري.
٢ - بيت السيد فتاح.
٣ - بيت رفه.
٤ - بيت الملا اسماعيل.
٥ - بيت الدباغ.
٦ - بيت ملا سليمان الجوره بجي
٧ - بيت أوده باشي.
٨ - بيت السيد حسين رفه.
٩ - بيت معروف.
١٠ - بيت مصطفى آغا.
١١ - بيت فتحي الموصلي.
١٢ - بيت علاوي.
١٣ - بيت فيشتني.
١٤ - بيت مصطفى.
١٥ - بيت شيخ عمر.
١٦ - بيت ابراهيم نديم.
١٧ - بيت السويدي.
١٨ - بيت العشاري.
١٩ - بيت الأعظمي.
٢٠ - بيت مهدي جلبي.
٢١ - بيت عبد الرحمن الأعظمي.
٢٢ - بيت اليمنجي.
٢٣ - بيت عبد الرزاق الشيخلي.
٢٤ - بيت الشوشه جي.
٢٥ - بيت أمين.
٢٦ - بيت محمد رفيع.
٢٧ - بيت الرواف.
٢٨ - بيت تاتار أغاسي.
٢٩ - بيت الخاصكي.
٣٠ - بيت نائب بغداد.
٣١ - بيت بكتاش.
٣٢ - بيت وهب آغا.
٣٣ - بيت عبود.
٣٤ - بيت البرزنجي
٣٥ - بيت ينكجري افنديسي (وهم آل الرهاوي).
٣٦ - بيت النقيب.
٣٧ - بيت الحاج طه.
٣٨ - بيت العشاري (أشار إلى بعض رجالاته في موضع سابق).
٣٩ - بيت الراوي.
٤٠ - بيت عبد الكريم أفندي.
٤١ - بيت القيار.
٤٢ - بيت الفناهرة.
٤٣ - بيت مصطفى الخليل.
٤٤ - بيت الحاج صالح كاتب الكمرك.

٤٥ - بيت يوسف بك.

٤٦ - بيت عزيز آغا.

٤٧ - بيت الحاج حبيب.

٤٨ - بيت رضوان آغا.

٤٩ - بيت نائب زاده.

٥٠ - بيت السويدي (أشار إلى بعض رجالاته في موضع سابق).

٥١ - بيت محمود بن زكريا النقيب.

٥٢ - بيت محمد سعيد المفتي.

٥٣ - بيت يحيى المزوري.

٥٤ - بيت مرزا آغا.

٥٥ - بيت القنوي.

٥٦ - بيت آغا زاده.

٥٧ - بيت الجاويش.

٥٨ - بيت خليل أفندي (الدفتري).

٥٩ - بيت بكتاش.

٦٠ - بيت الدوري.

٦١ - بيت متولي الدور.

٦٢ - بيت محمد سعيد نقيب بغداد.

٦٣ - بيت الحاج رسول أفندي.

٦٤ - بيت الدركزلي.

٦٥ بيت الحيدري.

٦٦ - بيت الشاوي.

وموطن أهمية كلامه على هذه الأسر، أنه ضمنه معلومات ذات فائدة حقيقية في دراسة منشأها، والمدن التي انحدرت منها، فقال في كلامه على بيت السيد فتاح إن "رجاله من بلدة الموصل واستوطنوا بغداد قبل سنة ١٢٣٦ هجرية"[١] ووصف بيت الدباغ بأن "أصلهم من الموصل سكنوا بغداد سنة ١٢٣٠"[٢] ووصف بيت الجوره بجي بالموصلي، فعرفنا بأصلهم، ومثله ما ذكره

(١) المخطوط ٢.

(٢) المخطوط ٢.

عن بيت فتحي الموصلي[(١)]، وبيت علاوي، إذ قال عنه "هو من البيوت الموصلية"[(٢)]، وقوله عن بيت البرزنجي إنهم "من أهل برزنجه"[(٣)] وعن بيت السويدي أنهم "من أهل قرية الدور العليا"[(٤)] وعن بيت الرواف أنهم "من أهل نجد"[(٥)] وعن بيت عبود أنهم "من أهل الموصل جاؤوا إلى بغداد"[(٦)]. ومثل هذه المعلومات تفيدنا في تحديد تواريخ هجرة الأسر إلى بغداد، فضلاً عن مناطق هجرتها، مما يفتح مجالات جديدة للبحث في تاريخ الهجرات الاجتماعية، وآثارها الاقتصادية والسياسية، إبان ذلك العصر.

ويزيد من أهمية هذه القائمة، أنه أشار في مواضع عديدة، إلى المهن التي اشتهرت بها تلك الأسر، وصلة ذلك بالعوامل التي أدت إلى هجرتها إلى بغداد، وعند تحليلنا للمعلومات التي أوردها عن الخلفيات الاقتصادية لتلك الأسر، توصلنا إلى أنه ذكر:

٢٨ أسرة من العلماء.

١٢ أسرة من الموظفين وأرباب المناصب العسكرية (اغوات).

١٢ أسرة من التجار وأهل الحرف.

٤ أسر من الوجهاء.

٨ أسر لم تحدد مهنهم.

المجموع ٦٦ أسرة.

واهتمام عبد الرحمن حلمي بتسجيل أخبار أسر تنتمي إلى فئة العلماء ـ وهو منهم ـ وفئة الموظفين وأرباب المناصب، والوجهاء الذين يستندون في ثروتهم على ملكياتهم العقارية أو الزراعية، يبدو مألوفاً لدى مؤرخي ذلك العصر، فهذه هي الفئات التقليدية السائدة في مجتمعات المدن العربية في القرون الأخيرة، وهي التي تحظى، على الدوام، بعناية المؤرخين، حتى أن مؤرخاً معروفاً، هو ياسين بن خير الله الخطيب العمري، لم يأنف ـ وهو يؤرخ لبغداد، في أواخر القرن الثامن عشر، من أن يصرح بأنه ذكر من أدركه من "وزراء وعلماء وأمراء وشعراء، ممن سافر إلى بغداد، ولا نذكر ما عداهم لأن غيرهم تجار وأرباب صنائع فلا فائدة بذكرهم"[(٧)].

---

(١) المخطوط ص ٤.

(٢) المخطوط ص ٥.

(٣) المخطوط ص ١٠.

(٤) المخطوط ص ٦.

(٥) المخطوط ص ٨.

(٦) المخطوط ص ١٠.

(٧) ياسين العمري: غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ٣٢٢ (بغداد ١٩٦٨).

إلا أن الذي يستلفت النظر فعلاً، هو اهتمام المؤلف بالترجمة لأسر التجار البارزة في المدينة، فقال عن بيت السيد فتاح إنهم، بعد استيطانهم بغداد "أخذوا بالبيع والشراء وصار لهم حظ وافر"[١] وعن بيت الدباغ بأنه "بيت تجارة وكانوا يحترفون دباغة الجلود وصار لهم مال بذلك"[٢] ووصف بيت الشوشه جي بأنه "بيت تجارة"[٣] وذكر عن الملا سليمان الجوره بجي الموصلي أنه "جاء بغداد بسبب التجارة والبيع والشراء بالجوربه وغير ذلك"[٤] ووصف بيت فتحي الموصلي بأنه "بيت كسب وسعي وتجارة"[٥] وبيت علاوي بأنه "من البيوت الموصلية بسبب التجارة"[٦] وبيت مصطفى بأنه "بيت تجارة وأهله أجواد"[٧] وغير ذلك.

ونلاحظ أيضاً أن اهتمام عبد الرحمن حلمي برجال هذه الفئة لم يكن بسبب أنهم عرفوا، إلى جانب تجارتهم، بالأدب مثلاً، ولكن لكونهم اشتهروا بالتجارة وحدها، بوصفها نشاط اقتصادي حضري له أهميته الاجتماعية، وعندنا أن سبب هذا الاهتمام يعود إلى ازدياد دور التجار أنفسهم في الحياة العامة للمدن العراقية خلال القرن التاسع عشر، واتساع مجالات نشاطاتهم لتشمل جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية، وبخاصة في مجالس تأسيس المساجد والمدارس ووقف لإدامتها ودفع رواتب العاملين عليها من الأئمة والخطب، والمدرسين والطلبة وغيرهم، فهي إذن نشاطات لم تكن بعيدة عن الاهتمامات العامة لمجتمع المدينة، وبخاصة فئة العلماء الذين كانوا يمارسون نشاطاتهم الثقافية والروحية من خلال تلك المؤسسات.

ومنهج عبد الرحمن حلمي في عرضه للأسر البغدادية في منتصف القرن التاسع عشر، يتحدد في جملة من الأمور، أهمها إشارته إلى موطن الأسرة الأول، ومهنتها - على ما ذكرنا - والتنويه بأبرز رجالاتها مع التطرق إلى ما حازته تلك الأسر من سمعة طيبة ومجد. ويشير - في بعض الأحيان - إلى صلة رجال الأسرة بالسلطة، وإلى طبيعة ما ترتبط به، مع أسرته، من علاقات ووشائج مختلفة.

وفضلاً عن ذلك، فإن في الكتاب إشارات مهمة إلى أسماء بعض القبائل والعشائر وتحركاتها في خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وأخبارها، مثل قبيلة الخزاعل وفشوا الطاعون فيها سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م، وانتفاضتهم على علي رضا باشا وامتناعهم عن دفع الرسوم

---

(١) المخطوط ٢.

(٢) المخطوط ٣.

(٣) المخطوط ٨.

(٤) المخطوط ٣.

(٥) المخطوط ٥.

(٦) المخطوط ٥.

(٧) المخطوط ٥.

الأميرية، وتحركات قبيلة شمر الجربا بزعامة شيخها صفوق في نواحي سنجار، وانتفاضة قبيلتي الجبور وعقيل على علي رضا أيضاً، وسعي الأخير في إثارة النزاع بين قبيلتي شمر وعنزة، وبين عشائر بني تميم، كما تضمن أيضاً إشارات متفرقة إلى عشائر وحمائل مختلفة، مثل الكبيبات في جهة بعقوبا والبو عواد والبو بايز والبو واوي والسادة المواشطة وغيرهم.

الجانب الاقتصادي:

لا تخلو المخطوطة من إشارات ذات شأن إلى بعض جوانب الحياة الاقتصادية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مثل تنويهها بأنواع من العملات السائدة في ذلك العهد، كالقرش، والقرش رايج ببغداد، والقرش الصاغ، والآقجة (وهي الدرهم الفضي العثماني) وتحديدها قيمة الآقجة بثلاثة قروش صاغ، وهي إشارة مهمة تدل على تذبذب العلاقة بين هذين النوعين من العملات العثمانية آنذاك.

ومن ناحية أخرى، فإن المخطوطة تحتوي على معلومات مهمة حول الأوزان المستخدمة في سوق بغداد، وأسعار المواد المعاشية الأساسية في بعض سني الغلاء، مما يفيد في معرفة القوة الشرائية الفعلية للعملات المتداولة في تلك الظروف، وذلك على النحو الآتي:

المادة	الوزن	الشعر بالقرش الرائج
الأرز	وزنه	٧١ قرشاً
السمنمن	٩٠ ثم	١٢٠ قرشاً
الشعير	٢٠ ثم	٥٠ قرشاً
الشمع	أقة	١٠ قروش
التمر الخضر	اويأقة	٣ قروش
التمر الأشرس	يأقة	٣ قروش
التمر البيدراية	أقة	٣ قروش
التمر البيشنك	أقة	٦٠ قرشاً.
الذرة	اقة	٣٠ قرشاً
الهرطمان	حقة	١٠ قروش
اللوبية	حقة	١٠ قروش
الباقلاء	حقة	١٠ قروش
سائر أنواع الحبوب	حقة	١٠ قروش
الشيرج	حقة	١٠ قروش

وسجل مقادير رواتب بعض فئات المجتمع البغدادي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن التاسع عشر، مما يعين الباحث على دراسة المستوى المعاشي لها، ومن تلك الفئات: المدرسون والوعاظ ومتولو الأوقاف والخطباء وغيرهم، وهي رواتب تبدو طيبة للغاية، فوارد أبيه محمد عبد المحسن، كان يقرب من خمسة آلاف أقجه (الآقجة = ٣ قروش صاغ) مؤلفاً من رواتب عدة وذلك على النحو الآتي:

النظارة على أوقاف الشيخ عمر السهروردي والتدريس في جامعه ٧٢٠ آقجة

النظارة على أوقاف محمد الفضل والوعظ في جامعه ١٠٨٠ أقجة

حصة من أوقاف الإمام محمد الدوري ٣٦٠ أقجة

الخطابة في جامع مرجان ٥٠٠ أقجة

التدريس والإمامة والتولية في جامع حسب الله ٥٠٠ أقجة

المجموع ٤٤٨٠ أقجة

فإذا ما لاحظنا أسعار المواد في القائمة أعلاه، وهي تمثل أعلا ما تصل إليه في أيام الغلاء، تبين لنا المستوى المعاشي المرتفع الذي كان عليه واحد من فئة العلماء في ذلك العهد.

وتطرق عبد الرحمن حلمي، فيما تطرق إليه، إلى الضرائب والمصادرات التي كان يتعرض لها التجار وأهل الحرف بين حين وآخر، فأشار إلى ما فرضه علي رضا باشا من الضرائب على التجار والبزازين والخفافين والحدادين والعطارين وغيرهم من الوجوه والأغنياء "فالذي لم يدفع يحبس ويضرب"[١].

ولم يقصر المؤلف اهتمامه على الحياة الاقتصادية داخل المدينة نفسها، وإنما تناول بعض الأوضاع الاقتصادية في الريف أيضاً، فسجل مثلاً تحول نهر دجلة عند بلدة الدور وما سببه هذا التحول من أزمة اقتصادية، أدت إلى هجرة السكان منها إلى بغداد، كما تكلم على مشاكل الملكية الزراعية في الدور، وأشار إلى عدد من الولاة الخاصة بها، كما أنه وضح الصلة بين حيازة الملكية الزراعية وبين تولي السلطة الإدارية في مكان ما، حين أشار إلى أن جده محمد صالح وكان - على ما وصفه - حاكماً إقطاعياً "يحكم الدور وسر من رأى وتكريت والدجيل وما والاها شرعاً وإدارة ولقب بمتولي الدور وسر من رأى وتكريت والدجيل ومتسلمها وقاضيها إلى غير هذه الألقاب التي كانت تختلف باختلاف توالي الولاة

(١) المخطوط ٢٣.

(في) مدينة بغداد"[١] فملكيته الواسعة إذن هي التي دفعت ولاة بغداد إلى تخويله حكم تلك المنطقة المهمة وتفويضه صلاحياته المختلفة فيها.

الجانب السياسي:

إن معظم المعلومات التي أوردها المؤلف عن هذا الجانب، استقاها من كتاب أبيه المشار إليه سابقاً، وهي رواية شاهد عيان عاصر أحداث الاضطهادات التي عانى منها البغداديون إثر إعادة الحكم العثماني المباشر إلى العراق، ولذا فقد حفلت المخطوطة بمعلومات مهمة عن تعسف الوالي علي رضا باشا، وغصبه للدور والأموال، وكراهية أهل بغداد له، ولأعوانه الذين لا يتورعون عن إيذاء الناس طمعاً فيما يملكون[٢]، كما تضمنت تفاصيل عن نكبة علي رضا لضوان آغا، أحد أتباع داود باشا، واضطراره إلى مغادرة بغداد، ثم مصادرة أمواله، والتنكيل بأهله[٣]، وثورة الشيخ صفوق الجربا على علي رضا في سنجار وقدوم محمد أمين باشا الجليلي أحد أواخر ولاة الجليليين في الموصل إلى بغداد، والتحركات القبلية المصاحبة لتلك الأحداث[٤].

الجانب الخططي:

احتوى المخطوط، في ما بين تفاصيله العديدة، على إشارات مهمة عن مواضع جغرافية في بغداد في منتصف القرن التاسع عشر، من شأنها أن تفيد الباحث في خطط هذه المدينة، مثل إشارته إلى المدرسة السليمانية (التي أنشأها سليمان باشا الكبير) وإلى مسجد حسب الله، وجامع الإمام الأعظم، والقصبة الأعظمية، ومحلة باب الآغا، ومحلة الأغوات، ومحلة فراشة، وجامع قنبر علي، ودار الإمارة (السراي) وغير ذلك من مواضع كانت معروفة في عهده.

كما أنه أشار إلى مدن ومواضع جغرافية خارج بغداد، مثل الحلة والحسكة وتكريت والدور والدجيل وسنجار والعمادية ورواندوز وعانة وبعقوبة وهيت، وإلى مواضع في الدور، مثل الواهمية والخيزرانية والرشيدية والرحمانية، وهي مواضع لم نكن لسمع بها لولا إشارته تلك وما أورده بشأنها من معلومات.

---

(١) المخطوط ٦٢.

(٢) المخطوط ١٤.

(٣) المخطوط ١٧.

(٤) المخطوط ٤٣.

الجانب الإداري:

والمخطوط حافل بأسماء المناصب والوظائف الإدارية التي كانت معروفة في سراي بغداد وفي قواتها المسلحة ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ويمكننا أن نعد عبد الرحمن حلمي آخر من سجل لنا وجود تلك المناصب والوظائف والألقاب، قبل أن تأتي عليها حركة التنظيمات العثمانية في سبعينات القرن الأخير، ومنها: الأوده باشي (أي آمر القاعة حيث مبيت العسكريين) والتاتار آغاسي (أي المسؤول عن شؤون البريد) والخاصكي (رتبة عسكرية عثمانية) والينكجري أفنديسي (ويظهر أنه المسؤول عن الشؤون الإدارية لا ورطات الانكشارية في بغداد) وكاتب الكمرك، والمصرف، والدفتردار (وظيفتان ماليتان) والكدخدا (نائب الوالي ومساعده) والجنانه جي باشي (المسؤول عن مخازن العتاد) والجاووش (ضابط انكشاري موكل بتبليغ الأوامر وتنفيذ العقوبات) والمحاسبه جي أفندي (مدير المحاسبات العامة) وغير ذلك من وظائف وألقاب.

الجانب الثقافي:

وفي الكتاب أخيراً بعض اللمحات عن الحياة الثقافية في بغداد والدور آنذاك فقد تكلم فيه مؤلفه عن الأسر العلمية، ونوه ببعض رجالاتها، واهتم - على نحو خاص - بالترجمة للعلماء من أسرته، وسجل عنوانات. مؤلفاتهم العديدة في العلوم الدينية واللغوية وفي المنطق والعقائد والتاريخ[١]، وأشار إلى أعمالهم الثقافية في بلدتهم "الدور" وما أنشأوه فيها من المدارس[٢]، ثم ما أصاب الحياة الثقافية فيها نتيجة هجرة بعض سكانها إلى بغداد[٣]، وما يتصل بذلك من شؤون[٤].

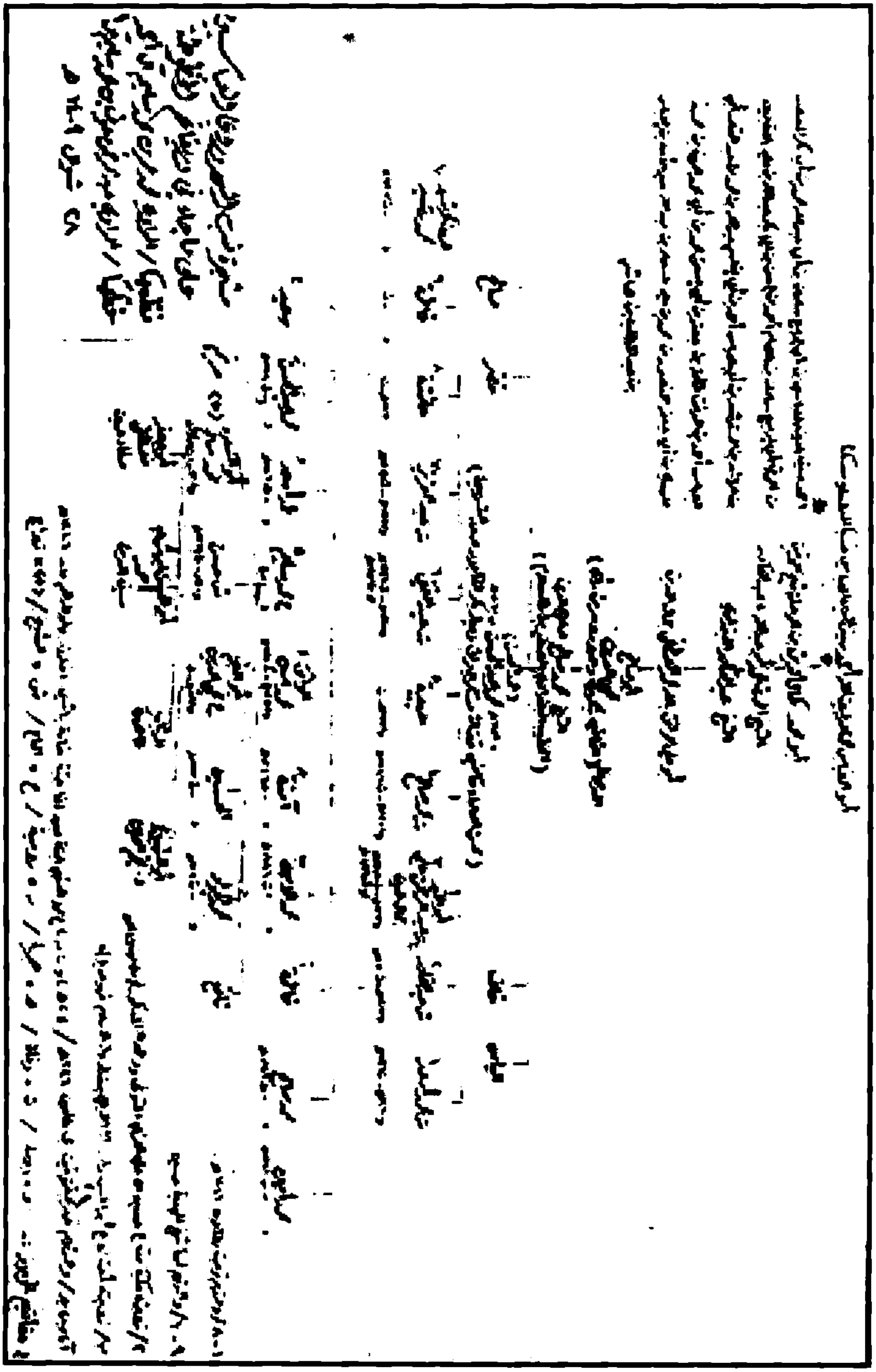
❖ ❖ ❖

(١) المخطوط ٦٤ و ٨١.

(٢) المخطوط ٦٣.

(٣) المخطوط ٥٢.

(٤) المورد ع ٢ س ١٨ (١٩٨٩).



مشجرة نسب العائلة السهروردية

آثار حضارة بغداد
وصفحة من تاريخ عظمتها ومدينتها

✍ عبد الحميد عبادة

لبغداد في التاريخ الإسلامي شهرة فائقة، ومنزلة سامية لم تبلغها مدينة غيرها، ومكانة عالية لم تدركها حاضرة قبلها، ولا غرو فهذه المدينة العتيقة قد نشأت مع نشوء تمدين العرب، فنضج فيها، وابتدأ عهدها بابتداء أعظم دولهم وهي دولة العباسيين الذين جمعوا فيها بين ضخامة الدولة ومظاهر العظمة مع أبهة الملك في أبهج أحواله وأفخم أطواره، فعاشت في أزهر عصورهم وزهت بزهو أيامهم وعمرت أطول حقبة في تاريخ مجدهم وحضارتهم حتى شاخت في الحضارة وهرمت في المدينة.

وإذا عدوا أزهى العصور في حكم العرب عصرين:

(١) عصر العباسيين في بغداد.

(٢) وعصر الأمويين في قرطبة، فللزوراء[١] بلا شك المرتبة الأولى والمنزلة الكبرى فقد كان عصرها الأول هو عصرهم الذهبي الذي انبلج منه صبح العلم في العالم أجمع.

تلك هي "حاضرة العباسيين" التي خلفت "دمشق" عاصمة الأمويين بعد أن خلفت تلك "المدينة" عاصمة الراشدين فصارت قاعدة الحكم الثالثة في الإسلام.

إلا أن عصرها قد امتاز عن العصرين الأولين بانتهاء العرب من فتوحاتهم وحروبهم وتفرغهم للعلوم والفنون وارتشاف مناهل العرفان فأينعت فيها الصنائع والفنون وأثمرت الآداب وعمرت دور العلم والفلسفة.

ابتناها المنصور مؤسس دولتهم بالقرب من أطلال بابل عاصمة البابليين كأن الله أراد أن يعيد إلى تلك البقعة ما كان لها من السيادة فصار لها الحكم على أكثر من نصف العالم في ذلك العهد.

رأى المنصور موقع بغداد شرعة للدنيا: فكل ما يأتي في دجلة من أواسط الأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين: فإليها يرقى، وما يأتي من الموصل وأذربيجان

---

(١) الزوراء من أسماء بغداد سميت بذلك لأن يوم تأسيسها كان موافقاً لطالع القوس كما أنبأتنا به بعض التواريخ: وللزوراء جملة معان في العربية منها القدح والقوس وغيره فربما سميت بذلك لأنها بنيت مدورة كالقدح وكان قصر الخليفة في وسطها كإناء من فضة على شاطئ دجلة وقد جاء في تاريخ أخبار الدول وآثار الأول ص ٤٣٣ ما نصه: "ليس في الدنيا مدينة مدورة غيرها (أي الزوراء).

وأرمينيا مما يحمل في السفن في دجلة، وما يأتي من الرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل في السفن: فبها يرسي.

وصلت مدينة المنصور عاصمة العواصم أيام العباسيين إلى ذروة مجدها وأرقى درجات عمرانها في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون عضد العلم وسند العلماء ذلك الوقت الذي زهت فيه بالبرامكة وغيرهم من العظماء وفاضت عليها الثروة من جميع الأطراف وطفحت خزائنها بالأموال التي كانت تحمل إليها من جميع الأقطار فكان حكمها يتناول آسيا وافريقيا وانتهت إليها سيادة العالم، فجعل هذان الخليفتان مدينة السلام[1] مركز الحكمة والعلم كما كانت مركز الإسلام وعاصمته الدينية والعاصمة السياسية لمعظم بلدانه لما كان الإسلام ركن حضارة الدنيا.

لم تكن دار الخلافة مثوى الخلفاء ومقر العلماء فقط بل كانت أيضاً خزانة معارف الشرق ومدرسته التي نبغ فيها الفلاسفة والكتاب والعلماء على أنواعهم فكانت جامعة لأبهة الخلافة ومركز القوة وشرف العلم واتقان الفنون ومجد الصناعة[2] وعظمة التجارة فقد كانت لها التجارات الواسعة مع الهند والصين وما وراء البحار

هذه هي بغداد التي وصفها ابن عقيل وهي في قمة عزها بقوله:

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين	على تقلبها في كل ما حين
تحيا النفوس برياها إذا نفحت	وحرشت بين أوراق الرياحين
سقياً لتلك القصور الشاهقات وما	تخفي من البقر الإنسية العين
تستن دجلة فيما بينها فترى	دهم السفين تعالت كالبراذين

فاق العباسيون في قاعدة ملكهم كل الممالك المتحضرة في عهدهم في كثير من أسباب البذخ والترف لما وصلت إليه دولتهم من الثروة العظيمة[3] وبسطة العيش والتوسع في

---

(١) من أسماء بغداد. نقل ياقوت في معجمه أنها سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله فأرادوا مدينة الله. وهي تسمى "مدينة السلام" لأن دجلة يقال لها "وادي السلام".

(٢) كانت بغداد من أعظم البلاد الصناعية في العالم أيام زهو العباسيين؛ فقد كان فيها معامل للزجاج يعمل فيها زجاج مرصع باليواقيت والصدف، ومعامل لعمل الأنسجة وأقمشة الحرير والصوف الرقيقة كالكشمير وقماش الدمقس، وكان العرب فيها قد اتقنوا صناعة السجاد الثمين الفاخر الذي كان يزين بأبدع التصاوير برسوم النباتات والأسود والفيلة.

(٣) فإن من وصلت ثروتهم في هذا العهد إلى الملايين كانوا يعدون بالألوف من آل جصاص باعة الجواهر الثمينة فقد كان لهؤلاء شهرة واسعة مثل شهرة ركفلر وروتشيلد. وقد صادرهم الخليفة العباسي "المقتدر بالله" لما اختفى عندهم ابن المعتز فأخذ منهم نقوداً قال المؤرخون عنها أنها ١٦ مليون دينار.

الرغد فكانوا قدوة لمن عاصرهم ومن قام بعدهم من الدول الإسلامية كما كانت بغداد قبلة الأمصار وكعبة القصاد من جميع الأقطار فرفلت في حلل الهناء والرخاء لما بلغته من العمران وسعة الحال.

فلا عجب إذا سموها جنة المشرق وعروس مدنه، وبالجملة كانت إطاراً بديعاً عظيماً حوى مناظر شتى من ضروب المدنية الراقية والنظم الاجتماعية السامية، بهرت حضارتها العالم وسحرت أعين الناس فضربوا بها الأمثال حتى العامة منهم فقد روى الثعالبي في كتابه خاص الخاص مثلاً عامياً كان شائعاً في عصره في القرن الخامس للهجرة هو: "الدنيا هي البصرة ولا مثلك يا بغداد!!"[(١)] وصاروا ينسبون إليها كل ما اتصل بذلك فكانوا إذا أرادوا أن يقولوا "فلان تمدين" قالوا "تبغدد" أي سكن بغداد واحتك بالبغداديين وتشبه بهم كما نقول اليوم إنه تمدين إذا ذهب إلى لندن أو باريس أو احتك بالأوروبيين وأخذ عنهم.

وقد بقيت آثار حضارة بغداد هذه في لغة العامة حتى عهدنا الحاضر فحفظوا في فهم هذه الكلمة التي اشتقوها من اسمها علماً على الحضارة كأنهما مترادفان فصاروا يلقبون من ينهج نهج المتحضرين في صفاتهم وظرفهم بأنه "يتبغدد" أي يتيه دلالاً وعجباً ويسلك مسلك البغداديين في الرقة والدلال وهما من أخلاق المتحضرين.

بل من آثار تمدينها وتأثيرها في الفنون إن لم تزل تسمى باسمها طريقة خاصة في البناء بالخشب لم تزل معروفة حتى اليوم "بالبغدادلي" أو "الخشب البغدادلي" وظهر أن البغداديين أول من ابتكر هذه الطريقة الدقيقة الجميلة بالبناء بألواح الخشب الرفيع واستعملوها بكثرة في مدينتهم حتى عرفت بها وقد أخذها الأتراك عنهم كما يظهر من هذه الصيغة التركية الظاهرة على هذا الرسم ثم أخذها الناس عن الأتراك بعد ذلك على هذا الشكل.

وبلغ من تأثير حضارة بغداد أيضاً وانتشارها في العالم اقتباس كثير من الأمم طرقها الخاصة في التعليم ومحافظتها عليها حتى الأمم النائية منها. ومما يدل على ذلك من هذا القبيل ما هو معروف عند الهنود في ترتيب حروفهم الهجائية العربية التي يكتبون بها لغتهم الأوردية الهندستانية فإنهم يسبقون الواو على الهاء بعكس ما عندنا ويسمون ذلك بالطريقة "البغدادية" لاقتباسهم طريقة التعليم عن بغداد ومدرستها النظامية القديمة.

---

(١) خاص الخاص للثعالبي ص ١٢ طبعة مصر.

ومن آثار حضارتها وما بلغته صناعتها من الإتقان والجمال ما اشتهر عن حريرها وثيابها "العتابية" نسبة إلى حي من أحيائها معروف بهذا الاسم. وذكره ابن جبير في رحلته فقال "ومن أسماء المحلات العتابية وبها تصنع الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الألوان[1] إلخ" فقد انتقل هذا الاسم إلى اسبانيا ومنها انتشر في جميع أوروبا وحفظته لغاتها للدلالة على هذا النوع من الحرير الملون.

تلك كانت حالة بغداد حتى داهمتها عصور الهمجية فأناخت على حضارتها حتى لم يبق منها إلا أثرها الماثل وسيرتها العاطرة فذهب رسمها وبقي شهير اسمها وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل التفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس تدخل تحت قول أبي تمام حبيب بن أوس:

لا أنت أنت ولا الديار ديار

بل كأن أبا تمام قد اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها:

لقد أقام على بغداد ناعيها ... فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على ملئها والحرب موقدة ... والنار تطفأ حسناً في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة ... فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي دالت شبيبتها ... وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد بكاها العالم بعد زوال عزها فقال فيها شاعرها:

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت نضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
وقوم أحرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق

هذا ونحن نتمنى أن تكون لك يا دار السلام في عهدك الجديد يقظة تنبعث منها مدنيتك السالفة وحضارتك الزاهرة[2].

❖ ❖ ❖

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٠٤ طبعة مصر.

(٢) الهلال س ٢٥ – سنة ١٩١٦ ص ٥٦٣ – ٥٦٦.

هولاكو التتري وسقوط بغداد
انتقال التمدن الإسلامي من طور إلى طور

✍ جرجي زيدان

بغداد

هي عاصمة الدولة العباسية بناها المنصور سنة ١٤٥هـ ولا تزال باقية إلى اليوم وقد تغير موضعها مراراً. والسبب في بنائها أن السفاح لما بويع بالخلافة وكثر أنصاره في العراق وفارس نزل الكوفة ومعه أخوه المنصور. ثم بنى السفاح قرب الأنبار مدينة سماها الهاشمية إشارة إلى ما يجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا إليها وبها مات السفاح وقبره فيها. وأقام المنصور في الهاشمية بضع سنين ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبني فيه مدينة حصينة فدلوه على مكان بغداد وحسنوه له فبنى فيه مدينة سماها بغداد وعرفت بمدينة المنصور.

بناها في الجانب الغربي لدجلة بشكل مستدير وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه. فلما كانت أيام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي من دجلة وسمي ذلك المكان عسكر المهدي. ثم انتقل إليه الوجهاء وأهل الدولة وبنوا فيه وانتقلت الخلافة إلى الجانب المذكور وامتدت أبنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر. وسمي جانب بغداد الشرقي الرصافة والجانب الغربي الكرخ.

وبلغت بغداد معظم عمارتها في أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا إن مساحتها ٥٣٧٥٠ جريباً منها ٢٦٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي و٢٧٠٠٠ في الجانب الغربي والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ونسبته إلى الفدان كنسبة ١٠٠ إلى ٢٣٢ فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٠٠٠ فدان وهو شيء كثير. ولكن يظهر أنها كأنها عبارة عن مدن متلاصقة. قال الخطيب البغدادي في تاريخه أنها أربعون مدينة وأن الحمامات بلغ عددها في أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام. وقد أراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال "وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام وأقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل وذكر أن يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد وتقدير ذلك أن أقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان".

ولا ينطبق هذا التخريج على ما نعلمه من أحوال هذه الأيام فلا نسلم به كما هو ولكنه يدلنا على ما بلغت إليه هذه المدينة من العظمة في عهد ذلك التمدن العجيب. وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في أثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥هـ قال "وقيل إنه عبر الجسرين من العامة في ذلك الوقت ١٠٠٠٠٠ إنسان في الزوارق.." فإذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبر فلا نبالغ إذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليون.

وقد وصفها الأصطخري الرحالة كما شاهدها في القرن الرابع للهجرة فقال "وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد إلى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهر بين إلى شط دجلة ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة إلى الشماسية نحو خمسة أميال وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة إلى آخر الكرخ إلخ" ثم قال "وبين بغداد والكوفة (أو بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق إليه أنهار من الفرات" ثم عدد الأنهر التي تمتد من الفرات إلى دجلة.

وناهيك بما شادوه في بغداد من القصور وأول من فعل ذلك المنصور فبنى القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة إليها وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم فأقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً بأسماء بانيها كقصور البرامكة في الشماسية وقصر ابن الخصيب وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بناه رجل اسمه للمهدي العباسي وقصر الرشيد وقصر الأمين وقصر ابن الفرات وقصر ابن مقلة غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك. وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدنية وأغرقوا بالترف والرخاء على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع. والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة يبذل فيها الأموال الطائلة فأحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله منها النمط الحيري والكمين ذات الأروقة وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري بذل في بنائها جميعاً أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم أنفق منها على القصر الجعفري أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ دينار أو نحو ٤٠٠٠٠٠٠ درهم ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء فضلاً عن المتنزهات فبنى اسماعيل بن علي متنزهاً أنفق فيه ٥٠٠٠٠٠٠ درهم.

وكان المعتضد بالله محباً للعمارة أيضاً فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه "قصر التاج" لم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفي. وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني. فلما تولى المعتضد سنة ٢٧٩هـ أضاف إليه ما جاوره فوسعه وكبره وأدار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقتطع من البرية قطعة عملها ميداناً. وأخذ في بناء قصر التاج فاتفق خروجه إلى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع إلى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه "قصر الثريا" طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه ٤٠٠٠٠٠ دينار وصله بالقصر الحسني وابتني بين القصرين على مسافة ميلين سرداباً تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه وما زال باقياً إلى الغرق الأول الذي صار ببغداد.

وبني المقتدر بالله في أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها وبين شجر بساتينها لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار. وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير. وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً. ومثله عن يسار البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر إليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه.

وفي دولة آل بويه بني معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب ـ ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار ـ غير ما بنوه فيها من المدارس والمارستانات والمراصد والمكاتب مما يفوق الحصر ويطول بنا وصفه.

الشقاق بين أهلها كان علة سقوطها:

مضت عدة قرون وبغداد هي وحدها أم المدائن وبؤرة التجارة ومجتمع العلماء والشعراء وموئل طلاب الثروة والوجاهة. على أنها ما لبثت أن ضعف شأن الخلافة حتى تسربت إليها الدسائس وقامت الفتن وبين أهلها واهمها الشقاق بين السنة والشيعة وتكررت في أواخر الدولة فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في إصلاحه. وبما أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة وكانوا يقيمون معاً في الكرخ والكاظمية وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد والحكومة مع ذلك تولهم مصالحها وتعهد إليهم بتدبير شؤونها. وكان هذا الشقاق سبباً في سقوطها ودخولها في حوزة

التتر على يد هولاكو . وذلك طبيعي في تاريخ الدول فإذا تدبرت أسباب الانقلابات السياسية التي تنتقل بها السيادة من دولة إلى دولة وجدت السبب غالباً انقسام أبناء البلاد فيما بينهم بالمشاحنات الدينية أو الأغراض السياسية حتى يستولي القنوط على الفئة الضعيفة إذا غلبت على أمرها فتستنجد قوماً غرباء يأخذون بناصرها ثم لا يزالون يتحينون الفرص حتى تصير الدولة إليهم. ولا تكاد تجد انقلاباً سياسياً في تلك العصور يخرج في سببه عن نحو ما تقدم. والأمثلة كثيرة في تاريخ الشرق من أقدم أزمانه إلى الآن يكفي القارئ منها أن يراجع تاريخ مصر من الفتح الإسلامي إلى الآن.

هولاكو والمستعصم:

هولاكو من سلالة جنكزخان القائد المغولي الشهير وكانت مملكة جنكزخان قد انقسمت بين أولاده وفي جملتهم طلوي تولى بلاد المغول سنة ٦٥٤هـ وابنه هولاكو هو فاتح بغداد وقد أسس دولة عرفت بدولة ايلخان أو مغول الفرس. فلما استقر له الأمر في فارس حمل على بغداد وخليفتها يومئذ المستعصم العباسي وقد انحصرت سيادته وضاق نطاق مملكته بعد استبداد أهل النواحي بإماراتهم وتكاثرت الدسائس في بلاطه حتى آلت إلى ذهاب دولته.

والمستعصم اسمه عبدالله بن منصور ولد سنة ٦٠٩هـ وتولى الخلافة سنة ٦٤٠ وهو في الحادية والثلاثين من عمره وكان متديناً شديد التمسك بمذهب أهل السنة والجماعة وكانت عادة الخلفاء قبله أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم وما زالت تلك سنتهم حتى تولى المستعصم فأطلق أولاده فكان إطلاقهم من بواعث الأذى. لأن أحدهم أبا بكر كان من أكبر أسباب الفتنة. وكان المستعصم طيب السريرة مخلص الطوية لكنه كان ضعيف الرأي قليل التبصر في عواقب الأمور. واشتدت الفتنة في أيامه بين السنة والشيعة وبين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب الأخرى وبين العيارين والدعار . وكان هؤلاء الرعاع لا تحدث فتنة بين الملوك أو الأمراء وأهل الدولة إلا ويحدث بين هؤلاء منازعات وحروب وأهمها بين السنة والشيعة. وكانت الشيعة هي الفئة الضعيفة المغلوبة فالخطر من استنصار الغرباء إنما يكون من جانبها. ووافق ذلك أن تولى الوزارة واحد منها اسمه ابن العلقمي سهل ذلك الخروج عليها

أسباب الفتح:

وكان بدء المنازعة بين هولاكو والخليفة المستعصم بالله أن هولاكو كان يحارب الاسماعيلية في فارس ويحاصر قلاعهم فكتب إلى المستعصم يستنجده فأراد أن ينجده فمنعه

أمراؤه من ذلك مخافة أن يكون قصد هولاكو الخديعة لتخلو بغداد من الرجال فيملكها بسهولة. ثم فتح هولاكو تلك القلاع وبعث إلى المستعصم يعاتبه فأشار عليه الوزير ابن العلقمي أن يسترضيه بالهدايا والأموال فأطاعه وأخذ في تجهيز هدية من الجواهر والمماليك والبنات فاعترض الدوادار وطعن في نية الوزير وقال "إنه يروم تسليم الدولة إلى التتر" فكف الكليفة وأرسل هدية يسيرة فغضب هولاكو وبعث إلى الخليفة أنه لا يرضيه إلا إذا أتى هو بنفسه للاعتذار أو أن ينيب عنه الوزير أو الدوادار فلم يطاوعه فسير أناساً لم يقبل هولاكو نيابتهم واتخذ ذلك ذريعة للحملة على بغداد.

ووافق ذلك فراغ الخزينة من الأموال فقضت سياسة المستعصم أن يقتصد من أعطيات الجند - أشار عليه وزيره ابن العلقمي بذلك وحجته أنه إذا توفر لديه المال أرضى به التتر فيعودون بلا حرب. وكان عسكر بغداد مئة ألف فارس فأخرج منهم ثمانين ألفاً واستبقى عشرين فزادت نقمة الناس على الخليفة ووزيره وزاد هذا حاجة للخيانة دفاعاً عن نفسه.

أما هولاكو فسار بجنده من خراسان حتى أتى حلوان فقسمه فرقتين أرسل فرقة بقيادة باجو تقطع دجلة عند تكريت لتنزل من هناك حتى تفتح الأنبار على الفرات ثم تتقدم على بغداد من غربيها. وحمل هولاكو بحملة أخرى يقصد بغداد من شرقيها.

فسارت الحملة الغربية بقيادة باجو فعبرت دجلة عند تكريت ونزلت تطلب بغداد من الغرب. فأجفل أهل الضواحي عند دجيل وعند نهر الاسحاقي ونهر عيسى وهربوا إلى المدينة بأولادهم ونسائهم مذعورين حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء وكان الملاح إذا عبّر أحداً في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير. فلما وصل عسكر التتر إلى دجيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس خرج إليه عسكر الخليفة ومعهم مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدوادار. وكان عسكراً في غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد. فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة. ثم كان النصر للعسكر التتري فأبادوهم قتلاً وأسراً. وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل فكثرت الوحول في طريق المنهزمين فلم ينج منهم إلا من رمى نفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام. ونجا الدوادار في جماعة من عسكره ووصل إلى بغداد. وساق باجو حتى دخل البلد في جانبه الغربي ووقف بعساكره محاذي التاج في محل يقال له المبقلة وعسكر قسم منهم في محل آخر قرب المارستان العضدي بالشمال (انظر الخارطة الثانية).

أما رجال هولاكو فإنهم أشرفوا على شرقي بغداد في أواسط المحرم سنة ٦٥٦هـ وعسكروا خارجها وبنوا سوراً عالياً نصبوا عليه المجانيق وآلات النفط وآلات رمي السهام وكان بدء القتال في ٢٢ محرم واتجهت فلول المغول إلى شرقي بغداد وفيها قصور الخليفة وأعوانه وحولها سور عليه الأبراج والأبواب.

فالح هولاكو في حصار بغداد وهاجمها مراراً فخاف الخليفة وتحقق وقوع الخطر فانفذ وزيره ابن العلقمي لمخابرته بحجة أن هولاكو كان قد طلب إرساله أو إرسال الدوادار وها هو قد أرسل الوزير. فأجابه هولاكو "إني طلبت ذلك لما كنت في همذان" ولا ندري ما دار بينه وبين الوزير ثم عاد الووزير وعاد هولاكو إلى التضييق وأمر رجاله أن يكتبوا على السهام التي يرمونها على بغداد بالعربية "إن الرؤساء العلويين (الشيعة) وكل من لا يقاتلنا فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله".

وفي ٢٦ محرم هجم التتر على أسوار بغداد في الشرق من جهة برج العجمي جنوبي باب الحلبة واستولوا عليه ثم فتحوا غيره وملكوا الأسوار. وكانوا قد بعثوا من يحرس الشاطئ لئلا يخرج أحد. ولم ير الخليفة بداً من الخروج إلى هولاكو بنفسه. ويقال إنه فعل ذلك بإشارة الوزير ابن العلقمي وكان قد خرج إلى هولاكو واستأمن لنفسه وزعم أنه أتى بالأمان للخليفة وأن هولاكو يبقيه على خلافته كما فعل بملك بلاد الروم. وأنه يريد أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر. وحسن له الخروج فخرج المستعصم إلى هولاكو مع رجال خاصته فأمر بإنزاله في فسطاط عند باب كلواذي المحاذي للشاطئ ودخل هولاكو بنفسه إلى بغداد ليشاهد دار الخليفة وتقدم بإحضار الخليفة فأحضروه ومثل بين يديه وقدم جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معبأة في أطباق ففرق هولاكو جميعها على الأمراء. وعند المساء خرج إلى منزله وأمر الخليفة أن يفرز جميع النساء اللواتي باشرهن هو وبنوه ويعزلهن عن غيرهن ففعل فكنّ سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهن ثلثمائة خادم خصي.

ثم إن الوزير استدعى الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده وكذلك ظل يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة فلما تكاملوا قتلهم التتر على آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبدأوا السيف في بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيراً فأخذ أسيراً. ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودي بالأمان. وأما الخليفة

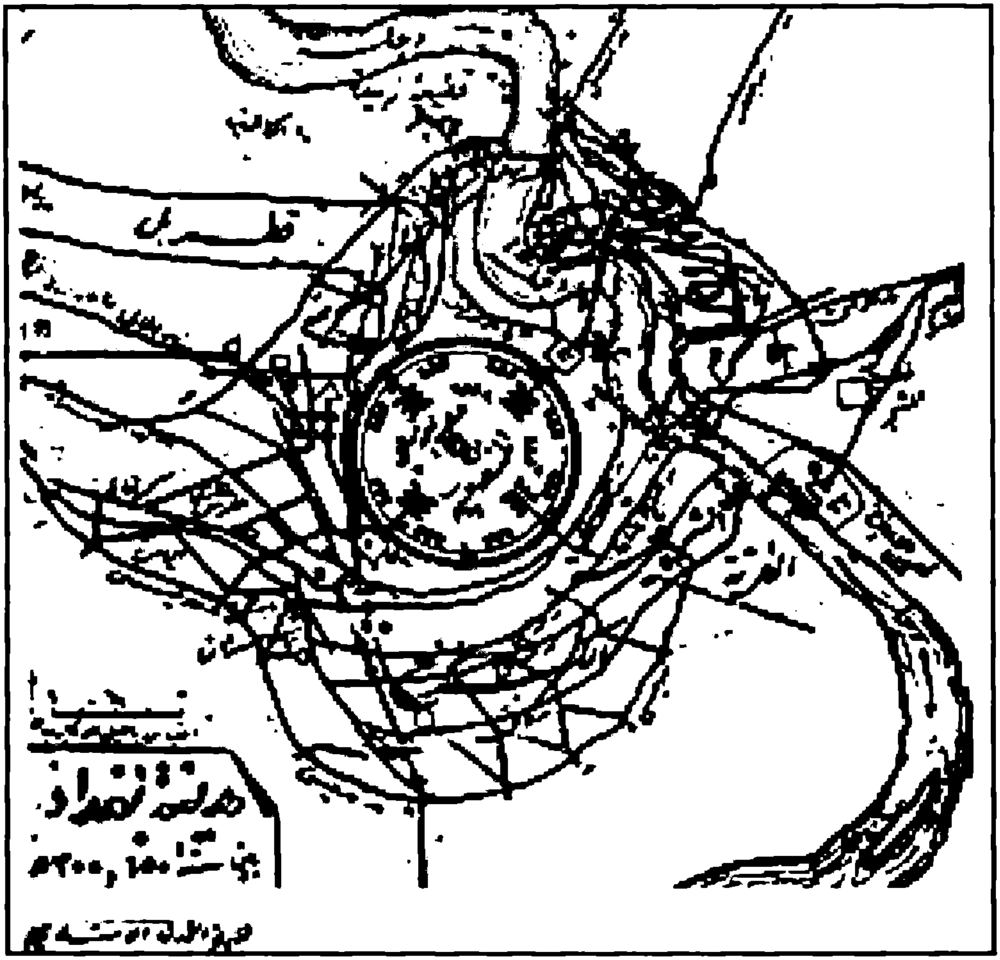
فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق في دجلة والله أعلم.

واختلفوا في عدد من قتل في ذلك الفتح فقيل ١٦٠٠٠٠٠ نفس وقيل ٢٠٠٠٠٠٠ وقيل غير ذلك والأغلب أنها تزيد على مليون واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط. وألقوا كتب العلم التي كانت في الخزائن جميعها في دجلة وكانت شيئاً لا يعبر عنه - زعموا أنهم فعلوا ذلك انتقاماً لما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم. وقال آخرون إن هولاكو بنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن الطين وذكروا أن هولاكو اقترح إضرام بيوت بغداد فلم يوافقه أصحابه على ذلك.

نصير الدين الطوسي:

فيظهر هولاكو للقارئ بما تقدم من أعماله كأنه وحش كاسر إنما جاء للقتل والخراب وإبادة العلم وأهله. ولكننا لا نلبث إذا درسنا ما فعله بعد ذلك الفتح أن نرى له يداً في أحياء العلوم وتنشيطها. ولم يكن غرضه من إغراق كتب المسلمين إلا محو آثارهم لا محو العلم. وكان ذلك من جملة القواعد السياسية في تأسيس الدول فتبيد الدولة آثار ما كان قبلها ثم تبني من لنفسها - كذلك فعل العرب وغيرهم. وهذا هولاكو فإنه لم يكد يفرغ من النهب والقتل وإغراق الكتب في بغداد حتى أمر نصير الدين الطوسي العالم الشهير ببناء المراصد وإنشاء المكاتب. ووضع الأموال تحت تصرفه بما يريده من ترقية العلم فابتنى مرصداً في مراغة أنشأ فيه مكتبة عظيمة فسيحة الأرجاء ملأها بالكتب التي بقيت من منهوبات بغداد والشام والجزيرة فزادت على ٤٠٠٠٠٠ مجلد. وعين المنجمين للرصد وجمع إليه الفلاسفة وجعل لهم الأرزاق الموقوفة وأكثر من آلات الرصد مما كانوا قد وصلوا إليه في عصره. وقد وصف المرصد رحالة زاره في ذلك العهد فقال "رأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً منها ذات الحلق وهي خمس دوائر متخذة من نحاس الأولى دائرة نصف النهار وهي مركوزة على الأرض ودائرة معدل النهار ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل ورأيت الدائرة الشمسية التي يعرف بها سمت الكواكب إلخ".

وجملة القول إن سقوط بغداد سببه انقسام أهلها وتعصبهم الديني بعضهم على بعض وانحياز الفئة الضعيفة للفاتح الغريب. وأن هولاكو مع ما يظهر من مقاومته العلم إنما كان يفعل ذلك من وجهة سياسية ليذهب بآثار أعدائه وينشئ تمدناً لنفسه يفتخر به. ■



بغداد في إبان زهوتها

١. قصر الذهب أو القيمة الخضراء
٢. جامع المنصور
٣. أبنية الحكومة لمصالح الدولة
٤. المطبق
٥. باب البصرة
٦. باب خراسان
٧. باب الشام
٨. باب الكوفة
٩. جامع المسيب
١٠. ديوان الصدقة
١١. سجن باب الشام
١٢. الميدان وبجانبه الاصطبل
١٣. دار القرار (قصر زبيدة)
١٤. دار حميد بن عبد الحميد وباب الشعير
١٥. جامع معروف الكرخي
١٦. مشهد عا
١٧. قصر جعفر البرمكي ثم صار من قصور الخلافة
١٨. قصر التاج
١٩. قصر الفردوس
٢٠. دار عيسى
٢١. قصر ابن الخصيب
٢٢. قصر المعتصم
٢٣. دار الروم (البطرخانة)
٢٤. قصور البرامكة
٢٥. باب الطاق
٢٦. قصر المهدي
٢٧. جامع الرصافة
٢٨. باب الشماسية وقصر موسى
٢٩. قصر الحريم الطاهري
٣٠. قصر زبيدة
٣١. دار الرقيق
٣٢. قصر الخلد
٣٣. حدائق القصور او البساتين

بغداد بين سنتي ١٥٠ - ٣٠٠ هـ.

قــلاع بـغــداد[١]

✍ اعتماد يوسف

من المعالم البارزة لمدينة بغداد وجود القلعة، وهي التحصين الداخلي للمدينة والقلاع عادة كانت تبنى على طرق المواصلات الرئيسية لحماية الطرق من اللصوص وقطاع الطرق، فتحط القوافل رحالها بالقرب منها، وكان للقلاع مهمة أخرى هي حراسة الطرق من الأعداء وصد أي هجوم عدواني عن البلاد.

والقلاع التي تبنى داخل المدن اتخذت عادة ملجأ يحتمي به الناس في وقت الحرب أي أنها مقر لحماية المدينة[٢] وغالباً، تمثل أعلى نقطة في المدينة لمراقبة حدودها.

وفي فترة الاحتلال العثماني، أقيمت قلاع داخل المدن المسورة زيادة في تحصيناتها الدفاعية، يطلق على تسميتها "ايج قلعة" أي القلعة الداخلية[٣]. والهدف من إقامة هذا النوع من القلاع، هو حماية الوالي واتباعه وجنده من الأخطار الخارجية والداخلية، بالإضافة إلى اتخاذها معقلاً للخصوم السياسيين الذين يخشون جانبهم أي أصحاب النفوذ، خوفاً من الفتنة[٤] كما اتخذت القلعة كوسيلة مهمة للقضاء على الفتن والاضطرابات التي قد تحصل داخل المدن، كما تعتبر من المرافق المهمة للبلد وأكثرها حيوية بالإضافة إلى ما تضيفه من مظهر اجتماعي يمنح الأمير أو الحاكم مكانة وهيبة في قومه.

وفي فترة الاحتلال العثماني، أقيمت هذه القلاع على ضفاف الأنهار التي تقع عليها المدينة لتسهيل مهمة اتصالها بالمدن الأخرى وفي نفس الوقت تأمن خطوط دفاعها في حالات الحصار[٥] وفي الغالب كانت تنشأ في أركان المدينة في موضع حصين[٦]، كما هو الحال في قلعة بغداد والموصل.

---

(١) سعدي إبراهيم إسماعيل: عمارة القلاع وتخطيطها في شمال العراق ص ٩٤، رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة بغداد كلية الآداب قسم الآثار سنة ١٩٨٥.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف: المدينة العراقية بحث نشر في كتاب حضارة العراق الجزء الثامن ص ٣٧٠ دار الحرية للطباعة ١٩٨٤.

(٣) دائرة معارف بطرس البستاني، ج٤، ص ٧٦٥ مطبعة المعارف. بيروت ١٨٨٠.

(٤) جاء في زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية ص ٥١ إن والي بغداد عمر باشا سمي أحمد آغا في قلعة كركوك.

(٥) د. عماد عبد السلام رؤوف: الحياة الاجتماعية في العراق في عهد المماليك ص ٥٠، رسالة دكتوراه قدمت سنة ١٩٧٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

وكانت هذه القلاع معقل الجيش الانكشاري الذي يتولى حراستها وتنفيذ أوامر الباشا[١] ويشرف عليهم وعلى أمور القلعة متول يسمى (آغا) أو محافظ القلعة وزدار[٢]، وتضم في داخلها مرافق بنائية عديدة، منها مخازن الطعام وقاعات لسكنى الجيش، ومستودع الذخيرة والعدد الحربية، ودار ضرب النقود وقصر الوالي والمسجد.

وفي الفترة المتأخرة من حكم الولاة للعراق لم يهتموا بأمر القلعة، وأخذت تفقد مهمتها الأساسية ابتداء من عصر المماليك، خاصة أن بعضهم اتخذوا لهم سرايا خارج القلعة، واقتصرت مهمة القلعة على أن تكون مقراً للجيش ومخزن للأسلحة، وهذا يعني أن عهد المماليك في العراق كان يمثل في أحد جوانبه فقدان السلطة الحاكمة لصفتها العسكرية البحتة، والانتقال إلى الصفة المدنية العادية وبقيت هذه القلاع حتى بعد انتهاء حكم المماليك، رمزاً لهيبة الجيش الانكشاري العثماني[٣].

وبالرغم من تطور فن المدفعية الثقيلة خلال فترة الاحتلال فقد تمسك العثمانيون باسلوب بناء التحصينات التي سادت في العصور الإسلامية السابقة، من أجل استمرار سيطرتهم على العراق ولكونها ذات أهمية استراتيجية واقتصادية. قاموا بترميم بعضها وإدخال التحسينات على البعض الآخر منها مثل: قلعة الموصل باش طابية، وقلعة كركوك، وقلعة اربيل، وقلعة تلعفر، وقلعة العمادية وغيرها من القلاع الأخرى. كما أضافوا إليها قلاعاً جديدة تتصف بأهميتها العسكرية والأمنية خاصة تلك القلاع التي تقع في المدن الواقعة على الخطوط التجارية المهمة، منها مدينة الموصل التي حظيت باهتمام العثمانيين، ففي سنة ١٠٣٥هـ (١٦٢٥م) قام اسماعيل باشا بتحصين المدينة ورمم سورها وبنى بعض الأبراج[٤] وفي بداية القرن السابع عشر قام بكر باشا بن يونس الموصلي بتحصين الموصل[٥]، فرمم سورها وبنى في داخلها على ضفة نهر دجلة قلعة صغيرة عرفت بالقلعة الداخلية (ايج قلعة)[٦] وحظيت هذه القلعة بعناية الوالي حسين باشا الذي عمر وجدد بناء القلعة بأمر من السلطان محمود خان في سنة ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م وبقيت هذه القلعة قائمة حتى بداية القرن العشرين حيث أزيلت مع سور المدينة[٧].

---

(١) سعيد ديوجي: قلعة الموصل في مختلف العصور، مقلة نشرت في مجلة سومر ج١٠، ص١٠٨ سنة ١٩٥٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨.

(٣) د. عماد عبد السلام: المدينة العراقية، ص ٢٧٠.

(٤) العمري: ياسين بن خيرالله: منبة الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ص ٥٤ مطبعة الهدف ١٩٥٥.

(٥) أول وال حكم الموصل بدا حكمه سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م ثم غادرها وعاد إليه مرة أخرى لحكمها ما بين سنة ١٠٣٥هـ/١٠٤٥هـ/١٦٢٥ ـ ١٦٣٥م) وليس سنة ١٠٤٠هـ كما أشار سعدي ابراهيم في كتابه عن عمارة القلاع في شمال العراق ص ٥٤ ولهذا فإن تاريخ البناء يقع ما بين ١٠٣٠ ـ ١٠٤٥ هـ.

(٦) مجلة سومر ١٠، ص١٠٨ سنة ١٩٥٤.

(٧) محمد أمين العمري: منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في سادات الموصل الحدباء ج١ ص ١٣٥ تحقيق سعيد الديوه جي.

وفي قرية أسكي موصل التابعة لناحية بادوش، قام الأتراك العثمانيون ما بين القرنين السابع والثامن عشر للميلاد قلعة أسكي موصل، أنشئت لتكون ثكنة عسكرية للجيش التركي[١].

وفي المناطق الجبلية القائمة في شمال العراق، أقيم العديد من القلاع، بعضها أقامها رؤساء الإمارات البانية لحماية مصالحهم الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وبعضها الآخر أقيم من قبل الولاة العثمانيين للقضاء على ثورات العشائر الكردية التي كانت تقوم بتحريض من الفرس، وفي الوقت نفسه تعمل هذه القلاع للحفاظ على أمن وسلامة طرق القوافل التجارية في تلك المنطقة، ومن هذه القلاع.

١ . قلعة دوكان وبوكد وكلتا القلعتين بنيتا من قبل الوالي محمد باشا في مطلع القرن التاسع عشر[٢]، تقع قلعة دوكان جنوب غرب مدينة دوكان بحوالى ٣كم.

٢ ـ قلعة كويسنجق وتقع في مركز قضاء كويسنجق، شيدت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر خلال حكم الوالي مدحت باشا ١٢٥٦ ـ ١٢٨٩هـ (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢م).

٣ ـ قلعة السليمانية بناها الوالي محمود باشا سنة ١١٩٥ هـ (١٧٨١م).

٤ ـ قلعة شيروانة الواقعة على بعد ٤٢ كم من قضاء كفري[٣].

٥ ـ قلعة جمجمال: تقع ما بين محافظة كركوك والسليمانية.

٦ ـ قلعة حلبجة بناها السلطان سليمان خان[٤].

٧ ـ قلعة بظالم (زلم) بناها سليمان باشا[٥].

٨ ـ قلعة دي زي القائمة في قضاء دي زي.

٩ ـ قلعة بلوط تبة، تقع على الطريق الذي يربط بين جولاء ودربندبخان[٦].

وقد سعى حكام العراق إلى تحصين الطريق القائم بين قضاء جلولاء ودربنديخان وذلك بإقامة العديد من أبراج المراقبة (أبراج الإنذار المبكر) ويتخلل هذه الأبراج قلاع حصينة تقوم فيها قوة عسكرية تعمل على إدارة هذه الأبراج وفي الوقت نفسه لصد أي هجوم. وهذه الأبراج والقلاع أقامها الوالي مدحت باشا الذي حكم العراق ما بين سنة ١٢٨٦ ـ ١٢٨٩ هـ (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢م)[٧].

---

(١) مجلة سومر م (١٠) ٩٥٤ ص ١٠٨.

(٢) رأي الأستاذ المرحوم فؤاد سفر ـ قسم التوثيق المؤسسة العامة للآثار.

(٣) مجلة سومر ج١ ـ ٢م ٢٦ سنة ١٩٧٠ ص ٣٥٣، ٣٥٤.

(٤) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ص ١٦٨ شركة ـ التجارة والطباعة المحدودة بغداد ١٩٣٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤ ص ١٦٨.

(٦) سومر ج١ ـ ٢ ـ م ٢٦، ص ٣٥٤ سنة ١٩٧٠.

(٧) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج٧ ص ١٨٢.

وما تبقى من هذه الأبراج والقلاع نذكر منها على سبيل المثال قلعة الشيخ بابا وقلعة برلوت وبرج السيد محمود[١].

وبالإضافة إلى القلاع السالفة الذكر. والتي أقيمت من قبل الولاة أنشأت كل قبيلة قلعة أو قلاعاً ليتحصن فيها شيخها وأتباعه عند حدوث ثورة أو عصيان من قبل العشائر. كما تستخدم للقضاء على الفتن وحماية أمن المنطقة.

وبداخل هذه القلعة أقيم دار ضيافة وسجن يلقي فيه خصومه ولهذا كانت القلعة ضرورية ملازمة لوجود القبيلة. كما أنها تمثل مظهر سيادتها على الريف. ولهذا فقد أقيمت العديد من القلاع في القسم الجنوبي من العراقن فكان لكل قبيلة قلعة أو قلاع أقيمت بين فروع الأنهار أو على التلال والروابي المرتفعة. أو عند ضفاف المستنقعات معظمها شيدت من مادة الآجر والطين. وأن قسماً منها كان يحصن بالمدافع ومن بين هذه القلاع نذكر أولها:

١. قلعة السماوة: قلعة حكومية تقع في الجهة اليمنى من الفرات ورد ذكرها في حوادث سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٤م)[٢] مما يدل على أنها أقيمت قبل هذا التاريخ وتشير المراجع التاريخية إلى أن هذه القلعة من نوع القلاع الضخمة رفعت سنة ١٩٢٥ من قبل الحكومة العراقية لئلا يتخذها ثوار العشائر معقلاً لهم.

٢. قلعة العرجاء: في منتهى حدود بغداد تقع قلعة العرجاء وهي تقوم على الضفة اليمنى لنهر الفرات وقد ورد ذكرها في أخبار سنة ١١١٩هـ (١٧٠٧م)[٣].

٣. قلعة صالح[٤]: تقع في محافظة ميسان قضاء قلعة صالح. أنشأها صالح رئيس الجند النظامي (الهاتية) عام ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) وهي قلعة صغيرة بنيت من طين.

٤. قلعة سكر: تقع في ناحية قلعة سكر شيدها سكر بن شلب رئيس عشيرة الطوقية سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) حيث كان أفراد هذه القبائل يعيثون فساداً في هذه الأطراف[٥]. وقبل قرن من الزمان كانت تسمى العلة وبسبب هذه التسمية هو أن جماعة من الجند كانوا يحتلونها لصد غارات الأعراب (عشيرة الجابر) فكانت في وجههم كالعلة في البدن[٦].

---

(١) سعدي إبراهيم: عمارة القلاع وتخطيطها في شمال العراق ص ١٠٥ لوحة ٦١.

(٢) يعقوب سركيس: مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار تقديم محمد رضا الشبيبي ج ٢ ص ١٦٢ طبع شركة التجارة للطباعة بغداد سنة ١٩٤٨.

(٣) مرتضى نظمي زادة: كلشن خلفا ص ٣٢٣ ترجمة موسى كاظم نورس مطبعة الآداب النجف ١٩٧١م.

(٤) رجل نجدي أرسلته القوات التركية لتأديب قبائل البوحمد.

(٥) عبد الرزاق الحسني: العراق قديماً وحديثاً ص ١٠٥ مطبعة العرفان ١٩٥٨.

(٦) يعقوب سركيس: مباحث عراقية ج٣ ص ٣٢٠.

٥. قلعة البصرة: وتعرف بـ طحوش الباشا أو ديوان الباشا لا يعرف تاريخ البناء بالضبط إلى أنها كانت قائمة في عهد الوالي علي باشا.

٦. قلعة القرنة: قلعة صغيرة قائمة عند ملتقى نهر دجلة والفرات بناها الوالي حسين باشا واحكم بناءها سنة ١٠٧٦هـ (١٦٦٥م)[١] وجاء في رسالة الكعبي سنة ١٠٧٨هـ (١٦٦٧م) قوله القرنة كانت قلعة صغيرة فلما تولى البصرة علي باشا ابن علي باشا جعلها ثلاث قلاع حصينة، زودت بمدفع وسميت باسم والده بالعلمة فلما انقرضت العائلة استرجعت اسمها القديم وهو القرنة[٢]. وفي القرن السابع عشر عين ابن أمير البصرة حاكماً لهذه القلعة.

٧. قلعة الملوم: تقوم هذه القلعة على نهر الفرات بالقرب من منطقة المستقعات "البطائح" بناها شيخ الخزاعل في القرن الثامن عشر الميلادي لتكون مقراً لحكمه وفي سنة ١٢٦٥هـ "١٨٤٨م" شيد الشيخ مجيد الخليفة قلعة عرفت فيما بعد ببلدة سيعيده.

٨. قلعة العمارة وقلعة الآجر: كانت مدينة العمارة قرية يسكنها الأعراب أقيمت فيها قلعة شاهدها الرحالة تافرنيه في القرن السابع عشر فقال [قلعة مشيدة باللبن[٣] ومثلها بلدة النعمانية أقيمت حول قلعة الآجر شيد هذه القلعة شيخ قبيلة زبيد]. وقد وصفها الرحالة كيبل في سنة ١٨٢٤ بقوله [قلعة مبنية بالآجر][٤].

٩. قلعة الإسكندرية والجزائر: وبالقرب من الجزائر والإسكندرية أقام الوالي اسكندر باشا[٥] قلعة الإسكندرية في الفترة الواقعة ما بين عام ٩٧٤ - ٩٧٧ هـ ١٥٦٦ - ١٥٩٦م.

١٠. قلعة الكوت: شيدها أحد شيوخ مياح سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م) وسميت باسمه كوت سبع[٦] وتعد قلعة الكوت نموذجاً للقلاع القبلية، امتازت بموقعها الحصين . وصفها ريج المقيم البريطاني في العراق خلال سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١م) بقوله [قلعة صغيرة مبنية من طين وقرية جديدة بقربها وهي بإزاء فوهة شط الحي].

وكان أول من أشار إلى هذه القلعة الرحالة تافرنية عام (١٦٠٢م) قال [قلعة الكوت هي غير قلعة العمارة القديمة التي تقع قريبة منها] وشاهد قلعة الكوت الرحالة كيبل (١٨٢٤م) وهي بحالة جيدة ومما زاد من أهمية القلعة عندما أمر الوالي سليمان باشا بتحصينها

---

(١) عبد الرزاق الحسني: العراق قديماً وحديثاً ص ١٥٧.

(٢) الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي: زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر ص ٣٩ مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٤.

(٣) تافرنيه: رحلة إلى العراق في القرن السابع عشر نقلها إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص ٩١. ص ٩٣، مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٤.

(٤) د. عماد عبد السلام: المدينة العراقية ص ١٦٥.

(٥) مرتضى نظمي كلشن خلفا ص ٢٠٧.

(٦) عبد الرزاق الحسني: العراق قديماً وحديثاً ص ١٩٧.

وكان هذا الحديث في أواخر القرن الثامن عشر، كانت الكوت مركزاً قبلياً مهماً حتى بعد نزوح بني لام عن المنطقة إذ اتخذتها قبائل بني ربيعة عاصمة لأمرائها، وعرفت بكوت الإمارة نسبة لأمرائهم[١] وآخر قلعة عرفتها الكوت هي قلعة الخضيري، ونكاد لا نعرف عنها شيء، لولا ذكر قادة الجيش البريطاني ومنهم طونزند في كتاباتهم عن الحرب العالمية الأولى وحصار الكوت[٢].

تقع القلعة عند انحناء نهر دجلة في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة وعلى مسافة ٢٨٠ ياردة من البلدة القديمة وهي ذات شكل منحرف ذي أضلاع مستقيمة ويقع مدخلها الرئيسي على الضلع الشرقية، وللقلعة ثلاثة أبراج شرقي غربي وجنوب شرقي، وفي داخل القلعة حفرت خطوط دفاعية وشيد موقع للمراقبة وحفر فيها ثلاث آبار للحصول على الماء اللازم للشرب وقبل قدوم القوات الإنكليزية كانت القلعة تستعمل في مقاتلة الأعراب، وعند قدوم القوات الإنكليزية دعمت أبراجها وأسوارها. وقد أشاد الإنكليز بدور هذه القلعة الفعال في الحرب العالمية حتى يتصور المرء أنها من القلاع العسكرية الضخمة[٣]، وعلى أية حال فإن القلعة تهدمت بانتهاء الحرب وأزالت آثارها.

بعد هذا العرض السريع للقلاع التي أقيمت في العراق خلال فترة الاحتلال العثماني اخترنا من بينها للدراسة ثلاث قلاع أقيمت في مدينة بغداد منها: ١ ـ قلعة الطير. ٢ ـ القلعة الداخلية. ٣ ـ قلعة الإمام الأعظم.

ولأهميتهم العسكرية والمعمارية ولأننا لم نجد من قام بدراستها من قبل. ولما كانت هذه القلاع قد اندثرت لذا استعنا في دراستنا على كتب الرحلات التي زودتنا بصور ومخططات واضحة لها، هذا بالإضافة إلى وصف المؤرخين العرب كما استعنا بالصور المحفوظة في أرشيف شعبة التصوير.

قلعة الطير (قوشلر قلعة سي)

تقع قلعة الطير في جانب الكرخ من مدينة بغداد[٤] عند رأس جسر القوارب[٥] الذي كان يربط جانب الكرخ بالرصافة[٦]. واستناداً إلى ما أشار إليه العزاوي في كتابة تاريخ

---

(١) د. عماد عبد السلام: المدينة العراقية ص ٣٦٥.

(٢) عادل البكري، تاريخ الكوت ص ٩١ مطبعة العاني ١٩٦٧.

(٣) عادل البكري تاريخ الكوت ص ٩١.

(٤) كاتب جلبي: مصطفى بن عبدالله، جهات مما نقلا عن مباحث عراقية ج٤، ص ٤٢٤.

(٥) أوليا جلبي: محمود ظلي ابن درويش: رحلة اوليا جلبي ب ٤ أجزاء ج٤ ص ٢٤٢ مطبعة استنابول ١٠٠٩٠م أنشئ هذا الجسر في سنة ١٠٣٥هـ ١٦٣٠م.

(٦) هوار كليمان: خطط بغداد ص ٣١. تعريب ناجي معروف، مطبعة العاني بغداد ١٩٦٠.

العراق بين احتلالين فإن القلعة كانت تقوم مقابلة للقلعة الداخلية "وزارة الدفاع حالياً"[1] حيث قال "في محلة الجعيفر يقوم رباط الناصر لدين الله ويجاوره قبر سلجوقي خاتون زوجة الناصر لدين الله وبقربه بنيت قلعة الطير"[2].

وأشار الكاتب التركي الحاج خليفة إلى موقع القلعة بقوله (قوشلر قلعة سي) قلعة الطير هي قلعة بإزاء بغداد تقع على نهر دجلة ولها جنود يرابطون فيها.

وسبب تسمية القلعة بهذا الاسم هو أنه كان يقوم في أرضها دير قديم منذ الجاهلية أي قبل انتشار الإسلام في العراق، وفي هذا الدير كان يقيم راهب يهوى تربية الطيور من نوع الحمام الزاجل، حيث بنى لها برجاً عالياً، ويذكر أن هذا الراهب كان يكتب رسائل للبطرياك والرهبان المقيمين في الأقاليم الكائنة خارج العراق، يخبرهم بأ؛وال العراق والمدائن وكان يرسل رسائله هذه بواسطة الحمام[3].

وظلت هذه التسمية مطلقة على القلعة على مر السنين، وقد جاء وصف هذه القلعة وتعيين موضعها في كتب الرحالة الأجانب والعرب، وكتب المؤرخين، نذكر منها ما جاء في مرآة المماليك في سنة ٩٦١هـ (١٥٥٣م) أوفد السلطان سليمان القانوني أمير البحر سيدي علي ليتسلم الأسطول العثماني الذي كان راسياً في البصرة، فجاء إلى بغداد وقبل وصوله قصد زيارة كربلاء والنجف فعبر نهر دجلة عند قلعة الطير[4].

وجاء في حوادث سنة ١٠٦٥هـ (١٦٥٤م) إن والي بغداد مرتضى باشا سار على رأس جيش إلى البصرة لتأديب حسن باشا، إلا أنه فشل لضعفه في إدارة الجيش، فتخلفت بعض القطعات وعادت لوحدها إلى بغداد فسدت أبواب مدينة بغداد في وجهها فحالت دون دخولها، مما اضطر إلى الاحتماء في قلعة الطير الكائنة في جانب الكرخ[5].

وذكر صاحب أوليا جلبي في حوادث سنة ١٠٨٤هـ (١٦٣٨م) عدد الجنود القائمين فيها[6]، وإن لهذه القلعة محافظاً، كما أشار في وصفه مدينة بغداد إلا أن هذا الجانب من المدينة لا خوف عليه من الأعداء لوجود هذه القلعة الحصينة[7].

---

(١) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ ص ١٨٦، ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه: ج٥ ص ١٥٤ في فترة الاحتلال العثماني اتخذ هذا الرباط تكية للبكتاشيين حتى انتزعه منهم السلطان محمد سنة ٧٤١هـ (عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلاين ج ٤ ص ١٥٣).

(٣) اوليا جلبي: رحلة اوليا جلبي ج٤، ص ٤٢٤.

(٤) مرآة المماليك، ص ١٥.

(٥) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج ٥، ص ٩٠.

(٦) رحلة اوليا جلبي: ج٤، ص ٤١٢، ص ١٤٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤١٧.

كما ذكر نعيما إلى وجود الجيش أي قطعات عسكرية في هذه القلعة عند حديثه عن السرداد خسرو باشا في حوادث سنة (١٠٤٠هـ)[١].

ويصف المؤرخون قلعة الطير بأنها قلعة مربعة الشكل بديعة البناء شيدت بأمر شدادي مكشوفة نحو الشرق، ويحيط بها خندق وفي القلعة تقوم حامية وقائد عسكري[٢] ومخزن لخزن العتاد، أي العدد الحربية، ويدير شؤونها محافظ[٣].

وكان يحيط بهذه القلعة كما يبدو من رواية المؤرخين بادية فقد أشار كاتب جلبي إلى أن جيوش والي بغداد اجتمعت في البادية المحيطة بالقلعة قبل مغادرتها بغداد لتأديب حاكم البصرة حسين باشا[٤] وهذا يدل على أن الأرض التي كانت تحيط بالقلعة خالية من البناء وبمرور السنين، ونظراً لإقامة قوات عسكرية فيها، فقد احتاج الجيش إلى أسواق وحمامات ونتيجة لذلك، فقد أحدثت بلدة صغيرة تحيط بها حمامات ومساجد وأسواق ومرافق أخرى[٥].

القلعة الداخلية

تقع قلعة بغداد الداخلية في داخل المدينة بالقرب من باب المعظم[٦] في محلة المخرم العتيقة[٧] أي أنها كانت تشغل موضع وزارة الدفاع الحالية في منطقة باب المعظم[٨] حيث كانت تشغل مربعاً كبيراً من ركن المدينة في الزاوية الشمالية الغربية من سور بغداد المطل على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وأما الأضلاع الأخرى من القلعة فقد حصنت بالسور معزز بعدد من الأبراج أسطوانية قائمة في الأركان الأربعة من أسوارها[٩] وأبراج نصف أسطوانية تقوم بين كل ركنين من أركان السور وهذا السور بما فيه الأبراج يفصل القلعة عن أحياء مدينة بغداد، ويمتد ليحيط بالقلعة من ناحية النهر أيضاً[١٠] وكان يتوج السور والأبراج ستارة وهي بهذا تشبه البناء الهيكلي للقشلة ولكن بتفاصيل أدق.

ومما لوحظ على بناء القلعة هو أن الجانب الغربي منها يطل على نهر دجلة، وذلك لتسهيل مهمة اتصالها بالمدن الأخرى، ويقابل بناء القلعة من جهة البر قصر المجيدية، ولا

---

(١) مصطفى توفيق تاريخ نعيما ج ٣ ص ٤٦ وقائع سنة ١٠٤٠هـ.
(٢) هوار كليمان: خطط بغداد ص ٣١.
(٣) اوليا جلبي: رحلة اوليا جلبي ٤، ص ٤٢٤.
(٤) كاتب جلبي: كتاب جهات نما نقلاً عن كتاب مباحث عراقية ج٣، ص ٣٠٣.
(٥) هوار كليمان: خطط بغداد، ص ٣١.
(٦) تافرنيه: رحلة تافرنيه إلى العراق في القرن السابع عشر ص ٨٠.
(٧) د مصطفى جواد ود. أحمد سوسة: دليل خارطة بغداد المفصل ص ٦٠ مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٢٨.
(٨) ريجارد كوك: بغداد مدينة السلام ج٢ ص ٢٦٨ ترجمة د. مصطفى جواد ود. فؤاد جميل بغداد ١٩٦٧.
(٩) د. عماد عبد السلام: المدينة العراقية ص ٣٦٩.
(١٠) سراوليس بج: رحلات إلى العراق ترجمة فؤاد جميل ص ٦٢. ٧٤ مطبعة دار الزمان بغداد ١٩٦٦.

يفصل بينهما سوى شارع عريض، كما يجد القلعة شارع الرشيد من الجهة الشرقية كما يبدو لنا واضحاً من خارطة رسمها محمد أمين زكي بيك سنة ١٨٩١ لمدينة بغداد، وسبب تسمية قلعة بغداد بالقلعة الداخلية وذلك لأن جدار سور القلعة يتخلل في داخل المدينة[١] أي أنها أقيمت داخل السور الشرقي لمدينة بغداد الشرقية، ولتقوية وأحكام هذا السور دعم بأبراج يتوجها شرفات محاطة بستارة مدرجة تشبه أبراج وستائر سور القلعة، ولكن تفاصيل أدق.

ولكي يعيق الأعداء من الوصول إلى القلعة واختراقها، أحيط السور بخندق ضيق وعميق ارتفاعه ٢٥ قدماً[٢] وفي القلعة يقوم قصر الباشا[٣].

تاريخ البناء:

أنشئت القلعة في أواخر حكم الأسرة التركمانية قره قوينلو في أواسط القرن التاسع الهجري، حيث اتخذها بكتاش خان والي بغداد سنة ١٠٤١ - ١٠٤٨هـ (١٦٣١ - ١٦٣٨م) مقراً له، ويعتقد الدكتور عماد عبد السلام أن القلعة أنشئت في وقت واحد مع القلعة الداخلية، التي أقيمت في مدينة الموصل[٤] في أواسط القرن التاسع الهجري، وجاء في خطط بغداد أن القلعة عمرت في زمن ولاية الوزير عبد الرحمن باشا والي بغداد سنة ١٠٨١هـ (١٦٧٤م) وأحكمت أبراجها[٥].

وكان الغرض من إنشائها أن تكون مقراً لحماية المدينة. وفي نفس الوقت كانت مقراً لقصر الوالي[٦]. حيث يسكن الباشا فيها في منطقة قريبة من سورها المطل على نهر دجلة.

وبني بلصق القلعة السراي للجيش حيث أقام فيه الوالي درويش باشا[٧]. وفي هذه الفترة الزمنية اختلطت تسمية القلعة والقشلة حيث أن كل بناية تكمل الأخرى.

وصف القلعة من قبل الرحالة العرب والأجانب

لقد جاء وصف القلعة على لسان الرحالة الأجانب والعرب الذين زاروا بغداد منهم المطراقي (لوحة ١) ويبدو من خارط رسمها لمدينة بغداد عين فيها المعالم البارزة للمدينة منها مبنى قائم في الزاوية الغربية من نهر دجلة، يحيط به سور على شكل ربع دائرة، يفصله عن القسم الداخلي من المدينة، ويتوسطه بناء مربع الشكل مغطى بقبة بصلية الشكل أغلب الظن هذا المبنى يمثل ضريح

---

(١) هوار كليمان: خطط بغداد ص ٣٠.

(٢) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ٣٣٩.

(٣) تافرنيه: رحلة تافرنيه إلى العراق في القرن السابع عشر ص ٨١.

(٤) د. عماد عبد السلام: الحياة الاجتماعية في العراق أيام عهد المماليك، ص ٦٩.

(٥) كليمان وهوار: خطط بغداد ص ٢.

(٦) سروالبس بج: رحلات إلى العراق ص ٥٨.

(٧) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ص ٢٣٩.

أو مقام وليس جامعاً حيث أن المصادر التاريخية تؤكد لنا على أن الجامع الذي أقيم في القلعة بني في سنة ١٠٤٨هـ (١٦٣٨م)، في حين أن خارطة المطراقي مؤرخة في سنة ٩٤٤هـ (١٥٣٧م) ومما يؤيد اعتقادنا هذا ما جاء في تاريخ العراق ما بين احتلالين إلى أن مرقد السيد محمد الزمجي متوج بقبة ويقوم بجوار جامع القلعة[١].

ويعتقد أن هذه الزاوية (الربع دائرة) اتخذت قاعدة عسكرية للدفاع عن المدينة كما يبدو من خارطة المطراقي (لوحة واحد) وأن مساحات كبيرة من الأرض خالية من البناء في حين انحصرت مبان قليلة في المجنبة الشرقية المطلة على ضفة النهر.

أما الرحالة تافرنيه الذي زار بغداد مرتين زيارته الأولى وكانت سنة ١٠٤٢هـ (١٦٣٢م) وزيارته الثانية بعد فتح السلطان مراد الرابع، ورسم خارطة لمدينة بغداد سنة ١٦٧٦ قال (والقلعة في داخل المدينة بالقرب من الباب المسمى بباب المعظم)، وهو في شمال المدينة ويطل قسم من القلعة على النهر ويضمها سور بعض أقسامه مسطح.

إن هذا السور مدعم بأبراج صغيرة أقيم فوقها نحو من مائة وخمسين مدفعاً لا عجلات لها. والخندق المحدق بسور القلعة ضيق لا يتجاوز عمقه القامتين أو الثلاث وعلى الخندق أمام الباب جسر قابل للانفتاح. وفي القلعة حامية قوامها ثلثمائة انكشاري يرأسهم أغا[٢].

وفي زيارته للعراق للمرة الثانية أشار إلى أن عدد المدافع القائمة فوق الأبراج خمسون مدفعاً فقط، وأضاف في وصفه للقلعة إلى أن بناء القلعة يقابل قصر المجيدية (مستشفى الجمهوري حالياً) ويفصل بينهما شارع عريض وفي الخارطة التي رسمها لمدينة بغداد أوضح فيها سور المدينة والسور المحيط بالقلعة القائمة في الزاوية الشمالية الشرقية المطلةعلى نهر دجلة ويحيط بها سور مرتفع مدعم بأربعة أبراج، أحدهما يطل على نهر دجلة، وفتح في السور بوابتين إحداهما تطل على نهر دجلة والثانية تقوم في الزاوية الجنوبية الشرقية.

وأشار الرحالة الفرنسي ثيفنو الذي زار بغداد سنة ١٠٧٤هـ (١٦٦٤م) إلى أن القلعة بنيت بالحجارة البيضاء من الخارج، أما داخلها فلا يوجد فيها سوى الأكواخ[٣].

وفي القرن السابع عشر زار الرحالة الهولندي أولفرت دابر[٤] العراق وصور مدينة بغداد من وراء سور المدينة الشرقية احيث نشاهد السور المحيط بالقلعة. وهو مشابه ل لسور المرسوم في خارطة تافرنيه أما الأبراج فقد اختلفت حيث نلاحظ أبراج اسطوانية ضخمة قائمة في

---

(١) بغداد: إصدار نقابة المهندسين ص ٦٤ بغداد ١٩٨١.

(٢) رحلة تافرنيه إلى العراق ص ٧٩.

(٣) Thevenot, voyage Aulerant 3 Vol 1727, Vol 1, 11, p.204.

(٤) ليونهارت رولف: رحلة المشرق إلى العراق وسورية وفلسطين سنة ١٥٧٣ ترجمة سليم طه التكريتي ص ١٧٤ دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٨.

الأركان الأربعة للمربع، ويتوسط كل ضلع من أضلاعها الأربع ببرج نصف اسطواني، وفي داخل القلعة أقيمت مجموعة من المباني ذات سقوف مقببة تتخللها أبراج مرتفعة اسطوانية الشكل، واحد منها أقرب في شكله إلى مئذنة جامع، وأغلب الظن استخدم هذا البرج للرصد وعندما زار الرحالة برج بغداد سنة ١١٩٣هـ (١٧٧٩م) قال (والقلعة مؤلفة من ستائر وبروج عليها عدة مدافع وبجانب المدافع عدد من الأبراج الصغيرة ومزاغل لرصاص البنادق، ويحيط بها خندق عميق يملأ بالماء من نهر دجلة).

أما الرحالة نيبور الذي زار بغداد سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) أشار إلى القلعة ووصفها بأنها قلعة صغيرة تدعى ايج قلعة تقوم في الزاوية الغربية من المدينة وكانت تستخدم في أثناء زيارته مستودعاً لخزن البارود وداراً للصناعة، ويقيم فيها قواد البنجرية الانكشارية[1] الذين كانوا يرسلون من استانبول في كل سنة ويسمون باسم قابو قوس أي حرس الباب لتمييزهم عن الجنود الوطنيين الذين يسكنون في المدينة ذاتها والذي كان يبلغ عددهم زمن الحاج خليفة ١٢ ألف جندي أما قصر الباشا فهو يقع أمام القلعة ويطل على نهر دجلة. وقصر الوالي بناء واسع يحتوي على مرافق كثيرة، ومعظمها كانت متهدمة في فترة زيارة نيبور.

وبالإضافة إلى وصف نيبور للقلعة، زودنا بتخطيط لمدينة بغداد من ضمنها القلعة ونلاحظ من هذا التخطيط أن سور القلعة مدعم بأبراج اسطوانية قائمة في الأركان الأربعة على غرار تخطيط اولفرت، وخمسة أبراج قائمة في السور الغربي والشرقي أما السور الجنوبي فقد دعم كما يبدو لنا من المخطط بستة أبراج نصف أسطوانية وبهذا فقد اختلف عدد الأبراج في هذه الخارطة عما كان عليه في خارطة أولفرت وفي خارطة رسمت في القرن التاسع عشر رسمها الرحالة فيلكس جونز أبرز في رسمه القلعة والأبراج الأربعة القائمة في الأركان، كما حدد لنا موقع المخازن منها مخزن المدفعية واسطبل الحيوانات، ومخازن لخزن الغذاء.

وأشار الرحالة ايفرز الذي زار بغداد بعد جونز، إلى أن أبراج القلعة كانت مزودة بمدافع طويلة ومزاغل لرمي الرصاص وهذا التحصين يجعل القلعة صامدة أمام الأعداء ويستحيل الاستيلاء عليها.

وفي سنة ١٨١٦ وصف الرحالة بكنغهام الحالة التي كانت عليها القلعة بقوله (قلعة صغيرة تقع بالقرب من جسر القوارب والبناء مثلث الزوايا شيد بالآجر وتحتوي القلعة على أماكن قليلة للجند الذين يؤلفون الحامية فيها، وقد انتشرت في مقربة من القلعة[2].

---

(١) نيبور كارستن: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر ترجمها عن الألمانية د. محمود حسين الأمين ص ٣١ دار الجمهورية للنشر والطباعة بغداد ١٩٦٥.

(٢) بكنغهام جيمس: رحلة بكنغهام إلى العراق سنة ١٨١٦ ج١ ص ٦٥ ترجمة سليم طه التكريتي مطبعة أسعد عام ١٩٨٦.

أما الرحالة التركي أوليا جلبي فقد قال: "هي قلعة جميلة مبنية بالحجر والآجر يحيط بها خندق عمقه خمسة أمتار ولها مدخلان أحدهما من جانب القبلة، يواجه داخل المدينة وآخر كان قد تسلل منه بكر صوباشي"[١]. وهو الآن مغلق، أغلق الوالي سليمان باشا الذي جدد بناء سور القلعة خلال حكمه إيالة العراق[٢]، وشاهد أوليا جلبي في داخل القلعة بيوت مبنية من الطين ومخازن الأسلحة والبارود وأرزاق الجنود.

أما هوار فكان وصفه لا يختلف عن وصف اوليا وبكنغهام، وأشار إلى أن سبب تسميتها بالقلعة الداخلية لأن جدار سورها يتغلغل في داخل المدينة. والواقع كما أشرنا من قبل كونها أقيمت داخل المدينة لذا سميت بالقلعة الداخلية وليس سبب دخول جدارها ضمن بناء مدينة بغداد. وأضاف هوار[٣] في صفة للقلعة إلى استخدام مادة الآجر في عملية البناء كما أشار إلى أهميتها في الحصار والثورات والفتن التي تعرضت لها مدينة بغداد.

ويبدو من وصف الرحالة اوليا جلبي وهوار. إن المادة التي استخدمت في بناء القلعة. هي مادة الآجر في حين استخدم الحجر الأبيض في كساء الواجهة الخارجية للسور. وفي خارطة رسمت سنة ١٩٨٠ من قبل رشيد الخوجة وخارطة أخرى رسمت سنة ١٩١٩ رسمها محمد أمين زكي فيها ما يدل حفاظ القلعة على أبراجها وسورها المحيط بها حتى تلك السنة.

وفي أوائل القرن العشرين، وضع الرحالة سارة وهرزفيلد خارطة لمدينة بغداد وضواحيها عين عليها القلعة وأطلق على تسميتها قلعة الطوبجي بدلاً من التسمية أطلقها على القلعة معظم الرحالة الأجانب والمؤرخين العرب والأجانب بالقلعة الداخلية، وأغلب الظن هذه التسمية أطلقت عليها في فترة متأخرة لوجود المدافع القائمة على أبراجها وفي مداخلها.

وإلى جانب الخرائط والمخططات التي نشرت في كتب الرحالة يحتفظ قسم التصوير في المؤسسة العامة للآثار بصور للقلعة تمثل بعضها ما تبقى من هذا الصرح من سور وأبراج، منها صورة رسمت من قبل مدام (ديولد فوا) سنة ١٨٤٤ م هذه الصورة تمثل الواجهة الإمامية للقلعة والمطلة على ساحة الميدان، يتوسطها باب ضخم على غرار أبواب القلاع وزود سور الواجهة بمزاغل ومساقط لصب السوائل الساخنة على رؤوس الأعداء في حالة تعرض باب القلعة للهجوم من قبل الأعداء، وأقيمت المساقط فوق فتحة الباب مباشرة وكما يبدو في اللوحة الدخول إلى لقلعة ليس مباشرة بل يسلك إليها طريقاً مدرجاً منكسراً أو منعطفاً نحو اليسار، وتوج الجزء العلوي من السور بشرفات على غرار شرفات سور الباب الوسطاني الذي لا زال قائماً.

---

(١) أوليا جلبي: رحلة أوليا جلبي ج ٢ ص ٤١٨.

(٢) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ ص ٤١١.

(٣) كليمان و هوار: خطط بغداد ص ٣١.

وللقلعة أكثر من باب منها باب رئيسي يفتح في النهار يطل على ساحة الميدان، والذي سبق الحديث عنه وباب آخر سري يطل على نهر دجلة كما هو الحال في بناء قلعة الموصل الداخلية.

وكان يجاور القلعة عادة ساحة مكشوفة تسمى الميدان أو ميدان الجيش أعد لتدريب القوات العسكرية ويعتبر ميدان القلعة الداخلية من أكبر الفضوات القائمة في بغداد مساحة وأهمية[1] حيث تعرض فيه الخيول للبيع، ويمتلئ بالناس على اختلافهم للاستمتاع بشرب القهوة والتدخين في المقاهي المحيطة به، وفي الوقت نفسه هو الميدان العام لاستعراض الجيش وتنفيذ عقوبات الإعدام.

ويبدو من واجهة السور الخارجي المدعم ببرج اسطواني، يبدو السور الخارجي والبرج في حالة جيدة وقد استخدمت مادة الآجر في عملية البناء وأحيط الجزء العلوي للمسور والبرج بسلك معدني، لكي يعيق عملية التسلل إلى داخل القلعة.

وفي واجهة القلعة المطلة على نهر دجلة، نلاحظ هذا الجزء من السور خال من الأبراج ونلاحظ بعض المباني القائمة في هذا الجانب من السور تطل على نهر دجلة نوافذ، واستخدم السلك المعدني في إحاطة الحزء العلوي منه.

كما حصلنا على صور تمثل القلعة من الداخل منها حيث نلاحظ الواجهة الداخلية لمباني القلعة، وهي تطل على الفناء بدخلات بعضها نافذة على هيئة أواوين متوجة بعقود مدببة تفصل بين إيوان وآخر دعامة نصف إسطوانية ملتصقة بالجدار، ويتوج كل دعامة ستارة على غرار الستارة التي تتوج الدعامات القائمة في مبنى السراي كما نلاحظ مجموعة من المدافع قائمة في فناء القلعة.

وتبدو الواجهة الداخلية للسور المحيطة بالقلعة وقد تهدمت معظم المباني الملتصقة به وما تبقى من السور نجد المزاغل التي أقيمت في الجدار وهي على هيئة نافذة مستطيلة الشكل طولها يكفي لوقوف الرامي للدفاع عن السور في حالة تعرضها لهجوم الأعداء قائمة في الجزء السفلي والعلوي من السور، وكما يبدو من اللوحة فإن سور القلعة سميك.

وصورة أخرى للقلعة حيث تبدو بعض المباني المتهدمة ملاصق بناؤها لسور القلعة. وهي عبارة عن مجموعة من الغرف والممرات وما تبقى منها تظهر الوحدات المعمارية التي كتانت قائمة في هذا الجانب من بناء القلعة. حيث نلاحظ المزاغل قائمة في الجزء العلوي والسفلي من السور من السور وهي على نفس هيئة المزاغل التي شاهدناها فيما سبق كما نلاحظ إقامة العقود المدببة ولهذه العقود وظيفة معمارية حيث بواسطتها تم تحويل الجزء

---

(١) د. عماد عبد السلام: المدينة العراقية، ص ٣٨٠.

العلوي المربع من بناء الغرفة إلى مدور لإقامة القبة وقد حصرت هذه العقود بين أكتافها مثلثات كروية.

إن وجود هذه المثلثات دلالة على استخدام عنصر القباب في عملية التسقيف هذا بالإضافة إلى القبة استخدم القبو لتسقيف الممرات ويقوم داخل القلعة جامع عرف بجامع القلعة، حيث جاء في وقفية مؤخرة في سنة (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م)، أن هذا الجامع أنشأه جلال الدين ابن المرحوم بهاء الدين في محلة السكة خانة الواقعة في القلعة واعتقد خطأ أنه من بناء السلطان (مراد الرابع)[١].

وفي القلعة يقوم الجيش الانكشاري[٢] ومستودع الذخيرة والعدد الحربي ودار ضرب النقود (السكة خانة) والدواوين التركية للدولة[٣] وقصر الوالي[٤] وتكية[٥] وجامع وبيوت لسكنى الجيش ومستودع لأرزاق الجنود ومخبز لخبز الصمون[٦] وفي باب القلعة على يمين الداخل إليها، يقوم مدفع صغير وضع للتحية العسكرية أثناء دخول الوالي أو قائد الجيش الانكشاري، وعند مغادرة السطلان مراد الرابع بغداد، ترك فيها أحد مافعه الثقيلة، وليوضع عند باب القلعة[٧] والذي يعرف بطوب أبو خزامة وهو مدفع كبير طوله أربعة أمتار وقطر فوهته نصف متر، مصنوع من النحاس[٨]، استخدم هذا المدفع من قبل جنود السلطان مراد الرابع عند فتحه مدينة بغداد[٩].

المميزات المعمارية لبناء القلعة

لقد امتاز بناء القلعة بمميزات معمارية هامة منها:

١ - الجدران: تعتبر الجدران الخارجية المحيطة بالمبنى بمثابته الأسوار، وهذه الجدار امتازت بارتفاعها وخلوها من النوافذ ولتقويتها ودعمت أركانها الأربع بأبراج اسطوانية وأبراج نصف اسطوانية قائمة بين الأركان الأربع وتعتبر هذه الأبراج إحدى المظاهر اعسكرية المهمة في القلعة، ففي فترة الاحتلال العثماني جعلت أبراج القلاع صلدة وضخمة، لكي تتحمل قوة واهتزاز المدفع القائم فوقها أثناء الرمي هذا بالإضافة إلى ما تضيفه على مظهر تلك البنايات من بهاء ومن التناسب.

---

(١) عباس العزاوي: تاريخ العراقي بين احتلالين، ج٤، ص ٣٣٩.
(٢) ريجارد كوك:/ بغداد (مدينة السلام)، ج٢، ص ١٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٠.
(٤) نيبور: رحلة نيبور إلى العراق.
(٥) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج٤، ص ٣٣٩.
(٦) د. عماد عبد السلام: المدينة العراقية ص ٢٦٩.
(٧) علي الوردي لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ج١، ص ٨٥ مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٩.
(٨) محمد رؤوف الشيخلي: مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج١ م١ ص ٥٩ مطبعة البصرة ١٩٧٢.
(٩) بيج بيرتون: البرج في العمارة الإسلامية الحربية. ترجمة لجنة دائرة المعارف الإسلامية ص ١٧.

وزودت هذه الأبراج والأسوار بمزاغل تقوم في الجزء العلوي منها وزعت بانتظام وهذه المزاغل بنيت على شكل نافذة واسعة من الداخل بحيث تسمح لوقوف أو جلوس الحارس للدفاع عن القلعة، ويطل من الخارج بفتحة ضيقة عن طريقها يتم إطلاق الرصاص على الأعداء.

أما الأبراج القائمة في الأركان كما يبدو من الصورة فقد بنيت على غرار أبراج القلاع والخانات التي أقيمت في تلك الفترة في العراق واستخدمت من العقود المدببة لكي تتوج الحنايا التي أقيمت حول البدن الأسطواني، وما تبقى من سقف أبراجها يبدو استخدام القباب في عملية التسقيف وإحداث مزاغل في هذا الجزء السفلي والعلوي، من جدار البرج لاستخدامها في عملية الدفاع عن القلعة في حالة تعرضها للهجوم.

الأحداث التي جرت على بناء القلعة

لقد مر على بناء القلعة أحداث كثيرة منها في سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣م عجز الصوباشي الدفاع عن القلعة، وعن مقابلة قوات الشاه والصمود أمامها لذلك طلب إيقاف القتال، فدخل عيسى خان مع ألف من المقاتلين واستولى على القلعة الداخلية، وفاجأ سكانها بتسليط النار عليهم وشردت أطفالهم[١].

وفي سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م طغى ماء دجلة فغرقت بغداد منها بستان محاذية لسور القلعة فأحدث إسماعيل ابن نجم ثغرة في سور القلعة فاتسع نتيجة لقوة الماء، مما أدى إلى هدم ما تبقى من السور، فتركه وانهزم فأخبر بكتاش خان بما حدث، فقام من مجلسه لكي يقف على الحدث[٢] وعند دخول السلطان مراد الرابع بغداد سنة ١٠٤٨هـ - ١٦٣٨م، ظلت القلعة محاصرة من قبل الجند، ونتيجة لهذا الحصار فقد تهدمت بعض أجزاء من القلعة على أثر حريق شب في مخازن البارود[٣] وفي عهد الوزير الكتخدا أحمد باشا باني جامع الأحمدية. أمر بتحصين القلعة ولا سيما حصن أو برج من أبراجها كان يعرف ببرج جاوش قلعة سي، ثم سمي فيما بعد باسمه قلعة أحمد باشا، كما جدد أحمد أبراجها والمسمى برج بغداد.

وجاء في حوادث سنة ١٧٧٩ إلى حدوث ثورة في تلك السنة ضد حسن باشا فخشي الوالي على نفسه من أهالي بغداد، فالتجأ إلى القلعة الداخلية ليحمي نفسه منهم، وعندما حل الظلام تسلل الوالي من باب القلعة المطل على نهر دجلة (الباب السري) وعبر النهر إلى جانب الكرخ هرباً من الثوار[٤].

---

(١) مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا ص ٢٩١.

(٢) أحمد بن عبدالله الغرابي: تاريخ الغرابي ج٢، ص ١٠٩ رقمه في سجل مكتبة المخطوطات بغداد ٩٣١١.

(٣) مرتضى نظمي زادة: كلشن خلفا ص ٢٨٧.

(٤) د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج١ ص ١٦٨.

وعلى عهد الوالي مدحت باشا هدم القسم المحاذي إلى القلعة، وكان على أبراج السور أيامه خمسون مدفعاً من النحاس. وفي سنة ١٩١٧ عند دخول القوات الإنكليزية بغداد ارتقى

ضابط بريطاني إلى سطح القلعة في الجانب الغربي منها، والقريب من باب المعظم ورفع عليه العلم البريطاني وبعد خمس وأربعين دقيقة من رفعه نقل العلم إلى برج الساعة الكائن في ساحة القشلة لأنه أكثر ارتفاعاً[١].

بقي بناء القلعة قائماً على مر السنين ففي نيسان سنة ١٩٢٢، تم ترميم بنائها وبعد الانتهاء من هذا التعمير نقلت إليها وزارة الدفاع[٢] واتخذتها مقراً لشؤونها العسكرية[٣] وفي (١٠) حزيران من ا لسنة نفسها انتقلت دائرة العينة من المخبز العسكري إلى القلعة حيث أسست مستودعاتها، كما نقلت إليها البطرية الثانية ودائرة المحاسبات وكتيبة الهاشمي[٤].

وفي ٢٦ آب لسنة ١٩٢٢، انتقلت وزارة الدفاع منها بعد أن آلت بعض معالمها للهدم والسقوط، وعندما ازدادت تجهيزات الجيش، وتنوعت مواردها وكثر استعمالها تأسس المعمل العسكري للجيش العراقي في آب ١٩٢٢ في القلعة[٥].

واستمر بناء القلعة قائماً حتى سنة ١٩٢٩، حيث وردت إشارة تاريخية تشير إلى تشكيل مدرسة الثقلية الآلية فيها، إلا أن التوسع العمراني لمدينة بغداد أدى إلى هدم معظم مرافق القلعة بما فيها السور والأبراج وباب القلعة المطل على ساحة الميدان. وما تبقى منها سور قائم إلى الوقت الحاضر ملاصقاً لجدار قاعة الشعب وجامع الأزبك داخل مبنى وزارة الدفاع الحالية.

قلعة الإمام الأعظم

من القلاع الأخرى التي أقيمت في مدينة بغداد. قلعة الإمام الأعظم وهي قلعة صغيرة أقيمت في أطراف ضريح الإمام الأعظم وعلى الضفة الشرقية لنهر دجلة، في الجهة المقابلة لضريح الإمام موسى الكاظم، وسبب بنائها هو عند دخول السلطان سليمان القانوني إلى العراق سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م وجد أضرحة الأئمة قد تهدمت نتيجة لغزو الفرس لبعض المدن العراقية، ومنها ضريح الإمام الأعظم في بغداد، وجاء في سجل عثماني[٦] وفي رحلة أولياجلبي

---

(١) د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج، ص ٢٢٣.

(٢) الجيش العراقي: كتاب إصدار دائرة التوجيه السياسي، وزارة الدفاع ص ٢٥٠ بغداد ١٩٨١.

(٣) ريجارد كوك: بغداد مدينة السلام ج٢، ص ٥٨٩.

(٤) الجيش العراقي ص ٢٠٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٥، ٢٠٣.

(٦) ثريا محمد: سجل عثماني الجزء الأول ص ١٠ استانبول دار الطباعة العامرة١٢١١ عام.

أن سليمان باشا في سنة ٩٤١هـ بنى قبة عالية على قبر الإمام، وبنى بعض العمائر منها مدرسة وجامع ودار ضيافة[١] وحمام وخان ونحو ٤٠ . ٥٠ دكان، وبنى قلعة وعين لها زدار (محافظاً) وجند لحراستها بلغ عددهم مائة وخمسين كما زودت القلعة بمعدات حربية ومدافع وأضاف الجلبي إلى أن هذه القلعة كانت مربعة الشكل[٢].

وجاء في رحلة نيبور إلى أن الأتراك أحاطوا بناء جامع وضريح الإمام الأعظم، بستة حصون وحفروا حولها خندقاً.

وجاء في سلمانامه مفاده أن السلطان سليمان باشا أمر بتعمير قبة الإمام الأعظم وأسس دار ضيافة للوارد والصادر، غداء وعشاء، واتخذ سوراً لحراستها من أيدي العابثين[٣].

وأشار العزاوي بكتابه تاريخ العراق بين احتلالين إلى أن سليمان باشا عمر في أطراف ضريح الإمام الأعظم قلعة وجامعاً ودار ضيافة[٤] ووصف القلعة بقوله ابناء مربع الشكل باستطالة قليلة، يحيطها ثمانية آلاف خطوة، وفي أطراف من الخارج بساتين وحدائق[٥].

من هذه النصوص السالفة الذكرو التي أعطت لنا تصوراً واضحاً عن شكل هذه القلعة وبنائها، فهي قلعة مربعة الشكل باستطالة قليلة محيطها ثمانية آلاف خطوة يحيط بها سور مدعم بستة أبراج غلى غرار أبراج القلاع، ويحيط بالسور خندق وفي داخل القلعة أقيمت مبان منها جامع وضريح ومدرسة الإمام الأعظم ودار ضيافة وحمام، ودار ضرب النقود الذي فتح أو أقيم فيما بعد سنة ١٠٣٥م/ ١٦٢٥م بأمر السردار حافظ أحمد باشا بسبب قلة النقود في مدينة بغداد منها الأقحة[٦].

وكان لهذه القلعة دزدار (محافظاً) وجند لحراستها بلغ عددها مائة وخمسين، والقلعة مزودة بمعدات حربية ومدافع للدفاع عنها.

ومما يؤسف له أنه لم يبق من بناء القلعة ما يرشدنا إلى طراز بناء السور والأبراج، كما أننا لم نعثر بين صفحات كتب الرحالة وأرشيف شعبة التصوير في المؤسسة العامة للآثار على صور تمثلها، إلا أننا نستنتج من وصف الرحالة والمؤرخين لها بأنها قلعة صغيرة لم تكن بالتحصين والعظمة التي كانت عليه القلعة الداخلية.

---

(١) اوليا جلبي: رحلة أوليا جلبي ج ٤ص ٤١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٢٦.

(٣) عبد العزيز ال قره جلبي: سليمانامة ص ١١٩ طبع بولاق مصر ١٢٤٨.

(٤) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤، ص ٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٦) مصطفى جلبي الرومي الملقب بنعيا: روضت الحسين في خلاصة أخبار الخافقين تاريخ نعيما ج ٣، ص ٣٦٩.

المصادر والمراجع

١ - أوليا جلبي محمد ظلي ابن درويش ت ١٠٠٩: رحلة أوليا جلبي مطبعة استانبول عام ١٩١٤.

٢ - الشيخلي: محمد رؤوف السيد طه، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها، ج١ م٨ مطبعة البصرة ١٨٧٢.

٣ - العمري: ياسين بن خير الله: زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية تحقق الدكتور عماد عبد السلام. مطبعة الآداب في النجف ١٩٧٤.

٤ - العمري: منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء مطبعة الهدف ١٩٥٥.

٥ - العمري: محمد أمين، منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في سادات الموصل الحدباء تحقيق سعيد الديوجي مطبعة الجمهورية الموصل ١٩٦٧.

٦ - عبد الكريم العلاف: بغداد القديمة، ط١، مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٠.

٧ - الغرابي: أحمد بن عبدالله البغدادي. تاريخ الغرابي "تاريخ العراق من سنة ١٢٢٩ - ١٢٤٦ رقمه في سجل مكتبة المخطوطات بغداد ٩٢١١.

٨ - بكنغهام: جيمس. رحلة بكنغهام إلى العراق ١٨١٦ ترجمة سليم طه التكريتي مطبعة دار البصري ١٩٧٠.

٩ - بج: سرواليس رحلات إلى العراق ترجمة فؤاد جميل ط ١ مطابع دار الزمن بغداد ١٩٦٦.

١٠ - تافرنيه: رحلة تافرنيه إلى العراق فيا لقرن السابع عشر نقلها إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد بغداد ١٩٤٤.

١١ - ثريا: محمد. سجل عثماني أو تذكرة مشاهير العثمانيين بـ٤ أجزاء استانبول دار الطباعة العامرة ١٣١١هـ.

١٢ - دائرة معارف بطرس البستاني ج٢ مطبعة دار المعارف بيروت.

١٣ - ريجاردكوك: بغداد مدينة السلام دونت حوادثه من الربع الأول في القرن التاسع عشر ترجمة الدكتور مصطفى جواد ود. فؤاد جميل بغداد.

١٤ - ريج: لكوديوس: جيمس: رحلة ريج في العالم سنة ١٨٢٠ نقلها إلى العربية بهاء الدين نوري مطبعة السكك الحديدية عام ١٩٥١.

١٥ - سعدي ابراهيم اسماعيل: عمارة القلاع وتخطيطها في شمال العراق رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة بغداد كلية الآداب سنة ١٩٨٥.

١٦ - سعيد الديوه جي: قلعة الموصل في مختلف العصور "مقالة نشرت في مجلة سومر ج ١٠ سنة ١٩٥٤.

١٧ - علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦١.

١٨ - د. عماد عبد السلام رؤوف: الحياة الاجتماعية في العراق في عهد المماليك رسالة دكتوراه سنة ١٩٧٦.

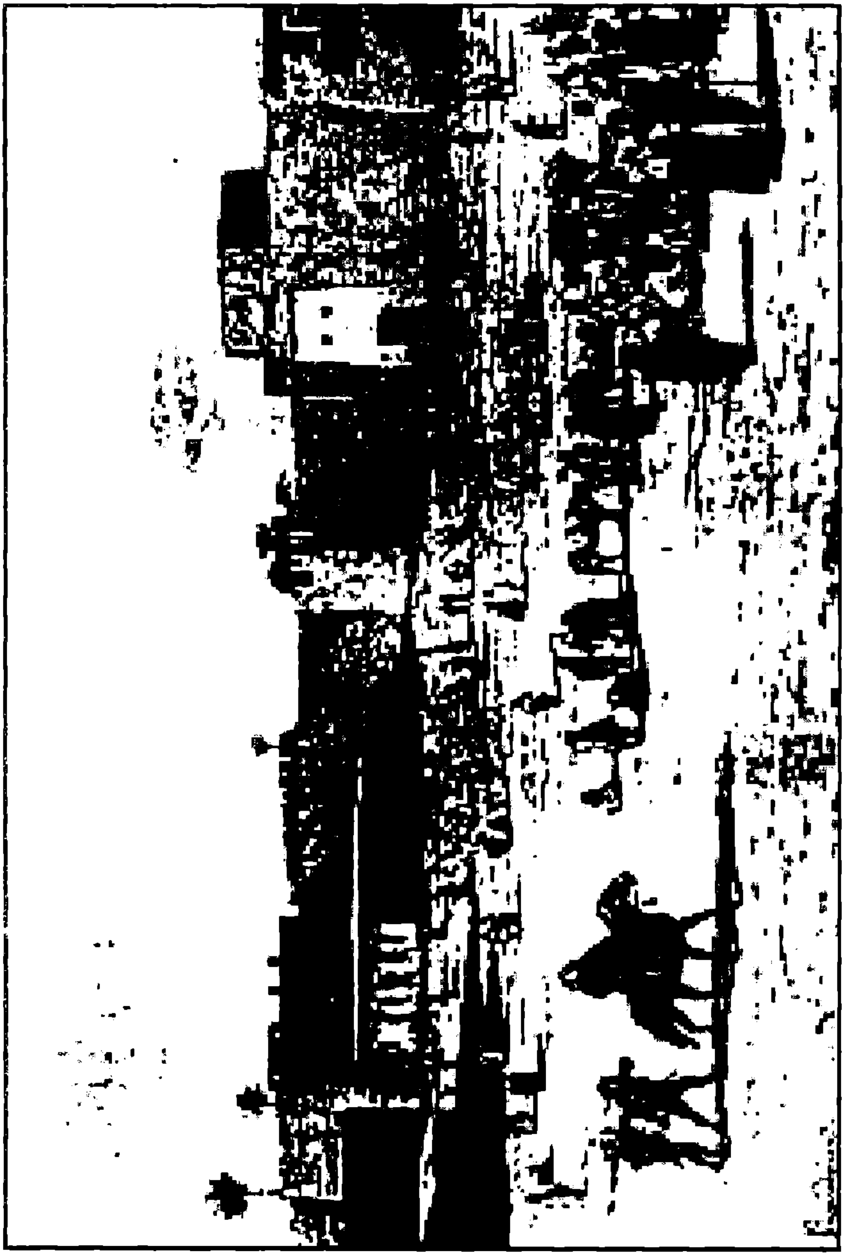
١٩ - د. عماد عبد السلام رؤوف: المدينة العراقية مبحث نشر في كتاب حضارة العراق ج٨ دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٦.

٢٠ - عبد الرزاق الحسني: العراق قديماً وحديثاً : مطبعة العرفان عام ١٩٥٨.

٢١ - عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين شركة التجارة والطباعة المحدودة بغداد ١٩٣٩.

٢٢ - عادل البكري: تاريخ الكوت . مطبعة العاني بغداد ١٩٦٧.

٢٣ - عبد العزيز آل قره جلبي: سلمانامه/ طبع بولاق مصر ١٢٤٨. ■



الواجهة الأمامية للقلعة والمطلة على ساحة الميدان

من تاريخ المشهد الكاظمي

الشيخ محمد حسن آل ياسين

الكوفة
Kufa Academy



الشيخ محمد حسن آل ياسين.

من تاريخ
المشهد الكاظمي

في رسالة إثبات كرامات الأولياء لشهاب الدين السجاعي ص ٦:

"قال العارف بالله تعالى سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي: وقد كان الإمام الشافعي يقول:

قبر موسى الكاظم الترياق المجرب".

❖ ❖ ❖

أبو علي الخلال شيخ الحنابلة:

"ما همّني أمرٌ فقصدتُ قبر موسى بن جعفر فتوسّلت به إلا سهّل الله تعالى لي ما أحب".

❖ ❖ ❖

قاضي القضاة ابن خلكان:

"مشهد عظيم فيه [من] قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما لا يحد".

❖ ❖ ❖

الشاعر عبد الغفار الأخرس الموصلي:

موطن تنزل الملائك فيه ومقام يسر فيه الفؤادا

❖ ❖ ❖

الشاعر عبد الباقي العمري الفاروقي:

روضة للصدور فيها ورود بأكف الألحاظ ذات قطوف
كلما زرتُها أقول لعيني هذه كعبة الجلال فطوفي

❖ ❖ ❖

مدينة الكاظمية

أو ما كان يسمى «مقابر قريش» ثم «المشهد الكاظمي»

بلدة قديمة ذات ماض عريق ومجد أثيل، وهي جزء لا يتجزأ من بغداد قديماً وحديثاً، ولكنه جزء مهمل - أدبياً - لم يلق أي اهتمام حتى من أبنائه، ولم ينشر عنه ما يستحق الذكر عدا كراسات صغيرة تدور حول تاريخ المشهد بالدرجة الأولى، وهذه الكراسات - على قلّتها - قليلة المادة والمعلومات، كثيرة الخطأ والسهو، بحيث لا تكاد تسمن أو تغني من جوع.

ودفعني هذا الإهمال الذي منيتْ به "الكاظمية" إلى التصدي لكتابة تاريخ واسع يشمل سائر جوانب الحياة فيها منذ اتضحتْ فيها معالم الحياة. وكل أملي بالله تعالى أن يمدني بالعون والتوفيق؛ لأسارع في إصدار تلك البحوث التي أودعت فيها جهود سنين طويلة من عمر الشباب، عسى أن يكون فيها ما يذكر بما سلف من مجد هذه البلدة المقدسة؛ ويسجّل ما أهمل من أخبارها وما اندثر من آثارها، وأن يساهم مع الدراسات التاريخية الأخرى في كشف الصفحات المجهولة من تاريخ بغداد والبلدان العراقية.

وسيجد القارئ اثر إهمال المؤرخين للكاظمية بارزاً للعيان، حيث يكون ذلك سبباً في بروز بعض الفجوات أثناء البحث؛ بسبب نقص منابعه الرئيسة الضيّقة التي لم تتجاوز النتف المقتضبة والذكر العابر القصير.

ولقد حظيت المنطقة التي تُدعى بعض أجزائها اليوم بـ"الكاظمية" باهتمام خاص من الحكومات المتعاقبة منذ عشرات القرون، حيث نجد أن الملك الكشي كوريكالزو الأول قد بالغ في العناية بهذا الجزء من رقعة ملكه ببنائه لمدينة "عقرقوف" العظيمة التي كانت تسمى "دور - كوريكالزو". ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم في جوار الكاظمية على نحو ستة أميال عنها من جهة الغرب، وهي تنطق بالمهارة الفائقة المبذولة في بناء هذه المدينة الكبيرة وصرحها الشاهق.

وتدلنا ضخامة أبنية المدينة وجودة بنائها والإسراف فيه على أن المدينة ظلت مأهولة حيناً طويلاً من الدهر، ويرجح كثيراً أنها كانت عاصمة السلالة الكشية منذ بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإلى نهاية السلالة الكشية.

وبهذا تصبح "عقرقوف" ممثلة لعهد من عهود العراق القديمة التي تعد مصادر معرفتنا به قليلة جداً؛ بحيث يكاد يكون من هذه الناحية من العهود المظلمة المجهولة، على الرغم من كونه من العهود المهمة في تاريخ العراق[1].

---

(١) دليل تاريخي على مواطن الآثار في العراق: ٢٧ - ٣٠.

ثم تظل "عقرقوف" أيضاً هي الأثر الأول الذي وصل إليه علمنا في أصل الأرض التي سُميت بعض جوانبها بـ"الكاظمية" بعد ذلك بعشرات القرون.

وبقيت هذه الأرض مجهولة التاريخ لدينا في العهود التالية كالعهد السلوقي والأخميني والفرثي والساساني، وإن رجح - في أكثر الظن - أنها كانت موضع العناية والرعاية؛ وغير خالية من الحياة والسكان؛ ولو لغرض الزراعة على الأقل.

وكان الاسم الأخير لهذه المنطقة قبل بناء بغداد هو "الشونيزي" ويرجح أن تكون هذه التسمية قد أطلقت بعد انتهاء العهد الساساني. لأن الاسم عربي، والشون في اللغة هو الحبة السوداء، والنسبة إليها شونيزي[١].

ويروي الخطيب البغدادي سبب التسمية بـ"الشونيزي" فيقول: "سمعت بعض شيوخنا يقول: مقابر قريش كانت قديماً تعرف بمقبرة الشونيزي الصغير، والمقبرة التي وراء التوثة تعرف بمقبرة الشونيزي الكبير، وكان أخوان يقال لكل واحد منهما "الشونيزي" فدفن كل واحد منهما في إحدى هاتين المقبرتين ونسبت المقبرة إليه"[٢].

❖ ❖ ❖

وفي عام ١٤٥هـ ابتدأ المنصور العباسي بتأسيس مدينة بغداد[٣]، وتم البناء - في رواية الخطيب البغدادي - في عام ١٤٦هـ[٤]، ولكن الطبري يصرح في حوادث سنة ١٤٩هـ أن المنصور قد استتم في هذه السنة بناء سور المدينة وفرغ من خندقها وجميع أمورها[٥].

ومهما يكن من أمر، فإن المنصور لما انتهى من عمارة مدينته بالجانب الغربي من بغداد اقتطع مقبرة الشونيزي الصغير فجعلها مقبرة[٦]، ولعله افترضها خاصة بأسرته وذوي قرباه فأسماه "مقابر قريش"، وربما اختار لفظة "قريش" ليشير إلى مشاركة سائر القرشيين - العباسيون والعلويون وفي طليعتهم - في هذه المقبرة. وقد تسمى أيضاً مقابر بني هاشم[٧].

ودرس مع مرور الأيام اسمها الأول "الشونيزي الصغير" واشتهرت باسمها الجديد.

---

(١) بحثت تاريخ هذه المنطقة قبل الإسلام وبعده بالتفصيل في كتاب باسم (تاريخ مدينة الكاظمية) لا يزال مخطوطاً.

(٢) تاريخ بغداد: ١٢٢/١ مثله في وفيات الأعيان: ١٠٢/٢.

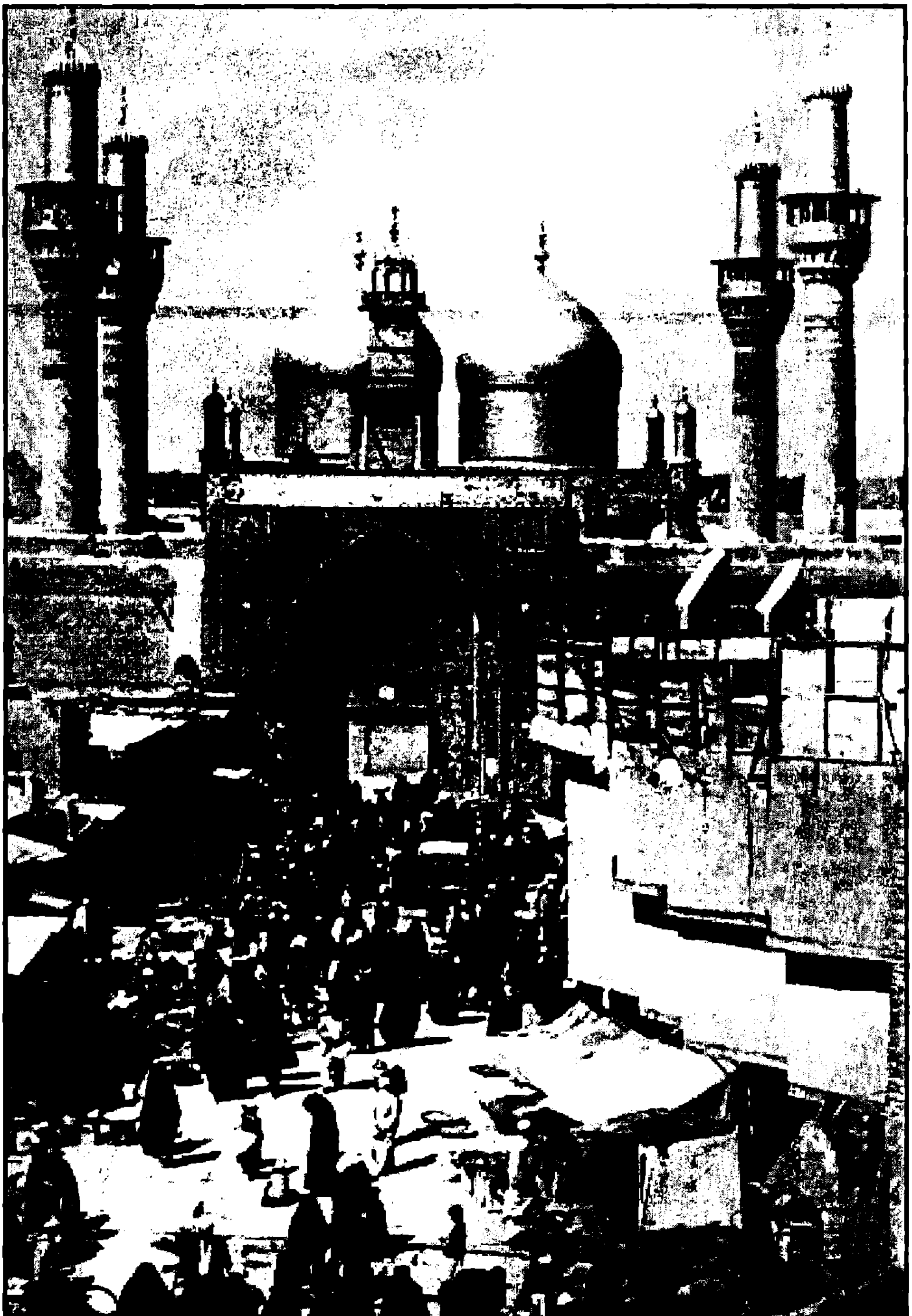
(٣) تاريخ الطبري: ٢٣٤/٦ تاريخ بغداد: ٦٦/١.

(٤) تاريخ بغداد: ٦٦/١.

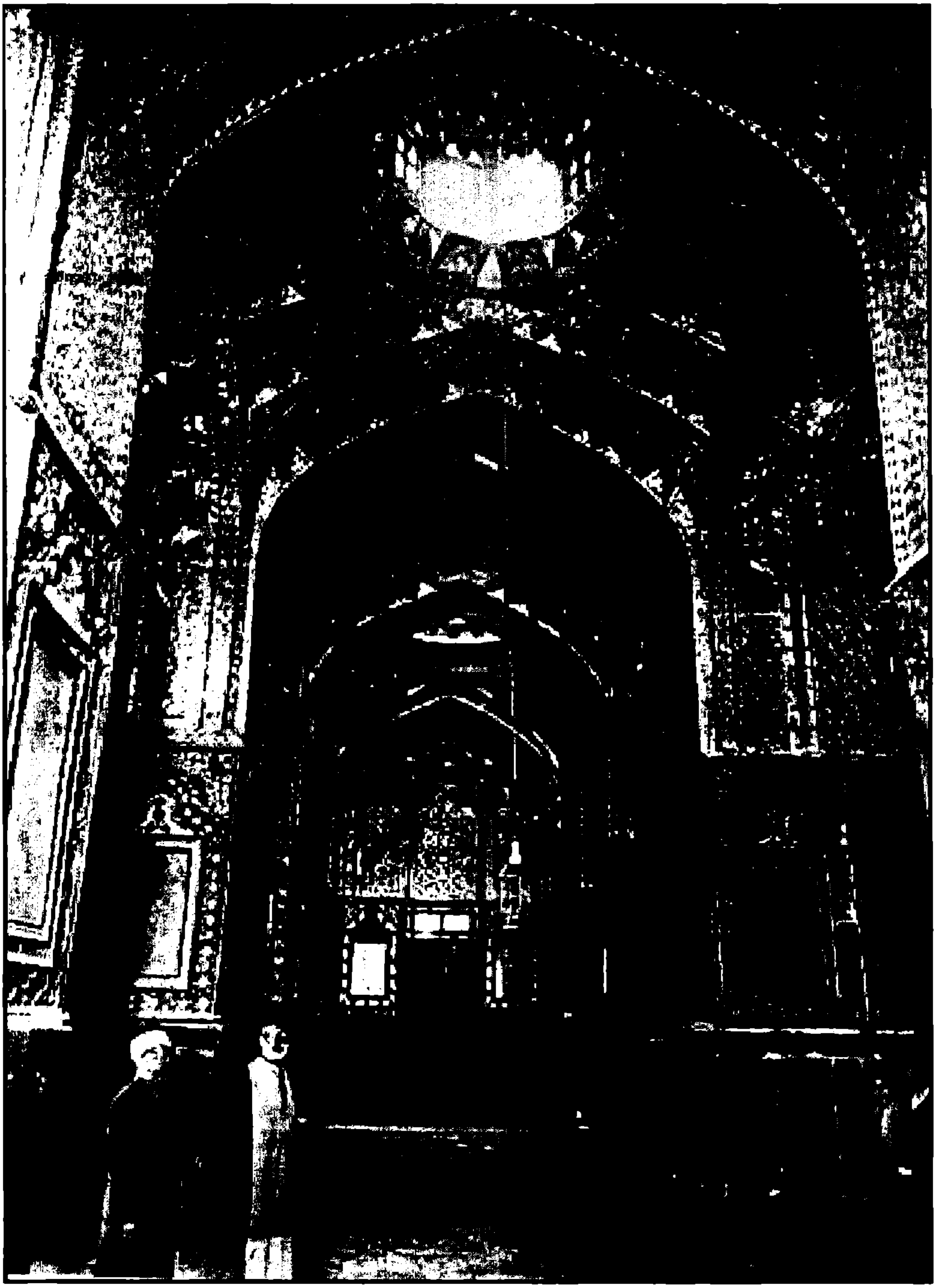
(٥) تاريخ الطبري: ٢٨٥/٦ مثله في معجم البلدان.

(٦) معجم البلدان: ١٠٧/٨.

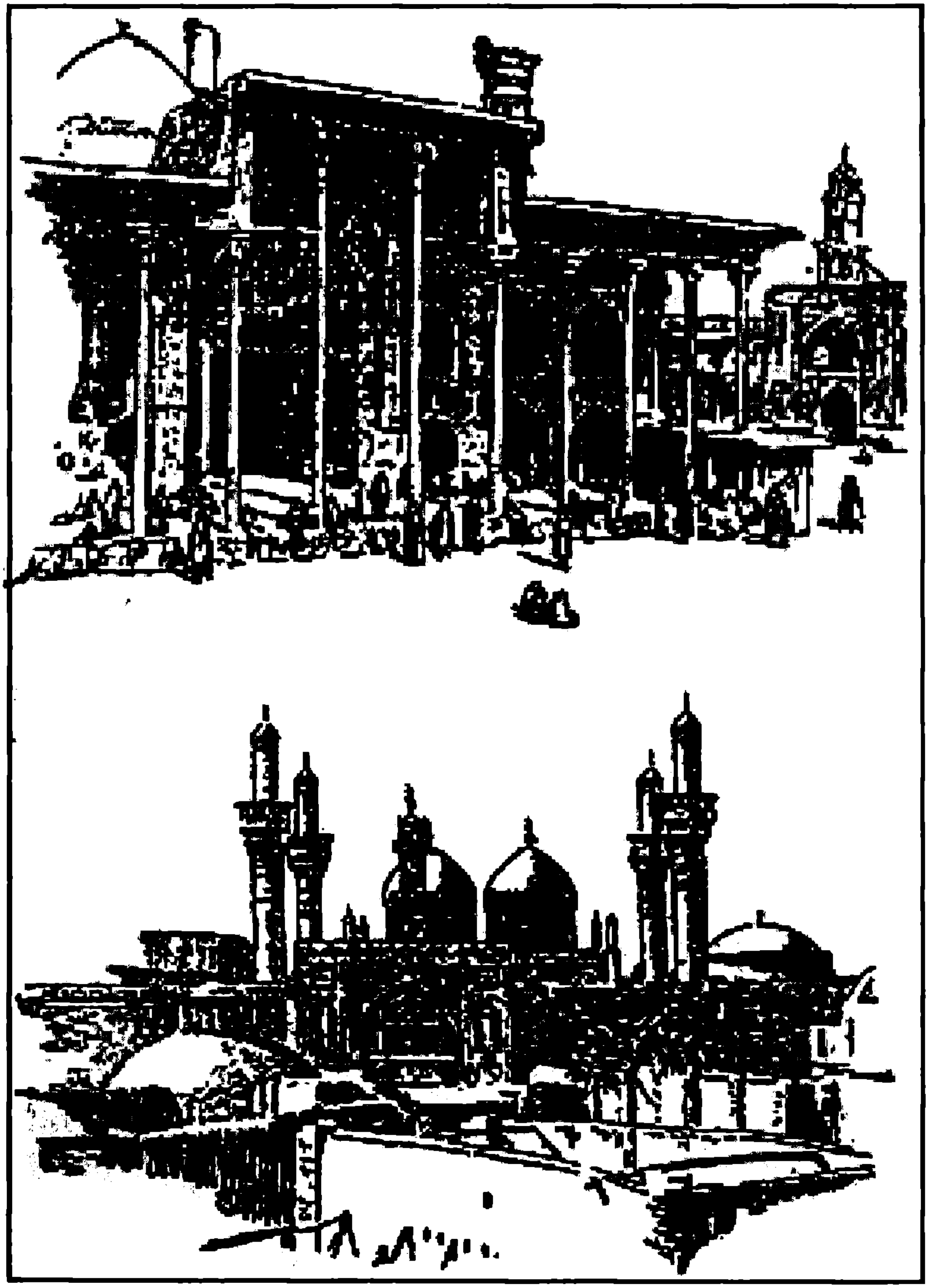
(٧) تاريخ الطبري: ٣٠١/٦ والبداية والنهاية: ١٠٧/١٠، ويقول الأربلي في كشف الغمة: ٢٤٩ "وكانت هذه المقبرة لبني هاشم"، ويقول المفيد في الإرشاد: ٣٢٣ "إنها لبني هاشم والأشراف من الناس".



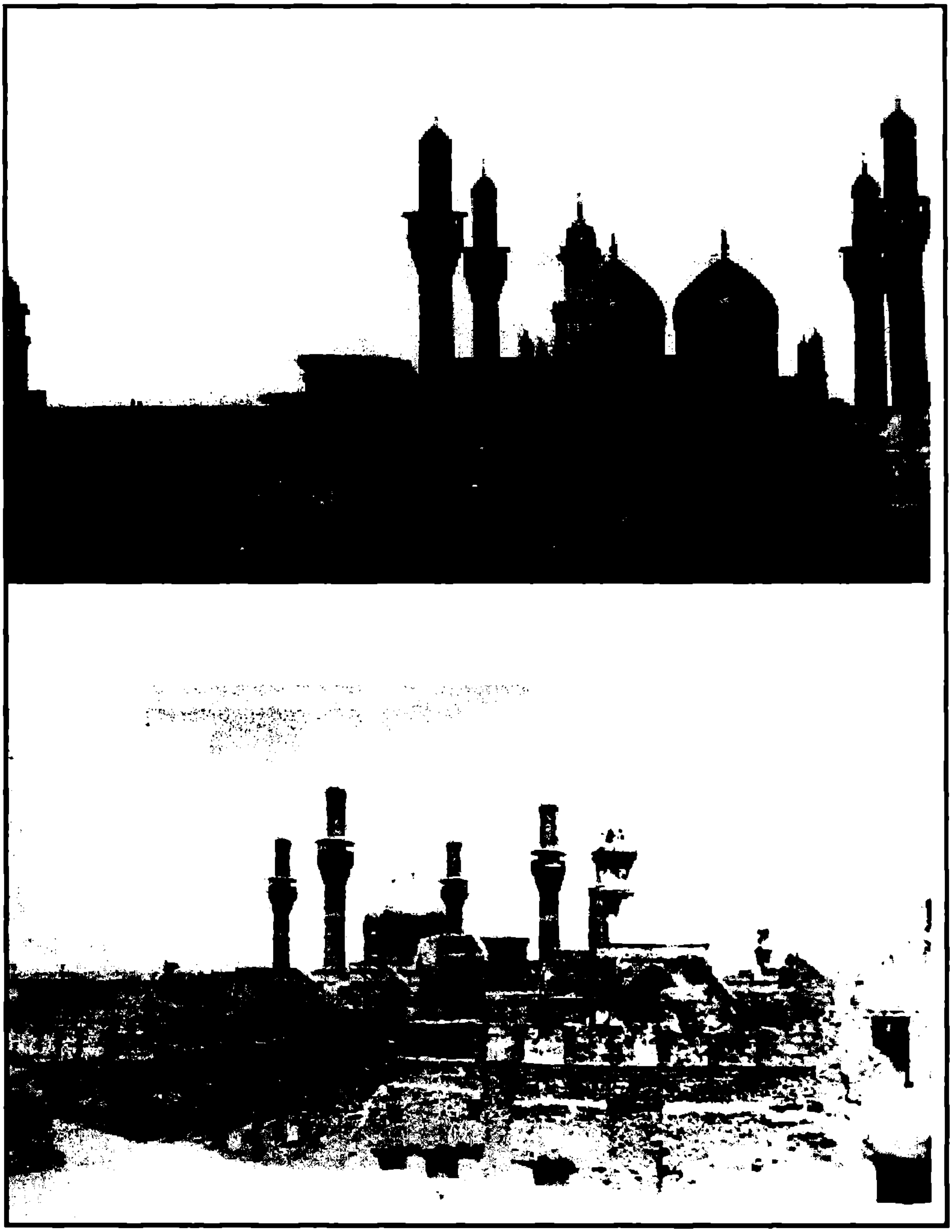
المشهد الشريف في الكاظمية المقدسة (العراق)



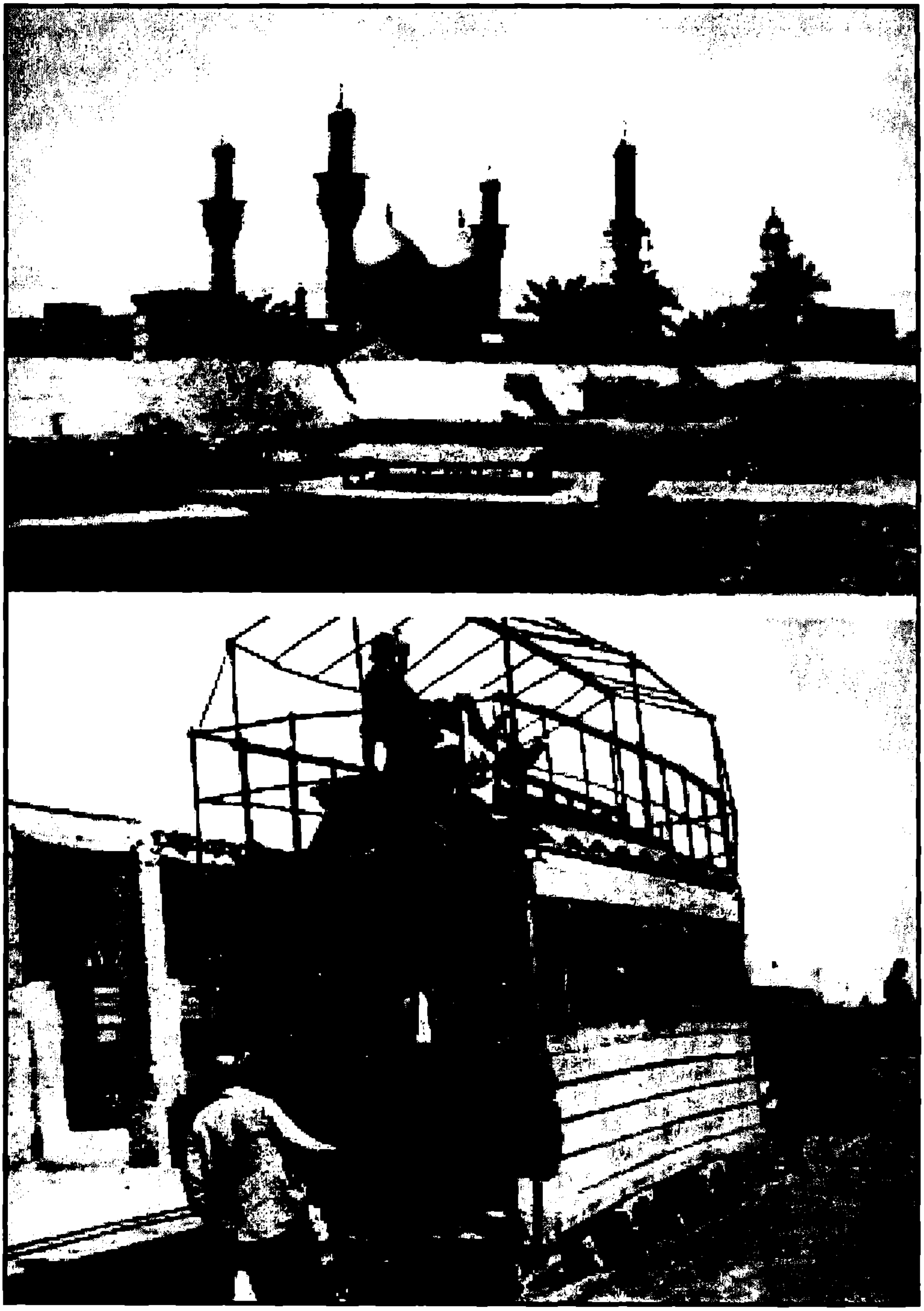
المشهد الكاظمي: الرواق الشرقي بعد تزيينه بالزجاج.



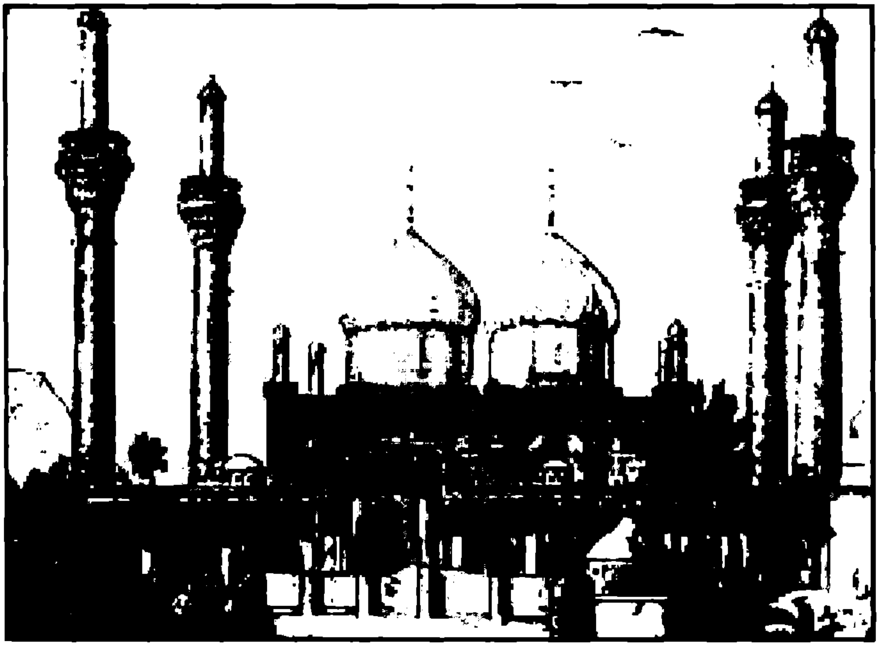
الكاظمية: مشهد تخطيطي.



الكاظمية.



الكاظمية.

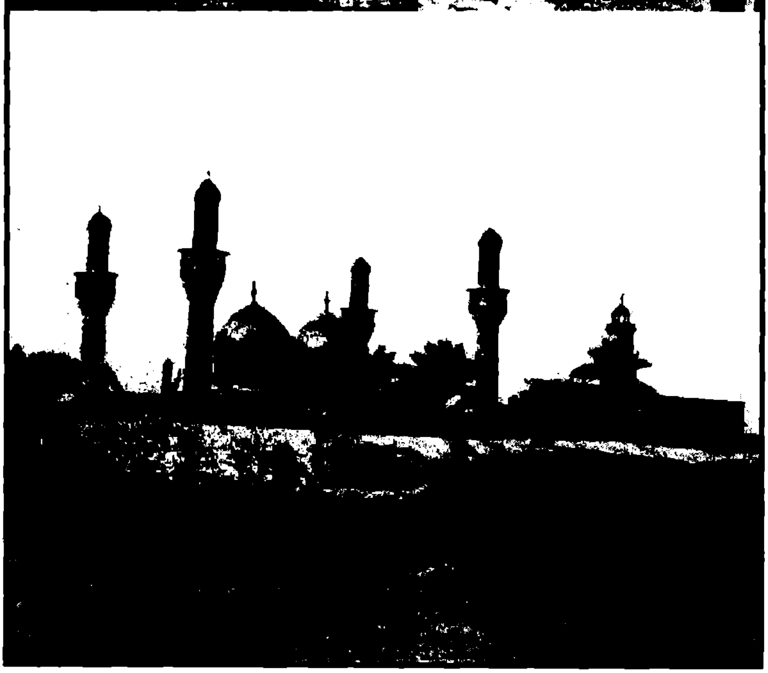


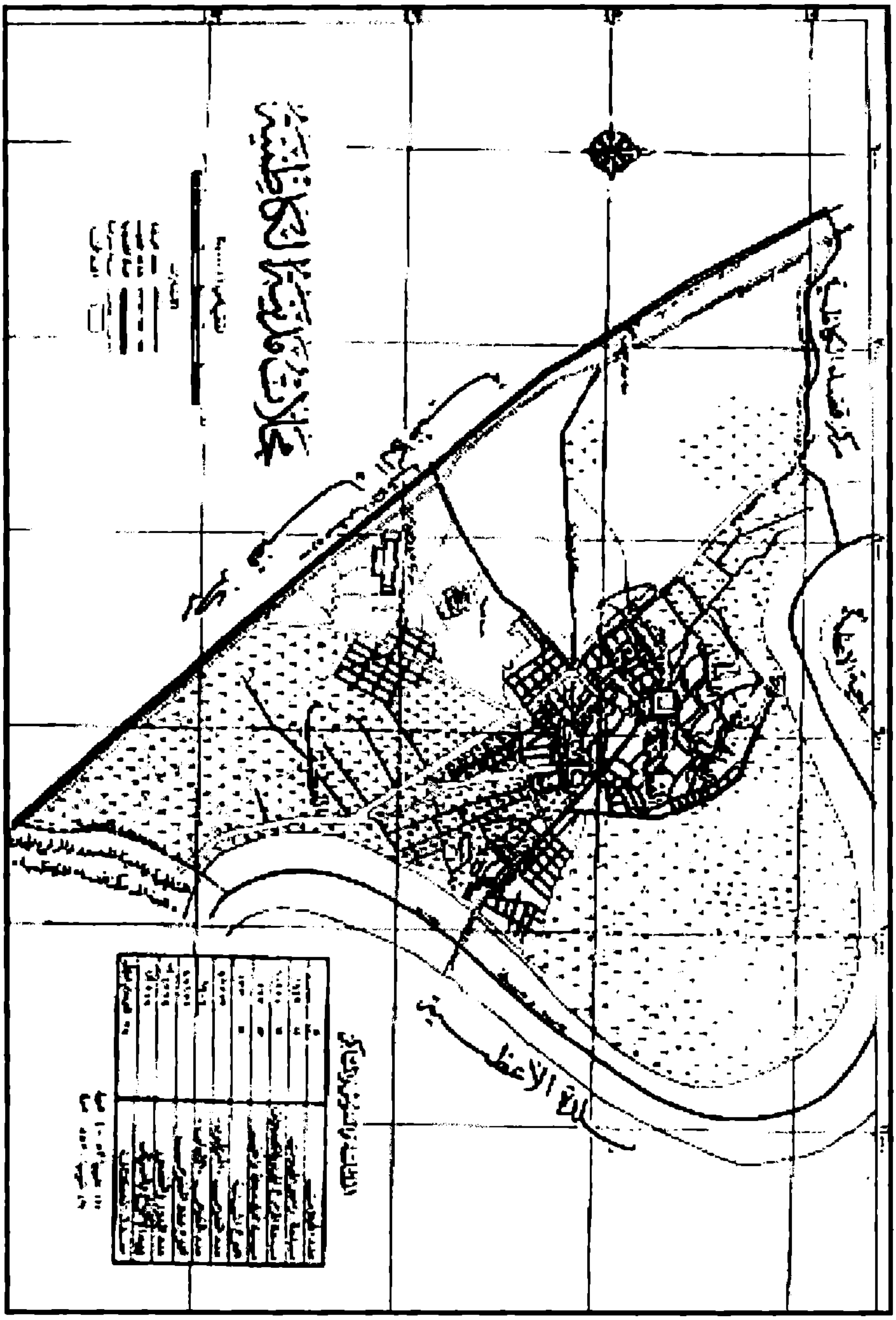
لوحة للمشهد الكاظمي رسمها البريطاني تريسترام أليس عام ١٨٩٠م.



احد ازقة الكاظمية.







محلات مدينة الكاظمية

وكان أول مَنْ دفن في هذه المقبرة جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور في سنة ١٥٠[١]، ثم دفن فيها بعده الهيثم بن معاوية في سنة ١٥٦هـ[٢]، ثم توالى الدفن فيها بعد ذلك.

والظاهر أنّ أول بناء إسلامي أحدث في هذه المقبرة هو قبة جعفر، ولعلها القبة التي ضمت بعد ذلك سائر مَنْ دُفن هناك من العباسيين، ونستفيد وجودها من قول ابن خلكان عند ذكره وفاة الإمام الكاظم (ع): "ودفن في مقابر الشونيزية خارج القبة"[٣]، ولا شك أنه يقصد بذلك قبة جعفر بن المنصور، لأنه أول مَنْ دفن في هذه المقابر، بل كان أشهر أولئك المدفونين حتى تاريخ وفاة الإمام، خصوصاً وأن وفاته كانت في حياة أبيه وخلافته.

وبعد وفاة الإمام موسى بن جعفر (ع) ودفنه هناك، ثم دفنِ حفيده الإمام محمد بن علي الجواد (ع) إلى جانبه؛ تغير اسم المنطقة مرة أخرى فنسبت إلى الإمام الكاظم (ع)، وأصبحت مهوى أفئدة المؤمنين ومطمح أنظارهم، ثم بدأ السكن فيها يزداد مع مر الأيام ليكوّن بعد ذلك مدينة من المدن المهمة في تاريخ العراق.

وفاة الإمام الكاظم (ع) ودفنه:

في عام ١٨٣هـ لخمس بقين من رجب[٤] توفي الإمام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)[٥]، وحُمل جثمانه الطاهر إلى مقابر قريش فدُفن هناك حيث قبره الشريف الآن.

---

(١) الطبري: ٢٨٨/٦ وتاريخ بغداد: ١٢٠/١ ومعجم البلدان: ١٠٧/٨.

(٢) الطبري: ٣٠١/٦.

(٣) وفيات الأعيان: ٣٩٥/٤.

(٤) الطبري: ٤٧٢/٦ والإرشاد: ٣٢٣ وتاريخ بغداد: ٣٢/١٣ والكامل: ١٠٨/٥ والبداية والنهاية: ١٨٣/١٠ ووفيات الأعيان: ٣٩٥/٤.

(٥) موارد ترجمة الإمام الكاظم t والحديث عنه في كتب التفسير والفقه والشريعة والكلام والتاريخ كثيرة لا يسع المجال ذكرها واستقصاءها، ونجتزئ هنا بمقتطفات مما قاله الخطيب البغدادي في تاريخ البغدادي: ٢٧/١٣ ـ ٣٢.

"موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن، الهاشمي، يقال: إنه ولد بالمدينة في سنة ثمان وعشرين ـ وقيل: سنة تسع وعشرين ـ ومائة، وأقدمه المهدي بغداد، ثم ردّه إلى المدينة وأقام بها إلى أيام الرشيد، فقدم هارون منصرفاً من عمرة شهر رمضان سنة تسع وسبعين فحمل موسى معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه....... كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده....... وكان سخياً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار، وكان يصر الصرر ثلاثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتي دينار ثم يقسمها بالمدينة؛ وكان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان صرة فقد استغنى.... محمد بن عبدالله البكري قال: قدمت المدينة أطلب بها دَيناً فأعياني؛ فقلت لو ذهبت إلى أبي الحسن موسى بن جعفر فشكوت ذلك إليه، فأتيته..... فذكرت له =

وذهب أحد المؤرخين إلى أنه، دُفن في موضع كان ابتاعه لنفسه في مقابر قريش بمدينة السلام"[١]، ولم أعثر على ما يؤيد ذلك في المصادر الأخرى، فإن صحت هذه الرواية فإنها لتدل على مقدار الأهمية التي حظيت بها هذه الأرض خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة عقود من السنين.

واشتهر مدفن الإمام بعد ذلك باسم "مشهد باب التبن"[٢] و"مشهد موسى بن جعفر" و"قبر موسى بن جعفر". وانفرد الطبري الإمامي بتسميته في أثناء إحدى رواياته بـ"مسجد أبي إبراهيم موسى بن جعفر"[٣]، ولعل كلمة "مسجد" تصحيف لـ"مشهد" كما يرجح في الظن، أو أن المقصود به مسجد باب التبن[٤]؛ وقد نسبه للإمام لوقوع قبره الشريف بالقرب منه.

وليس لدينا من أحاديث المؤرخين ما يصلح أن يكون وصفاً لقبر الإمام (ع)حين دفنه؛ وما أضيف إليه وأسبغ عليه من بناء وعمران بعد ذلك بسنوات، ولكننا قد نستفيد من الروايات الآتية ما يعطي لمحة مختصرة مما كان عليه القبر الشريف في تلك الفترة:

= قصتي.... فدفع إلي صرة فيها ثلاثمائة دينار...... الفضل بن الربيع عن أبيه: أنه لما حبس المهدي موسى بن جعفر رأى المهدي في النوم علي بن أبي طالب وهو يقول: يا محمد (فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم"؟، قال الربيع: فأرسل إلي ليلاً فراعني ذلك فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية . وكان أحسن الناس صوتاً .، وقال: علي بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه وقال: يا أبا الحسن إني رأيت أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب في النوم يقرأ عليّ كذا، فتؤمنني ان تخرج علي أو على أحد من ولدي؟ فقال: الله لا فعلت ذلك ولا هو من شأني، قال: صدقت، يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف ورده إلى أهله إلى المدينة..... حج هارون الرشيد فأتى قبر النبي (ص) زائراً له وحوله رجال قريش وأفياء القبائل، ومعه موسى بن جعفر، فلما انتهى إلى القبر قال: السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عمي. افتخاراً على مَنْ حوله، فدنا موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبه. فتغير وجه هارون وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً...... حبس أبو الحسن موسى بن جعفر عند السندي، فسألته أخته ان تتولى حبسه . وكانت تتدين . ففعل، فكانت تلي خدمته، فحكى لنا أنها قالت: كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجده ودعاه فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال الليل قام يصلي حتى يصلي الصبح، ثم يذكر قليلاً حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيأ ويستاك ويأكل، ثم يذكر في القبلة حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه. فكانت أخت السندي إذا نظرت إليه قالت: خاب قوم تعرضوا لهذا الرجل...... بعث موسى بن جعفر إلى الرشيد من الحبس رسالة كانت: إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون.... إلخ".

(١) إثبات الوصية: ١٦٤.

(٢) سميّ بذل كنسبة إلى باب التبن الذي كان في شرقيه مما يقرب من دجلة. ويراجع معجم البلدان: ٢/ ١٤.

(٣) دلائل الإمامة: ٢٩٦.

(٤) صدى الفؤاد: ١١.

١ - عن أحمد بن عبدوس عن أبيه قال: قلت للرضا: جعلت فداك إن زيارة قبر أبي الحسن ببغداد علينا فيها مشقة[١]، وإنما نأتيه فنسلم عليه من وراء الحيطان... إلخ"[٢].

٢ - عن الحسين بن يسار الواسطي قال: سألت أبا الحسن الرضا: ما لِمنْ زار قبر أبيك؟ قال: فقال: زوروه، قال قلت: فأي شيء فيه من الفضل؟ قال: فقال: فيه من الفضل كفضل مَنْ زار والده يعني رسول الله (ص)، قلت: فإن خفت ولم يمكن لي الدخول داخلاً، قال: سلّم من وراء الجدران"[٣].

٣ - عن الرضا (ع) في اتيان قبر أبي الحسن (ع) إنه قال: صلوا في المساجد حوله[٤].

ولا تفيدنا هذه الروايات وما كان على شاكلتها أكثر من وجود حيطان تدور حول القبر الشريف وجدار مختص به ومساجد يصلي فيها الناس. وليس لدينا من المعلومات ما يزيد على ذلك.

دفن الإمام الجواد (ع)[٥]:

وفي عام ٢٢٠هـ[٦] في آخر ذي القعدة أو لخمس أو لست خلون من ذي الحجة توفي ببغداد أبو جعفر محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى بن جعفر عليهم السلام، ودفن "في تربة جده أبي إبراهيم موسى بن جعفر (ع)" [٧].

---

(١) المشقة التي يقصدها السائل هي الخوف من السلطة الحاكمة وبطشها بالزائرين.

(٢) كامل الزيارات: ٣٠٠.

(٣) كامل الزيارات: ٢٩٩.

(٤) كامل الزيارات: ٢٩٩ ومَنْ لا يحضره الفقيه: كتاب الزيارات.

(٥) مراجع ترجمة الإمام الجواد t كمراجع ترجمة جده الكاظم t كثيرة لا تحصى، ونكتفي هنا بإثبات ما ذكره الشيخ كما الدين محمد بن طلحة الشافعي في كتابه مطالب السؤول: ٧٤/٢ - ٧٥؛ قال:
"أبو جعفر، محمد الثاني، تقدم في آبائه (ع) أبو جعفر محمد؛ وهو الباقر بن علي (ع)، فجاء هذا باسمه وكنيته واسم أبيه فعرف بأبي جعفر الثاني. وهو وإن كان صغير السن فهو كبير القدر رفيع الذكر. وأما ولادته ففي ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة مائة وخمس وتسعين للهجرة، وقيل: عاشر رجب منها... وله لقبان: القانع والمرتضى. وأما مناقبه فما اتسعت حلبات مجالها، ولا امتدت أوقات آجالها، بل قضت عليه الأقدار الإلهية بقلة بقائه... فقلّ في الدنيا مقامه، وعجل القدوم عليه والزيارة حمامه، فلم تطل بها مدته... غير أن الله عز وعلا خصّه بمنقبة متألقة في مطالع التعظيم بارقة أنوارها، مرتفعة في معارج التفضيل قيمة أقدارها، بادية لعقول أهل المعرفة آية آثارها، وهي وإن كانت صغيرة فدلالتها كبيرة لثم ذكر المنقبة بالتفصيل".

(٦) الإرشاد: ٣٢٩ وإثبات الوصية: ١٨٦ وتاريخ بغداد: ٥٥/٣ وتذكرة الخواص: ٣٦٨ والفصول المهمة: ٢٥٧ ومطالب السؤول: ٧٥/٢ ووفيات الأعيان: ٣١٥/٣.

(٧) إثبات الوصية: ١٨٦.

ولم نعثر على وصف لما أصبح عليه المشهد بعد دفن الإمام الجواد (ع) مباشرة أو بعد ذلك بحين، ولكنّ المتيقن أن القبرين الشريفين كانا في بنية خاصة بهما[١]، وكان يتردد لزيارتهما كثير من الناس في هذه البنية الخاصة؛ ويستفاد من كلام بعض المؤرخين ـ وقد أسلفنا نقله ـ من ذكر "تربة أبي ابراهيم موسى... إلخ" إن هناك قبة خاصة شملت القبرين؛ لأن التربة لا تطلق إلا على قبر مختص عليه قبة[٢]، كما يستفاد من رواية مسكويه[٣] أثناء حديثه عن المحسن بن الوزير ابن الفرات وجود سكان حول المشهد وبجانب مقابر قريش.

ولا يخلو حديث أبي الحسين بن أبي البغل الكاتب عن كيفية استتاره وزيارته لمقابر قريش من بعض الفوائد المرتبطة بما نحن بصدده حيث قال:

"تقلدت عملاً من أبي منصور بن الصالحان، وجرى بيني وبينه ما أوجب استتاري فطلبني وأخافني، فمكثت مستتراً خائفاً، ثم قصدت مقابر قريش ليلة الجمعة، واعتمدت على المبيت هناك للدعاء والمسألة، وكانت ليلة ريح ومطر، فسألت ابن جعفر القيِّم أن يغلق الأبواب..... ففعل وقفل الأبواب، وانتصف الليل، وورد من الريح والمطر ما قطع الناس عن الموضع، ومكثت أدعو وأزور وأصلي، فبينما أنا كذلك إذ سمعت وطأة عند مولانا موسى (ع) وإذا رجل يزور....، ثم خرج، فخرجت لابن جعفر أسأله عن الرجل.... فرأيت الأبواب على حالها مغلقة.... فأنبهت ابن جعفر القيم فخرج إليّ من بيت الزيت.... إلخ"[٤].

ويستفاد من هذا الحديث تعدد البيوت "ويعني بها الحجر" حول المشهد، وإذا كان لزيت الإنارة بيت فلا بد من وجود أمثاله للفرش والأثاث وسائر الموقوفات التي تحتاج إلى الحفظ والعناية، ولعل تكرار كلمة "الأبواب" دليل صريح على سعة بناء المشهد وتعدد البيوت المحيطة به.

في العهد البويهي:

وفي عام ٣٣٤هـ تمّ لمعز الدولة البوهي احتلال بغداد والسيطرة على شؤونها، وأصبح له التصرف المطلق في سائر أمورها، فكان من جملة أعماله أمره في عام ٣٣٦هـ بإعادة تشييد المشهد الكاظمي من جديد، فجدّت العمارة، ووضع على القبرين ضريحان خشبيان من خشب الساج وقبّتان فوقهما من الساج أيضاً، وأُدير عليها حائط كالسور. ثم أمر بإنزال بعض الجنود الديالمة ومعهم بعض المراوزة هناك لغرض الخدمة والحفاظ على الأمن. وكانت هذه

(١) وردت في دلائل الإمامة: ٢٦٢ قصة تاريخها سنة ٢٨٦هـ يستفاد منها وجود بناء خاص بالمشهد.

(٢) مشهد الكاظمين: ٣.

(٣) تجارب الأمم: ١٣١/٥.

(٤) دلائل الإمامة: ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

العمارة الجديدة سبباً في انتشار الدور حول المشهد وتوسُّع مجال السكنى هناك، لاستتباب الأمن وارتفاع أسباب الخوف[(١)].

وكانت هذه العمارة أول عمارة كبيرة تشيَّد على القبرين بعد دفن الإمامين (ع).

ولما توفي معز الدولة سنة ٣٥٦هـ دُفن في داره أولاً، ثم نُقل جسده في سنة ٣٥٨هـ إلى تربة بُنيتْ له في مقابر قريش[(٢)].

والظاهر أن القبتين اللتين كانتا على الضريحين كبيرتان يسع فضاؤهما عدداً كبيراً من المصلين والزائرين؛ كما تشعر به رواية الصدوق في زيارة الإمامين[(٣)] ورواية الذهبي في احتفالات عيد الغدير في سنة ٣٥٣هـ[(٤)].

وتوالت الهدايا على المشهد بعد عمارة معز الدولة، حتى رُويَ أن من جملة ما كان في المشهد بد تجديد عمارته هذه قنديل صفر مربعاً بديع الصنعة غاية في حُسنه، وهو من عمل أبي الحسن علي بن عبدالله بن وصيف الناشي شاعر أهل البيت المتوفى سنة ٣٦٥هـ[(٥)]، وكان الناشئ يعمل الصفر ويخرّمه وله فيه صنعة بديعة.

ولما زادت دجلة زيادتها العظيمة في عام ٣٦٧هـ غرقت جهات كثيرة من الجانب الشرقي ببغداد وغرقت أيضاً مقابر بباب التبن بالجانب الغربي منها[(٦)]، ولعل هذا الغرق هو الذي حدا بأبي شجاع عضد الدولة إلى بناء سور حول المشهد[(٧)] ليقيه من غرق مقبل، أو أنه كان له سور تهدّم بالغرق السالف الذكر فأعاد عضد الدولة تشييده.

وليس ببعيد أن يقوم عضد الدولة بأحداث أعمال أخرى في المشهد لم يسجلها المؤرخون، لأنه أمر في سنة ٣٦٩هـ بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بالمساجد الجامعة "وكانت أيضاً في نهاية الخراب فأنفق عليها مالاً عظيماً، وهدم ما كان مستهدماً من بنيانها، وأعادها على أحكام، وشيّدها وأعلاها وفرشها وكساها، وتقدم بادرار أرزاق قوامها ومؤذنيها والأئمة والقراء فيها وإقامة الجرايات لمن يأوي إليها من الغرباء والضعفاء، وكان ذلك كله مهملاً..... وعوّل في هذه المصالح على عُمال ثقات أشرف عليها نقيب العلويين[(٨)]"، ولا شك أن المشهد الكاظمي كان

---

(١) صدى الفؤاد: ١١ ـ ١٢.

(٢) وفيات الأعيان: ١/١٥٨ والبداية والنهاية: ١١/٢٦٢.

(٣) من لا يحضره الفقيه: كتاب الزيارات.

(٤) هامش تجارب الأمم: ٦/٢٠٠ نقلاً عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٥) معجم الأدباء: ١٣/٢٨٥.

(٦) الكامل: ٧/٩٣.

(٧) صدى الفؤاد: ١٢.

(٨) تجارب الأمم: ٦/٤٠٤ ـ ٤٠٥.

في الطليعة من تلك المساجد، ولعلّ هذا الإدرار للأرزاق وإقامة الجرايات قد زاد من الرغبة في الإقامة والسكنى حول المشهد، خصوصاً وأنه أمر بعد ذلك بأن تطلق الصلات، لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة.... وكذلك فعل بالمشهدين بالغري والحائر على ساكنيهما السلام وبمقابر قريش[١].

وما بين عامَيْ ٣٧٦ - ٣٧٩هـ وهي أعوام مكث شرف الدولة بن عضد الدولة ببغداد قام حاجبه التركي أبو طاهر سباشي بحفر ذنابة لنهر دجيل وسوْق الماء منها إلى المشهد[٢].

وفي سنة ٣٤٥هـ توفي أبو طاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة فدفن في داره ثم نقل تابوته في سنة ٤٣٦هـ من داره إلى مشهد باب التبن إلى تربة له هناك، ولما توفي ولده الأكبر الملك العزيز أبو منصور سنة ٤٤١هـ دفن عند أبيه بمقابر قريش بمشهد باب التبن أيضاً[٣].

وفي سنة ٤٤١هـ مُنع الشيعة من إقامة ما جرت العادة بفعله يوم عاشوراء في المشهد الكاظمي وغيره[٤]، وحدثت على أثر ذلك فتنة كبرى لعلها كانت مفتاح الفتن التي ستأتي الإشارة إليها.

وفي سنة ٤٤٢هـ "وقع الصلح بين أهل السنّة والشيعة وصارت كلمتهم واحدة، وسبب ذلك أنّ أبا محمد النسوي وليّ شرطة بغداد وكان فاتكاً، واتفقوا على أنه متى رحل إليهم قتلوه، واجتمعوا وتحالفوا... ومضى أهل السنة والشيعة إلى مقابر قريش"[٥] وأذّنوا في المشهد حيّ على خير العمل[٦].

وفي أواخر العهد البويهي - أو إلى أوائل الربع الثاني من القرن الخامس على وجه التحديد - كانت عمارة المشهد قد بلغت غاية فخامتها وروعتها وزينتها وجلالها، واصبحت زاخرة بالقنابل والمحاريب والستور من الفضة والذهب، بالإضافة إلى القبتين والضريحين الساج، كما كان للمشهد يومذاك سور يدور حوله، وأبواب للدخول والخروج، وبوابون مسؤولون عن كل ذلك، وترب، ودور يسكنها الناس، وإلى غير ذلك مما لم يصل إلينا علمه.

وقد دلّنا على بعض ذلك ما سبق منا ذكره من نصوص وروايات، كما دلّنا على بعضه الآخر ما رواه المؤرخون في وصف الفتنة العمياء التي وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٤٤٣هـ والتي حدثنا عنها ابن الأثير بالتفصيل، وكان مما قال:

---

(١) تجارب الأمم: ٤٠٧/٦.

(٢) فرحة الغري: ١٣.

(٣) الكامل: ٣٧/٨ و٤٠.

(٤) الكامل: ٥٣/٨ والمنتظم: ١٤٠/٨.

(٥) النجوم الزاهرة: ٤٩/٥.

(٦) المنتظم: ١٤٥/٨.

"قصدوا [أي أصحاب الفتنة] مشهد باب التبن فأُغلق بابه، فنقبوا في سورها وتهدّدوا البواب فخافهم وفتح الباب، فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في الترب والدور، وأدركهم الليل فعادوا".

"فلما كان الغد كثر الجمع فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع الترب والأدراج، واحترق ضريح موسى وضريح ابن ابنه محمد بن علي الجواد والقبتان الساج اللتان عليهما، واحترق ما يقابلهما ويجاورهما من قبور ملوك بني بويه معز الدولة وجلال الدولة ومن قبور الرؤساء والوزراء وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور وقبر الأمين محمد بن الرشيد وقبر أمه زبيدة، وجرى من الأمر الفظيع ما لم يجر في الدنيا مثله، فلما كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه، وسمع أبو تمام نقيب العباسيين وغيره من الهاشميين والسنية الخبر فجاؤوا ومنعوا عن ذلك.... إلخ"(١).

وفي نص آخر:

"أراد بعض مَنْ لا يتقي الله عز وجل لا يراقب رسوله (ص) نبش قبر الإمامين..... بعد إحراق القبة بالنار؛ إلى أن صرفه الله عن ذلك"(٢).

وفي رواية أخرى:

"ونقب مشهد باب التبن، ونهب ما فيه..... وطرح النار في الترب القديمة والحديثة، واحترق الضريحان والقبتان الساج"(٣).

"ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد عظم عليه واشتد وبلغ منه كل مبلغ، لأنه وأهل بيته وسائر أعماله من النيل وتلك الولاية كلهم شيعة، فقطعت في

---

(١) الكامل. ٥٩/٨. وقد نظم هبة الله المؤيد داعي الدعاة الفاطميين المتوفى سنة ٤٧٠ أو ٤٩٠هـ قصيدة يستنكر فيها هذا الأمر الفظيع وردت في ديوانه: ٢٥٦، مطلعها:

الا ما لهذي السما لا تمورُ	وما للجبال تُرى لا تسيرُ
وللشمس ما كورتْ والنجوم	تضيء وتحت الثرى لا تغورُ
وللأرض ليست بها رجفة	وما بالها لا تفور البحورُ
وما للدما لا تحاكي الدموع	فتجري لتبتلّ منها النحورُ

إلى أن يقول:

فموسى يُشقّ له قبره	ولما أتى حشْهُ والنشور
ويُسعَرُ بالنار منه حريم	حرام على زائريه السعير

(٢) النبراس: ١٣٧.

(٣) المنتظم: ١٥٠/٨.

أعماله خطبة القائم بأمر الله، فروسل في ذلك وعوتب فاعتذر بأن أهل ولايته شيعة واتفقوا على ذلك فلم يمكنه أنْ يشقّ عليهم؛ كما أن الخليفة لم يمكنه كف السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا، وأعادوا الخطبة إلى حالها"[١].

وقام البساسيري والملك الرحيم بالمشاركة في تشييد المشهد، فجددا البناء، ووضعا صندوقين جديدين على القبرين، وشيدا سياجاً للروضة نفسها وقبة عليها، كما شيدا إلى جنب ذلك بهواً واسعاً من جهة الجنوب، وجعلا إلى جنب ذلك مسجداً ومئذنة وكان ذلك كله - في رواية السماوي - سنة ٤٤٤هـ[٢].

وفي رواية الدكتور مصطفى جواد أن البساسيري هو الذي قام بذلك بمفرده عندما استوسقت له الأمور في بغداد سنة ٤٥٠هـ[٣]، ويؤيد ذلك أن فتن الهدم والتخريب قد استمرت حتى عام ٤٤٩هـ.

في العهد السلجوقي:

وفي عام ٤٦٦هـ "غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي من بغداد، وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة، وانفتح القورج عند المسناة المعزية، وجاء في الليل سيل عظيم.... وغرق من الجانب الغربي مقبرة أحمد ومشهد باب التبن وتهدم سوره، فأطلق شرف الدولة[٤] ألف دينار تصرف في عمارته"[٥].

وهذا النص يؤكد أن المشهد قد تمّ بناؤه ـ بعد حوادث التخريب السابقة ـ بشكل كامل شامل لكل أطرافه قبل وقوع هذا الفيضان، إذ لو كان خراباً أو غير تام البنيان لأطلق شرف الدولة لهذا الغرض أيضاً ما يقتضيه من المال، بل لقدم ذلك على بناء السور.

وفي سنة ٤٧٩هـ "دخل السلطان ملكشاه بغداد في ذي الحجة بعد أن فتح حلب وغيرها من بلاد الشام والجزيرة.... وزار السلطان ونظام الملك مشهد موسى بن جعفر"[٦].

وفي عام ٤٩٠هـ أمر مجد الملك أبو الفضل البراوستاني القمي بتعمير المشهد، فعُمّر ورفعت فيه مئذنتان، وزُيّنت القبة بالفسيفساء، ووضع على القبرين الشريفين صندوقان

---

(١) الكامل: ٥٩/٨ - ٦٠.

(٢) صدى الفؤاد: ١٢ - ١٣.

(٣) مشهد الكاظمين: ٧.

(٤) هو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران صاحب الموصل؛ المقتول يوم الجمعة ٢٤ صفر سنة ٤٧٨هـ.

(٥) المنتظم: ٢٨٦/٨ والكامل: ١١٩/٨.

(٦) المنتظم: ٢٩/٩ والكامل: ١٤٣/٨.

جديدان من الساج، وشيّد إلى جانب المشهد محل لاستراحة الزائرين"[١]، وكان مجد الملك خيراً كثير الصلاة بالليل؛ كثير البر ولا سيما بالعلويين، وقتل سنة ٤٩٢هـ[٢].

ولما رجع الخليفة من حرب دبيس سنة ٥١٧هـ ثار المشاغبون ببغداد "فقصدوا مشهد مقابر قريش ونهبوا ما فيه، وقلعوا شبائكه[٣]وأخذوا ما فيه من الودائع والذخائر، وجاء العلويون يشكون هذا الحال إلى الديوان، فأنهيَ ذلك، فخرج توقيع الخليفة بعد أن أطلق في النهب بإنكار ما جرى، وتقدم إلى نظر الخادم بالركوب إلى المشهد وتأديب الجناة، ففعل ذلك وردّ بعض ما أخذ"[٤].

وفي رواية القلانسي:

"ونُهبت مقابر قريش ببغداد وما بها من القناديل الفضة والستور والديباج"[٥].

وفي سنة ٥٥٤هـ أصيبت بغداد بفيضان هائل دمّر كثيراً من محلات الجانب الشرقي "وأما الجانب الغربي فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر، وانخسفت القبور المبنية؛ وخرج الموتى على رأس الماء، وكذلك المشهد والحربية، وكان أمراً عظيماً"[٦].

وفي سنة ٥٦٩هـ زادت دجلة زيادة عظيمة "وأُسكرت الحربية والمشهد، ووقع أكثر سور المشهد، ونبع من داخله الماء فرمى الدور والترب"[٧].

في العصر العباسي الأخير:

ولما آلت الخلافة إلى الناصر لدين الله في سنة ٥٧٥هـ قام بتجديد الصندوق الساج المطعم بالذهب؛ وبنى رواقاً جديداً وبهواً ومآذن متعددة، وزين كل ذلك بأبهى زينة، وشيّد الحجر والبيوت في أطراف المشهد"[٨].

والظاهر أن المنطقة قد أصبحت مأهولة بالسكان بنحو يصح أن يقال فيه "أهل مشهد موسى بن جعفر" كما يقال "أهل الكرخ" أو "أهل المختارة"[٩].

---

(١) صدى الفؤاد: ١٤.

(٢) الكامل: ١٩٢/٨.

(٣) وفي رواية الكامل: ٢١١/٨ "وقلعوا أبوابه".

(٤) المنتظم: ٢٤٣/٩.

(٥) ذيل تاريخ دمشق: ٢٠٦.

(٦) الكامل: ٦٦/٩.

(٧) المنتظم: ٢٤٥/١٠.

(٨) صدى الفؤاد: ١٢.

(٩) مرآة الزمان: ٣٥٩.

كما يظهر أن الرواق الذي بناه الناصر لدين الله كان يشبه من حيث التخطيط أروقة المشاهد في هذه العصور، حيث كان له باب يسمى الباب الأول[1]، وكان الدخول إلى الروضة من داخل الرواق ولها باب خاص يسمى الباب الثاني.

ولما أمر الخليفة في سنة ٦٠٤هـ ببناء دور في أطراف بغداد لإطعام الفقراء باسم دور الضيافة كان المشهد الكاظمي من جملتها كما تشعر به بعض النصوص[2]، ولما يُعلَم من سلوك الناصر وحبّه لأهل البيت i.

وفي سنة ٦٠٨هـ "أمر الخليفة أن يقرأ مسند الإمام أحمد بن حنبل بمشهد موسى بن جعفر بحضرة صفي الدين محمد بن معد الموسوي بإجازة من الخليفة"[3]، وقد يستفاد من هذا وجود حلقات دراسية في بعض جوانب المشهد، وقد يكون اختيار الخليفة لمسند أحمد محاولة منه لتخفيف حدة المآسي المذهبية.

وفي سنة ٦١٤هـ حدث ببغداد فيضان عظيم "ونبع الماء من البلاليع والآبار في الجانب الشرقي.... وأما الجانب الغربي فتهدّم أكثر القرية ونهر عيسى والشطيات، وخربت البساتين ومشهد باب التبن"[4].

وقام الناصر لدين الله بتعمير المشهد بعد هذا الغرق والخراب، وأصلح سائر ما تأثر بالماء، كما شيد سوراً جديداً للمشهد، وتم ذلك كله في نفس السنة ٦١٤هـ[5].

وكانت في المشهد الكاظمي في هذه الفترة دار أو بيوت خاصة بالأيتام ولا سيما العلويين منهم، كما ترشدنا إلى ذلك الرواية التالية:

"حدث بدر الدين آياز مملوك مؤيد الدين القمي قال: طلب [مؤيد الدين] ليلة من الليالي حلاوة النبات فعمل له في الحال منها صحون كثيرة وأُحضرت بين يديه في ذلك الليل، فقال لي: يا آياز تقدر تدخر هذه الحلاوة لي موفرة إلى يوم القيامة، فقلت: يا مولانا وكيف يكون ذلك وهل يمكن هذا؟ قال: نعم تمضي في هذه الساعة إلى مشهد موسى والجواد عليهما السلام وتضع هذه الأصحن قدام أيتام العلويين؛ فإنها تدخر لي موفرة إلى يوم القيامة. قال آياز فقلت السمع والطاعة، ومضيت - وكان نصف الليل - إلى المشهد وفتحت الأبواب وأنبهت

---

(١) الجامع المختصر: ١٤٦/٩.

(٢) الكامل: ٣١٩/٩

(٣) مرآة الزمان: ٥٥٦.

(٤) الكامل: ٣١٩/٩.

(٥) صدى الفؤاد: ١٤.

الصبيان الأيتام ووضعت الأصحن بين يديهم، ورجعت"[١]، وكان الوزير مؤيد الدين هذا كثير التردد على المشهد ومن الملتزمين بزيارته[٢].

ولما آلت الخلافة إلى الظاهر بأمر الله لم يستجد شيء في أيامه القصيرة "سوى احتراق القبة الشريفة بمشهد موسى والجواد (ع)، فشرع الظاهر في عمارتها، فمات ولم تفرغ، فتممها المستنصر"[٣].

وكان الظاهر في ساعة بلوغ نبأ الحريق إليه قد حضر إلى المشهد وهو بادي التأثر جداً، وحاول معرفة أسباب الحريق وكيفية وقوعه فلم يصل إلى محصّل[٤].

وحينما آل الأمر إلى المستنصر في سنة ٦٢٣هـ تولى إكمال المشاريع العمرانية في المشهد، فأكمل القبّة[٥] والرواق والمآذن، ووسع البهو، وزاد في سعة الحرم، وكان الناظر على ذلك رجلاً اسمه أحمد جمال الدين[٦]، وتمّ ذلك في سنة ٦٢٤هـ[٧].

وكان من جملة أعمال المستنصر تنصيب صندوقين فخمين من الخشب الجيد على قبري الإمامين، وتشاء الصدف الحسنة أن يبقى أحد الصندوقين إلى اليوم؛ وهو صندوق قبر الإمام موسى بن جعفر (ع)، وقد تم صنعه سنة ٦٢٤هـ.

"والصندوق مصنوع من خشب التوث، ثخن ألواحه ٥/٥سم. وهو مستطيل الشكل منبسط السطح، يبلغ طوله ٢٥٥سم وعرضه ١٨٣ سم وعلوه ٩٥سم. يزين حافات غطائه كتابة نسخية غير متداخلة نقشت داخل شبكة من زخارف نباتية متناظرة متشابكة. ويزوق تاج الصندوق زخارف نباتية أيضاً، وهو يبرز مقدار ٣سم عن مستوى وجوه الجنوب، وفي الجنوب كتابات كوفية مشجرة متداخلة متناظرة كبيرة الحروف في غاية الجمال والاتقان، وقد حُفرت داخل شبكة من زخارف شجرية أوطأ سطحاً من مستوى الكتابة. ويبلغ عرض السطر الواحد ٤٣سم، وطوله في الجنبين الصغيرين ٩٠.٥سم؛ وفي الجنبين الكبيرين ١٨٩سم، وكل سطر في داخل إطار مستطيل الشكل منقوش في أصل الخشب؛ مزخرف بزخرفة نباتية عرضه ١٢سم.

---

(١) الفخري: ٢٨٦.

(٢) تجارب السلف: ٣٤٠.

(٣) الفخري: ٢٨٧.

(٤) تجارب السلف: ٣٤٦.

(٥) مجالس المؤمنين: ١/ ٤٩٧.

(٦) احتمل بعض أصدقائنا الباحثين أنه السيد أحمد آل طاووس. ولم نجد دليلاً أو قرينة على ذلك.

(٧) صدى الفؤاد: ١٤.

أما نص الكتابة المنقوشة على الصندوق فهو:

أ - الكتابة النسخية التي حول الغطاء ابتداءً من عند الرأس:

١ - بسم الله الرحمن الرحيم. إنما يريد الله ليذهب.

٢ - عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. هذا ما تقرّب إلى (الله) تعالى بعمله خليفته في أرضه.

٣ - ونائبه في خلقه سيدنا ومولانا إمام المسلمين المفروض.

٤ - الطاعة على الخلق أجمعين أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ثبت الله دعوته سنة ستمائة واربع وعشرين.

ب - الكتابة الكوفية في الجنوب:

١ - بسم الله الرحمن الرحيم.

٢ - هذا ضريح الإمام أبو (كذا) الحسن موسى بن جعفر.

٣ - ابن محمد بن علي بن.

٤ - الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[١].

والصندوق الآن في الغرفة (١٦) في دار الآثار العربية ببغداد؛ ورقمه هناك: ٦٢٣ - ع.

وفي سنة ٦٣٥هـ كان في المشهد إيوان كبير متصل بالحضرة يقابل باب الدخول[٢]، وما أدري متى كان إنشاؤه، ولعلّه من جملة أعمال المستنصر التي مرت الإشارة إليها.

وفي شوال سنة ٦٤٦هـ "تواترت الفيوث حتى امتلأت البواليع واستجد عوضها وامتلأت أيضاً...... وتجمّر الماء بدجلة..... وغرقت الشطانيات بالجانب الغربي من بغداد؛ ومن فتحة انفتحت فوق قبر أحمد بن حنبل غرق منها محلة الحربية والكرخ والمارستان...... ووقع قطعة من جامع فخر الدولة الحسن بن المطلب وقطعة من سور المشهد الكاظمي"[٣].

"ثم زادت في ذي الحجة زيادة مفرطة أعظم من الأولى فانفتحت في القورج فتحة..... وانفتحت أخرى إلى جانب دار المسناة وأحاط الماء ببغداد...... وأما الجانب الغربي فغرق بأسره، وأما المشهد الكاظمي - على ساكنه السلام - فإنه هدم سوره ودوره؛ فأقام على الضريحين الشريفين بحيث لم يبنْ من الرمانتين سوى رؤوسهما"[٤].

---

(١) سومر: ٥٥/٥ "الآثار الخشب في دار الآثار العربية في خان مرجان ببغداد".

(٢) الحوادث الجامعة: ١٠١ و ٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٣.

وفي سنة ٦٤٧هـ بعد ذلك الغرق العظيم "أمر الخليفة بعمارة سور المشهد.... فلما شرعوا في ذلك وجدوا برنية فيها ألفا درهم قديمة؛ منها يونانية عليها صور؛ ومنها ضرب بغداد سنة نيف وثلاثين ومائة؛ ومنها ما هو ضرب واسط يقارب هذا التاريخ، فعرضت على الخليفة فأمر أن تصرف في عمارة المشهد، فاشتراها الناس بأوفر الأثمان، وأهدي منها إلى الأكابر فنفذوا إلى المشهد أضعاف ما كان حمل إليهم"[١].

"وفي حادي عشر ذي القعدة [من تلك السنة] أمر الخليفة بحمل مشدتين إلى مشهد موسى بن جعفر (ع) وتعليقهما على القبتين الشريفتين، ثم تقدم بإزالتهما في خامس عشري الشهر المذكور"[٢].

❖ ❖ ❖

وهكذا تكون للمشهد خلال العصر العباسي خمس عمارات نلخصها فيما يأتي:

١ - العمارة الأولى بعد وفاة الإمام موسى بن جعفر (ع) مباشرة، وكانت عمارة بدائية صغيرة، ولعلها كانت لا تتجاوز غرفة واسعة خاصة بالقبر الشريف عليها قبة ولها أبواب وإلى جانبها حجر متعددة يودع فيها الأثاث والزيت وينام فيها الخدم والقوامون، ويحيط بها عدد من المساجد يعتبر مسجد باب التبن أشهرها.

٢ - وكانت العمارة الثانية بعد استيلاء معز الدولة البويهي على بغداد، حيث أعاد تشييد المرقد سنة ٣٣٦هـ، ووضع على القبرين الشريفين ضريحين من خشب الساج وفوقهما قبتان من الساج أيضاً، وأدير عليهما حائط كالسور. وكانت هذه العمارة أول عمارة كبرى تشيد على المرقد. ويستفاد من النصوص التاريخية أن القبتين كانتا كبيرتين يتسع فضاؤهما لعدد غفير من المصلين والزائرين، وإن القبرين الشريفين كانا منفصلين في حجرتين. وكان من نفائس ما أهدي إلى المشهد بعد انتهاء هذه العمارة بفترة قصيرة قنديل صفر مربع غاية في حسنه.

واستمرت العناية بهذه العمارة وإضافة ما ينبغي إضافته إليها وتوسيع ما يجب توسيعه منها حتى بلغت في سنة ٤٤٣هـ غاية فخامتها وروعتها، وأصبحت زاخرة بالقناديل والستور والمحاريب وأكثرها من الفضة والذهب، وأصبح للمشهد سور يدور حوله وأبواب للدخول والخروج وبوابون وقوام وترب كثيرة للأشراف من الناس.

---

(١) المصدر نفسه: ٢٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٤.

٣ - وقامت العمارة الثالثة في سنة ٤٥٠هـ وهي عمارة البساسيري، واشتملت على بناء المشهد كاملاً من أساسه ووضع صندوقين جديدين على القبرين وتشييد بهو واسع من جهة الجنوب ومسجد ومئذنة، وأصبحت القبتان في هذه العمارة قبة واحدة.

٤ - أما العمارة الرابعة فهي عمارة مجد الملك القمي سنة ٤٩٠هـ، وقد اشتملت على صندوقين جديدين من الساج وضعا فوق القبرين؛ ومئذنتين كبيرتين، كما اشتملت على تزيين القبة بالفسيفساء وتشييد دار بجوار المشهد لاستراحة الزائرين وإقامتهم. ولعل تسمية هذه الأعمال بالعمارة لا تخلو من مسامحة، لأنها في الحقيقة مجموعة مرافق أضيفت للعمارة السابقة التي لم يكن مرّ عليها أكثر من أربعين عاماً.

٥ - وكانت العمارة الخامسة عمارة الناصر لدين الله سنة ٥٧٥هـ وما يليها من السنين، وهي عمارة وسعّت وأضيف إليها الشيء الكثير خلال عهد الناصر الطويل وبعده، فكانت خاتمة عمارات العصر العباسي؛ بل أفخمها أيضاً.

❖ ❖ ❖

ونلخص - فيما يأتي - بإيجاز وصفاً للمشهد في أخريات العصر العباسي من ناحية شكله وعمرانه وما دار عليه سوره من مرافق وملحقات:

كانت على القبرين الشريفين قبة فخمة كبرى واحدة، بعد أن كانت في العهد البويهي اثنتين.

كانت على القبرين الشريفين صندوقان من الخشب الجيد.

كانت في المشهد مكتبة[1].

كان إلى جوار المشهد محل خاص بالأيتام.

كانت في المشهد حلقات دراسية.

كانت الترب في المشهد كثيرة جداً.

كان يتصل بالمشهد صحن[2] فيه حجر وإيوان واحد أو أكثر.

كانت حول القبرين الشريفين أبهاء وأروقة.

---

(١) قال عبد الكريم بن طاووس في كتابه فرحة الغري: ١٢٣ "ومن محاسن القصص ما قرأته بخط والدي قدّس الله روحه على ظهر كتاب بالمشهد الكاظمي.. إلخ" وذكر علي آل طاووس في الإقبال: ٥٩٩ إنه توجد نسخة عتيقة من كتاب الملاحم للبطائني في خزانة مشهد الكاظم t.

(٢) الحوادث الجامعة: ١٣٦.

كانت في المشهد دار لاستراحة الزائرين.

كان المشهد مجمعاً للزائرين والقاصدين في المناسبات الدينية والأعياد.

كان للمشهد خدام وبوابون ونقيب يشرف على شؤون المشهد.

أصبحت حول المشهد مدينة عامرة بالسكان يدور عليها سور.

كان للمشهد سور يحيط به[1]، وهو غير سور البلدة السالف الذكر.

❖ ❖ ❖

ويصف ياقوت الحموي المشهد فيقول:

"ويعرف قبره [أي الإمام الكاظم (ع)] بمشهد باب التبن مضاف إلى هذا الموضع، وهو الآن محلة عامرة، ذات سور، مفردة"[2].

"مقابر قريش بغداد، وهي مقبرة مشهورة؛ ومحلة فيها خلق كثير، وعليها سور"[3].

ويصفه ابن خلكان فيقول:

"وقبره [أي الإمام الكاظم (ع)] هناك مشهور يزار، وعليه مشهد عظيم فيه قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما لا يُحد"[4].

ويصفه أيضاً نور الدين علي بن موسى بن سعيد المغربي الذي ورد بغداد سنة ٦٥٤هـ مع كمال الدين عمر بن العديم الحلبي:

"لما وصلنا إلى باب مشهد موسى بن جعفر تلقانا من خدامه مَن أنزلنا على بعد، ووجدنا في الطريق إلي هقبراً متطامنا يداس، فسألنا عنه فقيل: هذا قبر الحسين بن الحجاج الشاعر أوصى أن يدفن في طريق هذا المشهد ليداس بأقدام زواره، فلما وصلنا إلى الباب تلقانا الزوار من ولد الكاظم فأمرونا بنزع الأخفاف، فلما دخلنا رأينا من الجمع المحتفل وأواني الذهب والفضة والستور والشموع والطيب ما ملك أبصارنا. ولما حللنا بالروضة التي فيها قبر الكاظم رأينا قبراً آخر ذكروا إنه قبر حفيده محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وفي ذلك المشهد ما يطول ذكره ويهول أمره"[5]. ■

---

(١) المصدر نفسه: ١٨٥ و ٢٣٠ و٢٣٢.

(٢) معجم البلدان: ١٤/٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٧/٨.

(٤) وفيات الأعيان: ٣٩٥/٤.

(٥) مشهد الكاظمين: ١٠ - ١١ نقلاً عن كتاب "كنوز المطالب في أخبار آل أبي طالب".

المشهد الكاظمي
من بدء الاحتلال المغولي إلى نهاية الاحتلال العثماني

تبدأ هذه الفترة من الشهر الأول من عام ٦٥٦هـ عندما حوصرت بغداد من قبل الجيش المغولي، وأطبقت عليها أنياب هولاكو وأتباعه، وسرعان ما أمكنهم ازدرادها لقمة هنية سائغة، بعد أن مهدت لذلك ظروف وملابسات ليس هذا المقام مجال تفصيلها.

ففي منتصف شهر المحرم من العام المذكور استولى بوقاتيمور وبايجو وسونجاق على الجانب الغربي من بغداد، ونزلوا في ساحل دجلة في أطراف البلدة، وشرعوا بالرمي بالنشاب إلى الجانب الشرقي، ثم توجهوا نحو البيمارستان العضدي[١]. وكان ما كان مما لست أذكره.

وتم احتلال بغداد من قبل المغول يوم الاثنين الثامن عشر من المحرم[٢] أو بعد ذلك بأيام، بعد أن استولى الخراب والجوع والفزع على البلد وسكانه، وكان من جملة آثار هذا الاحتلال احتراق، "أكثر الأماكن المقدسة في المدينة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى والجواد وقبور الخلفاء"[٣].

ولما وصل الأمير قراتاي إلى بغداد ونصب عماد الدين عمر بن محمد القزويني نائباً عنه - وكان ذا دين ومروءة - عين القزويني هذا شهاب الدين علي بن عبدالله صدراً في الوقوف، وتقدم إليه بعمارة جامع الخليفة ومشهد موسى والجواد[٤].

وبعد ذلك بفترة وجيزة من نفس العام ٦٥٦هـ توفي الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي في مستهل جمادى الآخرة ودفن في مشهد موسى بن جعفر (ع)[٥].

ولما توفي الخواجه نصير الدين أبو جعفر محمد بن محمد الطوسي في ثامن عشر ذي الحجة سنة ٦٧٢هـ دفن في مشهد موسى بن جعفر (ع) في سرداب قديم البناء خال من دفن؛ قيل إنه كان قد عمل للخليفة الناصر لدين الله[٦].

---

(١) الحوادث الجامعة: ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) الإقبال لعلي بن طاووس: ٥٨٦ وكان معاصراً لفترة الاحتلال وحوادثها. وقد اختلط تعيين الأيام من ناحية أسمائها الأسبوعية في الحوادث الجامعة، فتارة يكون الأربعاء تاسع محرم "ص ٣٢٤"، وأخرى يكون الأحد سابع عشر محرم "٣٢٦"، وإذا كان الأحد كذلك فكيف تكون الجمعة ثاني صفر "٣٢٧"؟

(٣) جامع التواريخ: ٢/٢٩٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٢٩٥، ويراجع الحوادث الجامعة: ٣٣٣.

(٥) الحوادث الجامعة: ٣٣٣.

(٦) المصدر نفسه: ٢٨٠.

وفي سنة ٦٨٨هـ "عزم الملك شرف الدين السمناني صاحب ديوان العراق على التوجه إلى الأردو، فقصد سعد الدولة المشرف عليه مشهد موسى بن جعفر (ع) وزار ضريحه الشريف وأخذ المصحف متفائلاً به، فخرج له: (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المنّ والسلوى) [١] فاستبشر بذلك، وأطلق للعلويين والقوام مائة دينار"[٢].

ولما قتل فخر الدين بن الطراح صدر واسط والبصرة في سنة ٦٩٤هـ دفن في مشهد موسى بن جعفر (ع) [٣].

وما إن انتهى القرن السابع ودخل الثامن حتى كان المشهد قد بلغ الغاية في العمارة والزينة والتنظيم كما ترشدنا إلى ذلك أقوال المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة كابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ٧٢٧هـ، وكان مما قال:

"وفي هذا الجانب [أي الغربي] قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق، والد علي بن موسى الرضا، وإلى جانبه قبر الجواد، والقبران داخل الروضة، عليهما دكانه ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة"[٤].

ويقول صاحب غاية الاختصار وهو من رجال أوائل القرن الثامن عند ذكر الإمام الكاظم (ع):

"دفن بمقابر قريش حيث مشهده الآن وهو وابن ابنه الجواد محمد بن علي ـ عليهم السلام ـ تحت قبة واحدة"[٥].

وقال أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢هـ عند ذكر الإمام الكاظم (ع):

"وقبره مشهور هناك، وعليه مشهد عظيم في الجانب الغربي من بغداد"[٦].

والظاهر أن هذه المظاهر العمرانية التي يصفها هؤلاء المؤرخون ـ وقد سجلها بعضهم إن لم يكن كلهم عن مشاهدة ـ كانت قائمة منذ العصر العباسي: وإن أضيف إليها شيء من التحوير والتجديد بعد إزالة آثار الحريق الذي أصاب المشهد اثر احتلال المغول بغداد ـ كما مر ـ.

---

(١) سورة طه ـ ٨٢.

(٢) الحوادث الجامعة: ٤٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤٨٥.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ١/١٤١.

(٥) غاية الاختصار: ٩١.

(٦) تاريخ أبي الفداء: ٢/١٦.

وكل القرائن التاريخية ـ كتشيّع كثير من الوزراء ونفوذ نصير الدين الطوسي وإشرافه على الأوقاف ونقابة آل طاووس على الطالبيين في العراق وما شاكل ذلك ـ تؤيد فخامة المشهد وضخامة عمرانه وروعة بنيانه خلال هذه الفترة، ولكننا لا نعرف - مع الأسف - تفاصيل خطط العمارة، وإن كنا نرجح كونها امتداداً للعمارة الناصرية المستنصرية السالفة الذكر في الفصل السابق، ولا جديد فيها سوى أن الصندوقين اللذين أمر المستنصر بصنعهما قد وضعا تحت ضريح كبير واحد سماه ابن بطوطة "دكانة" وذكر أنه ملبس بالخشب وعليه ألواح الفضة، وهذا كثير الشبه بما عليه ضرائح الأئمة i اليوم حيث يجعل الضريح الفضي فوق الصناديق الخشبية.

❖ ❖ ❖

وفي سنة ٧٢٥هـ "زادت دجلة حتى غرقت ما حول بغداد وانحصر الناس بها ستة أيام لم تفتح أبوابها .... وذكر بعضهم أنه غرق بالجانب الغربي نحو من ستة آلاف وستمائة بيت"[(١)] وغرقت مقبرة أحمد بن حنبل فيما غرق[(٢)].

وفي سنة ٧٥٧هـ - وهي سنة جلوس السلطان أويس بن الشيخ حسن الجلايري - حدث فيضان عظيم استولى على بغداد وأغرق نحواً من أربعين ألفاً من أهاليها[(٣)].

ولما أعلن الخواجة مرجان عصيانه على سلطان وقته اويس سنة ٧٦٥هـ فتح سدود دجلة فأغرق أطراف بغداد لمدة أربع ساعات[(٤)].

وفي سنة ٧٦٩هـ قام السلطان أويس الجلايري بتعمير المشهد فبنى قبتين ومنارتين، وأمر بوضع صندوقين من الخرام الجيد على القبرين الشريفين، وزين الحرم بالطابوق الكاشاني الذي كتبت عليه سور من القرآن الكريم، كما عمر الرواق ورباطاً كان في الصحن، وأمر بإطلاق الأموال للخدام والسدنة وسائر العلويين الساكنين هناك[(٥)].

وكانت هذه العمارة الجلايرية هي الأولى بعد انقضاء العصر العباسي والظاهر أن سبب إنشائها تصدع المشهد من جراء تتابع الغرق والفيضانات - كما مر -، والمشهد الكاظمي وإن لم يذكر باسمه في النصوص السالفة الذكر جزء لا يتجزأ من تلك الأماكن التي خربتها المياه وأصابها الغرق الذي شمل بغداد وعم الجانب الغربي منها.

---

(١) البداية والنهاية: ١١٨/١٤.

(٢) شذرات الذهب: ٦٦/٦.

(٣) تاريخ العراق بين احتلالين: ٨٣/٢.

(٤) المصدر نفسه: ١١٠/٢.

(٥) صدى الفؤاد: ١٥، ويراجع مجلة سومر: ٥٥/٥.

وفي سنة ٧٧٥هـ كان الغرق ببغداد، حتى قيل إن جملة ما تهدم من الدور ستون ألف دار (كذا) ... وصارت الرصافة ومشهد أحمد ومشهد أبي حنيفة وغيرهما من المشاهد والمزارات لا يوصل إليها إلا في المراكب[1].

وفي يوم السبت السابع من ذي القعدة سنة ٨٠٣هـ دخل تيمور بغداد فاتحاً لها للمرة الثانية بعد محاصرة دامت أربعين يوماً..... وخرج منها في العشرة الأولى من ذي الحجة، ومن هناك زار مشهد الإمام الكاظم ومضى إلى الحلة[2].

ولما احتل الأمير أسبان بن قرا يوسف بغداد ليلة الخميس ثاني عشر شعبان سنة ٨٣٦هـ هرب أخوه محمد شاه صاحب بغداد في سفينة وخرج إلى الجانب الغربي توجه راجلاً إلى مشهد الإمام موسى الكاظم؛ وصحبه الشاه بوداق وابنه ومحمود الجمال، وكان السيد المعروف بالجوسقي في المشهد المذكور فأعطاه حماراً فركبه إلى الدجيل[3].

وينتهي في أوائل القرن العاشر عهد المغول والجلايريين والتركمان، وأخبار المشهد خلاله قليلة نادرة، وليس عندنا من جديد فيه ـ بعد إصلاح ما خرّبه الاحتلال المغولي ـ سوى عمارة السلطان اويس الجلايري التي أعادت القبة قبتين وجددت سائر معالم المشهد البارزة، والظاهر أنه لم يكن فيها اختلاف مهم عن عمارتها السابقة سوى صندوقي الرخام والطابوق الكاشاني الذي كتبت عليه سور من القرآن المجيد، ولعله أول طابوق من نوعه يوضع في المشهد الكاظمي.

وما عدا هذه العمارة فليس لدينا من أخبار المشهد سوى ما سلف ذكره. والنصوص التاريخية نادرة جداً عن هذ الفترة المظلمة من تاريخ العراق.

العهد الصفوي الأول:

في اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٩١٤هـ انتهى عهد التركمان بدخول الشاه اسماعيل الصفوي بغداد فاتحاً محتلاً[4].

وبعد مرور فترة من الزمن على بقائه في العراق مضى لزيارة المشهد الكاظمي، فأنعم على مَن كان هناك بأنواع الأنعام، وعين الرواتب لخدام المشهد، وأصدر أمره بقلع عمارة المشهد من أساسها وتجديدها تجديداً يشمل توسيع الروضة وتبليط الأروقة بالرخام وصنع

---

(١) العراق بين احتلالين: ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) العراق بين احتلالين: ٢/ ٢٤٠.

(٣) مشهد الكاظمين: ١٣ وتاريخ العراق بين احتلالين: ٣/ ٨٤.

(٤) العراق بين احتلالين: ٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

صندوقين خشبيين يوضعان على القبرين الشريفين وتزيين الحرم وأطرافه الخارجية بالطابوق الكاشاني ذي الآيات القرآنية والكتابات التاريخية، كما أمر بأن تكون المآذن أربعاً بعد أن كانت اثنتين وبتشييد مسجد كبير في الجهة الشمالية للحرم متصل به. وأحال أمر تنفيذ ذلك إلى أمير الديوان خادم بيك، وعاد إلى إيران[1].

كذلك أمر الشاه أيضاً بتنظيم شؤون الصحن المحيط بالمشهد، وكان فيه رباط للحيوانات التي تقل الزائرين إلى المشهد ومنه، فأمر بإبعاده وجعله خلف الصحن.

كما أمر بتقديم ما يحتاجه المشهد من فرش وقناديل - وكان منها الفضي والذهبي -، وعين للمشهد عدداً من الحفاظ والمؤذنين والخدام.

وبدأ العمل على قدم وساق، فتم تشييد هيكل الحرم وروضته أروقته - وهو الهيكل القائم اليوم - والقبتين والصندوقين والمسجد، وبلغت المآذن الكبيرة الأربعة ارتفاعاً يعلو عن سطح الحرم بمقدار ذراع كما تم صنع الكاشاني ووضعه في محله المقرر، كذلك وضع الرخام في موضعه، ولم يبق شيء مما أمر به إلا وقد نفذ منه - ما وسعه الوقت - بأمانة ودقة وإخلاص.

والآثار الصفوية المؤرخة الباقية إلى اليوم - بالإضافة إلى هيكل الحرم والجامع المتصل به - ثلاثة:

الأثر الأول:

الطابوق الكاشاني الموضوع على جدار الروضة المطهرة، وهو الطابوق الذي يحيط بالروضة من داخلها ويرتفع عن أرضها نحواً من مترين، وتزينه بأجمعه كتابة تبدأ من منتصف الجدار الغربي للروضة "جهة الرأس" وتفتتحها سورة الدهر حيث تنتهي في أواسط الجدار الشرقي مارة بالجدار الجنوبي، وتليها سورة النبأ التي تنتهي بنهاية الجدار الشمالي، ثم تبدأ ثلاث آيات من سورة الزمر (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - إلى قوله تعالى -: وقيل الحمد لله رب العالمين) ويلي ذلك رقم ٩٣٥ تاريخاً لانتهاء صنع هذا الكاشاني.

ويظهر من تاريخ هذا الطابوق أن الأعمال العمرانية قد تمت بعد وفاة اسماعيل وفي عهد الشاه طهماسب، بل يمكن تحديد تاريخ نصب هذا الطابوق وانتهاء الأعمال العمرانية بعام ٩٣٦هـ؛ وهو العام الذي استعاد به طهماسب الأول حكم العراق من يد الأمير ذي الفقار رئيس قبيلة موصلو الكردية، وكان هذا الأمير قد انتزع حكم العراق من الصفويين ما بين ٩٣٠ - أوائل ٩٣٦هـ.

---

(١) صدى الفؤاد: ١٦ والعراق بين احتلالين: ٣/٢٣٧ - ٢٤٢.

الأثر الثاني:

الطابوق الكاشاني المثبت في جدار الرواق الشرقي من جهته الخارجية المقابلة للصحين، وقد أودع ذلك في إيوان خاص ذي ثلاثة أضلاع يقع في أواسط "طارمة باب المراد" ملاصقاً للباب الرئيس الذهبي، وقد كتب عليه ما نصه:

"أمر بإنشاء هذه العمارة الشريفة سلطان سلاطين العالم؛ ظل الله على جميع بني آدم، ناصر دين جده الأحمدي، رافع أعلام الطريق المحمدي، أبو المظفر شاه اسماعيل بن شاه حيدر بن جنيد الصفوي الموسوي، خلد الله لإعلاء ألوية الدين المبين ملكه وسلطانه، وأيد لهدم قواعد أهل الضلال حجته وبرهانه، وحرر ذلك في سادس شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٦".

الأثر الثالث:

الصندوقان الخشبيان الموضوعان حتى اليوم على القبرين الشريفين، وهما صندوقان كبيران ومتساويان في الهيئة والحجم، مسطحاً الشكل، من الخشب الجيد المتين، طول كل منهما نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر، وعرض كل منهما نحو مترين، وكذلك ارتفاعهما، وهذه الأبعاد تقريبية.

وكل صندوق منهما يتكون من أربعة ألواح كبيرة وثمانية ألواح صغيرة متصلة بأطراف الألواح الكبيرة، أي أنها كل جهة من جهات الصندوق الأربع تتكون من ثلاثة ألواح أحدها كبير في الوسط، وفي كل طرف منه لوح صغير تعلوه الأفاريز المزخرفة والمزينة بالنقوش والكتابات.

وكل لوح من هذه الألواح الكبيرة والصغيرة مكون من عدد كبير من قطع صغيرة صنعت بأشكال هندسية مختلفة ومتنوعة تتصل مع بعضها فتتداخل وترتبط بمتانة وإحكام حتى يتكون منها لوح واحد منسق يحيط بأطرافه الأربعة إطار مزخرف ينتهي بالأفاريز، ويعلوها الغطاء، وهو محاط بافريز بارز، وكل قطعة من تلك القطع الهندسية الصغيرة زخرفت وزينت بنقوش هندسية وزهرية ونقوش أخرى مختلفة بالحفر والتطعيم والتلوين.

وتكاد تكون زخرفة كل لوح تختلف عن اللوح الآخر، وقد عرف هذا النقش بنقش الخاتم، وهو أدق وأجمل نقش معروف.

وقد استعمل للزخرفة وللتطعيم خشب الآبنوس والعناب والليمون والصاج وعظم العاج والجمل والحصان والأصداف وسبائك البرنز والمعادن الملونة من مذهبة ومفضضة والأصباغ المعدنية الملونة البراقة ودهن الصندلوس ومواد دهنية أخرى، إلى غير ذلك مما لا يمكن استيفاء وصفه، كما تزين بعض الألواح كتابات نسخية مركبة متداخلة بأحرف

بارزة واضحة جميلة، وقد كتبت بعض الكلمات بالخط الكوفي على طريقة النقش للتزيين.

نبتدئ بذكر النصوص المكتوبة على صندوق ضريح الإمام الكاظم (ع)، فقد كتب على كل من اللوحين الصغيرين المتصلين باللوح الكبير المواجه لجهة القبلة عشرة حقول من الكتابات النسخية البارزة: أربعة من الجهة اليمنى ومثلها في الجهة اليسرى وسطر في الجهة العليا وآخر على القاعدة، وعلى اللوح الثاني عشرة حقول أيضاً كالتي ذكرناها، وتبتدئ الكتابات من عند القاعدة. وفيما يلي النصوص المكتوبة على اللوح الأول الكائن على يمين القارئ وهي:

١ - هذا ضريح سيد هذه الأمة، وكاشف الكروب والغمة، وسابع معصومي الأئمة.
٢ - كبير القدر عظيم البينات، كثير التهجد والصلوات المشهود له.
٣ - بالفضائل والكرامات، والمشهور بالعبادة والمواظب على الطاعات.
٤ - الإمام الخير القائم، الصائم العالم، الذي هو لبناء الباطل.
٥ - هادم، أبي ابراهيم موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين أبن الحسين الشهيد.
٦ - ابن الإمام المفروض الطاعة على المؤمنين، وإمام المتقين، أسد الله الغالب.
٧ - أبي الحسنين علي بن أبي طالب، عليهم (من) الصلوات المباركة والتحيات.
٨ - أنماها، ما أظلم ليلها وأزهر ضحاها، وكمل عمله واصطناعه.
٩ - في شهر الله الأعظم رمضان المبارك من شهور سنة ست وعشرين وتسعمائة.
١٠ - وصلى الله على سيدنا ونبينا وآله الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

وكتب على اللوح الثاني: عشرة حقول - كما مر - تبتدئ أيضاً من عند القاعدة للجهة اليمنى، وهي:

١ - بأمر السلطان العادل الكامل، محيي مراسم.
٢ - الشريعة المصطفوية، معلي معالم الطريقة المرتضوية.
٣ - الذي فات سلاطين الآفاق بحباك (سردقات).
٤ - جلاله مسددة، وأطناب ظلال معدلته على.
٥ - مفارق أهل الإسلام ممدّدة، والموفق من عند الملك المنّان.
٦ - السلطان بن السلطان بن السلطان بن السلطان.
٧ - أبو المظفر شاه اسماعيل خان الحسيني.
٨ - خلد الله إقباله، وأيد على مفارق أهل الإسلام.

٩. ظلاله، وتمت هذه الصنعة الشريفة بعد مساعدة.

١٠ ـ التوفيقات الإلهية ومعاضدة التأييدات الشاهية في سنة...

وفي طرفي اللوح الكبير الكائن بينهما دائرتان، وفي وسط كل دائرة مربع داخله كتابة نسخية في ثلاثة أسطر، وهي:

(لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله ـ علي ولي الله)

وكتب داخل المسافات الأربع التي بين الدائرة والمربع بالقلم النسخي البارز أسماء الأئمة الاثني عشر، كل ثلاثة أسماء في جهة تملأ الفراغ، وتبتدئ من الجهة العليا، وهي:

(علي حسن حسين، علي محمد جعفر، موسى علي محمد، علي حسن محمد).

وما كتب على الدائرة الثانية هو عين ما كتب على الدائرة الأولى، وكتب على أحد الألواح الصغيرة المتصلة باللوح الذي في جهة القبلة من جهة الأرجل داخل أربعة عشر دائرة مسدسة الشكل أسماء المعصومين الأربعة عشر، كل دائرة تحمل اسماً واحداً، اثنان منها في الجهة العليا ومثلها في الجهة السفلى وخمسة في الجهة اليمنى ومثلها في الجهة اليسرى، وذلك بخط نسخي بارز، وهي:

١ ـ اللهم صل على محمد المصطفى.

٢ ـ وصل على علي المرتضى.

٣ ـ وصل على فاطمة الزهراء.

٤ ـ وصل على الحسن المجتبى.

٥ ـ وصل على الحسين الشهيد بكربلا.

٦ ـ وصل على علي زين العابدين.

٧ ـ وصل على محمد الباقر.

٨ ـ وصل على جعفر الصادق.

٩ ـ وصل على موسى الكاظم.

١٠ ـ وصل على علي الرضا.

١١ ـ وصل على محمد التقي.

١٢ ـ وصل على علي النقي.

١٣ ـ وصل على الحسن العسكري.

١٤ ـ وصل على محمد المهدي.

أما بقية الألواح من الجهة المضادة للقبلة وجهة الأرجل فلا كتابات عليها بل زخرفة ونقوش مختلفة.

أما النصوص المكتوبة على صندوق ضريح الإمام الجواد (ع) فقد كتبت بالخط النسخي وبحروف بارزة وعلى شكل سطر واحد يحيط باللوح الكبير الكائن في جهة الرأس الشريف وهي سورة الدهر بكاملها تبدأ بالبسملة وتنتهي في "صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم".

وكتب على اللوح الكبير المباين لجهة القبلة بالخط الكوفي مطعماً بالعاج كلمة "علي" مكررة ثلاث مرات متجهة إلى المركز يحيط بها كلمة "محمد" مكررة ثلاث مرات أيضاً ومتجهة إلى المركز، وذلك ثمانية عشر مسدساً ستة منها في الجهة العليا ومثلها في الجهة السفلى وثلاثة في الجهة اليمنى ومثلها في الجهة اليسرى من اللوح.

وكتبت بالعاج أيضاً كلمة "علي" فقط على الطريقة السالفة على كل من اللوحين الصغيرين المتصلين بهذا اللوح الكبير داخل أربعة عشر مسدساً اثنان منها في الجهة العليا ومثلها في الجهة السفلى وخمسة في الجهة اليمنى ومثلها في الجهة اليسرى.

أما جهة الأرجل وجهة القبلة فليس عليهما نصوص كتابية، بل زخرفة من حفر وتطعيم وزخارف ملونة(١). وقد تم عمل كلا الصندوقين سنة ٩٢٦هـ.

ومع هذين الصندوقين تمّ صنع مجموعة من الأبواب الخشبية للحرم، وتوجد ثلاثة مصاريع منها حتى الآن في دار الآثار العربية ببغداد في الغرفة (٢١) وأرقامها ٧١٤٦ع و ٧١٤٧ع و٧١٤٨ع، وكانت قد رفعت من مواضعها الأولى في الحضرة لقدمها ولنصب الأبواب الذهبية والفضية الحالية مكانها، وعلى الرغم من خلو هذه الأبواب من التاريخ، فإن طراز نقشها وزخارفها وطريقة التكفيت المعروفة بـ «نقش خاتم» واسلوب كتاباتها النسخية والكوفية يشبه كثيراً ما على الصندوقين السالفي الذكر.

إنّ هذه الأبواب تكاد تكون متشابهة في الصنع، فكل مصراع منها مكوّن من ثلاث حشوات، العليا والسفلى منها صغيرة، والوسطى كبيرة، ويعادل طولها ثلاثة أمثال الحشوة الصغيرة تقريباً. وجميع هذه الحشوات مزوّقة بطريقة التكفيت المعروفة بـ«نقش خاتم» وقوامها قطع هندسية مختلفة الأشكال والحجوم منها من خشب الدلب وغيرها من خشب البنتيج والسيسم والصندل والنارنج، بينها ما هو مزوق بقطع دقيقة من الأخشاب من ألوان مختلفة والعاج والصدف والذر والمعادن المذهبة والمفضضة والاصباغ المعدنية البراقة الزاهية، وبينها ما تزينه الكتابات النسخية البارزة والكوفية المكفتة، وكل هذه القطع مكفتة في أصل الحشوة ومرتبة ترتيباً هندسياً رائعاً كون من مجموعها قطعة فنية باهرة.

---

(١) مجلة سومر: ١٩٢/٦ - ١٩٥.

ومما يجدر التنبيه عليه أن أحد هذه المصاريع وهو ذو رقم ٧١٤٦ع يمتاز عن المصراعين الآخرين بتحلية الحضوة والوسطى فيه باسم النبي (ص) وأسماء الأئمة الإثني عشر (ع) وقد نقشت في قطع التكفيت على النحو الآتي:

في الوسط:

اللهم صل على النبي الأمي الهاشمي المدني التهامي محمد المصطفى.

وفي القطع الدائرة حولها:

١ - وصلّ على الإمام علي المرتضى.

٢ - والإمام الهمام الحسن المجتبى.

٣ - والإمام الحسين الشهيد بكربلا.

٤ - والإمام علي زين العابدين بن الحسين.

٥ - والإمام الهمام محمد الباقر.

٦ - والإمام الهمام جعفر الصادق.

٧ - والإمام الهمام موسى الكاظم.

٨ - والإمام علي الرضا بن موسى.

٩ - والإمام الهمام محمد التقي.

١٠ - والإمام الهمام علي النقي.

١١ - والإمام [الهمام] الحسن العسكري.

١٢ - والإمام الهمام محمد المهدي.

وفي الكفاسيج والعضادات كتابة كوفية من السيسم مكفتة في العاج نصها: «في حمد الله».

ويبلغ طول هذا المصراع ٣١١سم وعرضه ٨٨ سم وثخنه ٨ سم.

أما المصراع ذو رقم ٧١٤٧ع فطوله ٣٢٦ سم وعرضه ٩٠ سم وثخنه ٨ سم وتزوقه كتابة كوفية نصها: «في حمد الله» مثل التي مرّ ذكرها في المصراع الأول.

وطول المصراع ذي رقم ٧١٤٨ع ٣٤٩سم وعرضه ٩٠سم وثخنه ٨ سم، وفي كفاسيجه كلمة «الله» وكذلك في طرف حشوته الوسطى كتابة كوفية نصها «يا محمد» وكلها من خشب السيسم ومكفتة بين قطع من العاج[1].

(١) مجلة سومر: ٥/٦٢ - ٦٤.

العهد التركي الأول:

وفي يوم الاثنين ٢٤ جمادى الأولى سنة ٩٤١هـ دخل السلطان سليمان القانوني بغداد محتلاً لها ومزيلاً حكم الصفويين، وفي ٢٨ جمادى نفسه - أي بعد أربعة أيام من الاحتلال - بدأ السلطان جولة طاف خلالها في أطراف بغداد وأنحائها، وكان المشهد الكاظمي إحدى تلك المناطق التي زارها.

وعندما زار السلطان مرقد الإمامين (ع) أمر بدفع رواتب لخدام المشهد من خزانة بغداد، كما أصدر السلطان فرماناً بإكمال النواقص الصغيرة التي لم يكملها الصفويون[١].

وفي أول المحرم سنة ٩٦١هـ تحرك سيدي علي رئيس من حلب قاصداً البصرة لقيادة السفن الرابضة فيها إلى مصر، وفي أثناء مروره ببغداد زار المساجد والمراقد، ومن جملتها المشهد الكاظمي. وكذلك زار المشهد في عام ٩٦٤هـ عندما مرّ ببغداد مرة أخرى[٢].

وفي سنة ٩٧٨هـ تمّ بناء المنارة الواقعة في شمال شرقي الحرم المطهّر، وكانت أسس المنائر الأربعة الكبرى قد بُنيتْ أيام الصفويين وارتفع بناؤها حتى تجاوز مستوى سطح الحرم بمقدار ذراع - كما مر. وقد انتهى تشييد المنارة الجديدة بأمر السلطان العثماني سليم الثاني، وكانت كما يحدث الرواة مكشوفة الأعلى بلا سقف يقي المؤذن أذى الشمس والمطر. ولما تمّ بناؤها أرخها الشاعر فضلي بن فضولي البغدادي بأبيات تركية هذا نصها:

همّت كاظم وجواد قلوب	**بو مناره قيا منه اقدام**
بخت سلطان سليم دين پروَزْ	**اول ملاذ جهان وقطب أنام**
مظهر عدل ومظهر احسان	**ماحي كفر وحامي اسلام**
قلدي امداد أمر عالي ايله	**ويردي حق بومناره يه اتمام**
فضلي اخلاصله ديدي تاريخ	**(اولدي بوجا نفزا مناره تمام)**

وكان انتهاء العمل في هذه المنارة في عهد مراد باشا والي بغداد[٣].

والظاهر أن الدافع على إتمام بناء هذه المنارة دون غيرها أنها تقع بين المشهد والمسجد وكونها تقابل الزاوية الشرقية الشمالية للبلدة؛ وهي الجهة التي كانت تزدحم بالسكان يومذاك.

---

(١) العراق بين احتلالين ٢٩/٤ و ٣٤.

(٢) العراق بين احتلالين: ٧٢/٤ و ١٠٤.

(٣) العراق بين احتلالين: ٣٥/٤ و ١١٢ و ١١٤.

وقد نقشت الأبيات السالفة الذكر على صخرة كبيرة موضوعة فوق باب سلّم المنارة المشار إليها في زاوية الإيوان المعروف بـ«طارمة باب المراد»، وفي هذه السنة أو حواليها أحدثت والدة السلطان سليم بركة للمشهد لغرض الغسل والوضوء.

العهد الصفوي الثاني:

وفي يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول سنة ١٠٣٢هـ فتح الشاه عباس الكبير الصفوي بغداد، فعاد لها حكم الصفويين بعد غياب دام ٩٢ عاماً.

وبعد استتباب الأوضاع واستقرارها زار الشاه المشهد الكاظمي وأمر بإعادة تشييد ما خرّبته الحروب والفتن وما سبّبته من إهمال وتسيب.

وكان من أبرز أعماله أمره بصنع ضريح ضخم من الفولاذ يوضع على الصندوقين الخشب ليقيهما غوائل النهب والسلب أثناء معارك الفوضى أو هجوم العشائر على البلدة[١].

وبالنظر إلى ما حدث بعد ذلك من تأزم في العلاقات السياسية بين إيران وتركيا فقد تأخر إرسال هذا الضريح حيناً طويلاً من الدهر استمر حتى عام ١١١٥هـ، حيث وصل إلى الكاظمية في شهر جمادى الثانية من تلك ا لسنة وفد كبير يضم لفيفاً من علماء الدين والوزراء والوجهاء الإيرانيين وفي مقدمتهم شيخ الإسلام جعفر الكمرئي ومعهم هذا الضريح الفولاذ[٢]، وأقيم لنصبه على المرقد احتفال عظيم حضره الآلاف من العراقيين والإيرانيين، ويروى أنّ هذا الضريح كان على جانب كبير من الضخامة والفخامة؛ وأنه كان يشتمل على كتابات كثيرة من جملتها سورة الدهر وآيات أخرى من القرآن الكريم؛ مضافاً إلى بعض الأبيات والمقطعات الشعرية.

ومن أعمال الصفويين خلال عهدهم الثاني في العراق ما أمر به الشاه صفي بن عباس الصفوي سنة ١٠٤٥هـ بإجراء بعض الإصلاحات في المشهد؛ كإحكام قواعد المنائر الكبيرة وتصغير المنائر الأربعة الصغيرة الواقعة في زوايا سطح الحرم حذراً من عدم تحمل دعائم القبتين لكل هذا العبء الثقيل[٣].

العهد التركي الثاني:

وفي ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨هـ انتهى الحكم الصفوي، عندما طلب الجيش الإيراني أماناً من الجيش التركي المهاجم بقيادة السلطان مراد العثماني، وتم فتح بغداد من قبل الجيش العثماني يوم ٢٣ شعبان[٤].

---

(١) صدى الفؤاد: ١٦.

(٢) الفوائد الرضوية: ٧٥/١، وفيه أن عدد الوفد كان قرابة عشرة آلاف.

(٣) صدى الفؤاد: ١٧.

(٤) العراق بين احتلالين: ٢٢٤/٤.

وفي تلك السنة عندما قرّر السلطان مراد العودة إلى الأستانة زار المشاهد والمراقد، وفي ١٢ شهر رمضان زار المشهد الكاظمي.

وتروي لنا المجموعات الخطية: إن الجنود الأتراك ومعهم بعض عشاق الفتن هجموا على الكاظمية - بعد احتلال السلطان مراد - فنهبوا ما شاؤوا، وكان مما نُهب قناديل من الذهب والفضة وجميع ما كانت تضمه الروضة مما خف حمله وغلا ثمنه.

ثم ينتهي القرن الحادي عشر وليست لدينا أية معلومات أخرى عن المشهد مطلقاً.

ويدخل القرن الثاني عشر وينتهي أيضاً والمصادر غافلة عن المشهد وما يجاوره كل الغفلة، وليس لدينا من الأنباء إلا إرسال نادر شاه مع أحد أمرائه هدايا ثمينة للعتبات المقدسة في العراق في سنة ١١٥٣هـ، ولما وصلت هذه الهدايا إلى بغداد كتب الوزير دفتراً بها ثم سلمها إلى ممثل الحكومة الإيرانية ليوزعها على أماكنها المعينة[1].

كما أن من أنباء المشهد خلال هذا القرن ما رواه عبد الرحمن السويدي من أن الوالي حسن باشا المتوفى سنة ١١٣٥هـ قد جدد مسقف الإمام موسى الكاظم (ع) حين شاهده مشرفاً على الانهيار من تطاول الزمن وبلي الأخشاب. ولم يتضح لنا المقصود من كلمة «مسقف» ولعله إيوان مسقف بالخشب.

وفي سنة ١٢٠٧هـ بدأ العمل في المشهد الكاظمي على قدم وساق؛ تنفيذاً لأوامر آقا محمد شاه القاجاري بإكمال ما بدأه الصفويون في هذا المشهد. واشتملت هذه الأعمال على إنشاء المنائر الثلاث الكبرى التي رفع الصفويون سمكها إلى حد السطح، وكانت الرابعة مشيدة منذ عهد السلطان سليم - كما مر - ولكنها بلا سقف من فوق رأس المؤذن، فشيد لها بهذه المناسبة سقف كسقوف الثلاثة الأخرى الجديدة.

ومن تلك الأعمال أيضاً تأسيس صحن واسع يحف بالحرم من جهاته الثلاثة الشرقية والجنوبية والغربية، ويتصل الجامع الكبير بالحرم من جهته الشمالية. وتم تخطيط الصحن بمساحته الموجودة اليوم؛ وابتياع سائر الدور الواقعة داخل المخطط، وصرفَتْ أموال طائلة لإرضاء مالكي تلك الدور، وبقيت دار واحدة في زاوية الجنوب الغربي لم يرض صاحبها ببيعها، فظلت معترضة جدار الصحن من تلك الجهة وناتئة فيه حتى سنة ١٢٤٦هـ عندما داهم الطاعون العراق ومن جملته الكاظمية فأباد أهل هذه الدار بأجمعهم فيمن أباد، فعادت ملكيتها - شرعاً - إلى كبير علماء عصره الشيخ محمد حسن آل ياسين المتوفى سنة ١٣٠٨هـ، فأذن بإلحاقها بالصحن. ويروى أنه كان يدور حول هذا الصحن الجديد سور من الطابوق والجص يبلغ ارتفاعه نحواً من خمسة أمتار، وفيه من جهته الداخلية إيوانات صغيرة.

---

(١) دوحة الوزراء: ٤٦.

ولم تنقطع الأعمال العمرانية في المشهد بموت محمد شاه سنة ١٢١١هـ، بل كانت للشاه الجديد فتح علي شاه أعمال أخرى، منها: نقش باطن القبتين ـ سقف الروضتين ـ بماء الذهب والميناء وقطع الزجاج الملون، ومنها: تزيين جدران الروضة كلها من حد الطابوق الكاشاني الصفوي «الكتيبة» إلى أعلى الجدار المتصل بالسقف بقطع الزجاج الجميل المثبت على الخشب.

وكان من أبرز أعمال هذا الشاه تذهيب القبتين والمنائر الصغار الأربعة، وذلك لما جدد هذا الشاه تذهيب قبة الحسين (ع) بكربلاء، وبقي الذهب القديم فائضاً عن الحاجة، فنقل ـ بموجب فتوى شرعية ـ إلى الكاظمية، حيث أعيد صقله وطليه على الطابوق المعد لهذا الغرض؛ وأضيف إليه ما لزمت إضافته، وتم هذا التذهيب في سنة ١٢٢٩هـ كما تحكيه أبيات فارسية مثبتة على القبة الكاظمية، ومادة التاريخ: «كَنبد موسى بن جعفر بجهان زرين شد».

وتوجد طابوقة أخرى عليها شعر فارسي في آخره تاريخ نصه: «بتاريخ تاريخ تعمير شد»، وهذا يوافق سنة ١٢١١هـ، وهي سنة التذهيب الأول لقبة الحسين (ع) الذي أبدله فتح علي شاه وفاءً لنذر كان التزم به، وقد نقلت هذه الطابوقة الذهبية ذات التاريخ مع باقي الطابوق إلى الكاظمية وجليت ووضعت على القبة من دون التفات إلى ما تحمله من تاريخ.

ومن الأعمال التي تمت في أواسط القرن الثالث عشر ـ ولم نعرف السنة على وجه التحديد ـ تجديد بناء البركة التي كانت تقع في أواسط الصحن الشرقي ـ وكانت والدة السلطان سليم هي المؤسسة لها كما مر ـ. وقد تمّ تجديدها من ثلث أموال الحاج محمد باقر البهبهاني تنفيذاً لوصيته، وأشرف على التجديد صهر صاحب المال ووصيه الحاج عبد المطلب البهبهاني.

وفي سنة ١٢٥٥هـ غشي الإيوان الصغير الذي يشرع فيه باب الرواق في (الطارمة) الجنوبية بالذهب، وكان ذلك بنفقة منوجهر خان الملقب بمعتمد الدولة أحد رجال الحكومة الإيرانية، وقد توفي نحو سنة ١٢٦٠هـ.

وفي سنة ١٢٥٥هـ أيضاً أهدى السلطان محمود الثاني إلى المشهد الكاظمي «الستر النبوي» وهو من السندس المطرز، فأسدل على الضريح في ليلة القدر من شهر رمضان من السنة المذكورة، وأرخ بجملة «جاؤوا بأشرف ستر»، وشارك الشعراء بقصائد عامرة في تمجيد هذه المناسبة، فمنهم عبد الغفار الأخرس الذي يقول:

يا إمام الهدى ويا صفوة اللـ ـه ويا من هدى هداه العبادا
يا ابن بنت الرسول يا ابن علي حي هذا النادي وهذا المنادى
قد أتينا بثوب جدك نسعى وأتيناك سيدي وفادا
فأتيناك راجلين احتراماً واحتشاماً وهيبة وانقيادا
نتهادى راجلين جميعاً وبه كانت المطايا تهادى

راميات سهم النوى عن قسي ... قاطعات دكادكاً ووهادا
طالبات «موسى بن جعفر» فيه ... وكذا القدوة «الإمام الجوادا»
من نبي قد شرف العرش لما ... أن ترقى بالله سبعاً شدادا
شرف في ثياب قبر نبي ... عطّرت في ورودها بغدادا
ومزايا الفخار أورثتموها ... شرف الجد يورث الأولادا
أنتم علة الوجود وفيكم ... قد عرفنا التكوين والإيجادا
ما ركنتم إلى نفائس دنيا ... ولقد كنتم بها أفرادا
وانقلبتم منها وانتم اناس ... ما اتخذتم إلا رضا الله زادا
ولقد قمتم الليالي قياماً ... واكتحلتم من القيام السهادا
إن يكونوا كما اذاعوا فمنْ ذا ... مهد الأرض سطوة والبلادا
ومحا الشرك بالمواضي غزاة ... وسطا سطوة الأسود جهادا
حيث أن الإله يرضى بهذا ... بل بهذا من القديم أرادا
فجزيتم عن اجركم بنعيم ... يتوالى الأرواح والأجسادا
وابتغيتم رضا الإله ولا زلـ ... ـتم بعز يصاحب الآبادا
انتم يا بني الرسول اناس ... قد صعدتم بالفخر سبعاً شدادا
آل بيت النبي والسادة الطهـ ... ـر رجال لم يبرحوا امجادا
فضلوا بالفضائل الخلق طراً ... مثلما تفضل الظبا الأغمادا
ليس يحصى عليهم المدح مني ... ولو أن البحار صارت مدادا
أنتم الذخر يوم حشر ونشر ... ومعاذاً إذا رأينا المعادا
كاظم الغيظ سالم الصدر عاف ... ما حوى قط صدره الأحقادا
قد وقفنا لدى علاك والقيْـ ... ـنا إلى بابك الرفيع القيادا
مع أن الذنوب قد أوثقتنا ... نرتجي الوعد نختشي الإيعادا
ومددنا إليك أيدي محتا ... ج يرجي بفضلك الإمدادا
وبكينا من الخشوع بدمع ... هو طوراً مثنى وطوراً فرادى
قد وفدنا آل النبي عليكم ... زودونا من رفدكم إرفادا
بسواد الذنوب جئنا لنمحو ... ببياض الغفران هذا السوادا
وطلبنا عفو المهيمن عنا ... وأغضنا الأعداء والإلحادا
موطن تنزل الملائك فيه ... ومقام يسر فيه الفؤادا
أيها الطاهر الزكي أغثنا ... وأنلنا الإسعاف والإسعادا
و((علي)) اتاك يا ابن علي ... كي ينال المنى بكم والمرادا

مستزيداً من فضلكم حيث كنتم ... منهلاً ما استزيد إلا وزادا
فعليك السلام يا خيرة الخلْـ ... ـق سلام يبقى ويابى النفادا(١)

ومنهم عبد الباقي العمري الفاروقي الذي يقول:

وافتْك يا موسى بن جعفر تحفة ... منها يلوح لنا الطراز الأول
رقمت على العنوان من ديباجها ... ديباجة الشرف الذي لا يجهل
كم جاورت قبراً لجدك فاكتست ... مجداً له انحط السماك الأعزل
وتقدست إذ جللت جدثاً ثوى ... في لحده المدثر المزمل
فاشتاق ستر العرش لو بمحلها ... يوماً على تلك الحظيرة يسبل
نشرت ففاح من النبوة نشرها ... ما المسك ما نفحاته ما الصندل
أعطيت ما لم يحظ يعقوب به ... إذ جاءه بشذا القميص الشمأل
طوبى لكم من وارثين فقد غدت ... آثار جدكم إليكم تنقل
شملتكم معه العبا بحياته ... ومماته أستاره لك تشمل
هذا رواق مدينة العلم التي ... عن بابها قد ضل من لا يدخل
هذا كتاب من غدا بيمينه ... يعطى الذي يرجو غداً ويؤمل
هذا الزبور وذلك التوراة والـ ... إنجيل بل هذا القرآن المنزل
هذا هو التابوت فيه سكينة ... وافى على أيدي الملائك يحمل
هذا هو الستر الذي كشف الغطا ... عن أعين بالغي كانت تكحل
هذا الإزار يحط عن زواره ... وزر به رضوى ينوء ويذبل
لما به ساروا وأعلام لهم ... خفقت بأثواب الجلالة ترفل
باهى الإله بهم ملائكة السما ... فبدت على الزورا ضحى تتنزل
من تحت أخمص زائريه كم لها ... من أجنح نشرت وطتها الأرجل
وأتوا لبابك يحملون وسيلة ... المرسلون بها غداً تتوسل
نزلوا على الجرعاء من وادي طوى ... وتفرسوا بقبولهم فترجلوا
وتقدسوا بحظيرة القدس التي ... رجل ابن عمران بها لا تنعل
شاموا السنا من قبتيك وعنده ... وجدوا منار هدى يشب ويشعر
فتهافتوا مثل الفراش وأحدقوا ... ففشاهم النور القديم الأول
قد سبحوا لما أتوك وكبروا ... إذ شاهدوا منك الضريح وهللوا
وتزاحموا وتراكموا وتوسلوا ... وتوقعوا وتخضعوا وتذللوا
جاؤوك في آثارك رحمة ربهم ... قد توجوا فيها الرؤوس وكللوا
فاقبل هدية أمة الهادي التي ... منك الإغاثة في الشدائد تسأل

---

(١) ديوان الأخرس: ٧٩ - ٨١.

بضجيج حضرتك الجواد محمد وحفيدها هذا الإمام الأفضل
يا كعبة الإسلام حول ضريحكم نسعى ونحفد بل نطوف ونرمل
وحياتكم من كنتم سؤلاً له بمماته في قبره لا يسأل
فترحموا يا آل بيت المصطفى وتكرموا وتفضلوا وتقبلوا
صلى الإله عليكم ما رنحت ريح الصبا غصناً وهبت شمال[1]

ثم نظم عبد الباقي العمري قصيدة أخرى يمدح بها الإمامين (ع) ويصف ما شاهده في مشهدهما «من محاسن المعلقات والقناديل الزاهيات ونفائس السرادقات»، قال فيها:

حضرة الكاظمين منها المرايا قد حكت قلب صب أهل الطفوف
صبغتها يد التجلي بكف كبرت عن تشبيهها بالكفوف
وروت عن غدير خم صفاء فتراءت لطرفي المطروف
من قناديل عسجد زينوها بصفوف تلوح إثر صفوف
رسم تعليقها الأنيق تبدى كسطور منضودة من حروف
روضة للصدور فيها ورود بأكف الألحاظ ذات قطوف
كلما زرتها أقول لعيني: هذه كعبة الجلال فطوفي[2]

وفي سنة ١٢٦٩هـ كان من جملة مقتنيات المشهد ثرياً من البلور معلّقة بسلسلة جميلة تظلّلها سرادقات من الديباج، وقد وصفها عبدالباقي العمري بقوله:

مقامُ الكاظمين سماءُ مجدٍ مسردقةٌ بديباج الجلالِ
أمام الفرقدين بها الثريّا معلقّة بعرنين الهلالِ[3]

وفي سنة ١٢٦٩هـ أيضاً فتح باب جديد في المشهد، ولا نعلم موضعه على وجه التحديد، فقد ورد على ظهر كتاب مخطوط بمكتبة الخلاني ببغداد بيتان بهذا الشأن لعبد الحميد الكاظمي؛ هما:

فيا زائرا بالقصد موسى بن جعفر ويا سالكاً بالسير خير المناهج
الا فاطلب الحاجات يمناً مؤرخاً (فقد فتحت باليمن باب الحوائج)

وفي سنة ١٢٦٩هـ أيضاً شيد الفريق سليم باشا بنية كانت قد خربت في وسط الصحن من زاويته الجنوبية الشرقية عرفت باسم «ولد الكاظم»، وأرخ هذا العمل عبد الباقي العمري بقصيدة في آخرها تاريخ، نثبت نصها:

---

(١) ديوان العمري: ١١٣ - ١١٤.

(٢) ديوان العمري: ١٣٤، ويراجع ص ١٣٧ منه.

(٣) ديوان العمري: ١٣٥، ويراجع ص١٣٧منه.

«فريق» جند النصر سمح اليدَيْن — أعني «سليم» القلب من كل رين
آثاره أنوارها قد بدت — باهرة تزهر بالقبتين
إذ شاد ما كان بها داثراً — فأشرقت في حضرة النيرين
شاد جناب الكاظم المرتجى — سلالة السبط الإمام الحسين
عترة طه المصطفى أحمد — أشرف مَن صلى إلى القبلتين
لما راى تعميرها واجباً — بل إن ما شاهده فرض عين
بنى - بطوع - لهما مرقدا — ببذله التبر ونقد اللجين
فأخلص النية يرجو بها — من ربه القربة من غير مين
جزاه ربي عنهما خير ما — جزى به مستوجب الحسنيين
بعون أصحاب العبا أرخوا — (شاد سليم مرقد الفرقدين)[1]

١٢٦٤ = ١٢٦٩هـ

كما نظم الشيخ جابر الكاظمي قصيدة بهذه المناسبة قال فيها:

من هدمت أيدي البلى ركنه — وقد وهى إذ هدّ معموره
أشار في تعميره ماجد — مثاب فعل الخير مأجوره
((فريق))جيش منه جيش العدى — من فرق فرق جمهوره
أمير جيش الملك المالك الـ — أنام والأيام مأموره
سلطاننا «عبد المجيد» الذي — أصم أسماع الردى صوره
سلطان عدل حكمه نافذ — مدى المدى لم يمح مسطوره
قد غمر الدهر ندى كفه — فالدهر بالإحسان مغموره
وعمر الأرجاء في عدله — ودمر الأعداء تدبيره
عمره بعد خراب وقد — سما على هام السما سوره
مذ تم تعميراً وقام البنا — أرخته (قد تم تعميره)[2]

١٢٦٩ هـ

وأهدى السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود العماني مشكاتين للمشهد الكاظمي خلال فترة حكمه ١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ، فنظم الشيخ جابر الكاظمي قصيدة بهذه المناسبة، وخمسها الشاعر الملا داوود الطوسي، ومما قاله الكاظمي في قصيدته:

ليُيلات وصل عم نشراً عبيرها — وساعات لهو تم بشراً سرورها
اعاد لنا عهد التصابي نعيمها — ورد لنا شرخ الشباب حبورها
ينم سناها بالصباح كأنما — دجى الليل سر كتمته بدورها

---

(١) ديوان العمري: ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٢) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٢٧.

كأن قد تراءت نار موسى فأشرقت ... بها الأرض طرا حيث شب سعيرها
صباح الهدى المبسوط موسى بن جعفر ... وشمس الندى المنشور في الكون نورها
أجار المعالي تحت ظل قبابه ... فطال سمواً كل طول قصيرها
به أطأدت أركانه وبسبطه ... وقامت مبانيه وشيدت قصورها
محمد الطهر الجواد الذي له ... أياد على جيد النوال خطيرها
فهم مبدأ الفيض القديم وختمه ... وأول وراث العلى وأخيرها
بهم لبس الدين المهابة وارتدى ... سنا شمس عز لا يغيب سفورها
كما لبست مستطرف العز أمة ... مجير العلى «عبد المجيد» مجيرها
بسلطنة عمت بأنعمها الثرى ... ودار على السبع الأقاليم سورها
رأى بر آل الله في الله قربة ... وبالود في القربى حري جديرها
فأرسل مشكاتين للخلد زينة ... وستراً لحور العين منه خدورها
وأهدى مصابيحاً أضاءت وإنما ... أشار إليها في الكتاب مشيرها
إلى حضرة نور الإله سراجها ... وأستار عرش الله قدماً ستورها[1]

وفي عام ١٢٧٠هـ أرسل ناصر الدين شاه القاجاري ملك إيران أحد علماء عصره المعروفين وهو الشيخ عبد الحسين الطهراني المشتهر بلقبه «شيخ العراقين» إلى العراق للإشراف على تنفيذ مخطط عمراني واسع للعتبات المقدسة من تجديد وإصلاح وتجميل، وخوله التخويل الكامل في الصرف والتصرف.

وبدأت الأعمال العمرانية في المشهد الكاظمي سنة ١٢٨١هـ بعد انتهاء أعمال العمران في كربلاء وسامراء. وكان من جملة ما حصل عليه المشهد إحكام أسس جدرانه من قعرها المتصل بالماء إلى الأعلى، وتجديد الواجهة الخارجية من جدران الحرم، وتغشية الجدران بالطابوق الكاشاني، وتأسيس دكتين كبيرتين أمام الحرم متصلتين به من جهتيه الجنوبية والشرقية وتبليطهما بالمرمر، وبناء مداخل في أطراف هاتين الدكتين لإيداع الزائرين أحذيتهم وأماناتهم فيها.

ثم تم اختيار الدكة الشرقية لرفع سقف عليها يقوم على ٢٢ عموداً خشبياً، وأطلق على المجموع اسم «طارمة باب المراد».

ثم ذهب الإيوان الكبير الواقع في وسط «الطارمة» الشرقية بما زاد من الذهب الذي ذهبت به قبة العسكريين (ع) في سامراء[2].

وانتهى العمل في كل ذلك سنة ١٢٨٥هـ.

---

(١) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٢٦؛ ويراجع: ٢٥١ - ٢٥٣ منه..

(٢) رحلة ناصر الدين شاه:

وقد نظم الشيخ جابر الكاظمي قصيدة بمناسبة بدء تنفيذ هذه الأعمال قال فيها:

اضحت بساحتها الأملاك قائمة — تدعو لمبتهل لله بكاء
وكم من الملأ العالين من فرق — تؤمها كلّ إصباح وإمساء
بها اصاب الأماني كل ذي امل — منا وعنا أزالت كل غماء
وجاوزت قبب الأفلاك في قمم — قبابهم حين جازت شأو جوزاء

ويقول في ختامها مؤرخاً عام الشروع في العمل:

قل للمنيبين رشدا من مؤرخه — (نادوا المهيمن هذا طور سيناء)[1]

١٢٨١هـ

وفي أثناء هذه الفترة نُصب أول باب فضي في المشهد؛ وهو الباب الواقع بين الروضة والرواق الجنوبي، وكان ذلك سنة ١٢٨٠هـ، وقد تبرع به الأمير أبو المظفر الملقب بالعماد.

ثم نصب الباب الفضي الثاني الواقع بين الرواق الجنوبي والإيوان القبلي سنة ١٢٨٣٤هـ وقد تبرع به الحاج السيد ميرزا بابا الاصطهباناتي.

ونصب في نفس العام السابق باب فضي آخر يقع بين الروضة الكاظمية والرواق الشرقي، وقد تبرع به محسن خان بن عبدالله خان.

وفي سنة ١٢٨٤هـ بدأ العمل في تشييد سقف للدكة الجنوبية على نفقة الحاج الجرجفجي البغدادي[2]، وقد قام السقف على (١٤) عموداً من الخشب، وتم العمل فيه سنة ١٢٨٥هـ.

ويقال إن مجموع نفقة العمل بلغ مائتي ألف بيشلك تركي.

وأرخ الشيخ جابر الكاظمي بدء العمل بقصيدة جاء فيها:

طور موسى هذا وفيه تجلى — للعيون النور القديم عيانا
لم يزل للملا محط رجاء — فيه تعطى الأمان والإيمانا
قد تسامى بالنيِّرَين مقاما — دونه النيران فضلاً وشانا
وبفضل من الحسين «حسين» — شاد منها بجوده الأركانا
موئل المأثرات خدن معال — لم نجد في العلى لها أخدانا

---

(١) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٨ - ٣١.

(٢) هو الحاج حسين بن الحاج حسن البغدادي الملقب بالجرجفجي، من تجار عصره المشاهير، وكان ينوي القيام بتشييد الصحن الكاظمي من ماله الخاص ولكن الأجل لم يمهله، وكان عقيماً لم يعقب. سافر إلى سوريا سنة ١٢٣٨هـ وسكنها (١٤) عاماً فراراً من مظالم والي بغداد داود باشا وضرائبه المجحفة على التجار. توفي سنة ١٢٨٥هـ أو ٨٧ عن عمر تجاوز المائة، ودفن في المشهد الكاظمي في الإيوان الذي شيده (طارمة باب القبلة) على يمين الداخل إلى الرواق القبلي.

ويقول في ختامها مؤرخاً:

قـــلْ وبالواحــــد المهــــيمن ارخ (قــد أرانـــا الحـــسين خلـــداً عيانـــاً)[1]

١٢٨٣ = ١٢٨٤هـ

كما أرّخ انتهاء العمل بهذه المقطعة:

هـــذا بنـــاء قـــد سمـــا هـــام الـــسما وطـــال أعلاهـــا عـــلاه عظمـــا
بـــنيرين مـــن ســـنا نورهمـــا قـــد أشـــرق الـــدهر وكـــان مظلمـــا
همـــا الجـــوادان اللـــذان قـــد بـــدا لـــدى الوجـــود كـــل جـــود منهمـــا
مـــن الألى بهـــم بـــرى الله المـــلا والأرض قامـــت واســـتقامت بهمـــا
ومـــنهم الـــدهر أضـــاء نـــوره وابتـــدأ الفـــضل بهـــم واختتمـــا
قـــوم علـــى جـــودهم الوجـــود قـــد عـــاش وقـــام فـــيهم وقومـــا
شـــاد «علـــي»[2] سمكـــه إذ بـــذل الـــ حـــسين مـــالاً عنـــد ذي العـــرش نمـــا
وســـعي ذا «المهـــدي»[3] و«الهـــادي»[4] «الـــ ـــعباس» و«الـــصالح»[5] نـــال مغنمـــا
ومـــذ سمـــا والـــشجو ذاب قلبـــه أرختـــه (عـــرش بـــه العـــرش سمـــى)[6]

١٢٨٥هـ

وفي سنة ١٢٨٤هـ زخرفت «طارمة باب المراد» بالزجاج. وقد أرخ الشيخ جابر الكاظمي ذلك في مقطعتين، يقول في أولاهما:

وإيـــوان صـــفا مـــرآه حتـــى علـــى الأفـــلاك فـــضل بالـــضياء
وفي مرآتـــه التكـــوين طـــرا تـــراءى للعيـــون بـــلا غطـــاء
فزخرفـــه وزينـــه كـــرام سمـــوا بعلائهـــم قمـــم العـــلاء
«محمـــد الحـــسين» أخـــو المزايـــا ســـليل الأكـــرمين ذوي الإبـــاء
وفيـــه ســـعى أخـــو كـــرم همـــام حـــوى شـــرف التكـــرم والوفـــاء

(١) ديوان الشيخ جابر: ٣١٩ـ ٣٢٠.

(٢) علي: هو المعمار المشرف على البناء.

(٣) هو الحاج مهدي الاسترابادي المولود سنة ١٢١٩هـ والمتوفى سنة ١٣٠٨هـ. كان من وجوه التجار الأخيار المعروفين بالصلاح والاستقامة، وكان يسكن الكاظمية. ولاشتهاره بالصلاح ولاه الأمير فرهاد ميرزا القاجاري الإشراف على تعمير الصحن الكاظمي. كما سيأتي. بمشاركة أخيه الحاج عبد الهادي.

(٤) هو الحاج عبد الهادي الاسترابادي المولود سنة ١٢٢١هـ والمتوفى في شهر رجب سنة ١٣١٦هـ، وكان تاجراً معروفاً بالورع والتقوى كأخيه السالف الذكر. ساهم في كثير من المشاريع الخيرية، وشارك أخاه في الإشراف على عمارة الصحن الآتية الذكر وبذل في سبيل ذلك من الجهد والتعب ما لا يخطر ببال، وكان يسكن الكاظمية، وما زالت داره عامرة معروفة حتى اليوم.

(٥) العباس والصالح معماران مباشران للعمل.

(٦) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٠٦، ومجموع التاريخ ١٢٨٨ وينقص منه ثلاثة بإسقاط الجيم التي هي قلب الشجو أي وسطه. وسما بالألف المقصورة خطأ، ولكننا لا نستطيع تصحيحها لأنه التاريخ يعتمد عليها.

إلى أن يقول:

لموســى والجــواد الــسبط ســبطي ... رســول الله خــير الأنبيــاء
همــا نجمــا الهــدى بحــرا الأيــادي ... همــا بــدرا العلــى شمــسا الــسناء
صــفا كــضمير مــشرعه فأضــحى ... يــضاهي الــشمس نــوراً بالــضياء
واقــصى الوجــد زال فــأرخوه ... (أراه شــبه مــرآة الــسماء)[١]

١٢٨٨ = ٤ = ١٢٨٤

ويقول في الثانية: (وفيه إشارة بنت سلطان الهند)

طــال ذا الإيــوان كيوانــا كمــا ... مــن جنــان الخلــد فــاق الغرفــا
وتعــالى في المعــالي رفعــة ... بــابني الطهــر الــنبي المــصطفى
زينتــه بنــت ســلطان بــه ... حــازت الهنــد نعيمــا وصــفا
مــن كــرام بهــم المجــد سمــا ... واغتنــى الــدهر بهــم بعــد العفــا
قــام في إتمامــه النــدب «محمــد» ... الزاكــي «الحــسين» ذو الوفــا
حــسبه فــضلاً ومجــداً طــال بــل ... حــسبه رب البرايــا وكفــى

ويقول في ختامها:

وانتفــى أقــصى العنــا إذ أرّخــوا ... (شــابه العــرش صــفاء بالــصفا)[٢]

١٢٨٥ = ١ = ١٢٨٤هـ

وفي سنة ١٢٨٤هـ أيضاً فتح باب جديد للمشهد مغلف بصفائح بالفضة، ولم نعرف موقعه على التحديد، ولكنه أحد البابين اللذين مرت الإشارة إليهما، وللشيخ جابر الكاظمي ثلاث قصائد بهذه المناسبة يقول في أولها:

بــاب لبــابي إلــه العــرش قــد فتحــا ... وفيــه نهــج الهــدى والحــق قــد وضــحا
لروضــة مــن ريــاض الخلــد حــل بهــا ... بحــران كــل علــى الأكــوان قــد طفحــا
لعــرش فــضل بــه شمــسا علــى بهمــا ... زال الــدجى وتجلــى الرشــد واتــضحا
بــاب لبــابي علــوم منهمــا علمــت ... معــالم للنــدى منهــا الهــدى نفحــا
مــن فــضة صــيغ ودت ان تذهبــه ... شمــس النهــار فيحمــي تبرهــا المنحــا
بفتحــه فتحــوا بــاب الرشــاد إلى ... جنــان خلــد بهــا الإســلام قــد منحــا
أتــوا بــه يحمــل الإيمــان جانبــه ... والمؤمنــون وأمــلاك الــسماء ضحــى
بــأجر مهديــه وســع الكــون ضــاق كمــا ... مــن دهرنــا ضــاق مــا قــد كــان منفــسحا

---

(١) ديوان الشيخ جابر: ٣٥، وقد اعتبر تاء (مرآة) ٤٠٠، وذلك خلاف المصطلح عليه بين أرباب هذا الفن.

(٢) ديوان الشيخ جابر: ٢٨٣.

لله مــن بــاب فــضل في ميامنــه ... فـضل المهيمن عنـا قـط مـا برحـا
بمنتهــى الرشــد نــاد يــا مؤرخــه ... (بــاب لبــابي إلـه العـرش قـد فتحـا)(١)

١٢٨٤ = ١٢٨٠ + ٤

ويقول في الثانية:

لقــد فــتح الإقبــال بابــاً إلى الهــدى ... بــه قــد هــدى الله المـضل وارشــدا
لحــضرة قــدس شــرف الله تربهــا ... فعــاد ثراهــا للملائــك معبــدا
ملائكــة الــرحمن إذ وكلــوا بهــا ... لزوارهـا قـالوا ـ ادخلـوا البـاب سـجدا
حــوت فلكــي مجــد وقطــبي مــآثر ... وبحـري نـدى بحـر النـدى منهمـا اجتـدى
سمـائي علـى شمـسي ضـحى قمـري دجـى ... يـدي قـدر سـيفي قـضا سـاعدي ردى
إمــامين مــن فخريهمــا كــل مفخــر ... تولــد مــا بــين الــورى إذ تولــدا
جــوادين قــد عــم الوجــود نــداهما ... فأضــحى بــه جيــد الزمــان مقلــدا
بنــى بابهــا بــاب المعــالي ولم يــزل ... لبــاب المعــالي فاتحــاً ومــشيدا
ســعت فأقامتــه مــساع حميــدة ... لقـد شـكر الـرب الجليـل لهـا يـدا.. إلخ(٢)

ويقول في الثالثة:

بــاب لبــابي إلــه العــرش قــد شــرعا ... بـه لـنهج الهـدى أضـحى المـلا شـرعا
بــاب سمــا مجــده مجــد الــسماء ومــن ... جــدوى جواديــه ينبــوع الغنــى نبعــا
بــاب إلى جنــة يهــدي المــلا وإلى ... روض بـه الطهـر موسـى والجـواد معـا
مــن فـضة طبعـت مـن صـفو كـل صـفا ... عــن القلــوب صــفاه أذهــب الطبعــا
أقــام فيــه الإمامــان اللــذان ســنا ... نوريهمـا في الجهـات الـست قـد سـطعا(٣)

وفي ١٤ شعبان سنة ١٢٨٧هـ زار الكاظمية السلطان ناصر الدين شاه ملك إيران، واستقبل من قبل الرأي العام استقبالاً حافلاً، واجتمع في الحرم بفقهاء عصره الذين ذكر السلطان أسماءهم في رحلته المطبوعة، وعد في طليعتهم جدنا الشيخ محمد حسن آل ياسين المتوفى سنة ١٣٠٨هـ.

وفي سنة ١٢٩٤هـ نصب الباب الفضي الرابع، وهو الباب الواقع بين الرواق والطارمة الشرقية، وقد تبرع بفضته الأمير فرهاد ميرزا القاجاري.

وفي سنة ١٢٩٦هـ تطوع الأمير حسام السلطنة بن عباس ميرزا ـ أخو فرهاد ميرزا ـ بإنفاق ما يلزم لتجديد ما سقط من الطابوق الذهبي من القبتين والمنائر. وإلى ذلك أشار الشيخ جابر الكاظمي بقصيدته التي نظمها بمناسبة تجديد عمارة الصحن:

---

(١) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٢) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٣) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٥٣.

شاد «فرهاد» سورها و«حسام» الـ ـــجود منها قد جدد الآثارا
ذاك قد سور الجنان وهذا قد طلى القبتين فيها نضارا[١]

وكانت مدام ديولافوا قد شاهدت القبب قبل إصلاحها ووصفتها بقولها: «وإن أقساماً من القبب المذهبة تبدو متهدمة تشوه منظرها الجذاب»[٢].

ثم أردفت ذلك بصورة كان المهندس الإفرنسي المسيو موكيل قد التقطها.

ويشرف القرن الثالث عشر الهجري على الانتهاء وقد انتهت سائر الإصلاحات المطلوبة في المشهد بروضته وأروقته وايوانيه «طارمتيه»، واصبح آية في الفن والجمال والإبداع والأحكام، فلا غرو إذا ما اتجهت الأنظار إلى ضرورة تجديد بناء الصحن، لأنه بشكله ذاك لم يكن يتناسب مع فخامة الحرم، خصوصاً وأنه كان مترباً بلا تبليط ولا رصف، وأن سوره من الطابوق العادي، وأن القبور فيه متطامنة يتعثر فيها الماشي، وبركة الماء في وسطه من الجهة الشرقية تغمر الأرض حواليها بالطين والوحل، وليس فيه موضع يستفاد منه للصلاة سوى دكة كبيرة في شمالي الجهة الشرقية تقام فيها صلاة الجماعة.

وتطوع الأمير فرهاد ميرزا القاجاري[٣] ـ عم ملك إيران ناصر الدين شاه ـ للإنفاق على هذا المشروع الضخم الكبير، ووكل اثنين من تجار الكاظمية الأخيار هما الحاج عبد الهادي والحاج مهدي الاسترابادیان المارا الذكر للقيام بهذه المهمة، وأذن لهما في التصرف المطلق.

وقد اشتمل التعمير على ما يأتي:

أ ـ بناء سراديب منظمة لدفن الموتى في ساحة الصحن وإيواناته وحجراته.

ب ـ تذهيب المنائر الأربعة الكبرى من حد وقوف المؤذن إلى قمتها.

ج ـ تشييد سور مرتفع للصحن يتكون من طابقين: يشتمل الأرضي منهما على غرف وإيوانات صغيرة مبلطة بالمرمر ومزينة جدرانها بالطابوق. الكاشاني المنقوش، وفي

(١) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٢٣. وقد نسب هذا التذهيب في تاريخ الإمامين ٧٨ للأمير فرهاد ميرزا، وهو التباس.

(٢) رحلة مدام ديولافوا. طبعة البصري.: ٩٧.

(٣) هو فرهاد ميرزا بن عباس ميرزا بن فتح علي شاه القاجاري: الحاكم الإيراني الكبير. صاحب المؤلفات القيمة وقد طبع بعضها. ولي حكومة إقليم فارس مرتين. وفي سنة ١٢٨٩هـ فوض إليه ابن أخيه ناصر الدين شاه نيابة الملك عندما صمم على التجوال خارج إيران. وفي سنة ١٢٩٤هـ ولي حكومة كردستان الإيرانية. توفى سنة ١٣٠٥هـ في طهران ونقلت جنازته إلى الكاظمية سنة ١٣٠٦هـ، وكان قد أوصى أن تطرح جنازته على جسر بغداد بعضاً من نهار ثم يحملها أربعة من الحمالين إلى مقابر قريش مواساة للإمام موسى بن جعفر (ع)، ولكن الفقيه الشيخ محمد حسن آل ياسين لم يأذن بتنفيذ هذه الوصية لما تستلزمه من إثارة الحزازات بين طوائف المسلمين، وأمر بأن يزار بنعشه مشهد العسكريين بسامراء ثم يحمل منها إلى الكاظمية فلا تمر جنازته ببغداد ولا يبقى مورد لوصيته. ودفن في الغرفة الواقعة على يمين الداخل إلى الصحن الشريف الشرقي من جهة باب المراد.

أعلى هذا الطابق كتيبة قرآنية رائعة تدور حول الصحن كله. أما الطابق الثاني فهو عبارة عن سطوح الطابق الأول وسياج يرتفع عالياً من الجهة المباشرة لخارج الصحن وغرف متفرقة غير متصلة يعتمد عليها سياج هذا الطابق، وفي أعلى ذلك السياج كتيبة قرآنية تدور حول الصحن كله، وفي آخر كتيبة الشمال الغربي لصحن المراد - الصحن الشرقي - ما نصه: «كتبه تراب أقدام الزائرين نصرالله المشهدي خادم الروضة الرضوية سنة ١٢٩٨».

د. تأسيس قاعدتين ضخمتين في سطح الطابق الثاني من الصحن فوق البابين الرئيسين في جانبي الشرق والجنوب لنصب ساعتين كبيرتين عليهما. وكان الوزير دوست محمد خان قد أهدى عام زيارته للعراق صحبة ناصر الدين شاه سنة ١٢٨٧هـ ساعة كبيرة، ولما لم يكن لها موضع تنصب فيه فقد بقيت في المخزن حتى شيدت قاعدتها في هذا التعمير فنصبت سنة ١٣٠١هـ، وهي القائمة حتى اليوم في الجهة الشرقية، ثم أهدى الحاج محمد مهدي الأبوشهري - بعد تشييد القاعدة الثانية - ساعة أكبر من الأولى وضعت على الباب القبليل؛ وكان ذلك سنة ١٣٠٣هـ.

وعلى أي حال، فقد بدأ العمل في عمارة الصحن يوم ١٧ ذي القعدة ١٢٩٦هـ، وتم بجميع ما فيه في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٠١هـ، واحتفل الرأي العام بهذه المناسبة لمدة ثلاثة أيام، ويقال بأن مجموع نفقات هذه العمارة بلغ مائتي ألف ليرة عثمانية.

وتبارى الشعراء بالمشاركة في هذه المناسبة الغراء بقصائدهم وروائعهم، وكان منهم السيد حيدر الحلي وهذا نص قصيدته:

حزت بالكاظمين شأناً كبيراً ... فابق يا صحن آهلاً معمورا
فوق هذا البهاء تكسى بهاء ... ولهذي الأنوار تزداد نورا
إنما أنت جنة ضرب اللـ ... ـه عليها كجنة الخلد سورا
إن تكن فجرت بهاتيك عين ... وبها يشرب العباد نميرا
فلكم فيك من عيون ولكن ... فجرت من حواسد تفجيرا
فاخرت أرضك السماء وقالت: ... إن يكن مفخر فمني استعيرا
أتباهين بالضراح وعندي ... من غدا فيهما الضراح فخورا
بمصابيحي استضيء فمن شمـ ... ـسي يبدو فيك الصباح سفورا
ولبيتي المعمور ربا معال ... شرفا بيت ربك المعمورا
لك فخر المنارة انفلقت عن ... درتين استقلتا الشمس نورا
وهما قبتان ليست لكل ... منهما قبة السماء نظيرا

صـــاغ كلتيهمـــا بقدرتـــه الـــصا ئـــغ مـــن نـــوره وقـــال: أنـــيرا
حـــول كـــل منارتـــان مـــن التبـــ ـــر يجلـــي ســـناهما الـــديجورا
كـــبرت كـــل قبـــة بهمـــا شـــأ نـــاً فأبـــدت عليهمـــا التكـــبيرا
فغـــدت ذات منظـــر لـــك تحكـــي فيـــه عـــذراء تـــستخف الوقـــورا

❖❖❖

كـــم أرادوهـــا بـــسوء فـــأبى الله تمامـــه
جنـــة الفـــردوس لكـــن زخرفـــت قبـــل القيامـــه[1]

وكان من ملحقات أعمال هذه العمارة هدم البركة التي كانت قائمة في وسط الصحن الشرقي وإيجاد بدل منها خارج الصحن من جهته الشرقية؛ إبعاداً للمياه والأوحال عن الصحن، وتم ذلك في سنة ١٣٠٢هـ. وقد أصبحت الآن ضمن ساحة باب المراد، ونظم الشيخ جابر الكاظمي قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها:

إنَّ هـــذا سلـــسبيل للـــسبيل ســـائل مـــن كـــوثر كـــل مـــسيل

إلى أن يقول:

سلـــسبيل عـــن نـــداهم ســـال مـــن سلـــسل الدجلـــة لا مـــن مـــاء نيـــل
بـــل مـــن الكـــوثر قـــد أرختـــه (سلـــسبيل ســـال ذا وقـــف الـــسبيل)[2]

١٣٠٢هـ

وفي سنة ١٣٠٩هـ أقيم احتفال كبير في المشهد الكاظمي احتفاء بقدوم الشعرات المنسوبة إلى كريمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اسطنبول[3]، وكان ذلك في عهد ولاية الوالي الحاج حسن باشا، وللسيد جعفر الحلي قصيدة بهذه المناسبة يخاطب بها الوالي؛ مطلعها:

بـــشرى العـــراق ففيـــك أشـــرق نورهـــا هـــي جنـــة الـــدنيا وأنـــت وزيرهـــا

ويقول فيها:

قـــد جئـــت مـــن شـــعر الـــنبي بطاقـــة نفـــح الخلائـــق نـــشرها وعبيرهـــا
فـــشم نـــشر المـــسك حـــين نـــشمها ونـــزور دار الخلـــد حـــين نزورهـــا
هـــي طاقـــة الريحـــان شـــرف قـــدرها هـــادي الأنـــام بـــشيرها ونـــذيرها[4]

---

(١) شعراء الكاظمية. مخطوط.
(٢) ديوان الشيخ جابر الكاظمي: ٢٩٧.
(٣) تاريخ العراق بين احتلالين: ١١٨/٨.
(٤) ديوان السيد جعفر الحلي: ٢٤٢.

وفي سنة ١٣١٤هـ نصب الباب الفضي الخامس، هو الباب الواقع بين روضة الجواد والرواق الشرقي، وقد تبرع بفضته الحاج محمد جواد بن الحاج محمد تقي الشوشتري.

وفي سنة ١٣٢٠هـ زين الأمير تومان - أحد رجال الحكومة الإيرانية - الرواق الجنوبي بالزجاج الجميل المركب على الخشب المقطع بأشكال هندسية دقيقة الصنع «خرده كاري» وقد نظم الشيخ مهدي المراياتي مقطوعة بهذه المناسبة قال فيها:

هذا نعيم الخلد من يأو له ... يلق النعيم به ولم ير بوسا
حرم منيع لم يلذ فيه امرؤ ... يوماً فآب بخيبة مأيوسا
هو جنة الفردوس لكن لا ترى ... فيه سوى شجر الهدى مغروسا
هو بيت قدس لا تحس برحبه ... إلا لصوت المتقين حسيسا
لو أدركته الأنبياء لما رتضت ... إلا به التمجيد والتقديسا
ولود آدم أن يكون نعيمه ... عوض النعيم فلا يرى ابليسا
مذ شيد منه رواقه أرّخته ... (قسماً لهذا الطور وادي موسى)

١٣٢٠هـ

ثم تم تزيين الرواق الشرقي بمثل ذلك في سنة ١٣٢١هـ

وأرخ هذه المناسبة السيد رضا علي الهندي الكاظمي بمادة تاريخ هي «زهى[1] رواق الكاظم» فنظم الشيخ الحاج محمد حسن كبه مقدمة شعرية لهذا التاريخ، هي:

علا رواق سابع الـ ... أسباط فخر هاشم
علا فلا يوهم أن ... يدرك بالسلالم
كيف ودون حافتيـ ... ـه هامة النعائم
رواق قدس قد تلا ... لا ضاحك المباسم
حيث الهدى شع سناً ... في طور موسى الكاظم
ما خص سيناء ولـ ... ـكن عم كل العالم
يا لرواق حف بالـ ... ـعلياء والمكارم
يدور حول لجة الـ ... ـمعروف دور حائم
حول ضريح علة الـ ... أكوان والعوالم
زين بما يبهى على الـ ... أعياد بالمواسم
بما يذيع من صفا ... ه سر كل كاتم
بما يشع كالمقا ... بيس أو الصوارم
بلامع مثل البرو ... ق ائتلقت لشائم

---

(١) كذا رسمها الناظم، ولا يسعنا تصحيحها لأنها مادة تاريخ.

تهدى بها أولو النهى إلى النعيم الدائم
ومذ زها زهو فتاة ذات عيش ناعم
قد قيل في تاريخه (زهى رواق الكاظم)

١٣٢١هـ

وكان هذا التزيين بنفقة الوزير القاجاري علاء الدولة المتوفى قتيلاً في سنة ١٣٢٩هـ، وأوكل أمر التنفيذ والإشراف على هذا العمل لابن عمه أسدالله خان الملقب بنظام العلماء القاجار، وكانت نقوشه على شاكلة نقوش الرواق الجنوبي السالف الذكر.

وفي يوم الخميس ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٢٤هـ نصب أول ضريح فضي على القبرين الشريفين، وكان بنفقة العلوية الحاجة سلطان بكم بنت المرحوم مشير الدولة السيد الميرزا أبي الحسن العلوي الشيرازي المتوفى نحو سنة ١٣٠٢هـ. وكان إنفاقها هذا باقتراح وتشجيع من السيد الحاج الميرزا محمد كاظم الطباطبائي التاجر الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٢٥هـ. وقد بُدئ بعمله في سنة ١٣٢٣هـ وانتهى في التاريخ المشار إليه في أعلاه، وعلى الضريح في أواسطه العليا كتبت بالفضة سورة الفتح وسورة الدهر وسورة الجمعة وسورة النبأ وآية النور وبعض التواريخ، وبلغ مجموع ما استهلك من الفضة مائتين وخمسين ألف مثقال تقريباً، وكان القائم بصياغة الضريح السيد محسن بن السيد هاشم الورد الصائغ الكاظمي يعاونه في ذلك كل من السيد محمد علي الصائغ الكاظمي والميرزا محمد الشيرازي النجفي، وكان الحاج محمد علي النجار الكاظمي هو القائم بصنع هيكله الخشبي. وأرخه السيد صدر الدين الصدر بقوله:

مذ تم حسناً جاء تاريخه (سنا الجوادين أزان الضريح)

١٣٢٤هـ

ويقع باب الضريح في وسط جهته الشرقية، وعلى الباب كثير من الكتابات المنقوشة بالفضة نورد فيما يلي نصها:

«باني ضريح علوية عليه عاليه نوابه سلطان الحاجية صبية ميرزا أبو الحسن خان الحسيني مشير الملك. يسعى واهتمام جناب مستطاب حاجي ميرزا محمد كاظم الطباطبائي ناظم النجار. تمام شد ١٣٢٤».

يا أبا إبراهيم يا محمد بن علي الجواد

قال الله تعالى: ادخلوها بسلام آمنين سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين

لذان دهنك الرزايا والدهر عيشك نكد
بكاظم الغيظ موسى وبالجواد محمد

عمل سيد محمد علي زركر ١٣٢٤

يا كافي المهمات يا سميع الدعاء يا مجيب الدعوات يا أرحم الراحمين

إني استبقت الباب راج عفوهم قد لذت في باب الضريح مؤملا
ثم اصطنعت النقش فيه محررا غفران ذنبي أصغرا أو أكبرا
يا موسى بن جعفر يا باب المراد أدركني

وفي سنة ١٣٢٦هـ تم تزيين الرواقين الشمالي والغربي بمثل ما زين به الرواقان الآخران من زجاج وعلى نفس الشكل من حيث النقوش والهندسة، وكان ذلك بنفقة الحاج عباس علي يوسف بن الحاج لطف الله.

وفي سنة ١٣٢٧هـ نصب الباب الفضي السادس؛ وهو الواقع بين روضة الجواد والرواق الغربي، وقد تبرع بفضته أمين الدولة شريف خان أحد تجار كرمانشاه وأعيانها.

وفي ١٦ شعبان سنة ١٣٣٢هـ تم العمل في تشييد الطارمة الغربية، وكانت عند انتهاء عمارة الصحن سنة ١٣٠١هـ دكة كبيرة مبلطة بالرخام، وكأنها أعدت لتكون طارمة مسقوفة في المستقبل.

وكان قد بدأ العمل فيها في سنة ١٣٢١هـ عندما تطوع الحاج محمد كريم الهمداني المتوفى سنة ١٣٢٢هـ بتخصيص مبلغ من المال للبدء بتعميرها، ولما أدركته المنية بعد بدء العمل بقليل تبرع أحد أمراء بخارى بمبلغ آخر من المال لكي يستمر العمل[1]، ثم أردفه السيد حسن بن السيد ناصر البصام الكاظمي المتوفى سنة ١٣٢٨هـ بمبلغ آخر، ثم كان ما تبرع به الحاج محمد ابراهيم ملك التجار الأصفهاني خاتمة التبرعات. وتمت سائر الأعمال العمرانية في الطارمة في التاريخ المشار إليه سابقاً، حيث قامت على ثمانية عشر عموداً خشبياً صغيراً وكبيراً؛ وزين باطن سقفها بالنقوش والزخرفة الرائعة.

وفي أعلى الإيوان الكبير في وسط هذه «الطارمة» كتابات بالكاشاني تضمنت سورة الأعلى بكاملها، ثم كتبت تحتها في زاويتي اليمين واليسار جملة (سلام على ابراهيم)، وثبتت في الوسط طغراء آل عثمان مع أرقام ١٣٣٢ تاريخاً للانتهاء.

وتبارى علماء الكاظمية وشعراؤها في نظم تاريخ سنة افتتاح هذه الطارمة، فقال الشيخ مهدي المراياتي مؤرخاً:

هذا هو البيت الذي رب الهدى أثنى عليه في الكتاب المنزل
هيهات ما البيت وما مقامه ما الحجر إلا دون فضله الجلي

---

(١) ولعل ذلك كان برغبة الشيخ الحاج ميرزا حسين الميرزا خليل المتوفى سنة ١٣٢٦هـ، وقد نسب له تشييد هذه الطارمة في كتاب معجم أدباء الأطباء: ١/ ١٥٠.

وهـذه الـشهب علـى علوهـا تـود لـو تهـوي إليـه مـن عـل
يـا طالـب المعـروف بلغـت أرخ ببابـه الركـاب وأنـزل واعقـل
وقـف وكـبر خاضـعاً أرختـه (وسـلم اسـتلم وحـي وادخـل)

١٣٣٢هـ

وقال الشيخ راضي آل ياسين:

أعتكـف فيـه وقـم مبـتهلا إنـه بيـت علـى التقـوى تأسـس
وإذا مـا جئتـه أرخ (الا فـاخلعن نعليـك بـالوادي المقـدس)

١٣٣٢هـ

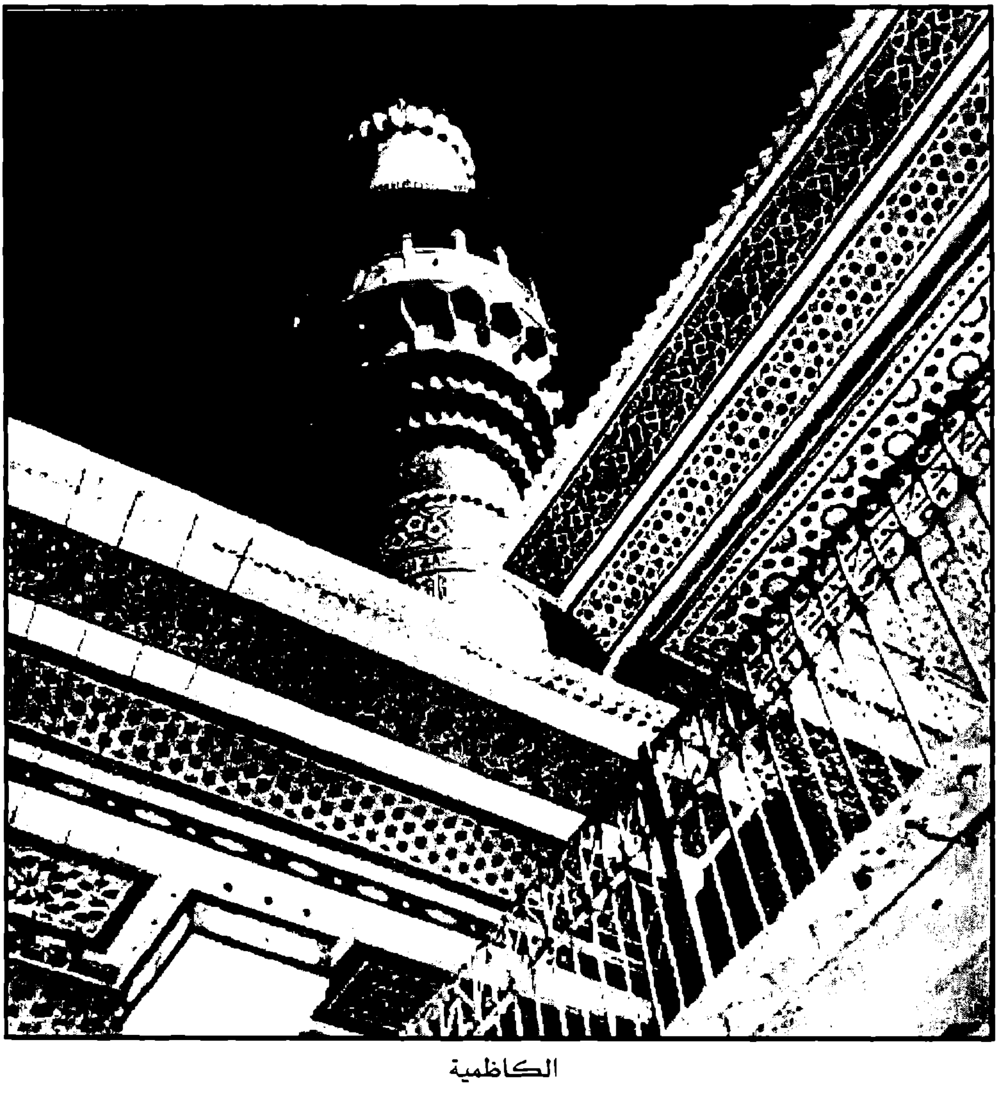
واتفق في أثناء تعمير هذه الطارمة أن أحد النجارين بينما كان مرتقياً أحد الأعواد المرتفعة التي كانوا يقفون عليها لغرض تشييد السقف، إذ هوت به إحدى رجليه فانحدر، لولا أن قدر الله تعالى له أن يتشبث ثوبه بمسمار صغير ناتئ بين الأعواد؛ فتعلق به ونجا من الموت، وفي ذلك يقول الشيخ كاظم سبتي:

إلهـي بحـب الكـاظمين حبـوتني فقوَّيـت نفـسي وهـي واهيـة القـوى
بجـودك فاحلـل مـن لـساني عقـدة لأنـشر مـن مـدح الإمـامين مـا انطـوى
نويـت وإن لم أشـف مـن شـانئيهم وحـسبي مـنهم أن للمـرء مـا نـوى
لمرقـد موسـى والجـواد بـرغمهم أجـل مـن الـوادي المقـدس ذي طـوى
هـوى مـذ أضـاء النـور مـن طـوره امـرؤ كمـا أن موسـى مـن ذرى الطـور قـد هـوى
ولكـن هـوى موسـى فخـر إلى الثـرى ولمـا هـوى هـذا تعلـق في الهـوا[1]

وفي شهر جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ طويت صفحة الاحتلال التركي من العراق، فطويت بذلك الورقة الأخيرة من تاريخ هذه الفترة المتمادية التي بدأت في المحرم سنة ٦٥٦هـ. وفتح سجل جديد للتاريخ شاركت الكاظمية بكل طاقاتها وإمكانياتها في فتحه وتدعيمه وإسناده، وكان المشهد الكاظمي يومذاك مجمع الزعماء والقادة وملتقى رجال الثورة ومنبر التبشير بالعهد الجديد، وكان المشهد بقدسيته ومكانته الدينية وفخامة عمارته وروعة بنائه وبما تشيع في أرجائه من البركة والروحانية أجدر مكان تختاره قيادة الثورة الإسلامية للتخطيط والبحث وإعلان القرارات، حتى كتب الله النصر لعباده المؤمنين وفتح لهم الفتح المبين، ورضخ المحتلون الإنكليز لإرادة الشعب الثائر؛ فنال العراق استقلاله وحرية التصرف في شؤونه، ثم كانت بعد ذلك أنباء وهنبثة، وعلى الله المعول. ■

---

(١) ديوان الشيخ كاظم سبتي: ١٨٢.


الكاظمية

باب مرقد الإمام موسى الكاظم

رقم المتحف ٧١٤٦ع

القياس ٣٣١ × ٩٦ × ١٦سم

باب مشهد الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)

نقل هذا الباب من مكانه وعرض في متحف القصر العباسي، ويقدر تاريخه بحدود القرن العاشر الهجري القرن السادس عشر الميلادي. نلاحظ أن الكتابة على هذا الباب قد وزعت في داخل نجمة وحولها اثنا عشر شكلاً مسدساً وقد دونت الكتابة بخط الثلث.

أ - الكتابة في داخل النجمة الوسطية نصها: (اللهم صل على النبي الأمي الهاشمي المدني التهامي محمد المصطفى).

ب - أما الكتابة على الحشوات المسدسة والتي تبدأ من الحشوة العليا ثم تتجه إلى الجهة اليسرى للمتجه نحو المصراع نصها:

١ - وصل على الأمام علي المرتضى

٢ - والإمام الهمام الحسن المجتبى

٣ - والإمام الحسين الشهيد بكربلا

٤ - والإمام زين العابدين ابن الحسين

٥ - والإمام الهمام محمد الباقر

٦ - والإمام الهمام جعفر الصادق

٧ - والإمام الهمام موسى الكاظم

٨ - والإمام علي بن موسى الرضا

٩ - والإمام الهمام محمد التقي

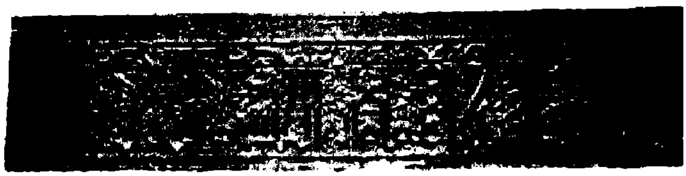
١٠ - والإمام الهمام علي التقي

١١ - والإمام الحسن العسكري

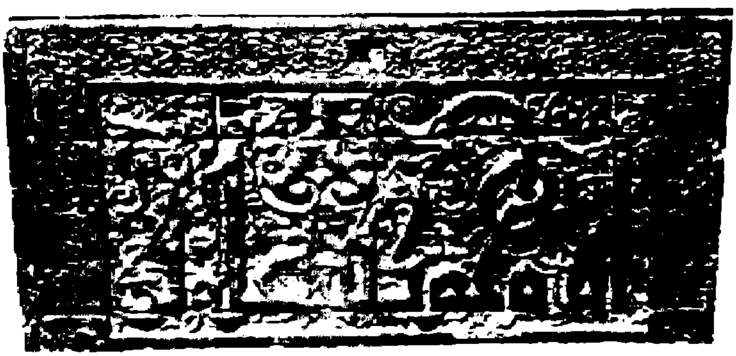
١٢ - والإمام الهمام محمد المهدي.



بسم الله الرحمن الرحيم



هذا ضريح الامام ابي الحسن موسى بن جعفر

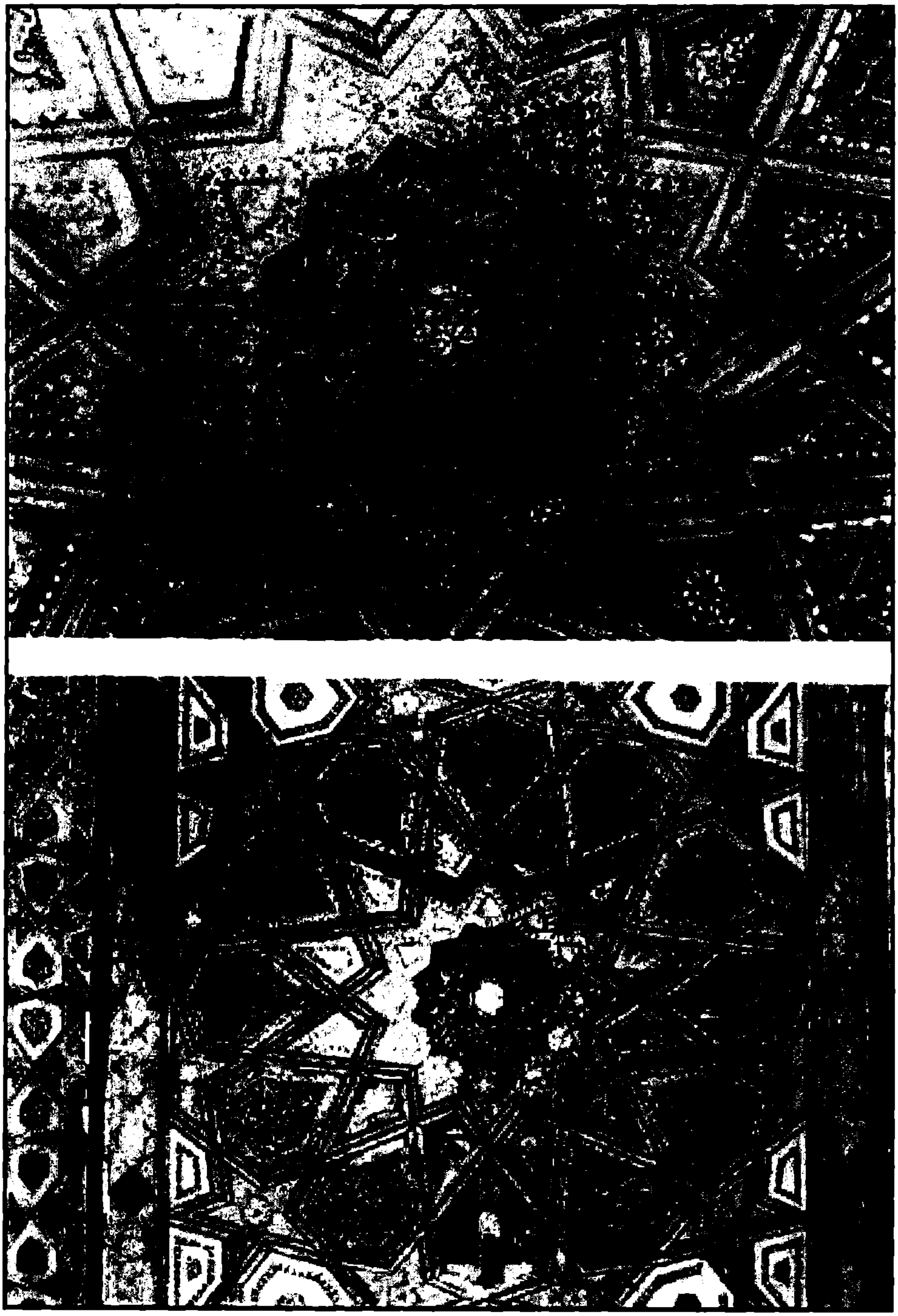


ابن محمد بن علي بن

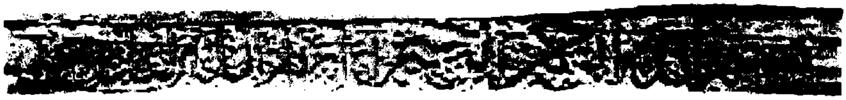


٠٠٠٠ الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام

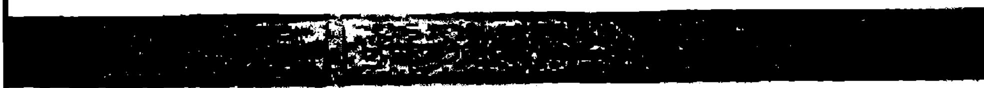
باب الكاظم.



باب الكاظم.



بسم الله الرحمن الرحيم انما يريد الله ليذهب



عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا هذا ما تقرب اليه تعالى بعملـــه خليفتـــه
في ارضــ ....



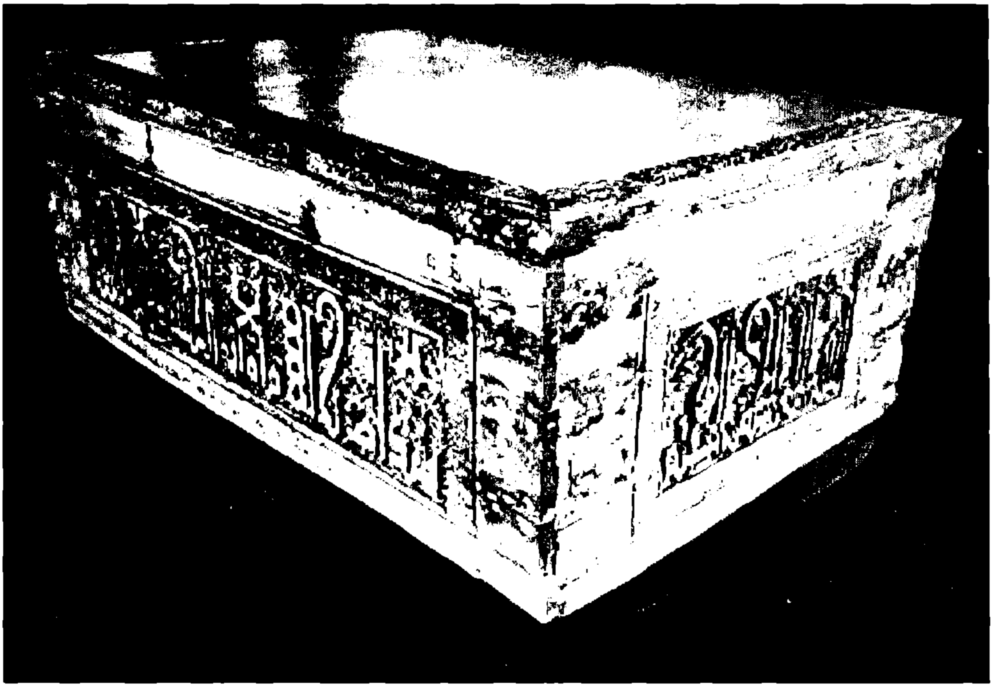
ونائبه في خلقه سيدنا ومولانا امام المسلمين المفرض



الطاعة على الخلق اجمعين ابو جعفر المنصور المستنصر بالله امير المؤمنين
ثبت الله دعوته سنة ستماية واربع وعشرين



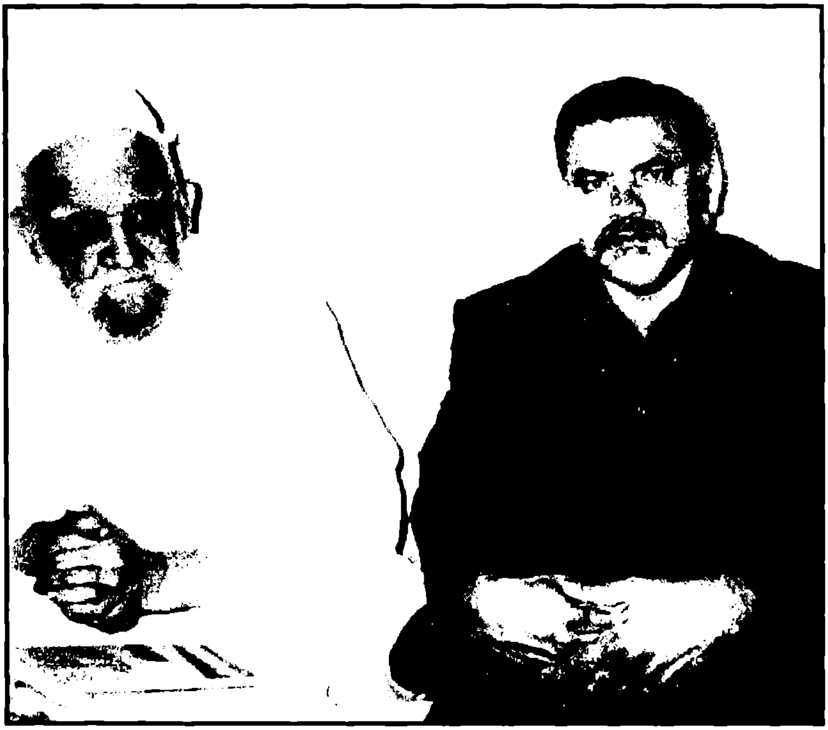
باب الكاظم.



صندوق ضريح الإمام الكاظم سنة ٦٢٤هـ ـ ١٢٢٦م.



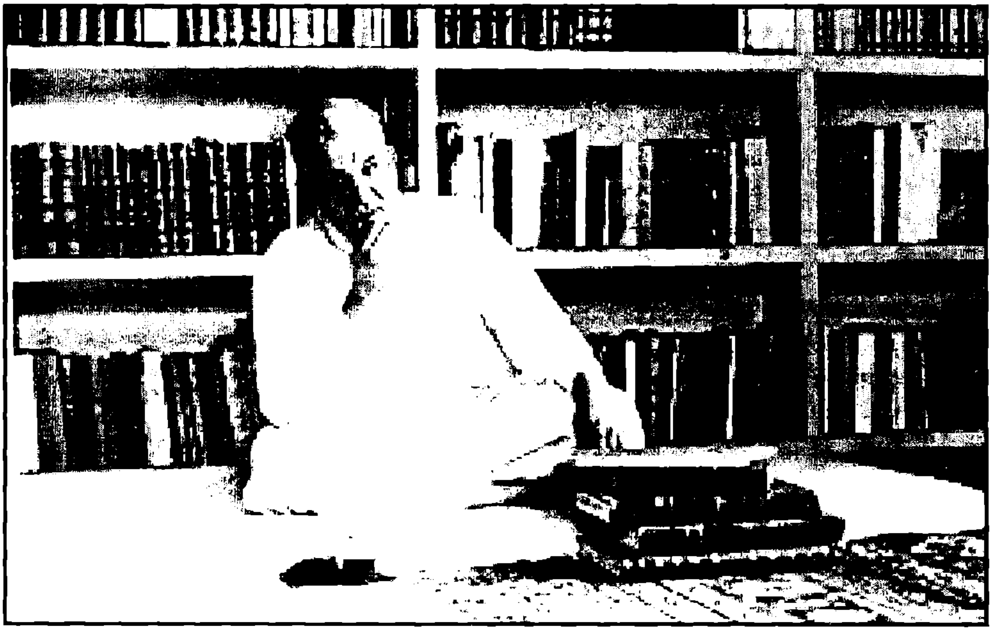
العلامة آل ياسين على فراش المرض ـ الكاظمية.



صاحب موسوعة الموسم ومؤرخ المشهد الكاظمي العلامة محمد حسن ال ياسين.



العلامة الكبير الشيخ محمد حسن ال ياسين مؤرخ الكاظمية.



العلامة آل ياسين في مكتبته - الكاظمية.



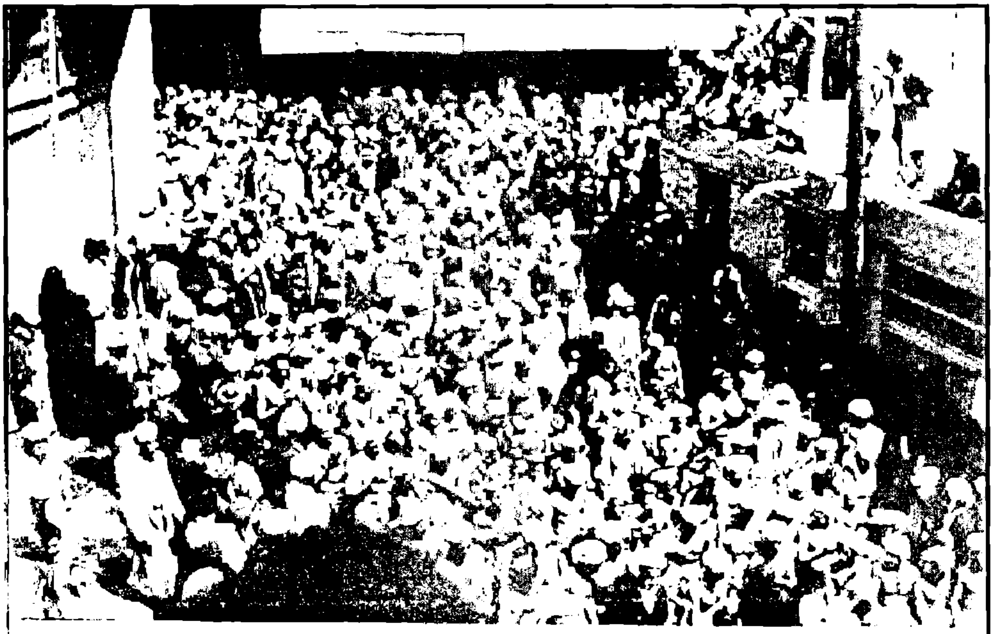
العلامة آل ياسين مع جمع من مريديه - الكاظمية.

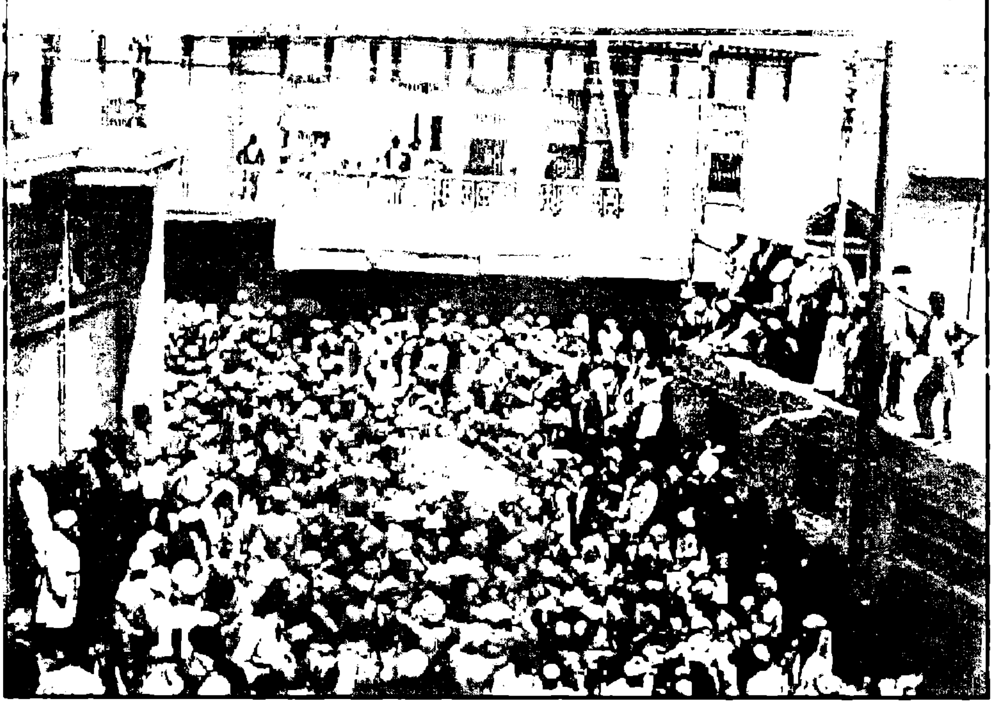


أحد أبواب الروضة الكاظمية المقدسة.



الكاظمية.





الكاظمية - مواكب العزاء الحسيني.

المشهد الكاظمي في وضعه الحاضر

عمارة المشهد الكاظمي - في يومنا الحاضر - عمارة فخمة رائعة؛ يتجسد فيها الفن الهندسي الإسلامي بكل أصالته وعمقه وجماله، وتتجلى في معالمها عظمة اليد الماهرة الصناعة بكل اتقانها ودقتها وإيمانها؛ وتتوهج في جنباتها أكداس الذهب والفضة والميناء بترصيف فريد وتناسق بديع ينطق برهافة الذوق وحذاقة العمل؛ ويتلألأ في سقوفها وجدرانها من أنواع الزخرفة والزركشة والتطعيم والتلوين ما لا شبيه له في كل متاحف الدنيا ومراكز الفن في العالم.

لقد اجتمع في المشهد الكاظمي - ببركة قدسيته الكبرى لدى المسلمين - عصارة عقول مئآت من الفنانين الذين ذوبوا مهجهم بدافع من العقيدة والإخلاص والحب العظيم ليجسموا الفن والصنعة عمارة خالدة لن تستطيع طمسها القرون؛ وثروات آلاف من الأغنياء الذين قدموا أموالهم بسخاء منبعث عن الولاء والإيمان والود الكبير ليبنوا هذا الصرح الشاهق السامق، فكانت خلاصة تلك العقول والأموال هذه البقعة المطهرة المباركة التي استهوت كل لب؛ وخلبت كل فكر؛ وشدت إليها كل بصر، بما حوت من آيات الهندسة وضروب الفن وألوان الحسن والجمال والجلال. ولن يستطيع القلم مهما أوتي من البراعة في التصوير أن يحكي بعض ذلك أو يصل إلى أدنى مراتب وصفه، وقديماً قيل: ما راء كمن سمعا.

وسنحاول جهدنا في هذا الفصل أن نورد شرحاً كاملاً لهذه العمارة الشامخة ووصفاً مفصلاً لكل أطرافها وأجزائها وخصوصياتها، ليكون ذلك دليلاً صادقاً للقارئ المعاصر؛ وتاريخاً أميناً للأجيال التالية؛ عندما تتبدل الرؤى وتتغير المعالم بحكم تطور الفن وتقدم أساليب العمل المعماري السائر إلى الأمام.

(الروضة)

ونعني بها ذلك الفضاء المحيط بالضريح داخل المشهد مما اصطلح الناس على تسميته بـ((الروضة)) وهي تنقسم إلى قسمين أو روضتين: جنوبية تدعى روضة الإمام الكاظم (ع) وشمالية تدعى روضة الإمام الجواد (ع)، ويصل بينهما من الشرق والغرب طريقان ضيقان، ويقع الضريح المطهر في الوسط بين الروضتين.

إن طول الضريح الفضي ٦,٧٤ سم وعرضه ٥,١٧ سم، وترتفع أعلى نقطة فيه قرابة ثلاثة أمتار ونصف المتر على الأرض، وهو مشبك ومنقوش على نحو جميل جداً.

وكان هذا الضريح الفضي قد تم صنعه لأول مرة في سنة ١٣٢٤هـ كما سلف ذكره، ثم سرعان ما دب التلف إلى بعض جوانبه وعلاها الصدأ، فتنادى المؤمنون إلى تجديد تلك الجوانب بعد إضافة كميات كبيرة من الفضة إلى ما كان منها، وتم ذلك في سنة ١٣٥٩هـ كما جاء في مادة التاريخ التي نظمها الشيخ حسن آل أسد الله بجملة «عمر الضريح»، وكان السيد عباس الورد الكاظمي هو الصائغ الذي أوكلت إليه مهمة التجديد.

وقد أقيم الضريح على قاعدة من الطابوق والاسمنت مغلفة من خارجها بالرخام؛ تعلو عن أرض الروضة ٢٢سم، ويعلو فوقها المشبك بارتفاع ١٤٢ سم وبعرض ١٠٧ سم لكل نافذة منه، ويفصل بين كل نافذة وأخرى فاصل أو عمود مطلي بالفضة بعرض ٢٠سم.

وفي سنة ١٣٨٥هـ وضعت كتيبة قرآنية بعرض ٢٤ سم فوق الشبابيك متصلة بها، وقد صنعت قاعدتها من الميناء وكتبت عليها بالذهب سورتا الدهر والفجر.

ثم تأتي فوق هذه الكتيبة نقوش ذهبية تدور حول الضريح كله بارتفاع حوالى ١٣٠ سم، وقد تم صنعها في عام ١٣٧٨هـ، وكانت قبل ذلك من الفضة.

ويقع باب الضريح في وسط جهته الشرقية كما مر، وبداخل الضريح الصندوقان اللذان سبق وصفهما. وكان قد طرأ بعض الخلل على خشب الصندوقين وتطعيمهما؛ فتم إصلاحهما في سنة ١٣٦٣هـ، وقد بذل الحاج عبد الهادي الجلبي الكاظمي نفقة إصلاح أحد الصندوقين وقدرها أربعة آلاف دينار، كما اشترك أربعة من التجار الإيرانيين في إنفاق أربعة آلاف دينار أخرى لإصلاح الصندوق الآخر.

والصندوقان مغلقان بالزجاج السميك حماية لهما من الغبار، وقد شارك في نفقة هذا الزجاج كل من الحاج عبد الهادي الجلبي الكاظمي والحاج محمد علي أبو الصمون.

وسقف الضريح من الداخل من الخشب الساج الجيد المصنوع على شكل نقوش هندسية وزهرية، وقد تبرع بتجديده بعد إصلاح الصندوقين كل من الحاج حسن والحاج عباس أمين الكاظميين، وقام بعمله الحاج عبد الرسول مشكور النجار.

إن طول كل روضة عشرة أمتار واثنان وستون سنتمتراً؛ بعرض سبعة أمتار وخمسة وخمسين سنتيمتراً. وطول كل من الطريقين الموصلين بين الروضتين ٦,٧٤؛ بعرض ١,١٧ سم.

والروضة بقسميها وطريقيها مبلطة بالرخام الجيد، وتزين جدرانها من الأرض إلى ارتفاع ١٤٠ سم قطع الرخام أيضاً، وقد تم عمل هذا الرخام في ٢٥ محرم الحرام سنة

١٣٧٠هـ، ثم يلي الرخام كتابة قرآنية بعرض ٧٥سم. وتبدأ بعدها النقوش الزجاجية الرائعة المسماة بـ((العينة كاري)) مرتفعة على الجدران إلى باطن القبتين المنقوش بنقش الكاشاني الجميل.

وفي أعلى الروضتين نوافذ ستة للتهوية والنور تنفذ على سطح الحرم، ويرتفع كل واحد منها حوالى مترين، وفوق هذه النوافذ من الخارج كتيبة قرآنية من الطابوق الكاشاني بعرض ٦٠سم تدور حول سطح الروضتين، وقد جددت سنة ١٣٨٧هـ.

والقبتان والمآذن الأربعة الصغيرة مغلقة - بأجمعها - بالذهب وكذلك المآذن الأربعة الكبيرة في قسمها العلوي من مكان وقوف المؤذن فيها إلى قمتها. وعلى الرغم من عدم استطاعتنا تحديد ارتفاع القبتين والمآذن وضبط قطر كل منها فقد علمنا من بعض المطلعين أن عدد الطابوق الذهبي في كل قبة تسعة آلاف طابوقة بامتداد ٢٠سم × ٢٠سم لكل واحدة.

وللروضة بمجموعها ستة أبواب تنفذ على الأروقة المحيطة بها، وكانت تضم قبل ذلك ثلاثة أبواب وثلاثة شبابيك، ثم استبدلت الشبابيك بالأبواب لتسهيل حركة الزائرين في دخولهم وخروجهم، وصنع من الفولاذ شباكاً قبري الشيخ المفيد ونصير الدين الطوسي.

ونورد فيما يلي وصفاً لأبواب الروضة الستة.

١ - الباب الجنوبي لروضة الكاظم:

ذهبي، طوله ٣,٤٠ سم. عرضه ٢,٠٠ سم. صنع سنة ١٣٨٣هـ.

عليها لوحة من الميناء متصلة بإطاره الأعلى كتب عليها بالذهب ما نصه:

(اللهم إني وقفت على باب من أبواب بيوت نبيك صلواتك عليه وآله، وقد منعت الناس أن يدخلوا إلا بإذنه فقلت: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم. اللهم إني أعتقد حرمة صاحب هذا المشهد الشريف في غيبته كما أعتقدها في حضرته، وأعلم أن رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي، ويسمعون كلامي، ويردون سلامي، وأنك حجبت عن سمعي كلامهم؛ وفتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم. وإني أستأذنك يا رب أولاً، وأستأذن رسولك صلى الله عليه وآله ثانياً، وأستأذن خليفتيك الإمامين المفروض علي طاعتهما موسى ابن جعفر ومحمد بن علي الجواد والملائكة الموكلين بهذه البقعة المباركة ثالثاً أأدخل يا الله. أأدخل يا رسول الله. أأدخل يا حجتي الله. أأدخل يا ملائكة الله المقربين المقيمين في هذا المشهد. فأذنا لي يا مواليي في الدخول أفضل ما أذنتما لأحد من أوليائكما فإن لم أكن أهلاً لذلك فأنتما

أهل لذلك) (المتبرع الحاج محمد جواد محمد رضا. الساعي الشيخ محمد حسين المؤيد. الخطاط محمد علي الكاتب).

وفي الباب لوحة أخرى متصلة بأسفل الإطار الأعلى كتب عليها قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا).

كما كتب على إطار الباب من جهاته الثلاث اليمنى والعليا واليسرى ما نصه:

قفوا استأذنوا والثموا خشعا	بباب الحوائج باب الدعا
قفوا. ها هنا كعبة الزائرين	وطوبى لمن نحوها قد سعى
بموسى بن جعفر أمن المخوف	إذا مسه الضر او أوجعا
وقفنا ببابك أرجو النجاة	فما أعظم الباب ما أوسعا
بلى. فهي والله باب الإله	بها الله الطافه اودعا
تغيب الهموم بأعتابها	وللسعد فيها نرى مطلعا
بها السيد الشافع المرتجى	لمن ابصر الحق فاستشفعا
ربيع البلاد ومدرارها	إذا الذنب صيرها بلقعا
تمسك به فهو مسك التقى	وللعلم والحلم أنقى وعا
هنا روعة الدين للناظرين	وسؤدد دنيا المعالي معا
ونور يضيء شغاف القلوب	ويهدي النفوس الشفا أجمعا
رضعنا محبته في المهاد	وفي القبر نفرشها مضجعا

أما مصراعا الباب فيحيط بهما شعر فارسي من جهاتهما الأربع، وتتناثر في وسطهما النصوص الآتية:

يا ذا الجود والنعم	يا ذا الفضل والكرم
يا بارئ الذر والنسم	يا كاشف الضر والألم
صنع في أصفهان في عهد	الشيخ علي الكليدار
يا عالم السر والهمم	يا رب البيت والحرم
يا خالق اللوح والقلم	يا ملهم العرب والعجم

وتضمنت زوايا المصراعين النص التالي متفرقاً فيها:

«المتبرع لهذا الباب الذهبي. المتمسك بولاء الأئمة الأطهار. الحاج اسماعيل الحاج قاسم. الساعي الشيخ مؤيد. زركري حاج محمد حسين برورش. طراحي ومينا سازى شكر الهل صنيع زاده. قلمزني أحمد ديناري أصفهان ١٣٨٣. زير نظر حاج ميرزا أبو القاسم كوبائي».

٢ - الباب الشرقي لروضة الكاظم:

ذهبي. طوله ٣.٤٠سم. عرضه ٢.٠٠ سم. صنع في سنة ١٣٨٤هـ.

عليه لوحة من الميناء متصلة بإطاره الأعلى كتب عليها بالذهب نص ما كتب على الباب السابق، ويليه اسم المتبرع الحاج محمد جواد الحاج محمد رضا والساعي الشيخ محمد حسين المؤيد وتاريخ عمل الكتيبة سنة ١٢٨٤هـ.

وفي الباب لوحة أخرى متصلة بأسفل الإطار الأعلى كتبت عليها بالذهب آية التطهير، كما كتب على إطار الباب من جهاته الثلاث ما نصه:

(تم عمل هذا الباب المقدس)

اقام الهدى بابا لموسى بن جعفر — وقال: إلى الفردوس من ها هنا أعبر

وصاغ له من معدن اللطف حلية — بشهب السما قد رصعت لا بجوهر

له الله باب إن تجلى سناؤه — لشمس الضحى قال: اختفي وتستري

عن الصدق والإخلاص في الله صنعه — يعبر أن أعيا لسان المعبر

مثابة أمن واعتصام لمذنب — ومنبع ألطاف ويسر لمعسر

فقف بذوي الحاجات واهتف مؤرخاً — (بحاجاتك آيتي باب موسى ابن جعفر)

١٣٨٣

من قبل الجمهورية العراقية الموقرة سنة ١٣٨٤

أما مصراعا الباب فكتب حولهما من الجهات الأربع سورة الدهر بكاملها؛ تليها جملة (صدق الله العلي العظيم. كتبه فضائلي بأصفهان سنة ١٣٨٣).

وكتب على المصراعين من الأعلى إلى الأسفل وسط طرر مختلفة الشكل ما يأتي:

يا مجيب الدعوات — يا رافع الدرجات

سلام قولاً من رب رحيم — سلام على ابراهيم

تم في عهد سادن الروضة الكاظمية، الحاج شيخ علي كليددار ابن الشيخ حميد

وتضمنت زوايا المصراعين النص التالي متناثراً فيها:

(بسعي واهتمام. المتصدي الشيخ حسين مؤيد. تحت نظر حاج ميرزا. أبو القاسم كوبائي أصفهاني. طراحي ومينا سازي. شكر الله صنيع زاده. سازنده حاج حسين بروش. قلم زني أحمد ديناري).

٣ - الباب الغربي لروضة الكاظم:

فضي؛ في وسطه كتابات بالذهب. طوله ٣.٤٠سم. عرضه ٢.٠٠ سم. صنع سنة ١٢٣٩هـ.

كتب حول المصراع الأيمن من جهاته الأربع الأبيات التالية:

أقول لأسرتي وذوي ودادي ... ومن شاء النجاة من العباد
وعند الله رام علو قدر ... وشاء الفوز في يوم التناد
إلا حثوا ركائبكم خفافا ... إلى باب الحوائج والمراد
هناك تمسكوا بضريح قدس ... سما فوق الضراح بذي الأيادي
غياث المعتفي حرز اليتامى ... لدى الجلى محمد الجواد
وقفنا على باب الحوائج وقفة ... لنا قضيت فيها جميع الحوائج

وكتبت على المصراع الأيسر من أطرافه الأربعة الأبيات التالية:

إلهي بحب الكاظمين حبوتني ... فقويت نفسي وهي واهية القوى
بجودك فاحلل من لساني عقدة ... لأنشر من مدح الإمامين ما انطوى
نويت وإن لم أشف من شانئيهم ... فحسبي منهم أن للمرء ما نوى
لمرقد موسى الجواد برغمهم ... أجل من الوادي المقدس ذي طوى
هوى مذ أضاء النور من طوره امرؤ ... كما أن موسى من ذرى الطور قد هوى
ولكن هوى موسى فخر إلى الثرى ... ولما هوى ذا تعلق في الهوا

وكُتب على المصراعين من الأعلى إلى الأسفل على طرر مختلفة الأشكال ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم، انا فتحنا لك فتحاً مبينا

ايندر كعبه أميد كدا وشاه است ... ايندر قبله حاجات ونجات همه خلق

قال جل شأنه:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ).

هو الواقف. وقف نمود مرحوم مبرور حاجي محمد علي أفضل تاجر شوشتري. حسب الفرمايش عمدة التجار حاجي محمد تقي أفضل تاجر شوشتري بسعي واهتمام سيد محمد رضا معلم، عمل استاد رجب علي زركر، كتب شيخ علي.

عمل حسن قلم زن سنة ١٣٣٩

روي حاجـــات جهـــان جملــــه مقـــصد هـــر دوجهـــان حاصـــل

براينـــــدر كـــــاه اســـت ازينـــــدر كـــــاه اســـت

قال النبي (ص): «مثل أهل بيبتي كسفينة نوح»

وللباب عضادتان فضيتان نقشت فيهما جملة «يا باب الحوائج».

٤ - الباب الشمالي لروضة الجواد:

فضي، في وسطه كتابات بالذهب. طوله ٣،٤٠سم. عرضه ٢،٠٠ سم. صنع سنة ١٣٤٠هـ. كتب حول المصراع الأيمن من جهاته الأربع الأبيات التالية:

مـا هـذه القبـة الحمـراء قـد ظهـرت واشـرقت مـن سـناها الشمس والقمـر
قامـت علـى الفلـك الأعلـى قوائمهـا مـن نورهـا بانـت الأيـات والزبـر
ظننتها أنهـا شمـس الـضحى شـرقت أنوارهـا وبـدت في الكـون تـشتهر
فالعقـل عـاتبني مـن أنهـا خلقـت مـن نورهـا الشمس منهـا نالـت الغـرر
حـارت عقـول لعلياهـا فـإن بهـا أسـرار حكمـة علـم الله مـدخر(كذا)
مـذ كـان مـدفن موسـى والجـواد بـذا جبريـل في لـثم بـاب منـه يفتخـر

حرره الجاني علي ١٣٤٠

وتحيط بالمصراع الأيسر من جهاته الأربع الأبيات التالية:

ذا شـامخ الطـور أم ذا بـاذخ النـور فـالهجْ بـه بـين تهليـل وتكـبير
هـو المقـدس واديـه فزائـره يـؤوب عنـه بـذنب منـه مغفـور
نـاج ابـن جعفـر وأعلـن [في] تحيتـه فإنهـا خـير سـعي منـك مـشكور
واطلب مـرادك واستجد الجـواد تفـز منـه بنيـل مـن الرضـوان موفـور
فـذا مقـام علـى سـر الإلـه بـه للنـاظرين تجلـى غـير مـستور
بـاب الحـوائج بـاب الله فـاغتنموا دخولـه عنـد تاصـيل وتـبكير

وكُتب على المصراعين من الأعلى إلى الأسفل على طرر مختلفة الأشكال ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، إنا فتحنا لك فتحاً مبينا

يا إمام محمد الجواج. يا باب المراد ١٣٤٠

جه خر كهي است كه حصن العباد دانندش

رواكننده حاجات موسى جعفر هو الموفق لكل خير

قال جلّ شأنه: (وَسِيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) صدق الله.

بقلم رني محمد حسن بن مرحوم شيخ موسى

وقف نمود جناب حاجي عبد النبي خلف مرحمت بناه حاجي عبد العلى تاجر كازراني. بسعي واهتمام جناب حاجي عبد الرحيم تاجر بهبهاني. عمل استاد رجب يلي ولد مرحوم حاجي فتح الله زركر شوشتري ١٣٤٠.

جـه دركَـهي كـه بـاب المراد نـا منـدش شـفيع خلـق إمـام جـواد خوانندش

قال النبي (ص): «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

وللباب عضادتان من فضة نقشت عليهما كلمتا «يا باب المراد».

٥ - الباب الشرقي لروضة الجواد:

فضي. طوله ٣,٤٠سم. عرضه ٢,٠٠ سم. صنع في سنة ١٣١٤هـ.

يحيط بالمصراعين من كل أطرافهما شعر فارسي. وفي وسط المصراعين من الأعلى إلى الأسفل ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، إنا فتحنا لك فتحاً مبينا

روم تقـي جـواد أن يـكَـانه كـه بـود بـروي انكـه زنـد دم همـي زديـن مـبين

زايـران ايـن حـرم راهـردم ازعـرش مـير سـداواز طبـتم فادخلوهـا خالـدين

بـرين ضـياى ديـده رسـل ختـم رسـول أمـين بكَـفت جـارده جـون شـدبس ازهـزار سـه صـد

يا قاضي الحاجات يا كـافـي المهمـات

الباني حاجي محمد جواد بن مرحوم حاجي محمد تقي سنة ١٣١٤

تمام شد اين در مطهر بسمي آقا سيد حسن بصام

٦ - الباب الغربي لروضة الجواد:

فضي. طوله ٣,٤٠سم. عرضه ٢,٠٠سم. صنع في سنة ١٣٢٧هـ.

يحيط بالمصراعين من كل جهاتهما شعر فارسي. وفي وسطهما من الأعلى إلى الأسفل كتابات نصها:

وكان سعيكم مشكورا، فادخلوها بسلام آمنين.

(إذا جاء نصر الله والفتح ❖ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ❖ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا).

١٣٢٧

عمل حسين نقاش زركر كرمانشاهاني

(الأروقة)

تحيط بالروضة من أربع جهاتها أروقة مفتوح بعضها على بعض ومتصل بعضها ببعض، وكلها مبلطة بالرخام الجيد، وقد تم تبليطها به لآخر مرة في سنة ١٣٨٠هـ.

كما أن جدران الأروقة بأجمعها مزينة إلى ارتفاع أربعة أمتار بالرخام أيضاً، وقد تم ذلك في سنة ١٣٧٥هـ، وترتفع فوق هذا الرخام في الجدران والسقوف زينة الزجاج الأبيض الوهاج المنسق على أجمل الأشكال الهندسية؛ مما يسمى بـ((العينة كاري))، وقد تم تجديده في سنة ١٣٨٢هـ.

ونورد فيما يلي وصفاً شاملاً لهذه الأروقة بما تتضمنه من المعالم الفنية والتاريخية وما يشرع فيها من أبواب الدخول.

١ - الرواق الشمالي:

طوله ٢٧ متراً و ٩٠ سم. عرضه ٤,٣٠سم.

يتصل من جهته الجنوبية بالروضة؛ وبينه وبينها باب مر وصفه، ويتصل من جهته الشمالية بالجامع الصفوي وبينهما شبابيك حديد كبيرة.

٢ - الرواق الغربي:

طوله ٣٨ متراً و ١٥سم. عرضه ٤,٣٠ سم.

يتصل من جهته الشرقية بالروضة؛ وبينه وبينها بابان سلف ذكرهما، ويتصل من جهته الغربية بطارمة صحن قريش، وبينه وبينها باب خشبي في الوسط ليست فيه كتابات أو نقوش. وكان التاجر العدني الحاج فقير قد اقتطع من هذا الرواق نصفه وأحاطه بسياج من الطرفين ليكون مصلى خاصاً بالنساء؛ واشتهر على ألسن الناس باسم مسجد الحاج فقير، ثم هدم السياج بعد ذلك وأعيد اتصال هذا المصلى بالرواق.

وفي وسط هذا الرواق من الجهة المتصلة بالروضة إيوان كبير فيه قبر نصير الدين الطوسي. ويحجز هذا الإيوان عن الرواق شباك فولاذي بطول الإيوان، وفي داخله على امتداد أضلاع جداره كتابة بالطابوق الكاشاني هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هذا مرقد سلطان الحكماء المحققين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي. قد عمر في عهد سلطنة السلطان ابن السلطان والخاقان ابن الخاقان ناصر الدين شاه قاجار خلد الله ملكه وسلطنته، بأمر حضرت الشاهزاده الأمجد الأشرف معتمد الدولة فرهاد ميرزا أدام الله شوكته. تاريخ في سنة ١٣٠٤).

٣ ـ الرواق الشرقي:

طوله ٣٨ متراً و١٥سم. عرضه ٤،٣٠سم.

يتصل من جهته الغربية بالروضة، وبينه وبينها بابان مرّ ذكرهما، ويتصل من جهته الشرقية بطارمة باب المراد، وبينه وبين الطارمة ثلاثة أبواب نورد وصفها فيما يلي:

أ ـ الباب الشمالي:

فضي. طوله ٣،٤٠سم. عرضه ٢،٠٠ سم. صنع في سنة ١٣٦٨هـ.

كتب على القسم الأعلى من إطاره قوله تعالى: (حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين).

ووردت في المصراعين من الأعلى إلى الأسفل النصوص التالية:

باب قدس بالكاظمين تسامى شرفاً واعتلى على النيرين

سلام على آل يس. علي مع الحق والحق مع علي.

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.

أنشئ هذا الباب المبارك بوصية من المغفور الحاج محمد الوتار.

خدمتكما يا سيدي بخدمة — تمكنت منها وهي غاية مجهودي

قلت إذ شاده محمد أرخ

جل بالكاظمين باب المراد ١٣٦٨

ولاية علي بن أبي طالب حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي

بسعي أستاذ عباس زركر أصفهاني، بعمل محمد علي بسند صايع وإخوان محمد باقر بن عباس أصفهاني سنة ١٣٦٩.

على نفقة ولده الميرزا داوود، وذلك في عصر الشيخ علي كليدار نجل المرحوم الشيخ عبد الحميد.

وايقنت اني فائز بقبولها — فكأنما اهل المكارم والجود

ب ـ الباب الجنوبي:

فضي. طوله ٣،٤٠سم. عرضه ٢،٠٠سم. صنع في سنة ١٢٩٤هـ. نصب بعد صنعه في وسط طارمة باب المراد، ثم نقل إلى هذا المكان ليوضع باب ذهبي موضعه.

ليست في اطاره كتابات، ويحيط بأطراف المصراعين شعر فارسي، وفي وسطهما من الأعلى إلى الأسفل دوائر ونقوش كتبت فيها النصوص الآتية:

هو الواقف على ضماير العباد — راقمه فرهنك بن الوصال الطائرة

اين يكزوج باب شريف را براستانه، مباركه كاظمين صلوات الله وسلامه، عليهما وعلى آبائهما الطاهرين كه، معروفست بباب المراد؛ وقف بنده، ذليل خاكسار كلب استان ائمة أطهار عليهم السلام

١٢٩٤

كتبه العبد الجاني ابن الوصال يزداني، الحاج معتمد الدولة فرهاد ميرزا بن مرحمت وغفران مآب وليعهد دولت عليه إيران عباس ميرزا طيب الله ثراه ونجعل بحابيج الجنان مثواه، في سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف الأول من الهجرة المقدسة المباركة

خادم سيد محمد مهدي نقاش

ج ـ الباب الأوسط:

ذهبي. طوله ٣,٧٠سم. عرضه ٢,٨٠سم. صنع في سنة ١٣٨٧هـ.

تتصل به فوق إطاره الأعلى لوحة مستطيلة من الميناء كتب عليها بالذهب قوله تعالى: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال هلم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين).

وعلى طرفي الباب لوحتان من الميناء طول الواحدة منهما ٢,٠٠ سم بعرض ٥٠سم كتب عليهما بالذهب ما نصه:

(الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله والله أكبر. الحمد لله على هدايته لدينه والتوفيق لما دعا إليه من سبيله. اللهم إنك أكرم مقصود وأكرم مأتي، وقد أتيتك متقرباً إليك بابني بنت نبيك صلواتك عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الطيبين. اللهم صل على محمد وآل محمد، ولا تخيب سعيي، ولا تقطع رجائي، واجعلني عندك وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. المتبرع لهذا الباب الذهبي الحاج عبد الرسول علي الصفار؛ بمساعي الشيخ مؤيد. سازنده مينا شكر الله صنيع زاده اصفهان).

وعلى إطار الباب من أطرافه الثلاثة أشعار فارسية.

ويحيط بمصراعي الباب من الجهات الأربع القصيدة التالية:

وجهان للحق غير الله ما عبدا وجه ينير ووجه يستفيض هدى
هما الجواد وموسى فاعتصم بهما ففيهما الفوز دنيا والنجاة غدا
هما العماد لمن طاحت به عمد أو السناد لظهر يبتغي سندا
فلا غرابة لو أن النضار وإن كان الرفيع على بابيهما سجدا
أو جاء يطلب قربى من مواهب من تجنباً عنه في دنياه وابتعدا
يا أيها الذهب الوهاج فز برضا اعتاب شهمين ما مدا إليك يدا

فلا تسلني حديثاً عن مقامهما ... هما إمامان إن قاما وإن قعدا
فالثم لآل رسول الله تربتهم ... واعقد على حبهم من تبرك العقدا
هم زبدة الكون نفعاً ان محضتهم ... ولم يكن قط يوماً مخضهم زبدا
هم عدة النفس ما ارتابت بعدتهم ... هم كالشهور إذا احصيتهم عددا
قد عاهدوا الله في التقوى وعاهدهم ... بنصره فوفى كل بما وعدا
شاء الطغاة لها التفريق فاجتمعت ... شملاً واصبح شمل المعتدي بددا
فكل منفى لهم أمسى لهم وطناً ... وكل معتقل أمسى لهم بلدا
تحجه الناس من أقصى البلاد كما ... يحج للبيت يبغي الحق من قصدا
فأعجب لغاية مظلومين قد قهرا ... كيف انتهت وكذا من عاش مضطهدا
أن اصبحوا للورى كهفاً تلوذ به ... وللعفاة إذا ما أبلسوا عمدا
كم فرجت بهم جلى اشم به ... ضاق الزمان فأمسى عيشه نكدا
فمن دجا ليل مسراه استنار بهم ... ومن اضاع هدى خير بهم وجدا
قوم هم زاد من يمشي لخالقه ... وفداً إذا الزاد من اعماله نفدا
حوض الولاء وحوض الكوثر اتحدا ... بهم ليمتاز عمن صد من وردا
إليهم أنهت الدنيا مفاخرها ... من دونهم آدم فخراً وما ولدا
وإن تلفتت الدنيا لمعتصم ... ملء الفراغ سواهم لم تجد أحدا
قد أحكموا العروة الوثقى بخالقهم ... وصلاً فلم يتفصم عقدها زردا
ما قيمة التبر ممن إذ نؤرخهم ... (سبح النضار على ابوابهم سجدا)

١٣٨٧ كتبه فضائلي

وفي وسط المصراعين نقوش في داخلها النصوص الآتية:

الإمام موسى بن جعفر موسى بن جعفر باب الحوائج، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

زرگري وطلا كاري حاج محمد حسين پرورش مينا سازي شكرالله صنيع زاده

إهداء الحاج عبد الرسول علي الصفار

الإمام محمد الجواد، محمد بن علي جواد الأئمة، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى، قلمزني احمد ديناري وخطاطي، حبيب الله فضائلي بنظارات حاج ميرزا أبو القاسم كوپائي بمساعي الشيخ مؤيد في عهد الحاج فاضل الكليدار.

وفي وسط هذا الرواق من الجهة المتصلة بالروضة إيوان كبير فيه قبر الشيخ المفيد، ويفصل هذا الإيوان عن الرواق شباك فولاذي بطول الإيوان، وقد كتبت بالفولاذ في أعلى هذا الشباك على امتداد كلمات متقطعة هذا نصها:

(يا الله. يا رحيم. يا حكيم. يا حليم. يا عليم. يا كريم. يا الله. يا محمد. يا علي. يا فاطمة. يا حسن. يا حسين. يا علي. يا محمد. يا جعفر. يا موسى. يا علي. يا محمد. يا علي. يا حسن. يا مهدي. هؤلاء. أئمتي. وسادتي. وقادتي. وشفعائي. في يوم. القيامة. هذا. مرقد. الشيخ. المفيد. عليه. الرحمة. سنة ١٣٢٨. يا الله).

ويلي ذلك سطر فولاذي بطول الشباك تضمن الأبيات التالية في رثاء المفيد:

لا صـوّت الناعي بفقـدك أنـه	**يـوم علـى آل الرسـول عظـيم**
إن كنت قـد غيبت في جـدث الثرى	**فالعـدل والتوحيـد فيـك مقـيم**
والقـائم المهـدي يفـرح كلمـا	**تليـت عليـك مـن الـدروس علـوم**

وانتشرت في أطراف الشباك كلمة «يا الله» ثلاث مرات وكلمة «يا محمد» مرتين وكلمة «يا علي» مرتين.

وفي داخل الإيوان في أعلاه قطعة رخام حفر فيها النص التالي:

(هذا مرقد الشيخ المفيد أبو (كذا) عبدالله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام التلعكبري البغدادي. ولد يوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة سنة ٣٣٦، وتوفي ليلة الثالث من شهر رمضان سنة ٤١٣، ودفن في هذا المكان بجنب قبر شيخه الشيخ الفقيه أبي القاسم جعفر بن قولويه القمي المتوفى سنة ٣٦٨).

٤ ـ الرواق الجنوبي:

طوله ٢٨ متراً. عرضه ٤،٣٠سم.

يتصل من جهته الشمالية بالروضة، وبينه وبينها باب واحد سبق وصفه، ويتصل من جهته الجنوبية بطارمة باب القبلة، وبينه وبين الطارمة ثلاثة أبواب نورد وصفها فيما يأتي:

أ ـ الباب الشرقي:

خشبي. ليست فيه كتابات أو نقوش. في أعلاه مثلث كبير من الطابوق الكاشاني وردت فيه الكلمات الآتية متفرقة بين نقوشه:

موسـى ابـن جعفـر والجـواد	**ومَـن همـا سـر الوجـود**
هـذا مـلاذ الخـائفين	**وذاك مـأوى للوفـود**

سنة ١٣٦٠

وفي وسط الكاشاني المشار إليه الأبيات التالية:

لـذ ببـاب للجـوادين غـدا	**صـدر اهـل الـدين فيـه منـشرح**
تـسجد الأمـلاك في أعتابـه	**وبـه مـن لاذ بـالخير ربـح**

قلـــت للـــسائل عـــن تاريخـــه (لـــذ ببـــاب للجـــوادين فـــتح)

١٣٥٩

ب - الباب الغربي:

خشبي. ليست فيه أية كتابة. فوق الباب كاشاني معرق كتب في وسطه ما نصه:

بـــاب قـــدس للجـــوادين بـــه كـــل هـــم للبرايـــا ينجلـــي

بالإمـــامين ثـــرى أعتابـــه شـــرفاً فـــوق الثريـــا يعتلـــي

أيهـــا الـــسائل عـــن تاريخـــه (قـــم فبـــشر فـــاتح البـــاب علـــي)

المؤرخ شيخ جعفر نقدي سنة ١٣٥٧

ج - الباب الأوسط:

ذهبي. طوله ٣,٥٠ سم. عرضه ٢,٦٠سم. صنع في سنة ١٣٨٣هـ.

تتصل به فوق إطاره الأعلى لوحة مستطيلة من الميناء كتب عليها بالذهب ما نصه:

(الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله والله أكبر. الحمد لله على هدايته لدينه والتوفيق لما دعا إليه من سبيله. اللهم إنك أكرم مقصود وأكرم ماتي، وقد أتيتك متقرباً إليك يا بني بنت نبيك صلواتك عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الطيبين. اللهم صل على محمد وآل محمد، ولا تخيب سعيي، ولا تقطع رجائي، واجعلني عندك وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. المتبرع الحاج عبد الرسول علي الصفار. الساعي الشيخ محمد حسين المؤيد. سنة ١٣٨٣).

وعلى يمين الباب ويساره لوحتان متصلتان بالإطار كتب على أولاهما:

(يا أبا جعفر مولانا محمد بن علي البر التقي الجواد عليه السلام) وعلى ثانيتهما (يا أبا ابراهيم مولانا الإمام الهمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام).

وتحت الإطار الأعلى لوحة متصلة به كتب عليها بالذهب قوله تعالى: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين). وعلى إطار الباب من جهاته الثلاث شعر فارسي.

وكتب على أطراف المصراعين القصيدة التالية:

بـــاب تجلـــى نـــوره وضـــياؤه وبـــدا أمـــام النـــاظرين بهـــاؤه

قد صيغ من ذهـب يضيء وفضة تزهـــو فأشـــرق حـــسنه ورواؤه

بهـــر العقـــول جمالـــه وكمالـــه وحكـــى النجـــوم صـــفاؤه ونقـــؤه

هـــو آيـــة في الفـــن أبـــدع صـــنعه فكـــر أنـــار لـــه الـــسبيل ولاؤه

باب تود الشمس لو هي أثبتت … فيه فأين سناؤها وسناؤه
باب الكرامة والإمامة والهدى … وعليه نور الله جل ثناؤه
باب الحوائج ما دعا متضرع … بحماه إلا واستجيب دعاؤه
باب المراد وما أتاه مروع … إلا وزال بلاؤه وعناؤه
باب الرجاء وفيه يزدهر المنى … ما جاءه راج وخاب رجاؤه
باب العطاء وما استجار بظله … مستعطف إلا وزيد عطاؤه
في بقعة سعدت بأقدس مرقد … قد ناطح السبع الشداد بناؤه
باق على مر العصور وانه … يوحي بمختلف العظات بقاؤه
فكأن هذا القبر سفر خالد … وكأن من طافوا به قراؤه
ضم الذين بفضلهم قام الهدى … وبدت معالمه ورف لواؤه
وهم الذين تشرفت وتقدست … أرض العراق بقبرهم وسماؤه
آل النبي وانهم خلصاؤه … دون الأنام وانهم خلفاؤه
هم فرع دوحته وعيبة سره … والمرء يحمل سره أبناؤه
فيهم تجسد علمه وكماله … وبهم تجسم عزمه ومضاؤه
وبهم تجلى عدله وجهاده … وبهم تمثل زهده وسخاؤه
بيت النبوة والإمامة حيث قد … بلغ الكمال رجاله ونساؤه
لله بيت أينعت اثماره … في الخافقين واورفت أفياؤه
وتفجرت انهاره وتلألأت … أنواره وتقدست آلاؤه
وسرت إلى كل الشعوب هباته … وترددت ما بينهم أصداؤه
بيت جميع الكائنات لأجله … قامت وكل العالمين فداؤه

وكتب على المصراعين من الأعلى إلى الأسفل ما نصه:

المتبرع لهذا الباب الذهبي المتمسك بولاء الأئمة الأطهار، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حبّ علي حسنة

الحاج عبد الرسول علي الصفار

صنع في أصفهان في عهد در اصفهان بزركري حاج محمد حسين برورش. طراحي ومينا سازي شكر الهل صنيع زاده

الساعي الشيخ مؤيد

أنا مدينة العلم وعلي بابها حب علي حسنة

لا يضر معها سيئة
الشيخ علي الكليدار
وقلمزني أحمد ديناري ونظارت
حاج ميرزا أبو القاسم كوبائي
باتمام رسيد

(الطارمات)

يحيط بالأروقة الشرقية والجنوبية والغربية ثلاث طارمات فسيحة مسقفة مستطيلة منفصلة على الصحن بسياج من الحديد المشبك، يتقي بها الزائرون حر الشمس وأذى المطر، ويجلسون فيها أوقات الازدحام والضيق، ويدخلون منها إلى الأروقة بواسطة أكشاك في طرف كل طارمة؛ يضعون فيها أحذيتهم وما معهم من متاع. أما الرواق الشمالي فلا تحده «طارمة» لاتصال جداره بالمسجد الصفوي.

ونورد فيما يلي وصفاً إجمالياً لهذه الطارمات الثلاث:

١ ـ الطارمة الشرقية «طارمة باب المراد»:

طولها: ٤٩،٠٠متراً. عرضها ٥،٢٠ سم. شيدت لأول مرة في سنة ١٣٨١هـ كما مر، ثم جددت في سنة ١٣٧٦هـ عندما أ صيب خشبها بالتآكل، فأبدلت دعائمها الخشبية ـ وكان عددها «٢٢» عموداً ـ بدعائم من «الكونكريت المسلح» عددها عشرة، وزين سقفها بنقوش الزجاج المعروفة باسم «عينه كاري» وكتبت على الطابوق الكاشاني في أعلى باطنها قريباً من السقف آيات من القرآن الكريم تمتد على امتداد طولها. وقد أرخ السيد علي الهاشمي هذا التجديد بقوله:

ايـــوان قـــدس بـــالجوا	ديـــن سمـــت مباهجـــه
فـــاق علـــى وادي طـــوى	وشـــرفت معارجـــه
جـــدد في عهـــد علـــي	ي هـــن زكـــت نتائجـــه
الـــسادن النـــدب الـــذي	مرضـــية مناهجـــه
مَـــن جـــاءه ارّخ (بـــه	تُقـــضى لـــه حوائجـــه)

١٣٧٦هـ

وفي وسط هذه «الطارمة» متصلاً بجدار الحرم ايوان ذهبي كبير تبرع الملك الإيراني ناصر الدين القاجاري بتذهيبه في سنة ١٢٨٥هـ، وقد كتب في أعلاه بالذهب ما لفظه: (شيده السلطان بن السلطان بن السلطان ناصر الدين شاه قاجار ١٢٨٥).

وتحت هذه الكتابة طرتان عن اليمين والشمال كتب عليهما ما نصه: (السلطان بن السلطان ناصر الدين شاه قاجار).

وفي داخل الإيوان سطر طويل يمتد عبر أضلاعه الثلاثة كتبت عليه بالذهب جمل متفرقة هذا نصها:

اللهم صل على المصطفى محمد،

والمرتضى علي،

والبتول فاطمة،

والسبطين الحسن والحسين،

والسجاد علي بن الحسين،

والباقر محمد بن علي،

والصادق جعفر بن محمد،

والكاظم موسى بن جعفر،

والرضا علي بن موسى،

والجواد محمد بن علي،

والهادي علي بن محمد،

والعسكري الحسن بن علي،

والحجة القائم المنتظر المهدي.

٢ - الطارمة الجنوبية «طارمة القبلة»:

طولها: ٤٧,٢٠ سم. عرضها: ٦,٠٠ سم. شيدت لأول مرة في سنة ١٢٨٥هـ كما مر، ثم جددت سنة ١٣٧٧هـ، فأبدلت دعائمها الخشبية - وكان عددها «١٤» عموداً - بدعائم ثمانية من «الكونكريت المسلح»، وزين سقفها بالزجاج، وكتبت في أعلاها من الداخل آيات قرآنية وسط الطابوق الكاشاني، وأرخ السيد علي الهاشمي هذا التجديد بقوله:

ايوان قدس بالجوادين سما	**بحسنه فاق الرياض الزاهيه**
قد جددوا بناءه واشرقت	**فيه المرايا كالشموس الضاحيه**
انظر لعرشه وأرخه (كما	**يحمل عرش مجده ثمانيه)**

١٣٧٧هـ

وفي وسط هذه «الطارمة» متصلاً بجدار الحرم أيوان كبير من الذهب والزجاج؛ يشرع في وسطه باب الرواق الذهبي، وكان قد ذهب هذا الإيوان سنة ١٢٥٥هـ بنفقة محمد شاه القاجاري ملك ايران يومئذ، ولم تكن «الطارمة» قد شيدت حينذاك.

وفي أعلى هذا الإيوان طرتان من الذهب كتب على اليمنى منهما:

قال الله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي) وعلى اليسرى: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما).

أما الطرتان الواقعتان في زاويتي أعلى الإيوان المتضمنتان طغراء آل عثمان مع تاريخ ١٣٢٢ فلا علاقة لهما بكل ما في «الطارمة» من بناء وذهب وزجاج، وإنما وضعتا إرضاء للحكومة التركية أو خوفاً منها.

وفي سنة ١٣٧٩هـ أعيد صقل ذهب هذا الإيوان وجدد زجاجه بعد أن علاه الصدأ وأثرت فيه تقلبات المناخ.

٣- الطارمة الغربية «طارمة قريش»:

طولها: ٣٧,٠٠سم. عرضها: ٦,٥٠سم. ما زالت على وضعها الأول الذي مر تفصيله في صفحة ١٤٥ من هذا الكتاب.

(الصحن)

يحيط بالحرم من أطرافه الشرقية والجنوبية والغربية فضاء واسع كبير؛ مبلط بالإسمنت؛ تقام في جنباته الصلاة، ويأوي إليه الزائرون الفقراء في الليل والنهار، يطلق عليه اسم «الصحن». ويفصله عن الشوارع المحيطة به جدار ضخم عال سميك يدعى «سور الصحن»، وما زالت عمارة هذا السور قائمة على حالها منذ شيدت في سنة ١٢٠١هـ، من دون أن يضاف إليها أو يستحدث فيها ما يستحق الذكر، سوى ترميم بعض من طابوقه الكاشاني وتجديد بعض منه وسوى فتح أبواب إضافية بين الصحن والطرق المتصلة به؛ لتخفيف الازدحام وتسهيل حركة الزائرين.

إنَّ مظهر الجدران كما يبدو للمشاهد من خارج الصحن عادي جداً، فهو عبارة عن طابوق مرصوف بعضه فوق بعض بلا أي نقوش أو زركشة، ولكن يد العناية قد اتجهت نحو الجدار الداخلي فأخرجته آية من آيات الجمال والفخامة وتعبيراً دقيقاً عن مدى روعة الريازة الفنية الإسلامية فقد تضمن كل جدار منها مجموعة متجاورة من الحجر، وأمام كل حجرة إيوان خاص منفصل عن الآخر مغلف بالطابوق الكاشاني من كل أطرافه،

وتتناثر الأبواب ـ وهي الآن عشرة ـ بين هذه الحجر لتكون المداخل الطبيعية للصحن الشريف، وأبرزت الأبواب الرئيسة الثلاثة في وسط الجدار الشرقي والجنوبي والغربي بشكل منسق رائع؛ حيث أحيطت أطرافها بالبناء المغلف بالكاشاني المنقوش وإلى ارتفاع شاهق، وشيدت فوق كل واحدة منها حجرة كبيرة تمتد بامتداد سقف الممر المتصل بالباب، وجعلت لكل حجرة نوافذ تطل على الصحن الشريف ونوافذ من الجانب الآخر تطل على الطريق الخارجي.

ونورد فيما يلي وصفاً لجدران سور الصحن من أطرافه الأربعة كما هي عليه الآن:

١ ـ الجدار الشمالي:

طوله: ١٣١ متراً و٢٠سم. عدد غرفه (١١) غرفة، سبع منها في القسم الشرقي وأربع في القسم الغربي، ويتصل الثلث الأوسط من الجدار بالجامع الصفوي.

فيه بابان أحدهما من صحن المراد ويدعى «باب الجواهرية»، والثاني من صحن قريش ويدعى «باب قريش» وليس عليهما اليوم أية كتابات أو نصوص تاريخية.

٢ ـ الجدار الشرقي:

طوله: ١٣٤ متراً. عدد غرفه (٢٢) غرفة.

فيه ثلاثة أبواب:

أ ـ الباب الواقع في الزاوية الشرقية الشمالية المسمى بـ «باب الفرهادية». لم يكتب عليه من داخل الصحن شيء. وكتب عليه من الخارج بالطابوق الكاشاني آيات من أول سورة الفتح، ثم العبارات التالية:

باب فرهادية

السلطان ناصر الدين شاه

١٣٠٠

ثم يلي ذلك بيتان من الشعر الفارسي.

ب ـ الباب الواقع بين الوسط والشمال. ليست فيه كتابات من الداخل. وكتب عليه من الخارج في أعلاه بالطابوق الكاشاني ما نصه:

قال الله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)، وقال عز وجل أيضاً: (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم)، وقال جل شأنه أيضاً: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً). صدق الله.

ثم تلي ذلك في الوسط جملة «باب الرجاء».

وقد فتح هذا الباب في سنة ١٢٧٦هـ ولم يكن باباً في عمارة السور الأصلية.

ج - **الباب الكبير في الوسط**: ويسمى «باب المراد». تعلوه كتابات من الداخل والخارج.

ففي الداخل في أعلى البناء كتبت سورة الضحى بكاملها على الطابوق الكاشاني، ويبدو أنها من الكتابات الجديدة. وفي وسط البناء تحت الحجرة وفوق طاق الباب كتب ما نصه:

(قد أمر بعمارة هذا الصحن وهو الذي افتخرت به غرفات الجنان... [1] الأشرف الأرفع الأمجد معتمد الدولة فرهاد ميرزا، أدام الله عزه وجلاله وإقباله؛ بجاه محمد وآله الطاهرين سنة ثمان وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية المقدسة؛ عليه آلاف الثناء والتحية).

وكتب على الباب من الخارج بالطابوق الكاشاني أيضاً في أعلى البناء ما نصه:

(قال الله تبارك وتعالى عز وجل: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)، وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وقضي بينهم بالحق، وقيل: الحمد لله رب العالمين. صدق الله العلي العظيم، وصدق رسوله النبي الكريم).

وفي وسط البناء تحت الحجرة وفوق إطار الباب كتب ما نصه:

(قال الله تبارك وتعالى وعز وجل جلاله: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)، وقال تبارك وتعالى عز وجل: (ادخلوها بسلام آمنين). حرره تراب أقدام الزائرين خادم الروضة الرضوية نصر الله المشهدي سنة ١٢٩٩).

ثم تلي ذلك فوق إطار الباب مباشرة قطعة من رخام نحتت فيها أبيات من الشعر لم نستطع قراءتها.

وفي الزاوية الجنوبية من هذا الجدار باب صغير ينفذ إلى بناية تسمى «تكية البكتاشية» وتشغلها الآن مكتبة الجوادين (ع) العامة، وفوق الباب قطعة رخام حفر فيها ما نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم: نواب مستطاب أشرف أمجد أرفع وإلا شاه زاده حاجي فرهاد ميرزا معتمد الدولة فرمان... مملكت فارس دامت شوكته؛ أين تكيه را بنا وحسبنا

---

(١) تخريب في الكاشاني بمقدار كلمتين.

لله وقف فرمودند بر طايفه بكتاشيه خاصة، وأحدي أز طوايف ديگر را در اينجا حق توقف وسكنا نخواهد بود، شهر صفر ١٢٩٨).

ثم تلي ذلك أبيات فارسية فيها مادة تاريخ.

٣ - الجدار الغربي:

طوله: ١٣٥ متراً و ٤٠ سم. عدد غرفه (٢٣) غرفة.

فيه بابان:

أ - الباب الواقع في الزاوية الغربية الجنوبية، ويدعى «باب صافي»

ليست فيه كتابات من الداخل أو الخارج.

ب - الباب الكبير الواقع في الوسط، ويسمى «باب صاحب الزمان».

تعلوه كتابات من الداخل والخارج.

ففي الداخل في أعلى البناء كتبت آية النور بكاملها على الطابوق الكاشاني. وفي وسط البناء فوق طاق الباب كتب ما نصه:

(الحمد لله رب العالمين. قد تم هذه (كذا) الصحن الأقدس باهتمام عاليخاهان رفيع... حاجب الحرمين الشريفين جناب المستطاب حاج محمد مهدي أمين التجار وجناب جلالت مآب حاجي محمد حسن وكيل الدولة مشرف صحن شريف اين تراب استان محمد تقي كرمانشهاني).

وكتب في أعلى البناء من الخارج بالطابوق الكاشاني آية التطهير وآية الولاية. وكتبت في وسط البناء تحت نوافذ الحجرة سورة الإيلاف ثم ما نصه (صدق الله العلي العظيم. سنة ثمان وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة ١٢٩٨). ثم تلي ذلك قطعة من رخام نحت فيها البيت التالي:

يا لها كعبة لنيل مراد　　　　من ضجيعين كاظم وجواد

تليه أبيات فارسية.

٤ - الجدار الجنوبي:

طوله: ١٣٥ متراً. عدد غرفه (٢٠) غرفة.

فيه ثلاثة أبواب:

أ - الباب الواقع في وسط الثلث الشرقي من الجدار. فتح في سنة ١٣٦٠هـ ولم يكن باباً قبل ذلك. ليست فيه كتابات من الداخل.

كتب عليه من الخارج بالطابوق الكاشاني ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين). صدق الله العلي العظيم).

ثم سجلت تحت هذه الآية الشريفة في الوسط جملة «باب المغفرة».

ب - **الباب الواقع في وسط الثلث الغربي من الجدار.** فتح في سنة ١٣٧٥هـ ولم يكن باباً قبل ذلك ليست فيه كتابات من الداخل.

كتب عليه من الخارج بالطابوق الكاشاني ما نصه:

(قال الله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)، وقال أيضاً عز وجل: (قل كت سألتكم من أجر فهو لكم)، وقال أيضاً جل شأنه: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا... صدق الله).

ثم كتب في وسط الكاشاني تحت الآيات السالفة الذكر جملة «باب الرحمة ١٣٧٥».

ج - **الباب الكبير الواقع في الوسط، ويسمى «باب القبلة».** تعلوه كتابات من الداخل والخارج.

ففي الداخل في أعلى البناء كتبت بالطابوق الكاشاني آية الكرسي إلى قوله تعالى: (وهو العلي العظيم).

ثم الجملة الآتية:

(الحمد لله على التوفيق ١٢٩٨).

وكتب في وسط البناء فوق طاق الباب بالكاشاني أيضاً ما نصه:

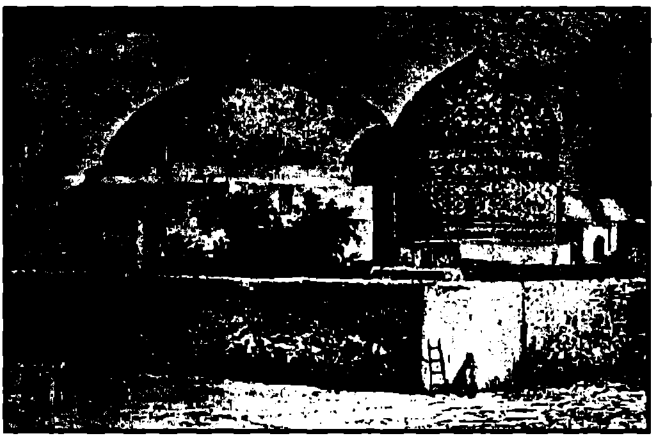
(في أيام دولة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم؛ السلطان ابن السلطان ابن السلطان؛ الخاقان ابن الخاقان ابن الخاقان؛ أبو المظفر ناصر الدين شاه قاجار؛ خلد الله ملكه و... على العالمين بره وعدله وإحسانه. وبنى هذا الصحن الشريف سنة ثمان وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة المقدسة في ١٢٩٨).

وكتب في أعلى البناء من الخارج بالطابوق الكاشاني سورة الضحى بكاملها.

❖ ❖ ❖



مـرقـد
الشيخ عبد القادر الكيلاني.



مرقد عبد القادر الكيلاني
(عن رحلة مدام ديولافوا)



على مقربة من الإمام الكيلاني
ببغداد ويبدو المستشفى العام.

من علماء بغداد

عبد القادر الكيلاني
قديس بغداد(*)

✍ **محمد سعيد الطريحي**

الشيخ الكيلاني، علم بارز من أعلام التصوف، امتد صيته من بغداد إلى كافة أنحاء العالم برز بمؤلفاته الشهيرة (الغنية لطالب الحق) و(فتوح الغيب) و(الفتح الرباني) و(الفيوضات الربانية).. وعرف بمجالسه البغدادية التي ضاع صيتها وتحلق حوله فيها طلاب المعرفة من كافة البلدان، واشتهر بخوارقه وكراماته التي ما تزال تروى حتى يومنا هذا في زوايا الصوفية وتكاياها، والآسيويون يسمونه شريف بغداد أو بغداد شريف، والدارسون يحومون حول هذا الرمز بحثاً عن سر من أسرار هذا الشيخ الرباني الذي أصبح اسمه على كل شفة من شفاه الصوفية، وأمست قبته في بغداد مزاراً للوافدين والرواد من كل حدي وصوب، وما نحاوله في هذه السطور دراسة أولية لاستجلاء بعض آثار قديس بغداد.

هو المتصوف الكبير مولانا الشيخ عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بين الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب (ع).

ولد في جيلان سنة ٤٧٠ وقيل ٤٧١ وهاجر إلى العراق وعمره ثماني عشرة سنة إذ دخل بغداد سنة ٤٨٨هـ، ودرس على عدد من علماء بغداد منهم الشيخ حماد الدباس المتوفى سنة ٥٢٥هـ، والمبارك بن علي بن الحسين المخرمي (٤٤٦- ٥١٣هـ) وغيرهم.

وصفه موفق الدين المقدسي فقال: كان شيخنا نحيف البدن ربع القامة عريض الصدر، عريض اللحية، طويل أسمر، مقرون الحاجبين، أدعج العينين ذا صوت جهوري وسمت بهي وقدر علي وعلم وفي.

وعن حياته الأولى في العراق يورد الشيخ بعض الذكريات عن مجاهداته الروحية ورياضاته الصوفية كما أملاها على احد تلامذته الشيخ أحمد بن أبي بكر الحريمي وفيها يقول:

(أقمت في صحارى العراق وخرابه خمساً وعشرين سنة مجرداً سائحاً، أعرف الخلق ولا يعرفوني، تأتيني طوائف من رجال أهل الغيب والجان أعلمهم الطريق إلى الله عز وجل، ورافقني الخضر عليه السلام في أول دخولي إلى العراق وما كنت عرفته قبل وشرط علي أن لا أخالفه، وقال لي أقعد هنا فجلست في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة

(*) نشر البحث في جريدة (بلاد الرافدين) الصادرة في أمستردام العدد (٨) ص ٦ ـ ٨ سنة ٢٠٠٢م.

مرة ويقول مكانك حتى آتيك وكانت الدنيا وزخارفها وشهواتها تأتيني في صور عجيبة فيحميني الله تعالى من الالتفاف إليها، وتأتيني الشياطين في صور شتى مزعجة فيقاتلوني فيقويني الله عليهم، وأقمت زماناً في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات فمكثت سنة آكل المنبوذ ولا أشرب الماء، وسنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، ونمت بإيوان كسرى في ليلة شديدة البرد، فاحتلمت فقمت وذهبت إلى الشط واغتسلت ثم نمت فاحتلمت فقمت وذهبت إلى الشط واغتسلت وهكذا أربعين مرة، فقمت في تلك الليلة أربعين مرة واحتلمت أربعين مرة واغتسلت أربعين مرة ثم صعدت على الإيوان خوف النوم، وأقمت في خراب الكوخ سنين لا اقتات فيها الا بالبردي، ويأتيني رجل في رأس كل سنة بجبة صوف البسها، ودخلت في ألف فن حتى أستريح من دنياكم وما كنت اعرف إلا بالتخارس والبله والجنون وكنت امشي حافياً في الشوك وغيره وما هالني شيء إلا سلكته ولا غلبتني نفسي فيما تريده قط، ولا أعجبني شيء من زينة الدنيا قط.

الباز الأشهب:

مما عرف من ألقاب الشيخ الكيلاني واشتهر به لقب (الباز الأشهب) وسبب ذلك فيما رواه الدميري في حياة الحيوان: دخل الشيخ عبد القادر على الشيخ حماد الدباس يزوره، فنظر إليه الشيخ وكان قد رأى انه قد اصطاد بزي، فأثرت نظرة الشيخ فيه، فخرج من عنده وتجرد عن أسبابه وكان من أكابر أصحابه، ولهذا كان الشيخ عبد القادر يقول:

انـا بلـبل الأفـراح امـلأ دوحـها طـرباً وفي العليـا، بـاز أشـهب

وقال شهاب الدين الآلوسي (ت ١٢٧٠) في كتابه الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب: ومعنى الباز الأشهب عند الصوفية المتمكن في الأحوال فلا تزحزحه الطوارق عن درجات الرجال مع الخلق بظاهره ومع الحق بسرائره، رؤيته سنية وهمته علية وهو عون للخائفين وحظ للعارفين ولكونه رضي الله عنه صاحب القدح صاحب القدح المعلى من ذلك لقب بما ذكره.

الشيخ في رأي الغربيين:

كتب جملة من كتبة الغربيين رأيهم في الشيخ واشتهار أمره بالتصوف في سائر أنحاء العالم الإسلامي، ومن أغرب تلك الآراء ما ذكره الرحالة ريتشارد كوك الذي ربط بين تصوف الشيخ وتجرده عن الدنيا وصلته بالنصرانية وقارنه بالقديس فرانسو دسيز (FRANCOIS D'ASSISE) مؤسس رهبانية الفرنسيسكان (١١٨٢ ـ ١٢٢٧هـ) قال: (والنظام الذي أسسه الشيخ يؤكد على الاستسلام النفسي وإعادة خلق الروح، وهي جميعا من آثار

هذا الولي، وانه التزم بأساس الإسلام فتجنب الإفراط في التضحية بالنفس الذي تجده عند النصارى، فتزوج أربع زوجات موسرات على التعاقب، وخلف عدداً كبيراً من الذرية، ومما قاله: إن الشيخ الأكبر استطاع السيطرة على أتباعه بشخصيته وليس بذهنيته) بغداد مدينة السلام ١/١٧٥ - ١٧٦.

من أيام الشيخ ببغداد:

روى ولده الشيخ عبد الوهاب قال: كان والدي يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة، بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ ومدة تصدره للتدريس والفتوى وبمدرسته بلغت ثلاث وثلاثون سنة أولها سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وآخرها سنة إحدى وستين وخمسمائة، وكان يقرأ في مجلسه مقرآن إخوان بغير إلحان ولكن قراءة مرتلة مجودة وكان يقرأ في مجلسه أيضاً الشريف أبو الفتح مسعود بن عمر الهاشمي، وكان يكتب ما يقول في مجالسه أربعمائة محبرة عالم أو غيره، وكان كثيراً ما يخطو في الهواء في مجلسه على رؤوس الناس خطوات ثم يرجع إلى الكرسي.

هدايته للناس:

قال غبد الله الجاني: قال لي الشيخ أتمنى أن أكون في الصحارى والبراري كما كنت في الأول لا أرى الخلق ولا يروني ثم قال أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق فانه قد اسلم على يدي أكثر من خمسمائة من اليهود والنصارى وتاب على يدي أكثر من مائة ألف من العيارين والمشالحة وهذا خير كثير.

حكاية الطيور الخضر:

ومما يروى من خوارقه التي كسب بها قلوب العامة انه استغرق في كلامه في احد مجالسه فقال: لو أراد الله تعالى أن يبعث طيراً أخضر يسمع كلامي لفعل، فلم يتم كلامه حتى جاء طائر أخضر حسن الصورة ودخل في كمه وما خرج، قال وتكلم آخر في مجلسه فتداخل بعض الناس فترة فقال: لو أراد الله سبحانه أن يرسل طيوراً خضراً تسمع كلامي لفعل فلم يتم كلامه حتى امتلأ المجلس بطيور خضر يراها من حضر، قال، وتكلم يوماً في قدرة الله تعالى وغمر الناس من كلامه هيبة وخشوعاً فمر بالمجلس طائر عجيب الخلقة فاشتغل بعض الناس بالنظر عن سماع كلام الشيخ فقال وعزة المعبود لو شئت أن أقول لهذا الطائر مت قطعاً قطعاً لمات فما تم كلامه حتى وقع الطائر إلى ارض المجلس قطعاً قطعاً.

في هيبته بين مريديه:

قال الشيخ أبو اسحق إبراهيم بن سعيد الداري الثعلبي الحنبلي بدمشق، قالوا: كان شيخنا عبد القادر يلبس لباس العلماء ويتطليس ويركب البغلة وترفع بين يديه الغاشية ويتكلم على الكرسي العالي، وكان في كلامه سرعة وجهر وله كلمة مسموعة إذا قال نصت له، وإذا أمر ابتدر لأمره، وإذا رآه ذو القلب القاسي خشع، وإذا رأيته فقد رأيت الناس كلهم، وإذا مر إلى الجامع في يوم الجمعة وقف الناس في الأسواق يسألون الله تعالى به حوائجهم، وكان له صيت وصوت وسمت، وقد عطس في الجامع يوم الجمعة فشمته الناس حتى سمعت في الجامع ضجة عظيمة يقولون يرحمك الله ويرحم بك، وكان المستجد في مقصورة في الجامع فقال: ما هذه الضجة؟ قيل له قد عطس الشيخ عبد القادر فهاله ذلك.

وقال بعض أصحاب الشيخ انه كان: ذا هيبة عظيمة إذا نظر إلى أحد يكاد يرعد من هيبته وربما ارتعدوا إذا جلس يحدق به قوم كأنهم الأسود، وما ترى أسرع امتثالا لأمره منهم ولا أشد انقياداً له منهم.

حديث الحية:

وذكر أحمد بن صالح بن شافع الجيلي قال: كنت مع الشيخ عبد القادر الكيلاني بالمدرسة النظامية واجتمع إليه الفقهاء والفقراء فتكلم عليهم في القضاء والقدر فبينما هو يتكلم اذ سقطت حية عظيمة في حجره من السقف ففر منها كل من كان حاضراً عنده ولم يبق إلا هو فدخلت الحية تحت ثيابه ومرت على جسده وخرجت من طوقه والتفت على عنقه ومع ذلك ما قطع كلامه ولا غير جلسته ثم نزلت إلى الأرض وقامت على ذنبها بين يديه وصوتت ثم كلمها وكلمته بكلام لم يفهمه احد منا ثم ذهبت فجاء الناس إليه وسألوه عما قالت له وقال لها فقال: قالت لي لقد اختبرت كثيراً من الأولياء فلم أر مثل ثباتك فقلت لها لقد سقطت علي وأنا أتكلم في القضاء والقدر، وهل أنت إلا دويدة يحركها القضاء ويسكنها القدر فأردت أن لا يناقض قولي فعلي.

من كرامات الشيخ وحالاته:

نسب للشيخ الكيلاني كرامات كثيرة وهي أمور خارقة للعادة رواها تلامذته دلالة على منزلته الطيبة وما بلغه من الصفاء الروحي ومن ذلك ما رآه الشطنوفي في بهجة الأسرار، وقال بسنده عن أبي الحسن العمران ببغداد سنة ٥٩١هـ:حضرنا عند الشيخ بمدرسته بباب الازج سنة ٥٥٧هـ وهو يأكل تيناً فترك الأكل وسها سهوة طويلة ثم قال: قد فتح لقلبي الآن سبعون بابا من العلم اللدني سعة كل باب منها كسعة ما بين السماء والأرض.

ثم تكلم في معارف أهل الخصوص كلاما طويلاً اندهش له الحاضرون، وقال نقلاً عن أبي الحسن علي بن الهيتي الزيراني سنة ٥٦٢هـ: ما رأيت أحداً من أهل زماني أكثر كرامات من الشيخ محي الدين عبد القادر، وكان لا يشاء أحد أن يرى منه كرامة في أي وقت شاء إلا رآها وكانت الخارقة تظهر أحياناً منه وأحيانا فيه (بهجة الأسرار ص٢٥).

أول كلام تكلم به:

وروى جماعة من مريديه قالوا: سمعنا الشيخ محي الدين عبد القادر رضي الله عنه سنة ٥٥٣هـ يقول على الكرسي: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الظهر يوم الثلاثاء السادس عشر من شوال سنة ٥٢١ فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه أنا رجل أعجمي كيف أتكلم على فصحاء العرب ببغداد!

قال لي: افتح فاك، ففتحته فتفل فيه سبعاً وقال لي تكلم على الناس وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، فصليت الظهر وجلست وحضرني خلق كثير فارتج علي فرأيت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قائماً بأزائي في المجلس فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أبتاه قد ارتج علي، فقال افتح فاك، ففتحته، فتفل فيه ستاً فقلت لم لا تكملها سبعاً؟ فقال: أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توارى عني فقلت: غواص الفكر يغوص في بحر القلب على در المعارف فيستخرجها إلى ساحل الصدر فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان فتشتري بنفائس أثمان حسن الطاعة في بيوت أذن الله أن ترفع.. قالوا هذا أول كلام تكلم به الشيخ للناس على الكرسي رضي الله عنه (البهجة ٢٥- ١).

الروضة الكيلانية:

تتوسط عمارة هذه الروضة بغداد الشرقية القديمة تقريباً، وتعرف المنطقة التي تقوم فيها بمحلة باب الشيخ وكانت سابقاً تعرف بمحلة باب الازج، ويتألف البناء في الوقت الحاضر من ضريح ومسجد ومجموعة من الغرف لطلاب العلوم الدينية ورواد الطريقة القادرية، وكانت تقوم في هذا المكان مدرسة للحنابلة، وبعد أن دفن الشيخ فيها شيدت على قبره قبة من طراز قبة زمرد خاتون، وقد هدمت قبة الضريح بأمر السلطان سليمان القانوني عام ٩٤١هـ (١٥٣٤م) وأعيد بناؤها وأمر أيضاً بوضع صندوق مشبك فضي على القبر، وأمر ببناء مسجد لصق المشهد، وجعل سقفه قبة تجاور قبة المشهد، وفي عام ١٠٨٥هـ (١٦٦٤م) أمر الوزير حسين باشا السلحدار ببناء رواق يحيط بالمشهد والمسجد، وفي العصور اللاحقة أقيمت الكثير من الترميمات والتجديدات على عامة العمارة وتشغل مجمل أبنية الروضة اليوم مساحة مستطيلة طول ضلعها من الشمال إلى الجنوب ١٢٠ متراً ومن الشرق إلى الغرب ٥٤متراً، وتقوم

أبنية الضريح والمسجد والرواق الذي يحيط بها في القسم الجنوبي الغربي من الأرض ملاصقة جدار القبلة، أما غرفة الضريح فهي مربعة الشكل طول ضلعها ثمانية أمتار من الداخل، وترتفع جدرانها السميكة حوالي عشرة أمتار عن مستوى سطح الأرض، ويمكن الدخول إليها من أربعة أبواب، وصحن الحضرة واسع ويحيط بها من الجهة الشمالية الغربية والشمالية الشرقية، وتم تسييج القسم الجنوبي الشرقي من الصحن وجعل مسجداً صيفياً للحضرة، وهذا المسجد مستطيل الشكل أبعاده ٥٨× ١٢ متراً وأهم ما فيه المئذنة التي تشغل الركن الجنوبي الغربي فيه.

وفي الركن الشمالي الغربي من المسجد برج عال مربع لساعة تحتل القسم العلوي منه، والدخول إلى الحضرة يكون عن طريق مدخل رئيسي ضخم وجميل يتوسط الضلع الجنوبي الشرقي، أما الباب الثاني فيقع في الضلع الجنوبي الغربي المفصول عن شارع الكفاح بمقبرة تمتد على طول الواجهة.

وما تميز به المرقد انه حظي دائماً بزيارة الملوك والقادة وكانوا يضعون عليه الستار المصنوع من أفخر الأقمشة وقد ورد أن أول ستار على المرقد وضعه المستنجد بالله الخليفة العباسي ومن بعده المستضيء بالله العباسي الذي وضع ستاراً من الحرير المحلى بالذهب والفضة سنة ٥٦٦هـ.

المدرسة القادرية:

وهي دار العلم التي أقيمت في مشهد عبد القادر الكيلاني والواقع ان العمل بدأ فيها قبل وفود الشيخ الكيلاني إلى بغداد وذلك على عهد أستاذه أبي سعيد المحزمي في القرن السادس الهجري وأودعها بعد ذلك إلى تلميذه الكيلاني، واشتهرت فيما بعد بالمدرسة القادرية، وقد تخرج منها أساتذة أجلاء عبر القرون مثل الموفق بن قدامة صاحب المغني والشيخ شهاب الدين عمر السهروردي وفي القرون التالية كان من أبرز أساتذتها الشيخ علاء الدين الموصللي (ت ١٢٤٠هـ) والشيخ عبد الله السويدي (ت ١١٧٠هـ) والسيد إبراهيم البرزنجي (ت ١٢٦٣) والسيد عبد الفتاح الواعظ (ت ١٢٤٦هـ) والسيد أبو الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٥٠هـ) والشيخ عبد الحق الهندي (ت ١٢٧٩هـ) والشيخ عبد السلام الشواف (ت ١٢١٨هـ) والشيخ يوسف العطا (ت ١٣٧١هـ) والشيخ عبد الملك الشواف (ت ١٣٧٢هـ) والشيخ محمد القزلجي والشيخ قاسم القيسي والشيخ عبد القادر الخطيب والحاج كمال الدين الملاشي والحاج عبد الكريم بيارة والحاج الشيخ عبد الصوفي، ولا تزال المدرسة عامرة بأهل العلم.

المكتبة القادرية:

أسست على عهد الشيخ الكيلاني وتناوب أولاده وأحفاده على رعايتها وتنميتها، وقد تعرضت للتخريب أثناء الغزو المغولي عام ٦٥٦هـ، وأصاب محتوياتها بعض التلف في فيضان دجلة سنة ١٢٤٦هـ، والفوضى التي أصابت بغداد هذه السنة بسبب ظهور الطاعون، وقد اهتم السيد عبد الرحمن النقيب بأمر المكتبة فزودها بما يقرب من ثلاثة آلاف كتاب وأضاف لها كتب السيد سلمان النقيب وجعلها وقفاً على الحضرة الكيلانية وسجلوا وقفيتها في المحكمة الشرعية ببغداد واستمرت العناية بها حتى بلغت كتبها ما يزيد على ٢٥٠٠٠ كتاب بينها عدد وافر من المخطوطات النادرة من بينها كتاب يرجع تأريخه إلى عام ٤٤٤هـ وآخر مؤرخ بسنة ٥٤٤هـ ومصحف شريف كتب في القرن السادس الهجري، وقد اهتم بفهرستها أوائل الخمسينيات المرحوم إبراهيم الدروبي.

الشعرات النبوية الشريفة:

وضمن المشهد عدد من شعرات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم موضوعة داخل علبة زجاجية أهداها للمشهد السلطان عبد الحميد العثماني، وتخرج للناس أيام المولد النبوي وليلة السابع والعشرين من كل رمضان.

الطريقة القادرية:

تعتبر من أهم الطرق في العالم، وكان الكيلاني لدى هجرته من كيلان إلى بغداد قد التقى شيخه حماد الدباس (المتوفى ببغداد في ١٨ محرم ٥١٣هـ) وأخذ عنه الطريقة، وبعد وفاة أستاذه المذكور، أصبح الكيلاني زعيماً لطريقة أستاذه ومرجعاً روحياً للطريقة التي طورها واهتم بانتشارها بعد ذيوع كتبه (الغنية) و(فتوح الغيب)، وقد نسبت له الخوارق والكرامات، فوصلت (المغرب) بواسطة ابنه الشيخ إبراهيم المتوفى (٥٩٢هـ) ومنه إلى غرناطة، وانتشرت الطريقة في آسيا الوسطى وافريقية ودول شرقي آسيا وخاصة في الهند وباكستان.

سند الطريقة القادرية:

أخذها الكيلاني عن شيخه أبي سعيد المبارك المحزمي عن أبي الحسن الهكاري عن أبي الفرج الطرسوسي عن عبد الوهاب التميمي عن أبي بكر الشبلي عن أبي القاسم الجنيد البغدادي عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن أبي الحسن علي الرضا عن أبيه موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عن أبيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وتروي بالسند

المتقدم عن معروف الكرخي عن شيخه حبيب العجمي عن الحسن البصري عن شيخه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن رسول الله.

وتكية الشيخ عبد القادر ببغداد غير منفكة عن الجامع، وكان الدراويش يسكنون الجامع في حجر خاصة، وقد كان من تلقينات أولئك الدراويش ما يلي: (لا إله إلا الله حصني فمن قالها حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي)

والوصايا بالذكر يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ومحبة الله والذين آمنوا أشد حباً لله.

كما يتناقلون بينهم وصية الشيخ عبد القادر لأولاده وفيها وصايا حسنة منها (يا ولدي اصحب الأغنياء بالتعزز، والفقراء بالتذلل، وعليك بالإخلاص وهو نسيان رؤية الخلق ودوام رؤية الخالق، إن الفقير لا يستغني بشيء سوى الله تعالى).. الخ.

قال العزاوي وفي هذه الأيام شاع في إتباع هذه الطريقة من خرج عن الصدد وزاغ عن الطريق السوي فصارت متابعة الطريقة أشبه بالخروج عن الإسلام لما دخلها من بدع وشذوذ (تاريخ العراق بين احتلالين ٣٤٣/٣)، وأفتى علماء السعودية بتبديع أصحاب هذه الطريقة، فقد وردت في الفتوى المرقمة ٣٣٢٣ من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء ص ٢٥٢ برئاسة عبد العزيز بن عبد الله بن باز ما يلي:

(قراءة مناقب الشيخ عبد القادر أو نحوه وسيلة لمحبة الأولياء وأمثاله وقد تنتهي إلى دعائه والاستغاثة به وإما ذريعة كالتوسل به أو بجاهه إلى الله، ولأنه يقع كثيراً في تراجم من يسمون أولياء من الكذب والأباطيل وما قد يفضي إلى الغلو فيهم، وخير من ذلك ان يجمع معارفه على قراءة القرآن ودراسته وقراءة الأحاديث الصحيحة لمعرفة الأحكام والاتعاظ بذلك.

والواقع ان ما يؤاخذ به بعض أتباع هذه الطريقة ما يتنافى وتعليمات الشيخ عبد القادر نفسه، فقد كان يقول لأصحابه - كما روى الشعراني - (اتبعوا وأطيعوا ولا تبتدعوا ولا تخالفوا) ويقول (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ادخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اجعله وزيرك ومعلمك ودع يده تزينك ويمشطك وتعرضك عليه).

التكايا القادرية في العراق:

١ - التكية الطالبانية، أسست سنة ١٢٩٢هـ ومؤسسها الشيخ رضا الطالباني، وفي عام ١٩٦٠ أخذتها الحكومة وجعلتها حديقة أمام وزارة الدفاع.

٢ . تكية البندنيجي: أسسها السيد علي البندنيجي في القرن الثاني عشر الهجري وتقع في شرقي جامع الشيخ عبد القادر.

٣ . تكية الشيخ محمود بن الشيخ محمد كاكا أحمد الشيخ معروف النودهي بمدينة السليمانية.

٤ . تكية الشيخ محمد جميل بن الشيخ محمد الطالباني في كركوك.

٥ . تكية الشيخ محي الدين بن الشيخ صالح البرزنجي في اربيل.

٦ . تكية الشيخ شريف بن الحاج مصطفى في اربيل.

٧ . تكية الشيخ كاكا مصطفى بن كاكا عبد الله في هيران قرب شقلاوة وله تكايا أخرى في راوندوز ورانية وكوسنجق وصابلاخ.

٨ . تكية الشيخ عبد الكريم التلعفري في اربيل.

٩ . تكية الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الاترو شي.

١٠ . تكية الشيخ نور محمد البريفكاني في دهوك.

١١ . تكية الشيخ عبد الكريم قادر كرم في كركوك.

شعر الشيخ الكيلاني:

ورد للشيخ شعر يناسب مقامه في الصوفية ومن ذلك قوله:

اكشف حجاب التجلي — واحْيِني بالتملي
مالي سوى الروح خذها — والروح جهد المقل
أخذت مني بعضي — فليتني كنت كلي
وقفت بالباب دهراً — عسى افوز بوصلي
من لي بأن ترتضيني — عبيد بابك من لي؟

وأورد في كتابه فتوح الغيب قصيدة طويلة، ومما جاء في مقدمتها:

فؤاد به شمس المحبة طالع — وليس لنجم العذل فيه مواقع
صحا الناس من سكر الغرام وما صحا — وافرق كل وهو في الحان جامع
حميا هواه غير قهوة غيره — مدام دواماً تقتنيها الأضالع
هوى وصبابات ونار محبة — وتربة صبر قد سقتها المدامع
تولع قلبي من زرود بمائه — ويا ولهي كم مات ثمة والع
لقد كان لي في ظل جاهك مرتع — هنئ، ولي بالرقمتين مراتع
اجر ذيول اللهو في ساحة اللقا — واجني ثمار القرب وهي أيانع

تـصرم ذاك العمـر حتـى كـأنني — اعـيش بـلا عمـر وللعـيش مـانع
مـذ اغبر خضر العيش وابيض لمتي — تـسود صـبحي فالـدموع فواقـع
فـلا نـار إلا مـا فـؤادي محلـه — ومـا الـسحر إلا مـا الجفـون تـدافع
فلـو قـيس مـا قاسـيته بجهـنم — مـن الوجـد كانـت بعـض مـا أنـا جـارع
جفـوني بهـا نـوح فطوفانهـا الـدما — ونـوحي رعـد والـزفير اللوامـع
وجـسمي بـه أيـوب قـد حـل للـبلا — وان مـسني ضـر فمـا انـا جـازع
ومـا نـار إبـراهيم إلا كجمـرة — مـن الجمـرات الـتي حوتهـا إلا ضـالع!

العائلية الكيلانية:

الكيلانيون اليوم في طليعة سراة العراق تداول أجدادهم نقابة الأشراف من ذرية الشيخ عبد العزيز بن مضر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومن أولئك النقباء الشيخ زين الدين بن الشيخ محمد شرف الدين وهو أول نقيب للأشراف، من أبناء الشيخ عينه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤١ هـ وتولى الأمر بعده ولده ولي الدين المتوفى سنة ١٠٢٧ هـ ثم تتابعت السلسلة حتى وصلت للسيد سليمان المتوفى سنة ١٣١٥هـ وبعده تولاها عبد الرحمن النقيب رئيس الوزراء لأول حكومة عراقية بعد الاحتلال البريطاني، توفي في ذي الحجة سنة ١٣٤٥هـ وتولاها بعده ولده محمود حسام الدين ثم السيد أحمد عاصم ثم السيد سيف الدين الكيلاني بن السيد مصطفى بن السيد سلمان النقيب وهو آخر نقيب شهدته بغداد وقد توفي سنة ١٣٨٢هـ.

الشيخ عبد القادر في المصادر العربية:

ألفت عشرات الكتب عن تاريخ الشيخ ومناقبه وأحواله العامة ومن ذلك: (بهجة الأسرار) و(معدن الأنوار) للشيخ أبي الحسن علي بن يوسف اللخمي الشطنوفي المطبوع بمصر، وبهامشه (فتوح الغيب) للشيخ عبد القادر، وكتاب (رياض البساتين) المطبوع بتونس بهامشه كتاب (بهجة الأسرار) و(الروض الزاهر) للشيخ أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى ٩٢٣ هـ (ونزهة الخاطر) في ترجمة الشيخ عبد القادر للشيخ علي القاري وكتاب (عبد القادر الكيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية) لأبي بكر القادري (المغرب ١٩٩٩) وكتاب (الشيخ عبد القادر الكيلاني) ليونس إبراهيم السامرائي بغداد ١٩٧٩، و(تاريخ جامع الكيلاني) لهاشم الأعظمي بغداد ١٩٧١. وللشيخ ترجمة مبسوطة في الكثير من كتب التراجم، راجع على سبيل المثال:

روضات الجنات ٨١/٥. تاريخ ابن الوردي ٩٨/٢. طبقات الشعراني ١٠٨/١. المنتظم ٢١٩/١٠. النجوم الزاهرة ٣٧١/٥. مراقد المعارف ٥٧/١ ـ ٥٩. الأعلام ٤٧/٤. ■

من علماء بغداد

العلامة الشيخ شكر البغدادي

✍ توفيق الفكيكي

نسبه وولادته ووفاته:

هو أبو محمود شكر بن أحمد بن شكر، ويدعى جده الأعلى عبدالله الفاضل، رئيس عائلة آل ملحم من فرقة (الحسنة) من عشيرة (مسلم) بطن من بطون "عنزة" التي يرجع نسبها إلى وائل بن ربيعة، وهذه العشيرة تقطن الآن في بادية حمص وكانت ولادته في كرخ بغداد سنة ١٢٧٢هـ وذهب إلى جوار ربه في شهر صفر سنة ١٣٥٧هـ فيكون عمره (٨٥) عاماً وكان رحمه الله من عائلة كريمة معروفة بالوجاهة والثراء وقد دفن في مقبرة أعدها له في حياته في النجف الأشرف قرب مركز [الترامواي].

تحصيله وشيوخه:

تعلم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم العربية، على جماعة من علماء بغداد الأفاضل، ثم نزح عن الزوراء لينهل من مناهل جامعة النجف الأشرف وذلك عام ١٢٩٢هـ وكان إذ ذاك في العقد الثاني منع مره ولم يفارق مدينة العلم والحكمة إلا في حجة ١٣١٠هـ وبعد أن أتم تحصيله انعكف على الدرس والتتبع طوال تلك السنين وظل يختلف آناء الليل والنهار على دور العلم ويحضر تحت منابر أكابر المجتهدين على اخلاف طبقاتهم. وأشهر أساتيذه الشيخ راضي والشيخ محمد حسين الكاظمي والشيخ محمد طه نجف والسيد محمد بحر العلوم، ومن أشهر رفقائه في ذلك العهد العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي الشاعر المفلق العظيم والفقيه المجاهد المشهور.

وبعد أن اغترف من مناهل مختلف العلوم والحكمة والآداب ووقف على أسرار حقائق العقول والمنقول ونبغ فيهما كما يتطلب النبوغ، قفل إلى مسقط رأسه دار السلام رافعاً مشعل العرفان، مجداً في نشر معارفه وفواضله في كل ندوة يحلها ومجلس يحضره.

أما فواضله العلمية فكانت عميقة وغزيرة، فقد كان من أئمة أهل اللغة وحجة المناطقة وقدوة المتكلمين بلا ريب ومن أعلام الأصوليين والفقهاء وسندهم الوحيد في دار السلام، وذخيرة الأدباء والشعراء والحقيقة كان رحمه الله عبارة عن مجموعة علم وأدب وموسوعة فنون وحكمة وكان على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وحدة الذهن

وسرعة البديهة، يحل لك الغوامض العويصة من المسائل العلمية والمشكلات المعضلات في أي ناحية من نواحي الحكمة أو علم البرهان وهو يسير معك على قارعة الطريق ويكشف لك القناع عن وجه أدق القضايا الأصولية أو الفقهية بكل سرعة وسهولة مع الدليل الواضح والبرهان الساطع في كل مذهب من المذاهب الإسلامية مع بيان المراجع والموسوعات التي تناولت تلك الآراء الخلافية على اختلاف طبقات فقهاء التشريع الإسلامي.

وكم كنت ألجأ إليه وأفزع فيما يعترضني من المشكلات المعقدة في العقائد والمسائل الخلافية في فقه المذاهب الإسلامية فكان ـ رحمه الله ـ يبدد لي ظلمات الشكوك والخلاف بثاقب رأيه النير ويقدح زناد فكره الوقاد فيستخرج غوالي اللآلئ من قشور أصدافها وضاءة ساطعة فهو جدير بما قال فهي المرحوم أبو المحاسن شاعر كربلا الوحيد من مقطوعة أرسلها إليه يشكره فيها على إحدى صنائعه:

يا أيها الحبر الذي	وردت به العلماء بحرا
قد غبت عنك ولم تغب	عن خاطري شوقاً وذكرا
ولسان شكري ناطق	يطري على الإحسان (شكرا)
لله أخلاق تروق	محاسناً وترق بشرا
وزمان وصل قد مضى	بالكرخ طلق الوجه نضرا
فبقيت يا عين الأفاضل	في بني الفضل صدرا

خدماته الإصلاحية:

من أهم الأعمال الإصلاحية التي قام بها شيخنا المترجم تأسيس (المدرسة الجعفرية) في العهد العثماني البائد وقد قاوم في سبيل توطيد أركانها كثيراً من الصدمات والعقبات وكافح في ترسيخ قواعدها كفاح المصلحين الغيارى حتى كللت مناضلته بتحقيق ضالته ولم تزل المدرسة التي أسسها من أحسن المعاهد العلمية القائمة بتثقيف شباب الأمة على اختلاف نحلهم ومللهم، وكان رحمه الله أول عميد تعهد القيام بشؤونها بكل أمانة وإخلاص ولم يصبه من جراء ما أسداه في سبيلها من الخدمات أدنى فتور أو سأم، وقد تخرج عليه مئات من الشباب المهذب ومنهم من أشغال مناصب مهمة خطيرة في إدارة البلاد في وظائف حكومية مختلفة والحق يقال إن للمرحوم أيادي بيضاء على كثير من رجال هذا الجيل على اختلاف مكانتهم، ومن أعماله المبرورة ومساعيه المشكورة

إقناع الحكومة العثمانية بإلغاء رسوم الدفنية عن جنائز العراقيين التي تدفن في وادي النجف المبارك، وبذل المال في تعمير المساجد والمعاهد في السر والعلن إلى أمثال ذلك من المساعي الخيرية التي قام بها في طي الخفاء.

وظائفه بعد الاحتلال وفي عهد الحكم الوطني:

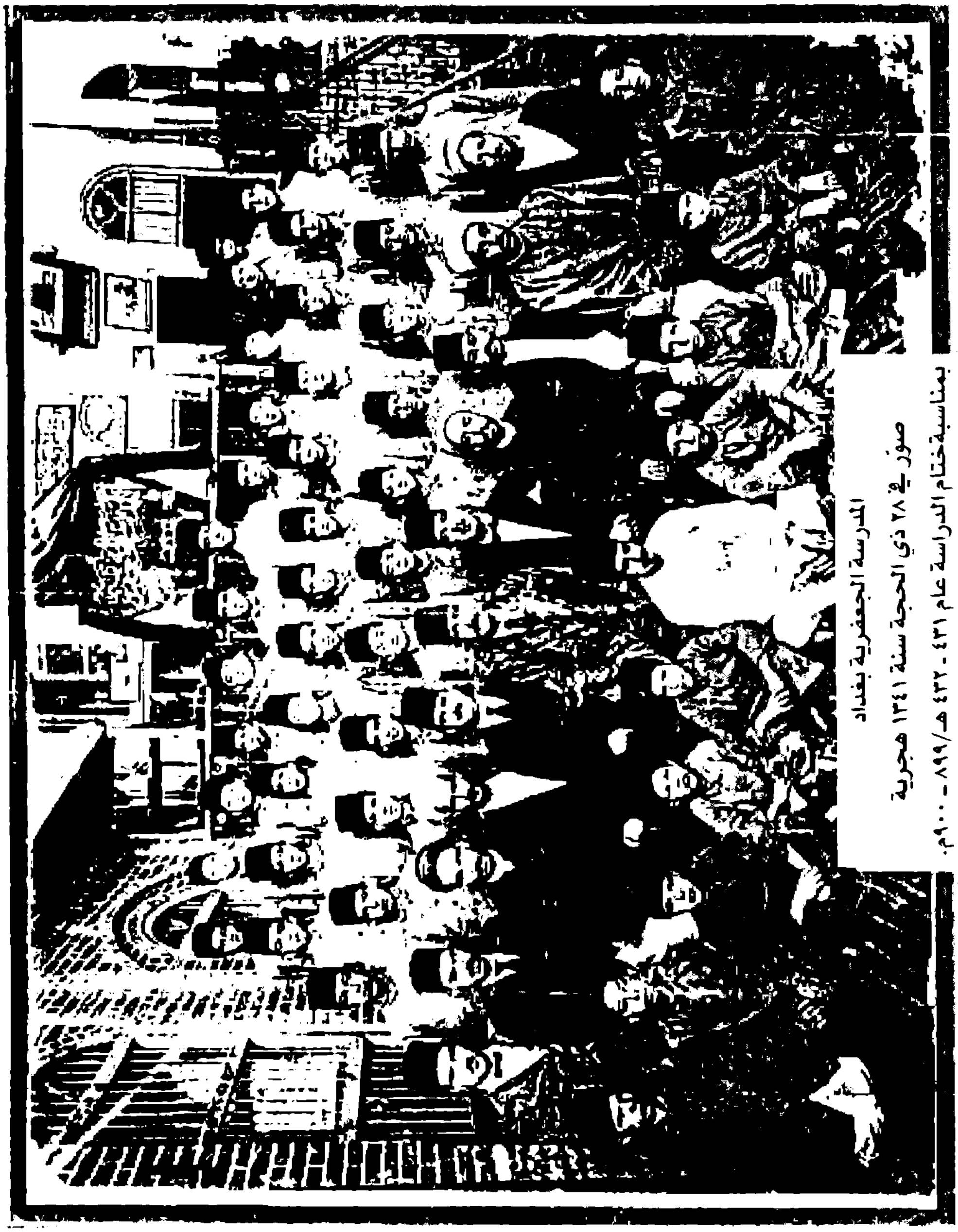
لقد أشغل على اثر الاحتلال منصب القضاء الجعفري عند تأسيس المحاكم الشرعية الجعفرية وهي أول من أقدم على هذا المنصب الخطير من علماء الإمامية فقام بأعباء هذه الوظيفة خير قيام وبجدارة فائقة وكان مثال النزاهة والاستقامة، كيف لا وهو ابن بجدتها وقد أعطى القوس باريها، ثم رفع في عهد الحكم الوطني إلى رئاسة مجلس التمييز الشرعي الجعفري وبعد أن قضى في هذا المنصب أمداً من الزمن استقال منه لأنه آثر الانزواء والانصراف إلى خدمة العلم وطلابه، كما كان قبل تقلد منصب القضاء..

فضائله الأخلاقية:

كان رحمه الله مثلاً عالياً للاخلاق الفاضلة حسن السيرة، طيب العشرة، دمث الأخلاق عفيف المئزر. طاهر الذيل. مطمئن النفس هادئ الخاطر، يتواضع للصغير والكبير. مع سمو نفسه. وعظم قدره. لا يعرف الغضب ويكره الكبرياء وأهلها ومن أبرز خصائصه النفسية الحلم وسعة الصدر وصلابة الرأي في نصرة الحق. كثير الصمت إلا في ساعة الدرس والمحاضرة. وكان يجالس الفقراء وهو من صدور الأغنياء ولا يختلف على مجالس الأمراء، وقد آثر الانزواء في عقر داره أو في صحن مسجد (الزركشي) في محلة الشواكة من جانب الكرخ وقد قام المترجم رحمه الله في تجديد عمنارته وحوله حلقات متعددة من التلاميذ يعترفون من ينبوع معرفته الفياض ويدفعه تواضعه أحياناً إلى مجالسة العطارين في وسط السوق وجلهم ممن تغذوا بلبان عرفانه وفضله.

وقد ترك رحمه الله إلى جانب ثروته مكتبة غنية قيمة على أننا لم نسمع منه بأنه قد حرر من علومه الجمة شيئاً ولعلنا نقع على بعض آثاره في المستقبل في ثنايا خزانته لأنه كان لا يحب الشهرة والظهور فيما يقوم به رغم أنه كرس حياته من زهرة شبابه إلى آخر أيام شيخوخته على خدمة الفضائل العالية وتنميتها في نفوس مريديه وطلابه ولمثل هذا فليعمل العاملون.

❖ ❖ ❖



المدرسة الجعفرية بغداد
صور في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٤١ هجرية
بمناسبة ختام الدراسة عام ٤٣١ . ٤٣٢ هـ/٨٩٩ ـ ٩٠٠م.

المدرسة الجعفرية في بغداد

✍ عادل حبه

من منّا لا يتذكر أسماء لمدارس لامعة حفظتها ذاكرة بغداد، كانت مراكز للتعليم أسهمت في تخريج وإعداد شخصيات وطنية لامعة ومرموقة، تبوأت أماكن بارزة في الحياة العراقية، وأقصد بها المدرسة الجعفرية الأهلية التي تأسست عام ١٩٠٨، والمدرسة المركزية التي تأسست عام ١٩١٨ ومدرسة التفيّض الأهلية التي تأسست عام ١٩١٩، ومن المعلوم أن التعليم في العراق في العهد العثماني كان يعتمد على الكتاتيب والتعليم الديني، إلا أن الدولة العثمانية بعد أن أدركت حاجتها لموظفين يديرون مصالح البلاد والعباد في دوائرها تتوسع كما كانت تدرك الحاجة إلى تأسيس جيش قوي يقف بوجه أعدائها المتربصين من الأوربيين الطامعين في غزو وإسقاط الدولة العثمانية. من هذا المنطلق اتجهت الدولة العثمانية أواسط القرن التاسع عشر وأواخره إلى إنشاء مدارس عسكرية في الأستانة يلتحق بها الشبان العراقيون الذين ينالون الثانوية أو المتوسطة لتخريجهم ضباطاً في الجيش العثماني.

إلا أن الاهتمام كان مقصوداً في أول الأمر أيضاً على العاصمة التي شهدت سنة ١٨٤٧م الشروع بتأسيس عدد من المدارس المدنية الحديثة التي كانت تسمى بالمدارس الرشادية، نسبة لمحمد رشاد، وهي المدارس التي تتوسط المراحل الثلاث للدراسة المدنية التي تسبق الدراسة الجامعية.

وحين احتلت بريطانيا العراق ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أدرك الانكليز حاجة البلاد إلى مدارس متطورة للتعليم لتخريج من يصلحون لمسك الوظائف العامة والمناصب العسكرية.

وكانت الإدارة الإنكليزية للعراق تواجه مشكلة قلة عدد الطلبة أو الراغبين في الدخول للمدارس للتعليم ولم تجد سوى عدد قليل من الطلبة الذين تمكنوا من استئناف دروس الصفوف العليا، فضلاً عن مشكلة استبدال لغة التعليم من التركية إلى العربية ـ أوائل المدارس التي تأسست في بغداد في العصر الحديث وهي ثلاث مدارس كالآتي:

أ ـ المدرسة الجعفرية الأهلية عام ١٩٠٨م.

ب ـ المدرسة المركزية عام ١٩١٨ م.

ج ـ مدرسة التفيض الأهلية عام ١٩١٩م.

لمحات عن تأسيس مدرسة الجعفرية في بغداد:

كانت لمجموعة متنورة من محلة صبابيغ الآل وما جاورها في بغداد نظرة سديدة وسعة تفكير إلى آفاق الارتشاف من مناهل العلم والمعرفة، وكان في مقدمة هؤلاء جعفر أبو التمن، علي البازركان، مهدي الخياط، علي العيني، واستطاعت هذه المجموعة أن تقنع الحاج سلمان أبو التمن الذي أقنع بدوره والده الحاج داود أبو التمن بتأسيس مدرسة لتعليم الأولاد.

وهناك قصة يرويها علي البازركان عن خيانة أحد اليهود الذي كان يعمل عند أحد التجار المسلمين، الحاج جعفر أبو التمن، مما دعا البازركان الذي كان صديقاً لهذا التاجر أن يطرح عليه فكرة، إنشاء مدرسة للمسلمين يحلّ خريجوها محل هؤلاء اليهود في إدارة أعمال المسلمين..

وبعد موافقة السلطات العثمانية ممثلة بوالي الولاية تم فتح المدرسة عام ١٩٠٨م وكان كادرها الإداري مؤلفاً من الشيخ شكر الله مديراً للمدرسة وعلي البازركان معاونا ورؤوف القطان مفتشاً.. وقد توسع كادرها الإداري عام ١٩٠٩م، وصارت بعد ذلك مدرسة مسائية لتعليم الأميين، وكانت تدعى في العهد العثماني مدرسة الترقي الجعفري العثماني..

وقد أيّد فكرة تأسيس المدرسة الجعفرية الشاعر محمد سعيد الحبوبي.

بعد أن أخذت مشورته و ألتحق بالمدرسة ٢٠٠ طالب عند افتتاحها توزّعوا على الصفين الأولين لمرحلة الدراسة الابتدائية والرشدية، التي كانت تضمهما معاً، وهذه المدرسة حين شروعها بدأت بالعمل، وقد توسعت المدرسة وأصبحت تحتوي بعد أربعة أعوام من افتتاحها على مرحلة الدراسة الإعدادية علاوة على المرحلتين السابقتين النجار، ص ٣٨٧، وكان للمدرسة الجعفرية والتفيض هيئتان إداريتان الأولى تمارس التخطيط الإداري عن بعد والثانية تنسق الأعمال الإدارية فيما يخص شؤون المدرسة كالطلاب والدروس وتنظيم الدوام ... الخ، ولابد من الإشارة إلى أن المدرسة الجعفرية الأهلية منذ افتتاحها قد فتحت ذراعيها للطلاب والمدرسين من مختلف القوميات والأديان والمذاهب وإنما سميت بالجعفرية ليس نسبة إلى طائفة الجعفرية الإسلامية وإنما نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ع الذي أسس جامعة إسلامية علمية في بغداد إبان العصر العباسي وهذا ما وضّحه القائمون للعثمانيين حين تقدموا بالطلب لفتحها. وضع العثمانيون علامة استفهام على اسم المدرسة، لكن سرعان ما وافقوا على التسمية وفتح المدرسة وكان النظام المعمول به في مدرسة الجعفرية الأهلية هو النظام الذي وضعته الهيأة التأسيسية للمدرسة سنة ١٩٢٢، وظل معمولاً به حتى سنة ١٩٢٩م، حيث قررت الهيئة التأسيسية لهذه السنة وضع نظام خاص تصادق عليه وزارة الداخلية، وقد وافقت الوزارة عليه وطبع بمطبعة المعارف سنة ١٩٣٠م.

من النشاط الوطني للمدرسة في عهد الاحتلال البريطاني:

امتدّ نشاط المدرسة الوطني طوال الحكم الملكي ١٩٢٠ـ ١٩٥٨، ومن نشاط هذه المدرسة قصيدة أعدها الشاعر محمد مهدي البصير بمناسبة إقامة المدرسة الجعفرية حفلة لتوزيع الجوائز على المتفوقين عام ١٩٢٠م وقد عدت الأوساط الوطنية هذه القصيدة في حينها جواباً على تصريحات حاكم بغداد العسكري الذي كان استدعى البصير وثلاثة من رفاقه، بينهم المرحوم جعفر جلبي أبو التمن إلى مكتبه وقال لهم أنه يعدهم مسؤولين عن حوادث الليلة الماضية يريد تظاهرة ٧ رمضان سنة ١٩٢٠م... إن هذه القصيدة كانت بين المستمسكات التي أبرزها القاضي البريطاني المنفرد الذي تولّى مقاضاة البصير في ربيع سنة ١٩٢٠م الذي كان يتمتع بسلطة مدع عام وقاضٍ في وقت واحد، وقد حكم هذا القاضي على البصير بالحبس الشديد لمدة سنتين، وبدفع غرامه قدرها ثلاث آلاف روبية.. إلاّ أن المندوب السامي الذي أحيل إليه هذا الحكم للمصادقة استبدل به بالحبس الشديد مدة سنة واحدة، ومما جاء في قصيدة البصير:

إن عُدْتَ غريباً فلعلّك ذاكرٌ
فيَّاتَ أهلَ الغربِ ظِلَّ حضارةِ
لكنهم كفرُوا بنعمتكِ التي
عهداً نَعِمْتَ به وأنتَ عراقي
ضَرَبَتْ على العيّوقِ ايَّ رواقِ
جلّتْ فلجُّوا في عمى وشقاق

من الأساتذة المربين الرواد في المدرسة الجعفرية:

منهم على البازركان الباحث والشخصية الوطنية والمربي الشهير، وصادق الملائكة والد رائدة الشعر العربي الحر الحديث نازك الملائكة ويوسف سلمان كبه باحث وأديب وحقوقي وإداري له كتاب الحياة في لندن سنة ١٩٥٠م، ونوري ثابت صاحب جريدة حبزبوز الفكاهية وكان ناقداً اجتماعياً وسياسياً من طراز متفرد، وغيرهم كثير كثير.

شكر الله بن احمد أول مدير للمدرسة الجعفرية عام ١٩١٨م.

هو الشيخ شكر الله بن أحمد بن شكر البغدادي من علماء الإمامية الأجلاء بالكرخ ولد عام ١٨٥٦م، وأتم دراسته العلمية على علماء الكاظمية والنجف، وعاش على موارد أمواله الواسعة، ولمّا أُسّست المدرسة الجعفرية في بغداد ١٩٠٨م في العهد العثماني بهمة الغيارى وفي مقدمتهم علي البازركان كان الشيخ شكر أول مدير لإدارتها ومدرس فيها، والبازركان معاونه لها، تولّى الشيخ شكر هيأتها المؤسسة لها سنة ١٩١٨، إذ اختاره الحاكم

الملكي العام أرنولد ويلسون لتولي القضاء الجعفري ببغداد بجانبيه الرصافة والكرخ بصفة النائب الأول لقاضي بغداد وكان خير من نهض بها، وكان موضع ثقة واعتماد على الانضمام لهيئتها التدريسية المسائية، وفي أول نيسان عام ١٩٢٠م تبرع بالتدريس في المدرسة مجاناً وبكل اعتزاز توفى عام ١٩٣٨م.

من الإعلام الذين درسوا في المدرسة الجعفرية أو تخرجوا فيها ومن ابرز مدرسيها:

المدرسون: محمد رضا الفتال، ملا مصطفى، عبد الستار الشيخلي، صادق الملائكة، سامي خونده، نوري ثابت، الشيخ جواد الزنجاني، كاظم شكاوه. عزيز البغدادي، احمد مدحت، ناصر عوني.

من الإعلام الذين دَرَسوا في المدرسة الجعفرية أو تخرّجوا فيها:

١ - أحمد فياض المفرجي: كاتب مسرحي، أديب، من مؤلفاته الحركة المسرحية في العراق صدر عام ١٩٦٥ والمرأة في الشعر الحديث، صدر في بغداد عام ١٩٨٥م، أسس وأدار المسرح الوثائقي للمسرح في بغداد، عمل في التمثيل.

٢ - أحمد زكي الخياط: أديب، حقوقي، من مؤلفاته، تاريخ المحاماة في العراق، صدر في بغداد، ١٩٧٣م، تقلّد منصب متصرف لواء الكوت، الحلة، كربلاء من مؤلفاته تاريخ المحاماة في العراق ١٩٠٠-١٩٧٢.

٣ - جعفر الخياط: باحث ومترجم وماجستير علوم، كان مدير التعليم الثانوي المهني العام، من أشهر ما ترجم كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث للمستر همس ليستيفنس نلونكريك

٤ - جعفر حمندي: حقوقي، متصرف، استورز للمعارف والشؤون الاجتماعية من مؤسسي جمعية الشبيبة السرية العراقية ١٩٠٨م، وكان نائبا لعدة مرات..

٥ - جليل شعبان: شاعر، حقوقي، مصرفي له ديوان مطبوع بين الأرز والنخيل، وهو من روّاد المجالس الثقافية البغدادية حالياً.

٦ - عبد الحميد مهدي: حقوقي، مفتش عدلي، حقق في المعلومات بأمر مجلس الوزراء، في إطلاق النار على المتظاهرين في وثبة كانون ١٩٤٨م لحصر المسؤولية.

٧ - حسين المؤمن: درس الابتدائية والمتوسطة في الجعفرية وأتم الثانوية في المركزية، كاتب، حقوقي، تقلّد عدة مناصب، ومن مؤلفاته القواعد العامة والإقرار واليمين، ج١، ونظرية الإثبات.

٨ - ذيبان الغبان: ناشط سياسي، نائب في مجلس النواب، وقّع نصوص الإصلاح الوطني لمطالبة الحكومة بالإصلاح، انتمى إلى جمعية الشبيبة السرية العراقية عام ١٩٠٨م.

٩ - رؤوف البحراني: حقوقي ومن وزراء المالية البارزين في عام ١٩٣٥م، امتهن التجارة، درّس في المدرسة الجعفرية مساء تطوعاً.

١٠ - صادق البصام: من مؤسسي جمعية الشبيبة السرية، أسهم في تأليب الرأي العام ضد الاحتلال البريطاني، نائب لعدة دورات، شغل وزارات عديدة منها المعارف، وله دور مؤثر في الجمعيات السياسية.

١١ - صالح جبر: رئيس وزراء العراق، بدأت دراسته بالجعفرية وهو قاضٍ نائب عين، وزير داخلية عقد معاهدة بورتسمورث التي أثارت ضجة في أواسط الشعب العراقي عام ١٩٤٨م، مما أدّى إلى استقالته.

١٢ - عباس مهدي: ناشط سياسي، تولّى وزارات عديدة منها المعارف، الاقتصاد، المواصلات، المالية، الخارجية، تولّى رئاسة الديوان الملكي، أول وزير مفوض عراقي في الإتحاد السوفيتي سابقاً، من مؤسسي جمعية الشبيبة السرية العراقية.

١٣ - عبد الرزاق الأزري: عضو في جمعية حرس الاستقلال، حقوقي، نائب لعدة مرات وكان عيناً في مجلس الأعيان.

١٤ - عبد الأمير علاوي: رائد من رواد طب الأسنان في العراق، أستاذ في الكلية الطبية، وزير للصحة عام ١٩٥٣م، أسهم في وضع خطط مدينة الطب، ساعد في تشريع قانون التدرج الطبي، له كتاب منهجي بالاشتراك مع د. عبد الله القصير بعنوان دليل الطفل.

١٥ - عبود زلزلة: تربوي مصري، شغل منصب مدير مصارف في الحلة، مدير التعليم العام، وفي الستينات نقل إلى مفتش المعارف العام.

١٦ - علي الحيدري: شاعر عامودي شهير طرق أبواب الشعر كافة، موسوعي بالأنساب والتراث له موسوعة الغراف وكتاب الإمام جعفر الصادق ع، وغيرهما عنه رسالة ماجستير من حسن كاظم محمد شعر السيد علي الحيدري من الناحيتين المضمونية والنقدية.

١٧ - محمد حسن سلمان: أكمل دراسته الابتدائية بالجعفرية والمتوسطة في التفيض والثانوية في المركزية، طبيب متخصص في الأمراض السارية والصدرية، من أعضاء حزب الشعب عام ١٩٤١م، وزير للمعارف عام ١٩٤١م.

١٨ - مصطفى جواد: العلامة اللغوي والأديب والمؤرخ الموسوعي والأستاذ بجامعة بغداد، له مؤلفات عديدة ابتدأ الدراسة الابتدائية بالجعفرية، حقق الكثير من المعاجم العربية كلسان العرب والقاموس المحيط... واهتم بالتصحيح اللغوي لاسيما كتابه قل ولا تقل. ■



في مايس ١٩٢٢م السيد هبة الدين يزور ابتدائية الجعفرية للبنين في الكرادة الشرقية عندما كان وزيراً.

من أيـام بغـداد
(عام ١٩٣٢)

أمين سعيد[١]

في الساعة الثامنة من صباح الجمعة ٢٠ اكتوبر غادرت دمشق بالسيارة ميمما الزوراء في ركب لا يقل عدده عن الستين. والمسافة بين العاصمتين معظمها غامر وتبلغ ٨٧٥ كيلومتراً مترا ٢٥٠ في داخل سورية والباقي للعراق.

ولم يك طريق السيارة هذا معروفاً حتى سنة ١٩٢٣ ففي تلك السنة وبعد انتشار استعمال السيارات في أنحاء المعمورة تم للتاجر العربي الحاج محمد البسام افتتاحه فسار من دمشق حتى بغداد على سيارة خاصة ثم تتابع سير السيارات وانتظم الأمر تدريجياً كما سيأتي بيانه.

وتسير السيارات مرتين في الأسبوع فتغادر دمشق صباح الجمعة وصباح الثلاثاء وكذلك تغادر بغداد صباح الخميس وصباح الاثنين أي أن قوافلها تتحرك أربع مرات في كل اسبوع، وقد جرت العادة أن تغادر سيارتان مصفحتان عراقيتان في كل يوم من أيام سفر القوافل، الرطبة (إحدى المراكز العراقية في منطقة الحدود) فتأتي حتى التنف (خط الحدود بين سورية والعراق) فترابط فيه لحماية القافلة وكذلك تأتي سيارتان مصفحتان من (الضمير) داخل الحدود السورية حتى التنف فتجتمع السيارات الأربع: عراقيتان وفرنسويتان وتظل هناك حتى يتم مرور القافلة كلها فيعود كل فريق إلى مكانه.

ولا يكاد المسافر يبتعد ٣٨ كيلو متراً عن دمشق مشرقاً حتى ينقطع كل أثر للعمران ولا سيما بعد ما يجتاز نقطة أبي الشامات الواقعة في الكيلومتر السابع والستين وهي أول المخافر السورية من ناحية العراق وقد بنيت هذه النقطة حديثاً ويصلها بدمشق خط تليفوني وفيها قوة من رجال الدرك السوري عددها ١٢ جندياً يقودهم صف ضابط برتبة شاويش وفيها مكتب للجوازات وآخر للجمرك ويتولاه موظف فرنسوي وصيدلية للإسعاف، وهنالك سيارة للدرك لمطاردة قطاع الطرق إذا حدث حادث وفيها أيضاً ماء عذب يستقي منه رجال القوافل في غدوهم ورواحهم.

ويتبطن الركب القفر بعد مغادرته أبي الشامات فلا تقع العين على شجرة ولا نبات ولا حيوان بل ولا طائر حتى يبلغ مخفر "السبع أبيار" وهو على بعد ١٢٥ كيلومتراً من دمشق وفيه بئر ماء ارتوازي عمقه ١٠٣ مترا ومخفر للدرك ويرفرف عليه العلم الفرنسوي ويتصل بدمشق بالبرق اللاسلكي لعدم إمكان إنشاء خط تليفوني وعامل اللاسلكي فيه فرنسوي أيضاً،

---

(١) مؤلف كتاب ملوك المسلمين ودولهم، والثورة العربية الكبرى.

وقد تشاجر مع قائد المخفر السوري حينما أراد أن يمنعه من رفع العلم الفرنسي على المخفر قائلاً أن الأرض سورية فلا بد من رفع العلم السوري عليها، ولما أبلغ الأمر إلى قائد الدرك العام وهو فرنسوي أمر بنقل القائد من مكانه وأقر موظف اللاسلكي في تصرفه ويرفعون العلم الفرنسوي في تلك الصحراء بحجة أن إنشاء المخفر تم في عهد الفرنسويين.

ولا تقل السيارات عند نقطة السبع أبيار بل تواصل السير حتى تبلغ التتف وهو عبارة عن تلال في تلك الصحراء الواسعة ويبعد عن دمشق ٢٥٠ كيلومتراً إلى الشرق ولقد حاول الفرنسويون حفر بئر ارتوازي في هذا المكان تمهيداً لإنشاء مخفر فيه فلم يوفقوا فعدلوا عنه لأنه لا سبيل إلى إقامته إلا إذا توفر الماء كما هو الحال في أبي الشامات والسبع أبيار وتقطع السيارات ١٨٠ كيلومتراً بعد دخولها الحدود العراقية حتى تصل إلى "الرطبة" أول مخفر عراقي على الحدود السورية.

ويشعر المسافر العربي القادم من الغرب، شعوراً جديداً، هو شعور الغبطة والارتياح حينما يطأ أرض العراق ويشاهد العلم العراقي يرفرف على الرطبة ويشاهد موظفيها وجميعهم من الشبان العراقيين وجميع المعاملات تجري باللغة العربية بعكس ما هو الحال في سورية فالمعاملات في مكتب الجوازات وفي الجمرك تتم باللغة الفرنسوية وفي فلسطين باللغة الإنكليزية والموظفون هنا يهود أو انكليز وهنالك فرنسويون أو متفرنسون.

ونقطة الرطبة أنشأها العراقيون سنة ١٩٢٦ أي بعد افتتاح طريق القوافل، وهي فسيحة واسعة، بعكس نقطة أبي الشامات، وهي متصلة ببغداد بخط تليفوني والمسافة بينهما ٤٤٥ كيلومتراً، وفيها محطة لاسلكية يديرها شاب عراقي، وفيها أيضاً محطة للطيران وفيها فندق ومطعم يقدم الطعام للمسافرين وثمن الوجبة الواحدة نصف جنيه ومعظم زبائنه من الأجانب.

وفي الرطبة أيضاً مكتب للبريد والبرق العراقي ومكتب للجمرك وآخر لجوازات السفر ومستشفى يديره طبيب عراقي، وحرس عسكري لحماية الطريق، ويقدم البدو من سكانها الشاي والماء لرجال القوافل في غدوهم ورواحهم بأثمان معتدلة.

وتعشينا في الرطبة واسترحنا قليلاً وطفنا المخفر أو القلعة وشاهدنا مكتب البرق اللاسلكي ثم سرينا نقصد بغداد في ذلك الليل والطبيعة ساكنة هادئة، وليس أجمل من ليل الصحراء، ومن نجومه اللوامع، تضيء للمسافر مسالكه، وتنير سبيله.

وبلغنا الرمادي عند الشروق والمسافة بينها وبين الرطبة ٣٣٠ كيلومتراً والرمادي مقر متصرفية الدليم.

وتسقى أراضي الدليم ترعة من روافد الفرات ويمر بقربها وتحيط بها آجام النخيل الباسقات تبدو عن بعد فيستبشر بها المسافر ويشم ريح الحضارة بعدما يكون قضى ٢٠ ساعة

في الصحراء لم تقع عينه في خلالها على أثر للعمران إذا استثنينا نقطة الرطبة. وتبعد الرمادي عن بغداد ١١٥ كيلومتراً وفيها فندق اسمه "بابل" يديره عراقي وفيها مكتب لجوازات السفر وللجمرك وللبريد والبرق ومستشفى.

وواصلت السيارات سفرها بعد ما استراح الركب فسارت نحو ٢٠ كيلومتراً بين الحقول والرياض الخضراء حتى نهر الفرات فحاذته وسارت على ضفته الغربية بين المروج والرياض الخضراء وغابات النخيل حتى الفلوجة[١] وهي على مسافة ٦٥ كيلومتراً من الرمادي فعبرت الفرات على جسر حديدي ضخم (كوبري) أنشئ سنة ١٣٥٠هـ في عهد فيصل ثم واصلت السير حتى بغداد، والمسافة بينهما ٥٠ كيلومتراً ٢٠ كيلومتراً غامرة تنتهي عند نجع عربي فيه نقطة للدرك أطلقوا عليه اسم الشيخ ضاري ويريدون به الشيخ ضاري المحمود أحد أبطال الثورة العراقية وهو قاتل الكولونيل لنجمن البريطاني وقد مات في السجن سنة ١٩٢٨ فخلدوا اسمه بإطلاقه على المكان الذي وقعت فيه الواقعة بينه وبين الإنكليز.

ويشاهد المسافر في هذه المنطقة أعمالاً إنشائية تعمل هنا وهناك تمهيداً لمشروعات الري الكبرى التي قررت الحكومة البدء بها ويطلق عليها اسم الحبانية وتطل بغداد من وراء الأفق بمآذن مسجد الكاظمية وقبابه الذهبية وهي تشع لمعاناً يبهر الأنظار وبآجام النخيل الباسقات الخضراء.

وفي هذه المنطقة أيضا أنشأ المغفور له جلالة الملك فيصل مزرعة الحارثية لتكون حقل زراعة نموذجي تطبق فيه قواعد الزراعة الحديثة وغرس الأشجار على اختلاف أنواعها ولا يقل عددها عن ٤٠ ألفاً جاء بها من مختلف الأقطار كما غرس شجر الكابيتوس على أطرافها لتحسين المناخ.

ولما بلغ جسر الخر وهو على ٥ كيلومترات من بغداد استقبلنا فريق من طلاب المدارس يهتفون للوحدة العربية، وقابلنا حينما بلغنا المطار المدني الجديد، وفيه مصلحة الجمارك وبقربه محطة سكة الحديد بعض المستقبلين وفي مقدمتهم فيلسوف العراق جميل صدقي الزهاوي، وممثل الحكومة العراقية الشاب النبيل توفيق بك السعدون تشريفاتي وزارة الخارجية، والأستاذ ابراهيم حلمي العمر مدير مطبوعات العرق وأديبه الأشهر وبعد السلام والتعارف امتطينا سيارة فاجتزنا شارع الملك فيصل وفي وسطه أقيم تمثاله بلباسه العربي وقد اتجه نحو الغرب مشيراً إلى البحر الأبيض وبلاد العرب فاجتزنا دجلة إلى فندق مود فألقينا عصا التسيار. ■

---

(١) الفلوجة هي الأنبار المعروفة في التاريخ الإسلامي وتقوم على ضفة الفرات اليسرى وعمرانها حديث وكانت مخزن المؤن لجيوش فارس قبل الإسلام.



الملك فيصل الاول.



الملك فيصل الاول.



الملك فيصل الاول.



الملك فيصل الأول مع اخيه الامير عبدالله.



الأمير علي
شقيق الملك فيصل الأول.



جلالة الملك غازي الأول
نجل الملك فيصل الأول.



الملك فيصل الأول في القاهرة.

عرج جلالة فيصل في عودته من انجلترا إلى العراق على مصر فلقي ترحيباً عظيماً من جلالة الملك فؤاد وجميع طبقات الشعب. ويرى جلالته في الصورة (اليمين) عند خروجه من محطة القاهرة وإلى جانبه المندوب السامي اللورد لويس. ويرى في الصورة اليسرى وهو يبتسم ويودع مندوب جلالة الملك. وقد سافر جلالته على طيارة إلى العراق (تصوير زخاري)



ملك العراق غازي بن الملك فيصل الأول (١٩٢٢-١٩٢٩م) صورة له بالزي الملكي في مكتبه



الملك غازي (طياراً) يقف إلى جانب طائرته بملابس وحدة الطيران.



من اليمين: ١- الأميرة جليلة ٢- الملك غازي ٣- الملكة نفيسة (جالسة على السيارة) ٤- الأميرة بديعة التقطت الصورة لهم الملكة عالية (زوجة الملك غازي) تل الملح قرب بغداد ١٩٣٥م



الملك غازي بالزي العسكري وشارة الطيران على صدره



الملكة عالية بنت الملك علي بن الحسين

في بغداد على ضريح الملك فيصل

قضى رجال الوفود ليلة الأحد في فنادقهم يستقبلون زائريهم من رجال العراق الأكارم الذين وفدوا للترحيب بهم، وفي صباح الأحد تجمعوا وساروا إلى ضريح المغفور له جلالة الملك فيصل قرأوا الفاتحة ونثروا عليه الزهور ووضعوا الأكاليل، وقد وضعت إكليلاً باسم سوريي مصر.

وزار صاحب الدولة رشيد عالي بك الكيلاني رئيس الوزارة العراقية وبعض أعضاء وزارته رجال الوفود في أماكنهم مساء الأحد فاستقبل وودع بالحفاوة الزائدة.

وفي صباح الاثنين انطلق رجال الوفود إلى البلاط الملكي للتشرف بمقابلة جلالة الملك غازي والسلام عليه فسجلوا أسماءهم في سجل التشريفات ثم قصدوا الجناح الخاص بالحفلات والمراسم وكانوا يدخلون على جلالته بحسب بلدانهم وكان وفد بيروت أول داخل وتبعته الوفود الأخرى. فكانوا يقدمون لجلالته بأسمائهم فيصافحهم واحداً واحداً ثم يلقى عليهم الآية الذهبية الآتية:

"يجب عليكم أن تتحدوا وأن تكونوا يداً واحدة في خدمة أوطانكم. وسأسير على خطة المرحوم والدي وأعمل للقضية العربية كما عمل.

"لا يوجد هنا عراقي ولا سوري ولا فلسطيني بل كلنا عرب نعمل لخير العرب".

وزار الرجال الوفود بعد ذلك مجتمعين ضريح جلالة الملك فيصل ثانية وقرأوا الفاتحة وتعاهدوا وهم خشع على العمل لتحقيق الوحدة العربية وخطب بعضهم.

في دار البرلمان:

وزار رجال الوفود بعد ذلك دار البرلمان العراقي وهي قرب الضريح فرحب بهم السيد محمد الصدر رئيس مجلس الشيوخ أجمل ترحيب وحياهم تحية طيبة فتكلم خطباؤهم مشيدين بما بين العراق وسورية من روابط ونادوا بوجوب العمل لتوحيد القطرين في ظل التاج الهاشمي فشكر لهم هذه العاطفة وقال إن هذه أمنية العراقيين وأنهم سيسيرون على نهج الملك فيصل.

ثم زاروا جميل بك المدفعي رئيس مجلس النواب (وزير الدفاع اليوم) فرحب بهم فنقر خطباؤهم على نغمة الاتحاد فأجابهم أن العراق لا ينسى الواجب عليه للبلاد العربية وقال إن بينكم كثيرين اشتركوا معنا في الثورة العربية وقاتلوا لإنقاذ العرب ولئن كانت الوسيلة التي جمعتنا الآن مؤلمة إلا أنها لا تخلو من فوائد فنجتمع ونتعارف ويجب أن تعلموا بأننا نحن الذين عملنا تحت راية الملك فيصل سنواصل العمل أيضاً ضمن الدائرة التي رسمها لنا".

❖ ❖ ❖

وهذه أسماء أعضاء الوفود وبلدانهم:

وفد بيروت: سليم بك علي سلام. عمر بك الداعوق. عمر بك بيهم. الأستاذ بشارة الخوري. سليم أفندي صعب. محيي الدين أفندي النصولي. تقي بك الصلح. علي أفندي ناصر الدين. يوسف أفندي يزبك. صلاح الدين أفندي اللبابيدي.

وفد جبل عامل: الشيخ أحمد رضا. الشيخ سليمان ضاهر. الشيخ أحمد عارف الزين. الدكتور مصطفى خليفة.

وفد جبل الدروز: الأمير حسن الأطرش، متعب بك الأطرش، علي بك المصطفى الأطرش.

وفد دمشق: الشيخ محمد الأسمر. فخري بك البارودي. الحاج أحمد أديب خير. الدكتور عبد الرزاق الدندشي. صبري العسلي. أبو الهدى اليافي. شفيق سليمان. عرفان الجلاد. جميل الجابي. نجيب الريس. تيسير ظبيان. عمر الطيبي. منير الريس. الدكتور مسلم البارودي. الدكتور سيف الدين الطباخ. الدكتور عبد القادر سرى. الصيدلي حسني الهبل.

وفد اللاذقية: الأستاذ رشاد رويحة.

وفد حماه: الشيخ عبد القادر الكيلاني. الصيدلي محمد قنباز. سعيد أفندي الترمانيني.

وفد حمص: نديم الموصلي. يحيى خانكان.

وفد شرقي الأردن: عادل بك العظمة. الأستاذ محمد الشريقي. الدكتور صبحي أبو غنيمة. عمر أفندي الحمود.

وفد فلسطين: الأستاذ الشيخ سليمان التاجي الفاروقي. نبيه بك العظمة. عبد الحميد أفندي شومان. خالد أفندي الفرخ. الأستاذ أكرم زعيتر. بدر الدين الخطيب.

❖ ❖ ❖

حفلة التأبين الكبرى:

مشت بغداد اليوم (الثلاثاء ٢٤ أكتوبر) إلى ميدان الكشافة أمام البلاط الملكي الواقع في الضاحية على طريق الأعظمية (مدفن الإمام الأعظم أبي حنيفة وإليه تنسب وتبعد عن بغداد نحو خمسة كيلومترات وقد أنشأت الحكومة الجديدة بينهما شارعاً متسعاً وعلى جانبيه الأبنية على الطراز الجديد) فملأوا جوانب الطريق حتى تعذر السير فيه على السيارات والمركبات.

ونصبت الرايات السوداء، على الواجهة الخارجية للملعب واشتد الزحام حوله وأعد الملعب وقسم تقسيماً موافقاً، فوضعوا منبراً للخطابة تجاه مقصورة جلالة الملك وجلس رجال

الوفود على المدرج الواقع إلى يسار الشرفة وبينهما ممثلو الدول وقناصلها وجلس المدعوون من العراقيين بين الشرفة ومنبر الخطابة.

واشتركت المرأة العراقية في هذه الحفلة فغص جناح السيدات بهن وجللوا منبر الخطابة بالسواد ونصبوا فوقه صورة الملك الفقيد مجللة بالسواد ووضعوا مكبرات الصوت في جوانب الملعب فسمع أبناء الشعب الذين ازدحموا في الأماكن القريبة وقدر عددهم بالألوف كل ما قيل في الحفلة.

وقبل الساعة الرابعة وصل جلالة الملك غازي يحف به رجال دولته وأقطاب حكومته يتقدمهم السيد محمد الصدر رئيس مجلس الشيوخ فرئيس مجلس الوزراء فرئيس مجلس النواب فالوزراء ورجال الديوان فاستقبل الناس فتى قريش وقوفاً فسار إلى مقصورته وجلس في مكانه.

وافتتحت الحفلة بعشر من القرآن الكريم ثم تليت البرقية الواردة من صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري.

وألقى أحد أعضاء لجنة التأبين كلمتها ثم وقف معروف الرصافي شاعر العراق بلباسه البدوي وأنشد مرثاة بليغة.

وتلاه وجيه بيروت الكبير سليم بك علي سلام فألقى خطبة جدد فيها البيعة لجلالة الملك غازي. ثم خطب الأستاذ صبري العسلي باسم شبان دمشق وأنشد شاعر لبنان الأستاذ بشارة الخوري قصيدته فكانت درة الحفلة وقد نالت الاستحسان العام ومطلعها:

لبست بعدك السواد العواصم   واستقلت لك الدموع المآتم

وتتابع الخطباء والشعراء فخطب الشيخان أحمد عارف الزين والشيخ أحمد رضا باسم جبل عامل فجددا البيعة أيضاً وأعلنا أنهما لا يعترفان بهذه الحواجز بين الشام والعراق وخطب الأمير حسن الأطرش أمير جبل الدروز فجدد بيعة بني معروف لجلالة الملك غازي وأنشد فخري بك البارودي قصيدة كما خطب الأستاذ نجيب الريس في اتحاد القطرين وتكلم الدكتور صبحي أبو غنيمة باسم شرقي الأردن وتكلم الأستاذ أكرم زعيتر والأستاذ الشيخ سليمان التاجي الفاروقي باسم فلسطين وخطب الأستاذ علي ناصر الدين باسم شباب العرب وأنشد الأستاذ محمد الشريقي قصيدة طيبة وخطب الأستاذ عبد الرازق الداندشي باسم لجنة التأبين في دمشق فدعا إلى اتحاد القطرين وأنشد الحاج عبد الحسين الأزري قصيدة، وكانت مسك الختام قصيدة فيلسوف العراق الزهاوي وقد ألقاها وهو جالس وانتهت الحفلة في الساعة ٦:١٥.

❖ ❖ ❖

وتلقت لجنة التأبين مئات من البرقيات والخطب والقصائد حال ضيق الوقت وكثرتها وتعددها دون إلقائها فنشرتها جريدة الأخاء الوطني ووزعتها في ملحق خاص في أثناء حفلة التأبين وفي مقدمتها كلمة الكبير الدكتور شهبندر وهذا نصا:

يا إخواني. يا أبناء عمي وخالي:

ليت هذه الأيدي التي نحاول بها تصوير ما في أعماق النفس من الأسى على فقيد العرب تنقلب أجنحة فنطير بها إلى دار السلام مقر الجثمان الطاهر، لتشاطركم ذكرى الراحل العظيم. ولئن حالت دون وصولنا إليكم الحوائل فها هي أرواحنا معكم وما يثور في أنفسكم من الجزع والألم هو نفس ما يثور في أنفسنا وما تشعرون به من الخسارة الجسيمة، والكارثة الأليمة، هو نفس ما نشعر به ولكنكم عندكم من أسباب العزاء ما ليس عندنا ففي العراق خلف للمليك الراحل، مليك نابه يعزيكم ويخفف من بلواكم، وأما نحن فعلى جمر الغضا نتوقع أخباركم ونتتبع أطواركم ويزيد في حزننا بعدنا عنكم، ولكن لا.. لا.. إذ ليس في بلدان العالم العربي لأمثالنا شعور بالوحدة أو الوحشة لأننا حيثما نزلنا ننزل بين الأهل والخلان وهم ممن يحملون عهد العروبة المقدس في صدورهم، يشاركونكم في هذا المصاب الجلل مشاركة المكلومين ففي كل قلب من مرارته لوعة وضنى (وفي كل دار رنة وزفير).

ايه يا أبناء العراق ويا أحفاد من رفعوا رأس العروبة عالياً وساهموا في الحضارة والثقافة بأوفر نصيب: سيروا على النهج الذي رسمته أنامل المليك الراحل تحت لواء شبله المتحفز لنصرة الحق فقد عقدنا عليه وعلى العاملين من إخوانه منا لذين تخرجوا في المعهد الفيصلي أكبر أمل وبنينا أفخم الرجاء، واجتماع كلمتكم وتوحيد جهودكم لتأييد قضية ذاب فيها فيصل بن الحسين كما تذوب الشمعة تنير ظلمة الليل، هو العمل الذي يؤنسه في وحشته ويصب شآبيب الانتعاش على لحده.

لقد وضع المليك الراحل نصب عينيه حياة العرب مبتدئاً بالعراق فسار والتوفيق يلازمه مرحلة مرحلة كما تسير الطبيعة في شؤونها وتدرجها، وما أغمض عينيه حتى رآكم في مأمن من الأخطار التي كانت تتهددكم يوم كنا نذكركم فتكاد تهلع قلوبنا لما كنتم تقاسونه فاذكروا إخوانكم وأنتم في السهل كما كانوا يذكرونكم وأنتم في الوعر، ولا تنسوا عهودكم المقدسة نحو القطر الشقيق الذي لا تعيشون إلا به ولا يعيش الأ بكم، والأمم مثل الأفراد تحيا بالأمل وتعلو بسمو الغاية التي تنشدها، وليس إلى قلوبنا معاشر العرب من بعد ما اطمأنت إلى إيمان الحق سبيل لقنوط الباطل، لأن العرب قرروا أن يعيشوا فيا جهل من تحدثه نفسه أن يمنع عنهم أسباب الحياة.

وتلقت كذلك برقية مطولة من رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالقدس وكلمة طويلة من الأمير شكيب ارسلان في سويسرا وقصيدة غراء لفضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الغنيمي التفتازاني بمصر وغيرهم وستصدرها كلها في كتاب خاص ينشر قريباً.

وبالإجمال فقد كانت هذه الحفلة من أعظم الحفلات الوطنية والقومية وأبهاها وقد مثلت فيها البلدان العربية تمثيلاً صحيحاً كما اشترك فيها كتاب العرب وأدباؤهم.

مأدبة رئيس الوزراء:

كان دولة رشيد عالي بك الكيلاني رئيس الوزارة العراقية أول سابق إلى الحفاوة برجال الوفود فقد أدب لهم مأدبة عشاء أنيقة في قصره العامر مساء الثلاثاء ٢٤ أكتوبر بالفحامين وقد بناه أخيراً على ضفة دجلة، قرب الأعظمية.

وكبير الوزراء سليل أسرة عريقة في المجد والفضل تتمتع بنفوذ عظيم ومقام كبير لا في بغداد والعراق فقط بل في العالم الإسلامي كله ولا سيما الهند وأفغانستان فلجده الأكبر الشيخ عبد القادر الكيلاني القطب الأعظم منزلة لا ترام، ومرتبة لا تدرك.

والسيد رشيد هو الكيلاني الثاني الذي يتبوأ المنصب الأول في الحكومة العراقية فقد كان ابن عمه المرحوم السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد رئيس أول وزارة تألفت في العراق كما كان رئيس الحكومة الوقتية التي قامت بعد الثورة ومهدت للعهد الحاضر واختارت جلالة المغفور له الملك فيصل لعرش العراق فقدمته له بقرار أصدرته يوم ١١ يوليو سنة ١٩٢١.

وكذلك ألف المرحوم النقيب الوزارة العراقية الثانية والثالثة وكان في عصره رجل العراق الأوحد وزعيمه الأكبر وهو يعد في مقدمة مؤسسي الدولة الجديدة ورافعي منارها، ويسير السيد رشيد على سنن ابن عمه في خدمتها وفي توطيد أسسها.

❖ ❖ ❖

وللرئيس الشاب مقام كبير في نفوس قومه ومواطنيه وقد أضاف إلى مجد أسرته التليد مجداً طريفاً بما تحلى به من أدب جم وعلم واسع جعله محبباً إلى كل القلوب مقرباً إلى جميع النفوس.

وقد نشأ دولته نشأة علمية فتخرج في مدرسة الحقوق العراقية ثم اشتغلفي القضاء والتعليم فكان من خيرة قضاء العراق استقامة ونزاهة وكفاءة كما كان من كبار أساتذة مدرسة الحقوق وقد درس فيها العلوم الجزائية وألف فيها المؤلفات ومعظم شبان العراق من تلامذته ومن الذين تخرجوا على يديه.

وانتخب نائباً عن بغداد في المجلس النيابي الأول سنة ١٩٢٥ ورأس هذا المجلس في سنته الأولى ثم عين وزيراً للداخلية ثم وزيراً للعدلية ثم اشترك في ياسين باشا الهاشمي في إنشاء حزب الشعب سنة ١٩٢٥ وقد أبدل بحزب الإخاء الوطني سنة ١٩٣٠ ومنه معظم أعضاء الوزارة الحاضرة ومع انه قاطع الانتخابات النيابية في سنة ١٩٣٠ إلا أنه عاد في آخر لحظة فقرر الاشتراك فيها مرشحاً ثلاثة من أقطابه ففازوا وانتخبوا بالإجماع والسيد رشيد أحدهم. ولكنهم لم يلبثوا أن استقالوا من النيابة لاعتبارات رأوها وأذاعوها.

واختاره المغفور له جلالة الملك فيصل رئيساً لديوانه العالي في سنة ١٩٣١ فاضطلع بهذه المهمة على الوجه الأكمل، وفي يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٢ عهد إليه بتأليف الوزارة الحاضرة فألفها فقوبلت في العراق وفي البلاد العربية بأفضل ما تقابل به وزارة قومية وطنية تحمل ثقة أمة كاملة، ومليك ساهر على خير بلاده وتقدمها.

وحدثت حوادث الآشوريين في عهد الوزارة الكيلانية وكان جلالة المغفور له الملك الراحل يصطاف في أوروبا ومعه ثلاثة من أعضاء الوزارة، فتذرع الرئيس بالحزم والعزم وعالج الأمر بما يجب أن يعالج به فقضى على الفتنة وأطفأ نارها، ووقى العراق شرها، وكتب إلى مليكه في أوروبا أن كل شيء قد انتهى فلا حاجة إلى عودته ورجوعه وليمض في استشفائه، وفي العناية بصحته، فلم يطق جلالته صبراً فامتطى متن الهواء وجاء ليطمئن على بلاده فوجد الحالة كما وصفت له ورأى أن الحكومة قامت بواجبها على أفضل ما يمكن أن تقوم به حكومة وطنية تحرص على أداء واجبها وتحسن خدمة الأمة التي أسندت إليها أمرها.

وانقضت الكارثة على العراق بوفاة جلالته فلم يهن السيد رشيد ولم يضطرب بل انطلق على الفور فعزى سمو الأمير غازي ثم بايعه بالملك باسم الشعب العراقي.

فكان موقفه في الحالتين من أجل المواقف وأسماها . فازداد مكانة في عيون العراقيين، وازدادوا له حباً، وحوله التفافاً.

❖ ❖ ❖

هذا هو العراقي الأول الذي احتفى بوفود العرب في عاصمة العرب فأدب لهم مأدبة فخمة في حديقة قصره الواسعة الجميلة المنسقة وقد زينت بالأنوار الكهربائية الساطعة فجاءت فتنة للأعين وبهجة للناظرين.

وامتازت هذه المأدبة باشتراك قطبي المعارضة فيها، وكان من حظ كاتب هذه السطور أن جلس طول مدتها إليهما، وهما جعفر جلبي أبو التمن زعيم الحزب الوطني والوزير السابق ومولود باشا مخلص العضو في مجلس الشيوخ وكان أولهما إلى يسار دولة رئيس

الوزراء يتبادل معه الأحاديث والنكات المستملحة، ولا يقل العراقي ميلاً إلى الدعابة والنكتة عن المصري فهو خفيف الروح حاضر الذهن.

وتجلت الديمقراطية العربية وهي شعار العراق الناهض، في مأدبة كبير الوزراء فقيل للمدعوين حينما قاموا إلى المائدة اجلسوا أنى شئتم وليختر كل منكم مكانه بنفسه فنحن هنا إخوان لا درجات تراعى، ولا فواصل تفصل. وكان دولة الرئيس في خلال المأدبة وقد امتدت ثلاث ساعات، يبالغ في إكرام ضيوفه، ويتولى خدمتهم بنفسه شأن عظماء العرب وكرامهم يساعده شقيقه الفاضل كامل بك قنصل العراق العام في بيروت وقد رافق الوفد البيروتي في رحلته إلى بغداد.

❖ ❖ ❖

والسيد رشيد منتصب القامة، نحيف الجسم، أسمر اللون، جميل الملامح، حلو الحديث، لا تفارقه الابتسامة، يتكلم متأنياً، ويحدث متمهلاً، ولا يزال في شرخ الشباب ومقتبل العمر فهو يحبو إلى العقد الرابع، مع هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال وعظيمها. ومما استوقف نظري أن جميع وزراء العراق وأقطابه هم من الشبان النشيطين لا يستثنى من ذلك سوى اثنين هما السيد محمد الصدر رئيس مجلس الشيوخ فهو في العقد السادس وياسين باشا الهاشمي وهو في العقد الخامس ولعل هذا من جملة العوامل في تقدم حكومة بغداد ونموها.

سماط الملك غازي:

وزع سعادة تحسين بك قدري رئيس التشريفات في البلاط الملكي بطاقات الدعوة على رجال الوفود لتناول طعام العشاء "بأمر صاحب الجلالة" في الساعة السابعة من مساء الأربعاء ٢٥ أكتوبر الماضي على المائدة الملوكية.

والبلاط قائم على الطريق الجديد بين بغداد والأعظمية في جانب الرصافة وينقسم إلى جناحين: جناح خاص بالتشريفات والسكرتيرية وآخر خاص بجلالة الملك وهو متسع الجوانب والأنحاء تحيط به حديقة واسعة. وبات في حكم المقرر أن ينقل إلى جانب الكرخ حينما يشرع في بناء "بغداد الجديدة" وقد وضعت تصميماتها وأعدت معداتها كما وضعت تصميمات القصر الملكي الجديد وسيكون فخماً عظيماً. ومما يستحق الذكر أن قصور الخلفاء في العهد العباسي كانت في جانب الكرخ لا في جانب الرصافة وقد نقلت في العهد التركي إليه.

ومشت الوفود إلى البلاط في الوقت المضروب فكان رجال التشريفات يستقبلونهم في الجناح الخاص بجلالة الملك وكان خدم القصر يطوفون عليهم بالسكاير في علب كبيرة من

الفضة، فتألفوا حلقات وجماعات صغيرة، لزم بعضها مكانة في داخل البهو الكبير وانتشر الآخرون في حديقة القصر، وقد رصعت بالقلائد الكهربائية فزادتها بهاء ورواء.

وفي الساعة السابعة والنصف دعي الوقم إلى سماط أنيق أقيم في وسط الحديقة على شكل هلالي ونسق أجمل تنسيق جمع بين الذوقين الشرقي والغربي فقد وضعوا فوقه الأطعمة على الطريقة العربية وهذا بيانها:

١ - أوزي محشو في صوان كبيرة.

٢ - سليق ويتألف من الأرز المطوخ وفوقه اللحم المسلوق.

٣ - فاصوليا بالزيت.

٤ - باذنجان منزلة باللحم المفروم.

٥ - حلوى وفاكهة.

وجلس القوم إلى المائدة فاختار كل لنفسه مكانه وظل كرسي جلالة الملك خالياً وكذلك كرسي دولة رئيس الوزراء، ولم يلبث أن أقبل فجلس عليه ثم أقبل جلالة الملك فوقف الجالسون إجلالاً واحتراماً فسار وأمامه الحجاب ووراءه الخدم حتى تبوأ مقعده في الوسط وإلى يمينه وجيه بيروت سليم بك علي سلام وإلى يساره السيد محمد الصدر رئيس مجلس الشيوخ وأمامه رئيس الوزراء.

وطاف الندل بأطباق الشوربا مبتدئاً بجلالة الملك وكانت الأنظار كلها موجهة إليه، والعيون ترمقه.

وكان من حسن حظي أن تشرفت بالجلوس على مقربة من جلالته فسمعت أحاديثه وأقواله، ودرست حركاته، وكلها تبعث على الغبطة والارتياح وتدل على ذكاء ورقة، أعجب بها رجال الوفود وكانوا جد مغتبطين ومرتاحين إلى ما رأوه وشاهدوه.

❖ ❖ ❖

واستهل جلالته الحديث مع السيد الصدر رئيس مجلس الشيوخ ثم التفت إلى سليم بك علي سلام الجالس إلى يمينه وسأله قائلاً هل زرت المطار اليوم وهل ركبت الطائرة؟ فأجيب بالإيجاب وأسهب الشيخ عبد القادر الكيلاني وزير الزراعة السابق في سورية وكان جالساً بقرب سليم بك في الكلام عن المطار وعما شاهده فيه وقال إنه سيرسل نجله إلى بغداد ليدرس فن الطيران في مدرستها.

وتناول جلالة الملك الحديث فقال لقد اشترينا أخيراً ١٢ طيارة من أحدث طراز وأفضله وستصل قريباً وسنعني عناية عظيمة بالطيران فنعزز أسطولنا الجوي سنوياً بطيارات جديدة نضيفها إليه.

ثم انتقل الحديث إلى الزراعة والزيتون فقال جلالته إن عندنا كثيراً من شجر الزيتون في منطقة الموصل الجبلية.

ودار الحديث على الفاكهة وأنواعها في العراق والشام فتمنى سليم بك أن توحد البلاد وتزول الحواجز فتكون الشام مصيفاً للحكومة ويكون العراق مشتى لها. وقال إن أمنيته الوحيدة في هذه الحياة، أن يمثل بيروت في البرلمان العربي في بغداد كما مثلها في البرلمان التركي في الأستانة، فابتسم جلالته وكان يدير الحديث بلباقة، وينقله من موضوع إلى آخر، وما كان يحجم عن تقديم بعض ألوان الطعام بيده إلى الجالسين بقربه مبالغاً في مؤانستهم وملاطفتهم، وأنشد أحد شيوخ جبل عامل أبياتاً ارتجلها في مدحه، وشبه أخلاقه بأخلاق جده النبي وبعد ما طاف الخدم بالقهوة والسكاير نهض جلالته فنهض القاعدون وشيعوه بالإجلال والاحترام.

وكان جلالته يلبس بدلة عسكرية من الخاكي المصنوع في العراق ويضع شارة ملازم أول في الجيش العراقي، ويلبس السدارة العراقية يضعها إلى الجانب الأيمن، وفي بنصر يده اليمنى خاتم الخطبة وهو مربوع القامة أقرب إلى القصر، أبيض اللون، أشهل العينين، جذاب الملامح، واضح النبرات، كثير الابتسام يميل إلى المباسطة. يسير بخطى متزنة، ويحيي التحية العسكرية، أي يرفع اليد إلى الراس.

وتوسط البهو الكبير وحوله رجال دولته حينما جاءه ضيوفه يودعونه ويستأذنونه في السفر فكان يصافح كل واحد بمفرده ويقول لهم إن وصيتي إليكم وإلى مواطنيكم هي أن تتحدوا وأن تجمعوا كلمتكم.

موكب الملك غازي:

كان يوم (الأربعاء) ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٢ موعد افتتاح البرلمان العراقي فاغتنمت الفرصة السانحه ويممت داره لأصفها وأشهد ما يدور بين جدرانها

وتعد دار البرلمان من أفخم الدور الأميركية في العراق وقد بنيت حديثاً لتكون مقراً لجامعة آل البيت، ولما ألغيت هذه الجامعة في سنة ١٩٣٠ اتخذت ندوة فاختص مجلس النواب. ويتألف من ٨٨ نائباً . بالقسم الأرضي وقد أعدوا فيه ردهة مستطيلة للجلسات في صدرها كرسي الرئاسة، وإلى جانبه الأيمن مقصورة خاصة يجلس فيها جلالة الملك لسماع مناقشات الأعضاء إذا شاء، وهنالك ثلاث شرفات أمام كرسي الرئاسة للمستمعين والزائرين، ويجلس النواب في وسط الردهة صفوفاً بعضها فوق بعض بشكل "امفتايتر" كما هو الحال في البرلمان المصري، وإن كانت الردهة هنا أصغر.

واختص مجلس الشيوخ . ويسمونه مجلس الأعيان وعدد أعضائه ٢٥ ويعينون تعييناً بمرسوم . بالطابق العلوي، وينتخب الأعيان رئيس مجلسهم، لفصل واحد، بعكس الحالة في مصر حيث يعين الرئيس بمرسوم ويمثل هذا المجلس طوائف العراق وعناصره.

ودار البرلمان في سهل فسيح من الأرض تكتنفها أشجار النخيل الباسقة وبينها وبين ضريح جلالة الملك فيصل الأول بضعة أمتار ويفصل بينهما الطريق، ولا تبعد كثيراً عن مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان. ومما عرفته أن الحكومة قررت بناء صرح فخم في جانب الكرخ ليكون مقراً لنواب الأمة وممثليها ومكاناً لاجتماع هيئتها التشريعية.

ولا تقل المسافة بين البلاط الملكي والبرلمان وكلاهما قائم في الشارع الجديد بين بغداد والأعظمية عن كيلومترين حفلت من البكور بالجند الذين جاؤوا من ثكناتهم واصطفوا على جانبيه ليحيوا جلالة الملك في ذهابه ورجوعه.

وفي الساعة ٩:٥٥ غادر جلالته القصر تتقدم موكبه ثلة من فرسان الحرس الملكي الرماحة، ويحمل كل واحد من رجالها رمحاً ركب في رأسه علماً ذا لونين "أخضر وأسود" ويلبس جندي الحرس سترة بيضاء وبنطلوناً من الجوخ الأزرق وعلى جانبيه شريط أحمر ويعتم بالفيصلية ولونها أبيض أيضاً.

وتقدم الموكب مدير الأمن العام في سيارة خاصة تلتها سيارة محافظ بغداد (أمين العاصمة) والمتصرف فسيارة السيد باقر التشريفاتي ثم سيارة جلالة الملك وهي مكشوفة وقد جلس منفرداً وأمامه ياوره العسكري، فثلة من الحرس يواكبونه وازدحم الناس على طول الطريق لمشاهدة موكبه وتحيته.

وحيته ثلة من جنود الفوج الثاني عشر اصطفت أمام دار البرلمان مع موسيقاها وكانت هنالك أيضاً موسيقى الجيش واستقبله عند نزوله من السيارة رئيس الوزراء والوزراء فصافحهم، ومشى وبين يديه الحجاب والوزراء والمستقبلون وانضم إليهم في وسط السلم السيد محمد الصدر رئيس مجلس الشيوخ، إلى المقصورة الملكية فاستراح فيها دقائق ثم اخترق ردهة الاجتماع بخطى ثابتة حتى العرش فاعتلاه، وألقى بصوت جهوري سمعه جميع الحاضرين حتى الذين كانوا في أقصى الشرفات خطاب العرش وهذا نصه:

حضرات الأعيان والنواب

في هذه اللحظة التي نقف فيها أمامكم مفتتحين بعون الله القدير مجلسكم العالي، تتجه بنا الذكرى الأليمة إلى مؤسس كيان هذه المملكة وباني مجدها المرحوم والدنا ووالد الأمة جميعاً، تغمد الله بروحه برحمته واسكنه فسيح جناته.

لقد رحل عنا بعد جهاد طويل مستمر، لم يدخر في خدمة هذا الوطن العزيز لا راحة ولا صحة فذهب ضحية الواجب تاركاً لنا من تاريخ حياته الحافلة بالأعمال الجسام، والآمال العظام، مثلاً أعلى هو المعين الذي نستمد منه النشاط والقوة على تحقيق مناه وتتبع خطاه في السير بامتنا المحبوبة إلى الأمام دائماً إلى الأمام. لقد تلقى دعوة ربه مرتاحاً موصياً بالاتحاد والقوة وأنه سيلاقي وجه ذي الجلالة بضمير مرتاح.

أيها السادة

إن صلاتنا مع الدول كافة سائرة على حسن التفاهم والولاء وأن تنمية هذه الصلات وتقويتها لمن أخص آمالنا. لقد كان للزيارة الأخيرة التي قام بها المرحوم فقيد الأمة إلى صاحب الجلالة الملك جورج الخامس وما تظاهر لمناسبة تلك الزيارة من عواطف الولاء والمحبة المتقابلة أجمل أثر في توثيق عرى الصداقة بين قلوب أبناء المملكتين المتحالفتين. كما أن نتائج أعمال الوفد الوزاري الذي ذهب إلى لندن وجنيف كانت مما يبعث على الارتياح.

لقد أخطأ بعض الآشوريين في فهم مقاصد حكومتنا فأثاروا فتنة اضطرت بسببها حكومتنا إلى تأديبهم ولا شك في أن الانتباه العظيم الذي أظهره الشعب في أثناء هذه الحادثة المؤسفة كان أكبر عبرة لمن تحدثه نفسه بالإساءة إلى سلامة هذا الوطن ووحدته.

لقد أثمرت المساعي التي بذلها وفدنا في جنيف حول تسفير هؤلاء إلى خارج العراق والأمل قوي بأن تتم الترتيبات لإنفاذ هذا المشروع في القريب العاجل.

أيها السادة

إن الهدوء والسكينة مستتبان والحمد لله في أنحاء المملكة وستقدم الوزارة الجديدة عند تأليفها برنامجها ولا نشك في أن الجميع مدركون أهمية الظروف الحاضرة وباذلون ما في وسعهم لإعلاء شأن البلاد وإيصالها إلى المستوى اللائق بها بين الأمم.

وندعو الله تعالى أن يسدد خطواتكم وأن يوفقكم في أعمالكم.

ولقد ظهرت علائم الاضطراب والتأثر في صوته حينما أشار إلى فاجعته وفاجعة الأمة العراقية بوفاة مؤسس ملكها. واستقبله البرلمان وشيعه وهو واقف وودع بمثل ما استقبل من الحفاوة.

❖ ❖ ❖

واشتركت فصائل الفوجين الثاني والثاني عشر المشاة في هذا الاحتفال كما اشتركت فيه "كتيبة الهاشمي" للفرسان وعلمها أسود دون بقية الأفواج الأخرى، وعلمها أخضر، ومع أنهم أطلقوا على الفوج الأول اسم موسى الكاظم إلا أنهم عدلوا عن هذه التسمية بعد ذلك مكتفين بالرقم ويسمون الثكنات العسكرية باسم كبار الصحابة الذين

فتحوا العراق فهنالك ثكنة سعد بن أبي وقاص وثكنة خالدبن الوليد وقتيبة وحبذا لو استمروا في السير على هذه الخطة في تسمية الأفواج لما فيها من الفوائد الأدبية.

ولباس الجيش العراقي من القماش الخاكي ويوحي منظر الجند العراقي بلباسه النظيف وهندامه المتقن ونظامه البديع الثقة في النفوس والاعتقاد بأن هذه الأمة لم تفقد الروح الحربية ومعظم رجال الجيش من أبناء القبائل العربية النازلة على الفرات يأتون بهم من منازلهم ونجوعهم، فيدخلونهم مدرسة خاصة أعدوها لتعليمهم القراءة والكتابة، وتدريبهم على الفنون الرياضية وبعد أن يجتازوا هذه الدورة ينقلون إلى الجيش، وهو أشبه بمدرسة ويضع كل جندي يحمل فوجه وسام الرافدين، قطعة صغيرة من الجوخ الأحمر في الجانب الأيمن من الفيصلية تمييزاً له عن الأفواج الأخرى العاطلة من هذا الوسام ويعنون كثيراً بتنظيم جيشهم وتدريبه ويعلقون عليه آمالاً كبيرة.

شباب العراق والوحدة العربية:

أقام شباب العراق أصيل الجمعة (٢٥ أكتوبر) حفلة تأبين للراحل العظيم في فندق الهلال أعلنوا عنها في الصحف وأباحوا للجميع حضورها.

ومثل الشباب العراقي أفضل تمثيل في حفلته هذه - وفي العراق شباب ناهض متحمس عرف بميله الشديد إلى طلب العلم وكثرة إقباله على المطالعة، فسوق الكتب والصحف والمجلات رائج في العراق، والحركتان العلمية والأدبية في تقدم مستمر.

ولم يزج الشباب العراقي بنفسه في معمعان السياسة الحزبية كما هو الشأن في بعض الأقطار العربية الأخرى حيث انصرف البعض عن متابعة دروسه إلى تأييد أشخاص أو مناصرة أحزاب مما لا أثر له في العراق تقريباً، وإن كان الأمر لا يخلو من عطف يظهره بعضهم على حزب أو فئة أو ميل يميله إلى جهة من الجهات ويمكن القول إن اهتمام القوم هنا بالسياسة أقل من اهتمام البلدان العربية الأخرى بها، ولعل منشأ ذلك أن للعراق كياناً ثابتاً، ونظاماً موطداً، ولا أثر لذلك في تلك الأقطار.

❖ ❖ ❖

وتلقى فكرة الوحدة العربية أو القضية العربية تأييداً وعطفاً من العراقيين كافة على اختلاف الأحزاب والهيئات لا فرق بين الشبان والشيوخ، والكبار والصغار. وإذا كان هنالك اختلاف فعلى الطرق والأساليب وعندي أنه آن الأوان للنظر في وضع الأساليب والطرق التي يجب السير عليها في المستقبل، بعد هذا النجاح والتأييد الذي تلقاه الفكرة في كل مكان.

ولا تجد السياسة الإقليمية أنصاراً في هذه البلاد إذ لم نقل إن الكل ينفر منها، ويعتقد بضررها ولا يخفى أنها طارئة على بلاد العرب فقد عمل رجال العرب قبل الحرب العظمى باسم العرب فقط من دون نظر إلى الأقطار والأقاليم فكانت جمعياتهم وأحزابهم في الأستانة وغيرها تضم العراقي والسوري والفلسطيني والحجازي والطرابلسي يعملون تحت راية واحدة هي راية العروبة، لتحرير العرب وإنشاء الدولة العربية الكبرى، ولم يرتفع رأس السياسة الإقليمية إلا بعد إعلان الحرب العظمى، أي بعد ما اتصل العرب بالأجانب واحتكوا بهم وعملوا معهم في الثورة الكبرى، فقد أوجس هؤلاء شراً من اتحاد العرب ففرقوهم باسم الأقاليم. وتجلت هذه السياسة بأجلى مظاهرها في أواخر عهد الحكم الفيصلي بدمشق، وبعد انتهائه فقد أقصت الحكومة الجديدة التي تألفت بعد ميسلون من كان من العراقيين في خدمة الحكومة السابقة، وما كان عددهم بقليل، فغادروا سورية عائدين إلى بلادهم واشتركوا في إنشاء الحكومة الجديدة وإليهم يعود جانب من الفضل في بلوغ ما بلغته من قوة ومنعة.

وسرى في أذهان بعض الساسة السوريين أن مصدر النكبة التي حلت بقطرهم هو سيرهم على سياسة قومية واسعة النطاق ووهموا أن العدول عنها قد يساعد على إصلاح الحال فنفضوا يدهم منها منادين أن سورية للسوريين وكانت النتيجة أن مزق الفرنسويون سورية إلى خمس دويلات أقاموها هنا وهنالك ليسهل عليهم حكمها وليسيطروا عليها مباشرة ولا تزال السياسة السورية بين جزر ومد ولا يزال السوريون يناضلون لإعادة بلادهم موحدة كما كانت من قبل. فقد برحت بها التجزئة واستنزفت مواردها بما استلزمته من نفقات لا مسوغ لها، ومع أن عدد سكان العراق لا يقل عن عدد سكان سورية إذا لم نقل إنهم أكثر (فقد سمعت أحد الفضلاء يقول إن سكان العراق لا يقلون عن أربعة ملايين في الوقت الحاضر وأن معظمهم يحجم عن تسجيل أبنائه في سجل المواليد مراعاة لتقاليد قديمة بالية) فنفقات العراق العمومية سنوياً لا تزيد على أربعة ملايين دينار أي ستة عشر مليون ليرة سورية في حين أن نفقات سورية السنوية تبلغ ٤٠ مليون ليرة سورية أي أكثر من ضعفين وما ذلك إلا بسبب التجزئة، وفي خزينة العراق اليوم من الاحتياطي ما لا يقل عن مليون ونصف مليون دينار في حين أن الخزينة السورية فارغة خالية ولولاما تقدمه لها المفوضية العليا من أموال لما استطاعت دفع رواتب موظفيها.

❖ ❖ ❖

وهبت على بلاد الشام في الأيام الأخيرة نفحة جديدة وقام بعض رجالها وشبانها ينكر على دعاة السياسة الإقليمية سياستهم ويقول إنها أنتجت أشأم النتائج فلم تثمر في خلال خمس عشرة سنة ثمرة. وفي دمشق اليوم نضال عنيف بين أنصار هذه السياسة وخصومها يدركه زائرها لأول وهلة ويصلى الآخرون الأولين ناراً حامية من الانتقاد لأنهم يقولون بالمفاوضة لحل

المشكلة السورية. ويلوح لي أن الفوز سيكون في النهاية في جانب أنصار فكرة الوحدة العربية وتلقى تأييداً في كل مكان فقد تنبه الناس من غفلتهم وأدركوا أن السياسة الإقليمية لم تك سوى شرك نصب لاصطياد هذه الأقاليم فصادوها وأدى إلى بسط استعبادها ولا ريب أن اليقظة الجديدة - ويشهد زائر بلاد العرب أثرها في كل مكان وخصوصاً في العراق وبين شيبه وشبانه - كفيلة بالقضاء على تلك السياسة والتخلص من أنصارها وإنشاء مجد جديد يضاف إلى المجد القديم ومبدأ طلعة البدر الهلال.

جلالة الملك علي

- هيا.

- إلى أين؟

- إلى خان الشيخ ضاري[1].

- ولماذا؟

- لقد تقرر وصول جلالة سيدنا الملك علي إلى بغداد بعد ظهر اليوم وسيكون الاستقبال الرسمي في قصر الحارثية. وقد رأيت وبعض إخواني أن نذهب إلى خان ضاري فأعددنا سيارة وجئناك لتذهب وتشترك معنا في أداء هذا الواجب.

- تفضل.

لقد دار هذا الحديث بيني وبين حضرة الشيخ عبد الرؤوف الصبان الصديق القديم والسكرتير الخاص لجلالة الملك علي في بهو فندق مود وامتطينا على الأثر السيارة فدرجت بنا وكانت سيارات المستقبلين منتشرة على طول الطريق بين بغداد والحارثية وخان ضاري في مسافة لا تقل عن ٣٠ كيلومتراً تحمل رجال الدولة وأقطاب العراق وكبار شيوخه وزعمائه وكتابه وأدبائه.

❖ ❖ ❖

وفي الساعة ٢:٢٠ وصل موكب جلالة الملك إلى خان ضاري تتقدمه سيارة الشرطة وتتلوه سيارات المستقبلين وقد ركب جلالته في سيارة فاخرة وإلى جانبه متصرف الرمادي وأمامه الدكتور الحسيني باشا طبيبه الخاص فتسابق المستقبلون إلى لثم راحته. وقدمني الشيخ عبد الرؤوف إلى جلالته فرحب بي وقال:

أظن ما تقابلنا قط قبل الآن. شرفتم يا أستاذ. تفضلوا واركبوا ودلفت بنا السيارات إلى قصر الحارثية وعددها يتزايد على طول الطريق بما ينضم إلى الموكب من سيارات المستقبلين.

---

(١) يبعد عن بغداد ٣٢ كيلومتراً من جهة الغرب وهو في منتصف الطريق بينها وبين الفلوجة.

ثم ذهبنا إلى بهو القصر فدخل المستقبلون من كبراء العراق وسادته مسلمين ومصافحين. ولما انتهت مراسم الاستقبال قصد جلالة كالملك على قصره في كرادة مريم (جانب الكرخ من بغداد) على ضفة دجلة تحيط به غابات النخيل الباسقة وتكسوه حلة من الجمال والبهاء.

ويتمتع جلالة الملك علي بمقام عظيم في بغداد لا بصفته عميد البيت الهاشمي وكبير أمرائه بل بجاذبيته القوية وآدابه العالية ومزاياه الرفيعة وديمقراطيته وتواضعه ولينه وميله إلى الأدباء فقل أن يخلو مجلسه ليلاً أو نهاراً من عالم أو أديب أو كاتب كما ندر أن يخلو قصره من قاصد أو لاجئ فهو منهل الوراد وكعبة القصاد.

وترددت على قصر جلالته مدة إقامتي فما رأيته خالياً من زائر: فهذا رشيد عالي بك الكيلاني رئيس الوزراء السابق ومعه حكمت سليمان وزير الداخلية السابق جاءا للسلام على جلالته. وهذا جعفر جلبي أبو التمن رئيس الحزب الوطني والزعيم السياسي الكبير جاء يزوره، وهذا سفير بريطانيا، وهذا مفتي بغداد ومن عادة فضيلته أن يأتي القصر أصيل كل يوم ويظل حتى أذان المغرب وبعد أن يصلي بجلالة الملك جماعة يعود إلى مدرسته في الشيخ (جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني) ليلقي درساً على تلاميذه في الأصول (وقد اعتاد أن يقرأ لهم بين الصلاتين) وهذا مدير الأوقاف العام وهؤلاء شيوخ ونواب جاؤوا للثم راحته، وهذه ثلة من أعضاء مجلس النواب وهكذا كلما ذهب فوج جاء فوج وكلما خرج أناس جاء غيرهم لا فرق في ذلك بين الصبح والمساء والظهر والعصر فأبواب القصر مفتحة على الدوام، وهو يغص بزائريه ويرحب بقاصديه.

وجلالة الملك علي على أبواب الستين، منتصب القائمة، نحيل الجسم أبيض اللون، يلبس الملابس العربية الحجازية وهي عبارة عن قفطان من الحرير فوقه جبة ويتمنطق بخنجر مذهب ويعتم بكوفية وعقال، دائم الابتسام، كثير الحركة. جم النشاط، يتتبع الحركات السياسية والعلمية والاجتماعية في الشرق الأدنى باهتمام، ويقرأ الصحف ويطالع الكتب الجديدة ويقتنيها وفي قصره مكتبة كبيرة تضم نفائس الكتب على اختلاف أنواعها وفنونها وقد صار يحسن التكلم باللغة الفرنسوية فضلاً عن إجادته اللغة التركية.

ولأول مرة زار جلالته أوروبا هذا العام فقصد برن وأقام فيها متداوياً حتى وقعت الواقعة الكبرى بوفاة المغفور له شقيقه الملك فيصل فرافق جثمانه الغالي حتى بغداد ثم عاد إلى أوروبا ثانية للعناية بصحته وقد انتكست بسبب هذا الرزء فقصد فرنسا للاستشفاء بمياهها المعدنية ثم هبط باريس لاستشارة أطبائها فعاد وهو ممتلئ صحة ونشاطاً نرجو له دوامهما.

وجلالته معجب كل الإعجاب بمدنية أوروبا وبما بلغته من تقدم وبما يسود بلادها من نظام ورقي ويرى أن من مصلحة العرب أن يسيروا سيرها ويقتدوا بها ويأخذوا بالأصلح والأفضل من مدنيتها وهو محب للرقي والتقدم ميال للأخذ به.

العمران في بغداد:

كانت الصورة المرسومة في ذهني لبغداد قبل أن أزورها تمثلها قرية كبيرة خالية من وسائل الحضارة والمدنية، مجردة من معدات الراحة، وقد محيت عناصر هذه الصورة تدريجاً منذ ما تدخلتها، وجلت في أنحائها، وطفت ضاحيتها، وأشرفت على الحركة العمرانية الواسعة النطاق في أرجائها.

الواقع أن بغداد لم تكن في العهد التركي سوى قرية كبيرة خالية من كل ما تحويه المدن الكبرى فلا طرق معبدة ولا شوارع واسعة ولا ماء مقطرة ولا كهربائية للاستصباح والتهوية ولا فندق عصري ولا مدرسة وإنما هنالك مدينة ضيقة الشوارع متلاصقة البنيان على مثال طراز المدن في القرون الوسطى ليس لمخزن من مخازنها المتعددة واجهة مصنوعة من زجاج يجد الذباب في بيوتها ومخازنها مرتعاً خصباً فيها جمها بملايينه ويسد الأفق بجيوشه كما يملأ الغبار الأنوف والعيون.

ويمكن القول إن تقدم العمران في بغداد ابتدأ منذ إنارتها بالكهرباء بعد الاحتلال فقد أدرك سكانها أن في استطاعتهم الاستغناء بها عن السراديب وكانوا يحفرونها تحت الأرض ويلجأون إليها أيام اشتداد القيظ فتقيهم لفحاته وضرباته. ومعنى ذلك أن المروحة الكهربائية الجديدة حلت محل السرداب القديم فانصرف الناس إلى بناء البنايات الفخمة الرائعة على شواطئ دجلة وفي الضاحية معتمدين، في التهوية واتقاء الحر، على المروحة الكهربائية فأغنتهم عن السرداب كما قلنا فكان ذلك مبدأ هذا التحول العظيم في داخلها، ومقدمة هذا العمران المستبحر في أرجائها وضاحيتها ويكاد ينشئ منها مدينة عصرية منظمة يرجى أن تصبح في المستقبل القريب عروسة مدن الشرق الأوسط فتستعيد ما كان لها من عز وعظمة في عهد الخلفاء العباسيين يوم كانت عاصمة الشرق كله، إليها تضرب أكباد الإبل وفي رحابها ينزل العلماء والأدباء والمفكرون، والمورد العذب كثير الزحام.

وأول شارع أنشئ في بغداد على الطراز الحديث هو شارع الرشيد ويخترقها في خط مستطيل من الشمال إلى الجنوب وعلى جانبيه المخازن الكبيرة والفنادق الجديدة والمطاعم والمقاهي فهو حركة بغداد الدائمة ويكثر الازدحام فيه عادة بعد الظهر فيضيق على رحبه بالسيارات والمركبات فتتلاصق تلاصقاً يملأه من أقصاه إلى أقصاه ويأتي بعده شارع السموأل

وهو شارع التجارة والمال وقد قامت على جانبيه البنوك والبيوت المالية الكبرى، ثم شارع المأمون فشارع المستنصر فشارع السراي وكلها جديدة وكلها في جانب الرصافة حيث دور الحكومة وبعض دور السفارات والقنصليات الأجنبية.

وينتهي شارع الرشيد من جهة الشمال بميدان فسيح قامت الحدائق على جانبيه وتتفرع عليه ثلاثة شوارع فإلى الغرب شارع المجيدية وهو من أكثر أحياء بغداد عمراناً ويبتدئ بحديقة سميت باسمه وهي واسعة شاسعة وإلى الشمال شارع الأعظمية (نسبة للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان) وقد كانت حتى انتهاء العهد التركي تبعد عن بغداد نحو ٥ كيلو مترات، كان السالكون يسلكونها على ظهور الحمير في طرق ضيقة ابان العهد التركي أما الآن فتصلها ببغداد طريق معبدة رصفت بالإسفلت عرضها ٢٠ متراً قامت على جانبيها بنايات جميلة وقد ساعد شق هذا الطريق على انتشار العمران في الأعظمية فأقبل الناس على توطنها فشقت فيها شوارع واسعة وبنيت فيها بنايات جميلة وتتصل بالعاصمة بسيارات كبيرة (أوتوبوس) يسمونها هنا "باصات" تروح وتغدو ليلاً ونهاراً والأجرة خمس مليمات. وفيها ضريح الملك فيصل، وإلى الشرق شارع نوري السعيد وهو واسع رحب.

وينتهي شارع الرشيد من الجنوب بميدان واسع فسيح تتفرع عليه شوارع فإلى الغرب نهر دجلة وقد قامت على جانبه البنايات في شارع يسمونه شارع أبي النواس وعرض هذا الشارع ٢٠ متراً وهو شبيه بشارع الكورنيش في الإسكندرية وإلى الشرق شارع جديد واسع هو شارع سعد وينتهي بميدان فسيح نصب في وسطه تمثال عبد المحسن السعدون رئيس الوزارة العراقية المنتحر وإلى شرقه حديقة الأمير غازي وإلى جنوبه شارع السعدون وعرضه ٤٠ ياردة وتتوسطه الأزهار ويتصل بحي الهنيدي وقد أنشأه الإنكليز بعد احتلالهم على آخر طراز وفيه مطارهم اليوم وسيسلمونه إلى الحكومة العراقية سنة ١٩٣٥ وفيه أيضاً المطار العراقي. وينتهي هذا الشارع بالكرادة وهي حي جديد شبيه بالأعظمية أنشئ حديثاً. ويضم بنايات جميلة جداً.

ويتفرع عن شارع الرشيد أيضاً شارع الملك غازي الأول وهو في الجهة الجنوبية وعرضه ٤٠ ياردة.

❖ ❖ ❖

هذا وصف موجز للرصافة في الوقت الحاضر يضاف إليه أن في "أمانة العاصمة" مشروعات لتشجير أرباضها ولا سيما الناحية الشرقية منها يقوم على غرس ما مساحته ٥٠٠ فدان من الأراضي لتحسين المناخ وتعديل الجو وسينفذ تدريجاً. أما الكرخ فهو في الضفة الغربية لدجلة ويناوح الرصافة وبينهما جسران الأول جديد وقد أنشئ في سنة ١٩١٨ وسمي

باسم الجنرال مود ويتألف من زوارق شد بعضها إلى بعض وهو منخفض عن مستوى الأرض ويرتفع طبقاً لحالة الماء وأما الثاني فهو قديم ويسمونه جسر الميدان، وقد قررت الحكومة إنشاء جسرين جديدين على الطراز الحديث مكان القديمين وسيبدأ العمل بهما في هذه السنة كما قالوا.

وكلا الجانبين "الكرخ والرصافة" مستقل عن الآخر ولكل منهما أسواقه وشوارعه ومقاهيه بل ومدارسه، وفي الكرخ قامت محطة سكة الحديد ومطار بغداد الجديد وجمركها ومعنى ذلك أن القادم من الجنوب والشمال والغرب يصل إلى الكرخ أولاً وبعد ما يجتاز المحطة والجمرك أو المطار يدخل شارع الملك فيصل وهو من أجمل شوارع بغداد الجديدة ولا يقل عرضه عن ٤٠ ياردة، وقد قامت على جوانبه الأشجار وزرعت في وسطه الزهور والورود على مثال الشوارع الحديثة في العواصم الكبرى (بولفار) وفي وسط هذا الشارع نصب تمال الملك فيصل بملابسه العربية وقد تقلد سيفه وتمنطق بخنجره وهو يمتطي جواداً عربياً وقد وجه وجهه نحو الغرب أي نحو بلاد العرب.

ويتفرع عن هذا الشارع وقد قامت على جانبه حديقة كبيرة اسمها حديقة الكرخ، شارع موسى الكاظم وهو شارع قديم طويل ضيق أصلحته الحكومة الجديدة بعض إصلاح وينتهي عند محطة الترامواي ويصل بغداد بالكاظمية وقد أنشئ في عهد مدحت باشا وتجره الخيل والمسافة بينهما ٧ كيلومترات. وفي الكاظمية مشهد موسى الكاظم وهو من أعظم مشاهد آل البيت في العراق وأفخمها وإلى جنوب شارع الملك فيصل شارع الملك علي وتقوم على جانبيه بنايات جميلة وإلى اليسار جسر مود ودجلة. والكرخ أقل عمراناً من الرصافة، على أن الحال قد يتبدل إذا نفذ مشروع بغداد الجديدة وستبنى في الكرخ وقد كانت عاصمة العباسيين فتنتقل إليها دور الحكومة وقصورها ودواوينها، ودور السفارات وفيه الآن دار السفارة البريطانية، وقصر الحارثية وقصر الزهور وقد بدأوا بإنشائه وإعداده لنزول الملوك والعظماء وينتهي قريباً وهو على مقربة من قصر الحارثية.

وقد جاء في بيان رسمي أنه بلغ عدد ما أنشئ من الدور الجديدة في بغداد خلال الفترة المنقضية بين سنة ١٩٣٠ والسنة الحاضرة ٣٨٧٩ داراً وكذلك أنشئ في خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٢٦ - ١٩٣٠ ما يقدر بـ١٢٠٠ دار وطول بغداد من الشمال إلى الجنوب لا يقل عن ٢٥ كيلومتراً.

وفي بغداد حدائق كثيرة كلها جديدة وهي: المجيدية والمعرض والأمير غازي والكرخ والزوراء والأمانة والمعظم والأخيرتان لطلاب المدارس وحديقة الأطفال وهي للأطفال.

ويبلغ طول الطرق الجديدة المرصوفة في داخلها وحولها (في المنطقة البلدية) ٥٠ كيلومتراً يتفاوت عرضها بين ٨ و٤٠ ياردة وما كان هنالك كيلومتر واحد معبد أو مرصوف لا في داخلها ولا حولها في العهد التركي ولو لم يول مدحت باشا ولاية بغداد سنة ١٢٨٦ أي في أيام السلطان عبد العزيز لما بقي للترك في هذه الديار أثر يذكر الناس بهم فكل ما هنالك من بنايات حكومية ومن بقايا عمران ودور هو مما بناه ذاك المصلح في خلال حكمه القصير.

المتحف العراقي:

كل ما في العراق جديد، فالصحافة جديدة، والمطابع جديدة، والمتحف جديد لا يزال في دور النمو والتكوين وهو من ثمرات النهضة الجديدة التي تعم العراق وتشمل مرافقه.

والعراق من أغنى بلاد الله بآثاره التاريخية وبعادياته فقد قامت فيه دول عديدة قبل التاريخ وبعده وتقلبت فيه شعوب وحكومات مختلفة بادت وانقرضت تاركة في جوف الثرى آثاراً تسجل لها الخلود والدوام.

واتجهت أنظار علماء التاريخ القديم ومحبي الاكتشافات إلى هذا القطر بعد النهضة العلمية الجديدة فجاءت وفودهم باحثة منقبة كما جاست بعثاتهم العديدة خلال الديار وانتشرت في كل مكان تحفر وتنقب فكان هنالك بعثات انكليزية وأميركية وألمانية، ويمكن القول إن الألمان، وقد عرفوا كيف يستغلون صداقتهم للسلطان عبد الحميد ولا سيما بعد نيلهم امتياز سكة حديد بغداد الشهير، وانتشار نفوذهم في دوائر تلك الأمبراطورية، يملكون أعظم مجموعة نفيسة من آثار العراق وعادياته فقد انتشرت بعثاتهم وطاف رجالهم البلاد باحثين منقبين فكانت لهم بعثة سامراء تنقب بين قصور الخلفاء وأخرى تنقب في كيسن بين أطلال بابل القديم وثالثة في نينوى تنقب بين آثار الآشوريين وغيرها في شرقاط وهكذا نبش الألمان آثار العراق وكنوزه واستخرجوا نفائسه الغالية وهي تزين متاحف بلادهم ودورهم الأثرية.

وحل الإنكليز محل الألمان بعد الحرب العظمى فأرسلوا البعثات وسيروا علماء الآثار للبحث والتنقيب ولم يمتد هذا العهد امتداد العهد الألماني إذ قامت في البلاد حكومة وطنية قومية تحرص على استبقاء آثار الأسلاف والأجداد وتأبى أن تفرط فيها وقد أسرعت فأنشأت في سنة ١٩٢٣ المتحف العراقي وهو الأول من نوعه ليضم الآثار والنفائس، ويصونها من التلف والضياع.

وفي العراق اليوم بعثات مختلفة تبحث وتنقب ففي أورالكلدان بعثة لجامعة بنسلفانيا (الولايات المتحدة) تعمل تحت إشراف المتحفين الأميركي والبريطاني برئاسة الأستاذ ورلد في

الشمال بعثة إيطالية تنقب في تيلا بإشراف جامعة فلورنسا وهنالك بعثات أخرى وتخضع كلها لنظام العاديات الجديد وهو يقضي بأن يقتسم المتحف العراقي والبعثة، الآثار المكتشفة إذا كانت مزدوجة. طبقاً لما هو متبع في مصر. ومع أن هنالك رجالاً يشرفون على أعمال البعثات من قبل الحكومة فلا تزال الشكوك تحوم حولها، ويميل العراقيون إلى عدم السماح لها بالعمل ريثما ينشأ بينهم علماء يتولون الحفر والتنقيب.

والمتحف العراقي في بناء متوسط خاص به في شارع الجسر الشمالي ويتألف من طابقين ففي الطابق الأرضي غرفتان متسعتان يصل بينهما باب داخلي وفي إحداهما آثار جلالة الملك فيصل ومخلفاته ومكتبه وسيارته الصغيرة وأسلحته وكل ما يتصل بتاريخه ومواقفه. أما الغرفة الأخرى فخاصة بالآثار العربية القديمة على اختلاف أنواعها.

ويتألف الدور الأعلى من خمس غرف: فالغرفة الأولى خاصة بأدوار الإغريق والفرس والساسانيين وفيها كثير من نفائس الآثار وبينها ما عثروا عليه في قصر بهرام جور في كيسن وهو ثمين جداً.

والغرفة الثانية خاصة بالدورين السومري والبابلي وتضم مجموعة ثمينة من الخزف يعد من أقدم الخزف في العراق وفيها لوحة نفيسة تمثل صيد الأسود بالنشاب قبل التاريخ وفيها أيضاً مجموعة ثمينة من الأوزان في مختلف الأدوار التاريخية القديمة.

والغرفة الثالثة خاصة بآثار شمال العراق (الدور الآشوري) وفيها مجموعة ثمينة من الخزف تعد من أقدم الأواني الخزفية في العالم ويقال إن بعضها يرجع إلى عهد نوح (دار فخشاذ) وفي هذه الغرفة رمح من نحاس يرجع عهده إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

والغرفة الرابعة خاصة بآثار أور (الكلدانيين) ولعل أفضل ما فيها من آثار هذا العهد خنجر الملك، ونصله من الذهب وقرابه منقوش، وقبعة الملك، وخاتم الملك وحلاها وفيها قيثارة ذات صندوق للعزف.

وفي الغرفة الخامسة صور وتماثيل وحلى ثمينة وألواح مختلفة من بقايا الدور البابلي.

وهنالك بهو متسع في الطابق الأرضي خاص بالمنحوتات الآشورية الكبيرة وقد استخرجت من قرية خورشاد (قرب الموصل) وبينها لوح يمثل الملك سركون الثاني وأمامه الهدايا تقرب إليه.

❖ ❖ ❖

هذا وصف موجز للمتحف العراقي الجديد في دور تكوينه وإنشائه ويديره عالم ألماني استقدمته حكومة بغداد بعقد خاص لمدة ثلاث سنوات ويساعده شاب عراقي تعلم في انكلترا

وبين رجال البعثات العراقية الذين يتعلمون في أوروبا على نفقة الحكومة من يدرس علم الآثار تمهيداً لانضمامه إلى المتحف.

ومما علمته أيضاً أن الحكومة قررت إقامة بناء فخم للمتحف في جانب الكرخ في مكان متسع يتناسب مقامه مع تاريخ العراق وعظمته وربما بدأوا بإنشائه قريباً فقد وضعت تصميماته ورسومه وخصصت له الأموال اللازمة في الميزانية الجديدة.

المدرسة العسكرية في الكرادة:

إلى الجانب الأيمن من بغداد وفي مكان يسمى الكرادة الشرقية ويبعد عنها نحو خمس كيلومترات قام بناء المدرسة العسكرية العراقية وقد أعدت لتخريج الضباط والقواد وموظفي التموين للجيش العراقي.

ولقد كان هذا البناء في الأصل وهو عبارة عن "عنابر" متعددة أقيمت في صعيد متسع وغرست حوله الزهور والأشجار، مستشفى أنشأه الجيش البريطاني في أثناء الحرب العظمى لمداواة الجرحى والمرضى، فلما انتهت وجلا هذا الجيش عن العراق، ابتاعت الحكومة البناء وخصصته للمدرسة العسكرية، وستنقل في السنة الآتية إلى المعسكر البريطاني في الهنيدي.

والهنيدي مدينة أوروبية صغيرة أنشأها الإنكليز جنوبي بغداد بعد احتلالها ونظموها على أفضل منوال وهي االيوم مقر قواتهم الجوية وستسلم إلى الحكومة العراقية في سنة ١٩٣٥ عملاً بمعاهدة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠.

❖ ❖ ❖

ويدير المدرسة العسكرية ضابط عراقي برتبة قائمقام أركان حرب اسمه أمين بك العمري الفاروقي وهو من آل الفاروقي في الموصل وقد أخرجت هذه الأسرة عدداً من الرجال اشتهروا في العهدين التركي والعربي، فالمرحومان سامي باشا الفاروقي وهادي باشا الفاروقي رئيس أركان حرب الجيش العثماني من أبنائها، وأرشد بك العمري مصلح بغداد ومنظمها ومدير مصلحة الري الجديد وقد نقل إليها في الشهر الماضي لإصلاح الري هو من أبنائها أيضاً ومثله خير الدين العمري الفاروقي رئيس بلدية الموصل وهما شقيقا مدير المدرسة العسكرية ويسمونه في الاصطلاح العسكري العراقي "آمر" وتحل محل كلمة قائد المستعملة في الجيش المصري والجيوش العربية الأخرى. ومن تعابيرهم الجديدة قولهم: آمر المنطقة بدلاً من قائدها وآمر اللواء بدلاً من أميره، وقائد السرية، وقائد المدرسة، وقائد الفوج وهكذا دواليك وقد استبدلوا التعابير التركية القديمة بتعابير عربية جديدة اصطلحوا عليها. فالوحدة العسكرية الصغيرة وتتألف من ٨ جنود ورئيس هي "حظيرة" فيقولون الحظيرة الأولى والثانية والثالثة،

ويتألف "الفصيل" من ٤ حظائر ويقوده ملازم، ثم تأتي السرية وتتألف من ٣ فصائل وآمرها "يوزباشي" ويسمونه "الرئيس" ويتألف الفوج "الأورطة" من ٣ سرايا ويسمى آمره "مقدم" بالفتح أي بكباشي وتلحق بكل فوج سرية من الرشاشات. ويسمون "القائمقام" عقيد و"أميرالاي" زعيم وأمير اللواء. وفي الجيش العراقي اليوم ثلاثة من آمري اللواء: عبد اللطيف باشا آمر منطقة بغداد والبصرة، وخليل زكي باشا آمر المنطقة الشرقية وتشمل بلاد الكرد، وبكر صدقي باشا آمر المنطقة الشمالية "الموصل" وقد رفعت رتبته حديثاً مكافأة له على نشاطه في حوادث الآشوريين.

❖ ❖ ❖

والمدرسة العسكرية هي من حسنات المغفور له جلالة الملك فيصل وقد أسست في سنة ١٩٢٤ وتتألف في الوقت الحاضر من صفين ويشترط في الذين يدخلونها أن يكونوا حاملين لشهادة الدراسة الثانوية وأن لا يقل سنهم عن الـ١٨ ولا يزيد عن أل٢٢ ويقبلون في الصف الأول ويسمى المستجد فإذا جازوا الامتحان السنوي انتقلوا إلى الصف الآخر ويسمونه "المتقدم" فإذا جازوه منحوا الشهادة المدرسية وأرسلوا إلى الجيش. وفي المدرسة أيضاً قسم خاص مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات ويشترط في الذين يقبلون فيه أن يكونوا حائزين لشهادة الكفاءة وهو خاص بتخريج موظفي التموين والإعاشة.

❖ ❖ ❖

وفي المدرسة الحربية أيضاً مدرسة لتخريج الأركان "أركان الحرب" أنشئت سنة ١٩٢٨ ومدة الدراسة فيها سنتان، ويشترط في الذين يدخلونها أن يكونوا أتموا الدراسة في المدرسة العسكرية وقضوا خمس سنوات في الجيش العامل وأن يجوزوا امتحان الدخول فإذا فازوا بالامتحان النهائي أعيدوا إلى الجيش ثانية مع بقائهم في رتبهم الأصلية ويكافئونهم بإضافة سنتين إلى سني خدماتهم.

وعدد طلاب المدرسة الآن ٨٨ طالباً ٣٠ في الصف المتقدم و٤٦ في المستجد و١٢ في التموين والإعاشة وعدد أساتذتها ثمانية وعدد ضباطها ستة وفي النية توسيع ملاكها فتتسع لمئة وعشرين طالباً.

وهنالك أيضاً مدرسة أخرى للمدفعية في ثكنة قتيبة "الوشاش" يدخلها الضباط المتخرجون في المدرسة العسكرية إذا اختاروا فن المدفعية فيدرسون هذا الفن، وتفتح فيها من وقت إلى آخر دورات خاصة يدعى إليها ضباط المدفعية من الوحدات، لمتابعة الدراسة والاطلاع على التحول الجديد في هذا الفن. وعندهم مدرسة للخيالة في الثكنة الشمالية يدرس فيها الذين ينتسبون إلى هذا السلاح من خريجي المدرسة الحربية ومدتها سنة واحدة فهي مدرسة

تخصص وفي الوشاش أيضاً مدرسة للأسلحة الخفيفة "الرشاشات والقنابل اليدوية" وكيفية استعمالها والتخصص فيها. أما الذين يدخلون مدرسة الأركان فيشترط فيهم سواء كانوا من ضباط المشاة أو من هذه الأسلحة أن يكونوا أمضوا خمس سنوات في الجيش العامل وأن يؤدوا امتحاناً.

❖ ❖ ❖

ولقد زرت مع بعض الرفاق دار المدرسة الحربية فتفضل آمرها وضباطها وأساتذتها باستقبالنا وطافوا بنا غرف المدرسة وردهاتها وصفوفها.

ولما دخلنا الصف المتقدم كان الأستاذ وهو عراقي تخرج في مدرسة أركان الحرب في الأستانة يلقي درساً في الجغرافية العسكرية مسترشداً بخريطة كبيرة نصبت على الحائط، وقد افترض أن هنالك حرباً تدور بين الجيشين العراقي والسوري المتحدين إزاء الجيش التركي والفارسي على الفرات وكان يسأل الطلاب عن الخطط التي يجب السير عليها وتطبيقها. وكان أستاذ اللغة الإنكليزية في الصف المستجد وهو سوري يلقي درساً في الترجمة على الطلاب ويناقشهم.

وطافوا بنا غرف النوم وهي نظيفة مستطيلة ويتصل كل منها بحمام للطلاب، وأرشدنا المدير إلى الغرفة التي كان ينام فيها جلالة الملك غازي لما كان طالباً بالمدرسة وهي صغيرة تضم أربع أسرة الآن. ومما قاله لي إنه لما اعتزمت هيئة مدرسة الأركان "أركان الحرب" أن ترحل رحلة "كشف" في السنة الماضية لزيارة الحدود الشرقية ودرسها من الوجهة العسكرية رفع تقريراً إلى المغفور له الملك فيصل اقترح فيه أن يسمح لسمو الأمير ولي عهده بأن يكون مع المدرسة في هذه الرحلة فأصدر أمره على الفور بالموافقة وقد امتدت نحو شهرين اشترك الأمير خلالها في جميع الأعمال العسكرية التي عملت وفي الخرائط التي رسمت.

وطفنا أيضاً غرفة المائدة والمطبخ ومستودع الأسلحة وأماكن الرياضة هي مستوفاة من جميع الوجوه وتسترشد المدرسة في الغالب بالتعاليم العسكرية الألمانية ويعمل رجالها على إنشاء نظام عسكري مطبوع بطابع عربي، وجميع أساتذتها وضباطها من العرب العراقيين كما أن جميع دروسها تلقى باللغة العربية، وتعلم اللغة الإنكليزية فيها إضافية اختيارية ومما علمته أن بين المشروعات التي ستعرض على مجلس الوزراء مشروع يقضي بقبول أبناء الأقطار العربية في المدرسة العسكرية مجاناً إذا كانوا حائزين للشروط المطلوبة.

ويطول بنا المقام لو حاولنا وصف المدرسة وقد لمسنا روح القومية العربية ممثلة في أساتذتها وطلابها وقد سماها أحدهم مطبخ الوحدة العربية، تطبخ في صفوفها وبين جدرانها.

بلاط الملك غازي:

متى جزت الباب الشرقي الخارجي للبلاط الملكي تجد إلى يمينك ثكنة الحرس الملكي فتسير بضعة أمتار تدخل بعدها دار البلاط وتجد نفسك أمام باب متسع كبير وقف إلى يمينه جندي من جنود البوليس العسكري وإلى يساره شرطي فاعلم أنه مكتب جلالة الملك الخاص.

ويتألف البلاط الملكي من دائرتين: الديوان والتشريفات ويرأس الديوان العالي معالي علي جودت بك الأيوبي "رئيس الوزراء اليوم" وقد تقلد هذا المنصب في شهر مارس الماضي على اثر تأليف الوزارة الكيلانية. وهو من قادة الثورة العربية ومن الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرتها وقد تقلب في مختلف المناصب الرفيعة وآخرها وزارة المالية في سنة ١٩٣٠ ثم استقال منها وانضم إلى حزب الأخاء الوطني واختير سكرتيراً عاماً له. ويعاونه في مهمته هذه عدد من السكرتيرين والتراجمة.

ويرأس التشريفات تحسين بك قدري من ضباط الثورة العربية ومرافق جلالة الملك فيصل من سنة ١٩١٧.

ويغص بهو التشريفات الكبير - ويديره السيد باقر وهو ذكي أديب - بالزائرين الذين يفدون من الصباح الباكر فهذا نائب المنتفك، وهذا سيد من سادات الكاظمية، وهذا شيخ من شيوخ الفرات، وهذا رئيس عشيرة من عشائر الكوت، وهذا وجيه من وجهاء بغداد، وهذا كبير من كبراء الموصل اغتنم فرصة زيارة بغداد فجاء يتشرف بلثم راحة جلالة الملك.

ويصرف السيد باقر شؤون الزارين، وكلهم من كبار القوم بما يرضيهم، وهو يعرفهم أدق معرفة، ويعرف أحسابهم وأنسابهم فيقول للشيخ الفراتي بعد أن يشرب القهوة لقد خصص لك "سيدنا" موعداً في الساعة التاسعة من الغد فينصرف ليعود في الموعد المضروب ويقول للوجيه البغدادي: "سيدنا" اليوم مشغول هواي (أي كثير) فتفضل بعد يومين، ويقول للسيد الكاظمي (إذا انتظرت إلى الظهر فقد تقابل سيدنا فهو مشغول الآن بمقابلة السفراء فهذا يومهم" ويقول للوجيه البغدادي لقد دخل الوزراء الآن على سيدنا ولا أظنهم يخرجون إلا متأخرين.

وهكذا يكلم كل واحد بما يناسبه ويصرفه راضياً.

وبهو جلالة الملك متسع فسيح وله أربعة أبواب . شرقي ويتصل بالباب الخارجي وغربي ويتصل بالجناح الخاص بالحفلات والمراسم، وبابان جانبيان يتصل أحدهما بغرفة رئيس الديوان والآخر بغرفة المرافقين العسكريين وهم ثلاثة شاكر بك الوادي وعبد الوهاب بك عبد اللطيف ومحمود بك سلمان ويتناوبون العمل يومياً وتتحصر مهمتهم في مرافقة جلالته في تنقلاته. وقد كان جلالة الملك غازي يجلس فيها لما كان ولياً للعهد وفيها مكتبة ثمينة.

ومكتب جلالته في الجانب الشمالي من البهو وهو عادي يعلوه غطاء من بلور فوقه مصباحان كهربائيان وخلفه سجادة نفيسة وتعلو السجادة قطعة كتب عليها بخط جميل "لا إله إلا الله الملك الحق المبين".

ويجلس جلالة الملك على كرسي من جلد وحول مكتبه ثلاثة كراسي من القطيفة الملونة للزائرين. وإلى جانب المكتب من جهة الجدار كمية غير قليلة من قصائد الرثاء وقد أهداها ناظموها في إطارات جميلة.

❖ ❖ ❖

وصفت مقاعد في الجانب الآخر من البهو حول مائدة مستديرة أعدت لجلوس الوزراء حين يجتمعون برئاسة جلالته ووراء مقاعد الوزراء مكتبة جميلة الشكل يضم رفها الأعلى تاريخ بغداد ويضم رفاها الثاني والثالث المجلدات التي أصدرتها جامعة الأمم حاوية للمعاهدات الدولية المعقودة منذ إنشاء هذه الجمعية حتى الآن. وتعلو المكتبة إلى جهة الغرب صورة متوسطة الحجم للمغفور له الملك فيصل وضعت فوق الموقد. وأرض المكتب مفروشة بسجادة فارسية، ومثل ذلك مكاتب البلاط الأخرى. وقد بدأوا بإعداد مكتب جديد لجلالة الملك غازي بدلاً من المكتب القديم وسيحفظ في المتحف العراقي.

❖ ❖ ❖

ويستقبل جلالة الملك غازي الأول زائره أمام مكتبه وهو واقف هاشاً باشاً، ويصافحه بقوة ويسأله عن صحته ويحاول بعضهم لثم راحته، طبقاً للطريقة القديمة فيجذبها بلطف ويكتفي بالمصافحة. ويحضر رئيس التشريفات المقابلات إذا كانت عادية بسيطة ويسأل جلالة الملك زائره إذا كان غير عراقي عما تركته زيارته لبغداد من وقع في نفسه وعن رأيه في العراق ونهضته ويقول إننا نعمل جهد الطاقة. وقد يشيعه عند انتهاء المقابلة إلى الباب.

❖ ❖ ❖

ويسير جلالة الملك غازي على طريقة المغفور له والده في التبكير إلى المكتب إذا لم يركب للرياضة ومن عادته أن يخرج ثلاثة أيام في الأسبوع: السبت والاثنين والأربعاء راكباً جواده ومعه مرافقه العسكري فيجول بين الحقول والرياض من الساعة الخامسة والنصف صباحاً حتى الثامنة والنصف فيعود إلى البلاط ويدخل مكتبه مباشرة. أما في الأيام الأخرى فيصل بين السابعة والنصف والثامنة ويبدأ بقراءة ما هنالك من أوراق أو صحف ويظل يعمل حتى الساعة الواحدة فيركب سيارته وقد رفعوا العلم الملكي الخاص إلى جانبها الأيمن من المقدمة، ويجلس أمامه المرافق العسكري، وتتبعه دراجة تسير وراء سيارته، ورأيته يسير وحيداً بسيارته في أسواق بغداد وشوارعها فلا يصحبه مرافق ولا جندي ولا شرطي ولا دراجة ولا يبوق أمامه ببوق.

ويتغدى جلالته في قصر الحريم مع الملكة الوالدة ويقضي فيه معظم أوقاته ويخرج أحياناً بعد الظهر لنزهة بسيطة في السيارة فيقصد الحارثية أو الهنيدي أو الكرادة أو غيرها من الضواحي ويعود قبل الغروب إلى قصر الحريم أو البلاط فيتعشى فيه.

❖ ❖ ❖

والملك غازي كثير التأنق في ملبسه ولباسه المعتاد هو البزة العسكرية وعلى جانبي ردائه العسكري من الأعلى سنبلة ذهبية يضعها كبار الضباط وقد حملها أخيراً بقرار مجلس الوزراء بصفته القائد الأعلى للجيش، ويضع عند خروجه من المكتب نظار سوداء لاتقاء الغبار، وقد رأيته يلبس اللباس المدني الأوروبي للمرة الأولى في حفلة استقبال جلالة الملك علي عند وصوله في هذا الأسبوع قادماً من أوروبا.

ووجدت له أيضاً صورة مكبرة في نادي كركوك تمثله بالملابس العربية الحجازية وقد تمنطق بخنجره المذهب ووضع على رأسه الكوفية والعقال وكان يلبس هذه الملابس حين خروجه لصلاة الجمعة مع المرحوم والده في جامع السراي.

❖ ❖ ❖

وخير ما في الملك غازي من خصال ومزايا شعوره بثقل المهمة الملقاة على عاتقه، ومعرفته أنه مناط أمة وموضع ثقة شعب. وهو يسير الهوينا في أعماله سدد الله خطاه، ووفقه إلى الخير والإصلاح.

القصور الملكية:

قصر الحريم - البلاط - الحارثية - الزهور:

كل ما في العراق جديد حتى القصور الملكية فقد بدأوا بإنشائها بعد قيام الدولة الجديدة فنمت تدريجياً حتى وصلت إلى الحالة التي نذكر وصفها اليوم.

ولا يخفى أن قصور بغداد القديمة وقد أسهبت ألف ليلة وليلة وكتب التاريخ القديم في وصفها اندثرت ولم تبق منها سوى أطلال دوارس في جانب الكرخ تشهد بتقلب الدهر وعدم ثباته في حال من الأحوال.

ولقد نزل جلالة الملك فيصل يوم هبط بغداد سنة ١٩٢١ في الثكنة العسكرية على الشط في جانب الرصافة، وجلس على المكتب الذي كان يجلس عليه قائد فيلق بغداد ابان الحكم التركي فتحولت هاتيك الثكنة القديمة وقد بنيت في عهد مدحت باشا سنة ١٢٨٥ بلاطاً للملك الجديد، يستقبل فيه زواره وقصاده ويصرف شؤون دولته وينام ويأكل، وكان على علاته ونواقصه وخلوه من جميع وسائل الراحة خير مكان في بغداد.

وظل الحال على هذا المنوال حتى سنة ١٩٢٤ ففي تلك السنة قدمت جلالة الملكة الوالدة من مكة مع الأميرات كريماتها فأعدت لهن الحكومة مدرسة قديمة على الشط في جانب الرصافة بعد ما أصلحتها ورممتها فنزلنها ولا يزلن فيها حتى الساعة ويطلق عليها اسم قصر الحريم، وقد كان جلالة المغفور له الملك فيصل ينام فيه ويسير الملك غازي على سنن أبيه فهو ينام في هذا القصر ويأكل ويقضي معظم أوقاته - خلا ساعات العمل - وأبوابه موصدة على الدوام وتحيط به حديقة جميلة ويتألف من طابقين وبناؤه بسيط.

وأنشأت الحكومة العراقية في سنة ١٩٢٧ بلاطاً خاصاً لجلالة الملك في منتصف الطريق بين بغداد والأعظمية ويبعد عن الأول نحو كيلومترين تقريباً وهو عبارة عن بناء متوسط ذي طابق واحد قائم في وسط حديقة جميلة ويتألف من غرفة كبيرة هي أول ما يستقبلها داخله من الباب الشرقي وقد أعدت لجلالة الملك ويجلس فيها زمن الدوام الرسمي، وقد وصفتها في غير هذا المكان.

وإلى يمين مكتب الملك غرفة رئيس الديوان العالي وإلى يساره غرفة المرافقين العسكريين وإلى جانب هذا بهو التشريفات وهو متسع فسيح وقد علقت في وسط جداره الجنوبي قطعة كبيرة كتب عليها بخط جميل "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى" ويجلس في هذا البهو الزائرون الذين يفدون لمقابلة جلالة الملك، وأمامه على خط مستقيم بهو كبير أعد للسكرتارية

وإلى جانبه من جهة الشرق غرفة رئيس التشريفات ووراءها غرفة الأمير حسين بن ناصر. وتقع غرفة رئيس الخزينة الخاصة في الجانب الآخر من البناء أي في الجهة الشمالية ويتصل بهذا البناء من جهة الغرب بناء كبير فسيح يتوسطه بهو متسع قامت حوله غرف وله مدخل جميل من الناحية الغربية، وهو خاص بالحفلات والمراسم ويستقبل جلالة الملك فيه الوفود عادة ويقال إن في النية نقل مكتبة جلالة الملك إليه وترك القسم الآخر للتشريفات.

❖ ❖ ❖

وقصر ا لحارثية على خمس كيلومترات من بغداد إلى جهة الغرب "جانب الكرخ" وهو مبنى في وسط مزرعة الحارثية وينسب إليها وقد تملكها جلالة الملك وعرسها بالأشجار المختلفة وهي كحقل تجارب زراعي.

وقصر الحارثية عبارة عن "فيلا" متوسطة قامت في وسط حديقة ربما كانت أجمل حديقة في العراق فقد نظمت على أفضل نسق وأكمله وهي وحديقة البلاط الملكي تدلان على شدة شغف المرحوم الملك فيصل بالزهور والورود.

وفي قصر الحارثية كان جلالة المغفور الملك فيصل يقضي معظم أوقاته - بعد أوقات العمل الرسمي طبعاً - فكان يقصده بعد مغادرته البلاط في الساعة الواحدة والمسافة بينهما لا تزيد عن ثمانية كيلومترات فيتناول طعام الغداء في غرفة المائدة وهي بسيطة ثم يتمدد في غرفة صغيرة من الجهة الغربية على مقعد طويل "كنبة" فيستريح قليلاً ثم يجلس إلى مكتبه في الغرفة نفسها فينظر في ما لديه من أعمال وينجزها وكثيراً ما كان يلعب "التنس" في ملعب الحديقة أو يسير على قدميه للرياضة في جوارها، وما كان يغادرها إلا بعد الغروب فإما أن يقصد قصر جلالة الملك علي وهو في كرادة مريم على شاطئ دجلة الغربي فيتعشى فيه وأما أن يقصد البلاط في جانب الرصافة. وكان يدعو أحياناً بعض الكبراء ورجال الدولة إلى قصر الحارثية فيحادثهم ويأكل معهم أو يشرب الشاي. وفيه غرفة للنوم فيها سرير واحد من الخشب ودولار للملابس وأثاثها بسيط كأثاث بقية الغرف الأخرى وفيها نفائس بينها سجادة أهداها الغازي مصطفى كمال باشا للمرحوم ابان زيارته أنقرة وقطع فنية نفيسة من إهداء الشاه رضا خان بهلوي.

وإلى الجانب الشرقي الجنوبي من الحديقة غرف صغيرة للحيوانات في إحداها نمر صغير شبيه بالنمر سهام وكان يألف جلالة الملك ابان الثورة العربية وله معه حديث مشهور رواه لورانس في كتابه. وهنالك حيوانات مختلفة أخرى.

وعلى مقربة من قصر الحارثية وفي المزرعة نفسها شرعوا من ستة أشهر ببناء قصر جديد يسمونه قصرالزهور، وينفق على بنائه من خزينة الدولة وتقدر نفقاته بخمسة وأربعين ألف دينار وقد ينجز بعد ستة أشهر على ما يقال.

ولقد زرته أيضاً وتجولت في أنحائه وأبهائه ويتألف من طابقين متسعين: الأول للصالونات فهنا "قاعة العرش" وهي بهو فسيح رحب الجوانب أعدوا في وسط حائطه الشمالي مكاناً خاصاً "للعرش" ويتصل بهذا البهو، بهو فسيح للطعام يجلس فيه ١٠٠ مدعو براحة والطابق الأعلى معد للنوم ومقسم إلى ٨ دوائر تتألف كل دائرة من غرفة فسيحة رحبة للنوم وتتصل بها غرفة صغيرة للتواليت أو الجلوس وتتصل بهذه غرفة الحمام وقد أنشئت على الطراز الحديث.

ومما علمته أن المغفور له الملك فيصلاً أمر ببناء هذا القصر لنزول الملوك والأمراء والعظماء الذين يفدون إلى بغداد وعني بأمره كثيراً وجاء له بالنقوش والزخارف من أوروبا وبالرخام من ايطاليا ويعلو التاج الملوكي المذهب مدخله، وقد أعدت المعدات ليكون من القصور العظيمة الجميلة وتحيط به حديقة غناء فسيحة وربما سكنه جلالة الملك غازي بعد زفافه القريب.

❖ ❖ ❖

وهنالك أيضاً مشروع جديد بإنشاء بلاط ملكي فخم في جانب الكرخ. وقد أتم مهندسو الحكومة وضع تصميماته وأرصدت الأموال اللازمة له وهي ربع مليون جنيه في ميزانية السنوات الخمس وسيكون متى تم من أفصخم القصور وأعظمها وتبلغ مساحة مبانيه وحدها أربعة عشر ألف متر مربع ولا يعرف بالضبط إن كانوا سيبدأون ببنائه قريباً بعدما أرصدت الأموال اللازمة له أم يؤجلون ذلك إلى فرصة أخرى.

❖ ❖ ❖

ديـــوان بغـــداد

مجموعة القصائد

التي أنشدت

في مهرجان بغداد الشعري الذهبي

الكوفة
Kufa Academy

تقديم

بدعوة من رابطة شعراء بغداد، وبرعاية رئيس الوزراء العراقي نوري كامل المالكي، أقيم مهرجان بغداد الشعري الذهبي تحت شعار (بغداد القصيدة والعراق المهرجان) باسم الشاعرة لميعة عباس عمارة، على قاعة المسرح الوطني ببغداد للفترة من صباح يوم السبت الموافق ١٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٩ إلى ٢٠٠٩/١٢/١٥.

افتتح المهرجان بكلمة للسيد المالكي دعا فيها أن يكون هذا المهرجان بداية لمهرجانات أخرى وتشكيل مؤسسات للفن والأدب والشعر وأن تتاح الفرصة لانطلاق العطاءات وأن لا تصنف الكفاءات العراقية الى أبناء الداخل والخارج كما صنفتها الدكتاتورية، لأن الجميع توحدوا من أجل العراق، وأن تبقى بغداد قبلة للعلماء والأدباء والشعراء والمبدعين في كل فن وبعدها قام رئيس الوزراء بتكريم ثلة من أعلام العراق المتميزين بعطائهم العلمي والمعرفي والفني كان منهم: الأستاذ محمد جواد الغبان، والأستاذ سالم الألوسي، والأستاذ سامي عبد الحميد والأستاذ زهير أحمد القيسي، والأستاذ محمد سعيد الطريحي (رئيس أكاديمية الكوفة ومؤسس موسوعة الموسم) والأستاذ سعد عبد الرزاق والأستاذ نجاح كاظم والدكتور علي عباس علوان والشاعر راضي مهدي السعيد والأستاذ كامل الجبوري والأستاذ نهاد الاوجي....

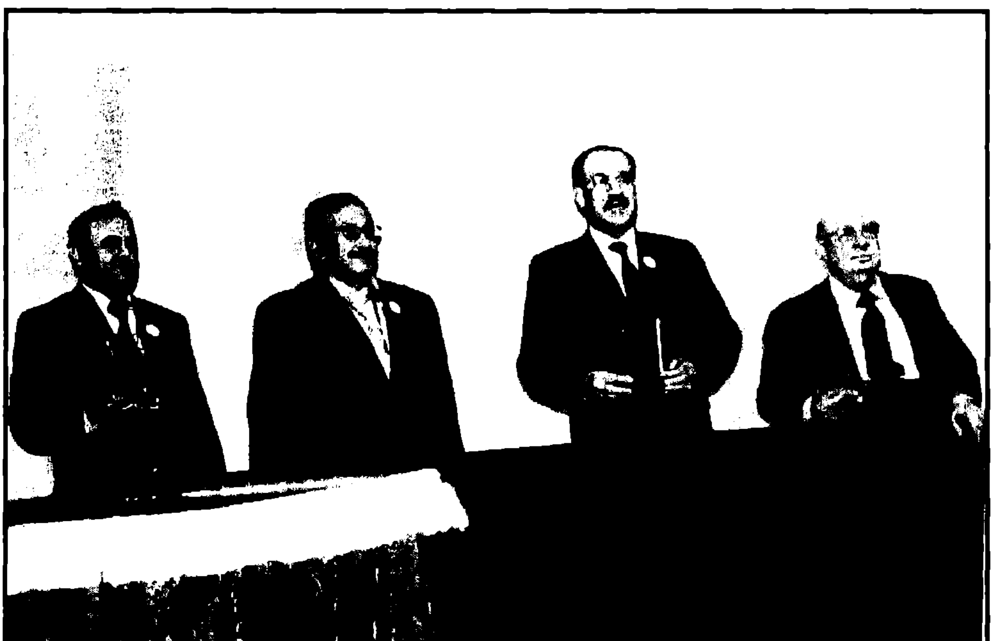
وقد جمعت موسوعة الموسم كل ما أنشد في هذا المهرجان من الشعر ووثقته جميعاً في هذا الملف الخاص ليكون شاهداً على هذه المأثرة الأدبية الجريئة التي شهدتها بغداد بالرغم مما كان يعصف ببعض أركانها من التدمير الإجرامي الذي تخطط له أيادي السوء وأعداء الحرية.



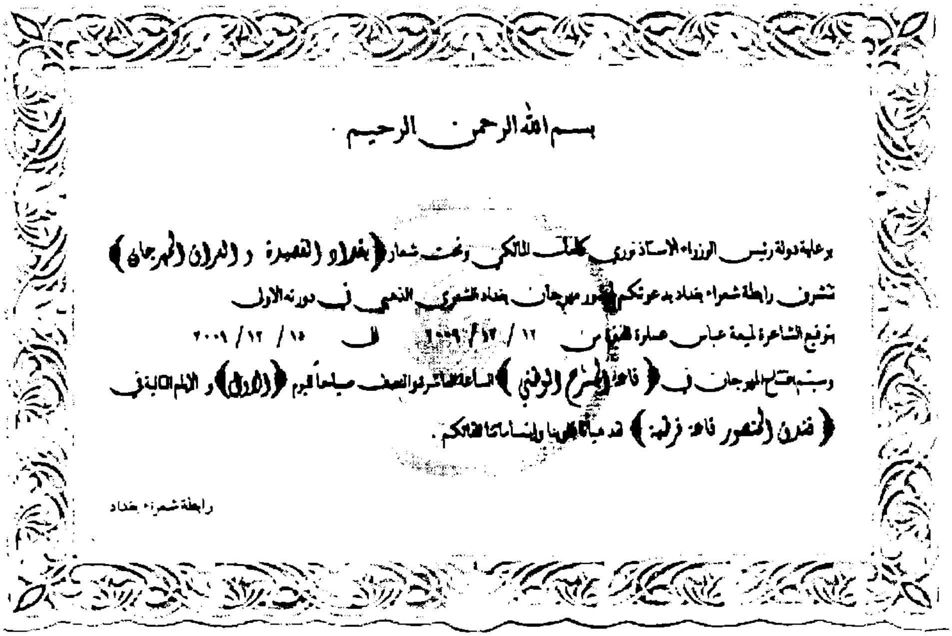
رئيس الوزراء العراقي السيد نوري المالكي
يكرم صاحب الموسم.



مهرجان بغداد لقطات من الافتتاح.



محمد جواد الغبان - نوري المالكي - فاضل تامر - محمد حسين الطريحي.


بسم الله الرحمن الرحيم

برعاية دولة رئيس الوزراء الأستاذ نوري كامل المالكي وتحت شعار (بغداد القصيدة والعراق المهرجان)
تتشرف رابطة شعراء بغداد بدعوتكم لحضور مهرجان بغداد الشعري الذهبي في دورته الأولى
بتوقيع الشاعرة لمية عباس عمارة للفترة من ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٩ إلى ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٩
وسيتم افتتاح المهرجان في (قاعة المسرح الوطني) الساعة العاشرة والنصف صباحاً اليوم (الأول) والأيام التالية في
(فندق المنصور قاعة زنوبيا) [illegible].

رابطة شعراء بغداد

دعوة مهرجان بغداد الشعري.



بوستر مهرجان بغداد الشعري.

يوم بغداد

إلى بغداد ومهرجانها الذهبي

علي الحيدري

التاريخ الشعري لإقامة مهرجان بغداد الذهبي بالسنتين الهجرية والميلادية:

«بغدادُ» يا صرحَ إبداعٍ وعرفانِ ... شَدتْ بحبكِ أوتاري والحاني
حُبْي وشعريْ وإلهاميْ وسرُّ غديْ ... وذكرياتُ الصِّبا الماضيْ وتَحناني
فأنتِ للأدبِ الخلاّقِ مُنتجَعٌ ... وانتِ رشفةُ كاس الوامقِ العاني؟
غَنَّيتُ في روضكِ المعطاءِ من صِغَرٍ ... حتى شكتني إلى عينيَّ اجفاني
لا زلتِ في الروحِ تاريخاً [اجددهُ ... سلمتِ مصدرَ إشعاعٍ لأوطاني]
ام العُلى بالعوالي أرختهُ [لها ... وخاطري حب بغدانٍ ووجداني]

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

تحيةُ للشاعرة
لميعة عباس عمارة

عبد الغني الحبوبي

لميعةَ الفكرِ والأخلاقِ والأدبِ ... ونجمةَ المهرجانِ الزّاهرِ الذّهبي
ونسمةً في رياضِ السلمِ نافحةً ... وبسمةً في شفاهِ الصُحفِ والكتبِ
حصادُ عمركِ أمجادٌ ومفخرةٌ ... قد نلتِ ذاكَ على جسرٍ من التعبِ
طفتِ البلادَ على الستِ الجهاتِ وما ... حلمتِ بالماسِ مكنوزاً وبالذهبِ
هتفتِ في مشرقِ الدنيا ومغربِها ... الشوقُ للوطن الغَالي يبرّحُ بي
والآن أهلاً وسهلاً بالتي اغتربتْ ... لكنها عن شغاف القلبِ لم تغبِ
يدُ العراقِ غَدَتْ مبسوطةً كَرماً ... لكلِّ منْ عاد من أبنائهِ النُجُبِ
أراكِ (تمثال) فضلٍ في العراقِ غدا ... (كنازكٍ) انتما من أكرمِ السحبِ
قولوا معي قد حماكَ الله يا وطناً ... من عادياتِ الصروف السودِ والنوبِ

المُهاجر أو هجرةُ العقول

✍عبد الغني الحبوبي

مهمــا اغتربــتُ مــشرّقاً ومُغربــا ... سَــأعودُ يــا وطــني فــديتكَ كوكبــا
الــشوقُ للــوطنِ الحبيــبِ مــبرّح ... للأهــلِ مــن ســكنوا الــسهولَ أو الرُبــى
انــا مــا تركــتُ هــواكَ إلاّ مكرهــاً ... الــسيفُ ســلّ علــى الرقــابِ مــصوبا
وتركــتُ مــاءكَ وهــو عــذبٌ ســائغٌ ... أو لم يكــن بــينَ الميــاه الأعــذبا!
وهــواكَ وهــو نــسائم بخميلــةٍ ... أو لمْ يكــن عنــدي الأعــزّ الأطيبــا!
لكنمــا أمــسى العــراقُ فجائعــاً ... فــترى بريئــاً بالــدّماءِ مخــضبا
وتــرى الأيــامى واليتــامى تــشتكي ... وقــع المُــصابِ شــكاتها ضــاعتْ هبــا
إنّــي وجــدتُ الإغــترابَ وســيلةً ... لــسواي لكــنْ لــن نُطيــل تغربــا
ســأعودُ يــا وطــني فجــذري ثابــتٌ ... ســيكون مــن عــصف الزعــازعِ أصــلبا
و(يلاقــحُ الأفكــارِ) مــصدرُ قــوةٍ ... للــدينِ منفتحــاً ســلاما معجبــا
ورســالةُ الإســلامِ نــشرُ مبــادئٍ ... للــسلمِ تعتمــدُ الطريــقَ الألحبــا
إنــا عطــاءٌ دائــمٌ تحتاجنــا ... أوطاننــا ســترى الخــبيرَ الأنجبــا
ســترى الــوفيَّ مــزوداً بــسلاحهِ ... بــالعلمِ والآداب غيثــاً طيبــا
أمــرَ الرســولُ المــسلمين بهجــرةٍ ... لمّــا رآهــا للخــلاصِ الأصــوبا
في هجــرةٍ داءٌ وبيــلٌ مثلمــا ... فيهــا الــدواءُ آســياً ومطببــا
في هجــرةِ العقــلِ الكــبيرِ خــسارةٌ ... خَــسَرت بــه الأوطــانُ عقــلاً أغلبــا
إنْ يعقــبِ اليــأسَ المريــرَ مخيّمــاً ... أمــلٌ فــأعظمُ مــا يحقّــق مطلبــا
كالــشمسِ تــشرقُ بعــدَ طــولِ غيابهــا ... تجلــو بــأنوارِ الــسّناء الغيْهبــا
ســتعودُ نيّــرة العقــولِ مــضيئةً ... زادتْ إلى تلــك المكاســب مكــسبا
ويــروحُ يحــضنها ويلــثمُ خــدّها ... وطــنٌ يقــومُ لهــا بعودتِهــا أبــا

الطوفان

✍ عارف الساعدي

ناديته وخيوط الصوت ترتفع   هل في السفينة يامولاي متسع
ناديتهم كلهم هل في سفينتكم   كأنهم سمعوا صوتي وماسمعوا
ورحت أسأله ياشيخ قسمة من   نجوت وحدك والباقون قد وقعوا
وهل ستر تاح هل في العمر طعم ندى   وانت وحدك والصحراء تجتمع
وكيف تبدأ هذا الكون ثانية   وقد تركت الفتى والموج يصطرع
انا صغيرك اقنعني وخذ بيدي   ام انت بالموت والطوفان مقتنع
الماء يأكل أحداقي وتبصرني   كيف استرحت وعيني ملؤها هلع
وهل ستذكر قبل الموت كيف دنا   عيني تضيق وعين الموت تتسع
وهل تنام وفي عينيك نابتة   عيون طفلك والالعاب والمتع
ام سوف تنساه مزروعاً بخاصرة   الطوفان يركله الطوفان والفزع
ياشيخ ذاكرتي الاولى ويا أبتي   ويالذي ضاق بي تقواه والورع
اكتافك السمر ياما قد غفوت بها   وصدرك الفرح المنسي والوجع
كل التفاصيل مرت في مخيلتي   البيت والاهل والاشجار تجتمع
صدى غراماتي الاولى واسئلتي   والقبلة البكر والاسرار والخدع
مَرَّت سريعاً عليَّ الناس والتصقوا   في دمعتي وعلانا الموج فانشلعوا
كل الحكايات يامولاي تبصرها   وتزدريها لهذا حزننا جشع
انت الذهبت بعيدا عن مواسمنا   لتصنع الكون لاخوف ولاطمع
ماذا صنعت وهذي الناس ثانية   من كل ليل إلى سوءاتهم رجعوا
صاغواملامح موت لايليق بنا   وحزمة من مناف فوقنا وضعوا
واورثوا كل شيب الارض في دمنا   متنا كثيرا وقلوا موتكم جرع
لأجلِ مَنْ انت يامولاي ترفضني   لأجلهم اكلوا الدنيا وماشبعوا
وهاهم زرعوا الانهار خيط دم   وكم حصدناه في صمت وكم زرعوا
ماذا صنعت اذن مولاي معذرة   كلي سؤال وشكي كله بقع
هل اقتنعت بهذا الكون يا أبتي   ام نهر حزن لهذا الشيب يرتفع
ياكم بكيت عليك الان يا أبتي   فقد غرقت كثيراً عندما طلعوا
اني لأبصر في عينيك يا أبتي   اشجار خوف بلا خوف ستقتلع
وقد رأيتك ندماناً ومنكسراً   وفوق حزنك ينمو سكر ورع
نحتاجك الآن للطوفان ثانية   فربما نصف طوفان وننتفع
فاصنع سفينتك الاخرى وخذ بيدي   فإنني الآن بالطوفان مقتنع

مَنْ للغريب؟

محمد حسين محمد كاظم الطريحي

من للغريب إذا ما حنّ للوطنِ ... واشتاقَ للأهلِ.. للأحبابِ .. للسكنِ
يشكو ويأملُ لو شكواهُ يسمعُها ... خيالُكم لرأيتم أعجبَ الشَجَنِ
مالي على البعد إلاّ طيفكُم أملاً ... آوي إليه إذا ما الزّني وَهَني
جمّعتُ في عينيَ الدنيا لأبصرَكم ... فما لطيفكمُ حيّا ولم يبنِ
فكيف والشوقُ أغرى كلّ خافقةٍ ... بذكركم ثم أبكي السرّ في العلنِ
أمّي معي ودعتني وهي قائلةٌ: ... إياكَ ياابني تنساني مع الزمنِ
أمّاهُ ...ليس لمثلي في الحياةِ مُنىً ... إلا لقاؤك أفديهِ الدنى وأني
أمّاهُ .. كل اشتياقِ الكون ليس له ... بعضُ اشتياقي خذي روحي من البدن
أمّاه مدي ذراعيك تطوّقني ... فما يطمئنني إلاك فاحتضني
أمّاه.. كلّ عيونِ الناس حالفها ... حظُ البكاء سوى عيني لم تعنِ
حسبي وحسبُك ياأماه إنّ دمي ... تمشي الفجيعةُ فيه ثم تنكرني
غير التشردِ لم تعرف رؤايَ مدىً ... وكلّ مالم يكن إنْ شئتَ فليكنِ
أنا البعيدُ وطيفٌ منكِ قرّبني ... منَ العراقِ ألا بشراي بالوَسَنِ
لو انّ نفسي لنفسي مابَخِلتُ بها ... فدًى لدمعتك الثكلى على حسَنِ
أمّاهُ..أبكي العراقيينَ ليس لهم ... مأوًى سوى الموت ينجيهم منَ الفتنِ
مشرّدونَ وفي أضلاعِهم وطنٌ ... ماكان يوماًليرضى الذلَ في الوطنِ
أبكي العراقي يبكي طفلةً نزفَتْ ... ماءَ الحياةِ لفرطِ الجوعِ والحَزَنِ
صار العراقيْ.. يخشى ان يقالَ له: ... من أينَ انتَ؟ وغضَّ السمعَ بالأذنِ
صار العراقيُّ.. يخفي وجهه خجلاً ... من بعد ماكان يطوي الكونَ كالغصنِ؟؟
يموتُ في صبرهِ عزاً بمحنتهِ ... ولايمدُّ بكفيه لمرتهنِ
آخى الرسولُ علياً في اشتدادِ أسىً ... فمن يؤاخي العراقيينَ بالمحنِ
يمشي العراقيُّ.. في الدنيا بلا ثقةٍ ... منَ الحياةِ وفي عينيه ذو يزنِ
كل ابن آدمَ يمتصُّ الرّدى دمه ... الاّ العراقي يعاصي الموتَ بالكفنِ
ممزقونَ وشوقٌ في أضالعهم ... أنْ سوف تجلى غياباتُ الدمِ الهَتِنِ
تمرُّ قافلةُ الأحزانِ في مُدُني ... فتقشعرُّ حناياها منَ المُدنِ

وايـنَ مـنْ امنيـاتِ الـنفسِ واحـدةٌ أن تـستعيدَ ولـو حلمـا ثـرى الـوطنِ
مـنْ أرض هـولير حتـى الهـورِ باكيـةٌ فيـك الطفولـةُ تـشكو قـسوةَ الـثَفَنِ
ويـسألونكَ عـني يـاعراقُ فقـلْ: إنّـي تـبرأتُ مـن عبّـادةِ الـوثَنِ
لبيـك يـاأول الـدنيا وآخرهـا ياأيهـا الـوطن المحتـاج للـوطنِ
مـاذا؟ وأيـن؟ ومـن ذاك الـذي انتظـرت عيوننـا أن يكـن سـرا لمـؤتمنِ
ليـت النفـوس الـتي تعطـى رغائبهـا تـستل مـنهن مـايوفي علـى الـسننِ
فمـا ابتعـادي عـن أهلـي يغيرنـي ولـيس قربـي مـنهم يـدن لـي مـنني
أذود عـني ازورار النـاس في لغـة مـزورة عـنهم الا مـن اللـسنِ
ممـن تخـوفني البلـوى؟ بـشدتها وقـد تملكتهـا مـن قبـل بـالفطنِ
أم الرزايـا وكانـت أمـس تحـسبني سـهل القيـاد الا تبـت يـد الـضننِ؟؟؟!!
فلـستُ ممَّـن إذا مـا الخـيرُ يخذلُـهُ يجـازِ شـراً علـى الأحـسانِ بـالإحنِ
لكـن بـي كبريـاءاً لـيس يبلغـه كـبر الطواغيـت فـارجم كـل محـتقنِ
لأتعـبن الـدنى فيمـا تحاولـه أو نـستجيب لنـا مـن دونمـا ضـننِ
أو تأخـذن اليهـا شـر طاغيـة أو تعطـين الـذي يخـشى علـى المحـنِ
مهـول مـافي مـن شـكوى يعـرفني إنـي لـصاحبها كـالطير للفـننِ
لم أبـق منهـا لهـا ماتـستعين بـه علـى سـواي ولم تبـصر سـوى قـننِ
ومـا اكتـساب الأذى للـنفس عـن رغـب إلاّ كمثـل اكتـساب الـسحب للـدمنِ
وكـم تقلبـت في الاوطـان مغتربـاً فمـا وجـدت بـديلا عنـك يـاوطني
كـذا أنـا وأنـا كـلُّ العـراقِ أنـا مـستفعلن فعلـن مـستفعلن علـنِ؟؟؟؟!!

حين يرسمُهُ دماً

✍نذير المظفر

مـا بـين عينـيهِ كـانَ الحُلـمُ يرسمُـه وجهـاً لأمنيّـةٍ عطـشى تُجَـسّمُهُ
إشراقـةً أوّلتْهـا سحنـةٌ وهبـتْ أبـاهُ أخيلـةً في الخـوفِ تُلزمُـهُ
أن يرسمَ الطفلَ من ألـوانِ ضَحكَتِهِ علـى اخـتلافِ ربيـعٍ ليـسَ يعلَمُـهُ
فهاجمـوهُ بأسمـاءٍ يرتلُـها نزيفُـهُ، لامتـدادِ الحُلـمِ يُـسلِمُـهُ
دمـاؤه بـين أحـلامٍ يكـرّرُها تـسيلُ مـا بـينَ أنيـابٍ تُـشرذِمُهُ

فلَمْ يَعُدْ باسمِ هذي الأرض ما نَزفتْ   بريقَهُ، قدرٌ اقسى يوسّمُهُ
وصادروا دمَهُ ما زالَ مُحتَكَراً   لمن يُتاجرُ فيهِ لا يُؤمّمُهُ
وبعثرتْهُ معانيهِ ومعظمُهُ   قد تَاهَ يبحثُ عن حُلُمٍ يُلملِمُهُ
وغابَ خلفَ دمٍ اخفى ملامحَهُ   ولم يَعُدْ أيُّ شيءٍ فيه يَفهمُهُ
وكانَ افجعَ ما خطَّتْهُ لوحتُهُ   أنْ صارَ يرسمُهُ مِنْ بعدِهِ دمُهُ
حتى إذا لوّنَ الفرشاةَ مِنْ دمِهِ   غدٌ غريبٌ على غيبٍ يصمّمُهُ
كانتْ لياليهِ، سرُّ الموتِ يفضحُها   ما عادَ سرٌّ لهذا الموت يكتُمُهُ
كانتْ تعدُّ عليهِ وقتَ ضحكتِهِ   وذاك آخرُ ما كانت ترقُّمُهُ
وجهُ الذي اتربَتْهُ النارُ تحسَبُهُ   طفلاً وقد افزعَ الأمواتَ مقدمُهُ
ترتيلُهُ الدمَ قرآناً سينقشُهُ   ابوهُ، فوقَ هدوءِ القبرِ يَختمُهُ
يا حيرةً لأبٍ ما زالَ تسألُهُ   الوانُهُ وسكونُ الحلمِ يُبكمُهُ
فكنتَ تُصغي لصوتِ الموتِ من دمِهِ   كانتْ جراحُكَ من كانتْ تكلّمُهُ
وراحَ يمشي إليهِ خطوةً كَبُرَتْ   على العناءِ وكم يُغري تجشّمُهُ
وطافَ ما بينَ عينيهِ ولوحتِهِ   وانسلَّ بينَهُما دمعٌ يُتمتِمُهُ
حروفُهُ صمتُ ليلٍ من تلوّنِهِ   للآنَ يرسمُ ما هيهاتَ يُلهمُهُ
بما ستنطقُهُ الألوانُ يَمزُجُها   بلونِ امنيّةٍ ثكلى لها فمُهُ
تحيطُهُ من نسيجِ الوهمِ ازمنَةٌ   تلعثمَ الخطوُ فيها وهي تُوهِمُهُ
فلم تزلْ شفةُ الاحزانِ تطفِؤُهُ   ولم يزلْ نبضُ سيلِ الدمعِ يُضرِمُهُ
تهدّمَتْ شفةٌ حيرى يُحاولُها   واسّاقطَ البوحُ لا صوتٌ يرمّمُهُ
وخيَّمَ الحزن ليلاً ظامئاً بفمٍ   وافصحَ الدمعُ عما زال يَلثُمُهُ
تذوّقَ الموتُ طعمَ الجمرِ من يدِهِ   ومن رمادِ تشظّيهِ تيمّمُهُ
وحاولَ الوهمَ درباً فاتَ موعدُهُ   مع الرحيلِ ولا يُجدي توهُّمُهُ
لوحاتُهُ كسّرتْ مرآةَ اعينِهِ   لم يرمِ فرشاتَهُ للآنَ يرسمُهُ

❖❖❖

(مسافر)

وليد الصراف

قد أقطع البرّ لا سعياً إلى الثمرِ ... وأركب البحر لا بحثاً عن الدررِ
لكنّها خطة ويلمّ قابلها ... ظلامها أوعد السارين بالعثر
ويلمّه راجل العينين ليلتها ... بلا جواد الكرى يسري إلى السحر
يرتاد أضرحة مجهولة بُعثت ... أرواح من دُفنوا فيها إلى سقر
تزورها الريح والأشباح تسكنها ... والجنّ عن أهلها يأتيه بالخبر
يرى ويسمع مالو أدركت ذهلت ... أذن عن السمع أو عين عن البصر
مسافر نحو ليلاي التي كمنت ... لخافقي في ذبول العشب والزهر
وفي شرود غمامات يؤرّقها ... أن سوف يرغمها برق على المطر
وفي خطى الموت من شك ومن كمد ... تقفو خطى امرأة تقفو خطى ذكر
وفي ضحى شمسه غابت فأطلعها ... من ريشة ضربت لحناً على وتر
على ليال عليه أسدلت سدفاً ... وغيّبته من النسيان في حفر
في كلّ مافات أو ما مات مندثراً ... على امتداد مفازات من العُصُر
تمتدّ من آدم إذ قال ذات دجى ... همساً لحوّاء، يا أحلى من القمر
في ليلة لم يكن في الأرض غيرهما ... فكان من بعدها ماكان من بَشَر
مسافر هربت خوف الضحى شهبي ... وغاب بين غمامات الأسى قمري
وأسفر الليل عن قوس توعّدني ... بأنّها سوف ينهي سهمها سفري
وأنه مدركي إن كنتُ مستتراً ... لدى قبيل الكرى أو طاوياً سهري
وأنه مطعمٌ وحش الفلا جسدي ... والدود ماعاف من عظم به نخر
وأنه ليس يجدي دونه حذر ... إذا اتخذتُ مجنّاً دونه حذري
مسافر ترصد الأيّامُ قافلتي ... وترسل الريحَ من شكي ومن فكري
ويبرز الدهر لي قفراً شكت مقلي ... من طوله، وشكا عمري من القصر
وحدّثتني نجومي أنّها خبأت ... وراءه لي كنوز البدو والحضر
وها أنا دون مهر في غياهبه ... أسري وموتي وراء الأفق منتظري
مستيقناً أنني لا بدّ أقطعه ... وقد تركتُ على أحقابه أثري

حارس آخر الليل

✍ حبيب السامر

المقدمة

حين تسمو ساعة سورين
في مدينتي
عرّج عليّ السياب
وأوصاني
أن أحملَ انشودة المطر
فأعلقها على بوابة بغداد
وزودني بحفنة من تراب جيكور
وقال لي
إنثره حيثما تمر في الأزمة
وعلى الجسر
لنقبل ذرات التراب المتساقط
على ماء دجلة
يشع الماء
وأوصاني أيضاً
بـ (حارس آخر الليل)

القصيدة

أخفى الحارسُ نعاسَه
وألقى بالظلمةِ
خارجَ سياجِ مراياه
بأصابعِ الصمت
يبارزُ ظلَّ الطواحين
ثوى
يرنو إلى
انكسار الليل
في زوايا تجاعيده المعتمة
حدقاتٌ صفر
تتطاير
فوق هاماتِ السنابل المنحنية
تشدها الريح

إلى ومضةٍ من فنار
أمواجُك
أتباعك
أوثقوا التاجَ
وأنت تهيئ ناراً لبريد آخر الليل
للغابةِ الماثلة
في عين المدار
سترقد في مكابدات صنائعك الواهنة
ما جدواك
أيها المتعثر بالأخطاء
إن الضيفَ
قاد ظِلهَ نحوك واختفى
تحت إمثولاتِه
وهن انكسار
كم مرت على احجارك
خيولُ العتمة
وأنت ممتلئٌ
تمازحُ مسبحةً
تصافح ظلمةً
والحارس لا يزالُ يقرصُ نعاَسهُ
بالدخان والسعال
أخذته اللحظة
بلل تلويحاتِه
بندى انتظار
استقى الدخان
نحوك قادني الدخان
وبقايا سعال
هياتُ لأجلكَ
خصيب الكلام
شدنا الليل
بسموات مقفلة
فمضينا معاً
عيوناً تطارد

شوارد النهار
بغداد...... يا دار السلام

محسن حسن الموسوي

بغدادُ قولي، فالدنى لكِ تسمعُ   فلأنتِ أمٌ للزمانِ ومربعُ
ولأنتِ انبلُ منْ تعالتْ فاهتدتْ   وسواكِ يعلو والرذيلةُ تقمعُ
ووهبتِ خيرَ حضارةٍ فتألقتْ   فيكِ البريةُ والجهاتُ الأربعُ
وسواكِ كلّ حضارةٍ مزعومةٍ   تأتي ويصحبها الدمارُ الأفظعُ
ولأنّ مجدكِ للمكارم والتقى   كثرتْ سكاكينٌ وهاجَ المطمعُ
مُذْيوم هولاكو رُزءتِ ولم تزل   فيكِ الرزايا مثقلاتٍ تقرعُ
ولقد نزفتِ من الدماء اجلها   ولكلّ جرحٍ آهةٌ وتوّجعُ
وأشدّ جرحٍ من قريبٍ يدّعي   وداً ومعولهُ الرياحُ الزعزعُ
يلهو بقتل الناس وهي بريئة   ويصول في هتك الستار وينزع
ويظن ان القتل فوزٌ للهدى   فيحط من شرع السماء ويوضع
و تراه منتشياً إذا ربح الأذى   لم يبقِ في قوس الأذى ما يودعُ
أنا لا اقول الأجنبي سلاحه   غافٍ وليس له بقتلٍ مطمعُ
أنا لا أبرؤه بكل جنونه   فالقول عنه على اعتذارٍ يُدفع
هو كلّ بلوى الشرق لو ابصرته   ابصرتَ ذئباً بالمراعي يطمعُ
فعلام يقتلُ بعضنا بعضاً وفي   دمنا المحرّم كل غاوٍ يرتعُ
وعلامَ من خلفِ الحدودِ يجيئنا   هذا الفحيح على الخلافِ يشجّع
يدنو لهذا أو لذاك مراوغاً   وبهدم كلّ حصوننا يتوسّع
ومكفراً هذا ويطعنُ ظهر ذا   ويخاف من هذا العراق ويهلعُ
ويظنُ قد أوفى الأله عهوده   بقتالنا والظن اثمٌ أسفعُ
ويظنَ في قتل الطفولة قد زكت   أعماله وله الرسول سيشفعُ!
وهو الذي من فعله بكت السما   والأرض مادتْ حيث سالت ادمعُ
وهو الذي قد شوهت افعالهُ   وجه الزّمانِ وعن الأذى لا يُمنعُ
بغدادَ عودي للحضارة قبلةً   شمّاءَ في نور الحقائق تسطعُ
وعلى يقينٍ انّ ستأتي بهجةً   فغداً سيأتيها نهارٌ انصعُ
عودي لنا بغدادَ انت ملاذنا   يا حبَّ اهلٍ في هداكِ تدرّعوا
وسلمتِ يا دار السلامِ واهلها   وضمنت انّ غداً زمانٌ اروعُ

ليلة الحياة والموت

✍ مرتضى الحمامي

كنـا هنـا وقمـيص الليـل ينفـتح ... زراً فـزراً.. ليلقـى ربـه القـدح
كنـا نـصلي وكـان الحـزن يكفـر بـي ... وحينمـا ابتـلّ ثغـري آمـن الفـرح
قبلتهـا.. بـل الـه الحـب قبّلنـا ... سـويةً.. فـسقطنا فوقنـا المـرح
وفوقنـا الليـل والـدنيا وظلمتهـا ... وكـل مـن لـيس نـدري ملأنـا انسرحوا
مـا أثقـل الحَـبّ والعـصفور يحملـه ... مـا أثقـل الحُـبّ والـسيّاب ينـشرح
حبيـبتي اسـتيقظي.. فالليـل يخـنقني ... في غـرفتي غيمـة في غـيمتي شـبح
حبيـبتي اسـتيقظي نمنـا سـنين هـوىً ... في ربـع سـاعة صـفر شـعرها سـرح
حبيـبتي لا تنـامي المـوت اكملـه ... في ليلـة.. ان عـين الـصبح تنفـتح

آمنت بالورد

✍ مرتضى الحمامي

نُـصبّتُ طفـلاً وكـلُ الكـونِ مـن لُعَـب ... نعـم انـا الطفـلُ لكنْ مـلء صـدرِ نبـي
اجـري مـع الحُـب في صـدري.. نتيـهُ معـاً ... حتـى أرى الارضَ تـستلقي علـى تعبـي
تعبـتُ أغمـض عـينَ الليـلِ.. أعـصرها ... حتّـى تهـادتْ دمـوعُ الفجـرِ مِـن هُدُبـي
أهُـزّ آمـالَ ثكلـى نخلـةً يئـستْ ... الأمُ ماتـتْ وعـادَ الطفـلُ فـي الرُطَـبِ
واسـتوردوني رغيفـاً مـاتَ يطعمُهُـمْ ... مُذْ صَدّروا لـيَ طعـمَ الجوعِ في العُلَـبِ
في مِـنْجمِ الذهـبِ الغـافي ينـامُ دمـي ... لتـستفيق بوجهـي صُفـرةُ الذهـبِ
لـلآنَ قلبُـكَ يـا مـولايَ يؤلمنـي ... والـدمعُ يـضحكُ في عَينَـيْ أبـي لهـبِ
كـلُ الحـسينِ حـسينٌ وحـدَهُ.. وكفـى ... وكـلُ مـا لا حـسينٌ ليـسَ فـي كُتُبـي
اشرَقْـتَ شمـسَ مغيـبٍ بالعزّتهـا ... غابـتْ على خـدّها الدنيـا ولـم تَغِـبِ
لقـد أراهـا الـتي مـن نحـرِكَ انحَـدَرَتْ ... علـى جبـيني.. تجلّـتْ قطـرةُ العَتَـبِ
فرُزمـةُ الحطـبِ اللاشـيءَ يكـسرُها ... تنـاثرَتْ فـي يَـدَيْ حَمّالـةِ الحطـبِ
آمنـتُ بالـوردِ تبكيـهِ الـسماءُ نـدىً ... ليزفـرَ الهـمَ عطـراً أعجـبَ العَجَـبِ
آمنـتُ بـاللهِ فـي طفـلٍ يـسبّحُهُ ... دمـعٌ علـى خـدّهِ فـي حَـضرةِ الـسغَبِ

آمنتُ بالجوعِ طفلاً ليس يُسكتني ... نبيُّ قدرِكَ ماءً فوق نارِ أبي
آمنتُ بالحُبِّ خَمْراً عبَّ واقعَنا ... وصَبَّ أحلامَنا في سلَّةِ العِنَبِ
صدري بكارةُ حَقْلٍ والزهورُ دمي ... في داخلي خَلَقَ الرّحمنُ ألفَ نبي
ما لي هُنا كُلّما زَحْزَحْتُ مِنْ حَجَرٍ ... وجدتُ تحتي سماءً ربُّها طَلَبي
ما لِلْمُحيطاتِ في صحرائكَ اعتكفتْ ... وسِرتَ ملأكَ تسقي.. حاملاً عَطَبي
هُنا على كفِّ فَلاّحٍ قَدْ انعكستْ ... طلاسِمُ الماورائيّاتِ والحِقَبِ
هُنا على شَفَةِ السيّابِ أُغنيةٌ ... ماتتْ تُناغي شناشيلَ ابنةِ الجلبي
هُنا العراق.. هنا تسعى السماءُ لكي ... تصيرَ أرضاً.. فما أعلاكِ يا تُربي

❖ ❖ ❖

قصة قصيرة

✍ ثامر جاسم

مدخل

ما كنتِ ناشرةً ظلالَ الورود
في ليلي ولا صبحي ولا حتى الظهيرهْ
بل كنت ناشرةً ظلال الوقتِ
في كل المحطات الأخيرهْ
بغدادُ...يا بغدادُ
يا تلك الأميرهْ

النص

١/ كانت تغني للزمان المؤدي
إلى حلمها
قريةٌ تستفيقُ قبل العصافيرْ
والندى حالمٌ بالصبح
يغرقُ قيثارة الورد
بالهمسِ والطين فوق أجنحة الفَراشْ
كانت تسمى قريةً
والزمانُ المؤدي إلى حلمها
مد حافره نحو أبواب المدى

فاستحالت مدينةْ
انها أنشودةُ المغنين
إنها الآن
كانت....
تسمى بلاداً
وكانت....
تسمى سواداً
وكانت...
تسمى مداداً
وكانت.... وكانت تحبّ الحياة
كان تُموز في رحمها يحبو وفي روحها يصبو
ويشتد عوداً
وعشتارُ سرحت شعرها المستبدّ
فنام الحرير
على الضفتين على الربوتين
وهام القطا والقطيعْ... على صوت لحنٍ رجيعْ
كان تموزُ نافثاً مزماره للحرب
وعشتار للحب
وكانت وكانت وكانت
بغدادُ كانت وكانت.... وكانت وكانت
٢/وتبقى القصيدة........ يبقى الوطن

❖ ❖ ❖

ذاكرة القميص......

✍ مجاهد أبو الهيل

الحـــب نافـــذة... وقلبُــكِ مقفـــلُ ويـــــداكِ وردٌ اسمـــــر وقرنفـــلُ
عينـاك خارطـة الظـلام.... وهمـسك الـــسكران أغنيـــة الحـــصاد... وبلبـــلُ
والحقـل ثغـري....وجنتـاك حمـائمٌ شـــفتاي عـــشٌ للحمـــام وســـنبلُ
نهـرٌ مــن القـبلات... مـرّ علـى فمـي مـــستر خيا يمـــشي وثغـــرك جـــدولُ
عبثـاً يُـسائلني القمـيص فاسـتحي ويـــداي أجوبـــةٌ تجيـــب وتـــسألُ

قسماً بذاكرة القميص وانهُ ... لو تعلمين من القداسة أنبلُ
أحرقت غابات النساء جميعها ... واتيتُ يحدوني فؤادٌ اعزلُ
لم احترف إلا يديكِ فدفؤها ... مثل العراق عباءة تتهدلُ
وطنٌ من الشرفات اثثهُ الوداعُ ... مرافئي شتى وخليَ يرحلُ
وطن يفر من الحروب جميعها ... خوفا على بغداده تترملُ
بغدادُ طفلته القديمة لم تزل ... في حضنه كعشيقتي تتدللُ
رحماكِ سيدة العناق فشمعتي ... لن تستفيق وضوء قلبي يذبلُ
لا تُقلقي طفل الحمام فانهُ ... وجعٌ يفزُ وصدرُ دمعٍ اهدلُ
طفلٌ من النارنج شبَ على الظلال ... فقربيهِ فشمسُ هجركِ مقتلُ
لم يرتشف قلقَ الرحيل كانهُ ... ليلٌ يطول ووجه صبحٍ مهملُ
يا آخر النايات في عزف الهوى ... هل تعلمين بأنَّ عزفك اولُ؟
رممتِ ذاكرة الرصيف بخطوةٍ.... ... للان يذكرها الرصيف ويثملُ
سيفي يدُ امراة أهشُ بها النساء ... مآربي انتِ وقلبك منزلُ
والحبُ أسئلةٌ لها قلق العراق ... عصيةٌ للعاشقين لها جوابٌ مقفلُ

❖ ❖ ❖

قميص كامل شياع

✍ رزاق الزيدي

لا تكسري لغتي...
وراءَ الباب ريحُ
واستمطري شفتي...
لعليَ أستريح
دمع ودم
والليلُ يأكله الندم
ووراء هذا الحائطِ المكسور خاطره
ثكالى تستريحُ

لا تكسري لغةَ النشيد
فنشيدنا عاش الألم
إذْ كلّما ...
عدّوا أصابعنا تدلى في الحروفِ
فمٌ ذبيحُ
او كلّما ...
سدّوا منابعنا
تمظهر في الرغيف
دمٌ مسيحُ
دمع ودم
به تعتصم
لي أخوة
للشمس كانوا يسرجونَ دمائهم
قمصانهم كانت معلقة على الآمالْ
عطرُ الياسمين نحورهم
وقلوبهم بيضٌ
و لا كل الرجال
لي أخوة عمش العيون
غزلوا خيوطَ الفجر
قمصاناً
وراياتٍ
وبيتاً لليتامى
لي أخوة
(حلوين)
يا عطر الخُزامى
لي أخوة لا يكذبون
كنّا نمارسُ لعبةَ السلطان
في حقل البراءة
والمسدس كان من فخار سومر
والخيولُ من القصبْ

كم كان يأسرنا التعب
فنروحُ نركض تحت ظل النخل
نأكلُ ما تساقط من رطب
لي أخوة
خمص البطون
سكبوا زلالَ العمر
اغنية..
وكأساً للندامى
وتوزعوا الغربات
والضحك الحزين
ناديتهم
يا ما... ويا ما
سدّوا منافذَهم تماما
صاعدين إلى الخلاص
وتدرجوا في اللون
منكسرين في المعنى
يصدّون الخراب
باب وباب
باب يؤدي إلى العذاب
وآخرٌ...
تتلمسُ الكلمات وحشَته
وتُغنى
مدنٌ تسافرُ في الشظايا
والمؤول
يكسرُ المعنى وينفيه
الصحيح
لا تكسري لغتي وراء الباب
ريح
باب وباب
لا شيء يفضي للتدرج في

حقول الروح يومئ بالإياب

فتوسّدي حجراً

وكوني دمعة

واستمطري الكلماتِ

واحترمي النشيد

لُمّي صغارك تحت جنحك

يا بلاد الطين

وثوبا للصلاة

يصدّون الخراب

باب وباب

باب يؤدي للعذاب

وآخر...

تتلمس الكلمات وحشته

وتغنى

مدن تسافر في الشظايا

والمؤول

يكسر المعنى وينفيه

الصحيح

لا تكسري لغتي وراء الباب ريح

هذا قميصك

يا بلاد الله

موشومٌ بأنيابِ الرصاص

وبالعتاب

وراء هذا الليل مقبرة

وجناتٌ صفيح

لا تكسري لغتي وراء الباب

ريح

يا أيها القمر

استدر نحوي

وكن نبأً

وحدثني عن الخريّط
عن طعم الشفلحِ
لونه
لونِ الخرائط
جمرةِ الطلقات
يتلوها الرفيف
هل كنت وحدك في النزيف
أم الوطن؟
هل مرّ دمك في الرصيف
بلا شجن
فالموت سِفركَ
في التنوع والعدم
دمع ودم
ما بين فوّهة المسدس
أو حقول الموت
والألغام
أو ذهب السكوتْ
كم كنت وحدك كي تموتْ
و بلا كفن
وصرخت يا نفسي
اما يُكفيك هذا الحب
حباً كي تموتي
وزعت صوتك في الدروب
وفي القلوب
حباً تقاسمهُ
الفقراء
والأمراء
والشعراء
دمعاً كالغروب
كم كنت وحدك في الخلاص
ولا مناصِ

كان المسدس شاهداً

والجسرُ

والوطنُ الشحيحُ

علق قميصك رايةً حمراء

تصطبغ البلادُ بلونها

نظلّ

و لا نطيحُ

لا تكسري لغتي وراء الباب ريح

❖ ❖ ❖

ما جاء في مرثية المعري لنفسه

أحمد عبد السادة

لم يكن لي سوى ان اضرمَ اليأسَ في قيثارتي

وان أكمّمَ الهواءَ بصرخةٍ ذبيحة

لم يكن لي سوى أن أكلّل البدايةَ بالفقدان

وأن أهدي للضوء جناحينِ من تراب

لم يكن لي سوى أن أعتّق النار

لأصنع منها عيناً تطل على مقبرة الوقت

تطلّ على العدم وهو يشحذُ بروقه ويضحكُ

لم يكن لي سوى ان أعرف انّ الوقت

صندوقٌ من الأنين

ونهرٌ لا تروضُهُ اللغات

ومتحفٌ للصمتِ والشموس المحنّطة

لم يكن لي سوى ان اعرفَ هذا

وان أعرف أن دمي رمية نردٍ

أطلقتها شهوة أبي في غابةٍ عمياء

ولكنني أرى

أرى العمى الذي أغرقت صيحتُه قلوب أسلافي

أرى أسلافي وقد عبّأوا ايامهم بالسراب

وأيقظوا بذورَهم في سورةٍ للقحط

وولّوا اسمائهم شطر أذانٍ تجعّد
شطرَ كتابٍ يلمع الريب آياتهِ
ولكنّي أرى
أرى آيات ملثّمةً تتوعد الأغاني بالصدأ
والمطرُ بوادٍ غير ذي زرع
والمدى بمغارةٍ لا تعرف القراءة
والهواء بكفنٍ أسود
والنهارَ بشمسٍ من الدم
والمدنَ بقنابلَ هرّبتها خيول قريش
لم يكن لي سوى أن أصابَ بدوارِ الزمن
لأعرف أنّ الأيامَ بساتينُ جماجم
لأعرف أن المكان مختنقٌ بأضرحةٍ لا تُرى
ولكنني أرى
ارى العطش يزرع أقفالهُ في الماء
أرى الماء مسجىً في تابوت من الرمل
ارى الرملَ شاهدةَ كل شيء حي
أراه يشيّد نشيده المأتميّ في خفقة عسلٍ يتقاسمها زوجان
أراه يدسّ نبضهُ الثقيلَ في صرخةِ الولادة
أراه............

....

وأرى حشودَ ذبائحهِ المتناسلة
منقّعةً بالغفلة
ومسحورةً بذهب ميّت
ومحروسةً بكلماتٍ لم يزر أنفاسها الفجر
لم يكن لي سوى أن أعرف أن الوقت ناعور
يحمل ماء البارحةِ إلى ساقية الغد
لم يكن لي سوى أن أعرف أن الوقت
إكليل خالد على ضريحٍ اسمه الماضي
كل آت إذن مدجج بانطفائه
كل لحظة تطلّ هي عروس ارملة

لم يكن لي سوى أن أعرف ان دمي حوارٌ
بين قاتلٍ وقتيل
لم يكن لي سوى ان اعرف ان دمي بريدٌ مفتوحٌ
لرسائل العدم
لذلك
كان عليّ أن أحتكر قناديل عتمتهِ
وان اقفلَ رعبَهُ على نفسه
لم يكن لي سوى ان اعرف هذا
لذلك
كان عليَّ أن أعاشر نجمةً عاقراً
وان استنجد بنهاية لن تبذر النحيبَ وراءها
هذا، إذن هو نزيفي المنفردُ
وهذه هي إذن صحرائيَ الرحيمة
حيث لا وردة تساق إلى الذبول
و لا ينبوعٌ كي يوشمُ قلبُه بالجفاف
و لا ضوءٌ كي يحمل على حدبته ثروة الظلام
و لا نردٌ كي تطلقهُ شهوةٌ في غابة عمياء
هذا إذن هو عدمي
أتوكأ عليه
وأستدلُّ به على حدائقِ الفجيعة
على ربيعٍ أطفأتْ شهيقهُ المناجل
على سنبلةٍ أكل النمل تنهيدتها العذراء
على صباحٍ اختنقت شرايينه بالرماد
هذا إذن هو عدمي
يؤاخي جمرتُه الكاملة
ويطفئ الوهمَ في مراياه المؤبدة
ويدق خطوته في بوصلة بلا جهات
هذا هو إذن دمي الحرامُ يشنق صمتَهُ
ويستظلُّ بشجرِ المراثي
ليعربَ عن شمسهِ القتيلة

تقريب الأسماء

✍ صادق الطريحي

ايّتها القصيدةُ الأخيرة
لمَ اقبلتِ الآن
حائرةً ومستعجلة
واسعةً كمعبدٍ للحب
وضيقةً كمركبٍ جريح؟
ايكون اسمُك
هو هذا الصّوتُ النّازلُ من نصّ الأرز
من غابةٍ يجتازها النهرُ سريعاً
أم إن هذا الصوتَ الصاعدُ
من مأتمِ الرؤيا
هو اسمي الذي سيبقى بعد فناءِ كلّ نص؟
سأسميك الحرب
لأني كنت أراك تركضينَ في الجزيرة
كنتِ تفارقينَ المطر
وكان الدَّمُ
نثيثاً
يلمعُ على ثغركِ المبتسم
إذن
ما غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ
وانا عرفتُ النصّ بعدَ توهم
انت الآن أنثى
حاسرةَ النهدين
تمرين عبرَ النّصّ
تمرّين
بإزاركِ اليونانيِ الذي التفّ على الخصر
تاركاً الدهشةَ تأخذني
حتى حمّام نساءٍ في أور[1]
انت الآن أنثى
بعينين لا تشبهُ البحر

---

(١) حمام نساء في أور. رواية لنعيم عبد مهلهل.

لا تشبهُ السَماء
لا تشبهُ الأرض
بل تشبهُ السَواد
السواد الذي يشبهُ ثوبك السومري
الثوبُ الذي خلعته شمخت في ذلك النصّ البعيد
حتى اضطجعَت معها
لستةِ أيامٍ وسبعِ ليال
كطفلٍ في ظلالِ النَص
كانتْ تعلمني الشَعر
وفنّ النثر
وتريني تأويلَ الرؤيا
كي أكتب ثانيةً هذه القصيدة
لكنها
نسيتْ أن تعلمني الأسماء
فهبطتُ منها
عسى أن تتحقق الرؤيا
وان نتعلّم الأسماء معا
فلي..... في هذا النَص مستقرٌ
وسلامٌ إلى حين
أيتها القصيدةُ الأخيرة
يا أرضاً تصعدُ من البحرِ حتى الجودي
ثم تنزل بأسماءٍ متفرقة
كعدد أسباطهُ المنتشرين في بقاع النص
اثنتا عشرة عيناً
اثنتا عشرة مدينةً
اثنتا عشرة قصيدةً
اثنتا عشرة عيناً
يشرب بها المهاجرون بحثاً عن الاسم
اثنتا عشرة مدينةً تتبادل أما كنها
لأن النهرَ يغيّر مجرى النصوص
اثنتا عشرة قصيدة هي أنت
لذلك
سأسميك الآنَ بغدادا
سيدةً طاهرة النهدين

تهبُ لي غلاما يرثني
ويرثُ آبائي
الراقدينَ في الأضرحة الملكية في السواد
وهم ينتظرون النّص أن يتحقق
فمذ.. "وضع الله أسماء كل شيءٍ
بقي اسمك على لسانه ينتظرني"[١]
لكنني
لم اكُ نبياً حين ذاك
ربما كنت كاتباً صابئياً
يعمّد النصوص في نهر كوثى
او حَطَّاباً آشورياً في غابةِ الأرزِ
لم يستطع أن يقهر خمباباً
او مزارعاً نبطياً في جنة السواد
لم يستطع أن يدفع الخراج
فمضى يكتبُ الشعر
حتى رايتك في أوروك
هاربةً من الحرب
حاسرةَ الجرح
وأنت تصعدين السفينةَ مع ذلك الملاح
الذي يدعى
زاعما أنهُ سيهبك الخلود
لحظة أن يسميك
أيتها القصيدة الأخيرة
ربما سأسميك الآن بابل
أنثى بملايين الألسن
ما برحتْ تسمعني
ترانيم الأنبياء المقيمين في تربتها
حتى أكتبَ آخر قصيدةٍ
واخصّب آخر أنثى، مسميا إياها
أيتها القصيدة الأخيرة
أيكون اسمك هو اسمي؟
اسمي الذي...

---

(١) من قصيدة الأناشيد لأرغوان بترجمة بول شاوول.

انشطار مملكة الروح

✍ سعد المرشدي (بابل)

من منفى حلمي
وبقايا وجعي
ها هو وجهك يخرجك منشعلاً بنزيف الأضواء
وستعلن مئذنة الروح تصوفها
فاقتربي
لأسافر نحوك معتنقا عطشي
ودمي النابض فيك
اقتربي
ودعيني أفتح نافذة الصبح المتكدس في نافذتي
لأبارك وجهي
والضوء السابح في أهدابي
وارتحلي في الجسد العاطل بحرا
وانتزعيني
إن داهمني الخوف وضقت على جرحي

....

....

لكنك نائية عني
ومداك نزيف من جمر وضباب
من قال بأنك مقبلة؟
حلم قلق
وشظايا أغنية خرساء
أوما تدرين بأن الليل الماجن يخفي تحت عباءته
مقصلة لجراحي
ويشاكسني حين أرتق حزني
لأقيم لك
وطنا في الصمت
ويخنقني حين أغنيك

أو ما تدرين بأن الليل الماجن شظى مرآة الروح
فما عدت لأبصر وجهك في ذاكرتي
فارتحلي الآن وكوني
كخريف المدن المهجورة
كالحزن
وكالأمطار
ودعيني
العق جرحي
كطريدة من ذاكرة الحرب
الملم اوجاعي
واغوص بحشرجة الموت
وحيدا

❖ ❖ ❖

شبعادك

✍ آمنة عبد العزيز

بعض منه انا
وكلي انا بعض منه
حكايتي ابتدات مع هذا الرجل
زرعني في متاهة عشقه
انبتني في روحه حلما
اخذني إليه قبل ولادتي
تكونت به صبحا ومساء
كنت اعرف انه هناك
مقيما في مملكة أور
انتظرته وانا اتسربل بتاريخه
كتبته بأول ابجديات حروفي
لأعلن به اول أمجادي
ملحمة عشقه
أتمرد على داخلي المثقل به
إن قال معبودتي

أزهر في جوف الشتاء

إن قال نيساني

رجل شغلني كله من بعضه كلي

بين ضحكات صوته

يسكن اطمئناني

من ضحكاته أغزل أثواب فرحي

ترجلت من علياء خوفي

وأمسكت بغيماته لأمطره شوقا

سألني أين كنت منذ سنين

انتظرتك عند بيت ابراهيم وشريعة حمورابي

كتبت قانونك آلهة عشتار

أين كنت منذ سنين

ضحكت وقيثارة سومر بين يدي

اعزفه لحنا

ونوارس بغداد حطت عند شواطئ فراته

ستجد بين كتابات حجارة بابل رموزنا

وقصة تاريخنا

وأول تنهيدة فوق زقورة أور

تعال لنؤرخ بقصتنا حضارة جديدة

ومملكة لا يغيب عنها القمر

و(سوالف)بطعم (الزردالي) والبرحي

وعيون تكحلت بك

من ماضي وآت

ها هنا شبعادك

قلائدها

عطورها

وثيابها

تنتظر ملحمة الخلود

عند بيت الفراهيدي

واغنيات اليامال

وبين بساتين أبي الخصيب

ادخرتك زوادة لكل أيامي
فرحة زفة عروس
صوت حضيري (وميبطّل النوح)
لن أغلق بك آخر اعترافاتي
وداخل حسن (يا قلبي صبرا على من كنت أهوى)
ناصر حكيم (وبراض أمش براض)
أنا هنا معك ومن بعدنا الطوفان
(وبجة دموعي لا كنه.. بعد وعضاي لمنه)
أكتب ببقاياك وبقاياي

❖ ❖ ❖

سأدعي الخرس

✍ سمرقند (شاعرة من بغداد)

سأدّعي الخرسَ كي لا أفتحَ شفتي
إلا بأغنيةٍ اغسلُ بها مسمعك
اتشاجرُ مع اللّيل مستنجدةً بصباحك
لن أرتدي غير أصابعك
أيها المجنونُ متى تؤمن أن للوجدِ قيامته
اسقي بطيفك صحراءَ ليلي
اترتدي صباحي الطمأنينة
سامحني إن لم آتك زحفاً كما حلمت
لأعيد لك ربيعا متوجا بالورد
فالدروب تشاكس خطاي
وحده الله يعلم
انني غفوتُ لأصحو في محرابك
ايّ القديسين صامَ مثلنا
ممسكاً عن الخطيئة
ليفطرَ برغيفِ لقاء وكوثر هديل؟
انتظرتك لأولد من جديد
صبراً يا جرحك... فإن موعدك قلبي

تـوقـــد

سمرقند

انتهى العام وإله الماء يبدأ
الموت قادم
فكيف انقذني الأرنب
انت هنا
فليطمئن الله في رحم المجرة
لن انام لأنك صحوي
وادخل بيميني جوف الحوت
واترك فيه زوايا البرتقال
وليس هذا كل شيء
فالغابة أعلم منا
والجنة بين شفاه الأغنيات
سأستدين منك أوتار طموحي
وأبقيك في الذهن براقا
كي نرفض معا سبات الكائنات
فكل ما لمسناه سينمو
حتى قالت الأرض
ويحي اين سأذهب بالشتاء؟
كانك جمعت حطب الأرض لأدفأ
وبدل ان توقده (اشعلتني)
لنحترق معا
يوم دلتني قمصانك على نفسي
فإذا بالسهر حياة
والخوف لا
قل للكتب حولي بأن لا تغار
ولن أخبر بسرك أرانبي
لجزيرة أنت فيها توهجي
فما من داع للنار
تركت الحزن خلفي بلادا تحترق
لأنام على كتفك فحلمت بالنبي

ونسيت الكون لأموت فيه صلاتي
فليسامحني الخالق
لأني عبدت شهدك دونه
وصرت أبتدع ما طاب من غداء
وقصائد وأحلام
علمني الليل ان لا أعرف من الدنيا
غير حضنك الدافئ
ستلتقي غربتي بخليجك
وترتطم النهارات بانكسار ذريع
مرحبا أيها التوقد

❖ ❖ ❖

صخب المسمار

✍ سمرقند

كانَ ان غلغلتُ في اغنيةٍ
وتصورت الأملْ
خبز اقدار ودرباً كالنساءْ
كان ان مثلت في نهدِ الخجلْ
فرحاً اكثر من روحٍ تغطتْ
بسكاكين القبلْ
كان ان ساءلت احبابي على الأرضِ
عن الأرض/حياتي
قال لي منتبه يخسر بيتاً
غرق العالم في الظنّ
غريق كل من يشرب حبراً
وعريقٌ صارَ وجه البوم
والتمثالُ يمشي
والعصافيرُ مسامير على بوابة الأفقْ
ففكرْ وتصوّرْ
ما الذي يفعله البربرُ في ممتلكاتي
انتَ تسترعي انتباه المخبرينْ
حين تستدعي المحاربْ

والمدى والمطرقةْ
انت لا حول ولا قوةْ
لكنك تعدو بجنونٍ
يرتدي القبر ولا يدخل في المرتزقةْ
وغدا تدخل بيت المشنقةْ
ضاحكاً أن أوصلتك القدمان
للأمانْ
يهربُ الحبُ دخاناً... مثلما تمضي الصلاةُ
فإذا عدنا وقلبنا كتاب العائلةْ
دحرتنا الذكرياتْ
وبكينا نمراً غاب وقديسا تلاشى
وفريقاً من نبيين
وتمضي القافلةْ
بخطانا
فنغني
بسمةُ النمل لنا
ولنا بقعةُ نفطٍ هائلة
ولنا الشمسُ التي تصبح يوماً بعد يوم
جدة منهكةً أو راحلةْ
انتعلْ وجهَ الطريق
(إنّه صوتُ أبي)
كنت ماءً ودواة
اجهلُ الأسماءَ والألقاب والمستعمرات
وانا الآن على لوحِ قمارٍ
يتلاشى الزيتُ من خطوي
فأغدو مثل أوطاني
خريفا عاجزاً في الطرقات

كدتُ أبكي الضائعين فبكاني الضائِعُون
عرفوني جائعاً وطعامي من جنونْ
صارَ وجهي طرقاً يرتديها العابرون

نص سيرة يقظة جديدة لمدونة (للريل وحمد)

سفر في عداء المحطات

✍ جمال جاسم أمين

(حمد) ليس قصيدة

(حمد) عنوان عريض للزمن الذي غاب ولكي لا نفسد الحكاية بالغثيان ينبغي الاعتذار اولا للشاعر (مظفر النواب)

الاعتذار درجة من درجات الانتباه / نعتذر فقط دون أن نجرأ على السؤال

الى أين وصل الآن حمد؟

لا أحد يسأل عن الغائبين الناس يستبد بهم النسيان هذه الأيام

(حمد) صعد إلى القطار وهو لا يعرف ان المحطات معادية

(حمد) لم يصل هناك فقط شائعات

حمد في أمريكا حصل على الجنسية بعد أن انتظر بلوغه سن الضياع

حمد يرقد في مستشفى الناصرية

حمد يعمل في تهريب النفط من ميناء البصرة

حمد يفتح مقهى صغيرا في معهد لتعليم الموسيقى ولكنه لا يعزف

حمد لم يتزوج أو ينجب ربما لأن الضياع عقيم الضياع لا ينجب سوى أوراق، بطاقات سفر، جوازات مزورة، جنسية بلد لا يعرف أي شيء عن الليل والقطار

حمد ترك التدخين لفرط الحرص على الغياب فهو لا يضمن اذا دخن خلسة أن هذا الدخان سوف لا يفضح مكانه

حمد الآن لا يستطيع الكلام لأنه وجد مريضا، ذات مرة، يحتاج إلى كلْيةٍ فتبرع له بحنجرة

حمد مكرود

حمد لا يعرف الراحة

حمد يطوف على المقابر ليلا يتذكر انه إذا مات من أين يأتي بالكفن واذا صادف ان صادق، بزازا، وانتهى من معضلة القماش يبقى المشهد الأهم /مشهد النهاية:

ميت بكامل قيافته البيضاء ولكن بلا ناعيات

(حمد) لا يموت

(حمد) يضيع فقط

(حمد) لا يكفيه انه في أمريكا.... حمد يريد بغداد

ولأنه يعرف الصحراء جيدا عبر الحدود بلا مشقة

كانت بغداد تصطلي بالحصار
والناس يصلون
(حمد) لا يصلي
ولكنه عندما رأى المارة في قطاع ٤٢ يسيرون صفوفا سار على طريقته المعتادة وبعد وصول الجميع إلى المسجد صلى معهم
اعتقلوه قبل الشروع بالبسملة
(حمد) دخل السجن مرتين
الثانية في سوق الغزل عندما انفجرت سيارة وجد نفسه في ابو غريب وهناك سألته المجندة الأميريكة عن سر هذه الفرشاة التي يحملها في جيبه
قال إنها فرشاة
أجابته على الفور:
نعم هي فرشاة ولكنه تستخدمها لتلميع أسنان (العبوة)
سألته عن (التفخيخ) برطانة تمتد على طول مساحة الليل بينما (حمد)لا يعرف حتى كيف يفخخ السرير بامراة
قال لها انه يعرف (مظفر النواب) بصقت في وجهه لم يتأثر
هذه ليست المرة الأولى كثيرا قبلها بصقن عليه
النساء يعشقن الحضور بينما حمد غائب
ولأجل الحقيقة اقول بصقن على غيابه
(حمد) لا يعرف
(حمد) لا يدري لماذا اختار قطار الليل
القطار في الليل أعمى يفرشون له حصيرا من جديد
إلى أين وصل الآن (حمد)؟
(المجندة) التي استجوبته في السجن هي الوحيدة التي تعرف
غير أن المحكمة التي مثلت أمامها هناك لم تسألها عن حمد
الناس يستبد بهم النسيان هذه الأيام وحتى القضاة
(حمد) في المتاه
(حمد) ليس قصيدة
(حمد) سفر في عداء المحطات

اللهم اشهد اني بلّغت بلغت
وسألت عن حمد بما يكفي

شدوٌ لمطاع(*)

✍ منذر عبد الحر

دعه يلعب
أعطه كل شيء
كسر الساعة...
فسالتْ أيامك
قلب الكراسي...
فصهلت ذاكرتك
حطم الصحون
وهو يطير من الفرح
أنت تحبه هكذا
يلعب
لو استطعت
لأعطيته قلبك
يصنع منه سيارة حمراء
يلهو بها دقائق
ثم ينساها في ركن من البيت
أنت أيضا مثله
لعبت الأيام
جربت فسائل الحرب
وتسلقت نخيلها
عبثت بحلم أبيك
ويا ما كسرت قلب أمك
ونسيت أكياس دموعها
بين طيات المدن

❖ ❖ ❖

دعه يلعب...
دعه يكسر ما يشاء

(*) مطاع: ابن الشاعر

هو
لا يعرف كم تنقل أبواه
بين الفنادق
والكراجات
والباعة المتجولين
كم سنة خدع البرد بالكلام
وكتب عن حبيبات من ورق ذابل
أعطه قلبك
و لا تذكر طفولتك أمامه
وحين يكبر
ويسأل
لا تحدثه عن ابيك
أره الصور التي تضحك فيها
حدثه عن الزرع
وزوارق
وقرية بعيدة
في أنهارها سمك ملون
وفي سمائها طيور تغني
دعه يسمع عنها فقط
انه الآن
يسمع أصوات انفجارات
فيضحك من قلبه
ظاناً أنها أصوات احتفال
بعيد الميلاد
.... سنة حلوة يا جميل ....
يسأل عيد ميلاد من؟
فتقول بلوعة
عيد ميلاد الوطن
يقول لك
لماذا تبكي يا أبي
أين الوطن لأقدم له هدية

موّالٌ جنوبيٌّ

✍ منذر عبد الحر

اتذكرْ....
كلّ وصايا جدي
حين كسرتُ الحاجز وحدي
اتذكر اول خطٍ احمرْ
تحت حروف الدفترْ
اتذكرُ اخطائي
وملامحَ أجملِ أعدائي
وجنوبي الأخضرْ
اتذكرْ
أولُ أسئلتي
فوقَ عروقِ المرمرْ!
واحن إلى أول أنثى
تركتني أسهرْ
أتذكرْ
أول خجلٍ يتسلق خدي
اتذكّر جدي
اتذكّر امي
وهي تصارعُ كفَّ الليلْ
تترقبني دمعاً
وزهوراً ترفل بالويلْ
تدعو
أن ترحمني الحربْ
اذكرها فيسيل القلبْ
لم تدخل فرحاً إلا كي تحزنْ
وعلى الرغمِ
تحمل ازهارَ السَوسنْ
وابي كانْ

يسعى خلف قصورٍ دخانْ
قتلته الطيبة والأحزانْ
كانت دمعته موالاً
ويداه نشوةُ سكرانْ
وأبي كانْ
مجبولاً بالإحسانْ
نخلة حبٍّ وحنانْ
وأنا
بين ترقّبِ أمّي
وفتونِ ابي بالهمّ
اتجاوزُ باللهفةِ حدّي
أتذكر جدي!!

❖ ❖ ❖

أخطاءٌ تنبّئ بالمسيح

✍ مؤيد الخفاجي

طفلٌ هناكَ
على الظلالِ مؤلّهُ
في الغصن مخطئهُ خريفٌ أبلهُ
حملته سيدةُ الترابِ على نداوةِ حزنِها
والنجمُ يطلق خيلهُ
صوتُ اندلاعِ النّخلِ
قربَ مخاضِها
إذ كان من حملت يؤنبُ نخلهُ
كانت عمودَ الغائبين
وأفق دربهما يؤثثه صليبٌ مولهُ
بالماءِ
إذ يصطادُ أسئلةَ الطفولةِ
والشحوبَ
وما يراودُ شكلَهُ

بالنارِ
عنقوداً تضاءلَ من لهاثِ الريح
فانفرط التوهّجُ حولهُ
بالأرضِ
حيث تبرعمَ الأمواتُ من غصنِ الترابِ
فشبَّ طفلٌ
من لهُ؟!
بالحربِ
يدخلها إله كلما التفَّ السلامُ على خطاهُ... استلّهُ!
بالفقرِ
حين تجمعت بجيوبِه أسماؤُنا
بالثقبِ يعلنُ ميلَهُ
بالأمس يا زورَ الرواةِ
بنا
بكُم
وبكل قدّيسٍ يخبئ ذيلهُ
بمعالمِ المنديل يذكركَ الطريقُ
تسيرُ / تتبعُ من كتابكَ نملهُ
نتف الدخانِ
تحيط سربَ التائهين
وانت تذكر
أين يهمل وحلهُ... درب
حقل لا يراه الربُّ
أنت ترى
ترى
وهج الصليب ونبلهُ
لنبؤة الطفل اقتراح مبهمُ
فتعيه
إذ يلقي خريف نسلهُ
تأتيك ذكرى الناي من زمنٍ مضى
والأفق ينفثُ في وريدك مصلهُ

وتحن للمطرِ المباركِ
إذ تمس رؤوسَ أيتامِ المدينةِ فصلهُ
وتحن للقداحِ
يسقط هادئاً بصحونهمْ
والجوع يسقطُ مثلهُ
وتخاف حشد الجندِ
خافك حشدهمُ
تدري
ولست
فكان جهلك جهلهُ
ها أنت تذكر من تأطّر ثم ماتَ
فأورث الجيبَ الممزّقَ أهلهُ
وبكيت حدّ الملحِ
من دخل القصيدة حاملا لك رملهُ
وبكيت
فانخفضت سماءُ
وارتخى قوس المدينة كي تفاوض شملهُ
والموت يومضُ مرتين
وأنت بين المرّتين
أبٌ
يهذب ليله
ولدٌ
يصففُ غيمَ أفق تالف
والليل ينكرُ من يمشط كحله
يبكيك ما يلهيك
ربٌّ مذنبُ
موتٌ... يصاحبُ من يحارب عدله
ها أنت
توقد شمعتين ومذهباً
لفتى
توكأت القصيدة ظلهُ

بـغـــداد

✍ علي الامارة

توهّجـــت بابـــل في القلـــب كالنـــار ... فهـــل ســـتفتح لـــي يـــا بـــاب عـــشتار
كالدمعِ قد سقطت مني العصور سدىً ... فمـــــن يـــــرد إلى عـــــينيّ آثـــاري
يـــا عـــشبةَ الـــروحِ إنكيـــدو يـــزاحمني ... علـــى دمـــي وهـــو لـــي منفـــاي في داري
وبـــرج بابـــلَ يحـــدوني إلى زمـــني ... مـــذ حطمـــتْ عربـــاتُ الـــشمسِ أسواري
فجـــرُ الكتابـــة جرحـــي والمـــدى قلمـــي ... والأرض مـــــا كتبـــــت إلا بأحبـــــاري
واليـــوم أركـــن في صـــحراء أزمـــنتي ... واســـأل الرمـــل عـــن صـــحبي وامطـــاري
لا تقربـــي فيـــدي أفـــق بـــلا زمـــن ... اخـــشى بـــأن تـــسرحي فيهـــا وتحتـــاري
لقـــد تحجـــر بـــي صـــوت الـــرؤى زمنـــا ... فكيـــف ايقظـــتِ ايـــامي واحجـــاري
أنـــا هنـــا أذبـــح الرؤيـــا ومـــا غنيـــت ... عمـــدا واشـــنق تـــاريخي بأوتـــاري
تعطّـــل اللّيـــل في عـــينيّ وانفرطـــتْ ... منـــه النجـــوم فلمّـــي بعـــض اقمـــاري
مـــضرج برحيـــق العـــشق منعـــزل ... كالغـــصن تنكرنـــي في العطـــر ازهـــاري
النـــازحون نـــسوني في ملامحهـــم ... عانقـــت غـــربتهم مـــن جـــرح في الهـــاري!!!
بـــاق يـــودّعني النـــاجون خـــضرتهم ... خـــذوا فمـــي يـــا احبـــائي وسمّـــاري
بـــاق تمـــرّ بـــي الأشـــجار نازفـــة ... أنـــــا العـــــراء بـــــلا ذل ولا عـــــار
اضـــعتني فغبـــار الـــوهم قـــافلتي ... واســـلمتني إلى الـــصحراء آبـــاري
أجالـــد الرمـــل والرمـــضاء تعـــصف بـــي ... أذود عـــن عـــشقنا مـــن عـــصفها الـــذاري
لا تعـــرفين ولا تـــدرين مـــا ضـــمرت ... أبكـــي عليـــك بكـــاء العـــارف الـــداري
بـــيتي تظللـــه الغربـــان ناقمـــة ... وأطلـــب الأمـــن مـــن جـــار إلى جـــار
مـــضيّع يعبـــث الإرهـــاب في بلـــدي ... ولـــست أملـــك إلا صـــدري العـــاري
فكيـــف انـــأى وروحـــي هاهنـــا زُرعـــتْ ... وكيـــف أبقـــى ومـــوتي بعـــض زوار
وانـــت في ســـاحة التحريـــر ماثلـــة ... كـــالوهم يأكـــل احلامـــي وافكـــاري
الملـــم الفجـــر مـــن عينيـــك: أســـكبه ... علـــى القـــصيدة مثـــل الزيـــت في النـــار
جـــرح قـــديم انـــا والـــشوق ينغـــر بـــي ... هـــل يكتـــب الـــشعر جـــرح غـــير نغـــار؟!

كفي بكفك والأيام شائكة   هنا الحدود وقفنا اليوم فاختاري

توزّعي في جراحاتي وازمنتي   إن شئت أن تقطفي شمسي ومشواري

أجرّ خلفي بلادا لا حدود لها   تسربت بين أشواقي واشعاري

يا لوحة الزمن المهدور ترسمني   كعالم في ربيع الموت منهار

تكدست جثث الأيام فوق دمي   يا ميتة الوقت في شوطي ومضماري

السومري أنا قيثارتي وجعي   فهل تحسين يا عشتار قيثاري

تساقطتْ مدن الأحلام من حبق   مدّي يديك وفكّي قيد انهاري

عانيتُ من هجرة الأشجار في وطني   فكل جذع به شوقي وتذكاري

أزرُ صدري على بغداد من قلق   فمن سيحمل يا عشتار أوزاري

ما أوحش الأرض شمسي من يدي   خطفت لما ويذبح أهلي بين انظاري

حتى الهواء غدا ذئبا يحاصرني   فليس من نفس الا بمقدار

عمري الملايين من شعبي تضاعفه   تضاعف الموت حتى طال أعماري

قامت على دجلة الزرقاء مئذنتي   تعانق القبب الصفراء أغواري

وفي الإمامين جرح لم يزل رطبا   تهدمت فيه أمجادي وأنواري

جسر الأئمة يشكو لي مواجعه   اصمد فما زلت مرقاتي ومعباري

مازلت جسر العراقيين اجمعهم   موحدا بين فاروق وكرار

فواحدٌ أنا والمرآة تلفظني   مشتتا بين اخماسي واعشاري

من أين آتيك والآفاق مقفلة   وكيف أخرج من تابوت اسفاري

أنا المسيح ولوحي صفحة فتحت   فهل يصير مداد الشعر مسماري

سفينة أنا في الأذهان جانحة   لم يبق منها سوى الأمال والصاري

أودع البحر في موت وفي غرق   فالموج موجي والأبحار إبحاري

و لا أسدّ بوجه الريح نافذتي   لكن افك بوجه الريح إعصاري

لا تيأسي فمسار النجم اغنيتي   وقد تقمص سر الريح مزماري

ان ينسني الجمر يوما في هواجسه   فالنار مشغولة دوما بأخباري

أنت القصائد جنات معطّلة   يرجك الدهر من ثأر إلى ثار

أنا هنا قبلة الدنيا وكعبتها   تعلّقي مرة اخرى بأستاري

مـرثـيــة بــغــداد

✍ محمد ناصر الغزّي

هل تذوقتَ طعمَ المدينة وهي تنزفُ
إنها قهوةٌ مرةٌ
وباردةٌ مثل يد في الشّتاءِ
هل شاركتها البكاءَ على من رحلوا
ولم يوصدوا خلفهم الأبوابَ
هل مسحتً دمعها
هل نطقتْ اسمها
هل تذكرتَها .
بغداد
حيث السَماءُ غيمة أرواح
والأجساد مسافة بين عبوتين
ونهرُها الذي كان يروي حكاية عن مدينةِ العشق والبساتين
طفتْ على سطحه الأشلاءُ
والحانوتي يسجل أرقاما ويُحصي
تسعة وتسعون قضوا في ظروفٍ غامضة
ووروا الثرى في احتفالٍ مهيب بكربلاء
ويعيد الكرة مرةً ومرتين وألف
في بغداد
الشوارعُ بلا نساء
والمقاهي بلا مدمنيها
والسُفن التي حطت سرقت مني رياحي
في بغداد الظلام ينسدل سريعاً
كستارةٍ تجرها أرملة
أطفأت سِراجها
لتركن المدينة في هدوءٍ يلفّه سوادٌ شيعها مساء

ففي بغداد

السواد كل الألوانُ حين ترتبك وترتجف وتخاف

في بغداد

كان الخليفة قد بنى بيوتاً لله أكثر منْ بيوتِ الفقراء

واعطى جواريهِ قصوراً عند أبوابِ المدينة

ووهب غلمانه ذهباً

فأصبحوا تجارَها

والفقراء ظلوا يستفيئونَ بجدرانِهم الطين

ويخيطون رداءَهم من غيمة السماءِ

لا قلاع في بغدادَ إلا للخليفة

ولا ثمة بساتينُ إلاّ له

ولا انهرٌ تجري إلا بأمره

هل تذكرتها...

خيمة خيمة كنا نقولُ بلا أوتاد.

لكن أرضها دماً أكثر لزوجة من إسفلتها

هل تذكرتها أم حسبت أنّ الزمان ألقى على وجهها خماراً اسود

وظننت أنها غيرها.

هي تلك

حين تتكئ على جدرانها يعلق الشعرُ بكفك

يزهر ظلك في ازقتها لو مشيت

أم تخيلت

أنها يوماً جالسةً في ظلّ جدار وحيدةً لم توصدْ نوافذها حين مرتْ العاصفة

تنتظرُ القطافَ

أم تخافْ

ان تتهجى ابجديتها

او تغسل وجهَها

وقد ثنى النهر ركبته في خاصرتها بانتظاركَ

في بغدادَ
بينما تغزلُ الأم صوفها سجادةً لصلاتك
ينمو كل تمر الأرض في جسدٍ
متكئ على عمودٍ بشارع الرشيدِ بانتظارِ حافلةٍ من طابقين
طلت صبية برأسها من نافذتها الأخيرةِ
صوبَ معهدِ الموسيقى
تسمع صوتَ الموجةِ وهي تضرب أعمدة جسر الشهداء

هل تذكرتها؟منذ اربع ونحن نسيرُ معاً إليها
بعيدين لكن خطاي تحاذي خطاكَ وهي تجانبنا
ولا نتقاطع
سوى بالرمادِ الذي اعتلى مرافقنا
كذبنا عليها مراراً
وكان الزمان مطرٌ على جمرتنا
وحديثنا دفءٌ الشتاء
وصمتنا ناي لمسائنا
هل تذكرتها
لم يك غيرها حين ارتبكت أنوي مصافحتك

هل تذكرتها
لم يعد ثمة وردٌ في طريقها ولا نخيلُ
لان من ذهبوا نسونا
ومن أتوا نسونا
في كثافةِ الأشياء التي فاضت فراغاً طويلا
هل تذكرتها..؟
كانت بلاداً للخصوبة
تمرق البرتقالة من شرقها صوب نهرها داراً من الشمال
وصلصالها صار القصيدة التي لم أكتبها بعد

وأنا افتش ما وراءَ المدى عنها

وما وجدت إليها سبيلا

في بغدادَ النساء ينتظرون منك ما تنتظره أمك

أن تعودَ سالماً وتحك قفل الباب خلفك وأن

تجيد

لعبةَ التحديق في الظلام..

أغمضُ عينيك في دجاها تر سقفا أبيض

وبضع قطراتٍ من الندى وخيلاً تخب وتجر خلفها

عربات

صبية من الرّصافة يعبرون جسر الأحرار بحثاً عن العلب الفارغةِ في الكرخ.

هل غفوت؟

إن الأحلام صارت جزءٌ من الماضي بعد أن تلاشى حلم المدينة في يدينا

وجاءت الكلابُ خلف الكلاب التي تركت النهر والمقبرة

هل غفوت أم مازلتَ تجيد لعبة التحديق في الظلام

كل شيء مباحٌ لخيالك

إلا خلاصك

أغمض عينيك بوسعهما وأركض في المدينة وكأن شيئا لم يصبها

لا جدارَ من الكونكريت يضيق المدى عليك

ولا عربات الهمفي تسحقُ خطوك

ولا دوي الان إلا النبض في صدرك

ولا سيارة مفخخة تفززك من نومك الآني

هل تذكرتها؟

كتب الزمان لعزلتها دهورا طويلة؟

أم كلانا غريب في هذا المكان؟

وكتب الزمان أن نتنفس ظلامها

منكفئين على أسوارها كلما تهدمتْ.

... أنت وحدك من معك...

✍ اسماعيل حقي

من انت لو جحدت عيونك ادمعك   او انكرت كفاك منها اصبعك

أو علقت رجلاك من عثراتها   أو فر ظلك من وراك ليتبعك

او غورت عيناك في حدقاتها   لتظل تمخر في السراب لتخدعك

او فر ضلع من ضلوعك خلسة   ليعود يطعن من ورائك اضلعك

من انت لو كانت سنينك لم تكن   الا التي كانت عليك ستخلعك

احتار فيك ولا اسمي حيرتي   جهلا ومثلي ليس يجهل موضعك

وطني تسربلك الجروح وليتني   اسطيع لو مما ابوح توجعك

ظمآن والدنيا لديك وانت من   دفق المياه وكان ظلك منبعك

ها انت وحدك والغزاة عقارب   وأجل ما القى لديك ترفعك

غرر من العبرات تهمي لوعة   في الصدر تومئ بالدعاء لترفعك

عينان رابضتان خلف انامل   تتحسس المرمى اليك لترفعك

قلبي عليك ولا اراني باخسا   قلبي ولو عمرا حرثت لأزرعك

وطني ألم بك الجميع واينما   تشد الفراغ يظل صوتك موقعك

نبع المروءة انت بل اصابعي   كفاي مجمرتان فامدد اصبعك

وحدي ووحدك والمقاتل جمة   اخفي وتخفي طي صمتك مدفعك

ماذا ستفعل كل قاص وده   دان اليك وانت ترفأ مخدعك

وهواك يطفح بالكؤوس مدامة   وكأنك الساقي بكفك مدمعك

ماذا ستفعل لو تألب كلهم   زمرا عليك وانت وحدك من معك

وطني عزيز أن اراك مضيّعاً   وعزيز نفسي ان اكون مضيعك

مثلي سحابة ادمع سحّت دما   ولأنتَ احوج ما تكون لأرضعك

ألفاً اموت بضفتيك وليتني   اسطيع حين اموت ان اتضوعك

الارض حاشا ان تدور لتدّعي   كذبا عليك بان نصرك ودّعك

حي الجميع

✍ ميثم الحربي

اعرفُ كل هذه الحروب
التي أورثتني اصابعَ كثيرة
أحصي بها الضحايا
وأبتهل
لأني الوحيد من نجوت من السلام
أجل
أنا الوحيد
من غادره الآخرون
وأكسبوني عادة التلويح مضرجا بوشم أسمائهم البعيدة
اتنزه في كروم سجاياهم
والقي برذاذ الأصياف على أسراب نعاسهم
إنهم هناك
يعض النسيان ريش طواويسهم
ويدفن أحاسيسهم بالصدأ
وفي عزلة الأجراس
يؤدون نشيد خطاي
كي تتسع دائرة الرغيف لصراخهم المهترئ
أمشي في الطرقات
حيث لا شيء
سوى غيابهم الفسيح
أقول: آه
فتكرر الكلاب نباحي
وتطل حكاياهم من رفات المواسم
أشعل لهم قداحتي في الزوايا
الهمهم الأمكنة
وأذكرهم بلعبة (حي الجميع)
ولا يهم أنين الهيكل العظمي لمدني
سأحملهم
مادمت قادرا على منحهم لقبي

وحصتي من الغسق
ولا تهمني هذه الشجرة الغبية التي ترتدي النمو حدادا عليهم
سأذهبُ لأشتري لهم حيزا في الأغنية
وأمرنها على التفوه بالطيران فوق سياج التلاشي
اخبرتهم الريح أن يغربوا عن وجهي
ولأنهم شبهي
صدقوا هذا المزاح
ايها الراحلون
من يقاسمني قهوة كل الصباح الذي ابتلعته العصافير

مثلا.. سأنعتُ هذا الليل بالعمر ... أدسُ صبرا له شيخوخة البدْرِ
أليس ذاك له في الحزن زقزقة ... من دكة الصمت تلقيني إلى الجهْرِ
أنا اختفاء مضيء منذ متُ هنا ... أعلمُ الماء في الأنهار أن يجري
حتى اسألوا كل من غابوا بلا سبب ... كيف احترقت بقاءً طيلة النحْرِ
أشغل الشمع موسيقى لمقبرتي ... وشهوة الأرض لم تهدأ عن الحفر
أودعتها كل أسمائي وتصرخُ بي ... هل من مزيد؟ ونزيفُ مخلصُ القطْرِ
وجهي لهاثٌ لحد الآن في أثري ... لكنْ أنقبُ في المرآة عن سري
حتى اكتشفتُ أخيرا أنني (حمد) ... ثم اتسعت رحيلا كاذبَ المرِ
أنام في (كلما أمي تفكر بي) ... لأنني في الحكايات موحش الذكرِ

من أوراق حنين البغدادي
مقطع عرضي لمدينة

✍ أجود مجبل

كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
كم ابتعدنا عن أناقةِ المياهْ
وبابل تحت الأبابيلِ
قصيدة لها ملامحُ الأجدادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وكم تفتحت وراء عتماتِنا مسافةْ

ودجلة يروم في حقيبةٍ ضفافهْ
يرحل كي يسألُ عنا
حاملاً تكسرات الكرخ والرصافةْ
على السهول دمعةٌ
تبحث في خزانة الغروب عن بكاءْ
وفي البعيد كانت الشمس تضيعْ
تمحي الأسماءْ
حنين ما عاد إلى البيتْ
وخفاه معلقان بالمزادْ
سأنطلي على الدروبِ كي أراهْ
موعدنا بين رصاصتينْ
سأقتفي دمي لكي أراهْ
قال الغلام: قد رأيته ضحىً
مخضباً باسمهِ بين سحابتينْ
قال فتى:رأيته يخطب بالموتَى
قبيل الفجر في مقبرةٍ
ويقرأ المياه لابدّ أن أراه
وأن أرى احتكامةَ الحكام في عينيه
وانسكابة السوادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وهي أنين ابن زريق
إذ سباهْ القمرُ الكرخي أشواقاً
فمات فوق صخرةٍ
لكنه مازال يأتي يطرق الأبوابْ
يبعث كل ليلةٍ
إذا التقى العشاقُ في بغدادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وهي حنينُ ابنِ جريجٍ
إذ يصيحُ والهاً
(لي وطنٌ آليتُ الاّ)
أخلع الوحشةَ إلا فيهِ
مهما التبسَ الايابْ

وهي فكاهات أبي دلامةِ
ووعظ بهلولٍ
وإمتاعُ أبي حيان
وهي أبو نواسٍ الظريفُ
إذ يسألُ في الحاراتِ عن جِنان
وأغنيات الموصليّ
والأصابع التي زها بها زريابْ
وهي الشناشيل التي
كم زلقت شموسنا منها
وكم مر بها سهادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وهي عيونٌ للمها وأدمعْ
ونجمةٌ تطلع من حفاوة الشطآنْ
وهي الندى الصيفيّ
والجسور فوق دجلةْ
والسمك السهرانْ
وهي انخطاف الهمسِ بين قبلةٍ وقبلةْ
وهي بقايا عطر ألف ليلةْ
وهي هطولُ الوله الكوني
والنخيلُ
وحرفُ الضادْ
وهي جنازةٌ
رماها الجند فوق الجسرِ يوماً
ثم نادوا حولها:
هذا أمام الرافضين جاءكمْ
وآخر العبادْ
فهرولت إليه آلاف الحقول والفصولْ
والمواسم التي أتعبها الغيابْ
وابن سويد واقف للآن فوقَ الجسرِ
مشدود إلى الميعادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وهي تكايا الأولياء

والمساجد التي مارطَنتْ يوماً
ولا خاف بشر يدور حافياً
وقبلة الزهادْ
وهي تواريخ الحفيفْ
وانكشافات الجنيدِ
والكوى والعشقُ والأفياءْ
يوم خرجنا
كان في وداعنا الرضي بالعمامةِ السوداءْ
وكان قرب السورِ
حاسراً طعيناً يومئ الحلاج
يصرخ بالسياف:
هيا أفتح الرتاجْ
إن نديمي سوف يأتي
عبر تلك الريحِ والأمواجْ
كان به مسّ من اليقين
فانحنى
ودسَّ خاتمَ الثورةِ تحت السورِ
غير عابئ بقامة الجلادْ
ثم اختفى
مغروراً بالوجد والإيماءْ
كفاه في السماء نجمتانِ
وعيناه على بغدادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وكم تناءت الغصونُ
تحت غيمة من التوعك المديدِ
كنّا نسألُ الشهورَ عن حنينِ الفقيد
إن كان إلى بستانه قد عادْ
قال الخفيرُ:
قد تركته بلا راسٍ ولا خفّين في السوقِ
يغني باكياً
ويشتم السلطانْ
لم يمهلوه لحظةً

ليكتب العنوانْ
لكننا بعد سنينٍ
عثرت دماؤنا بهِ
وكان حزنه ضفائرَ الشمسِ
تعطّي عتباتِ السجن والسجّانْ
ينزلُ في القرى
مع البروق كل مرةٍ
ويشعل الأسوارْ
يجلس تحت نخلةٍ
ويجمع الصغارْ
وذات يوم ناحلٍ قال لهم:
تذكروا
أن التراب دفترُ الله الذي تخجلُ منه النارْ
وحبره السريّ هذه الدماءْ
ثم أشار نحو جهشةِ الغيابِ في عيونهم وقالْ:
الوطن الجنةُ
مهما ابتعدتْ أقدامُكم عنهُ
ومات خلفكم نهارْ
تذكروا موعدنا هناكَ يا أطفالْ
ثم مضى مبتعداً يلتف بالأسماءْ
ويسأل الريحَ عن البلادْ
وصوته يخضرُّ
كلما تلاقت فوقهُ الأمطارْ
قد حفظ الأطفالُ ما قال لهُمْ
ولم يزل يحفظه النخيل والأنهارْ
وفي الربيعِ
تقبل الطيورُ كي تزورَ ظلّهُ
وتعلن الحدادْ
ومالك الحزين مازال حزيناً
في خرائطِ الرمادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
وكم تشبثت أصابعٌ

وراودتنا أدمعٌ عن نفسها
وانكسرت شوارعُ
اصفارُنا تراكمت
على يسار الوقت أكداساً
ولم يكن لنا حصادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
ولم تزل هنا لنا نوافذٌ
ولم يزل في ساحة التحريرِ
واقفا جوادْ
يشيرُ للآتينَ مثخناً بدمعتينْ
وقربه ظل ابن مردانٍ على مصطبةٍ
يحترفُ النسيانْ
حروفه عاريةٌ
ووجهه يشاكس الزمانْ
(في الطابق الرابع من عمارة)
كان ابن يوسف حزيناً
راحل العينينِ
نخل السَماوة استدار حولهُ
وغرين النهرينْ
وكلما بكى بكت بغدادْ
مظفّر والأبجديات تغطيهِ
تدق ساعة القِشلة في جبينهِ
فيبدأ الأسفارْ
يحمل دفتراً
وأسمال أبي ذرٍّ
ويمضي في (قطار الليلِ)
مفتوناً بكل نسمةٍ مرت على بغدادْ
بغداد يا برحيّة النخيلِ
يا سبائك الهديلِ
يا قارورةَ البكاءْ
يا رعشةَ القيا
وطعمَ الماءْ

بغداد هذا سيّد النخيلْ
يلتقيك تحت خيمةٍ
أغفى بها يقظانْ
يقطف قيلولة نورس ويعدو هاتفاً
(ما اشتبكت عليك أعصرٌ)
ولا خبا بليلك الغزير شمعدانْ
لا وكنت الشموس مرفأ
وللضحى ميناءْ
بغدادْ
على الخليجِ متعباً
كمْ وقفَ السيابْ
وفيقةُ تفتحُ شباكاً للقياهْ
وإقبال تناديه فلم يسمعْ
سوى اغنية تسيل من مقهىً
وراء الدمعِ
فيها نفحاتٌ من شذا بغدادْ
كم ابتعدنا عن هوى بغدادْ
عبد الوهاب والأباريقُ التي
ما ملئت يوماً
و لا كان لها مكانْ
عائشةُ لم تأت بعدُ
كي تريقَ شعرها بين يديهِ
كان باب الشيخِ
بابَ اللدِ في عينيهِ
والنهايةَ الميلادْ
مات وحيدا كالنّسورِ
عالياً في حضرةِ الرياحْ
ملتبساً بنيزك يأتي مع الصباحْ
جبهتهُ العريضةُ
ارتمت بها الراياتُ والبحارْ
وفي شحوبه غفت بغدادْ
بغدادْ

خطى الجواهري في الساحاتِ غضةٌ
وصوته الهديخْ
والطاقية التي تلاقت تحتها الأضدادْ
إذ يُشعل الدنيا بإصبعينْ
ويَنزوي مودعاً بدمعهِ النُّدمان
أوراقُ مقصورته التي مضى الموج بها
لا بدّ أن تظهر يوماً
كشموعِ الخضرِ فوقَ الماءْ
وجعفرٌ يعلم أن جرحه فمٌ
وأن قبره يدانْ
بغدادْ
كم أنت تغرقين بالأسرارِ يا بغدادْ
ظلَّ الرصافيُّ على وقفتهِ
رغمَ الصواريخِ التي مرّت بهِ
والجوعِ والأحزانْ
ينظر نحو دجلةٍ كعاشقٍ
وطائر الفينيق حطّ فوقَ كتفهِ
ولم تزلْ رغمَ الليالي يده في جيبهِ
وشارعُ الرشيدِ ما زالْ
لكل ضائعٍ عنوانْ
مرَّ الحصيريُّ
وكانت كأسُهُ تختصرُ الأشياءْ
يطوي خطاه مسرعاً
لحانة في ساحةِ الميدانْ
يهتف بالنادل: إملأها
فأن الكون مثلي ثملٌ نشوانْ
يخرج في الفجر وقد بعثرهُ السّكرُ
يغنّي طرباً
كم اقتربنا من هوى بغدادْ
كم اقتربنا من هوى بغدادْ
ما عرف الدنيا ولا ذاق الهوَى
من لم يزرْ بغدادْ

عـراقـي

✍ محمود الدليمي

مـسمرٌ... والوقـتُ جـار　　أنـا كوكـبٌ في لا مـدار
والوقـتُ لا وقـتَ لديـهِ　　لكـي يفكّـر بانتظـاري
أمـسي احـتراقُ مـراكبي　　وغـدي اقـتراحُ لانكـساري
امـشي ولا ظـلٌّ يـشيّـ　　ـعني أجـرُّ بـه إزاري
فـاتَ القطـارُ ولـفَّ أشـلا　　ئـي علـى عجـلِ القِطـار
كنـتُ انتظـارَ مرافئـي　　مـن لا يعـودُ مـن البِحـار
ألقـي شـراعَ التّيـهِ أكـ　　ـفاناً علـى جثـثِ الـصّواري
وأسـايَ كنـتُ... الـدمعُ فـا　　وضَـني فأجّلـت انفجـاري
منـذُ المهلـهلِ قـاتلي　　هـو مـن يـصيحُ بأخـذِ ثـاري
مـستوحشٌ مـني.. سـرا　　بـي مـلّ يلمـعُ في قفـاري
جـدوى بـلا جـدوى أدو　　رُ بهـا يراودُهـا انتحـاري
فعلـيَّ مَ أختـارُ الحيـا　　ةَ إذا سـيقتُلني اختيـاري؟
قـد أنكـرت وجهـي الجهـا　　تُ وسـرت أقـدامي عِثـاري
جـوعي بهـا مـني تـسمنُ　　وارتـوى مـني أواري
متـضور لم يعـل بـي　　سـغبي إلى رتـب الـضّواري
صـخرٌ علـى انـي اهـز الـصخـ　　ـر لـو يَـشدو هَـزاري
الـشمسُ تتلـى في يميـ　　ـن البـدر يـروى في يـساري
تتـنفسُ الكلمـاتُ مـن　　روحـي وتلـبسُ مـن وقَـاري
لـي أربعـونَ مـشابهاً　　لـوني اخـضرارهم اصـفِراري
انـا حـين التمـعُ الـصوا　　عـقُ نارهـا حطـبٌ لنـاري
قـاعي لآلـئ لا يكـ　　ـدّر صـفوهُ رمـي الحجـارِ
مـاذا سـيلقط لاقـطٌ　　مـني بأيديـه القِـصار
عمـيَ النّهـارُ إذا طغـى　　ضـوء الـشموع علـى النهـارِ
مـا أبغـضَ الأضـواءَ ترقـ　　ـص للعمـى خلـفَ الـستار
الكـلُّ حاجتـه الظهـو　　رُ كحـاجتي أنـا للتـواري
لـو علّقـوا صـوري للطـ　　ـخت الـدّما وجـه الجـدارِ
ولمـا راوا إلا بقـا　　يـا لا كبريـاء في الإطـار
مـا حـاجتي والمـوت يعـ　　ـرف مـن أكـون إلى اشـتهارِ
انـا في الإسـارِ ومطلـقٌ　　بذئابـه هـو في ديـاري
لقـبٌ سيـضحكُ أو سيبـ　　ـكي فهـو أذنٌ لاعتِـذاري

وطن الأقواس

✍ علياء المالكي

الأكثر... مثلَ
الطيرِ توارى..
خلفَ الغيمةِ تيهاً..
يبحثُ عن وطنٍ وملاذاتْ
مثلَ
الأوراقِ يئنُ حنيناً
لتعاريجِ الكلماتْ..
مثلي.. يفترشُ الحزنَ سريراً..
كي يسبحَ في بحرِ الظلماتْ
يبحثُ عني.. فجراً وحريقاً..
يبحثُ تحتَ ضلوعي.. عن خفقاتْ
لا تؤويه الطرقُ المملوءةُ بالناسْ..
لا تحميهِ مساجدُ او حراسْ
يبحثُ عن وطنٍ..
لا يقتنصُ الأحلامَ ولا يفترسُ الأنفاسْ
وطناً.. وردياً
من.. حلمٍ.. قزحيً الأقواسْ

❖ ❖ ❖

يتدثرُ بي.. مثلَ الطفلِ وفي مدرستي..
يصنعُ طائرةً.. من ورقٍ.. او يرسمُ قلباً أحمرْ
يكتبُ عنكَ كما يكتبُ عني..
انشودةَ حبٍ في الدفترْ
يبحثُ عن وطني.. خلفَ جدائلِ نخلة..
أو تحتَ عباءةِ أمي
مثلي.. أو أكثرَ مني..
لا أدري.. فالحبُ هو

❖ ❖ ❖

العراق

بسام فالح مهدي

العراق الذي فرَّ من نفسه مرتينْ
العراق هنا وهناك وأينْ؟
لم يصدّق بأن اليدينْ
صارتا بين بينْ
لم يصدّق بأنَّ تواقيعنا
فوق كفيه دينْ
العراق الذي فرّ من نفسه مرتينْ
مرة نحو شرق العمامة فرَّ...!!
وعاد بلا مقلتينْ
مرّةً فرّ نحو جنوب العقالِ
وعاد بلا قدمينْ
مرّةً كان يثأر من نفسه للحسينْ
وهو الآن يثأرُ من ثأرهِ مرتينْ

وَطَني أبي لولاكَ ما كنتُ ... قبَّلت كفَّكَ حينَ أخطأتُ
وأنا أخاف عليك من لغتي ... فلربُمَا لامتكَ أو لمتُ
لا تزعمنْ أني تخليتُ ... أو أنني لسواك يمَّمتُ
وإذا نسبتُ إلى دمي حجراً ... بكتِ الجبالُ وتمتمَ النحتُ
قالوا كفرتَ فصحتُ آمنتُ ... ماذا يضيرُ إذا تكلّمت
من أنجمِ العراف لي نبأ ... أخفيتُ نجمك حين أنبئتْ
لا يبلغُ العراف حيلته ... بالنجمِ مهما قال نوبختُ
كذبت نجومك ألفُ ماكرةٍ ... مرّت بنا وتكسّر الوقتُ
لم أدر أن بأرضنا عرباً ... حتى ليحكمهم زرادشت
شكراً لكل الحزن علمني ... ما لستُ أعلم أنه الصمتُ
شكراً لأن في حنطتي كذبٌ ... ولأنّ أطيبَ خبزها الموتُ
شكراً لأنك لم تزل وطناً ... لا يبتنى في حضنهِ بيتُ..!!!
شكراً لأنّ الرّوم قد رحلوا ... شكراً لأنَّ الفرسَ لم يأتوا..!!!

وصالٌ هوى بغداد

رباح نوري

وصالٌ هوى بغدادُ مشهدهُ القربُ ... ونبضٌ بعطرِ الشوقِ يحسده القلبُ
صحا المطرُ النعسان من فرط عشقهِ ... على غبش ثر تألقه سُحبُ
لتحضنه بغدادُ صبحاً مولهاً ... وموعدَ أحلامٍ معابرهُ زغبُ
فذا طائرٌ بكرٌ... ملاعبُ جنحهِ ... تجمهرَ عيدٌ فوقها دابه دأبُ
وذا خاطر يروي فؤادَ غرامهِ ... بحبرِ قلوب قد أتيحَ لها الحبُ
فقد أينعت وجداً دفاترُ شوقها ... وقد عذبت في الوصلِ والهجر منصبُ
على ليلهِ الغافي على غيمة الرؤى ... واقمارهُ سهدٌ وأنجمهُ تحبو
فأشواقه بغدادُ في لوعةِ الشجى ... معلقةٌ تلقى وابياتاً تصبو
وأنت بها بيت القصيد وأهله ... ومطلعها الباهي ومشهدها العذبُ
وأنت لها حرفُ القوافي وحبرهُ ... وأنت لها بغدادُ شاعرها الصبُ
وأنت لها صوتُ الحمامِ هديلها ... وانت لها وصلٌ وفي بعدها قربُ

❖ ❖ ❖

بنان الخوف

إياد أحمد هاشم

على عقبِ الأيامِ ما كنتُ من رَمى ... وما عدتُ بالأعذارِ أو رحتُ متهَما
وما قمتُ إلاّ بينَ نفسي وعودِها ... قيامَ الغصونِ البكرِ بالزهرِ إذْ نما
وما نضحت إلا بما كان ملؤها ... مزاجا ونفس الحر لم تخف علقَما
فما لامني قلبي ولا رحت آسفا ... على عصبة ما شئت ان اتكلما
ربت أرضهم بالملح واهتز بطنها ... فظنوا بأن الأرض أعلى من السما
ومن ذا إذا شحّتْ به الناسُ مسكناً؟ ... أقامَ على اضلاعهِ القفرِ مأتمَا
نمتْ كفّهُ تحتَ الرداء فلمْ يجدْ ... ثياباً فالقاهُ العراءُ مكدّما

مشتْ خلفهُ الأبواب فارتابَ راجعاً ... ونادى إذ الجدران ردّتْ فأقْدما
على حبله المشنوق علّقَ روحَه ... سراباً فأضحى للخرافات مرسما
يرافُق صمتَ الأرضِ ما ثرثرتْ لهُ ... شفاهٌ إذ الدنيا اشارتْ هما, هما
تلونهُ الأنواء يمطرُ مرّةً ... وأخرى يزفّ الريحُ بالرملِ مرغما
وأخرى يحطّ الكفرُ تحت خبائهِ ... ضراراً فألقى بالعصيّ فأسلَما
تآكلَ فيه الحرف قبل قصيدهِ ... فإنْ رامَ إنشاداً هوى وتحطّما
أتى يوقدُ الأفلاكَ بعد انطفائها ... إذ اغتسلتْ عيناهُ بالدمعِ والدّما
وقبل انبعاثِ الضوءِ يحجب صوته ... فقام له البدرُ القديم مكلما
وباعته أركانُ المدينة فيئها ... ونامَ على بردِ الرصيفِ فأزكما
أتى حين كان الدرب درباً ولا المدى ... مداهُ وليسَ العشق إلا توهّما
فما حاجةُ المسكون بالنجمِ ان يرى ... عيونَ الضواري ترتدي الليلَ انجما
ترجل منه الفجر فانساب خاشعاً ... وراح يباريهِ الظلام فأضرما
تباعد عنه العاشقون تمرداً ... فما زرعه الأحوى ولا ماؤهُ الظما
انا مذ انا اعلنت أنّ احتضاره ... بقاء فمن رامَ الخلود تيتما
أنا من حقول المسكِ للمتُ لونه ... ومن لغةِ العصفورِ أعطيتهُ فما
على شفة الجوري مر لسانه ... من الصمتِ حتى كادَ أن يتكلما
وضعت بنان الخوفِ فوق جراحهِ ... وكم زدتُ إيلاماً وزادَ تألما
فما غرّني فيه السرابُ على الثرى ... وما وسنَت عين الغراب ليحلُما
تركت سؤالي والجواب تغربا ... فلم يكفهم قولي وكم قيل أعجما
أيا واقفاً لم تكترثْ بعده الخطى ... وكم حملته الريحُ قوماً بهمْ سما
يسائلني كيف اهتديت لحملهِ ... اجبت الذي قلبي فعيني لها العمى
انا ما حملت النار إلا لحاجةٍ ... فما أثقلت حملاً ولستُ الذي رمى
تفتشُ في جنبي هل أنت فيهما ... اما اخبرتك الشمسُ؟ إن شئتَ سلهما
فما انت إلا من قلاعٍ نعدّها ... من الثلجِ ما زلتْ وما زلت مضرما
أنا عبدك المملوك ما دمت راكعاً ... وما كنت فوق التلّ! أو رمت مغنما
وكم قبلت نفسي هواكَ معذباً ... وآليتُ إلا أنْ أكون، فكنتما

عازف الأوركسترا يستحضر القضبان

المزج بين الألوان في قنينة الموت

✍ باسم الماضي

الشاعرُ الإنسان مخبوء بعينيه القمرْ
الشاعرُ الحجرُ المهيأ للصلاةِ مصافحٌ كف القمرْ
الشاعرُ الشجرُ الكثيف حفيفه غنّى فعانقهُ القمرْ
الشاعرُ الليلُ الذي نشبتْ مخالبهُ هنا في اللحمِ محتقن تماماً كالقمر
أما القمرْ
فلديهِ عذرٌ أن يكون بغير إحساسٍ بهذا الشعر والملكوتِ مات الشعر
مات الشعر يا مولاي والملكوت مات فمات إحساسُ البشرْ

❖ ❖ ❖

قل ما تشاءُ عن الجسدْ
لكن بربكَ لا تقلْ شيئاً وحيداً
لا تقلْ كان الزمانُ إهابه فعلاً
وإلا سوفَ يغدو يابساً جداً تماماً كالوتدْ

❖ ❖ ❖

حتى وإن كانت لنا أعمارنا من دونِ أن نشقى بها
اتظنُّ أنا سوف نقبل أن نعيش العمرَ مبتهجين جداً
أم سنبحثُ هكذا عن أي مغزى للمعاناةِ الكبيرةِ في الحياة؟!
إنا خلقنا كي نعيش البؤسَ عاش البؤس عاش البؤس
عاش البؤس من مهدِ الحياةِ إلى الوفاةِ

❖ ❖ ❖

المجد ليس الأرض
ليس النار
ليس الماء
ليس الجوّ
كان المجد في الزمنِ القديم حكاية لا غير

أما اليوم

فالمجد المؤثل أن تكون معلقاً ما بين بين

أو أن تكون مؤجلاً مثل القصيدةِ في بريق المقلتينْ

❖ ❖ ❖

عش ألفَ عامٍ أو فزدْ

لا بأس فالقبرُ الصديقُ يحسّ كالشخصِ الصديقِ بما تعاني قبل أن تلجَ التراب

عش ألف عامٍ أو فزدْ

فالناسُ والأشياءُ طراً يا صديقي غامضون وأنت في حكم الضباب

❖ ❖ ❖

لا شك أن العالم المنظورَ ذئب والحقيقةُ طعمها مرّ تماماً كالفِراق

إن كنت جزءاً من تراب الأرض فالعقهُ

لتعرف أن طعم الأرض طعم المراةِ الثكلى

فكيف تقول إن الأرض راقصةً

وانك عازف الأوركسترا

في حفلةِ الأحياء والأموات

كيف تقول إنك نحو عالم عشقها ماضٍ على ظهرِ البراق

❖ ❖ ❖

فرساً رايت الليل تجتمح والنهار

ما كان إلا ومض حافرها الغبار

الحرب ليست يا صديقي نخوة الأجيال

كنت أشاهد الحرب التي فتكت بأنباء الشهامة والبطولة

هكذا تأتي إلى الجثث الصريعة في الظلام

فتحتسي دمهم وتطبخ لحمهم وتعاف أمشاج العظام

الحرب تأكل من ذويها وهي تبكي

ربما تبكي لأن الدمع يعطيها الشعور بأنها لم تمس شمطاء القوام

فالحرب إن شاخت تبسم ثغرها بالعكس من خلق الأنام

❖ ❖ ❖

من أجملُ الموتى على الإطلاق

من القاهمو للهِ وهو على عهود الذرّ باق؟

إن موتَ الناسِ أصناف فخذ صنفا ودع إلاهُ
خذ صنفَ الوفاة على ذراعِ الصمت من فرطِ التأمل بالحياة
ودع وفاة الهائجين من الصباحِ إلى المساء
ودع وفاة النائمين من المساءِ إلى الصباح
وقل أنا لا غير من عرف الحقيقة عندما صلّى وصام
لمستها بيدي هاتين أثناءَ التّبتل في الصلاة
قد كان ملمسها رقيقاً كالحمامةِ
ثم لم تلبث فصارت يا صديقي جرفَ نهرٍ
ثم فاضت ثم لم ألبث فكدت أموت في الطوفان
ثم صعدت في المعراجِ حتى كان جبريل قريباً من نهايةِ شوطه
فأقلته لما استقال وقلتُ أنت أنا ولكن أنت أعرق في انتحال الأمنيات
ولذا سأصعد ثم دونك وارتقبني أن أعود هناك في كهف الشتات

❖ ❖ ❖

برئَت يداك
بَرئَت كذلك مقلتاك
لكنّهم كم يقصدونك أن تكون معنوناً
كم يفرغونَكَ دائماً من محتواك

❖ ❖ ❖

الناسُ من طين وخلفك وحده إن شئت
تصدعَ بالحقيقة من ذهبْ
فعلامَ قيلَ بأن كفك هذه تجني الخطيئة
ثم يخبو ضوءُ وجهك
ثم تأتي للقيامة يوم تأتي غير مكترثٍ
فقد أحكمت كيف تقلب الأشياءَ أجمعها
وتجعلها تحنّ إليك حتى النّار
حتى نفس السنةِ اللّهبْ

❖ ❖ ❖

بإرادتي اخترتُ الإقامةَ في السّجون
لقد دخلت إليه فجراً

كان فجراً عبقرياً داهمتهُ الطائرات

وكنت ابصرها هناك هناك في كبدِ السّماء

كأنّما هي قطّة وحشية

لم أخش منها

كانت الصحراء لي أماً

وكنت رضعتها حتى بلغت كهولة الأسماء

كم واجهت من خلق توحشٍ في العراء

وكم هزمت وكم هزمت

وكنت في الحالين أرجى أن اموتَ

وكنت في الحالين انثرُ فوق راسي الأرض حمداً للسّماء

الحمدُ لله العظيم على السجون العبقرية في بلادِ الأولياء

❖ ❖ ❖

أستقبلُ الموتى هنا في السجن

اعطيهمْ دروساً في الهداية والضلال

وامد كفّي نحو طفلٍ ميّت قربي

فأضغط فوق أضلعه برقة شاعرٍ

فيقوم هذا الطّفل من تابوتهِ الضوئي

يوقظُ أهله أيضاً

ويدعوهم إلى ما يرتأيهِ من المحال

ان يصبحوا في الجوّ اطياراً

وان تتحوّل القضبان

في السجنِ المحيط بنا جميعاً ها هنا

اعشاشاً

أستقبل الحياء في سجني كذلك

لا أرى أحداً

تماماً كالخزاعي الذي خبر الرجال

فرآهموا في حكم أعقاب السجائرْ

في أوان السلم

ثم رآهموا

في حكم شاةٍ في معاقرة النزال
أستقبل السجناءَ مثلي
لم يشاكلهم من الأحياء حيّ
لم يشاكلهم من الأموات ميّت
والحقيقة ربّما نطقت بها أنفاسهم
من قبل أن تتفتحَ الكلمات في افواههم
هل هؤلاء إذن جميع الضوء في زمني
فكن يا أيّها السّجن الصّديق إذن
جميع الأهل في الزمنِ الذي
حكم العباقرة الفطاحل فيهِ
قومٌ يأكلون ويرمحون كما البغالْ

❖ ❖ ❖

السجن أرحب من فضاءِ الأرض
فاهدأ
لا تقل قلبُ الفضاءِ أرحبْ
لو قسموا السّجن الرغيف
على الذين تضوروا جوعاً إليه
لكنت ممن يسغبْ
انا لا اقول السجن أرقى
من عيون الأنبياءْ
ولا أقول السجن أمٌّ أو أبٌ
لكن أقول السجن
معراج النبوةِ للإله
وما البراق
سوى عراق يصلبْ
وأقول أيضاً حدقوا فيه طويلاً
كي تروا كيف الطّغاة
جموعهم تترئّبْ

من أجل قبلةِ نعلٍ
هذا المستكين برأيهم
وإذا بمكرهم الرصاصُ الخلب
وإذا بهم لا يشبهون النّار
بل لا يشبهون الماء
بل هم فأرةٌ تتوثب
بل هم كما قالوا انّهم
سحبُ تمر
وخلفها رتلُ كلابْ
تفرّ إذ تتألب
اهدابُ عينيكَ يا سجين
ترف هل تدري بأنّ الله
من تحت المحَاجر يخطب
أن سوف تخلدُ أنت
في قلبِ الحقيقة
حين هذا الحاكم المتغلّب
سيجيءُ وهو يجرّ
كالحمرِ الهزيلة
قاطراتِ الأنفسِ الصرعى
ليومِ الحشرِ وهو المذنبُ

❖ ❖ ❖

اكتبْ عن السجن المقدس انّه … لأحقّ بالتطوافِ من حرَم الإلهْ
اكتبْ عن السجن العراقيّ الذي … ما أطبقت إلا علينا مقلتاهْ
قل إنه القرآنُ ضمّت دفتاهْ … كلّ الذي في الكون من نفحاتهِ
فالمشرقان كلاهما أو مغرباهْ … من أعين السجناءِ قبسة عالمٍ
لم يدر اللهُ ماذا منتهاهْ … بل إن ربّك لو يطيقُ الناس
تأويلَ السجين لقال … عرشي خُطوتَاه

غريبٌ بلا خليج

✍ عمر السراي

أزيلوا صفات المدينة... من مدنٍ غادرتها النساء
أزيلوا الغناء
فما عاد في القلب متسعٌ
كي نصف إطارات أحلامنا
والشوارعُ أسلاكها من بكاءْ
أزيلوا تصاوير كل المواعيد من حائطٍ يتعفّنُ في الذاكرة
أزيلوا خطى عاشقٍ عابرٍ
يشتهي خطو عاشقةٍ عابرةٍ
أزيلوا مواعيدهم ترتخي فوق لون الشجر
ورقةٍ إثر اخرى
هنا جلسنا
واستفزّ وجودهما السائرينْ
وقاما... ومرّا
أزيلوا من الماء معنى النهر
ازيلوا البشرْ
فهذا السوادُ الذي
يكتفي بالصورْ

❖ ❖ ❖

وهذي التي تدّعي أنها العاصمة
مواويل من حطبٍ ونشيجٍ
سواحلها طلسمٌ من جحيمٍ
وأبناؤها غرباءُ
ولكن بدون خليج
يحبون
لكن على نغمةٍ من ألم
يخطّون نجوى أصابعهم
فوق جسرٍ تقوّس

لكن على ضفةٍ من عدم
فشاطئهم سارحٌ في التراب
وكلُّ المجاذيف عكازة لجراحِ (البلم)
تمرُّ الطيور منكسةً ريشها
فوقهم
مرقطةً بالهديل
ومزهوةً بالظلام
فهذي المدينة ممنوعةٌ في الوقوفِ
وممنوعةٌ في القيام
وكل الغصون مفارزُ موتٍ
وكلّ البنايات مغزولةٌ من كلام
توكّرُ فوق انحناءات حرفٍ يحاولُ أن يجمعَ الآخرينَ
ليعلن لفظَ السلام
فتزلقُ في (كسرةٍ) غادرة
وتلتفُ ثانيةً صوب ريشاتها المطفآت
لتبحثَ في الليل عن جملةٍ خافرة

❖ ❖ ❖

تذكّر إذا ما سمعت الحمام ينوحُ
بـ (يا قوقتي اين أختي؟)
وحاول بأن لا يكرّر هذا السؤال
وحاول بأن لا تجعد لكنّه منقارهُ حين يسأل
(اين مدينتَه التي لا تزالْ؟)
تقاوم ملحَ اظافرها بالمحال
واصغِ..
ستسمع ترجمةً ثانية
أزيلوا صفات المدينة عن مدنٍ سقفها (لا جمال)
أزيلوا النّدى يستفيق على شوكةٍ من قتال
أزيلوا البساطيل عن شامةٍ تحت رمشِ الغزال
وازرعوا كل ثغرٍ بقبلةِ أنثى
فقد ملّت الأرضُ وأدَ الرّجال

ستظلّ تشرق

✍ فاهم العيساوي

إذا سمعنا ببغداد فزّ فينا قافُ العراق قافيةً لقصائدنا.....

الـــرّيحُ مقبلـــةٌ وأرضـــك زورقُ ... مــا لم تــصلْ بــرّ العــراقِ ســتغرقُ

تحـــت الميــاهِ مدينــةٌ محروقـــةٌ ... والنـــار يوقـــدها المـسافرُ فــاتّقوا

بعــض الــذين إلى الــسفوح تزلقــوا ... وإذ انحنـــتْ لهـــمُ الجبــالُ تــسلّقوا

يــا بَــرّ أنــتَ بــوهمهِم متفــرّدٌ ... إمّـــا تجمعُهـــمْ عليــك تفرّقـــوا

يــا رخَ بغــداد انتبــه لجنـــونهم ... كــلّ المنافــذِ في هروبــك تغلــقُ

في رقعـــةِ الــشطرنجِ لــيس محالـــةٌ ... ان يهـــزمَ الـــرّخَ المغفّـــل بيـــدقُ

لا تنتهـــز فـــرصَ الـــصعود بلعبـــةٍ ... فالـــدربُ خـــيط العنكبـــوتِ معلّـــقُ

لا تـــستفزّ كمـــا العبيـــدِ بكلمـــةٍ ... فالعبـــدُ فـــردٌ والرزانـــةُ فيلـــقُ

رعـــدُ القنابـــل بـــالهطول ســـينتهي ... والغـــائمُ الموقـــوتُ فيـــك يـــؤرّقُ

بغـــدادُ تحتمـــلُ الفـــراق لأخـــوة ... كـــم ضـــيعوها والجميـــعُ يـــصفّقُ

لا تلتفـــتْ للـــذئب بئـــرك واســـعٌ ... بغـــدادُ في أيـــدي العزيـــز ســـتورقُ

كقمـــيص يوســـفَ حـــاجزٌ في موعـــد ... بـــين الفـــضيلةِ والرذيلـــةِ يمـــرقُ

الآنَ فليـــسمع زئـــيرَ قـــصيدنا ... قـــد كـــانَ في صـــمتِ المقـــابرِ يخنـــقُ

أنـــا شـــاعرٌ يمتـــد بـــي قلـــقُ الـــبلا ... د قوافيـــاً ولـــذاك دومـــاً أقلـــقُ

أنـــا يـــا عـــراقُ فـــلا تمـــوتُ قـــصائدي ... مـــا دامَ نبـــضك في دمـــي يتـــدفقُ

لـــك يـــا عـــراقُ الأوليـــاء منـــارةٌ ... في كـــل أفـــقٍ في المـــدى تتـــألّقُ

هـــذا العـــراقُ علـــى الـــورود دمـــاؤهُ ... ازدهـــرتْ أمـــام الطيـــبين ليعـــشقوا

واعيـــذهم أن ينكـــروكِ وإنمـــا ... قـــستْ الـــسّنونُ علـــى القلـــوبِ فـــصفّقوا

أمعبّـــداً دربَ الـــشهادةِ لا تخـــف ... فمتـــى تحـــاورهم عيونـــك يـــصدقوا

الـــشّمس حلـــت فيـــك، لا تبـــأ بهِـــم ... ســـتظلّ تعربُـــك الجهـــات وتـــشرقُ

يـــــــــــا........؟!!

✍ د. عبد النور داود

تداعوا معي إلى مسرح الرشيد في مربد ٢٠٠١ إلى أبيات من القصيدة التي أقصتني عن القراءة في مربد ٢٠٠٢:

رأيتـــهُ عـــاش عمـــري وهـــو يقـــتلني — لّمـــا رايـــتُ علـــى مقتولـــه كَفَـــني
رأيتـــهُ يـــشنق الأعـــداء في عـــصبي — وكـــان في عنـــق الأعـــداء يـــشنقني
تعـــسّني الخبـــز مـــن جـــوعي أصـــدقه — اليـــوم صـــدقت أن الخبـــز يـــأكلني
وأبـــشع القتـــل أهـــداني مـــسدسه — بـــه إذا مـــا عليـــه ثـــرت اقـــتلني
هربـــت عنـــه وظلـــت عنـــدهُ قـــدمي — في كـــل أرض عليهـــا الأرض تتـــبعني
مـــشردٌ فيـــك عـــني عنـــك يـــا وطـــني — إلى متـــى أيهـــا المـــسكون تـــسكنني
لا قلـــب لـــي إذ أرانـــي عنـــك مغتربـــاً — لا قلـــب لـــي كـــي أرانـــي فيـــك في كفـــني
أعلنـــت فيـــك لجـــوئي عنـــك منتظـــراً — كلاجـــئ فيـــك عمـــا فيـــك تقـــبلني
عـــن اللـــصوص الـــتي حـــولي وأقـــربهم — يـــدي إذا غفلـــت عينـــاي تـــسرقني
عـــن أهـــل ديـــني عمّـــاةٌ تـــدور علـــى — مـــواعظ يـــشتهيها الجـــوع تعلفـــني
عنـــا وعـــن غربـــةٍ تاهـــت بمـــنْ رحلـــوا — عـــن المقـــيمين في الترحـــال عـــن وعـــن
عـــن لحمنـــا أكلـــوا فيـــه ثـــم رمَـــوا — لنـــا بعظمتـــهِ صـــرنا الحمـــاة بـــني؟...
أعلنـــت فيـــك لجـــوئي عنـــك قـــل فمتـــى — حـــق اللجـــوء عـــن النافيـــك تمـــنحني
أنـــــا لـــــسانك في أمٍّ ودمعتهـــــا — تـــسيل في تربـــك الخـــدين يـــا وطـــني
بمـــن تحنّـــت بـــه حـــربٌ فـــأودعني — هـــم العيـــال يتامـــاه وودعـــني
أنـــا لـــسانُك في عيـــد لفرحتـــه — صـــغار بـــيتي أنـــا العريـــان تلبـــسني
في راتـــب مـــن يـــدي الأمعـــاء تقبـــضهُ — وبعـــد يـــومين ملـــك الجـــوع يقبـــضني
أنـــا لـــسانك في بيـــت أؤجـــرَه — وعقـــدهُ نـــص أن البيـــت أجرنـــي!!!
أنـــا لـــسانك في ثـــوب أرتقـــه — وهـــو الـــذي لولـــه كـــفٌ لـــرتقني!!!
أهزنـــي فـــأراني في يـــدي خـــشباً — وهـــم يـــسمونني سيـــف بـــن (ذي يـــزنٍ)؟
وأدخلـــوني حروبـــاً كـــان آخرهـــا — ضـــدي انتـــصرتُ ولكـــن كنـــت أهـــزمني

أسائل الناس عن بيتي تقود فمي ... وافتح الباب والمفتاح يغلقني
وجوه أهلي في وجهي مغلّقةٌ ... وجهي إذا أطرق المرآة يطردني
رأسي يهددني في نسف حامله ... كفي إذا قلت خاف الله تصفعني
قربان من لست أدري كل ثانية ... طبول قلبي لنقل اللات تنذرني
توطنوا أذني من دونما خجل ... يا من يصيح عليهم انها أذني
يا من يقاتل عن أذني مئذنتي ... في كل فرض ارى من قبلتي وثني
كل السياط العلت ظهري ساجلدها ... لكن ظهري وكيل السوط يجلدني

❖ ❖ ❖

بغدادُ.... صاغَ ثغرهَا العسلُ رغمَ كل شك

✍ وهاب شريف

صاع ثغرها العسلُ، وهو فيه يغتسلُ، النوافذُ ارتبكتْ، والقلوبُ تشتعلُ، السلامُ في فمهَا، والعيونُ تقتتلُ، ذابَ في مفاتنِها حين مرّت الغزلُ، يمرّونَ يغلي النهرُ، يذوي العودُ، ويشيبُ قلبي، والذي أراهُ ابتلاءَ الفريقِ بأحلامهِ واحتكامَ التلاميذِ إلى هاربٍ من اتّساعِ العيونِ التي تراهُ، لغةُ اليأسِ واحدةٌ وأحاسيسُ الشموعِ بالكادِ تختلفُ وابتكارُ أناسٍ جديرينَ بالحبِّ معضلةٌ، لأنهم لم يستبدوا بالبراءةِ واحتكار الفقر، آه يمرّون...

أعلمك اختصاراً للزمانِ الذي مضى إن ما بيننا ليسَ انتظاري لتلّ من الخبزِ والموت والوعود، بل احتراقي في الشفاه وحاجتي للولادةِ من جديدٍ في مسامات الأمل، أعلمك الرجوعَ، إليك يا شفتي المدينة، إلى ضفاف العيد يا حلوة، دعي الذين يعذّبون القصائد يقترحون ميتةً سخيفةً للبلابل، امتلئي بالمراهقين الذين يكركرون وهم يسحقونَ الظهيرةِ، بينما الخوفُ في رموشِ رامهاتهم يغزلُ التشاؤمَ في نظراتِ الآباءِ المندحرين تصابياً وجنوناً وخطيئةً...

تهجّي معي أحرفَ المغامرةِ بلدةً بلدة هل سنلتقي عند شارعِ المقبرة؟ بينما الآخرون يضحكون خيبتهم الأخيرة غيرَ منشغلينَ بالنّظام الجديد الذي ابتكرناه ونحن نبوس بعضاً... اضحكي لأن هناك من يتشبّه بالنّساءِ الجميلاتِ بينما الذين يتشبّثون برجولتهم يتظاهرون بحبِّ البلادِ منذهلين حيارى لأنّ الكلاب تعرفُ أعداد القتلى غير المكترثين بمن لا يعرف أين توقفت ابتسامتهم عن التمسّك بالصباح...

ارفعي المجرورَ من عرباتِ الكياسةِ طالما أن هناك من يكسر غافلاً دونما حياء، من لمن داست عليه مروءته؟ يمرّون.. أعلمك التوازنُ ليس الذي أمامي إماماً يلقنني أن أتوبُ ولست

اللعوب الذي يردد خلفه (أوكي حبيبي) ولما كنت متخلفاً مثل قريةٍ مستديرةٍ فأنني أتدحرج فوق أشياءَ جميلة دون أن يشعر الأبناءُ ودون أن أحتاجُ إلى تسويف أنف جاهلٍ ومغني دخيل... آه اخلعي نعل الغوايةِ عذبيني اختلافاً مثلما تجرب بلدةٌ عزيزةٌ العذاب سمٌ العقارب يمرّون يغلي النهر يذوي العودُ يشيبُ قلبي ابحثي معي عن بصيصِ سنبلةٍ وأطلقي العنان لخيول الذاكرةِ التي دققت بؤسَها وحققت حضورها في شقوق الأرض.

علـــى ذكـــراكِ يـــستلقي ارتيـــابي ... أتيتـــك قابـــضاً بلـــدي غيـــابي

لأنـــي بعـــت آخرتـــي بـــوهمٍ ... وأغـــرقني غـــروري في التـــصابي

إذا أرجعـــتني مـــن دونِ دمـــعٍ ... فمـــا ردي إذا ســـألوا انـــسكابي؟

تغيـــبني إذا غابـــت ظنـــوني ... واعـــرف انّـــك الفـــي ونـــوني

حزنهم مرّ من حزننا هل يمرّ الذي لم نره؟ يشعرُ النّمل بالعجزِ هل يشعرُ التعبُ بالمقدرة؟ يشعرُ الدمعُ بالذنبِ هل يشعر القلبُ بالمغفرة؟ ما الذي حل بالورد لم يلتفت ما الذي غيره؟

❖ ❖ ❖

يا سيّابُ عُمري

✍ هزبر محمود

لروحـي حـدودٌ عنـدها الـصّبر مطلـقُ ... بهـا كـلُّ دمـعٍ قـد يهـبُّ مطـوّق!

ومـا بـينَ حـدّ الليـلِ والأرضِ إصبَعي ... يـشيرُ إلى ظهـرِ النّهـارِ فيـشنَقُ!

وكفّـي علـى صـدرِ الـصّغارِ سكوتها ... غطـاءٌ علـى لغـوِ المواجـعِ مطبـقُ

لأنظارهـا وخـزٌ بانظـارِ غيرهـا ... فمـا مرّهـا الآتـونَ إلاّ واطرقُـوا

انـا هـزَة في الـشّعر مـن دونِ موعـدٍ ... ومنـذُ فِطـامي والتـواريخُ تقلـقُ

اثـير سـكوني والبحـارُ هـزائمٌ ... وتنـسى مجـاديفي الـصّلاةُ فـأغرقُ!

واعلـمُ أنَّ النـاسَ لم يفقهـوا فمـي ... ولكـنّهم ملّـوا الـسّماعَ فـصفّقُوا

ويـا وطنـاً يغفـو بتـسبيحِ نخلـةٍ ... وفي يـدهِ جـرحٌ وصـبرٌ وخنـدقُ

ويـا وطنـاً منـذُ التقـاءُ بنيـه قـد ... أعـدوا مراسـيماً عليهـا تفرّقـوا

رجوتـك لا تخـبرنَ غـيرك انـني ... اخـيطُ لـه ثوبـاً وقلـبي ممـزّقُ

و لا تخبرِ الطـينَ ــ الذي انتَ جلده ــ ... بـأنّي علـى احلامـهِ البـيضِ ضـيقُ

ولا تخـــبرِ الأطفـــالَ أنـــي كـــذبتهم ... فلـــن يفهمـــوا أن العنـــاقَ ملفّـــقُ

رجوتُـــك خبـــئ كـــل ضـــوءكَ ليلـــةً ... فـــإنّي نعـــاسٌ والظـــلامُ مـــشققُ

وعجـــل بـــذر أدمعـــاً قبـــل حينهـــا ... عـــساي علـــى توديـــع ردنِـــك الحـــقُ!

رجوتُـك يـا سيّاب عمـري الـذي اكتفـى ... بـأن صـارَ تمثـالاً وجيكـور تـسرقُ

ويــا نازكــاً جــرّت إلى النّيــل طولهــا ... وقلـــبي بـــصلبانِ النّحيـــبِ معلّـــقُ

و يــا أمّ عـــوف في دمـــوع الجـــواهري ... تنـــادي هـــوى أم البـــساتينِ مرهـــقُ[1]

ســـتبقى تعاديـــكِ المـــداراتُ كلّهـــا ... وأنـــت علـــى كـــل المغـــاربِ مـــشرقُ

وتودعـــك الأفـــلاكُ فينـــا تـــساؤلاً ... وأنـــتَ بوجـــهِ الاحتمـــالات مغلـــقُ

فنبـــدو تفاســـيراً عليـــك كأنهـــا ... ثقـــوب لعـــلّ الأرض تحيـــا فتـــشهقُ

ووســـعها عـــشقي فـــصارت كمـــدخلٍ ... لعينيـــك منـــه العاشـــقون تـــدفقُوا

لأنـــي أنـــا المـــسرى إليـــكِ إذا أتـــوا ... اقـــولُ لهـــم هـــذا العـــراقُ ترفَقُـــوا!

فمـــا مـــن حـــصاةٍ فيـــه إلاّ وعنـــدها ... حـــديثٌ علـــى تفـــصيلهِ الكـــونُ يـــأرقُ

ومـــا مـــن حـــصاةٍ فيـــه إلاّ وحولهـــا ... دمـــاءٌ وآيـــاتٌ ونجـــمٌ محـــدقُ

تكـــسر ســـير الوقـــت فـــوقَ جراحِـــه ... فـــلا هـــو بالماضـــي ولا هـــي تعتـــقُ

❖ ❖ ❖

بغداد يا دارة الدنيا

✍ د. كمال عبد الرزاق العجيلي

جـــدّدت في غـــررِ الـــسنينِ شـــبابها ... وســـكنتِ مـــن شـــتى القلـــوبِ عـــذابَها

وطربـــتِ إذغنّـــى الخلـــودُ نـــشيدهُ ... وســـقيتِ مـــن أحلـــى الـــشفاهِ رضـــابَها

بغـــدادُ يـــا أزلاً يمـــدّ إلى المُنـــى ... بعـــد الـــرؤى والمـــستحيلُ رحابُهـــا

وفتنـــتِ أهـــلَ الأرضِ حتـــى أيقنـــوا ... أن المفـــاتنَ البـــستكِ ثيابهـــا

فهـــوت إليـــكِ قلـــوبهم وعقـــولهم ... ســـكرى ســـلبتِ مـــن الغـــرامِ صـــوابَها

---

(١) كركوك يا (أم عوف) و(أم البساتين) قصيدتان للجواهري وأم البساتين نهر دجلة.

فالعشقُ فيك منازلٌ صوفيةٌ ... يرقى بهنّ المشتهى أنخابَها
يا دارةَ الدّنيا أتتك عبوسةٌ ... ورمت عليك نصالَها وحرابَها
نعقتْ طواغيت الردى مسعورةٌ ... فتقهقرتْ لما وأدت غرابَها
وعوت عليكِ ذئابُ كل رزيةٍ ... بئسَ الرزايا إذ صددتِ ذئابَها
ما الموتُ إلا حكمةٌ قدريةٌ ... يحكي لغافلةِ النفوسِ خرابها
بغدادُ يا صبرَ الرجالِ مضمّخاً ... بدمِ الشهادةِ مترعاً أكوابَها
شهداء مجدك يعتلونَ كواكباً ... زُهراً سراعاً تبعاً أسرابَها
يا قبلةَ الدنيا وخاتمةَ الهوى ... ضربت عليك الكبرياءُ قبابَها
ما بالُ دجلةَ كلما غنّت صبا ... صوتُ المقامِ فأطربت احبابها
والنخلُ يحمل تحت كل سعيفةٍ ... من شاعرٍ وتراً شدا أرطابَها
والكرخُ يتلو الحبَّ في عين المها ... ويدّ الرصافةِ هدهدت أهدابها
والجسرُ يروي سحرَ ألفِ حكايةٍ ... وحكايةُ هتك الظلامِ حجابها
بغدادُ خلدك السلامُ باسمهِ ... لك أحنت المدنُ الحسانُ رقابَها
فغدٌ هو الأحلى وافقك باسم ... مهما الحواقدُ سعرت إرهابَها
باقٍ هواكِ محبةً وحبيبةً ... عربيةً حفِظَ المدى أنسابَها

❖ ❖ ❖

طال انتظار ابتسامتك

✍ ماهر عياد عبد النور

جميلتنا بغداد
كفى حزناً
القي عنك
رداء اليأس
اطوي يا فاتنة
جراح الأمس
البحار تسألني

تستحلفني

من أبكى بغداد؟

النخيل شارد

الليل حطم

القمر والأنجم

واستكان

ساكني القبور

هبوا

اعتصموا

احتجوا

وعادوا أدراجهم

يرددون

كفى حزنا يا بغداد

دموع

الفرح المؤجل

تنهمر بغزارة

من شموع

بيد عشتار

وأنا .... نعم أنا

أدخن

ملامحي الحزينة

أسى

على بغداد

افعليها يا بغداد

وابتسمي

ليتعرق الحزن خجلاً

❖ ❖ ❖

المَجْمَرَة

✍ رعد موسى الدخيلي

استنفرتْ خيلها حقداً وما وجفوا ... حتى غدا الرمحُ بالأجساد يرتجفُ
محمومةَ الطيش لا الأرسان توقفها ... ولا التضاريسُ ما تُطوى وتلتحفُ
بينَ الأخاديد قد بلّت جبلتهم ... عادوا إلى الطّين، لا أشياء تكتنفُ
ظلّت تمورُ على الشدقين ظامئةً ... حتى أراقَ على الكفين مغترفُ
موتٌ يصول بدنيا الناس لا غسقاً ... ولا أصيلاً بظهر الأرض ينعطفُ
خوفٌ يجول بليلاء العباد ضحىً ... لا الشمس تؤتي أماناً فهي تنكسفُ
ولا البدور إذا ما ضعنَ في سحبٍ ... ما ضرّ أيهم في الليل ينخسفُ
ولا النجوم إذا ما كن في سحرٍ ... خلف الضباب على ليلائهم تقفُ
هي القبور سجونُ الخلق موطئهمْ ... أحياؤهم بيتهم ما خبأت غرفُ
لا شيء فيهم من الأحياء في وطنٍ ... أشياؤهُ كلّها ماتت عدا الشرفُ
قد أوشك الموت يأتيهم لقبلتهم ... محرابهم ركعةٌ فيها له اعترفُوا
لله يوماً ولولا الصبر لانطفأت ... شميعةٌ أوشكت أن تنطفي عزفُوا
عن الحياة لأن العمر قنطرةٌ ... نحو السما فما اهتزوا وما انحرفُوا
أعلوا أنوفهم حتى تمرغها ... سقمٌ به زكموا حتف به رعفوا
خطّت مبادؤهم نقشاً على حجرٍ ... بالحق إذ عرفوا فيها وهم عرفوا
لا يعرف القبر أمواتا بلا جسدٍ ... أرواحهم لم يزل ينَدى لها الأسفُ
مرّوا على الأرضِ أنهاراً مسافرةً ... تبخروا أبحراً واستمطروا ونفُوا
يزجي هوى الروح إبحاراً بغربتهم ... ويستقر على مينائهم نجفُ
الكربلاءات شمسٌ آن تضحية ... والتضحيات شموسٌ حين تنتصفُ
ورد على الشوك لا كفٌّ تلامسه ... ورد على الشوك كيف الورد يقتطفُ؟؟
بين الحراكات نيرانٌ على بردٍ ... كيف اللهيبُ وهذا البردُ يأتلفُ؟!!
يا أرض بغداد أنت الأمس بوصلةً ... ساروا عليك نضالاتٍ وما نصفوا
حتى استحال عراقُ اليوم مجمرةً ... تذكي البخور فعيشوهُ أو انصرفُوا!!

لا تسمّ الأشياء

✍ محمد البغدادي

في الطريق إلى المنفى الجديد

أنت
يا المُبتلى بما ليس يدرك
يا الذي المستحيلُ أنقضَ ظَهْرَكْ
لا تقف في مهبّ عاصفة الغُربة جذعاً
و الأرضُ تقطع جذرك
لا ترتّب نواح حزنك شعراً
قبل أن تعصر المواويل خمرك
لا تُسمّ الدخان غيماً
لكي تغفر للحرب وهي تغتال بذرك
لا تُسمّ المنفى الذي لم ترده وطناً دافئاً يرمّم قبرك
لا تُسمّ الصحراء بيتاً
وتنسى أنّ رمل الصحراء قد يتحرّك
لا تُسمّ الجبّ السحيق نجاةً
فالعزيزُ الأخيرُ غادر مصرك
لا تُسمّ الأشياء
لست نبياً
لتُسمّي هذا الوجود المُفبرك
إن توحّدت بالقصيدة أدركت
ومن أدرك القصيدة
أشرَكْ...!

❖ ❖ ❖

وجع الطين

✍ أحمد جليل الويس

لثمالـــــــة الكاســــــات هـــــــمُ وصــــــداي قـــــد أفـــشاه نجـــــمُ
يــــــا كـــــبر مـــــذبوح بــــأو جـــاع العـــراق سمـــا ويـــسمو
أي اشــــــتهاءٍ فيـــــك أســـــــ ـــــرى فـــاحتوى الأحـــلام نهـــمُ

وتنـــاثر الوجــــه القديـــــ ـــم علـــى جـــروح تـــدلهمُّ
فكــــأن أجــــراس المـــســـ ـــاء أكفُّهـــا والليـــل وشـــمُ
وكــــأن كـــــل ســـحابة هدهـــــدتها في الـــروح يـــمّ
كـــل المـــدائن تـــشتهيـــ ـــني خمـــرة فالقلـــب كـــرمُ
وكـــــأنني في رفرفـــــا ت سمائــــه ريـــح وغـــيم
وطـــني أنـــا أصـــل وكـــل العـــابرين ســـواي وهـــمُ
فأنـــا أمـــير الحـــرف لـــ ـــكني بغـــيرك لا أهـــم
وجميـــع مـــن عـــبروا إليـــ ـــك بغـــير وجهـــي لم يتمـــوا
وحـــدي ضـــفرت جـــدائل الـــ ـــنهرين صـــاحوا أنـــت رســـمُ
وتبعثـــروا فقطفـــت اشـــ ـــهى زهـــرة وســـنى أشـــمّ
هـــم يزعمـــون بـــأنهم فقهـــوا وهـــم عمـــي وصـــم
كـــم يرتقـــون فتـــستحي مـــني منـــابرهم فتطمـــو؟؟؟
هـــم لملمـــوا عينيـــك قـــل لـــي أي أحزانـــي تلـــم؟
هـــم لملمـــوا الأقمـــار وانـــ ـــكفأوا وجرحـــي مـــدلهم
مـــا زال (دجلـــة) في دمـــي يزهـــو وحـــزن الطـــين ينمـــو
مـــا زالـــت الأقـــداح تـــر قـــب روحـــي الظمـــأى تهـــمّ
والأنبيـــــاء يغـــــازلو ن البحـــر والكلمـــات ســـم
وطـــني فجئتـــك في يحـــ ـــترق الـــدجى ويفـــز نجـــم
خـــذ دمعـــتي واســـجر دمـــي فـــسواك مـــا لهـــواه طعـــم
ولـــنمض ننتعـــل الثريـــ ـــا لا ســـوانا اليـــوم يـــسمو
الـــشمس تـــذكرني وأحـــ ـــلامي علـــى عينيـــك جـــم
لـــي في حنايـــاك احـــترا ق لـــي علـــى الـــبردي دم
لـــي حـــزن عـــصفور غفـــا في الطـــين قـــد أضـــناه حلـــم
نـــسبي إليـــك شـــذى الفـــرا ت أب وهـــذا النخـــل أمُّ

الطيف المكسور

✍ أوس عبد الحميد الإفتيحات

في عُيُــــوني بللــــوره يتــــشظّى ... جــسد الطيــفِ عنــدما يتكــسرْ

لــيس دمعــا يــسيلُ عنــد نــواحي ... انــه القلــبُ مــن جُفُــوني تحــدرْ

رشــف النخــل شــجوهُ فــدعوني ... اســتق الــشجو كالنخيــلِ وأســكرْ

لا تلُومــــوا إذا اســـتحلتُ جمـــاداً ... كُــلُّ شــيءٍ حتــى الهــواءُ تحجّــرْ

ودُرُوبـــي تـــشُقُّ في مـــداها ... إذ تحــتُ الخُطــى وحظّــي يــسخرْ

تــسحبُ الــذّيل غربــةٌ تتبــاهى ... وصــدى الــروحِ خلفهــا يتقهقــرْ

وشُــعاعُ الــشُموس ماتــت عليــه ... مهجــةُ الــصُبح فانطفــا وتحــسّرْ

عربــد البغــي فــالفرات تلــوّى ... ومِــن الجُــوع بطنُــهُ قــد تــضوّرْ

والأغاريــدُ إن تنــزّت بجُرحــي ... لامــس الجُــرح لحنُهــا فتكــدّرْ

أُسِــرتْ دجلــةٌ وغُلّــت يــداها ... مــن رأى المــاء في الــسلاسل يُؤسـرْ

وإذا النهــرُ في عُرُوقــي تلظّــى ... بــتُّ أخــشى علــى الــضُلوع تفطّــرْ

خــدعت أعــيُنُ الــسراب رُؤى الغيـــ ... ـــب فــإن هرولــت إليــه تنكّــرْ

زحفــت للمــلاذ منّــا قُلُــوب ... فاشــتكى الزّحــف والمــلاذ تحيّــرْ

وقطــارُ الــشتات يبحــثُ فينــا ... عــن رصــيفٍ علــى خُطانــا تــسمّرْ

حيثُمــا رُحــتُ فــالعراقُ معــي ... يمــشي وظلّــي بظلّــه يتعثّــرْ

عمــرُهُ الــدهرُ لــو حــسبتُ ســنيناً ... قــصّروها وهــل ســنين تُقــصّرْ

لوحــةٌ نحــنُ يــوم أن رسمُوهــا ... ســقط الحــزنُ فوقهــا فتــأطّرْ

كُــلّ ألوانهــا تُبعثــر فيهــا ... مــن يلُــمُّ الألــوان حــين تُبعثــرْ

دمشق

أطلال سومرية جدا

✍ عمار صبيح التميمي

- ١ -

قدر الذين أحبُهُم أن يتركوني

في صحاري الوجدِ

وحدي هائماً

شفتاي تحترقان فرط صُراخي الأعمى

أحبائي

ولكن لا أحد

- ٢ -

قدر الذين أحبُّهم

أن يمزُجوا بدموعي الصحراء حين تكون صحرائي

مدينة غيِّهم

والبحرُ ذاك البحر في جزرٍ

ومد

- ٣ -

قدرٌ هو القدر الذي أحياهُ

تذروني رياحٌ من رحيلٍ عابثٍ

كالطفل واللعب القديمةِ

كالزجاج إذا تكسّر في طريقٍ موحلٍ

كالريح كالغيم المخيفة

كالزبد

- ٤ -

بغدادُ وجهك معبد الغرباء

يتلوا فيه قلبي نبضهُ المكسور

تحمله رماحُ حنينه

والشوقُ يترك في مكانٍ ما بقاياه من

جسد

- ٥ -

طعمُ انتحارٍ الكون في عينيَّ

ممزوجٌ برائحة الطفولة بالصدى

من صوتها الغجريِّ: لا

ترحل فقد أحتاجُ قلبك طيباً يحنو عليَّ

إذا تحاشتني القبيلة

كلُّها ورموا على قلبي جهنّم من

حسد

- ٦ -

هذا أنا ومواسمُ اليتم التي

تخفي حراب البعد في

أكان حلماً أن تدور بي الجهات وأن تدور بي الرياحُ

ألي غدٌ سأعود فيه إلا بلاد العشق والأنهار

أم اني سأبقى هكذا من دون

غد

- ٧ -

عد بي إليَّ

إلى تراب طفولة غادرت فيها بسمة من عمق قلبي

ضحكة من عمق عيني

ترتمي فيها بساتينٌ وأنهارٌ واقمارٌ تحنُ

إلى عدد

- ٨ -

من ذا أنا من دون ميناءٍ يعلمني رحيل الدمع

من عيني إلى عين السماء البكر

من سأكونُ

إن ضيعتُ في الميناء ذاكرتي

وأقلامي

وحزني

والبلد

مزرعة اسمها المباركة

✍ هيثم عيسى

لما أقبل العرب على ليل من النخل والشجر
والماء... نعتوه بأرض السواد
ثم طلبوا من سيدهم أن يخفض صوته ويترجل
عن جواده ويخلع نعليه
حتى قال أبو عمرو بن العلاء
ينتقل من جنة إلى جنةٍ كلَّ من يقيم بأرض السواد ويموت
وبين نهر ونهر أمر سيدهم أن يتخذوا له داراً بحجم بغداد فكانت بغداد
وكان يؤتى لسيدهم من كل مدينة بترابٍ
يعفّنه فيصير عقارب حتى أتى بترابٍ
من بغداد فأصبح سرباً من الطيور
كانت بغداد صيّادةً تصيد الرجال... ومن لم يرها لم ير الدنيا
بغداد هناك
حيث مزرعة يُقال لها المباركة
حيث البلدان كلها سفرة إلا بغداد
فإنها وطنٌ
بغداد هناك
حيث نهر اللبن في الجنّة يُدعى دجلة ونهرُ الخمر يدعى الفرات
حيث بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور
بغداد هناك
حيث النسابون رواة الأخبار وثمار الأزمنة
حيث صخرةٌ لا تأخذ فيها المعاول
بغداد هناك
حيثُ الحريّةُ المروّعة
حيثُ سوق الورّاقين
حيث قطعت اصابعنا قبل الف عام فصرنا
نكتب بأصابع علي بن مقلة
بغداد هناك

حيث الرقصُ على نصل السيف

حيث زرياب والمغول

بغداد هناك

حيث الزمن من رأسه حتى قدميه

يكسر الرغيف على ركبتيه

حيث الحقيقة كلّ الحقيقة

حيث الجمال كل الجمال

❖ ❖ ❖

قصائد

✍ محمد الكعبي

- ١ -

تعاليْ نحترقْ

ونحنُ نُشعلُ النارَ

في النداءْ

- ٢ -

في غرفةِ الأخبارِ

وكالاتُ انباءٍ ورجل

ذاتَ خبرٍ ناقصٍ

حاول فكَّ طلاسمهِ

ذات الرجلُ

فاكتمل الخبر

- ٣ -

لست معنياً

بالذئاب التي صادقتِ الخراف

لكني معني جداً

بالخراف التي تغني الذئاب

- ٤ -

البخارُ يبعثر الغيابَ

ويرمم التداخل ثم الممراتِ القصية

دائماً (نحن)
ودائماً يتمردُ السرُ
حيث السقوطُ من أسفلِ ما توحي بهِ
الكلمات الشبيهةُ بالتابوت
يوم كان متحف التاريخ
مكتظاً بالوعول والقصائد
كان السقوط حرا يوازي كثافة الزبد الحر
هنا يفتح أبي سره
فاتطلعت وعول التمرد
وابتدأ الصغير
ليقول لا.. للنسوةِ المنصفات
لا... للكتب وهي تيار المعنى
لا... لأمي التي تحني رأسها
بالتضرع
طعنوه...
عند حافة انفراج الحرف في الساقية البعيدة الأغوار...
ثمة اللهاث يتفرج عن شفتيك أنا المشغول كثيرا
بتشذيب لحية (ويتمان) علامتي التسول في البياض
صنوي الزغب الأصفر
بعيدا... عند ساحات الشغب البريء
طاعنة حين يكون الطعن في الحقل
غارب المتسللين من نافذة الرؤيا إلى قفص الغابة السرمدية
ثمة ما يوجز يثبت الرؤيا في الخوف المتردد عند حافة التجهم الأخير
لذا لا يكترث المنسيون
هم يحاورون الزغب الممتد إلى أفق الكوكب اليتيم
وأخيرا هو لحرف الذي يصطادني في البياض والحرف
ولد الكلمة ووالدها بدون لأختي التي سئمت ترقيع ثوبي
آخر ابتهالات النحل
فاضحا آية النوم
طاعنا حين يكون الطعن في المقتل
مزبدا
مزبدا
مَن الطعن يا أصدقاء

قيدوني لشمسكم

✍ قاسم ضيدان

سـافروا في عـذابكُم وخـذوني ... واسـتعيروا إذا بكيـتُم عيـوني
إن لـي كوكبـاً ينـزّ منايـا ... ومرايـا تهـشمت في جنـوني
سـافروا بانتظـاركُم وانـيروا ... شمعـة الوقـتِ في ريـاحِ الـسجونِ
قيـدوني لشَمـسكُم أن ليمـو ... ن سُـهادي معلّـقٌ بظنـوني
كـلُّ صـوتٍ دمٌ وكـل نزيـف ... جُمَـلٌ مـرَّ صـمتُها بغـصوني
أنـا جُـرحٌ معفَّـرٌ بهـديلِ الـ ... ـليلِ فلتوقِـدوا المواسـمَ دونـي
سـافروا وحـدكم إلـيكم وبيعـوا ... مـا يـشاء المـساءُ كـي تـشتروني
إنَّ أطـراقتي رَصاصَـةُ صـمتٍ ... تـسكبُ النـومَ في ميـاهِ الجفـون
أنـا منـذُ ابتـدأتكم وانتهيـتم ... أحمـلُ الأغنيـاتِ فـوقَ متـوني
أبمـوتي اتخـذتُم العجـل ربـاً؟ ... ثـم جـرّحتُم النَـدى بـشجوني
سـافروا وحـدكم أذن ودعـوا الطفـ ... ـلَ وحيـداً بأضـلِعي ودَعُـوني

عاشقة بغدادية

✍ سناء وتوت

ومنحتني قوتي... والأحاجي والتعاويذ
فأنا لا أزال أوقد شموعَ الخضر
أطبقها في نهرِ دجلة... حين تغادرُ شواطئَها شمس الأصيل
وقبل آذانِ المغربِ... أطقطقُ الحرمل
وأخشى عيونَ... الحاسدين
ويحمر خدي خجلا... من العيبة والناظرين
عد يا صاحبي من... حيث أتيت
فالجو هنا لم يعد يروق لك
والظهيرةَ هنا تبلغَ الستيييين.... درجة
وأنتَ الذي تقولبت أحاسيسُك
وانحرفَ لسانُك

واحتضرت الحروفُ على شفتيك
وأنا سأحفظُ بقلبي ..لي
غدا سأغيرُ عطري
وأغيرَ لونَ ستائري
وأطليّ جدرانيَّ باللونِ.... الأبيض
وارسمَ صورة قلبي ... في الواجهة
وستزولَ ذكراكَ...... الباردة
واسميكَ.... ومضة....عابرة
غدا سأرتاد محافل بغداد الثقافية والاجتماعية
لألتقي وجوها تشبهني تحاكيني
عيونا تفهم لغةَ أصابعي... وعيوني
تلمحُ انكساراتَ قلبي......... زعلي...... وحنيني
قبل أن انبسَ بحرف
غدا
سأسلمك بين يدي اللهِ
فلعل لحظات حبي القدسية تشفعُ لكَ لديه
واغفر لك.... اغفر لك
لن أغرّب يا صاحبي
فدمي..... لا زال يفووووور
واصابعي هي التي تحاكيكَ قبلَ لساني
حين منحك الغربُ الجنسية
ضخ في عروقك التارا من الدم البارد
واخضعك لاختبارات الماسونيةِ أو الإنجيلية
وقد تكون الصهيونية
وانا ما زلت أتشبثَ... بصفاتيَّ البغدادية
وأنشد موّالي بطقوس قدسيه
واغني....
عرفتك وطلعت من عيني يا هواي
مثل دمعة حزن وتلاشت بماي
غسلت العين منهه وعفت همهه وحزنهه
يموال الحزن ما بعد أغنيك

يموال الحزن ما بعد أغنيك
قد تكون نسيتْ
بل مؤكدا انك نسيت
إن الحب في بغداد
إلى حد النخاع يتغلغلْ
إلى حد الموت يتسللْ
أبدا أبداً لن يتحولْ
هم.... جملوكَ.... وأجلوا عنكَ غبارَ الصحراء
وغسلتْ أمطارُهم الغزيرةُ قلبَك مئاتِ.... مئاتِ المرات
فبدوتَ..... رجلاً... منمقاً.... ملمعاً
واضحى وجدانُك......كزجاجِ واجهاتِ لندن البراقة
وبقيت أنا احتفظُ.... بشوائبي
التي منحتني ميزتي

❖ ❖ ❖

تحكي الحكاية أن قلبي سنبلة

✍ خالد الحسن

فإذا الحصادُ يزفني في بسملة نزفَ السؤال وان قلبي جامح
فأرى الجواب على حدود الأسئلة
قد كنتَ في افق المنال محاصراً
فامرر بنا كي لا تقاس الأمثلة
وامرر على جثث الرجال زوارقاً
وارسم لنا بالدمَ شكلَ المقصلةْ

❖ ❖ ❖

ألوان ذاكرتي المتعبة
الريح تشرب من شفاه التلّ صورة طفلةٍ
ومشيت وحدي في شوارع دمعتي
أشعلتُ من جيبي لفافة نجمةٍ
لأدخن الماضينَ خلف الليل خلف اللون وحدي
سأدخن الماضينَ وحدي

تلك طفولتي هي تحملُ الماضي إلى شمعات ذاكرتي الكئيبةِ
يا مطر
أولم تجد تمثالَ غيمٍ بينِ أنقاض السماءِ الغارقة
أولم تر النجماتِ تسقط كلّ يومٍ في جبينِ الليلِ
واحترقت يداي مع ارتجافات السنونو غارقانِ
كأننا نمشي وننزف غارقين على انحناء الريحِ
كنا غارقينِ
هذا أنا أيضاً سأشعل شمعتي لأراكَ ما بين الضفاف
بخورَ أزمنةٍ،وطيفُ الطين ينثرُ ضفتيهِ على الرحيلِ
ها أنا غيري وغيري ها أنا
استلُّ زاويتي ودربُ الورد ينثرُ ما تبقى من ربيع
وعيونُ ذاكرتي تطيرُ مع النسيم إلى المكان
حتى المكانُ... هناك ينبض باسمها
حتى المكانُ له شرود مثل دمعةِ والدي
احتاجُها.........
أحتاجُ من بحرِ العذوبةِ زورقة لأطير حيثُ أطيرُ ملتفاً بأطواقِ النجاة.........
فأنا مسيحُ الحزنِ شاطرني نخيلي فاشرأبَّ السعف غيماً
في بلادي

❖ ❖ ❖

الريحُ تشربُ من شفاهِ الظلّ صورتَنا معاً
وتطّيرُ خلفَ الليل نحو اللازَوَرْدْ
وتعكرُ اللونَ المخبأَ بالرحيلِ....
احتاجُ أمي
أحتاج من جبروتِ هذا الليلِ صيحاتِ على كفًّ الهواء...
لأدخنَ الشمسَ الأليفةَ في جنونِ الكوخ...
وأنا غريبٌ..
غريبٌ من لاشيء في اللاشيء
وأنت معي غريب

❖ ❖ ❖

أغنية لبغداد

د. هادي سدخ

طابَ الغناءُ لمدنفٍ ... قد هزه شوقٌ فغنى

طارت به الذكرى إلى ... أيامِ ماضيهِ فحنّا

وتعاورته وعودُ غا ... نيةٍ لعوبٍ فاطمأنا

ضلَّ الطريقَ وغرّه ... لمعُ السرابِ فخابَ ظنا

ظمآن قد سلك السبيـ ... ـلَ لوحده فبكى وأنّى

وأراقَ ماءَ شبيبةٍ ... فوقَ الرمالِ فقيل جُنّا

بغدادُ أني عاشقٌ ... هل تسعفينَ فتىً معنّى

هيمانَ ضيّعَ عمرَهُ ... فلتسعِديه فقد اسنى

هاكِ فؤادَ مولّهٍ ... يسعى إليكِ بما تمنى

رُدّي اليه شبابَهُ ... قد صار للآلامِ خِدنا

وهبي الحياةَ لأنكِ ... أسمى من التتبيرِ شأنا

عنقاءُ أنتِ مدى الزما ... نِ فما عرفتِ الدهرَ وهنَا

رُدَتْ سهامُ عدوكِ ... ذُلا عليه الدهرُ اخنى

ياتوأمَ المجدِ التليـ ... ـدِ اليكِ بالأشواقِ عُدْنا

زهتْ العقولُ بأرضِكِ ... يا جنةً ابهى واغنى

أنتِ الجمالُ حبيبتي ... تيهي على الأيامِ حُسْنا

نفديكِ كلَّ دمائِنَا ... لكِ نجعلُ الأرواحَ حِصْنَا

راياتُ عزّكِ قد سَمَتْ ... فوقَ الذُّرى فخراً خفقنا

فتزاحمتْ كلُّ النجوم ... إليكِ عرفاناً سَجَدنا

❖ ❖ ❖

للذي رأى كل شيء

✍ د. حمد محمود الدوخي

من قد يجوع وأنت قمحُ ... ويداك ماعون وملحُ
الغيمُ يطلع من يديـ ... ـك على حدائقنا يسحُّ
أنت المقيم وكل غيـ ... ـرك في إطار الشكل لمحُ
مولاي أنت كلامنا ... إن عزّ عند القول شرحُ
مولاي وجهي طعنةالـ ... ـعينين والمرآة جرحُ
أشكو إليك حبيبتي ... مولاي أكتبها وتمحو
لم أشكُ نجمتها لغيرك ... لا ووجهِك وهو صبحُ
فعلى أظافرها يفيض اللـ ... ـون من دمها يفحُّ
ضاعت مدينتها بها ... عنها يفتّشُ فيك صرحُ
املأ مآذنها حماماً ... للدعاء الليل جنحُ
الشوق مهنتنا القديمة ... ارثنا وادٍ وطلحُ
زمناً أصبُّ الريح في ... مزمارها ودمي أبحُّ
حتى وهبتَ يديك فالـ ... ـتقتا بها وأضاء صلحُ
فيك اكتشفت قصيدتي ... أقبلها لأن رضاك فتحُ
تحتلني الأوراق مغريـ ... ـةً وقافيتي تلحُّ
أمشي فتتبعني السماء ... إلى القصيدة حين تصحو
ماذا عساي إذن وطفـ ... ـلتك الرياح وفي سفحُ
والأرض كبشك والسماء ... بعيدة ورؤاي ذبحُ
الأولياء جميعهم حولي ... وفي الدعوات قرحُ
مولاي عفوك إنها ... لغتي الجديدة وهي صدحُ
مولاي ذنبُك وجهك المـ ... ـرآة والأعداء قبحُ
فلذا يخافون الدخول لهم ... وراء الباب فضحُ

دعهم يلوكوا جمرةَ الأ ... خطاء من إلآك صحُ؟؟
مولاي طفلة قريةٍ ... بيضاء ذاكرتي وبوحُ
القُبَّرات تطير من ... قلمي لمن لسواك تنحو؟!
هذا العراق قصيدتي ... السمراء والموّال مدحُ

❖ ❖ ❖

مروراً بجفن الطفولة

✍ ياس السعيدي

سأسمح للبنفسج أن يمرا ... وأجرح لونه كي يستمرا
أروض حاضر المعنى ليحكي ... عن الطرقات حين تصير ذكرى
اغني ليل أمي إذ تغني ... وترضع طفلها المخمور حبرا
أطوف البرد أبحث عن مزيد ... لأملأ شهوة الأوراق جمرا
أصعر للمدينة سر خدي ... فطعم شفاهها ما عاد سرا
بجفن طفولتي نامت حروب ... وجفن الدمع حين نزفت عمرا
حملت بدايتي ومضيت فرداً ... لأندب خصرها المقتول صبرا
فلا العصفور يأكل خبز راسي ... ولا رب السجين يريد خمرا
ألون ما تبقى من فراغي ... وأغزل من رموش القحط نهرا
ولي صبحٌ يؤطر بالضحايا ... وأملك من ثرى أنثاي بشرا
أزخرف طينة بلهاث كفي ... وأنفخ حسرتي ليكون طيرا
غفرت لريشه انكار عشي ... ولم أحمل على الياقوت إصرا
بملأ ثيابها شردت روحي ... لأسكنها على قمر تعرى
تماهى والصهيل ركام قلبي ... يسافر فارساً ويعود مهرا
رضيت بمولدي من صلب حرفٍ ... سأولد مرة لأموت عشرا

حدثيني

✍ عادل البصيصي

بين يديّ العاريتين من أيّ حلم... أحمل مدينةً أخاف عليها

من أرصفة العاطلين عن العمل

حَدثيني شاخَ صبري حدثيني ... واهبطي آياً على غاد ظنوني

حدثيني لَملمي صحراءَ عيني ... ومساد الهجرةِ الكبرى أريني

فوقَ راسي تأكلُ الطيرُ سنيني ... إننّي اعصرُ عمراً فأنقذيني

ارحميني واضربي صخرةَ صمتي ... فجّري وَحيَّ أنا في أربعيني

قدّني يُتمي وآبائي تدور ... حاصروني,عندهم ماتَ حنيني

حدثيني أكلَ الليل لساني ... وصباحاتُ الضحايا تشتريني

حطمي معبدَ شركي بعشريني ... واذبحي كلَّ مناة تشتهيني

حدثيني إننّي انظرُ غيري ... يطحنُ الجهلَ ويُعطيني طحين

حدثيني فجراحاتي انتظارٌ ... تشربُ الملحَ المُصفّى من عيوني

أخذتني الريحُ أجري فوق شكي ... اتعبتني فتوسدتُ يقيني

حدثيني فالحكاياتُ ارتباكٌ ... نَثرت عقلي على وجهِ جنوني

جئتُ اسعى بين كفيّكِ نقياً ... وألبيّكِ دعاءً فاقبليني

وجهُكِ الدريُّ اخشاهُ صلاةً ... فاسكبي منهُ نبيّاً في جبيني

وخذيني في المسافات نديّاً ... شاعراً بين تجليّكِ ازرعيني

انتِ أمي فأغلقي بابَ احتراقي ... وعلى لحنِ اليتامى هدديني

لملميني بينَ جدرانكِ ضوءاً ... وعلى حقلِ المعاناةِ انثريني

واجمعي من عطرِكِ المكنونِ صوتاً ... اذني فيَّ لكي يُبصرَ طيني

وأغلقي كلَّ شبابيك احتضاري ... فرَّ نبضي فأرجعيه وأرجعيني

حدثيني، دجلةُ جذرُ صباحي ... فارجمي غيماً غزا طُهرَ سكوني

إيه بغدادُ أنا الكوفيُّ صبراً ... وشظاياتي نخيلٌ فاحضنيني

هنا إذاعة بغداد..

في مساء يوم الأربعاء الأول من كانون الثاني عام ١٩٣٦ ترك الكثير من سكان بغداد بيوتهم وتجمهروا في الساحات التي نصبت فيها أجهزة الراديو للاستماع والاطلاع على هذا الجهاز العجيب وهو يتحدث أول مرة بصوت عراقي.

بعضهم لم يكن مصدقاً أن هذا الصندوق الخشبي الأنيق الذي يحتوي على بضعة أزرار عاجية ولوحة زجاجية مستطيلة تشع بلون اخضر باهت يتحرك فيها مؤشر احمر نحيف يمكن أن ينطق ويغني بمجرد تحريك هذا المؤشر فيأتيك بأخبار الدنيا.. فكيف دخل هذا الجهاز العجيب إلى بغداد.. في عام ١٩٢٨ السيد عبد العزيز البغدادي صاحب شركة الدخان العراقي أراد ترويج بضاعته فأجرى مسابقة لنشرها في الصحف بقصد الدعاية لمنتجات شركته وجعل الجائزة الأولى جهاز مذياع..

وكان المذياع يعد سلعة ثمينة وفريدة بمقياس ذلك الزمان وعلى الرغم من أننا لا نعرف من صاحب الحظ السعيد الفائز بتلك الجائزة غير ان تلك الواقعة سجلت رسميا وشعبيا دخول المذياع أول مرة إلى الشارع العراقي.

وفي عقد الثلاثينيات حيث بدأت بوادر الحداثة تأخذ طريقها إلى الحياة العراقية المدنية انتشرت المقاهي بطريقة لافتة في مدن العراق الكبرى. وبدأت تلعب دوراً ثقافياً تنويرياً رائداً خاصة في بعض المقاهي الكبيرة في بغداد التي قامت بنصب محطات إذاعية (سلكية) لتبث إلى روادها الأغاني والمقامات العراقية.. وكان صاحب المقهى ينصب جهاز راديو كبيراً في ركن المقهى ويوصله بأسلاك إلى الحاكي (المغرافون) الذي تذاع منه الأغاني وتراتيل القران الكريم المسجلة في اسطوانات كبيرة.. كان أول مقهى انشأ هذا الإذاعة البسيطة يعود إلى الحاج عبد العزيز الكائن في منطقة البارودية التابعة لمحلة الفضل الشهيرة الواقعة في جانب الرصافة ببغداد حدث ذلك عام ١٩٣٢ تبعه بعد قليل من ذلك الحاج عبيد الذي أنشأ استوديو صوتياً في بيته الذي يجاور المقهى ثم أوصله بسلك إلى الراديو الموجود في مقهاه الكائن على نهر دجلة.. وما تميز به الحاج عبيد على منافسه الحاج عبد العزيز انه كان يبث موسيقى حية إلى رواد مقهاه بعد أن استأجر فرقة موسيقية لهذا الغرض.

مقاه أخرى طورت الفكرة وخاصة تلك الموجودة بالقرب من جامع الفضل بعد أن استأجر أصحابها تختاً موسيقياً متكاملاً مؤلفة من فرقة وعازفين مع مطرب مقام.

إضافة إلى منشد مدائح نبوية وقاموا بتوسيع البث السلكي ليغطي عددا من المقاهي في وقت واحد بينما كان عبد السلام العزاوي وزكي خطاب المحامي يتلوان آيات القران الكريم من هذه الإذاعة السلكية التي أنشئت في عام ١٩٣٣ وهكذا تطورت المحاولات وشملت اغلب المقاهي في بغداد وتعدت الظاهرة إلى المدن الأخرى مثل البصرة والموصل.

إذاعة الزهور:

في عام ١٩٣٣ توفى أول ملوك العراق فيصل الأول وتوج ابنه الشاب غازي على العرش وكان عمر الملك الجديد ٢١ سنة فقط وكان عائداً للتو من لندن بعد أن تخرج في جامعة (هارو) الانجليزية وكانت تستهوي غازي بعض الملامح الحضارة الغربية فقد كان يحب قيادة السيارات السريعة نوع (كوبيه) ولديه الاهتمام بالمخترعات الحديثة وخاصة بالراديو لذا جاء في مقدمة أولوياته إنشاء إذاعة خاصة به وكان له ما أراد عندما أنشأ في مطلع عام ١٩٣٦ أول إذاعة لاسلكية وقد كلف أحد المهندسين الأجانب بنصب جهاز إرسال بقدرة كيلوا واط واحد في القصر الملكي الذي يطلق عليه قصر الزهور. وقد أخذت الإذاعة اسم القصر وسميت إذاعة الزهور.

الطريف في الأمر أن الملك الشاب كان يعمل في إذاعته لوحده فهو يعد ويقدم البرامج والأغاني التي كان يؤديها المطربون في بث حي ومباشر وعلى الهواء ومن الذين ضيفهم في إذاعته المطرب المقامي الأول محمد القبانجي والمطرب الريفي اللامع حضيري أبو عزيز إضافة إلى الأغاني استثمر الملك الإذاعة في إلقاء الخطب السياسية التي كان الملك من خلالها إيصال أفكاره المعادية للإنكليز إلى الناس. وبالفعل بدا يشن من إذاعته حملة شرسة ضدهم. ولم يكن الملك الشاب مدركاً خطورة تصرفاته تلك بسبب ضحالة خبراته في السياسة والحياة.

وكانت إذاعة الزهور تبث على الموجة المتوسطة ولا تسمع إلا في مدينة بغداد وضواحيها ومن خلال محدود من أجهزة الاستقبال وزعها على بعض الأماكن العامة في بغداد وعندما توفي الملك غازي في حادث السيارة ليلة ٣ نيسان عام ١٩٣٩ بظروف غامضة وتوقفت هذه الإذاعة عن العمل إلى الأبد.

هنا بغداد:

وبسبب انطلاق إذاعة الزهور المعادية للإنكليز بدأت الحكومة العراقية بعد شهور بالتفكير جدياً في إنشاء إذاعة عراقية وتم لها ما أرادت في يوم الأربعاء الأول من تموز ١٩٣٦.

وكان أول صوت انطلق من إذاعة بغداد ليقول (هنا بغداد) هو صوت المذيع عبد الستار فوزي بعد أن افتتح وزير المعارف المحطة وكان اسمها الإذاعة اللاسلكية للحكومة العراقية. ١٩٣٦. وأعدت الإذاعة لذلك اليوم برنامجاً حافلاً جاء فيه.

- ❖ في الساعة ٦.٣٠ مساء الافتتاح الرسمي للإذاعة من قبل وزير المعارف
- ❖ في الساعة السابعة تلاوة من القران الكريم للمقرئ عبد العزيز الحكيم
- ❖ نشرة الأخبار يقرأها إبراهيم حلمي العمر وكيل مدير الدعاية والنشر
- ❖ عزف على الكمان
- ❖ محاضرة عن مكافحة الأمراض الشائعة للطبيب خليل أفندي.
- ❖ في الساعة ٨.٤٥ اسطوانتان شرقيتان واحدة لام كلثوم والثانية لمغنية تركية.
- ❖ في الساعة التاسعة أمسية غنائية للمطربة سليمة مراد بمصاحبة فرقتها.

وكان للمطربة سليمة مراد الشرف في أن تكون أول مطربة تغني يوم الافتتاح وكان البث مباشراً ولمدة ثلاث ساعات ولثلاثة أيام في الأسبوع (السبت والاثنين والخميس).

بلبل الإذاعة الميكانيكي:

معظم العراقيين يعرفون بلبل الإذاعة ولصوته على مسامعهم وقع خاص. إذ كانت الإذاعة العراقية تبدأ بثها التجريبي صباح كل يوم بصوت هذا البلبل الشهير الذي كان يغرد لمدة خمس دقائق يومياً قبل الافتتاح وقد تم استحداثه لضرورات ضبط مستوى الموجات الصوتية ولقياس أعلى وأدنى ذبذبة صوتية ومازال حتى اليوم عندما تبدأ الإذاعة العراقية بثها نسمع صوت البلبل وكأنه أصبح شاعراً أو بصمة تميز الإذاعة الرسمية العراقية عن سواها. لم يحصل أي تغيير في فترة الثلاثينيات في برامج الإذاعة التي كانت تتضمن تلاوة من القران الكريم ونشرة الأخبار ثم أغانٍ وبعض التمثيليات والمنولوجات والحفلات الموسيقية لفريق الإذاعة الذي يتكون من صالح الكويتي (كمان) وإبراهيم طفو (جلو) وداود الكويتي (عود) ويوسف زعرور (قانون) وحسين عبد الله (إيقاع) ويعقوب مراد (الناي).

برامج الأطفال كان لها حصة أيضاً في برامج الإذاعة من تأسيسها وكان أول مقدم برامج أطفال الفنان كريم مجيد وكان نجماً لامعاً يعرفه كل الأطفال خاصة الذين كانوا يملكون في بيوتهم راديو وكانت قصة عمو كريم وحكايته بهجة وسعادة للأطفال وللكبار ولكنه لم يستمر طويلاً فحل مكانه عمو محجوب ثم تلاه الفنان المشهور عمو زكي عام ١٩٣٨ ولا يمكن أن ننسى صوت رائد المونولوجات عزيز علي منذ افتتاح الإذاعة حيث كانت تتجمع النسوة والصغار في البيوت. أما في المقاهي فكان يتجمع الرجال والأولاد وكلهم

ينصتون لعزيز علي وصوته العذب وهو يقدم مونولوجاته الساخرة من الحكومة والإنكليز والظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع فتتعالى الضحكات وتتردد الأحاديث والضحكات.

أما أول صوت نسائي يقول هنا بغداد فكان صوت المذيعة فكتوريا نعمان ثم تسابق أصوات المذيعين والمذيعات للفوز بمكريفون الإذاعة فبرز صوت الإذاعي الشهير يونس بحري وسلمان الصفواني وحسين الكيلاني وكاظم الحيدري. ومحمد عبد اللطيف وهؤلاء الجيل الأول من المذيعين الذين عملوا مقدمي فقرات البرامج اليومية وكان المذيع في العادة يعلن اسم المغني وكاتب الكلمات والملحن وأسماء الموسيقيين جميعاً ثم ينتظر صامتاً حتى انتهاء الأغنية أو الوصلة التي كانت تقدم على الهواء مباشرة لمدة لا تقل عن نصف ساعة ليعلن المذيع بعدها اسم مغنٍ آخر وأسماء جوقته. ومع بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ تحولت إلى شعبة تابعة إلى مديرية الدعاية والنشر التابعة لوزارة الداخلية وتغير اسمها إلى الإذاعة اللاسلكية للحكومة العراقية وزيدت ساعات البث إلى خمس ساعات وبدأت تعمل على مدار الأسبوع ولمدة ثلاثة أيام فقط. وكان يعمل فيها يومياً خمسة مذيعين ونحو سبعة موسيقيين وفي عام ١٩٤٣ اقترح حسين الرحال الذي كان يشغل منصب ملاحظ الإذاعة تشكيل فرقة مستقلة تختص بإقامة حفلات موسيقية للإذاعة وتآلفت فرقة إخوان الفن لهذا الغرض من سبعة فنانين برئاسة داود أكرم (الكمان) الياهو جوري (الكمان) وسليم صيون كراكلي (الكمان) ومؤيد نقار عود ويوسف ربيع (جلو) وموشي شماس (دف).. ونذكر أن الأجور التي كانت تدفع للمطربين عن الحفلة الغنائية والواحدة تتراوح بين دينار وديناريين كما أن أول فرقة دخلت إلى الإذاعة هي فرقة الفنان الرائد حقي الشبلي في منتصف الأربعينيات.. ثم أسس عبد الله العزاوي قسم التمثيليات وأول فرقة للتمثيل عام ١٩٤٨ ثم تلتها فرقة أنوار الفن لتوماس حبيب وفي عام ١٩٤٩ قدمت أول تمثيلية إذاعية باسم مجنون ليلى باللغة العربية الفصحى بإشراف الفنان عبد الله العزاوي ويوصف بأنه أول من ابتدع هذا الفن من دون دراسة واطلاع على تجارب الإذاعات الأجنبية التي سبقتنا وبرز في تلك الأيام الجيل الثاني من المذيعين الذين عملوا في فترة الأربعينيات أمثال (وديع خوندة. نايف الشبلي وهو ابن الفنان حقي الشبلي. رؤوف توفيق وسعاد الهرمزي. ومشتاق طالب. والمذيعة فكتوريا نعمان. وعبد الحميد الدروبي. ومحمد علي كريم وناظم بطرس وصبيحة المدرس) أما المذيعان يونس بحري وعبد اللطيف الكمالي فكانا من أوائل الإذاعيين العراقيين الذين سمعناهم يذيعون من محطات الإذاعات الأوروبية وباللغة العربية وذلك في أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية.. وقد اشتهر صوت يونس بحري من إذاعة برلين الألمانية في أيام هتلر. ■

معلومات تاريخية نادرة ومهمة عن بغداد

✍ عزيز الحجية

- هل تعلم أن البغداديين عرفوا شرب الشاي لأول مرة عند قدوم الشاه الإيراني/ناصر الدين شاه/سنة ١٨٧٠ م إلى بغداد أيام ولاية مدحت باشا وأقام الشاه الإيراني بالقصر الذي شيد خصيصا له في حديقة المجيدية (مدينة الطب) وكان مع الوفد المرافق للشاه الإيراني أجهزة الشاي كاملة فقدموا للحاضرين الشاي وشرب منه البغادة لأول مرة
- هل تعلم ان المدرسة الثانوية (الثانوية المركزية اليوم) تألفت فيها جمعية باسم جمعية تشجيع المصنوعات الوطنية ألفها خمسة من طلاب المدرسة هم أمين عبد الجبار المميز وصادق عبد الغني وضياء جعفر وادهم مشتاق وفؤاد درويش وأول منتج حققته الجمعية هي السدارة المصنوعة من الجبن في السليمانية وكان الطلاب الخمسة أول من اعتمر السدارة الوطنية وقبل أن يعتمرها ياسين الهاشمي ومعروف جياووك والملا عبود الكرخي.
- هل تعلم أن أول معمل حديث للنسيج في بغداد أسسه الوالي نامق باشا سنة ١٨٦٤م وهو المعمل الذي أطلق عليه البغداديون اسم (العبخانة) وكان يدار بقوة البخار وينتج بعض حاجيات الجيش من ألبسة وخيام وقد قام الوالي مدحت باشا بتطوير المعمل وتوسيعه.
- هل تعلم أن أول مشروع اقتصادي عراقي هدفه تعزيز الاقتصاد الوطني وكسر طوق الاحتكار الذي فرضته الشركة البريطانية على تجارة الأقطان هي شركة تجارة وحلج الأقطان العراقية المحدودة والتي شيدت محلجها في الصرافية عام ١٩٢٩ وكان رئيس مجلس إدارة الشركة جعفر جلبي أبو التمن ومديرها المفوض إبراهيم الجلبي.
- هل تعلم أن أول معمل خياطة في بغداد كان في محلة الميدان حيث أنشئ سنة ١٩١٠.
- هل تعلم أن أول جريدة في بغداد باسم الزوراء سنة ١٨٦٩ وكانت تنشر باللغتين العربية والتركية واستمرت حتى انتهاء العهد العثماني.
- هل تعلم أن السيدة مريم نرمة أصدرت مجلة فتاة العرب في ٦ آذار ١٩٢٧ وهي أول مجلة أدبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية.
- هل تعلم أن مدرسة الأليانس اليهودية في بغداد(١٩٠٥) هي اولى المدارس الحديثة للبنات وهي فرع لمدارس الأليانس اليهودية الاوربية ومنها بدأت عملية سلخ اليهود عن ثقافتهم العراقية وتغلغل الثقافة الغربية والصهيونية.

- هـل تعلـم أن مكتبـة دار السلام أنشئت في بغداد بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن نمت وتوسعت عرفت باسم (المكتبة العامة) ثم زادت كتبها فكانت لها بناية فخمة في باب المعظم مقابل وزارة الدفاع وعرفت الآن باسم دار الكتب والوثائق وقد افتتحت سنة ١٩٧٧.
- هـل تعلـم أن مكتبة المعارف العامة أسسها المرحوم السيد حسني آل عبد الهادي مدير معارف بغداد وأستاذ التاريخ المعروف.
- هل تعلم أن أول مدرسة ابتدائية في منطقة الفضل شيدت أيام الوالي سري باشا سنة ١٨٨٩ م وكانت تلك المنطقة في طليعة محلات بغداد حيث تبرع العلامة عبد الوهاب النائب ببناء مدرسة وهبها للحكومة فتقبلتها منه وقامت بتأثيثها وتعيين مدرسيها وأطلق عليها اسم (حميدية مكتبي) وأول مدير لها الراحل الشيخ عبد المحسن الطائي.
- هل تعلم أن مدرسة الصنائع تأسست أيام حكم الوالي مدحت باشا سنة ١٨٦٩ م وهي أول مدرسة لأيتام المسلمين الذين لا معيل لهم يتعلمون فيها النجارة والحدادة والنسيج وغيرها وعين لها أساتذة اختصاصيون وظلت قائمة حتى احتلال الانكليز لبغداد عام ١٩١٧ وكان محلها في المكان الذي اتخذ حاليا قصر الثقافة والفنون.
- هـل تعلم أن أول مدرسة بنات حديثة تأسست في بغداد ١٨٩٩م في زمن الوالي نامق باشا وسماها بـ (أناث رشيدية مكتبي) وتم تعيين السيدة أمينة شكورة خانم معلمة أولى للمدرسة ومعها ثلاث معلمات أخريات والتحقت بها نحو ٩٠ طالبة.
- هل تعلم أن مدرسة الجعفرية كان اسمها مكتب الترقي الجعفري العثماني افتتحت في ١٢ كانون الأول ١٩٠٨ وأصبح الشيخ شكر الله أول مدير لها حيث استأجرت هيئة المدرسة الدار المجاورة لمسجد الحاج داود أبو التمن والتي كان يسكنها أرستو الطبيب المشهور وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح اسمها المدرسة الجعفرية.
- هل تعلم أن أول مدرسة لتنظيم دراسة العلوم المالية والتجارية كانت في عام ١٩١٨ م حيث أعلنت السلطة المحتلة عن فتح مدرسة في بغداد باسم مدرسة مأموري المالية.
- هل تعلم أن أول مدرسة أهلية إسلامية في بغداد أنشئت في زمن الاحتلال البريطاني ١٩١٩ م.
- هـل تعلـم أن كلية الحقوق تأسست سنة ١٩٠٨ وهو تاريخ إعلان الدستور العثماني أو المشروطية وكان ذلك زمن ناظم باشا وكان أول مدير لها هو الراحل موسى كاظم الباججي.
- هل تعلم أن أول كلية فتحت أبوابها لقبول الطالبات هي كلية الحقوق وقد انتسبت إليها الآنسة صبيحة الشيخ أحمد الداود سنة ١٩٣٦ وتخرجت فيها كأول طالبة تحمل اسم الخريجة الأولى.

- هل تعلم أن أول طالبة تخرجت من كلية الصيدلة هي الآنسة جوزفين برجوني والسيدة رحيمة يوسف سنة ١٩٤٠ وكانت الآنسة جوزفين أول صيدلانية تمارس العمل الحر وتخرجت الآنسة جوزفين غزالة أول مهندسة من كلية الهندسة ١٩٥٠.
- هل تعلم أن أول سيدة عراقية حصلت على إجازة لقيادة المركبات هي السيدة أمينة علي صائب الرحال سنة ١٩٣٦ وبدأت بقيادة سيارتها من نوع بيبي فورد الانكليزية الصنع في شوارع بغداد.
- هل تعلم أن الأستاذ الأديب والمؤرخ الفلكلوري الحاج عبد الحميد عبد الكريم العلوجي وضع أسماء المجلات المشهورة في سبعينات القرن الماضي وهي المورد، المزمار، التراث الشعبي.
- هل تعلم أن الطب الشعبي الذي اشتهر متعاطوه في بعض محال بغداد القديمة وعرفوا بأسمائها كطبيب العوينة وطبيب الصدرية فإن أشهر طبيب شعبي للأطفال هو حكيم منطقة الكاظمية إبراهيم موسى ومن المعروف أن هذا الطبيب كان يرفض عيادة أي مريض في بيته ولو كان الملك ورفض فعلا عيادة الملك فيصل الثاني عندما استدعي لعلاجه مما اضطر أمه الملكة عالية إلى حمل ابنها المريض إلى بيت هذا الحكيم وبعد أن اطلع طبيب العائلة المالكة الدكتور سندرسن باشا على الشراب الذي وصف للملك وكان سببا في شفائه جاء يتعرف على الحكيم الشعبي ثم يزوره بعدئذ في أوقات متفاوتة.
- هل تعلم أن كلمة الزوراء تعني المنحرفة وهو اسم أطلق على الجانب الغربي من بغداد القديمة ويقول المسعودي أنها سميت بذلك لأنها كانت منحرفة عن اتجاه القبلة.
- هل تعلم أن رئيس الوزراء ياسين الهاشمي افتتح إذاعة بغداد يوم الأربعاء ١/تموز ١٩٣٦.

وأول مذيع قال هنا بغداد الراحل عبد الستار فوزي.

وأول برنامج أذيع من دار الإذاعة استغرق تقديمه أربع ساعات.

وكانت البرامج تذاع مرتين في الأسبوع خلال يومي الاثنين والخميس.

وأول برنامج قدمه الأستاذ محمود المعروف الذي عاصر الإذاعة كان بعنوان (رواية الجمعة) وهو الذي عمل مذيعا في الإذاعة منذ ذلك الحين.

وأن الآنسة فكتوريا نعمان أول مذيعة في إذاعة بغداد سنة ١٩٤٣.

بغداديون بانتظار أول بث لتلفزيون بغداد

- هل تعلم أن أول مدير لتلفزيون بغداد هو السيد عدنان أحمد راسم وقد شغل للمدة من ١٩٥٨/٣/١٣ ولغاية ١٩٥٩/٩/٣٠.

- هل تعلم أن أول من درس التمثيل خارج العراق الأستاذ حقي الشبلي الذي أوفدته الحكومة إلى فرنسا للتخصص في فنون التمثيل والإخراج ١٩٣٤.
- هل تعلم أن أول عرض سينمائي أقيم في بغداد والذي وصفوه بالألعاب الخيالية (السينما توكراف) كان في ٢٦ تموز ١٩٠٩ في دار الشفاء الواقعة في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ) وبعدها شيد التجار أول دار للعرض عام ١٩١١ وسط البستان الملاصق للعبخانة.
- هل تعلم أن أول من حاول الإنتاج السينمائي في بغداد التاجر المعروف حافظ القاضي سنة ١٩٣٨ وقد نشرت جريدة العلم العربي أن السيد مصطفى القاضي وهو شقيق حافظ قد سافر بالطائرة إلى انكلترا لجلب الأجهزة واللوازم السينمائية تمهيدا لإنتاج فلم سينمائي لكن ذلك لم يتم.
- هل تعلم أن أول شركة تكونت للإنتاج السينمائي هي شركة أفلام بغداد المحدودة سنة ١٩٤٣ لكنها لم تقدم أي فلم.
- هل تعلم أن أول فلم مشترك مع مصر هو فلم (ابن الشرق) فقد بوشر بإنتاجه عام ١٩٤٦ من شركة أفلام الرشيد العراقية المصرية الذي أخرجه إبراهيم حلمي وشارك فيه فنانين عرب من مصر والعراق والسودان.
- هل تعلم أن الفلم العراقي الأول هو (عليا وعصام) الذي أنتجه أستوديو بغداد وعرض في ١٩٤٩ في سينما روكسي.
- هل تعلم أن أول فلم عراقي ينال جائزة في مهرجان خارج القطر فلم (الحارس) الذي حاز الجائزة الثانية في مهرجان قرطاج السينمائي الثاني الذي أقيم في تونس سنة ١٩٦٩ بعد أن حجبت الجائزة الأولى وقد عرض الفلم في بغداد سنة ١٩٦٧.
- هل تعلم أن فلم نبو خذ نصر أول فيلم عراقي تاريخي ملون عام ١٩٦٢ كتب قصته وحواره الشاعر خالد الشواف وأخرجه كامل العزاوي.
- هل تعلم أن أول مؤسسة رسمية للسينما والمسرح كانت مصلحة السينما والمسرح حيث تأسست في نهاية عام ١٩٥٩ وعين الأستاذ يوسف العاني أول مدير عام لها.
- هل تعلم أن أول فلم روائي قصير هو فلم (الجابي) حيث عرض عام ١٩٦٨ وهو من إنتاج مصلحة السينما والمسرح.
- هل تعلم أن أول فلم روائي طويل هو (الظامئون) عن قصة لعبد الرزاق المطلبي وإخراج محمد شكري جميل عرض سنة ١٩٧٣ وقد أنتجته مؤسسة السينما والمسرح بعد أن أدمجت مع المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون. ■

صور من الحياة الشعبية البغدادية القديمة





القفة البغدادية.



الكفة.



منظر من سوق الصفافير ببغداد..



بائع الماء - بغداد.



السمك المسقوف.



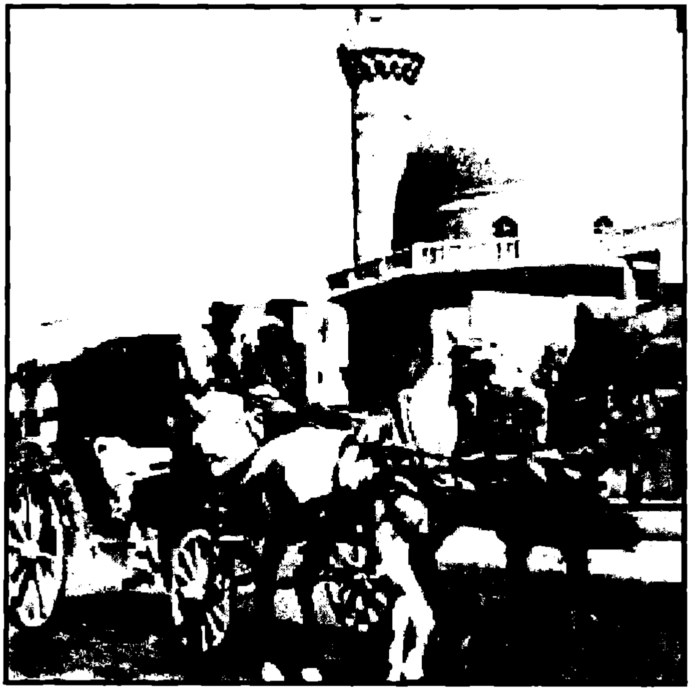
صورة من داخل بيت أحد الفقراء - بغداد من أوائل القرن العشرين.



مصور شعبي.



دولاب الهوا.



العربانة.



حمال من بغداد.



فتاح الفال يمارس مهنته في كتابة الحروز و الطلسمات في احد درابين بغداد.

مدينة بغداد في الثقافة الصينية الوسيطة

✍ حاتم الطحاوي(*)

في البداية يجب التعريف بأحد أهم المؤرخين الصينيين في العصور الوسطى، وهو شوجو ـ كواChau ju - Kua، الذي ساهم مساهمة فعالة في تناول تاريخ العرب والمسلمين، وخاصة صلاتهم السياسية والتجارية مع الصين آنذاك.

كان عمل شوجو ـ كوا الرسمي مفتشا للجمارك في ميناء كانتون الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي. ولم يكتف بمهنته التي كانت تنحصر في فحص السلع والبضائع الواردة إلى الميناء، وكتابتها وتصنيفها وتسجيلها في دفاتر خاصة بها، مع تقدير قيمة الجمارك المطلوبة فيها، بل كان لديه شغف وافر بمعرفة العوالم الأخرى البعيدة عن الصين.

وهكذا صنف كتابه الكبير معتمداً على الحكايات والأخبار التي استقاها من أفواه التجار والبحارة الأجانب والصينيين، الذي ذكر فيه عشرات البلاد والجزر الواقعة في المحيط الهندي والخليج الفارسي والبحر الأحمر متطرقاً في ذلك إلى أحوالها السياسية والاجتماعية، ومركزاً على الجانب الاقتصادي بها، ومنتجاتها وحركة الصادرات والواردات بها، وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة عمله كمفتش للجمارك في كانتون. والحقيقة أن شوجو ـ كوا لم يكتف بذلك وهو يصنف كتابه الفريد، بل نهج الباحثين الملتزمين، فلم يكتف بروايات البحارة والتجار عن تلك البلاد البعيدة عن بلاده، بل اعتمد على ما ورد في التواريخ والسجلات الملكية الصينية مثل T'ung-tien كما اعتمد بشكل واضح أيضاً على ما ذكره الرحالة الصيني شوكو ـ فاى Chou K'u-fei في القرن الثاني عشر الميلادي، عن بعض المدن والبلدان.

ويتميز كتاب شوجو ـ كوا بميزة أخرى، هي أنه كتاب يتحدث عن كافة أحوال عشرات البلدان والمدن والجزر، والسلع والبضائع الموجودة بها.

وهو في هذا يشبه كتب الرحالة الذين جابوا في العصور الوسطى كابن جبير وماركوبولو وابن بطوطة وغيرهم.

غير أن كتاب شوجو ـ كوا يتميز بأن صاحبه لم يغادر بلاده الصين قط. بل قام بتصنيفه عبر اعتماده فقط على المصادر التي سبق ذكرها.

(*) باحث وأكاديمي من مصر.

ونظراً لتأليفه مصنفه في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وكذلك نظراً لقوة التجارة البحرية الإسلامية مع الصين آنذاك، هو ما دفع مئات التجار والبحارة المسلمين إلى الوصول بسفنهم وسلعهم وبضائعهم إلى ميناء كانتون الصيني، فقد استمع مفتش الجمرك شوجو ـ كوا منهم أيضاً إلى العديد من الأخبار والحكايات عن البلدان والمدن الإسلامية. كالقاهرة والإسكندرية، وبغداد والبصرة والموصل ومكة المكرمة فضلاً عن عمان وحضرموت والساحل الصومالي.

غير أنه خص بغداد بالحديث في موضعين مختلفين من كتابه، في الفصل رقم ٢٠ تحت اسم Ta-ts'in، ومرة أخرى في الفصل رقم ٣٠ تحت اسم Pai-ta. وهو ما لم يفعله مع أية مدينة عربية أو غير عربية أخرى في مصنفه. ولابد أن ذلك راجع إلى أهمية بغداد بوصفها حاضرة الخلافة العباسية حاملة مشعل الحضارة الإسلامية التي توهجت وأنارت العالم الوسيط كله، حتى سقوط المدينة تحت أقدام جحافل المغول ١٢٥٨م.

وقد أفاضت المصادر التاريخية الإسلامية في الحديث عن بناء مدينة بغداد، وأن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد أمر ببنائها بسبب ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ونظراً؛ لأنّه كان يكره أهل الكوفة (العاصمة العباسية الأولى)، فأشير عليه بمكان بغداد، وقيل له: (تجيؤك الميرة في السفن من الشام ومصر والمغرب، ومن الصين والهند. فأحضر العمال لبنائها، على رأسهم أبو حنيفة الذي كان مسؤولاً عن الأجر واللبن)(١).

وعلى الرغم من ذلك فلم يذكر مؤرخنا الصيني شيئاً لدى حديثه عن بغداد عن سبب بناء المدينة. غير أنه وصفها بأنها (عاصمة جميع بلاد العرب). وأنه يمكن الوصول إليها بحراً عبر استخدام السفن في الوصول أولاً إلى مدينة مرباط Malopa في حضرموت، ثم الانطلاق منها في رحلة برية تستغرق ١٣٠ يوماً، عبر المرور على ٥٠ مدينة حتى الوصول إلى بغداد(٢).

ومن الواضح هنا أنه جعل مرباط نقطة انطلاق لبغداد، متأثراً بثقافته البحرية، وسؤاله التجار المسلمين والأجانب الذين يجوبون المحيط الهندي. كما أشار إلى أن مدينة بغداد تعد من أقوى المدن وأكثرها اتساعاً لدى العرب، وأن بها جيشا مكونا من عدد كبير من جنود المشاة فضلاً عن الفرسان المسلحين والمجهزين بشكل كامل.

ونلحظ أن شوجو ـ كوا يشير هنا إلى الوضع العسكري للعاصمة العباسية قبل قيام المغول باجتياحها في العام ١٢٥٨م(٣).

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٣، بيروت، ١٩٧١م، ص١٩٦.

(٢) Chau Jua-Kua.Op.Cit, Chap.30, p.135.

(٣) عن اجتياح المغول لبغداد ١٢٥٨م، انظر: ابن العبري، تاريخ الزمان، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٠٨- ٣٠٩، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٠٣.

وتحدث مؤرخنا الصيني عن أصول الخلفاء العباسيين في بغداد، فذكر أنهم ينحدرون من سلالة رسول المسلمين الذي أسماه Budda Ma-hia-wu[1]. وأن عرش الخلافة لدى العرب قد توارثه ٢٩ جيلاً من ذلك الوقت حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ـ وهو تاريخ تصنيفه لكتابه ـ وهي فترة استغرقت من ستة إلى سبعة قرون[2].

ومن الواضح هنا أن شوجو ـ كوا لا يتحدث فقط عن خلفاء بغداد من العباسيين فقط، بل أنه خلط ما بين العرب كلها والعباسيين. لهذا بذل كلا من البروفسور هيرث Hirth والبروفسور روكهيل Rockhill مجهوداً واضحاً لقراءة وجهة نظر مؤرخنا الصيني حول توارث الحكم في بغداد، وذكرا أنه يقصد بـ ٢٩ جيلاً، تلك الأجيال الممتدة من قصي بن كلاب في القرن الخامس الميلادي، حتى الخليفة العباسي المستعصم في منتصف القرن الثالث عشر (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م)[3].

وأشار شوجو ـ كوا إلى أنه لدى خروج الخليفة العباسي إلى الناس في بغداد، فإنه يكون مظللاً بعلم أسود يحمله له أحد خدمه، مقبضه من الذهب، ويوجد أعلاه أسد من حجر اليشب، على ظهره قمر يسطع كالذهب، ويمكن رؤيته من مكان بعيد[4].

وفي إشارة ذكية من مؤرخنا الصيني شوجو ـ كوا، فإنه يلحظ ندرة خروج الخلفاء العباسيين من قصرهم، فيذكر أنه نادراً ما كان يحدث ذلك. وبالتالي فان هناك قلة فقط من سكان بغداد هم الذين يستطيعون التعرف على وجه الخليفة، الذي إذا ما أراد الخروج من قصره، فانه يعتلي فرسه المغطاة بمظلة، والمطهمة بالذهب واللآلئ والأحجار الكريمة[5].

ويتفق شوجو ـ كوا هنا مع المصادر الإسلامية التي تحدثت عن ندرة خروج الخليفة العباسي من قصره في بغداد. فها هو ابن جبير الذي زار بغداد في القرن السابق لرواية مؤرخنا الصيني (ق١٢م) يتحدث عن الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (١١٧٠ ـ ١١٨٠م) بأن (ظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة. فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهاراً) على الرغم من أنه استدرك قائلاً: (وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة، ويؤثر التحبب لهم)[6].

والحقيقة أن سكان بغداد كانوا يستهجنون فكرة انعزال الخليفة عن الناس، وبقائه في قصره لفترات طويلة تحت حراسه جنوده، وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، باني

---

(١) Chau Ju-Kua, Op.Cit, Chap.22 .P.116 :Chap.30, P.135

(٢) Ibid, Chap.30. P.135

(٣) Chau Ju-Kua, Op.Cit, pp.136-137, Not.2

(٤) Ibid, Chap.30, P.135

(٥) Ibid، Chap.20, P.103

(٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٨٢.

مدينة بغداد، مدركاً لذلك تماماً وينقل عنه رغبته في الاختلاط بسكانها من أجل التودد إليهم وحل مشاكلهم، وكذلك قوله: (لولا يد خاطئة لتجولت بينكم)[١].

ومن الواضح هنا رصد شوجو ـ كوا لفكرة انعزال الخليفة العباسي خوفاً من بقايا أعدائه من الأمويين ووخوفاً من الاغتيال كما حدث للخلفاء الراشدين من قبل.

كما وصف شوجو ـ كوا أيضاً ذكر وصول سفراء الأمم الأخرى إلى بغداد، فذكر أنهم يحضرون حاملين الهدايا والأموال ويقومون بوضعها فوق قاعدة سلم القصر تعبيراً عن التودد إلى الخليفة، ثم ينصرفون بعد تقديم آيات الاحترام والإجلال والتهاني له[٢].

ولم يحدد شوجو ـ كوا في كلامه عن أي سفراء يتحدث، فلم يشر على سبيل المثال إلى مراسم استقبال السفراء الصينيين. ويمكننا الاستنتاج هنا أنه كان يقصد سفراء الأمم المجاورة للعباسيين، كالبيزنطيين الذين أرسلوا سفارات عديدة إلى بغداد، منها سفارة عندما كان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بورفيروجنتيوس Constantine vii Perpherogentius ٩٤٥ ـ ٩٥٩م ولياً على العهد في القسطنطينية ٩١٢ ـ ٩٢٠م.

على أية حال، وصلت تلك السفارة إلى المدينة في العام ٩١٧م، إبان فترة حكم الخليفة العباسي المقتدر بالله (٩٠٨ ـ ٩٣٢م). وتم فرش القصر بالبسط الجميلة، واصطف الجنود بخيولهم المطهمة، قبل إدخال السفارة إلى قاعة الحكم لإبداء آيات الاحترام وتقديم الهدايا للخليفة العباسي[٣].

ولم يغفل شوجو ـ كوا أيضاً الحديث عن قصر الخليفة العباسي في بغداد، فذكر فخامته وروعة تصميمه، وأشار إلى استخدام البلورات في صنع أعمدته. وأن جدرانه مطلية على شكل تربيعات. كما تحدث عن وجود العديد من الستائر المعلقة به، وأن كل جدار من جدران القصر يحتوى على سبعة أبواب، كل باب يحرسه ثلاثون رجلاً[٤].

بعد ذلك تناول مؤرخنا الصيني بالحديث مسألة خروج الخليفة إلى الصلاة في المسجد المجاور للقصر. غير أنه ذكر أن سكان بغداد قاموا بحفر نفق أسفل قصر الخليفة ليصله بقاعة العبادة (المسجد)، عبر مسافة تبلغ لي Li واحد[٥].

---

(١) فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، ص٢٨٤- ٢٨٥.

(٢) Chau Ju-Kua, Op.Cit, Chap.20, P.103

(٣) أبي الحسين الصابئ، رسوم دار الخلافة، تحقيق وتعليق ميخائيل عواد، بيروت، ١٩٨٦م، ص١١. على أن المحقق لم يلحظ في هامش رقم ١، أن تلك السفارة البيزنطية إنما وصلت عندما كان قسطنطين السابع مجرد ولي للعهد وليس إمبراطوراً على بيزنطة.

(٤) Chau Ju –Kua, Op.Cit. Chap.20, P.103

(٥) Loc.Cit. اللى Li وحدة قياس صينية للمسافات تبلغ ثلث الميل أو نصف الكيلومتر تقريباً.

وقبل الحديث عن مسجد الخليفة العباسي في بغداد، ينبغي التنويه إلى أن شوجو - كوا قد جانبه الصواب، فلم يحدث أبداً أن كان هناك نفق تحت الأرض يصل قصور الخلفاء العباسيين بمساجدهم في بغداد.

غير أننا نرى أنه ذكر ذلك تأكيداً لفكرته السابقة حول أن الخلفاء العباسيين كانوا نادرا ما يظهرون لسكان بغداد خشية الاغتيال. لهذا فهم يتوجهون لأداء صلاة الجمعة عبر حماية بالغة، وهو ما اختزله مؤرخنا الصيني عبر الحديث عن نفق تحت الأرض يصل ما بين قصر الخليفة ومسجده.

ودليلنا على ذلك ما رواه ابن جبير الذي زار بغداد في القرن الثاني عشر الميلادي، إذ ذكر أن (جامع الخليفة متصل بداره. وهو جامع كبير، فيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة)[١].

وإذا كان ابن جبير هنا يتحدث عن جامع الخليفة المستضيء بنور الله، فان فكرة اتصال مسجد الخليفة بقصره هي فكرة قديمة قدم بناء مدينة بغداد نفسها.

فقد تناولت المصادر التاريخية الإسلامية بالحديث وجود المسجد إلى جوار القصر عندما قام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ببناء المدينة، وعلى سبيل المثال يذكر ابن فضل الله العمري (جعل المنصور مدينة بغداد مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب إلى السلطان من بعض، وبنى قصره في وسطها والجامع إلى جانب القصر)[٢].

وكذلك ابن حوقل الذي أشار إلى وجود المسجد إلى جوار القصر (... وفي دار السلطان أيضاً جامع يحضره الخاصة والعامة)[٣].

وفيما بعد أكد كلا من ابن بطوطة وابن خلدون[٤] ما سبق أن اتفقت عليه المصادر الإسلامية من كون المسجد قريباً من قصر الخليفة، وهو ما يجعلنا نجزم بأن مسألة ذكر

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص١٨٣. وانظر أيضاً أبي الحسين الصابئ، المصدر السابق، ص١٣٢، هامش٣، حيث يذكر المحقق أن اتصال جامع الخليفة بالقصر ودار الخلافة كان بديماس مؤزج يعرف بالمطبق.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار في ممالك المصار، الجزء الخامس والعشرين، تحقيق عبد القادر خريسات، عصام عقله، يوسف ياسين، العين، ٢٠٠٤م، ص٢٣١.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ليدن، ١٩٣٨م، ص٢٤١.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازى، ج٢، الرباط، ١٩٩٧م، ص٦١، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٢، ص١٩٧.

وراجع أيضاً: اسحق بن حسين المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، روما، د.ت ص٥. حيث يتحدث عن بناء بغداد. وأنه تم بناء (القصر في وسط المدينة وإلى جانبه المسجد الأعظم).

شوجو - كوا لنفق تحت الأرض يصل القصر بالمسجد لهي مبالغة لا معنى لها. فلم يتمكن الهاجس الأمني من الخلفاء لدرجة جعلتهم يفكرون في شق نفق تحت الأرض يتوجهون من خلاله للصلاة في المسجد القريب من القصر.

ولم يكتف مؤرخنا الصيني بالحديث عن قصر الخليفة والمسجد الكبير، فقد تعرض لسكان مدينة بغداد، وذكر أن سكانها يمتازون بطول القامة والوسامة أيضاً[١].

ويتفق وصف شوجو - كوا هنا مع ذكرته المصادر الصينية السابقة عن السكان العرب بشكل عام. من ذلك ما ذكره الأسير الصيني توهوان Tu-Huan الذي كان قد سقط في قبضة القوات الإسلامية بعيد موقعة طلاس ٧٥١م. وتم أخذه إلى العراق، حيث مكث بمدينة الكوفة، العاصمة العباسية الأولى، مدة عشر سنوات قبل أن يسمح له بالعودة إلى الصين مرة أخرى في عام ٧٦٢م. وهو نفس العام الذي بدأ فيه المنصور بناءه لمدينة بغداد، حيث كتب في تقريره أن (.. العاصمة اسمها الكوفة Ya-chü-Lo واسم الخليفة العربي مومين (أي أمير المؤمنين)... وجميع الرجال والنساء يتسمون بالوسامة وطول القامة)[٢].

كما أشار شوجو - كوا أيضاً إلى أن سكان بغداد لا يحتسون الخمر، ويستخدمون أوان من الذهب والفضة. كما يستخدمون المغارف لوضع الكمية التي يحتاجونها من الطعام في تلك الأواني. بل أنهم بعد الانتهاء من وجبتهم يقومون بغسل أيديهم عبر طاسات ذهبية مليئة بالماء[٣].

ويدل هذا بطبيعة الحال على مقدار الترف والازدهار الاقتصادي لمدينة بغداد وسكانها في رواية شوجو - كوا. الذي أشار أيضاً إلى نظافة سكان بغداد المسلمين الذين يقومون في اليوم السابع (يوم الجمعة) من كل أسبوع بقص شعورهم وتقليم أظافرهم من أجل التوجة للصلاة الجامعة[٤].

كما تحدث مؤرخنا الصيني أيضاً بشكل عام عن الملابس التي قام الرجال في بغداد بارتدائها، فذكر أنهم يرتدون العمامة والملابس القطنية ذات اللون الأبيض[٥].

وانظر أيضاً: موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجرى (٨ - ١١م)، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٧٨م، ص١٩٢، الذي يشير إلى أنه (...خلال سنوات أربع، تم تشييد مدينة (بغداد) مستديرة بانتظام حول قصر الخليفة والمسجد الرئيسي).

(١) Chauju-Kua, Op.Cit, Chap.20, P.103

(٢) هيو كيندي، المرجع السابق، ص٢٩٠. وانظر أيضاً: Hoyland, Op.Cit, P.249.

(٣) Chauju-Kua, Op.Cit, Chap.20, P.103

(٤) Loc.Cit, وانظر أيضاً: Chap.30, P.135

(٥) Ibid, P.135

أما الأسير الصيني توهوان، فكان قد ذكر سابقاً أن السكان المسلمين في الكوفة كانوا يرتدون ثياباً لامعة ونظيفة وفضفاضة، (وأحياناً ما كانت تشبه عباءة عالم كونفوشيوسى)[١].

والحقيقة أن أزياء السكان في بغداد قد تعددت، فكان لكل طائفة منهم زيها الخاص الذي تتميز به، فلأهل العلم زي، وللجند زي، حيث كانوا يلبسون الأقبية الملونة، والمناطق في أوساطهم ويتقلدون السيوف[٢].

أما خطباء المساجد في بغداد في العصر العباسي، فكانوا يلبسون السواد، أي جبة وعمامة سوداوين[٣].

كما كان لأهل التصوف في بغداد زى يتميزون به أيضاً، فكان الصوفي منهم يرتدى جبة من الصوف وكرزية ورداء من الصوف. بينما كان يرتدى التجار الأغنياء في بغداد قميصاً ورداءً فوق السراويل، بينما يرتدى المشايخ والعلماء الخف والطيلسان[٤].

وكان من الطبيعي بالنسبة لمؤرخنا مفتش الجمارك الصيني شوجو - كوا أن يهتم بذكر الأحوال الاقتصادية والتجارية لمدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية.وإحدى المراكز التجارية الهامة التي تقع في نهاية طريق الحرير القادم من الصين عبر بلدان وسط آسيا حتى سواحل البحر المتوسط. فأشار باهتمام إلى أن بغداد تعد بمثابة السوق الكبير، الذي يحتشد فيه التجار العرب Ta-shi في غرب آسيا[٥].

وعلى الرغم من أن شوجو - كوا لم يلحظ أن بغداد تتميز بأسواقها اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية، كما أشار إلى ذلك المؤرخون المسلمون[٦]. ولم يشر أيضاً إلى تخصص الأسواق والمتاجر بها، بحيث كانت (كل تجارة لها شوارع معلومة وحوانيت، وليس يختلط قوم بقوم. ولا تجاور تجارة تجارة)[٧]. إذ كان لكل أهل حرفة سوق خاصة بهم لعرض صناعتهم فيها. وكانت في بغداد كافة أنواع السلع والبضائع التي كانت تحتل شارعاً أو

---

(١) هيو كيندي، المرجع السابق، ص٢٩٠. وانظر أيضاً: Hoyland, Op.Cit, P.249

(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٧، ص١٨٠.

(٣) راجع: ابن جبير، المصدر السابق، ص١٩- ٢٠.

(٤) انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج٦، ص٣٨٢.

(٥) Chau Ju-Kua, Op.Cit, Chap.20, P.102

(٦) الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص٣٥٢.

(٧) الحميري، كتاب المعطار في خبر الأقطار، تحقيق أحسان عباس، دمشق، ١٩٨٠م، ص١١١- ١١٢.

سوق باسمها[١]. فإنه ذكر أن أسواق بغداد كان بها العديد من الأزقة والطرقات، دون أن يربط بينها وبين تخصص الأسواق وأنواع السلع والبضائع.

كما أنه أشار إلى وجود عربات صغيرة لحمل البضائع، تتميز بأغطيتها وأعلامها البيضاء. وفي ملاحظة ذكية منه أشار أيضاً إلى وجود أبراج للتحذير من أخطار المهاجمين واللصوص كل ثلاثين لي Li[٢].

ويتطابق حديث شوجو ـ كوا هنا مع ما تذكره المصادر التاريخية والجغرافية الإسلامية في كون بغداد أكثر مدن العراق أسواقاً وامتداداً في عمارتها[٣]، وذلك كونها عاصمة للخلافة العباسية. فقد تميزت المدينة بتعدد واتساع أسواقها، وكثرة استراحات التجار (الفنادق) بها، نتيجة لازدحامها بالعديد من التجار الأجانب الوافدين على أسواقها[٤].

كما اهتمّ مؤرخنا بذكر أهم السلع والبضائع التي تنتجها مصانع بغداد كالذهب والفضة والأواني الزجاجية المنقوشة liu-li ذات الجودة العالية. والملابس البيضاء Yue-no، فضلاً عن الأصماغ العطرية اللينة[٥]. كما أشار في فصل سابق من كتابه أيضاً إلى أن المنتجات المحلية لبغداد أهمها الزجاج المعتم، والمرجان وسبائك الذهب والديباج، والعقيق الأحمر، واللؤلؤ وأن تجارها يطلقون على الأحجار الكريمة اسم Hie-Ki-Si أو T'ung-T'ien-Si[٦].

كما أشار شوجو ـ كوا أيضاً إلى وجود سوق كبير في بغداد لبيع الأقمشة الحريرية[٧].

وربما كان يشير هنا إلى القماش الحريري غالي الثمن الموشى بالذهب الذي يدعى Baldekino أو Baldacchino (بغدادي)، الذي اشتهرت بغداد بضاعته، وبلغ من قيمته أن هولاكو بعد غزوه لبغداد ١٢٥٨م فرض على أهلها ضرورة دفع جزية تكون من بينها أقمشة من هذا النوع غالي الثمن[٨].

وفيما بعد انتقلت صناعة هذا القماش الحريرى البغدادي منها إلى الأهواز ثم دمشق وقبرص، قبل أن يصل في النهاية إلى فرنسا وإنجلترا.

---

(١) الشيزرى، الرتبة في طلب الحسبة، القاهرة ١٩٤٦م، ص١٠١.

(٢) Chau Ju-Kua, Op.Cit, Chap.20, P.103

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، بيروت، ١٩٨٩م، ص٥٥٨.

(٤) ابن خردازبة، المسالك والممالك، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٩٥.

(٥) Chauju-Kua, Op.Cit, Chap.30, P.135

(٦) Ibid, Chap.20, P.103

(٧) Ibid, Chap.30, P.135

(٨) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، ترجمة أحمد رضا محمد، القاهرة و١٩٩٤م، ص٢٠٨.

وعلى الرغم من إشارة مؤرخنا الصيني إلى وجود العديد من السلع الأخرى في أسواق بغداد، كالأرز والخضروات والأسماك واللحوم والزبدSu-lo[1]. فإننا يمكن أن نضيف أن بغداد كانت مدينة عالمية Cosmopolitan إبان الخلافة العباسية، واحتوت أسواقها على العديد من السلع الأخرى كالملابس ذات الفراء، والرقيق المجلوب من صقلية ومن بلاد ما وراء النهر[2]. وكذلك الحنطة والشعير والتمور والزيتون والمنسوجات القطنية والكتانية وصناعة السجاد، فضلاً عن صناعة الورق التي دخلت إلى العراق بعد معركة طلاس ٧٥١م، بفضل الأسير الصيني تو هوان الذي أدخلها إلى مدينة الكوفة قبيل بناء بغداد بعشر سنوات.

ولعل هذا يجعلنا نتعجب عن سبب إغفال شوجو - كوا لصناعة الورق وكذا الوراقين وصناعاتهم في بغداد فيما بعد. مع أن رفيقه الصيني هو الذي أدخل هذه الصناعة مع زملائه من الأسرى الصينيين إلى العراق[3].

غير أنه يمكننا أن نربط بين ذلك، وبين إغفاله من الأصل ذكر هزيمة طلاس ٧٥١م لدى حديثه المتتابع عن العلاقات الصينية الإسلامية.

كما أشار شوجو - كوا أيضاً إلى كثرة الدواوين في عاصمة الخلافة العباسية، فذكر أنه يوجد في بغداد العديد من أمناء السجلات الرسمية، غير أنه اعتقد أنهم قد استخدموا في كتاباتهم حروف لغة الهو Hu[4].

ومن الواضح هنا إشارة مؤرخنا الصيني إلى اهتمام المسلمين بمسألة تنظيم الدواوين. تلك المسألة التي بدأت مبكرا مع عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي اقتبس ديوان الجند من يزدجرد كسرى فارس. بعد ذلك أنشأ المسلمون دواوين العطاء والمال والإنشاء والخراج...وغيرها. غير أنه قد جانبه الصواب بطبيعة الحال عندما أغفل الإشارة

---

(١) Chau Ju-Kua, Op.Cit, Chap.30, P.135

(٢) انظر الإدريسي، المصدر السابق، ج٢، ص٥٥٨، ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص١٥٣.

(٣) عن الصناع والحرفيين الصينيين ودورهم في الكوفة. انظر:
Pelliot, P, "Des Artisans Chinois Á Lacapitale Abbaside En 751 - 762" In, T'oung Pao, Ser.11, 26, 1928, Pp.110 - 112.

(٤) Chau Ju-Kua, Op.Cit, Chap.20, P.103

يبلغ عدد اللغات الأسترو - أسيوية Austro-Asiatic نحو ١٥٠ لغة، يتحدث بها ٤٠ مليون نسمة. وهي تنتشر في جنوب شرقي آسيا وجنوبي الهند. وتصنف اللغات الأستروأسيوية في ثلاثة فروع رئيسية ١ - اللغات المندوية Munda، واللغات النيكوبارية Nicobarese، واللغات المونية الخميرية Mon-Khmer. وتعد لغة الهو Hu من أشهر اللغات المشتقة من اللغة المندوية، ويتحدث بها ٦ ملايين نسمة من السكان في شرقي الهند، انظر:
Www.Arab-Ency.Com

إلى استخدام اللغة العربية في الدواوين والسجلات الرسمية في بغداد، حاضرة الثقافة والحضارة العربية والإسلامية.

ومن الملاحظ أنه حدث في بعض الأحيان اختلاط ما بين التاريخ والأسطورة لدى شوجو ـ كوا لدى حديثه عن بغداد، فعلى سبيل المثال لقد ذكر أن هناك العديد من الأسود التي تتجول في طرق وشوارع بغداد، تعوق طريق المسافرين وتهدد بالتهامهم في أي وقت، وهو ما جعلهم يسافرون عبر قوافل تتم حراستها بواسطة المئات من الجنود المسلحين[1].

والحقيقة أنه لم تكن هناك أية أسود تعيش حرة طليقة في شوارع بغداد تهدد حياة سكانها. ويبدو أنه من الأقرب إلى الصواب أن نعتقد أن شوجو ـ كوا ربما كان يشير ـ في تورية ـ إلى اللصوص وقطاع الطرق الذين هددوا سير القوافل التجارية نحو بغداد ـ عاصمة الخلافة العباسية ـ التي كانت سوقاً كبيرة للسلع والبضائع.

وفي النهاية، لقد أبلى شوجو ـ كوا بلاء حسناً عند حديثه عن مدينة بغداد. وذلك عبر مقارنة ما ورد في مصنفه بما ورد لدى المصادر التاريخية والجغرافية الإسلامية حول المدينة. ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نوجه إليه اللوم في عدم تناوله للمظاهر الأخرى التي اقترنت ببغداد، والتي كانت مادة للحديث لدى مؤرخين آخرين. من ذلك عدم إشارته؛ لأنّهار بغداد، وخاصة دجلة والفرات، أو عدم حديثه عن التصوف والصوفيون والخوانق بها، وكذا إغفاله للمارستانات والمدارس والحمامات الموجودة بالمدينة.

وتفسير ذلك لدينا أنه ـ وبفضل وظيفته واهتماماته التجارية ـ قد جعل همه الأكبر الالتفات إلى الأوضاع الاقتصادية لبغداد، فضلاً عن تناوله للنظام السياسي بها، وحديثه عن سكانها.

كما أن لدى شوجو ـ كوا حجة أخرى تشفع له في عدم تعرضه للموضوعات السابقة لدى حديثه عن بغداد، هو أنه استقى معظم معلوماته من أفواه التجار والبحارة العرب والصينيين. وأنه كان يدون ما يملى عليه. ومن الضروري أنه لم يتعرض أحدهم لتلك الموضوعات عن بغداد، وإلا كان شوجو ـ كوا قد قام بتدوينها، كما قام بتدوين الكثير من المعلومات عن عشرات المدن والجزر والموانئ الأجنبية البعيدة عن سواحل الصين. وأنه يكفيه فخراً أنه وضع كتابا يشبه تماماً كتب الرحالة في العصور الوسطى، دون أن يغادر مكانه في الصين على الإطلاق. ■

(عن مجلة التسامح)

---

(١) ChauJu-Kua, Op.Cit, Chap.20, p103.

قصة
الساعات البغدادية

✍ صادق الجميلي

عرف البغداديون الساعة الحديثة منذ القرن الثامن عشر، وكان التاجر البغدادي من أنشط تجار العالم تنافسا في استيرادها من مواطن صنعها في ألمانيا.. وكان الموسرون من أبناء بغداد وحتى متوسطي الحال مولعين في اقتناء ساعات الجيب والساعات الجدارية لتزيين جدران بيوتهم ودواوينهم.

ومازال بعض هذه الساعات في حوزة أصحابها حيث تعمل بدقة دون أن تنتابها مؤثرات الزمن.. فمن هذه الساعات الساعة التي يحتفظ بها احد المواطنين والتي أشارت إلى ذكرها الزميلة مجلة «ألف باء» في عددها (٤٦٨) تحت عنوان «أقدم ساعة في بغداد» والتي يعود تاريخ صنعها إلى عام ١٨٠٠م حين دخلت بغداد ضمن أول وجبة ساعات استوردت إبان العهد العثماني من ألمانيا عام ١٨١٠م والتي مازالت صالحة وتعمل بدقة حتى الآن..

وبرز مواطن بغدادي آخر يعقب على هذا الخبر في المجلة المذكورة بعددها اللاحق (٤٧١): ينفي فيه أن تكون الساعة هي أقدم ساعة في بغداد بل أن التي أقدم منها هي الساعة التي يمتلكها هو والتي آلت من جده إلى والده ومن ثم إليه، وهي من الساعات المعروفة بـ (أم الطمغة) يرجع تاريخ صنعها إلى سنة ١٧٤٩م كما هو مثبت في داخلها وهي بحالة جيدة وتشير إلى الوقت بدقة حتى هذه اللحظة.. يا ترى كم من هذه الساعات الأثرية التي يحتفظ بها البعض ولا نعلم عنها شيئاً؟!!.

ماذا لو امتلكت أمانة العاصمة أمثال هذه الساعات التي كانت تزين جدران البيت البغدادي أيام زمان والتي يحتفظ بما تبقى منها بعض المواطنين والمودع بعضها الآخر وقفاً في بعض المساجد والجوامع الكبيرة خاصة بعد أن أصبحت نادرة وتمتاز بمسحة آثارية ووضعتها في جناح خاص من المتحف البغدادي لتمثل جانبا من مخلفات المجتمع البغدادي في القرن الماضي قبل ان تختفي وتزول ويمحى أثرها؟ لا شك أنها ثروة تراثية **لا** تعوض.

وعرفت بغداد الساعات الكبيرة ذات الأبراج العالية على غرار المنائر أيام حكم الوالي العثماني المصلح مدحت باشا حيث شيد أول مرة في تاريخ بغداد هذا النوع من الأبراج لينصب

في أعلاه ساعة القشلة وكان ذلك حدثا مهما في تاريخ عاصمة اعرق حضارة في التاريخ وتم ذلك عام ١٨٦٩م أي بعد عشرة أعوام من نصب ساعة (بك بن) الشهيرة والتي تعلو مبنى مجلس العموم البريطاني في العاصمة لندن وتذاع دقاتها من الإذاعات البريطانية إلى جميع أنحاء العالم ويعود لها الفضل في ضبط الساعات في بقية أقطار الدنيا.. ثم توالى نصب الساعات ذات الأبراج في بغداد بعد ساعة القشلة فكانت ساعة الكاظمين عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) ثم ساعة الحضرة الكيلانية عام (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) فالساعة الأعظمية عام (١٣٥٠هـ/ ١٩٣٠م).

وسنبين تاريخ كل منها على التوالي.

ساعة القشلة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)

ارتبط تاريخ هذه الساعة الأثرية ببناء القشلة (الثكنة العسكرية وسراي الحكومة فيما بعد) التي مازالت قائمة وماثلة أمام أنظارنا تحكي قصة الزمن في فترة من فترات التاريخ وبقيت وستبقى لتكون احد معالمنا الأثرية في بغداد.. وكان الشروع في بناية هذه القشلة سنة (١٢٧٨هـ/١٨٦١م) أيام الوالي نامق باشا الكبير وفي عهده لم يكمل بناؤها وقد أكمله مدحت باشا (١٨٦٨ - ١٨٧١) واقام في ساحتها برجا نصب عليه الساعة المذكورة لغرض إيقاظ الجنود إلى أوقات التدريب العسكري حيث اتخذ القشلة مركزا لقواته الخيالة وكذلك مقرا لولايته ومن ثم اشغلت من قبل بعض الوزارات في العهد الملكي الغابر.. وساعة القشلة تدق الساعة فقط وكان رنين صوتها تسمعه بغداد كلها . الرصافة والكرخ . وخاصة في أوقات الليل والفجر حيث يستيقظ على دقاتها العمال والموظفون ليذهبوا إلى أعمالهم إضافة إلى أنها كانت تزينها المصابيح مما يساعد على رؤيتها من مسافات بعيدة أما اليوم فان البنايات العالية حجبتها عن الأنظار كما حجبت صوتها عن الأسماع.. وكان الناس قد اعتادوا ان يضبطوا ساعاتهم والموظفون أن يتبينوا بها مواعيد بدء الدوام الرسمي وانتهائه من دواوين الحكومة فهي الحكم الفصل في كل اختلاف بالزمن.

بنيت القشلة وبرج ساعتها وبعض أبنية مدحت باشا التي تميز بها عهده من حجارة سور بغداد الشرقية حيث كان قائما يومذاك وقد هدمه الوالي المذكور باعتبار أن بغداد ليست في حاجة له بعد استعمال المدافع الحديثة في الحروب ودك الحصون..

انتصب برج ساعة القشلة الذي يطل على شاطئ دجلة على مساحة مربعة الشكل طول ضلعها أربعة أمتار يضيق كلما ارتفعنا عن الأرض وكان في تصميمه يشبه إلى حد بعيد المئذنة، وارتفاعه ثلاثون متراً وبداخله سلم حلزوني يحتوي على (٧٣) درجة وفي نهايته حوض

كبير يضم مكائن الساعة ذات الجهات الأربع كما يوجد أيضاً جرس الساعة الذي يبلغ ارتفاعه متراً واحداً وقطره ثلاثة أمتار وهو منفصل عن الساعة وعند عملية التشغيل تتصل الساعة بالجرس بواسطة جسر صغير، وتتم عملية النصب بواسطة مفتاح يشبه إلى حد كبير «هندر السيارات» لتعطي الساعة قوة تشغيل لمدة عشرة أيام والجرس لمدة سبعة أيام. ولهذه الساعة أربعة أوجه فالوجهان الجنوبي والغربي للتوقيت الغروبي (العربي) وتشير عقاربها إلى الزمن بالرقم المألوف أما الوجهان الآخران وهما الشمالي والشرقي فللتوقيت الزوالي (الإفرنجي) وتشير عقاربها إلى الزمن بالرقم اللاتيني القديم..

ويعتلي برج الساعة سهم حديدي قائم يرتبط في منتصفه بسهم حديدي بشكل أفقي متحرك يؤشر هذا الرمح حركة الرياح واتجاهاتها .ويوجد سهم آخر تحت السهم المتحرك رسم فيه الحرف (N) بالانكليزية ويعني الرياح الشمالية، والحرف (S) ويعني الرياح الجنوبية حيث يؤشر السهم المتحرك عند هبوب الرياح على واحد من هذين الحرفين لمعرفة اتجاه الرياح وقد صنع مؤشر الرياح هذا عند دخول الانكليز بغداد عام ١٩١٧ مع التاج وتمثال الجمل وبعض الإصلاحات والإضافات الأخرى على البرج.

وكان تمثال الجمل الذي وضع فوق مرتكز الرمح قد صنع من البرونز للقائد الانكليزي «لجمن» الذي جاب الصحراء العراقية وهو يركب الجمل فأسقط هذا التمثال من التاج من فوق برج الساعة بسقوط النظام الملكي في العراق في تموز عام ١٩٥٨م.

وكانت تعترض ساعة القشلة مشاكل بسيطة وسببها المطر والغبار اللذان يدخلان الساعة عبر الشبابيك فيؤديان إلى تعطيلها عن العمل مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار.. وكان الرجل المسؤول عن كل ذلك وعن توقيتها وضبطها وإدامتها يدعى السيد عبد اللطيف أحمد الساعاتي وهو في العقد السابع من العمر عايش هذه الساعة وظل يعمل معها قرابة النصف قرن وقد توفي رحمه لله في عام ١٩٧٨م وخلفه في هذه المهمة السيد جبار نتمنى له العمر المديد ومزيدا من الاهتمام في رعاية أقدم ساعة في بغداد.

لتكن ساعة القشلة أساس التوقيت لمدينة بغداد

ثبت أن ساعة القشلة من الساعات المضبوطة في توقيتها لان حركتها (ميكانيكية) مؤسسة على أجود وأدق النظريات في صناعة الساعات ولهذا السبب ومنذ تأسيسها كان اعتماد الكثير عليها في توقيت ساعاتهم.. لذا يجب أن تنال قسطاً كبيراً من الاهتمام والرعاية لإدامة ضبطها للوقت. وبهذه المناسبة نطرح تجربة مهمة تهم الجميع

لعل المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون أن تفيد منها في ضبط الوقت داخل المؤسسة على الأقل فيكون بإمكان إذاعة بغداد وصوت الجماهير وتلفزيون بغداد ان ينهوا الخلاف والاختلاف الذي لا يزال مستمراً بل صار مزمنا.. فتدق الساعة في إحدى هذه المحطات في الوقت الذي نسمع فيه نشرة الأخبار قد بدأت تذاع في محطة أخرى، والبرنامج المقرر لم ينته بعد في المحطة الثالثة وهكذا يقع المواطن في حيرة من أمره وهو ممسك بزمام ساعته يريد ضبط الوقت فيها وتوقيتها!!.. والتجربة تتلخص في شروع الإذاعات البريطانية في التوقيت على ساعة (بك بن) الشهيرة في لندن وكذلك الإذاعات والتلفزيون في الشقيقة جمهورية مصر العربية في التوقيت على ساعة جامعة القاهرة فحين تدق الساعة في الجامعة تكون قد دقت في داخل الإذاعة والتلفزيون معاً في اللحظة ذاتها وهذا يجنبها الاختلاف في ضبط الوقت لن تكون هذه التجربة بأقل نجاحاً مع ساعة القشلة إذا أريد لها أن تكون أساس التوقيت لمدينة بغداد!!.

ساعة الكاظمين (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م)

ومن ساعات بغداد القديمة ذات الأبراج ساعتا المشهد الكاظمي فكانت الأولى على الباب الشرقي مقابل ساحة النافورة، والثانية على الباب القبلي. وكان الوزير الإيراني «دوست محمد خان» قد أهدى الساعة الأولى وهي من الساعات الكبيرة عام زيارته للعراق بصحبة ملك إيران ناصر الدين شاه سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) ولما لم يكن لها موضع تنصب فيه فقد بقيت في المخزن إلى حين شيدت لها قاعدة وبرج، ونصبت عليه سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م) وهي قائمة إلى اليوم تعمل بانتظام.. أما الساعة الثانية وهي أكبر وأضخم من الأولى والتي وضعت على الباب القبلي فقد أهداها الحاج مهدي الابوشهري الإيراني بعد تشييد القاعدة الثانية والبرج وكان ذلك سنة (١٣٠٢هـ/١٨٨٥م).

وقد ارتبط تاريخ هاتين الساعتين بالمشروع الأضخم لتجديد عمارة المشهد الكاظمي والذي تطوع على الإنفاق عليه الأمير «فرهاد ميرزا القاجاري» عم ناصر الدين شاه عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) وقد أوكل على ذلك اثنين من تجار الكاظمية هما الحاج عبد الهادي والحاج مهدي الاسترياديان للقيام بهذه المهمة وأذن لهما بالتصرف المطلق وبالمبلغ غير المحدود، فكان بدء العمل بالعمارة يوم (١٧ ذي القعدة - ١٢٩٦هـ/١٨٧٨م) والانتهاء منه بجميع ما فيه في (١٧ ربيع الأول - ١٣٠١هـ/١٨٨٣م) واحتفل بهذه المناسبة لمدة ثلاثة أيام، ويقال أن مجموع نفقات هذه العمارة بلغ مئتي ألف ليرة عثمانية.. وكان من ضمن ما اشتمل عليه التعمير المذكور تأسيس قاعدتين ضخمتين في سطح الطابق الثاني

من الصحن فوق البابين الرئيسيين في جانبي الشرق والجنوب لتقوم عليهما أبراج الساعتين وقد استغرق البناء أربع سنوات، ومن ثم تم نصب الساعتين المذكورتين عليهما.

وقد امتازت الساعة التي نصبت على الباب القبلي بفخامتها إضافة إلى قدمها وجمال برجها، فكان بداخل البرج سلم خشبي ذو عشرين درجة. أما آلة الساعة فقد ركزت في الطبقة الثانية وهي ذات أربعة أوجه مدورة، تدق الساعة والأنصاف والأرباع وتحتوي على جرس ومطرقة.. وكان الصوت المنبعث منها عالياً جداً يصم الآذان فأفرغت في الجرس كمية من الرصاص لتخفيف حدة الصوت.. ويبلغ ارتفاع البرج اعتباراً من سطح الباب إلى القمة - وهي على شكل خوذة ذهبية الطلاء - ستة عشر مترا ونصف المتر، كما بلغ عرض الكتابة ثلاثة أمتار، وغرفة الآلة خمسة أمتار.. وقد زاد في روعة منظرها ذلك الكاشاني الجميل النقش والزخرفة البديعة الذي يكسو جدرانها

ومن أهم المشاكل التي كانت تعترض الساعة آنذاك أنها حين تتوقف عن العمل ويعجز المصلحون المسلمون عن إصلاحها يتحرج الموقف بدخول المصلحين الأجانب إلى المشهد المقدس بدافع الاضطرار. ومن طريف ما يروى عن تصليح هذه الساعة يوم توقفت ما ترويه «مدام ديولافوا» يوم زارت بغداد سنة (١٨٨١م/١٢٩٩م)، فتذكر انهم تعرفوا في بغداد على مهندس فرنسي خبير في تصليح الساعات يعمل في بغداد ويدعى «المسيو موكل» فزودهم بتوضيحات كافية عن المشهد الكاظمي المقدس بعد أن تحدثوا بما رأوه من صعوبات ومضايقات في زيارتهم لهذا المشهد، ولم يستطع هو أيضاً الدخول إليه في بادئ الأمر لكونه نصرانيا لكن الساعة الكبيرة في الصحن توقف دقاقها الكبير في يوم من الأيام وتعسر تصليحه فتبرع هو لإصلاحه وتشغيل الساعة، فحمل أدواته الهندسية، وآلة التصوير الدقيقة في الوقت نفسه والتقط عدة صور من فوق السطح والبرج ومن الجوانب المختلفة

ساعة الحضرة الكيلانية (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)

وبعد بضع سنوات من نصب ساعة الكاظمين أهديت من المسلمين بالهند ساعة كبيرة ذات وجهين تدق الساعات وأنصاف الساعات فقط إلى الحضرة الكيلانية المقدسة في بغداد، وفعلاً تم نصبها في الحضرة المذكورة وكانت تعمل بانتظام حتى حلت محلها ساعة ضخمة أخرى ذات أربعة أوجه كبيرة وهي الساعة القائمة اليوم في صحن الحضرة الكيلانية، ورفعت الساعة القديمة من محلها وقدمت هدية إلى مديرية الأوقاف لتنصب في جامع الإمام الأعظم في الأعظمية.. أما الساعة الجديدة فهي ذات أربعة أوجه كبيرة وتحتوي على ثلاثة أجراس أحدها للساعات والآخر لنصف الساعات والثالث للأرباع. وقد تم صنع هذه الساعة

الفخمة في معامل (بونة) الشهيرة في مدينة بومبي بالهند. وقد شيد لها المرحوم عبد الرحمن النقيب، نقيب أشراف بغداد الأسبق المتوفى سنة ١٣٤٥هـ، برجا عاليا يناطح السحاب ارتفاعه (٣٠) مترا، وكان الانتهاء من تشييده في سنة (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) كما هو مدون على واجهة البرج الشمالية بالكاشاني الأزرق البديع، ونقشت طغراء السلطان عبد الحميد بالكاشاني الأزرق أيضاً ونحتها سنة ١٣١٧هـ وعلى واجهته الغربية، وثبت لوح من المرمر كتب عليه إطراء ودعاء للسلطان عبد الحميد الثاني على و اجهته القبلية وكانت هذه الكتابات بخط السيد عبد الجبار آل خان زادة رئيس كتاب مديرية أوقاف بغداد سابقاً والمتوفى سنة ١٣٣٤هـ. وكان البرج من صنع المعمار البغدادي الحاج درج الذي حاكى في بنائه برج ساعة القشلة وكان لا يخلو من بعض الإضافات منها المحجران السفلي والعلوي فوق حجرة الساعة واللذان يحيطان بالبرج من جهاته الأربع، ويرتقى إلى الساعة من داخل البرج بسلالم خشبية. وقد قام هذا البرج على قاعدة أرضية طول ضلعها ثلاثة أمتار ونصف المتر ثم يرتفع البرج هرميا حتى يصل طول ضلعه مترين ونصف المتر وهي شبيهة بساعة القشلة الشهيرة في كثير من الوجوه.

ساعة الأعظمية (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م)

يحق لكل عراقي أن يتيه فخرا واعتزازا بكل ما أبدعته اليد العراقية الماهرة في الحقل الصناعي على مر العصور ويزهو بنفسه على ذلك العطاء الثر الذي قدمه للإنسانية مساهمة منه في كثير من مجالات الفكر والعلم والفن والصناعة. وقد أثبتت الأيام بان كثيراً من القابليات والكفاءات ظلت فترة من الزمن مطوية في عراقنا الحبيب حتى إذا ما تهيأت لها الفرص المسعفة برزت للوجود فبرهنت للملأ على نبوغ العراقي وإبداعه في جميع المجالات وكشفت عن قابلياته وجلت مواهبه ونهضت دليلا على ان النبوغ والإبداع لا يختصان ببلد دون آخر وينفرد بهما شعب دون سائر الشعوب. وكان من هؤلاء النوابغ المبدعين الذين تهيأت لهم فرص العمل بعصامية فذة وبعقلية مبدعة متطورة المرحوم عبد الرزاق محسوب الأعظمي منشئ الساعة البغدادية المشهورة باسم «ساعة المعرض» أو الساعة الأعظمية نسبة إلى الإمام الأعظم ابي حنيفة ـ رحمه الله ـ .

وتبدأ قصة هذا الصانع الموهوب مع الساعة الأعظمية في عام (١٣٣٧هـ/١٩١٩) يوم أهديت الساعة الكبيرة ذات الوجهين والتي كانت منصوبة في الحضرة الكيلانية كما قدمنا إلى جامع الإمام الأعظم لتصليحها ونصبها فيه غير ان هذه الساعة كانت قديمة وقد تلف الكثير من أجزائها أثناء رفعها، فطلبت مديرية الأوقاف العامة إلى بعض المتعهدين إصلاحها وأعلنت عن ذلك في الصحف المحلية فتقدم إليها الحاج عبد الرزاق محسوب الأعظمي وفحصها

فوجدها غير صالحة، ثم راودته فكرة القيام بصنع ساعة مثلها، وكانت فكرة رائعة تحكمت في أحاسيسه ومشاعره حتى أقضت مضجعه في الليل واستنزفت الكثير من وقته في النهار، فراح يرسم خطوطها الرئيسية منذ تلك اللحظة ودب نشاط غير اعتيادي في معمل السيد محسوب الذي راح يوزع الأعمال بين عماله باهتمام بالغ وجدية ملحوظة وفي ذهنه تصميم لصنع ساعة كبيرة مع هيكلها الخاص ذات أربعة أوجه بدلاً من تلك الساعة ذات الوجهين وهكذا واصل السيد محسوب عمله المضني في صنع هذه الساعة بمساعدة ولديه السيدين محمد رشيد وعبد الهادي حتى أتم صنعها في عام (١٩٣٠م/ ١٣٥٠هـ) وبعد الانتهاء من تنظيمها وإجراء بعض التجارب والفحوص عليها أمام جمهرة من أهل الخبرة وشاهدي العيان طلب من إدارة الأوقاف تسلمها هبة منه وبدون عوض لتوضع بدلاً من تلك الساعة التالفة في جامع الإمام الأعظم، إلا أن العقليات القاصرة وغير المدركة في الأوقاف حينذاك تشككت في صنعها فأخذت تماطل في ذلك. وأخيراً رفضت تسلمها فاحتفظ بها وأقام لها برجاً حديدياً في جانب من معمله الكائن في الأعظمية وقد تجاوزت آفاقه أصداء دقات تلك الساعة وهي تعلن عن الوقت بانتظام وتبارك جهود السيد محسوب وعمله المبدع في خدمة بلاده.

وما هو جدير بالذكر أن جميع أجزاء هذه الساعة وآلاتها كانت عراقية الصنع مئة في المئة بحيث لم يستورد أي جزء لها من الخارج إذ قامت بصنعها وهندستها الأيدي الفنية العراقية في معمل السيد محسوب وبإشرافه.

ولما أقيم المعرض الزراعي الصناعي في حدائق باب المعظم في بغداد والذي افتتح في ٧ نيسان ١٩٣٢م في عهد الملك فيصل الأول كانت هذه الساعة الشامخة والتي فازت بحق وجدارة بالجائزة الأولى من أبرز المعروضات وأجدرها باهتمام الجمهور. وأخيراً وبعد هذا الفوز الساحق على غيرها من المعروضات وافقت الأوقاف على تسلمها وتسلمتها بالفعل لا لتوضع في جامع الإمام الأعظم وإنما لتوضع رهن التوقيف والحجز في احد مخازنها فداهمها الصدأ وكادت أن تتلف لولا أن تداركها قرار مجلس الوزراء الصادر بعد ثورة تموز المجيدة عام ١٩٥٨م والقاضي بالإفراج عنها ونصبها على برج يناسبها في جامع الإمام الأعظم على أن تقوم به وزارة الإسكان، وبعد وضع التصاميم والخرائط اتجهت النية إلى بناء الأبواب الرئيسية وسياج الجامع مع برج الساعة. وقد بوشر بالعمل ونفذ بناء البرج بالكونكريت المسلح على شكل اسطواني وبارتفاع (٢٥)مترا ومحله قرب الباب الرئيسة من جهة الغرب ثم كسي البرج بالفسيفساء الايطالي ذي اللون الأزرق والأبيض، كما بنيت الأبواب على شكل أقواس ثلاثة بالكونكريت المسلح أيضاً كما كسيت بنفس النوع من الفسيفساء. وبعد إكمال بناء البرج سنة (١٣٨١هـ/١٩٥٨م) نصبت الساعة

المذكورة اعلاه وهي قائمة تعمل بانتظام وبدقة.. وفي سنة ١٩٧٣م قامت الأوقاف بإكساء البرج بصفائح من معدن الألمنيوم المضلع ذي اللون الذهبي فزاد ذلك من روعة منظره.

أما عن وصف هذه الساعة فقد بلغ ارتفاعها ثمانية أقدام، وهي ذات وجوه أربعة، وقطر كل وجه منها متران، وعلى كل وجه ثلاثة عقارب، اثنان منها يشيران إلى الدقائق والساعات والثالث يشير إلى الأيام، وصممت هذه الساعة على مبدأ الثقل حيث يتدلى منها ثلاثة أثقال تحرك ثلاثة مكائن ويقع موقع الثقل الأول في الوسط وهو الذي ينظم حركة العقارب وموقع الثاني من الجهة اليمنى وهو الذي ينظم دقات أرباع الساعة، وموقع الثالث في الجهة اليسرى وهو الذي يعلن بدقات قوية عن الوقت، ويبلغ وزنها ثمانية أطنان. وليس أدل على مبلغ ما استأثرت به هذه الساعة من اهتمام رواد المعرض الزراعي الصناعي عراقيين وأجانب ما أورده (أمين الريحاني) خطيب المعرض المذكور عند افتتاحه فقال يصف المشهد الرائع والحدث المهم في تاريخ النهضة العراقية: «وكان الناس محتشدين حول الساعة العظيمة - الأعظمية - التي صنعها أحد أبناء البلدة المشرفة باسم الإمام الأعظم وبحجرته لتعرض في معرض الزراعة والصناعة ببغداد، وكانت الساعة قائمة في باحة المعرض الكبرى فوق قاعدة عالية من الحديد، وهي تردد نبأ الزمان. والناس متلعون، والعيون منهم محدقة بهذا الأثر الصناعي العربي البغدادي الأعظمي، والكل معجبون به. هذه الساعة مفخرة المعرض، والله بل مفخرة للعراق. ومن ذا الذي يقول: إن العقل العربي عقيم لا يحسن الاختراع. إنها بيت القصيد في هذا المعرض. وقد قال احدهم: قد يكون صانعها من سلالة ذلك العربي الذي صنع الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى عاهل الفرنجة الإمبراطور شارلمان».

ساعتا المحطة العالمية

وجدير بالذكر في معرض هذا البحث أن نذكر ساعتي محطة السكك العالمية وقد نصبت هاتان الساعتان على برجين شامخين يرتفعان على واجهة الباب الشرقي من أبواب هذه المحطة التي أكمل بناؤها عام ١٩٥٥، وما أروع وأزهى منظر البرجين وهما يحتضنان القبة الزرقاء ذات الطابع الشرقي الإسلامي.

وقد علت كل برج منهما ساعة كبيرة ذات الوجه الواحد، فالساعة الجنوبية منهما تعلن عن الوقت بالتوقيت الغروبي (العربي) والساعة الشمالية تشير إلى الزمن بالتوقيت الزوالي (الإفرنجي). ■

مجلة أمانة العاصمة ١٩٧٩



العلامة الحنفي مع العلامة عبد الستار الحسني ـ بغداد.

شيء عن باب المعظم وما جاوره

✍ من أوراق الراحل الشيخ جلال الحنفي

ما مررت بمنطقة باب المعظم إلا تذكرت بغداد عبر سنين طويلة يوم كان الداخل إلى بغداد يمر بجامع الأزبك عن جهة اليمين الذي كان يقع عند مدخل الشارع فإنه سيرى على بابه شعراً قاله شاعر بغداد في الحقب الماضية صالح التميمي إذ قال من بعض ما قال:

إذا جئت للزوراء قف عند بابها تجد جامعا من غفلة الجهل مانعا

وكانت إلى جوار هذا الجامع تكية للأزبكية القادمين من أوزبكستان لهم فيها عرف ومأوى دائم وقد أزالوا هذه التكية بالمرة وشردوا ساكنيها وكنت إماماً وخطيباً في جامع الأزبك لمدة تنوف على العشر سنين وكانت أطيب أيام حياتي في هذا الجامع وقد أسست فيه جمعية الخدمات الدينية والاجتماعية وواصلت فيه إصدار مجلتي المسماة بمجلة الفتح..

إن هذا الجامع العظيم هدم تعسفاً ليبيت جامعاً صغيراً ليس فيه من المشتملات ما يجعله يلفت أنظار الداخلين فيه أو المارة من أمامه ولم تنتفع الأوقاف من هدمه.. كما كان هناك باب أثري يرجع إلى أواخر عهد العباسيين مررت منه يوم كنت صغيراً إذ أخذتنا إدارة مدرستي مع مدارس ابتدائية أخرى في أوائل العشرينات متجهين إلى البلاط الملكي ليستقبلنا الملك فيصل الأول ويستعرضنا أيامئذ إذ لم تكن في بغداد أية مدرسة إلا ما كان في بدء إنشائه منها ولا أتذكر أكنت في الصف الأول أم كنت في الصف الثاني ولا شيء من الصفوف بعد ذلك غير صفنا الأول والثاني..

وقابلنا الملك وكان واقفاً في مدخل البلاط ونحن نمر من أمامه إلى داخله وعدنا بعد المقابلة من ذات الطريق..

إن هذه البوابة الفخمة التي تدل على عظمة بانيها بيعت بمبلغ بسيط تافه يقل عن عشرة دنانير على ما فهمناه مما أورده الباحث عبد الحميد عبادة في كتاب له..

ولم يكن من الضروري أبداً هدم بوابة بغداد لا مرورياً ولا هندسياً إذ لم يكن القوم يعلمون أن الآثار القديمة هي مورد اقتصادي لأي بلد في هذا العصر..

وكانت في مدخل بغداد حوانيت ودكاكين لعدد من الباعة وقد كانت على ما شاهدت عدة دكاكين تقع في المنطقة وقد لبثت آمداً ثم هدمت فصارت بلقعاً.. وقد بنيت في باب المعظم مكتبة عالية فخمة جداً كنا نتردد عليها للمطالعة ولكنها بعد حين هدمت خطأ وتعسفاً بدعوى توسيع الطريق ولم يؤد هدمها إلى توسيع يريدونه...

ولم يكن هناك جسر بل كانت هناك مشرعة يقال لها شريعة المجيدية وبناء الجسر هنا مفيد وضروري على أن لبناء هذا الجسر قصة شبه مروعة هي إنهم عثروا هناك على آثار قديمة جداً إلا أن الدولة يومذاك طمرت هذه الآثار بلا رحمة استرضاء لرغبة الشركة اليابانية آنذاك..

وكانت القلعة العسكرية تحف بها جدران عالية وأسوار متينة مرتفعة وقد عدموها خلافاً للقانون الذي يحمي الآثار القديمة ووضعوا مكانها سياجاً حديدياً واطئاً لا يزال موجوداً وراحوا يمنعون السابلة من المرور قربها..

وكانت أمام الرائي عند دخول بغداد مبان بعضها قديم كمثل التكية الطالبانية التي عاش فيها وكان رئيسها الشيخ عبدالله الطالباني وأبناؤه رحمه الله أحد ضباط الجيش العراقي وحسن الطالباني الذي استوزر في بعض الفترات وعلى الطالباني الذي تولى بعض المناصب الإدارية..

ويرى الداخل بغداد عدداً من المقاهي على الجانب الأيمن من الشارع منها لأحمد كلك واسطة لطيف وآخرين ثم يرى مدرسة ابتدائية هي مدرسة المأمونية وكنت من طلاب قسمها المسائي ويرى الرائي في الواجهة جامع الميدان الذي يسمى جامع الأحمدية وأمامه مقهى البلدية وكانت مقهى كبيرة يجتمع وراءها باعة الحميس وباعة آخرون وكانت إلى جوار جامع الأحمدية سوق خاصة بالشكرجية زالت فيما بعد..

وكان للقلعة باب تقع في جهة الميدان تقع عندها قهوة السيد بكر وكنا اعتدنا الجلوس على مقاعدها.. هذه المعالم ومعالم أخرى كعدد من المساجد والمطابع والحوانيت لا وجود لها اليوم..

وعلى الجانب الأيسر من الشارع المسمى اليوم شارع الرشيد وكان يسمى عند أول افتتاحه عام ١٩١٨ بخليل باشا جاده سي أي شارع خليل باشا القائد العثماني..

وكانت على الجهة اليسرى قهوة الوقف وإلى جانب منها خان عمر وهو فندق كان الذين يراجعونه ليلاً ينامون على الأرض بلا فراش لقاء عشرة فلوس رأيت خلقاً منهم هناك

على هذه الحالة.. وإلى جوار التكية الطالبانية وبالتحديد بينها وبين جامع المرادية توجد فنادق أهلية..

إن هذه الجهة كانت ذات كثافة في السكان كثيفة جداً وفي الميدان كانت تقع سينما العراق كانت أول الأمر تعرض فيها الأفلام صامتة وتكتب بعض تفاصيل الأمر على الشاشة في ترجمة مستعجلة..

ولم تكن في بغداد أول أمرها مطاعم وكان بعض النساء يجلسن في منتصف السوق وبين أيديهن قدورهن التي يبعن فيها الرز والامراق إذ يجلس الأكلة على الأرض ليتناولوا طعامهم.. وكذلك كان يقع في نهاية باب المعظم وفي مقابلة جامع الأزبك في مدخل محلة الطوب مسجد يسمى مسد عمر أمامه السيد مصطفى آل قمر..

وفي جهة باب المعظم من نهر دجلة حتى باب الميدان امتداداً إلى الشمال كان هناك خندق بغداد القديم وقد أدركته وهو أخدود عريض وعميق وفيه شيء من الماء مع قاذورات كانت تلقى فيه ثم طمروه وبنوا بهو أمانة العاصمة وكانت تقام فيه حفلات الاستقبال الرسمية ومن ذلك حفلة استقبال ملك الأفغان محمد ظاهر شاه وقد حضرناها ولا يزال هذا الملك الأفغاني حيّاً حتى اليوم وقد أقيم عليه انقلاب أقامه أحد ذوي قرابته المدعو داود ،وقد استقبلنا الملك الأفغاني في مقر إقامته بقصر الزهور عندزيارته بغداد إذ كان ضيفاً على الملك غازي وكنا أربعة من رؤساء الجمعيات الإسلامية في بغداد وهم يومذاك الشيخ أمجد الزهاوي رئيس جمعية الإخوة الإسلامية والشيخ قاسم القيسي رئيس جمعية الهداية وكمال الدين الطائي معتمد جمعية الآداب الإسلامية أما أنا فكنت رئيساً لجمعية الخدمات الدينية والاجتماعية في العراق وجرى بيننا وبين الملك حديث حول باكستان التي تم إنشاؤها قريباً والبشتونستان الذين هم سكنة أفغانستان وهو حديث طويل..

وفي عام ١٩٣٥ عينت وكيلاً لخطيب المرادية مقابل وزارة الدفاع ومن يومذاك ألغيت التغني على المنابر يوم الجمعة في خطبة الجمعة وقد تعرضت بسبب ذلك لسخط عظيم وغضب شديد من جماعة من كانوا هناك من المصلين إذ كانوا يعتقدون أن التغني في خطبة الجمعة أمر من ثوابت الشريعة وفي الجمعة التالية حضر إلى بغداد من الموصل عالمها المعروف الشيخ بشير الصقال فنطت به خطبة تلك الجمعة وهو شيخ ذو عمة ولحية ظاهرة تكاد تغطي صدره فلما خطب لم يلجأ إلى التغني وإنما ألقى

خطبته مرسلة دون غناء وعلمت الناس ان تصريفي في حذف الغناء عند الخطبة كان صحيحاً..

وبنوا إلى جوار جامع الأزبك في باب المعظم قاعة كبيرة واسعة سموها قاعة الملك فيصل الثاني ثم سميت بقاعة الشعب.

وفي الوقت الحاضر اتخذوا من مستشفى المجانين ومن سجن بغداد المركزي اللذين كانا في باب المعظم ما يسمى اليوم بوزارة الصحة..

وقد وصل الماء عند فيضان نهر دجلة قبل الثلاثين الذي يسمى بالكسرة إلى باب المعظم وشاهدت ذلك بعيني وأنا صغير..

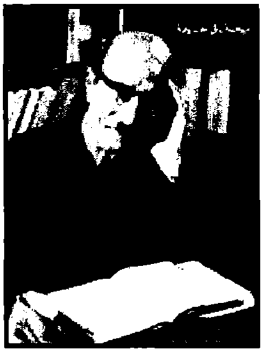
وكان يقع في باب المعظم مستشفى المجانين الذين كانت تسمع أصواتهم عبر أسوار المستشفى كما كانت تقع هناك مستشفى المجيدية التي كانت قبل ذلك قصراً أصدر السلطان العثماني محمود خان أمره لوالي بغداد مدحت باشا ببنائه لسكني الشاه الإيراني ناصر الدين شاه ومن معه عند مروره ببغداد إلى فرنسا للعلاج ومن يومذاك عرف أهل بغداد شرب الشاي، وقد جاء مع الشاه إلى بغداد ما يقرب من ألف مرافق وكان القصر المذكور يسعهم بخيولهم وقد شاهدت القصر وشاهدت بابه قبل هدمه..

وكانت هناك حوانيت للعلافين الذين يبيعون التبن والشعير للناس وللجيش خاصة إذ تقوم هذه الحوانيت أمام القلعة.

والكلام على المواقع البغدادية كلام يطول وله أجنحة وذيول وتلك الأيام نداولها بين الناس..

(المعروف أن باكستان أسست سنة ١٩٤٧ ولعل الشيخ الحنفي التقى الملك محمد ظاهر شاه سنة ١٩٥٠ حين زيارته بغداد).

❖ ❖ ❖



ميخائيل نعيمة: بغداد تبعث من جديد

قراء العربية جميعاً يعرفون من هو الأستاذ ميخائيل نعيمة، إنه علم من أعلام الأدب العربي الحديث، وشاعر من شعراء العربية المجددين، إنه البقية الباقية من أساطين الشعر والبيان في الجيل الماضي، فهو صنو جبران خليل جبران وإيليا ابو ماضي، وهو معاصر لمعروف الرصافي وأحمد شوقي وعلي الجارم.. وقد كان الأستاذ نعيمة أحد ضيوف مهرجان بغداد - الكندي عام ١٩٦٢.

حيث ظهر في ندوة تلفزيونية، قدمه السيد جميل الجبوري بقوله: "إن الأستاذ ميخائيل نعيمة أديب عرفه الشرق إنساناً مفكراً.. فلسف الأدب وأدب الفلسفة، هذا الأستاذ الذي أعطى للفكر العربي الخلاق نتاجات رائعة، وصور بالكلمة الشاعرة همسات النفوس وفيض الوجدان والخواطر الجميلة".

وفيما يلي بعض ما دار في هذه الندوة التاريخية:

أهلا بكم سيادة الأستاذ في محطة التلفزيون.. حبذا لو تفضلتم بالحديث إلى مشاهدينا عن انطباعاتكم وما تركته هذه الزيارة القصيرة التي نرجو أن تكون أطول بالمستقبل في نفسكم بهذه المناسبة وما انطبع في نفسكم عن احتفالات بغداد والكندي:

.. تعود الناس.. أكثر الناس.. على أن يردوا الأحداث والأمور إلى أسبابها القريبة.. وإني في هذه المناسبة لو شئت إن أرد الفضل في زيارتي لبغداد التي هي زيارتي الأولى لقلت إن الفضل يعود إلى لجنة الاحتفالات.. أما في الواقع فالفضل يعود إلى المنصور الذي أسس بغداد، وإلى الكندي الذي رفع اسم بغداد بما أبقاه لنا من فلسفة ومن أعمال عظيمة، وليس المهم ها هنا أن أرد الفضل إلى أصحابه فأصحاب الفضل كثرة، والمهم إني وجدت نفسي لأول مرة على هذه الأرض الخيرة التي هي أرض العراق وبين أخوة غمروني بفضلهم وبعطفهم وبلطفهم وبكرمهم.. فوجدتني وكأنني في دنيا من السحر.. بغداد القديمة قرأت عنها الشيء الكثير، والكندي إن لم أكن طالعت شيئاً من مؤلفاته فقد سمعت عنه كذلك.. إلا أن الذي استرعى انتباهي بالدرجة الأولى وأفعم صدري بالفرح هو أن بغداد التي وقعت في أيدي المغول سنة ١٢٥٨ وبقيت تتقهقر عاماً بعد عام إلى أن كان عام ١٩٥٨ وإذا ببغداد تنفض غبار الأجيال عنها وتنهض من كبوتها وتمضي تجدد مجداً غير المجد الذي كان لها في أيام الخلفاء

العباسيين ذلك مجد لم يخل من الظلم ولم يخل من التعسف ولم يخل من الأثرة ذلك مجد قام على أكتاف قلة.. أما الآن فهو مجد يقوم به الشعب.. يقوم به أهل العراق... وهذه المدينة التي أبصرتها في الأيام القليلة من وجودي ها هنا إنها كالطائر الأسطوري الذي يموت ثم يعود من جديد.. إن بغداد الجديدة تبعث حية.. إن بغداد الجديدة لا تخشى أن تهدم إذ هي تبني.. وهناك الشعوب التي لا تعرف قيمة الهدم ولأنها لا تعرف قيمة الهدم لا تعرف قيمة البناء. بغداد نامت سبعة قرون ولكنها لم تندثر، واليوم كما تعرف كانت لنا نزهة جميلة جداً إلى الحلة حيث آثار بابل القديمة.. بابل نامت ولا تزال نائمة.. بابل اندثرت ولن تقوم.. أما بغداد فنامت وهي اليوم في وثبة عظيمة هائلة.. وأود لهذه الوثبة أن لا تقف عند حد.. أود لهذا البناء أن لا يقف عند حد.. أود للقديم البالي ان يندثر.. وأود للجديد النشيط أن يندفع في طريقه إلى الأمام...

ومما أسعدني كذلك أن أجد هنا أصدقاء كثيرين لم أكن أعرف عنهم شيئاً ولكنهم كما يبدو كانوا يعرفون الشيء الكثير عن ميخائيل نعيمة.. وليس ألذ لقلب كاتب من أن يلتقي بقرائه وجهاً لوجه.. ليس ألذ من أن تقع العين على العين وأن ينطلق من القلب ما يجد طريقه لا إلى الأذن فقط، بل إلى القلب مباشرة.. وأظن أن لقاءاتي مع بعض ها هنا ولم التق منهم إلا العدد اليسير كانت من هذا النوع من اللقاءات.. لقد كانت لقاءات قلوب.. لقاءات أرواح.. وأرجو أن تستمر هذه اللقاءات في المستقبل...

شكراً يا أستاذ لهذه العواطف الكريمة ونحن نرجو أن نكون وتكون بغداد دائماً عند حسن ظنكم..

سيادة الأستاذ قرأ لكم القارئ العراقي الأديب والمتأدب في كثير مما انتجتموه.. همس الجفون، والغربال، والاب والنيون، ومذكرات الاورفشومرداد، وكرم على درب، وفي مهب الريح، وفي دروب، ولا أستطيع للأسف الشديد أن أحصي كل ما كتبتم.. ترى هل لكم أن تحدثوا المشاهد الكريم ما هي نشأتكم الأدبية؟ أو على الأقل أضواء على هذه النشأة الأدبية الرائعة..

أحسنت إذ قلت أن أطرح بعض الأضواء عليها.. إما أن أستطيع تحليلها وأين بدات وكيف بدأت فهذا فوق طاقتي.. وأظن فوق طاقة أي أديب أو أي إنسان .. وجل ما أستطيع قوله بهذه المناسبة هو أنني ما إن بدأت أقرأ حتى بدأت أتذوق الكلمة.. فكان للكلمة ضرب من السحر عندي.. وما إن أتقنت شيئاً من النحو وأصبحت لي قدرة أن أنسج العبارات ثم أزاوج العبارات حتى بدأت أشعر وكأني ملتصق بالكلمة كما يلتصق الجنين بالرحم.. فلا انفصال بينهما على الإطلاق.. وهذا الحب للكلمة بدأ يسوقني عن غير وعي مني في البداية إلى أن أخذت أتعرف على بعض الأدباء وبعض الكتاب من خلال مؤلفاتهم.. وأنا لا أزال تلميذاً في دار المعلمين الروسية في الناصرة.. هنالك كان للحظ أن أقرأ الشعر وأن أحفظ الكثير من الشعر، درسنا المتنبي

والبحتري وأبا تمام ودرسنا الشعر الجاهلي، وفي الحال حيثما وقعت على بيت جميل كان يغريني أن أنظم مثله .. كان يقربني أن أنسق الصدور والإعجاز وأن تتكون لدي قصيدة.. ذلك بالطبع كان ميل شاب لا يزال في سن المراهقة.. عندما كنت في دار المعلمين في الناصرة كنت بين الثانية عشر والسادسة عشر ومن بعد الناصرة انطلقت إلى روسيا.. حيث أتقنت اللغة الروسية كاملها وهنا انفتحت أمامي آفاق واسعة.. آفاق الأدب الروسي الذي هو باعتراف أكبر نقاد العالم في قمة الآداب العالمية عندما اطلعت على هذا الأدب الجميل الواسع الغني الزاخر ولدت في رغبة هائلة في أن أنظم الشعر كما ينظمه الروسي، أن أكتب القصة كما يكتبه الروسي.. وهكذا بدأت أنظم الشعر باللغة الروسية.. وكانت من أولى القصائد التي نظمتها باللغة الروسية قصيدتي التي ترجمتها فيما بعد إلى اللغة العربية.. قصيدة النهر المتجمد.. أذكر أني نظمت هذه القصيدة بمناسبة مكوثي شتاء كاملاً في قرية من قرى الولاية التي أدرس فيها وهذه القرية كانت قائمة على ضفاف نهر يدعى نهر "سوللا".. وتعرفون أن في روسيا البرد فارس والشتاء طويل وهذا النهر كان يتجمد في الشتاء بحيث يصبح في استطاعة عربات الخيل والرجال والنساء.. الخ.. أن يمروا على الجليد كما تمر الآن على الاسفلت، واتفق لي أن قطعت ذلك النهر ذهاباً وإياباً عدة مرات على الجليد: فاستوقفتني هذه الفكرة إن هذا النهر أمس كان يجري .. أمس كان يغني.. أمس كان ينشد.. والآن تجمد فلا تسمع له صوتاً ولا تبصر له وجهاً إلا هذه الصفحة من الجليد التي تغطي وجهه.. فنظمت هذه القصيدة باللغة الروسية.. وختمتها بخطاب أوجهه إلى الشعب الروسي ذاته.

ولا بأس إذا أنا ذكرت هذا الأمر لأبين لك شعوري عندما كنت شاباً.. شعور الألم الذي كنت أعانيه لمجرد نظري إلى شعب مظلوم.. الشعب الروسي كان يعاني من الآلام ما لا يطاق.. شعب لم يكن له أي حقوق وفي الأخص الفلاحين والعمال.. وهذا الشعور تولد عندي إنه من الحرام لهذا الشعب الذي يتعب والذي يكدح.. أن يعيش عيشة زرية كالعيش الذي كان يعيشه في روسيا. لذلك ختمت قصيدتي في خطاب إلى روسيا بل ما أختمه بالعربية غيرت النهاية وأنهيت القصيدة بخطاب أوجهه إلى قلبي.. وكنت في خطابي للروس أقول: لا بد أن الربيع سيأتي للنهر وسينفك النهر من عقالاته ويعود فيكر إلى البحر.. الخ.. فيغني .. أما أنت يا روسيا متى يأتيك الربيع؟ متى تبصرين شيئاً من الانفراج؟ .. متى تبتسمين؟.. متى تزهر أيامك؟ متى يتفوق الشعب البسيط الفقير هنا شيئاً مما يمكن أن تدعوه السعادة؟..

ثم أجيب عن روسيا وروسيا لا تجيبني.. أقول لها أنت لا تجيبيني يا روسيا.. نامي يا حبيبتي.. أما بالعربية فأختتم القصيدة بخطاب أوجهه إلى قلبي فأقول: إن قلبي غدا كالنهر.. النهر سينفك من عقاله أما قلبي فلا...

مع الشكر الجزيل أستاذ.. على ذكر قصيدة النهر المتجمد.. نذكر أخي.. ونذكر همس الجفون، ونذكر الروائع الأخرى.. بدأتم شاعراً ناقداً.. ترى لم تركتم الشعر والنقد إلى القصة والمقالة؟

بدأت كما ذكرت بالشعر.. ثم انتقلت إلى النقد بعد أن انتقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. وكانت الظروف دفعتني إلى الكتابة لأني انقطعت عن العالم العربي بتاتاً عندما كنت في روسيا.. وإذا بمجلة تأتيني من صديق قديم لي ورفيق في الناصرة اسمه "نسيب عريضة" عندما اتصل بي تذكر رفيقه القديم في الناصرة وقال هات أبعث لنا بمقال وكان أن صدر في ذلك الزمان أظن كتاب جبران "الأجنحة المنكسرة".. طلب إلي رأي.. قرأت عن الأجنحة المنكسرة تقاريض عديدة في الصحف العربية في المهجر في ذلك الزمان..

أنا كنت بعيداً عن نيويورك.. كنت في الطرف الغربي من الولايات المتحدة.. وجبران كان في نيويورك في الطرف الشرقي.. ولم أكن أعرف جبران في ذلك الوقت وجبران لم يكن يعرف عني شيئاً.. قرأت كتاب جبران (الأجنحة المتكسرة) وقارنته بالأدب كما فهمته في روسيا.. فوجدته بعيداً جداً عن المستوى الذي كنت قد أدركته أنا بذهني وقلبي.. إنه محاولة رومانطيقية فيها كثير من الوصف وفيها الكثير من التفجع ولكن لا يمكن أن تدعوه قصة أو رواية، إنه شيء من الشعر.. لذلك كتبت أول مقال نقدي كان عن الأجنحة المتكسرة لجبران. عندما بلغ المقال نيويورك واطلع عليه جبران ضرب كفا بكف وقال لنسيب عريضة: أين كان هذا الرجل ميخائيل نعيمة؟.. لماذا لم نسمع به قبل الآن؟ .. هذا يعرف كيف يكتب.. هذا يعرف كيف ينقد..

وذلك كان بدء حياتي النقدية.. حياتي في النقد، وأخذت أبدع في النقد لأنه كان من الضروري أن أشق لي طريقاً.. لأعطي أدباً جديداً.. الأدب التقليدي.. في العالم العربي في ذلك الوقت.. كان أدباً باهتاً جامداً لا حياة فيه ولا صلة بينه وبين الحياة التي يحياها الناس.. لذلك كان من دوافعي الأولى أن أمهد الطريق أن أقتطع تلك الأشواك وأن أفتت تلك الصخور التي كانت تملأ الطريق وأدل الناس على نهجي الجديد أدل الناس على أدب حقيقي كما فهمته أنا.. ولذلك انطلقت في النقد.. وكانت مهمتي الأولى كما قلت أن أدل العالم على الأدب الحي على المعنى الجديد للأدب، وعندما انتهيت من هذه المهمة بنهاية كتاب "الغربال" شعرت أن العالم العربي أخذ يتذوق الأدب بطريقة جديدة.. ولذلك تركت المجال لغيري، أما أنا فانصرفت في الطريق الآخر.. انصرفت في طريق التفكير الجدي في الحياة وأعماقها ومعانيها إلى ما هنالك.

ثم استمر الأستاذ ميخائيل نعيمة يجيب على الأسئلة إجابة واضحة رقيقة بعبارات شيقة يفيض من خلالها عبير الذكريات العطرة ذكريات حياة أدبية حافلة بكل ألوان الأدب الرفيع..

مجلة الإذاعة والتلفزيون ١٩٦٢

وصف بغداد سنة ١٩١٧

✍ إميل أوبليه

إميل أوبليه، مهندس، كان يعمل مستشاراً للتجارة الخارجية الفرنسية، إبان الحرب العالمية الاولى. وقد زار بغداد في ذلك الحين، ووضع كتاباً قيماً عنها سماه بغداد: سكة حديدها، أهميتها، مستقبلها. وقد صدر الكتاب سنة ١٩١٧، مع مقدمة بقلم السياسي الفرنسي، ادورهريو، الذي كان، يومئذ، وزيراً للأشغال العامة. وفي الكتاب وصف طريف لبغداد في ذلك العهد نقتطف منه اهم ما جاء فيه.

صورة من الماضي

لم تعد هذه المدينة، بغدد قصة ألف ليلة وليلة، كما أنها لم تعد تلك المدينة الساطعة، الرائعة، قصر الخلفاء، اذ لم يبق من هذا كله في الواقع، سوى صورة شاحبة للماضي، لقد جاءها الأتراك فاستقروا فيها، ويوشك أصدقاؤنا الروس والإنكليز أن يخرجوهم منها.

وهي في عدد السكان، تأتي بعد مدينتي إزمير ودمشق، بين مدن تركيا الآسيوية، وجوهاً أحر من القاهرة، ولكنه خال من الرطوبة، ومساحتها ثمانية كيلومترات مربعة فطولها أربعة كيلومترات، وعرضها كيلومتران.

وهذه المدينة غير العادية، لو كانت بأيد أخرى، لصارت أعجوبة الإمبراطورية العثمانية في الغنى، فنهر دجلة يداعبها على طول امتدادها، ويقسمها إلى قسمين غير متساويين، فيترك خمس عرضها على الشاطئ الأيمن، وأربعة أخماسه على الشاطئ الأيسر. والأول يدعى "الكرخ" والثاني يدعى "الرصافة".

والوصول إلى بغداد عن طريق النهر، سواء كان ذلك من الشمال أو الجنوب، غاية في الجمال. فهذا النهر الواسع، يقطعه جسر عائم، قائم فوق "الدوبات" ويبلغ طوله خمسين متراً، وتنتشر فوق النهر القوارب، والقفف الكبيرة، التي يتنقل فيها الناس: وتحف به أبنية هي في الغالب، غاية في الاناقة؛ وجدران للتدعيم؛ وبساتين للنخيل، والبرتقال، وأشجار من كل نوع.

ولا يوجد رصيف على ضفتيه، بل كل ساكن على النهر له سلمه الموصل إلى منزله، او رصيفه الخاص به، وهناك طرق عدة، تصعد فوق منحدرات، إلى ضفتي هذا النهر الرائع.

ولم تعد بغداد العاصمة الشهيرة، التي يؤكد المؤرخون أنها كانت تضم مليوناً ونصف المليون من السكان، فهي حالياً، لا يقطن فيها سوى ١٩٨٠٠٠ نسمة، والمساحة المزروعة من الأرض، قليلاً أو كثيراً، تمتد بين المدينة الحالية، والسور المتبقي من القرن الثالث عشر، وقد هدم مدحت باشا هذا السور، منذ خمسين سنة، ليحصل على المواد الضرورية لمشاريعه العمرانية الكبرى.

ويمكن القول، تقريباً، أنه لم يبق فيها شيء من القصور الفخمة، والجوامع الرائعة، القديمة، كذلك إن غزو الفرس لها، سنة ١٦٢٣، قد جلب على ذلك كله الخراب والدمار.

والكرخ، حيث كان يوجد في السابق، قصور الخلفاء والبنايات الفخمة، هو اليوم في حالة خراب. وفيه ثلاثون ألفاً من الفقراء الذين يعملون في الزراعة، وسياقة الجمال، والحياكة، والحمالة، ولم يبق فيه من الآثار القديمة، سوى قبر الأميرة زبيدة، زوجة هارون الرشيد، وضريح النبي يوشع، والشيخ معروف الكرخي، وجامع الشيخ صندل.

مستشفى الأجانب

ومن الإنشاءات الحديثة في هذا الجانب. مستشفى الاجانب، وبقايا مصانع الحدادة من عهد مدحت باشا، وهي توشك أن تستسلم للبلى. وهناك، كذلك، أول سكة حديد، أنشأها ذلك الوالي المتنور أيضاً، وهي تربط بين بغداد والكاظمية، ويبلغ طولها اثني عشر كيلومتراً.

جسران من خشب

ويصل بين جانبي المدينة جسران، الأول قديم جداً في وسط بغداد، والثاني في أعلى النهر بالقرب من باب المعظم، وهما مصنوعان من الخشب والقير وسلاسل الحديد، ولا يكادان يقاومان تيار النهر، ويستلزمان التصليح بصورة مستمرة. والعبور عليهما يخضع لرسم المرور. وهذا يعطي "باللزمة" كل سنة عن طريق المزايدة. والجسر القديم الذي في وسط المدينة، يدر دخلا قدره ٦٤٠٠٠ فرنك في السنة، أما الآخر حيث يقل عليه العبور، فلا يدر أكثر من ٢٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ فرنك.

ويمكن تقدير سكان بغدا بـ ١٩٨٠٠٠ نسمة، يسكن ٣٧٠٠٠ منهم على الجانب الأيمن و١٦١٠٠٠ على الجانب الايسر .

وهذه الأرقام ليست دقيقة، إذ لا يوجد هناك أي إحصاء رسمي، وإنما هي أحسن التقديرات المستمدة من أشخاص من مختصين في الولاية.

وسكان بغداد يتخذون، بصورة عامة، الزي العربي، فالرجال يرتدون "الزبون" وفوقه العباءة، ويضعون على رؤوسهم الطربوش، إما مع العمامة أو بدونها او "الكوفية"

مع "العقار" المصنوع من وبر الجمال، أما النساء فيرتدين في بيوتهن ثياباً بسيطة للغاية، مفتوحة الصدر حتى النهدين، اللذين يغطيان بنوع من "الصدرية" مصنوعة من "الكريشة" وهن لا يخرجن إلى الطريق سافرات، بل يضعن عليهن "الازرار" الذي يشبه العباءة، وعلى وجههن غطاء قصير يبرز إلى الأمام، يسمى "بيجة" وهو مصنوع إما من شعر الخيل، أو من قماش رقيق يدعى "يازمة" أو "منديل". أما اللواتي لا يتخذن الأزرار، فيتغطين بعباءتين، ويضعن على وجههن برقعاً خفيفاً.

ونساء بغداد، أسوة بغيرهن في أنحاء الإمبراطورية، يستخدمن الكحل لتجميل الأجفان والأهداب، و"الحناء" لصبغ الشعر، واليدين، والقدمين. أما حليهن، فهن يسرفن في حملها، وتنقصها الرقة واللطافة، وهي تتألف من الخواتم، والأسورة، والأقراط، و"الخزامة" وهذه الأخيرة حلقة توضع في أسفل الأنف، ولا يتزين بها إلا بعض المسلمات، اللواتي ثقب أنفهن لهذا الغرض، كما تثقب الأذن لوضع الأقراط. وهن يضعن في أرجلهن، فوق الكعب، حلقة سميكة من الذهب أو الفضة، يقال لها الخلخال.

وشاعت العطور

ومنذ سنين قليلة، بدأ المسيحيون يتخذون اللباس الأوروبي، كما بدأ يرتديه عدد كبير من سائر الرجال. واستخدام "الحمرة" والعطور شائع جداً بين النساء اللواتي على شيء من اليسار. أما النساء الفقيرات فيستخدمن عطراً قوي الرائحة، يستخرج من نبات يدعى "خضيرة". وفي موسم الورود، يشيع بين النساء في بغداد وضع الورد في الرأس، وهو نوع من الغنج والدلال، تتميز به هذه المدينة. والأماكن التاريخية على الجانب الأيسر، أكثر منها على الجانب الأيمن.

ونذكر بصورة خاصة القلعة. وهي كائنة لدى جدران قديمة، كانت في السابق تكون سور المدينة. ويرى المرء، هناك أيضاً آثار السجن القديم.

وفي هذه القلعة، توجد مجموعة من المواقع القديمة، أكثرها مصنوع من البرونز. كما توجد أسلحة أثرية، وسيوف في غاية الجمال، بيد أنها معروضة بشكل يفتقر إلى التنظيم، حسب العادة العثمانية.

طوب أبو خزامة

وأضخم المدافع الموجودة في القلعة، مدفع يدعى "أبو خزامة"، وهو مستقر بالقرب من بابها، على منصة مبنية، تحيط به سلاسل ضخمة، ويوجد أمامه هرم صغير من الكرات الحديدية. ويعتقد الناس أن هذا المدفع، قد ساهم، كثيراً، في حماية بغداد، ولذا، فهو

موضع تمجيد بين النساء، حيث يدرن بمواليدهن حوله، ثم يقربنهم من فوته، حماية لهم من الأمراض. أما العاقرات، فهن يضرعن إليه لكي يشفيهن. وبعض النساء يشعلن من حوله الشموع ويعقدن بسلاسله أشرطة من القماش، علامة النذر.

ومن أقدم الجوامع، جامع مرجان، والخان الذي يحمل نفس هذا الاسم يوازيه في القدم. ثم يأتي بين الأماكن الأثرية باب الطلسم، الذي خرج منه السلطان مراد، بعد أن خلص بغداد من أيدي الفرس، وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي بناه السلطان سليمان، وجامع سوق الغزل بمنارته الخاصة، وجامع السيد سلطان علي، وجامع الشيخ عمر، وجامع كنجة عثمان، وجامع العيدروسي.

وهذه الجوامع تضم من السجاد الإيراني الثمين، ما لا يمكن إعطاء ولو فكرة بسيطة عنه، لو أمكن عرض مثل هذا السجاد، في واجهات بعض المخازن، أو عرض في داخلها، بمدينة ليون الفرنسية.

وقد ذكر لي في بغداد، خبير نرويجي في السجاد، أن هذه الجوامع تحتوي على ما قيمته أكثر من مليوني فرنك، من أجمل السجاد، وأنه يمكن بيعه إلى الهواة بأكثر من خمسة ملايين فرنك.

وفي منطقة الكاظمية، يوجد الصحن الكاظمي الذي يضم ضريح الإمام موسى الكاظم، وهو مزار فخم للمسلمين، ينطوي على ثروة عظيمة، وله موارد من الهبات، تتجاوز أربعين ألف ليرة تركية في السنة.

أما منطقة الاعظمية، المواجهة للكاظمية، ففيها جامع هام من الناحية المعمارية؛ وفيه ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة، الفقيه الشهير من عصر هارون الرشيد.

والجاليات الأجنبية في بغداد، قليلة العدد، ولكنها تميل إلى التزايد، منذ عدة سنين، فهناك الجالية الإنكليزية، والجالية الألمانية، التي عظم شأنها بعد إنشاء سكة حديد بغداد. أما الجالية الفرنسية، فلا تتعدى خمسين شخصاً، بما فيهم أعضاء المؤسسات الدينية.

ولكل من انكلترا وروسيا قنصل عام في بغداد. أما فرنسا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، والدانمارك، والولايات المتحدة، واسبانيا، وألمانيا، فيمثلها قناصل أو وكالات قنصلية. وأقدم قنصلية في بغداد هي القنصلية الفرنسية، إذ يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة ١٧٤٢. ففي ذلك رسم الأب عمانوئيل مؤسس البعثة الكرملية في بغداد، مطراناً لبابل؛ وفي أثناء مقابلته للملك لويس الرابع عشر، بهذه المناسبة، منحه لقب قنصل فرنسا في بغداد، ومن بعده حمل هذا اللقب عدة مطارنة آخرين .

قنصليات بغداد

وقد حدثنا عدد من وجهاء بغداد، في مناسبات كثيرة، عن المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها القنصل الفرنسي بين زملائه؛ وعن نفوذه العظيم لدى السلطات الحكومية، وبين السكان.

ولكن هذا الوضع قد تغير منذ مدة. ففي أيامنا هذه، إن أهمية ونفوذ القنصلية الفرنسية، هما أبعد من أن يجاريا أهمية ونفوذ ممثلي إنكلترا، وروسيا، وألمانيا.

وفي سنة ١٨٠٣، أسست قنصلية عامة إنكليزية في بغداد، وقنصلية في البصرة، ومما يلاحظ، أن قنصل إنكلترا العام في بغداد، يحمل في نفس الوقت لقب "مقيم"، ومعتمد حكومة الهند. وهذه القنصلية العامة تتمتع بامتيازات خاصة وهامة، لا وجود لمثلها، في الولايات الأخرى للإمبراطورية.

فهي تستخدم اثني عشر حارساً مسلحاً، في حين أن عدد هؤلاء في القنصليات العامة الاخرى، لا يزيد على أربعة. وما هو اهم من ذلك، احتفاظ هذه القنصلية العامة، بقوة مسلحة عدد أفرادها ستون جندياً يرأسهم ضابط، وتقيم في ثكنة إلى جانب القنصلية. وإلى تاريخ قريب، كان هؤلاء الجنود، بصفة عامة من الجيش الهندي،ولكن على أثر حوادث معينة، استبدل هؤلاء بجنود إنكليز، يتلقون الأوامر من القنصل العام. وفضلاً عن ذلك كله، يوجد تحت تصرف هذا القنصل، سفينة حربية صغيرة، ترسو أمام محل إقامته، وتخضع كذلك لأوامره. وفي سنة ١٨٨٩ أثار وجود هذه القوة فوق إقليم عثماني، جدالاً بين الباب العالي وإنكلترا، وكان أول من اعترض على وجودها، الوالي مصطفى عاصم باشا؛ فقد دهش عند وصوله إلى بغداد، إذ رأى هذا الوضع الشاذ، فشاء أن يناقش القنصل الإنكليزي العام حول حق الحكومة الانكليزية، في الاحتفاظ بمثل هذه القوة العسكرية، فوق الأراضي العثمانية. ولكن القنصل رفض المناقشة، وأجاب بأن هذا الوضع مستمر منذ نصف قرن، فهو قديم ومن قبيل الأمر الواقع، ولم تعترض عليه، أية حكومة محلية. فرفع الأمر إلى الباب العالي، فجاءته التعليمات بأن يحترم الحالة الراهنة "حتى صدور أمر جديد". وهذه صفة إدارية يألفها الموظفون العثمانيون، ويدركون معناها حق الإدراك. وليس من حاجة إلى القول، إن هذا "الأمر الجديد" لم يأت على الإطلاق.

❖ ❖ ❖

ذكريات جندي بريطاني لبغداد عـــام ١٩١٦

تؤدي سنة أو سنتان من الحرب إلى تبلد حاسية المرء عن الانطباعات فما إن دخلنا بغداد حتى ارتدت أفكارنا القهقرى عبر دورة التاريخ الغابر إلى نبوخذ نصر والإسكندر وكورش وجوليان وكسرى وهارون الرشيد.

أما الآن فإن مود قائدنا ذو الابتسامة الهادئة غدا هو الآخر من الخالدين لقد بوأه الأسلوب وبعد النظر والعزم محرابه في معبد الشهرة ذلك لأن أعظم مدينة أسطورية في العالم قد فتحت أبوابها أمام الدقة المتجسدة. لقد فر الألمان نحو الشمال وتوارت الاشباح وتحولت الأساطير إلى واقع لقد حاول (العصمانلي) عبثاً في اليوم الذي مضى أن يدمر باب الطلسم وهو الباب الذي دخل منه مراد الفاتح وأغلقه من ورائه كي لا يتعقب الآخرون خطواته نحو النصر. ويبدو أنه لم تكن هنالك معونة روحية أو خرافية بل حتى نفحة من آلهة المناسبات قد انبعثت بنجاح من جانب الأتراك أو البريطانيين في هذه الحرب فعلى طول المسيرة منذ اليوم الأول الذي نزلنا فيه إلى الفاو كان العلم عنيداً لا يرحم وكانت قوانين السبب والواقع صارمة جداً فكانت كل غلطة يعاقب عليها وكان كل اهتمام يتمسك به.

كانت أصغر ثغرة أحدثناها خلال شهور في الجدار الحديدي لدفاع الأتراك نتيجة عدد لا يحصى من ضربات المطارق وحماسة وتيقظ لا يكلان كما كانت أيضاً نتيجة قرار يقضي بعدم التخفيف من الأوضاع المحزنة.

كنا نوطد اتصالاً تذكارياً بعملية استمرار التاريخ عندما دخلنا مدينة بغداد غير أن اصعب شيء في العالم هو أن تشرك بين ما هو اعتيادي وما هو عظيم ذلك أن الخيال يحلق قبل الإلهام.

كان دخولنا إلى بغداد أكثر من أمر اعتيادي ويسير وغير رسمي كنا أربعة رجال عقيد وملازم من الكتيبة الملكية وضابط مدفعي وأنا نفسي وقد نزلت من طراد لأنني رأيت أن يكون الجيش هو البادئ بالدخول.

كنا نتقدم على ظهور الخيل ضمن الرتل الذي كان يزحف عبر البساتين قبل أسبوع. كانت تلك هي مسيرة اليوم المعتادة لرتل كان يتقدم أربعة فأربعة للكشف عن موضع جديد وعن الحراس المنتشرين هناك حين أخذت البساتين المسورة عالياً توصلنا ـ ونحن نقترب من المدينة إلى الطريق. لم نكن متأكدين ما إذا كنا نحن ذاهبين لمقاتلة الأتراك الذين قد

انسحبوا من موقع تل محمد قبل ليلة وراحوا يقاتلون على امتداد الطريق من كل حفرة لا أسماء لها ما بين شيخ سعد وشمران لذلك كان من العسير علينا أن نعتقد بأن الأتراك سيخلون مدينة الخلفاء دون أن ينصبوا لنا آخر فخ هناك.

والواقع أن فوجين من لوائي الخيالة العاشر والثاني والثلاثين هما اللذان سبق لهما دخول المدينة في حين وصلت الفرقة السابعة واللواء الخامس والثلاثون إلى الضفة اليمنى من نهر دجلة عند انبلاج الفجر وراحت تنتظر القوارب لعبور النهر.

كنا آنذاك نتحدث عن أمر بعيد جداً عنا أظنه الجبهة حينما أشار آمرنا العقيد إلى أشخاص برزوا من بين لجة الغبار فجأة فهتف صائحاً وحق جوبتر أن هؤلاء الرفاق قد جلبوا لنا مفاتيح القلعة!.

لقد شاهدنا ثلاثة رجال يرتدون ملابس سود وهم يتقدمون على امتداد الطريق غير المعبد بين البساتين المسورة وقد كانوا ـ على أكثر احتمال ـ من أهالي بغداد الذين وثقوا كل الثقة بأن الأتراك قد هربوا.

ولقد كان من الشجاعة أن يرحب امرؤ ما وهو تحت حكم الأتراك بالعدو عند إحدى البوابات بعد ساعات قلائل عقب الملحمة الضارية التي كانت تدور عند البوابة الأخرى ولا حاجة إلى القول أن ذلك الترحيب لم يكن رسمياً وما أن اقترب أولئك الثلاثة منا حتى راحوا يلوحون لنا بطرابيشهم الحمر وينادوننا قائلين صباح الخير كيف حالكم؟ لقد كان مثل هذا الترحيب المألوف الذي ينم عن العزم والثقة أمراً غير متوقع.

وإذا واصلنا مسيرنا انضمت جماعات أخرى من الناس إلى أولئك الرجال الثلاثة فراحوا يكررون لنا ذات التحية ثم ما لبثوا أن شرعوا يهتفون.

كانت هناك فتيات وربات بيوت جميلات غير محجبات أدى حضورهن إلى إزباك أولئك الرجال الذين لم يشاهدوا خلال سنوات امرأة سافرة سوى النسوة المتلفعات بالسواد وهن يملأن جرارهن على ضفاف دجلة!

استقرينا وسط غبار متحرك كنا وسخين لم نغتسل ولم نحلق ولم نطعم شيئاً ما وهكذا فإننا في الواقع لم نكن نؤلف موكباً مثيراً يدخل المدينة دخولاً تاريخياً! وصلنا بامتداد طريق لا اسم له إلى سدة متهدمة تقوم عندها أنقاض البوابة الجنوبية وقد استدرنا نحو الشمال فوجدنا أنفسنا عند النهر حيث تقوم أولى البيوت الكبيرة على ضفة النهر لتؤلف البداية الوعرة للمدينة. تجمع هناك حشد كبير من الناس للترحيب بالبريطانيين كان المحتشدون يصفقون ويهتفون وكان العسكري الذي كان يعتبر كل شخص يرتدي الطربوش واحداً من الأتراك لا يشعر إلا بالقليل من الزهو والكبرياء ولكن تلك لم تكن ظاهرة مبعثها النفاق!

اتجهت رأساً إلى القنصلية التركية لم يكن القنصل موجوداً غير أن أحد المترجمين الأمريكان قد دعاني إلى الجلوس على فراش وثير وأسعفني بقدح دافئ من الشاي فانتعشت جداً بعد أن تعبت من ماء دجلة ومن الرياح الموسمية التي كانت تثير الغبار بغزارة خلال الأيام السابقة. لقد قال لي ذلك الترجمان بأنه قد أنبئ بأن يكون على استعداد لاستقبال الإنكليز كما أفادني بأن دقيقتين تكفيان لتوضيح موقف بغداد من الجيش المحتل. كانت يد الحكومة التركية شديدة الوطاة على سكان المدينة وكان الصراع في العراق يتركز حول بقاء العنصر الحاكم المعادي وكان على السكان من مسيحين ويهود وعرب أن يدفعوا ثمن ذلك الصراع كما كان عدد كل من هذه الطوائف يتجاوز عدد الأتراك بكثير.

كانت هتافات الفرح على ضفة النهر أصيلة تماماً فلقد كان وصولنا بمثابة خلاص للسكان ففي الأيام العشرة الأخيرة تحول الإرهاب الذي استشرى خلال السنتين الماضيتين إلى لصوصية وسلب.

ففي خلال ثلاث أسابيع خلت ومنذ أن عبرنا نهر دجلة في موضع شمران الذي قرر مصير المدينة كانت الحكومة تقوم بمصادرة السلع الخاصة وترسلها بالقطار إلى سامراء ولذلك أخلت الأسواق من البضاعة تقريباً عندما غادر آخر قطار تركي مدينة بغداد في باكرة صباح اليوم الحادي عشر من آذار ومن ثم دخل الأكراد والعرب إلى الأسواق كانت ما تزال هنالك بعض المخازن مخفية ويقول التجار اليهود أنهم خسروا البضاعة ما قيمتها ميلون فرنك ما بين الساعة الثانية بعد منتف الليل ودخولنا للمدينة في الساعة التاسعة صباحاً لقد كان ثمن تأخر الساعة الواحدة يبلغ الوفا كثيرة من الليرات.

عندما دخلنا للمدينة كان العرب والأكراد ما يزالون يحملون الأثقال والكراسي والتخوت الثقيلة والأدوات الخشبية والمعدنية وكذلك مقعد الحدائق العامة وسياجاتها وذلك أنهم تم نقل كل شيء كان يمكن حمله بيسر .

سارعت القوات البريطانية والهندية إلى التجول في الأسواق وإطلاق النار فوق رؤوس السراق وضرب من يمتنع منهم عن السرقة بعرض السيف وفي بعض الأماكن التي جرت المقاومة فيها نهبت الحوانيت وأحرقت المواد الخشبية.

شاهدت تحت البوابة الشمالية رجلاً لفه الغبار بين يديه خزانة حديدية ضخمة جداً بحيث عجز العنف عن تحطيمها فبقيت ملقاة وهي سليمة، على قارعةالطريق. وسرعان ما بان طلوع النهار، وإن المتأخرين من اللصوص قد أصيبوا بخيبة أمل في نهب بغداد.

تجمعت طائفة من ضباطنا حالاً من القنصلية الأميركية ومن ثم جاء القنصل يبحث عنها وكان التجار يطالبون الحماية وقد أمضوا الليل كله ينتظرون أن يصل البريطانيون ليوقفوا أعمال النهب ويسيطروا على الاسواق.

وسرعان ما كنا نسير ونحن على ظهور الخيل في شارع خليل باشا على منظرالذي سبق إن وصفته كانت السطوح والشرفات تعج بنساء يرتدين الملابس الزاهية وكان الأطفال يرقصون أمامنا ويطلقون هتافات صارخة بالعربية ويصفقون بأيديهم لم يحدث مثل هذا الابتهاج عندما مر الاسرى البريطانيون والهنود في هذا الشارع بعد سقوط الكوت. كان شارع خليل باشا (شارع الرشيد – فيما بعد) الذي سرنا فيه راكبين هو الممر الوحيد العريض في المدينة وقد سمي باسم هند برغ محلي تخليداً لسقوط الكوت.

والشارع ليس جميلاً ولا مثيراً وكان توسيمه مثل بقية الإصلاحات التركية الأخرى متقطعاً وعرضة للأهواء والشذوذ ذلك إن أعمال الهدم والبناء ما زالت جارية فيه كما أن الجدران المنقرضة وأعمدة الآجر المتداعية ما تزال متراكمة في الشارع.

لقد قيل لنا أن أصحاب الأملاك التي هدمت لم يحصلوا على أي تعويض عنها وكان لابد من تحمل ضياع الثروات لغرض تمجيد المشاعر الوطنية هكذا فبضربة حديدية كان ذلك الشارع الذي أنشئ ليخلد هزيمتنا في الكوت قد أكمل بناؤه تماماً في الوقت المحدد له ومن ثم ليهيئ ممراً لنا خلال مدينة بغداد.

قبل تسع عشر سنة مضت حين مررت ببغداد لم أر فيها طريقاً للعربات على ضفة النهر اليسرى كان هناك مجرد مجال لمرور بعير في بعض الشوارع وكانت الحمير البيض في المدينة تؤلف وسيلة للنقل لا يأنف أغنى الأفراد من استعمالها! والذي أتذكره آنذاك إنني ركبت عربة أشبه بالسفينة تجرها أربعة بغال عبر الصحراء إلى بابل والحلة وبرسنمرود غير أن تلك العربة كانت تقف عند الجانب الآخر من جسر الزوارق .

على كلا جانبي شارع خليل باشا الذي شق عبر المدينة بموازاة النهر لم تكن البيوت الإسلامية والمسيحية واليهودية هناك قد تغيرت فالروحية الجامدة لا بد أنها لم تستطع أن تجدى الخيال أو الانطلاق هنا فالشوارع الضيقة لا تسمح إلا بمرور حصان واحد والنوافذ الواسعة المنحنية والتي تغطي غالباً كل واجهة الجدار ترى من الأعلى في أغلب الأحيان.

كانت هناك نساء كثيرات كن يتلصصن من تلك النوافذ بعضهن محجبات والبعض الآخر سافرات طبقاً للمساكن إن كانت مأهولة بالمسلمين أو المسيحين أو اليهود كانت الأدوات الخشبية متآكلة وتحمل الأبواب مطارق برونزية أثرية غريبة دقت بمسامير ومن الأزقة

التي يستطيع المرء أن يمسك جدارين متقابلين بكلتا يديه تنفتح باب على فناء واسع زرع وسطه بأشجار البرتقال والرمان.

وكما هو الأمر في كل المدن الشرقية القديمة تكون الأزقة المقلصة مفارقة لسعة المنازل القائمة على أي من الجانبين فالسطوح التي توفر للمغامر أو العاشق أو اللص منفذاً يمتد عدة أميال والشبابيك التي يستطيع العاشقون روميو وجوليت أن يتحدثوا منها همساً تعطي المرء انطباعاً بأن هذه المدينة وكأنها قد صممت من الناحية المعمارية لتكون فاتنة النساء...

كان العرب يجلسون في المقاهي على التخوت وهم يتهامسون بوقار أو تجدهم غارقين في التأمل أو في مزاولة لعبة الدمينة والزار والطاولي وليس هناك سوى القليل جداً من القوة تستطيع أن تشربها وكذلك القليل جداً من التبغ الذي تصيبه إنه حشد كثيب لا يثير العواطف! وحين مر على وجودنا في المدينة زهاء الساعة كف القوم عن المبالاة باحتلال الجيش لها.

كانت الأسواق التي كنت أتذكرها تنبض بحياة المكان قد غدت الآن منظراً للكآبة فقد كانت كل الحوانيت فارغة مبعثرة وقد تهدم البعض منها ولا بد من مضي وقت طويل قبلان تمتلئ بالبضائع كان اهتمام المرء الآن يتمثل بالاتصال بالعناصر الغريبة والتحقق من الأفكار التي يكونها الواحد عن الآخر أو رفضها والسرعة التي يمكن أن تصبح بها الأشياء البعيدة أمراً معروفاً فلقد تعلم الخيال الهندي وسائقه واسطة النقل البريطاني حالاً الهتاف العربي المعتاد (بالك بال) في هذه الأزقة المسقفة والمعقودة التي كانت تغص بوسائل نقلنا وقواتنا ومدافعنا كان المرء يجد معوقات عجيبة فقد تحطمت عجلة مدفع من عيار ستين عقدة حين ارتطمت بسقف خلية فكشفت بذلك عن رأس يهودي مذعور وقد دس بغل بطرف أنفه في صحن حلويات كانت تحمله دون اكتراث فتاة عربية!

كان أحد أفراد السيخ من قسم العلاقات يتحدث بالفرنسية التي يتحدث بها أهل فستوبرت بطلاقة وبإشارات دقيقة مع قس فرنسي كرمني من أهالي ليون تم إطلاق صراحه مؤخراً من الاعتقال في الموصل.

وكان هناك شحاذ فارسي بدين يقعى على عتبات الأبواب ويردد كلمة الاستجداء التي يعرفها الجنود الهنود في الوقت الذي كان فيه أحد الجند الحانقين ينظر إلى كرش ذلك الشحاذ والذي يكشف عن كذب ما كان يدعيه!

ولقد تسلم قس كلداني قطعة نيكلية من عبد حبشي أسود اللون ويعجب المرء ما إذا كانت قطعة النقود تلك ثمناً للنبوءة التي كنا نحققها.

وكان من العسير على جندي من فرنسا أن يبين هويته لضابط بريطاني شاب كان ذلك الرجل جزائرياً أسيراً لدى الأتراك وقد تم أسره أول الأول في ميدان معركة فردون في أوائل سنة ١٩١٥ وتم نقله إلى برلين ومن هناك أعيد إلى الشرق على أمل أن يرى الخليفة في اسطنبول كما أنبأنا بذلك لينفخ بالبوق في سبيل الإسلام غير أنه لم ير الخليفة ولم ينفخ في البوق. وأخيراً استطاع أن يهرب من السجن عن طريق إحداث ثقب فيه فراح الآن يوضح للضابط البريطاني بالإشارات أنه جندي هندي وأنه أخ في السلاح، وليس من الأتراك أو الألمان القذرين! لقد حلت ساعة خلاصه، وأن حاجته الملحة الآن هي الحصول على سيكارة ولذلك راح يقول متضرعاً لا توجد سكاير في يوم من الأيام إن هذه الوحوش القذرة لم تترك واحدة منها!

ما إن سارت جنود الكتيبة الملكية في المدينة حتى تناسوا النصب الذي عانوه من المطاردة الطويلة لقد كان غبار بغداد ملطفاً للأقدام المرضوضة غير أنه لم يكن هو الغبار الذهبي الذي تخيلوه والذي يطاولنا الآن وأنه ليس في مباني وطرقات مدينة ألف ليلة وليلة التي كانت الأغاني تكمن فيها إنها ليست مدينة هارون الرشيد كما كان أحد الجنود يسميها أو حتى مدينة نبوخذ نصر التي كان جنودنا يريدون رؤيتها، إنها الموقع القوي لـ(ديك تركيا القديم) عاصمة العدو وهذا هدفنا المنظور والثمن المادي لقتال لم يجر له مثيل قط.

لقد ظل رجالنا ينزفون عرقاً ويقاتلون عدة شهور ومن دون نهاية في هجوم متواصل دون أن يصيبوا سوى الشيء الضئيل لإيجاد كيان بدني وعقلي جديدين!

فبين حفر الخنادق لا يحصل المرء على تذكرة إيواء! بل غالباً لا توجد حتى شجرة ولا مسكن يحطم ذلك الأفق الرتيب.

وها هم الآن أصبحوا في بغداد وهي هدف رغباتهم يخامرهم إحساس معين بإنجاز متى أرادوا إنجازه ومع ذلك فإنهم لا يتوقعون بصفة غير منطقية سوى راحة قصيرة ذلك لأن المفروض أن لا تكون هنالك راحة ما، وإن جميع الجن الموجودين في بغداد لا يستطيعون أن يرفعوا قدحاً واحداً من الجعة!.

فالأتراك لم يهزموا بعد وإنهم يتلقون التعزيزات وهناك زهاء مائة ميل من الطريق إلى أمام وحوالي الشهرين ونصف الشهر من مسيرة وقتال عنيفين قبل أن نتمكن من الاستيلاء على سكة الحديد في سامراء ونحطم قوات العدو التي تهدد بغداد.

كانت قوات الكتيبة الملكية والأفواج الثلاثة من اللواء الخامس والثلاثين التي عبرت النهر بالقفف لحماية المدينة هي أفواج المشاة الوحيدة التي استطاعت أن ترى القسم الداخلي من بغداد على الضفة اليسرى من النهر في اليوم الحادي عشر من آذار.

أما اللواء الأربعون الذي قام بحركة التفاف واسعة حول موضع تل محمد فقد اتخذ طريقه فيما وراء ثكنات الخيالة إلى الشمال وعسكر في بساتين النخيل خارج المدينة.

توقفت الفرقة الرابعة عشر في الهنيدي في حين تلقت الأفواج الباقية على الضفة اليسرى من النهر وهي من اللواء التاسع والثلاثين والثامن والثلاثين عدا أفراد الكتيبة الملكية أوامر بالتحرك حول المدينة وليس في داخلها. ولقد أخبرني عقيد إحدى هذه الكتائب بأن الأمر الذي تلقاه باحتلال الأراضي خارج بغداد قد استنفذ كل قوى رجاله، فبعد مكوث دام سنة بل أكثر في الخنادق لم تكن القوات في وضع يستطيع معه قطع مسيرات طويلة. لقد كانت كل السرايا تسير متعثرة مترهلة وكان الدافع المادي الذي أرغمهم على مواصلة السير ينبعث من مصدر أخلاقي.

ففي طريق طويل متعرج مضني بامتداد السدة كانت البيوت النائية ومآذن بغداد تبدوا مثل أية بيوت ومآذن في أية مدينة شرقية اعتيادية فسحائب المجد التي استغلت قواهم ما لبثت أن ذابت في ضوء النهار المعتاد!

لم يستطع الرجال الكثيرون الذين مروا ببغداد دون أن يشاهدوها أن يروا ما في المدينة قط ولهذا السبب كنا نحن اللذين مكثنا واسترحنا فيها بعض الوقت ونحن نستمتع بثمار منجزاتنا أشد حزناً عندما اطلعنا على قائمة الإنعامات، فضابط المدرسة القديمة يجد وجهة النظر هذه معيبة وغير منطقية ومؤثرة بشكل غير لائق ذلك لأن ازدراؤه بهذه الأمور هو الذي يكسبه التكريم وهذا إحساس غير طبيعي وغير صحيح.

كانت الفرقة السابعة أول من وصل إلى الضفة اليمنى من النهر وقد بدأت الدورية الخاصة بالاستطلاع تنهب محطة سكة الحديد في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح ذلك اليوم.

كان آخر قطار قد غادر بغداد في الساعة الثانية بعد منتصف الليلة السابقة. وقد عثر بعض رجالنا على بيان مغادرة القطار وجرى اندفاع إلى غرفة الحجز المقفرة وبحث لا طائل من ورائه عن بطاقات السفر إلى اسطنبول وبرلين.

وقد أبدى ضباط دورية الاستطلاع أسفهم لأنهم لم يحملوا جرس المحطة (وإن كانوا قد أحسنوا استعمال جرس محطة سامراء فيما بعد) وهو عبارة عن قطعة تذكارية من نهيبة تعد الآن تذكاراً وذكرى.

ولكن من بين كل الأشياء التي شاهدناها داخل المدينة وحواليها، برز لنا اسم بغداد منقوشاً بحروف كبيرة على جدران بناية المحطة الأمر الذي أبهجنا أكثر من غيره فقد كانت تلك الكلمة أشبه بالعبارة التي يتمزق بياناً متباهياً للعدو يكذب به الهزيمة التي أصابته ولقد ابتسمنا حينما رأينا ذلك وإن كنا لم نعرف سببه تماماً. لقد كان ذلك يعود في

جزء منه إلى اعتراف مهمل من جانب الألمان عن عبث المشاريع التي وضعوا أسسها هناك ولكن كان في هذا شيء أكثر من ذلك كأن فيه شيء خبيث وعنيد لم نستطع تفسيره. كان ذلك النقش يهتف بنا بأننا قد وصلنا وهو يربط بصفة مضحكة وغير متوقعة بين الماضي والحاضر بين الخيال والواقع الاعتيادي للحياة، ويكشف النقاب عن التناسب ويجعل الأمر الذي كان مستحيلاً أول من أمس أمراً مألوفاً هذا اليوم

لقد كان أمراً غريباً أن نقطع عن البحر عبر الصحراء فوق الأوحال والرمال مسافة خمسمائة ميل إنه شيء أشبه بلمحة سراب. لو وهب الألمان تصوراً حساساً لحطموا العلامة التي تحمل اسم بغداد على سكة الحديد، لقد حطموا كل شيء إلاها، وصبوا منتهى نقمتهم على جرو أوثقوه بالأسلاك من رأسه وقد عثرنا عليه اليوم مقتولاً في بيت مجاور في الوقت الذي كتبوا فيه سخرياتهم على جدران غرفة القوة.

حدثت المطاردة في أعقاب الانسحاب لكن كان للألمان من الوقت ما استطاعوا فيه أن يكتبوا عبارات بالدهان الأحمر على الجدار. كانت إحدى العبارات تقول إنه لطريق طويل إلى بغداد وأخرى تقرأ مائة عسكري إنكليزي وثالثة تقول عسكري واحد!.

وكانت هناك صورة هزلية تمثل رجلاً إنكليزياً ذا أسنان كبيرة وغليون وأخرى عنوانها لندن وهي تمثل المنطاد زبلن بمثل صخام كنيسة سنت بول وهو يلقي القنابل وكل واحدة منها بحجم كنيسة سان مرتان!

إن مدينة بابل الحديثة هذه التي أقامها الألمان على الضفة اليمنى من النهر قد تم تدميرها تدميراً كاملاً فغدت أشبه بالمدن التي محيت آثارها والتي قرأ المرء أخبارها في الكتب المقدسة.

كانت محطة اللاسلكي قد كمل بناؤها فعلاً وبنفقات هائلة وكانت تمثل واحدة من أعظم المنشآت القومية التي شادها الألمان وكانت على اتصال مباشر مع برلين. وظلت محطة اللاسلكي هذه تتلقى البرقيات مدة ستة أشهر غير محطة البث لم تبدأ عملها إلا حين عبرنا نهر دجلة في موقع شمران.

وفي حياتها التي امتدت في الغالب يومين أو ثلاثة كانت المحطة تنذر بكارثة ولذلك تم نسفها في بواكير صباح يوم الحادي عشر من آذار فلقد وجدنا سقف المحطة مقلوعاً وملقى عبر الجدار الخارجي كذلك تم نسف أحد السخانين الكبيرين أما الآخر فقد ملئ إلى النصف بمادة متفجرة لكن العبوة لم تشتعل.

من المؤكد أن تكون الأموال التي انفقت على جهاز اللاسلكي ومحطة سكة الحديد ودكاك السكة والمشاغل وأبراج الماء والرافعات ومعمل الهندسة قد بلغت الملايين من النقود.

ومثلما هو الأمر في محطة اللاسلكي فقد امتد العطب إلى سكة الحديد قبل إكمالها وكانت أعمال البناء في غرفة القوة قد كملت حتى النصف، وكانت الأرقام المكتوبة بدهان حديث على القضبان الجديدة تشير إلى ان العمل في مد السكة كان مستمراً إلى ما قبل شهر واحد ليس إلا.

كانت نجدة لنا أن نغادر هذا المشهد من مشاهد التدمير العلمي وأن تعبر النهر ثانية في قفف مدورة، وقد كانت أمراً مألوفاً بالنسبة إلى هيرودت وتراجان ونبوخذ نصر ذلك لأن الضفة اليمنى من النهر لا تمثل بغداد الأصلية لأن البيوت القائمة على هذا الجانب من النهر مجرد ضاحية وإن سكة الحديد ومحطة القوة والمشاغل كانت تقوم فيما وراء تلك البيوت في الصحراء فهي لا تعزى إلى مدينة الخلفاء إلا بصفة ضئيلة.

في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم الحادي عشر كانت ثلاثة أفواج من اللواء الخامس والثلاثين تعبر نهر دجلة بالقفف عن الضفة اليمنى إلى الضفة اليسرى ذلك أن جسر الزوارق قد حطم ودمر.

وفي الساعة العاشرة صباحاً وبصفة مباشرة رفع رجال الطليعة العلم البريطاني فوق القلعة وكان هؤلاء الرجال مع الفوج الهندي السابع والثلاثين وفوج حملة القنابل اليدوية ١٠٢ يقومون بحراسة المدينة على الضفة اليسرى في حين كانت الكتيبة الرابعة من الكوركا على الضفة اليمنى .

احتل اللواء من الخيالة مدينة الكاظمية أما بقية القوات فقد عسكرت خارج بغداد لكنها سرعان ما أخذت تشد الخناق في أعقاب الأتراك المتراجعين.

اندفاع رتل الجنرال كوب على الضفة اليمنى للنهر بينما سار رتل الجنرال مارشال على الضفة اليسرى لمطاردة الأتراك المنسحبين في الوقت الذي كان فيه رتل ثالث يتقدم نحو نهر الفرات ورتل رابع يحاول الاتصال مع الروس باتجاه خانقين على أمل أن يعزل الجحفل التركي الثالث عشر الذي ارتد عن همدان.

لم يبق من رجالنا سوى القليلين الذين تهيأت لهم الفرصة لمشاهدة أوضاع بغداد كانت نصف أمتعتي قد ذهبت في الطراد بينما ذهب النصف الآخر منها مع اللواء الأربعين ولكن كانت بغداد بكل جلاء في تلك اللحظة هي المكان الذي مكثت فيه ولما كنت أنا الوحيد الذي يحتفظ بملابس فقد حضرت حفل افتتاح فندق دجلة وهو الفندق الأوروبي الوحيد في المدينة وله أثاثه الفاخر، ولقد تناولت العشاء بمفردي في هذا الفندق في مساء اليوم الحادي عشر من آذار وكان صاحبه هو عربي مسيحي قد سألني عن اسم القائد الذي يقود القوات البريطانية. وفي صبيحة اليوم التالي أبدل اسم فندق دجلة باسم فندق مود وأصبح في الحال مركز الاجتذاب للضباط من المعسكرات المجاورة.

أين يرى المرء الخيول في الشوارع يخيل إليه أن كتيبة من الخيالة تترك هناك، وكانت الوحدات تغير باستمرار تبحث وكان المرء يلتقي على كل مائدة برجال لم يكن قد رآهم قبل عدة شهور لم تكن هناك من المخدرات فكانت الأشربة سرعان ما تنفذ وكانت وجبات الطعام بنوعية جداً بسيطة لكن نحن الذين يحيل بيننا وبين المدينة زمناً طويلاً كان من المألوف لنا جداً أن ندخل إلى الفندق ونأكل الطعام ونشرب قهوة أحد الأفراد وندخن السكائر بأمان، وقد كان الخبز مصنوع على شكل أقراص من الدقيق الخشن ومن القمح والذي يقدم عند تناول الشاي في العصر وعليه قشطة من حليب الجاموس يمثل تغيير مبهجاً.

وكان أمراً جميلاً أن أتنشق الأزهار الإنكليزية مرة أخرى، ولقد حدثوني عن ممرضة من الصليب الأحمر بأنها بعد أن هبطت إلى بغداد بعد سنتين من جو حار في العراق قد انفجرت باكية عندما شاهدت الورود والجوارب والأزهار المتسلقة والخشخاش في هذه الحديقة القائمة عند نهر دجلة.

لا يوجد طريق يمتد على ضفة النهر ذلك أن المنازل ودور القنصليات قد أقيمت على مسنايات صلبة جداً حفرت أسسها في الماء وكانت معظمها أشبه بالحصون.

وكان للكثير من هذه المنازل حدائق صغيرة وسلالم تهبط إلى النهر والتي تفصل هذه المنازل عن بعضها البعض توجد ممرات تمر في بعض الحالات عبر دروب مشيدة تحت البيوت حيث تنقل نساء المدينة الماء من النهر في أوعية نحاسية ذات أعناق (المصخنة) وحيث يقف اصحاب الزوارق لتأجير زوارقهم ويمر السقاة قربهم وينقلونها على حمر بيض.

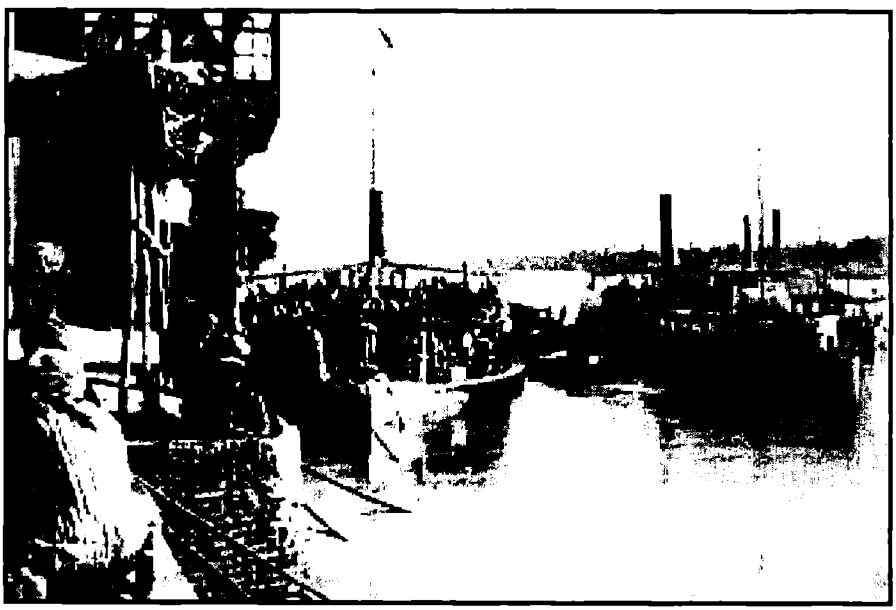
في النهاية الشمالية من المدينة يحتل السراي المدني والعسكري زهاء ربع ميل من جهة النهر وتضم هذه البناية ثكنات المشاة ومحكمة العدل والمجلس الإداري وكل الدوائر الإدارية للدولة، وفي هذه البناية متسع لكل القوات التي يحتاج إليها لحراسة المدينة، ذلك لأن البنايات ذات الجوانب الأربع واسعة ومتينة.

وفي السراديب التي تجري تهويتها بفتحات من السطح (البادكير) وتكون درجة الحرارة أقل بثماني أو عشر درجات مما هي عليه في الطابق الأرضي ولقد عثرت على سرية من الفرقة الهندسية السابعة والثلاثين في بناية السراي ولقد صافحني الجمدار وقال لي بابتسامة: لقد وصلنا إلى هنا يا صاحب إنه مكان جيد جداً.

❖ ❖ ❖



الجيش الانكليزي في بغداد: دوريات القوات البريطانية - إثر احتلالها بغداد في ١١ آذار ١٩١٧.
تجوب شوارها: نلحظ نظرات جنودها الحازرة، الغضاب المحاذرة.



السفن الإنكليزية في رحلتها من نهر دجلة ببغداد إلى البصرة.



الجنرال مود يدخل بغداد من (باب المعظم) فاتحاً (أواسط آذار ١٩١٧).



أسرى إنجليز كانوا في العمارة وقد وصلوا بطريق الباخرة إلى بغداد.



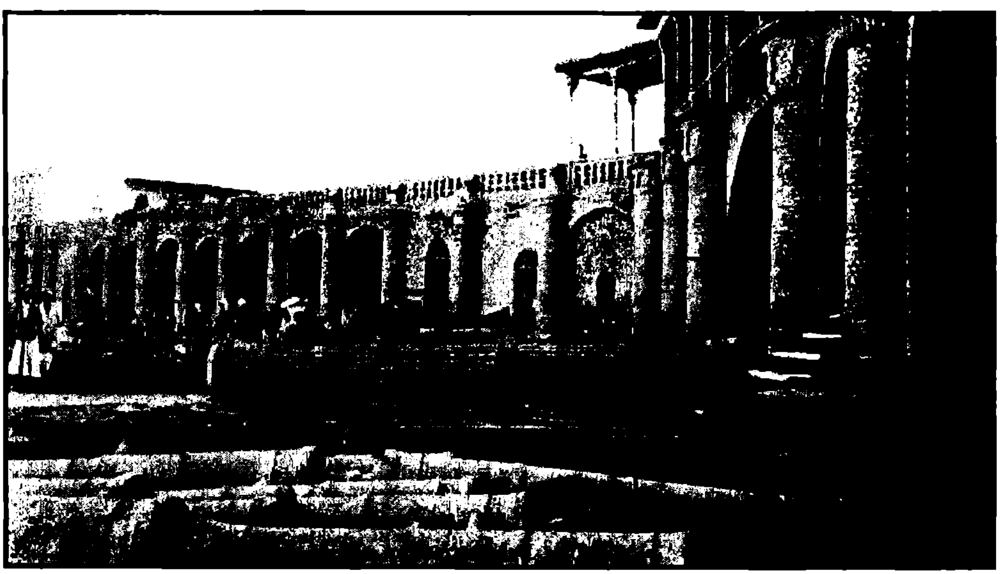
منظر للمعسكر الإنجليزي ببغداد.



عمارة شركة (لنج على شاطئ دجلة).



على إحدى شرائع دجلة بغداد.



مدافع غنمها الإنجليز بعد استيلائهم على بغداد.



عبد العزيز بن سعود وخزعل في بغداد

ومعهما السير برسي كوكس وكل منهما يمني نفسه بحكم العراق يومذاك..

ساعد الله العراق..



المس بيل مع شخصيات بريطانية وبغدادية في منزلها ببغداد.

كتبت من السياسة والتجارة، من الوطن والقاطرات،
ولكني لم أنس الكلمة التي هي المفتاح للعراق:
إنها حكاية المجد

أينما بحثت عنه وجدته..
النهران العظيمان التوأمان اللذان لالا الحديقة السمية،
سهول بابل القديمة القاحلة الآن، والتي كانت
يوما ما حديقة العالم.

قصة هؤلاء تمتد بعيدا إلى أعماق الزمن المظلمة.
تصرخ بالمجد التليد.

كما لا يقل عنها أصواتا في المخيلة،
ولا إشراقا لألوانها
الفصول اللاحقة من تاريخ العراق.

اسم الإسكندر يدوي وراءهم،
والجوهرة المتألقة للملوك الساسانيين،
وأخيرا..
أوه، لبس بالأمل للآذان الإنكليزية،
القسوة والقوة والشجاعة.

جيرترود بيل
من مقالة غير مؤرخة

كلمة المس بيل.

من
موسم
إلى
موسم

بغداد

من موسم إلى موسم

بغداد

أصحيح يا بغداد أن السعيد فيك من كان نكرة منسياً؟

ما الذي غيّرك، وسلب نعمتك.. يا سليلة حمورابي أول المشترعين، وآشور بانيبال أول المحبين للعلم والعلماء، ألم يكن الخير كله فيك يا بغداد، ألم يقال لمن أقام فيك ومات: (نقل من جنة إلى جنة) و (أنك لصيادة الرجال ومن لم يرك لم يرَ الدنيا) و (من أقام سنة فيك وجد في عمله زيادة).

فما حدث لكِ يا زهرة المدائن؟

من ذا أصابكِ يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين؟؟

صبراً يا بغداد، فالفرج قريب، وقد طال انتظارنا لنهضتك وعودة أمجادك الباذخة، وها نحن على الدرب نترقب انبعاثك شوقاً لك وحباً يا دار السلام.

أبغداد أبشري وثقي بأني ... بحبك سالك سبل التفاني

ولو أعطيت ملك الأرض طُراً ... بغير هواك عيش ما هناني

همسة قبل الوداع

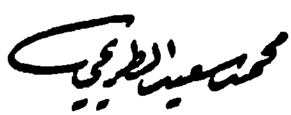
قيل أن للعراق نومة وقومة، فإذا نام تجاوز الحد المستساغ في نومه، وإذا كانت ريب الأيام أنأت بيننا وبينه وساحقت مسافاتنا عنه فإنّ (القومة) لآتية لا ريب فيها:

يُسام العراق الذلّ وهي عزيزة ... ويخرس أهلوه وهنّ فصاح

أسكان أجواز العراقين هل لكم ... نزوع إلى نيل العُلا وطماح

فلا تضعفوا إن السعادة قوة ... ولا تجبنوا إن الحياة كفاح

غَفَوا وعيوني للعراق طوامح ... وشابوا وودّي للعراق سراح



هولنده

آثار وتحقيقات محمد سعيد الطريحي (المطبوعة)

١. حنين بن اسحق - مطبعة دار النعمان ١٩٧٣، النجف الأشرف.

٢. الديارات النصرانية في الكوفة وضواحيها، الطبعة الأولى - روما - ايطاليا ١٩٧٨ الطبعة الثانية. بيروت مطبعة المتني ١٩٨١. الطبعة الثالثة - اكاديمية الكوفة في هولندا ٢٠١٠.

٣. فضل الكوفة ومساجدها لابن المشهدي (القرن ٥ هـ) بيروت - دار المرتضى ١٩٨٠.

٤. فضل الكوفة وفضل أهلها - لمحمد بن علي الحسني الشجري (ت ٤٤٥هـ) بيروت - مؤسسة اهل البيت ١٩٨١.

٥. رد الشمس للإمام علي - بيروت ١٩٨١.

٦. النبي حزقيال (ذو الكفل) سيرته ومشهده في بابل، دمشق ١٩٨١، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٩.

٧. أعلام النساء في الكوفة الغرّاء، دمشق ١٩٨١، الطبعة الثانية - هولندا - ٢٠١٠.

٨. سورة يس - دراسة قرآنية - باللغة الكجراتية، أحمد آباد (الهند) ١٩٨٢.

٩. روزه اسلام مه باللغة الأوردية - كراتشي (الباكستان) ١٩٨٢.

١٠. ال صندوق وتراجم اعلامهم، دمشق ١٩٨١.

١١. تاريخ مساجد الكوفة، حيدر آباد الدكن (الهند) مطبعة مجلس أنوار المعارف ١٩٨٢.

١٢. الدرة اليتيمة في فضائل السيدة العظيمة لعبد الله المير غني الحنفي المكي (ت ١١٩٣ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٣. المواهب والمنن في مناقب الإمام الحسن - لمحمد الجفري (ت ١١٨٦ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٤. قرة كل عين في مناقب الإمام الحسين - لمحمد الجفري (ت ١١٨٦ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٥. المواهب الغزار في مناقب حيدرة الكرار - لمحمد الجفري، بيروت ١٩٨٥.

١٦. الفتح والبشرى في مناقب الزهراء - للجفري - بيروت ١٩٨٥.

١٧. طيف الإنشاء أو رسالة الطيف لأبي الحسن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٣ هـ) بيروت ١٩٨٥

١٨. جنة الأسماء الممتازة في الأرض والسماء - للإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٩. فضائل فاطمة الزهراء عليها السلام - للحافظ ابن شاهين (ت ٣٨٥ هـ) بيروت ١٩٨٥ وترجمه للفارسية: إحسان قدس، دارنشر نيلو برك سنة ١٣٨٣ هـ. ش.

٢٠. غرر الحكم ودرر الكلم للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام جمع القاضي ناصح الدين عبد الواحد التميمي الآمدي (ت ٥٥٠ هـ) قدم له فخامة الرئيس اليمني القاضي عبد الرحمن الأرياني. بيروت - دار القارئ ١٩٨٦.

٢١. الإيضاح في أسرار النكاح للشيزري (ت ٧٧٤ هـ) بيروت ١٩٨٦.

٢٢. الفخرية في فقه الحنفية - للشيخ فخر الدين الطريحي (٩٧٩ - ١٠٨٥ هـ) بيروت - دار البلاغ ١٩٨٦.

٢٣. الضياء اللامع في شرح المختصر النافع - للشيخ فخر الدين الطريحي - ١٩٨٦.

٢٤. الأربعون حديثاً - للشيخ فخر الدين الطريحي - بيروت - دار البلاغ ١٩٨٦.

٢٥. جامعة الفوائد في إثبات حجية الظن - للشيخ فخر الدين الطريحي - دمشق ١٩٨٦.
٢٦. حسن المقصد في إثبات عمل المولد - للسيوطي - بيروت ١٩٨٦.
٢٧. الثغور الباسمة في فضائل فاطمة عليها السلام - للسيوطي - بيروت ١٩٨٧.
٢٨. إحياء الميت بفضائل أهل البيت - للسيوطي - بيروت ١٩٨٧وأعيد طبعه مع ترجمه إلى اللغة الأوردية إيران، طهران، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام. كما ترجمه للفارسية: إحسان قدس، ونشرته دار نيلو برك سنة ١٣٨٣ هـ. ش.
٢٩. دليل معجم رجال الحديث للإمام الخوئي - بومباي ١٩٨٣ - بيروت ١٩٨٦ - إيران ١٩٨٦.
٣٠. خزائن الكتب القديمة في الكوفة - بغداد ١٩٧٩ (ترجم ونشر بالفارسية في قم - إيران ١٩٩٠/ دار مجلة آئينه بزوهش).
٣١. المخطوطات العربية في مكتبة الوزيري (يزد - إيران) بيروت ١٩٨٩.
٣٢. العتبات المقدسة في الكوفة - بيروت ١٩٨٦، الطبعة الثانية - هولندا ٢٠١٠.
٣٣. تاريخ الأحمدي للأمير أحمد حسين بهادر خان الهندي - بيروت ١٩٨٨.
٣٤. الملحمة العلوية للشيخ جعفر عبد الحميد الهلالي - بيروت - مؤسسة الوفاء ١٩٨٨.
٣٥. مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام - للآمدي (ت ٥٥٠ هـ) بيروت ١٩٩٠ دار العلوم.
٣٦. تحية القاري لصحيح البخاري لمحمد علي عز الدين (ت ١٣٠٠هـ) بيروت ١٩٩٧ دار المرتضى. والطبعة الثانية دار الكتاب الإسلامي، إيران، قم.
٣٧. دولة النجف - دار الموسم هولندا ٢٠٠٤، الطبعة الثانية النجف، دار النبراس ٢٠٠٤.
٣٨. أجراس كربلاء (المجموعة الأولى) بيروت - دار البلاغ ١٩٨٩.
٣٩. صوت الولاء في مدح الرسول وآله الأولياء لأحمد رشيد مندو - دمشق ١٩٩٠.
٤٠. الهيام بين العراق والشام (دمشق في الشعر العراقي) - الدار العالمية - دمشق ٢٠٠٥. الطبعة الثانية - هولندا - ٢٠١١.
٤١. المسيحية في بلاد الشام مع عناية خاصة بحريق دمشق سنة ٧٤٠هـ - ليدن - هولندا ٢٠٠٢. الطبعة الثانية دمشق ٢٠٠٨، دار التكوين.
٤٢. تاريخ الأديان قديماً وحديثاً - جامعة روتردام الإسلامية - هولندا ١٩٩٩.
٤٣. مسلمون لا طوائف (سوسولوجيا الصراع الديني بين السنة والشيعة) - بلجيكا ٢٠٠٥. الطبعة الثانية بيروت دار البلاغ ٢٠٠٧.
٤٤. تحفة الراغب في سيرة جماعة من أعيان أهل البيت الأطائب لشهاب الدين القليوبي (ت ١٠٦٩هـ) بلجيكا ١٩٩٥. الطبعة الثانية بيروت ٢٠٠٨.
٤٥. النخبة العلية في السادة العلوية لمحمود أنسي ابن السيد محمد الحجازي الدمياطي (ت بعد ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م). بيروت ٢٠٠٨.
٤٦. المآثر النفيسة في مناقب السيدة نفيسة - القاهرة ١٩٨٥. بيروت ٢٠٠٨.

٤٧. دلائل التعظيم لآل المصطفى الكريم للسيد محمد ابو الهدى الصيادي الرفاعي (المتوفى سنة ١٣٢٨ - ١٩٠٩م) أمريكا - مشيغان ١٩٩٧.

٤٨. الرسالة لذوي الألباب ليعلموا حقوق العترة والكتاب لأحمد بن زين العابدين الجعفري - اندونيسيا (جاوة الوسطى) ١٩٩٧.

٤٩. هؤلاء الرجال من العراق - لندن ٢٠٠٠.

٥٠. من آفاق الثقافة التركمانية - ألمانيا (١٩٩٩ - ٢٠٠٠م).

٥١. الشيعة في أفريقيا (تنزانيا ٢٠٠٢).

٥٢. تاريخ العلاقات العربية - الهولندية - لاهاي (هولندا) ١٩٩٤.

٥٣. خريدة عقد اللآل في التوسل للنبي بالآل للشيخ أبي الثناء سيدي محمود قابادو الشريف الأندلسي - بروكسل ١٩٩٩. بيروت ٢٠٠٨.

٥٤. الفوز بالمراد في تاريخ بغداد للأب أنستاس ماري الكرملي - هولندا ٢٠٠٢م.

٥٥. أعلام الهند (مجلدان) - هولندا ١٩٩٥. بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٥، القاهرة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٨.

٥٦. ملحمة الرامايانا الهندية - بومباي ١٩٨٥. دمشق - دار نينوى ٢٠٠٨.

٥٧. تحية الهند - دمشق ١٩٨٨ - طبعة ثانية ١٩٨٩ تقديم الشاعر: عمر ابو ريشة.

٥٨. أوراق الذهب (المعادن اللجينية في المحاسن الوهبية الحسينية) تأليف: السيد محمد عباس التستري الجزائري اللكهنوي - بومباي ١٩٨٩، بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٧.

٥٩. الشيعة في العصر المغولي - بومباي ١٩٨٩. هولندا ٢٠٠٥.

٦٠. تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين - للمليباري المعبري (ت بعد ٩٩١هـ بيروت ١٩٨٥ - دار الوفاء.

٦١. عجائب الهند بره وبحره وجزائره - لبزرك بن شهريار الرامهرمُزي (صنفه حدود ٣٣٩ هـ) بيروت ١٩٨٦.

٦٢. مصادر الدراسات الهندية - ليدن - هولندا ١٩٩١. بيروت دار البلاغ ٢٠٠٧.

٦٣. أسد الله غالب شاعر الهند - هولندا ٢٠٠٥

٦٤. ملوك حيدر أباد (تاريخ المملكة القطب شاهية) - هولندا ٢٠٠٥.

٦٥. ديانة السيخ - بيروت ١٩٩٦.

٦٦. الهندوسية تاريخها وتقاليدها - هولندا ١٩٩٥.

٦٧. تيبو سلطان أسد ميسور - هولندا ١٩٩٥.

٦٨. طاغورشاعر الهند الملهم (دراسة - مختارات) هولندا ١٩٩٥.

٦٩. تاريخ مملكة أوده - هولندا ١٩٩٤.

٧٠. الكتابات الإسلامية في الهند (مجلدان) - هولندا ١٩٩٣. هولندا ٢٠٠٩.

٧١. المملكة البهمنية (٧٤٨ - ٩٣٢ هـ) - ليدن - هولندا ١٩٩٨.
٧٢. المملكة النظام شاهية (وأسرار الإسماعيلية المستترة في الهند) - ليدن - هولندا ١٩٩٨.
٧٣. المملكة العادل شاهية - ليدن - هولندا ١٩٩٨.
٧٤. مملكة كجرات الإسلامية - ليدن - هولندا ١٩٩٧.
٧٥. أوصاف الأشراف للشيخ نصير الدين الطوسي - الهند ١٩٨١. هولندا ٢٠٠٤.
٧٦. فضائل أمير المؤمنين لأحمد بن حنبل - بلجيكا ١٩٩٣.
٧٧. اليهودية والمسيحية في المراجع العربية - هولندا ١٩٩٩.
٧٨. الشيخ أحمد الوائلي أمير المنبر الحسيني - بيروت، دار المرتضى ٢٠٠٦، الطبعة الثانية دار مدين، قم ٢٠٠٧.
٧٩. وسيلة المولم المرفوعة إلى سيد ولد آدم محمد المبعوث إلى كافة العرب والعجم للشيخ عبد الله بن علي الأنف الاسماعيلي (المتوفى ٨٨٢ هـ) بلجيكا ١٩٩٦.
٨٠. المخطوطات العربية في مكتبة المدرسة الفيضية - إيران. هولندا.
٨١. المخطوطات العربية في مكتبة السيد الكلبايكاني - إيران. هولندا.
٨٢. المخطوطات العربية في مكتبة مسجد أعظم - إيران. هولندا.
٨٣. المنتخب للطريحي (كلمات وقصائد عاشورية) (مجلدان)، بيروت، دار المرتضى.
٨٤. فضل أمير المؤمنين للحافظ تقي الدين علي بن الحسن الشافعي، بيروت ٢٠٠٨.
٨٥. الأحمدية القاديانية في ميزان الحق. هولندا ٢٠٠٨.
٨٦. أساطير أفريقية (مراجعة)، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٧.
٨٧. السيخ تاريخهم وعقائدهم، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٩.
٨٨. حكم النبي محمد (ص) لتولستوي (مراجعة وتقديم)، دارنينوى، دمشق ٢٠٠٩.
٨٩. منشآت السلاطين، هولندا ٢٠٠٨.
٩٠. فلوس الهند (قصة وقف أودة : الوقف الملكي الشيعي للعتبات المقدسة في النجف وكربلاء). لندن ١٩٩٩.
٩١. كنوز العلويين ومآثر الفاطميين (كرامات آل محمد)، بيروت ٢٠٠٨.
٩٢. موسوعة الديوان (في التراث العراقي)، (٤ أجزاء) لاهاي ٢٠٠٠.
٩٣. النسيج والسجاد الصفوي في مرقد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف، هولندا ٢٠٠٩.
٩٤. إمارة رامبور، هولندا ٢٠٠٩.
٩٥. التنبوات البابلية، دار نينوى ٢٠٠٩.
٩٦. السحر المصري، دار نينوى ٢٠٠٩.
٩٧. ألحان الإيمان وأناشيد أمناء الرحمن، بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٩.
٩٨. تاريخ الاسرة الاريانية في اليمن وسير اعلامها - اكاديمية الكوفة - ٢٠١٢.

٩٩. سبحة المرجان في اثار هندستان ـ للشيخ غلام علي ازاد الحسيني البلكرامي (١١١٦ ـ ١٢٢٠هـ) هولندا ٢٠١٢.

١٠٠. سلامة الروح وراحة الجسد ـ التجارب الصحية والغذائية للمهاتما غاندي ـ هولندا ـ ٢٠١٢.

١٠١. الدكتور محمد حسين علي الصغير ـ عالماً ومفكراً واديباً ـ هولندا ٢٠١٢.

١٠٢. علي امام الامم ـ مجلدان ـ ٢٠١٣.

١٠٣. ذكرى الشيخ محمد كاظم الطريحي ـ هولندا ٢٠٠٤.

١٠٤. هكذا عرفوا جعفر الخليلي ـ هولندا ـ ٢٠٠٧.

١٠٥. اللواتية الحيدرابادية في سلطنة عمان ـ هولندا ٢٠٠٨.

١٠٦. الرحلات الهندية ـ هولندا ـ ٢٠١٣.

١٠٧. الشيعة الأكراد (الكورد فيلية) ـ هولندا ٢٠١٣، ط ٢ دار نينوى ـ دمشق ٢٠١٣.

١٠٨. الحساب الهندي ـ مومباي ٢٠١٠.

١٠٩. الفاطميون والعالم ـ ٢ اجزاء ـ هولندا (١٩٩٩ ـ ٢٠٠٨).

١١٠. مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ـ هولندا ٢٠٠٧.

١١١. مسيحيون وشيعة ـ مقاربات في اللاهوت والميثولوجيا ـ ، تقديم : ميشال جحا ، بيروت ـ هولندا ٢٠١٢.

١١٢. المساجد التاريخية في الكوفة ـ نشر: أمانة مسجد الكوفة ٢٠١٢.

١١٣. الانساب الفاطمية ـ بيروت ـ هولندا ـ ٢٠١٢.

١١٤. عوالم السحر وعلم الحروف والتنبؤات ـ بيروت ـ هولندا ٢٠١٢.

١١٥. غوته شاعر المانيا الاعظم ـ دار نينوى ـ دمشق ـ ٢٠٠٩.

١١٦. معالم الشام وأعلامها (الشيعة في بلاد الشام) ٣ مجلدات، هولندا٢٠١٠.

١١٧. الملكية العراقية ـ هولندا ٢٠١٤.

١١٨. جمهورية الزعيم (عبد الكريم قاسم) هولندا ٢٠١٤.

١١٩. بغداد (الحضارة والعمران) هولندا ٢٠١٤.

١٢٠. شيعة الكويت، مع وثائق نادرة عن تاريخ الكويت، هولندا ٢٠١٤.

١٢١. مواسم الحسين , هولندا ٢٠١٤.

١٢٢. كربلاء مدينة الفداء، هولندا ٢٠١٤.

١٢٣. مصطفى جمال الدين (الكتاب التذكاري) هولندا ٢٠١٤.

١٢٤. السيدة الزهراء (الكتاب التذكاري) هولندا ٢٠١٤.

الموسم